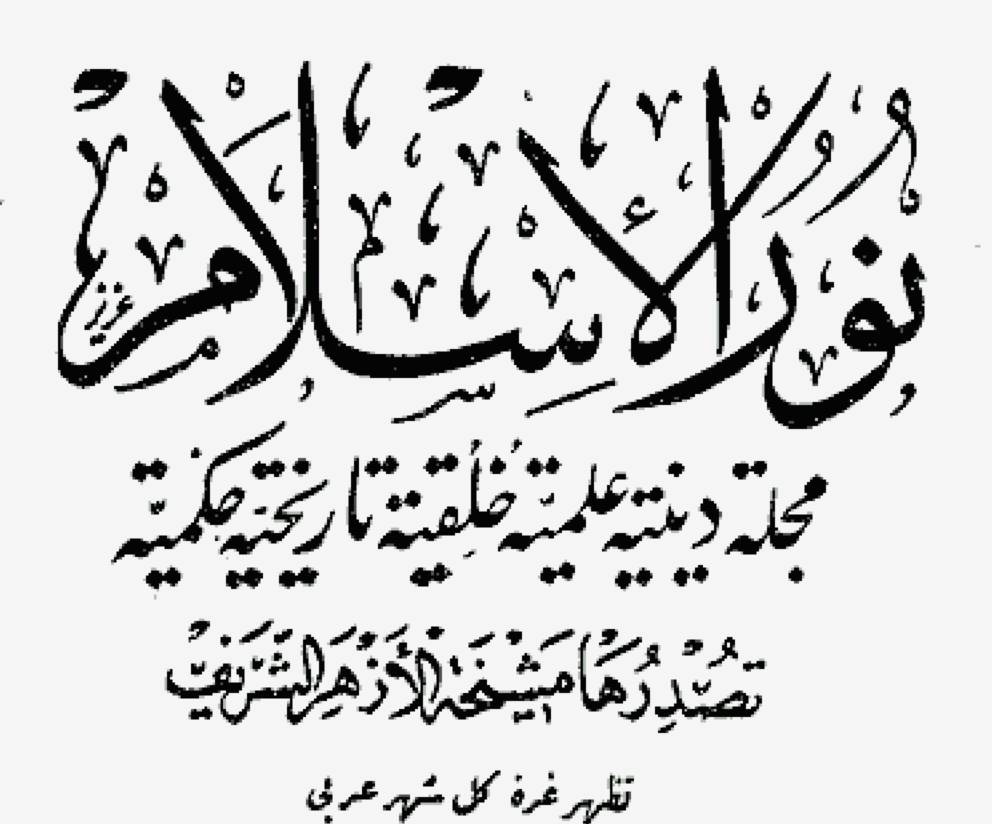


تظهر غرة كل شهر عربي

السنة السادسة	المحرم سنة ١٣٥٤	المجلد السادس

مدير إدارة المجلة ورئيس تحريرها

محمد فريد وجدي

الإدارة

شارع محمد مظلوم باشا رقم ١

تليفون : ٨٤٣٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

الاشتراك

		قرش
داخل القطر المصري		٣٠
خارج القطر المصري		٤٠
للعلماء غير المدرسين وأئمة المساجد والمأذونين ومعلمي المدارس الاولية والطلاب ومصالح الحكومة ومجالس المديريات	داخل القطر	٢٠
للطلاب وأئمة المساجد	خارج القطر	٣٠

ثمن الجزء الواحد ٣ قرش صاغ داخل القطر و ٤ قرش خارجه

مطبعة المعاهد الدينية الاسلامية

١٣٥٤ هـ — ١٩٣٥ م

فاتحة السنة السادسة

بسم الله الرحمن الرحيم

نفتتح سنتنا الجديدة بحمد الله على ما وفقنا اليه من خدمة دينه الحنيف، مستمدين منه العون على متابعة خطواتنا فى هذا السبيل، ومستلهمين حكمته الأزلية فى كشف آياته، وتجلية بيناته، والدفاع عن أصول دينه القويم، والذياد عن حماه، على أكمل الأساليب وأجدرها بجلاله.

ولما كان مما ندب اليه الدين التحدث بفضل الله، فإننا نذكر أن ما قمنا به فى سنتنا الماضية قد لقى ارتياحا عاما من قراء هذه المجلة، فكان هذا الارتياح مشجعا لنا على المضى فى خطتنا، وممدا لنا بقوى معنوية ذللت لنا العقبات فى طريقنا، وحافزا لنا على زيادة البذل من جهودنا، والإنفاق من أوقاتنا. وإنا لنعدهم فى هذه الفرصة بمضاعفة الجهد فى العمل، وموالاة التحرى لاختيار الأصلح من البحوث، والأفضل من الموضوعات، حتى نبلغ بعون الله الى المثل الأعلى الذى يرجونه لنا ونرجوه لهذه المجلة التى هى معقد الأمل فى نشر فضائل الاسلام وحججه الدامغة.

فإن الجامع الأزهر الذى قدر الله له أن يرفع علم الاسلام عاليا منذ نحو ألف سنة، قد قصد من نشر هذه المجلة أن يتيح لمن لم يسعده الحظ بالانخراط فى سلك طلبته، أن يطلع وهو فى عقر داره على أفضل ما تثمره قرائح أعلامه من شروح قيمة لكتاب الله وسنة رسوله، وبحوث ممتعة فى شريعته، وحجج ساطعة فى الدفاع عن أصوله، والمنافحة عن حقائقه. ولقد أصبح الاتصال الروحى بواسطة هذه المجلة بين الأزهر وبين المسلمين فى كثير من البلاد النائية على وجه يبشر بقرب الوصول الى الغاية التى اليها قصدنا.

وإننا لنعلم أن كل ما نبذله من طيبات نفوسنا وعقـولنا ، فهو قليل فى جانب ما نتوخاه من إحسان الدفاع فى أكرم موقف من مواقف الحقيقة الاسلامية .

ولما كان العمل على نشر فضائل الاسـلام بين المسلمين وغيرهم يقتضى أن يطلع من لا يعرف اللغة العربية على شىء من بحوث هذه المجلة ، فقد عنيت إدارة المعاهد بذلك وجعلت طائفة صالحة من مقالات المجلة والأحاديث النبوية تصدر فيها باللغة الانجليزية التى هى أكثر شيوعا بين المسلمين وغيرهم .

ومجلة نور الاسلام ترحب بكل بحث يرد اليها فى الموضوعات المقررة لها من علماء الأقطار النائية ، توثيقا للترابط الأخوى بين المسلمين كافة على اختلاف أجناسهم وبيئاتهم ، وتحقيقا لوحدة الوجهة والغاية بين أبناء الحنيفية السمحة .

ومتى ذكرنا الأزهر ومجلة الأزهر ، وجب علينا أن نذكر من له اليد البيضاء على الأزهر ومجلته ، ذلكم هو حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك « فؤاد الأول » ملك مصر ، حامى حمى الدين ورافع لوائه ، فهو صاحب الفضل فى هذه النهضة العظيمة ، فقد أغدق على هذا المعهد من فيض يديه ما جعله يقوم بالأعباء الملقاة على عاتقه بهذا النحو من السداد والكفاية . سدد الله خطاه وأيده بروح من عنده وحفظه ذخرا للعلم يرعاه بحمايته ، ويحوطه بعنايته ، قرير العين بولى عهده أمير الصعيد حضرة صاحب السمو الملكى « الأمير فاروق » ، بفضل الله وكرمه ؟

محمد فريد وجدى

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكرى الهجرة النبوية

إن فاتحة كل عام من أعوام السنة القمرية تثير فى نفوسنا ذكرى الهجرة المحمدية من مكة الى المدينة المنورة ، وتثير معها ذكريات أخرى لآيات وعبر تزداد على مر الأحقاب عظمة ، وتكسب على نسبة تقدم العلوم وتتابع الحوادث جلالا وروعة .

لما شرف الله محمدا صلى الله عليه وسلم برسالته الى الناس كافة ، أخذ يدعو الى الاسلام سرًّا ، فاتخذ دار الأرقم بن أبى الأرقم مقرا للاجتماع فيه بمن يؤمن به ، فكان يوافيه السابقون الى قبول دعوته ، فيبلغهم ما ينزله الله عليه من الوحى . لبث على تلك الحال مدة ، ثم أمره الله أن يدعو الى دينه عشيرته الأقربين ، وهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب وبنو نوفل وبنو عبد شمس ، فدعاهم اليه وبشرهم وأنذرهم . فرد عليه جمهورهم بكلام لين إلا عمه أبا لهب ، فإنه قال : خذوا على يديه قبل أن يجتمع عليه العرب ، فإن أسلمتموه ذللتم ، وإن منعتموه قتلتم . فقال عمه أبو طالب : والله لنمنعنه ما بقينا ، وانصرف الجمع .

ثم أمر الله رسوله بأن يدعو الناس كافة واعداً إياه بأن يحفظه من كيد الكائدين فأنزل عليه قوله تعالى : « يأيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ، إن الله لا يهدى القوم الكافرين » وقوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين . إنا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون » ، فاضطلع صلى الله عليه وسلم بما حمله ربه من أعباء الرسالة أحسن اضطلاع ، فلم يدع وسيلة إلا قام بها ، فأغضب ذلك قريشا وهى قبيلته التى يعتزى إليها ، فشرعت فى صده عما هو فيه من طريق المحاسنة أولا ، ثم بالإغراء بالمال والجاه ثانيا ، فلما لم يرفع بسؤلاتها رأسا ، ولم يقم لها وزنا ، عمدت الى الاستهزاء به ،

والتشنيع عليه، ثم الى اضطهاده واضطهاد الذين اتبعوه، واستمرت فى ذلك بما أملته عليها جاهليتها.

فلما اشتد على المسلمين الأمر، وضاق عليهم الخناق، أذن الله لهم فى التفرق فى الأرض هربا بدينهم، وأشار عليهم النبي صلى الله عليه وسلم بالهجرة الى الحبشة، فخرجوا ولم يبق مع رسول الله إلا القليل.

فى هذه الأثناء أسلم عمر بن الخطاب، وكان رجلا شديدا مهيبا، فكسب المسلمون بإسلامه قوة.

فخاف المشركون أن يفلت الأمر من أيديهم، فأجمعوا أمرهم على أن يعتمدوا على أقسى الوسائل فى قمع حركتهم، فرأوا أن يطلبوا الى عشيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وهم من ذكرنا آنفا، أن يسلموه لهم، فلما أبوا عليهم ذلك قرروا مقاطعتهم، واجتمع قادتهم وكتبوا عهدا بذلك ووضعوه فى جوف الكعبة، فرأى عشيرته أن ينتقلوا الى شعب أبى طالب، فدخلوه جميعا، وبقوا فيه ثلاث سنين حتى نفدت أقواتهم وأكلوا ورق الشجر، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ما حل بأصحابه وعشيرته أمرهم بأن يهاجروا الى الحبشة ثانية، فهاجر منهم اليها ثلاثة وثمانون رجلا وثمانى عشرة امرأة، فأرسلت قريش وراءهم عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد ليكيدوا لهم كيدا عند النجاشى، فلم يرفع بسعايتهم رأسا.

ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشعب مع عشيرته، وصل الى مكة وفد من نصارى نجران باليمن، فلما رأوا أمارات النبوة عليه وما يتحمله من الشدة فى سبيل الدعوة الى دينه، أدركوا أنه رسول الله حقا فآمنوا به، وكان عددهم عشرين رجلا، ورجعوا الى قومهم.

فلما نمى الى قريش أن رجالا من أهل المدينة اتصلوا سرا بالنبي صلى الله عليه وسلم وآمنوا على يده وأخذوا يدعون قومهم للإيمان به، وأن المسلمين شرعوا يهاجرون

اليهم زرافات ووحدانا ، سرا وعلانية ، أدرك القرشيون أن الساعة قد أزفت لتنفيذ ما أضمروه من قتل رسول الله وتفريق دمه فى قبائلهم ، فأوحى الله اليه بما بيتوه له من الشر ، وأمره أن يهاجر الى المدينة . فصدع النبي صلى الله عليه وسلم بأمر ربه ، وخرج اليها هو وأبو بكر ليلا ، فلما أدركهما الصبح اختفيا بغار موحش فى الطريق ، موقنين أن المشركين سيتعقبونهما ، ولما أمنا الطلب خرجا منه وتابعا طريقهما حتى وصلا الى المدينة ، فاستقبلهما أهلها باحتفاء عظيم ، وكان الاسلام قد استبحر فيها ، فاتخذها صلى الله عليه وسلم مقرا لدعوته ، وجعل أهلها أنصارا له ، وقبلوا ثم أن يدافعوا عنه بأموالهم وأرواحهم من يقصده بسوء ولو تألب عليه العالم كله .

هذه حوادث فذة فى تاريخ الانسانية لا يجوز إغفال النظر فيها ، وبخاصة تحت ضوء العلوم الاجتماعية ، فقد أبانت نواحى إذا جليت تجلت منها آيات بينات تستصغر بجانبها أكبر حوادث التاريخ ، وتصبح من أقوى الأدلة على صحة الرسالة المحمدية . ونحن نبينها فى ثلاثة فصول :

(أولها) ظهور دعوة عامة للأمم كافة ، من بيئة لم تنضج بعد حتى لدعوة خاصة .

(ثانيها) تطوع طائفة لا يزيد عددها على بضعة ألوف للدفاع عنها حيال العالم كله ونجاحها فى ذلك .

(ثالثها) تحقق ما وعد به الكتاب الكريم هذه الطائفة من النصر ومن تبوؤ خلافة الله فى الأرض .

فيحسن بنا أن نتولى النظر فى هذه الآيات الثلاث ، فنقول :

نجاح دعوة عامة فى بيئة لم تنضج لدعوة خاصة :

قرر العلم الاجتماعى أن المجتمعات أول ما تنشأ تكون على حالة قبائل ، متعددة متباينة فى الأخلاق والعادات ، فتبقى على ما هى عليه قرونا حتى يحدث لها بفعل عوامل التطور

ما يدفعها الى التوحد، فتنشأ منها أمة ساذجة، فلا تزال تعركها الحوادث، وتقوّم من أودها، وتقوى من روابطها، قرونا أخرى حتى تصير أمة مستحصدة المرى، قوية البنية، تصلح للكفاح والغلب. وعلى هذا الترتيب التدريجى تظهر فيها المبادئ والأصول الأدبية، فلم يشاهد قط أمة تتكون تكونا فجائيا على أكمل ما تكون قوة وصلابة، ولا أمة كانت مجردة من المبادئ والأصول، تنهض بغتة لتملى على العالم أرفع الأصول وأكمل المبادئ، وتنجح فى ذلك نجاحا لامرية بعده فى سنين معدودة.

العالم كله يعلم أن العرب كانوا على عهد النبى صلى الله عليه وسلم على مثل ما كانوا عليه منذ أجيال كثيرة: قبائل متفرقة، وأوزاع متنافرة، لا يوحد كلمهم دين، ولا تضم نشرهم جامعة، وكانت بينهم حروب متوارثة، وإحن وثارات قائمة على اعتبارات جاهلية موبقة، عاشوا كل تلك الأجيال على هذه الحال معتبرين ما كانوا فيه من مفاخرهم. لم يقم فيهم من يدعوهم لتوحيد كلمتهم، ولا لتحديد وجهتهم، وتعيين غايتهم، ولم يكن فى طبيعة بلادهم، وقحولة بيئتهم، ما يضطرهم الى حياة مشتركة تعم جنسهم كله. ولم يكونوا وهم فى أمية مطبقة ليتأثروا بحاجات عقلية تدعوهم للنظر، وتجبرهم على التفكير، ثم تحفزهم الى تغيير ما هم فيه من الجمود على عقائد باطلة، وتقاليد ضارة.

فلما أرسل اليهم محمد صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق، أنكروه ولكن أى إنكار، وثاروا عليه ولكن أية ثورة، فرموا رسول الله بالافتراء والاختلاق، وبالسحر وقول الشعر، بل بالجنون. وقد حكى الله بعض ما واجهوا به الدعوة الاسلامية فقال تعالى: «وعجبوا أن جاءهم منذر منهم، وقال الكافرون هذا ساحر كذاب. أجعل الآلهة إلها واحدا، إنّ هذا لشيء عُجاب. وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إنّ هذا لشيء يراد. ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إنْ هذا إلا اختلاق».

وقال تعالى: «وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين. وما آتيناهم من كتب يدرسونها، وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير». وقال تعالى: «ويقولون:

أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون » وقال تعالى : « وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد ؟ أفترى على الله كذبا أم به جنة ، بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد » وقال تعالى : « وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً ، أهذا الذى بعث الله رسولا ؟ إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها ، وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا » . وقال تعالى : « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، لو لا أنزل اليه ملك فيكونَ معه نذيرا . أو يلقى اليه كنز ، أو تكونُ له جنة يأكل منها ، وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا » .

فكان الحق جل وعلا وهم فى موقفهم هذا يداول لهم بين الترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد ، ويضرب لهم الأمثال ، ويدعوهم للنظر والاعتبار ؛ فلم يزدادوا إلا عتوا واستكبارا ، ونفورا من الحق وإنكارا ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم تكاد تذهب نفسه حسرات عليهم ، فيمده الله بالآيات تهدئة لقلبه ، وتأسية له بالرسل من قبله ، من مثل قوله تعالى : « ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك » وقوله تعالى : « فإن كذبوك فقد كُذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير » . وقوله تعالى : « ولقد كُذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين . وإن كان كَبُرَ عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سُلّماً فى السماء فتأتيهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكوننّ من الجاهلين » .

هذه كانت حال البيئة التى أرسل فيها النبى صلى الله عليه وسلم ، من الاستعصاء عن قبول دعوته ، والتمادى فى مناوأته ، حتى قررت قتله والتخلص منه ، فأطلعه الله على ما يبيتوه له من الشر ، وأمره بالهجرة الى المدينة بعد أن لبث فيهم ثلاث عشرة سنة لا يألوهم نصحا ، وليس بعد هذا دليل على أن تلك البيئة لم تكن مستعدة لإحداث

أى انقلاب فى حالتها الاجتماعية والأدبية . وفى هذا الاستعصاء أكبر رد على الذين يقولون إن العرب كانوا على وشك تغيير ما هم عليه من الحالة النفسية ، فلما قام محمد صلى الله عليه وسلم بالدعوة فيهم اتبعوه وأيدوه .

تطوع طائفة للدفاع عن الدعوة الاسلامية :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عمد بعد أن يئس من قومه أن يعرض نفسه على القبائل التى كانت تأتى الى مكة للحج أيام الموسم ، فكانوا لا يأبهون لدعوته ، فاتفق أن قابل فيمن قابلهم رجالا من الأوس والخزرج سكان المدينة ، فاستحسنوا دعوته ووعدوه بعرض أمره على قومهم ، فحضر خصيصا لهذه الدعوة فى العام التالى نحو سبعين رجلا منهم ، فاجتمعوا فى جنح الظلام فى شعب من شعاب مكة ، وقبلوا أن يدخلوا فى الاسلام ، وأن يدافعوا عنه ولو أداهم ذلك الى مكافحة العالم أجمع ، وجر ذلك الى فنائهم جميعا . ثم قالوا وما لنا على هذا كله ؟ فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : لكم الجنة ، قالوا رضينا ، وانصرفوا على أن يهاجر اليهم هو ومن بقى بمكة معه من أصحابه ، وأن يستدعى من ذهب الى الحبشة منهم ليوافوا إخوانهم بالمدينة ، ثم انفضوا على ذلك .

هنا أربع آيات من أكبر ما استجلاه الناس من آيات الله فى خلقه :

(أولها) قبول قبيلتين من قبائل العرب اليمانية دعوة يقوم بها رجل من قبيلة عدنانية ، على ما كان بين هاتين الفئتين من التنافس والتنافر فى تاريخهما كله ، ومعنى قبولها دعوته خضوعهما لسلطانه ، وهذا ما كان ليحدث بين قبيلتين تمتُّ إحداهما للأخرى بصلة القرابة ، فكيف به بين فريقين متنافسين ؟

(ثانيها) اضطلاع طائفة من الناس لا يزيد عدد آحادها على بضعة آلاف بعبء خطير يعرضها لمعاداة جميع قبائل العرب ، بله شعوب الأرض كافة .

(ثالثها) اطمئنان هذه الطائفة الى الاسلام الى حد معاداة العالم كله فى سبيله ، ولم تمض عليهم فيه حقبة من الدهر تكفى لأن تطبع نفسياتهم بطابعه ، وتحبب اليهم بذل أرواحهم فى نصرته . هذه طفرة لم يشاهد لها مثيل فى تاريخ النفسية الانسانية .

(رابعها) رضاء هذه الطائفة بالجنة جزاء على هذه التضحية، فلا الملك ولا سلطانه، ولا الدنيا ولا ملذاتها كانت لديهم شيئاً يمكن أن يعوقهم من إجابتهم دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم.

لا مشاحة فى أن هذه آيات يجب أن يراها الناس ويتأملون فيها، فإنها من أدل الدلائل على التأييد الإلهى لرسوله، ومن أقوى الشواهد على أن النبوة أمر تخرق له سنن الكون، وتخضع له قواه ونواميسه.

تحقق ما وعد الله به رسوله من النصر :

إن شئت أن تشهد آية هى أكبر وأجل آيات الله فى عباده، فاشهد أن قام رجل فى جماعات أمية، فى أحط دركات الجاهلية، يدعوها لأن تجتمع على دين لا عهد لها بمثله، يخالها عن أكثر عاداتها، ويتملخها عن أثبت موروثاتها، ويقيمها على نهج جديد لم تعهده فى جميع أدوار تاريخها، فينجح فى ذلك نجاحاً لم يقدر مثله لمصلح كان قبله أو جاء بعده.

تقول دائرة معارف لاروس فى عرض كلامها عن الاصلاحات الاجتماعية : « إن المبادئ الجديدة والأصول الطريفة، لا يمكن أن تسرى فى نفسية أمة من الأمم بمجرد بثها فيها، ولكن لا بد من مرور أجيال متعاقبة عليها قبل أن ترسخ فى نفسيتها وتصبح حالا لها، وتصدر أعمالها عنها ».

نقول : هذا ما قرره العلم، ودلت عليه التجارب الإصلاحية فى الأمم، ولكن الدعوة الاسلامية، على سمو أصولها عن كل الأصول المعروفة الى اليوم، قد قبلتها الطائفة التى انتدبت لحمايتها، وقامت على سنتها طفرة، فتأدت بها الى السيادة على الأرض، وهذا وحده من أكبر المعجزات فى نظر العلم الاجتماعى، لأنه ينقض أكبر ناموس فيه، وهو ناموس التطورات التدريجية.

وقد أشار الكتاب نفسه الى جلالة هذا الأمر، فأضافه الى محض قدرة العزيز العليم إكبارا لشأنه، وإعظاما لخطره، فقال تعالى : « واذكروا إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ».

وقال تعالى: «لو أنفقتَ ما فى الأرض جميعا ما ألّفتَ بين قلوبهم ولكن الله ألّف بينهم».

إننا نذكر كل هذه الحوادث الكبر، كلما عنت فرصة لذكرها، لأن الأمر أكبر من أن تكفى فيه البحوث المستفيضة والتحليلات الدقيقة، فغرابته وإعجازه يتجددان بزيادة مادة العلم، وتوالى العبر العالمية. وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

محمد فريد وجدى

سحر البيان يقضى الحاجات

قال العتبى: قدم عبد الله بن زرارة الكلابى على معاوية وهو أمير المؤمنين فقال: إنى لم أزل أهز ذوائب الرحال اليك، فلم أجد معولا إلا عليك، أمتطى الليل بعد النهار، وأسم المجاهل بالآثار، يقودنى اليك أمل، وتسوقنى بلوى، والمجتهد يعذر، وإذ بلغتك فقطنى (أى حسبى).

فقال له معاوية: احطط عن راحلتك.

ودخل كريز بن زفر بن الحرث على يزيد بن المهلب فقال: أصلح الله الأمير! أنت أعظم من أن يستعان بك ويستعان عليك، ولست تفعل من الخير شيئا إلا ويصغر عنك وأنت أكبر منه، ولا العجب أن تفعل ولكن العجب أن لا تفعل.

فقال له يزيد بن المهلب: سل حاجتك.

قال كريز: حملت عن عشيرتى عشر ديات.

قال يزيد: قد أمرت لك بها وشفعتها بمثلها.

وأتى رجل الى حاتم الطائى فقال: إنها وقعت بينى وبين قوم ديات فاحتملتها فى مالى وأملى، فقدمت مالى وكنت أنت أملى، فان تحملها عنى فرب هم قد فرجته، وغم كفيته، ودين قضيته. وإن حال دون ذلك حائل لم أذم يومك، ولم أيأس من غدك.

فحملها حاتم عنه.

بسم الله الرحمن الرحيم

مهمة الدين الاسلامى فى العالم

– ١٧ –

أغراضه الاجتماعية — نظرة تمهيدية فى مقومات الاجتماع

الاجتماع كالبناء ، وإنما الفرق بينهما أن الأول مؤلف من آحاد أحياء ، والثانى من مواد جامدة ، وكلاهما بحاجة الى ما يربط وحداته بعضها ببعض ، ويجعل منها جسما واحدا . فالبناء بحاجة الى مادة ماسكة هى الملاط ، والثانى يستدعى وجود روابط أدبية بين الأفراد .

فكل مجتمع لا يصلح للحياة المشتركة ، إلا إذا وُجدت بين آحاده روابط من ضروب شتى ، تجمع بينهم وتوجههم الى غرض واحد .

وقد وجدت هذه الروابط فى أول أدوار الاجتماع ، وكانت من السذاجة على قدر ما كان عليه الأجيال الأولى من البساطة . ولما كان الانسان لا يستطيع أن يعيش إلا مجتمعا بأفراد من نوعه ، كانت أولى تلك الروابط الحاجة المعاشية . فكان الأفراد يترابطون على القيام بها تحصيلا للقوت ، ودفاعا عن الحوزة ضد الحيوانات الضارية ، وضد المغيرين عليهم من الجماعات المجاورة لهم . وكانوا كلما ارتقوا فى الأسباب ، زادت الروابط التى بينهم تركّباً ، وما زالت تتركّب حتى بلغ الانسان شأوا بعيدا من المدنية ، فبلغت الروابط بينهم من التعقد بحيث يعوزها خبرة عظيمة بما يناسب الجيل من القيود والروابط . من هنا صارت الحاجة ماسة الى وجود علماء للاجتماع ليتعرفوا هذه الروابط ، ويقفوا على أسباب توثقها ، وعلل تفككها ، ووسائل معالجتها ، حرصا على بنية الاجتماع من الانحلال .

جاء الاسلام فوجد أمما قوية قد ترابطت فيما بينها على الحياة والفتح وتسخير الأمم ؛ وكانت على عقائد خرافية تتفانى فى الذب عنها ، فأتى بأرقى ما يمكن تصوره من روابط الاجتماع القائمة على أحكم الأصول الأدبية .

ولقد أثبت العلم أن روابط الاجتماع نفسها تتنازع الحياة كما تتنازعها الأحياء ، فلا يقدر النصر والبقاء إلا للأكمل منها ، ويتلاشى الضعيف الملتاث منها بالأدواء ، حتى لا يبقى إلا الأصلح المحقق لناموس الارتقاء : « فأما الزَّبَدُ فيذهب جُفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

لقد أدهش الناس كلهم أن تقوم الأمة الاسلامية فى أبعد بقاع المعمورة عن العمران ، فتلقى بنفسها فى معمعان المزاحمات الاجتماعية ، وتجول فى الأرض جولات ترث بها سيادة العالم كله ، وتحتك بالأمم العريقة فى الاجتماع فتنتزع منها السؤدد والسلطان ؛ أدهش الناس هذا فطفقوا يعللونه بضروب من العلل ، فنهم من زعم أن أسباب هذا الفوز تنحصر فى أن الاسلام دفع ذويه للجهاد ، ووعدهم عليه الجنة ، ومنهم من تخيل أن علته تفكك روابط الأمم التى كانت معاصرة للمسلمين الأولين ، ويغيب عنهم كلهم أن هذا التبسط الاسلامى كان يصحبه ارتقاء يناسبه فى جميع المعارف البشرية ، ومختلف الصنائع والفنون ، ويسايره توسع فى العمران ، واستبحار فى المدنية الفاضلة ، وكل هذا يبين أن ليست الأسباب المتقدمة هى وحدها التى جعلت الاسلام ينتشر فى بقاع الأرض ، ويعم هذه الأمم القوية الروابط ، ويحتل من نفوسها تلك المكانة السامية التى لم تصل اليها أية عقيدة أخرى .

إذ لو كان الدافع لهذه النهضة العظيمة هو حب الجهاد وحده ، لكان قصارى أمر المجتمع الاسلامى الأول أن يبلغ مداه ثم يتراجع ويَمَّحى أثره ، ككل نهضة حربية فى الأرض ، وليس تاريخ التوسع الحربى لبختنصر والاسكندر المقدونى وجنكيزخان وتيمورلنك وغيرهم مما يعزب عن الأذهان .

نعم إن الرومانيين قاموا بما يقرب من الفتوح الاسلامية حتى دانت لهم الأرض ، ولكن كان ذلك فى خلال ثمانية قرون لا فى ثمانين سنة كما حدث للمسلمين بواسطة الاسلام ، مع هذا الفارق العظيم ، وهو أن الفتوح الرومانية كانت تمثل العسف بجميع مظاهره ، فكانت الشعوب والأمم تحت نيرها لا تملك لنفسها صرفا ولا عدلا ، وكانت تعامل معاملة الأرقاء ، ولكن الفتوح الاسلامية كانت خيرا وبركة على المقهورين ، وكان مبدأ المساواة مطبقا بين الكافة فى أقصى حدوده ، وأخص معانيه ، حتى كان المقهور يخاصم قاهره مهما كان عظيما الى القاضى فيقتص له منه ، غير معتد بجنسيته ولا كرم أرومته .

وأما ما تخيله معللو توسع المسلمين من أن السبب فيه كان تفكك روابط الأمم على عهده فغير معقول ، فإن الدولتين اللتين اصطدم بهما الاسلام فى أول عهده ، وهما الدولة الرومانية والدولة الفارسية ، كانتا حاصلتين على مقوماتهما الاجتماعية ، وكثيرا ما دخلتا فى حروب طاحنة إحداهما ضد الأخرى ، ولم يؤثر ذلك فى كيانيهما . فلما ظهرت الدولة الاسلامية وأدتهما التقلبات الاجتماعية الى الدخول معهما فى حرب ، قامت كل منهما بالدفاع عن نفسها على أكمل وجه .

لم يبق أمامنا إلا تعليل علمى واحد يمكن أن تفسر به مناعة المجتمع الاسلامى واستعصاؤه على جميع المحللات التى صادفها فى اصطدامه بالمجتمعات العالمية ، وتغلبه عليها ، وهذا التعليل هو أن الروابط الاسلامية بين الآحاد كانت أرقى وأقوى من جميع روابط الجماعات التى نازعتها الحياة ، وأن تلك الروابط كانت تستمد وجودها من أعلى المبادىء الاجتماعية ، التى جاء بها القرآن الكريم والسنة المطهرة .

هذا التعليل وحده هو الذى يفسر ثبات طائفة إسلامية صغيرة أمام جماعات تفوقها عددا أضعافا مضاعفة .

فالتنازع بين هذه الطائفة وبين تلك الجماعات كان فى حقيقته تنازعا بين القوى

الأدبية لكل منهما ، تحقيقا لناموس الانتخاب الإلهى الذى نتيجته أن يكون الفوز للأصلح ، كما قال تعالى : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعدِ الذِّكر أن الأرض يرثها عبادىَ الصالحون » :

بقى علينا أن نستعرض الروابط الاجتماعية لتلك الجماعات ، وأن نقابلها بالروابط الاجتماعية للمسلمين ، لنرى رأى العين مصداق هذا الناموس الإلهى ، وشهادة الحوادث على أنه الحق الجدير بالاستمساك به ، فنقول :

كانت الروابط الاجتماعية للأمم الى عهد الاسلام تنحصر فى التعاون على تحصيل مقومات الحياة المادية بإثارة الحروب على المجاورين وشن الغارات عليهم ، فإذا كتب لجماعة منها النصر جعلت همها تجريد المقهورين من أموالهم ، واستعباد رجالهم ونسائهم ، والأخذ بسنة العسف فى معاملتهم ، وكان أساس هذه الروابط الجنس واللون واللغة ، وغايتها تسويد الجنس الغالب على جميع الأجناس البشرية ، ولكن الروابط الاسلامية كانت أصولا أدبية هى أرفع ما يصل اليه العقل من معنى العدل الإلهى ، فهى تقوم على هذه المبادئ :

(أولها) المساواة بين جميع الخلق لأن كلهم لآدم وآدم من تراب .

(ثانيها) أن التفاضل بينهم لا يبتنى على الفوارق من جنس ولون ولغة ، ولكن على الكمالات النفسية « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

(ثالثها) أن القبائل والشعوب خلقت لتتعارف وتتعاون على الاضطلاع بأعباء الحياة ، لا لتتناكر وتتناحر : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » .

(رابعها) تسويد الحق فى جميع المواقف على القوة : « فماذا بعد الحق إلا الضلال » .

(خامسها) العمل على إعلاء كلمة الله فى الأرض ، وهى العدل المطلق لا المصلحة المادية .

هـذه روابط جامعة تصلح أن تضم النـاس أجمعين ، وتمحو ما بينهم من أحقاد جاهلية ، وثارات قومية ، وتجعل العالم كله أمة واحدة فى ظل أكمل الأصول الأدبية ، ورعاية أكرم المبادئ العلوية .

فالفـارق بين هذين النوعين من الروابط بعيد جدا ، أحـدهما قائم على المصالح المـادية ، والاعتبارات القومية ، والآخر مستمد من المبادئ الخالدة والأصول العامة . فالفرق بينهما كالفرق بين الأرض والسماء .

إذ الداخل فى الرابطة الاسـلامية يشعر بجلال الأصول التى يمثلهـا ويدافع عنها ، ويستلذ الاضطلاع بهـا والفناء فيهـا ، ويحس بروعة الحق الذى يتجلى عليه منها ، فهو لا يتكافل وأخاه طلبا لحطام الدنيا ورتوعا فى دماء الناس وأموالهم وأعراضهم ،ولـكن مدفوعا لتحقيق أكمل المرامى الاجتماعية ، والوصول لأرفع المـكانات الوجودية .

ولست فى حاجة بعد هذا أن أذكر لك أن الاجتماع الذى تـكون روابطه من هذا الضرب يكون أفراده كأعضاء الجسد الواحد تتحرك بروح واحدة ، وتتأثر بشعور واحد ، ولايجوز عليهـا ما يجوز على سواها من تنابذ آحادها وتناكرهم .

هـذا هو التعليل العلمى المعقول لنشوء المجتمع الاسـلامى ، وظهوره على جميع المجتمعات التى نازعته الوجود ، وحلوله محلها فى الزعامة العامة فى الأرض .

وهذا المجتمع الاسلامى بهذه المميزات يعتبر أول مجتمع بنى على المبادئ الأدبية الخالدة ، والأصول العالمية العامة ، فيصلح أن ترث روابطه جميع الروابط الاجتماعية التى فرقت بين الشعوب وجعلتها شيعا يتربص بعضها الدوائر ببعض .

نعم إن الأمم لم تنضج كلها بعد لإحلال هذه الروابط الروحية محل الروابط المـادية فى بنية مجتمعاتها ، ولـكن المتأمل فى حركاتها الحاضرة يرى أنها تحاول أن تصل اليها ، فإن مساعى رجالها الأعلين فى استبدال تحكيم الحـديد والنار بتحكيم الحق والعدل ، وفى إحداث تـكافل عام بين الشعوب يقوم مقام التزاحم الحيوانى بينها ، كل هذه

المحاولات منها وإن كانت بطيئة تعتبر تمشيا نحو المبادئ الاسلامية ، ولا بد من وصولها اليها بعد قطع أدوار كثيرة ، والدخول فى تطورات عديدة ، وإذ ذاك تكون الفاسفة والعلوم قد كشفت عن القلوب والعقول حجبا كان أسدلها عليها التعصب للموروثات ، فتشهد من جمال الاسلام ما كانت لا تتخيله فيه ، فيتم بذلك موعود الله فى قوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق و فى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أوَلم يكفِ بربك أنه على كل شىء شهيد » .

فالأمة العالمية التى أسسها الاسلام فى الصدر الأول من قوميات شتى ، ومحق ما بينها من الفوارق التى كانت تدعوها للتناحر والتفانى ، هذه الأمة كانت وستكون الى أن تقوم الساعة مثالا حيا لما يجب أن يكون عليه العالم البشرى فى تأسيس بنيانه ، وتشييد عمرانه ، ومتى تم له ذلك تكون الانسانية قد قامت على السنة التى تناسب كرامتها ، وتلائم مكانتها . ولا يزال الاسلام يدعو الأمم الى القيام على هذه السنة ، ولا مناص لها من القيام عليها ، مدفوعة بعوامل التطور كما دفعتها الى الأخذ بأصول إسلامية كثيرة من قبل ؟

محمد فريد وجدى

العناية بطلب العلم

روى أن داود قال لابنه سليمان عليهما السلام : لف العلم حول عنقك ، واكتبه فى ألواح قلبك .

وروى أنه قال له أيضا : اجعل العلم مالك والأدب حليتك .

وقيل لأبى عمرو بن العلاء : هل يحسن بالشيخ أن يتعلم ؟ قال إن كان يحسن به أن يعيش فانه يحسن به أن يتعلم .

وقال عروة بن الزبير لبنيه : يا بنى اطلبوا العلم فان تكونوا صغارا لا يحتاج اليكم ، فعسى أن تكونوا كبار قوم آخرين لا يستغنى عنكم .

وروى عن أحد ملوك الهند أنه قال لولده وكان له أربعون ولدا : يابنى أكثروا من النظر فى الكتب وازدادوا فى كل يوم حرفا فان ثلاثة لا يستوحشون فى غربة : الفقيه العالم ، والبطل الشجاع ، والحلو اللسان الكثير مخارج الرأى .

وقال المهلب بن أبى صفرة لبنيه : إياكم أن تجلسوا فى الأسواق إلا عند زراد أو



بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ . وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) .

لقد تقدم فى الآيات السابقة ذكر قصة موسى وقومه مستوفاة مفصلة ، ونعلم أن القصص فى القرآن الكريم ليس المقصود منه التسلية بذكر أخبار مضت أو مجرد العلم بالتاريخ ، وإنما يقصد منه عبرة المخاطبين ليهتدوا الى ما أراد الله منهم وأمرهم به .

فلذا جاء فى تضاعيف القصة حين ذكر جل شأنه عن موسى عليه السلام أنه اختار من قومه سبعين رجلا للميقات ، وأنهم تطوحت نفوسهم الى ما ليس من حقهم : فطلبوا الى موسى عليه السلام أن يريهم الله جهرة ، فأخذتهم الرجفة حتى كانوا على شرف الموت ، فلجأ عليه السلام الى ربه يستغيثه ويسترحمه قائلا : « رب لو شئت أهلكتهم من قبلُ وإياى ، أتُهلكنا بما فعل السفهاء منا » وقال فى دعائه : فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ، فأجابه عز وجل بأنه مالك الأمر كله وبيده العذاب والرحمة يضعهما حيث شاء ، ووعده بأن سيكتب رحمته لمن يتقى الله ويعطف على عباده بالزكاة ويعمر قلبه بالايمان بالله ، الايمان بالله إيمانا صادقا بحيث يتبع ما أمر الله باتباعه ، وأقام الآيات أنه من عنده لا فرق عنده بين أن يأتيه أمر الله عن طريق هذا أو ذاك ، فإن هذا

هو المؤمن حقا ، وهو الذى صدق إيمانه وجعل هواه تبعا لأمر ربه ؛ ومرضاته تعالى هى منتهى قصده لا كمن يؤمن ببعض ويكفر ببعض ، أو كمن يقول : « إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا » فمثل هذا لا يسمى مؤمنا بالله ولا مسلما نفسه لله ، وكيف يكون مسلما ومؤمنا وقد حكم هواه فى أمر مولاه ؟ فلا جرم قال فى سياق تلك القصة : « فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتّبعون الرسول النبي الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة » الخ الآية . أى فأما من يأبى أن يذعن للحق إلا إن طابق هواه فلا يكون مؤمنا بالله . فمن الحق أن يختم تلك الآية بما يفيد حصر الفلاح فيمن اتبعه بقوله تعالى : « فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذى أُنزل معه أولئك هم المفلحون » فإن هذا الأسلوب مفيد للحصر على ما هو معلوم لأهل البلاغة .

فحسن إذ انتهى الى هذا البيان أن يردفه بأمره تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يبلغهم أنه رسول الله الى الناس جميعا : لا فرق بين من كان على دين سابق كاليهود والنصارى ، ومن كان قد انحرف عن دين الأنبياء بالكلية كالمشركين ، فقال عز وجل مخاطبا لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فى ثنايا القصة : « قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون » .

ثم عاد الى قصة موسى عليه الصلاة والسلام يكملها حتى وصل الى حادثة رفع الجبل فوق رءوس قومه بنى إسرائيل وظنهم أنه واقع بهم ، فأُمروا فى هذه الحالة أن يأخذوا ما آتاهم الله إياه من تكاليف وأحكام بقوة وإقبال ، وأن يذكروا ما فيه من تكاليف وتعاليم ، فيعملوا بما أمروا لعلهم ينجون من غضب ربهم ويتقون عذابه .

وحينما وصل الى هذه الحالة من أخذ بنى إسرائيل بالآيات المحسوسة ، ومن الرغب والرهب ، وأنه قد وصل الأمر بهم الى أن سد عليهم باب المكابرة بتلك الآيات الظاهرة

الباهرة ، أقول حينما وصل الى هـذا الحد لا يبعد أن نفسا تقول : « نعم هنا وضح الأمر واستبان ، ولم يبق طريق للشك فى صحة هذا البرهان ، فمن أين لنا أن نؤتى آية بينة من جنس هذه الآيات ؟ إذاً لاستقمنا وقمنا بما طلب منا . أما ونحن لم يتجل لنا الأمر كما تجلى لهم فلا حرج علينا إذا لم نتبع الرسل » . أقول : لا يبعد أن تتحرك نفوس للشغب ، وتتلمس أن تؤتى من الآيات ما به تهتدى الى الايمان بربها والإذعان لرسله الذين أيدهم بحججه .

فجاءت هـذه الآية الكريمة التى سقنا الكلام اليوم لتفسيرها ، لقطع معاذيرهم ، ودحض حججهم وإبطال شبهاتهم ، مبينة أن آيات الله تعالى قد شملت جميع بنى آدم من أصل خلقتهم وبدء تكوينهم ، فلم يغب عن أحد منهم آيات الله فى نفسه وفى تكوينه وأصل خلقته وأطوار وجوده وحالات تقلبه ، فما من امرئ منهم إلا وقد بث الله فى نفسه آيات ناطقة ودلائل شاهدة على أنه مربوب للرب العلى القدير ، ومشمول فى كل لحظة بإحسانه المتوالى وتربيته المستمرة من ساعة أن انفصل من ظهر أبيه الى أن يحل به الموت وينزل القبر الذى يواريه ، وإنه على نفسه لشاهد ، ولو التفت أية التفاتة لشهد ونطق بلسان مقاله فوق نطقه بلسان حاله أن ربه هو الله الواحد .

قال تعالى : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى » :

للمفسرين فى تفسير هـذه الآية طريقان : طريق المتأخرين من أصحاب النظر ، وطريق السلف المتبعين للأثر . وسنعرض لكلتا الطريقتين ونبين أنهما لا تنافى بينهما ، وأن كلا منهما صحيح فى نظر العقل ، لا ينافيه النقل ، وأن الآية قابلة لأفهام كلا المعنيين ، والله المستعان :

الطريق الأول ، وهو ما بنينا المقدمة السابقة على اعتباره ، أن هذا إرشاد الى ما وضعه جل وعز فى نفوس بنى آدم من الدلائل الدالة على ربوبيته تعالى ، والتى أشير

اليها فى قوله تعالى : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » وفصلت على عدة وجوه فى عدة آيات كقوله تعالى : «فلينظر الإنسانُ مم خلق ؟ خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب » وكقوله عز وجل : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة عَلَقة فخلقنا العلقة مُضْغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين» وكذلك فى قوله جل وجهه : «أفرأيتم ما تُمْنُون . أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون» ثم امتنانه عليهم فى تيسير غذائهم : طعامهم وشرابهم ، كما فى قوله تعالى : « أفرأيتم ما تحرُثُون ؟ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون » « أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزْن أم نحن المنزلون » وكقوله تعالى : « فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضباً وزيتونا ونخلا وحدائق غُلْباً وفاكهة وأباً متاعا لكم ولأنعامكم » .

فهل بعد هذه الآيات التى بثها عز وجل فى نفوس بنى آدم من أصل تكوينهم وحالة استمرار وجودهم ، مما فصله تعالى فى كتابه لهم ، ومما تركه لمجال أنظارهم بعد ما حثهم على التأمل فى مجارى أحوالهم ، يبقى واحد بلا آية دالة على أن ربه الذى خلقه يجب أن يذعن له بالطاعة ويسلمه جميع أمره ؟ من ذا الذى يمده بالأنفاس التى لا غنى له عنها لحظة من اللحظات ؟ من ذا الذى يبقى دقات قلبه منتظمات متواليات ترسل عنصر الحياة الى جميع أعضائه على نظام لا يدرى كنهه ، ولا يعرف وجهه ؟ من ذا الذى يسعفه كل لحظة بغدد تفرز له مادة لا بد منها فى صلاحية غذائه للاغتذاء بدل أن يبقى كتلة فى معدته فلا تمتص أعضاؤه منه ما يصلح له ؟ من ذا الذى ركب فيه أجهزة متقنة يقوم كل جهاز منها بما هيىء له من الإحساس والحركة والتنفس وغير ذلك ؟ من ذا الذى وهبه العقل الغريزى يدرك به ما ينفعه وما يضره ، ويميز الحسن من القبيح

والخبيث من الطيب ؟ من ذا الذى سخر له هـذا العالم ومكنه من الانتفاع بكنوزه ودفعه لاستغلال خيراته فى مصلحته ؟

أما إنه قـد وضع فى الانسان من جلىّ الآيات ما يربو على آيات قـوم موسى من نتق الجبل وفلق البحر وغيرها ، ولا يتوقف على إجالة النظر وتنبيه الفكر . وإن الانسان ليلمح هذا من نفسه ويعترف به طوعا أو كرها ؛ ومن تعاصى على النظر فى حال الرخاء فهو البتة شاعر به حال الشدة . وأى مخلوق يسلم فى هـذه الحياة من تداول حالى الشدة والرخاء ، والسعادة والشقاء ، والصحة والمرض ، والإقامة والسفر ؟ فهو إن لم يلجأ الى ربه الذى يشعر بربوبيته من أعماق قلبه ويجده فى قرارة نفسه ، إن لم يلجأ اليه اختيارا فهو لا بد لاجىء اليه اضطرارا « وإذا مس الإنسان الضرُّ دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما » .

ففى الحق إن الانسان شاهد على نفسه بما فطر عليه وما أودع فيه أن ربه الله ، فقد أشهده الله على نفسه من يوم أن أخذ ذريته من ظهر أبيه وأشعره بوجود نفسه ألست بربك الله ؟ قال : بلى . وقوله تعالى : « شهدنا » من تتمة كلام الذرية ، أى شهدنا على أنفسنا ، أو شهدنا هـذه الحالة فى أنفسنا وقلنا بلسان حالنا بحسب ما شهدنا ورأيناه رأى الشهود والمعاينة . وقوله تعالى : «أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين» فى موضع التعليل لأشهدهم على أنفسهم ، أى أشهدهم حالتهم واستخلص منهم شهادتهم على أنفسهم لـكيلا يقولوا يوم القيامة قد أخذنا على غرة وكنا فى غفلة من هذا .

ولقد اقتضت رحمته وهو أرحم الراحمين أن لا يدعهم ومجرد عقولهم ويؤاخذهم بمجرد ما ركب فى فطرهم ، بل رحمهم بإرسال الرسل اليهم منبهين ، مبشرين ومنذرين ، معلمين وهادين ، مرشدين ومربين ، لـكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وقال عز وجل : « وما كنا معذِّبين حتى نبعث رسولا » ، ولو شاء أن يأخذهم بمجرد ما أودع فى فطرهم ، وأن يطالبهم بالعمل بما تقضى به بصيرتهم وسليم عقولهم ، ما كان فى ذلك ظالما ولا قامت عليه حجة ، فـكيف وقد قوى العقل ، وأرشده بالآيات

البينات على أيدى الرسل عليهم الصلاة والسلام فدعوهم الى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة ؟

وكما قطع عليهم طريق الاحتجاج بالغفلة فى الدنيا سدّ عليهم طريق التمسح بالآباء واعتلالهم بأنهم كانوا ذرية ضعفاء نشأوا فى حجر آباء مشركين جهلاء ، فلهم العذر إذ سرى الشرك من آبائهم اليهم . أجل : سد فى وجوههم هذا الطريق أيضا بما بيّن من أن آية كل امرئ منهم فى نفسه ، لا يحتاج الى أن يستمدها من أبيه أو جده ، فكل امرئ على نفسه بصيرة ، وقد وهب من العقل والتمييز ما يستطيع التأمل به والتفكير ، كما أنه يرى ويسمع ويحس بدون وساطة أحد من آبائه ، فلا عذر لأحد فى تقليد أحد لا أب ولا جد « أوَلو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ؟ » فهذا هو قوله تعالى : « أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون » . أى جعل الله فى كل امرئ من ذرية بنى آدم آية فى نفسه وأشهده على نفسه بما فطره عليه أن ربه الله فشهد واعترف حتى تقوم عليه الحجة ، فلا سبيل له أن يقول : لقد كنت فى غفلة من هذا ، فقد كشف الله غطاءه بما نبهه به على لسان رسله ، ولا سبيل له أن يقول : « لم يكن الشرك منى وإنما كان من أبى وجدى ، فهم الذين أشركوا ، ولقد نبتّ بين أيديهم ذرية ضعيفة فلقنوا ما درجوا عليه ، فهم المبطلون ولا ذنب لى » . نعم ليس له أن يعتل بهم ، فإنه قد أوتى من البصر والبصيرة ، ومن بث الآيات فى نفسه وفى الآفاق حوله ، ما يستغنى به عن اللجأ الى أحد ، فقد ترك الطريق السوى الذى بُصِّر به ، واتبع طريق الغى الذى حذر منه ، فحقت عليه كلمة العذاب التى استوجبها لنفسه بنفسه ، كما حقت على آبائه من قبله ؛ فالنهج واضح ، والأعلام قائمة ، والآيات بينة ، وقد تبين الرشد من الغى .

فكلمة إنما للحصر ، ومعناها أن الذين أشركوا إنما هم الآباء ، وأما نحن فقد قلدناهم ولنا العذر فى أننا كنا ذرية ضعفاء أمامهم ، فلعبوا بعقولنا وأضلونا السبيل . فقولهم :

أفتهلكنا بما فعل المبطلون ، حجة لهم داحضة ، فقد أهلكوا بما فعلوا ، وأغمضوا عيون عقولهم عن النور الذى وُهبوا ، فاستحقوا جزاء ما كسبوا .

وأما الطريق الثانى فى تفسير هذه الآية الكريمة ،وهوما عليه المتقدمون من المفسرين وأهل الأثر ، فقد روى ابن جرير وغيره عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : أول ما أهبط الله آدم مسح ظهره فأخرج منه كل نسمة هو بارئها الى أن تقوم الساعة ، ثم أخذ عليهم الميثاق وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى . وكذلك روى عنه أنه قال : لما خلق الله آدم أخذ ذريته من ظهره مثل الذر فقبض قبضتين فقال لأصحاب اليمين : ادخلوا الجنة بسلام ، وقال للآخرين: ادخلوا النار ولا أبالى . وفى رواية عنه : لما خلق آدم أخذ ميثاقه أنه ربه ، وكتب أجله ومصائبه ، واستخرج ذريته كالذر ، وأخذ ميثاقهم ، وكتب آجالهم وأرزاقهم ومصائبهم . وكذلك روى الطبرى عن الضحاك ابن مزاحم أنه مات له ابن لستة أيام من ولادته فقال: ياجابر: إذا أنت وضعت ابنى فى لحده فأبرز وجهه وحل عنه عقده فإن ابنى مجلس ومسئول ، ففعلت الذى أمرنى ، فلما فرغت قلت : يرحمك الله عم يسأل ابنك ؟ قال : يسأل عن الميثاق الذى أقر به فى صلب آدم عليه السلام . فقلت: وما هذا الميثاق الذى أقر به فى صلب آدم ؟ قال : حدثنى ابن عباس أن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها الى يوم القيامة ، وأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ ، فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به نفعه الميثاق الأول ، ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يف به لم ينفعه الميثاق الأول ، ومن مات صغيرا قبل أن يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الأول على الفطرة .

وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سئل عن هذه الآية «وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم» فقال عمر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال : خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال : خلقت هؤلاء للنار وبعمل

أهل النار يعملون » فقال رجل : يارسول الله ففيم العمل ؟ قال : إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله النار .

وروى عن أبيّ بن كعب قال : جمعهم يوم القيامة جميعا ما هو كائن الى يوم القيامة ثم استنطقهم وأخذ عليهم الميثاق وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ، قال : فإنى أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا ، اعلموا أنه لا إله غيرى ولا رب غيرى ولا تشركوا بى شيئا ، وسأرسل إليكم رسلا يذكرونكم عهدى وميثاق ، وسأنزل عليكم كتبى ، قالوا : شهدنا أنك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك ولا إله لنا غيرك ، فأقروا له يومئذ بالطاعة ورفع عليهم أباهم آدم فنظر إليهم فرأى منهم الغنى والفقير وحسن الصورة ودون ذلك فقال : رب لولا سويت بينهم ، قال : فانى أحب أن أشكر . قال : وفيهم الأنبياء عليهم السلام يومئذ مثل السرج . وخص الأنبياء بميثاق آخر : قال الله : « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا » . وهو الذى يقول تعالى ذكره : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله » . وفى ذلك قال : « هذا نذير من النذر الأولى » يقول : أخذنا ميثاقه مع النذر الأولى . ومن ذلك قوله : « وما وجدنا لأكثرهم من عهدٍ وإنْ وجدنا أكثرَهم لفاسقين . ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا الى فرعون وملئه فظلموا بها » قال كان فى علمه يوم أقروا به من يصدق ومن يكذب . الى غير ذلك من روايات أطال فيها ابن جرير وغيره . ولقد سقنا منها طائفة كبيرة لنطلعك على كثرة الروايات فى هذا المعنى ، وفى كثرتها ما يشهد بقوتها .

وهذا يعطى أن الآية تشير الى قصة سابقة على وجودنا هذا المشاهد ، وأن المقصود منها تذكيرنا بعهد أقررنا به حتى يكون حجة علينا فى دار التكليف ، وليكون باعثا

لنفوسنا على الانقياد الى ما شرع الله لنا ، ولا سيما أنا قد سبق منا الإقرار بمقتضاه وعلمنا هذا الإقرار من أخبار رسل الله المصدقين من الله .

وقد اعترض المتأخرون على هذا الطريق ، وهم الذين سلكوا الطريق الأول ، بعدة وجوه ، منها قوى وجيه ، ومنها ضعيف سخيف ، وهى كلها ضعيفها وقويها لا تبطل الطريق الثانى كما سيظهر لك من سردها مع الجواب عنها وردها . وإن كان الطريق الأول واضح المحجة بيّن الحجة كما رأيت فيما سبق . لكن هـذا لا يدل على بطلان غيره . كيف وقد درج عليه أكثر متقدمى المفسرين . ولا يمتنع أن تدل الآية على عدة معان كلها سائغ صحيح .

(١) قالوا : إن نص الآية «وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم» ولم يقل من آدم من ظهره ، فلو كان المعنى كما قلتم لكان الظاهر فى التعبير من آدم من ظهره . وجوابه أن أخذ الذرية من آدم منه ما هو مباشرة وهو أخذ ذريته لصلبه ، ومنه ما هو بواسطة بعضهم وهو أخذ أبناء ذريته . والآية لما سيقت لبيان قيام الحجة على الحاضرين وقت نزولها وهم من ذرية الأبناء عبر بما ينطبق عليهم انطباقاً أولياً ، والحديث لما كان لتفصيل واقعة تشير اليها الآية غير معلومة لهم تعرض لبيان الحالة بتمامها . وعلى ذلك يكون الأخذ قد حصل من ظهر آدم لأبنائه ثم تسلسل منهم الى أبنائهم وأبناء أبنائهم وهلم جرا .

ومن هذا تأخذ جواب اعتراض آخر ، وهو أنهم قالوا فى اعتذارهم : إنما أشرك آباؤنا من قبل . وهذا القول لا ينطبق على آدم عليه السلام فلم يكن منه شرك وحاشاه ، ولم يكن آباء بل أب واحد . فإن هذا معلوم الدفع مما سبق ، إذ الآية واردة أصالة حجة على المتأخرين من أبناء الذرية ، وقد سبق من آبائهم الشرك ؛ وهذا لا ينفى إشارتها الى قصة تامة فصلها الحديث المروى ؛ وليس بلازم أن يصدر هذا القول من جميع المخاطبين ، وإنما صدوره ممن كان منهم الغفلة والشرك . وإنك إذا عرفت أن طبيعة الشرك قد تنشأ من عدم فهم المتأخرين مقاصد آبائهم المتقدمين كما روى أن بعض من عبده المتأخرون كانوا قوما

صالحين قام من شاهدوهم لهم بحق التعظيم فحسبه من تأخر من أبنائهم عبادة، فهمت أن قولهم: إنما أشرك آباؤنا من قبل، قد يكون من ظنهم هذا فى آبائهم، إذ حملوا ما صدر من آبائهم على العبادة مع أنه لم يكن سوى تعظيم ودعاء لهم.

(٢) وقالوا إن هذا الميثاق لا نعلمه من أنفسنا اليوم ولا نشعر به فكيف يؤخذ حجة علينا فى هذه الدار دار التكاليف؟ وأيضا لو كان قد حصل لكان منا من يذكره ولا أحد يجد من نفسه ما يشهد بهذا، وقد أبطلنا التناسخ بمثل هذا الدليل، إذ قلنا: لو كانت الأرواح سبق لها وجود فى أبدان أخر ثم تناسخت وحلت فى هذه الأبدان لذكرنا ما كان منا فى تلك الدورات الماضية، فلو كانت هذه القصة صحيحة للزم صحة القول بالتناسخ قياسا عليها. وأيضا فالمقصود من ذلك الميثاق إن كان إقامة الحجة عليهم فى ذلك اليوم، لزم أن تكون تلك الحال السابقة حال تكاليف ولا قائل به؛ وإن كان إقامة الحجة عليهم فى هذه الدار، فحل ذلك لو كانوا يشهدونها ولا شهود لهم بها. على أن لهم أن يعتذروا بأن الله منحنا شهودا علمنا به يومئذ وسلب منا ذلك الشهود فى هذه الدار فلم نستطع الإقرار.

وجوابه أن المقصود من هذا الميثاق أن يكون حجة عليهم فى هذه الدار؛ وقولهم إنا لم نشهده من أنفسنا حتى تقوم علينا به الحجة، ساقط، فإنهم قد ركب فيهم من الأدلة الناصعة والآيات الساطعة مالو تفكروا أقل تفكير خال عن الغواية والعماية لشهدوا اليوم بما شهدوا به يومئذ. ولقد زادهم على ذلك أن أرسل اليهم رسلا ينبئونهم بما كان منهم ويرشدونهم الى طريق التفكير الصحيح والاستدلال المنتج، ولكنهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا، فتكون حجتهم على ربهم داحضة، ومعذرتهم ساقطة، ولله الحجة البالغة. وأما أنهم لو كانوا قد أخذ عليهم ذلك الميثاق لذكروه وأن هذا الدليل هو الذى يبطل القول بالتناسخ فساقط أيضا، لأنه لا يلزم أن كل ما حصل للمرء فى حياته يكون مذكورا له. وها نحن أولاء يجرى لنا فى عهد الطفولة الأولى مالا يحصى من الحوادث الجسام ولا نذكر منها شيئا مع

اتصال الحياة وقرب الزمان ، فكيف بهذا الحادث القديم الزمان ؛ وبطلان التناسخ ليس موقوفا على هذا الدليل . وخلاصة ذلك أن هذا حصل و بقي منه ما فى فطرة الانسان من كمال التدبير والصنع العجيب الذى يلجئه الى الاعتراف بربه ، وقد تقوى بإرشاد الأنبياء والرسل الى طريق استعمال الفكر ، ثم بأخبارهم وهم مصدقون من ربهم بوقوع هذه الحادثة ليكون الانسان من نفسه على نفسه شاهد .

(٣) وأما قولهم إن الذر لو أخذ فى وقت واحد لضاق به الفضاء ، فمن الاعتراضات الواهية ، فإن ملكه لا يضيق بخلقه . وكذلك قولهم إن العقل لا يكون إلا بحياة ولا حياة إلا ببنية فكيف وسع ظهر آدم هذه الذرارى كلها ، فهو أوهى مما سبقه ، فإن العقل والفهم يعطيه الله لأصغر الأشياء أو لأكبرها وهو القادر المختار . والعجيب أن يحكم مثل هذا على عقول بعض القاصرين وهم يصدقون أن فى النطفة التى يكون منها التخليق حيوانا صغيرا قد يحمل معه مكروب مرض وراثى ينتقل من الآباء الى الأبناء ، وربما كان انتقاله من الأجداد الى الأحفاد ولا تظهر له أعراض فى الوسائط من الآباء ! فتبارك الله يخلق ما يشاء ! .

والخلاصة أن الآية دالة صريحا على ما أودعه الله فى فطرة الناس من آيات تدل على أنهم مربوبون لرب عليم حكيم ، قادر قاهر ، يجب عليهم أن يخضعوا له ، وأن يدينوا بدينه الذى أرسل اليهم به الرسل مبشرين ومنذرين ، وأيدهم بما يدل على تصديقه لهم ، فعليهم أن يطيعوهم فيما بلغوهم عن ربهم « من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

وهى مع ذلك تشير الى ما كان من قصة أخذ الميثاق المعروف فى ألسنة المحدثين (بيوم ألست بربكم) . ودلالتها على المعنى الأول لا تنفى إشارتها الى المعنى الثانى . وحيث جاز وكثرت الطرق فى روايته فلا وجه لرده .

نسأل الله أن ينقى قلوبنا من الزيغ ، وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ؛ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

ابراهيم الجبالى

المحبة وأنواعها وبعض آثارها الجليلة

« لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا » .

المحبة : ينبئك عنها قلبك أكثر مما تنبئك عنها الحدود والرسوم ؛ والشيء إنما يحد لخفائه واستتاره كي يظهر ويتبين ؛ فإذا كان الشيء ظاهرا جليا يعرفه جميع العقلاء لم يحتج الى حد . المحبة : سر الله المخزون الذى تشفى به جميع الأدواء القومية ، والترياق الذى تذهب به سموم الأمراض الاجتماعية . المحبة هى أنجع وسيلة لاقتلاع الشرور من النفوس ، وإبادة أنواع التفنن فيها من العالم البشرى . وإذا تأكدتْ بين قوم أحلّتهم محل الصفاء ، وسارت بهم أسرع ما يكون فى طريق الارتقاء ، ونقلتهم الى دائرة الأسرة الواحدة ، فكانوا كالجسم الواحد إذا تألم منه عضو تألم له سائر الجسد .

لو تمّت المحبة بين الناس لما رأيت دما يسفك ، ولا عرضا يهتك ، ولا مالاً يسرق ؛ ولما رأيت المحاكم الأهلية كالأسواق مزدحمة بكل أنواع القضايا ، ولا وجدت المحاكم الشرعية مكتظة بدعاوى الأقارب لميراثهم والزوجات لنفقاتهن .

لو تمت المحبة بين الناس لبات كل إنسان بين أسرته على أتم ما يكون من الصفاء وأكبر ما يتصور من النعيم ؛ ولكان عيش الناس فى الدنيا أشبه شيء بعيش أهل الجنة فى الجنة . وأظنك كثيرا ما تحركت منك الغبطة عند ما ترى ما بين الأسرة الفقيرة من المحبة التى جعلتهم يتقلبون فى الهناء[1] ولا يحسون بالشقاء .

---

(١) اشتهر فى هذه الأيام التى كثر فيها الاجتهاد وشغف الناس فيها بالانتقاد أن الواجب أن يقال هناءة لا هناء . وهذا من قصور الاطلاع . ففى كتاب الهمز لأبى زيد الأنصارى المطبوع ببيروت صفحة ٢٥ ما يفيد صحة ذلك وروده . وكذلك فى كتاب الفلك المشحون ليونس المكى المتوفى فى القرن الثامن صفحة ١٦٣ ما يفيد ذلك ايضا . ومثل هذا قول الأديب الكبير ابن نباته :

هناء محا ذاك العزاء المقدما   فما عبس المحزون حتى تبسما

وقول إمام العربية محمد بن مالك فى حروف الزيادة ذلك البيت المشهور :

هناء وتسليم تلا يوم انسه   نهاية مسئول امان وتسهيل

وهو الذى قال إنى قرأت صحاح الجوهرى كله فلم أستفد منه غير كلمتين فقط . فانظر الى هذا والى ذلك التشدق الذى يكثر منه أولئك المتفيهقون !

لو تمت المحبة بين الناس لتمت بينهم الرحمة : فانتفع الضعيف بالقوى ، والفقير بالغنى ، والصغير بالكبير ، والصعلوك بالأمير ، وامتلأت الأرض خيرا وبركة .

وإجمال القول فى المحبة بعد ذلك كله أنه لولا الحب لم يتم نعيم لمتنعم . وكيف ينعم الانسان بغير مايحب . ولهذا ترى المغنين لا يكادون يغنون إلا بما يكون فيه ذكر الحب والمحبين ، ولا يجد الانسان سلوة لنفسه ولا نعيما بقلبه إلا بتلك الذكريات اللذيذة والأوقات السالفة التى قضاها فيما يحب ومع من يحب .

وبالجملة فراحة الانسان وسرور نفسه وبهجة روحه لا تكون إلا لذكر الحب ، وشرح الكامن فى الفؤاد المثير للعواطف ، مما له سلطان فوق العقل وسرٌّ يدق عن التعبير .

لهذا كله لم يرد فى الكتاب والسنة من الحث على شىء مثل ما ورد فى المحبة ، علما منه صلى الله عليه وسلم بأنها أساس الخير وجماع الفضائل حتى جعلها شرطا فى الإيمان ، فقال : « والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا » . رواه مسلم .

فانظر كيف جعلها شرطا فى الايمان ولم يكتف بذلك حتى أقسم عليه صلى الله عليه وسلم .

وقد ورد فى الحث على المحبة والتحذير من التشاحن والتفرق ما لا يكاد يحصى . (وستسمع شيئا من ذلك) . وكأنه مرمى الدين الذى لا يريد غيره .

وقد جاء فى الصحيح : « لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا » .

وقال تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » . وقال : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تَفَرّقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » . وقال مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم مذكرا إياه تلك المنة الكبرى : « فإنّ

حسبكَ اللهُ هو الذى أيّدك بنصره وبالمؤمنين وألّف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألّفتَ بين قلوبهم ولكنّ الله ألّف بينهم إنه عزيز حكيم » .

وقد أثنى على قوم بقوله عز وجل : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلاًّ للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم » وقال : « لا خيرَ فى كثيرٍ من نجْواهم إلا من أمَرَ بصدقة أو معروفٍ أو إصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما » . وقد أُمِرْنا بلين الكلام وإفشاء السلام ، ونهينا عن الخصام فوق ثلاثة أيام .

وقد جاء كل ذلك طلبا للمحبة ومحافظة على مباديها ، رجاء أن تنتهى بالناس الى غايتها فيزول عنهم الشقاء وتتم لهم السعادة . فإن استطعت أن تبيت وليس فى قلبك بغض لأحد فافعل . أزل ما فى قلبك من الحقد للناس كافة ، وتودد إليهم ليصفو عيشك وتطيب حياتك .

تحبب الى جيرانك وأقاربك بقدر ما يمكنك ، وابذل الوسع فى ذلك . (وأصل الحب التحابب) . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » . أخرجه البخارى ومسلم . « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن : قيل : من يا رسول الله ؟ قال : الذى لا يأمن جاره بوائقه » . رواه البخارى ومسلم . وقال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن الى جاره ؛ ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ؛ ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت » . رواه مسلم .

صالح أعداءك ، وأرح نفسك من عناء الفكر ، وقلبك من تدبير السوء ، واربأ بعمرك العزيز أن تصرفه فى طرق العناد وأسباب الفساد .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « أربعٌ مَن كنّ فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان ، وإذا حدّث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » رواه البخارى ومسلم .

اسباب المحبة

المحبة : مركوزة فى النفوس ، ولا نعيم للقلوب إلا بها ، حتى إن من ليس له محبوب مخصوص تراه عند سماع النغمات أو هبوب النسيم يئن أنينا ويحن حنينا ، وربما بكى تلهفا أو سرورا إذا كان رفيع الاستعداد رقيق الفؤاد .

وهذا النعيم الذى يجده ، وتلك اللذة التى يشعر بها ، ليس منشؤها التلذذ بالأصوات واستحسانا للنغمات ، بل من أجل أن ذلك حرك من نفسه ساكنا وهيج كامنا ، وإن كان لا يدرى الى أى شىء يحن أو لماذا يئن ؛ ولكنه مقتضى الغريزة الانسانية والحكمة الربانية . وليس بلازم أن نأتى على كل ما فى الأمر من سر . فيمكنك أن تهيج تلك الغريزة من نفسك ، فإن أصل الحب التحابب . ولهذا ندبنا الدين الحنيف لكل ما عسى أن يكون وسيلة لذلك من زيارة بعضنا بعضا ، ومودة بعضنا بعضا ، وإهداء بعضنا بعضا ، ومصافحة بعضنا بعضا ، الى غير ذلك مما جاء فى السنة .

وقد قالوا : إن العشق فى أول أمره يكون اختياريا ثم يصير اضطراريا ؛ فهو بمنزلة الشراب تستطيع أن تشرب وألا تشرب ، ولكن لا تستطيع بعدُ ألا تسكر . ولعلك عاينت من الأسباب التى استعملتها لتحبيب بعض القلوب إليك شيئا كثيرا .

وأما الأسباب الطبيعية للمحبة ، فأقواها التناسب بين الأرواح ، فإنها جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف . كما فى الحديث . وعلى قدر ذلك التناسب يكون الحب ، وما حُشر المرء مع من أحب إلا لكونهما من واد واحد . ولهذا السبب قد تتعجب من محبة بعض الناس لبعض على غير معنى فيه ، غافلا عن هذا التشاكل الروحانى الذى هو أقوى الأسباب وإن كان أخفاها ، وهو السبب الذى لا يلحقه زوال ولا يعتريه اضمحلال ؛ وصاحبه هو المحبوب لذاته لا لعلة ولا غرض .

وأما من أحبك لإحسانك إليه — والاحسان من أسباب المحبة — فقد تتغير محبته

إذا انقطع إحسانك عنه . وربما عاداك وأضرك إذا وجد فى ذلك فائدة أكبر وثمرة أعظم متى كان خبيث الطبع لئيم النفس ، لأنه ما أحبك إلا لغرضه ، فهو مع الغرض حيث كان . ومحبة الأزواج والأصحاب تارة تكون من قبيل المحبة التى للأغراض وقضاء المآرب وتبادل المنافع وكثرة الفوائد ، وهى المحبة التى لا تدوم ؛ وتارة تكون للمناسبة بين النفوس ، فلا تزداد على مر الأيام وكثرة الحوادث إلا قوة ومتانة . وهذا مما ينبغى الالتفات إليه جدا فيما بين الزوجين حتى تكون بينهما ألفة طبيعية ومحبة ذاتية ، فلا يتطرق إليها انصداع ولا يلحقها انقطاع ، وإلا تعاملوا معاملة التجار اللئام ، وذهبوا الى المحاكم بعد قليل من الأيام .

ومما يلتحق بسبب التشاكل الذى شرحناه ما تراه من ميل الصانع الى الصانع ، والزارع الى الزارع ، حتى إن السارق يرتاح للسارق ، والفاسق يرتاح الى الفاسق ، لما بينهما من الصفات المشتركة . (شبيه الشيء منجذب إليه) ، بل ذلك فى غير أفراد الانسان .

وقد قالوا : « إن الطيور على أشكالها تقع » وإن كان كثيرا ما يفرّق بينهم تنازع البقاء ، فيوقعهم فى الشحناء والبغضاء . وأكثر الأسباب الواقعة بين الناس ما دعا اليه الغرض واقتضته الحاجة ، حتى قال أبو حيان النحوى :

لا ترجونّ دوام الخير من أحد فالشر طبع وفيه الخير بالعرض

ولا تظن امرأً أسدى اليك يدا من أجل ذاتك بل أسداه للغرض

ولهذا لا تكاد ترى محبة صادقة ؛ غاية الأمر أن صاحب النفس الشريفة لا ينسى ودًّا ، ولا ينقض عهدا ، ولكنه كثيرا ما يفعل ذلك بمقتضى إحساسه الشريف ، ومروءته الفاضلة ، لا بمقتضى الألفة والمحبة .

وأهل تلك المحبة التى غايتها المنفعة الشخصية أكثر المحبين توددا اليك ، وترددا عليك ، ومسارعة الى امتثال أوامرك ، ولو كلفتهم نقل الصخور أو نطل البحور ، ما دامت اليك حاجاتهم ولديك غاياتهم ، حتى يخيل لك فى تلك الأيام أنك ظفرت بأعظم الناس نفعا

وأرقهم طبعا ، فإذا ظفروا بما أرادوه منك ولم يتوهموا لديك شيئا يعود عليهم ، طاروا من حولك طيران الذباب الى من يبتغون عنده حاجتهم ، حتى إذا نالوا منه بغيتهم فعلوا فعلتهم . فعلى من يريد اتخاذ الأصدقاء أن يبحث عن جوهر النفوس وما لها من الصفات الذاتية والاستعدادات الطبيعية ، ولا يغتر بتلك الألوان البراقة التي يظهر بها الانسان على حسب الحاجة ، فإنه فى ذلك أبرع من الحرباء وأروغ من الثعلب (والانسان مجمع العجائب والغرائب ، ومظهر المتضادات والمتناقضات) .

هذا ومن أسباب المحبة الجمال الظاهرى أو الباطنى ، وبهذا السبب قد أحببنا الأزهار والأطيار ، والصور الجميلة والنقوش البديعة ، فإن الجمال لا يختص بنوع الانسان أو جنس الحيوان ، بل جمال كل شىء فى أن يصل الى كماله الذى يراد منه ، وغايته الممكنة له ، والجمال محبوب بالطبع لذاته ، ولهذا السبب بعينه قد أحببنا الكرماء والفضلاء والعلماء . وإياك أن تكون ممن يقصر الحب على الجمال الحسى والحسن الظاهرى ، فتنكر محبة الله تعالى حبا وجدانيا ذوقيا ، فتكون من العامة لا من الخاصة الذين فهموا قوله تعالى : « يُحِبُّهم ويحبونه » حق الفهم فلم يحتاجوا فيه الى تجوز ولا تأويل .

على أن ذلك غريزة فى الإنسان وإن كانت تحتاج الى التهييج فى بعض الناس الذين لم تفسد إنسانيتهم بالكلية . وإن الذى تجده من محبة العامة لعنترة وغيره من الشجعان ، وتفانى بعض الناس فى محبة بعض العلماء والعظماء ، وارتياح النفس والتذاذها بسماع أخبار سيدنا عمر بن الخطاب فى عدله ، أو سيدنا على بن أبى طالب فى شجاعته وعلمه وسرعة بديهته وقوة حجته ، أو أخبار السموءل فى وفائه ، أو حاتم الطائى فى سخائه ، ليس إلا بمقتضى تلك الغريزة التى تُفضِّل الجمال المعنوى على الجمال الحسى .

هذا وقد رأينا أن نسمعك بعض ما جاء فى السنة مما يناسب هذا الموضوع ، فنقول :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لم يرحم الناس لا يرحمه الله » . رواه البخارى ومسلم . وعنه صلى الله عليه وسلم قال : « ليس منّا من لم يوقر الكبير ، ويرحم الصغير ،

ويأمر بالمعروف، وينه عن المنكر » . رواه أحمد والترمذى وابن حبان فى صحيحه .
وقال صلى الله عليه وسلم : « طوبى لمن تواضع فى غير منقصة، وذل فى نفسه من غير مسألة، وأنفق مالاً جمعه فى غير معصية، ورحم أهل الذلة والمسكنة، وخالط أهل الفقه والحكمة » . رواه الطبرانى .

« لا تنزع الرحمة إلا من شقى » . رواه أبو داود واللفظ له، والترمذى وابن حبان فى صحيحه، وقال الترمذى : حديث حسن .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لقى أخاه المسلم بما يحب ليسره بذلك، سره الله عز وجل يوم القيامة » رواه الطبرانى فى الصغير بإسناد حسن .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « جاء أعرابى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنكم تقبّلون الصبيان وما نقبّلهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك » . رواه البخارى ومسلم .

«دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض» رواه البخارى .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « دنا رجل الى بئر فنزل فشرب منها وعلى البئر كلب يلهث، فرحمه : فنزع أحد خفيه فسقاه، فشكر الله له فأدخله الجنة » . رواه ابن حبان فى صحيحه .

« من نفّس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة؛ ومن ستر على مسلم ستره الله فى الدنيا والآخرة؛ والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » رواه مسلم .

« لا يستر عبد عبدا فى الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة » . رواه مسلم .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : « صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر فنادى

بصوت رفيع فقال : « يامعشر من أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان الى قلبه : لا تؤذوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله » :

ونظر ابن عمر يوما الى الكعبة فقال : « ما أعظمك وما أعظم حرمتك : والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك » . رواه الترمذى وابن حبان فى صحيحه .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله ليعمر بالقوم الديار ويثمر لهم الأموال ، وما نظر اليهم منذ خلقهم بغضاً لهم . قيل وكيف ذاك يا رسول الله ؟ قال : بصلتهم أرحامهم » رواه الحاكم والطبرانى بإسناد حسن .

وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : « أوصانى خليلى صلى الله عليه وسلم بخصال من الخير : أوصانى ألا أنظر الى من هو فوقى وأن أنظر الى من هو دونى ؛ وأوصانى بحب المساكين والدنو منهم ؛ وأوصانى أن أصل رحمى وإن أدبرت ؛ وأوصانى ألا أخاف فى الله لومة لائم ؛ وأوصانى أن أقول الحق وإن كان مرا ؛ وأوصانى أن أكثر من « لا حول ولا قوة إلا بالله » فإنها كنز من كنوز الجنة » . رواه الطبرانى وابن حبان فى صحيحه واللفظ له .

وعن حذيفة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تكونوا إمعة : تقولون : إن أحسنَ الناس أحسنّا وإن أساء الناس أسأنا ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا ألا تظلموا » رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

وعن أبى بكرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة فى الدنيا مع ما يدخر له فى الآخرة : من البغى وقطيعة الرحم » . رواه ابن ماجه والترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما ، رفعه ، قال : « الطابع معلق بقائمة العرش ، فإذا

اشتكت الرحم ، وعمل بالمعاصى ، واجترئ على الله ، بعث الله الطابع فيطبع على القلب فلا يعقل بعد ذلك شيئا » . رواه البيهقى والبزار واللفظ له .

وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله تبارك وتعالى : « وجبت محبتى للمتحابّين فىّ وللمتجالسين فىّ وللمتزاورين فىّ والمتباذلين فىّ » . رواه مالك بإسناد صحيح . وعن زيد بن ثابت رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يزال الله فى حاجة العبد ما دام فى حاجة أخيه » . رواه الطبرانى ورواته ثقات .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث » . رواه مالك والبخارى وأبو داود والترمذى والنسائى .

وعن أبى موسى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « على كل مسلم صدقة . قيل : أرأيت إن لم يجد . قال : يعتمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق . قال : أرأيت إن لم يستطع . قال : يعين ذا الحاجة الملهوف . قال : قيل له : أرأيت إن لم يستطع . قال : يأمر بالمعروف ، أو الخير . قال : أرأيت إن لم يفعل . قال : يمسك عن الشر فإنه له صدقة » . رواه البخارى ومسلم .

وسنعود للموضوع مرة أخرى ، إن شاء الله ؟

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء

حسن البديهة

دخل المأمون يوما ديوان الانشاء فلقى غلاما صبيح الوجه مليح الطلعة قد وضع قلمه فوق أذنه فقال : من أنت ؟ فقال : أنا الناشئ فى دولتك ، المتقلب فى نعمتك ، المؤمل فى خدمتك : الحسن بن رجاء .

فقال المأمون : بحسن البديهة تتفاضل العقول ، ارفعوا هذا فوق مقامه .

حكم العلم على الفلسفة المادية

كتبنا مرارا فى سقوط المذهب المادى وتدهوره الى الحضيض، وصورنا بعض المعارك التى حدثت بينه وبين أركان العلم فى العالم الغربى، ونرى أن الواجب يدعونا الى متابعة الكشف والإيضاح عن هذه المعارك الفلسفية، فإن الدين فى العصر الحاضر لا يخدم بأحسن من دحض هذا المذهب الذى كان له يوما ما رواج لدى بعض العقول فتخيلوه من العلم وما هو منه فى كثير ولا قليل .

راج المذهب المادى فى الثلاثة القرون السابقة على القرن العشرين رواجا عظيما، وبلغ أوج سلطانه فى القرن التاسع عشر بعد ظهور مذهب لا مارك ومذهب دارون فى تعليل وجود الأنواع الحية . ولما دالت دولة هذين المذهبين بتوالى النقد العلمى عليهما، كما بينا ذلك فى مقالات عديدة هنا، أصيب المذهب المادى فى أحصن معاقله، فانكشف لخصومه وجها لوجه، فلم يثبت أمامهم. فإن صادفت له اليوم شيعة، فإنما هى فلول تفرقت هنا وهناك، ولم تبق لها دولة فى أية بيئة من بيئات العلم .

واليوم نأتى على أقوال فى مكافحة المذهب المادى منقولة من كتاب (قواعد الفلسفة الطبيعية) Les bases de la philosophie naturaliote للأستاذ (أندريه كريسون) André Cresson مدرس الفلسفة بجامعة ليون بفرنسا. قال تحت عنوان (الحياة والعلم) :

« لنتأمل فى كائن حى سواء أكان نباتا أم حيوانا يكون تركيبه على شىء من الدقة: فهل يدل مظهره على أنه من عمل طبيعة آلية غير مدركة ؟ إن تركيبه ليدل على غير هذا، بل يدل على أنه إبداع صانع حكيم فكر فيه وأوجده : : كذلك كل ظواهر الحياة تلوح لرائيها من أول وهلة أنها ظواهر قصدت منها غايات معينة .

« فتأمل فى الأعضاء المختلفة التى تعمل فى هضم الأغذية لدى أحد الحيوانات الثديية من الرتب العالية، تزها قد ركبت بتناسب دقيق، وحساب مقدر، بحيث تتكافل كلها فى إنتاج عملها الخاص بها.

« وإذا نظرنا الى أسنان الحيوانات المجترة ظهر لنا جليا أنها وضعت ملائمة لهرس الأعشاب، وقد جعلت لها ألسنة صالحة لالتقاطها. وإذا استجلينا معداتها وجدنا أنها قد جهزت بالأجربة الضرورية التى يستطيع الحيوان أن يملأها بالأغذية التى تكفيه، وأن يجترها منها ثانية ليعيد مضغها فى وقت فراغه. وقد صُنعت لها الأمعاء طويلة لتتمكن من امتصاص المتحصلات الغذائية المستخلصة من المواد النباتية. وعلى هذا النحو من التناسب والتلاؤم تقوم جميع أجزاء هذا الحيوان بحيث إذا أُتينا بضرس من أضراسها أمكننا وصف سائر ما يتبعه من الأعضاء الهضمية. فهل هذا التدبير مما يعقل أن يكون إذا لم تكن قد دعت اليه الغاية التى وجدت هذه الأعضاء لأدائها؟

« وهذا القصد الظاهر فى تكوين الكائنات يمتد الى أبعد مما ذكرنا، فإن أعضاء أى كائن لم يخلق بعضها مناسبا للبعض الآخر فحسب، ولكن قصد منها أيضا أن تحقق حفظ الأفراد وأنواعها فى بيئة معينة أُريد أن تكون على حالة مقصودة.

« تأمل فى تركيب طائر جارح: أفلا تجد تركيبه قائما على الحالة التى يتخيلها فنان عالى الكعب فى الصناعة؟ إذ تجد أنه قد أوتى عظاما خفيفة وعلى جانب عظيم من الصلابة فى وقت معا، وترى له أجنحة واسعة وريشا قويا تسمح له بالطيران والسبح فى الهواء بسرعة، ومنقارا يصلح لتمزيق اللحم، وباصرتين ثاقبتين تكتشف الفريسة من بعد شاسع، أفلم تجعل كل هذه الأعضاء بقصد أن تسمح لهذا الطائر أن يعيش على النحو الذى يعيش عليه منذ وُجد؟ إننا لنشاهد هذه الأمور عينها لو عنينا بدراسة سمكة مفلطحة من جنس (السول) أو حيوانا يعيش فى الماء واليابسة كالفقمة أو نباتا متسلقا كاللبلاب.

« وقصد المبدع الحكيم يظهر فى الكائنات على أجلى ما يكون إذا درست الأعضاء التناسلية . فإن كل كائن حى مجهز بالأعضاء الضرورية التى تمكنه من إكثار آحاد نوعه ، ومن هذه الأعضاء ما هى فى أعلى درجات الإبداع الفنى . فترى اللبن الصالح لتغذية الصغار يتولد فى الوقت المناسب فى أثداء الأنثى من الحيوانات الثديية ، ويكون فى أول أمره خفيفا ، ثم يغلظ تدريجيا على نسبة تقدم الصغار فى السن ونسبة حاجتها لزيادة المواد المغذية .

« كذلك ترى بعض الحبوب محوطا بزوائد قطنية بحيث تصلح لأن يحملها الهواء ويدفع بها الى ناحية بعيدة لتنبت فيها .

« وهناك نباتات لا يمكن إخصابها إلا بواسطة الحشرات ، لذلك أبدع فى تركيب زهورها بحيث إن الفراشة أو النحلة التى تسقط على زهرة منها لا يمكنها أن تدلى بخرطومها الى باطنها دون أن تتحمل بشىء من طلع أعضاء ذكورتها ، فإذا انتقلت منها الى زهرة أخرى من التى تحتوى على أعضاء الأنوثة ، سقط ما على خرطومها على تلك الأعضاء فلقحتها . وقد أودعت هذه الأزهار مادة عسلية تستلذها الحشرات وتتطلبها بنهم شديد ، أفلا يعتبر هذا التدبير برهانا قاطعا على أنه لم يوجد أى عضو من هذه الأعضاء إلا لحكمة سامية ؟

« أيستطيع عاقل بعد أن يقف على كل هذه المشاهد أن يزعم بأن الكائنات الحية مخلوقات آلية لطبيعة لا تعى ولا تبصر ؟

« فلأجل أن تتجنب الفلسفة الطبيعية أن تتهم بحق بأنها خيالية ساذجة ، يجب عليها ، بشرط أن لا تلجأ لغير أصولها الأولية ، أن تفسر لنا ثلاثة أمور :

أولها — كيف تحفظ الحياة وجودها وتسرى من كل فرد الى أمثاله فى الأنواع المختلفة ؟

ثانيها — كيف تكونت هذه المجاميع العضوية متناسبة ومترابطة لغاية مقصودة ، حتى لقد دعيت هذه المجاميع بالمميزات النوعية ؟

ثالثها — كيف تولدت الحياة نفسها فى الطبيعة الجامدة ، وهل يمكن تعليل تولدها بعلة معقولة ؟ »

نقول نحن : إن إجابة الماديين على هذه المسائل غير منتظرة ، وقد سئلوها من قبل فكانت إجابتهم مفككة الأوصال ، متغلغلة فى الخيال ، وليسوا هم اليوم بأحسن حالا مما كانوا عليه بالأمس . وقد سألهم الأستاذ (أندريه كريسون) عن علة تناسب الأعضاء وتكافلها فى الحيوانات ، وعن العامل فى وجودها على مقتضى أصولهم المقررة ، وبين عجزهم عن التعليل العلمى كما رأيت . فلم يبق علينا إلا أن نذكر مناقشته لهم فى مسألة نشوء الحياة ، فإليك ما قال :

« كان الفلاسفة الأقدمون لا يرون فى مسألة الحياة شيئا من الإعضال ، فقد كان كثير منهم يقبل نظرية التولد الذاتى للأحياء الدنيا بدون تحفظ ، فكان الفيلسوف اليونانى القديم (أمبيدوكل) يزعم أن الكائنات الحية تولدت من الأرض تولدا ذاتيا . وفى رأيه أن الذى تولد أولا كائنات مشوهة وأعضاء منعزلة ولم تتولد الأنواع المعروفة الآن إلا بعد هذا العهد . وكان الفيلسوف (لوكريس) اليونانى يقول إن الديدان تتولد من الوحل . وكان الرأى الشائع أن الفيران كبيرها وصغيرها تتولد فى مخازن الأطعمة تولدا ذاتيا ، وأن القمل والبراغيث تتولد على هذه القاعدة فى التراب . وهذا الرأى عينه هو الذى كان سائدا فى القرن السابع عشر .

« ولكن حدث فى القرن السابع عشر نفسه أن اعتراضا وجه الى نظرية التولد الذاتى ، فقد أثبت العالم (ريدى) بأن اللحوم التى تحمى من الذباب بواسطة قماش خفيف يوضع عليها لا تتولد عليها ديدان قط ، ولكن اللحوم التى يقع عليها الذباب ويضع عليها بويضاته تكون مرتعا لتلك الديدان . قال ريدى : وهذا يثبت أن نظرية التولد الذاتى ليست بصحيحة ، فإن الحيوانات لا تتولد إلا حيث تكون البويضات التى تتولد منها قد وضعت فيها .

« فى هذا العهد ظهر (باستور) فقرر أن الحى لا يمكن أن يتولد إلا من حى وقال : إن ذرات لا تحصى من التراب تسبح على وجه الاستمرار فى الهواء ، على كل ذرة منها عدد كبير من بويضات الميكروبات . ومتى وجدت هـذه البويضات البيئة الملائمة لها فقست وتولدت منها تلك الأحياء فتأخـذ فى التكاثر على النظام المعتاد . وقـد برهن على صحة هـذا الرأى بالتجارب البالغة حـد الإتقان ، فـكان يأتى بالأوانى فيطهرها على أتم ما يكون ، ثم يضع فيهـا مواد مختلفة معقمة أبلغ تعقيم ، وكان يعرضها للهواء غير المعقم فتتولد فيها الميكروبات ، ولـكنه متى كان يعقم الأوانى ويقفلها بإحكام حتى لا يتسرب اليها الهواء ، كانت تلك المواد تمكث ما شاء الله أن تمكث دون أن تتولد فيها ميكروبات ، فإذا عاد فعرضها للهواء المشوب بالغبار تولدت فيها ميكروبات على نسبة مقادير ذلك الغبار . فظهر من هنـا بالتجربة أن نظرية (بوشيه) غير صحيحة ، وأن الميكروبات لا تتولد تولدا ذاتيا ، ولـكن من بويضات ميكروبات كانت عالقة بذرات ذلك الغبار . والمسألة باقية عند هـذا الحد ، ولم يشاهد قط للآن حدوث حى إلا من حى » انتهى .

ونحن نسوق هذا كله للقضاء على شبهة من أغرب شبهات الملحدين ، وهى زعمهم أن جميع الـكائنات حدثت بغير قصد .

إذ ليس أبعد فى الضلال من أن يفترض مفترض أن العين على دقة آلاتها وتناسب أجزائها ، لم تخلق فى الـكائنات الحية لغرض مقصود ، ولـكنها لما وجدت اتفاقا بدون قصد أمكن النظر بها والاستفادة منها فى شئون الحياة . وهكذا يقولون فى سائر الجوارح وأعضاء الهضم والإفراز والتناسل . فمثل هذا الهذر لا يمكن أن يعد فى باب الافتراضات العلمية ، ولـكن يجب أن يقذف به الى حضيض الانحرافات العقلية .

قال الفيلسوف الألمانى المشهور (أدورد هارتمان) خليفة (شوبنهور) فى كتابه (المذهب الدارونى) : « إن الرأى الذى مقتضاه عدم وجود القصد فى الـكون عند الدارونيين لا يقوم عليه دليل ، وهو من الأوهام التى لا أساس لها من العلم » .

وقال الأستاذ (فون باير) الألمانى فى كتابه (دحض مذهب دارون) :

« إذا كانوا يعلنون الآن بصوت جهورى بأنه لايوجد قصد فى الطبيعة وأن الكون لا تقوده إلا ضرورات عمياء ، فأنا أعتقد أن من واجباتى أن أعلن عقيدتى فى ذلك ، وهى أنى على العكس أرى جميع هذه الضرورات تكشف عن أغراض سامية » .

هذا ولو شئنا الاستئناس بمئات من أقطاب العلم والفلسفة على فساد رأى عدم وجود القصد فى الخليقة لما كلفنا ذلك أكثر من النقل . ومتى ثبت وجود القصد فى الكون فقد ثبت وجود المدبر الحكيم جل وعلا من طريق محسوس لا سبيل للجدل فيه مصداقا لقوله تعالى : « أفى الله شك فاطر السموات والأرض » .

محمد فريد وجدى

الشجاعة فى قول الحق

روى طاوس أن الحجاج سمع رجلا من اليمن رافعا صوته بالتلبية فى الحرم المكى ، فطلبه ، فلما مثل فى حضرته قال له : أنت من اليمن ؟ فقال : نعم . فقال له الحجاج : كيف خلفت محمد ابن يوسف ؟ (يعنى أخاه وكان عامله على اليمن) فقال : خلفته عظيما جسيما خراجا ولاجا . قال : ليس عن هـذا سألتك ، كيف خلفت سيرته فى الناس ؟ قال : خلفته ظلوما غشوما ، عاصيا للخالق مطيعا للمخلوق . فازور الحجاج من ذلك وقال : ما حملك على هذا وأنت تعلم مكانته منى ؟ فقال له الأعرابى : أفتراه بمكانته منك أعز منى بمكانتى من الله تبارك وتعالى وأنا وافد بيته ، وقاض دينه ، ومصدق نبيه (صلى الله عليه وسلم) ؟! فوجم الحجاج ولم يحر جوابا حتى خرج الرجل بلا إذن .

قال طاوس : فتبعته حتى أتى فتعلق بأستار الكعبة فقال : بك أعوذ وإليك ألوذ ، فاجعل لى فى اللهف الى جوارك والرضا بضمانك مندوحة عن منع الباخلين ، وغنى عما فى أيدى المستأثرين . اللهم فرجك القريب ، ومعروفك القديم وعادتك الحسنة !

باب الأسئلة والفتاوى

الأذن فى النكاح

ورد الى إدارة المجلة ما ملخصه :

يستفتى حضرة الأستاذ الشيخ أحمد الروز بهانى الفرقانى المدرس الحسبى فى قرية فرقان « العراق » عن حكم حادثة وقعت ، وحاصلها ما يأتى :

جرى عقد نكاح بين اثنين شافعيين أحدهما وهو الزوج عن نفسه والثانى عن أخته البالغة وكان المتعاقدان قلدا مذهب أبى حنيفة فى هذا العقد ولم يستأذن الأخ أخته قبل العقد ولم تحضر هى العقد ولكن لما بلغها الخبر سكتت .

وقد قال أحد العلماء للأخ إن هذا النكاح لم ينعقد ، فزوجها هذا الأخ رجلا آخر بإذنها ، فأى العقدين صح : أهو الأول أم الثانى ؟

الجواب

مذهب الشافعية أن من نكح نكاحا مختلفا فيه بين الأئمة ، فإن قلد القائل بصحته منهم كان العقد صحيحا . وبما أن اللذين توليا صيغة العقد الأول كانا قد قلدا الإمام أبا حنيفة فى هذا العقد فينبغى أن يحكم فى هذا النكاح مذهب أبى حنيفة رحمه الله .

ومعلوم أن مثل هذا العقد عند الحنفية موقوف على إجازة الزوجة : فإن أجازته نفذ ، وإلا لم ينفذ . وقد قال الحنفية : إذا زوج أخته البالغة بغير إذنها ثم بلغها الخبر فسكتت ، فإن كانت بكرا فسكوتها إجازة للعقد ، وإن كانت ثيبا فلا يعتبر سكوتها إجازة .

فإن كانت الزوجة فى هذه الحادثة بكرا نفذ العقد الأول وكان العقد الثانى باطلا ، وإن كانت ثيبا لم ينفذ العقد الأول وكان العقد الثانى صحيحا . والله الموفق للصواب

يوسف المرصفى ، الحسينى سلطان	عبد السلام العسكرى ، حسين البيومى
الشافعى الشافعى	الحنفى الحنفى

الحصة العشرية — والسماد الكيماوى

وورد الى إدارة المجلة ما يأتى :

١ — كنت فى أحد المجالس فطرح على بساط البحث مسألة الحصة العشرية التى تتقاضاها الحكومة الانكليزية عندنا هل تحسب من الزكاة الواجبة فيما أخرجت الأرض أم لا وما وجه ذلك ؟ مع العلم أنها تتقاضى ضريبة أخرى على رقبة الأرض تسمى (ويركو) .

٢ — لقد استعمل الناس الآن السماد الكيماوى وهذا يكلف أصحاب الأراضى نفقات وافرة ، فهل هذه الكلفة ترد نصاب الزكاة فيما سقت السماء الى نصاب ما سقى بالنواضح وما ماثلها أعنى نصف العشر بجامع الكلفة فى كل ؟ أرجو أن تحيلوا هذين السؤالين الى لجنة الفتاوى فى مجلتكم راجيا الإجابة عنهما . والسلام .

توضيح السؤال الأول أن أصحاب الأراضى عندنا يزرعونها من مختلف الحبوب من حنطة وشعير الخ وخضار وما شاكلها من بطيخ وبندورة . والحكومة الأجنبية الإنكليزية أو ما شاكلها من الحكومات الاستعمارية ترسل مقدرين أو مخمنين فيقدرون الناتج ويأخذون منه العشر . ولا يخفى أن الحكومة الإنكليزية ليست من أصحاب الزكاة الثمانية .

وقد أراد البعض أن يقول يمكن اعتبارهم من المؤلفة قلوبهم . ولكن شتان بين هؤلاء وهؤلاء كما لا يخفى على فضيلتكم . وميزانية الحكومة — كما هو معروف — تصرف على الموظفين وفى سبيل الطرق الخ . وعلى الجملة فقد اختلفت الأنظار فى ذلك . وأرجو أن تلاحظوا أن ضريبة الرقبة المعروفة فى كتب الفقه بالخراج أو فى اصطلاح اليوم (بالويركو) تستوفيها الحكومة علاوة على العشر المذكور ؛ وقد سئلت عن ذلك أثناء تجوالى فى القرى للوعظ والإرشاد فلم أقطع برأى فى الموضوع حتى أقف على رأى أساتذتى فى الأزهر المعمور .

توضيح السؤال الثانى — لقد ارتقى الناس فى شئونهم الزراعية كثيرا . وطبعا يتبع ذلك كثرة النفقات عليها . فمثلا مسألتنا هذه — السماد الكيماوى — تكلف الفلاح نفقات وافرة نظراً لأسعاره الغالية غير أنه يأتى بمحصول طيب، وبما أن الشارع الحكيم فرض العشر فيما سقت السماء لقلة الكلفة ونصف العشر فيما سقى بالنواضح والنواعير وغيرها من الآلات الحديثة للكلفة ، فهل يجوز أن تعتبر الكلفة علة ونأخذ نصف العشر من الحبوب وإن سقيت بماء السماء ؟ سعيد عبد الله صبرى

قلقيلة — فلسطين

الجواب

١ — مذهب الحنفية أن أرض مصر والشام خراجية وليست عشرية ، وأنه لا يجب فيها إلا الخراج ، فما يؤخذ منها خراج لا عشر سواء كان بعض الخارج منها أو غيره ؛ وأن ما يؤخذ منها بتقدير الحكام على ما جاء فى الشق الأول من الاستفتاء إنما هو خراج مقاسمة ، إذ الخراج قسمان : خراج وظيفة ويكون بما يثبت فى الذمة من الدنانير والدراهم وغيرهما من المكيلات والموزونات التى يقدرها الحاكم على الأرض فى كل عام ؛ وخراج مقاسمة وهو ما كان ببعض الخارج كالخمس والسدس والعشر ونحو ذلك .

وإذاً يكون ما يأخذه الحكام من عشر الخارج على ما جاء فى السؤال أو (الويركو) هو كل الواجب فى تلك الأرض ، وليس فيها واجب آخر لا عشر ولا غيره ، لأنه لا يجتمع عشر وخراج ، وليس فى الأرض وظيفة إلا العشر والخراج .

٢ — مذهب الحنفية أن المدار فى وجوب العشر أو نصف العشر فى الأرض العشرية إنما هو على السقى وحده : فإن كانت الأرض العشرية تسقى بماء السماء أو سيحا بلا آلة وجب فيها العشر ، وإن كانت تسقى بالآلة ففيها نصف العشر بلا رفع مؤن الزرع وكلفه ، وبلا إخراج البذر ، لتصريحهم بوجوب العشر أو نصفه فى كل الخارج ، فثمن الأسمدة الكيماوية لا يغير شيئا من الواجب . والله الهادى الى سواء السبيل ؟

عبد السلام العسكرى الحنفى ، حسين البيومى الحنفى

حكم الصرف من أموال الزكاة

على المستشفيات ونحوها

حضرات الأفاضل كبار هيئة العلماء بالأزهر الشريف حرسهم الله .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد : فإنا نرفع إليكم بحقائق واقعة نرجوكم الإفتاء فيها ، لا زلتم للمسترشدين أهلا ، وهى :

١ — إن فى عدن مستشفى كبيرا هو المستشفى الأهلى تعالج فيه جميع المرضى على اختلاف لغاتهم وأديانهم والمسلمون فيه هم الأكثرية الساحقة . والواقع أن مرضى اليهود والمجوس والهندوس لا يعتمدون فى أقواتهم وأسباب راحتهم على المستشفى ، بل إن جمعياتهم الخاصة تواسيهم وتوفر لهم القوت اللازم والملابس وغير ذلك من أسباب الراحة ، وتشترى لهم حتى الأدوية التى لا توجد فى المستشفى ، مع أن المسلمين لا يواسيهم أحد لا بالقوت ولا الثياب ولا شىء غيره ، بل لا مفر لهم من استعمال ما يقدمه المستشفى وهو قوت لا يسمن ولا يغنى . وهكذا يذهب أكثر مرضى المسلمين ضحية الإهمال .

ومع هذا فالمستشفى يقوم بتكفين الموتى وغسلهم ودفنهم بصورة غير مرضية ؛ والكفن مثلا الذى يعطيه المستشفى يكون دائما غير كاف لستر الميت . وهكذا فضلا عن الغسل والدفن .

٢ — النساء من أرباب العائلات الفقيرة يفضلن الموت على المعالجة أو التطبيب فى المستشفى الأهلى بحجة أن الرواقات المعدة فى المستشفى لا تضمن لهم الراحة وحفظ التقاليد والحجاب اللازم ، حيث يحشر سرير كل مريض بجانب الآخر . ولهذا ولما سنعرضه على فضيلتكم يمكن تطبيب النساء وأرباب العائلات على أيدى الأطباء والممرضات الماهرات بدلا عن تحمل الآلام ، والبقاء من دون علاج فى بيوتهن ، وقد أودى بأرواح كثيرة وجعل النساء عرضة لدجل الدجالين والمشعوذين .

٣ — لا يوجد فى عدن مدرسة عربية إسلامية لبنات المسلمين . ولهذا انتهزت الفرصة جمعية التبشير الدنماركية وفتحت لبنات المسلمين مدرسة يتعلمن فيها القراءة والتطريز والخياطة ، وهناك يتشربن المبادئ المسيحية ويخرجن عن تعاليم الاسلام . ولهذا ترانا بحاجة ماسة الى تأسيس مدرسة للبنات فى عدن نجلب لهن المعلمات الصالحات المسلمات من الخارج ، وننقذ أمهات المستقبل من حالة إذا استمرت تقضى على العقائد الاسلامية قضاء مبرما .

مما ذكر يظهر لكم سادتى أن مسلمى عدن بحاجة الى مالية يصرفون أو يواسون منها المرضى من الفقراء فى المستشفى الأهلى ، ويعمرون منها بيوتا خاصة للنساء وأرباب العائلات حول المستشفى ، تضمن لهم الراحة والسكينة ، وتحفظ لهم تقاليدهم الاسلامية ؛ وأيضا يقومون بتأسيس مدرسة عربية إسلامية لبنات المسلمين اللاتى هن الآن تحت تأثير المبشرات المسيحيات .

المالية المنشودة غير متيسرة ؛ والأغنياء وأهل الثراء لا يتبرعون بالمال لهذه المشروعات الحيوية المهمة .

وهكذا أصبح المسلمون والمسلمات بحالة تعسة محتقرين فى أعين الأجانب ، مع أن الطوائف الأخرى تقوم بكل هذه المشروعات والأعمال نحو أبناء وبنات ملتهم كالإفرنج واليهود والمجوس والهندوس . بل لكل طائفة مستشفاها ومدرستها وملاجئها الخاصة .

أما نحن ونحن أهالى البلدة فلسنا إلا كالمتشردين ومرضانا فى الأزقة والمستشفيات بلا راع ولا ذى مروءة يواسيهم ، حالة والله تدمى الفؤاد وتفتت الأكباد !

لما وصلت الحالة الى هذه الدرجة من الخذلان فكر جماعة من أهل الخير فى تعيين لجنة إسلامية تؤلف من أغنيائها ووجهائها ، وقصد اللجنة هذه أن تأخذ قسطا من أموال الزكاة المفروضة على المقتدرين من المسلمين حتى تجمع المال ليصرف فى مصالح الفقراء والمساكين فى هذه البلاد فى حدود المشروعات الثلاثة المذكورة آنفا ولو تدريجيا .

فالرجاء من هيئة العلماء الأعلام فى الأزهر الشريف أن يفتونا فى المسألة . وهل يجوز أخذ الزكاة أو قسط منها لهذه الأغراض المهمة ؟

أرجو أن تنشروا السؤال مع الجواب على صفحات مجلة (نور الاسلام) التى كساها الله نورا على نور ، لما تنشرونه فيها من الدرر الغاليات ، والجواهر المثمنات ، والحكم البالغات ، وقد طهرتموها من الحشو واللغو والهذيان . جزاكم الله خير الجزاء ، ونفع بكم العباد ، آمين م ؟

أحمد محمد المدنى

الجواب

إن حال المسلمين اليوم يذيب الفؤاد ويفتت الأكباد على ما شرحه السائل : تخاذل وانحلال ، وتأخر واضمحلال ، واختلال واعتلال ، وهبوط وسقوط ، وجمود وخمود الخ .

ولا غرو فقد اشتغل كل منهم بنفسه ، فلا يعنيه إلا منفعته الذاتية ، ومصلحته الشخصية ، فلا يهتم بأمر أخيه المسلم ، ولا يفكر فى مصلحة أمته ولا منفعة مواطنيه ولا مجد بلاده . ضاقت الأنظار ، واختلت الأفكار ، وذهبت الرحمة من النفوس ، وأقفرت القلوب من الإخلاص والرءوس من التفكير . وما كان ينبغى ذلك لقوم أمروا أن يكونوا كالبنيان يشد بعضه بعضا ، وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تألم له سائر الجسد . وقد كنا أرفع الأمم على الإطلاق وأعزها ، وكان الناس يدخلون فى دين الله أفواجا لما يرون فيه من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم ، وما يتجلى فيه من ارتباط القلوب وتآلف النفوس ، فقد أورثهم الإيمان المحبة التى جعلتهم إخوة يتراحمون عند الشدائد ، ويتعاطفون لدى الكوارث .

و« لا تنزع الرحمة إلا من قلب شقى » كما فى الحديث الصحيح ، فأصبحنا وقد اشتغل كل بنفسه وصار لا يعنيه إلا شخصه ، فتقطعت الروابط بينه وبين إخوانه المسلمين ، فلم يشاركهم فى أية مصلحة يعود نفعها على الأمة . وقد غلبت عليه محبة الذات ، فتفتحت له

طرق الاحتيال فيما يعود على شخصه بما يحب من الشهوات مما يظنه سعادة وفلاحة، وخيل له أن ذلك استقلال ونهضة ورقي وتقدم، فأضاع بذلك مصلحته ومصلحة أمته، وقضى على مجده ومجد بنى جلدته. أو نقول: كانت النتيجة لهذه النزعة الحمقاء استقلال الأفراد واستعباد الأمم. وإنها لنفثة مصدور، فلنتكلم فيما يريد السائل، فنقول:

لا يسع العارف بروح الشريعة ونظرها البعيد وحكمتها السامية إلا أن يفتى بجواز صرف الزكاة فى تلك المشروعات الخيرية التى ذكرها السائل، فإن الشارع قد راعى فى مصارف الزكاة مصلحة الدين، ومصلحة العباد، وحاجة الفقراء والمضطرين والمحتاجين.

ولم يفت ذلك علماء الأمة وأئمتهم من السلف والخلف رضى الله عنهم، فقد ذهب كثير الى أنه يجوز أن يصرف سهم سبيل الله الى الحج وإعانة الحجاج من المسلمين. يروى ذلك عن ابن عباس وهو قول الحسن. واليه ذهب أحمد بن حنبل واسحق ابن راهويه، لأن الأمر على ما قال بعضهم من أن اللفظ عام فلا يجوز قصره على الغزاة فقط. وقد أجاز بعض الفقهاء صرف سهم سبيل الله الى جميع وجوه الخير من تكفين الموتى وبناء الجسور والحصون وعمارة المساجد وغير ذلك، لأن قوله: « وفى سبيل الله » عام فى الكل، فلا يختص بصنف دون غيره.

على أن من ذكرهم السائل فى سؤاله داخلون فى الفقراء والمساكين، فإن أولئك المرضى الذين بيّن سوء حالهم وتلك السيدات اللاتى يلحقهن من الضرر ما ذكر المستفتى هم من جملة الفقراء بلا شك. والجماعة التى تأخذ الزكاة لتقوم بتلك المصالح وتنظمها وتجعلها على قاعدة ثابتة نافعة وترسم لها خطة تضمن لها البقاء والمنفعة، هذه الجماعة كأنها وكيلة عن أولئك الفقراء تقوم برعايتهم وإصلاح شئونهم نيابة عنهم حيث تعذر قيامهم بذلك لأنفسهم. ولو فرضنا أن هناك فقيرا تعذر تسليمه الزكاة لجنونه مثلا أو لغير ذلك لم نتوقف فى جواز إعطاء الزكاة لوليه والقائم على أمره. فهكذا هنا. والعبرة فى الأمور كلها بمقاصدها وغاياتها.

هـذا ما تقتضيه روح الشريعة وترشدنا اليه مراميها التى محورها الذى تدور عليه إنما هو الحقائق والمصالح . ولا يمكننى أن أفتى بغير هذا . غير أنى قبل إلقاء القلم لابد أن أوصى بانتقاء تلك الجماعة من المخلصين الأتقياء الذين يخافون الله ويراقبونه فى السر والعلانيـة مع النظر البعيد والتدبير الحـكيم . وليكن القانون فى ذلك واضحا جليا غير قابل لتأويل المؤولين ولا احتيال المحتالين . والله يتولى هدى الجميع بمنه وكرمه .

« حكم أكل الـكلب على مذهب المـالـكية »

وورد إدارة المجلة سؤال يقول فيه مرسله : إنه جاء بمجلة نور الاسلام صفحة (٧٣٣) أن علماء المـالـكية رضى الله عنهم لهم قولان فى أكل لحم الـكلب : قول بالـكراهة وقول بالحرمة ، وأن قاضى جبل عجلون الشرعى الشيخ عثمان الشنقيطى قال : إن القائلين بالـكراهة ليس لهم وجود بالمذهب . فهل القول بالـكراهة موجود بالمذهب ، وهل له اعتبار بين علمائه ؟

أفيدونا الجـواب . أرجو أن يـكون الجـواب من حضرة الفـاضل الشيخ يوسف الدجوى حسب طلب فضيلة قاضى شرع عجلون .

شريف محمد
نائب بالجيش العربى . عجلون

الجواب

الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى .

وبعد فالقولان المذكوران مذكوران بالمذهب بلا شك ، بل القـول بالـكراهة عند المـالـكية فى كتب المتأخرين أشهر من القول بالحرمة . وقد اقتصر عليه العلامة الأمير فى متن المجموع الذى هو من أعظم الـكتب المعتبرة عندنا ، وصاحبه هو أمير العلماء الذى قال فيه قائلهم :

وإن يك ضاهاك فى العلم قوم فأنعم بكل وأنت الأمير

وإن كان شمس الدين اللقانى وأشياخه يفتون بالحرمة لا بالـكراهة . وأى غرابة فى القول بالـكراهة غير ما رسخ فى النفوس من استقذار الـكلب أو اعتقاد نجاسته ؟

ولكن مذهب مالك يقرر أن كل حى طاهر ، فالكلب عنده طاهر حتى فمه ، ما لم يكن متلوثا بالنجاسة ، فنجاسته عرضية لا ذاتية .

أما القائلون بنجاسة الكلب فقد فهموا من النهيِ عن سؤره نجاسة عينه . وليس ذلك بلازم ، لأن النهى له أسباب كثيرة . والنهى عن سؤره محمول على الكراهة عند المالكية . وكيف نستغرب القول بالكراهة بعد ما قرر بعض الأصوليين أن كل ما لم يرد تحريمه فى الكتاب والسنة فهو غير محرم لأن الأصل فى الأشياء الإباحة ؟ ونحن نستصحب الأصل حتى يرد النص . وقد قال تعالى : « قل لا أجد فيما أوحى إلى مُحرّما على طاعم يَطْعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير » الخ .

ولعل الشافعى رضى الله عنه قد فهم من الأمر بقتل الكلب فى الحل والحرم مع النهى عن قتل الحيوانات المباحة الأكل أن العلة فى ذلك هو كونه محرما .

أما مالك رضى الله عنه فقد فهم أن علة الأمر بقتل الكلاب إنما هى التعدى والإيذاء لا التحريم ولا النجاسة .

وللمجتهدين فى المسائل الشرعية أنظار دقيقة ومدارك كثيرة . والأمر فى الفروع هين والظن فيها كاف كما بيناه فى مقالاتنا العديدة التى نشرتها المجلة . وماذا نريد بعد أن جعل الله لكل مجتهد أجرا أخطأ أم أصاب ، و« لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » ؟ ولا معنى للجزم فى مسألة الكلب بنفى أحد القولين .

وأكبر ظنى أن المستنكر إنما يستمد استنكاره من النفور الطبيعى الذى نشأ عليه ، والعقيدة التى رسخت فى نفسه بمقتضى البيئة التى وجد فيها .

وقد بلغنى أن فريقا من الأوربيين يستطيبون لحم الكلب غاية الاستطابة . وهو عندهم بمنزلة الضأن عندنا . هذا ما تيسر فى الوقت ، وهو كاف إن شاء الله .

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء

المدنية الفاضلة فى الاسلام

إن من أخص صفات المدنية السامية أن يكون بين الناس فى علاقات بعضهم ببعض، آداب عالية وعادات حسنة يتواضعون عليها فيما بينهم، ويراعونها أدق المراعاة، فى تعاملهم وتخاطبهم . هذه الصفات هى التى تميز الأمم المتحضرة عن القبائل المتبدية . والاسلام الذى استوفى جميع مقومات الأجساد والأرواح والاجتماع لم يغفل هذه الناحية من الأدب المدنى، فوفاه حقه، فجاء أكمل ما عرف فى تاريخ المدنيات الى اليوم .

ومن أعجب ما يعرف عن الاسلام أنه كما عنى بإحداث أكبر انقلاب شهدته البشرية فى الدين والاجتماع والعلوم والصنائع، عنى كذلك بهذه الناحية من المظاهر المدنية التى تشف عن كمال الذوق، ورقة العواطف . فقد رغب فى تحسين المظهر : من إجادة الملبس والتعطر، وقص الشعر والأظافر، ومراعاة قواعد النظافة، والتظرف فى التعبير، والبشر والهشاشة، ودعوة الناس بأحسن ألقابهم، وعدم مجابهتهم بما يكرهون، وبدئهم بالسلام وحسن الإصغاء اليهم . وإنا لباسطون هنا بعض ما سنه الاسلام من هذه السمات المدنية، موردين ما جاء فى حقها من الأحاديث والآثار النبوية، وما نقل عن الصحابة والتابعين فى الجرى عليها، فإنها معالم للمدنية الفاضلة، وأعلام للآداب الكاملة فنقول :

السلام والمصافحة : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه حتى يبدأ بالسلام » . وفى هذا إشارة الى أن الكلام قبل السلام سوء أدب يستحق فاعله أن يجازى عليه بإغفال شأنه . وقد سن النبى صلى الله عليه وسلم هذه السنة بعمله، فقد قال بعضهم : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أسلم ولم أستأذن، فقال رسول الله : ارجع وقل السلام عليكم وادخل .

وقد ندب النبى صلى الله عليه وسلم الى العمل بهذا الأدب حتى مع الأهل، فقد روى

جابر عنه أنه قال : « إذا دخلتم بيوتكم فسلموا على أهلها فإن الشيطان إذا سلم أحدكم لم يدخل بيته » . وهذا ظاهر ، فإن الانسان إذا دخل بيته مسلما فجدير أن يكون ذلك أوجب للوئام والألفة بينه وبين أهله ، فماذا عسى أن يجد الشيطان ما ينزغ به بين أهل بيت هذا شأنهم من الصفاء ومراعاة الكرامة ؟

وقد صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الحكمة فى التوصية بإفشاء السلام بين المؤمنين هى تمكين أواصر التحاب بين آحادهم ، والتحاب بين الآحاد أساس الاجتماع الوثيق العرى ، المحقق لفائدة المجتمعين ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنون حتى تحابوا ، أفلا أدلكم على عمل إذا عملتموه تحاببتم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : أفشوا السلام بينكم » .

وقد أذاع النبى صلى الله عليه وسلم : عادة المصافحة بين العرب وكانوا يعدونها من عادات الأعاجم . روى البراء بن عازب رضى الله عنه أنه دخل على النبى وهو يتوضأ فسلم فلم يرد عليه حتى فرغ من وضوئه ، فرد عليه ومد يده اليه فصافحه ، فقال البراء : يارسول الله ما كنت أرى هذا إلا من أخلاق الأعاجم ، فقال له : إن المسلمين إذا التقيا فتصافحا تحاتت ذنوبهما .

وعن أنس قال صلى الله عليه وسلم : « إذا التقى المؤمنان فتصافحا قسمت بينهما سبعون مغفرة : تسع وستون لأحسنهما بشرا » . فانظر كيف ندب الى البشر عند المصافحة ، والبشر علامة الصفاء النفسى والإقبال القلبى . فيعسر على المتصافحين بعد هذا البشر وهذا الإقبال أن يتنازعا على تافه من الأمور ، فإن كان بينهما أمر ذو بال عمدا الى المياسرة والمحاسنة ، وحسما ما بينهما من خلاف على صفاء ومحبة .

وكان أنس رضى الله عنه يمر على الصبيان فيسلم عليهم . ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه فعل ذلك .

وسن النبى تحية الانصراف أيضا فقال : « إذا انتهى أحدكم الى مجلس فليسلم فإن بدا له أن يجلس فليجلس ، ثم إذا قام فليسلم ، فليست الأولى بأحق من الأخيرة » .

وقد عنى النبي صلى الله عليه وسلم بأمر السلام حتى سن له نظاما على حسب ما يكون فيه الانسان من حال ، فقال : « يسلم الراكب على الماشى ، والماشى على القاعد ، والقليل على الكثير ، والصغير على الكبير » .

قد ذكر البشر عرضا فى أمر السلام ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم أفرده بالتنويه ، فقد روى أبو هريرة أنه قال : « إن الله يحب السهل الطلق الوجه » وقال : « اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة » . وقال معاذ بن جبل قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث ووفاء العهد وأداء الأمانة وترك الخيانة وحفظ الجار ورحمة اليتيم ولين الكلام وبذل السلام وخفض الجناح » . فانظر كيف وضع لين الكلام وخفض الجناح فى صف تلك الخصال العالية وجعله علما من أعلام الطريقة المثلى .

وقد زاد النبي صلى الله عليه وسلم هذه الخصلة تنويها فروى أنه قال : « أتدرون على من حرمت النار ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : على الهين اللين السهل القريب » ، فإذا علم الناس أن النار حرمت على من هذه صفته فكيف لا يتنافسون فى التخلق بها ، وكيف تروج فى بيئتهم صفات أهل الجاهلية من الغشمرة والغطرسة والجَبَرية .

ومن خلال المدنية الفاضلة التى سنها الاسلام توقير الشيوخ والعطف على الأطفال ، فقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ولم يرحم صغيرنا » . قال العلماء ومن تمام توقير الشيوخ أن لا يتكلم بين أيديهم إلا بالإذن . قال جابر رضى الله عنه : قدم وفد جهينة على النبي صلى الله عليه وسلم فقام غلام ليتكلم ، فقال رسول الله : « فأين الكبير » ؟

أما خصلة العطف على الصغير فمأخوذة من الحديث المتقدم . وكان من عادته صلى الله عليه وسلم التلطف بالأطفال والعطف عليهم . جاء فى سيرته الشريفة أنه كان يقدم من السفر فيتلقاه الصبيان فيقف عليهم ، ثم يأمر بهم فيرفعون اليه ، فيرفع منهم بين يديه ومن خلفه ، ويأمر أصحابه أن يحملوا بعضهم ، فربما تفاخر الصبيان بعد ذلك فيقول

بعضهم لبعض : حملنى رسول الله بين يديه وحملك أنت وراءه ، ويقول بعضهم : أمر أصحابه أن يحملوك وراءهم .

وروى عنه أنه كان يؤتى بالصبى الصغير ليدعو له بالبركة وليسميه فيأخذه فيضعه فى حجره فربما بال الصبى ، فيصيح به بعض من يراه ، فيقول النبى صلى الله عليه وسلم : « لا تزرموا الصبى بوله » فيدعه حتى يقضى بوله . ثم يفرغ من دعائه له وتسميته ، لئلا يروا أنه تأذى ببوله . فإذا انصرفوا غسل ثوبه بعد .

انظر الى هذا العطف البالغ أقصى غاياته حتى فى حالة بول الصبى عليه ، فلا يريد أن يرفعه حتى لا يزعجه وينغص على أهله . هذا والله مثل أعلى فى هذا الباب ليس وراءه مذهب .

وقد استن أصحابه بسنته ، فأقبلوا على الصبية بوجوههم وقلوبهم وغمروهم فى عطفهم وبرهم . روى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب استدعى رجلا ليوليه بعض عمله ، فبينما هو يعد له كتاب الولاية إذ أقبل غلام له فأخذه عمر فقبله ، فقال له الرجل : أتقبل الصغار يا أمير المؤمنين ، فإنى لم أقبل صغيرا قط . فالتفت إليه عمر وقال له : اذهب فلا حاجة لنا بك فإن من لم يرحم الصغير لا يرحم الكبير ، وأحجم عن توليته .

وقد سن النبى صلى الله عليه وسلم توقير الزائر ، وهو من سمات أهل المدنية الفاضلة ، خلافا لأهل البداوة أو القريبى عهد بالحضارة ، فقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان ربما يزوره زائر وهو جالس على وسادة ولا يكون فيها سعة يجلس معه عليها ، فينزعها ويضعها تحت الذى يجلس اليه ، فإن أبى عزم عليه حتى يفعل . وقد أمر أصحابه أن يستنوا بسنته . وروى أنه دخل بعض بيوته فدخل عليه أصحابه حتى اكتظ بهم المكان ، فجاء جرير بن عبد الله البجلى فلم يجد محلا فجلس عند الباب ، فلف رسول الله صلى الله عليه وسلم رداءه فألقاه اليه ، وقال له : اجلس على هذا . فأخذه جرير ووضعه على وجهه وجعل يقبله ويبكى ثم لفه ورمى به الى النبى وقال : ما كنت لأجلس على ثوبك ، أكرمك الله كما أكرمتنى !

فنظر النبي يمينا وشمالا ثم قال : إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه . وروى أنه صلى الله عليه وسلم لما زاره وفد من النصارى فرش لهم عباءته ليجلسوا عليها

وقد اعتاد أهل المدنية اليوم أن يسموا تواضع الكبار للفقراء والمساكين ديموقراطية ، فترى وزراءهم وكبراءهم يختلطون بهم فى الحفلات ويشاركونهم فى الجلوس معهم فى الدرجة الثالثة بالتراموايات . وقد سبقهم الاسلام فجعل التواضع لأهله شرعة ، تحقيقا لمبدأ المساواة الذى كان هو أول من رفع علمه فى الأرض ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من تواضع لله رفعه . وقال : « لو كان المتواضع فى قعر بئر لبعث الله اليه من يرفعه » وقال : « إن الله تعالى أوحى الىّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد » . وعن ابن أبى أوفى : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتواضع لكل مسلم ولا يأنف ولا يتكبر أن يمشى مع الأرملة والمسكين فيقضى حاجته .

وقد سن الاسلام الاستئذان ، وهو اليوم من الخلال التى تعد من مميزات أهل المدنية ، فتراهم يحرصون عليها ولا يتسامحون فيها ، وأنت ترى أن الاسلام قد سنها لأهله منذ أجيال كثيرة ، قال الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون . فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم »

هذا غيض من فيض مما سنه الاسلام لأهله من سمات المدنية الفاضلة . وجملة ماورد عنها وعمل به منها يفوق ما عليه المتمدنون اليوم رقة ، ويبزه لطفا . وفى ذلك دليل على أن الاسلام شرع ليكون دينا عاما يصلح لجميع العصور ، ويلائم أرقى الحالات العقلية والنفسية ، وليس بعد هذه السنن النبوية والعادات الاسلامية مذهب لمن يتطلب أقصى غايات المدنية . فإذا كانت نفوس لا تزال على صفات أهل الجاهلية من الكبر والجبرية ، والصلف والعُنجهية ، فإن الزمان كفيل بردهم الى الصواب ، وإذ ذاك لايجدون وراء هذا الدين مطلبا ، ولا عن طريقته المثلى متنكبا ؟

محمد فريد وجدى

بسم الله الرحمن الرحيم

مهمة الدين الاسلامى فى العالم

١٨

تطور الأمم فى فهم خير الروابط الاجتماعية

كما أتى الاسلام على أقصى حدود المثُل العليا للخصال التى تتعلق بالأفراد فلم يدع بعدها مرمى لرام، كذلك فعل بالقواعد التى يقوم عليها صرح الاجتماع، فوضعها على أكمل ما يصل اليه العقل من سمو الأغراض وشرف الغايات. وهذا أمر لابد منه لدين هو آخر ما تتلقاه الانسانية من الوحى الإلهى.

وقد بدأنا من أول هذه السنة نكتب فى القسم الاجتماعى من مقاصد الاسلام، فذكرنا فى مقدمتنا روابط الاجتماع المختلفة، وأبنّا أن أساسها الحاجات المادية، فاستبدل بها الاسلام روابط روحانية قائمة على المبادئ الأدبية الراقية، والأصول العلوية الخالدة، فكانت الأمة الاسلامية أول أمة قامت على هذا السمت الإلهى القيم، وهو سمو اجتماعى لم تصل اليه أمة الى اليوم، بل هو المثل الأعلى لاجتماع عالمى يضم تحت ظلاله الجماعات البشرية بأسرها، فتنعم فى بحبوحته بالأمن والسلام العام، وتعيش مطمئنة عاملة على ترقية مواهبها، وتنمية مواردها، فإن اختلفت على شىء ردّته الى أصول العدل المطلق، والحق الصراح.

هذا مبدأ فى أعلى درجات السمو، وفيه شفاء الانسانية المعذبة من منازعاتها المتوارثة، فبم تذرّع الاسلام لتحقيقه، وهل يمكن أن يتفق الناس عليه فى يوم من الأيام؟

دعا الاسلام الى هذه المبادئ، وأكد فى المطالبة بها، وقام المسلمون بها خير قيام

محفوزين بالروح العالى الذى بثته شخصية النبى صلى الله عليه وسلم وسمو التعاليم التى أتى بها.
وهذا فى ذاته يعتبر من أكبر معجزات الاسلام فى نظر علم الاجتماع ، فإن تأسيس رابطة اجتماعية من هذا الطراز فى بيئة لا تقوم روابط جماعاتها إلا على الأغراض المادية المستمدة من أحط الاعتبارات الجاهلية ، لا يمكن أن يسيغه العلم لولا أنه من الحوادث الواقعة . فالواجب على الباحث الاسلامى أن يعطى هذا الموطن حقه من البيان والتحقيق ، ليكون راميا بذلك الى غرضين (أولهما) ما هو بسبيله من أن الروابط الاجتماعية التى أتى بها الاسلام هى المثل الأعلى الذى ستنتهى اليه الجماعات عند ما تبلغ غاية كمالها . (وثانيهما) التنويه بمعجزة علمية للاسلام يقدرها العلم كل التقدير ، ويقف أمامها حائرا لا يستطيع تعليلها من طريق الأسباب العادية .

والذى دعا الاسلام اليه وأقام جماعته عليه هو جملة ما فى الكتاب والسنة الصحيحة : من وجوب الاسلام لله ، وترك ما عليه الناس من العقائد الباطلة ، والعادات العاطلة ، وتحكيم العقل فى التفرقة بين ما هو حق وما هو باطل ، وتجريد النفس لإدراك الكمال المطلق ، وترويضها على القيام على سنة العدل حتى حيال أعدائها ، والعمل بمكارم الأخلاق حتى فى منازعة خصومها ، وعلى ترك التعصب للنفس والأهل والأقربين فى تقدير التبعات ، وتقرير الواجبات ، وعلى البر والإحسان والتعاون ، وعلى محو الامتيازات ، وتساوى الطبقات ، والتوحد فى الوجهة والغاية ، الى آخر ما جاء به من ضروب الكمالات العالية .

تألفت أمة فى صدر الاسلام على هذه الأصول العلوية ، فكانت فذة فى كل وجه : فذة فى تركيبها ، فذة فى وجهتها ، فذة فى غايتها ، فذة فى جلالة آثارها . فإن شئت أن تحيط بكنه الفارق بين ثمرات روابطها الاجتماعية ، وثمرات الروابط العادية التى تقوم عليها الجماعات البشرية ، فقارن بين الشأو الذى بلغته هذه الأمة وبين الشأو الذى انتهت اليه الأمم الأخرى من أول ما دُوِّن فى التاريخ من التطورات الاجتماعية الى

اليوم ، تجد بونا لا يمكن تقدير مداه بحال . فهذه أمة بلغت فى سنين معدودة من طيبات الوجود ، وميزات الحياة ، وحقيقة السؤدد ، مالم تبلغه أمة قبلها ولا بعدها فى القرون الطوال ، فقطعت أدوارا من حياتها كانت كلها خيرا وبركة عليها وعلى العالم كله ، وتركت آثارا لا يزال العالم يذكرها بها الى اليوم .

ولا عجب فإن أمة تتألف على هذه الأصول من الحقائق الإلهية لهى أمة مختارة لإحداث أكبر الحوادث الأدبية والاجتماعية فى الأرض ، تصلح أن ينتدبها الحق لرفع الآصار عن كواهل الأمم ، وكسر المقاطر التى فى أعناقها ، والأغلال التى فى أرجلها ، وقد أدت ما طُلب اليها القيام به من هذا العمل العالى ، فكانت مصدر حياة للجماعات البشرية ، ومقتبس نور لعقولها وقلوبها ، فلاذت بها تستهدى بهديها ، وتستمد من حياتها ، أجيالا طوالا ، وهى الى اليوم تشيد بذكرها ، وتعترف بفضلها ، وقد صرح بعض كبار رجالاتها بأن لا نجاة للعالم مما هو فيه اليوم من العلل الموبقة إلا بالأخذ بأصول الاسلام والقيام على سنته الإلهية .

هنا قد يعترض معترض فيقول : إن هذه الروابط التى تذكرها دينية محضة إن قبلت القيام عليها أمة فى دور من أدوار حماستها الاعتقادية ، فلا يعقل أن تقوم عليها الأمم كافة وهى متجردة للعناية بأمورها المادية ، وماضية فى تطوراتها العلمية والمدنية ، وقد أصبح بينها وبين الشئون الروحية بعد المشرقين .

فنجيب هذا المعترض بأن الذى يريد أن يحكم على مستقبل الأحوال البشرية لا يجوز له أن يعتمد بما هى عليه فى عهدها الراهن ، فيحكم من ذلك أنها لن تبرحه قيد أنملة ، فإن فى ذلك إنكارا لناموس التطور الاجتماعى ، وحكما على الانسانية بعدم الترقى .

وقد مهد الاسلام لإقامة دولته بإصلاح العقلية الإنسانية ، وتقويم نفسيتها ، وتخلية الطريق للحق ، بهدم كل حائل يقف فى وجهها من عقائد مبطلة ، وعادات معطلة ، وتقاليد بالية ، وشهوات حيوانية متغلبة ، فساغ له أن يجعل دولته أمرا واقعا بواسطة المدد الإلهى

المباشر فى سنين معدودة . والمتأمل فى تطورات الانسانية الآن برمتها يجدها تترسم هذه السبيل الإصلاحية عينها مدفوعة بناموس التطور الاجتماعى ، وعوامل الارتقاء الانسانى ، فقد قام (بيكون) فى القرن السابع عشر بوضع الأسلوب العلمى فى المباحث العلمية ، ففرق بين المقررات التى تؤيدها المشاهدة والتجربة ، وبين الظنون والآراء العلمية ، فعدّ الأولى من لباب العلم الصحيح ، واعتبر الثانية افتراضات وقتية قد يقوم على بعضها الدليل من الواقع فيضم للأولى ، وقد يتضح من هذا الواقع نفسه مايدل على فساده فيلفظ به الى عالم الخرافات الوهمية . ولم يهمل (بيكون) الى جانب هـذا أن ينهج طريقة البحث ، ويبين حدود النظر ، ويحـدد وجهات التفكير المنتج ، فكان لعمله هذا أكبر أثر فى تقويم العقلية الانسانية بتحريرها من سلطان المسلّمات التقليدية .

وقام على طريقة بيكون رجال فنظروا فى المذاهب الإلحادية التى كانت تعتبر من مميزات الألمعية . فلما أجروا عليها أسـلوب التمحيص العلمى اتضح لهم أنها مبنية على تحكمات نظرية لا تستند الى عـلم مقرر ، ولا الى رأى مرجح ، فأعلنوا أنها أدخل فى عالم الظنون والأوهام من الخزعبلات الجاهلية التى يدعون أنهم تجردوا منها وترفعوا عنها . وانتدب رجال آخرون للبحث فى خصائص الروح الانسانية محفوزين بما كشفه عالم فى القرن الثامن عشر من وجود تيار حيوى فى الانسان يؤثر به على غيره فيحدث له نوما صناعيا تتجلى بواسطته صفات للروح البشرية تستتر وراء الحـالة الاعتيادية ، وتدل دلالة قاطعة بمـا تأتيه من الخوارق على استقلال الروح عن الجسد ، وعلى أن لها حياة بعد هذه الحياة الأرضية . وقد سمى هذا الضرب من البحث بعلم التنويم المغناطيسى . وكان من أثر ظهور هذا العلم أن استبحر البحث فى النفس وخصائصها حتى أصبح عدد المشتغلين به من العلماء يبلغ آلافا كثيرة فى العالم كله .

أضف الى هذا ما وقر فى صدر الناس أجمعين من أن الحروب بعد اختراع أسباب التدمير الحديثة أصبحت خطرا على المدنية . فألهم أهل البصر من كل أمة أن يعملوا

على تسويد الحق على القوة ، وأن يسعوا فى وضع نظام مقرر لحسم المنازعات الدولية يكون مبنيا على أصول العدل والنصفة ، لا على شهوات النفس البهيمية من التناحر وسفك الدماء البشرية .

هذا الانتقال العالمى العام فى مجالات العقل والعلم والبحث ومحاولة التفاهم على أصول العدل يعتبر تمشيا اضطراريا تدريجيا نحو تحقيق المثل الأعلى الذى نصبه الاسلام للناس فى سنين معدودة بفضل المدد الإلهى . وقد نوّه القرآن بهذا العهد المنتظر فى آية محكمة فقال تعالى : «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أوَلم يكْفِ بربك أنه على كل شىء شهيد» .

هـذا أمر لا بد منه رضى قصار النظر من الماديين أم سخطوا ، وكيف يكون منه بد وكل ما فى الوجـود من حركات عقلية ونفسية يدل على وشك حصوله ؟ فهل يريد الماديون أن يتخيلوا أن هـذه المواهب السامية التى متع بها الانسان تعجز عن أن تصل به الى حال يتفق وحقائقها ، فيبقى جامدا فى عالم الحيوانية لا يبرحه وكل ما ركب فيه من عوامل يدفعه عنها ، ويهيب به للابتعاد منها ؟

نعم لقد عاش الانسان آمادا طويلة يخوض من شئونه فى حمأة الجاهلية ، ويحمل نيرها الثقيل على عاتقه ، وقـد اعتاد الخضوع له حتى صار يقاتل ذيادا عنه ، ولكن مما لا يستطيع أن ينكره منكر أن عوامل الارتقاء ما برحت تتولاه من يوم وجوده وتسوقه الى التلطيف من خشونته ، والتهذيب من وحشيته يسيراً يسيراً وبدون شعور منه حتى نقلته الى حالات بينها وبين ما كان عليه بون لا يستطاع تقدير مداه ، بل حتى خيل له هو نفسه أنه لم يكن على تلك الوحشية فى عهد من عهوده قط .

فأين هو اليوم من ذلك العهد الذى كان فيه لا يعرف للحق اسما ، ولا للعدل معنى ، فكان يجرى فى تصرفاته على ما تدفعه اليه الحاجة غير معتمد بعقل ولا عاطفة ؟

وأين هـو من ذلك العهد الذى كان يعلق الرجـل فيه جماجم قتلاه فى عنقه يحملها أين ذهب إدلالا على شجاعته وعظيم بلائه ؟ !

وأين هـو من ذلك العهد الذى كان فيـه يحمل أبويه إذا طعنا فى السن الى مفازة لا ماء فيها ولا نبات ليموتا على أسوأ حال ، متحللا بذلك من أعباء إقاتتهما ؟ !

وأين هـو من ذلك العهد الذى كان يسفك دم أسراه قربانا للوثن الذى يدين له ، ويبالغ فى الاستكثار من ذلك ، حتى إن أهل مكسيكا الأصليين كانوا قد أقاموا لهم معبدا على عهد اكتشاف الأوربيين لأمريكا ، فنحروا سبعين ألفا من أسراهم قربانا لآلهتهم شكرا لها على ما منحتهم من القدرة على إتمام ذلك المعبد ؟ !

هذا كله كان ، ولم يزل حاصلا لدى القبائل المتوحشة فى القارات الخمس ، فأين منه الأمم المتمدنة وهى تبالغ فى تحـرى الحق والعـدل ، وتغرق فى التوفيق بين العاطفة والعقل ، وتتهالك على وجدان المثل العليا لغرائز النفس ، وتحاول أن تقرن العلم بالعمل فى كل مايهديها اليه البحث ؟ !

أليس المتأمل فى هذا الانتقال البعيد المدى يضطر أن يحكم بأن الانسانية واصلة لا محالة الى ما ترمى اليه من المثل العليا ، وإن بعدت عليها الشقة ، ونأت عنها الغايات ؟ فالمسألة إذن مسألة وقت « ولَتعلمُنّ نبأه بعد حين » ؟ **محمد فريد وجدى**

بليغ العظات

قال بعض العظماء لحكيم من حكمائه : عظنى بعظة تنفى عنى الخيلاء ، وتزهدنى فى الدنيا ، قال : فـكر فى خلقك ، واذكر مبدأك ومصيرك ، فاذا فعلت ذلك صغرت عندك نفسك ، وعظم بصغرها عندك عقلك ، فان العقل أنفعهما لك عظماً ، والنفس أزينهما لك صغرا .

قال ذلك العظيم : فان كان شيء يعين على الأخلاق المحمودة فصفنك هذه . قال : صفتى دليل ، وفهمك محجة ، والعـلم علية ، والعمل مطية ، والاخلاص زمامها . خـذ لعقلك ما يزينه من العلم ، وللعلم مايصونه من العمل ، وللعمل مايحققه من الاخلاص ، وأنت أنت . قال : صدقت .



سورة الرعد

— ١ —

بسم الله الرحمن الرحيم

(بسم الله الرحمن الرحيم الـمـر تلك آيات الكتاب، والذى أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون . الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون) .

وجهت الىّ من عزيز عظيم رغبة فى التعرض لتفسير قوله جل شأنه : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » إذ كان فيها تنبيه المسلمين على ما كانوا فيه وما آلوا اليه ، مما يرجى أن يكون معه ذكرى نافعة لهم ، والذكرى تنفع المؤمنين ، بل لأنها تحوى من النواميس الاجتماعية ما يفيد كل أمة تزنها بمقدارها وتستضئ بنورها ، فهى على وجازتها كوكب ساطع يشع النور الذى يهتدى به من فتح عينيه ، ويسترشد بها من ألقى اليها السمع وهو شهيد .

ولما كانت الآية الكريمة فى أوائل سورة الرعد ، وقد جمعت هذه السورة من دلائل عظمة الخالق جل وعلا ما يملأ القلوب نورا وإيمانا ، ويثلج الصدور ببرد اليقين ، رأيت أن أعرض لتفسير السورة من أولها مستمدا من الله المعونة والتوفيق، والله المستعان .

ولنعرض لكلمة وجيزة جدا فى تفسير البسملة ، إذ كان الكلام فيها قد تناوله العلماء الأجلاء بالبسط والتطويل ، حتى أفردها بعضهم بمؤلفات قائمة بها واقفة عند حدها ، ولكن ليس مقامنا هـذا مقام الإفاضة والإطالة ، وإنما هو مقام الاجتزاء بأقرب حدود الفائدة ، سهلها الله لنا ، ويسر لنا سبلها ، إنه سميع مجيب !

« بسم الله » الباء هنا للاستعانة ، وليست هى الباء التى تسمى باء الآلة مثل التى تذكر فى قوله : كتب بالقلم أو قطعت بالسكين ، فإن معناها فى المثالين المذكورين مقصور على أن مدخولها كالمتمم أو الشرط لما تعلقت به من الأفعال . وإنما هى لتبيين المستمد الأول والمنشأ الحقيقى للفعل الذى تعلقت به ، فهى بمثابة الباء التى تسمعها فى الاستعمالات التى من هذا القبيل — تسمع مثلا بعض القضاة حين ينطق بالحكم يقول : « باسم الملك حكمت المحكمة بكذا » ومعناه أن القاضى كأنه يقول إنى بحسب شخصى لا أملك على هؤلاء الخصوم نفيا ولا إثباتا ، فإذا سلطت عليهم ومُكنت منهم فذلك إنما هو مستمد من صاحب السلطة العليا ، وإذا خضعوا لى فإنما هم قد خضعوا لها ، فالقوة التى مُكنت بها من إصدار هذا الحكم إنما هى هـذه الجهة . ومثلها يقول بعض الحكام لمن رأى منه إجراما : « باسم القانون أقبض عليك » معناه : إنى فى سلطتى وهيمنتى عليك ووجوب خضوعك لى أستمد قوة من جهة لا قبل لك بمعارضتها والخروج عليها ، فهى الجهة التى لا تناوأ ، ومصدر الهيمنة التى يجب الخضوع أمامها وتسليم القياد لمن التجأ إليها .

على هذا النحو نفهم معنى الباء فى قول المبتدئ فى أمر من الأمور : « باسم الله » فمعناه : أشرع فى عملى مستمدا القوة والتأييد للنفوذ فيه وإتمامه حسبما أريد من مصدر جميع القوى وواهب كل القُدر ، ومسخر جميع العوالم ، ومدبر كل الأمور ، فأنا نافذ فى فعلى بقدرة لا قبل لأحد بمعارضتها ولا الوقوف فى وجهها . كيف وأنا أعمل عملى باسم الله واهب القوى والقدر ، ومسخر الشمس والقمر ، والمهيمن على جميع البشر ؟

أرأيت كيف تكون هذه البداءة شادّة من عزم صاحبها ، مثبّتة من إرادته ، مؤيدة لقوته ؟ فهذا من حكمة طلب الشارع البدء بها فى كل أمر خطير ذى بال .

ولعلك ترى أن هـذا المعنى الذى شرحناه لا يـكاد يتم باستعمال الباء إلا إذا قرنت بلفظ الاسم ، وأننا إذا أتينا بالباء بدون ذكر الاسم عقبها لا تفيد هـذا المعنى الذى نشير اليه . واعتبر إن شئت أمثال هذه العبارات : « تجبى الأموال باسم فلان » « تجمع التبرعات باسم فقراء المدينـة » « تجمع الاكتتابات باسم الجمعية الخيرية » فإنك تجد المعنى فيها وفى أمثالها على ما شرحناه لك . ولا تتوهم أن معنى الباء هنا هـو معنى اللام فى قولك إنها تجمع للفقراء أو للجمعية ، كلا ، فإن اللام يشار بها الى الغاية التى يقصـد العمل من أجلها ، وأما الباء فإنها تشير الى أنه يستمد القوة فى مطالبته ، من تلك الجهة التى لها فى النفوس أثر خاص ، ولولاها ما استطاع أن يدور جهارا على الناس يستجديهم ويستندى أكفهم ، فقـد كان له من الحياء ما يمنعه أن يعرض وجهه على النـاس بهذه الصـورة ، إذ لولا أنه يجمع باسم الفقراء ويستمد القوة من الاستناد اليهم ، وأنه بصدد معونتهم ، ما كان له أن يتصدى للطلب من هؤلاء العظماء ، وما كان ليؤبه له أو يلتفت الى طلبه .

أرأيت أن زيادة لفظ (اسم) تفيد معنى لا يستفاد إذا لم تكن هـذه الزيادة ؟ وعلى ذلك لا يكون هنا محـل للقول إن الاستعانة بالذات لا بالاسم فكيف يقال : باسم الله ؟ ولم لم يقل بالله ؟ ولا حاجة أيضا الى البحث فى أن الاسم عين المسمى أو غيره ، فـكل ذلك بمعزل عما يقصد فى مثل هذا التركيب ، فإن الغرض من ذكر الاسم فى مثل هـذا هو الرجـوع بالذهن الى ما وقر فى نفوس السامعين من تمجيد واحترام وقوة ورهبة لصاحب هـذا الاسم ، وكأن لفظ الاسم الغرض منه تحضير المسمى فى نفس السامع بكل ما يتصل به من معانى التبجيل والتعظيم .

ولفظ الجلالة اسم للذات الأقدس الجامع لـكل صفات الـكمال : من صفات تنزيه

وصفات تمجيد ، فهو مشعر بالعظمة والقدرة والسلطان ، والقوة العظمى التى لا تجاريها قوة ولا تعارضها قوة ، فلا غرو أن اختير من بين أسمائه الحسنى للبدء به استمدادا للقوة والتأييد .

واختيار اسمى الرحمن الرحيم بعدها لأن المستعين يطلب العون من القوى المتين استرحاما لا استحقاقا ، فهو ينادى بلسان حاله : إنى أطلب العون وأستمد القوة من الحول والطول من باب الاسترحام ، وهو الرحمن الرحيم الذى لا يضن على من استرحمه برحمته .

وأما هاتان الصيغتان (رحمن) (رحيم) فقد كثر الكلام فى بيان الفرق بينهما ، واشتهر أن معنى الرحمن المنعم بالنعم الجليلة العظمى ، كنعمة الوجود والإيمان والتكريم وأمثال ذلك ، والرحيم المنعم بالنعم الدقيقة التى تعتبر كالتتميم للأولى ، كتيسير عمل جزئى وتتميم حالة فرعية مما يتساهل فى أمره . وعلى ذلك يكون ذكر الرحيم بعد ذكر الرحمن من باب التتميم ، ويكون البدء بالأهم ثم يكمل بما يفيد الاستغراق لكل النعم ، وأنه مصدر جميع النعم ما جل منها وما قل . وهو معنى حسن وإن كان يلوح أن أحسن منه أن يرجع فى تفسير هاتين الصيغتين الى ما كثرت إرادته والإشارة اليه فى استعمالاتهما .

إن هاتين الصيغتين (فعلان وفعيل) من صيغ الصفة المشبهة ، أى أنهما يدلان على الذات باعتبار ثبوت وصف لها وقيامه بها . وهذا معنى غير ما يفيده صيغة فاعل ، وهو إيجاد الفعل وإحداثه ، إلا أن بين الصيغتين فرقا يظهر من استعمالهما ، فنجد لفظ فعلان يدل على ذات اتصفت بوصف يبدو عليها آثاره ، مثل قولك فرحان وغضبان وسكران وتعبان وأمثالها ؛ وصيغة فعيل تدل على الذات المتصفة بوصف قد تأصل فيها تأصل الملكات الراسخة ، مثل كلمة كريم وبخيل وشحيح وشريف ونبيل ، فإنك تعبر بكريم مشيرا الى تأصل صفة الكرم فيه ورسوخها فى نفسه بقطع النظر عن كونه يعطى أو لا يعطى ، ومثلها بخيل وشحيح ، حتى لقد يتبرع الشخص أمامك بشىء له خطر وتقول إنه رغما عن ذلك هو شحيح بخيل وإنما يتبرع لغرض فى النفس ظهر أو لم يظهر ، فى حين أن

آخر لم يتبرع وتقول إنه مع هذا كريم وربما منعه مانع من التبرع كضيق ذات يده أو اشمئزازه من الأسلوب الذى يستعطى به أو ما ماثل ذلك، ولكنك لا تشير بكلمة فرحان أو غضبان الى شخص سجيته الفرح أو الغضب . ألا ترى الفرق بين قولك غضبان وغضوب مثلا ؟ ألا ترى أنك تقول إنه غضبان مع أنه ليس بغضوب أو إنه ليس بغضبان مع أنه غضوب ؟ فلا بد لذلك من سبب وما ماثل ذلك، تريد أنه تبدو عليه آثار الغضب وليست ملكة الغضب متأصلة فيه ، وفعول وفعيل أخوان .

إذا عرفنا هذا استطعنا أن ننزل عليهما ما نفهمه من صيغتى رحمن ورحيم ، فيكون معنى رحمن مَن تتجلى آثار رحمته وتبدو للعالم مظاهرها فى كل أنحاء الوجود ، فهو الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، وهو رب العالمين ، يتعهد الجميع بآثار إحسانه وفضله . ومعنى رحيم مَن كانت الرحمة فيه متأصلة راسخة ،لا من تكون الرحمة فيه معتملة متكلفة ، ويكون البدء بالرحمن لأنه دال على مظاهر الرحمة التى تبدو فتعرفها النفوس ، ثم يستدل بها وبتكررها على أن الإحسان والرحمة ثابتة راسخة كثبوت الملكات الراسخة فى النفوس ، ولله المثل الأعلى ، وإلا فهو لا يشبه شيئا ولا يشبهه شىء ، ولكنه التقريب فى التمثيل للشرح والتوضيح ، ويكون تقديم الرحمن على الرحيم من باب تقديم الدليل على النتيجة ، فإن ظهور الآثار على كثرة واطراد دليل على تأصل الوصف عند صاحبه . ثم يكون اختيار وصفى الرحمة فى البداءة — على ما سبق تقريره — لتربية معنى التعلق النفسى بالمعونة الإلهية ، وأن يرجوها بمقدار ما يلاحظ رحمته عز وجل .

ولقد عرضنا لهذه الكلمة الموجزة فى تفسير البسملة مع أن الكلام عليها كان يحق أن يكون فى طالعة الكلام فى التفسير على الإطلاق ، لأنا رأينا أنا بحاجة الى الكلام على الحروف التى تذكر فى فواتح السور ، وكان أول ما عرض لنا فى هذه الحروف ما نحن بصدده من تفسير سورة الرعد ، فرأينا أن يكون الكلام فيها مع نظيره ، إذ كل منهما مما أفرد عليه الكلام ، ونكتفى به مرة واحدة عن التكرار ، فنقول :

قال الله تعالى : « الٓمٓرٰ » :

هذه الحروف الهجائية التي وقعت فى أوائل السور قد أطال المفسرون فيها الكلام ، وحكوا فيها خلافا متشعب الأقوال . ونحن لا يسعنا أن نجزم بأمر فى موضوع تشعبت الأقوال فيه ودعّم كل فريق قوله بما ظهر له من الأدلة والحجج . وكيف يستطاع الجزم فيما قامت فيه تلك المعارك قديما وحديثا ، ولو كان للجزم فى هذا سبيل لما نشبت تلك المعارك الخلافية ، ودامت بين العلماء تلك الحقب المديدة . إلا أن هذا لا يمنعنا أن نختار ما يظهر لنا اتضاح وجهه ، مع جواز أن يكون غير ما اخترناه أقرب الى القبول عند غيرنا ، ولكل وجهة هو موليها . ولذلك فإنا سنفرغ الوسع فى حكاية أصول المذاهب ومستنداتها بإيجاز ، ونردفها بما يعنّ لنا اختياره ، والله المستعان :

قد اختلف المفسرون أولاً على قولين : (الأول) أن المعنى المقصود منها سر استأثر الله بعلمه ، فلم يطلع عليه أحدا من خلقه . و(الثانى) أن المقصود منها معلوم . فأما أصحاب القول الأول فاستندوا الى أنها من المتشابه ، وأن الوقف على لفظ الجلالة فى آية آل عمران : وهى قوله تعالى : « وما يعلم تأويله إلا الله » ، وقوله : « والراسخون فى العلم » كلام مستأنف ، فإنه لو كان « والراسخون فى العلم » عطفا على لفظ الجلالة لما كان هناك وجه لمدحهم بالإيمان به المحكى عنهم فى قوله تعالى : « يقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنا » ، إذ لو كان المتشابه معلوما لهم لكان إيمانهم به كإيمانهم بكل معلوم لهم فلم يكن فيه مزية خاصة توجب الثناء عليهم بالإيمان به ، بخلاف ما إذا آمنوا بكونه من عند الله وإن لم يفهموا معناه ، فإنه حينئذ يكون من باب الإيمان بالغيب الذى يعطى أنهم كملت ثقتهم بما أنزل عليهم حتى آمنوا بما فهموا وبما لم يفهموا . وهذا لا يكون إلا ممن رسخ الإيمان الكلى فى قلبه حتى صار يذعن لما لم يفهم استنادا الى امتلاء قلبه بالإيمان بما فهم . وهذا على قياس أن الله تعالى كلفنا بأشياء فهمنا حكمتها وسرها فقمنا بها وفعلناها ، كالصلاة المحققة للعبودية والاستعانة بالله ، وكالزكاة التى تعطف قلوب الأمة بعضها على بعض ، وكالصوم

الذى يكسر شهوة النفس فيعين على تهذيبها ؛ ثم كلفنا مع هذا بأشياء لم نفهم سرها ولم نتبين حكمتها ، مثل رمى الجمرات والسعى والاضطباع(١) والهرولة فى بعض الأماكن .
والسر فى ذلك أن الامتثال فيما فهم معناه قد يكون منشؤه الاقتناع بحكمته والسعى لتحصيلها ، أما الامتثال فيما لم يفهم معناه فإنه يدل على الانقياد والامتثال للأمر من حيث إنه صادر عمن تجب طاعته ، سواء أفهم الغرض منه أم لم يفهم ، ثقة بأنه لا يأمر إلا بما فيه الخير لنا كل الخير . ويشبه هذا قول بعضهم فى حسن الطاعة وقوة المناصرة :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم للنائبات على ما قال برهانا

وقول بعضهم فى وصف رجل بطاعة قومه له طاعة عمياء : « هذا الذى إذا غضب غضب لغضبه ألف سيف لا يسألونه فيم غضب » . فكما أن الامتثال الصادق إنما يظهر حين الأمر بما لم يظهر وجه حكمته كذلك الإيمان الحقيقى إنما يظهر فى الإيمان بما خوطبوا به ولم يتبينوا صريح معناه ، فكان قصارى أمرهم أن يقولوا آمنا به كل من عند ربنا . وبه تظهر المقابلة بينهم وبين الذين فى قلوبهم زيغ ، فإنهم يتّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، فلو كان ابتغاء تأويله من شأن الراسخين فى العلم ما نَعى على مبتغيه بتسميته من أهل الزيغ .

وأيضا فإنهم استندوا الى أن الحكمة قد تقتضى اشتمال الكلام على ما لم يتجل معناه حتى تحس النفوس دائما بوجود ما خفى عنها فى طياته ، فلا تزال تبحث فى دقائقه وتتأمل فى أحنائه وتنظر فى أثنائه ، فكلما ازدادت نظرا ازدادت هدى وبصرا :

يزيدك وجهه حسنا إذا مازدته نظرا

وقد جاء فى وصف على كرم الله وجهه للقرآن قوله : « هو الذى لا تنقضى عجائبه » .
ومعلوم أن وجود ما لم يفهم محرض للنفوس على الدأب فى الاستقصاء والكد فى التتبع

(١) اضطباع الطائف بالبيت : أن يدخل الرداء من تحت إبطه الايمن ويغطى به الايسر كالرجل يريد أن يعالج أمرا فيتهيا له .

علما بأن أمامه سرا لا يزال خفيا، فهو يستطلع دائما ما حول ذلك السر. فهذه حكمة ثانية وهى الحث على إدامة التأمل والتفكر، وهى غير الحكمة الأولى التى هى اختبار الإذعان والإيمان بما لم يفهم، وأن ذلك من الإيمان بالغيب. وقد يقرب من هذا ما قاله بعضهم من أن المشركين كانوا يقول بعضهم لبعض: لا تسمعوا لهذا القرآن والْغَوْا فيه. فلما أنزلت السور مبدوءة بحروف لم يفهموا المراد منها ألجأهم ذلك الى الإصغاء، لحرص النفوس على تتبع ما لم تفهم، فهجم عليهم من البيان ما ملأ قلوبهم، وملك عليهم حواسهم فأسروا وبهروا من حيث لم يشعروا. وهذا حكمة للإتيان به، وهو غير كونه معنى مستعملا فيه، فلا يشتبه عليك هذا بذاك.

وأما أصحاب القول الثانى، وهو أن المقصود منها معلوم، فلهم مستند فى التزام أنه معلوم، ولهم خلاف فى تحديد المعنى المقصود. فأما مستندهم فهو أن القرآن جاء هدى وتبيانا ورحمة كما نطقت به الآيات المتعددة، وهذا لا يكون إلا فيما فهم معناه المقصود منه؛ وقد أمر بالتدبر فيه والاستنباط منه ولا يكون إلا إذا فهم معناه. وأيضا فهو بلسان عربى مبين ولا يظهر ذلك فى غير ما يفهم؛ وقد تُحدى به المشركون وكيف يُتحدى بغير مفهوم. وأيضا فالمقصود من الكلام الإفهام، فلو جىء بغير مفهوم لكان عبثا، ولكان كمخاطبة المرء بغير لغته ولا وجه له.

وقد دفعت هذه الوجوه بأن كون القرآن فى جملته هدى ورحمة وتبيانا وبلاغا وعربيا مبينا، الى غير ذلك من الصفات، مما لا إشكال فيه عند مسلم، ولا يقتضى هذا أن يكون كل لفظ منه جاء للدلالة على معنى وضع له، بل قد يكون فى الإتيان بما لم يفهم حكمة هى ما بينا فى أوجه القول الأول، وناهيك بها حكمة، بل هى مما تؤكد الهدى والنور والرحمة. وهل بعد ما يحمل المعاند على الإصغاء، والغافل على الانتباه، والمتأمل على الاستقصاء، هل بعد هذا من حكمة؟

أما المعنى الذى يقصد منها على هذا القول فقد اختلفوا فيه: فمنهم من قال إنها أسماء

للسور المبدوءة بها ، فطه اسم للسورة ، ويس كذلك ، وطس ، ون ، وهلم جرا ، إلا أن بعض الأسماء مشترك بين عدة سور ، كما وقعت تسمية أشخاص متعددين باسم محمد أوعبد الله مثلا ، فتحتاج الى ما يميزها عن بقية السور المشاركة لها فى هذا الاسم ، شأن الأشخاص المتعددين يسمون باسم واحد مشترك بينها .

وقد استند أصحاب هـذا القول الى أنها لو لم تكن أسماء للسور لكانت إما أسماء لمعانى خاصة وهوما لم تساعده أوضاع اللغة ، إذ ليست دالة على شىء أصلا ، وهوممايؤدى للعبث وبالتأمل فيماسبق تعرف أنه يجوز أنها لم يفهم عين المقصود منها ، ولا يكون ذلك عبثا ، بل أتى بها للحكمة السابقة ، وهى الحمل على الإصغاء أوعلى مزيد التأمل والاستقصاء .

ومنهم من قال : بل هى اسم للحروف الهجائية التى وضعت بإزائها ، ويكون الغرض إفهام المخاطبين أن ما سيتلى عليهم مما أعجزهم إنما هو من جنس حروفهم التى يتخاطبون بها ويتداولونها ، فلم يداهموا بما هو بعيد عن متناول قدرهم ، بل جيئوا بما ألفوا وبهتوا بما عرفوا . فهل أعجزهم إلا هذا التأليف الذى بنوا أعمارهم على مزاولته ، وأحيوا مآثرهم بالتفاخر به ؟ فكيف قعدت بهم القوة عن مجاراة هـذا الذى لم يتجاوز مألوفهم ومعروفهم ؟ فيكون المقصود منه مزيد تقريعهم بالعجز ، عساهم تثور حميتهم فيتحركوا لمحاكاته حتى يفتضحوا عجزا ويمتلئوا بهرا .

أو أن الغرض من الإتيان بها الدلالة على انقطاع كلام والشروع فى آخر ، وقد كان من عادة العرب إذا انتهوا من كلام وأرادوا الشروع فى آخر أتوا بشىء جديد يجعلونه تنبيها للمخاطبين على انقطاع السابق والشروع فى الجديد . وقيل : بل الغرض القسم بهذه الحروف لإظهار شرفها وفضلها ، إذ هى مبنى كتبه المنزلة وأساس الهدى والنور والرحمة المهداة ، فمن حقها التنويه بقدرها .

وقيل : بل هذه الحروف إشارة الى أسمائه تعالى وصفاته ، أو إشارة الى اسمه جل شأنه واسم رسله . فعلى الأول كأن الألف إشارة الى أحد ، واللام إشارة الى لطيف ،

والميم إشارة الى مجيد أومنان ، والراء إشارة الى رحمن رحيم مثلا ؛ أو كأن معناها أنا الله أعلم وأرى . وعلى الثانى تكون الألف إشارة الى لفظ الجلالة (الله) واللام إشارة الى جبريل ، والميم إشارة الى محمد ، والراء إشارة الى الرحمة ، فكأن المعنى : الله أرسل جبريل الى محمد رحمة بالأمة .

وهكذا تجد هذه الأقوال كأنها استلهام إشارى لا يبنى على قاعدة ثابتة .

والذى نختاره إما القول الأول وهو أنها مما استأثر الله بعلمه ، وحكمة الإتيان بها ما شرحناه ؛ وإما أنها اسم للحروف الهجائية تنبيها على أن الإعجاز ماجاء إلا من جنس ماتتناوله قدركم ، فهيا عارضوه إذا تهيأ لكم ، وحاشا أن تصل الى ذلك قدركم . والله سبحانه وتعالى أعلم .

هذا ومن اللطائف أن عددها بعد حذف المكرر أربعة عشر ، وذلك نصف عدد حروف المعجم على قول عدم الاعتداد باللام ألف ؛ وأنها فى تسع وعشرين سورة عدد حروف المعجم على القول الآخر ، وأنها تشتمل على نصف أصناف الحروف ، ففيها نصف حروف الهمس المجموعة فى قوله : « فحثه شخص سكت » ونصف الحروف الشديدة المجموعة فى قولك : « أجد قط بكت » وكذا نصف حروف الاستعلاء والإطباق والجهر ، كما يعلم ذلك من فن التجويد .

قال تعالى : « تلك آيات الكتاب » :

اسم الإشارة واقع على آيات السورة الكريمة ومنها هذه الآية ، وذلك غير ممتنع ، ويجرى على نمطه ما يكون من بعض الشعراء ، إذ يضمن قصيدته أبياتا فى وصفها وهى جزء من القصيدة ، فكأنه يقال : إن مايتلى عليك من الآيات التى هى حاضرة أمام مسمعك وقد شرع فى بعضها وأنت بصدد سماع البعض الآخر ، هى آيات الكتاب ، أى هذه هى الآيات الحقيقة بأن تسمى آيات ، فكأنها استحوذت على الجنس كله بحيث منعت غيرها من أن يستحق التسمية بهذا الاسم ، على أسلوب قولهم : هذا هو الكلام ،

وأنت الرجل من بين الرجال ، يراد بذلك أنه استأثر بأن يكون هو الجنس لا غيره ، وذلك من أساليب المبالغة فى الوصف بالكمال .

والآيات جمع آية وهى فى الأصل العلامة والأمارة ، تقول لرسولك : قل لفلان بآية ما بينك وبينه من كذا يطلب اليك أن تصنع كيت وكيت ، فتشير بالآية الى علامة تعرفها أنت وهو فقط وتجعل ذلك دليلا على صدور الرسالة منك اليه ، وأن الرسول صادق فى التبليغ عنك . وإنما سميت آيات الكتاب العزيز آيات لأنها علامات على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإما كل آية منه وحدها علامة لإعجازها وذلك فى الآيات الطوال ، وإما كل آية انضمت الى آية أخرى أو آيتين أخريين معجزة ، فالحد المعجز فى القرآن هو الآية الطويلة ، أو الآيات الثلاث القصار التى تبلغ مقدار الآية الطويلة ، ومثلها الآيتان المتوسطتان فى الطول بحيث تبلغان مقدار آية طويلة أو ثلاث آيات قصار .

والكتاب فى الأصل بمعنى المكتوب كاللباس بمعنى الملبوس ، وأصله من كتب بمعنى جمع يقال : كتب الأديم أى جمع بعضه الى بعض ، اشتهر عرفا فى جمع الحروف بعضها الى بعض ، وأطلق هنا على القرآن الكريم ، ولو قبل أن يكتب باعتبار مايؤول اليه ، فإنه بصدد أن يكتب . وحاصل المعنى - والله أعلم - بعد أن قرع سمعهم بهذه الحروف التى توجب انتباههم وشدة تطلعهم بما تفجأ أسماعهم من الغريب عليهم ، أو بما تستفز قواهم من التحدى بجنس مايعرفون ويألفون ، قال لهم : إن هذا الذى يتلى عليكم هو آيات الكتاب ، وهو الذى يستحق أن يسمى بالآيات وبالكتاب الحق الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

قال تعالى : « والذى أُنزل إليك من ربك الحقُّ » :

الاسم الموصول مبتدأ والحق خبر . والمعنى أن الذى أنزل اليك من ربك الذى خلقك وسواك وأدبك ورباك وأعانك على ما ندبك اليه هو الحق لا يعدوه ولا يحيد عنه . وهذه الآية من التى قبلها إما بمنزلة الاستدراك ، كأنه لما قيل فى الآية الأولى :

تلك آيات الكتاب وربما توهم منها نفى الكمال عما عداها من آيات الكتاب ، دفع هذا التوهم بأن الذى أنزل اليك من ربك كله الحق فلا مطعن فى شيء منه . ويشبه هذا مايروى عن أم البنين وقد سئلت أى بنيك أفضل؟ فقالت : « ربيع ، بل عمارة ، بل قيس ، بل أنس : ثكلتهم إن كنت أعلم أيهم أفضل ، هم كالحلقة المفرغة لايدرى أين طرفاها »! لم ترد بذلك الحيرة وجهل حالهم ، وإنما أرادت من أول الأمر أن تفيد التنصيص على أن لكل منهم من الفضل ما لا يحيط به الوصف ، وتنص على استحقاقه فضلا عظيما ؛ ثم عادت فنفت نقص أحد منهم عن أخيه ، وأجملت ذلك فقالت : هم كالحلقة المفرغة لايدرى أين طرفاها . وهذا أسلوب من الأساليب البلاغية التى لا يخفى مغزاها . ويصح أن تكون الآية بمنزلة التأكيد المقرر لمضمون سابقتها ، ويكون المعنى : كيف لا تكون تلك هى آيات الكتاب البالغ من الكمال كل مبلغ مع أنها من المنزل عليك من ربك ولا ينزل عليك من ربك إلا الحق ؟ أو تكون الآية لوصفها بالكمال البلاغى والإعجاز فى الأسلوب ، والآية التالية لبيان كمالها فى الحق والصدق ، وهو نوع آخر من صفات الكمال وأى كمال ، وماذا بعد الحق إلا الضلال ؟

هذا وجملة « والذى أنزل اليك من ربك الحق » جملة معرفة الطرفين تفيد قصر الحقية على ما أنزل على نبينا صلى الله عليه وسلم ، ولا يلزم من هذا نفى الحقية عما أنزل على غيره من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، لأن الغرض من هذا القصر إفادة أنه عريق فى الحقية والمبالغة فى الكمال ، على حد قولهم : أنت الرجل ، على ما سبق تقريره . على أن حقيته مستلزمة لحقية ما أنزل على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . كيف وقد وصف القرآن بكونه مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ؟

قال تعالى : « ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » :

هذا من باب الزجر والتهديد والنعى على الأكثر من الناس أنهم دائما مغلوبون لهواهم ، فترى حبهم للعاجلة وتركهم للآخرة وكراهيتهم لما يقيد من تصرفاتهم ويكبح

من شهواتهم وميلهم الى الاسترسال فى الهوى والاندفاع فى بلوغ المآرب الخسيسة والشهوات الحيوانية ، كل أولئك يحملهم على الانصراف عن النظر الصحيح والتفكير الصادق الذى يتبينون به الرشد من الغى والهدى من الضلال . وطالما أفسد الهوى على الانسان تفكيره ، وكانت الميول مقربة للبعيد ومبعدة للقريب ، فلا غرو أن يتضح الحق ويظهر الكمال فى الآيات ، ثم تنصرف النفوس عن الإيمان به تفاديا مما يحد حريتها ويقيد تصرفاتها ويحول بينها وبين خسيس لذائذها . هذا أمر مرجعه نقص فى طبائعها لاخفاء فى طرق هدايتها . أى فلا يهولنك أيها المتأمل المدعو للاستبصار كثرة الضالين الغاوين ، بل نقّ نفسك من الحوائل التى تصرف نظرك عن إدراك الهدى ، تجد الأمر واضحا جليا ، والكتاب بينا والصراط سويا .

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لإدراك الهدى ، والسير على الصراط المستقيم . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

ابراهيم الجبالى

عهد المهدى لابنه موسى

لما أسند أمير المؤمنين المهدى ثالث خلفاء بنى العباس الى ابنه موسى ولاية خراسان ، قال له كلاما حسنا نجتزئ منه بما يأتي :

« أى بنى ! إنك قد أصبحت لسمت وجود العامة نصبا ، ولمثنى أعطاف الرعية غاية ، فحسنتك شاملة ، وإساءتك نائية ، وأمرك ظاهر . فعليك بتقوى الله وطاعته ، فاحتمل سخط الناس فيهما ، ولا تطلب رضاهم بخلافهما ، فان الله عز وجل كافيك من أسخطه عليك إيثارك رضاه ، وليس بكافيك من يسخطه عليك إيثارك رضا من سواه .

« ثم اعلم أن لله تعالى فى كل زمان فترة من رسله ، وبقايا من صفوة خلقه ، وخبايا لنصرة حقه ، يجدد حبل الاسلام بدعواهم ، ويشيد أركان الدين بنصرتهم ، وإن أهل خراسان أصبحوا أيدى دولتنا ، وسيوف دعوتنا ، فظاهر عليهم لباس كرامتك ، وأنزلهم فى حدائق نعمتك .

أى بنى ! ثم عليك العامة فاستدع رضاها بالعدل فيها ، واستجلب مودتها بالانصاف لها .

المحبة وأنواعها

ذكرنا لك شيئا فى العدد السابق عن المحبة وآثارها وفوائدها وما جاء فيها . واليوم نذكر لك أنواع المحبة ونتغلغل بك فى حديثها (وأى حديث ألذ من حديث المحبة ؟) ولسنا نقول ما يقول ذلك القائل الذى يؤلمه أنه لا يجد من يطارحه حديث المحبة :

ما بالديار أخو شوق نطارحه　　حديث نجد ولا خل نصافيه

ولنعد الى الموضوع فنقول :

من أنواع المحبة محبة الوالد لولده . وهى تكاد تكون لا لغرض ولا علة ، لأنها من قبيل محبة الشخص لنفسه ، فإن فى بقاء ابنه نوع بقاء له . وقد ينضم الى ذلك توهم المنفعة من الولد ، فهى طبيعية لا يشذ عنها إلا من خرج عن مقتضيات الطبيعة .

ومنها محبة الولد لوالده . وهى تكاد تكون من قبيل محبة العلل والأغراض ، حتى إن من الأولاد من يفرح عند موت أبيه أو لا يتألم لما ترك وراءه من ثروة طائلة . ولعل ابن الفقير يحزن على أبيه أكثر من ابن الغنى . وأما ما تجده من احترام الأبناء للآباء والقيام بواجبهم فمرجعه فى الغالب الى مزيد أدب ، أوحسن تربية ، أودفع معرة وانتقاد ، أو توهم منفعة وحصول غاية ، لا الى مودة ومحبة . ولهذا ترى القرآن الشريف قد اعتنى بوصية الأبناء على الآباء شدة الاعتناء ، وترك الآباء ينساقون نحو الأبناء بسائق المحبة الطبيعية .

فيجب على الأولاد أن يقووا فى نفوسهم محبة آبائهم ، وأن يتفكروا فيما كان لهم من إحسان لا يسمح به غيرهم ، فيقابلوا المحبة بالمحبة والإحسان بالإحسان ، وأن يكرروا على مسامعهم ما جاءت به الآيات والأحاديث ، وما رسمته الأخلاق والآداب فى ذلك .

ويلزمنا أن نكتفى منهم بهذا الحب التكافى ، حيث لم نظفر منهم بالحب الطبيعى ، وهو كافل الراحة وكاف فى الصفاء .

ولنذكر هنا ما ذكره كثير من المفسرين عند تفسير قوله تعالى : « واخفض لهما جناحَ الذُّل من الرحمة وقلْ رب ارحمهما كما ربّياني صغيراً » فنقول :

روى ابن حبان والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « رضا الله تعالى في رضا الوالدين ، وسخط الله تعالى في سخط الوالدين » . وقد صح أن رجلا جاء يستأذن النبي صلى الله عليه وسلم في الجهاد معه ، فقال : أحيٌّ والداك ؟ قال : نعم . قال : ففيهما فجاهد . وما أحسن ما قال بعضهم :

غَذَوتُكَ مَولُودًا وَمُنْتُك يافِعاً ... تُعَلُّ بما أَجْنِي عليكَ وَتَنْهَلُ

إذا ليلةٍ ضافتك بالسقم لم أَبِتْ ... لِسُقْمِكَ إلا ساهرًا أَتململُ

كأنى أنا المطروقُ دونكَ بالذي ... طُرِقْتَ به دُوني فعيْني تَهمَلُ

تخافُ الرَّدى نفسي عليكَ وإنها ... لَتعلمُ أن الموتَ وقتٌ مؤجلُ

فلما بلغتَ السِّنَّ والغايةَ التي ... إليها مدى ما كنتُ فيها أُؤملُ

جعلتَ جزائي غلظةً وفظاظةً ... كأنكَ أنتَ المنعمُ المتفضلُ

فليتك إذ لم ترع حق أبوتي ... فعلت كما الجارُ المجاورُ يَفْعلُ

تراه معدًّا للخِلافِ كأنَّهُ ... برد على أهلِ الصَّوابِ موكَّلُ

وكان ذلك فيما يروى بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم فقال للولد : « أنت ومالك لأبيك » . كذا رواه البيهقي في الدلائل ، والطبراني في الأوسط والصغير في قصة طويلة . وروى مسلم عن ابن عمر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه » في قصة جرت له مع أعرابي كان أبوه يود عمر ابن الخطاب .

محبة الأصدقاء :

ومنها محبة الأصدقاء . ولا بد للإنسان من صديق يأنس به ، ويلقي عليه بعض همومه ،

وقد خلق الانسان ضعيفا ، حتى إنه لا يستطيع أن يكتم ما فى صدره من فرح أو ترح ، وهو على نفسه أشق من الأثقال الحسية ، فإن هذه على جسمه وتلك على قلبه :

ولا بد من شكوى الى ذى صداقة ... يسليك أو ينسيك أو يتوجع

وقد قيل لبعض الحكماء : أخوك أحب اليك أم صديقك ؟ فقال : إنى لا أحب أخى إلا لكونه صديق .

وكثيرا ما تسمعهم يقولون : إن الصديق محال الوجود . حتى إذا أردت أن تبالغ فى أمر قلت : هو من رابع المستحيلات ، وأما الثلاثة فهى مقررة معروفة لا نزاع فيها :

أيقنت أن المستحيل ثلاثة ... الغول والعنقاء والخل الوفى

ويقول غيره :

سمعنا بالصديق ولا نراه ... على التحقيق يوجد فى الأنام

وأحسبه محالا نمقوه ... على وجه المجاز من الكلام

وهاك شيئا مما قالوه فى هذا الموضوع ، نورده لك تفكهة أو تبصرة :

تغير إخوان هذا الزمان ... فكل خليل عراه الخلل

وكانوا قديما على صحة ... وقد داخلتهم صروف العلل

قضيت التعجب من أمرهم ... فصرت أطالع باب البدل

***

خذ من دنا وتجاف مَن بعدا ... لا تكرهن على الهوى أحدا

قد أكثرت حواء ما ولدت ... فإذا جفا ولد فخذ ولدا

***

وزهّدنى فى الناس معرفتى بهم ... وطول اختبارى صاحبا بعد صاحب

فلم تُرِنِى الأيام خِلاً تسرنى ... مباديه إلا ساءنى فى العواقب

إنى لأفتح عينى حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا

***

إذا ماضاع منك اليوم خِل فلا تحزن عليه الدهر وافرح
فإن الخل عبء أى عبء فمهما اسطعت أن تلقيه فاطرح

***

إذا قيل فى الدنيا خليل فقل نعم خليل اسم شخص لا خليل وفاء
وإن قيل فى الدنيا جواد فقل نعم جواد ركوب لا جواد عطاء

الى غير ذلك وهو كثير . وسر ذلك أن الانسان يطلب صديقا لا يتغير بحال ، ولا يتصف بعيب ، يقدمك على نفسه ، ويتحملك فى كل ما تأتى به ، كما قال قائلهم :

إن أخا الانسان من كان معه ومن يضر نفسه لينفعه
ومن إذا ريب الزمان صدعه شتّت فيه شمله ليجمعه

ومن الغريب أنه يوجب ذلك على صديقه له ولا يوجبه على نفسه لصديقه . ولكن إذا كانت الصداقة مبنية على تشاكل فى الأرواح ، وصادفت مع هذا استعدادا حسنا ، كانت الأمنية المطلوبة ، والبغية المرغوبة . وإذا تكمل إيمان المرء وجدت فيه كل ما تحب من صفات الخير وسجايا الفضل ، حتى يقدمك على نفسه كما تحب ، فإنه إذا وصل الى درجة الكمال كان من الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ولا شيء يعلى الهمة ويعظم المروءة ويورث الرحمة ويغرس فى القلوب المحبة مثل الايمان الكامل . فإذا اشتاقت نفسك الى ذلك الصديق فاطلبه بين المؤمنين ، فعسى أن تجده فيهم ، فهم مظان وجوده .

على أنه يلزمك أن تكتفى من صديقك بفضيلة من الفضائل ، وتغتفر له فى جانب ذلك ما يكون منه ، فإن الحسنات يذهبن السيئات :

ولستَ بمستبْقٍ أخا لا تلمّه على شعَثٍ أىُّ الرجال المهذّب

ولا تطلب أن يكون جامعا لكل فضل ، مبرأً من كل نقص (وإذا كان مَن هذه صفاته ممن يدخل فى عالم الوجود فاجتهد أن تكون أنت ذلك الانسان) .

فالخلاصة أنه يلزمك أن تعرف الطبائع البشرية ومقتضياتها ، ولا تطلب ما ليس فى طبع الانسان ، وأن تكتفى ممن يكون صديقك بجهة من جهات الخير ، ثم تقبله بعد ذلك على ما فيه من عيب ، وتتحرز منه فى الجهة الأخرى (جهة الشر الذى فيه) . فاذا ظفرت بمن يغلب خيره على شره ، فقد ظفرت بالخير كله .

محبة الوطن :

حب الوطن يكاد يكون ألصق شىء بالنفوس ، حتى إنه ليلتحق بغرائزها المجبولة عليها . وقد قرن الله الخروج من الأوطان بالقتل فقال : « ولو أنَّا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم » . فلولا أن حب الوطن متأصل فى النفوس ما جعل الخروج من الأوطان قرين القتل . وقال فى آية أخرى حكاية عن بنى إسرائيل : « وما لنا ألاّ نقاتلَ فى سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا » . ولا شك أن كل إنسان يجد من نفسه حنينا الى وطنه الذى نشأ فيه ، وشوقا الى تلك المعاهد التى ربى فيها ، وميلا طبيعيا الى ذلك الصفاء الذى أخذ من قلبه محلا لا تعفيه الدهور :

إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهمو عهودا مضت فيها فحنوا لذلكا

ومحبة بلادك التى غمرتك بخيراتها ، ومحبة أمتك التى تسعد بسعادتها وتشقى بشقائها ليست فى الحقيقة إلا محبة لنفسك .

وإن الأمة لا تكون أمة تتمتع بحقوق الأمم الحية ، وتأمن على نفسها من الانحلال والفناء فى الأمم الأخرى ، إلا إذا رسخت فيها محبة الوطن .

وقد ندبك الدين الحنيف الى محبة الناس كلهم والرحمة بهم ، ولكن على درجات مخصوصة وحدود محدودة . والانسان الكامل هو من لا تختلط عليه الأمور ولا تشتبه

لديه الخيرات بالشرور ، فيعرف مراتب المخلوقات ونسبتها اليه ، ومقدار قربها وبعدها من خالقها ، فيعطى كل مرتبة حقها ، وكل درجة قسطها ، ملاحظا معاملة الله لهم ورحمته بهم ، وأنهم مخلوقاته ، فلا يجهل نسبتهم ، ولا يظلم رتبتهم . ومن أحب الصانع واعتقد كماله ، أحب الصنعة لا محالة .

وللأشياء جهات وحيثيات يجب أن تراعى كلها فى نظر الحكيم . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « تخلقوا بأخلاق الله » فمن شاركك فى الانسانية كان له عليك حق واحد وهو حق الانسانية ؛ ومن شاركك فى الايمان أيضا فله عليك حق الانسانية وحق الايمان . فإن كان مع هذا أحدَ من ينتمى اليك بالقرابة ، كان له عليك حق القرابة أيضا . فإن انضم الى ذلك كونه جارا لك انضم الى تلك الحقوق حق رابع ، وهكذا .

وأهل تلك الدرجات متفاوتون أيضا ، فمن كان أقرب اليك كان أعظم حقا عليك ، ومن كان ألصق بك من جيرانك كان أوجب مراعاة من غيره ؛ ومن صنع معك خيرا من أولئك الأقارب أو الجيران كان حقه عليك آكد ممن سواه : « من صنع معكم معروفا فكافئوه » «هل جزاء الإحسان إلا الإحسانُ». فاذاً أهل وطنك لهم عليك حقوق كثيرة ، وواجبات عديدة ، على حسب ما شرحنا . ولعلك من أوسع الناس علما بهذا الموضوع (موضوع محبة الوطن) فلنقتصر منه على هذا .

ولكن لا بأس بعد ما تقدم أن نسوق اليك فائدة أخرى : وهى أن الانسان إذا لم يكن بين من يميل اليهم من أشكاله فهو غريب وإن كان فى وطنه ، فإن معاشرة من ليس بينك وبينه مناسبة أثقل على الأرواح من كل شىء . وقد قالوا : إن حُمّى الروح مجالسة الثقيل الذى يباينك وتباينه ، وأنشدوا فى ذلك :

وما غُربة الانسان فى البعد والنوى ... ولكنها فى قرب من ليس من شكلى
وإنى غريب بين بست[1] وأهلها ... وإن كان فيها موطنى وبها أهلى

(١) بست بالفتح : واد بارض اربل ، وبالضم : بلد بسجستان . كذا فى القاموس .

محبة الله عز وجل :

قد سبق لك أسباب المحبة ، وأن كل سبب منها يوجب المحبة على انفراده ، وإن كان بعضها أقوى من بعض . فإذا أمكن أن تجتمع هذه الأسباب كلها في شيء واحد ، وجب أن تكون محبته أتم أنواع المحبة وآكدها وأشدها ، ولا يتصور ذلك على الحقيقة إلا في الله تعالى ، كما ستعلم : « والذين آمنوا أشدُّ حباً لله » . فإذا نظرت بعين التحقيق وصادفك نور التوفيق ، وجدت كل سبب من الأسباب المتقدمة يقضي عليك بحب الله تعالى ، بل إذا دققت النظر وأمعنت الفكر ، ورقّت كثافة حجابك وعلوت عن أرض طبيعتك ، وترقيت عن درجة المحسوسات التي يشاركك فيها جميع الحيوانات ، الى أفق قلبك ، وأشرقت عليك شمس بصيرتك ، وجدت المستحق المحبة على الحقيقة إنما هو الله تعالى دون غيره .

فإذا كان الإحسان يقتضي محبة المحسن ، فلا إحسان كإحسانه تعالى : « وإن تَعُدُّوا نعمة الله لا تحصوها » فإحسانه عليك في إفاضة وجودك ، وإعطائك ضرورياتك وحاجياتك وكمالياتك : من عقلك ، وسمعك ، وبصرك ، وذوقك ، وجميع حواسك ، وصفاتك الظاهرة والباطنة ، وأنواع النعم الخارجة عن ذاتك ، مما تندفع به ضرورتك ، أو تزول حاجتك ، أو تتم به لذتك — هذه الاحسانات الفائضة ، والمنن المتواترة ، لا تكاد تحصى أصنافها فضلا عن جزئياتها . ولو نظرت الى نعمه المودعة في الهواء أو الماء ، أو نور الشمس والقمر ، وخلق الليل والنهار ، لانقطعت أثناء سيرك ولم تفز إلا بقدر يسير منها ، بل لا إحسان في الحقيقة إلا له تعالى ، فإن من أنعم عليك من الخلق بشيء فإنما يقصد نفع نفسه بارتفاع الصيت وجميل الثناء أو حسن الجزاء ، فهو في الحقيقة بائع أخرج من يده شيئا ليعتاض عنه ما هو أعز منه عنده عاجلا أو آجلا. ولا يتصور الاحسان الحقيقي الذي لا يقصد به عوض إلا من الله تعالى . على أنه هو الذي سخر لك قلب ذلك المحسن ، وأودع فيه محبتك ، أو الشفقة عليك ، أو رجاء الخير

من الله ، أو من الناس بمساعدته إياك . ولو شاء لعكس كل ذلك وصرف قلبه عنك ، وألقى فى روعه ما ينفرد منك (والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن) .

فإن كنت تحب أحدا لأجل إحسانه فاعرف المحسن الحقيقى ؛ ولا يكن نظرك كنظر الحيوان يحب سائسه الذى يقدم له العلف ، ولا يحب مالكه الذى أمر السائس وأعطاه على ذلك أجرا .

وإن كنت تحب وجود نفسك وبقاءها وكمالها ، فأحب من أعطاك ذلك كله من غير أن تسأله . بل كان فى تدبيرك من قبل وجودك ، وقد أعطاك من كمال الخلقة الظاهرية والباطنية ما لا يمكنك أن تهتدى اليه حتى تطلبه منه .

وإن كنت تحب أحدا من أجل صفاته الجليلة ونعوته الجميلة كما تحب الملوك العاملين أو الفضلاء الكاملين وإن لم ترج خيرهم والانتفاع بهم ، فأحب خالق الكمال والجمال الذى تنزه عن كل نقص ، واتصف بكل صفات الكمال ، التى لا يصل اليها العلم ، ولا يحيط بها العقل ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » .

وإن كل من تحبه لهذا السبب فإنما تحبه لصفات معدودة وكمالات محدودة . فلتكن واسع النظر ، نافذ البصيرة ، عالى الهمة ، عظيم العلم ، كبير الفهم ، حتى تحب من لا تعد صفاته ، ولا تنتهى كمالاته . ولا تكن كالصبيان لا يمكنهم أن يحبوا من طبقات الناس إلا أسفلها وأدناها ، دون أشرفها وأعلاها . وأنت مستعد لإدراك الجمال المعنوى والكمال الإلهى ، وهى خاصتك التى امتزت بها عن سائر الحيوان . وعلى قدر ذلك تلتحق بالملائكة ويتحقق فيك روح الانسانية .

وكل من بطلت فيه خاصة نوعه فليس فى الحقيقة من ذلك النوع ، لأن النوع لا يوجد بدون خاصته على الحقيقة ، فهيج من نفسك الشوق الى تلك المعارف التى هى ألذ من كل شىء ، ولا تُمت تلك الحاسة الباطنية التى هى أعلى حواسك وأشرف مزاياك .

فلذة العلم عند ذويها فوق اللذائذ كلها ، لأنها لا توجد إلا فى سماء الانسانية دون

أرض الحيوانية . واللذائذ مرتبة على حسب درجات العوالم ، ولذة العلم بعد ذلك على قدر ما تدرك من شرف المعلوم . فليس علمك بأسرار الملك وشئونه فى مملكته كعلمك بأحوال رجل من السوقة . فإذاً يكون العلم بأشرف المعلومات ألذ العلوم . وليس هناك أجل من الله تعالى الذى لا يثنى عليه حق ثنائه غيره ، ولا يحيط بكماله سواه .

فطهر قلبك من أدناس الرذائل كلها ، وهيئه لغرس تلك المحبة التى هى أتم اللذات وأكبر السعادات ؛ وهى مطلب قلبك لو كان باقيا على صحته ، ومأرب روحك لو لم تتشعب بها الطرق وتظلها الأهواء « قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . وإلا فأنت المخاطب بقول القائل :

لديك جمال الجامدات فهِمْ بها إذا كنت ميالا الى الصور الخرس

هذا ويجمل بك ها هنا أن تعرف أن المحبة أنجع وسيلة الى تهذيب الأخلاق وتكميل النفوس ، بل إن شئت فقل إنها تقلب الطباع وتغير الحقائق : فتجعل الشحيح من أسخى الأسخياء ، والجبان من أشجع الشجعان . فإذا اتفق لك أنك وصلت الى حد الكمال فى محبة الله تعالى ومحبة رسوله ومحبة الكاملين من أمته ، سارعتْ اليك الكمالات ، وترادفت عليك الخيرات ، وانطبعت فى مرءاة قلبك صفاتهم ، فتبدلت منك الرذائل بالفضائل . وعلى قدر المحبة يكون انطباع صفات المحبوب فى نفس المحب . وقد عرّفوا المحبة بأنها استهلاك الصفات فى الصفات ، وفناء الإرادات فى الإرادات :

فلم تهونى ما لم تكن فىّ فانيا ولم تفن ما لم تجتلى فيك صورتى

وقد عُرّفت أيضا بأنها نار تحرق من قلب المحب الميل الى ماسوى المحبوب :

وحّــــدَ القلبُ حبه فالتفاتى لك شرك ولا أرى الاشراكا

وناهيك بمن وصل الى تلك الدرجة من محبة الله تعالى ومحبة رسوله : كيف تترادف عليه البركات ، وتغمره الفيوضات ، فيستحق من الكرامة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

واذكر هنا قوله صلى الله عليه وسلم : « المرء مع من أحب » . واعرف شرف تلك المعية وما لذويها من الدرجة العلية . فالحب أكبر وسيلة من وسائل الخير والكمال . كما أنه أعظم ذرائع الفساد إن تعلق بغير ذلك . فهو ترياق نافع ، وسم ناقع ، على حسب ما يتعلق به من المحبوبات . ويكفيك هذا التلميح . والله يتولى هداك ؟

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء

فى الحث على بذل المال

قال الله تعالى : « ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون » . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « اصطناع المعروف يقى مصارع السوء » وقال : « إن الله يحب الجود ومكارم الاخلاق ويبغض سفسافها » .

وقال اكثم بن صيفى حكيم العرب : « ذللوا أخلاقكم للمطالب ، وقودوها الى المحامد ، وعلموها المكارم ، ولا تقيموا على خلق تذمونه من غيركم ، وصلوا من رغب اليكم ، وتحلوا بالجود يلبسكم المحبة ، ولا تعتقدوا البخل فتتعجلوا الفقر » أخذ شاعر هذا المعنى فقال :

أمن خوف فقر تعجلته وأخرت إنفاق ما تجمع
فصرت الفقير وأنت الغنى وما كنت تعدو الذى تصنع

وكتب رجل من البخلاء الى رجل من الأسخياء يامره بالابقاء على نفسه ويخوفه بالفقر . فرد عليه يقول : « الشيطان يعدكم الفقر ويامركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا » . وإنى أكره أن أترك أمرا قد وقع ، لأمر لعله لا يقع » .

وكان خالد بن عبد الله القسرى يقول على المنبر : « أيها الناس عليكم بالمعروف فان الله لا يعدم فاعله جوازيه ، وما ضعفت الناس عن أدائه قوى الله على جزائه » .

وقد أحسن الحطيئة حيث قال وفيه معنى قول خالد المتقدم :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

وكان سعيد بن العاص يقول على المنبر : « من رزقه الله رزقا حسنا فلينفق منه سرا وجهرا حتى يكون أسعد الناس به .

خطبة

الأستاذ الأكبر في الجامع الأزهر

...

تفضل حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي فزار العلماء وطلاب العلم فى الجامع الأزهر ردا لزيارتهم له بمناسبة تقلده منصب المشيخة الجليلة ، فكان يوما تاريخيا مشهودا ، حضره بضعة ألوف من أهل العلم والطلبة والأهلين ، ونهض فضيلته بجوار الأداة المكبرة للصوت فألقى خطبة لا نبالغ إذا قلنا إنها أجمع خطبة طرقت مسامع الناس فى بيان مكانة الأزهر من الجامعات الاسلامية ، ومحل أهله من حفظ الدين ، وفى تجلية أصول الاسلام الأولية ، وما اشتمل عليه القرآن من الحث على تناول جميع ما ثبت من الفتوحات العلمية ، وما يجب على العلماء من العمل على تطهير الدين مما ألصق به من البدع . ثم نبه فضيلته الى وجوب تغيير طريقة عرض المقررات الاسلامية بالباسها حلة عصرية شائقة لتنجذب النفوس اليها قائلا : إن فيها ما يعتبر اليوم أحدث النظريات عند رجال القانون ، حتى إنها إذا اعتبرت جملة أغنت عن الاجتهاد فى المسائل التى عرضت متى عمل أهل العلم على التخير منها .

ثم عرض فضيلة الأستاذ الأكبر لحرية الرأى ، وحذر من اتهام الخصوم بالكفر والزندقة ، مقررا أن تلك كانت سيرة سلف هذه الأمة ، إذ كانوا لا يكفرون إلا من ينكر نصا أو إجماعا . وقد رمى فضيلته بلفت الأنظار لهذا الأدب الى معالجة النفور الذى يظهر به دعاة الدين عند احتكاكهم بأصحاب الآراء الحديثة ، فيحدث من جراء ذلك تقاطع يعقبه تناكر نتيجته انقسام الأمة الى شطرين ، وليس هذا من مصلحة الاجتماع ولا مصلحة الأخلاق فى شيء .

ثم حض فضيلة الأستاذ الأكبر رجال الأزهر على القيام برسالة الاسلام للعالم أجمع قائلا : إنه لا يتسنى ذلك إلا بتعلم اللغات ، فان الله لم يرسل رسولا إلا بلسان قومه ليبين لهم . ووعد فضيلته بأنه سيعنى بهذه المسألة عنايته بتثقيف عقول الطلاب الأجانب .

ثم ختم فضيلته خطبته بالدعاء لجلالة الملك ، صاحب اليد البيضاء على الأزهر ، ولصاحب السمو أمير الصعيد ولى عهده المحبوب .

ولا يسع مجلة نور الاسلام وهى اللسان الرسمى للأزهر إلا أن تدون بين صفحاتها هذه الخطبة الجامعة التى وضع فيها فضيلة الأستاذ الأكبر أعلام الاصلاح الدينى الذى كان ينشده أولو البصر من المسلمين منذ قرون طويلة ، واشتد التعطش له منذ نحو خمسين سنة ، فقامت الحوائل فى وجوه الداعين اليه والعاملين عليه . واليوم قد قدر الحق سبحانه وتعالى لأقدر رجل فى مصر على تحقيق هذه الأمنية أن يتولى قيادة هذه الحركة المباركة ، فها هو ذا يتحدث

بما ندب اليه فى وسط حشد ضخم من العلماء الأعلام والطلبة الأنجاب، وتتلقف الصحف فى مشارق الأرض ومغاربها أقواله داعية له بطول البقاء، ولبرنامجه الاصلاحى بالتوفيق والنجاح .

لا جرم أن هذا يعتبر فتحا جديدا من فتوح الاسلام، ويوما تاريخيا من أيامه، يفرح له رسول الاسلام صلى الله عليه وسلم فى الرفيق الأعلى، ويستبشر به كل مسلم فى الأرض . وفق الله مصلحنا العظيم لتنفيذ برنامجه كاملا، ومهد له السبيل اليه، إنه ولى الكفاية، وهو المستعان .

ولا يسع مجلة نور الاسلام فى مفتتح هذا العهد الجديد إلا أن تبتهل الى الله بان يجعله حدا فاصلا بين دور الفتور الدينى الذى كنا فيه ودور النشاط الروحى الذى نصبو اليه .

والى القراء نص خطبة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى، أطال الله أيامه، وأمده بروح منه :

محمد فريد وجدى

بسم الله الرحمن الرحيم

له الحمد على نعمه، والصلاة والسلام على أشرف خلقه .

وبعد : فقد رأيت واجبا على أن أزور الأزهر قبل بدء الدراسة لأحيي علماء الأزهر والمعاهد، وطلبة العلم فى الأزهر والمعاهد فى دارهم كما حيونى فى دارى . والأزهر دار خاصة لكل من ينتسب الى العلم، ودار عامة للمسلمين .

وقصدت أيضا إسداء النصيحة الى إخوانى العلماء وأبنائى الطلبة بنسيان ما قد يكون باقيا فى نفوسهم من ضغائن وإحن سببتها الحوادث الأخيرة التى تعرفونها، لنستقبل الحياة العلمية فى صفاء، ونقبل على العلم بقلوب مخلصة لله ورسوله، نقية من دنس الغل والحقد، عامرة بالايمان .

والأزهر مكان يستحق الاجلال، فقد كان ولا يزال مصباحا تستضىء به جميع الأمم الاسلامية، ومنبعا صافيا لعلوم الدين، ومستودع فنون العربية وأسرارها، وبعض العلوم العقلية .

وقد اضطلع بحمل عبء المعارف الاسلامية وغيرها ، خاصة بعد سقوط بغداد وضياع ذخائرها العلمية ، وصار المثابة الأخيرة ، والكعبة التى يؤمها طلاب العلم من جميع الأقطار. وما من بلد فى مصر، بل وما من بلد فى أى قطر من الأقطار الاسلامية إلاوهومدين للأزهر بمايعرفه أهله من الدين الاسلامى ، وبماتبقى عندهم من علوم العربية.

حمل الأزهر هذا العبء وأدى الأمانة كاملة ، وله الفضل على المعاهد العلمية القائمة بجواره فى مصر ، فهو أستاذها ، وهو شيخ هذه المعاهد جميعها.

نعم : قد استقلت عنه بعض المعاهد أخيرا . ولكنه لا يزال له نصيب عظيم من التثقيف فى المعارف الاسلامية وفنون العربية فى أكثر هذه المعاهد. فلكم أن تفخروا بتاريخ طويل كله مجد وعظمة لهذا المعهد الذى تنتسبون اليه : تاريخ ظهر فيه من الأئمة والعلماء والمؤلفين من خريجى الأزهر من لا يحصيهم العد ،وقد كانوا سباقين للخيرات. وكلوا أمرهم الى الله جل شأنه ، فحفظهم ورعاهم ، وشرح صدورهم ، وأنار عقولهم ، فترسموا آثار الرسول الأكرم ، صلوات الله عليه ، وتخلقوا بأخلاقه ، واعتصموا بهديه ، وانتفع الناس بعلمهم وتأدبوا ، وحلت آثارهم فى البلاد جميعها كما يحل ضوء الشمس ونور القمر.

أولئك آباؤنا وأجدادنا فى سلسلة النسب العلمى ، رضى الله عنهم ونفعنا بهم.

يجب أن نذكر هذا المجد ونفاخر به ، ونحرص على الانتساب اليه كما يحرص الأشراف على أنسابهم ؛ وأن نحافظ على هذا المجد ، ونضيف اليه مجدا طارفا ، اقتداء بأولئك الآباء والأجداد.

قد يسأل بعض الناس : ما فائدة الأزهر؟ أو ما هى رسالة الأزهر كما يقال اليوم؟ فأقول لهؤلاء : رسالة الأزهر هى حمل رسالة الاسلام. ومتى عرفت رسالة الاسلام عرفت رسالة الأزهر.

الاسلام دين جاء لتهذيب البشر ، ورفع مستوى الانسانية ، والسمو بالنفوس ،

الى أرفع درجات العز والكرامة . قد طوح بالوسطاء بين الناس وربهم ، ووصل بين العبد وربه ، ولم يجعل لأحد فضلا على أحد إلا بالتقوى ، وقدس العلم والعلماء ، وقرر فى غير لبس ما يليق بذات الخالق من الصفات . وما قرره فى ذلك هو منتهى ما سمت اليه الحكمة ، ووصل اليه العقل . وأتى بتعاليم كلها ترجع الى تهذيب النفس ، وتلطيف الوجدان ، وأبان أصول الأخلاق ، وشرع حل التمتع بالطيبات . ولم يحرم إلا الخبائث ، ووضع حدودا تحد من طغيان النفوس ونزوات الشهوات ، ورسم أصول النظم الاجتماعية وأصول القوانين . قواعد كلها لخير البشر وسعادة المجتمع الانسانى .

هذه صورة مصغرة جدا للدين الاسلامى . ورسالة الأزهر هى بيان الدين الاسلامى ، وشرح قواعده وأسراره . ومتى أدى هذه الرسالة على وجهها فقد أدى نصيبا عظيما من السعادة والخير للجمعية الانسانية .

فى القرآن الكريم حث شديد على العلم ، وعلى معرفة الله ، وعلى تدبر ما فى الكون ، وليس هناك علم يخرج موضوعه عن الخالق والمخلوق . فالدين الاسلامى يحث على تعلم جميع المعارف الحقة . وليس فى المعارف الحقة الصحيحة المستقرة شىء يمكن أن يناقض أصول الدين ويهدمها .

نعم : قد توجد معارف تناقض بعض ما وضعه العلماء فى شرح القرآن والحديث والفقه وغيرها ، ولكننا لانهتم لهذا ، فليسر العلم فى طريقه ، ولنصحح معارف الماضين ، لكن على شريطة أن يكون ما يخالف معارفنا ، من العلم البرهانى المستقر .

ولست أقصد بحديثى هذا أن يكون الأزهر مدرسة طب أو هندسة ، أو كلية للكيمياء أو ما يشبه هذا . ولكنى أعنى أن هناك علوما ومعارف لها صلة بالدين وثيقة ، تعين على فهمه ، وتبرهن على صحته ، ويدفع بها عنه الشبهات . هذه العلوم يجب أن يتعلمها العالم الدينى أو يتعلم منها القدر الضرورى لما يوجه اليه .

هذا وقد تغيرت فى العالم طرق عرض السلع التجارية ، وأصبح الإعلان عنها ضروريا

لنشرها وترغيب الناس فيها . ولديكم الحوانيت القديمة ومخازن التجارة الحديثة : وازنوا بينها تدركوا ما فى طريقة العرض الحديثة من جمال يجذب النفوس اليها ، وما فى طريقة العرض القديمة من تشويه ينفر الناس عنها . وقد توجد فى الحوانيت القديمة سلع أحسن صنفا ، وأغلى قيمة ، وأمتن مادة ، ومع ذلك هى فى كساد .

وكما تغيرت طريقة عرض السلع تغيرت طريقة عرض العلم ، وأحدث العلماء طرائق تبعث الرغبة الملحة فى العلم ، وتنفى الملل والسأم .

حدثت هذه الطرق فى إلقاء الدروس والمحاضرات ؛ وحدثت فى تأليف الكتب أيضا . وهذا المثل ينطبق علينا : ففى جميع الكتب التى تدرس فى الأزهر ، وفى جميع العلوم التى تدرس فى الأزهر أعلاق نفيسة لا تحتاج إلا الى تغيير طريقة العرض فى الدرس والتأليف ، وفى الفقه الاسلامى نظريات تعد الآن أحدث النظريات عند رجال القانون . وفى الفقه الاسلامى آراء يمكن أن يسير عليها الناس الآن من غير حرج ، وتحقق العدالة فى أكمل صورها . ولكن هذه النظريات البالغة منتهى الجمال والحكمة يحجبها عن الناس أسلوب التأليف القديم .

على الأزهر أن يسهل فهم علومه على الناس ، وأن ييسر لهم هذه المعارف ، وأن يعرضها عرضا حديثا جذابا مشوقا .

ومسألة أخرى يجب أن يعنى الأزهر بها : تلك هى تطهير الدين الاسلامى من البدع وما أضيف اليه بسبب الجهل بأسراره ومقاصده . هنالك آراء منثورة فى كتب المذاهب وفى غير كتب المذاهب يحسن سترها ؛ ضنا بكرامة الفقه والدين .

ومن الواجب أن يعترف بأن المذاهب الاسلامية جملة تغنى عن الاجتهاد فى المسائل التى عرضت من قبل متى تخير العلماء منها .

وأذكر قصة طريفة تجدونها فى كتاب الولاة والقضاة للكندى :

« كان فى مصر قاض شافعى المذهب فى عصر الامام الطحاوى ؛ وكان يتخير لأحكامه

ما يرى أنه محقق للعدل من آراء الأئمة ، ولا يتقيد بمذهب . وكان مرضىّ الأحكام لم يستطع أحد أن يطعن عليه فى دينه وخلقه . سأل ذلك القاضى الامامَ الطحاوى عن رأيه فى واقعة من الواقعات ، فقال الطحاوى : أتسألنى عن رأيى أو عن رأى أبى حنيفة ؟ فقال القاضى : ولم هذا السؤال ؟ قال الطحاوى : ظننتك تحسبنى مقلدا . فقال القاضى : ما يقلد إلا عصبى أو غبى ؟

فتخيرُ الأحكام نوع من الاجتهاد ، ولكنه الاجتهاد الذى لم يغلق الناس أبوابه .

إصلاح التعليم فى الأزهر واجب اجتماعى ، لإصلاح الأمم الاسلامية فى مختلف أقطارها وأجناسها ، وعلى كل مسلم أن يساهم فيه ما استطاع الى ذلك سبيلا .

وأنا أرجو الله سبحانه أن يوفق العلماء وطلاب العلم الى الاخلاص فى النهوض بالأزهر ، فإن الاخلاص فى ذلك إخلاص لله ولرسوله والمؤمنين ، والدين الحق الذى وعد الله أن يظهره على الدين كله ، وجعله هداية عامة لجميع البشر .

احترام حرية الرأى :

ونصيحة أقدمها للعلماء وطلاب العلم فى الأزهر راجيا تدبرها ، وهى احترام حرية الرأى ، والتحرج من الاتهام بالزندقة والكفر .

ولا أطالب بشىء يعد بدعة . ولا أحدث فى الدين حدثا بهذه النصيحة . فهى موافقة للقواعد التى وضعها سلف الأمة رضى الله عنهم ، وترونها مبسوطة واضحة فى كتب الأصول وفى جميع كتب الإمام الغزالى .

وحاصلها ـ على ما أذكر ـ أن المسائل الفقهية يكفر منكر الضرورى منها : كالصلاة ، والزكاة ، وحرمة الزنا ، وشرب الخمر ، وقتل النفس ، والربا .

أما إنكار أن الاجماع حجة ، وخبر الواحد حجة ، والقياس حجة ، فلا يوجب الكفر ، وما عدا ذلك من المسائل الفقهية لا إثم فى إنكاره مطلقا ، على شرط أن يكون الانكار غير مصادم لنص أو إجماع .

على هذا أجمع الصحابة رضى الله عنهم ، وأجمع عليه الأئمة ، ولم يعرف أن بعضهم أثّم بعضا .

وإجمال القول أنه ما دام المسلم فى دائرة القرآن لا يكذب شيئا منه ، ولا يكذب ماصح عن رسوله صلى الله عليه وسلم بطرق قاطعة ، فهو مسلم لا يحل لأحد أن يتهمه بالكفر .

عرضت لهذه النصيحة لأنها تسهل على أهل الأزهر معاشرة الناس ، والعمل بها يمكن من نشر الدعوة ومن الجدل بطرقه المقبولة ، والعمل على خلافها منفر يحدث الشقاق ويورث العداوة .

أسأل الله أن يهبنا رشدا ، وأن يملأ قلوبنا خشية وهيبة من جلاله ، ويملأها عطفا وشفقة ورحمة لعباده :

وإذا كانت مهمة الأزهر حمل رسالة الاسلام للعالم فمن أول واجب على أهله أن يعدوا أنفسهم لتعلم اللغات : لغات الأمم الاسلامية وغير الأمم الاسلامية ، والله لم يرسل رسولا إلا بلسان قومه ليبين لهم .

فليحقق الأزهر القدوة ، وليرسل الى الناس رسلا يفقهونهم فى دينهم بلسانهم .
وسأعنى بهذه المسألة كما أعنى بتثقيف إخواننا الذين أسماهم القانون « أغرابا » فإن لهم من الحقوق والحرية فى هذا الوطن ما لكل فرد من أهل البلاد . وأرجو أن يفكروا طويلا فيما يفرضه عليهم دينهم من الهداية والإرشاد وإسعاد المجتمع .

وخليق بنا أن نذكر ما لحضرة صاحب الجلالة ملك مصر المعظم من منن وأياد بيضاء على المعاهد الدينية ؛ وأن نسأل الله جلت قدرته أن يسبغ عليه نعمة العافية ، ويديم على هذه المعاهد خيره وبره ؛ وأن يحفظ حضرة صاحب السمو الملكى أمير الصعيد ولى عهده المحبوب . والسلام عليكم ورحمة الله .

حقوق الجوار فى الاسلام

لقد وضع الاسلام نظاما للاجتماع يجعل من الأمة الاسلامية جمعاء أسرة واحدة مترابطة الآحاد ترابطا لا تنفصم له عروة ، ولا تنحل له لُحمة . فشرع شرعة التعاون فى الحياة لتذليل عقباتها ، وقطْع مفازاتها . وجعل ذلك أساسا لمدنيته الفاضلة ، فقال تعالى : « وتَعاونوا على البر والتقوى ولا تَعاونوا على الإثم والعدوان » . ثم لم يدَع فضيلة من الفضائل التى تحقق معنى هذا التعاون إلا دعا اليها وحث عليها . ولا مشاحة فى أن مراعاة حقوق الجوار من أمهات تلك الفضائل ، بل لو تحققت هى وحدها لجعلت الأمة كالبناء المرصوص يشد بعضه بعضا ، لا يجد التداعى سبيلا اليه بحال من الأحوال . لذلك جاء فى وجوب مراعاة هذه الحقوق من الأوامر ما يتفق وعظم خطره .

فأول حجر وضعه النبى صلى الله عليه وسلم فى بناء صرح حقوق الجوار قوله : « لايؤمن عبد حتى يأمن جارُه بَوائقَه » ومراده أنه لايتم له إيمان حتى يتحقق فيه هذا الشرط ، وهذا أمر فى منتهى الخطورة . فإن الإيمان غاية كل متدين وعليه يتوقف استحقاقه للكرامة فى الدنيا والآخرة ، فاذا كان اكتمال هذا الإيمان يتوقف على أن يأمن جار المؤمن أذاه ، فإنه لاشك منصرف بكليته للقيام بهذا الشرط ضَناً بنفسه وطلبا لنجاتها .

قسم النبى صلى الله عليه وسلم الجيران الى ثلاثة أقسام فقال : « الجيران ثلاثة : جار له حق واحد ، وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق . فالجار الذى له ثلاثة حقوق : الجار المسلم ذو الرحم ، فله حق الجوار وحق الاسلام وحق الرحم . وأما الذى له حقان فالجار المسلم : له حق الجوار وحق الاسلام . وأما الذى له حق واحد فالجار المشرك » .

حقا إن هذا سمو فى الآداب الاجتماعية ليس وراءه مذهب ، فإن تسرية حقوق الجوار حتى على المشركين لم يقل به قبل الاسلام مصلح فى الأرض . ويفهم من هذا

أن الاسلام إنما يراعى فى الآداب الاجتماعية مايشمل الانسانية كلها ، وهذا غاية ماترمى اليه المدنية . فالانسان لا يخلو وهو يعيش فى مدينة أن يكون له جيران من ذوى ملل مختلفة ، يبادلهم المعاملات ، فهل أبيحت المسلم معاملتهم وحرمت عليه مجاملتهم ؟ لا ، بل أوجب عليه الاسلام أن يسوى بينهم وبين إخوانه المسلمين فيها وقد حث النبي على مبادلة أهل الكتاب الزيارة وحضور أعراسهم ومآتمهم ، والأكل معهم حتى الإصهار اليهم . وقد وجد أصحاب الأديان من مجاورة المسلمين ما تلقاه القلة فى وسط كثرة قائمة على أحكم أصول المدنية ، وأقوم سبل الانسانية .

قال مجاهد: كنت عند عبد الله بن عمر وغلام له يسلخ شاة ، فقال : يا غلام إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودى ، حتى قال ذلك مرارا . فقال الخادم : كم تقول هذا ؟ فقال له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا أنه سيورثه .

فانظر كيف اعتبر ابن عمر اليهودى جارا ولم يفرق بينه وبين إخوانه فى الدين ، بل انظر كيف أمر خادمه أن يبدأ به قبلهم . لا شك فى أنه فعل ذلك حتى لا يسبق الى ذهن خادمه أن يستثنيه من حقوق الجوار ليهوديته ، فأمره أن يبدأ به ، ثم ذكر للخادم ما ورد عن النبي من التشديد فى وجوب مراعاة هذه الآداب الاجتماعية .

ومن أشد ما يلفت المسلمين الى العناية بحقوق الجيران أن جعل النبي صلى الله عليه وسلم شهادتهم علامة على الإحسان والإساءة لمن أراد أن يعرف منزلته عند الله . روى عبد الله بن عمر فقال : « قال رجل : يا رسول الله كيف لى أن أعلم إذا أحسنت ، أو أسأت ؟ قال إذا سمعت جيرانك يقولون قد أحسنت فقد أحسنت ، وإذا سمعتهم يقولون قد أسأت فقد أسأت » .

فتأمل فى هذا وانظر هل يطيق رجل سمع هذا الحديث أن يسمع ذم جيرانه له دون أن يبلغ منه التأثر مبلغه ؟ وهل يتأثر منه ولا يحاول أن يحسن من سيرته حتى يستحق أن يمدحه جيرانه ؟

روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «أتدرون ما حق الجار ؟ إن استعان بك أعنته ، وإن استنصرك نصرته ، وإن استقرضك أقرضته ، وإن افتقر عدت عليه ، وإن مرض عدته ، وإن مات تبعت جنازته ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن أصابته مصيبة عزيته ، ولا تستطل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه ، ولا تؤذه ، وإذا اشتريت فاكهة فاهد له ، فإن لم تفعل فأدخلها سرا ، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده ، ولا تؤذه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها . ثم قال : أتدرون ما حق الجار ؟ والذى نفسى بيده لا يبلغ حق الجار إلا من رحمه الله » :

إن هذا حديث جامع فى حقوق الجوار لم يترك صغيرة ولا كبيرة منها إلا أحصاها ، فلعل من الناس من يخيل اليه قياسا على حالة أهل المدنية اليوم أن هذه الحقوق لا تتفق والحياة الاجتماعية الراهنة ، وهو وهم باطل ، فإن هذه الحقوق طبيعية يؤدى اليها العقل لو ترك وشأنه ، وتقضى بها الانسانية لو تجردت من شبح الحيوانية ، وأثرة البهيمية .

فإليك بيان ذلك خصلة خصلة :

أمن علو الهمة التى يجب أن يتحلى بها كل رجل أن يستعين بك جار لك على أمر نزل به فتأبى عليه الإعانة ، وأن يستنصرك على لص طرقه أو حيوان ضارٍ داهمه فتوليه ظهرك وتدعه فريسة لما نابه ، وأن يستقرضك دريهمات يستعين بها على شأن من شئونه فتضن بها عليه ، وأن يفتقر ويجوع أهله فلا تمده بمعونة ، وأن يمرض ويحتاج للمواساة فلا تعوده ، وأن يموت فتبخل عليه بخطوات قليلة ، وأن يناله ما يفرحه فلا تهنئه بكلمة ، وأن يصاب بنازلة فتترفع عن تعزيته ، وأن تستطيل عليه فى البناء لتحجب عنه الهواء والشمس ، وأن تؤذيه فلا ترفع بتضرره وزنا ، وأن تخص أهلك بالطيبات من الرزق ولا تبالى به وبأولاده الصغار فلا تشركهم معك ؟ ثم لا يكفيك أن تعد هذا تقصيرا فتتلمس له حجة من مقتضيات الحياة العصرية ؟ هل الحياة العصرية

لا تستقيم إلا إذا كان قوامها التقاطع وغلظ الكبد، والشح المطاع، وجمود القلب وقلة الانسانية ؟

كان الأولى بك أن تقول : إن الحياة العصرية قد جهلت هذه الواجبات الأولية فوقعت فى شر ما تجنيه الجماعات على نفسها، وهو حقد الفقراء على الأغنياء، وحسد المحرومين الموهوبين، وتوقع بعض الناس دوائر السوء ببعض، واختمار الثورة فى نفوس أهل الفاقة على قلب النظام العام، وهذه العلل كلها تشكو منها أوروبا المتمدنة جد الشكوى، بل هى لم تهدد فى كيانها بشىء كما تهدد من هذه الناحية .

وكما بيّن الاسلام حقوق الجوار على أتم وجه كما رأيت، حرم إيذاء الجيران أشد تحريم وأبلغه، حتى جعل هذا الإيذاء مبطلا للأعمال الصالحة، فقد قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذى جيرانها . فقال عليه السلام : هى فى النار .

ومن أبلغ ما يؤثر من الزجر عن إيذاء الجار قول النبى صلى الله عليه وسلم : « إن أنت رميت كلب جارك فقد آذيته »، فأخذ المسلمون بهذا الأدب وجروا على سنته، فكانوا يتحرجون حتى من مقابلة أذى جيرانهم بمثله . فيروى أن رجلا جاء الى ابن مسعود رضى الله عنه فقال له : إن لى جارا يؤذينى ويشتمنى ويضيق على . فقال له : اذهب فإن هو عصى الله فيك فأطع الله فيه . ولم يشر عليه بالانتصاف لنفسه، فإن التغاضى عن أذى الجار ربما أداه للندم والرُّعوَى، مصداقا لقوله تعالى : « اُدفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم »، ولكنه لو قابل جاره بالمثل كان ذلك صدعا فى بناء المجتمع لا يلبث أن يتوسع بانضمام بعض الجيران الى أحدهما والبعض الآخر الى الثانى، فحسما لمادة هذا التصدع رأى ابن مسعود أن يحصر الشر فى أصغر دائرة فينصح المجنى عليه بالصبر . وقد اقتدى المسلمون فيه بالنبى صلى الله عليه وسلم، فقد روى أنه جاءه رجل فقال له النبى : اصبر، فجاءه ثانية وثالثة، فكان يأمره بالصبر، فلما جاءه

الرابعة، قال له: اطرح متاعك فى الطريق. ففعل الرجل ما أمره به، فجعل الناس يمرون به ويسألونه عما نابه، فيقال لهم: له جار يؤذيه، فكانوا يقولون: لعنه الله! فأثر ذلك فى قلب جاره المشاكس، فأتى صاحبه وقال له: رد متاعك فوالله لا أعود!

وروى الزهرى أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فجعل يشكو جاره، فأمر النبي أن ينادى على باب المسجد: «ألا إن أربعين دارا جار» قال الزهرى: أربعون هكذا وأربعون هكذا وأربعون هكذا وأربعون هكذا، وأومأ الى أربع جهات. وإنما جعل النبي صلى الله عليه وسلم هـذا النداء جوابا على شكوى الرجل لأن فيه إيذانا بخطورة حرمة الجوار حتى إنها لتمتد الى أربعين دارا، ومن يكلف بمراعاة حق أربعين لا يجوز له أن يضيق ذرعا بحق واحد. وهذا الضرب فى الزجر من أبلغ أساليب التأديب التى لا تؤثر إلا عن النبي صلى الله عليه وسلم.

وفى تاريخ المسلمين أغرب الحوادث وأدعاها للاعتبار فى مراعاة حقوق الجوار، فقد روى أنه بلغ ابن المقفع أن جارا له يبيع داره فى دين ركبه، وكان يجلس هو فى ظل داره، فقال: ما قمت إذن بحرمة ظل داره إن باعها معدما، ودفع اليه ابن المقفع ثمن الدار قائلا له: لا تبعها.

وشكا بعضهم كثرة الفأر فى داره، فقيل له: لو اقتنيت هرا! فقال: أخشى أن يسمع الفأر صوت الهر فيهرب الى دور الجيران فأكون قد أحببت لهم ما لا أحب لنفسى.

هذا بعض ما يقال فى حقوق الجوار فى الإسلام، فألق عليه نظرة عامة ثم قابل بينه وبين ما تراه وما تسمعه اليوم من أحوال الجيران. فأما تناكرهم فحدث عنه ولا حرج، فقد يسكن عشرة عمارة واحدة فلا يعرف بعضهم بعضا، فما ظنك بمن يسكنون عمارات أخرى؟

وأما ضروب الأذى فما لا يستطاع حصره، فمن أصغره وأخفاه تربص الشبان خلف الشبابيك بالمنظارات المعظمة ليروا ما يدور خلال دور الجيران مما لا يحبون كشفه

لأحد، حتى ليضطروهم الى إقفال شبابيكهم وحرمان أنفسهم من شعاع الشمس ونورها الضروريين لصحة الأبدان. ومن أظهر الأذى وأضره إلقاء القامات أمام أبواب الجيران، وإطلاق العنان للأطفال وقت الهجير يقلقون راحة القائلين بضوضائهم، ووقت الأصيل يثيرون التراب بكراتهم.

فإذا تركت المدن وانتقلت الى الأقاليم رأيت هذه الحال السيئة، ولكن فى شكل آخر، وأظهره تنابذ النسوة بسبب تناقش الأطفال، وتداخل الرجال فى هذه المنازعات، فتارة يقف الأمر عند التشاتم، وطورا لا ينحسم الشر إلا بالتلاكم. أما فى الغيطان فإن حقوق المجاورة لا تراعى الى حد بعيد، فيجور الجار على أرض جاره، أو يترك ماشيته ترعى برسيمه فى غفلته، أو يماكسه فى رى زرعه، أو يسد عليه طريق الصرف لا لعذر غير حب المشاكسة. فهؤلاء كلهم لو ذُكّروا بما ورد فى الإسلام من وجوب مراعاة حقوق الجيران، ووقفوا على هذه الوصايا القيمة التى لم يترك النبى صلى الله عليه وسلم وجها من وجوه البيان إلا حلاها بها، قلنا لو ذُكِّروا بهذا كله لأثر فيهم أبلغ تأثير، وقد عملت إدارة المعاهد الدينية فى حدود ميزانيتها على تدارك هذا النقص، فأرسلت بعشرات الوعاظ الى الأقاليم، والآمال معقودة، على إبلاغهم الى المئين الكثيرة ليعم الناس النور الذى يحملونه اليهم، والله ولى المحسنين ؟

محمد فريد وجدى

استدراك :

سقطت عند طبع خطبة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الاكبر تعليقه عند التكلم فى احترام حرية الرأى وهى إحالة القارىء الى ما ورد فى كتاب التحرير للكمال بن الهمام صفحة ٣٠٣ من المجلد الثالث فى هذه المسئلة .

باب الأسئلة والفتاوى

الطلاق – وكناياته

ورد الى ادارة المجلة هذا السؤال :

ما قول سادتنا علماء الشافعية فى رجل أمر زوجته أن تطالب أحد أقاربها فى دين لها فلم تجبه فقال لها : « علىّ اليمين لا بد أن تطالبيه » ثم طال بينهما النزاع فى هذا الموضوع وغيره فضربها فصاحت ، فدخل عليهما بعض النـاس فاشتد غضبه لذلك ، فقال لها : « أنت مطلقة » .

فهل يقع بيمينه الأول طلاقا ويلحقه الثانى لأنها ذهبت فى الليلة الثانية غاضبة ، أم لا يقع إلا الطلاق الأخير ، مع العـلم بأن اليمين الأول وما لحقه من الطلقة الثانية مسبوقان بطلقة رجعية ؟

عبد الله مسعود عثمان

الجواب

مذهب الشافعى أن قول الرجل لزوجته : يلزمنى اليمين أو علىّ اليمين ، لغو لا يلزم به شىء فى الطلاق . وعليه فقول السائل : « علىّ اليمين لا بد أن تطالبيه » لغو . وأما قوله : « أنت مطالقة » فصريح يقع به طلقة رجعية . وحيث كان مسبوقا بطلقة فلا يملك عليها بعد ذلك إلا طلقة واحدة ؟

يوسف المرصفى مصطفى الشربينى

ورود ايضا :

رجل كان يقرأ فى كتاب من كتب الفقه بحضرة زوجته هذه العبارة « والمعتدة قسمان متوفّى عنها وغير متوفّى عنها » فسألته زوجته بقولها : ما المراد بغير متوفى عنها ؟ فقال لها : « يعنى المعتدة عن طـلاق مثلك » ولم يقصد بقوله مثلك طلاقها وإنما قصد

أن يمزح معها. فهل لفظة « مثلك » فى هذا المقام تعتبر صريحة فى الطلاق فلا تحتاج الى نية الإيقاع ، وعلى ذلك يكون قد وقع عليه الطلاق ، أم تعتبر كناية فتحتاج الى نية الإيقاع ؟

أحد القراء

الجواب

من كنايات الطلاق فى مذهب الشافعى قول الرجل لزوجته : « اعتدى أو استبرئى رحمك » لاحتماله الطلاق وغيره .

وعليه فقول السائل لزوجته جوابا لسؤالها له عن غير المتوفى عنها : « هى المعتدة عن طلاق مثلك » كناية طلاق لا صريح . وحيث كان قاصدا المزاح معها ولم يقصد الإيقاع فلا يقع به طلاق . وأما لفظ « مثلك » وحده فليس بصريح ولا كناية .

يوسف المرصفى الشافعى　　مصطفى الشربينى الشافعى

الصلاة والصوم لسكان القطبين

وجاء أيضا :

إذا كان فى سكان القطبين التى فيها الليل ستة أشهر والنهار ستة أشهر من يعتنق الاسلام ، فكيف يؤدون الصلوات الخمس ، وكذا فريضة الصوم ؟

أحمد العارف قناوى
المدرس بمدرسة بخانس الالزامية

الجواب

مذهب الشافعى فى البلاد التى يستمر فيها الليل ستة أشهر والنهار ستة أشهر ، أن أهلها تجب عليهم الصلوات الخمس وصوم رمضان والحج ، ويقدرون أوقاتها بأقرب البلاد اليهم من البلاد التى فيها ليل ونهار .

والأصل فى ذلك ماروى مسلم عن النواس بن سمعان قال : ذكر رسول الله صلى الله

عليه وسلم الدجال ولبثه فى الأرض أربعين يوما : يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم ، قلنا فذلك اليوم الذى كسنة يكفينا فيه صلاة يوم ، قال : «لا، اقدروا له قدره » . ولا شك أن الأيام فى تلك البلاد كأيام الدجال فيجرى عليها حكمها .

يوسف المرصفى مصطفى الشربينى
الشافعى الشافعى

زكاة الذهب والفضة

وورد السؤال الآتى :

لدىّ نصاب أحد النقدين ، وقبل حولان الحول بشهر أجريت بيع جزء من الغلال المخرج عنها الزكاة فى حينها وضممت ثمنه الى ما عندى من النقود ، وقد آن وقت إخراج زكاة المال فى النصاب الذى حال عليه الحول ، فهل أخرج الزكاة عن النصاب الأصلى الذى حال عليه الحول ، أم أخرج عن الجميع ، مع العلم بأن ما أضيف جديدا لم يمض عليه أكثر من شهر فقط ؟

عبد القادر عبد الرحمن مكاوى
بمدرسة الغرق الأولية

الجواب

تجب الزكاة فى الذهب والفضة إذا بلغ كل منهما نصابا ، وتجب فيما زاد على النصاب ولو يسيرا ، بحسابه ، بشرط الحول .

وعليه فمن كان مالكا لنصاب أحد النقدين ثم باع جزءا من الغلال أو غيرها ، ضم الثمن الى ما عنده من النصاب إن كان من جنسه ، ذهبا أو فضة ، وتجب فيه الزكاة بحسابه ولو كان أقل من نصاب ، لضمه الى النصاب الذى فى ملكه من قبل ، لكن لا يجب إخراج زكاة ثمن الغلال إلا بعد أن يحول عليه حول من وقت دخوله فى ملكه ، لا بحول النصاب الأول . وإخراج الزكاة عن الغلال وقت حصادها لا يمنع تعلق الزكاة بأثمانها إذا بيعت ، لأنها صارت جنسا آخر ؟

يوسف المرصفى مصطفى الشربينى
الشافعى الشافعى

فى الميراث

وورد الى إدارة المجلة السؤال الآتى :

توفيت امرأة عن زوج وبنتين من ذلك الزوج وأخت شقيقة وعمين شقيقين . أملى الإجابة .

عيد حميده إدريس

الجواب

المسألة من اثنى عشر : للزوج الربع : ثلاثة ، وللبنتين الثلثان : ثمانية ، وللأخت الشقيقة الباقى تعصيبا ، لأنها عصبة مع البنت ؛ ولا شىء للأعمام .

يوسف المرصفى
الشافعى

حكم صلاة الجمعة فى البيوت

وفى المساجد المتعددة

وجاء إدارة المجلة سؤال يقول فيه مرسله :

يوجد ببلدتنا أسرتان لهما مسجد واحد تقام فيه صلاة الجمعة ، وقد حصل بين الأسرتين شقاق أدى الى منع إحداهما من أداء فريضة الجمعة فى المسجد المذكور .

فأدت الأسرة الممنوعة فريضة الجمعة فى دبوان لهم جعل للضيوف ، واتفقت كلتهم على أن يؤدوا دائما فريضة الجمعة فى هذا المكان . فهل صلاتهم صحيحة أم باطلة ؟

محمد الليثى عيسى
الريس بالأقصر

الجواب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

وبعد : فمن شروط صحة الجمعة فى مذهب مالك رضى الله عنه المسجد ، فلا تصح عنده

إقامتها فى البيوت ولا فى الفضاء ؛ ولا تقام فى البلد الواحد إلا فى مسجد واحد . فلو تعددت المساجد لم تصح إلا فيما أقيمت فيه أولا وهو المسمى بالعتيق عند المالكية .
وقد أجيز إقامتها فى مسجد آخر مع العتيق لأسباب مبسوطة فى كتب المذهب ، منها خوف حدوث فتنة بين طائفتين من أهل البلد لو اجتمعوا فى المسجد العتيق ، فاذاً يجوز لكل طائفة أن تصلى فى مسجد على حدة ، وتصح الجمعة فى المسجدين مادامت العداوة قائمة .

والخلاصة أن الأسرة التى منعت من إقامة الجمعة فى مسجد البلد (فى صورة الاستفتاء) إذا أمكنهم رد العائلة المانعة بطريق الحاكم أو بأية طريقة ودية بحيث تكون الفتنة مأمونة ، وجب عليهم سلوك هذا الطريق وصلّوا معهم الجمعة . فإن عجزوا ففى المسألة تفصيل : حاصله أنهم إذا قدروا على إنشاء مسجد آخر بالبلد وجب عليهم إنشاؤه وسقطت عنهم الجمعة حتى يتموا . فإن عجزوا عن ذلك أيضا سقطت عنهم الجمعة بتاتا ، لأن من شروط وجوبها القدرة على المسجد .

هذا وقد علم مما قدمناه أن جمعتهم التى أدوها فى محل الضيوف باطلة ؛ ويجب عليهم قضاؤها ظهرا ، وألا يعودوا الى صلاتها فيه مرة أخرى ، لأن الإقدام على العبادة الباطلة لا يجوز شرعا . والله يتولى هدى الجميع بمنه وكرمه م ؟ يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء

استكمال العرف

كتب أبو تمام الطائى الى أحمد بن أبى دواد قاضى القضاة فى زمن المعتصم :

اعْلَمْ وأنتَ المرءُ غيرَ معلَّمٍ ... وافهمْ جُعِلْتُ فِداكَ غيرَ مفهَّمِ
إن اصطناعَ العُرْفِ ما لم تولِهِ ... مستكملاً كالثوبِ ما لم يُعلَمِ
والشكرُ ما لم يستتِرْ بصنيعةٍ ... كالخطِّ نقرأُهُ وليسَ بمُعجَمِ
ويفوِّتني فى القولِ إكثارٌ وقد ... أسرجْتَ فى كرمِ الفَعالِ فألجِمِ

فتح المسلمين لاسبانيا

الفرق بين المسلمين وغيرهم فى استعمار الممالك

أجمع مؤرخو الفرنجة على أن أوروبا فيما بين القرن الرابع والقرن الخامس عشر للميلاد كانت قد وقعت فى حالة من الجهالة كادت تقلبها الى بربرية مطلقة ، فإن العلوم التى أثمرتها الجهود اليونانية وورثها عنها الرومانيون فقاموا بحقها بضعة قرون ، آل أمرها فى القرون الوسطى المذكورة آنفا الى الذبول ، ولولا أنها كانت مدونة فى الأسفار ومودعة فى الخزائن ، لزال رسمها من لوحة الوجود . فعاش الناس طوال ذلك العهد فى غيهبة من الجهل ما كان يتخيل أشد الناظرين تفاؤلا أنها تنجاب عنهم فى يوم من الأيام ، وإن تخيلوا ذلك فما كانوا ليتوقعوا أن النور يأتيهم من قبل أمة ليس بينها وبينهم أدنى صلة ، وهى الأمة العربية .

فلما قامت للاسلام دولة فى القرن السابع الميلاد ، وشرعت هذه الدولة فى أداء ما عهد اليها من إعلاء كلمة الله فى الأرض ، بدأت بما جاورها من سورية ومصر والعراق العربى والعجمى وآسيا الصغرى والتركستان وما وراء النهر الى حدود الصين . فلما تم لها فتح هذه الأبواب العالمية فى وجه الدعوة الاسلامية ، وانبعث منها نور الاسلام الى هذه الأقطار القصية ، بقى باب واحد الى قارة كانت من أنجب قارات الأرض وهى أوروبا ، وهى وإن كانت قد انتهت الى حالة يرثى لها من القحولة العقلية كما قدمنا ، إلا أنه كان فى خزائنها من علوم الأوائل ما ليس فى غيرها مما تقتضى حاجة العالم باستخراج دفائنه ، والانتفاع بكنوزه . وقد تجلت سمو مبادئ الاسلام العلمية بعد الاستيلاء على تلك المذخورات العقلية تجليا باهرا ، فإنها بعد أن استخرجتها من خزائنها أخذت فى ترجمتها والإكباب على تدارسها ، فزادت فى مادتها ، وضمت اليها ما هديت

اليه باجتهادها ، وكان ذلك كله بعثا للتراث العلمى العالمى من الموات الذى كان فيه ، وبث حياة جديدة اليه أمدها الاسلام بروح منه ، فأعادت للانسانية أنوار ثقافتها العقلية ، ورونق حياتها المدنية .

أجمع مؤرخو الفرنجة على أن علوم العرب وفنونهم التى كانت سببا فى قيام المدنية الحاضرة دخلت الى أوروبا من ناحيتين : من ناحية إسبانيا ، ومن ناحية ايطاليا . فلنذكر تاريخ فتح العرب لاسبانيا ، ثم نعقبه بفتوحهم فى جنوب ايطاليا وجميع جزر البحر الأبيض المتوسط ، فنقول :

فتح المسلمين لاسبانيا فى القرن الاول للهجرة :

أمر أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان عامله على شمال أفريقا موسى ابن نصير أن يفتح مملكة إسبانيا ، وهى التى يسميها العرب بالأندلس ، سنة ٩٣ هجرية ، فكاف موسى مولاه طارق بن زياد أن يجتاز اليها البحر على رأس اثنى عشر ألفا من المقاتلة ، فسار بهم على السفن حتى وصل الى مضيق جبل سمى باسمه ، فاستقبله الكونت جوليان بالترحاب ، وكان له ممتلكات واسعة فى تلك الجهات ، وكان يحمل على ملك إسبانيا روديريك حقدا عظيما ، وسلم اليه قلعة الجبل الأخضر بدون قتال . فلما بلغ الملك روديريك ذلك استشاط غضبا وزحف بنفسه على جيش المسلمين فى مائة ألف مقاتل . أما طارق بن زياد فتأهب لملاقاة عدوه ، ولأجل أن يحمل جيشه على الاستبسال أحرق السفن التى أقلتهم الى تلك السواحل قائلا لجنوده : العدو أمامكم والبحر وراءكم فاختاروا لأنفسكم إحدى النهايتين . فلما وافاهم الملك روديريك بجنوده صمدوا على أن يقاتلوا حتى يفوزوا أو يموتوا ، لأنهم كانوا قد فقدوا الأمل فى اللجأ الى سفنهم . فدارت رحى المعركة فى سهل غواداليط سبعة أيام متوالية صبر فيها المسلمون صبر الكرام ، وأبلوا أشد البلاء حتى آتاهم الله النصر ، فاخترقوا جيش العدو ، وانضم اليهم (إياس) أسقف أشبيلية ، وكان من حزب الكونت جوليان ، ومن الواجدين على سياسة روديريك ،

فلم يسع الاسبانيين غير الهرب ، وحمل الغيظ قائدهم على أن يلقى بنفسه فى نهر الوادى الكبير ، فغرق ، واستولى العرب على أسلاب ذلك الجيش ، ولم يتوان طارق طرفة عين فى استغلال هذا النصر ، فأرسل كتائبه تترى للاستيلاء على أمهات المدن ، فاستولى قواده على غرناطة وقرطبة وويرة وملقة وأستجه ، وسار هو بنفسه على عجل الى طليطلة ، وبلغت أخباره موسى بن نصير ، وربما خشى أن يتشتت جيشه الصغير فى البلاد فيعطف عليه العدو فيبيده ، فكتب اليه يأمره بالوقوف حتى يلحق به ، فرأى طارق بثاقب نظره أنه لو أطاع رئيسه لضاعت من يده الفرصة السانحة ، إذ يسارع الاسبانيون الى انتخاب ملك جديد فيبعث فيهم أملا يحملهم على التألب عليه ، فرأى المصلحة فى عصيان هذا الأمر ، فسار حتى بلغ الى طليطلة ودخلها بلا قتال ، وترك بها حامية ، وتابع سيره الى الشمال ، فخضعت له جميع البلاد التى خلفها وراءه .

ولما وافاه مولاه موسى بن نصير بجيش جديد فتح به مدينتى كرمونة وأشبيلية ، وانتهى الى مريدة فحاصرها ، وكان بها فرسان من قبيلة الويزيغوط الذين كانوا متغلبين على إسبانيا ، فلم يقو موسى على فتحها إلا بعد أن وصل اليه مدد من ابنه عبد العزيز يقدر بسبعة آلاف مقاتل . فلما تم له تدويخها سار ابنه عبد العزيز المذكور الى مرسية وضرب الجزية على الأمير تيودومير الغوطى الذى كان مستقلا بالإمارة فيها . وسار توًّا الى طليطلة ، بينما كان طارق بن زياد ينساح بجيوشه فى إقليمى استريمادور ولوزيتانيا . فلما قابله الأمير عبد العزيز بن موسى ضربه بالدرة جزاء له على عصيانه أمر والده فى الوقوف عند حد ما وصل اليه ، ثم أمر بتجريده من رتبته فى القيادة وسجنه . فلما بلغ أمير المؤمنين الوليد ما وقع على طارق من الإهانة ، أمر بإطلاق سراحه وإعادته للقيادة كما كان ، فكان ذلك ترضية له على حسن بلائه وإخلاصه فى أداء مهمته .

لما وقف أمر هذا التنازع عند هذا الحد عاودت الجيوش الاسلامية إتمام فتح إسبانيا ، فاستولى موسى بن نصير على أقاليم أستورية ، واستولى طارق على البلاد التى

خلف نهر إبرة . ثم تعاون الاثنان على فتح سراقسطه بسبب قوة حاميتها وحصانة معاقلها . فتم لهما بذلك فتح شبه جزيرة إسبانيا الى جبال البرانس .

ماذا كانت عليه اسبانيا قبل فتح المسلمين ؟

تقلبت إسبانيا فى أدوار شتى من الحكم ، وتغلبت عليها جماعات مختلفة ككل أمة فى مثل مكانها ، فندع كل هذا ونكتفى بما كانت عليه على عهد الفتح الاسلامى . ونرى أن ننقل ذلك عن مؤرخ أجنبى ليكون أبلغ فى دلالته على عظم الانقلاب الذى أحدثه الاسلام فيها فى سنين معدودة ، حتى صارت مشرق النور على أوروبا فى تلك الغياهب الحالكة :

قال المؤرخ الفرنسى الكبير (سديو) Sedeillot فى كتابه (خلاصة تاريخ العرب) ما تعريبه :

« غلب على شبه جزيرة إسبانيا قبل الهجرة المحمدية بمائتين واثنتين وعشرين سنة قبيلة تعرف بالويزيغوط Visigoths كان ملكهم يمتد الى طنجة وسبتة من مراكش ؛ وكانوا قد هزموا موسى بن نصير حين حاصر سبتة سنة (٦٤) للهجرة ، كما هزمه ثانية فيها الملك وزيتا الويزيغوطى سنة (٩١) حين دهمها مرة أخرى ؛ وكانت مملكة إسبانيا كثيرة الرجال واسعة الأقاليم ، ولكن الحكومة فيها كانت مختلة ، والأمة كانت تتألف من جماعات متعادية ؛ وكانوا واقعين جميعا تحت سلطان القسوس ، فكانوا يتقاضون منهم إتاوات باهظة ؛ وكانت الشريعة التى يحكمون بها مزيجا من القانون الرومانى وعوائد القبائل الجرمانية ، فكانت الأمة فى حالة من التأخر بحيث لا تستطيع إمداد المملكة بمقوماتها ، وكان الرعايا مستعبدين لمهنتهم الزراعية ، وهى حالة تنتزع من قلوبهم الوطنية والشمم ؛ وكان اضطهاد اليهود بالغا أشده مما ملأ قلوبهم بالأحقاد والسخائم على حكومة البلاد » الخ .

الى أى حال آلت اسبانيا تحت حكم المسلمين ؟

تلك كانت حال إسبانيا قبل أن يحتلها المسلمون . فإن شئت أن تعرف ما آلت اليه حالتها بعد أن احتلها المسلمون فإليك ذلك منقولا عن الأستاذ سديو المذكور آنفا من كتابه (خلاصة تاريخ العرب) قال ما ملخصه :

« كان عرب إسبانيا متفوقين على الفرنج فى العلوم والصنائع والأخلاق الكريمة ، مما حبب لملوك قسطيلة ونواره أن يقدموا الى قرطبة لاستشارة أطبائها الذين كانوا معروفين بتضلعهم فى هذه الصناعة .

« وكان هؤلاء العرب حيث وجدوا يبجلون الشيوخ ، ويتنافسون فى إقامة معالم العدل ويغارون على مراعاة تطبيقه ، ويدينون بالمساواة العامة لاميزة لغنيهم على فقيرهم ، فلا يمنع فقر أحدهم أن يبلغ الى أرقى المراتب مادامت تؤهله لها صفاته الخاصة ، لايعولون فى إنزال الناس منازلهم من الكرامة على أحسابهم وأنسابهم ، ولكن على مميزاتهم العقلية وفضائلهم النفسية ، لأنهم كانوا يترسمون خطوات القرآن الذى يحضهم على اكتساب الفضائل والتوسع فى الأعمال الصالحة ، وكان خلفاؤهم يحثونهم على العمل المنتج وعدم العدوان على الناس .

« والذى ساعد هؤلاء العرب على بلوغهم أبعد شأو من العظمة اتساع دائرة العلوم والفنون لديهم ، وانتشار المعارف الفلاحية والصناعية فيهم ، لهذا ذاق جميعهم لذة العلم ، وتنافسوا فى ابتكار ما يمتازون به من الأعمال النافعة .

« وكان من شروط القيام بمهمة القضاء فيهم أن يكون القضاة حاصلين على معارف واسعة ؛ وكانوا يكتبون على كل بناء اسم المهندس الذى شيده واسم الآمر بإقامته ، وقد عرف عنهم أنهم بلغوا رقيا عظيما فى فنون العمارة ؛ وكانوا يجزلون الثناء على كل ماهر فى صناعته ، ويشيدون بذكره تنشيطا لغيره ، وقد اقتفى الفرنج أثرهم فى أساليب أبنيتهم وزخرفتها .

« وقد علم العرب فى مدارسهم علوم الفلك والجغرافيا والمنطق والطب والنحو والهندسة والجبر والطبيعة والكيمياء الطبية والتاريخ الطبيعى ، وهو علم المواليد الأرضية الثلاثة ، وحشروا الى مكتباتهم كتبا نقلوها الى لغتهم من علوم قدماء اليونانيين وفلاسفة الاسكندرية ، حتى إن (جوبرت) الذى تولى البابوية فى آخر القرن العاشر كان قد أخذ بعض العلوم عن العرب فأظهرها لمعاصريه فأخذهم منها العجب واتهموه بالسحر من أجلها »

ارتقاء الفنون والصنائع فى اسبانيا تحت حكم المسلمين :

يقول المؤرخ المذكور فى هذا الصدد :

« وأما من ناحية الصنائع والفنون فإن عرب إسبانيا أخذوا ما عثروا عليه مما كان عند الرومانيين ، والفنيقيين فأمكنهم بواسطتها استخراج المعادن القابلة للطرق ، ومعدن الزئبق ، ولم يغفلوا حتى استخراج الياقوت من معادنه بقرب مدينتى ملقا وبجاديكاميريس وغاصوا فى البحر فاستخرجوا منه المرجان واللؤلؤ ؛ وأتقنوا صناعة الدباغة ونسج القطن والكتان والتيل ؛ وبلغوا أقصى الغايات فى صناعة الأقمشة الحريرية والصوف . وكانت صناعتهم فى عمل السيوف ونصال بقية الأسلحة مضرب الأمثال فى كل مكان . فاشتهرت مدن بإتقان هذه الصناعات ، فكان لا يعلى على سلاح طليطلة ، ولا يُنافَس حرير غرناطة ، ولا تزاحم السروج والجلود الواردة من قرطبة ، ولا تجارى الأقمشة الصوفية التى كانت تصنع فى قونسية . كما اشتهرت والنسة فى صادراتها من الأفاويه والسكر . واشتغل العرب غير ذلك باستخراج الزيوت ودودة الصباغة والعنبر الخام والبلور المعدنى وهو البلور المستخرج من الصخور ، والكبريت . ويظن أنهم استعملوا التحاويل فى تجارتهم ، وهى التى تسمى الآن بالكمبيالات .

« ومما يؤثر عن عرب إسبانيا أنهم عنوا أشد العناية بالفلاحة ، فبلغت الى درجة رفيعة جدا ، وأبدعوا فى الرى أيما إبداع ، ويدل عليه ما فعلوه فى سهل (هوسطاه) الذى يقسمه نهر (طونة) الى قسمين ، فإنهم وقفوا تيار هذا النهر على بعد نحو فرسخين

من مصبه بواسطة سد، ثم اشتقوا منه سبعة جداول : ثلاثة فى ناحية، وأربعة فى الناحية الأخرى ؛ وجعلوا يفتحون كل فرع منها فى يوم من أيام الأسبوع بحيث يرتفع الماء فيه الى المستوى المطلوب، ليرووا ما يريدون ريه من الأراضى العالية . ثم عمدوا الى كل جدول من هذه الجداول السبعة فاشتقوا منه جداول ثانوية يفتح كل منها فى ساعة معينة بعد حصول الارتفاع فى الجدول الرئيسى، قاصدين بذلك أن يصل الماء الى أصغر مربع من الأرض . فكان كل جدول بفروعه الثانوية يشبه مروحة تتجه جداولها الى كل اتجاه . ولعدم انحدار سطح ذلك السهل انحدارا هندسيا تدريجيا جعلوا له مساقى صغيرة وقناطر متصلا بها مجار المياه توزع على المزارع . ثم صنعوا لما لا يمكن سقيه بهذه الوسائل كلها سواقى حفظوا المياه الضرورية لها فى حياض تستمد منها عند الحاجة . وجملة القول أنهم أبدعوا فى هندسة الرى بهذا السهل إبداعا استحق معه أن يلقب ببستان إسبانيا .

« وقد توصل العرب بفنونهم الزراعية المتقنة الى استغلال الأرض ثلاث مرات فى السنة ؛ وأدخلوا الى إسبانيا زراعة الأرز والقطن والتوت وقصب السكر والنخل والفستق والموز ودوحة الكاميلياء الحمراء والبيضاء، وأزهارا وبقولا لا تحصى نقلت كلها فيما بعد الى جميع البلاد الأوربية » .

ارتقاء العمران فى اسبانيا تحت حكم المسلمين :

يقول المؤرخ المذكور أيضا فى هذا الموطن :

« أما من الناحية العمرانية فكان فى الجزء الذى يملكه المسلمون من إسبانيا ست عواصم، وثمانون مدينة كبيرة، وثلاثمائة مدينة متوسطة، وما لا يحصى من القرى والكفور والضياع .

« أما المبانى فكان فى قرطبة وحدها ٢٠٠٠٠٠ بيت و ٦٠٠ مسجد و ٥٠ مستشفى و ٨٠ كلية و ٩٠٠ حمام . وكان يسكنها مليون نسمة . وبالمقابلة تعلم أنها اليوم ليست على

ما كانت عليه أيام المسلمين ، ولا محل للاستغراب فإن الخلفاء تنافسوا فى عمرانها وزخرفتها بما كانوا ينفقونه عليها من الأموال . ومع هذا فلا يزال محل الدهش من كثرة ما بذله العرب من الأموال على مبانيهم فى إسبانيا ، فإن مسجد قرطبة الباقى للآن يضاهى فى الفخامة المسجد الأموى بدمشق . طوله ٦٠٠ قدم وعرضه ٢٥٠ قدما ، وفى عرضه الأيمن ٣٨ صحنا ، وفى الأيسر ٢٩ صحنا وفيه ١٠٩٣ عمودا من المرمر ، وفيه من جهة الجنوب ١٩ بابا مبطنة بصفائح من نحاس التوج ، وهو النحاس الذى تصنع منه المدافع ، وأوسطها مرصع بصفائح الذهب ، وبأعلاه ثلاث أكر مذهبة فوقها رمانة من المسجد ، وله ٤٧٠٠ قنديل ، أحدها من الذهب الخالص وهو الموضوع فى المحراب . وكان يصرف على هذا المسجد فى كل عام ٢٤٠٠٠ رطل من الزيت و١٢٠ رطلا من العنبر والعود والقاقلى . وكانت هذه المدينة تضاء بالمصابيح الى الصباح ، وكانت شوارعها تطيب بروائح الزهور ، وكانت فى متنزهاتها وميادينها العامة جوقات موسيقية تطرب الجمهور بأنغامها .

« أما مدينة زهرة التى كانت قائمة على بعد فراسخ قليلة من قرطبة فقد اشتهرت بقصر الخليفة عبد الرحمن الثالث على شاطىء نهر الوادى الكبير ، فقد كانت قباب هذا القصر مرفوعة على ٤٣٠٠ عمود من الرخام المحلى بأبدع النقوش ، وكانت أرضه مبلطة بالرخام المختلف الألوان على شكل يستوقف الأنظار ، وكانت حوائطه مبطنة بالرخام أيضا على تلك الصورة ، وسقوفه منقوشة باللازورد والذهب الخالص ، وكانت فى غرفه فساقى مياه عذبة تنصب فى أحواض من الرخام الناصع البياض والبشم المتنوع الأشكال ، وكان يشاهد فى قاعة جلوس الخليفة فسقية يخرج من وسطها صورة بجعة من ذهب معلقة فوق رأسها لؤلؤة عظيمة ، وكانت تلك البجعة من صنع مدينة القسطنطينية ، وأما اللؤلؤة فكان قد أهداها الى الخليفة الملك ليون أحد ملوك شمال إسبانيا ، وكانت حول القصر بساتين واسعة فى وسطها قصر منفرد ليستريح فيه الخليفة

بعد رجوعه من القنص ؛ وكان هذا القصر الأخير مبنيا على أعمدة من الرخام ذوات تيجان محلاة بالذهب . وكانت تنبع فى وسطه عين ماء فى صفاء البلور وتنصب من فم النافورة على هيئة سنبلة القمح فى إناء مستدير مصنوع من الفرفيرى .

«ومع كل هذا فلم يستنفد خلفاء إسبانيا جميع أموال الدولة فى زخرفة المدن والقصور، بل أنفق بعضها أيضا فى عمارات نافعة ؛ فقد بنى الخليفة الحاكم قناطر وفتح طرقا أنشأ فيها محطات للسائحين ؛ وبنى فى قرطبة مسجدا . وبالتأمل فيما أسلفناه يعلم أن عرب إسبانيا كانوا فى مقدمة الأمم فى القرن الحادى عشر بعد الميلاد ، بل كانوا يفوقون فى مدنيتهم جميع أمم أوروبا على الإطلاق » انتهى .

هذا ما نقلناه عن الأستاذ (سدبو) العالم المؤرخ الفرنسى .

وبذلك فقد آتينا من يريد المقارنة بين حالتى إسبانيا تحت حكومتها الذاتية وحكومة الاسلام بمواد يستطيع الاعتماد عليها لبناء حكم صحيح على سمو الروح الاسلامية فى سياسة الأمم والبلدان . فإن كنت تعجب أن تتألف قبائل العرب الى أمة متحابة فى سنين معدودة ، فأعجب منه أن تنتدب هذه الأمة الفتية لتملى على الشعوب أصول الحكمة الإلهية مقترنة بمدنية فاضلة تتخذ مثالا أعلى لكل مدنية تقوم بعدها فى الأرض ؟

محمد فريد وجدى

فضل الافادة والاستفادة

دخل رجل على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فكان لا يسأله عن شىء إلا وجد عنده علما . فقال له : أنى لك هذا ؟

فقال الرجل : لم أمنع قط يا أمير المؤمنين علما أفيده ، ولم أحتقر علما أستفيده ، وكنت إذا لقيت الرجل أخذت منه وأعطيته .

وقال عبد الله بن المبارك يصف عالما :

صموت إذا ما الصمت زين أهله	وفتاق أبكار الكلام المختم
وعى ما وعى القرآن من كل حكمة	وسيطت له الآداب باللحم والدم

تاريخ العلوم المدنية فى الأدب العربى [1]

ذكرنا فى مقالنا السابق عن مآثر العرب فى العلوم المدنية ما كان من أمر نشأة العلوم الفلسفية والرياضية وتطورها فى أول عصور الأدب العربى وأثر ذلك فى نهضة العلوم فى الشرق والغرب .

بقيت الفلسفة كسائر العلوم المدنية بعد ذلك زمنا طويلا محل اضطهاد بعض علماء الاسلام السنيين بالرغم من الجهود الجبارة التى بذلها أنصارها ومحبذوها ، لجعلها من العلوم المتداولة التى فى متناول أفراد الشعب ، ونشرها بينهم ، ووضعها فى مصاف العلوم العربية الأخرى ، ولم يستقر لها وجود إلا بفضل رعاية بعض الأمراء وحمايتهم للقائمين بأمرها من العلماء المسلمين وغيرهم . وهكذا كانت الحال أيضا فى ممالك الاسلام بالفرس وبالأندلس ، فخفق علمها وارتفع شأنها على رءوس أشهر كتّاب الأدب العربى فى هذا العصر على وجه الإطلاق ، فكان لهم أبعد أثر فى اتجاه الثقافة الفكرية فى أوروبا حيث انتشرت فيها التعاليم الفلسفية لأرسطو وغيره من علماء وفلاسفة الإغريق بفضل التراجم التى ظهرت على أيدى العرب فى هذا العصر وما تقدمه .

وأشهر المؤلفين المعروفين فى هذا المضمار بين علماء الاسلام المبرزين فى هذا التاريخ هو بلا شك أبو الحسن بن سينا ، ولد بالقرب من مدينة بخارى عام ٣٧٨ هـ وقضى حياته فى خدمة الأسرات الفارسية المالكة ، فدخل بلاط نوح بن منصور السامانى وهو فى السابعة عشرة من عمره بعد أن تم على يديه شفاؤه ، وفقد أباه بعد ذلك بخمس سنوات ، فبدأ رحلاته وأقام طويلا فى « جرجان » وبها وضع أشهر مؤلفاته « القانون

---

(١) مترجمة من الالمانية نقلا عن كتاب « تاريخ الادب العربى » للمستشرق الالمانى الكبير الاستاذ الدكتور « بروكلمان » .

فى الطب » وتخرج عليه كثير من طلبة العلم ، ثم عين وزيرا لشمس الدولة فى همذان ، واضطهده خلفه وأمر بحبسه ، ففر هاربا الى غريمه علاء الدولة فى أصفهان ، وتوفى أثناء حملة أرسلت الى همذان عام ٤٢٨ هـ ، وكانت موهبته العبقرية متعددة النواحى ، فكتب فى الفلسفة رسائل كثيرة ، أهمها مؤلفاته فى المنطق والطبيعة وفيما وراء الطبيعة (العلل الأولية) ، واهتم فى أول نشأته بعلوم الفلك ، فتعرف بمواطنه البيرونى وتعاونا فى العمل على تقدم هذا الفن ، ووضع فيه رسائل هامة ، ونقح الماجسطى الذى وضعه بطليموس ، ولكن شهرته بلغت أوجها فى عالم الطب ، فكان كتابه فى الطب هو أكبر حجة فى العالم الاسلامى مدى قرون طويلة ، ولا يزال حتى الآن مرجعا عالميا خصوصا فى بلاد الفرس ، وترجم هذا الكتاب منذ زمن بعيد الى اللغة اللاتينية ، فكان أهم المراجع فى علم الطب فى العصور الوسطى فى جميع أنحاء القارة الأوربية .

لم تقتصر مواهب ابن سينا على التأليف فى العلوم البحتة ، بل تعددت الى نواح مختلفة كما أسلفنا ، فظهر تفوقه فى نظم الشعر ، وله مقطوعات رائعة بكلتا اللغتين العربية والفارسية .

ازدهرت الفلسفة فى هذا العصر ازدهارا منقطع النظير على أيدى علماء العرب فى بلاد الأندلس ، فظهر من مؤلفيهم عدد وافر بذوا إخوانهم فى اللغة والدين فى بلاد الشرق ، وقد يكون السبب الأول فى ذلك تزاحم أمراء الأندلس على تعضيد العلوم والآداب تزاحمهم فى المضمار السياسى .

وأقدمُ فلاسفة الأندلس المعروفين هو محمد بن باديه المولود فى «سرقوسة» وأقام فى بدء القرن السادس من الهجرة بمدينة إشبيلية ، ثم انتقل منها الى بلاط المرابطين بمدينة فاس حيث مات مسموما بإيعاز من الطبيب المشهور أبى العلاء بن زهر فى عام ٥٣٣ هـ . وله مؤلفات قيمة فى الفلسفة والطب والعلوم الطبيعية ، كما اشتهر [illegible] فى نظم الشعر .

وفى أثناء حكم المرابطين اشتهر محمد بن طفيل وذاع صيته ، وكان فى أول الأمر يشغل منصب كاتم السر لحاكم غرناطة الى أن عين طبيبا خاصا لأبى يعقوب يوسف ، وتوفى فى حاشيته بمراكش سنة ٥٨١ هـ . وأشهر مؤلفاته روايته التى أسماها « حى بن يقظان » وفيها يفسر نشأة القريحة البشرية تدريجيا فى طفل ولد بجزيرة نائية وترك بها فى عزلة تامة .

وأشهر فلاسفة الأندلس فى هـذا العصر هو بلا شك محمد بن رشد ، ولد بقرطبة عام ٥٢٠ هـ ، وبدأ حياته الدراسية بها . وفى سنة ٥٤٨ هـ أدخله محمد بن طفيل فى بلاط حكام مراكش الذين عهدوا اليه بوضع أنظمة جديدة للتعليم العام . وفى سنة ٥٦٥ هـ عيّن قاضيا لمدينة إشبيلية ، ولكنه ما لبث أن ترك هذا المنصب مؤثرا العودة الى موطنه ومسقط رأسه بقرطبة . ولم يستقر به المقام طويلا حتى استدعاه أبو يعقوب يوسف الى مراكش وجعله طبيبا خاصا له ، ثم عيّن قاضيا لمدينة قرطبة الى أن وُلى الحكم يعقوب بن يوسف ، فأمر بنفيه بسبب آرائه الفلسفية التى رمته بالالحاد والزندقة ، ولكنه أفرج عنه بعد ذلك واستدعاه الى مراكش حيث وافته المنية فى ٩ صفر سنة ٥٩٥ هـ .

وأهم أعماله إحياء دراسات أرسطو ، ونشر ما وضع لها من تراجم قديمة مع تعليقات عليها وتفاسير قيمة لها ، ولقد عرفت أوروبا المسيحية كيف تنتفع من علم هذا الفيلسوف الكبير أكثر من انتفاع أهله ومواطنيه ، كما كانت الحال فى أغلب علماء وفلاسفة هذا العصر الذين اليهم يرجع الفضل فى إحياء العلوم ، ووضع أسس النهضة الفكرية التى ظهر أثرها بعد ذلك فى جميع أنحاء القارة الأوربية .

وآخر فلاسفة الاسلام فى بلاد الأندلس هو عبد الحق بن سبعين ، وهو سليل أسرة غوطية ولد بمدينة « مورسيا » باسبانيا ، وكانت تغلب على دراساته ومؤلفاته الفلسفية آثار العلوم الباطنية الخفية التى بلغ اهتمامه بها أن أسس طريقة خاصة .

وفى أثناء إقامته بمدينة «سبته» طلب اليه عبد الواحد زعيم الموحدين أن يتولى الرد على

بعض الأسئلة الفلسفية التى وضعها الأمبراطور فريدريك الصقلى ووجهها الى علماء بلاده ، فبذل مجهودا كبيرا فى وضع الرد معلقا عليه بمعلومات قيمة فى تاريخ الفلسفة ، فجاءت إجابته وافية ، وأحرزت إعجابا عاما واستحسانا كبيرا . وأخيرا رحل الى الشرق واهتم بأبحاثه فى العلوم الباطنية الخفية ، وكان كلما تعمق فى دراساته زادت هواجسه وعدم اطمئنانه ، الى أن توفى منتحرا بمكة المكرمة عام ٦٦٨ ﻫ .

ومن علماء هذا العصر المبرزين العالم المصرى جمال الدين محمد بن سالم ، وكان رسولا سياسيا لسلطان مصر « بيبرس » لدى بلاط « مانفريد » بن فريدريك الثانى وخليفته فى ملك صقلية . وضع جمال الدين مؤلفا قيما فى علم المنطق أسماه « الامبروريه » وأهداه الى ملك البلاد ، ثم أعاد نشره بعنوان آخر بعد عودته الى وطنه .

ومنذ القرن السابع من الهجرة بدأت الدراسات الفلسفية تهمل ، فلم تقم لها لذاتها قائمة تذكر بعد ذلك العصر ، ولو أن علم المنطق الشكلى وجد من العلماء من يأخذ بناصره للاستعانة به فى دراسة العلوم الدينية ، فظهر من العلماء أمثال على الكاتبى المتوفى سنة ٦٧٥ ﻫ وله فى علم المنطق مؤلف قيم ، ومحمد السمرقندى الذى وضع فى فن الجدل والمناقشة مؤلفا بقى متسيطرا على مدارس التعليم قرونا طويله ، فكان الحجة البالغة ، والمستند القوى ، والمرجع الأخير فى هذا المضمار .

وأما العلوم الرياضية البحتة والتطبيقية ، فاهتم بها من علماء هذا العصر نفر غير قليل من علماء المسلمين ، وظهرت لهم فيها مواهب عالية ، وأنتجت قرائحهم فى ضروبها المتعددة مآثر خالدة . وأول من اهتم بدراساتها فى أول القرن الخامس من الهجرة محمد بن الهيثم ، ويرجع أصله الى مدينة البصرة ، وما لبث أن ذاع صيته حتى استدعاه الخليفة الفاطمى الحكم الى مصر لتنظيم فيضان النيل طبقا لمشروع كان قد أعده لذلك ، ولكنه لم يستطع تنفيذه ، ثم أسندت اليه إحدى الوظائف الادارية ، ولكنه لم يبق بها طويلا لإثارته غضب الخليفة ضده ، واختفى زمنا طويلا حتى توفى الخليفة عام ٤١١ ﻫ ، فأعيدت اليه

أمواله المصادرة ، واشتغل بالأبحاث العلمية والتأليف بقية حياته ، وله مصنفات عديدة فى تصميم الآلات (علم الميخانيكا) والفلك وعلم الضوء والعدسات .

واشتهر كذلك فى ميدان العلوم المدنية الشاعر الفارسى المجيد عمر الخيام بأبحاثه فى العلوم الرياضية والطبيعية ، واشتغل بالعلوم الفلكية وهو فى خدمة ملك شاه السلطان السلجوقى ، وأدخل تعديلات هامة على التقويم الفارسى القديم لحساب السنين الشمسية ، ووضع مؤلفا قيما فى علم الجبر ، وتوفى سنة ٥١٥ ه .

وأشهر أعلام المؤلفين وعلماء هذا العصر على الإطلاق هو بلا جدال نصير الدين التوسى ، ولد بمدينة « توس » عام ٦٠٧ ه وبدأ حياته العلمية فى خدمة الأمير الاسماعيلى ركن الدين فى « قهستان » ثم لحق بهولاكو أمبراطور المغول سنة ٦٥٤ ه حيث أكرم وفادته وأعلى من شأنه ورافقه فى غزواته وشيد له مرصدا فى «مراغه» ، وتوفى عام ٦٧٢ ه بمدينة بغداد . ولقد كانت مؤلفاته تشمل مواضيع مختلفة عديدة ، وظهرت مواهبه فى ضروب شتى من العلوم المدنية والدينية . وأشهر مصنفاته وأوسعها ذيوعا كتابه الذى وضعه فى أصول العقائد ، وكتب فى الفلسفة عدة رسائل باللغة العربية ، كما وضع مؤلفا فى علم الأخلاق باللغة الفارسية ، واهتم كذلك بالرياضة والفلك ، فأخرج أهم المؤلفات القديمة بعد تعديلها وتنقيحها ، وهو أول من قام بدراسات واسعة فى علم حساب المثلثات ، واليه يرجع الفضل فى وضع أسس ثابتة له على أنه علم مستقل قائم بذاته ، ووضع نظاما خاصا لعلاج ابن سلطان قازان ، وأخيرا اهتم بالتنجيم كباقى علماء عصره ، فوضع كتابا فريدا فى نوعه فى قراءة المستقبل على الرمال .

وأما العلوم الطبية فبقيت فى أغلب الأحوال خلال هذا العصر مقصورة على علماء اليهود والمسيحيين ، الذين كانت جهودهم النظرية لم تخرج عما وضعه أبقراط وجالينوس ، ولكنهم قاموا بأبحاث عملية كانت سببا فى تقدم فن الطب تقدما محسوسا . وأول من اشتغل بدراسات الطب من علماء هذا العصر المعروفين هو المختار ابن بطلان ،

فاشتهر بمدينة بغـداد فى النصف الأول من القرن الخامس من الهجرة ، ثم غادرها فى رحلة علمية الى مصر لملاقاة ابن رضوان لمساجلة علمية قامت بينهما ، ثم رحل من مصر الى القسطنطينية ومنها الى أنطاكية حيث توفى عام ٤٥٥ هـ .

واشتهرت أسرة ابن زهر فى بلاد الأندلس ، وحملت لواء الطب ثلاثة أجيال متعاقبة أولهم أبو العلاء بن زهر ، وكان فى خدمة المرابطين ، وتوفى باشبيلية عام ٥٢٥ هـ ، وجاء بعده ابنه عبد الملك فبدأ حياته فى خـدمة المرابطين أيضا ثم الموحدين ، وتوفى كذلك باشبيلية سنة ٥٥٧ هـ . ثم خلفه ابنه محمد وكان طبيبا خاصا ليعقوب المنصور ، وتوفى بمراكش سنة ٥٩٥ هـ .

وأما الأطباء غير المسلمين فإن أشهر علمائهم فى هذا العصر هو بلا شك الطبيب اليهودى موسى بن ميمون ، ولو أنه أحرز شهرته العالمية بماله من المآثر الخالدة على الديانة اليهودية ، ولد موسى بن ميمون بقرطبة عام ٥٣٤ هـ وطلب العلم على ابن طفيل وابن رشد ، ورحل الى مصر على أثر اضطهاد الأمير الموحد عبد المؤمن المسيحيين واليهود ، وأسس بها مدرسة لدراسة التلمود ، واتخذه بعد ذلك صلاح الدين طبيبا خاصا له ، وظل حائزا ثقته فى هذا المنصب الى أن وافته المنية عام ٦٠١ هـ .

ونشط العلماء كذلك فى هذا العصر بدراسات علم النبات للاستعانة به فى الأبحاث الطبية ، فاشتهر منهم عبد الله بن بيطار المولود بمدينة ملقا ، وقام برحلات علمية الى مصر وآسيا الصغرى و بلاد الإغريق لدراسة طبيعة النباتات وخواصها ، وأخيرا التحق بخدمة الملك الكامل بدمشق ، فلما توفى الملك فى عام ٦٣٥ هـ رحل الى القاهرة وأقام بها زمنا يسيرا ، ثم عاد الى دمشق حيث وافته المنية عام ٦٤٦ هـ .

واهتم كذلك العرب بالعلوم الزراعية ، فازدهرت بها بلاد الأندلس ، و بلغت من التقدم درجة لم تعرفها البلاد من قبل ، وأخصبت تربتها وزادت محاصيلها بفضل تكاتف العلم مع العمل ، وأشهر علماء العرب فى هذا المضمار من الناحية العلمية العملية يحيى بن العوّام

الذى ذاع صيته و بلغت شهرته أوجها فى النصف الأول من القرن السادس من الهجرة، فوضع مؤلفا جليلا فى هـذا العلم نقل بعد ذلك الى اللغة اللاتينية، فكان حجة بالغة فى عصره، ومرجع كبار علماء أوروبا سنين طويلة.

وإلحاقا للدراسات الزراعية وضع أحمد التيفاشى المتوفى سنة ٦٥١ ه كتابا قيما فى علم الأحجار جاء فيه بمعلومات وافية عن معادن الأرض وعناصرها؛ واشتهر هـذا الكاتب أيضا بمؤلفه فى الحب والحياة التناسلية الذى نقل الى اللغـة اللاتينية وذاع ذيوعا واسعا.

وانتشرت كذلك فى غضون هـذا العصر مؤلفات عـديدة فى السحر والشعوذة والتفاؤل والتشاؤم، حتى كادت تكوّن لها ناحية مستقلة فى الأدب العربى، الى أن وضع الكاتب الألمعى عبد الرحيم الجوبرى كتابا فى التنبيه على أضاليل هذه المسالك لتحذير العامة والخاصة من الوقوع فى حبائل من تصدوا للدفاع عنها ونصبوا أنفسهم للإيقاع بالناس والتغرير بعقولهم ؟

مشكلة الاحاديث النبوية و بيانها

هذا كتاب وضعه الأستاذ الفاضل الشيخ عبد الله بن على النجدى القصيمى، وقد كتب تحت اسمه: « يحتوى هـذا الكتاب على الاحاديث النبوية التى استشكلتها العلوم الحـديثة من طبية وجغرافية وفلكية وحسية الخ. وفيه بيانها بنفس العلوم الحديثة. وسيجد القارئ فى الكتاب مقالا حيا للدفاع عن نصوص الدين المقدس، ومثالا حيا للنقد الفلسفى العصرى ».

وقد وفى الأستاذ بما اشترط، فأتى بأحاديث فى موضوعات شتى، وتولى تفسير مؤداها والدفاع عنها والتوفيق بينها وبين العلوم الحديثة.

فنشكر لحضرة الاستاذ الفاضل غيرته على الدين، وخفوفه للذياد عن بيضته بأحسن ما يملك من بيان، راجين له التوفيق والسداد.

حياة محمد

هـذا اسم أول كتاب تناول الـكلام فى السيرة المحمدية على الأسلوب المصرى الحديث ، فـكان لواضعه الدكتور محمد حسين هيكل بك فضل التجديد فى هذه الناحية من البحث الذى يمس الاسلام من مكان قريب .

أول ما يستوقف الناظر فى هذا الـكتاب جمال مظهره ، وحسن تبويبه ، وتوفر فهرستاته ، بحيث يستطيع القارئ أن يقف على أى موضوع أو بلد أو قبيلة أو حادثة أو معركة فى الحين الذى يطلبه فيه ، دون أن ينفق فى ذلك وقتا أو يتكلف بحثا .

فإذا تصفح القارئ الـكتاب رأى نفسه حيال بحوث مستفيضة تتجلى فيها ألمعية الدكتور هيكل تجليا باهرا ، تضطره بسحر بيانها أن يقتفى أثرها فى أدوار هذا التاريخ الحافل بالعظائم ، فتمر به على صفحات أملاها الايمان الراسخ ، والفهم الثاقب ، والغوص البعيد الغور ، مما لا نبالغ إذا قلنا إن هذه الصفحات من حسنات هذا العصر فى البيان والبحث العميق ، ولا نشط إذا حكمنا بأنها من الطرائف التى كتب لها الخلود .

ليس مؤدى هذا الإطراء أننا نوافق المؤلف على كل الآراء التى بسطها فى مقدمة كتابه ، كتعليله أسباب الخصومة بين المسيحيين والمسلمين ، أو تقريره بأن الأوربيين لما فقدوا الروحانية هبوا يتلمسونها من المذاهب الهندية ، كما لا نوافقه أيضا على كثير مما جاء فى صلب الـكتاب من الأحـكام الاجتماعية ، كقوله عن قريش إنها كانت أشبه بجمهورية حرة ، وكاعتداده فى دحض بعض الشبهات بقوله : « العظمة لا تخضع لقانون » ، فإن هذه الآراء والأحكام ، ولها أشباه فى الـكتاب ، لا تمت الى العلم بصلة وبعضها بالخطابيات أشبه . بيد أن هذه الهنات لا تنقص من قيمة هذا الـكتاب الممتع ، ولا نعرف أنه يخـلو من أمثالها كتاب فى الأرض ، فهى لا تمنعنا أن نـكيل الثناء للدكتور هيكل بغير حساب ، راجين أن يوفقه الله لإبراز ثمرات أخرى لألمعيته النيرة

فى هـذه الناحية من الدراسات الاسلامية ، فهى فى حاجة الى الـكثير من أمثاله فى هذا العصر .

وبعد فلا يجوز لنا أن نختم هذه الـكلمة دون أن ننوه بتلك المقدمة القيمة التى تفضل بكتابتها حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر ، إشادة بذكر هذا الـكتاب ، وقد اطلع على جزء منه قبل الطبع ، فإنها قد جلّت من أحوال النبوة والأنبياء ، ومن خصائص خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم ، وكشفت من أسرار الاسلام وحكمة القرآن ، وبيّنت من مذهب أهل العلم فى البحث والنظر والاستقصاء ، مايجب على كل متصد لهذه البحوث الاسلامية أن يتفهمه ، ويترسم طريقته . وأشد ما يأخذ بلب الإخصائى فى هذه البحوث تلك الدائرة الواسعة التى خطها فضيلته للبحث عن حقيقة الاسلام ، وهى دائرة شملت جميع المحاولات العلمية والفلسفية ، وأطلقت عقـل الباحث من تلك المناطق الضيقة التى كان يتخبط فيها ولا يستطيع أن يحصّل ما يستطيع أن يقدمه للناس من غـذاء روحى يكتفون به عن تلمس غذاء غيره . وهذه أكبر خدمة يمكن أن يؤديها مصلح للاسلام فى هذا العصر ، بل هى الخطوة التجديدية التى ستكون ، ولا محالة ، سببا لظهوره على الدين كله .

وإنا حرصا على هذا العهد العلمى الذى يعلنه إمامُ الدين اليوم ، رأينا أن ننشر هذه المقدمة ، لا خـدمة لـكتاب الدكتور هيكل ، فقد قامت الجرائد اليومية قبلنا بذلك ، ولـكن تدوينا لهذا العهد العلمى الخطير فى مجلة الاسلام الرسمية . **محمد فريد وجدى**

* * *

والى القارئ مقال حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر :

«منذ وجد الانسان على الأرض وهو مشوق الى تعرُّف ما فى الـكون المحيط به من سنن وخصائص ، وكلما أمعن فى المعرفة ظهرت له عظمة الـكون أكثر من ذى قبل ، وظهر له ضعفه وتضاءل غروره ، ونبى الاسلام صلوات الله عليه شبيه بالوجود . فقد

جد العلماء منذ أشرقت الأرض بنوره يتلمسون نواحي العظمة الانسانية فيه، ويتلمسون مظاهر أسماء الله جلت قدرته فى عقله وخلقه وعلمه. ولو أنهم استطاعوا الوصول الى شيء من المعرفة، فقد فاتهم حتى الآن كمال المعرفة، وأمامهم جهاد طويل، وبعد شاسع، وطريق لا نهاية له.

«والنبوة هبة الله لا تنال بالكسب؛ لكن حكمة الله وعلمه قاضيان بأن تمنح المستعد لها، والقادر على حملها، الله أعلم حيث يجعل رسالته. ومحمد صلى الله عليه وسلم أُعِد لأن يحمل الرسالة للعالم أجمعه: أحمره وأسوده، إنسه وجنه؛ وأعد لأن يحمل أكمل رسالة وأكمل دين؛ ولأن يختم به الأنبياء والرسل؛ وليكون شمس الهداية وحده الى أن تنفطر السماء، وتنكدر النجوم، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات.

«عصمة الأنبياء فى التبليغ وأداء أمانة الوحي قضية فرغ العلماء منها؛ فليس للأنبياء فضل الاختيار فى التبليغ وأداء الأمانة بعد طبعهم بخاتم النبوة واختيارهم لها. وهذا التبليغ نتيجة حتمية للنبوة لا مرد لها. غير أن الوحي لا يلازم الأنبياء فى كل عمل يصدر عنهم، وفى كل قول يبدر منهم؛ فهم عرضة للخطأ، يمتازون عن سائر البشر بأن الله لا يقرهم على الخطأ بعد صدوره، ويعاتبهم عليه أحيانا.

«أُمر محمد صلى الله عليه وسلم بأن يبلغ عن ربه، ولم تبين له الطرق التى يتبعها فى التبليغ وفى حماية الدعوة، وتُرك له أن يتصرف بعقله وعلمه وفطنته كما يتصرف غيره من العلماء والعقلاء. وجاء الوحي مفصلا قاطعا فى كل ما يخص ذات الإله ووحدته، وصفاته وكيفية عبادته؛ ولم يكن كذلك فيما يخص النظم الاجتماعية للأسرة والقرية والمدينة والدولة منفردة ومرتبطة بغيرها من الدول. فهنالك مجال واسع للبحث عن عظمة النبي صلى الله عليه وسلم قبل الوحي؛ وهنالك مدى فسيح للبحث عن تلك العظمة بعد الوحي؛ فقد صار مبلغا عن ربه داعيا اليه، حاميا لتلك الدعوة ولحرية الداعين، مدافعا عنهم؛ وأصبح حاكم الأمة الاسلامية وقائد حربها ومفتيها وقاضيها، ومنظم جميع

الصلات والروابط فيها، وبينها وبين غيرها من الأمم. وقد أقام العدل فى ذلك كله، وألف بين أمم وطوائف ما كان العقل يسيغ إمكان التأليف بينها، وظهرت الحكمة والرصانة وبعد النظر، وكمال الفطنة وسرعة الخاطر وقوة الحزم فى كل ما صدر عنه من قول أوفعل، وتفجرت منه ينابيع العلم والمعرفة، وينابيع البلاغة التى يطأطئ البلغاء رءوسهم أمامها إجلالا وهيبة؛ وفارق الدنيا وهو راض عن عمله، مرضى عنه من الله ومن المسلمين.

«كل هذه النواحى تستحق الدرس والتخصص؛ وليس فى مقدور شخص واحد أن يفيها حقها، بل ليس فى مكنة شخص واحد أن يوفى على الغاية فى ناحية من هذه النواحى.

«وسيرة محمد صلوات الله عليه وعلى آله كسائر سير العظماء: أضيف إليها ما ليس منها، إما عن حب وهوى وحسن قصد، وإما عن سوء قصد وحقد. غير أنها تمتاز عن سير العظماء جميعهم بأن منها شيئا كثيرا ضمّنه الوحى الإلهى، وضمن حفظه الكتاب المطهر؛ وشيئا كثيرا روى على لسان الحفاظ الثقات من المحدثين. وعلى هذه الأسس الصحيحة يجب أن تبنى السيرة، وأن يستنبط العلماء منها حكمها وأسرارها ودقائقها، وأن تحلل التحليل العلمى الدقيق، ملاحظا فى ذلك ظروف الوسط وحال البيئة ونواحيها المختلفة من عقائد ونظم وعاد.

«وقد أخرج الدكتور هيكل للناس كتابه (حياة محمد) فى سيرة محمد صلى الله عليه وسلم، ويسّر لى أن أطلع على جزء منه قبل إتمام طبعه. والدكتور هيكل معروف لقراء اللغة العربية، غنى بآثاره فيها عن التعريف. وقد درس القانون واطلع على المنطق والفلسفة، ومكّنته ظروفه وطبيعة عمله من الاتصال بالثقافة القديمة والثقافة الحديثة، وأوفى منهما على حظ عظيم. وناظر وجادل، وهجم ودافع: فى المعتقدات والآراء وقواعد الاجتماع، وفى السياسة وغيرها، فنضج عقله وكمل علمه، واتسع اطلاعه وامتد أفقه، فأصبح ينافح عن آرائه بمنطق قوى وحجج باهرة، وأسلوب اختص به لا تخفى نسبته إليه.

بهذه الثقافة وهـذه القوة نسج الدكتور كتابه وقال فى مقدمته : « لست مع ذلك أحسب أنى أوفيت على الغاية من البحث فى حياة محمد؛ بل لعلى أكون أدنى الى الحق إذا ذكرت بأنى بدأت هذا البحث فى العربية على الطريقة الحديثة . وقد تأخذ القارئ الدهشة إذا ذكرت ما بين دعوة محمد والطريقة العلمية الحـديثة من شبه قوى . فهذه الطريقة العلمية تقتضيك إذا أردت بحثا أن تمحو من نفسك كل رأى وكل عقيدة سابقة فى هذا البحث ، وأن تبدأ بالملاحظة والتجربة ، ثم بالموازنة والترتيب ، ثم بالاستنباط القائم على هـذه المقدمات العلمية . فإذا وصلت الى نتيجة من ذلك كله كانت نتيجة علمية خاضعة بطبيعة الحال للبحث والتمحيص ، ولكنها تظل علمية مالم يثبت البحث العلمى تسرب الخطأ الى ناحية من نواحيها . وهذه الطريقة العلمية هى أسمى ما وصلت اليه الانسانية فى سبيل تحرير الفكر ، وها هى ذى مع ذلك طريقة محمد وأساس دعوته » .

انتهى كلام الدكتور . ثم شرع فضيلة الأستاذ الأكبر يقول :

« أما أن هذه الطريقة طريقة القرآن فذلك حق لا ريب فيه ، فقد جعل العقل حكما والبرهان أساس العلم ، وعاب التقليد وذم المقلدين ، وأنب من يتبع الظن ، وقال : « إن الظن لا يغنى من الحق شيئا » ، وعاب تقديس ما عليه الآباء ، وفرض الدعوة بالحكمة لمن يفقهها . ولم تكن معجزة محمد صلى الله عليه وسلم القاهرة إلا فى القرآن ، وهى معجزة عقلية . وما أبدع قول البوصيرى :

لم يمتحنا بما تعيا العقول به ... حرصا علينا فلم نرتب ولم نهم

«وأما أن هذه الطريقة حديثة فهذا ما يعتذر عنه . وقدساير الدكتور غيره من العلماء فى هذا ، ذلك لأنها طريقة القرآن كما اعترف هو ، ولأنها طريقة علماء سلف المسلمين . انظر كتب الكلام ترهم يقررون أن أول واجب على المكلف معرفة الله ، فيقول آخرون : لا ، إن أول واجب هو الشك . ثم إنه لا طريق للمعرفة إلا البرهان . وهو وإن كان نوعا من أنواع القياس إلا أنه يجب أن تكون مقدماته قطعية حسية ،

أو منتهية الى الحس ، أو مدركة بالبداهة ، أو معتمدة على التجربة الكاملة أو الاستقراء التام ، على ما هو معروف فى المنطق . وكل خطأ يتسرب الى إحدى المقدمات أو الى شكل التأليف مفسد للبرهان .

« وقد جرى الامام الغزالى على الطريقة نفسها . وقد قرر فى أحد كتبه أنه جرد نفسه من جميع الآراء ، ثم فكر وقدر ، ورتب ووازن ، وقرب وباعد ، وعرض الأدلة وهذبها وحللها ، ثم اهتدى بعد ذلك كله الى أن الاسلام حق ، والى ما اهتدى اليه من الآراء . وقد فعل هذا ليجافى التقليد ، وليكون إيمانه إيمان المستفيق المعتمد على الدليل والبرهان ، ذلك الايمان الذى لا يختلف المسلمون فى صحته ونجاة صاحبه .

« أنت واجد فى كتب الكلام فى مواضع كثيرة حكاية تجريد النفس عما ألفته من العقائد ، ثم البحث والنظر . فطريق التجريد طريق قديم ، وطريق التجربة والاستقراء طريق قديم . والتجربة والاستقراء التام وليدا الملاحظة . فليس هناك جديد عندنا . ولكن هذه الطريقة القديمة بعد أن نسيت فى التطبيق العلمى والعملى فى الشرق ، وبعد أن فشا التقليد وأهدر العقل ، وبعد أن أبرزها الغربيون فى ثوب ناصع وأفادوا منها فى العلم والعمل ، رجعنا نأخذها عنهم ونراها طريقة فى العلم جديدة .

« هذا القانون العلمى فى البحث معروف قديما وحديثا . والمعرفة سهلة ولكن العمل عسير . ولا يتفاوت الناس كثيرا فى معرفة القانون ، ولكنهم يتفاوتون جد التفاوت فى تطبيق القانون .

« تجريد النفس والملاحظة والتجربة والموازنة والاستنباط كلمات سهلة ؛ لكن الانسان الرازح تحت أحمال الوراثة فى دمه وعقله ، وأحمال البيئة فى البيت والقرية والمدينة والدولة والمدرسة ، وأحمال المعتقدات والمزاج والصحة والمرض والشهوات ، كيف يسهل عليه تطبيق القانون :

« هذا موضع الداء قديما وحديثا ، وهو سبب تعدد المذاهب والآراء ، وسبب تبدلها

وتنقلها من قطر الى قطر، ومن أمة الى أمة. والفلسفة والآداب تبدل ثيابها على تعاقب الأجيال كما تبدل النساء أزياءها، وقلّ أن تجد فيها شيئا يصونه حرز أو يقيه حصن، بل سرى التبدل الى قواعد العلم التى لم تكن طوال الأجيال الماضية موضعا للشك. ونظرية النسبية اضطرب لها العلماء وسرعان ماقام من يهدمها. والآراء فى الأمراض وأسبابها وطرق علاجها، وفى التغذية، لا تزال مطيعة للتبدل والتحول. وهكذا إذا أنعمنا النظر لا نجد أمانًا لما أنتجه العقل وحده إلا ما كان البرهان بشروطه متوافرا فيه. ولكن ما نسبة هذه الأشياء التى يتوافر فيها البرهان الى غيرها مما تمليه الظنون وتسطره الأوهام، وتمجه الأذهان المريضة، وتفرضه السياسة، ويبدعه العلماء الذين يجدون كل اللذة فى مخالفة غيرهم وإحداث هذه المذاهب والآراء؟ ولعل هذه الحيرة ستخفف غلواء العلماء المعتزين بالعقل وحده، وتلويهم يوما من الأيام الى الدخول فى حمى الحق وحصن اليقين، وهو الوحى الصادق، وهو القرآن الكريم والسنة الصحيحة المطهرة.

« نعود بعد هذا الى الدكتور هيكل وكتابه:

« يقول بعض علماء الكلام: إن الاطلاع على علم تشريح الأفلاك وعلم تشريح الانسان يدل أوضح الدلالة على شمول العلم الإلهى لدقائق الوجود. وأنا أقرر أيضا أن العلم والكشف عن سنن الوجود وعجائبه سيكون نصير الدين، وسيقرب الى العقل الانسانى طريق فهم ما كان غامضا منهما، وما كان فوق طاقة العقل إدراكه من قبل، مصداقا لقوله تعالى: «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد». والكهرباء وما نشأ عنها من المخترعات قرّبت الى العقل فهم إمكان تحول المادة الى قوة وتحول القوة الى مادة. وعلم استحضار الأرواح فسر للناس شيئا كثيرا مما كانوا فيه يختلفون، وأعان على فهم تجرد الروح وإمكان انفصالها، وفهم ماتستطيعه من السرعة فى طى الأبعاد. وقد انتفع الدكتور هيكل بشىء من هذا فى تقريب قصة الإسراء فأتى بشىء طريف.

« ويطول بي القول إذا أنا عرضت لما فى كتاب الدكتور هيكل من حسنات . وحسبي أن أنبه الى تلك الحسنات إجمالا ، وسيدرك الناس جماله بأنفسهم ، ويستمتعون بلذة نتاج الفكر تهديه الأسانيد الصحيحة ، ويهديه المنطق الدقيق تسعده الفطرة الصادقة . وسيرون أن الدكتور كان مخلصا الإخلاص كله للحقيقة ، عامر القلب بما فى الوحى المحمدى من هدى ونور ، وبما فى سيرة النبي صلى الله عليه وسلم من جمال وجلال وعظمة وعبرة ، مطمئنا كل الاطمئنان الى أن هذا الدين المحمدى سينقذ البشر مما هم فيه من الحيرة ، وينشلهم من ظلمة المادة ويبصرهم بنور الايمان ، ويوجههم الى النور الإلهى ، فيدركون به سعة رحمته التى وسعت كل شيء ، وعظمة مجده الذى تسبح به السموات والأرض وكل شيء فيهما ، وعزته التى تتضاءل أمامها الموجودات . ألا تراه يقول : « وأذهب أبعد مما تقدم فأقول : إن هذا البحث جدير بأن يهدى الانسانية طريقها الى الحياة الجديدة التى تلتمسها . وإذا كانت نصرانية الغرب تستكبر أن تجد النور الجديد فى الاسلام ورسوله ، وتلتمس هذا النور فى (تيوزوفية الهند) وفى مختلف مذاهب الشرق الأقصى ، فإن رجال هذا الشرق من المسلمين واليهود والنصارى خليقون بأن يقوموا بهذه البحوث الجليلة بالنزاهة والإنصاف اللذين يكفلان وحدهما الوصول الى الحق . والتفكر الاسلامى ، على أنه تفكير علمى على الطريقة الحديثة فى صلة الانسان بالحياة المحيطة به ، وهو من هذه الناحية واقعى بحت ، ينقلب تفكيرا ذاتيا حين يتصل الأمر بصلات الانسان بالكون وخالق الكون . ويقول : « لكن طلائع القضاء على الوثنية التى تتحكم فى عالمنا الحاضر وتوجه الحضارة الحاكمة فيه تبدو واضحة لكل من يتتبع سير العالم وأحداثه . فلعل هذه الطلائع تتواتر وتقوى دلالتها إذا انجلت أمام العالم تلك المسائل الروحية بالتخصص لدراسة حياة محمد وتعاليمه وعصره ، والثورة الروحية التى انتشرت فى العالم كله كأثر من آثاره » . انتهى كلام الدكتور .

ثم تابع فضيلة الأستاذ الأكبر ما هو بسبيله فقال :

« وهذا الاطمئنان يؤيده الواقع ، فإن ما يرى الآن من عناية الغرب ببحث آثار الشرق ، ومن عناية علمائه بدراسة الاسلام من نواحيه المختلفة ودراسة تاريخه وأممه قديما وحديثا ، ومن إنصاف بعضهم للنبي صلى الله عليه وسلم ، وما أيدته التجارب من أن الحق لا محالة غالب ؛ كل ذلك يرشدنا الى أن الاسلام سينشر لواءه على العالم ، وسيكون أشد الناس عداوة له اليوم هم أشد الناس غيرة عليه ودفاعا عنه ، وسيكون هؤلاء الغرباء عنه هم أنصاره وأهله . وكما نصره أول أمره الغرباء من البيئة التي نشأ فيها ، فسينصره آخر الأمر الغرباء عن لغته ووطنه . وقد بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء .

« وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء وليس للعالم بعده هاد ومرشد ، وكان دينه أكمل دين بنص الوحي القاطع ، فلا يمكن أن يقف أمره على ما هو عليه الآن ، ولا بد أن يمحو نوره نور غيره كما تمحو الشمس أضواء غيرها من الكواكب .

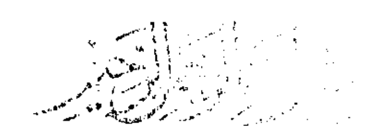
« وقد وفق الدكتور فى تنسيق الحوادث وربط بعضها ببعض ، فجاء كتابه عقدا منضدا ، وسلسلة متينة محكمة الحلقات . وقد أبدع فى بيان الأسباب والأغراض والحكم بيانا قويا واضحا يجعل القارئ مطمئن النفس رضى القلب ، يستمتع بما يقرأ ويثلج صدره ببرد اليقين ، فيملك عليه أمره ، ويجبره على متابعة القراءة حتى يوفى على آخر ما بيده من البحث .

« وفى الكتاب بحوث قيمة ليست من السيرة ، ولكنها اتصلت بها بسبب الإسهاب فى بيان أغراضها .

« وأختم كلمتى هذه بقول سيد الخلق صلوات الله عليه وعلى آله الأطهار ومن اتبعه :
« أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل علىّ غضبك أو تحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

١٥ فبراير سنة ١٩٣٥

محمد مصطفى المراغى



مهمة الدين الاسلامى فى العالم

١٩

توجيه قوى الاجتماع الى الاصلاح لا الفساد

قامت قبل الاسلام أمم توافرت فيها جميع أسباب القوة ، فلم تلبث أن اضطرتها سنن الاجتماع الى التبسط فى الأرض ، فبدأت بمن جاورها من الجماعات فأخضعتهم لسلطانها ، ثم أخذت توالى الفتوح وتنساح فى البلاد الى كل جهة طلبا للتوسع فى الملك ، والتضخم فى الثروة ، فكانت الطريقة التى تتبعها هى ما تمليه عليها القوة الغاشمة ، لا أصول العدل ، ولا حدود الحق . فكانت تستولى على المدن فتدك عمرانها ، وتسلب أموالها ، وتستذل أهلها ، وتبيد خضراءها ، وتولى عليها من يسوم أصحابها الخسف .

لقد كانت هـذه سنة الفاتحين ، وقد أحسنت إيجازها ملكة سبأ إذ قالت حين أتاها كتاب سليمان كما حكاه الكتاب عنها فى قوله تعالى : « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون » أى أن عادة المسلطين إذا دخلوا قرية فاتحين أتوا على عمرانها ، وأذلوا أعز أبنائها ، هذا دأبهم فى كل حين .

فأما إقامة الدليل على ذلك من التاريخ فميسور ، وهل التاريخ شىء غير ذكر تفاصيل الحوادث المروعة التى كان يرتكبها القاهرون ضد المقهورين ؟

إن أقرب الأمم الينا دولة الرومان ، فقد عرف من تاريخها أنها كانت تغير على المدائن فتجعل عاليها سافلها ، وتستعبد أهلها ، وتنقل سادتها وكبراءها الى رومية فتشدهم بدل الخيول فى عربة ملكية يجلس فيها الأمبراطور ورجال دولته ، فتسير بهم على هـذا

النحو أمام الشعب حتى تمر بهم تحت أقواس النصر . أما رعايا هـؤلاء القادة فكانوا يعاملون أسوأ معاملة : تضرب عليهم الأتاوات الفادحة ، ويولى عليهم من يسومونهم سوء العذاب ، حتى بادت تحت نير هذه المظالم جماعات وأسر لاحصر لها .

وأقرب من الرومانيين جنكيزخان ملك التتار ، فقد انساح بجنوده فى الممالك الأسيوية فأخربها وجعل عامرها يبابا ، واتخذ أهلها خولا وعبيدا . وسار أولاده سيرته ، فكان منهم هولاكو الذى زحف على بغداد ، فأتى على كل عامر فى طريقها ، وارتكب من ضروب العسف بالناس ما يقشعر له جلد الانسان ، وتنقبض له نفسه . فلما وصل الى بغداد وحال بينه وبينها نهر دجلة ، ألقى بكتب مكتبتها فى النهر ، وجعلها قنطرة اجتاز عليها جنوده ، ثم داهم الخليفة المستعصم بالله فى قصره ، فأمر بربطه فى ذيل حصانٍ فاره ، وألهبه بالسياط فركض ساحبا وراءه الخليفة على الدأماء ، فتحطمت عظامه ، وتمزقت أشلاؤه ، ومازال يطوف به على هذه الصورة حول قصره حتى صار جثة مشوهة هامدة ، ثم أمر بقتل خاصة الخليفة وجمع من أهل بيته ، ثم أوغل فى شيعته سلبا ونهبا ، وأباح بغداد أياما لجنوده يرتكبون أشنع مايؤثر عن قسوة الانسان على الانسان .

هـذه كانت سيرة الجماعات البشرية عندما كانت تبلغ من القوة حدا تستطيع معه أن تغير على الأمم القريبة منها والبعيدة عنها ، ولم يعرف فى تاريخ العالم أمة كانت تتورع عن هذه المآثم فتعامل مقهوريها بالرحمة والعطف ، بل كان الإيغال فى الإثخان فى المغلوبين من المناقب التى تضاف الى مجد القادة والفاتحين .

فلما شرع الله الاسلام رفع هذا الإصر عن الخلق كما رفع عنهم جميع الآصار التى كانوا يرزحون تحتها تحقيقا لقوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » فكان مما وصى الله به فى كتابه قوله تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدارَ الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين » .

وقد كرر الله تعالى النهى عن الفساد فى الأرض فى آيات كثيرة ، وقد قرن تعالى هذه العادة الذميمة بخصال الفاسقين أى الخارجين عن حدود الشريعة بقوله : « الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون فى الأرض ، أولئك هم الخاسرون » ، حكم عليهم جل وعز بالخسران ، لأنهم إنما يبتغون من وراء نقضهم للعهود وقطعهم للصلات وفسادهم فى الأرض أن يربحوا ويثروا ، فقرر أن تلك الخصال تؤدى الى عكس ما يقصدون وهو الخسران المبين . فإن نقض العهد يصمهم بين الأمم بوصمة الخيانة فتتألب عليهم ، وقطع ذوى الرحم والمعاشرين يبعدهم عنهم فى أشد الأوقات حاجة اليهم ، والفساد فى الأرض يجر الى نضوب المعين الذى يستمدون ثروتهم منه ، فكيف لايساورهم الخسران من حيث يدرون ولايدرون ؟

وذكر الله الظالم الغاشم من الناس الذى أعد له شر مآل وعد من أخص صفاته الفساد فى الأرض فقال تعالى : « وإذا تولّى سَعَى فى الأرض ليفسد فيها ويُهلك الحَرْثَ والنَّسْلَ (أى الزرع والولد) والله لا يحب الفساد » .

فكما لا يود الله لعباده الصالحين أن يسفكوا دماء الناس كذلك لا يود منهم أن يهلكوا الزروع لإجاعة الخصوم ، والمبالغة فى الانتقام منهم .

أين هذا التعليم الإلهى العالى من خيلاء (أتيلا) ملك (الهونيين) بما يرتكبه من المظالم ضد المقهورين ، حتى افتخر بأن العشب الأخضر لاينبت حيث يطأ جواده ؟ هذا الملك سُلط على دولتى الرومانيين الشرقية والغربية فأخرب مدنهما ، وانتهب ثرواتهما سنة (٤٣٤) ميلادية .

حذر الله المسلمين أن يستنوا بسنة أهل الظلم فى أخذ الشعوب بالقسوة والجبروت ، وتخريب العامر من مدنهم ، واضعاً لهم أصلا علميا يرجعون اليه ، وهو أن الفساد الذى يرتكبه المتغلبون فى البلاد التى تقع فى حوزتهم يفضى بهم الى عدم النجاح فى شئونهم الخاصة ، خلافا لما يتوهمه أولئك الفاتحون ، لأن الفساد يعدى كما تعدى الأمراض

الوبائية ، فخير للأمم أن تجاور أمما صالحة للبقاء من أن تجاور أمما فى حالة تدهور وانحلال . وقد خلق الله الأمم لتتعارف وتتبادل مرافق الحياة ، لا لتتناكر ويتربص بعضها الدوائر ببعض .

ويعرف الذين درسوا تاريخ الأمم أن الأمم المتغلبة أكثر ما أتاها الانحلال من الشعوب التى كانت فى حوزتها وسامتها سوء العذاب . فسورية التى كان الرومانيون يعاملونها أسوأ معاملة ، سلم أهلها المسلمين حين هاجموها ، وتركوا الدفاع للجيوش التى كانت تحتلها . ولما تصدى عمرو بن العاص لفتح مصر اتفق معه أهلها على التسليم مراغمة لإرادة قيصر الرومان . ولما نزل طارق بن زياد اسبانيا سلم له الكونت جوليان حصن الجزيرة الخضراء ، وحذا حذوه بعض القادة . كان كل هـذا لا يحصل لو كان الوزيغوطيون المتغلبون على البلاد لم يستنوا بسنة الإرهاق فى معاملة المقهورين .

وقد أوجز الله تعالى هذا الأصل فى قوله تعالى : « ولقد كتبنا فى الزبور من بَعدِ الذّكرِ أن الأرض يرثها عبادىَ الصالحون » ، أى الصالحون لكل خير ، ومنه الحكم وسياسة الشعوب .

من العجيب أن يكون هذا الأمر محلا لشك ، أو يكون مما يخفى على العاقلين من الخلق : « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار » ؟ .

وقد أوجز الله كل هذه الأصول العمرانية العالية فى كلمتين فقال تعالى : « إن الله لا يصلح عمل المفسدين » .

ومما شدد الله فى التحذير منه على الخصوص إفساد ما تم إصلاحه فى العالم ، لأن إرادة الشر فيه أظهر من إفساد ما لم يتم إصلاحه بعد ، فقال تعالى : « ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، وادعوه خوفا وطمعا ، إن رحمة الله قريب من المحسنين » .

وزاد تنبيهه بعدم الفساد فى الأرض قوةً بأن جعل النجاة فى الآخرة وقفا

على المتأدبين بهـذا الأدب الإلهى فى معاملة المدن وأهلها فقال تعالى : « تلك الدّارُ الآخرة نجعلها للذين لا يريدون عُلوًّا فى الأرض ولا فسادا ، والعاقبةُ للمتقين » .

علم الله سبحانه وتعالى أن المسلمين ستئول اليهم خلافة الله فى الأرض مصداقا لقوله تعالى : « وَعَدَ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات لَيَستخلفنّهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم » فوجه إليهم الخطاب خاصة مع كل ما ورد فى هذا للناس عامة فقال تعالى : « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتُقطِّعوا أرحامكم ؟ » جعل الله هذا التحذير فى قالب استفهام إنكارى ليكون أوقع فى النفس ، وأفعل فى القلب . ومعنى الآية فهل يتوقع منكم أيها المسلمون إن آتاكم الله الملك ، وكتب لكم التبسط فى الأرض ، أن تفسدوا فى الأرض وتمزقوا الروابط التى بينكم وبين ذوى قرباكم ومعاشريكم ؟

نزل هـذا كله على المسلمين فتلقوه بقلوب صفت لقبول الحق ، فصار حالا لهم لا يستطيعون عنه حولا . فلما دعتهم ضرورات الاجتماع للانسياح فى الأرض جعلوا شعارهم الرحمة والعدل ، والإصلاح فى الأرض . دخلوا سورية وكان بهم حاجة ماسة الى المقومات المادية ، فلم يسلبوا المقهورين شيئا من أموالهم ولا عتادهم ، ولكن اكتفوا بما تكتفى به كل حكومة رشيدة من ضرب الأتاوات المناسبة لحالتهم ، وجبوها منهم بدون إرهاق ولا ظلم ، ونزحت الى تلك البلاد قبائل من العرب ، فسوّوا أهل البلاد بأنفسهم أمام القضاء ، تاركين لهم الحرية فى ديانتهم ، فلم يلبثوا أن قبلوا الاسلام دينا لهم لما أثر فيهم من عدالة أهله ، واستقامة حكومتهم .

ثم افتتحوا مصر ، فجروا على شاكلتهم فى معاملة أهلها بالإحسان والرفق ، فلم يطل مقامهم بينهم حتى دخل المصريون فى دينهم أفواجا يحدوهم اليه ما رأوه من سماحة المسلمين وسعة صدورهم ، ووقوفهم مع الحق .

ودخلوا بلاد الفرس فوجدوا أهلها شيعا ، ومرافقها معطلة ، فأسسوا فيها حكومة

وحّدت بينهم فى المعاملة ، وساوت بينهم فى الحقوق ، فما عتموا أن انتشر الإسلام فيهم ، حتى لم يمض عليهم بضع عشرات من السنين حتى انقلب جمهورهم مسلمين يدافعون عن حرم الحنيفية السمحة دفاعهم عن أنفسهم وأهليهم وأعز عزيز عندهم .

ودخلوا الأندلس فلم يجعلوا ديدنهم تجريد أهلها من أموالهم ، ونقل مذخوراتها الى بلادهم ، بل ساروا فيهم سيرةً لم يكونوا يعرفونها من قبل ، فأقبلوا عليهم بوجوههم وقلوبهم ، ومكنوا لهم فى الأرض .

واقتحموا بعد الفرس ممالك التركستان حتى وصلوا الى حدود الصين ، جارين على سمت أسلافهم ، فدانت لهم البلاد ، وانتشر فيها الإسلام ، ولم يقف عند حد .

أسس المسلمون فى كل هذه الممالك المدارس ومعاهد التربية ، وعكفوا على الدرس والبحث ، وبذلوا التعليم للكافة لا فرق بين مسلمهم وكافرهم ، حتى أصبحت مدنهم مراكز للعلم والفضل والفنون والصنائع ، وكانت لا تعرف شيئا من ذلك من قبل . فاشتهرت دمشق والقيروان ونيسابور وإربل وسمرقند وإشبيلية وقرطبة ومصر الى عشرات من أمثالها فى جميع هذه الأمبراطورية التى لم يقم مايشبهها فى الأرض . فلم يحتكروا العلوم والصنائع لأنفسهم و بلادهم ، كما فعل الفاتحون قبلهم ، ولكنهم عمموا العلم فى كل قطر حلوا به ، وأشركوا أهله معهم ، حتى عُدُّوا أصلح الأمم لسياسة الخلق .

هذا ما شهد به مؤرخو الفرنج ودونوه مجمعين عليه ، فكان كل هذا من آثار الروح العلوى الذى بثه الإسلام فى قلوب أهله . فإن كانت من أمة تفخر بعمل قامت به فى عقر دارها ولقومها خاصة ، فإن المسلمين يفخرون بأنهم محدثو أكبر انقلاب فى العالم أجمع ، فلم تنحصر همتهم فى بلادهم ، ولم تقتصر على ذويهم ، ولكنها عمت الدنيا بأسرها .

وإن كانت كل أمة تتمدح بغزوة أضافت بها ملكا الى ملكها ، أو بدفاع مجيد دافعت به العدو عن حوزتها ، أو بدستور أسسته لذويها ، أو بثورة سوّت بها بين جميع طبقاتها ، فإن المسلمين ليباهون بأنهم قاموا بكل ذلك مجتمعا ، لا لحسابهم خاصة ولكن

لمجموع النوع البشرى كافة . فما من علم يستهدى به الناس اليوم ، ولا صناعة ينتفعون بها ، ولا دستور يعيشون فى ظلاله ، ولا مدنية ينعمون بحسناتها ، إلا والمسلمين يد فى وضع أساسها أو بناء صرحها أو الدلالة على طريقها ، وهم يعتقدون أن الفضل فى ذلك كله ليس لهم ، ولكن للدين الذى جعله الله نورا للناس يهدى به من يشاء الى طريقته المثلى « يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا ، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطا مستقيما » .

محمد فريد وجدى

من جوامع الكلم فى القرآن

قال الحارث الأعور : حدثنى على بن أبى طالب رضوان الله عليه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كتاب الله فيه خبر ما قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وحكم ما بينكم . هو الفصل ليس بالهزل . هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه . هو الذى من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله . هو حبل الله المتين ، والذكر العظيم ، والصراط المستقيم . خذها اليك يا أعور .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سيكون فى أمتى قوم يقرءون القرءان لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، هم شر الخلق والخليقة » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الزبانية لأسرع الى فساق حملة القرءان منهم الى عبدة الاوثان ، فيشكون الى ربهم فيقول : ليس من علم كمن لا يعلم » .

وقال الحسن : حملة القرءان ثلاثة نفر : رجل اتخذه بضاعة ينقله من مصر الى مصر يطلب به ما عند الناس ، ورجل حفظ حروفه وضيع حدوده ، واستدر به الولاة ، واستطال به على أهل بلده ، وقد كثر هذا الضرب من حملة القرءان لا أكثرهم الله عزوجل ! ورجل قرأ القرءان فوضع دواءه على داء قلبه ، فسهر ليلته ، وهملت عيناه ، وتسربل الخشوع ، وارتدى الوقار ، واستشعر الحزن ، ووالله لهذا الضرب من حملة القرءان أقل من الكبريت الأحمر ، بهم يسقى الله الغيث ، وينزل النصر ، ويدفع البلاء .



التفسير

سورة الرعد

— ٢ —

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : (ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ، وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى ، يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ . وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَارًا ، وَمِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ، يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) .

قد اشتملت الآية السابقة على التنويه بالآيات المنزلة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وإبرازها فى صورة أنها الحقيقة وحدها بأن تسمى آيات الكتاب وكأن غيرها لا يستحق التسمية بهذا الاسم ، ثم على إثبات حقّية ما أنزل اليه صلى الله عليه وسلم من ربه الذى أرسله وكمّله ، ثم ذكر أن أكثر الناس لا يؤمنون بما ذكر من كمالها وحقيتها مع قيام البرهان على إثبات هذه الحقية بأتم جلاء وأكمل وضوح . فجميل أن يردف هذه الدعوى التى اجترأ أكثر الناس على الكفر بها ، بما يفيد حقّيتها ، ويثبت أن الارتياب فيها ما جاء من ناحيتها ولا لضعف فى دليلها أو هدايتها ، وإنما نشأ من عمى بصائر الذين كفروا بها .

فقوله تعالى : « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها » من باب إرداف الدعوى بدليلها ، وتدعيمها ببرهانها . ذلك أن ارتيابهم فى صدقها لا يمكن أن يكون ناشئا عن استحالتها فى ذاتها ، إذ إمكانها الذاتى لا يقبل الشك ولا يرتاب فيه ، فهى فى نفسها ممكن من الممكنات بلا جدل ولا ريب ، وإنما يكون الارتياب — لو فرض — ناشئا من توهم صعوبتها وعسر تحقيقها . وبعبارة أوضح يكون ناشئا من زعم تعاصيها على قدرة من نسب اليه تحقيقها ، وإذاً يقال لهم : وأين ما ارتبتم فى حصوله لزعمكم قصور القدرة عن تحقيقه مما ترونه بأعينكم وتلمسونه بحواسكم وترغمون على اعتقاده بما قام لديكم من أدلة لا تقبل النقض ولا يدخل عليها الريب ؟ ألم يكن هذا الذى زعمتم نقص قدرته عن تحقيق ما ذكرنا هو الذى قامت قدرته بما هو أكبر وأعظم مما ترتابون فيه ؟ ألم يكن هو الذى رفع السموات بغير عمد ترتكز عليه ؟ « إن الله يُمسك السمواتِ والأرضَ أن تزولا ولئن زالتا إنْ أمسكهما مِن أحدٍ مِن بَعده » « ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه » وإنكم لتجزمون بذلك ، فها أنتم أولاء ترونها رأى العين ، ويقوم على ذلك لديكم أوضح البراهين . فهل من كانت قدرته آتية على هذه المقدورات العظيمة يعجزه أن يقوم بما تنكرون من بعث وإعادة ؟ وذلك هو ما سيقت هذه الآيات المتتالية لإثباته .

تعرف ذلك من قوله عز وجل بعد سوق تلك الآيات وتفصيلها : « وإنْ تَعجبْ فعَجَبٌ قولُهم أإذا كنا ترابا أإنا لفى خلق جديد » . وعلى ذلك يكون نسق الكلام هكذا : التنويه بالآيات التى أنزلها رب العالمين عليه صلى الله عليه وسلم هداية ونورا ؛ ثم بيانُ أن كل ما أنزل اليه من ربه فهو الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ومن أول ذلك وأولاه بالتنبيه بعث الناس بعد موتهم ليلقوا جزاء ما قدموا ؛ ثم النعيُ على أكثر الناس بتقاعدهم عن اليقين فى دعوى قامت عليها البراهين ، ولا ينكرها إلا من غلب عليه الانخداع بالأوهام ، وقصور النظر عن الاهتداء بالبرهان ولو وضح له

وضوح العيان ؛ ثم سردُ تلك الآيات الباهرة والدلائل الظاهرة ، مع الرجوع بها الى ما رأوه واستيقنته أنفسهم من مشاهدة أحوال السموات والأرض ، والتفكر فيها أقل فكر . هذا قوله تعالى : « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها » الآيات.

ولقد عرض فيها لثلاثة أنواع من الأدلة ، هى ما بين مشاهدات يدركها الحس وهو الغالب ، ومعلومات بدليل يكاد يلحقها بالمشاهدات — (الأول) الأدلة السماوية ، وذلك فى قوله تعالى : «الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها» . و(الثانى) الأدلة المبثوثة فى الأرض من ناحية تركيبها والظواهر المتجلية فيها المتواردة عليها ، كإرسائها بأوتاد الجبال ، وشقها بالأنهار ، وكتوارد الليل والنهار . و (الثالث) الأدلة المأخوذة مما أنتجته الأرض من نبات مختلف الألوان والطعوم ، مع اشتراكه فى التغذية وتجاوره فى الموقع ؛ ومما ظهر فى أجزائها من اختلاف فى طبائعها وألوانها ، مع تجاورها وتسلط ما يتوهم تأثيره فيها على جميع أجزائها بنسبة واحدة ، وأن ذلك لم يمنع من تفارقها واختلافها ، مما يدل على أن ذلك أثر صنع القادر المختار الحكيم العليم.

الدليل الأول السماوى وهو المذكور فى قوله تعالى : «الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها». ومعنى رفعها أوجدها مرتفعة ، لا أنها كانت منخفضة فرفعها ، وإنما خلقها من أول الأمر على هذه الرفعة . وأدل شىء على أن رفعها بقدرته تعالى أنكم ترونها مرتفعة بلا عمد . وهذا لا يدع عند أحد ريبا فى أن من رفعها كذلك قادر على ما هو أكبر من ذلك من إعادتكم بعد إفنائكم « أأنتم أشد خلقا أم السماء » ، فكيف ترتابون فى ذلك وتقولون : أإذا كنا ترابا أإنا لفى خلق جديد ؟ وعلى ذلك يكون الضمير فى ترونها عائدا الى السموات وأنهم يرونها مرتفعة بلا عمد . ومنهم من أرجع الضمير الى عَمَد باعتبار أنه جمع عماد أو عمود كما جاء أديم وأدَم وقضيم وقضم . ومعلوم أن فعيل وفعول حكمهما واحد فى الغالب . ولكن الذى عليه الأكثر أنه اسم جمع لا جمع . وقد ذكر أصحاب هذا القول أن الكلام مبنى على أن المعنى نفى رؤية العمد أى رفعها بلا عمد

مرئية فلا ينافي أن لها عمدا غير مرئية . واستأنسوا لكلامهم بأنه قد قرئ بغير عمد ترونه ، وأن الضمير حينئذ يرجع الى العَمَد باعتبار أنه اسم جمع لا الى السموات لأنها مؤنثة ، فتكون القراءة بتذكير الضمير مفسرة للقراءة بتأنيثه . وزعموا أن عدم رؤية العمد مع رؤية ما ارتفع عليه دليل على سعة قدرة القادر ، إذ لكل من المرتفع والعمد حكم يخالف حكم الآخر مع اتحادهما في الحقيقة الجسمية . وقد اختلف أصحاب هذا الرأي في تفسير العَمَد : فمنهم من زعم أنها عمد حقيقية من أجسام حاملة ، ورووا فيها روايات لم تصح ولا يعول عليها . ومنهم من فسر العمد بقدرة الله تعالى . وهو بعيد عن ظاهر التعبير بعدا كبيرا ، ولا مقتضى للتعبير عن القدرة الإلهية بالعمد مجازا ، مع أن إضافة الرفع الى القدرة ونفي العمد بالمرة أبلغ في تقرير القدرة .

فالظاهر أن النفي راجع الى العمد ، وأنه ليس لها عمد ، ولو كان لها لرأيتموه . أي رفعها بغير عمد ، ودليل ذلك أنكم ترونها كذلك . وأما ما ذكروه من أنه رويت القراءة بالتذكير ، فإن المعنى على هذه الرواية أنكم ترون الرفع بلا عمد ، فالضمير عائد على الرفع لا الى العمد .

والسموات عند أكثر العلماء الاسلاميين هي هذه الأجرام الفلكية المحيطة بنا المتحلية بلون الزرقة الصافية . وذلك ما يدل عليه ظواهر النصوص والأخبار الكثيرة . وبعضهم يرى أن هذا اللون ليس لون السموات ، فإنه يحدث من أسباب عدة : كأن يكون أجزاء بخارية جوية يسطع عليها شعاع ضوء الكواكب ويليها طبقة مظلمة ، فيحصل من امتزاج الضوء الكوكبي بالأجزاء المظلمة لون متوسط بين البياض والسواد وهو لون الزرقة ، أو من تعاقب ذرات ذات ألوان متعددة ، فيحصل من امتزاجها ذلك اللون المخصوص ، فلا يلزم أن يكون هذا المرئي هو لون السماء .

ويمكن الرد على هذا الوجه بأن حدوث لون الزرقة لهذا السبب الذي ذكروه لا يمنع أن يحدث لسبب آخر ويكون هو لون السماء حقيقة ، فيكون كلا الأمرين في نظر العقل

محتملا . وقد جاءت ظواهر النصوص مفيدة أن ما نراه هو السماء ، فلا موجب لصرفها عن ظاهرها .

وأصحاب هذا المذهب الثانى منهم من يفسر السموات بأنها الكواكب ، وكل ما ارتفع فهو سماء . ومنهم من يفسرها بأنها المناطق التى تسبح فيها الكواكب وهى أيضا مرتفعة . ولا يخفى عليك أن ظهور آثار القدرة إنما يكون فى رفع شىء ذى وجود ؛ أما المناطق الخالية التى لم تزد عن أنها فراغ تسبح فيه السموات فليس فى ارتفاعه وهو خلو أثر للقدرة ، ولا يقال إنا نراه مرتفعا .

وبعد : فالذى ينقدح فى الذهن وتطمئن اليه النفس ، هو أن هذا المرئى هو السماء ، وذلك ظاهر النصوص . فإذا قام الدليل العقلى على انتفاء ذلك ، وأثبت أنه ليس هناك سماء بالمعنى الجرمى المتعارف ، صح المصير الى التأويل ، وإلا كان التأويل والصرف عن الظاهر تشهيا بلا داع . ولتتنبه الى أنه فرق بين قيام الدليل العقلى على انتفاء السموات وبين عدم قيامه على وجودها ، فالأول يصلح صارفا للنصوص عن ظواهرها بخلاف الثانى . كما أن هناك فرقا بين الدليل الموجب للجزم والدليل المحصل للتخمين والظن ؛ فالأول يصلح لتأويل النصوص بخلاف الثانى .

قال تعالى : « ثم استوى على العرش » :

يقال كثيرا فى التعبير عن الأمور المعنوية : استقر الأمر فى نصابه ، واستقامت الأحوال ، واستوى على كرسى المملكة ؛ وليس للأمور المعنوية مقر جسمى وحيز ومكان ، كما أنه ليس للأحوال قامة وامتداد يستقيم أو يعوج ؛ وقد يكون الملك لم يتخذ كرسيا مخصوصا بالمملكة يجلس عليه وإنما يجلس حيث أراد . ولكن هذه التعبيرات الغرض منها مفهوم ، وهو أن القلاقل والاضطرابات المخلة بالأمن أو النظام قد زالت ، وأن الرياسة للمَلِك قد تحققت ولم يبق له معارض أو مشارك . يفهم هذا المعنى من له أدنى إلمام بمتعارف الناس فى مخاطباتهم ؛ فلا ينبغى أن يلتفت الى ما وقع فيه بعض

قصار النظر من أهل الظاهر الذين أهملوا قضية العقل الصريح والمنطق الصحيح : فزعموا أن للإله استواء حسيا على عرشه كاستوائنا فى أمكنتنا . فلو كان الأمر كذلك لكان بحاجة الى ما يعتمد عليه ويستوى فيه ، ولكان العرش سابقا على وجوده حتى يستوى عليه لأول وجوده ، ولكان بحاجة فى وجوده الى العرش الذى هو من مصنوعاته ، ولكان جسما يصح أن يجزأ وأن يركب ، فهو محتاج الى من يضم أجزاءه بعضها الى بعض ؛ وكل هذه محالات ظاهرة الاستحالة ولا تتفق ومعنى الإلهية واستغنائه عن كل ما سواه واحتياج كل ما عداه اليه . وهى مخلة بمعنى وجوب الوجود الذى قام عليه البرهان القاطع . وعلى ذلك فتفسير استوى على العرش بالاستواء الحسى باطل قطعا .

وقد اختلف علماء التوحيد فى مثل هذه التعبيرات : فمنهم من يقول: هذا من المتشابه نؤمن به وإن لم نفهم المعنى المراد منه على التعيين ، فالله مستو على العرش استواء لا نعلم حقيقته ، كما لا نعلم حقيقته تعالى وكنه ذاته . وأصحاب هذا المسلك هم السلف ؛ وطريقتهم أسلم . ومنهم من يفسرها بأقرب المعانى اليها وأنسبها بها فى متعارف التخاطب ، ويقول : إن معنى الاستواء الاستيلاء وكمال النفوذ والانفراد بالتدبير وما يماثل ذلك ، ويقولون : إنها على طراز قول الشاعر :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

فليس معناه جلس على العراق ، وإنما معناه تم له أمر الحكم والنفوذ فيه . وهذه طريقة الخلف ، وهى أحكم ، لأنها تفسير بما يشبع شهوة العقول المتعاصية على التسليم بشىء دون أن تفهمه بجلاء ، وموافقة للتعبير المتعارف فى مثل ذلك .

وغاية الأمر يبقى الكلام فى أمرين : (الأول) التعبير بصيغة استوى وقد تُوهم أنه لم يكن مستويا ثم استوى . و (الثانى) التعبير بكلمة ثم وقد تُوهم أن الاستواء متأخر على رفع السموات مع أن نفوذه جل شأنه فى تدبير ملكه ثابت أزلا وأبدا .

فأما الأول فمدفوع بأن صيغ الأفعال المسندة الى الحق جل جلاله ليس فى معناها

الزمان ، وإنما تدل على حصول مضمونها ، إذ ليس الحق تعالى زمانيا ولاخاضعا لأحكام الزمان ، وذلك كما تسمعه كثيرا فى كلامهم على قوله تعالى : « وكان الله على كل شىء مقتدرا » « وكان الله بكل شىء محيطا » وأمثالها . فليس المعنى أنه كان كذلك ثم زال عنه ، حاش لله :

وأما الثانى فليس الترتيب المستفاد من ثُمَّ منصباً على مضمون الأمرين المتعاطفين بها ، وإنما هو ترتيب بين الأدلة المتعاطفة . فكأنه استدل أولاً بإيجاد السموات مرتفعة ، ثم انتقل الى مرتبة تليها فى الاستدلال وهى الاستواء على عرش الملك وتمام نفوذ التدبير والحكم .

ووجه الترتيب بين هذين الدليلين أن الأول وهو رفع السموات بغير عمد أمر واضح جلى لا يحتاج الى أكثر من الالتفات الى ما يقع عليه الحس والتأمل فيه أقل تأمل . وأما الثانى وهواستواؤه على العرش فإنه محتاج الى فضل تأمل وإعمال فكر فى الظواهر العالمية ليعلم خضوعها للمهيمن عليها ونفوذ حكمه فيها .

ولقد فصلها فيما يلى تفصيلا ما ، ونبه على أشياء يعلم بها غيرها ، حيث قال : « وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى » . أى أفلا ترى من هذا التسخير الكامل لمخلوقين هما من أعظم ما تقع عليه العين أن فاعل ذلك هو من نفذ حكمه فى كل شىء ، ودان له كل شىء ، واستوى على عرش المملكة لا يشذ عليه شىء . وعلى ذلك يكون الدليل الأول من الوضوح بحيث يفتح كل عين مغلقة .

فإذا أخذ هذا الحكم على النفس مسالكها ، وأرغمها على الاعتراف بما عرض عليها ولم تجد مندوحة من الإقرار والإذعان ، دعيت الى التأمل العميق الذى يملؤها يقينا ، فقيل لها : وانتقلى الى ما هو أعمق أثرا وأكمل نظرا ، لترى أنه مالك الأمر كله صاحب الملك والملكوت ، وأنه استوى على العرش بلا منازع ولا مشارك . ألا ترين كيف سخر لحكمه بحكمته أعظم الكواكب التى تتجلى لك ، فلا يستطيع شىء منها

الخروج عن تدبيره وتسخيره ؟ ألا ترونه قد سخر الشمس والقمر كل يجرى بأمره في مستقره الى أجله الذى ضربه له ؟

وغير خاف أن الاستدلال الحكيم هو ما يبدأ فيه بالأمر الواضح ثم ينتقل الى ما هو أعمق منه وأدق ، وأن الدليل الدقيق قد يحتاج الى توضيح وتفصيل ، وهو ما ذكر فى قوله عز شأنه : « وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى » .

بقى الكلام فى نسبة الجرى الى الشمس والقمر مع قيام الدليل على أن المتحرك هو الأرض حول الشمس لا الشمس حول الأرض . ونقول فيه :

إنه بعد تسليم تمام الدليل فى ذلك وخلوه من المنوع ووصوله الى درجة اليقين ، وذلك ما لم يزعمه القائلون به ، فإن غاية أمرهم أنهم يقولون : إن الظاهر المناسب للمألوف والأقرب الى التخمين هو أن الأصغر يدور حول الأكبر ، ولا شك أن الأرض أصغر مرات كثيرة من الشمس فهى الأحق بأن تكون هى المتحركة . كما أن تكرار حركة البندول فى مسافة مرتفعة خالية من الهواء يعطى التخمين بأن الأرض هى المتحركة ، فقد ذكروا أن ذلك تخمين لا يقين .

ويمكن توجه المنع عليه بأن الله يفعل ما يشاء بقدرته لا يتقيد بالنواميس الظاهرة لنا ، فلا مانع عقلا من أن يتحرك الأكبر حول الأصغر أو الأصغر حول الأكبر ، وحركة البندول التى زعموها يجوز أن تنشأ عن سبب أثيرى أو غيره مما يحيط بالأرض وإن لم ينكشف لنا ناموسه تمام الانكشاف .

وعلى فرض تمام الدليل يقينا فليس فى ذلك ما يعكر على المقصود من الآية الكريمة ، وذلك أن المقصود فيما تأتى به النبوات من توجيه النظر الى ما يجرى فى هذا العالم إنما هو التنبيه لمواضع العبرة بحسب ما يدركه الانسان ببادئ النظر ، ليتم عليه الامتنان فى آيات الامتنان ، أو ليحصل الإذعان فى مقام الاستدلال وإقامة البرهان . ولا شك أن هذا يأتى برؤية الآثار الظاهرة مهما كان سببها والناموس الذى استتبعها ؛ وليس

المقصود شرح دقائق الصناعات والأسباب الخفية التى يتعاصى على جمهور المخاطبين فهم دقائقها ، وإلا كان الخطاب بالشرائع مقصورا على فئة تتحمل أذهانها فهم تلك الدقائق .

انظر الى قوله تعالى : « يسألونك عن الأهلة قل هى مَوَاقِيتُ للناس والحجّ » فقد كان سؤالهم : ما السبب فى أن القمر يبدو هلالا صغيرا ثم يتزايد حتى يصير بدرا كاملا ؟ فكان جوابهم أن ذلك لكى يضبط الناس به مواقيتهم فى مواعيدهم وأعمالهم الدنيوية والدينية ، ومن أهم ذلك مواقيت الحج . فانظر كيف سألوا عن السبب فلم يجابوا الى ما طلبوا من أن ذلك ناشئ عن كون القمر لا ضوء له فى ذاته وإنما يستفيده من مقابلة الشمس ، وللأرض حيلولة بينه وبينها تختلف أوضاعها باختلاف المنازل ، وأمثال ذلك مما لايسهل إدراكه إلا على من مارس شيئا من قواعد علم الهيئة . وما جاءت الشرائع لتعليم دقائق الصناعات وقواعد العلوم ، بل اكتفى فيها بالدعوة الى إجادة النظر والتفكير ، حتى يصلوا منها الى ما تسعه عقولهم ، وتتوقف عليه مصالحهم ، ويصح عليه دليلهم . وعلى طراز ذلك ما سيأتى فى الآية القريبة « يُسقَى بماء واحد ونُفَضِّل بعضها على بعض فى الأُكُل » فقد نبه الى مواضع العبرة ومثار المنة ، ولم يشرح السبب الطبيعى .

إذا تقرر هذا نقول : إن موضع العبرة والاستدلال على كمال القدرة هو فيما يرونه بأنفسهم من ضبط حركات الشمس والقمر مسخرين لأمر الله كل يجرى لأجل مسمى لا خلل فيه ولا اضطراب ، فبذلك يضبطون مواقيتهم وينظمون شئونهم ، وذلك بتسخير من ربهم ، فله المنة ، وهو كامل القدرة . وما زال الناس فى كل زمان وأوانٍ يقولون : أشرقت الشمس أوغابت الشمس ، اكتفاء فى ذلك بظاهر ما يرون ، ولا يقول أحد فى مخاطباته العادية : دارت الأرض حول الشمس أوسامَتَ نصف الأرض الشرقى أوالغربى جرم الشمس . فعلى هذا تكون الآية موجِّهة نظر المكلفين الى ما يبدو لهم وتترتب عليه مصالحهم ، وهذا هو ما يليق بالهداية والاعتبار .

هذا ولا يفوتنا قبل أن ننتقل من الكلام فى هذه الآية أن ننبه على فساد الزعم

بأن حركة الأرض حول الشمس مذهب اهتدى إليه المتأخرون من علماء الهيئة بعد أن كان لايعرفه أحد . فليس هذا الزعم من الصواب فى شىء ، بل الحقيقة أن هذا مذهب قديم ، بل كان هو السائد على أغلب علماء الهيئة فى زمن قديم ، ثم تغلب عليه رأى القائلين بأن الشمس هى الدائرة فى الفلك المحيط بالأرض ، فانغمر المذهب الأول والقائلون به ، ثم تجدد انتصار المذهب القديم القائل بأن الأرض هى المتحركة . وكلا الفريقين يكتفى بقوة التخمين ولايدعى الجزم واليقين ، وإنما أتباع الفريقين من أنصاف العلماء هم الذين يتغالون فى نصرة متبوعيهم ، فيزعمون لهم أكثر مما يزعمون لأنفسهم ، فيجعلون ظنهم جزما وتخمينهم يقينا ، وذلك من ظلم العلم ، وهو شائع فى كل زمان ، وما أكثره فى زمننا هذا :

هذا ومما نلفت اليه نظر القارىء أنه قد جاء فى هـذه الآية « كلٌ يجرى لأجل مسمى » وجاء فى آية أخرى « كل يجرى إلى أجل مسمى » فقيل إن المعنى فى الآيتين واحد ، وإن اللام هنا بمعنى الى ، وهو مطابق لما روى عن مجاهد أن الأجل المسمى هو عمر الدنيا ، وأنه ينتهى بما ذكر فى قوله تعالى : « إذا الشمس كُوِّرت » وأمثاله . ولكن المروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن معنى الأجل المسمى : المنازل المقدرة لهما ، والوقت المعين لسير كل منهما ، والدرجات الخاصة بهما ، وأن لكل منهما مداره حسبما اقتضته الحكمة الإلهية . ويلوح أن هذا أنسب بمعنى التسخير المذكور فى قوله : « وسخر الشمس والقمر » أى جعل لكل منهما درجات لا يعدوها ، ومنازل خاصة ، ومقدارا معينا يطابق الحكمة والمصلحة المرعية فى نظامهما ، فيكون معنى اللام هنا غير معنى الى . والمعنى كل يجرى ملتزما خطة معينة رسمت له لا يعدوها . وهذا هو الظاهر .

أردف هذا بقوله تعالى : « يدبِّر الأمرَ » أى هذا الذى تشاهدون من آثار صنعه وبديع حكمته ما تشاهدون ، هو الذى يدبر كل الأمور ، ويحكم التصريف فى جميع العالم علويّه وسفليّه ، فهو الذى استوى على العرش ونفذت قدرته فى الملك والملكوت . وبذلك يكون

قوله : «يدبر الأمر» بعد ذكر تسخير الشمس والقمر من باب قولهم : عود على بدء ، بالنسبة لقوله : «ثم استوى على العرش» فكأن استواءه على العرش دليل على سعة قدرته ، ويحتاج الى دليل يثبته هو ما تشاهدون من تسخير الشمس والقمر الذى تستفيدون منه أنه هو الذى يدبر الأمر ، فهو المستوى على العرش ، وهو صاحب التدبير والتصريف فى الأمر كله ، لا إله غيره .

أرأيت كيف ارتبطت الآيات بعضها ببعض حتى صارت كلاما واحدا فى حين أنها مفصلة تفصيلا حكيما لكل منها فائدته وجمال موقعه ؟ كذلك يفصل الله آياته ويبينها مفصلة واضحة ، تعطى فائدتها وتستكمل هدايتها ، وترشد العقول السليمة من الرين الى ما فيه هداها . فقوله تعالى : « يفصل الآيات » تنويه بكمال الفائدة وعظم الجمال الذى اشتملت عليه تلك الآيات . وعلى ذلك يكون المراد بالآيات آيات الكتاب السابق التنويه بفضلها فى أول الآية الكريمة «تلك آيات الكتاب» . وقيل إن المراد الآيات الكونية التى أوجدها تعالى فى العالم واضحة الدلالة على قدرته وأنه المتصرف فى العالم بإبداع حكمته . والحقيقة أنه فصل كُلاًّ من آيات الكتاب وآيات التكوين بما يهدى كل ناظر مسترشد . فالحمد لله حق حمده .

بقى معنى نحب أن نرشدك اليه ، وهو أن معنى التدبير فى اللغة النظر فى دُبُر الأمور وعواقبها ليختار منها أسلمها عاقبة بعد التفكر . وهذا المعنى مستحيل بالنسبة اليه تعالى ، إذ كل شيء معلوم له تعالى بالفعل بلا نظر ولا تفكير ، وإنما المراد لازمه وهو الإتقان والإحكام ، فإن شأن من يتأمل فى عواقب الأمور أن يجيد صنعها ، ولكنه تعالى غنى بعلمه الشامل عن التأمل والتفكر ، فذلك شأن من لم يحط علما بما يتناوله صنعه ، وحاشا له عز شأنه أن يعزب عن علمه مثقالُ ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

وقوله تعالى : « لعلكم بلقاء ربكم توقنون » :

قد سبق لنا تفسير معنى «لعل» فى مثل هذا المقام ، ولكن لا نرى بأسا من إعادته

بإيجاز فنقول : إن معنى لعل فى هذا ونحوه هو معنى اللام الغائية المفيدة للحكمة المترتبة على ما ذكرت لعل فى سياقه . وغاية الأمر أن بينهما فرقا فى مواضع الاستعمال : فاللام تذكر فى موضع التعليل المحتوم تأدية الفعل فيه للغاية . وأما لعل فتأتى فى التعليل الذى يدخل فيه إرادة المكلف فى اغتنام فرصته فتحصل الغاية ، أو تفويتها على نفسه فلا تحصل . فكأن التعليل فى لعل معناه : قد هيأنا لكم ما لو اغتنمتموه لأخذتم فائدته فلعلكم تغنمون ، فهذا موكول الى حسن اختياركم . فهو يبرزهم فى صورة من يرجى منه . وإلا فمعنى الرجاء مستحيل على الله تعالى ، إذ بيده الأمر كله ، وهو الفعال لما يريد ، والعليم بما يكون .

هذا وترتيب الإيقان بلقاء الله على تفصيل الآيات صحيح ، سواء أفسرت الآيات بآيات الكتاب التى أرشدت الى ما فى الكون من عظائم آثار القدرة ، أم بالآيات الكونية التى يهدى تأملها الى جلال مبدعها . ولكن ردّ آخر الكلام الى أوله قد يرجح التفسير الأول .

نسأله تعالى أن يملأ قلوبنا يقينا وإيمانا ، إنه هو الكريم الرحيم . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

ابراهيم الجبالى

الفخر بقلة العدد مع الكرم

قال السموءل :

تعيرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها إن الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليل

وقال شاعر فى تعليل قلة الكرام :

بغاث الطير أكثرها فراخا وأم الباز مقلات نزور

المرأة المقلات والنزور : القليلة الأولاد .

الرحمـــة

أسمعناك فيما سبق شيئا عن المحبة وأنواعها . ونريد اليوم أن نذكر لك شيئا عن الرحمة كنتيجة للمحبة فنقول :

الرحمة من أشرف الخصال وأكرم الأخلاق ، وإن الله لا يحب شيئا مثل ما يحب الرحمة والتواضع ، ولا يكره شيئا مثل ما يكره القسوة والكبرياء .

وقد ورد فى الحديث الصحيح : « ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » . وذِكْر مَن التى للعاقل ها هنا لتغليب الأشرف على غيره . وإياك أن تفهم من ذكرها أنك لست مأمورا إلا برحمة النوع الانسانى فقط ، فإنك مأمور بالرحمة لكل ذى روح .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « فى كبد كل رطبة صدقة » . وإذا كانت امرأة قد دخلت النار من أجل هرة حبستها كما فى الحديث الصحيح ، فلا غرو أن تدخل الجنة من أجل هرة ترحمها .

وقد ورد « إن الله رحيم ، وإنما يرحم من عباده الرحماء » ، ويقول الله تعالى فى الحديث القدسى : « سبقت رحمتى غضبى » .

وليس ذلك الحنان الذى تراه فى قلوب الآباء والأمهات فى أفراد النوع الانسانى وسائر أنواع الحيوان مما يسوقهم سوقا اضطراريا الى تعهد الولد ومراعاته فى كل ما يجب له ، ولا تلك الشفقة التى تجدها من نفسك إذا رأيت مظلوما ضعيفا أو فقيرا بائسا ، إلا أثرا من آثار تلك الرحمة الإلهية .

ومواساة الإخوان والجيران والشفقة على الفقراء والضعفاء من أفضل الأعمال التى حث عليها الدين وندبت اليها الشريعة . وكل ذلك من آثار الرحمة الإلهية التى قامت بها السموات والأرض . ولا محل ها هنا لتفصيل رحمته تعالى بك وفضله عليك بجرى

البحار ، وتفجير الأنهار ، وتيسير الأنوار ، وخلق الليل والنهار ، وإنبات النبات ، وبقية الآيات ، وأنواع النعم المتواترات .

وقد قال تعالى : « فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرضَ بعد موتها » الخ .

وبالجملة ففيك من الانسانية على قدر ما فيك من الرحمة . وعلى قدر ما فيك من القسوة يكون بعدك من الله وانسلاخك من الانسانية ؛ فإنك لا تتكمل إلا إذا انفعلت نفسك بالكمالات ومكارم الأخلاق المرة بعد المرة ، وعلى قدر لين قلبك وسرعة تأثرك يكون قبولك لتلك الكمالات . وأما ذلك القلب القاسي الذى لا ينفعل ولا يتأثر ، فإنه بعيد من الكمال جدا ، حيث كان غير مستعد للانفعال ولا قابل للنقش فيه .

وإن من القلوب قلوبا كالحجارة أو أشد قسوة ؛ وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشّقّقُ فيخرج منه الماء . ومن كان بهذه الصفة فهو شقى فى الدنيا والآخرة ، ممقوت لدى الله والناس .

وقد قرر الفلاسفة أن الانسان قد ينحط الى دركات هى أسفل من كل المراتب التى فيها أنواع الحيوان ، وإذاً لا يكون إنسانا إلا فى صورته .

وقد قال بعض الحكماء : إن من الناس من تفسد إنسانيته فيصبح غير إنسان . وقد أشار سبحانه وتعالى الى ذلك بقوله : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » . ويقول : « والعصر إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر » .

ولا يمكنك أن تصل الى درجة الكمال إلا إذا لم تكن من ذوى القلوب القاسية والنفوس الجامحة .

والخلاصة أنه لو اتصف الناس بالرحمة لكانوا كاملين فى إنسانيتهم ، فلم يفعلوا فعل الوحوش الضارية بإخوانهم وبنى نوعهم .

لو تمّت الرحمة فى النفوس لما التهمت الأمم القوية الأمم الضعيفة ، ولما فعلت بهم

ما لا تفعله أقوى الحيوانات بأضعفها . على أن الحيوان لا يفترس أبناء نوعه مهما كانت وحشيته وشراهته .

لو تمّت الرحمة فى الأغنياء لما مقتهم الفقراء ؛ ولو تمت الرحمة فى القضاة لما تأخرت القضايا السنين الطوال ، ولا لحق أربابها شديد النكال وعظيم الوبال . ولو تمت فيك الرحمة لدعا لك جيرانك وأثنى عليك إخوانك . ولو تمت الرحمة فيك لبذلت النصح للعامة والخاصة إخلاصا لهم وإشفاقا عليهم (والدين النصيحة) . ولو تمت فيك الرحمة لأشفقت على القريب والبعيد ، ورحمت المبتلى والمعافى ، والانسان وغير الانسان . بل نقول : لو تمت فيك الرحمة لكنت من المرحومين الذين يشفقون على أنفسهم فلا يورطونها فى الهلكات ولا يجلبون عليها أعظم الآفات ، ويحرمونها من أفضل أنواع السعادات .

وإجمال القول أنه إذا استقام هذا الأصل للانسان فى الدين ، استقام له سائره ، ففاز بخير الدنيا والآخرة . فأزل — يرحمك الله — من نفسك القسوة ، وكن رقيق الفؤاد ، ولا تكن من غلاظ الأكباد ، فالراحمون يرحمهم الرحمن .

وما أحسن قول ابن حجر المكى فى هذا الموضوع :

ارحم عباد الله يرحمك الذى عم الخلائق جوده ونواله
فالراحمون لهم نصيب وافر من رحمة الرحمن جل جلاله

وقول الحافظ ابن عساكر :

بادر الى الخير ياذا اللب مغتنما ولا تكن عن قليل الخير محتشما
واشكر لمولاك ما أولاك من نعم فالشكر يستوجب الإقبال والكرما
وارحم بقلبك خلق الله وارعهم فإنما يرحم الرحمن من رحما

وقال غيره :

من يرحم الخلق فالرحمن يرحمه ويكشف الله عنه الضر والباسا

ففى صحيح البخارى جاء متصلا لا يرحم الله من لا يرحم الناسا

ولا بأس أن نذكر لك كلمة وجيزة عما جاء فى السنة من الحث على الرحمة ، فنقول :

روى البخارى فى الأدب المفرد وأحمد وأبو داود والترمذى وآخرون عن عبد الله ابن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » (لك أن تقرأ يرحمكم بالجزم جوابا للأمر ، والرفع على أنه جملة دعائية).

وروى الشيخان هذا الحديث عن أسامة بن زيد بلفظ « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » . ومن ذلك ما رواه عن أبى هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال : « من لا يرحم لا يرحم » .

وروى أحمد عن جابر « من لا يرحم لا يرحم ، ومن لا يغفر لا يغفر له » .

ومنها ما رواه الشيخان عن جرير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله » وروى الامام أحمد وعبد بن حميد فى مسنديهما والطبرانى وغيرهم بسند جيد عن ابن عمر موقوفا ومرفوعا « ارحموا ترحموا واغفروا يغفر لكم ، ويل للمصرين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون » . وأخرج أبو داود والترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تنزع الرحمة إلا من شقى » .

وعنه أيضا قال : قبّل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن بن على رضى الله عنهما وعنده الأقرع بن حابس ، فقال الأقرع : إن لى عشرة من الولد ما قبّلت أحدا منهم . فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : « من لا يرحم لا يرحم » أخرجه الشيخان وأبو داود والترمذى .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ، ثم خرج وإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى

كان بلغ منى ، فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسك بفيه حتى رقى فسقى الكلب ، فشكر الله له تعالى فغفر له . قالوا يا رسول الله وإن لنا فى البهائم أجرا ؟ قال : فى كل كبد رطبة أجر » . أخرجه الشيخان فى الصحيحين ومالك فى الموطأ . وعن ابن عمر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش[1] الأرض » أخرجه الشيخان . وعن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الرفق ما كان فى شىء إلا زانه ، ولا نزع من شىء إلا شانه » أخرجه مسلم وأبوداود . وعن جرير رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من يحرم الرفق يحرم الخير كله » أخرجه مسلم وأبو داود . وعن أبى موسى رضى الله عنه قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا بعث أحدا فى بعض أمره قال : « بشروا ولا تنفروا ، ويسروا ولا تعسروا » . أخرجه أبو داود .

هذا وقد رأينا لأبى السعود عند قوله تعالى : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » ، وما النعمة إلا أثر من آثار الرحمة ، عبارة جليلة تروق ذوى الأفهام ، فأحببنا أن نذكرها لك فى هذا المقام ، لتعرف نعم الله عليك ورحمته بك ، فتجعل شكر تلك النعم التى لا تحصى رحمة عباد الله ، والشفقة على خلق الله ، فكما تدين تدان ؛ وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ وهاك عبارة أبى السعود :

« وإن تعدوا نعمة الله » التى أنعم بها عليكم « لا تحصوها » لا تطيقوا حصرها ولو إجمالا فإنها غير متناهية ، كيف لا وما من فرد من أفراد الناس وإن كان فى أقصى مراتب الفقر والإفلاس ، ممنواً بأصناف البلايا ، مبتلى بأنواع الرزايا ، فهو بحيث لو تأملته ألفيته متقلبا فى نعم لا تحد ، ومنن لا تحصى ولا تعد ، كأنه قد أعطى كل ساعة وآن من النعماء ما حواه حيطة الإمكان . وإن كنت فى ريب من ذلك فقدر أنه ملك ملك أقطار العالم ودانت له كافة الأمم ، وأذعنت لطاعته السراة ، وخضعت لهيبته رقاب

---

(١) خشاش الارض : هوامها وحشراتها .

العتاه ، وفاز بكل مرام ، ونال كل منال ، وحاز جميع ما فى الدنيا من أصناف الأموال ، من غير ند يزاحمه ، ولا شريك يساهمه . بل قدّر أن جميع ما فيها من حجر ومدر يواقيت غالية ونفائس درر . قدر أنه قد وقع من فقد مشروب أو مطعوم ، فى حالة بلغت منها نفسه الحلقوم . فهل يشترى وهو فى تلك الحال بجميع ماله من الملك والمال لقمة تنجيه أو شربة ترويه ، أم يختار الهلاك فتذهب الأموال والأملاك بغير بدل يبقى عليه ، ولا نفع يعود اليه ؟ كلا ، بل يبذل لذلك كل ما تحويه اليدان كائنا ما كان ، وليس فى صفقته شائبة الخسران . فإذاً تلك اللقمة والشربة خير مما فى الدنيا بألف رتبة ، مع أنهما فى طرف الثمام ، ينالهما متى شاء من الليالى والأيام . أو قدر أنه قد احتبس عليه النفس فلا دخل منه ما خرج ، ولا خرج منه ما ولج ، والحين قد حان ، وأتاه الموت من كل مكان ، أما يعطى ذلك كله بمقابلة نفس واحد ؟ بل يعطيه وهو لرأيه حامد . فإذاً هو خير من أموال الدنيا بجملتها ومطالبها برمتها ، مع أنه قد أبيح له كل آن من آنات الليالى والأيام ، حال اليقظة والمنام . هــذا من الظهور والجلاء بحيث لا يكاد يخفى على أحد من العقلاء . وإن رمت العثور على حقيقة الحق ، والوقوف على كل ما جل من السر ودق ، فاعــلم أن الإنسان بمقتضى حقيقته الممكنة بمعزل عن استحقاق الوجود وما يتبعه من الكمالات اللائقة والملكات الرائعة ، بحيث لو انقطع ما بينه وبين العنايات الإلهية من العلاقة لما استقر له القرار ، ولا اطمأنت به الدار ، إلا فى مطمورة العدم والبوار ، ومهاوى الهلاك والدمار . لـكن يفيض عليه من الجناب الأقدس ، تعالى شأنه وتقدس ، فى كل زمان يمضى ، وكل آن يمر وينقضى ، من أنواع الفيوض المتعلقة بذاته ووجوده وسائر صفاته الروحانية والنفسانية والجسمانية ما لا يحيط به نطاق التعبير ، ولا يعلم به إلا العليم الخبير . وتوضيحه أنه كما لا يستحق الوجود ابتداء لا يستحقه بقاء ، وإنما ذلك من جناب المبدأ الأول عز وجل . فكما لا يتصور وجوده ابتداء ما لم ينسد عليه جميع أنحاء عدمه الأصــلى ، لا يتصور بقاؤه على الوجود بعــد تحققه بعلته ما لم ينسد عليــه جميع أنحاء عدمه الطارىء ، لأن

الاستمرار والدوام من خصائص الوجود الواجبي . وأنت خبير بأن مايتوقف عليه وجوده من الأمور الوجودية التي هي علله وشرائطه وإن وجب كونها متناهية لوجوب تناهي ما دخل تحت الوجود، لـكن الأمور العدمية التي لهـا دخل في وجوده ليست كذلك، إذ لا استحالة في أن يكون الشيء واحد موانع غير متناهية، وإنما الاستحالة في دخولها تحت الوجـود . فارتفاع تلك الموانع التي لا تتناهى أعنى بقاءها على العدم مع إمكان وجودها في أنفسها في كل آن من آنات وجـوده، نعم غير متناهية حقيقة لا ادعاء ؛ وكذلك في وجودات علله وشرائطه القريبة والبعيدة ابتداء وبقاء ؛ وكذلك في كمالاته التابعة لوجوده . فاتضح أنه يفيض عليه كل آن نعما لا تتناهى من وجوه شتى .

فسبحانك سبحانك ما أعظم سلطانك ، لا تلاحظك العيون بأنظارها ، ولا تطالعك العقول بأفكارها ، شأنك لايضاهى وإحسانك لايتناهى . ونحن في معرفتك حائرون ، وفي إقامة مراسم شكرك قاصرون . نسألك الهداية الى مناهج معرفتك ، والتوفيق لأداء حقوق نعمتك ، لا نحصى ثناء عليك ، لا إله إلا أنت ، نستغفرك و نتوب اليك » . انتهى .

ولنقتصر على هذا ، ولعل فيه مقنعا وكفاية لمن أراد أن يسعد نفسه وتسعد به أمته . جعلنا الله ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه بمنه وكرمه ؟

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء

الاجمال في الطلب

قال العتابي : إن طلبت حاجة الى ذى سلطان فاجمل في الطلب اليه ، وإياك والالحاح عليه ، فان الحاجة تكلم عرضك ، وتريق ماء وجهك ، فلا تاخذ منـه عوضا لما ياخذ منك ، ولعل الالحاح يجمع عليك إراقة ماء الوجه ، وحرمان النجاح ، فانه ربما مل المطلوب اليه حتى يستخف بالطالب . وقال شاعر :

إن كنت طالب حاجة فتجمـل ... فيها بأحسن ما طلبت وأجمـل
إن الـكريم اخا المروءة والنهى ... من ليس في حاجاته بمثقل

باب الأسئلة والفتاوى

النظر الى الصور — الزنا بخالة الزوجة أو أمها

شرح آية — القصص الخيالية

ورد الى المجلة هذه الاسئلة :

١ — هل النظر الى الصور الفوتوغرافية الزيتية وصور الخيالة (السينماتواجرف) حرام أم مباح ؟

٢ — رجل تزوج بامرأة ثم زنى بخالتها أو أمها أو عمتها : هل تحرم عليه ؟ وما قولكم فى قول « ولا يحرم الحرام الحلال » ؟

٣ — عن شرح قول الله سبحانه وتعالى : « ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهانَ ربه » وشرح قوله تعالى : « أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غيرِ أولى الإِرْبَة من الرجال » .

٤ — هل القصص الخيالية ضرب من الكذب الممنوع شرعا ؟

الجواب

١ — **النظر الى الصور :**

النظر الى الصور المصورة بشكل مخل بالآداب ومؤد الى ارتكاب ما لا يليق شرعا ، حرام . وإذا كان مع هذا اختلاط الرجال بالنساء فهو أشد حرمة ، كالموجود فى دور الملاهى . أما الصور التى لا ظل لها من صور الانسان أو الحيوان مطلقا فلا شىء فى النظر اليها . وأما الصور التى لها ظل فتصويرها حرام إن كانت صوراً كاملة ، وإن كانت ناقصة فلا إن كانت لا تعيش مع ذلك النقص .

٢ — الزنا بخالة الزوجة أو أمها :

الزنا بغير الأم للزوجة وبنتها لا يحرّم المرأة ، وإنما الذى يحرّم عند الحنفية هو الزنا بأم المرأة وبنتها ، فعندهم وطء المرأة بالنكاح كوطئها زنا يوجب حرمة المصاهرة . يعنى أن من زنى بامرأة حرم عليه أصولها وفروعها ، وحرمت هى على أصوله وفروعه ، كوطء امرأته . واستدلوا على ذلك بالكتاب وهو قوله تعالى : «ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء» قالوا : أى لا تطئوا ما وطئ آباؤكم ، لأن النكاح حقيقة فى الوطء مجاز فى العقد ، ولا وجه هنا للعدول عن الحقيقة الى المجاز بدون داع يدعو اليه ، فتقييد الوطء بالحلال زيادة على النص ، والزيادة نسخ ولا ينسخ الكتاب إلا بمكافئ له ، ولم يوجد .

واستدلوا أيضا بالقياس — قالوا : إن العلة فى ثبوت حرمة المصاهرة المتقدمة هى الوطء من حيث كونه سببا للولد الذى هو جزء من الواطئ ومن الموطوءة ؛ وأما وصف الحل فلا أثر له فى التحريم فهو ملغى . وبيان إلغائه أن وطء الأمة المشتركة والمجوسية ووطء الحائض والنفساء ووطء المحرم والصائم كل ذلك حرام وتثبت به حرمة المصاهرة ، فالوطء الحرام يشارك الوطء الحلال فى المعنى المناسب لثبوت حرمة المصاهرة وهو كونه سببا لجزئية الموطوءة للواطئ وجزئية الواطئ للموطوءة ، الذى يجعل أصول الواطئ وفروعه كأصول الموطوءة وفروعها ، ويجعل أصول الموطوءة وفروعها كأصول الواطئ وفروعه . وبيان ذلك أن الولد جزء الواطئ : أما بعضه فهو جزء له حقيقة ، والبعض الثانى جزء له حكما ، بدليل إرثه منه وغير ذلك من الأحكام المترتبة على نسبته اليه بتمامه . وما قيل فى جزئية الولد للواطئ يقال فى جزئية الولد للموطوءة .

ومتى ثبتت جزئية الولد من كل منهما ثبتت جزئية بين الرجل ونفس المرأة ، لأن الولد جزء منها وجزء منه ، فيكون جزء المرأة جزء الرجل وجزء الرجل جزء المرأة .

نشأ من هذا أن صارت أم الموطوءة كأم الواطئ ، وبناتها كبناته ، وأن صار أبو الواطئ كأب الموطوءة وابنه كابنها ، وهذا كله بواسطة الوطء الذى أتى بجزئية

الولد . وكان مقتضى هذا أن تحرم المرأة نفسها ، لأن الاستمتاع بالجزء حرام ولكن أبيحت للضرورة ، لئلا يفسد باب الزواج . ومذهب الحنفية مذهب كثير من الصحابة رضى الله عنهم .

وأما الشافعية رضى الله عنهم فقالوا : إن الزنا لا يوجب حرمة المصاهرة . ومذهبهم أيضا مذهب جماعة من الصحابة رضى الله عنهم . ومن أدلتهم قوله عليه الصلاة والسلام : «لا يحرم الحرام الحلال» . وقد أجاب الحنفية عن هذا بأجوبة — منها أننا نقول بموجب هذا الحديث ونقول : لا يحرم الحرام الحلال من جهة كونه حراما ، وما أثبتنا التحريم بالزنا من جهة كونه حراما ، وإنما أثبتنا التحريم به من جهة كونه سببا فى الجزئية التى يترتب عليها التحريم فى الوطء الحلال .

شرح آية :

الهم يطلق ويراد به القصد والإرادة مطلقا ، ويطلق ويراد به القصد الجازم الذى معه عقد القلب على الفعل عقدا ثابتا . فالهم المنسوب الى يوسف عليه الصلاة والسلام هو بالمعنى الأول . دليله حاله : من الهرب ، والجرى الى الباب ، وقوله تعالى فى شأنه : « إنه من عبادنا المخلَصين » . والمراد المعنى الثانى من همها . ودليله أيضا حالها . فالهم من قبله هو الميل الطبيعى الذى ليس معه عقد القلب على الفعل . والهم من قبلها ما معه ذلك العقد القلبي على الفعل ، والأول لا يدخل تحت التكاليف .

وقال بعض المفسرين : الهم من قبله معناه الخاطر الذى يخطر على القلب وليس معه ميل طبيعى ، وأما من قبلها فهو القصد والعقد القلبي . وكل من المعنيين معنى للهم . والأدلة على إرادة المعنى الأول بالنسبة ليوسف عليه السلام حاله كما تقدم ، وعلى إرادة المعنى الثانى بالنسبة لها حالها .

وبناء على هذين الرأيين يكون جواب لولا محذوفا ، تقديره : لولا أن رأى برهان ربه لجرى على مقتضى ميله الطبيعى وخاطره .

وقال بعض آخر من المفسرين : إن الهم المنسوب الى يوسف عليه السلام هو بمعنى الهم المنسوب اليها ، ولكن الهم المنسوب اليه منفي عنه بمقتضى قاعدة لولا ، لأن جواب لولا قوله تعالى : « هم بها » والواو داخلة على لولا ، ولولا ينفي جوابها لوجود شرطها ، والمعنى : ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها . فيكون جواب لولا هو المتقدم على رأى الكوفيين المجيزين تقدم الجواب على الشرط ، وعلى رأى البصريين فالمتقدم دليل الجواب . وعلى كل تفسير متعلق الهم هو المخالطة ، لأن الهم لا يتعلق بالذوات .

ومعنى الآية الموجودة فى السؤال الثالث وهى قوله تعالى : « ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أوآبائهن أوآباء بعولتهن » الى آخر الآية . المعنى — والله أعلم — أن الله سبحانه وتعالى نهى النساء عن إبداء محلات الزينة لكل شخص ، وعبر عن المحلات بالزينة للمبالغة فى النهى . والمراد المحلات المستورة فى العادة ، لأن الظاهرة تقدم حكمها من عدم النهى عن إبدائها ، مثل الكفين والقدمين والوجه .

والمحلات الخفية هى الرأس والرقبة والساق والزراع . هذه هى محلات الزينة الخفية . وقد استثنى الله سبحانه وتعالى أشخاصا لا تنهى المرأة عن إبداء تلك المحلات المذكورة لهم ، وهم البعولة أى الأزواج ، وآباء النساء ، وآباء البعولة ، وأبناء النساء ، وأبناء البعولة ، وأخوات النساء ، وبنو الإخوان ، وبنو الأخوات . واستثنى أيضا النساء اللواتى ينسبن اليهن بقوله تعالى : « أونسائهن » والنسبة بالصداقة والخدمة . قال المفسرون : والمراد المؤمنات لأن الكافرة لا تمتنع من إبداء أوصافها للرجال الأجانب الذى يوقع فى الفتنة . واستثنى الله سبحانه وتعالى ماملكت أيمانهن من الإماء بقوله : « أوماملكت أيمانهن » . قال بعض المفسرين : المراد « بما » الإماء فقط . وقال بذلك الحنفية وبعض الشافعية — قالوا : لأن الذكور من المماليك كالأجانب فالشهوة فيهم كاملة ، لأنهم ليسوا أزواجا ولا من المحارم ، ولا حرج فى عدم الإبداء لهم لأنهم يعملون خارج المنزل ، ومناط حل الإبداء لغير الزوج من المذكورات عدم الشهوة والضرورة .

وقيل المراد «بما» هم الذكور والإناث من المملوكين، لعموم ما، وهو مذهب جماعة من الصحابة. وظاهر كلام الألوسى فى روح المعانى اختيار هذا.

واستثنى سبحانه وتعالى التابعين الذين لا إربة لهم فى النساء. والتابعون هم الذين يتبعون القوم ليصيبوا من فضل طعامهم؛ وغير أولى الإربة هم الذين لا حاجة لهم بالنساء ولا يعرفون شيئا من أمورهن، بحيث لا تحدثهم أنفسهم بفاحشة، ولا تحدثهم بوصفهن للأجانب.

واستثنى سبحانه وتعالى الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء؛ ومعنى لم يظهروا على عورات النساء، المراد هنا — والله أعلم — لم يعرفوا منها العورة ولم يميزوا بينها وبين غيرها من أجزاء الجسم. وهذا معنى كنائى لأن المعنى الحقيقى لقوله تعالى: « لم يظهروا » لم يطلعوا، وهذا ليس مرادا.

والطفل الذى حاله ما ذكر يعرفه جميع الناس، فلا حاجة الى بيان سنه. وقد وصف الطفل وهو مفرد بالجمع وهو الذين، لأنه محلى بأل الجنسية فيعم.

٤ — القصص الخيالية:

القصص الخيالية التى لا حقيقة لها إن كانت قصصا لا تثير شهوة، وليست مما يخل بالآداب الشرعية، ولا تدعو الى ارتكاب محرم، بل منها عبر لمن يتلوها ويسمعها، ومنها مساعدة على تنمية العقل والفكر، ومنها مساعدة على الابتعاد عما يضر وعلى الاقتراب مما ينفع، ومنها تعليم كيف لا يخدع، وكيف يعمل العمل الذى لا يرد لإتقانه، هذه وإن كان ظاهرها الكذب لكن كذب لا يضر بل فيه تلك المصلحة التى سمعتها، ومنها إعانة على تعلم صناعة الكتابة والشعر، فهى جائزة كالمقامات للحريرى وللهمذانى، والموجودة فى كليلة ودمنة وغير ذلك مما لا فائدة فيه، أو يخل بالآداب الشرعية ومثير للشهوة، فهذه غير جائزة. قنديل قنديل، عبد السلام شرف

صلاة الليل

وورد الى إدارة المجلة ما يأتى :

١ — يوجد شخص ببلدتنا صاالحجر مركز كفر الزيات غربية يدعى العلم ، وسمعته يفتى الناس بقوله : إن المتنفل إذا زاد فى تنفله ليلا عن عشرين ركعة فإنه يأثم على هذه الزيادة وعمله مردود عليه لأنه زاد عن فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مستدلا على ذلك بأن النبى عليه الصلاة والسلام ورد عنه أنه صلى مرة ثمانى ركعات ، وفى رواية أخرى اثنتى عشرة ركعة ، ومجموع ذلك عشرون ركعة . فهل هـذه الدعوى توافق الشرع الشريف أم لا ؟ وإذا لم توافق الشرع فنطلب من فضيلتكم الاستدلال التام على بطلان ادعاء هذا الشخص مع البراهين الكافية .

٢ — وأيضا نطلب من فضيلتكم صحة لفظ حديث : « لا أخاف على أمتى من المسيخ الدجال ولـكن أخاف عليها من دجالين » الخ

ابراهيم محمد حسن فايد
من صاالحجر غربية

الجواب

١ — صلاة الليل :

إن صلاة الليل مندوبة ، والـكثرة من غير تحديد مشروعة . وها هى ذى الأحاديث التى تفيد ذلك : عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الصلاة أفضل بعد المكتوبة ؟ قال : « الصلاة فى جوف الليل » . وفى الترمذى عن بلال قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم » . وفى ابن ماجه عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار » . وفى الطبرانى عن جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم : « لا بد عن صلاة الليل ولو حلب شاة » . وفى ابن ماجة عن أبى سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله ليضحك الى ثلاث : للصف فى الصلاة ، وللرجل يصلى فى جوف الليل

وللرجل يقابل الكتيبة » وفى أوسط الطبرانى عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن شرف المؤمن قيام الليل » . وفى الترمذى عن عمرو بن عبسة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «أقرب ما يكون الرب من العبد فى جوف الليل الآخر ، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله فى تلك الساعة فكن » .

فهذه الأحاديث تدل على تأكيد استحباب قيام الليل ومشروعية الاستكثار من الصلاة فيه . واقتصار النبى صلى الله عليه وسلم على ثمان ركعات أو على اثنتى عشرة ركعة لا يقضى بأن ما فوقها ليس بمشروع ما دامت هذه الزيادة من نوع العبادة ، لأنها مأمور بها ندبا بالأدلة المتقدمة غير المقيدة بعدد .

لفظ الحديث :

والجواب عن لفظ الحديث فنقول: المذكور فى الجامع الصغير: «غير الدجال أخوف على أمتى من الدجال : الأئمة المضلون » . قنديل قنديل ، عبد السلام شرف

النفقة على الزوجة والاولاد — خلف الوعد

القرض فى الطعام

وورد الى ادارة المجلة هذه الأسئلة :

١ — رجل تجرد لعبادة الله سبحانه وتعالى ومشى فى البلاد يعظ الناس ويرشدهم الى طاعة الله ويأخذ عليهم العهود على ذلك ، وترك زوجه وأولاده الإناث بلا نفقة ولا منفق ولا ملك لهم يعيشون منه ، بل تضطرهم الحالة لأن يشتغلوا عند الأجانب طلبا للمعيشة فضلا عن اشتياقهم اليه ليتمتعوا برؤيته ومؤانسته خصوصا زوجه ، وإن رزق شيئا أرسله اليهم وإلا فلا يهمه حالهم . فهل تقوى هذا الرجل تعتبر من أسباب طلب الرزق

ويكون داخلا ضمن المتقين الذين قال الله فيهم : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب » ولا حرج عليه ، أم يكون مخالفا لما ورد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية من طلب السعى على المعاش والاكتساب والاحتراف ، وما كان عليه السلف الصالح من الكد فى طلب المعاش ، ووجوب الانفاق على الأولاد المعسرين والزوج ؟

٢ — اتفق قوم على أمر ينفذونه وقرءوا الفاتحة على ذلك ثم لم ينفذوا ذلك الأمر . فهل يلزمهم عن قراءة الفاتحة شيء من المكفرات لاعتبارها ـ كما يقولون ـ بأربعة وأربعين يمينا ، أم يكون عدم تنفيذهم للأمر الذى اتفقوا عليه عدم وفاء بالعقود المأمور بها شرعا ، ويلزمهم التوبة والاستغفار فقط ؟

٣ — بدا صلاح زراعة فدان ذرة بملكى فقطعناه وقشرناه ووجدت الناس فى حالة احتياج للقوت وليس معهم نقود ، فأقرضتهم زراعة نصف الفدان الذرة حتى إذا قطعوا زراعة الذرة التى لهم يردون بدل ما اقترضوه منى كيلا بمثله كما اقترضوا . فهل يكون هذا القرض داخلا فى الربا حيث إنه من المطعومات والى أجل ، أم يكون قرضا حسنا وأوجر على ذلك ؟ وإذا كان الأول فما الحيلة فى الحل وقد صرفت زراعتى ناويا إعانة المحتاجين ؟ أرجو الإفادة .

سيد محمد جاد

ماذون الشرع بكفر برى

الجواب

١ — النفقة على الزوجة والأولاد :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله :

نفقة الزوجة واجبة على زوجها ، ونفقة الأولاد الذكور المعسرين واجبة على أبيهم الى بلوغهم قادرين على الكسب ، ونفقة الإناث واجبة عليه أيضا الى أن يدخل الزوج بهن أو يدعى للدخول . والنفقة فى النوعين واجبة بالإجماع .

ولا يُسقط وجوبَ النفقة غيبة من تجب عليه ، بل النفقة فى ماله إن كان له مال حاضر، وإلا أرسل اليهم من المال ما يكفى حوائجهم ويدفع عنهم الضرر ومذلة السؤال . فالذى يفارق بلده الى غيره ليعظ الناس ويأخذ عليهم العهد بالطاعة تاركا زوجته وأولاده بلا نفقة ولا منفق ، آثم ، لأنه ترك النفقة الواجبة عليه شرعا ، وهو مع تلك الحالة لا يعد من المتقين ، لأن الوعظ وأخذ العهد على الناس لا يرفع العصيان بترك النفقة عليهم مع قدرته عليها . والله أعلم .

٢ — **خلف الوعد** :

إذا اتفق جماعة على تنفيذ أمر وقرءوا الفاتحة على تنفيذه ولم ينفذوه ، فلا يلزمهم شىء من المكفرات عن قراءة الفاتحة ، وإنما يكون عدم تنفيذهم لذلك الأمر خلف وعد ، وخلف الوعد إن كان مقصودا حال الوعد كان محرما ، فيتوب منه ويستغفر ؛ وإن لم يكن مقصودا حال الوعد وحصل لغير عذر كان مكروها لا ينبغى ارتكابه ، وإن حصل لعذر فلا كراهة . والله أعلم .

٣ — **القرض فى الطعام** :

إذا أقرض شخص غيره مقدارا من الطعام ذرة أو غيرها لينتفع به المقترض ويرد للمقرض مثله كيلا أو وزنا عند يسره ، كان ذلك قرضا حسنا يثاب عليه المقرض حيث كان النفع للمقترض خاصة . والله أعلم . حسن على مرزوق على ادريس المالكى
بكلية الشريعة الاسلامية

عذاب القبر — شرح آيتين — أعلام المنبر وسيف الخطيب

الأذان وقت الدفن — وطء المرأة قبل الاغتسال من الحيض — ترك صلاة الجماعة

ووردت هذه الاسئلة :

١ — هل يقع عذاب القبر على الروح فقط أم على الجسم أم عليهما ؟

٢ — ما معنى قول الله سبحانه وتعالى : « كل يوم هو فى شأن » ؟

٣ — ما معنى قوله سبحانه وتعالى : « سنفرغ لكم أيها الثقلان » ؟

٤ — هل من الجائز رفع الأعلام حول المنبر وقت الخطبة ، وهل ورد شىء فى الامساك بالسيف الخشب وقت الخطبة ؟

٥ — هل الأذان وقت دفن الميت مشروع ؟

٦ — هل يصح للرجل أن يجامع امرأته بعد انقطاع دم الحيض قبل الغسل ؟

٧ — ما حكمكم فيمن رأى جماعة ولم يصل معها وصلى منفردا ؟

الجواب

١ — عذاب القبر :

عذاب القبر للروح والجسم . والأدلة السمعية ظاهرة فى ذلك ، منها قوله تعالى : «النار يُعرَضون عليها غُدوًّا وعَشِيًّا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب » . وقال تعالى : « أُغرقوا فأُدخلوا نارا » وفى الصحيحين وغيرهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له : ما كنت تقول فى هذا الرجل ؟ (محمد) فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقال له : انظر الى مقعدك من النار قد بدّلك الله به مقعدا من الجنة — قال النبى صلى الله عليه وسلم : فيراهما جميعا . وأما الكافر والمنافق فيقول :لا أدرى كنت أقول مايقول الناس فيه ، فيقال له : لا دريت ولا تليت ، ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين .

وفى الصحيحين أيضا أنه صلى الله عليه وسلم مر بقبرين فقال : « إنهما ليعذّبان وما يعذبان فى كبير ، ثم قال : بلى : أما أحدهما فكان يمشى بالنميمة ، وأما الآخر فكان لا يستبرئ من بوله» .

وفى الصحيحين أنه استعاذ من عذاب القبر. وقال عليه الصلاة والسلام وهو — فى الصحيحين — قوله تعالى: « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » نزلت فى عذاب القبر، إذ قيل له: من ربك ومادينك ومن نبيك؟ فيقول: ربى الله ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم » وعنه صلى الله عليه وسلم « القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار » وكثير من الأحاديث الواردة فى هذا المعنى وكلها يدل على أن من فى القبر هو المعذب والموجود فى القبر الجسم والجسم لا يعذب بدون روح تدرك الألم واللذة.

ولا مانع من جهة العقل يمنع من أن يخلق الله فى الجسم حياة بقدر إدراك اللذة والألم، وليس يلزم فى الحياة البرزخية ما هو لازم فى الحياة الدنيا من مشاهدة تحرك الجسم واضطرابه مثلا.

٢ — شرح آية:

معنى قول الله سبحانه وتعالى: « كلَّ يوم هو فى شأن » والله أعلم — أنه سبحانه وتعالى له فى كل لحظة شأن وحال من رزق وخلق وإماتة، وإنبات زرع، وإنماء شجر، وإبلاغ ثمر منتهاه، وإجابة سؤال سائل، وغير ذلك من الشئون التى تقتضيها حكمته وعلى مقتضى علمه، أى له شئون كثيرة، ومنها إجابة ما تسألونه، ليرتبط بقوله تعالى: « يسأله من فى السموات والأرض ».

٣ — شرح آية:

معنى قوله سبحانه وتعالى: « سنفرغ لكم أيها الثقلان » والله أعلم — سنشرع فى جزائكم فقط بعد انتهاء شئون الدنيا المشار اليها بقوله تعالى: « كلَّ يوم هو فى شأن ». وهذا المعنى وإن لم يكن هو المعنى الحقيقى للفراغ للشىء، ولكن يجب المصير اليه على طريق المجاز، لأن المعنى الحقيقى للفراغ للشىء يستحيل على الله سبحانه وتعالى، لأن معناه التخلص من شىء، من شاغل يشغل، الى شىء آخر، لأن الله لا يشغله شأن عن شأن، وإنما اختير — والله أعلم — التعبير بالمجاز لما فيه من التهديد ما ليس فى التعبير

بالحقيقة ، لأن المخبر إذا أخبر بأنه شرع فى جزاء فقط يشبه ذلك الشروع الأخذ فى عمل بعد التخلص من عمل كان يشغله عن العمل الذى شرع فيه ، يكون مهددا لمن له ذلك الجزاء ، كأنه فرغ من كل شىء لأجل ذلك ، فإذا سمع هذا من يراد إخباره أقلع الطالح عن عمله وتمادى الصالح فى عمله .

٤ — أعلام المنبر وسيف الخطيب :

رفع الأعلام حول المنبر وقت الخطبة لم يرد به نص من الشارع ولا أثر من الصحابة ، ولكن إن كان هذا لا يؤدى الى اعتقاد أنه سنة فلا بأس به ، وأما الاتكاء على السيف وقت الخطبة فقد نص الحنفية فى كتبهم على أنه مندوب فى كل بلدة فتحت عنوة وغير مندوب فى بلدة فتحت صلحا .

٥ — الأذان وقت الدفن :

ليس الأذان وقت إدخال الميت القبر مشروعا ، فهو بدعة ، فإن أدى الى اعتقاد العوام سنيته أو ندبه فهو مكروه ، لأنه يكون وسيلة الى اعتقاد ما ليس بسنة سنة .

٦ — وطء المرءة قبل الاغتسال من الحيض :

إذا انقطع دم الحيض لأكثر مدة الحيض (عشرة أيام) حل الوطء بدون غسل ، ويكون تاركا للمندوب فقط .

وإن انقطع لأقل من العشرة ، فإن انقطع لعادتها لا يحل وطؤها حتى تغتسل ، أو يمضى عليها وقت صلاة تكون الصلاة دينا فى ذمتها .

وإن لأقل من العادة ينتظر مضى زمن العادة وتغتسل بعد ذلك أو تصير الصلاة دينا فى ذمتها بعد مضى زمن العادة .

٧ — ترك الجماعة الى الانفراد :

الجماعة سنة مؤكدة ، وقيل واجبة ؛ فمن ترك الجماعة بدون عذر مبيح للترك يأثم إثم ترك الواجب أو السنة المؤكدة . قالوا : وإذا تمادى على ذلك عزره الحاكم .

قنديل قنديل عبد السلام شرف

مسألة فى القراض

جاءنا من الكويت ما صورته بعد الديباجة :

الحمد لله ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

أما بعد : فما قول العلماء الأعلام ، هدى الله بهم الأنام ، فيمن دفع كمية من الدراهم باسم القراض لعامل يعمل فيها على طريق المضاربة ، فاستمر العامل يعمل فيها قدر أربع عشرة سنة ، وكل سنة يدفع العامل لرب القراض قسطا من الدراهم . وفى يوم من الأيام جاء رب القراض للعامل وطلب منه أن يدفع له مبلغا من رأس المال ، فقال العامل : ليس عندى شيء أدفعه لك الآن ، فقال رب المال : أين ذهب المال ؟ فقال : عندى مال ولى على الناس ديون وللناس علىّ أيضا ديون ، فطلب رب القراض من العامل أن يطلعه على الدفاتر ، فلبى العامل دعوته . فقاما من الدكان قاصدين البيت لأجل النظر فى الدفاتر ، فبينما رب القراض يمشى أمام العامل إذ وقع بصره على ابن العامل يحمل صرة من الدراهم ، فلما رآه أراد أن يتوارى عنه ، فأمسكه فى الحال وأخذ الصرة منه ، فقال الولد : هذه الدراهم أمانة لفلان وضعها عندنا وليست لنا ، فلما جاء العامل قال : هذه ٨٠٠ روبية لعمرو وضعها عندنا أمانة قبضت باسمه (عمرو) من خالد . فلما عُدّت وجدوها ٩٠٠ روبية ، فسألوا العامل عن المائة الزائدة فقال : وضعتها عليها من الصندوق حين أردت إخراجها منه . فلما كشفوا على الدفتر وجدوا مقيدا فيه عندى لعمرو ٨٠٠ روبية مقبوضة من خالد ، فكأن قبضها من خالد ثابت عن الجميع : رب القراض وغيره .

ومن الغد رفع الأمر للحاكم ، فحجر عليه . وبعد الحجر عليه أقر (العامل) أمام رجلين من التجار الذين لهم عليه بعض الطلب : إنما هى عندى لأنتفع بها ، وهم من المعتبرين .

مع أنه ينكر ذلك ويقول : إنما كنت أقول : ما قدرت أن أنتفع بها .

هذا صورة الواقع . فهل تعيين العامل الأمانة قبل الفلس يقبل فيختص بها دون الغرماء ، أم لا يقبل فيكون أسوة الغرماء ، مع أن الذى وجد فى يد العامل بعد الحجر يزيد على الديون الخارجة عن القراض ، ويكون الباقى من القراض إذا أضيف الى الذى دفع لرب القراض باسم المصلحة خلال السنين الماضية يزيد على رأس المال بكثير ؟ وهل إقرار العامل بعد الحجر أمام الرجلين بقوله : هى عندى أنتفع بها ، يضر بالإقرار الأول أم لا ؟ أفتونا مأجورين ؟ أحمد بن محمد الغانم . الجبر الكويت — خليج فارس

الجواب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

وبعد : فقد نُص فى مذهب مالك رضى الله عنه فى باب القراض والفلس على ما يأتى :

أولاً — عامل القراض أمين فيما تحت يده من المال الذى يعمل فيه ولو لم يكن أمينا فى الواقع ، لأن رب المال ائتمنه عليه ، فيده يد أمانة ، فليست كيد الغاصب . ولذلك كان مصدقا بيمين إذا ادعى تلف رأس المال أو خسرانه ، إلا أن تشهد العادة بكذبه فلا يصدق .

ثانيا — من أقر بوديعة بعد تعيينها ، كأن قال : هذا المال وديعة بعد إفرازه ، فإنّ إقراره يقبل ويختص رب الوديعة بها فلا يحاصص فيها الغرماء . وإنما يقبل إقراره هذا إن شهدت بينة بأصلها : بأن قالت : نشهد أن فلانا عنده وديعة لفلان ، وإن لم تعينها . ولا فرق فى قبول الإقرار حينئذ بين أن يكون صادرا من المقر فى حال صحته أو مرضه . فإن لم تشهد بينة بأصلها ، فإن كان إقراره قبل الفلس قُبل ، سواء أكان فى حال الصحة أو المرض ؛ وإن كان بعد الفلس فلا يقبل ، فلا يختص بها المقر له .

ثالثا — يعمل فى مذهب مالك بالقرائن . ومن ذلك الاعتماد عليها فى حلف أولياء الدم أيمان القسامة . فإذا حلفوا استحقوا القصاص من القاتل . وقد مثلوا لذلك بما إذا وجد

شخص يجرى فى زقاق ، ثم وجد بداخل هذا الزقاق شخص يتشحط فى دمه ويقول : دمى عند فلان (يعنى ذلك الهارب) . فإن قوله هـذا مع وجود الهارب بهـذه الحالة يعتبر لوثا (أى قرينة) على أن ضاربه هو هـذا الشخص . فإذا مات المضروب حلف أولياؤه أيمان القسامة ، معتمدين على هذه القرينة ، واستحقوا دم هذا المسمى .

ومن ذلك قولهم فى اليمين : «واعتمد البات على ظن قوى» . أى أن الشخص يجوز له أن يحلف على القطع معتمدا على ظن قوى . ومدار الظن القوى على القرائن المثيرة له .

ومن تَتبّع السياسة الشرعية وما فيها من الحوادث ، كما يعلم بالاطلاع على تبصرة الحكام لابن فرحون ، لا يتردد فى أن القرائن مبنَى كثير من الأقضية الشرعية . ولابن القيم كتاب قيم جدا فى السياسة الشرعية أبان فيه صحة الحكم بالقرائن ، وأقام الدليل على ذلك من السنة .

ولا غرو فمدار الفروع على الظن الغالب ، والقرائن تفيده . والحكمة التى تقتضيها روح الشريعة توجب مراعاة القرائن وعدم إهمالها ، إذ لولا ذلك لضاع كثير من الحقوق واختل نظام المجتمع الانسانى .

هذا ومنه يتضح أن عامل القراض فى الحادثة المسئول عنها مصدق فى إقراره بالوديعة التى لعمرو وقد قبضها من يد خالد ، لأن إقراره كان قبل الحجر عليه . هذا هو مقتضى كون يده يد أمانة على ما قررناه . غير أنه قد اكتنف ذلك الإقرار أمور تكاد تقضى عليه بالاتهام فيه . بل هذه الأمور لا تدع الفقيه يتردد فى أنه إقرار كاذب قصد به الإساءة الى رب القراض باختزال جزء من ماله لنفسه . تلك الأمور هى :

أولاً — مسارعة ولد العامل حينما أحس بأن رب القراض سيطلع على ما فى صندوق التجارة من النقود من مسارعته الى أخذ هذه الصرة قبل فتح الصندوق . ولو كانت هذه الصرة لمن أقر له العامل لم يدبر هذه الحيلة ، وكان يكفيه إن كان صادقا فى أنها وديعة أن ينبه عليها بعد فتح الصندوق ، لا سيما وهى مقيدة بدفاتر التجارة .

ثانيا — محاولة الاختفاء والهرب بها حينما رآه رب المال .

ثالثا — قول العامل بعد : « إنما هى عندى لأنتفع بها » مع ثبوت ذلك بشهادة المعتبرين كما جاء فى الاستفتاء . وإنكاره صدور ذلك القول منه وتحريفه الى قوله : « إنما قلت وما قدرت أن أنتفع بها » لا يفيده بعد شهادة المعتبرين بالعبارة الأولى .

رابعا — وجود ما فى الصرة زائدا على ما أقر به العامل ودفاعه عن ذلك بقوله : « قد وضعت عليها مائة مما فى الصندوق » مما يقوى الشبهة نحوه ، لأنه ما وضع عليها ذلك إلا بقصد اختلاسه لنفسه إن كان صادقا فى أصل الوديعة .

لذلك نرى أنه إن شهدت بينة بأن هـذا العامل عنده وديعة لعمرو قبل إقراره واختص المقر له بها ؛ وإن لم تشهد بينة بهذا فلا يقبل إقراره وإن كان قبل الحجر عليه لقيام القرائن على كذبه ، وتكون كبقية المال : للغرماء غير المقر له أن يتحاصوا فيها . وقول المستفتى إن ما بيده يزيد على المطلوب منه ، وهو ما أشار إليه بقوله : «مع أن الذى وجد فى يد العامل بعد الحجر يزيد على الديون الخ » قوله هذا يفيد أن العامل لا يستحق الحجر عليه ، فإن مستحقه هو من أحاط الدين بماله بأن زاد على ماله أو ساواه . فهذا هو الذى يحجر عليه فى التصرف للمحافظة على حقوق الدائنين . ولا يؤثر هذا القول فى اتهام العامل فى هذا الإقرار حيث لم تشهد بينة بأصل الوديعة ؛ بل يقال إن هذه الوديعة إذا بطل الإقرار بها احتسبت من مال القراض ، وكان لربه أن يستكمل منها رأس ماله وما يخصه من الربح بعد أداء الديون التى لها علاقة بهذه التجارة .

وليعلم أنه لا عبرة بكتابة الوديعة فى دفاتر التجارة بعد هذا الاتهام ، لأنه والحالة هذه لا يبعد أن تكون الكتابة مصطنعة من العامل قصد بها الحيلة على صحة إقراره بعد هـذا .

نسأل الله أن يرزقنا الصدق فى القول والعمل ، وأن يجنبنا مواقع الزلل بمنه وكرمه ؟

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء

زيارات فضيلة الاستاذ الاكبر

لأقسام الأزهر وكلياته

تفضل حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر فزار أقسام الازهر وكلياته في شهر مايو الماضي متفقدا أحوال الطلبة وسير الدروس فيها، فكان في زياراته هذه أكبر الآثار في بث روح النشاط في أصحاب الفضيلة المدرسين، وبعث حياة جديدة في قلوب الطلبة الأنجاب. ومما يحسن أن ندونه في هذه المناسبة خطبة تكرم فضيلته بالقائها في القسم الثانوي بالمعهد الازهري حوت من عيون الحكم وشوارد النصائح ما يجب على كل طالب علم أن يجعله دستورا لما هو بصدده من التلقي والتحصيل، وقد قابلها جمهورهم بما هي جديرة به من القبول والاكبار. وترى مجلة نور الاسلام أن من أوجب واجباتها أن تدون هذه الكلمات القيمة بين صحفها لتكون نصب أعين الطلبة في كل آن.

قال فضيلته عند نهاية زيارته للقسم الثانوي بالازهر وهو في وسط الألوف من مودعيه من علماء وطلاب:

« أردت ألاّ أخرج من بينكم دون أن ألقي اليكم نصحا هو نصح أب أنتم جميعا له أبناء، لكم عليه حق الرعاية والحدب والايثار، وله عليكم حق الاجلال والمودة والاحترام. هذه الحقوق هي حقوق آبائكم عليكم، وآباؤكم هم هؤلاء الأساتذة الذين يربون نفوسكم، ويصيغون عقولكم صياغة نافعة لكم ولدينكم ووطنكم.

« للأساتذة حقوق على الطلبة، ولهؤلاء حقوق على أولئك، ولكم أنتم أيضا حقوق بعضكم لبعض، أما حقوقكم عند أساتذتكم فهم يعرفونها ويقومون بها جهدهم مخلصين مشكورين، وأما حقوقكم نحوهم وحقوق بعضكم نحو بعض فهي التي أوصيكم بها ليكون بعضكم لبعض سندا معينا، ورفيقا أمينا، وابنا عارفا حقوق أبيه ومعلمه، وحافظا يده عنده.

« وأوصيكم أيضا بالتمسك بالدين القويم والخلق المتين، فأنتم مهيئون لأن يكون منكم القاضي والمعلم، والذي يعظ الناس في دينهم ويرشدهم في دنياهم، وسلاح هذا كله هو العلم.

« والعلم علمان : علم نافع ، يوصلك الى ساحة الله ويصلك بأسباب رضاه ، وذلك هو الذى أدعوكم اليه ، وعلم شافع ، هو شافع لك فى أمر دنياك ، ينيلك ما تشتهى من زخرفها وعروض الربح فيها ، وذلك ما أدعوكم الى الحيد عنه .

«أحبوا الله يحببكم ، واعملوا فى رضاه ، واجعلوا كل ما وعيتم من علم وما سعيتم من عمل ، وما وسعتم من جهد ، وما هممتم من تفكير ، اجعلوا كل ذلك خالصا لله وحده ، وذلك هو العلم النافع الذى قال فيه صلى الله عليه وسلم : « من أراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومن أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أرادهما معا فعليه بالعلم » .

« هذه وصيتى لكم . وسيحسن عملكم فيها كما حسن استماعكم لها ، وعندئذ فأنتم أبنائى وأنا لكم أب راض مغبوط بكم .

« ولى عندكم كلمة أخيرة : هى أن يحسن امتثالكم للقوانين التى تشمل معاهدكم ودروسكم وتنظيم أمركم ، مهما يكن اعتراضكم على هذه القوانين ، ومهما تكن شكواكم منها أو من بعضها .

« فهذه القوانين ما دامت قائمة ، يجب أن نعترف لها بحرمة هذه القانونية ، وأن ننزل عند حكمها ، ونوليها من الحفاظ والامتثال ما يجب أن يكون لقانون قائم » .

وقد قابل الطلبة كلمة فضيلته بالهتاف والدعاء . ثم ركب سيارته الى مكتب الرياسة . وجاء بعد ذلك الى الإدارة العامة وفد من علماء المعهد وأساتذته برياسة صاحب الفضيلة الشيخ الضرغامى لشكر فضيلته على هذه الزيارة .

فضيلة الأستاذ الأكبر يشكر

أحدث تولى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى مشيخة الجامع الأزهر سرورا عم جميع الاقطار الاسلامية ، لما علمه الناس جميعا من نزوعه الى الاصلاح المرجو ، وكمال علمه بوجوه تحقيقه ، وبنائه على أقوم دعائمه . لذلك تجاوبت أصداء أصواتهم بتهنئة فضيلته من كل مكان ، وكان أهل الأقطار النائية من السابقين الى الاعراب عن شعورهم نحوه فى هذه المناسبة ، فجاءت رسائلهم تترى حاملة أبلغ العبارات ، وأطيب التمنيات ، وصدرت جرائدهم تنافس جرائدنا فى إطراء فضيلته وذكر مناقبه ، حتى ليمكن أن يقال إنه لم تحدث تولية كبير منصبا ما أحدثته تولية الأستاذ الأكبر الحالى منصبه من الاستبشار الشامل ، والفرح العالمى العظيم .

وقد كان يود فضيلته أن يشكر لكل مهنئ تفضله ، لولا أن ذلك لاسبيل اليه . لذلك كلفنا أن نعرب لحضراتهم عن تقدير فضيلته لشعورهم الطيب أكمل تقدير ، وعن شكره لهم ما تفضلوا به من التهنئة والثناء الجميل ، ضارعا الى الله أن يوفقه لخدمة الاسلام الخدمة التى يرجوها هوله ويرجوها المسلمون ، وأن يعيد للازهر مجده القديم تحت ضوء العلم الجديد .

وفضيلته يرجو أن يعتبر كل مهنئ له هذه الكلمة من الشكر كأنها موجهة اليه خاصة ، راجيا الله أن يوفقهم جميعا الى ما يحبه لهم من الخير العميم ، والوجود الكريم ، وأن يكافئهم على حسن ظنهم بما يكافئ به المخلصين من عباده ، والغيورين من أوليائه . إنه ولى المؤمنين .

فضيلة الشكر

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا يشكر الله من لا يشكر الناس » وقال سليمان التيمى : « إن الله أنعم على عباده بقدر قدرته ، وكلفهم من الشكر بقدر طاقتهم » وقال محمد بن صالح الواقدى : دخلت على يحيى بن خالد البرمكى فقلت : إن ها هنا قوما جاءوا يشكرون لك معروفا . فقال : يا محمد هؤلاء يشكرون معروفا فكيف لنا شكر شكرهم ؟

ذكرى المولد النبوى

فى مثل هذا الشهر من كل عام يحتفل المسلمون فى جميع أقطار الأرض بمولد النبى صلى الله عليه وسلم ، قياما بحقه فى هدايتهم ، واعترافا بفضله فى بناء جماعتهم ، وتحقيق سعادتهم .

تقوم فى العالم الانسانى ذكريات كثيرة لرجالات يرى الناس أنهم مدينون لهم بعقيدة دينية ، أو بقاعدة فلسفية ، أو بحقيقة علمية ، أو بخطة سياسية ، أو برابطة اجتماعية ، أو بإصلاح فى مذهب ، أو بتجديد فى أمر من الأمور ، وقلَّ أن تجد رجلا واحدا منهم جمع بين شأنين أو ثلاثة من هذه الشئون الانسانية ، إلا محمدا صلى الله عليه وسلم ، فقد جمع بينها جميعا ، فهو مؤسس الديانة العامة التى تسع الخلق كافة ، ومقوّم الحكمة ، وواضع أكمل أساليب العلم ، وأعدل طرق السياسة ، وأرقى ربط الاجتماع ، ومصلح جميع المذاهب ، ومجدد كل الأمور التى تهم الانسانية . فالأمة التى تحتفل بذكرى ميلاده اليوم مدينة له بوجودها ، وبعقيدتها ، وفلسفتها ، وعلمها ، وسياستها ، وروابطها ، ومذاهبها ، وكل أمر من أمورها وعشر معشار هذه المزايا كلها فى الأمم السابقة كانت تحملها على تأليه مصلحيها ، ولكن لم يفت محمدا هذه النزعة البشرية ، فاحتاط لها أيما احتياط بأقواله وأعماله ، حتى حمى أمته من أن تلتاث بهذه الخرافة ، فكان ذلك مما يضاف الى مناقبه ، ويزاد على مآثره ، ويستنزل التعجب من بُعد نظره ، وثقوب فكره ..

كان بعض من أُرسل محمد اليهم يطلبون اليه أن يحدث لهم الآيات ، وقد غاب عنهم أنه هو نفسه أكبر آية لله فى خلقه ، فكل آية بعده قليلة الخطر ، تخفى فى جانبه كما تخفى الكواكب بجانب القمر .

لقد عاشت على سطح الأرض أمم، ونبغ فيها رجال من كل صنف، وحُفظت عنهم ذكريات لا تزال الأمم تعترف بحقهم عليها، فهل تصادف واحدا منهم يمكن أن توازن مناقبه مناقب محمد، أو تقارن أعماله بأعماله؟ اللهم لا، ولا كرامة!

لندع الأنبياء والمرسلين، فقد أُمرنا أن نؤمن بهم، وأن لا نفرق بينهم، وهات لى المصلحين المقدّمين، والعباقرة المعدودين، ممن سبقوا محمداً وأتوا بعده الى يومنا هذا. واعرض أمثَلَهم طريقة، وأبعدهم صيتا، ووازن بين عمله وعمل خاتم النبيين لتدرك أنك لا تستطيع الى ذلك سبيلا. وهل يوازن الدرهم بالقنطار، أو البحر بالجدول؟

استعرض أولاً كبار الفلاسفة والمشترعين عند اليونانيين الأقدمين، واختر من انتهت اليهما الحكمة والزعامة منهم: أفلاطون وأرسطو، فأنا لا أريد أن أذكر لك سقوط فلسفتيهما، وأنهما أصبحتا من قبيل الأمور الأثرية فى تاريخ العقلية الانسانية، ولكنى أريد أن أذكرك بأن هذين العبقريين كانا يقرران فى شريعتيهما أن العمال والصناع والموالى يجب أن يحرموا من الحقوق المدنية، لانحطاط ما يمارسونه من الأعمال اليدوية، فقارن بين هذا الأصل المبنى على قاعدة بعيدة القرار فى الاجحاف، وبين الديموقراطية الاسلامية التى جعلت التمايز بالمزايا لا بالمال ولا بطبيعة الأعمال، وساوت بين الكافة فى الحقوق بصرف النظر عن الألوان والأجناس واللغات، حتى ارتفع تحت ظلها الى منصات الزعامة العبيد السود وأصحاب المهن من كل صنف، ومن كانوا لا يملكون بيت ليلة: «لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو بعمل صالح» الحديث.

وهات من العباقرة القريبين منا ديكارت، فلا أود أن أحدثك عما صادفته فلسفته من النقد، وما أصابها من السقوط، ولكنى أذكر لك من مقرراته أنه كان يعد الحيوان آلة محضة، مقودا بالفطرة الطبيعية، وأنه مجرد من كل تعقل وإدراك. قابل هذا بما ورد فى الاسلام عن الحيوان، قال الله تعالى: «وما مِنْ دابّة فى الأرض ولا طائرٍ يطير بجناحيه إلا أُمم أمثالكم، ما فرّطنا فى الكتاب من شىء، ثم إلى ربهم يحشرون»

وفى الحديث الشريف : « عاتبوا الخيل فإنها تعتب » . فأين الحكم بأنها آلات لا تعقل من الحكم بأنها أمم أمثال الأمم الإنسانية ، وأن لها عقلا تعقل به العتاب وتتجنب بسببه ما أوجبه ؟

وأما ما بقى قائما الى اليوم من مذهب ديكارت ، وهو تقديم الشك أمام كل بحث ، فقد سبقه الاسلام اليه ، فإنه حرم التقليد وحث على البحث وتعقل الأمور ، وجعل عمادها الدليل ، وهذا كله لا يمكن أن يكون إلا بتقديم الشك قبل الحكم على شىء .

ومن العباقرة المحدثين (بيكون) واضع الأسلوب العلمى ، فقد اشتهر بتفرقته بين ما هو علم وما هو رأى ، وقرر بأن المعلوم لا يجوز رفعه الى درجة العلم الحق إلا إذا قام عليه دليل محسوس ، وما عدا ذلك فهو رأى . والرأى يُتمسك به حتى يقوم الدليل المحسوس على صحته فيضاف الى المقررات ، أو على فساده فيقذف به الى عالم الأوهام والظنون . وقد سبقه الاسلام الى وضع هذا الأسلوب العلمى : فقرر أولاً أن أكثر ما عليه الناس أكاذيب وظنون ، فقال تعالى : « وإن تُطع أكثرَ مَن فى الأرض يُضلوك عن سبيل الله ، إن يتّبعون إلا الظن وإنْ هم إلا يَخرُصون » وقال تعالى : « وما يتّبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يغنى من الحق شيئا » . فكل ظن لا يسمى فى الاسلام علما ، لأن العلم فى اصطلاحه هو ما يكون دليله الحس أو ما تتصل مقدماته بالحس .

ومن كبار المجددين فى العهد الحديث (أجوست كومت) مؤسس الفلسفة الوضعية ، وواضع علم الاجتماع . فأما الفلسفة الوضعية فقد سبقه الى أصولها علماء كثيرون تقدموه من أول أرسطو الى (بيكون) فليس له فيها من فضل إلا صبّها فى قالب مذهب . وأما علم الاجتماع فكسابقه أيضا دَرس موضوعاته علماء كثيرون وكان من أمثلهم ابن خلدون من مؤرخى المسلمين فى القرن السابع الهجرى حتى عد أنه واضع لهذا العلم . ولكن الواضع الأول لعلم الاجتماع البشرى الحق هو محمد صلى الله عليه وسلم بوحى من ربه . وهذا العلم يقوم على أساس أن جميع الحوادث البشرية تابعة

لنواميس طبيعية مقررة لا تتخلف . وقد سبق الكتاب الكريم الناس كافة الى تقرير هذا الأساس الذى بنى عليه علم الاجتماع ، فقال تعالى : « سنّةَ من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا » وقال تعالى : « فهل يَنْظُرون إلا سنة الأولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا »

وقد عيب على (أجوست كومت) وضعه حدا لما يمكن أن يصل اليه الانسان من المعارف الكونية ، وعد مما لا يستطيع الانسان أن يبلغه إدراك نوع المادة التى تتألف منها الكواكب ، فلم يمض على وفاته خمس سنين حتى اخترعت آلة السبكترسكوب وهى آلة تحليل الأشعة التى تصل الينا من الأجسام المختلفة ، والاستدلال بها على المواد التى تنعكس علينا تلك الأشعة منها ، وبتطبيقها على الأشعة التى تصل الينا من الكواكب عرف أنها مؤلفة من مواد لا تختلف فى شىء عن المواد الأرضية ، ففيها حديد ونحاس وقصدير الخ الخ ، فكان فى هذا الاكتشاف دحض للأصل الذى وضعه (اجوست كومت) . ولكن الاسلام لم يضع المعلومات التى قد يكشفها الله للانسان حدا ، فإذا سئل مسلم عما يمكن أن يتأدى الى علم الانسان وما لا يمكن ، لم يستطع أن يضع لذلك حدا لقوله تعالى : « ويخلق مالا تعلمون » .

هذا قصور أكبر العباقرة حيال التعاليم غير المحدودة التى أفيضت على قلب محمد صلى الله عليه وسلم ، نسوق مقتضياته على سبيل المثال لا الحصر ، إذ لو عنينا بالأمر الثانى لما كفانا فيه مجلد ضخم .

ومن ناحية أخرى لو نظرنا الى الذكريات التى يحتفل بها لتمجيد كبار العقول وأصحاب العبقريات ، لوجدناها نشراً لصفحات مطوية من التاريخ ، لا دخل لها فى الحياة الراهنة . فهم أصحاب آراء ومذاهب اعتبرت فى زمانها طريفة ، وكانت مقدمة لآراء ومذاهب أرجح منها ، فماشت هذه وذهبت تلك ، فينوه بالأولى وبأصحابها باعتبار أنهم أول من أتى بمبادئها أو بمقدماتها ، لا على أنها حقائق مطلقة تبقى على الدهر ولا يبليها الزمان .

فمحمد هو الانسان الوحيد الذى يحتفل بذكراه على أن ما جاء به حق مطلق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأن تعاليمه هى الروح المدبر الذى يجب أن يقود حركات الجماعات البشرية ، ويكيف كيانها على النحو الذى كان يدعو اليه ويقرره . فإن فى الأرض أربعمائة مليون مسلم يرون حياتهم فى العود الى حظيرة التعاليم المحمدية ، وليس فى العالم أمة ترى مثل هذا الرأى فى مصلح بينها وبينه أكثر من ثلاثة عشر قرنا .

ومن خصوصيات محمد صلى الله عليه وسلم أن يعتقد الناس أن الخير كل الخير فى أن تؤخذ تعاليمه بغير تعديل ولا تنقيح ، ويرون أنها بالغة أقصى درجات الكمال الى حد أن كل إصلاح فيها يحط من قيمتها ، ويطمس من لألائها . وهذه مكانة لم تسم اليها أية تعاليم فى الأرض. فكل فيلسوف أو مصلح تحفظ عليه سقطات قضت بها عليه الأحوال المحيطة به ، ودرجة علمه فى العهد الذى كان عائشا فيه ، مما يجعل تعاليمه تستدعى الاصلاح والتهذيب الى حدود بعيدة . لهذا السبب سقطت جميع الفلسفات القديمة والتعاليم الاصلاحية ، واستبدل الناس بها فلسفات جديدة ، وتعاليم من طراز حديث يلائم ما وصل اليه الكافة من الثقافة العلمية ، إلا التعاليم المحمدية ، فإنها لا تزال جديدة كأنها صيغت فى هذا العصر ، بل يُرَى فيها ما لم تنضج العقول للعمل به ، وإن كانت تدرك أنه سام السمو كله . فمن من الأمم المتمدنة اليوم تستطيع أن تسوى بين الأبيض والأسود ، وبين المواطن الصميم والأجنبى الأعجم ، وأن تبتعد عن العدوان فى الحرب على غير المحاربين ، وأنت تراها تعد العدد لإهلاك النساء والولدان والهرمى والمرضى بالغازات السامة ؟ إن كنت تعجب من الفرق بين هذين المذهبين فأزيدك عجبا فى هذا الموطن بأن الاسلام يحرّم على الغزاة أن يقتلوا خدمة أعدائهم فى ساحة الوغى . أترى أبعد من هذا مدى فى احترام الحياة الانسانية ، وأرقى مذهبا فى حصر نار الحرب فى أضيق الحدود حتى لا ينقلب الأمر الى جاهلية جهلاء ، تُنكر فيها المبادئ الأدبية ، وتُهدر الكرامة البشرية ؟

ومن خصوصيات محمد صلى الله عليه وسلم أن يرى أجانب عن هذا الدين فى القرن العشرين وهم من الرجال الآخذين بأوفى حظ من العلوم الاجتماعية أن العالم كله لا ينتعش من كبوته إلا إذا أخذ بتعاليم الديانة الاسلامية، وأنه لا بد منتهٍ الى هذه النتيجة فى نحو قرنين من الزمان. قال بذلك كثير، منهم برناردشو الفيلسوف الانجليزى، وقد دوناه فى مقالة سابقة هنا. فهل رأيت فى كل ما رأيت مثل هذه الخصوصية لواحد من أصحاب المذاهب الإصلاحية؟

هذا عجيب كل العجب، وأعجب منه أن يوحى الى محمد صلى الله عليه وسلم وهو فى صحراوات بلاد العرب بأن التعاليم التى جاء بها ستزداد ظهورا على مر الأجيال، بتوالى الآيات الدالة على صلاحيتها لكل زمان ومكان، وعلى بلوغها أقصى غايات الكمال، فقال تعالى: « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ».

أو ليس من العجب العاجب أن يطالب طالب بعد هذه الآيات البينات كلها دليلا على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم؟ فأى دليل يبلغ فى القوة والإقناع مبلغ هذا الدليل: رجل نهض فى بقعة قاصية من الأرض لا عهد لأهلها بإصلاح اجتماعى، ولا بكتاب سماوى، فأخذ يدعوهم الى دين وصفه بأنه دين الانسانية كلها، قائلا إنه يوحى اليه كتاب من عند الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإنه خاتم الأنبياء وما جاء به آخر ما يتفضل به الله على الناس من الوحى. فاستهزأ به قومه وسخروا منه، فلم يرفع باستهزائهم رأسا، فاشتدوا عليه واضطهدوه، فلم يقم لاضطهادهم وزنا، فهددوه بالقتل فلم تلن له قناة، ولم تنثن لهم صريمة، واتبعه نفر من قومه فلقوا من ممالأتهم له ما يلقى أهل الحق من شيعة الباطل، ثم هاجر الى قوم آخرين وهاجر معه من آمن به، فتألب عليه خصومه واستثاروا معهم من استثاروه من أحلافهم، وتقصدوا القضاء عليه وعلى من معه دفعات متوالية «سيهزم الجمعُ ويُولُّون الدُّبُرُ»، فنصره الله عليهم،

ثم ما هى إلا سنون معدودة حتى عمت دعوته جزيرة العرب كلها ، فلم يستهوه التفرد بالسلطان ، ولم تستغوه فواتن الملك الى أن يغير من بساطته ، وطرز معيشته ، واستمر داعيا العالم كله الى دينه ، مبشرا قومه بأن الله سيعطيهم خلافة الأرض ، وزعامة الأمم ، ما داموا عاملين بكتاب الله وسنته : « وَعَدَ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات لَيَستخلفنّهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنّنّ لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » . فما هى إلا سنون معدودة حتى تحقق هذا الوعد ، وإذا بالعرب الذين كانوا بالأمس مضرب المثل فى الجاهلية والفرقة قد أصبحوا للعالم سادة ، ولشعوبه وأممه قادة ، فنظر الناس الى الدين الذى أبلغ أهله هذه المرتبة فإذا به مطمأن النفوس ، وسكن الأرواح ، وبلسم القلوب ، ونور العقول ، فدخلوا فيه أفواجا أفواجا ، بل ملايين ملايين ، فلم يمض عليه جيل واحد حتى كان المؤذن فى مسجد المدينة يقول : حى على الفلاح ، فيتابعه زميله عند أسوار الصين بمثلها .

ثم تمادى الزمان ، وتطاولت الأيام ، وإذا بالأمم الاسلامية التى بايت بالفتور أجيالا ، تهب مذعورة على أبواق المدنية الأوربية وطبولها ، ففتحت أعينها فإذا هى حيال علوم عالية ، وفلسفات مغرية ، وآلات محيرة ، ومخترعات مدهشة ، فوجمت برهة ، ثم أخذت تلقى بنظرها على ما تركته وراء ظهرها من تراث الآباء ، فإذا ما حيرها الساعة وأضاع رشدها ، وليد ما خلفه أولئك الآباء وثمرة جهودهم ، فإن زيد عليه شىء فما اقتضاه الفرق بين العصرين ، والتباين بين العهدين ، فأصبحت لديهم العقيدة التى كادت تتزعزع ، يقينا لا يعتريه شك ، فى أن الفتور الذى كانوا فيه هو نتيجة لتعاميهم عن التعاليم التى أورثوها ، فأقبلوا عليها أيما إقبال ، ورأوا نجاتهم فى العود اليها على كل حال . وشجعهم الأجانب عنهم على هذه العقيدة بما كتبوه من تاريخ أسلافهم ، وما تبينوه من دراسة دياناتهم .

أيريد الطالب دليلا أسطع من هذا على النبوة ؟

ألا سَقْياً ورَعْياً لكارلايل المؤرخ الفيلسوف الانجليزى الكبير ، لقد قال فى كتابه الأبطال وديانة الأبطال : « أتريد دليلا ممن يدعى لك أنه بناء أقوى من أن يبنى لك دارا تسع الملايين الكثيرة من الناس وتدوم قرونا طويلة ، لا يعتريها تصدع ، ولا يعتورها أقل تداع ؟ كذلك هل يطلب طالب الى مدعى النبوة دليلا أقوى من أن ينشر دينا بين ملايين من البشر يستمرون عليه قرونا طويلة ويتحمسون له تحمسا كبيرا ؟ فمحمد قال بأنه رسول من عند الله وبرهن على صدق قوله بدين نشره فى الناس أخذ به مئتان من الملايين ومضى عليهم فيه اثنا عشر قرنا ، وهم يحبون دينهم هذا ويتحمسون له أكبر تحمس ، فماذا يراد من الأدلة على نبوته بعد ذلك ؟

« ألا فليعلم الناس أن التعاليم كأوراق البنك نوت ، فالحقيقية منها تتداول بين الناس ولا تثير أقل شبهة ، والزائفة منها تخدع بعض الناس مرة أو مرتين ثم يفتضح أمرها وتعرف أنها زائفة فتمزق كل ممزق » . انتهى

هذا حق ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ؟ **محمد فريد وجدى**

من أبلغ ما قيل فيمن لم يقبل النصح

من أحسن ما قيل فيمن أشير عليه فلم يقبل قول سبيع لأهل اليمامة بعد إيقاع خالد بن الوليد رضى الله عنه بهم :

« لقد أنبأتكم بالأمر قبل وقوعه ، كأنى أسمع جرسه ، وأبصر غبه ، ولكنكم أبيتم النصيحة ، فاجتنيتم الندامة ، وإنى لما رأيتكم تتهمون النصيح ، وتسفهون الحليم ، استشعرت بكم اليأس ، وخفت عليكم البلاء ، والله ما منعكم الله التوبة ، ولا أخذكم على غرة ، ولقد أمهلكم حتى مل الواعظ ، وهزئ الموعوظ ، وكنتم كأنما يعنى بما أنتم فيه غيركم » .

قوله : كأنى أسمع جرسه ، أى صوته . وأبصر غبه ، أى عاقبته .

أساطيل المسلمين وحروبهم البحرية

يعجب من لم يدرس تاريخ المسلمين كل العجب إذا قيل إن المسلمين اتخذوا الأساطيل ولم يمض على وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم سنون قليلة فتحوا بها مدنا هندية وجزائر كثيرة فى البحر الأبيض المتوسط . إن هذه لنهضة محيرة للعقل لم يدون مثلها لأمة من أمم الأرض . فإن العرب عاشوا حياتهم كلها على اليابسة لم تتحرك لهم همة الى ركوب البحر ، والتطوح على السفن الى بلاد يجهلونها كل الجهل . ولكنهم لما دخلوا فى الاسلام سرت فيهم روح منه قوية لا ترى للتبسط فى الأرض حدا تقف عنده ، تحقيقا لمراد الله من إعلاء كلمة الحق فى كل مكان يمكن أن يصل اليه داع اليها ، أو ينمى اليه خبر عنها .

أول ما شرع المسلمون فى الغزو بحرا كان سنة ست عشرة هجرية ، فقد أرسل والى عمان أسطولا لفتح الهند ، فاستولى على جزيرة طناح القريبة من مدينة بومباى . وخرج من ناحية البحرين بجزيرة العرب أسطول آخر استولى فى جزيرة كامبى على مدينة بارودا . وخرج أسطول ثالث الى مصاب نهر السند واستولى عليها .

وكان فى الوقت نفسه يغزو عبد الله بن عامر سنة ثلاث وعشرين فى خلافة عثمان ابن عفان بلاد كرمان وسجستان فى شمال الهند . ثم حدثت بين جيوش كرمان والسند وقائع انتهت بفوز قائده عبد الرحمن بن سمرة عليها ، فاستولى على إقليم داور ومدينة بوست . وتغلب بعد ذلك المهلب بن أبى صفرة على ملك أفغانستان وألزمه دفع الجزية ، وكان ذلك سنة أربع وستين على عهد معاوية بن أبى سفيان . وأرسل الحجاج بن يوسف الثقفى سنة تسع وستين محمد بن قاسم بجيوش الى شاطئ نهر السند ، واستولى على مدائن ديبل وبيرون وبهمن آباد وألور ، واقترب من جبال حملايا القائمة فى شمال البلاد الهندية .

ولم يمض بعد ذلك غير قليل حتى كان قتيبة بن مسلم الذى ولاه الحجاج بن يوسف الثقفى فتح آسيا الوسطى قد دحر التركمان واستولى على خوارزم وما وراء نهر جيحون ومعظم المملكة التتارية ، وأحرق أصنام مدينة فرغانة ونخشب وبيكند وبخارى وسمرقند ومدينة كشغر وأقصو وخوطان . ولما انتهى الى حدود الأمبراطورية الصينية أرسل الى عاهلها وفدا مؤلفا من اثنى عشر رجلا ، وصالحهم على دفع الجزية . وبعد ذلك توجه قتيبة بأسطول على نهر السند الى داخل البلاد الهندية ، فلحق به جيش برى فى أرض مكران ، وانتشر فى سهول مدينة كشمير ، فثارت عليه مدن على شواطئ نهر السند فتغلب عليها . وما زالت الجيوش الاسلامية تجوس خلال الديار الهندية حتى وصلت الى نهر الكنج الذى يقدسه الهندوس ويحجون اليه فى كل عام .

وإنما استطردنا من ذكر الأساطيل الاسلامية التى بدأت تمخر عباب البحر من سنة ست عشرة هجرية للفتح ونشر كلمة الله فى العالم الى ذكر الفتوح التى تمت فى شمال الهند وفى داخلها ، ليرى القارئ صورة مصغرة لحركة التضافر بين جيوش المسلمين البرية وأساطيلهم البحرية لإدخال تلك الممالك الواسعة الأرجاء فى حظيرة الأمبراطورية الاسلامية التى لم يشهد تاريخ الممالك ما يقرب منها فى الاتساع والعظمة الدولية .

وأغرب ما فى هذا الأمر أن تتمكن دولة فتية كالدولة الاسلامية لا عهد لها بملك ولا حكومة من التبسط فى فتوحاتها الى هذا الحد ، وتستطيع أن تحتفظ بهذا الملك أجيالا لا بوسائل الإكراه والإعنات ، ولكن بروح العدل والإنصاف والمثل الأعلى فى الإحسان والمرحمة . فكان أثر هذه السيرة الفضلى أن انتشرت فى كل تلك البقاع اللغة العربية وآداب الاسلام ، فلم يمض عليها سنون معدودة حتى أصبحت أمنع معاقل الاسلام ، ومعشش حماته وأعلامه .

والله إن هذا من أعجب ما يتفق للانسان أن يقرأه فى تاريخ البشر ؛ وهو بإجماله وتفصيله معجزة خالدة لمحمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم .

وأول من أمر بالغزو فى البحر الأبيض المتوسط معاوية بن أبى سفيان أيام كان واليا عليها، فأمر بإعداد أسطول فى سنة سبع وعشرين هجرية، ووجهه للفتح فى البحر الأبيض المتوسط. فكان أول ما صادفه من جزره جزيرة قبرص، فقاتل حاميتها، ومازال بها حتى هزمها واستولى عليها فضرب عليها الجزية. وفى سنة تسع وعشرين استولى على جزيرة قريطش (أى كريد) وجزيرة كوس وجزيرة رودس. كل هذا وهو وال على الشام. فلما آلت اليه الخلافة بعد وفاة أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه، أرسل أساطيله تترى سنة ستة وثلاثين، فحارب الرومانيين الشرقيين الذين كانت قاعدة ملكهم القسطنطينية، فأباد جزءا من أسطول أمبراطورهم قسطنطين الثانى بعد حصره فى خليج ايسالوق بسواحل إقليم ليسيا (Lycie) على سواحل الأناضول فى سفح جبل فينكس

ثم توجهت رغبته الى فتح القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية الشرقية، وكان ذلك سنة ثلاث وخمسين، فجهز لذلك أسطولا قويا، فاقتحم الدردنيل حتى وصل الى ساحل بحر مرمرة، فنزل جنوده غرب القسطنطينية ومكثوا يحاصرونها ست سنين. فاهتدى أمبراطورها الى وسيلة أحرق بها أساطيل المسلمين، فاضطرت جنودها أن تعود الى الشام، فسار يقتفى أثرهم جيش رومانى حتى أمن منهم على العاصمة والأناضول. فأغرت هذه الموقعة الأمبراطور يوستنيان الثانى على أن يستولى على الشام، وكان ذلك سنة سبع وستين، وكان ذلك فى خلافة عبد الملك بن مروان، واتفق أنه كان مشتغلا بأمر الخلافات التى كان يثيرها مزاحموه، فرأى أن يرد الرومانيين بالحسنى، فعاهدهم على ترك العداء. فلما استتب له الأمر رأى أن يسترد ما كان قد استولى عليه الرومانيون من الشام، فقاتلهم وانتصر عليهم، ورد الى حظيرة الاسلام ما كان قد انفصل عنها من المدن والأقاليم.

ولما كانت سنة ثلاث وسبعين أرسل عبد الملك بن مروان بأساطيله لفتح جزيرة صقلية (سيسيليا) فانتصرت عدة مرات على المدافعين عنها.

ولما تولى سليمان بن عبد الملك أخذ يرسل بالأساطيل لفتح القسطنطينية ، واقتفى أثره عمر بن عبد العزيز ، فكان الرومانيون يحتالون على إحراق تلك الأساطيل فتضطر الجيوش التي بها أن تعود برا ، ولكنها في أثناء عودتها كانت تفتح مدنا وقلاعا ، فاستولوا على مدائن بسواحل بحر مرمرة ، وأثرت مسألة إحراق الأساطيل في نفوس المسلمين ، ورأوا أن يعاملوا خصومهم بالمثل . فسار مسلمة بن عبد الملك على رأس جيش مغيرا به على آسيا الصغرى ، فاستولى على مدن كثيرة منها ، وما زال يتابع سيره حتى وصلت جنوده الى اسكودار وهي قرية حيال القسطنطينية ، فأحرقوا سفن الرومانيين التي كانت بها وعادوا الى معسكرهم .

وكانت ثمرة اتخاذ المسلمين للأساطيل أن فتحوا بها جميع جزر البحر الأبيض ، ومدنا كثيرة من البلاد اليونانية وسواحل ايطاليا .

ثمرة هذه الفتوحات على المسلمين وعلى العالم كله :

إن الأمر المحسوس الذي استدل منه المؤرخون على أن تبسُّط المسلمين في الفتوحات لم يكن القصد منه اجتياح الأمم وسلب مذخوراتها . إنهم قد عفوا عما في أيدي المقهورين ولم يتناولوا منهم سوى الجزية ، وإنهم اقتبسوا كل ما صادفوه من علم نافع ، وصناعة ذات فائدة عملية . فلو كان انسياحهم في الأرض ملحوظا فيه استلاب ما بأيدي المقهورين من مال وعتاد ، لسلكوا طريقة الفاتحين قبلهم ، فأحرقوا المدن بعد تجريدها من خيراتها ، وقتلوا أهلها أو شردوهم في البلاد ليهلكوهم على أسوأ حال .

قال العلامة (دريبر) في كتابه (المنازعة بين العلم والدين) : « إن المسلمين ما كانوا يتقاضون من مقهوريهم إلا شيئا ضئيلا من المال لا يقارن بما كانت تتقاضاه منهم حكوماتهم الوطنية » .

وقال العلامة (سديو) Sédeillot المؤرخ الفرنسي الكبير في كتابه (خلاصة تاريخ العرب) فيما يتعلق باقتباس المسلمين للعلوم ما مؤداه :

« من تأمل في تاريخ غارة العرب على الشام ومصر تحقق أنهم كانوا ميالين الى كسب

العلوم وترقيتها . وقد تبين ذلك باقتباسهم لها واشتغالهم بها ، وائتلافهم بمن سكن سواحل جزيرتهم من جاليات الأمم التى لجأت هربا بدينها من الاضطهادات المذهبية ، وأشهرها جماعات النسطوريين النصرانية التى كانت على درجة عالية من العلم والمدنية . وهؤلاء كانوا قد أفادوا أهل الشام بعلومهم ومعارفهم ، ثم اضطروا تحت ضغط الاضطهاد الى الهرب منها الى السواحل العربية .

« وقد تبين ولع العرب بالعلوم أيضا من اقتباسهم أصول المعارف عند فتحهم لبلاد الفرس على عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

« فلما تولى الخلافة أبو جعفر المنصور سنة (١٣٥هـ) أظهر ميلا عظيما للعلوم الكونية ، فكان يستدعى العلماء من البلاد التى انضمت الى الأمبراطورية الاسلامية ، ويطلب اليهم ترجمة الكتب اليونانية ، ويغدق عليهم الأموال الطائلة .

« وقد سار خلفاؤه سيرته فى نشر العلوم وترجمة كتبها عن اليونانية وغيرها ، وخاصة حفيديه المهدى وهرون الرشيد ، فقد أقبلوا على علماء النصرانية المنتشرين ببلاد من آسيا ، فاستقدموهم وأوعزوا اليهم بترجمة الكتب اليونانية والفارسية والسريانية الى العربية ، فاشتهر فى عصرهما العالم الفلكى المسمى « ما شاء الله » ، فوضع الاسطرلاب ودائرته النحاسية ، وأحمد بن محمد النهاوندى الفارسى ، فكانا أقدم علماء الأرصاد فى الدولة الاسلامية . وترجم حجازى بن يوسف كتاب إقليدس الى العربية فتقدمت فى هذا العصر العلوم الفلكية والميكانيكية ، وكفى بالساعة الدقاقة التى أهداها الرشيد الى ملك أوروبا شرلمان شاهدا على تقدم الفنون فى ذلك العصر .

« فلما جاء المأمون وهو يشبَّه باغطوس لدى الرومانيين ، فأحاط نفسه بأعظم علماء الأرض ، وجعل بينه وبين ملوك القسطنطينية روابط حسنة بقصد تمكينه من عيون الكتب اليونانية ، فأنفق أموالا طائلة على ترجمة مؤلفات علماء الاسكندرية فى عهد البطالسة ، وترجمة غيرها مما كان مدخرا فى المكتبات الأجنبية حتى ما كان منها فى مدينة أثينا نفسها » .

محمد فريد وجدى

تاريخ الصوفية فى الادب العربى [1]

قامت الى جانب التعاليم الدينية وقواعد العبادات منذ بدء ظهور الاسلام وإبان نشأته الأولى طرق أخرى تعبدية لإظهار التقوى والصلاح والتقرب الى الله والإخلاص له والتفانى فى حبه بوسائل شخصية عديدة لا ترتبط بأية رابطة بقواعد الدين الأصلية أو تتقيد بتعاليمه الأساسية . وكانت الفكرة الأولية التى قامت عليها هذه الطرق وتطورت بمقتضاها تنحصر فى تخليص الروح الخالدة من العناصر الجسمانية البائدة والأغراض الدنيوية الزائلة التى لا قيمة لها ولا وزن بجانب الإخلاص لله والتفانى فى حبه وطاعته . وهذه الفكرة هى فى الحقيقة قديمة بقدر قدم الانسان على وجه الأرض ، وظهرت فى الأجيال المختلفة بصور متعددة وأشكال متباينة ، فى مبادئ فلسفية تعبدية عتيقة ، وفى عقائد دينية لا تقع تحت حصر أو بيان .

ولكن أظهر ما ظهرت به الصوفية (وسميت كذلك بالنسبة للباس أتباع هذه الطريقة المكون من الصوف مبالغة فى التقشف والتزهد) فى الاسلام ، وأهم ما امتاز به علماء الديانة الاسلامية المتصوفون هو ركونهم الى الناحية العملية من هذه الوجهة الفلسفية ، بوضع الثقة المطلقة فى الله تعالت قدرته ، وتوكلهم عليه فى حركاتهم وسكناتهم ، والإخلاص فى عبادته والتفانى فى تقديسه ، مع نبذ كل المطامع الدنيوية واحتقار الأغراض المعاشية .

ولقد برز بينهم كثير من المتأدبين الذين عالجوا هذا الموضوع وكتبوا فيه كتابات شتى فى الوعظ والإرشاد ، مما جعل الباحث فى تاريخ الأدب العربى لا يضن بأن يفرد له فصلا خاصا بين فصول العلوم العربية التى ظهرت فى بدء الحياة الفكرية

---

(١) مترجمة من الالمانية نقلا عن كتاب « تاريخ الادب العربى » للمستشرق الالمانى الكبير الاستاذ الدكتور « بروكلمان »

الاسـلامية الرشيدة ، وتطورت تطورا ظاهرا بمرور الأعوام ، فكان لها أثر بالغ فى حضارات الأمم المتاخمة وثقافتها ، بل وكان لها فى أحيان عديدة نصيب كبير فى نهضة العالم الغربى العلمية .

وأول بدء ظهور هذه الطريقة التعبدية فى التاريخ المعروف ، فى الكنيسة الرسمية حيث تسربت اليها بطريق مسيحيي الشام ، الذين أخذوها عن الديانة الاغريقية ، بعد أن نشط تيارها الهادىء واجترف الكنيسة الشرقية . والفكرة فى جوهرها الأول ترجع الى الفلسفة الأفلاطونية الجديدة التى تدعو الى ضرورة إنكار الدنيا وأغراضها والسعى وراء التقرب الى الله والتفانى فى حبه بطريق الزهد والتصوف . وأول من ظهر من علماء الشام ناشراً لواء الدعوة الى هذه المبادىء والتعاليم الدينية هو (بارسودَيْلى) فى القرن السادس من الميلاد .

انتشرت هـذه التعاليم من مهدها ببلاد الشام عن طريق الكنيسة الاغريقية الى الكنيسة الغربية فى العصور الوسطى ، كما تسربت كذلك الى الاسلام ، فأخذها عنهم علماء المسلمين الأولون ، فظهرت العلاقة القوية والرابطة الوثيقة فى حركات الذكر عند متصوفى الاسلام القدماء ، وتلك التى كان يقوم بها أنصار هذه الطريقة فى الشام .

وكما كانت الشام مهدا لنشأة هذه الطرق الدينية وتطورها ، فإنها كانت كذلك مهدا لأنصارها من العلماء والمتأدبين الذين كانوا أول من دافع عنها ، فعالجوا هذه الموضوعات الفلسفية بالبحث والتأليف .

وأول علماء الصوفيين الذين وصلتنا أخبارهم ومؤلفاتهم هو الحارث المحاسبي المتوفى سنة ٢١٣ هـ ، وهو وإن كان من أشد المتمسكين بقواعد الديانة الإسلامية والمحافظين على الروح السنّية الحقة فى جميع المسائل الأساسية إلا أنه كان يرى عدم ضرورة التقيد بالمراسيم التقليدية والاقتصار عليها كغيره من أعلام السنّيين ، بل كان يذهب الى أبعد من ذلك ويرى وجوب حكم النفس والتسيطر عليها والزهد فى أغراض الدنيا ومطامعها والتفانى فى حب الله وطاعته .

وعلى هذه الصورة نشأت النواة التى شُيّد عليها بناء الصوفية فى الاسلام فى مبدأ الأمر، إلا أنه سرعان ما تطورت ونبتت حولها عناصر غريبة من جهات مختلفة كانت سببا فى تحولها تدريجيا عن الطريق المستقيم والعقيدة السليمة، ومن ذلك ما قام به العالم المصرى « ذو النون » المتوفى سنة ٢٤٥ ﻫ من دعاية واسعة لعلم كيمياء الذهب وأحلامه اللذيذة مجتهدا فى إيجاد رابطة بينه وبين تعاليم الصوفية وقواعدها.

وأما فى شرق البلاد الاسلامية فقد صادفت الصوفية فى طريقها تيارات العقائد الهندية البوذية، فتأثرت بها الى حد بعيد، وكادت تودى بالصوفيين الى حد الإلحاد واعتناق المذاهب الإشراكية، وظهرت هذه الأفكار بشكل واضح فى أشهر الصوفيين فى القرن الثالث من الهجرة (حسين الحلاج) وهو من أصل فارسى، وكان أستاذه «الجنيد» المتوفى سنة ٢٩٧ ﻫ متمسكا بالتعاليم السنية، ولو أنه كان يتجنب الجدل والحوار فى مسائل العقائد الأصلية، ولكن الحلاج ارتأى أن لاداعى يدعو للتمسك بقواعد الاسلام الحقة، وظن أنه يملك مزايا غير طبيعية ومستحوذا على قوى خارقة للمادة، وتمكن من أن يجد من صغار العقول وضعاف العقيدة من يلتف حوله ويستمع لهذيانه ويؤمن بما زعمه من أراجيف، ولكنه تمادى فى أوهامه، فذهبت بلبه وصوابه، وتوهم أن الله عز وجل قد حل فى جسمه، فسرعان ما ثارت عليه البلاد وانقلبت ضده الحكام ولقى حتفه سنة ٣٠٩ ﻫ ببغداد، وبإعدامه اختفت هذه الأفكار الاشراكية المتطرفة من تعاليم الصوفيين المجترئين الموجهة مباشرة الى الرأى العام، فقبعوا فى عقر دارهم زمناطويلا، وكفوا بذلك الناس شر آرائهم المتطرفة، ووفروا عليهم بلبلة أفكارهم، ولم يظهر فى القرن الرابع من الهجرة من آثار لهم فى الأدب العربى إلا ما كان متفقا مع الصلاح والتقوى الحقيقية، ولم يخل الشعر فى هذا العصر من أثر تعاليم تلك الطرق التى ترمى الى التفانى فى العقائد الدينية فحسب.

بقيت العقائد السُّنية منتصرة ضد الصوفية المتطرفة منذ أواخر القرن الثالث

من الهجرة وطوال القرن الرابع ، فنُبذ من الآراء والتعاليم كل مالا يتفق مع كتاب الله والأحاديث النبوية فى غير لبس أو غموض ، وبقيت الصوفية سائرة بهدوء فى طريقها المسالم الى أن ظفرت فى العصر الثانى من تاريخ الأدب العربى (أى ابتداء من القرن الخامس الهجرى) ببغيتها فى النهضة الأدبية والدينية مما كان له من الأثر البعيد فى تطور الحياة الدينية والأدب العربى مالم يشهده غيرها من العلوم الدينية .

ففى أوائل القرن الخامس الهجرى نهض من علماء نيسابور عبد الكريم القشيرى فى عام ٤٣٧ هـ لإحياء العلوم الصوفية ، وبعث برسالة الى أنصار هذه الطريقة الدينية من العلماء المعاصرين يناشدهم لنصرة الطريقة وإحكام عرى التعارف بينهم وتبادل الآراء لتجديد التعاليم الصوفية التى كادت السنون تغير من معالمها وتذهب بأصولها الصحيحة ، ولم يكد القرن الخامس يوشك على الانتهاء حتى اهتم الغزالى بالاشتغال بأمور الصوفية ، ووجد فيها عوضا عما كان يصبو اليه فى مقتبل حياته من أبحاث علمية .

وفى القرن السادس من الهجرة انتشر علماء الصوفية بكثرة فى أنحاء العالم الاسلامى شرقا وغربا ، ووضعوا كثيرا من القواعد الجديدة والتعاليم المختلفة فى هذه الطريقة الدينية ، واشتغل كثير منهم بالتأليف ، فظهر فى هذا الباب من عالم الأدب العربى ما يكفل تعليم النشء الحديث ، وإرشاد الأجيال المتأخرة الى ضروب الصوفية المختلفة وفلسفتها العميقة .

وكانت الشام لا تزال حتى هذا العصر مهدا لهذه الطريقة ومنبتا لعلومها ، واشتهر من علمائها فى القرن السادس على الحكارى المتوفى سنة ٥٥٨ هـ بعد أن شيد خانقاه للمتصوفين على جبل حكار بجوار الموصل ، وقام برحلات واسعة للوعظ والارشاد ، وأسس طريقة العدوية التى بقيت نشيطة حتى القرن السابع الهجرى ، بفضل تعهد من خلفه من زعماء الصوفية فى تلك البلاد ، وله فى عالم الأدب كتاب يفصح فيه عن عقيدته ورسالة وصاية الى تلاميذه ، ولا زالت بعض الطرق الكردية المعروفة باسم « يزيدى » تحييه وتزيد فى تمجيده لإحيائه مذهبهم وتوثيق عقيدتهم .

وفى بغداد اشتهر من علماء الصوفيين فى هذا العصر عبد القادر الجيلى المتوفى سنة ٥٦١ هـ وهو مؤسس الطريقة الكبيرة المعروفة باسم القادرية ، ولقد عرف كيف يتسلط على عقول أتباعه ومريديه ، وحاز شهرة واسعة ، وله فى ميدان الأدب بضع مقدمات فى الحياة الدينية السعيدة ، وعدة رسائل أخرى فى الوعظ والأدعية .

وهكذا سار معظم علماء الصوفية على هذا المنوال : متمسكين بجوهر الاسلام ، محافظين على أصوله الأولية ، غير خارجين على تعاليمه الأساسية ، بل كان جل همهم وغاية أملهم توثيق الحياة الدينية وترسيخها فى عبادة الله والتفانى فيها ، الى أن ظهر شهاب الدين السهروردى ، وجاء بما تخطى به الحدود المباحة ، وخرج على كتاب الله وسنة نبيه ، وكان يحيي حياة درويش متجول ، فكان يظهر تارة فى بلاد الفرس وطورا فى العراق الى أن نزل أخيرا بمدينة حلب ضيفا على بلاط الملك الظاهر بن صلاح الدين ، وكان يجتهد فى الإذاعة عن نفسه بأنه قادر على الإتيان بالمعجزات الخوارق ، وكانت تظهر فى تعاليمه وأفكاره علاوة على آثار الفلسفة الأفلاطونية الجديدة ، التى نشأت عنها الصوفية القديمة فى الاسلام ، بعضُ الآراء الايرانية العتيقة والعقائد الفارسية الشيعية عن الإمام المختفى ، وكان يسمى طريقته بطريقة النور ، ولذا فإن الدراويش الذين جعلوه زعيما لجماعتهم كانوا يطلقون على طريقتهم « النور بخشية » أى الذين يعطون النور . ولقد تذمر السنيون كثيرا من تعاليمه الفاسدة وعقيدته السقيمة ، وتمكنوا أخيرا من حمل السلطان على اضطهاده والحكم بإعدامه ، فأعدم سنة ٥٨٧ هـ . وله فى عالم الأدب بضع رسائل فلسفية علاوة على كتابه الذى يفسر فيه طريقته ويشرح تعاليمه الصوفية .

وأشهر علماء الصوفية فى هذا العصر فى البلاد الاسلامية الغربية هو أبو مدين الذى ظهر بمدينة تلمسان وتوفى بها عام ٥٩٨ هـ . ولا يزال كثير من الأهالى تحيي ذكراه وتمجد اسمه ، ولم يترك فى الأدب العربى سوى القليل من الشعر ، وبضع مجموعات فى الحكم والأمثال .

وجاء من بعده على الشاذلى فأسس طريقة صوفية خاصة ،وتوفى سنة٦٥٦ ﻫ ،ولم يخلف للأدب العربى سوى رسالة فى واجبات الطاعة لله ، وبضع جمل مأثورة فى الأدعية .

وأكبر علماء الاسلام المتصوفين على الاطلاق هو بلا شك محيي الدين محمد بن عربى ، ولد بالمرسية سنة ٥٦٠ ﻫ وطلب العلم بمدينة اشبيلية ورحل الى بلاد الشرق عام٥٩٨ ﻫ . وتنقل بين العراق وآسيا الصغرى الى أن استقر به المقام أخيراً بدمشق حيث توفى سنة ٦٣٨ ﻫ . ولقد ظهر تفوقه ونبوغه على زملائه من زعماء الصوفيين المتقدمين والمتأخرين بنوع خاص فى عالم التأليف ، فأتى بمحصول وافر فى الأدب العربى ، فقد وصلنا من مؤلفاته حوالى١٥٠ كتابا مستقلا ، وامتاز كتابه المسمى « الفتوحات المكية » بالأفكار العالية والفلسفة العميقة . وكثيرا ما كان يلجأ الى وضع تفاسير لإيضاح مايكتبه بسبب صعوبة الموضوعات وتعقيد المسائل الفلسفية والدينية التى كان يعالجها . ولما كانت الصوفية ، وهى مدار بحثه الأول ، أقرب الى المسائل الحسية من الموضوعات الفكرية ، فإنه كان يلتمس مخرجا للتعبير عن مشاعره بواسطة النظم ، فكانت تفيض كتاباته بالأشعار ، وله فى ذلك مقطوعات غاية فى الروعة والإحكام ، وأهم قصائده هى تلك التى نظمها بمكة المكرمة عام ٥٩٨ ﻫ فى التغنى بحب الله ، وكانت تشبه من حيث الأسلوب مقطوعات حافظ ، يستمع بين أشطارها رنين شهوة الغزل ، ولذا فانه رأى نفسه مضطرا لوضع تفسيرلها ، ليدفع به لومة من يتهمه بالتغنى بالحب الدنيوى .

وله مؤلفات فلسفية عديدة تنم عن مبلغ تأثره بالتفكير الاغريقى والهندى ، وتضامن مع أحد علماء الهنود فى تنقيح وإعادة نشر الكتاب الهندى الكبير المعروف باسم « أمرتا كندد » الذى يبحث فى ارتباط العالم الصغير بالعالم الكبير والعلاقة بينهما ، وكان قد قام بنقل هذا الكتاب من اللغة الفارسية الى العربية محمد السمرقندى سنة ٦١٥ ﻫ .

وكان كثير الاعتقاد فى الخرافات بشكل ظاهر ، وربما كان ذلك نتيجة لتعمقه

فى أبحاثه الفلسفية ، فكتب فى القوة السحرية للحروف الهجائية ، كما كتب عن الطرق المختلفة فى التنبؤات والاستخارات القرآنية ، ووضع كتابا بتنبؤاته عن مستقبل مصر .

وكانت تعاليمه جريئة للغاية ، وفلسفته عميقة جدا ، بحيث إنه لم يقو على تأسيس مدرسة خاصة بها ، ولم يجد من يستأنف عمله الفكرى سوى تلميذه محمد القونوى المتوفى سنة ٦٧٢ هـ ولكن مؤلفاته بقيت موضع اهتمام العلماء المسلمين ودراساتهم لعدة قرون بعد وفاته ، حتى إننا نجد الحوار والجدل بينهم لم ينقطع حتى القرن الثانى عشر من الهجرة ، فمنهم من حكم بإلحاده ، ومنهم من اهتدى الى التوفيق بين تعاليمه والعقائد الدينية الصحيحة ؟

بعض ما قيل فى الحلم

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « أقرب ما يكون المرء من غضب الله إذا غضب » .

وقال لقمان الحكيم : ثلاثة لا تعرفهم إلا عند ثلاثة : لا تعرف الحلم إلا عند الغضب ، ولا الشجاع إلا عند الحرب ، ولا تعرف أخاك إلا إذا احتجت اليه .

وقال على كرم الله وجهه : حلمك على السفيه يكثر أنصارك عليه .

وقال الأحنف بن قيس : من لم يصبر علي كلمة سمع كلمات . وقال : رب غيظ تجرعته مخافة ما هو أشد منه .

وأسمع رجل أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ما يكره ، فقال له : لا عليك ، إنما أردت أن يستفزنى الشيطان ، بعزة السلطان ، فأنال منك اليوم ما تناله منى غدا ، انصرف إذا شئت .

وقال شاعر :

لن يدرك المجد أقوام وإن كرموا ... حتى يذلوا وإن عزوا لأقوام
ويشتموا فترى الألوان كاسفة ... لا ذل عجز ولكن ذل أحلام

وقال كعب بن زهير :

إذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنا ... أصبت حليما أو أصابك جاهل

بيان من جمعية منع المسكرات

بالقطر المصرى

ورد الى إدارة هذه المجلة كتاب من بعض القراء يسألوننا فيه عن حقيقة الشراب الخالى من الكحول الذى استوردته جمعية منع المسكرات من أوربا ليحل محل الاشربة الروحية ولا تكون فيه حرمتها ولا ضراوتها . فلم نر بدا من توجيه سؤال لحضرة الاستاذ الفاضل أحمد افندى غلوش رئيس هذه الجمعية فورد الينا منه البيان التالى . فنشكره على مبادرته بالاجابة ، وهو :

قد تسلمت كتابكم وعلمت منه أن إدارة مجلة نور الاسلام الغراء ورد اليها سؤال عن حكم شرب الشراب الذى استحضرناه من أوربا وأسميناه بالرحيق ونشرنا عنه أنه من عصير العنب وأنه خال من الكحول ، وتطلبون معرفة حقيقته للنظر فى هذا السؤال . فنتشرف بأن نقدم اليكم البيان التالى فى شأن ذلك الشراب فنقول :

إن جمعية منع المسكرات وإن كانت فى أصل نشأتها وتكوين هيئتها تستمد تعاليمها فى نشر دعوتها من الكتاب والسنة وأصول الدين الحنيف ، فإنها لما رأت فى هذا الزمن من طغيان المادة وتسلطها على كثير من الأنفس أرادت أن تتوسل أيضا بالذرائع المادية والوسائل العلمية لبلوغ غايتها وإقامة الحجة على صدق ما تدعو اليه : من وجوب نبذ الخمر ، وضرورة سن قانون يقضى بتحريم تداولها فى البلاد أو اقتنائها ، لثبوت أضرارها وعدم فائدتها ، وإقامة البينات على فساد من يزعم أن فى النبيذ والسوائل الكحولية المتخذة من الأعناب والثمرات غذاء للجسم أو صحة وعافية للبدن ، مما أثبت الكشف العلمى الحديث بطلانه . ولذلك عنى رجال جمعية منع المسكرات وخطباؤها وكتابها بأن يضمنوا خطاباتهم ومحاضراتهم ومطبوعاتهم هذه الحقائق العلمية التى تؤيد

وجهة نظر الدين الاسلامى الحنيف فى تحريمه الخمر قليلها وكثيرها على السواء، وأيا كان نوعها أو نوع العناصر التى اتخذت فى الأصل منها، وإثبات صدق ما قاله النبى صلى الله عليه وسلم: وهو أن الخمر داء لا دواء.

واتفق أن الحكومة المصرية ندبت فى عام ١٩٢٨ كاتب هذا البيان ليقوم بتمثيلها رسميا لدى المؤتمر الدولى التاسع عشر الذى عقد فى باجيكا لمكافحة المسكرات، فكان من بين المسائل التى عالجها ذلك المؤتمر مسألة الأعناب والفاكهة التى تنبت بكثرة عظيمة فى بلدان أوربا وأمريكا فوق حاجة أهليها فيضطرهم الحال الى عصر الزيادة وتحويلها خمورا وبيعها فى الأسواق، وكثير من الزراع والصناع هناك لا يعتمدون فى معيشتهم إلا على تحويل الأعناب والثمرات خمرا، فكان لا بد من النظر فى مستقبل هؤلاء القوم فيما إذا استجيبت دعوة المؤتمر وامتنع الناس عن تعاطى الخمور واجتنبوها. فانتهى المؤتمر الى أنه فى الوسع تحويل الفواكه والأعناب الى عصير سائغ الشراب لذيذ الطعم، مغذ للجسم، مفيد فى معالجة الكثير من الأسقام بحيث لا يقبل التخمر ولا التحول الى كحول مما يفسد خواص الفاكهة والأعناب كما يحدث ذلك عند تحويلها خمورا ومشروبات مسكرة، وبذلك يتم التوفيق بين الدعوة الى اجتناب الخمر وبين حاجة الزراع والصناع الذين يعيشون الآن ويرتزقون من وراء صنعها وبيعها.

ولكن نشأت مسألة أخرى، وهى أن الناس درجوا طويلا على تعاطى الخمر فى مجالس سمرهم وأنسهم وأعيادهم وأفراحهم ومواسمهم واجتماعاتهم وولائمهم، فكيف السبيل الى حملهم على إيثار العصير الطاهر الخالى من الكحول؟ فاستقر رأى المؤتمر حلا لهذه المسألة على أن تعنى الجماعات والجمعيات الممثلة فيه بترويج هذا العصير والإعلان عنه وبث الدعاية له فى الأقطار المختلفة التى يعمل فى دائرتها كل منها، فإنه على قدر مايباع من العصير الغير المسكر تقل حاجة أولئك الزراع والصناع الى تحويل الأعناب والفاكهة خمرا، ومتى قلت كمية ما يصنع من الخمر تتلاشى المسكرات تدريجا، ويعم

استعمال العصير الغير الكحولى بحكم أفضليته على الخمر، وبذلك يطمئن صانعوها والمنتفعون من ورائها الى مستقبل أمرهم، ويمتنع تصديهم لحركة منع المسكرات .

وإذ كنت أمثل لدى ذلك المؤتمر جمعية منع المسكرات المصرية فوق تمثيلى الحكومة المصرية لديه، فلما عدت الى مصر عقب انفضاض جلسات المؤتمر سعيت أنا وجمعيتى للقيام بنصيبنا فى التطوع لترويج الفكرة المتفق عليها، وتبيين فضل الشراب الخالى من الكحول على أى مسكر كان .

فلما كان عام ١٩٣٠ استحضرت الجمعية من فرنسا وسويسرا مقدارا من هذا العصير الصحى الطاهر الخالى من الكحول ؛ وقد أطلقنا عليه اسم « الرحيق » تيمنا بشراب أهل الجنة . وعلى الرغم من أن المعامل الكيماوية كانت قد أثبتت بتحليلها هذا الشرابَ خلوَّه من الكحول فقد أردنا أن نزداد وثوقا من هذه الحقيقة، فقبل أن نعرض الرحيق على الناس أرسلنا زجاجة منه الى المعمل الكيماوى الذى تديره مصلحة الصحة البلدية بالاسكندرية، وطلبنا اليه تحليله واستخراج إعلام رسمى بنتيجة ما يدل عليه التحليل، فأسفر هذا التحليل الرسمى عن خلو « الرحيق » من الكحول خلوا تاما وطهارته من المواد الضارة، وأنه « عصير عذب لا يخالطه كحول، وأنه فى حالة جيدة، وله طعم جيد ورائحة ذكية، ولا يوجد فيه مواد ضارة » (انظر صورة الكتاب الرسمى المرسل للجمعية من مدير الصحة البلدية فى ختام الكراسة الخاصة التى طبعتها الجمعية تبيانا لحقيقة الرحيق) .

واتفق أن كان المعرض الصناعى الزراعى قائما فى القاهرة حين ذاك، فكانت فرصة حسنة سانحة لدى الجمعية لترويج الرحيق وإظهار فضله على المشروبات الكحولية والخمور المسكرة، وإبطال حجة القائلين بأن فى شرب الخمر فوائد صحية، وأنهم لا يشربونها إلا ابتغاء وجه الصحة، مع أنه لا صحة فى الخمر ولا فائدة ترجى منها، فضلا عما فيها من الضرر البالغ والإثم الكبير . وأما الرحيق فهو حقا خلاصة الفاكهة والأعناب،

فلا غول فيه ولا هم عنه ينزفون . فمن ابتغى بشرب الخمر صحة وعافية ظنا منه أنها تحتوى على خلاصة الفواكه والأعناب ، فهوواهم مخدوع ، إذ أثبتت الاستقراءات العلمية الحديثة أن هـذه الخلاصة قد ضاعت وتحولت أثناء عمليـة التخمر والتقطير الى كحول سام . وأما الرحيق فقد احتفظ بكل ما فى الفواكه والأعناب من فائدة صحية وعلاجية دون أن يكون فى شرابه أية حرمة ، لخلوه من الكحول المسكر .

ولما كانت جمعية منع المسكرات لا تقصد الى التجارة ولا تبغى ربحا ماديا من ترويجها الرحيق ، بل كان كل قصدها وهمها أن تعلن عن وجوده وفوائده وفضله على الخمر من كل ناحية من النواحى ، تضامنا منها فى ذلك مع المؤتمر الدولى لمكافحة الخمور انتصارا لقضية الزراع والصناع الذين يعيشون من تجارة الخمور وصنعها حتى لا يقوموا فى وجه المطالبين بتحريم الخمر إشفاقا على أرزاقهم أن تضيع ، فقد عهدت الجمعية الى بعض البيوت التجارية التى تبيع المأكولات المجهزة على أن تتولى هى بيع « الرحيق » . ولم يبق الآن لدى الجمعية من هذا الشراب للبيع شىء ما .

ونلاحظ لحضرات القراء أن بعض زجاجات « الرحيق » قد بقيت لدى كاتب هذه السطور ، ولدى بعض أصحابه من أعضاء الجمعية ممن ابتاعوه لأنفسهم ، أعواما ثلاثة دون أن يلحقها فساد أو يتطرق اليها رجس الكحول . وما دامت الزجاجة محكمة القفل فإن ما تحتوى عليه من العصير يبقى صالحا للاستعمال زمنا غير محدود . وأما إذا بقيت الزجاجة مفتوحة معرضا ما فيها للهواء فإن الشراب يفسد كما يفسد الطعام تماما ، بمعنى أنه لا يصير خمرا مسكرا بحال من الأحوال ، وإنما يصير طعاما فاسدا ليس غير .

ونحن نقدم الى فضيلتكم مع هـذا كراسة كانت الجمعية قد طبعتها ونشرتها تبيانا وتفصيلا لحقيقة الرحيق ، وفيها نص كتاب حضرة مدير الصحة البلدية بالاسكندرية الدال على نتيجة تحليل هذا الشراب الطهور فى المعمل الطبى ، وخلوه من الكحول كما أسلفنا ذكره بالإيجاز .

وقصارى القول أن العلم الحديث قد أثبت حكمة الدين الحنيف ، وأيده أيما تأييد فى وجوب تحريم الخمر على الناس ، لما أنها شديدة الخطر كبيرة الضرر ، وأن ماينسب اليها من المنافع لا يعدو ما يعود على صانعيها ومروجيها ومن اليهم من الكسب المادى ، وأما شاربوها ومتعاطوها فلا يعود عليهم منها إلا الإثم الكبير والخسران المبين .

ولما كانت المناقشات العلمية التى دارت فى المؤتمر الدولى لمنع المسكرات والخطب التى ألقيت فيه حول الرحيق من النفاسة بمكان ، وجدير بنا معشر المسلمين المعتزين بأصول ديننا أن نقف على الآراء العلمية التى تؤيد هذه المبادئ السامية وتناصرها ، فحبذا لو أن رياسة تحرير نور الإسلام الغراء تسمح لنا أن نعرّب ما قيل فى هذا الموضوع عن أصله الانكليزى ، وتنشر خلاصته فى العدد القادم ، إن شاء الله .

والله نسأل أن ينفع بكم وبعلمكم الاسلام والمسلمين ؟

رئيس جمعية منع المسكرات بالقطر المصرى
احمد غلوش

الكرم الحاتمى

كان عدى بن حاتم الطائى جوادا كأبيه ، وقد أدرك الاسلام وأسلم . دخل عليه ابن دارة الشاعر يوما فقال له : إنى قد مدحتك . قال عدى : أمسك حتى آتيك بمالى ثم امدحنى على حسبه ، فانى أكره أن لا أعطيك ثمن ما تقول : لى ألف شاة وألف درهم وثلاثة أعبد وثلاث إماء ، وفرسى هذا حبس فى سبيل الله ، فامدحنى على حسب ما أخبرتك ، فقال :

تحن قلوصى فى معد وإنما ... تلاقى الربيع فى ديار بنى ثعل
وأبقى الليالى من عدى بن حاتم ... حساما كنصل السيف سل من الخلل
أبوك جواد لا يشق غباره ... وأنت جواد ليس تعذر بالعلل
فان تفعلوا شرا فمثلكم اتقى ... وإن تفعلوا خيرا فمثلكم فعل

فلما انتهى الشاعر الى هذا البيت منعه حاتم أن يزيد عليه قائلا له : إن مالى لا يبلغ أكثر من هذا ، وأعطاه المال .

تأسيس مدرسة بالزيتون

جاءنا من جمعية المحافظة على القرآن الكريم بالزيتون
هـذا النـداء فننشره معاونة على نشر التعليم .

النجدة أيها المحسنون !

نوجه نداءنا اليكم وأنتم أهل المروءة والبر والاحسان ، لتشدوا أزر الجمعية ، وتعاضدوا مدرستها التى قامت على تربية اليتامى والمساكين ، وتعليم مبادئ الدين الحنيف ، وتحفيظ القرآن الكريم ؛ والتى أضافت الى جانب هـذا كثيرا من أعمال البر والاصلاح وفى مقدمتها قسم إلقاء المحاضرات الدينية الاجتماعية ، وقسم ليلى لتعليم العمال مبادئ القراءة والكتابة والدين ، وتخصيص شعبة من شعبها للمحافظة على أبناء المسلمين من الوقوع فى شراك أعداء الدين .

ولقـد سعت الجمعية لدى حكومتنا الرشيدة حتى منحتها قطعـة أرض مساحتها ١٦٤٢/٥ متراً بحامية الزيتون لتقيم عليها بناء دارها ، وقد تم تسلمها يوم الأربعاء ٣ إبريل سنة ١٩٣٥ والآن وقد اعتزمت الجمعيـة أن تمضى فى عملها وتشرع فى بنائها مستمدة من الله العون ومنكم النجدة . فإنا نهيب بكم أيها المحسنون أن تعاضدوا الجمعية فى هذا المشروع الدينى العظيم الذى يتحتم على كل مسلم غيور أن يساهم فيه ، فمن وضع فيه حجرا بنى الله له قصرا ، ومن ساهم فى تأسيسها ضاعف الله له ثوابا .

فهلموا الى باب من أبواب البر وعمل من أعمال الخير ، وأجيبوا داعى الله ورسوله « وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجرا » « وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه وهو خير الرازقين » .

رئيس الجمعية
مصطفى ماهر باشا — مدير المنيا سابقا

التبرعات ترسل باسم رئيس جمعية المحافظة على القرآن الكريم بالزيتون .

الانسان

تشريح — صحة — أدب — دين — لغة — أخلاق — اجتماع

هذا كتاب فذ لم يؤلف أحد على مثاله ، وفق الى وضعه الاستاذ النابه الفاضل على فكرى رئيس المغيرين بدار الكتب المصرية . ألم فيه بكل ما يتعلق بالانسان من تشريح وصحة وأدب ودين ولغة وأخلاق واجتماع ، فجاء مجموعة قيمة لمعارف وشوارد لا يتفق وجودها فى معرض واحد . مثال ذلك : يذكر الهضم فيلم بذكر أعضائه من الوجهة التشريحية مستعينا بالصور ، ثم من الناحية الفيزيولوجية ، ثم بحكمة الخالق فى خلق الأعضاء العاملة فيه ، ثم يشفع ذلك بالنصائح الدينية المناسبة للتغذى من القرآن والسنة ، ثم بالقواعد الصحية ، ثم بالنصائح الأدبية ، ثم بالكلمات اللغوية ، ثم بالأمثال الفصيحة ، ثم بالأمثال العامية ، ثم بصنوف الأطعمة وقيمتها الغذائية ، ثم بما يتعلق بالطعام والهضم من الناحية الصحية ، ثم بالألفاظ الكنائية ثم بالحكم الشعرية . فبهذا الاستيعاب لما يخص الموضوع الواحد جعل هذا الكتاب جذابا نافعا الى أقصى حد .

وهو يقع فى أربعة أجزاء فى كل جزء أكثر من مائتى صفحة . فنهنىء حضرة المؤلف بهذا التوفيق . ونرجو أن يكافئه الله عليه بما هو أهله ، وأن يعينه على إبراز أمثال هذه الطرائف العلمية .

صفوة احياء علوم الدين

قام باستخراج هذه الصفوة من إحياء علوم الدين لحجة الاسلام الغزالى حضرة الأستاذ الأصولى محمود افندى قراعة المحامى . وإنه لكتاب كريم يجمع زبدة كتاب الامام فى نحو ٣٦٠ صفحة من القطع الصغير . وقد وفى الأستاذ كل موضوع حقه بما يشكر عليه ، فسهل على القارئين الالمام بصفوة هذا المؤلف الضخم فى زمن قصير ؛ وإنها لخدمة دينية يذكرها له المسلمون بالثناء الجميل ، فقد كان يتردد ذكر هذا الكتاب الاسلامى المعظم ولا يجد الناس وقتا لقراءته والانتفاع بما فيه ، فجاء تلخيص الأستاذ قراعه له مسهلا عليهم الوصول الى بغيتهم من أقرب طريق . فجزاه الله عن الاسلام خيرا .

بسم الله الرحمن الرحيم

مهمة الدين الاسلامى فى العالم

٢٠

مراعاة الحقوق الطبيعية فى الاشتراع ومعاملة الناس

الأمة الاسلامية بحكم المهمة التى عهد الله بها اليها ، وهى جعل كلمته هى العليا فى الأرض ، قُدِّر لها أن تتبسط فى البلاد ، وأن تخالط الأمم ، وأن تمد رواق سلطانها على شعوب كثيرة تخالفها أصلا ولغة ودينا وعادات . وهذه الشعوب كلها كان لها نظم مقررة وقوانين محترمة وتقاليد خاصة ، فإخضاعها جميعا لشريعة واحدة تطمئن اليها ، وتهدأ ثوائرها تحت ظلها ، لا يعقل أن يكون إلا إذا كانت تلك الشريعة بالغة أرقى ما يدركه العقل من معنى العدل ، وما تطمح اليه النفس من نعمة المساواة ، وتتطلع اليه الطبيعة البشرية من الحرية الصحيحة ، وهذا ما لا سبيل اليه إلا إذا كان أساس تلك الشريعة الحقوق الطبيعية ، لا الحقوق التى تمليها المصالح المادية ، وتحدها الأثرة القومية ، وتتحيفها العوامل المحلية .

أجل : فإن تلك الشعوب لأجل أن تدخل فى الوحدة التى فُرضت عليها فرضا يجب أن لا تجد فى الحالة التى تدخل فيها ما يثير حميتها ، ويهيج أنفتها ، ويجرح كرامتها ، ويدفعها دفعا الى التخلص مما وقعت فيه ولو استنفدت فى سبيله قواها وثروتها . لأنه متى تأثر كل شعب بمثل هذه الروح من التمرد ، نتجت من ذلك فتوق يتعذر على قاهريها رتقها ، فيضطرون للإيغال فيها قتلا وسلبا ، ثم يلجأون الى أحد أمرين : إما الإمساك بمخنقها مهددبها بالحديد والنار ، وإما تركها وشأنها أشبه بجثة هامدة يؤول أمرها الى ما يؤول اليه .

هذا كان شأن الأمم الضعيفة عندما كانت تقع تحت براثن أمة فاتحة . وهذا نفسه كان حال الشعوب التى حملت نير استعمار الرومان ، وهى الأمة التى كانت لها الزعامة فى الأرض قبل المسلمين مباشرة . فقد كانت الشعوب تخضع لها رهبا لا رغبا ، وكانت كثيرا ما تثور عليها فتحدث بين الفريقين معارك تسيل الدماء فيها أنهارا . فلما أدرك الدولة الرومانية الوهن ، انفصلت تلك الشعوب عنها مُكِنّة فى أعماق قلبها أقسى ضروب الحقد عليها ، حتى إنه لما داهمتها القبائل المتوحشة التى كانت نازلة فى أطرافها من الهونيين والفنداليين والبلغار وغيرهم ، لم تمتد اليها يد بمعونته ، ولا أمدها قلب بعاطفة . وكان التاريخ أقسى عليها قلبا من الناس ، فقد جاء فى دائرة معارف لاروس الكبرى عند ذكرها نظم الرومانيين :

« ماذا كانت نظم الرومان على وجه الإجمال ؟ كانت الوحشية والقسوة بعينيهما مرتبتين فى صور قوانين . أما من جهة فضائل رومية مثل الشجاعة والمكر والتبصر والنظام والإخلاص المطلق للجماعة ، فهى بعينها فضائل قطاع الطرق واللصوص . أما وطنيتها فكانت مكتسية لباس الوحشية ، فقد كان لا يرى فيها إلا شره مفرط للمال ، وحقد على الأجنبى ، وتجرد من عاطفة لرحمة الانسانية . أما العظمة فى رومية والفضيلة فيها فكانتا مرادفتين لأعمال السوط والسيف فى العالم ، والحكم على أسرى الحروب بالتعذيب أو بالأسر ، وعلى الأطفال والشيوخ بجر عربات النصر » انتهى .

قارن هذا بحكم علم القرن العشرين فى المسلمين ، قال العالم الكبير جوستاف لوبون فى كتابه تاريخ العرب : « لم تر الأرض فاتحين أبر وأرحم من المسلمين » .

على أن لسان الحوادث فى هذا الشأن كان أبلغ من لسان التاريخ ، فإن هذه الشعوب التى خضعت لحكم المسلمين فضلا عن أنها لم تثر عليهم ، ولم تبطن نية النكاية بهم ، قد تهافتت على الدخول فى دينهم ، فأصبحت بلادها معاقل للاسلام ، ولم يمض عليها

غير سنين معدودة حتى نبغ فيها حفظة للغته ، وأئمة لشريعته ، مما لم يحدث له مثيل فى أى عهد من عهود البشر . فهل عهد فى تاريخ أمة أن ينتدب لتحرير لسانها ، وبناء قواعده وجمع شوارده أعاجم لا تجمعهم والعربية أقل صلة ؟ ألم يكن إمام الحفاظ اللغويين أبو عبيدة فارسيا ، وواضعا أصولها وقواعدها سيبويه والخليل بن احمد فارسيين أيضا ، ومهذبي نثرها وشعرها عبد الحميد وابن العميد وبشار وأبو نواس ومروان بن أبى حفصة وغيرهم فُرسا ومن أجناس شتى ؟ ولا أعد لك أصحاب الأقوال الفقهية ، ومفسرى الكتاب الكريم ، وحفظة السنة النبوية ، فإن كثرتهم من أهل تلك الممالك التى فتحها الاسلام وضمها الى حوزته .

فما سبب هذا الأمر الجلل الذى لم تر البشرية ما يشبهه منذ تدوين التاريخ الى اليوم ؟

سببه سمو الشريعة الاسلامية سموا أذهل الشعوب عن قومياتها وتقاليدها وموروثاتها ، فألقت بنفسها بين يديها تستمدها روحا تحيا بها ، وتنعم بالوجود تحت سلطانها . ولم يكسب هذه الشريعة هذا السمو إلا قيامها على أساس الحقوق الطبيعية المجردة عن كل صبغة قومية وجنسية ؛ الرئيس والمرءوس فيها سيان ، والقوى والضعيف عندها متكافئان ، والسرى والصعلوك فيها صنوان .

لم يحدث فى تاريخ العالم الانسانى أن أمة توخت العدل المطلق فى سن شريعتها فنظرت الى الناس من حيث هم أمثال فى الانسانية لا فضل لواحد منهم على آخر لأى اعتبار من الاعتبارات حتى ولو كان أجنبيا عنها يخالفها أصلا ودينا ولونا ولغة . لم توجد أمة سلكت هذا المسلك فى وضع شريعتها حتى ولا بالنسبة لآحادها المؤلفين لمجموعها إلا فى أخريات القرن الثامن بعد الثورة الفرنسية وإعلانها حقوق الانسان ، ومحوها الطبقات الاجتماعية .

فقد كانت الأمم تنقسم الى طبقات ، لكل طبقة حقوق تمتاز بها على من دونها ، حتى

ينتهى الأمر الى الدهماء وهم السواد الأعظم من الأمة فكانوا يعتبرون فى حكم العجماوات ، حتى كان أصحاب الأملاك يبيعون أراضيهم بمن عليها من العمال ، فيصبحون ملكا خالصا لمن اشترى الأرض التى هم عليها . وكان السيد يقتل الصعلوك فلا يعاقب على ما فعل ، فإذا تعقبته الحكومة لسبب من الأسباب تخلص مما فعل ببذل مال نزر لأسرة المقتول .

فلما أعلنت الثورة الفرنسية حقوق الإنسان ، وشاعت هذه المبادىء فى العالم المتمدن ، فسر كل منها الإنسان بأنه المعدود من جماعتها لا الإنسان أيا كان ، فأصبحت بذلك الحقوق الطبيعية مقيدة بالقومية فى كل مكان . فانفردت الشريعة الإسلامية بميزة التعميم ، فهى تعتبر الانسان من حيث هو إنسان لا من حيث هو خاضع لسلطانها أو داخل فى ملتها . وهذه من أدل الأدلة على أنها وحى إلهى لا وضع بشرى ، فقد دل الاستقراء على أن الارتقاء فى إقامة العدل لم يبلغ لدى البشر الى حد أن يعاملوا الأجانب عنهم معاملتهم لأنفسهم ، ولا أن يسروا عليهم أصول الحقوق الطبيعية التى أدركتها عقولهم . ولكن الاسلام سبق العالم أجمع الى تطبيق هذه الحقوق الطبيعية على الكافة ، ولم تستثن أحدا حتى الأرقاء والأجانب عنه وعن جماعته ، فكان المثل الإلهى الأعلى الذى سينتهى اليه الناس كافة حين يبلغون من معارج الرقى الى ذروتها العليا ، فقال الله تعالى يوصى المسلمين باتباع هذه الطريقة فى معاملة الناس أجمعين : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تَلْوُوا أو تُعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » . ومعناها يأيها المؤمنون كونوا جادين فى القيام بتطبيق أصول العدل ، وأدوا شهاداتكم فيما تستشهدون فيه مراعين وجه الله ، ولو على أنفسكم أو والديكم أو أقاربكم ، وإن يكن المشهود عليه غنيا أو فقيرا فلا تمتنعوا عن أداء الشهادة محاباة له لغناه ، ولا رحمة به لفقره ، فالله أولى بالنظر

الى حالى الغنى والفقير منكم ، فلا تتبعوا أهواءكم كراهة أن تعدلوا ، وإن تلووا ألسنتكم محاولين إخفاء معالم الحق ، أو تمتنعوا عن تأدية الشهادة فإن الله خبير بما تعملون ، يجازيكم عليه بما أنتم أهله .

وقد بيّن الله تعالى فى آية خاصة بأن مراعاة أصول هذا العدل المطلق تشمل الخلق كافة إلا الذين يقاتلون المسلمين من أجل دينهم ، ويعملون على إخراجهم من ديارهم اضطهادا لهم وعدوانا عليهم، فقال : «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم، إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تَوَلَّوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون »

فهو فى هذه الآية لا يوصى بمعاملتهم بالعدل المطلق فحسب ، ولكن يوصى أيضا ببرهم والبر هو أوكد الصلات التى تربط الناس بعضهم ببعض ، وتوجد بينهم المحبة الصادقة والعطف ، وينتهى أمرها بالتوحيد بينهم فى الوجهة والغاية . وهذا أقصى ما يرمى اليه الفلاسفة والمصلحون من الأحلام الاجتماعية . وقد أصاب الاسلام هذا المرمى فكانت نتيجة ذلك أن انقلبت الأمم التى كانت تقاتله الى أمم صديقة له ، بل الى أمم مؤمنة به ، فشهد العالم لأول مرة فى تاريخه تطورا لم يحدث له شبيه فى نفسيات الشعوب المتباينة أصولا ولغات وتقاليد ، إذ تحولت كلها الى أمة واحدة مؤلفة أكبر أمبراطورية عالمية تجرى وراء غاية واحدة هى المثل الأعلى لوجودٍ إنسانىّ كريم يحقق خلافة الله فى الأرض . بدليل أن هذا الجثمان الاجتماعى الضخم لم يستخدم قواه الهائلة فى تجريد الأمم من طيباتها ، ولكنه استخدمها فى حمل أعباء العلم والمدنية فنشر لواءهما عاليا فى كل بقعة امتد سلطانه اليها ، فأدى رسالته التى ندبه الله لها على أكمل وجه . وقد شهد أعداؤه له بهذه الميزة ، فلم ينكر عليه واحد منهم أنه كان منقذ العالم من جهالة مطبقة ، وجاهلية متغلبة ، ومن حالة لو لم يتداركها الله به لا ستعصى داؤها وعز عليها الشفاء .

كل هذا كان بفضل العدل المطلق الذى جعله الحق أساسا لشريعته العامة الخالدة .
فانظر كم كانت تنجو الأمم ، لو عممت تطبيق هذا العدل ، من ثورات أهلية ، ومن كوارث استعمارية ، وكم كانت تقتصد من أموال لا تصرفها اليوم إلا على التسلح خشية أن يبغى بعضها على بعض ؟

إذا أجدت الروية فى هـذا الأمر تبين لك أن الفيلسوف الانجليزى برناردشو لم يغل فى قوله : إن أوروبا لا تماثل من عللها التى تكاد تودى بها إلا إذا أخذت بأصول الاسلام وعملت بها .

ومن أعجب العجائب أن يتخيل بعض متعصبة الكتاب الأوربيين أن الاسلام قام على ظبى السيوف ، هـذا زعم يكذبه الواقع المحسوس وسنن الوجود نفسها ، فإن كل ما قام على السيوف احتيج فى حفظه الى السيوف ثم آل أمره الى الانهيار ، ولكن الاسلام قام على أساس دعوة إصلاح عامة للأمم كافة ، وقد أثمر الثمرات التى تنتظر منها فأحدث انقلابا عالميا نقل به الانسانية من حال تحجر كانت فيه الى حال حياة وحركة تأدت بها الى ما تأدت اليه من الرقى والحضارة المتوثبة الى أبعد الغايات ، وأكمل النهايات .

ولست أنكر أن السيف قد لعب دورا فى إحداث هذا الانقلاب ، ولكنه لم يكن السبب الرئيسى فيه . وهـذه سنة كل انقلاب إصلاحى فى الأرض حتى بين الأمة الواحدة . فالأمة الانجليزية لم تصل الى ما وصلت اليه من التكمل الاجتماعى والدستورى ، والأمة الفرنسية لم تستطع أن تعلن حقوق الانسان بمجرد الدعوة دون اللجأ الى السيف ، فإذا كانت هـذه حالة الأمة الواحـدة فى الانتقال من حال لحال ، أفتريد أن يحدث الاسـلام انقلابا عالميا عاما دون أن يلجأ فيه الى السيف كأداة من الأدوات الضرورية لإحداثه معاصاة لسنن الوجود ونظامه ؟

وهل يغيب عن أحد أن المسيحية نفسها ـ وهى التى تحرم استخدام السيف ـ لم يستتب لها السلطان الذى وصلت اليه إلا باستخدامه ؟

وإذا ذكرنا أن الانجليز والفرنسيين لجأوا الى السيف فى أدوار من تاريخهم فليس معناه أن هاتين الأمتين كانتا تتناحران تحت دوافع وحشية بحتة ، ولكن معناه أن أشياع التقدم فيهما اضطرت اليه لحماية كلمة الاصلاح من عبث العابثين بها . كذلك المسلمون لم يدفعهم الى الحرب أى غرض غير حماية الدعوة الاسلامية من كيد الكائدين لها ، وقد أمروا أن ينشروها فى مشارق الأرض ومغاربها ، لأنها رسالة عامة الى البشر كافة ، فى حين كانت الأمم فيه أحوج ما تكون اليها . وقد دلت الحوادث على أنها كانت خيرا وبركة على العالم كله ، واتفق أنصارها وخصومها على أنه لولاها لتأدت البشرية الى أسوأ منقلب .

الخلاصة أن الاسلام لم يمد رواق سيادته على الأمم التى تدين به اليوم إلا ببركة العدل المطلق الذى أوصى شيعته بالقيام عليه ، فوجدت تلك الأمم فيه ما تحلم به من حياة اجتماعية لا تشوبها شوائب الجنسيات المتنافرة ، والعصبيات المتناظرة ، والطبقات المتحاقدة ، بله ما آنسته فى أصوله من مطابقة العقل ، ومسايرة الدليل ، وفى آدابه من سمو ليس بعده غاية ، ولا وراءه مذهب ، فألقت بنفسها فى جماعته ، ورأت الخير كل الخير فى مناصرته ، والذود عن بيضته .

ولا تزال الدعوة الاسلامية باقية ما بقيت السموات والأرض ، ولا يزال ولن يزال الدليل قائما على أن قبولها هو الدواء الشافى لأدواء الأمم ؟

محمد فريد وجدى

كلمات بليغة

دخل خالد بن عبد الله القسرى على أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة فقال : يا أمير المؤمنين : من تكون الخلافة قد زانته ، فانت قد زنتها ، ومن تكون قد شرفته ، فأنت قد شرفتها كما قال الشاعر :

وإذا الدر زان حسن وجوه ... كان للدر حسن وجهك زينا

التفسير

سورة الرعد

— ٣ —

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : (وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَارًا ، وَمِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ، يُغْشِى ٱللَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) .

تقدم فى الآية السابقة ذكر الدلائل فى العالم العلوى فى قوله عز من قائل : « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » . وسبق الكلام فى تفسير ما انطوت عليه من الدلائل الساطعة والبراهين القاطعة ، التى تملأ النفوس يقينا ، والقلوب إيمانا ، بعظم قدرة موجدها ، وباهر حكمة مبدعها ، وأنه على أن يعيد ما بدأ أقدر ، وبأن يتصرف فيكم بالجزاء على عملكم أجدر ، كما نشاهد ذلك فى ختمها بقوله تعالى : « لعلكم بلقاء ربكم توقنون » . فهى تغرس فى النفس اليقين بعظيم قدرته فلا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وجليل حكمته فلا يترك الأمر فوضى

بينهم : يأكل قويهم ضعيفهم ، ويخرج العبد على الحدود المحدودة له بدون أن يلق على ذلك جزاءه .

وهذه الآية التالية لبيان الدلائل التى اشتمل عليها العالم السفلى ، أى عالمنا هذا الأرضى : ينبهنا على ما حوى من آثار القدرة الباهرة مما عسى أن نمر عليه غافلين فلا نتفكر فيه لطول مشاهدتنا وتكرر وقوع الأنظار . وقد جرت العادة بأن تعنى النفوس بما يفاجئها فتتأمل فيه أكثر من تأملها لما كثرت ملابستها له . يشهد بذلك ما تراه من هلع النفوس وشدة تيقظها عند حصول الحوادث النادرة كالخسوف والكسوف ولو جزئيين ، وغفلتها عما هو أعظم منهما أثرا وأكبر مظهرا مما يحصل دائما متكررا كسلطان الليل والنهار ، وما ذاك إلا لأن كثرة التكرار تهون من أمر التيقظ والانتباه ، ولا كذلك مفاجأة الأمر النادر الوقوع .

والحكمة فى تقديم الدلائل العلوية أنها أول ما تتجه إليها النفوس بالتأمل غالبا ، بما يسطع من ضوئها ، وما يتجلى من سناها وسنائها ، فإن مظاهر العظمة متجلية فيها أيما تجل ، والاعتراف بالقدرة لمبدعها لا تتعاصى عنه نفس مهما ملكها العناد والمكابرة . والمح إن شئت قوله تعالى : « أأنتم أشد خلقا أم السماء » ؟ وختمها بقوله عز وجل : « لعلكم بلقاء ربكم توقنون » لما أن إنكارهم للبعث أو ارتيابهم فيه كان مبنيا على استصعاب إعادة ما فنى وجمع ما بعثر وتفرق ، فكأنه يقال لهم : أى الأمرين أهون : الإيجاد من كم العدم ، أم الإعادة بعد سبق الإيجاد ؟ وأى المخلوقين أشد استنادا الى عظيم القدرة « أأنتم أشد خلقا أم السماء » ؟

ثم إن كل هذا باعتبار ما يبدو لعقل العباد ، وإلا فالكل بالقياس الى قدرته جل شأنه فى السهولة واليسر على حد سواء ، فلا يتعاصى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء .

قال تعالى : «وهو الذى مد الأرض» :

قدمنا فى تفسير قوله تعالى : « الله الذى رفع السموات » أن معناه أوجدها مرفوعة لا أنها كانت مخفوضة ورفعها ، وكذلك القول هنا فى قوله تعالى : « وهو الذى مد الأرض » معناه أوجدها ممدودة مبسوطة متسعة الأكناف مترامية الأطراف . وهذا فى باب الامتنان يرشد الى ما فيها من سعة وبسط ، وذلك هو ما يخص المنتفع فى انتفاعه . أما أن شكلها كرى أوغير كرى ، فلا دخل له فى تقرير هذه المنة ، والكلام مسوق لبيان سعة ملكه وعظيم سلطانه ، وأنه خالق لكم ما خلق مما تشهدون بعظمته وأنه لا يكون إلا عن عظيم قدرة منشئه ، وليس مسوقا لشرح ماهيات الأكوان والبحث عن حقائقها وحقائق أشكالها ، فتلك أمور ترجع الى دقائق العلوم والصناعات ، وهى منوطة بالتفكير فى المخلوقات ، واستقصاء ما يمكن من البحوث العقلية .

وقد دعا الله سبحانه وتعالى العقلاء الى البحث والتفكير فى ملكوت السموات والأرض ، وجعل لهم من إيتاء المنافع جاذبا ، ومن شهوات العقول سائقا يستحثهم على الدأب فى التفكير حتى يصلوا الى ما تسعه عقولهم من أسرار هذا الكون وخفاياه ، سواء فى ذلك الأرضى والسماوى ، وسواء فى ذلك ما يحدث بالتجارب العملية ، وما هو ثابت لا يتغير من أشكال أرضية أو أوضاع فلكية . فالشارع يدعوكم الى التفكير ، والفكر يهديكم الى إدراك ما تبغون . وكلما ازددتم تفكيرا وتمحيصا واعتدلتم فى فكركم بلا تطوح ولا جرى وراء الخيال ، وصلتم الى علم ما أردتم ، وانكشف لكم من هذا النظام ما يزيدكم إيمانا ويقينا .

فقوله تعالى : « وهو الذى مد الأرض » أى وسع أرجاءها ، وسلك لكم فيها سبلا ، وبث لكم فيها منافع . وكل ذلك دال على عظمة مبدعها الحكيم ، جل شأنه ، وتعالى جده ، ولا إله غيره : وهذا المعنى لا ينافى أن شكلها العام كرى حيث أثبته دليل المشاهدة أو غيره ، أو حيث يلمح من قوله تعالى : « يكوّر الليل على النهار ويكور النهار على الليل » إذ يظهر منه أن التفاف كل منهما على الآخر وإخفاءه تحته يشبه لف

كور العمامة على كور آخر منها ، وهو قريب فى الأجسام الكرية المستديرة . وأيا ما كان فليس المقصود هنا بيان الشكل ، وإنما المقصود بيان عظمة ما أبدعه بقدرته ، لنأخذ منه قدرته على تحقيق البعث الذى أنكروه ، وهو أهون عليه .

قال تعالى : « وجعل فيها رواسى وأنهارا » :

الرواسى : الجبال ، جمع راسٍ ، أصله صفة من الرسو وهو الاستقرار ، يقال رست السفينة أى استقرت بعد حركتها ، وفاعل إذا كان اسما أو صفة لما لا يعقل جمع على فواعل . وقد جاء فى آية أخرى : « وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم » . وهذا يعطى شيئا من فائدة الجبال ، وهو منع الأرض من أن تميد . وعللوا ذلك بأن الأرض قابلة للاضطراب والارتجاج مما يجعل الإقامة على ظهرها مقلقة غير مريحة ، فجعلت الجبال فيها لإرسائها ومنعها أن تميد بما حوت من ثقل ، وبما ركزت فى محال الله أعلم بحكمتها . ولا يقال إن نسبة الجبال الى الأرض كلا شىء فكيف تثبتها ؟ لأنا نقول إن هذا لا يتوقف على ضخامة ولا غيرها ، ألا ترى الى حجر بسيط يوضع فى قعر السفينة فيمنعها أن تميد . وإذا رددت هذا الى قانون حفظ التوازن نقول : وهذا أيضا مردود الى قانون علمه مبدعه ، سواء أعلمناه أم لم نعلمه ، وإذا لم يعلم الآن فلا يبعد أن يعلم فيما بعد . وكم من حقائق علمية انكشفت بعد أن كانت خفية .

وربما يقال : ولم جعلت الأرض بأصل خلقتها مستعدة لأن تميد ثم ثبتت بالجبال ، ولم لم تجعل من أول أمرها ثابتة بلا حاجة الى الجبال ؟ وهذا مدفوع بأن حكمة المبدع الحكيم اقتضت أن يرتبط أجزاء العالم بعضها ببعض بالتسبب والاستناد ، حتى كأنه كتلة واحدة أو جسم يحتاج بعضه الى بعض ، زيادة فى كمال الترابط . ألا ترى أنه كان يمكن أن يخلق الانسان جسما كاملا لا يحتاج الى غذاء ولا الى دواء ولا كساء ولا غطاء ، ولكنه خلقه بحاجة الى ذلك كله ليتم ارتباطه بالكون الذى هو جزء منه ، بل خلق أجزاء الانسان بحيث يحتاج بعضها الى بعض . وانظر الى الحواس والجوارح ، وانظر الى العضلات

والدم والدهن فى الانسان ؛ وانظر الى المعـدة وباقى الجسم ؛ وانظر الى المخ والأعصاب وهكذا : تجد كل جزء قائما بعمل فى الجسم الواحد ، فكذلك الانسان مع الكائنات المحيطة به ينتفع بها فى غـذائه ودوائه ، وتنتفع به فى عمرانها وتحليلها وتركيبها . وهكذا يجتمع العالم فى التفاعل مع تباعـده فى الوجود . وهـذا صنع الحكيم العليم .

ومن فوائد الجبال غير هـذا أنها مادة للعيون ، ومنشأ مدد للأنهار ، ولذلك تجد الجبال أكثر ماتذكر مقترنة بالأنهار ، كما فى هذه الآية ، وكما فى قوله تعالى : « وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا » فى سورة النحل وفى سورة لقمان ، وكما فى قوله تعالى : « وجعلنا من الماء كل شيء حى أفلا يؤمنون . وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم » الى غير ذلك . وقـد علل ذلك الباحثون بأن مادة ماء العيون السحب ، وأكثر ماتهطل على رءوس الجبال ، فمنها مايسيل فى شعابها فيتخذ من ذلك مجارى وسبلا وأنهارا ، ومنها ما تنشقق لها الجبال فتختزن فيها ثم تسلك فجاجا تحت الأرض حتى تتفجر من ناحية أخرى علمها العليم ، واقتضتها حكمة الحكيم .

وأيضا ترى الجبال بسبب ارتفاعها أبرد جوا من الوهاد ، كما تدل عليه المشاهدة ، فيجتمع على سطحها من الثلوج والأبخرة المنحلة الى الماء ما يسيل منه الأنهار فضلا عن تقطع السحاب على ذراها ، فينحل الى مائيته الأولى ، وبذلك تشهد مناسبة ضم الأنهار الى الجبال .

ولعل من حكمة جعل الجبال فيها وجعل منابع الأنهار ومددها منها ، ماذكره بعض الباحثين من أن المياه النازحة منها تجرف مع انحدارها أجزاء طينية تصطدم فى صخور تلاقيها ، فتذوب وتسير مع الماء بانحداره العظيم ، حتى تصل الى ما شاء الله أن تصل اليه ، فترسب طميا صالحا للإنبات مخصبا منميا ، وهذا كله من مظاهر الارتباط بين أجزاء هذا العالم ، فمنه ماعرفناه ، ومنه مالم نعرفه ، والله بكل شيء عليم .

هذا والأنهار جمع نهر ، وهو فى الأصل مجرى الماء العظيم ، وقد يطلق على الماء الجارى نفسه تجوزا ، وقلما يستعمل إلا فى مجرى الماء العذب .

هذا ونزول الأنهار من الجبال على ما قررنا لا يعارض قوله تعالى : « وأنزلنا من السماء ماء طهورا » ونحوه ، لأن المراد من السماء جهة العلو ، ولا شك أن الأمطار على ما قررنا هي المادة الأصلية للعيون والأنهار ، وهي نازلة من جهة العلو . ونبع بعض العيون من الأرض بدون استمداد من الأنهار ، كالعيون المجاورة للبحار لا يمنع ذلك ، فلم يكن المراد الحصر .

قال تعالى : « ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين » :

هذا لبيان أثر آخر من آثار القدرة الباهرة ، هو كالنتيجة لما قبله من جعل الرواسي والأنهار فيها : ذلك أن الثمرات ما جاءت إلا عن أرض خصبة تغذيها مياه عذبة ، وقد عرفت أن الجبال تمد السهول فى الغالب بالمادة الطينية الخصبة ، وأن الأنهار ترويها بالمياه العذبة ، فيتولد منها الثمرات من كل زوجين اثنين . ومعنى الزوج : الشيء المنضم الى غيره ليكون من ازدواجهما وانضمامهما ثمرة مقصودة منهما . فليس الزوج اسما للاثنين ، بل الاثنان زوجان .

فالمعنى جعل فى الأرض من كل أنواع الثمرات ، وجعلها بحيث لا يتم الغرض المقصود منها إلا بانضمام زوج منها الى الآخر ، حتى يتم التماسك والتساند بينهما ، ويظهر الارتباط الذى لابد منه فى بقاء نوعها . فالمراد بالزوجين عنصرا التذكير والتأنيث فى الثمرات .

وقد أثبت الباحثون أن النبات محتو على عنصرين أحدهما للتذكير والآخر للتأنيث ، فالتوالد فيه كالتوالد فى فصائل الحيوانات يحتاج الى زوجين ذكر وأنثى . غاية الأمر أن بعض الأنواع قد تكون زهرته الواحدة بحيث يجتمع فيه الذكر والأنثى ، وبعضها يكون فيه التذكير فى زهرة والتأنيث فى أخرى ، أو التذكير فى شجرة والتأنيث فى أخرى كما فى النخيل . فقوله تعالى : « زوجين » إشارة الى قانون الارتباط والتماسك الذى بثه الله فى العالم مبنيا على احتياج كل الى كل ، والله عليم حكيم .

أما قوله تعالى : « اثنين » بعد قوله : زوجين ، فلتأكيد المراد من كلمة زوجين ، وأنه ليس معنى الزوج فيه اثنين حتى يكون جعل من كل ثمرة أربعة ، بل المراد به الواحد المنضم الى ما يزاوجه . فأصل كل ثمرة اثنان ، كما أن أصل كل مولود من المولودات الأخرى اثنان . وزيادة مِن فى قوله : « من كل الثمرات » لبيان أن قدرة الله تعالى صالحة لإيجاد أنواع من الثمرات غير ما شاهدتم مما لا يدخل تحت الحصر . وها أنت ذا ترى التجدد لا ينقطع فى أنواعها حينا فحينا .

قال تعالى : « يغشى الليل النهار » :

أى يجعل الليل غاشيا للنهار أى ساترا له : وقرئ يغشّى بالتشديد وهو بمعناه ، إلا أنه قد يدل على التكرار ، والأول يدل على أصل الفعل . وهو كما يغشى الليل النهار كذلك يغشى النهار الليل أى يستره به ، إلا أن الستر بالليل أنسب ، فلذا اقتصر عليه ، واكتفى بأن عكسه معلوم منه .

ولا يخفى عليك أن فى تعاقب الليل والنهار على الثمار عونا على إنضاجها وإكمال صلاحها ، فلو جعل النهار والليل عليها سرمدا لما بدا صلاحها ، ولما تم إنضاجها . فتعلق الليل والنهار بهما تعلق المتمم بما يحتاج اليه فى تمامه ، وبذلك يظهر لك حسن الارتباط . ونظم الليل والنهار فى سلك الآيات الأرضية لما ذكر ، ولأن مظهرهما لنا فى عالمنا الأرضى وإن كان المنشأ لهما من العالم السماوى العلوى ، فهما يلابساننا ويحيطان بنا وننتفع بهما ، إذ يبعثنا النهار الى الحركة فى أعمالنا ومصالحنا ، ونسكن فى الليل حتى نسترد قوانا ، فهما لنا من الملابسات التامة .

هذه الآيات الأرضية يمر عليها الناس وهم عنها غافلون ، لا يدرك ما فيها من آثار العظمة إلا المفكرون . فلذا أردفت بقوله تعالى : « إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . وذلك لما سبق لك من أن كثرة تكرار النظر الى الشىء يضعف معنى التأمل فيه ، كما شرحنا ذلك بالمقارنة بين تأثر النفوس بظاهرة الكسوف والخسوف ولو جزئيين ، وعدم

اكترائها بدخول الليل أو طلوع النهار . فلا جرم قال هنا : « إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . وأما العالم العلوى فإنك ترى أن الانسان لا يكاد يتطلع اليه ويملأ نظره فيه حتى يجد من نفسه اعترافا بعظمة مبدعه وباهر قدرته ، فينطلق لسانه بالتسبيح والتقديس لأول وهلة ، ولا يجد من نفسه فى ذلك مكابرة . فلذا أردفها بقوله فيما سبق : « لعلكم بلقاء ربكم توقنون » . والتفكر إطالة النظر وإجالة البصيرة ودوام التأمل حتى يقف المرء على دقائق وأسرار لم تكن بادية له عند النظرة الأولى ، وهو الذى يعبر عنه علماء المنطق بعبارة: ترتيب أمور معلومة للتوصل بالنظر فيها الى علم ما لم يكن معلوما .

وقد ذكر بعض المفسرين أن أكثر ما تذكر الآيات الأرضية تردف بالحث على التفكر ، وذلك لأن بعض الناس يرد حدوثها الى اتصالها بالحركات الفلكية والأوضاع الكوكبية ويقتصر على ذلك ، فإذا تفكر علم أن الأوضاع المذكورة لا يمكن أن تنتج هذا النظام المحكم الذى لا يكون إلا من عليم خبير قادر حكيم ، فإن وضع الأفلاك أو الكواكب بالنسبة الى الجسم الواحد ، واحد تقريبا ، فكيف جعل فى الحيوان جزءا هو عظم فى منتهى الصلابة ، وجزءا هو دم أو دهن فى منتهى الرقة ، وجعل بينهما أجزاء مختلفة الطبائع من أعصاب وعضلات ، وجزءا مغشيا للجميع ممسكا لها ضاما لأجزائها هو الجلد ، وجعل الجميع على اختلاف طبائعه يسند بعضه بعضا ، ويخدم بعضه بعضا . هل الفكر الصحيح يستريح إلا إذا رد ذلك الى القادر المختار ؟

وقد هدى الله تعالى الى باب الرشاد الواضح فى ذلك حيث أردف هذا بالآية التالية ، فقال تعالى : « وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

وهذه جملة أخرى مستأنفة لذكر نوع من أنواع الأدلة الأرضية ، وهى ما يتجدد أمام أنظارنا من حوادث متعاقبة ، بعد أن ذكر ما فيها من أمور ثابتة فى الآية السابقة ،

فقال تعالى: « وفى الأرض قطع متجاورات » أى بقاع كثيرة مختلفة، فمن خصب الى جدب، ومن صالح للزرع دون الشجر وصالح للشجر دون الزرع وصالح لهما معا، ومن حزن الى سهل، ومن رخوة الى صلب، ومن أحجار كريمة الى مواد تافهة، ومن ومن الخ، وكلها متجاورات. فمن الذى جعل فيها تلك المفارقات والمباينات: أجاء هذا من الأفلاك والكواكب، أم جاء من طبيعة صالحة وأخرى فاسدة؟ فمن الذى جعل هذه صالحة والأخرى فاسدة، والمادة فى الجميع واحدة، والعوامل المتسلطة عليها واحدة؟ أفمع هذا التجاور مع اتحاد المادة الأصلية يجىء كل هذا التباعد؟ وهب أن ذلك مرجعه الى عوامل تسلطت عليها، فمن الذى سلط تلك العوامل حتى جاء هذا النظام البديع الذى حارت فيه العقول والألباب؟ وهل يستقر للفكر قرار وتطمئن النفوس اليه تمام الاطمئنان إلا إذا أسندت ذلك الى مدبر عالم حكيم مريد؟ سبحانك ما خلقت هذا عبثا، وليس لغيرك أن يدرك كل الأسرار التى بثثتها فى مصنوعاتك، فضلا عن أن يشاركك فى ملكك، سبحانك لا إله غيرك، ولا شريك لك فى ملكك:

وقوله: « متجاورات » أى متلاصقات لم تختلف بها الأقاليم ولم تتباعد بها المناطق.
وكما فيها قطع متجاورات اختلفت صفاتها، تجد فيها قطعا غير متجاورة اتحدت صفاتها.
واكتفى بالأول عن الثانى مع فهمه منه لأنه أوضح دلالة. ألا ترى أنك حين ترى زهرة اشتملت أوراقها على ألوان عدة فى ورقة صغيرة دقيقة، أنطقك ذلك بالتسبيح للحى القيوم، ودعاك الى الاعتراف بالقدرة أكثر مما إذا رأيت نباتا من نوع واحد فى منطقتين مختلفتين؟

وقوله: « وجنات من أعناب » بدأ بها من بين ما تثمر الأرض لاحتواء العنب على دقيق الصنع الإلهى: إذ ترى فيه من الاختلاف فى الطعم واللون، ومن الاحتواء على الثمرة التى قوامها ماء متجمع فى قشرة رقيقة قد يكون شفافا لا يحجب البصر عن إدراك ما فى باطنه، يتوسطه بذرة يابسة ذات لب هو منشأ النبات، وغلاف خشبى حمى الماء،

المقصود أن يتصل بذلك الباب ، الى غير ذلك مما فصله علماء النبات ، فيه من ذلك ما ينطق العقل قبل اللسان بالتحميد والتمجيد . ولذلك ورد فى بعض الأخبار القدسية : « أتكفرون بى وأنا خالق العنب » ؟

ثم أردفها بالزرع وهو النبات المقابل للأشجار ، كنبات الحبوب والألياف ونحوها . وإفراد الزرع مع تنوعه مراعاة الى أن أصله بصيغة المصدر .

ولعل توسيط الزرع بين جنات الأعناب والنخيل لتوجيه النظر الى ما يجرى فى كثير من الجنات من أنها تفصل بالأعناب ويتخللها الزرع يحيط بها النخيل ، كما فى قوله تعالى : « وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا » كأن ذلك حين يجتمع على هذه الصفة تجد فيه من دلائل القدرة الباهرة ما فيه .

وقوله : « ونخيل صنوان وغير صنوان » النخيل معروف ، والصنوان جمع صنو ، وهو الفرع الذى يجمعه وآخر أصل واحد . وأصله بمعنى المثل . ومنه قولهم : العم صنو الأب ، أى مثله فيما ينبغى له من التكريم .

قال تعالى : « يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل » :

هذا موضع الاعتبار الواضح فى الدلالة البينة : إذ كانت قطعها متجاورة وأصل مادة زرعها واحد ، وتسقى بماء واحد ، ثم تجىء متفاضلة فيما يؤكل منها : فمنها الحلو ، ومنها الحامض ، ومنها الحريف ، ومنها التافه ، ومنها الرطب ، ومنها اليابس ، ومنها ما يتخذ غذاء ، ومنها ما يتخذ دواء ، ومنها مالا تحصر آثارها المتباينة ، ولا يحاط بفوائدها العامة ، أومضارها التى قد تقصد فى بعض الأوقات . والإحاطة بذلك قلما تتفق ولا لعلماء النبات ، فلا تزال التجارب تكشف من غوامضها مالا يحصى .

ولما كانت هذه الآثار جلية واضحة والاعتراف بها لايحتاج الى طويل تفكير ، بل يكفى فيه نظرة من عقل البصير ، أردفها بقوله تعالى : « إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » كأنه يشير الى أن من رأى هذا ولم يبادر بالاعتراف بقدرة مبدعه ، ليس جديرا

أن يسمى من العقلاء ، فقد أهمل عقله ، وأظهر جهله . وهذا فى الآيات المتجددة فى الثمار والزروع والنخيل والأعناب موقظ للتأمل وحده ، فكل جديد جدير بأن يسترعى النظر ، بخلاف ما فى الآية السابقة من الأمور الثابتة من الجبال والأنهار ، وتغشية الليل النهار ، فان ذلك محتاج الى التأمل والتفكير .

وأظنك تدرك من نفسك أن الثمرات ذكرت فى الآية الأولى من جهة ما فيها من قانون ثابت ، وهو قانون التزاوج المشترك فى جميعها ، وأنه من الخفاء بحيث يحتاج فى الاهتداء اليه الى البحث والتفكير ، فلذا أدرجه فى الآية المختومة بقوله : « إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . وذكرت فى هذه الآية من جهة ما يبدو فيها من الطعوم المختلفة والمراتب المتباينة والآثار المتفاضلة ، وهى لا تحتاج الى تفكير ، فحسن نظمها فى الآية المختومة بقوله تعالى : « إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

نسأل الله تعالى أن يهدى قلوبنا للإيمان واليقين من هذه الجهة ، وأن يشرح صدورنا للتفكير حتى تطمئن الى الايمان به كل الاطمئنان ، والله المستعان . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

ابراهيم الجبالى

مما قيل في الليل

وصف أحد الادباء الليل فقال :

فيه تجم الاذهان ، وتنقطع الاشغال ، ويصح النظر ، وتؤلف الحكمة ، وتدر الخواطر ويتسع القلب . والليل أضوأ فى مذاهب الفكر ، وأخفى لعمل البر ، وأعون على صدقة السر ، وتلاوة الذكر . ومدبرو الامور يختارون الليل على النهار فيما لم تصف فيه الاناة لرياضة التدبير ، وسياسة التقدير ، فى دفع الملم ، وإمضاء المهم ، وإنشاء الكتب ، وتصحيح المعاني ، وتقويم المباني ، وإظهار الحجج ، وإيضاح المنهج ، وإصابة نظم الكلام ، وتقريبه من الافهام .

الشـــجاعة

مقدمة فی مكارم الأخلاق :

كتبنا فيما سبق شيئا عن المحبة وأنواعها، وشيئا عن الرحمة وآثارها. ونريد اليوم أن نكتب لك شيئا عن الشجاعة وفوائدها التي لا يحصيها العد . ولنقدم بين يدى ذلك كلمة إجمالية عن مكارم الأخلاق عموما ، فنقول : مكارم الأخلاق أوساط بين الإفراط والتفريط ، فمتى جاوزت نقطة الوسط فقد جاوزت الفضيلة . فالشجاعة مثلا وسط بين الجبن الذى هو تفريط، والتهورِ الذى هو إفراط . والسخاء وسط بين البخل الذى هو تفريط ، والتبذيرِ الذى هـو إفراط . فإياك والزيادة فيما تظنه فضيلة فتقع فى الرذيلة (كلا طرفى كل الأمور ذميم) .

حتى إن القوة الفكرية ، وهى أشرف القوى ومدار الانسانية ، إذا زادت عن حدها ، خرجت بك الى رذيلة الخبث والدهاء ، والمكر والحيلة . وليس الكفر والتهجم على مقام الألوهية واقتحام تلك المخاطر إلا رذيلة من رذائل القوة الفكرية . فرذائلها أقبح الرذائل ، كما أن فضائلها أشرف الفضائل . وهكذا الحال فى الفضائل والرذائل فى القوة الشهوية والقوة الغضبية : على قدر ما ترتفع بفضائلها تنحط برذائلها على نسبة واحدة . فأعظم القوى الثلاث فضائل ورذائل ، هى القوة الفكرية ، ثم القوة الغضبية ، ثم القوة الشهوية .

وكأن نقطة الوسط التى نوهنا عنها هى الصراط المستقيم الذى أمرنا تعالى بطلب الهداية على سبيل الوجوب سبع عشرة مرة فى كل يوم وليلة : « اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم » .

ولا بد أن تكون قد سمعت أن الصراط أرق من الشعرة وأحد من السيف . ولعلك كنت تستغرب من ذلك وتصدق به تقليدا من غير أن تفهم له معنى ولا تذوق له سرا .

فاعلم أن نقطة الوسط عسرة جدا ، ولا يمكنك أن تقف عندها إلا إذا رزقت المعونة ومنحت التأييد ، فلا يكاد يهتدى إليها ثم يصبر عليها إلا الأنبياء والمرسلون وكل الرجال من ورثتهم « وقليل ماهم » . فما هي أرق من الشعرة وأحد من السيف .

وأحب منك الآن على عجل أن تصدق معي أن الصراط الأخروى على ما سمعت ، وتعلم أن كل شيء تراه في الآخرة إنما يمثل ما كان من أحوالك وأعمالك وأوصافك في الدنيا ، فإن الأرواح متى قوى سلطانها خفيت مقتضيات الأجسام ، فكان الحكم لها هو ما يكون في الآخرة ، كما أن الأجسام متى قوى سلطانها ظهرت مقتضياتها وخفيت مقتضيات الأرواح كما في الدنيا . فإذاً سيرك بسرعة أو بطء على ذلك الصراط هناك يمثل سيرك هنا على صراط الوسط في كل شيء ، الذى هو أرق من الشعرة وأحد من السيف ، وذاك الصراط يمثل هذا الصراط . ومتى قدرت على أن تسير عليه ها هنا أمكنك أن تسير عليه هناك ، والعكس بالعكس . وعلى قدر ما أنت عليه اليوم يكون حالك غدا ، حتى إذا كنت من المسارعين إلى الخيرات السابقين في الفضائل والكمالات ، كنت هناك طائرا لا سائرا .

ولنرجع الى ما تصدينا له اليوم من الكلام على الشجاعة فنقول :

الشجاعة ماهي :

الشجاعة : ملكة في النفوس يورثها الإقدام على الأمور الكبيرة ، والمخاوف الخطيرة ، للحصول على غاية سامية تنبعث من نفس شريفة . أو نقول بعبارة أخرى : الشجاعة هي الإقدام تحت إشراف الحكمة ، للدفاع عما يجب الدفاع عنه : من نفس ، أو دين ، أو وطن ، أو غير ذلك ، وهي فضيلة من أسمى الفضائل . وإن شئت فقل إنها حارسة الفضائل كلها ، وأس السعادة في الدنيا والآخرة . وليس يخفى عليك مالها من الأثر في رقى الأمم وتقدم الممالك في هذه الحياة .

فكل أمة ضربت فيها بسهم وأخذت منها بأوفر نصيب ، أصبحت شامخة المجد

عالية القدر فسيحة الملك، لا يعوزها نشر العمران، ولا يعوقها عائق عن توسيع سلطانها وتوطيد دعائمها. وما من أمة أخلدت الى الجبن وأهملت واجبها وفرطت فى جنب ما تحتاجه من الوسائل القوية والمعدات الضرورية، إلا صارت الى الذل والهوان، وباءت بالخيبة والخسران، لا تستطيع دفع الطامع عنها، ولا تقوى على حفظ كيانها والذود عن حياضها، ولا تلبث إلا ريثما يتم اتفاق الدول القوية على التهامها ومحو صورتها من بين الأمم المستقلة.

كانت الشجاعة من المناقب التى امتاز بها العرب، وفاقوا غيرهم فى الأخذ بناصرها والتمدح بآثارها، والافتخار بمزاياها، والازدهاء بمحاسنها، حتى بلغ من ذلك أن حض عليها الأمراء، وتباهى بها الكبراء والوضعاء فى محاوراتهم وأشعارهم.

قال سيدنا أبو بكر لخالد بن الوليد: «احرص على الموت توهب لك الحياة».

وقال الشاعر:

محرمة أكفال خيلى على القنا ودامية لباتها ونحورها
حرام على أرماحنا قتل مدبر وتندق منها فى الصدور صدورها

ويقول الآخر:

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أتقدما

ولهم غير ذلك من الأخبار والشواهد، مما يدل على أنها كانت ألزم لهم من ظلهم، وأثبت عندهم من شخصهم.

ولا غرو فهى الفضيلة التى ليس بعدها فضيلة، والمزية التى ليس وراءها غاية. لذلك كانوا فى جاهليتهم ذوى شمم وحمية، وعزة وأنفة، يأبون الضيم، وينفرون من الذل، فلما سطع نور الاسلام فى بلادهم، وخفقت أعلامه على ديارهم، وأفاض عليهم من العلم والعرفان ما شاء الله أن يفيض، قاموا والشجاعة رائدهم، والاسلام قائدهم، ينشرون دين الله، ويعززون دعوة نبيه، فدانت لهم البلاد، وخضعت لهم أعناق الأكاسرة،

فلم يمض عليهم قرن من الزمان حتى استولوا على صولجان الرياسة فى مملكتى الرومان والفرس ، ووطئت أقدامهم غالب آسيا وأفريقية ونحو نصف أوروبا ، وهناك نشروا علومهم التى جاء بها الاسلام ، ومعارفهم التى أتى بها القرءان ، وأصبحوا رؤساء العالم وقادة الأمم ، وأرقاهم مدنية وحضارة .

وهاك تاريخهم المجيد لا يزال ينبئ عما كان لهم من الملك الواسع والسلطان الشامخ بفضل علمهم وشجاعتهم . وقد شهد لهم جوستاف لوبون بذلك فى كتابه (حضارة العرب) وغيره من علماء الأوربيين وفلاسفتهم .

الأمة الى الشجاعة أحوج منها الى كثرة العدد ووفرة الأموال ، ذلك أن الأمم فى اعتداء مستمر ، وتغالب دائم ، وتنافس شديد ، كالأشخاص . فإذا لم يكن للأمة قسط وافر من الشجاعة وعامل قوى من الحمية والأنفة ، عرضت نفسها لالتهام الطامعين ، فسقطت فى هوة سحيقة من الذل والاستعباد .

هب أن أمة لم تأخذ من الشجاعة بقسط ، وقد جمعت القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، وكان لديها العدد العديد من أبنائها : أفيغنى ذلك شيئا عند مداهمة خطب مدلهم من جانب الأمم المغيرة والفرسان الفاتحين ؟ !

إن ما جمعته بلا شك يكون داعيا قويا وباعثا شديدا للتوارد على ذلك المنهل العذب الذى لم يقم عليه حارس الشجاعة .

حاجة الامة الى الشجاعة فى داخليتها :

إن الأمة كما تحتاج الى الشجاعة فى رد الغارات ودفع الغوائل ، تحتاج إليها كذلك فى إدارة شئونها واستقامة أمورها واعتدال نظامها وتنفيذ مصالحها . فالحاكم إن كان مقداما على تنفيذ ما يصدره من الأحكام وإقامة الحدود وما يسنه من القوانين ، خضعت الأمة لأوامره ، واطمأنت الى أحكامه ، وسارت معه فى طريق الوفاق والوئام .

وإن آنست منه جبنا أوظننت منه توانيا فى إقامة العدل ونصرة المظلومين وتشجيع العاملين، ساء رأيها فيه وملئت سخطا عليه، ففسدت الأحوال وعم الوبال.

الحاجة الى الشجاعة فى نصرة الحق والقيام بالواجب:

ليس يخفى عليك أن العالم لا ينتفع بعلمه، ولا يستطيع دفع الشبهات والريب عن دينه بإقامة البراهين الساطعة والحجج الدامغة حتى يحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون، إلا بالشجاعة والإقدام.

كذلك الطبيب لا يجرؤ على قطع الأعضاء الفاسدة، وجبر العظام الكسيرة، وتضميد الجروح الخطيرة، وإجراء تلك الأعمال الجراحية كلها، إلا إذا ساعده باعث الشجاعة. وقس على هؤلاء غيرهم ممن لا يقومون بمهنهم، ولا يسرعون الى عمل ما يناط بهم، إلا إذا كانت الشجاعة أول خلالهم، وأجل أخلاقهم وأظهر سجاياهم. وعلى ذلك تكون الشجاعة أقوى الدعائم فى سعادة الأمم ورفعتها وحضارتها ونعيمها كما قلنا. وهو ميدان فسيح لا يأتى عليه البيان، ولكنه لا يغيب عن الأذهان.

وبعد: فيحسن بنا أن نذكر لك شيئا من شجاعته صلى الله عليه وسلم حتى تقتدى به فتسعد سعادة لا شقاء بعدها: «لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة».

ويكفيك من ذلك أنه قام وحيدا فريدا يدعو الى الله، وقريش على بكرة أبيها تناوئه بصنوف المناوأة، بل العالم كله إذ ذاك كان ضد هذه الدعوة، فلم يفل ذلك من عزمه ولا فتر من همته، فكان يسفه أحلامهم، ويسب آلهتهم بكل ما استطاع من قوة. وقد ذهبوا الى عمه أبى طالب مهددين متوعدين، فقال له عمه: «يا ابن أخى إن قومك قد جاءونى، فأبق علىّ وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق» وليس يخفى عليك أن أبا طالب إذ ذاك كان نصيره الوحيد.

فانظر الى قوله له: فأبق على وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق، فليس هناك أبلغ من هذا التهديد والتخويف من رجل لا ثقة له بغيره، ولا تعويل على أحد

من الخلق سواه . فماذا قال له صلى الله عليه وسلم بعد هذا ؟ قال له : « والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » .

ومما ورد فى شجاعته صلى الله عليه وسلم الخارقة للعادة ، مارواه جابر رضى الله عنه إذ يقول :

« كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم بذات الرقاع فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبى صلى الله عليه وسلم ، فجاء رجل من المشركين وسيف النبى صلى الله عليه وسلم معلق بالشجرة ، فاخترطه فقال له : تخافنى ؟ فقال له : لا . قال : من يمنعك منى ؟ قال : الله » رواه البخارى ومسلم . وفى بعض الروايات أن النبى لما قال له ذلك سقط السيف من يده فأخذه صلى الله عليه وسلم ، فقال له الرجل : كن خير آخذ . فلما عفا عنه رجع الى قومه وهو يقول : جئتكم من عند خير الناس .

ولقد روى الشيخان عن أنس رضى الله عنه أنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وأجود الناس ، وأشجع الناس ، لقد فزع أهل المدينة ليلة فانطلق الناس قبل الصوت ، فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا على فرس لأبى طلحة والسيف فى عنقه وهو يقول : لم تراعوا .

ومن مواقفه صلى الله عليه وسلم المشهورة الضخمة (وكل مواقفه صلى الله عليه وسلم ضخمة) موقفه يوم حنين :

روى البخارى ومسلم وحكاه القرءان أيضا أن أصحابه ولوا عنه يومئذ مدبرين .

واتفق الشيخان على أنه صلى الله عليه وسلم كان راكبا بغلة . ولفظ مسلم من رواية العباس رضى الله عنه : فلما التقى المسلمون والكفار ، ولى المسلمون مدبرين ، فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض بغلته قبل الكفار . قال العباس : وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكفها ألا تسرع .

ولعمر الله إن ذلك لفوق مانعهده من شجاعة البشر ، فإن الإنسان مهما كانت شجاعته لا يقدم بنفسه على الألوف المؤلفة بعد مافر عنه أصحابه ، وخصوصا إذا كان على بغلة بين تلك الخيول المطهمة والفرسان المدربة . وقد كان يقول وهو على ذلك الحال :

أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب .

فكأنه كان يلفتهم اليه وينبههم على مكانه ، فأى شجاع نعرفه من البشر يستطيع ذلك أو قريبا منه ؟ : ولكن لا عجب : فقد امتلأ قلبه ثقة بالله وتوكلا عليه ، عالما أنه اليه يرجع الأمر كله ، وأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن : « وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا رادّ لفضله » .

هذا ولتعلم أن أفضل أنواع الشجاعة ألا تجبن أمام شهوتك عند ما يشتد توقانها ، ولا أمام غضبك عند ما يحتد سلطانه ويتحكم شيطانه . ولهذا يقول صلى الله عليه وسلم : « ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب » . رواه الشيخان .

وإنما كان هذا هو الشديد ، لأن جمرة الغضب التى تتقد فى قلبه لم تخرجه على شدتها عن حد اعتداله ووقاره ، بل كان سلطان عقله ودينه أكبر من سلطان شهوته وهواه ، فصارها حتى خمدت كل الخمود ، ولم يظهر عليه شىء من آثارها لأنه ملك زمام نفسه ، فلم تجمح به ، ولم تورطه فى المهلكات .

وقد روى البيهقى أن النبى صلى الله عليه وسلم قد مر بناس يحملون صخرة ثقيلة يختبرون قوتهم ، فقال : « أتحسبون الشدة فى حمل الحجارة ؟ إنما الشدة أن يمتلىء الرجل غيظا ثم يغلبه » .

وانظر إن شئت الى ما كان منه صلى الله عليه وسلم يوم أحد وقد كسر المشركون رباعيته وشجوا وجهه الشريف ، فكان يقول : « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » .

وهذا شىء لا يكاد يصدقه العقل لو لا أن النبى من طراز آخر غير ما نعرف فى الناس ، فإنه صلى الله عليه وسلم فى ذلك الوقت الذى حصلت فيه تلك الحادثة الفظيعة

لم يعف فقط ، بل زاد أن طلب لهم من الله الهداية ، وزاد على ذلك أن بين عذرهم فيما فعلوه ، وهو أنهم جاهلون لا يعلمون مقداره صلى الله عليه وسلم .

وروى البخارى ومسلم والبيهقى فى الأدب وأبو داود والقاضى عياض فى الشفاء واللفظ له ، عن أنس رضى الله عنه قال : « كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم وعليه برد غليظ الحاشية ، فجبذه أعرابى بردائه جبذة شديدة حتى أثرت حاشية البرد فى صفحة عاتقه ، ثم قال يا محمد : احمل لى على بعيرىَّ هذين من مال الله الذى عندك فإنك لا تحمل لى من مالك ولا من مال أبيك . فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال : المال مال الله وأنا عبده . ثم قال : ويقاد منك يا أعرابى بمثل ما فعلت بى ؟ قال : لا . قال : لم ؟ قال : لأنك لا تكافئ بالسيئة السيئة . فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير وعلى الآخر تمر . وهو فى هذه الحادثة أيضا لم يعف عن هذا الجاهل فقط ، بل حمل له بعيريه كما طلب . فكان فى ذلك ممتثلا قوله تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » . وكم له من مثل ذلك صلى الله عليه وسلم .

وقد قالت السيدة عائشة فى بيان خلقه : « كان خلقه القرءان » ثم قرأت قوله تعالى : « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون » . الى آخر ما لا يمكننا تفصيله فى هذه الكلمة المجملى .

أسأل الله أن يرزقنا اتباعه ، والاقتداء به ، صلى الله عليه وسلم ، بمنه وكرمه ؟

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء

باب الأسئلة والفتاوى

من هو الذبيح

ورد الى المجلة هذا السؤال :

أرجو الإفادة عمن هو الذبيح من ولدى سيدنا ابراهيم الخليل : أهو إسماعيل أم اسحاق ؟

محمد يوسف محمد
دير البنات — مصر

الجواب

المشهور عند كثير من المحققين والمفسرين ، كالإمام الألوسى فى تفسيره ، اختيار أن الذبيح هو اسماعيل عليه السلام ، وذلك بشهادة الظاهر من نصوص آيات قرءانية وأحاديث نبوية ونصوص من التوراة .

أما الآيات القرءانية فمنها قوله تعالى : « وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين » . وجه الاستدلال بهذه الآية أن إسماعيل وصف بأنه من الصابرين ، وقد حكى الله تعالى عن الذبيح الوعد بالصبر فى قوله تعالى : « يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » . فكان الظاهر أن الذبيح هو اسماعيل . ومنها قوله تعالى : « فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب » . بيان ذلك أن بشارتها بمولود هو إسحاق يكون له ولد هو يعقوب يبعد أن الذبيح هو إسحاق ، إذ البشرى بولد الولد فرع طول حياة الولد ، فلا يناسب الأمر بذبحه .

وأما الأحاديث فمنها قوله صلى الله عليه وسلم : « أنا ابن الذبيحين » . بيانه أنه صلى الله عليه وسلم معلوم أنه من نسل إسماعيل لا إسحاق كما هو معروف فى سلسلة نسبه . ومنها أن أعرابيا قال له صلى الله عليه وسلم : يا ابن الذبيحين . فتبسم ولم ينكر عليه ذلك ، وإقراره

دليل على أن الذبيح إسماعيل . وأما التوراة ففيها أن الله تعالى امتحن ابراهيم فقال له : يا إبراهيم . فقال : لبيك ، فقال : خذ ابنك وحيدك الذى تحبه واحمله الى بلد العبادة ثم اجعله قربانا على أحد الجبال . وفى بعض روايات التوراة : بكرك الخ . بيانه أن الوحيد الذى يحبه والبكر هو إسماعيل كما تؤيده بقية نصوص التوراة ، إذ فيها أنه ولد له إسماعيل وهو ابن ست وثمانين سنة وولد له إسحاق وهو ابن مائة . فظهر من هذه الأدلة أن الذبيح هو اسماعيل عليه السلام . وقد روى هذا القول عن كثير من الصحابة كعلى وابن عباس وأبى هريرة والتابعين كابن المسيب ، وتابعى التابعين كاحمد بن حنبل ، رضى الله عنه .

محمد السيد أبو شوشه المالكى ـ عبد الله موسى المالكى
بكلية الشريعة الاسلامية

قضاء رمضان والنذر ـ الحلف كذبا للتخلص من الضرر

مصرف الصدقة

وورد ايضا :

١ ـ ما قولكم فيمن أفطر أياما من رمضان لعذر شرعى وقد نذر أن يصوم ستة أيام من شوال وأراد صيام ما ذكر بعد الإفطار : هل المطلوب أولاً صيام القضاء أو النذر ، مع العلم بأن وقتهما واسع لقضاء رمضان السنة كلها ، والستة الأيام سائر الشهر على ما هو مشهور ؟

٢ ـ ما قولكم فيمن يبيع الحشيشة والأفيون أو يتعاطاها ، وقد أخبر أحد ضباط الحكومة فدخل عليه ليفتش منزله ويضبط ما عنده ، ثم أبدل هذا بأن حلّفه يمينا بالله أو طلاقا ثلاثا على أن لا يبيع ما ذكر ولا يتعاطاه : فهل إذا حلف ليدفع عن نفسه الحبس وغرامة المال لا يلزمه يمين لكونه مكرها قياسا على من أكره على الحلف على فعل طاعة أو على أن لا يشرب الخمر إذا عاد لما ذكر ، أو تلزمه اليمين ولا يعد إكراها فيحنث ؟

٣ — ما قولكم فيمن أراد أن يكفر عن يمين حنث فيها أو عن ظهار أو غيرها : هل يجوز له أن يعطى شخصا فقيرا معه ثمانية أولاد صغار فقراء يمونهم وهو وزوجه تمام العشرة كفارة يمينه ، أم لا يجوز إلا إعطاؤه هو فقط ، لأن نفقة ما ذكر واجبة عليه فهم أغنياء به ؟

محمد حسن رزق ناصر
من جزيرة شندويل

الجواب

١ — قضاء رمضان والنذر :

يصح للشخص أن يقدم أى الصيامين فى الفعل ، ولا يجب عليه تقديم واحد منهما بعينه .

نعم : الأفضل تقديم صيام النذر وتأخير قضاء رمضان لضيق وقت نذر ستة أيام من شوال بالنسبة لوقت رمضان ، إذ وقت الأول شوال ، ووقت الثانى الى شعبان ، والمضيق ولو بالإضافة الى غيره أولى بالتقديم . ويؤيد ذلك ما جاء فى نصوص المذهب : فقد قال خليل : وندب بدء بكمتمتع . أى يندب تقديم صوم مثل تمتع على قضاء رمضان . ومعلوم أن صيام التمتع يتأخر أداء أكثره بعد رجوع الحاج الى بلده ، وقد يتأخر رجوع الحاج الى بلده شهرا أو أزيد ، قال تعالى : « فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم » .

٢ — الحلف الكذب للتخلص من الضرر :

إذا أكره على يمين فى طاعة إثباتا كليصلين الظهر فى وقته ، أو نفيا كلا يشرب خمرا أو لا يغش المسلمين أو لا يتعاطى أفيونا أو حشيشا أو لا يبيعهما ، وقد فعل ما حلف على تركه ، أو ترك ما حلف على فعله ، فالنصوص فى مذهب المالكية قولان : قول بالحنث قياسا على الهازل ، ولأنه لا يعدم أكثر من الرضا . وقد رد بأنه قياس مع الفارق : إذ الهازل

لا يعدم الرضا بخلاف المكره . وقول بعدم الحنث وهو الظاهر لما يأتى من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث مسلم : « لا طلاق فى إغلاق » أى إكراه . أى طلاقه لغو لا تأثير له فى الحنث لأنه معذور وهو لا يعتد بقوله ؛ ولقوله عليه السلام : « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

٣ — مصرف الصدقة :

يجوز لمن يكفر عن يمينه أو عن ظهاره أو غيرهما أن يعطى هؤلاء الفقراء ووالدهم وأمهم من الكفارة أيا كان نوعها ، لأن المنصوص فى المذهب أنه يشترط فى الفقير الذى يعطى من الكفارة عدم وجود منفق ملىء ، وذلك يصدق بألا يكون له منفق أصلا ، أو له منفق فقير . إذا علم هذا يعلم جواز إعطاء المكفر هؤلاء الفقراء الذين يعونهم والدهم الفقير من الكفارة .

محمد السيد أبو شوشه المالكى — عبد الله موسى المالكى
بكلية الشريعة الاسلامية

البوظة

وورد ما ملخصه :

ما حكم البوظة : هل هى مسكرة فيحرم شرب قليلها وكثيرها ؟

عطية محمد عوض الله
الخادمة — قنا

الجواب

المنصوص فى مذهب المالكية أن عصير الشعير والحنطة إذا ترك زمنا حتى اشتدت حموضته اشتدادا يوجب لمتعاطيه نشوة وطربا ، فهو نجس يحرم تعاطى القليل منه والكثير لأنه خمر وإن لم يكن من عصير العنب . ويؤيد ذلك ما جاء فى صحيح البخارى فى كتاب الأشربة فى باب ما جاء فى أن الخمر ما خامر العقل ، قال حدثنى أحمد بن أبى رجاء

حدثنا يحيي عن أبي حيان التيمى عن الشعبي عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : خطب عمر على منبر رسو الله صلى الله عليه وسلم فقال : قد نزل تحريم الخمر وهى من خمسة أشياء : العنب والتمر والحنطة والشعير والعسل ؟

محمد السيد أبو شوشه المالكى ـ عبد الله موسى المالكى
بكلية الشريعة الاسلامية

مخازن الغلات

وورد أيضا :

ما تقولون حفظكم الله فى المخازن التى تمدها البنوك فى البلاد لوضع الأقطان فيها والحبوب على أن يضع صاحب الزرع زرعه فيها حتى ترتفع الأسعار ، ويأخذ عند وضع الزرع مقدارا من النقود ، وعند ما يبيع زرعه يرد المبلغ الذى أخذه ، ويرد مع كل مائة قرش صاغ أربعة قروش صاغ زائدة على المبلغ المأخوذ ، وكل ذلك غير أجرة الأرضية والخفراء ؟

محمد متولى خليل
إمام وخطيب بمسجد جمجرة الجديدة — قليوبية

الجواب

مذهب الحنفية أن القرض ما تعطيه من مثلى لتتقاضاه . واستيفاؤه بأخذ مثل ما أخذ المستقرض . واشتراط الزيادة على ما أخذ باطل فيلغو الشرط ، ويجب الأصل فقط . ومنه يعلم حكم ما جاء فى الاستفتاء الرافق ، وهو أنه لا تجب الأربعة الزائدة على المائة ، لأنها فضل خال عن عوض يقابله ولم تكن فى نظير عمل ، فيلغو اشتراط دفعها ويحرم على المعطى أخذها ، فإن أخذها لا يملكها وعليه ردها ، والله أعلم .

عبد الحفيظ الدفتار الحنفى ـ حسين البيومى الحنفى
بكلية الشريعة الاسلامية

بيع الشجر

وورد :

هل يجوز بيع أشجار اللبان والمر والصمغ بأنواعه التي توجد بكثرة في بلاد الصومال ؟

لفيف من أعضاء
نادي الاصلاح الاسلامي العربي
في النواهي — عدن

الجواب

الشجر إن كان في أرض مملوكة لشخص يجوز بيعه وبيع ثمره ، وكذا أرضه . وأما الأشجار الموجودة في الجبال فليست مملوكة لأحد ، وثمارها وصمغها مباحة ، وهي لمن سبقت يده اليها ، كالكلأ والماء والنار . ونفس الأشجار لا يصح الاستيلاء عليها لأنها من المنافع العامة كالطريق والبحار والأنهار .

قنديل قنديل — عبد السلام شرف
بكلية الشريعة الاسلامية

الابراء مما في الذمة

وورد أيضا :

ما قولكم في رجل سرق حلي زوجته للتخلص منها وقال لها : لا أعطيك هذا المصاغ إلا بعد البراءة مما في ذمتي من معجل الصداق ومؤخره وما يترتب على ذلك ، وعلى ذلك أبرأته مضطرة للحصول على حليها : فهل هذه البراءة تسقط مما في ذمته لها ، أم لها الحق في مطالبته ؟

غزالي محمد عز الدين
أبو حماد — بمحطة

الجواب

مذهب الحنفية أن كل من له دين على آخر سواء كان حالا أو مؤجلا ، وكان أهلا

للتصرف ، يصح إبراؤه إياه من دينه ، و حينئذ يسقط الدين وتبطل المطالبة به ، لا فرق فى ذلك بين أن يكون الإبراء عن اضطرار وعدمه « مع قبول المبرء »

ومنه يعلم حكم ما جاء فى الاستفتاء الرافق « رجل سرق حلى زوجته للتخاص منها وقال لها لا أعطيك هذا المصاغ إلا بعد البراءة مما فى ذمتى من معجل الصداق ومؤخره وما يترتب على ذلك وعلى ذلك أبرأته مضطرة للحصول على حليها » وهو أن الابراء صحيح ويسقط حقها فى المطالبة بمعجل الصداق ومؤخره . والله أعلم .

عبد الحفيظ المختار الحنفى — حسين البيومى الحنفى
بكلية الشريعة الاسلامية

حكم صلاة الجمعة قبل الزوال

وورد أيضا :

ما قولكم دام فضلكم فى إمام مسجد أدى صلاة الجمعة بعد صلاة العيد صباحا قبل الزوال ، فحينما انتهى من صلاة العيد أمر بالأذان وخطب خطبة الجمعة وصلاها ، زعما منه أنه خشى من أهل قريته ترك صلاة الجمعة فى هذا اليوم بالنسبة لاشتغالهم باللهو واللعب : فما الحكم فى ذلك شرعا على المذاهب الأربعة حكما شاملا ومفصلا ، لأنه ربما يكون مطلعا على حكم فى مذهب خلاف مذهب الإمام مالك ، لأنى أعلم أنه فى مذهب الإمام مالك لا يجوز إلا بعد الزوال ، وكذا لا يوجد فى هذا المذهب فى صلاة جمع التقديم مثل ذلك ؟ هذا حد علمنا . والله أعلم .

على حسين حمودى لوفيه
عمدة قوه بانية بمحطة معمل القزاز

الجواب

نعم هناك مذهب آخر معتبر ، وهو مذهب الامام أحمد بن حنبل ، يقول بجواز صلاة

الجمعة قبل الزوال مطلقا ، أى سواء أكان اليوم يوم عيد أم لا ، وسواء أكان هناك ضرورة أم لا .

وتفصيل القول فى ذلك أن مذهب مالك وأبى حنيفة والشافعى وجماهير العلماء من الصحابة والتابعين أنه لاتجوز صلاة الجمعة إلا بعد الزوال ، فمن صلاها قبله بطلت جمعته . ومذهب الإمام أحمد وإسحاق أن أول وقت صلاة الجمعة هو أول وقت صلاة العيد ، بمعنى أنه يصح فعلها من أول وقت حل النافلة حينما ترتفع الشمس قدر رمح عن الأفق فى نظر العين ولو لم يكن اليوم يوم عيد ، ولكن الأفضل فعلها بعد الزوال خروجا من الخلاف . فإن كان اليوم يوم عيد فهناك مذهب ثالث ، وهو جواز الترخص بترك الجمعة بتاتا اكتفاء بالعيد ، وهذا المذهب لعطاء وجماعة .

الأدلة :

استدل الجمهور بما فى البخارى عن عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى الجمعة حين تميل الشمس ؛ وبما أخرجه مسلم عن سلمة بن الأكوع : كنا نجمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا زالت الشمس ؛ وبما روى أنه صلى الله عليه وسلم لما بعث مصعب بن عمير الى المدينة (قبل الهجرة) قال له : إذا مالت الشمس فصل بالناس الجمعة . وقد جرى العمل على ذلك منذ السلف ، حتى قال ابن العربى : الإجماع على أنها لاتجب حتى تزول الشمس إلا مانقل عن أحمد .

واستدل الامام أحمد بما روى عن عبد الله بن سيدان السلمى : شهدت الجمعة مع أبى بكر فكانت خطبته وصلاته قبل نصف النهار ؛ ثم شهدتها مع عمر فكانت خطبته وصلاته الى أن أقول : قد انتصف النهار ؛ ثم شهدتها مع عثمان فكانت خطبته وصلاته الى أن أقول : قد زال النهار ، فما رأيت أحدا عاب ذلك ولا أنكره اه رواه الدارقطنى وأحمد واحتج به . واحتج أيضا بما أخرج ابن أبى شيبة من طريق عبد الله بن سلمة قال : صلى بنا عبد الله بن مسعود الجمعة ضحى وقال : خشيت عليكم الحر . ومن طريق

سعيد ابن سويد قال: صلى بنا معاوية الجمعة ضحى. وكذلك روى عن جابر وسعد ابن أبي وقاص وسعيد بن زيد ولم ينكر عليهم أحد فكان كالإجماع.

واستدل عطاء ومن معه بما أخرج النسائي عن وهب بن كيسان قال: اجتمع عيدان على عهد ابن الزبير، فأخر الخروج حتى تعالى النهار، ثم خرج فخطب، ثم نزل فصلى ولم يصل للناس يوم الجمعة. فذكرت ذلك لابن عباس فقال: أصاب السنة.

وروى أبو داود عن عطاء: اجتمع يوم الجمعة ويوم الفطر على عهد ابن الزبير فقال: عيدان اجتمعا في يوم واحد، فجمعهما جميعا فصلاهما ركعتين بكرة لم يزد عليهما حتى صلى العصر. وهذان الحديثان رجالهما رجال الصحيح.

وأخرج النسائي وأحمد والحاكم وأبو داود وابن ماجة عن زيد بن أرقم رضي الله عنه وسأله معاوية: هل شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عيدين اجتمعا؟ قال: نعم صلى العيد أول النهار ثم رخص في الجمعة فقال: من شاء أن يجمع فليجمع. وفي إسناده إياس بن أبي رملة وهو مجهول.

وروى أبو داود وابن ماجة والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: قد اجتمع في يومكم هذا عيدان فمن شاء أجزأه من الجمعة وإنا مجمعون. وفي إسناده بقية بن الوليد وفيه مقال، ولكن صحح أحمد والدرقطني إرساله.

مناقشة الأدلة:

أما ما استدل به الجمهور فنوقش بأنه لا يدل على مدعاهم وبطلان ما ذهب إليه الامام أحمد، إذ الحديث الأول والثاني لا يدلان إلا على وقوع فعلها بعد الزوال ولا تعرض فيهما لعدم جوازها قبل الزوال. وأما حديث مصعب بن عمير فدلالته على ذلك موقوفة على ثبوت مفهوم المخالفة وهو غير مسلم به، بل الحق عدمه كما حقق في الأصول؛ وقد قال تعالى: «إذا جاء نصر الله والفتح» السورة، ولم يقل أحد إن التسبيح غير مأمور به

قبل ذلك . وأما قول ابن العربي : الإجماع على أنها لا تجب قبل الزوال ، فلا يخفى ما فيه ، إذ كيف يكون هناك إجماع ويخفى على أحمد ذلك الامام الجليل ، لأنه لو علم أن هناك إجماعا لما وسعه مخالفته . وقد علمت أنه قال بمثل قول أحمد إسحاق بن راهويه ومكانته لا تخفى . وقد نقل أيضا عن بعض الصحابة كما سبق .

ونوقش ما استدل به الامام أحمد : فقد قال البخاري : إن ابن سيدان لا يتابع على حديثه وقال في الميزان : ابن سيدان مجهول لا حجية في حديثه . نعم إن صح ما نقل عن ابن مسعود ومعاوية وجابر وسعد وسعيد كان كافيا في إثبات ما ذهب اليه الامام أحمد ، ولكن قال القاضي : إن ما روى من هذا لم يصح منه شيء إلا ما عليه الجمهور .

وبالجملة فهذه المسألة اجتهادية ظنية فيها مجال واسع للبحث والنظر والترجيح ، ودين الاسلام دين يسر لا عسر فيه ، وليس اختلاف الأئمة إلا رحمة بالأمة وتوسعة على عباد الله حتى لا يقعوا في الحرج بالتزام رأي واحد . وقد نص علماء الأصول على أنه يجوز لغير المجتهد أن يقلد أي إمام في أي مسألة متى توفرت الشروط . وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه بعد غزوة الخندق : لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة ، فأدركت صلاة العصر اثنين من الصحابة في الطريق فقال أحدهما : إن المراد الأمر بالاسراع ، وحمل الثاني النهي على ظاهره فلم يصل إلا في بني قريظة . فلما أخبرا النبي صلى الله عليه وسلم بذلك لم يعب واحدا منهما . وقد استشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه فيما يفعله بأسرى بدر فأشار عمر بالشدة وأشار أبو بكر باللين ، فمدح النبي صلى الله عليه وسلم كلا منهما ، وشبه عمر بنوح عليه السلام حيث قال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّارا » . وشبه أبا بكر بإبراهيم عليه السلام حيث قال : « فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم » . والله أعلم .

محمد عبد الله يوسف
مدرس بكلية الشريعة

الزكاة

لا زكاة على من لم يملك نصابا ، ولا زكاة على مالك النصاب فيما لا يملك

وجاءنا هذا السؤال :

ما قولكم دام فضلكم فى رجل استقرض مالا من إنسان وتاجر فيه ، وفى آخر الحول لم يتحصل غير ما صرفه على نفسه وعياله ورأس المال : فهل تجب عليه زكاة رأس المال والحال أن رأس المال للغير لا له ؟

وفيما إذا كان لديه رأس مال مائة جنيه واستقرض مائتين عليها ، وفى آخر الحول قوّم تجارته فوجدها ثلاثمائة : فهل تجب عليه زكاة الذى له ، أو الذى له والذى عليه ؟

عبد القادر رضوان

الجواب

أما فى الصورة الأولى فلا زكاة عليه أصلا ، لأنه لا يملك شيئا ، ولا زكاة على شخص ما لم يملك نصابا .

وأما فى الصورة الثانية فتجب عليه زكاة مائة جنيه فقط ، لأن هذا هو القدر الذى يملكه ، وأما المائتان فقد اقترضهما من الغير فلا زكاة عليه فيهما لأنه لا يملكهما ، ولا زكاة على شخص فيما لا يملك . والله أعلم ؟

محمد عبد الله يوسف
مدرس بكلية الشريعة

وجوب مصاحبة الاخيار

أحسن ما قيل فى وجوب مصاحبة الاخيار ومقاطعة الأشرار :

إذا كنت فى قوم فصاحب خيارهم ... ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدى

فى فلسفة الاخلاق

صلة الأخلاق بالنفس الناطقة — أثرها فى المجتمع الانسانى العام

ليس بين ما يفتقر اليه الانسان فى توثيق صلاته بالخالق أولاً ثم بالمخلوق ثانيا، وفى تعرف طرفى الوجود وتلمس أعلى مراتبه مقرونا بمظهره الصادق جهد الطاقة، وفى بلوغه منازل المخلصين الداعين الى الله والدالين به عليه، ماله أوثق اتصال بالنفوس من صناعة الأخلاق. والأخلاق كما يقول علماء النفس: حلقة الاتصال بين الانسان ووجوده فى كل صورة من صور حياته. ولم تكن تلك الصناعة منذ عهد الخليقة بالتكاليف، ومنذ تناجت العقول بالحقائق، إلا حفاظا وثيقا للنفوس أن تعصف بها أعاصير الشهوات، وحجابا صفيقا للغرائز الطيبة أن تستغويها أعراض المرئيات، بما يلابسها من غاشيات الطبيعة. والأخلاق فى كل ما تصدر عنه تستمد وجودها وقوتها من العادة أولا، ثم من المزاج ثانيا، ثم من ترويض النفوس وتدريبها على سلوك الطريق السوى ثالثا.

وعلى مقدار مسايرة الأخلاق للعادات والأمزجة ووسائل التهذيب، تكون قيمة الأفعال الصادرة عن الانسان. ووسائل التهذيب هى المناط فى واقع أمرها لإسعاد النفوس وتركيز الأخلاق الفاضلة. أما الأمزجة والعادات التى تصدر عنها الأفعال فى إحدى حالتيها فهى خاضعة لناموس بقاء الأصلح، وهذا الناموس قد ثبت أنه ساد الأنظمة الوضعية جميعا، لكن ليس على طريقة أصحاب مذهب النشوء والارتقاء، بل على معنى أن العقول والنفوس الناطقة مضطرة لأن تأخذ بالأجدى عليها من صور الحياة. وهذا مصداق قوله سبحانه عز من قائل: «فأمّا الزَّبَد فيذهب جُفَاءً وأما ماينفع النّاسَ فيمكث فى الأرض».

قد تواضع علماء الأخلاق، وخاصة المتقدمين منهم، على أن النفس الناطقة من حيث ما يصدر عنها من الأفعال مردها الى قوى ثلاث.

فأولى هذه القوى هى التى يكون بها النظر فى النتائج مرتبطة بمقدماتها من حيث صحتها وفسادها ، واستخراج المجهولات من المعلومات .

(وثانيتها) القوة التى تصدر عنها الثورة الغضبية أو الحمية والنجدة، والكلف بالظفر والغلبة ، والاحتياط بصنوف الكرامة للأسر والعشائر والجماعات والأفراد، والإمعان بكل الوسائل الممكنة فى حب التسلط والقهر والإذعان لشهوة الانتقام .

(وثالثها) القوة التى بها إثارة الشهوة فى صنوفها المتنوعة فى المآكل والمشارب وما اليها من ألوان استمتاع الجوارح . ويجب أن تبقى هذه القوى الثلاث متكافئة لتبقى متعادلة ، وإلا لزم عن عدم تكافئها طغيان بعضها على بعض . على أن جمهرة من علماء النفس عقبوا على تلك النظرية الأخيرة بما يتفق وقاعدة (تنازع البقاء) حتى فى الأمور المعنوية مما سنوفيه قسطا من البحث غير قليل فى سوانح أخرى .

ومما لا سبيل الى إنكاره أن لقوام الأخلاق وملاكها فى مجموعها قوى ثلاثا ، هذه القوى فى حقيقتها نسبية، فتكون مقولة بالتشكيك قوة وضعفا وقلة وكثرة بالقياس الى ما ترجع اليه هذه القوى الثلاث من المزاج والعادة والتهذيب، على ماذهب اليه الكثير من علماء النفس الأقدمين .

هذه القوة ذات آلات ثلاث يختلف بعضها عن بعض اختلافا قويا نظرا لما يترتب على كل واحدة منها من الآثار ، فمثلا نرى الدماغ والقلب والكبد فى مجموعها الآلية أدوات مباشرة لتلك القوى الثلاث التى هى عماد الأخلاق وملاكها وعدتها وذخرها . فالقوة الغضبية أو السبعية لها من البدن جند يطيعها ويستجيب دعاءها، وهى الجوارح. وللقوة الناطقة أداة تعينها على تحقيق مرادها، ويعبرون عنها بالقوة الملكية، تلك الأداة من الجسم هى الدماغ. كذلك للقوة الشهوية أو البهيمية آلة تدير شئونها وهى الكبد .

وغنى عن البيان أن عدد الفضائل ينبغى أن يكون بحسب إعداد هذه القوى وتأثرها بها . فتى كانت حركة النفس الناطقة فى سيرها معتدلة رشيدة شيقة الى تعرف

النظريات الصحيحة من أشكالها المنتجة ترود الأمور بوسائلها وتأخذ الأشياء بأسبابها ، نشأت عنها فضيلة العلم ، وتلزمها أيضا فضيلة الحكمة . ومتى كانت حركة النفس الشهوية معتدلة فى سيرها منقادة الى تدابير النفس العاقلة غير متعاصية عليها ولا ممعنة فى الإصغاء الى هواها ، نشأت عنها فضيلة العفة ، وتلزمها فضيلة السخاء .

وإذا كانت حركة النفس السبعية معتدلة مستقيمة لداعية النفس العاقلة ، فلا تتبرم ولا تتسخط ، ولا تشكو ولا تهيج فى غير حينها ، ولا تحمى أكثر مما ينبغى لها ، نشأت عنها فضيلة الحلم ، وتلزمها أيضا فضيلة الشجاعة . ولهذه الفضائل الثلاث اللازمة عن تلك الفضائل التى نشأت عن القوى الثلاث فضيلة هى فضلى الفضائل ، ومرمى كل نابل ، وهى المثل الأعلى للإنسان الكامل ، وأعنى بها فضيلة العدالة ـ لذلك لم يَبدُ عجبا أن يُطبِق الحكماء على أن الفضائل أربع ، وهى الأجناس العالية لما عداها من الفضائل . وقد أكثر الأخلاقيون من الاشادة بخصائص هذه الأجناس الأربعة وما ينطوى تحتها من الأنواع ، ثم بسطوا ألسنتهم بحثا واستقصاء فى تعرف أنواع هذه الأجناس وامتدادها ، وأمراض النفوس وعلاجاتها ، حتى قال صاحب كتاب (الذريعة فى مكارم الشريعة) : إن النفس إذا استعصى عليها أن تجمع بين هذه الفضائل كان خليقا بصاحبها أن يكون كالشجرة الجرداء تعترض الناس فى غدواتهم وروحاتهم ، فلا هم يستمرءون ثمارها ، ولا هم يتفيئون وارف ظلها . وفى الحق أن تلك الأجناس العالية هى مميزات الانسان الكامل كما هو حال الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، ثم من بعدهم خلفاؤهم من العلماء المخلصين والهداة المرشدين . ولعل هذا مصداق قول الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم : « تخلقوا بأخلاق الله » . فمن التخلق بأخلاق الله العمل بمحاب الله ومراضيه فى الحياتين العاجلة والآجلة .

ومن هذه الناحية قالوا فى تعريف الحكمة : إنها فضيلة النفس الناطقة المميزة ، وهى أن تعلم الموجودات كلها من حيث هى موجودة ، وأن تعلم الأمور اللاهوتية والناسوتية ،

وأن تميز بها بعض المعقولات عن البعض الآخر : أيها يجب أن يفعل، وأيها يجب أن يهمل . كذلك قالوا فى تعريف العفة إنها فضيلة فى الحس الشهوانى . وأظهر مظاهر هذه الفضيلة فى الانسان أن يستطيع بها الفل من غرب شهوته، أو أن يصرفها على الأقل تصريفا مقترنا بالرأى الذى يصيب غالبا حتى يكون طليقا من أسر الشهوات غير متعبد لسلطانها، وإلا كان كما قال قائلهم :

رب مستور سبته شهوته قد عرى من ستره وانهتكا
صاحب الشهوة عبد فإذا ملك الشهوة أضحى ملكا

وإذاً فيكون الحد الناقص للشجاعة أنها فضيلة النفس السبعية . وأظهر مظاهرها فى الانسان أيضا انقيادها للنفس الناطقة ، على معنى أن تلقى تلك الفضيلة فى نفسه حسن تصريف الأمور فى عزم وحزم ، وأن يستبسل فى جسام الخطوب فى الليالى الحوالك فى رأى يكون أقرب الى الصواب منه الى الخطأ ، مع البصر بحسن العاقبة وخير المنقلب ، وإذا تكون العدالة مجتمعة الى تلك الفضائل رابعة الأرابع .

الخلق :

خير الحدود وأحسنها ضبطا وأدناها استقصاء : أن حال النفس داعية لها الى أفعالها من غير فكر ولا روية . وهذه الحال تشتمل ثلاثة أقسام ، خلافا لما ذهب اليه صاحب التهذيب (الامام احمد بن مسكويه) .

(أولها) ما هو طبيعى راجع الى الحالة التكوينية المزاج العصبي ، كالانسان الذى يحركه أدنى شىء نحو غضب ، ويهيجه أقل سبب . وكالانسان الذى يتأثر من أيسر شىء ، كالذى يفزع من أدنى صوت يطرق سمعه أو يرتاع من خبر يسمعه ، وكالذى يضحك ضحكا مفرطا من أدنى شىء يعجبه ، وكالذى يغتم ويحزن من أيسر شىء يبدوله .

و (ثانيها) ما يكون مستفادا بالعادة والتدريب ، وربما كان مبدؤه بالروية والفكر ثم يستمر عليه أولا فأولا حتى يصير ملكة وخلقا .

(وثالثها) ما يكون بتلقين الملقن وإرشاد المرشد عن تبصر وحسن روية . وهذا هو المدد الأكبر فى رأى جمهرة الأخلاقيين ، لأن إصلاح النفوس وتقويمها فى حاجة أبدا الى الإرشاد ، حتى تبقى وظيفة الكتب السماوية جليلة الأثر جمة العبر ، وحتى تظل المواعظ الحسنة والحكم البالغة باقية على وجه الزمن .

أما اختلاف الأقدمين فى تعريف الخلق ، وذهاب طائفة من أهل التصوف الى بعض الآراء التى تفردوا بها ، والمقارنة بينها وبين الآراء الحديثة والتعقيب على الضعيف منها ، فموعدنا بتبيان كل ذلك والكشف عنه العدد التالى ، إن شاء الله ؟

عباس طه



التلطف فى الإلحاح

دخل دعبل على أمير فقال :

أصلح الله الأمير ! إنى لا أقول كما قال صاحب معن :

بأى الخلتين عليك أثنى   فإنى عند منصرفى مسول
أبالحسنى وليس لها ضياء   على فمن يصدق ما أقول
أم الأخرى ولست لها بأهل   وأنت لكل مكرمة فعول

ولكننى أقول :

ماذا أقول إذا أتيت معاشرى   صفرا يدى من عند أروم مجزل
إن قلت أعطانى كذبت وإن أقل   ضن الأمير بماله لم يجمل
ولأنت أعلم بالمكارم والعلى   من أن أقول فعلت ما لم تفعل
فاختر لنفسك ما أقول فإنى   لابد مخبرهم وإن لم أسأل

فقال له الأمير : قاتلك الله ! وأمر له بعشرة آلاف درهم .

الاسلام والعلوم الحديثة

الطب وصيام شهر رمضان

الأستاذ الدكتور الكبير عبد العزيز اسماعيل من الأطباء الذين عرفوا بسعة الاطلاع وثقوب البصر فى صناعة التطبيب ، حتى أصبح مرجعا يعول على رأيه فيما استعصى من العلل وأشكل من أعراضها ، وهو مع تخصصه فى هذا الفن النافع ينظر فى الدين ويتأمل فى أسراره ، ويعنى بالتوفيق بين قواعده ومقرراته والعلوم ، وبخاصة فيما يتصل منها بالصحة والوقاية من الأمراض . وقد كتب فى ذلك مقالات كثيرة ممتعة نرى من واجبنا أن ننقلها هنا تباعا ليطلع عليها القراء الذين يهمهم أن يتحققوا بالدليل أن القرءان الكريم لم يغادر صغيرة ولا كبيرة مما ينفع الناس فى دينهم ودنياهم إلا أحصاها ، وأنه سبق العلوم الى تقرير حقائق اعتبر اكتشافها فتحا جديدا فى المعارف الانسانية .

ولم يقصر بحثه على ما يتعلق بالصحة والمرض فحسب ، ولكنه عرض لمواضيع أخرى مما يتصل بوجود الانسان وتقلبه فى أدوار التكون ، وغير ذلك مما يطمح الى معرفته القارئون . كل ذلك فى عبارات بينة ، ولغة صحيحة ، وتدليل متين .

فنشكر لحضرة الدكتور النطاسى خدمته للدين ، ونرجوه متابعتها بعلمه الواسع وتجاربه النيرة . والى القراء أولى مقالاته ، وهى تحت عنوان (الطب وصيام شهر رمضان) قال حفظه الله :

من الناس من يتوهم أن فى صيام رمضان ، وهو من أركان الإسلام ، مضرةً تلحق بالصائم ، لما يصيب الجهاز الهضمى خاصة وغيره عامة ، ولما يكون من بعض الصائمين من انفعال وغضب . وهذا خطأ ، لأن ما ذهبوا اليه ليس من الصيام فى شىء ، ولكنه من ترك الاعتدال فى طعام الإفطار والسحور ، ولأنهم لم يراعوا مايتناسب مع خلو

المعدة النهار كله وقت الإفطار ، ولأن السحور يجب أن يقتصر على بضع لقمات لأنه لا ضرر من الجوع فى حد ذاته .

وبما أن الصيام يستعمل طبيا فى حالات كثيرة ، ووقاية من حالات أكثر ، وأن كثيرا من الأوامر الدينية لم تظهر حكمتها ، وستظهر مع تقدم العلوم ، رأيت من الواجب علىّ أن أكتب عما ظهر طبيا للآن من فوائد هذه الأوامر ، وإيضاح آيات قرءانية لأبيّن معناها الذى لا يظهر إلا لمن بحث عنها فى نور الطب الحديث ، وسأبدأ بالصيام .

الصيام :

للصيام فوائد فى ثلاث جهات : (أولها) وأهمها الجهة الروحية ، وهذه أتركها لعلماء الدين والمتصوفة منهم . و (ثانيها) الجهة الأخلاقية ، وهذه أتركها لعلماء الأخلاق ، ومن السهل البرهنة على أن الصيام يعوّد الانسان النظام والقناعة ، وطاعة الرؤساء ، والصبر وكبح شهوات النفس ، وحب الخير والصدقة ، وغير ذلك من الفضائل . و (ثالثها) وأقلها أهمية الجهة المادية أو الصحية ، وهى محل بحثنا :

لقد ظهر أن الصيام يفيد فى حالات كثيرة ، وهو العلاج الوحيد فى أحوال أخرى ، وهو أهم علاج إن لم يكن العلاج الوحيد للوقاية من أمراض كثيرة .

فللعلاج يستعمل فى :

١ — اضطرابات الأمعاء المزمنة والمصحوبة بتخمر فى المواد الزلالية والنشوية . وهنا ينجح الصيام وخصوصا عدم شرب الماء بين الأكلتين ، وأن تكون بين الأكلة والأخرى مدة طويلة كما فى صيام رمضان . ويمكن أخذ الغذاء المناسب حسب حالة التخمر . وهذه الطريقة هى أنجع طريقة لتطهير الأمعاء .

٢ — زيادة الوزن الناشئ من كثرة الغذاء وقلة الحركة ، فالصيام هنا أنجع من كل علاج مع الاعتدال وقت الإفطار فى الطعام ، والاكتفاء بالماء فى السحور .

٣ — زيادة الضغط الذاتى ، وهو آخذ فى الانتشار بازدياد الترف والانفعالات

النفسية ، ففى هذه الحالة يكون شهر رمضان نعمة وبركة ، خصوصا إذا كان وزن الشخص أكثر من الوزن الطبيعى لمثله .

٤ — البول السكرى ، وهو منتشر انتشار الضغط ، ويكون فى مدته الأولى وقبل ظهوره مصحوبا غالبا بزيادة فى الوزن ، فهنا يكون الصيام علاجا نافعا ، إذ أن السكر يهبط مع قلة السمن ، ويهبط السكر فى الدم بعد الأكل بخمس ساعات الى أقل من الحد الطبيعى فى حالات البول السكرى الخفيف ، وبعد عشر ساعات فى أقل من الحد الطبيعى بكثير . ولا يزال الصيام مع بعض ملاحظات فى الغذاء أهم علاج فى هذا المرض حتى بعد ظهور الأنسولين ، خصوصا إذا كان الشخص يزيد عن الوزن الطبيعى . ولم يكن هناك علاج لهذا المرض قبل الأنسولين غير الصيام .

٥ — التهاب الكلى الحاد والمزمن المصحوب بارتشاح وتورم .

٦ — أمراض القلب المصحوبة بتورم .

٧ — التهاب المفاصل المزمنة ، خصوصا إذا كانت مصحوبة بسمن ، كما يحصل عند السيدات غالبا بعد سن الأربعين . وقد شوهد حالات تتمشى فى شهر رمضان بالصيام فقط أكثر مما تتمشى مع علاج سنوات بالكهرباء والحقن والأدوية وكل الطب الحديث .

ورب سائل يقول : ولكن الصيام فى كل هذه الحالات يحتاج الى إرشاد طبيب فى كل مرض على حدته ، والصيام الذى كُتب على المسلمين إنما كتب على الأصحاء . وهذا صحيح ، ولكن فائدة الصيام للأصحاء هى الوقاية من هذه الأمراض ، وخصوصا الأمراض التى مر ذكرها تحت أرقام ١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٧ .

وهذه الأمراض كلها تبتدىء فى الانسان تدريجا بحيث لا يمكن الجزم بأول المرض ، فلا الشخص ولا طبيبه يمكنهما أن يعرفا أول المرض ، لأن الطب لم يتقدم بعد الى الحد الذى يعرف فيه أسباب هذه الأمراض كلها . ولكن من المؤكد طبيا أن

الوقاية من كل هـذه الأمراض هى فى الصيام ، بل إن الوقاية فعالة جـدا قبل ظهور أعراض المرض بوضوح . وقد ظهر بإحصاءات لا تقبل الشك أن زيادة السمن يصحبها استعداد للبول السكرى ، وزيادة ضغط الدم الذاتى ، والتهاب المفاصل المزمن ، وغير ذلك . ومع قلة الوزن يقل الاستعداد لهذه الأمراض بالنسبة نفسها . وهذا هو السر فى أن شركات التأمين لا تقبل تأمينا على الأشخاص الذين يزيد وزنهم إلا بشروط تثقل كلما زاد الوزن . والصيام مدة شهر كل سنة هو خير وقاية من كل هذه الأمراض .

وهذه الأمراض تنتشر بزيادة الحضارة والترف ، فقد انتشرت فى أوربا أكثر من الأول . وفى مصر يكاد يكون البول السكرى وزيادة ضغط الدم مقتصرين على الطبقات الوسطى والعليا ، وقليل جدا فى الفقراء .

ويغلب على الظن أن ذلك هو السر فى أن الصيام فى الاسلام أشد منه فى الأديان السابقة ، لأن الاسلام ، وهو آخر الشرائع السماوية ، جاء فى زمن نحتاج فيه الى وقاية من أمراض تزداد كلما زاد الترف .

فائدة الجوع

قيل لبعض الحكماء : أى وقت الطعام فيه أفضل ؟ قال : أما لمن قدر فاذا جاع ، وأما لمن لم يقدر فاذا وجد .

وقال الشاعر :

وعادة الجوع فاعلم عصمة وغنى وقـد يزيدك جوعا عادة الشبع

وقال العتبي : قلت لرجل من أهـل البادية : يا أخى إنى لأعجب من أن فقهاءكم أظرف من فقهائنا ، وعوامكم أظرف من عوامنا ، ومجانينكم أظرف من مجانيننا !

قال : وما تدرى لم ذاك ؟ قلت : لا ، قال : من الجوع ، ألا ترى أن العود إنما صفا صوته لخلو جوفه ؟

وأحسن من ذلك كله قوله صلى الله عليه وسلم : « حسب الانسان من الطعام لقيمات يقمن صلبه » .

أسرار التشريع الاسلامى وفلسفته

بحث فى الطلاق

(ا) التشريع الجديد الذى جرى التطبيق عليه فى محاكم الاحوال الشخصية متأثرا بسنة التدرج والانتقال (ب) الطلاق وأسرار إباحته (ج) جعل الفراق بيد الرجل والحكمة فيه (د) ما فى حكم الطلاق مما به حل عقدة النكاح وأسرار ذلك (ه) الكشف عن بعض المذاهب الاسلامية التى جرى عليها تطبيق بعض أحكام قانون الأحوال الشخصية من غير مذهب أبي حنيفة فى العهد الأخير.

الطلاق وأسباب اباحته :

هى (أولا) عدم تعطيل النسل المرغوب فيه، المندوب اليه على الرجل والمرأة، لأن المرأة قد تكون عقيما أو آيسا والرجل فقيرا لا قدرة له على الجمع بين اثنتين، فان لم يستبدل لم يكن مستعدا لأداء النسل؛ ولأن الرجل قد يكون هو العقيم أو به ما يمنع الخلوة بها كالعنّة، فإن لم يفارق المرأة ليختص بها سواه تعطل نسلها عليها وفات عليها استعدادها له.

و (ثانيا) رفع الحرج عن الزوجين، لأنه قد يتصف أحدهما بسوء فى خلقه وفساد فى تربيته أو ضعف فى دينه، أو يكون بينهما تخالف فى الطباع وتضاد فى المقاصد، فتتنافر القلوب وتكاف بالبغضاء، فينعدم التآلف وتنتفى المداراة. والزوجية إن لم تتآلف على المحبة أو تدعم بالموافقة، تداعت أركانها وانهار بناؤها، وانعكس المقصود منها، فصار الضرر - لولا الطلاق - محققا، والفساد أمرا واقعا، لأن المداوة تظهر فى أقبح مظاهرها فلا يأمن كلاهما الآخر على نفسه، ولا يعامله بلطف واحتشام، فيصير العيش ذميما، والحياة مريرة، وتقع ذراريهما وأعقابهما السيئة الحظ فى حيرة وارتباك، وبُعد عن أحد الجانبين

مع اقتراب من الآخر، فتضطر الى المخادعة والنفاق، والغش والتدليس، فيصير ذلك خلقا وسجية مألوفة، فتقبح نعوتها ويسوء منقلبها. ولقد رأينا من الأزواج من هجر وطنه وهو عزيز، ومن فارق دينه وهو أعز، ومن قتل نفسه ولا شيء يعدلها، ومن أودى بصاحبه وهو جناية كبرى، تخلصا من قرين السوء والحياة الذميمة.

تدبر معى ما هو واقع الآن من إيثار كثير من أبناء الديانات الأخرى الطلاق المدنى على الطلاق الشرعى إشفاقا من ترتب آثار الزوجية، وحذرا من الوقوع فى أخطار يقدرها هؤلاء، أقلها حدوث تنافر بين الزوجين، ولا يجد كلاهما الى التخلص من ضرره سبيلا. ولهذا اضطرت دول الى الاعتراف بهذا الزواج المدنى، وجعلته أصلا من أصول مدنيتها وإن خالف أصول دينها. على أن شركة روتر البرقية نقلت إلينا فى أول ديسمبر سنة ١٩١٩م أن الإحصاء الحكومى بالولايات المتحدة أبان أن المحاكم فى العشرين سنة الأخيرة قضت بإجراء ألف ألف طلاق (كذا). فقارن بحقك بيننا وبين غيرنا، وانظر الى آثار رحمة الله بنا، واشكر مولاك على ما أولاك من هذه النعم الجزيلة والمنة الحقة.

(ثالثا) إن جعل الطلاق بيد الرجل وحده يقرب من بقاء الزوجية، ويبعد من زوالها قدر الاستطاعة، لأن الرجل فضلا على المرأة، ولأنه كلف بالإنفاق وإيتاء الصداق، فهو لذلك لا يقدم على الفراق ما وجد للتأخر عنه سبيلا، بخلاف المرأة لأنها قليلة التثبت فى الأمور، كثيرة الاضطراب فى الآراء، سريعة السير مع الأهواء، ضعيفة بطبيعتها عن احتمال المكاره، تفرح وتحزن بأحقر الأسباب (وقد تقول ما نسمع من بعضهن: زوج بزوج والصداق فائدة). فإذا جعل الطلاق بإرادتها انهار بناء الاجتماع متى وجد خصام وتلاح، وإن جعل بيد كل من الرجل والمرأة كان الأمر أفظع والفراق أسرع، لأن المرأة كما رأينا فى معزل عن الأمور التى بها بقاء الزوجية، والرجل يعلم ذلك ويأنف أن يكون الفراق منها، وقد تكون مثله فى تلك الأنفة، فإذا ما وجد شقاق بينهما يسيء كلاهما الظن بصاحبه، ويخشى أن يفارقه، فيبادر هو بالفراق فرارا مما أنف منه.

على أن جعل الفراق بيد الرجل خاصة إنما يكون إذا أراد الرجل أن يتنازل عن حقوقه قبل المرأة ويوفيها جميع حقها . أما إذا أراد كلاهما حل عقد النكاح ، واستردت المرأة ما ملكه الرجل من اختصاصه بها ، واسترد الرجل كل أو بعض ما جعل لها من المال فى مقابلة ذاك الاختصاص ، فإن هذا يتوقف على رضاها كسائر العقود . وقد وضع بعض حماة الدين حق الفراق بيد المرأة أيضا إن اشترط ذاك فى عقد الزواج ، وجرى عليه الآن كثير من العقود ، فليس على من خافت من بعلها سوء العشرة ، وتمسكت بهذا الشرط من بأس .

لكن حدث — ملاءمةً لسير التطورات ، ومسايرة لشتى الاعتبارات المتولدة عن الوقائع والحادثات — أن تشريعا وضع سنة ١٩٢٠ بمرسوم قانون رقم ٢٥ ، هذا التشريع أخذ فى بعض مواده من آراء فقهاء ليسوا من فقهاء الحنفية ، ولكنها مبادئ فقهية عميقة الأثر فى متابعة سير الحوادث ومماشاة الظروف القاهرة ، فقد كثرت الشكوى من بقاء قيد النكاح فى أيدى الأزواج ، يتلاعب بها شرارهم ، ويجعل الزوجية فى نظر المستهترين متاعا يستمتع به ذوو الغايات ، وسبيلا الى الانتقام بشتى الوسائل ، فوضعت المادة التاسعة من القانون المذكور ، وهى تبيح للزوجة أن تطلب التفريق إذا وجدت عيبا مستحكما لا يمكن البرء منه ، أو يمكن بعد زمن طويل ، ولا يمكنها المقام معه إلا بضرر ، كالجنون والجذام ، سواء أكان ذلك العيب بالزوج قبل العقد ولم تعلم به ، أم حدث بعد العقد ولم ترض به . ثم جاء قانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ فأباح للزوجة أن تطلب الى القاضى التطليق على الزوج فى حالات بُينت من المادة السادسة الى المادة الحادية عشرة من هذا القانون فى حالة تعمد إضرار الزوج بها . ثم أباح لها أن تطلب الى القاضى التطليق على زوجها عند غيبته فى شرائطها المبينة من المادة الثانية عشرة الى الرابعة عشرة من هذا القانون . ذلك لأن الطلاق شرع فى الاسلام لتمكين الاثنين من التخلص من رابطة الزوجية اذا تحقق أن المعاشرة بالمعروف وأداء

حقوق الزوجية مستحيلة البقاء . والشقاق بين الزوجين مثار لأضرار كثيرة لا يقتصر ضررها على الزوجين فحسب ، بل يجاوزهما الى ماخلق الله بينهما من ذرية، والى كل من له بهما علاقة قرابة أومصاهرة . وليس فى أحكام مذهب أبى حنيفة ما يمكن الزوجة من التخلص ، وما يرجع الزوج عن غيه، فيحتال كل فى إيذاء الآخر قصد الانتقام، فتطالب الزوجة بالنفقة ولا غرض لها إلا إحراج الزوج وتغريمه المال ، ويطالب الزوج بالطاعة ولا غرض له إلا أن يتمكن من إسقاط نفقتها ، وأن تنالها يده فيوقع بها ما شاء من ضروب العسف والجور .

هذا فضلا عما يتولد عن ذلك من إشكال فى تنفيذ حكم الطاعة وتنفيذ بالحبس بحكم النفقة ، وما قد يؤدى الى استمرار الشقاق من الجرائم والآثام ، فرأت وزارة الحقانية من أجل ذلك أن المصلحة تدعو الى الأخذ بمذهب الامام مالك رضى الله عنه فى أحكام الشقاق بين الزوجين المنصوص عنه بسورة النساء .

التطليق لغيبة الزوج أو لحبسه :

كذلك قد يغيب الزوج عن زوجته مدة طويلة بلا عذر مقبول : لطلب العلم ، أو للتجارة ، أو لانقطاع المواصلات ، ثم هو لا يحمل زوجته اليه ولا هو يطلقها لتتخذ لها زوجا غيره . ومقام الزوجة على هذه الحال زمنا طويلا مع محافظتها على العفة والشرف أمر لا تتحمله الطبيعة فى الأعم الأغلب ، وإن ترك لها الزوج مالاً تستطيع الإنفاق منه . وقد يقترف الزوج من الجرائم ما يستحق عقوبة السجن الطويل ، فتقع زوجته فى مثل ما وقعت فيه زوجة الغائب . وليس فى أحكام مذهب أبى حنيفة ما تعالج به هذه الحالة ، ومعالجتها واجب اجتماعى محتم . ومذهب الامام مالك يجيز التطليق على الغائب الذى يترك لزوجته ما تنفق منه على نفسها إذا طالت غيبته سنة فأكثر وتضررت الزوجة من بعده عنها ، بعد أن يضرب القاضى له أجلا ويعذر اليه بأنه إما أن يعمل على الإقامة معها أو ينقلها اليه أو يطلقها وإلا طلقها عليه القاضى . هذا إذا أمكن وصول الرسائل اليه ، وإلا فيطلق القاضى عليه بلا ضرب أجل وإعذار .

من أجل ذلك شرعت المواد ١٢، ١٣، ١٤ من القانون المذكور إنهاء لذلك العذاب الذى كان فى يدى الزوج قبل زوجته يرهقها به أنى شاء .

أما أن الطلاق فى عدده الثلاثى لا يقع إلا طلقة واحدة ، وأن المنجز منه والمضاف والمعلق لا يقع ، فذلك ما نفرد له بحثا خاصا فى العدد التالى ، إن شاء الله .

ما يحل عقد الزواج غير الطلاق :

الذى يحل عقدة النكاح سوى الطلاق أربعة أشياء : الخلع ، والظهار ، واللعان ، والإيلاء .

أما الخلع فهو أن يخالع الرجل امرأته على شىء من المال ، وهو أمر تنفر منه المروءة ولا يحمده الشرع ، لأن ما أخذته من المال استحقته بتسليم نفسها اليه ، ولذا أنكر الله ذلك بقوله : « وكيف تأخذونه وقد أفضَى بعضُكم الى بعض وأَخَذْنَ منكم ميثاقا غليظا » . وإنما أجازته الشريعة دفعا للضرر ومنعا للخصومة ، لأنه قد يخشى الزوجان ألا يراعيا أحكام الزوجية ، فتسأل المرأة زوجها الطلاق فتسمح به نفسه لما يرى من عدم الألفة ولكنها تشح بما أعطى ، فإن لم تفتد نفسها بشىء من مالها ، وقع الضرر وحصل الشقاق ، ولذا قال تعالى : « فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ، تلك حدود الله فلا تعتدوها » .

وأما الظهار : فهو أن يقول الرجل لزوجته : أنت علىّ كظهر أمى مثلا . وكان حكمه فى الجاهلية تحريمها الأبدى مع إمساكها ، ولذا جعله الرءوف الرحيم منكرا وزورا ، قال تعالى : « الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هُنّ أمهاتِهم إنْ أُمهاتُهم إلا اللائى وَلدْنَهم ، وإنّهم ليقولون مُنكراً من القول وزوراً » . وإيضاح هذين الوصفين أنه منكر لما فيه من التضييق والإساءة لمن أُمر بالإحسان إليها ، فإنها تحرم من التمتع بما تتمتع به الأزواج ولا تصير به أيِّماً تملك أمر نفسها ، وأنه زور لأنه إما أن يكون خبرا أو إنشاء ، فإن كان خبرا كان كذبا صراحا إذ لا تشابه بينها وبين أمه حتى يطلْق

اسم إحداها على الأخرى ؛ وإن كان إنشاء كان عقدا ضارا لم تلاحظ فيه مصلحة ، ولم يقرره شارع ، ولا استنبطه حكيم .

لما تقدم رحم الله هذه الأمة وقضى بما أوضحه فى قوله تعالى : « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسّا ، ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا . فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا » . وسر ذلك قسمان : سر المؤاخذة على هذا القول ، وسر جعل الكفارة ما علمت . أما سر المؤاخذة عليه فهو أن المظاهر ألزم نفسه بما لم يلزمه به أحد ، وصير ظهاره بمنزلة القَسَم ، فلم يتجاوز الله عن عمليه بالكلية ، ولكنه أحسن اليه فدفع عنه حرج الجاهلية . ولم يجعل التحريم عليه مؤبداً بل صيره مؤقتا يزول بالكفارة ، فإن الكفارات إنما شرعت لدفع الأثمة وتخليص المكلف لما يجده فى نفسه من التأثم . وأما السر فى جعل الكفارة ما علمت فى الآية فهو أن يلزم فيها أن تكون خالصة من الوقوع فيما جعلت حدا عنه ، تأمل قوله تعالى : « ذلكم توعظون به » . ولا يكون كذلك إلا إذا كانت طاعة شاقة تشح النفس بها إن كانت مالية ، وتعانى فيها آلاما إن كانت بدنية .

وأما اللعان فهو أن يقسم من قذف زوجته بالزنا ليدفع عن نفسه حد القذف ، وتقسم هى على كذبه لتدرأ عنها حد الزنا ، وقد كان شأن الجاهلية فى الرجوع الى الكهان ، فنفى الإسلام ذلك لأمرين : (أحدهما) أن من أصوله هجر الكهانة ونبذ الميل إليها . و (ثانيهما) أن الرجوع إليهم فيه ضرر عظيم لعدم القطع بصدقهم ؛ ومنع من أن يعامل الزوج معاملة الأجنبي فيكلف بأربعة شهداء أو يقام عليه الحد لسببين : (الأول) أن الزوج مجبول على الغيرة على ما فى عصمته من التزاحم عليها ، وأنه مكلف شرعا بالحفاظ على حرمه من العار ، وعلى نسبه من الاختلاط . و (الثانى) تعسر إثبات الزنا مع علمه بحال أهله وعدم قدرته على إسرار مثل هذا وكتمانه ، فإن الزنا إنما يكون فى خلوة ، ومعرفة الرجل

بأهله لا تضارعها معرفة أجنبي بأجنبية حتما ، وصبره على كتمان فجورها لا يطاق له ، قال الله تعالى فى كتابه العزيز « والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسُهم فشهادة أحدهم أربعُ شهادات بالله إنه لمن الصادقين . والخامسةُ أنّ لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين . والخامسةَ أنّ غضب الله عليها إن كان من الصادقين » وسر ذلك أن شهاداته أقسام مؤكدة لدفع حد القذف الذى كان يقع لو لم تكن الملاعنة ، وأن شهاداتها تدرأ عنها حد الزنا الذى كان يصيبها لو لم تأت بها ، وقد قضت السنة بالفراق المؤبد بين من حالتهما كذلك . وسر هذا شيئان :

(الأول) أن صدر كليهما من حال صاحبه وما حصل من التهمة والقذف وإشاعة الفاحشة والملاعنة امتلأ وحرا ووغرا يحيلان المودة والوفاق حراما يستوجب العقوبة الحادة ، ويقضيان على مصالحهما المشتركة التى كان من أجلها النكاح على هذا الوجه .

و (الثانى) زجر الزوجين وتحذيرهما من الوقوع فى مثل هذه المعاملة السيئة العاقبة .

وأما الإيلاء فهو أن يألو الرجل من امرأته أبدا أو مدة طويلة . وهذا عدوان بيّن وإجحاف جاهلى ، جعل الشرع له حدا محدودا ، قال تعالى : « للذين يؤلون من نسائهم تربُّصُ أربعةِ أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم . وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم » .

والسر فى تعيين أربعة أشهر أمران : أولهما أن النفوس تتوق فيها للمباشرة قطعا ولا تحتمل البعد عنها فوق هذه المدة ، والعفاف مدعو إليه مرغوب فيه . وثانيهما أن هذه المدة ثلث السنة ، وثلث الشيء يضبط به ماقل عن نصفه ، ونصف السنة كثير لا تحتمل النفوس الصبر فيه على ما ذكرنا .

عباس طه
المحامى الشرعى

تكريم فضيلة الاستاذ الاكبر

لم يشهد الأزهريون يوما أغر محجلا كاليوم الذى شهدوه بتعيين حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخا للأزهر . ولم يشعر المسلمون فى بقاع الأرض كافة ، عند تقليد أى شيخ مشيخة الأزهر ، بمثل ما شعروا به من الارتياح والتفاؤل عند تقليد فضيلة الأستاذ الامام الحالى مشيخته الجليلة . فكأن الناس قاطبة قد أُلهموا أن هذا اليوم هو الحد الفاصل بين عهدين ، وأنه فاتحة لحياة جديدة للاسلام تسرى فى جميع مظان الانتعاش من الأمم الآخذة به ، فتدفعها فى طريقه السوى المعبد ، وتأخذ بيدها الى الغايات البعيدة من خيرى الدنيا والدين معا ، فتسترد مجدا تليدا ، وتستقبل عهدا من النهوض جديدا .

وكأن الجوانح لم تطق حبس هذا الشعور الفياض فى سويداوات القلوب ، فبرز يتطلب مظهرا ماديا ، فتولدت فكرة الاحتفال بتكريم فضيلة الأستاذ الأكبر فى يوم مشهود ، وما هى إلا فترة مضت فى اتخاذ الأهب لإقامته ، حتى شهدنا منظرا يأخذ باللب جلالا وروعة ، فشهدنا الناس فى مختلف طبقاتهم ، لا الأزهريين وحدهم ، يتدافعون ألوفا ألوفا بالمناكب مسرعين الى مكان الاحتفال قبل موعده بساعات . ولما اكتمل حشدهم ، وانتظم عقدهم ، بدأ الاحتفال بقراءة آيات من الكتاب الكريم ، وما أتم القارىء قراءته حتى تحولت الأبصار الى منبر الخطابة ، فتعاقب الخطباء والشعراء عليه ، فلا أقول : فأخذت سيول اللسن والبيان تتدفق نثرا وشعرا ، ولكنى أقول : فشرعت تيارات الشعور تنبجس من الصدور فتغمر الحاضرين ، ثم تسرى فى عالم الأثير الى كل دار وناد ، وتتخطى مصر الى العالم الاسلامى كله فى كل صقع ، وكانت أصوات الهتاف بالدعاء لحضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول معيد مجد الأزهر ، ثم لفضيلة الامام

المراغى، ترن فى كل مكان . فلم يكن الاحتفال على هذا الوجه قاصرا على ألوف المجتمعين، ولكنه شمل عشرات الملايين فى مصر وخارجها، فشارك الماثلين فيه كل من يهتم بعظمة الاسلام فى كل مكان يسرى تيار اللاسلكى فيه .

فما رأينا احتفالا أخذ حظه منه الطفل الناعم فى مهده، والغانية المخدرة فى عقر دارها، والشيخ الفانى فى محرابه، قبل هذا الاحتفال الذى نصفه اليوم .

على أننا نلحظ فى هذا الاحتفال التكريمى الذى اكتسب صبغة عالمية، معنى أدق وأسمى مما يدل عليه اسمه . ذلك أن المسلمين قاطبة قد أدركوا مما كتبه بعض كبار العقول فى أوروبا، وما قام به كثير من أهل الثقافة الحديثة فى مصر وغيرها، أن الاسلام أسس أكبر أمبراطورية فى العالم، وأقام على أنقاض المدنيات التى كانت آخذة فى الانقراض مدنية فاضلة يتفق فيها العقل والعاطفة، وتتآخى فيها مطالب الأرواح والأجساد، وإنه لايزال على ما كان عليه : فيه شفاء للآحاد والجماعات، وبين دفتى كتابه قوة معنوية لا حد لها يمكن توجيهها لإزالة الداء العضال، واستعادة المجد المضاع، قلنا : أدرك المسلمون هذا منذ عشرات من السنين على درجات متفاوتة من التفصيل، فأحبوا أن يروا المنقطعين لدراسة هذا الدين فى طليعة الداعين لهذا العهد الذهبى للاسلام والمسلمين، فى عبارات تتفق وما ألفه المعاصرون، وبأدلة مستمدة من لباب العلوم الحديثة، وصفوة بحوثه المستفيضة . وكانوا يجملون كل هذه المطالب فى عبارة وجوب إصلاح الأزهر، وهم بطبيعة الحال لا يريدون من إصلاحه أن تنظم دروسه، وأن ترتب حصصه، ولا أن يشيد بنيانه، ويوسع مكانه، ولكنهم يريدون أن يدخل طلابه فى دور التطور العقلى الذى دخل فيه الناس كافة، وأن يدرسوا مايدرسه أمثالهم من طلاب الجامعات الكبرى، مادام الاسلام لا يضع للعلم حدا، ولا يرسم لتطور العقل دائرة، وما دام يدعو الآخذين به لأن يكونوا فى طليعة العالم كله تأثرا بناموس الارتقاء، وتصيدا للأحسن من كل شيء .

هذه كانت أمنية المسلمين فى الأزهر بمصر وغيرها من الأقطار الاسلامية منذ عشرات السنين ، وقد كتبت جرائدهم فيها ما لا يحصى من المقالات ، فحفظ الله فضل البدء فى الاصلاح المرجو للمصلح الكبير المرحوم الشيخ محمد عبده ، ولكن روح التجديد لم تكن قد تولدت فى البيئة الأزهرية ، فلم يسر إصلاحه بالسرعة المتمناة ، ولكنه لم يقف ، حتى انتهينا الى هذا العهد ، عهد اللاسلكى والأشعة الكونية والمستكشفات المحيرة للألباب ، فشعرت النفوس بحاجة ماسة للتجديد ، وخاصة فى معقد آمال المسلمين من الناحية الروحية وهو الأزهر ، فكانت الضرورة قاضية بأن يتولاه رجل جمع الى العلم الغزير روح التجديد المتوثبة التى تمثل الاسلام بمعناه الصحيح ، ويعرف مقتضيات الزمان والمكان ليتقى القواطع والعواثير ، وأشعرت النفوس أن هذه الصفات كلها تتوافر فى أخص تلاميذ الشيخ محمد عبده وهو الامام المراغى ، ورأى جلالة الملك حفظه الله ذلك ، فأسند اليه مشيخة الأزهر ، فانطلقت الألسن بالدعاء لجلالته ، واحتف الناس بزعيم التجديد يظهرون له ما تكنه قلوبهم من حب ، وما تجيش به صدورهم من سرور ، فكان هذا الاحتفال الذى لم يسبق له مثيل .

ووالله ما أجمع الناس على حب الإمام المراغى وأطبقوا على التوله به الى هذا الحد إلا وهو لذلك أهل وبه قمين ، فإن الله إذا أحب عبدا من عباده ألهم الناس حبه ، ثم لم يزل يؤيده ويحقق ظنون الناس فيه حتى يؤدى ما ندبه له من العمل العظيم .

ومجلة نور الاسلام تشارك الناس كافة فى تقديرهم لفضيلة الأستاذ الأكبر ، وترى من واجبها تدوين أكثر ما ألقى فى ذلك اليوم المشهود من خطب بليغة ممتعة ، وما أنشد من قصائد بديعة مونقة ، تخليدا لها على الدهر ، راجية الله أن يمد فى عمر الأستاذ الإمام لينعم بثمرة جهاده الكريم .

(ما قيل من الخطب والقصائد فى ذلك الاحتفال)

بعد ما أتم قارئ الكتاب الكريم قراءته ، وقف حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المجيد اللبان شيخ كلية أصول الدين ورئيس لجنة الاحتفال فقال :

حضرات اصحاب السمو ، حضرات اصحاب الدولة والمعالى ، حضرات السادة :

أحييكم أطيب تحية ، وأشكر لكم أصدق الشكر على تلبيتكم دعوتنا ، فبرهنتم بذلك على ما للأزهر من المنزلة الرفيعة فى نفوسكم ، والمكانة السامية فى قلوبكم ، وضاعفتم معنى التكريم الذى أراده الأزهريون لشيخهم من إقامة هذه الحفلة الكبرى ، إذ أعلنتم بهذا الاشتراك أن مقام المشيخة الاسلامية الذى يرقاه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى هو هو مقام الرياسة الدينية العظمى الذى يحيطه المصريون بمظاهر الاحترام والاجلال ، ويتوجه اليه المسلمون فى شئون دينهم بأسمى الآمال ، كما يدل اشتراككم على أن مصر ممثلةً فى صفوة أولى الرأى من رجالها ، تعرف ما للأستاذ المراغى من أياد بيضاء على التعليم الدينى ، وجهود بارزة فى سبيل إصلاح المعاهد الدينية وإعلاء شأنها . وإنى باسم الأزهر وباسم لجنة الاحتفال التى شرفتنى برياستها أرحب بكم ، وأحيي من قلبى تلك الرابطة الوثيقة التى تربط الأزهر بهذا الوطن العزيز ، وبالعالم الاسلامى أجمع ، وأحيي هذا الشعور النبيل الذى يتجلى نحو هذا المعهد الدينى الأكبر فى جميع المناسبات .

حضرات السادة :

أنشئ الجامع الأزهر من نحو ألف عام ، وتاريخه فى هذا الزمن الطويل يكاد يكون تاريخ الحياة العلمية والدينية والاجتماعية لمصر ولسائر بلاد العالم الاسلامى . إذ كان هو مصدرَ العلوم ومقر الدراسات لهذه البلاد جميعها ، ثم طرأت بعد ذلك طوارئ كان من أثرها هذا التحول فى الحياة العامة وفى أساليب التعليم واتجاهاته ، وزخر تيار هذه الاتجاهات الجديدة وزاحمت الأزهر بما لها من قوة الشيء الجديد ، وكاد الأزهر وسط هذا التطور العام ينفصل عن البيئة المصرية ، وتصبح تعاليمه السمحة مقصورة على رجاله ، وأوشك بفعل الزمن أن يصير وطنا مستقلا فى قلب هذا الوطن ، وكادت فائدته تخفى على بعض الناس ، وشعر الأزهريون أنفسهم أنهم يبتعدون عن شعبٍ مهمتهم

الكبرى إرشاده وهدايته ، وينفصلون عن مجتمع عملهم فى الحياة تهذيبه وتثقيفه ، وإذ ذاك لاحت بارقة أمل خلال جهود المصلحين فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن . ثم جاء عصر جلالة مولانا الملك المعظم ، فتوجهت عنايته السامية الى إصلاح الأزهر والمعاهد الدينية إصلاحا شاملا ، فوضعت له الأنظمة واللوائح الحالية ، وقسمت الدراسات العالية فيه على كليات تقوم كل واحدة منها بنوع من الدراسات الاسلامية والعربية ، على نمط جامعى خشى معه بعض الناس أن يتحول الأزهر عن تقاليده ومميزاته الى نظام المدارس المدنية ، لكنهم ما لبثوا أن شهدوا معجزة الأزهر تبرز أمام العيون واضحة جلية ، فإذا العلوم والفنون الأزهرية التى استقرت فى كتبنا القديمة تتحول الى دراسات عصرية منظمة محتفظة ، بطابع الأزهر فى دقة البحث ، وعمق التحليل ، وإذا أساتذة العلوم المستحدثة فى النظام الجديد المنتدبون لذلك من الجامعة المصرية والمدارس العالية يلقون محاضراتهم المختلفة فى كلياته بجانب شيوخه ، وإذا عقول الطلاب تتسع للجديد الطريف وللقديم العتيد فى ثوبه الجديد ، وبهذا أخذ الأزهر يسترد زعامته الأدبية والعلمية بعد أن نافسته معاهد استمدت حياتها منه .

وللأستاذ المراغى فى تأسيس هذا النظام عظيم الفضل ، ولجهوده كبير الأثر فى تكوينه .

أيها السادة :

أترك لحضرات الخطباء والشعراء بعدى تفصيل الكلام على فضل الأستاذ الأكبر وجليل أعماله ، وأختم كلمتى بالتوجه الى الله تعالى بالحمد والثناء على توفيقه وجميل رعايته ، وأضرع اليه جل شأنه أن يهب الأستاذ الأكبر التوفيق فى عمله ، ويرزقه السداد والحزم فى رأيه ، ليحقق بالأزهر وفى الأزهر ما ينشده العالم الاسلامى من إصلاح ، بفضل ما يسديه جلالة الملك المفدى من رعاية ، ويخص به الأزهر من عطف وعناية .

أدام الله جلالة الملك ذخرا للوطن العزيز ممتعا بالصحة الكاملة ، وأبقاه حاميا للعلم والدين ، وأقر عينه بسمو ولى عهده المحبوب أمير الصعيد ، آمين ؟

* * *

جلال مشيخة الأزهر والأستاذ الأكبر

ثم عقبه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ المبجل الشيخ على سرور الزنكلونى المدرس بكلية أصول الدين فقال :

سادتى :

الأزهر كما تحدث عنه التاريخ ، وكما تصورناه حين رحلنا اليه فى نعومة الأظفار ، وكما يعرفه المصريون وغير المصريين حين يخطر ببالهم ، ويحجون اليه لطلب العلم ، هو هـذه الشخصية الكبرى البارزة فى العالم ، والتى ينعكس منها على طلابه ورواده نور العلم وجلال الدين ، والتى عاشت ألف سنة إلا قليلا وهى تصارع الأحداث والأحداث تصارعها بما لم يقو على احتماله أضخم بناء فى التاريخ ، ولولا سر الله الخفى لتلاشى ، فهو الذى حفظه ، ولا يزال يحفظه ويجدد مجده الى اليوم .

إن الأزهر كما تواضع عليه الناس هو الذى تحيا عليه علوم الاسلام والقرءان ، وهى أسمى ما تستكمل به النفس الانسانية قواها . والأزهر بمقتضى وضعه وطبيعته يجب أن يكون خالصا لله وحده . فإذا ألمت به الأحداث وسلطت عليه تيارات الأهواء الملتوية فلله فيه نصيب كبير : دينه ، وعلومه . وهذا الشباب الغض من الطلاب الذين يبعثون اليه بنية صادقة ليتفقهوا فى دين الله ولينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون ، لله فيه النصيب الأوفر ، والله غيور على دينه ، وعلى وحيه ، وعلى هذا الشباب الغض الذى يحب الخير ولا يريد إلا الخير . ومن هنا تدركون سر بقاء الأزهر وثباته على كثرة ما نزل به من أحداث وغيره .

سادتي :

ماهى مشيخة الأزهر ؟ لا أريد أن أتعرض الى مشيخة الأزهر بالنظر الى ما ورثته عن العواصم الاسلامية من خلافة العلم والدين ، ولا الى ما قامت به من جلائل الأعمال فى عصور مصر المختلفة ومواقفها المشرفة فى وجوه الظالمين ، فذلك للتاريخ وحده ، ولكنى أتحدث عنها الآن بالنظر الى طبيعتها ، والى ما يفهمه الناس فيها قبل أن يحتكم الهوى وينتشر الفساد .

إن مشيخة الأزهر لهى القوة الدينية الكبرى ، التى تقوم بمعونة الأساتذة والطلاب على حراسة الدين وإحياء تعاليمه ، فإذا فكّر العقل تفكيرا مستقيما ولم يلتفت الى زخارف الحياة الكاذبة ، فلا يستطيع أن يدرك الجلال الحق إلا فى كنف هذه الرعاية السامية ، لأن شرف الأشياء بشرف غاياتها ، ومشيخة الأزهر تقوم على حراسة ما به تؤدى وظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ووظيفة الرسل إذا أديت على وجهها فكلها خير ، وكلها سعادة .

الى أن قال فضيلته :

أما الأستاذ الأكبر فيكفى تكريم الله له ، فقد عرفه الناس عزيزاً مكرما ، وتولى مشيخة الأزهر للمرة الأولى وفارقها وهو أعز وأكرم . واليوم تجيئه مشيخة الأزهر على قدر ، وهو يزداد عند الله وعند الناس وجاهة وجلالا . وإذا جاز فى عرف الأمم التكريم على ما يكون منحة من الله وفضلا ، فإنى أكرم أستاذنا المراغى مع المكرمين داعياً له وللأمة المصرية بالتوفيق والسداد .

وإنى قبل أن أبارح مكانى هذا أبتهل الى الله تعالى ، وأرجو أن تبتهلوا معى بقلب خالص ، أن يحفظ لنا حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك ويؤيد ملكه ويتمم شفاءه ، وأن يجعل لنا من سمو ولى عهده الرجل الشعبى الموفق ، وأن يحقق الله بهما وبالشعب المصرى لمصر الآمال ؟

ثم نهض حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ سليمان نوار المفتش بالمعاهد الدينية وأنشد هذه القصيدة :

توالت صروف الدهر واعتذر الدهر	وعادت الى الاسلام أيامه الغـــر
فمالك لا تشدو وشدوك ساحر	وحولك ما يهنا به الطائر الحـــر
ومثلك صداح إذا انكشف الدجى	ومثلك من غنى لصدحته الطير
أصداحة الدنيا الملحن صوتها	مكانك فوق الدوح قد طلع الفجر
تنبـــه أمام العين غرمنا به	تبارى شعاع الشمس آياتها الزهـر
نعم سطعت فى الكون آى محمـد	وأعجزت الأقـوام أعماله النضر
وسارت مع الأرواح شرقا ومغربا	فما ردها بر وما عاقها بحـــر
وسارت بأمر الله والله عـــالم	فقربها الاسلام وارتعـد الكفر
مفاخر لم أحسد عليها محمـــدا	فليس لمثلى ذلك الخلق النكر
ولكن وحب المجد ملء جوانحى	وليس لنفسى عن تطلبه صبر
أحب لنفسى أن تكون كماجـد	تتيه به العليا ويحتفل الدهـــر
وما الفخر بالأمـوال والمال زائل	وكم ناله وغـد وكم حازه غـــر
ألا إن أخلاقا أقامت منائرا	تردد آيات المراغى هى الفخـــر
أمعجزة الأيام ما الشعر بالـــغ	مداك وإن أوفى على الفلك الشعر
فحدث عن الأسرار فى فلك النهى	وخفف فلن يقوى على فهمك الفكر
فأمرك غيب لا يزال محجبا	وسرك أمر دونه الســـر والجهر
رويدك لم أبعـد أنا ابن عقائد	يجيش بها صدرى فيدفعها الصدر
لعمـر الشعور الحى إن محمـدا	عجيبة عصر حار فى أمرها العصر
إذا كان فى أفـق المعاهـد طالعا	سما شأنها والقـدر يسمو به القدر
وكف جموح القـول عن جماته	وأثنى عليها راغما وله العـــذر

تسير به الأعمال سير كواكب ... أضاءت بها الآفاق وانتظم السير
إذا ما ظنون البر والفضل حومت ... عليه رأيت الظن يسبقه الخبر
إذا ما ظنون الشر أرجف أهلها ... فسرعان ما يمحو ظنونهم الخير
هو الروح يسرى فى المعاهد كلها ... فتسرى بمسراه النزاهة والطهر
فللعدل بعث ناشط فى ربوعها ... وللعلم والأخلاق فى ساحها نشر
يقولون قانون نظام إدارة ... لوائح ، ما هذا اللباب ، بل القشر
ألا إنما القانون دين وعفة ... وعزة نفس لا يوهنها قسر
وقانوننا والحمد لله محكم ... ولا يقبل التعديل من نصه سطر
وليس سوى رأى المراغى وحكمه ... وحكم المراغى العدل والرفق واليسر
دعوناك للجلى وأنت كفيئها ... فسر ورضاء الله ربى لك الأجر

رسالة الأزهر

ثم نهض حضرة الأستاذ المفضال صالح هاشم وكيل كلية اللغة العربية فألقى هذه الكلمة :

حضرات السادة :

إننا حين نتحدث عن رسالة الأزهر الى العالم نعتبرها بحق تفسيرا صادقا لما اشتملت عليه الدعوة الاسلامية التى فتح الوحى بأغراضها السامية تاريخ الاسلام . قد نهض بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وورثها الخلفاء من بعده ، وظهرت مع طلائع الغزاة من أبطال المسلمين على شواطئ البحار وفى أقاصى الأقاليم ، وحملها المصلحون من صدور السلف الى الناس بمثل ما ابتدأت به : من التذرع بالإقناع ، والتنزه عن الإكراه فى الدين ، و[illegible] الاستعدادات البشرية للانتفاع بما تضمنته تلك الثقافة العليا لتعاليم [illegible]

من أدق أساليب الحكمة ، وأفضل أوزان النظام والعدل ، حتى أظل الناس رواق السلام ، واستقرت كلمة التوحيد فى أذن العالم .

وظلت هذه الدعوة الاسلامية تفتح أقفال القلوب وتغزو فلول الشبهات الباقية فى عقائد البشر ، حتى إذا استبحر العمران وتناءت أطراف الخلافة ، وتسرب إليها كثير من السلالات الدخيلة ، وتحكمت العناصر الأجنبية فى مقاليد الأمور ، بطلت النخوة ، ووهنت الحمية الدينية ، وتحللت الوثائق الواشجة فى الدولة ، وظهرت الفرق المختلفة ، وتراخت عزائم القائمين بالبلاغ من حملة هذه الرسالة .

وهنالك فى أواسط القرن الرابع الهجرى ، وفى مواجهة هذه المشاكل المهددة لكيان ذلك البنيان الضخم من مجد الإسلام ، دخل الفاطميون مصر ، وبنى الجامع الأزهر ، ووضع بذلك أساس أول جامعة دينية كبرى فى الشرق بأسره ، بل فى العالم أجمع ، وما هو إلا أن مضت طفولته مع الزمن حتى شخصت اليه الأبصار ، واستشرف المشفقون من أهل الملة نحوه بالرجاء ، وترامت بركبانهم الى رحابه مسالك الأمصار والبلدان ، وأقبل المسلمون ينفرون اليه من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون .

ويومئذ اضطلع الأزهر وحده بهذه الرسالة ، وانتهت اليه هذه الوصاية الدينية ، فاستقل ببلاغها ، وألبس الداعين اليها من رجاله وتلاميذه ثوبا سابغا من المهابة ، وملأ صدور العالمين من الثقة بهم والتوقير لمكانتهم الى ما لا مطاب بعده ولا مستزاد معه ، حتى صار الانتساب اليه عنوانا على الدين ، وطريقا الى الرضا ، ووسيلة الى المنزلة فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، وحج الى كعبته طلاب العلم من أقطار العالم ، وتولى قيادة النهضتين الدينية والعلمية فى المشرقين ، وحفته عناية الملوك والسلاطين ، ومضى ذكره مع مدار الشمس الى الآفاق ، والتمعت من جوانبه أشعة الهداية الربانية لمحاسن التأويل والتبصير

بمخارج السنة ، والاحتفاظ بآثار الأوائل من أهل الفقه وحماة الملة ، وأخذ هداته من كبار العلماء مكانهم من تاريخ العمران الاسلامى .

ولقد كان من عجائب ما ذخره الله فى علمه القديم من الصون لهذه الرسالة الأزهرية أن جعل ما نزل بالأمة الاسلامية من الكوارث تجددا لشباب هذه الجامعة ، وفاتحا لأبواب أخرى من الحياة فيها ، فتلكم غارة التتار على بغداد وقد قطّعت أوصال البلاد ، وفتكت بكل مصون من ذخائر الأمة الاسلامية ، قد جعلت جموع العلماء من كل مكان تنساب الى الأزهر ، وهاجر كثير من كرائم العشائر الى القاهرة ، ولجأ أصحاب المواهب والصناعات العلمية الى البلاد المصرية ، فاحتفظت القاهرة بعد قليل بما كان متفرقا فى الحواضر الاسلامية من ثقافة ومدنية وعلم . والأزهر قائم يدافع عن أركان الملة تهجم الملاحدة والمغوين من دخلاء الأمم ، ويتجرد المصلحون من علمائه لتنقية جوانب الشريعة المحمدية من ابتداع أهل الزيغ وتدسيس الحشوة من المنافقين والمأجورين ، ويصون لغة القرءان أن تذهب بها رطانات الغالبين وتودى بها أحداث الزمن ، وأبلغ الأزهر فى أداء هذه الرسالة عن المصطفى صلى الله عليه وسلم والتقرير لدقائق محاسنها والكشف عن أسرار مطابقتها لأرقى ما يتطلبه الاجتماع البشرى من الإصلاح الى حد جعل الفاتحين القاهرين من الكفار يعتنقون ديانة المقهورين ، كما فعل جماعات من الأتراك إبان دخولهم مصر . فكان ذلكم من أعظم مظاهر الانتصارات الخالدة للرسالة الاسلامية ، التى يتقلد الأزهر ولايتها ، ويحمل ما تعاظم طوائف المسلمين فى العالم من بلاغها .

والآن وهذه الجامعة الأزهرية تدخل فى دور جديد من التحول الإصلاحى ، وتتهيأ لمسايرة النشاط الحديث من المدنيات العصرية ، وتتأهب لإبلاغ رسالتها الى العالم بأسره لا الى المسلمين وحدهم على نسق متجانس من الثقافة العالمية ، الآن

يرتقب عن كثب خطوات هذه الجامعة فيما أعد لها من مناهج ، وينتظر بين الغبطة والشماتة ما ستصل اليه من نجاح .

ترون حضراتكم أن العبء ثقيل ، وأن التبعة غليظة فادحة . ترون أيها السادة أن الأمر جد يتطلب العزم الصارم ، والخطة الحازمة ، والجهود المتساندة ، والثورة العنيفة على ما عسى أن يكون باقيا من الخمول العقلي والاتكال على أحلام العاجزين ، فإننا مقبلون على امتحان لا ينفق في سوقه الزيف ، ولا تنفع معه الحيل ، ولا تقبل فيه إلا شفاعة الإخلاص لدين الله ، والبر برسوله ، والمحاماة عن شريعته ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة .

وإني ليسرني أن أنوه عن الاغتباط والتفاؤل بهذا العهد الجديد ، الذي يتولى قيادة الثقافة الاسلامية فيه ذلكم الامام المصلح الكبير ، الأستاذ الشيخ محمد مصطفى المراغي ، الذي يعتبر بحق مؤسس هذه النهضة الحاضرة ، وحارس بنيانها الراسخ ، في ظل حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم ، الذي تزدهر هذه الجامعة الأزهرية في عهده بعصرها الذهبي . أيد الله ملكه وحرس أريكته ، وأقر عين جلالته وأعين رعيته بولي عهده المحبوب أمير الصعيد الأمير فاروق ، أبقاه الله .

* * *

ثم علا المنبر حضرة صاحب الفضيلة الشاعر الألمعي الشيخ عبد الجواد رمضان فأنشد هذه القصيدة :

دَعَوا باسمك الآمال فهي بواسمُ	وَبثُّوا به الأرواح وهي حوائم
دجاليلهم حتى إذا لحت أصبحوا	وأنف الدياجي والحوادث راغم
هو الدين ، فادعم عرشه بعزيمة	فقد وهنت أركانه والدعائم
وما الأزهر المعمور إلا مناره	ولا أهله الأدنون إلا العمائم

مطالع يمن للزمان وأهله ... بها تسعد الدنيا وتدنو العظائم

* * *

فيا رجل الاسلام أدرك رجاله ... فقد أنكرتهم فى الحياة المكارم

وفيهم ، بحمد الله ، غر أزاهر ... وفيهم بحار فى العلوم خضارم

إذا عالجوا كانوا الشفاء وإن دعوا ... الى رد باغ فالذرا والمقادم

وكم لهمو — فى الله — غُرّ مواقفٍ ... تَنَشَّقُ رَيَّاها القرى والعواصم

* * *

أولئك أجناد إذا جدّ جدّهم ... سمت بهمو للفرقدين العزائم

إذا ما المراغى قام تحت لوائهم ... فقد زأرت فى الغاب تلك الضياغم

فَتَى فِتْيَةِ الشرق الأُولَى تنجلى بهم ... غياهبه ، والشرق بالخطب غائم

وصارم هذا الدين دين محمدٍ ... وقد أسلمته فى الجلاد الصوارم

فمن مبلغٌ أفناء يثرب أننا ... سلمنا ، على أن ليس فى الناس سالم

وأنّ الذى شاد النبىُّ محمدٌ ... على حفظه شيخ المراغة قائم

تبوّأ عرش الدين فاهتزّ ركنه ... وطاولت الجوزاءَ منه القوائم

وأمست شعوب الشرق نَشْوَى قريرةً ... تساهم فى تكريمه وتزاحم

قصاراه أن يدعو بها عُمَرِيّةً ... ترد وجود الشرك وهى سوائم

إذا ائتلقت فى مصر أضواء شمسها ... سمت فى هُدَاها للكمال العوالمُ

* * *

فؤادٌ ، أعزّ الله راية ملكه ... توالت على الاسلام منه مغانم

أحل علاه فى ذرا متمنّع ... فعاد اليه مجده المتقادم

فبورك مولًى كل تاريخه حلًى ... وشانيه مكروب وراجيه غانم

ولا زال للفاروق بسمة شارق ... على ثغره من طابع الملك خاتم

كلمة الطلبة

ثم قام حضرة الطالب الغيور الأستاذ الشيخ احمد حسن الباقورى فألقى هذه الخطبة :

حضرات أصحاب السمو ، حضرات أصحاب الدولة والمعالى ، أيها السادة ، مولانا الأستاذ الأكبر :

أعرف أن الناس حين يحتشدون لتكريم عظيم راعهم منه ما دفعهم الى تكريمه وتمجيده ، إنما يحاولون أن ينتزعوا ما يجيش فى صدورهم ، وتنطوى عليه نفوسهم من حب له وإعجاب به واطمئنان إليه ، وأن يصوروا ذلك كله صورة صادقة كلها إطراء وثناء .

ولكن شباب الأزهر بحكم خضوعهم لميزات الشباب ، لا تعرف عواطفهم حدا تقف عنده ، ولا مشاعرهم غاية تنتهى إليها ، فهم لذلك عاجزون عن تجلية ما يغمر نفوسهم من غبطة بما نال الأزهر ، ويعمر قلوبهم من حب للأستاذ الأكبر . بل إنهم لأغنياء عن تجلية عاطفة وإظهار غبطة ، بعد أن أرسلوه هتافا مدويا ملأ سمع الدهر ، وشمل جوانب الدنيا ، فاهتزت له حتى جدران الحصون .

لا نقول إذن فى هذا الحفل الحاشد ليطلع الناس منا على حب صادق ، وسرور شامل وولاء عظيم ، فذلك ما تشهد له الحوادث ، وتنطق به الوقائع ، وذلك ما سيرويه الزمن ويتحدث عنه التاريخ .

ولكننا ننتهزها فرصة طالما تمنيناها فتأبت ، لنشهد الأمة ممثلة فى عظمائها وزعمائها وذوى الرأى فيها ، أن شباب الأزهر لم يضطرب اضطرابه البرىء تهافتا على مستقبل ناعم ، ولا إيثارا لعرض زائل . ولكنه الوفاء لله ولدينه وللانسانية ، دفعهم الى تقدير مهمتهم ، وتعرف واجبهم ، والاتصال بأمتهم ، وقد كانوا اقتطعوا من هذه الأمة وهم قطعة منها ، وأبعدوا أو كادوا يبعدون عن نصرة دين الله وهم حماة هذا

الدين الكريم . فهبوا يهيمن عليهم جلال غرسته فيهم العزة الاسلامية ، ونشأتهم عليه التربية الأزهرية ، ثم هتفوا بالأستاذ المراغى رمزا للأزهر لاشيخا للأزهر فحسب . فالأستاذ المراغى فى رأينا — نحن شباب الأزهر — مبدأ ترسله الحياة فى منطقها عزيزا ، وتردده الدنيا فى حديثها شامخا ، وتستشرف له النفوس البارة المخلصة ، لأنه نشدة العقل ، بل غاية الانسانية ، بل أمل الشريعة وهتاف الدين .

وإنها لأول ظاهرة رائعة تجلى فيها ذلك المبدأ المقدس ، تلك الصيحة الحازمة تنزع الى إحياء الخلق من موت ساحق ، وترمى الى تطهير الاسلام من هوى ضال .

صيحة ابتعثها الشيخ المعظم فى دستوره الهادئ الوقور ، تحمل أسمى ما يبتغى المخلصون للأزهر من عزة ومنعة ، فاهتز لها المنبر ، ووعاها الحشد المتهلل ، ومشت بها الآمال الشهية ، تتدافع فى القلوب غبطة ، وتتراءى على الوجوه بشرا ، وتشرق على الأفواه بسمات ، يسمو معناها على الشعر ، ويتأبى على الخيال .

لقد شاء الله أن يدفع بالأمل الباسم ، فى أعقاب اليأس الحاطم ، وأن يرفه عن نفوس كان قد لج بها الحزن الباكى ، وحطمها الألم العنيف ، فاستيقظت فيها الثقة ، وعاودها الايمان بأن الأزهر سوف يتصل بالحياة أنبل الاتصال وأكمله ، يقاوم فى المجتمع الانسانى الشر ويصطلم منه الفساد ، ثم يشعره بما فى الاسلام من سمو وطهر ، وعدالة وإقناع ، ومن ذلك يهديه الى حيث يستروح من دستور الله عزيزا ، وشرعته منيعة ، كل ما يستشرف له من مجد وسؤدد وكمال .

لعل فى الناس من يفهم الإصلاح معنى تستجيب به متع الدنيا ، ومظهرا تخف اليه لذائذ الحياة ، ولكن الشباب الأزهرى الطامح لا يراه إلا تمكينا من فهم الاسلام روحا ساريا فى النفوس ، لا لفظا جاريا على الشفاه ، حتى يتسنى له أن يؤدى رسالته كما يريد الأزهر ، وعلى ما يحب الله . فهو لذلك يقدر المصلحين ويهتف بهم ، ويدافع عنهم دفاعه عما قد ارتفع الى مكان العقيدة من نفسه .

يا صاحب الفضيلة :

هذه قلوبنا ، بل هذه أرواحنا ، تستبق عهدك عهدا جريئا بريئا ، لا يحفزنا اليه إلا إخلاص لله ، وإنصاف للأزهر ، ووفاء للانسانية .

وإنا لنشهد الله ورسوله والمؤمنين على أن شباب الأزهر أول من يسلمك قياده راضيا ، لتوجهه وجهة الخير والصلاح ؛ وأول من يلبي دعوتك فينصر الخلق ويسوس الروح سياسة حكيمة حازمة ، وأول من سيخلص للعلم ليبقى العلم عزيزا ، ويحيا للأزهر ليستقبل الأزهر ألف عام أخرى ، يفخر به الوطن العزيز ، ويفزع اليه الشرق المهيض ، ويعتز به الاسلام المفدى .

وفقكم الله ، وسدد في سبيل الخير والاصلاح خطاكم ؛ كما نضرع الى الله أن يحفظ جلالة مليك البلاد ، وأن يقر عينيه بسمو ولى عهده المحبوب أمير الصعيد !

* * *

ثم عقبه حضرة صاحب الفضيلة الشاعر المطبوع الشيخ محمد الأسمر فأنشد هذه القصيدة :

أين المعز الفاطمى وجوهر يريان كيف اليوم صار الأزهر
عادت الى المعمور روعة مجده مما أقام رجاله والأعصر
وتلألأت شمس الهدى فى أفقه فجلت محاسنه التى لا تنكر
من بعد ما خفيت معالمها بدت حتى ليبصرها الذى لا يبصر
والليل يغشى الكائنات فلا ترى وتلوح فى كنف الصباح وتظهر

* * *

الأزهريون الغداة تفيئوا لله نعمته التى لا تكفر
أمحمد العقبى طلعت عليهم حلما يرى رأى العيان وينظر
فتدفقوا بحرا يعب عبابه من كل ناحية يجيش ويزخر
وظللت أسأل صاحبي متحيراً ومن الحقيقة ما يرى فيحير

هل عاد (نابليون) عودة ظافر … أو عاد من غزواته الإسكندر

أو أنه (كسرى) وذا نيروزه … أو أنه ملك الممالك قيصر

وسكت ثم سمعت أصوات المنى … تدعو بأحسن ما سمعت وتجهر

وتقول: لا كسرى ولا أمثاله … بل ذلكم شيخ الشيوخ الأكبر

فشككت ثم نظرت نظرة فاحص … فإذا القوام السمهرى الأسمر

وإذا الجلالة والمهابة منظر … وإذا السماحة والوداعة مخبر

وإذا الهداية والرعاية كلها … والمصلح المترقب المستنظر

فاغرورقت عينى وأسبل دمعها … ومن السرور مدامع تتحدر

واها لها أمنية قد حققت … ورؤًى رأيناها فجئت تعبر

إجماع كل المسلمين ورغبة … ظلت بها كل المدائن تجأر

فقدمت أيمن مقدم وأجله … حتى لأصبح وهو ذكر يؤثر

وطلعت فى أفق الحوادث كوكبا … للغيث أعقبه السحاب الممطر

ورجعت دارك كرة أخرى وما … أحلى مذاق الحلو وهو مكرر

ومشى بنوها فى ركابك كلهم … متهلل متفائل مستبشر

وتدافعوا كى يحملوك وراءهم … ما أبصروه من الجلال فشمروا

هل جاءهم من قبل ذلك أنه … حملت على بعض الكواهل أبحر

ماللكواهل والبحار رويدكم … خلوا الطريق لموجها لاتغمروا

خلوا الطريق لمن سيحمل عنكم … أعباءكم ويحوطكم ويدبر

ولمن سيجعلكم رجالا مثله … والشبل يفتل ساعديه القسور

ولمن لديه قلوبكم وعقولكم … يجلوهما كيما يشع الجوهر

ولمن يصوغكم نفوسا حرة … تتغير الدنيا ولا تتغير

ولمن إذا بعض الحوادث أجلبت … وافى يدافع عنكم ويزجر

يلقى العواصف وهو أظهر ما يرى … لا خائف حذر ولا متستر

أغنته عن حيل الضعيف عزيمة ... لا تلتوى أبدا ولا تتقهقر
والليث أبرز ما يكون مصاولا ... وبنات آوى والثعالب تمكر
(شيخ الشيوخ) ولا أزيدك بعدها ... لقبا ليهنك أنه بك يكبر
وأرى صغير النفس إن يعثر به ... لقب كبير حط منه فيصغر
فانهض بعبئك يا محمد إنه ... مما يؤود الراسيات ويوقر
واجمل بطانتك الكرام فانهم ... أدرى بوجه الصالحات وأخبر
وهم شذا لكم وهم نفحاتكم ... تسرى وأنتم مسكها والعنبر
ولكل كون كائنات مثله ... فقبيله من جنسه والمعشر
الزهر فوق الروض زاه يانع ... والشوك فى الصحراء أصفر أغبر
ولكل كون بعد ذاك لسانه ... ولغاه ، منها منذر ومبشر
فاليوم من لغة الظلام وفى الضحى ... تشدو الحمائم فى الغصون وتهدر

* * *

شيخ الشيوخ جرى القريض لغاية ... فيها المجلى فى السباق مقصر
فاعذر فلست بمن تفيه قصيدة ... حق الثناء وإن مثلك يعذر
أحيا بك الله الشريعة بعد ما ... ظلت معاهدها خلاء تصفر
وحميت كعبته بمصر وصنتها ... وسهرت حولها تشيد وتعمر
لله بيت فوق مكة قائم ... والأزهر المعمور بيت آخر
والأزهر المعمور روض مونق ... فيه يمينك نهره المتفجر
أنت الرئيس له وأنت به أب ... حدب يطوف على بنيه ويسهر
ماذا يقول الشعر فيك وما عسى ... يجرى به قلم البليغ ويسطر
أعمالك البيضاء أكبر شاعر ... يثنى عليك فما يقول الأشعر
وأرى اجتماع اليوم خير قصيدة ... الدهر منشدها ومصر المنبر

خطبة فضيلة الأستاذ الأكبر

ثم نهض حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر وسط عاصفة من الهتاف والتصفيق فألقى هذه الخطبة الجامعة التى تعتبر فى ذاتها دستورا علميا سيقوم عليه الأزهر فيحقق الآمال فيه :

حضرات السادة الأعزاء :

أحمد الله جل شأنه على ما أولانيه من الكرامة بهذه المنزلة فى نفوسكم ، وأشكر لحضرات الداعين المحتفلين برهم وكرمهم ، وعاطفة الحب الفياض البادية فى قولهم وفعلهم ، فى شعرهم ونثرهم ، ولحضرات المدعوين تشريفهم واحتمالهم مشقة الحضور الذى أعربوا به عن جميل عطفهم وحبهم .

ويسهل علىّ قبول هذه المنن كلها واحتمالها إذا أذنتم لى فى صرف هذه الحفاوة البالغة عن شخصى الضعيف ، واعتبارها كلها موجهة الى الأزهر الشريف ، الذى تجلونه جميعا ، وتعتبرونه بحق شيخ المعاهد الاسلامية فى مصر وغيرها من البلاد .

ولئن دل هذا الاجتماع بالقصد الأول على غرض التكريم ، فقد دل بالإشارة والتبع على معان أسمى من غرض التكريم .

دل على أن الأزهر خرج عن عزلته التى طال أمدها ، ونهض يشارك الأمة فى الحياة العامة وملابساتها ، وعزم على الاتصال بها ليفيد ويستفيد . وهذه ظاهرة من ظواهر تغير الاتجاه الفكرى ، الذى نشأ عن تغير طرائق التعليم فيه ، وعن شعوره بأن فى الحياة معارف غير معارفه القديمة يجب أن تدرس وتعرف ، وطرائق للتعليم يجب أن تحتذى ويهتدى بها .

ومنذ أربعين سنة اشتد الجدل حول جواز تعليم الحساب والهندسة والتاريخ فى الأزهر ، وحول فائدة تعليمها لعلماء الدين . ومنذ أربعين سنة قرأ لنا أحد شيوخنا

كتاب الهداية فى الفلسفة فى داره ، على شرط أن نكتم الأمر لئلا يتهمه الناس ويتهمونا بالزيغ والزندقة . والآن تدرس فى كلية أصول الدين الفلسفة القديمة والحديثة ، وتدرس الملل والنحل ، وتقارن الديانات ، وتعلم لغات أجنبية شرقية وغربية .

ومن الحق أيها السادة علينا ألاّ ننسى فى هذه المناسبة ـ والحديث حديث الأزهر والأزهريين ـ ذلك الكوكب الذى انبثق منه النور الذى نهتدى به فى حياة الأزهر العامة ، ويهتدى به علماء الأقطار الاسلامية فى فهم روح الاسلام وتعاليمه . ذلك الرجل الذى نشر الحياة العلمية والنشاط الفكرى ، ووضع المنهج الواضح لتفسير القرءان الكريم ، وعبد الطريق لتذوق سر العربية وجمالها ، وصاح بالناس يذكرهم بأن العظمة والمجد لا يبنيان إلا على العلم والتقوى ومكارم الأخلاق . ذلك الرجل الذى لم تعرفه مصر إلا بعد أن فقدته ، ولم تقدره قدره إلا بعد أن أمعن فى التاريخ . ذلك هو الأستاذ الإمام محمد عبده ، قدس الله روحه وطيب ثراه ! وقد مر على وفاته ثلاثون حولا كاملة ، ومن الوفاء بعد مضى هذه السنين ونحن نتحدث عن الأزهر ، أن نجعل لذكراه المكان الأول فى هذا الحفل ، فهو مشرق النور ، وباعث الحياة ، وعين الماء الصافية التى نلجأ اليها إذا اشتد الظمأ ، والدوحة المباركة التى نأوى الى ظلها إذا قوى لفح الهجير .

الأزهر كما تعلمون أيها السادة هو البيئة التى يدرس فيها الدين الاسلامى الذى أوجد أمما من العدم ، وخلق تحت لوائه مدنية فاضلة ، وكان له هذا الأثر الضخم فى الأرض ، فهو يوحى بطبعه الى شيوخه وأبنائه واجبات إنسانية ، ويشعرهم بفروض صورية ومعنوية يعدون مقصرين آثمين أمام الله وأمام الناس إذا هم تهاونوا فى أدائها . وإنهم لا يستطيعون أداء الواجب لربهم ودينهم ولمعهدهم وأنفسهم إلا إذا فهموا هذا الدين حق فهمه ، وأجادوا معرفة لغته ، وفهموا روح الاجتماع ، واستعانوا بمعارف الماضين ومعارف المحدثين فيما تمس الحاجة اليه مما هو متصل بالدين أصوله وفروعه ، وعرفوا بعض اللغات التى تمكنهم من الاتصال بآراء العلماء والاستزادة من العلم ، وتمكنهم من نشر الثقافة

الاسلامية فى البلاد التى لا تعرف اللغة العربية . هذا كله يحتاج الى جهود تتوافر عليه ، والى التساند التام بين العلماء والطلبة والقوامين على التعليم ، ويحتاج الى العزم والتصميم على طى مراحل السير فى هدوء ونظام ، وجد وصدق نية ، وكمال توجه الى الله ، وحب للعلم لا يزيد عليه إلا حب الله وحب رسوله .

وللمسلمين فى الأزهر آمال من الحق أن يتنبه أهله لها :

أولاً — تعليم الأمم الاسلامية المتأخرة فى المعارف ، وهدايتها الى أصول الدين ، والى فهم الكتاب والسنة ، ومعرفة الفقه الاسلامى وتاريخ الاسلام ورجاله ، وقد كثر تطلع هذه الأمم الى الأزهر فى هذه الأيام ، وزاد قاصدوه منها أفراداً وجماعات ، واشتد طلبها لعلماء الأزهر يرحلون اليها لأداء أمانة الدين ، وهى بيانه ونشره .

ثانيا — إثارة كنوز العلم التى خلفها علماء الاسلام فى العلوم الدينية والعربية والعقلية ، وهى مجموعة مرتبط بعضها ببعض وتاريخها متصل الحلقات . وقد حاول العلماء كشفها فنقبوا عنها وبذلوا جهودا مضنية ، وعرضوا نتائج بعضها صحيح ، وكثير منها غير صادق . وعذرهم أنهم لم يدرسوا هذه المجموعة دراسة واحدة ، على أن بعضها متصل بالآخر كما هو الحال فى دراسة الأزهر . فإذا وفق الله أهل الأزهر الى التعمق فى دراسة هذه المجموعة دراسة قديمة وحديثة ، ودراسة المعارف المرتبطة بها ، وأتقنوا طرق العرض الحديثة ، أمكنهم أن يعرضوا هذه الآثار عرضا صحيحا صادقا بلغة يفهمها أهل العصر الحديث ، وإذ ذاك يكونون أداة اتصال جيدة بين الحاضر والماضى ، ويطلعون العالم على ما يبهر الأنظار من آثار الأقدمين . وأعتقد أن التعليم الأزهرى على النحو الذى أشرت اليه هو الذى يرجى لتحقيق هذا الأمل ، وأنه مدخر لأبنائه ، إن شاء الله .

ثالثا — عرض الاسلام على الأمم غير المسلمة عرضا صحيحا فى ثوب نقى خال من الغواشى المشوهة لجماله ، وخال مما أدخل وزيد فيه ، ومن الفروض المتكلفة التى يأباها الذوق ويمجها طبع اللغة العربية .

رابعا — العمل على إزالة الفروق المذهبية ، أو تضييق شقة الخلاف بينها ، فإن الأمة فى محنة من هذا التفرق ومن العصبية لهذه الفرق . ومعروف لدى العلماء أن الرجوع الى أسباب الخلاف ، ودراستها دراسة بعيدة عن التعصب المذهبى ، تهدى الى الحق فى أكثر الأوقات ، وأن بعض هذه المذاهب والآراء قد أحدثتها السياسة فى القرون الماضية لمناصرتها ، فنشطت أهلها وخلفت فيهم تعصبا يساير التعصب السياسى ، ثم انقرضت تلك المذاهب السياسية وبقيت تلك الآراء الدينية لا ترتكز إلا على مايصوغه الخيال وما افتراه أهلها ، وهذه المذاهب فرقت الأمة التى وحدها القرءان وجعلتها شيعا فى الأصول والفروع ، ونتج عن ذلك التفرق حقد وبغضاء يلبسان ثوب الدين ، ونتج عنه سخف ، مثل ما يقال فى فروع الفقه الصحيح : إن ولد الشافعى كفء ابنت الحنفى ، ومثل ما يرى فى المساجد من تعدد صلاة الجماعة ، وما يسمع اليوم من الخلاف العنيف فى التوسل والوسيلة وعذبات العمائم وطول اللحى ، حتى إن بعض الطوائف لا تستحى اليوم من ترك مساجد جمهرة المسلمين وتسعى لإنشاء مساجد خاصة .

من الخير والحق أن نتدارك هذا ، وأن يعنى العلماء بدراسة القرءان الكريم والسنة المطهرة دراسة عبرة وتقديم لما فيها من هداية ودعوة الى الوحدة ، دراسة من شأنها أن تقوى الرابطة بين العبد وربه ، وتجعل المؤمن رحب الصدر هاشاً باشاً للحق ، مستعداً لقبوله ، عاطفا على إخوانه فى الانسانية ، كارها للبغضاء والشحناء بين المسلمين .

قد أتهم بأنى تخيلات نخلت . ولا أبالى بهذه التهمة فى سبيل رسم الحدود ولفت النظر اليها ، وفضل الله واسع ، وقدرته شاملة ، وما ذلك على الله بعزيز .

الآن وقد أوضحت بالتقريب آمال المسلمين فى الأزهر ، ترون أيها السادة أن العبء الملقى على عاتق الأزهر ليس هين الحمل ، فإنه فى حاجة الى العون الصادق من كل من يقدر على العون : إما بالمال ، أو بالعقل ، أو بالمعارف والتجارب . وكل شىء يبذل فى طريق تحقيق هذه الآمال هين إذا أتت الجهود بهذه الثمرات الطيبة المباركة .

ايها السادة :

أكرر لكم شكرى ، وأبعث من هذا المكان وفى هذا الجمع المبارك تحية الأزهر الى العالم الاسلامى ، والى دور العلم ومعاهده وأتشرف برفع ولاء الأزهر الى مقام حضرة صاحب الجلالة الجالس على عرش مصر الملك فؤاد الأول ، وصاحب الفضل العميم فى الأزهر فى العصر الحديث . أدام الله عزه ، ومتع جلالته بالصحة التامة والتوفيق الدائم ، وأقر عينه بحضرة صاحب السمو الملكى أمير الصعيد ولى العهد المحبوب .

والسلام عليكم ورحمة الله .

أداء الحق مع رعاية الادب (١)

عن لؤلؤة خادم الرشيد قال : جرى بين الرشيد وبنت عمه زبيدة كلام ، فقال هارون : أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنة . ثم ندم فجمع الفقهاء ، فاختلفوا . فكتب الى البلدان فاستحضر علماءها اليه . فلما اجتمعوا جلس لهم فسألهم ، فاختلفوا ، وبقى شيخ لم يتكلم ، وكان فى آخر المجلس ، وهو الليث بن سعد ، قال : فسأله ، قال : إذا أخلى أمير المؤمنين مجلسه كلمته . فصرفهم ، فقال : يدنيني أمير المؤمنين ، فأدناه . قال : أتكلم على الأمان ؟ قال نعم . فأمر باحضار مصحف فأحضر ، فقال : تصفحه يا أمير المؤمنين حتى تصل الى سورة الرحمن فاقرأها ، ففعل . فلما انتهى الى قوله تعالى : «ولمن خاف مقام ربه جنتان » ، قال : أمسك يا أمير المؤمنين ، قل : والله . فاشتد ذلك على هارون . فقال : يا أمير المؤمنين الشرط أملك . فقال والله ، حتى فرغ من اليمين . قال : قل إنى أخاف مقام ربى . فقال ذلك . فقال يا أمير المؤمنين : فهى جنتان وليست بجنة واحدة . قال فسمعنا التصفيق والفرح من وراء الستر . فقال له الرشيد : أحسنت ، وأمر له بالجوائز والخلع ، وأمر له بأقطاع الجيزة ، ولا يتصرف أحد بمصر إلا بأمره ، وصرفه مكرما .

(١) من كتاب أخلاق العلماء ، تأليف صاحب الفضيلة الشيخ محمد سليمان نائب المحكمة الشرعية العليا .

ايها السادة :

أكرر لكم شكرى ، وأبعث من هذا المكان وفى هذا الجمع المبارك تحية الأزهر الى العالم الاسلامى ، والى دور العلم ومعاهده وأتشرف برفع ولاء الأزهر الى مقام حضرة صاحب الجلالة الجالس على عرش مصر الملك فؤاد الأول ، وصاحب الفضل العميم فى الأزهر فى العصر الحديث . أدام الله عزه ، ومتع جلالته بالصحة التامة والتوفيق الدائم ، وأقر عينه بحضرة صاحب السمو الملكى أمير الصعيد ولى العهد المحبوب .

والسلام عليكم ورحمة الله .

أداء الحق مع رعاية الادب [1]

عن لؤلؤة خادم الرشيد قال : جرى بين الرشيد وبنت عمه زبيدة كلام ، فقال هارون : أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنة . ثم ندم فجمع الفقهاء ، فاختلفوا . فكتب الى البلدان فاستحضر علماءها اليه . فلما اجتمعوا جلس لهم فسألهم ، فاختلفوا ، وبقى شيخ لم يتكلم ، وكان فى آخر المجلس ، وهو الليث بن سعد ، قال : فسأله ، قال : إذا أخلى أمير المؤمنين مجلسه كلمته . فصرفهم ، فقال : يدنينى أمير المؤمنين ، فأدناه . قال : أتكلم على الأمان ؟ قال نعم . فأمر باحضار مصحف فأحضر ، فقال : تصفحه يا أمير المؤمنين حتى تصل الى سورة الرحمن فاقرأها ، ففعل . فلما انتهى الى قوله تعالى : «ولمن خاف مقام ربه جنتان » ، قال : أمسك يا أمير المؤمنين ، قل : والله . فاشتد ذلك على هارون . فقال : يا أمير المؤمنين الشرط أملك . فقال والله ، حتى فرغ من اليمين . قال : قل إنى أخاف مقام ربى . فقال ذلك . فقال يا أمير المؤمنين : فهى جنتان وليست بجنة واحدة . قال فسمعنا التصفيق والفرح من وراء الستر . فقال له الرشيد : أحسنت ، وأمر له بالجوائز والخلع ، وأمر له بأقطاع الجيزة ، ولا يتصرف أحد بمصر إلا بأمره ، وصرفه مكرما .

(١) من كتاب أخلاق العلماء ، تأليف صاحب الفضيلة الشيخ محمد سليمان نائب المحكمة الشرعية العليا .

أقول : هذا تصرف عال من جمال العلم روعى فيه الحق والأدب معا ، ترى الليث عرف وجه الفتوى وهـو أن الطلاق لا يقع إذا كان الرشيد ممن يخاف مقام ربه ، ورأى فى نفسه أنه لا يبيح لها أن يطلق الفتوى على علاتها حتى يتوثق من الشرط وهو خوف الله تعالى ، ويكون هذا بتحليف الرشـيد حتى تطمئن نفس الامام الى أن فتواه صادفت حقا ، فصرف من فى مجلس الخليفة حتى لا يكون تحليفه بمرأى منهم ، ولا تأخذ الرشيد نفسه كما قد همت حين أراد تحليفه لو لم يذكره بشرطه عليه أن له الامان منه حتى سكن . ثم لم تكن فتوى الامام خلجة نفس بل من القرءان نفسه ، ولذلك أقرأه المصحف حتى آية : « ولمن خاف مقام ربه جنتان » فاطمأن بذلك الرشيد وعرف أنه يمسك حرمه على حل صحيح بنص قاطع من كلام الله .
وهذه موهبة الحق فى غالب أحوالها لا تنفك عن حسن الأدب عند من عقل وعرف .

قال يحيي بن عبد الصمد : خوصم موسى الهادى أمير المؤمنين الى أبي يوسف فى بستانه . فـكان الحـكم فى الظاهر لأمير المؤمنين ، وكان الامر على خلاف ذلك . فقال أمير المـؤمنين لأبى يوسف : ماصنعت فى الأمر الذى يتنازع إليك فيه ؟ قال : خصم أمير المؤمنين يسالنى أن أحلف أمير المؤمنين أن شهوده شهدوا على حق . فقال له موسى : وترى ذلك ؟ قال قد كان ابن ابى ليلى يراه . قال : فاردد البستان عليه .

أقول : وهذا أيضا ذوق خالص من القاضى أبى يوسف : عرف كيف يصل بالحق الذى رآه الى صاحبه من غير أن يحرج صاحب الدعوى الذى قامت له البينة وأظهر القضاء فى جانبه .

وجاء فى الـكتاب المذكور تحت عنوان تضجيتهم :

جاء أصحاب الحديث الى الاعمش يوما ليسمعوا عليه ، فخرج إليهم وقال : لولا أن فى منزلى من هو أبغض الى منكم ما خرجت إليكم .

وخرج سفيان بن عيينة المحدث الورع يوما الى من جاءه يسمع منه ، وهو ضجر ، فقال : أليس من الشقاء أن أكون جالست ضمرة بن سعيد وجالس هو أبا سعيد الخدرى ، وجالست عمرو بن دينار وجالس هو ابن عمر رضى الله عنهما ، وجالست الزهرى وجالس هو أنس بن مالك حتى عد جماعة ، ثم أنا أجالسكم ؟ فقال له حدث فى المجلس : أتنصف يا أبا محمد ؟ قال إن شاء الله تعالى . فقال : والله لشقاء أصحاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بك أشد من شقائك بنا ! فأطرق وأنشد قول أبى نواس :

خـل جنبيـك لرام وامـض عنه بسـلام
مت بداء الصمت خـير لك من داء الـكلام
إنما السـالم من ألجـم فاه بلجـام

فتفرق الناس وهم يتحدثون برجاحة الحدث . وكان ذلك الحدث يحيي بن أكثم التميمى ، فقال سفيان : هذا الغلام يصلح لصحبة هؤلاء ، يعنى السلاطين .

وقد صدقت فراسته ، فتولى يحيى قضاء البصرة وهو ابن عشرين سنة ، ثم ترقى حتى ولاه المأمون قضاء القضاة وتدبير أهل مملكته .

وعن على بن حرملة التيمى عن أبى يوسف ، قال : كنت أطلب الحديث والفقه وأنا مقل رث الحال ، فجاء أبى يوما وأنا عند أبى حنيفة فانصرفت معه . فقال : يابنى لا تمدن رجلك مع أبى حنيفة ، فان أبا حنيفة خبزه مشوى ، وأنت تحتاج الى المعاش ، فقصرت عن كثير من الطلب وآثرت طاعة أبى . فتفقدني أبوحنيفة وسأل عنى ، فجعلت أتعاهد مجلسه ، فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخرى عنه ، قال لى : ما شغلك عنا ؟ قلت الشغل بالمعاش وطاعة والدى . فجلست فلما انصرف الناس دفع الى صرة ، وقال استمتع بهذه . فنظرت فاذا فيها مائة درهم ، فقال لى الزم الحلقة وإذا نفدت هذه فاعلمنى ، فلزمت الحلقة فلما مضت مدة يسيرة دفع الى مائة أخرى ثم كان يتعاهدنى . وما أعلمته بخلة قط ، ولا اخبرته بنفاد شىء ما ، وكان كأنه يخبر بنفادها حتى استغنيت وتمولت .

وجاء تحت عنوان أمانتهم :

كان ابن عمر يقول : إذا أخطأ العالم أن يقول : لا أدرى ، فقد أصيبت مقاتله .

عن يحيى بن سعد قال : سئل ابن لعبد الله بن عبد الله بن عمر عن شىء فلم يكن عنده جواب . فقلت إنى لاعظم أن يكون مثلك ابن إمام هدى يسأل عن شىء لا يكون عندك منه علم . فقال : أعظم والله من ذلك عند الله وعند من عقل عن الله عز وجل أن أقول بغير علم ، أو أحدث عن غير ثقة .

مطبوعات جديدة

من أخلاق العلماء :

هذا اسم كتاب طريف وضعه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد سليمان نائب المحكمة الشرعية العليا . ونريد من كلمة طريف أنه لم ينسج على منواله ، فقد ألم فيه بذكر أربعمائة عالم ، وأثبت لكل منهم أحسن ما أثر عنه من الفضائل ، فجاء الكتاب على هذا النمط أطروفة علمية أدبية جمعت فى نحو ٣٥٠ صفحة ما تشتت فى ألوف من الصفحات لا تتسنى قراءتها لعالم أو أديب ، وإن تسنت عز عليه أن يجمعها بين دفتى كتاب واحد مبوبة مرتبة يرجع اليها فى أى وقت أراد . فاستحق بذلك فضيلة القاضى الكبير شكرا لا ينفد من العلماء والأدباء . جزاه الله عن العلم خير ما يجزى به أولياءه .

وقد صدقت فراسته ، فتولى يحيي قضاء البصرة وهو ابن عشرين سنة ، ثم ترقى حتى ولاه المأمون قضاء القضاة وتدبير أهل مملكته .

وعن على بن حرملة التيمى عن أبى يوسف ، قال : كنت أطلب الحديث والفقه وأنا مقل رث الحال ، فجاء أبى يوما وأنا عند أبى حنيفة فانصرفت معه . فقال : يابنى لا تمدن رجلك مع أبى حنيفة ، فان أبا حنيفة خبزه مشوى ، وأنت تحتاج الى المعاش ، فقصرت عن كثير من الطلب وآثرت طاعة أبى . فتفقدني أبوحنيفة وسأل عنى ، فجعلت أتعاهد مجلسه ، فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخرى عنه ، قال لى : ما شغلك عنا ؟ قلت الشغل بالمعاش وطاعة والدى . فجلست فلما انصرف الناس دفع الى صرة ، وقال استمتع بهذه . فنظرت فاذا فيها مائة درهم ، فقال لى الزم الحلقة وإذا نفدت هذه فاعلمنى ، فلزمت الحلقة فلما مضت مدة يسيرة دفع الى مائة أخرى ثم كان يتعاهدنى . وما أعلمته بخلة قط ، ولا أخبرته بنفاد شيء ما ، وكان كأنه يخبر بنفادها حتى استغنيت وتمولت .

وجاء تحت عنوان أمانتهم :

كان ابن عمر يقول : إذا أخطأ العالم أن يقول : لا أدرى ، فقد أصيبت مقاتله .

عن يحيى بن سعد قال : سئل ابن لعبد الله بن عبد الله بن عمر عن شيء فلم يكن عنده جواب . فقلت إنى لأعظم أن يكون مثلك ابن إمام هدى يسأل عن شيء لا يكون عندك منه علم . فقال : أعظم والله من ذلك عند الله وعند من عقل عن الله عز وجل أن أقول بغير علم ، أو أحدث عن غير ثقة .

مطبوعات جديدة

من أخلاق العلماء :

هذا اسم كتاب طريف وضعه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد سليمان نائب المحكمة الشرعية العليا . ونريد من كلمة طريف أنه لم ينسج على منواله ، فقد ألم فيه بذكر أربعمائة عالم ، وأثبت لكل منهم أحسن ما أثر عنه من الفضائل ، فجاء الكتاب على هذا النمط أطروفة علمية أدبية جمعت فى نحو ٣٥٠ صفحة ما تشتت فى ألوف من الصفحات لا تتسنى قراءتها لعالم أو أديب ، وإن تسنت عز عليه أن يجمعها بين دفتى كتاب واحد مبوبة مرتبة يرجع اليها فى أى وقت أراد . فاستحق بذلك فضيلة القاضى الكبير شكرا لا ينفد من العلماء والأدباء . جزاه الله عن العلم خير ما يجزى به أولياءه .

الاسلام والتجديد فى مصر :

هذا كتاب وضعه الدكتور تشارلس آدمس الامريكى وقدم له حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ النابه الشيخ مصطفى عبد الرازق ، ونقله الى العربية حضرة الالمعى الاستاذ عباس محمود أحد خريجى قسم الفلسفة من كلية الآداب بالجامعة المصرية . هـذا الكتاب يدور حول إيراد تاريخ الاستاذ الامام المرحوم الشيخ محمد عبده باعتبار أنه واضع أساس التجديد الدينى فى مصر ، ويذكر جمهرة العلماء والكتاب الذين يعتبرون جارين على جادته ، ومترسمين آثار خطته ، فهو كتاب حافل بالمعلومات عن حركة التجديد العصرية ، مما لا يجـوز أن يغفل الاطلاع عليه كل باحث فى الدين ، أو معنى بتاريخ نهضته الراهنة .

التجديد فى طرق الخطابة والوعظ الدينى :

هذه رسالة وضعها صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ احمد على ملوك من وعاظ وزارة الاوقاف عنى فيها بايراد أكثر من مائة خطبة على طريقة التجديد التى يتطلبها المصلحون للخطب المنبرية من وجوب صوغ المواعظ فى قالب يألفه أهـل العصر الحاضر ، وبعبارات خالية من السجع والتعقيد تؤثر فى نفوسهم . فنلفت نظر وزارة الاوقاف الى هذه الرسالة ، فانها معنية اليوم بمشروع يرمى الى هذا الغرض الشريف .

أحلام فى السياسة وكيف يتحقق السلام العام :

هـذه رسالة فـذة فى نوعها وضعها حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ العامل بعلمه الشيخ طنطاوى جوهرى ، أتى فيها الاستاذ على فلسفته فى الحياة الاجتماعية للانسان ، وبسط آراءه فى الاصول والمبادىء التى يجب أن يتبعها الناس للوصول الى السلام العام والسعادة الحقة . وهذه الرسالة كجميع مؤلفات الاستاذ ملأى بالافـكار العميقة ، والنظرات البعيدة ، وحافلة بالوسائل التى يراها مؤدية بالأمم الى كمالها المنشود جسما وروحا .

أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم :

لصاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ محمد حسين النجار منشىء المدرسة الاسلامية بأسيوط رسائل كثيرة فى المواضيع الاسلامية . والتى نحن بصدد تقريظها واحدة منها ، جمع فيها طائفة كبيرة من أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم ، كتبها بلغة عصرية طلية تجذب القارىء للمطالعة . فنرجو

أن تعم رسالته جميع المدارس ، وتكثر فى أيدى المدرسين وغيرهم ممن يمنون بالاقتداء بخاتم النبيين ليصلوا الى الكمال على طريقته المثلى .

الفاروق عمر بن الخطاب :

هذه رسالة فى سيرة أمير المؤمنين الفاروق كتبها فى لغة فصيحة وباسلوب قيم حضرة الاستاذ دياب عثمان العرابى أحد خريجى دارالعلوم . وقد جعل إهداءها لحضرة صاحب السمو الملكى أمير الصعيد . فنشكر لحضرة المؤلف هذا الصنع الجميل ، فقد أتحف محبى السيرة العمرية بمجموعة من تاريخ الفاروق لا يجدونها فى غير هذه الرسالة .

محاسن الاسلام :

هذه رسالة كتبتها الكاتبة الايطالية الدكتورة لورا فيتشا فاليرى وعربها حضرة الاستاذ الفاضل طه فوزى افندى من موظفى محكمة الاستئناف بمصر . طالعنا هذه الرسالة فوجدنا حضرة الكاتبة الفاضلة قد أنصفت المسلمين بما كتبته عن دينهم عن علم واطلاع . وإن مجرد سرد أبواب الرسالة يكفى فى بيان غرضها منها . فاليك : محاسن الاسلام . سرعة انتشار الاسلام من صنع الحكمة الالهية . بساطة العقيدة الاسلامية . حكمة شعائر الاسلام . سمو الآداب الاسلامية وأثرها . الاسلام والمدنية . التصوف فى الاسلام . الاسلام فى علاقاته مع العلم .
فشكرا للباحثة الفاضلة وشكرا للمعرب الغيور .

تيسير المنفعة بكتاب مفتاح كنوز السنة :

يذكر القراء أننا ألممنا هنا بذكر كتاب للمستشرق الدكتور فنسنك جعله فهرستا عاما للاهتداء الى الاحاديث النبوية الواردة فى أربعة عشر كتابا من كتب السنة بحسب موضوعاتها، وذكرنا أن حضرة الاستاذ الفاضل محمد افندى فؤاد عبد الباقى قد قام بترجمته . واليوم نقول : إن حضرة المترجم الفاضل رأى أن يضع لكل كتاب من الكتب التى ليس فيها أبواب فهرستا خاصا يجعل لكل منها فيه أرقاما مسلسلة مطابقة للارقام التى وضعها لها المؤلف . وقد أصدر فهرستين منهما عن صحيح البخارى وجامع الترمذى ، فنشكر لحضرة المترجم الفاضل جهده . ونتمنى أن يثيبه عليه ثواب العاملين .

بسم الله الرحمن الرحيم

مهمة الدين الاسلامى فى العالم

٢١

دعوته الى تعرف السنن الالهية فى الجماعات البشرية

الاسلام ألّف أكبر مجتمع عهدته الانسانية فى تاريخ حياتها الاجتماعية، وقد أقامه على الأصول الخالدة، والمبادئ العامة، وقد شرحنا هذه الميزة الاسلامية الجليلة فى مقال سابق، ونريد اليوم أن نقول إن الاسلام لم يكتف بما فعل، ولكنه بسطه بسطا علميا، ودعّمه على الأدلة الواقعية المستمدة من الحوادث العالمية.

فأول ما عمد اليه فى هذا الشأن الجلل أن بيّن وحدة أصل النوع الانسانى، وتَساوِى الآحاد والجماعات فى الحقوق الطبيعية، وأنّ تخالف الناس فى البيئات والقوميات لا ينفى أن يتعاونوا على قطع مفاوز الحياة، وأن يتعارفوا ويتبادلوا المرافق الحيوية، قاضيا على الوهم الشائع بين الأمم، وهو ما يخيل الى كل منها أنها أعلى كعبا من غيرها. وقد جمع هذه الأصولَ الأولية كلها قوله تعالى: « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير».

هذه الأصول الأولية هى أول ما طرق من نوعها سمع الشعوب المنبثة فى الأرض، وصدم كبرياءها الجاهلية. فقد كان منها من يدّعى أن أصولها تنتهى الى الآلهة، ومنها من يعتزى الى أبناء تلك الآلهة، ومنها من ينتسب الى الجبابرة الأولين الذين دوخوا أمم الأرض، ومنها من كان ينتمى الى بعض المرسلين أو الأنبياء والصديقين. فجاءت هذه الآية بعصاصة من العلم هى نفس ماقررته المعارف الاجتماعية بعد نزول القرءان بأكثر من ألف سنة.

ثم إن الاسلام تولى هذه الأصول التى عليها مدار سعادة المجتمعات بالبيان والشرح ، وقوّاها بالأدلة المستمدة من الحوادث الماضية والراهنة ، وهو لأجل أن يفتح للانسان مجالا للنظر ، ويوجد له ميزانا للتقدير المستقر على قواعد صحيحة ، كشف له سرًّا من أجلّ أسرار الاجتماع البشرى ، وهو أن للاجتماع سننا إلهية لا تتخلف ولا تتبدل . فالأمة التى كتب لها النجاة من علل الاجتماع أو الشفاء منها عند الالتياث بها ، تتعرف تلك السنن وتطبق أعمالها عليها ؛ والأمة التى قدر عليها الاضطراب أو الفناء تغبى عن هذه السنن ، وتجرى من أعمالها على غير هدى . قال الله تعالى : «سنةَ اللهِ فى الذين خَلَوا من قبلُ ولن تجد لسنة الله تبديلا » وقال تعالى : « سنةَ مَن قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا » .

فكان هذا فتحا عظيما فى العلم ، وأى فتح أعظم من أن يفهم الناس أن للعالم الانسانى نظاما مقررا ، وقانونا مقدرا ، لا تستطيع أن تعدوه الأمم دون أن تصاب بما يستتبعه عدوانها من المثلات ، وما يجره من الانحرافات ، جزاءً وفاقا .

وكان من نتائج هذا العلم أن أصبح المسلمون حريصين على تلمس هذه السنن من مظانها حرصهم على بقاء وجودهم ، وسلامة كيانهم . وقد دفع بهم هذا الحرص الى تحرى الصراط السوى فى جميع أعمالهم ومعاملاتهم ، وقيام بعضهم رقباء على بعض فى سِيَرهم وتصرفاتهم ائتمارا بما رسمه الله لهم بقوله : « ولتكن منكم أُمّة (أى جماعة) يَدعُون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهَوْن عن المنكر وأولئك هم المفلحون» . وكيف يتساهلون فى هذا الأمر والله تعالى يقول فى قوم هالكين : « كانوا لا يتناهَوْن عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » .

هذا كله جعل من المسلمين أمة تقوم على جادة الحق ، وتعمل على بث هذا الخلق فى الآحاد ، ويراقب بعضها بعضا فى القيام عليها ، تفاديا من أن يصيبها ما أصاب الأمم قبلها .

هنا مجال لأهواء تتسرب الى النفوس فتوهمها بأنها بمنجاة من هذا الإيعاد ، وأنها لمجرد انتسابها الى هذه الجماعة أو تلك تعامل من الله معاملة ممتازة الخ ، فقضى الله على كل هذه الأوهام بقوله تعالى : « ليس بأمانيّكم ولا أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوءاً يُجزبه ولا يجِدْ له من دون الله وليا ولا نصيرا ».

وبهذه الآية تجلت الحقيقة العلمية المقررة ، وهى أن نظام الكون يأبى المحاباة والمصانعة ، وأن سنن الله تسرى على الكافة على حد سواء ، كما نص عليه حديث قدسى كريم وهو : « الجنة لمن أطاعنى ولوكان عبدا حبشيا ، والنار لمن عصانى ولوكان شريفا قرشيا » وقوله صلى الله عليه وسلم لابنته : « اعملى يافاطمة فإنى لا أغنى عنك من الله شيئا » .

بإسقاط وهم المحاباة أسقط الله تعالى من رءوس صدر هذه الأمة وساوس كانت آثارها وبالاً على الأمم التى نبتت فيها ، وأخذ بضبع المسلمين الى نهضة قوية سريعة خالية من جميع العوامل التثبيطية ، حتى انطوت تحت أقدامها المساوف الشاسعة ، وجمعت بين طرفى الشرق والغرب بما هو أشبه بجولة رياضية .

من مجموع ما أنزل الله فى أمر الاجتماع نشأ فى هذه الأمة ضرب من الرقابة المتبادلة بين الأفراد والأفراد ، وبينهم وبين الهيئة الحاكمة فيهم لأنه مادامت أخلاق الآحاد وأعمالهم تؤثر فى بنية اجتماعهم قوة أوضعفا ، وما داموا هم مأمورين أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، وما دام كل عضو من جماعتهم مكلفا أن يعمل على درء ما يراه من المنكرات بيده أو بلسانه أو بقلبه ، ما دام كل هذا قائما فكيف لا تنشأ بين الآحاد مراقبة قوية محكمة ؟ .

بهذا التركيب الاجتماعى البديع يصبح فى المجتمع الاسلامى أداة تعمل باستمرار وبغير شعور من الناس على إزالة كل ما يدب الى الجماعة من جراثيم الفساد ، فلا يعتريها تحلل ولا ضعف ولا ارتكاس . وإنما المدار على العمل بهذه الأصول الاسلامية ، لا على

الاعتقاد بها والجرى على نقيضها . وقد ثبت أن العمل بها قد أثمر للآخذين بالاسلام ثمرات من تأسيس الدولة والتبسط فى الأرض لم تصل الى مثلها أمة غيرها من الأمم التى سبقتها أو تلتها الى هذا العهد .

يصطدم بهذا الأصل هنا مبدأ من الإباحة سموه بالحرية الشخصية . ومؤدى هذا الأصل عند أهله أن للانسان كل الحرية فيما يعمله ما دام ضرره لا يحيق إلا به دون غيره ، وعدّوا مما يدخل فى هذه الحرية تعاطى الخمر والاتجار فيها والزنا ما دام الطرفان متراضيين عليه ، والقمار فى دائرة معينة ، والربا ما دام لا يجاوز حدا مقررا ، وغير ذلك .

ولكن الاسلام مع احترامه لمبدأ الحرية الشخصية وتقديسه له ، يرى أنه لا يصح أن يسرى على هذه الآثام التى ذكرناها : فيرى أن الخمر والزنا والمقامرة والربا الخ لا يقتصر ضررها على آتيها فحسب ، ولكنه يتعداه الى أهله ومجتمعه .

وينازع الاسلام المشترعين فيما هو أدق من هذه المسألة ، وهو أنه ليس مما ينطبق على مبدأ الحرية الشخصية أن يباح للانسان أن يأتى ما يضر بشخصه ، لأنه ما دام عضوا فى مجتمع فلا يجوز أن يضعفه بإضعاف نفسه .

ومن العجيب أن الاشتراع الوضعى يتفق مع الاسلام فى هذا التفسير لمبدأ الحرية الشخصية فى بعض الأمور دون بعض ، فكان بذلك مناقضا لنفسه فى أهم المبادىء الاشتراعية ، وأمسها بحياة المجتمع .

فهو يرى أن يبيح للانسان أن يتعاطى المسكر ، وأن يدمن عليه ، ولا يرى أن يبيح له أن يستمط الكوكايين ، ولا أن يحتقن بالمورفين ، بحجة أن فى عمله الأخير إضرارا بصحته مع أن فى تعاطى الخمر من الإضرار بها ما لا يقف عند حد ، لا عليه وحده فحسب ، ولكن على أهله وبنيه وبنى جلدته أيضا . ويرى أن يبيح له الزنا والقمار ، ولا يبيح أن يتمخط أو أن يبصق فى الطريق بدعوى أن فى هذه المادة الأخيرة ضررا بغيره

من ناحية نشر عدوى ما عسى أن يكون لديه من الأمراض ، مع أن فى الزنا والقمار من الأضرار ما لايقاس به ضرر البصق ، بل وما لا يقاس به ضرر الأوبئة الفتاكة .

ولِم نذهب بعيدا : أليس بين يدينا الإحصاءات ناطقة بأن ما تفعله الخمر بالأجساد والعقول يفوق ما تفعله شر الطواعين ، وجائحات الأوبئة ؟ فهذه المستشفيات غاصة بالمدمنين ، وهذه البيمارستانات ملأى بالمجانين ، بل وهذه الدور حافلة بالذين لم يقعد بهم المرض الى حد العجز المطلق ، ولا اختلال القوى العقلية الى درجة الجنون المطبق ، ولكنهم يعيشون على حال من سوء الأخلاق ، وفساد النفوس أضر على ذويهم وأبناء المجتمعات التى ينتمون اليها من أضرابهم الذين تؤويهم المصحات والسجون .

وهل نشرح حب السرف والترف وتدهور الأخلاق وانحلال الأسر وضياع الثروات عامل أنكأ أثرا من إباحة الزنا والقمار والتهتك الشنيع ؟ فالغرب الذى أصبحت علومه وصنائعه ومدنيته عاجزة عن رأب صدوعه ، ورتق فتوقه ، وتقويم عوجه ، ما أوصله الى هذه الحالة إلا ذيوع هذه الضروب من الفواحش فيه .

فالاسلام بوقوفه من مبدأ الحرية الشخصية عند الحد الذى يسمح به المنطق القويم ، والطبع السليم ، لا يقصد أن يكبل الحرية بقيود من حديد ، ولكنه يريد أن تكون حرية صالحة تنتج الآثار المنتظرة منها . أما الحرية التى تطلق الداعرين والفاسقين والإباحيين ليرتكبوا تحت ستار هذا المبدأ الكريم ما يترفع عن مثله الحيوان الأعجم ويعود منه على الانسان البلاء المحتم، هذه الحرية يعدها الاسلام إباحة بهيمية ، فلا يقرها ولا يتغاضى عنها، بل يضرب عليها نطاقا من حديد .

فالحقوق الطبيعية التى يحترمها الاسلام ، هى الحقوق التى تعترف بها الانسانية الحقة ، وتقتضيها الحياة الصحيحة ، وتستلزمها المدنية الفاضلة . وهو جار من هذا كله على سنة الله فى خليقته ، فإن هذه السنة لا تفلت من ميزانها الذرة ، ولا تخلص من محاسبتها الخطرة . وخير الشرائع الاجتماعية ، ما وافق شريعة الله الكونية .

فالاسلام احترم الحقوق الانسانية ، المستندة على الأوضاع الطبيعية ، ولم يحترم منها ما أوجده الهوى ، ولا ما ولدته الشهوة . وقد رمى من هذا الى تأليف مجتمع سليم فى نفسيته ، سليم فى عقليته ، سليم فى بنيته ، يجرى الى غاياته البعيدة ، كأنه جزء من الطبيعة لا خارج عليها ، ولا مدابر لها . وكل مجتمع يجعل هذه الطريقة وجهته يصل الى النهايات التى يقصدها ، خلافا للمجتمعات التى تبنى وجودها على معاكسة السنن الالهية ، فإنها تصاب بجراير آثامها ، ولا تزال تتعسف فى سيرها حتى تبيد غير مأسوف عليها : « قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين » .

محمد فريد وجدى

أبلغ ماقيل فى الاعتذار عن الذنوب

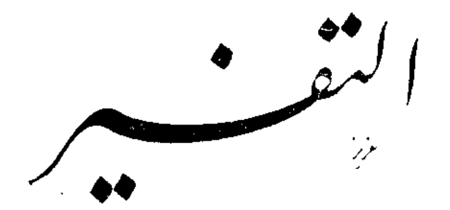
قال خالد بن عبد الله لسليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين حين وجد عليه : يا أمير المؤمنين إن القدرة تذهب الحفيظة ، وأنت تجل عن العقوبة ، ونحن مقرون بالذنب ، فان تعف عنى فأهل ذلك أنت ، وإن تعاقبنى فأهل ذلك أنا .

وأمر معاوية بن أبى سفيان بمعاقبة روح بن زنباع . فقال : أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تضع منى خسيسة أنت رفعتها ، أو تنقض منى مريرة أنت أبرمتها ، أو تشمت بى عدوا أنت وقمته ، إلا أتى حلمك وصفحك عن خطئى وجهلى .

فقال معاوية : خليا عنه ، إذا أراد الله أمرا يسره .

وروى أن عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين وجد على رجل فجفاه واطرحه ، ثم دعا به ليسأله عن شىء ، فرآه شاحبا ناحلا . فقال له : متى اعتللت ؟ فقال الرجل : مامسنى سقم ، ولكنى جفوت نفسى إذ جفانى الامير ، وآليت أن لا أرضى عنها حتى يرضى عنى أمير المؤمنين . فأعاده معاوية الى سابق منزلته .

وروى الهيثم بن عدى : لما انهزم عبد الله بن على من الشام قدم على المنصور وفد منها ، فتكلموا عنده . ثم قام الحارث فقال : يا أمير المؤمنين إنا لسنا وفد مباهاة ، وإنما نحن وفد توبة ، ابتلينا بفتنة استخفت كريمنا واستفزت حليمنا ، ونحن بما قدمنا معترفون ، ومما سلف منا معتذرون ، فان تعاقبنا فقد أجرمنا ، وإن تعف عنا فطالما أحسنت الى من أساء منا .
فقال المنصور للحرسى : هذا خطيبهم . وأمر برد ضياعه عليه .



سورة الرعد

– ٤ –

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : « وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ . أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ ٱلْأَغْلَالُ فِى أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَاتُ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ » .

لقد تجلى فى صدر السورة الكريمة من آيات ربك الكبرى ما يسد باب الارتياب ، ويقطع دابر الشك ببرهان اليقين . تجلت فيها قدرة العزيز القادر ، وحكمة العليم الحكيم ، فى ملكوت السموات والأرض ، وتسخير الشمس والقمر ، وتسخير السحاب ، وإجراء الأنهار ، وتنويع الثمار ، وقد استمدت من غذاء واحد ، وسقيت بماء واحد ، ومع هذا كان منها الحلو والمر ، ومنها النافع والضار ، ومنها ما يصلح للغذاء ، وما يصلح للدواء . فكان من الوضوح بالمكان العظيم أن من كانت هذه آثاره لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وهو السميع العليم ؛ وأن من خلق السموات والأفلاك والكواكب والحيوان والنبات ، وأبدع فيها من الحكم ما يبدو لكل ناظر ، ويزداد جلاء عند كل تأمل ، فقدرته وحكمته وعلمه لا يصح أن تكون موضع ارتياب ولا محل

شك ؛ وأن من بقى عنده بعد ذلك ريب أو شك فقد أهمل قضية عقله ، وأعرض عن فطرته ، وحقت عليه كلمة الضلال ، لا يعرف الى الهدى طريقا ، ولا الهدى يصل اليه من سبيل . فمثل هؤلاء هم أعجوبة الزمان ، وشواذ بنى الانسان ، والمنحرفون عن مقتضى العقل ، والخارجون على قانون الفطر . وإن شئت فقل : هم الذين أُعطوا أسباب السعادة ، ومُكّنوا من طريق النجاة وطيب الحياة ، فولوا عنها مدبرين ، وتنكبوا الطريق السوى ، وسلكوا مسالك الشياطين . فهل هناك أعجب من حال هؤلاء ؟ إن هذا لهو العجب العجاب ، والغريب المحير للألباب :

فقوله تعالى : « وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد » تراه من الآيات السابقة بمنزلة الثمرة من الشجرة . ذكر تعجبهم من أن يقدر الله على إعادتهم بعد أن ماتوا وصاروا ترابا ، ولم يكفهم تلك الآيات الكبرى الدالة على عظيم قدرته ، وواسع علمه ، وبديع حكمته . فأى الفريقين أحق بالعجب : أهؤلاء الذين تبهرهم الآيات والدلائل ، وتتوافر على مطلوبهم جميع الوسائل ، فيمرون عليها معرضين ، ويتحيرون فى أمر هو واضح كل الوضوح ، أم قدرته تعالى على إعادة ما أوجد بدءا ، وعلمه بتفصيل ما خلق وأنشأ ، وحكمته فى أن يعيد الناس ليوم الجزاء الأوفى ليجزى كل امرئ بما سعى ؟

أما إن العجب العجاب لهو فى مظهرهم الذى كشف عن منتهى غبائهم ، وانكشفت به مخازيهم ، فإن كان هناك عجب ، فالعجب من بقائهم فى حمأة الجهالة يعمهون ، وأنهم عن غيهم لا ينتهون ، بعد ما وضحت الأدلة التى تقطع ظلام الشك بنور اليقين .

فالمخاطب فى قوله تعالى : « وإن تعجب » هو من يتأتى منه العجب ، وكأنه بدأ بذلك فى سياق حكاية عجبهم من البعث بعد الموت ليقتلع عجبهم قبل نباته ، وليسد عليه طريق التطرق الى الآذان ، فضلا عن أن يتمكن من الأذهان . وكأنه قيل : هم يعجبون للإعادة بعد البدء ، وهم فى عجبهم هذا أحق بأن يتعجب منهم ومن غفلاتهم ، وقد تجلت

البراهين أمام أعينهم. ويكون المعنى: إن تتعجب أيها المخاطب من شيء فأولى الأشياء بالعجب هو هذه الحالة الشاذة. أو إن ترد أن تتعجب فها هو ذا شأنهم أمامك يشبعك عجبا، فلا تبتغ وراءه عجيبا. ويصح أن يكون الخطاب موجها الى النبي صلى الله عليه وسلم، كأنه قيل: إن تعجب يا محمد من حال، فالعجب هو ما بدا على قومك الذين عهدت فيهم سعة العقل وقوة المدارك، لا يزالون بعد هذه الآيات فى حيرة وتعجب يقولون: أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد. ولا تعارض بين المعنيين.

ويلوح أن الوجه الأول أشد فى النعى عليهم، والتشنيع على فساد رأيهم.

وترتيب الجزاء فى قوله: «فعجب قولهم» على الشرط أى «إن تعجب» من جهة أن معنى «فعجب قولهم» أى فتعجب من قولهم الخ. أى إن أردت العجب فتعجب من هذا، أو إن تعجبت من شيء ما فى الوجود فتعجب من هذا، فهو أحق شيء بالعجب. وإنما كان هذا عجيبا لأن تعجبهم من حصول البعث لا يعدو أن يكون لتوقفه على القدرة أو على العلم بتفاصيل المُعاد وذهاب جزيئاته فى كل مذهب، أو لخفاء حكمته. فأما القدرة والعلم فكيف يخفى شأنهما عليهم وقد وضح الأمر بما تجلى فى العالم من آثار قدرته وواسع علمه وحكمته؟ وأما الحكمة فهل يريدون أن يبقى هذا العالم فوضى تبعا لشهواتهم وأهوائهم، ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض؟

قوله: «أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد»:

هذا مقول قولهم، فمحله نصب. أو هو بدل من قولهم على أنه بمعنى المقول، فمحله الرفع. والأول أوجه، لأن التعجب فيه كأنه صرف الى تلفظهم بهذه المنكرات، أى أن نفس النطق بها والتفوه بها عجب أى عجب، فما بالك بالجملة نفسها. وهذا كما تقول لمخاطبك: أنا أعجب كيف أدرت لسانك بهذه الكلمة، وكيف نطق بها فوك، بل كيف وردت على خاطرك؟ وأمثال ذلك، مبالغة فى إنكار الكلمة نفسها.

وتكرير الاستفهام الإنكارى فى العبارة المحكية عنهم، لحكاية الإنكار المتمكن

من نفوسهم ، كأنهم قالوا : أنبعث بعد أن نكون ترابا ؟ أفنكون فى خلق جديد بعد البلى ؟ والخلق : التكوين ، والجديد : ضد القديم ، وأصله من قولهم : ثوب جديد كأنما قد جده الحائك عن نول نسجه ، أى قطعه .

ولقد ساقوا تعجبهم بصورة تساعد نفوسهم على استنكار إعادتهم ، وذلك بصوغ العبارة الدالة على تجديد خلقهم بأسلوب يدل على رسوخهم فى الجدة ، وذلك فى قولهم : أئنا لفى خلق جديد ، وجعل ذلك فى الوقت الذى كانوا فيه ترابا ، وذلك فى قولهم : أئذا كنا ترابا ، وذلك ليظهر منشأ الاستبعاد والإنكار الذى يحاولون تقريره .

قال تعالى : « أولئك الذين كفروا بربهم ، وأولئك الأغلال فى أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » :

أجل : إن من ارتاب فى قدرة ربه على هذه الهنات الهينات بالقياس الى عظيم قدرته ، ولم يسلم أنه قادر على أن يعيد ما بدأ خلقه ، فقد كفر بربه الذى خلقه فسواه ولم يك شيئا ، وعلمه ما علمه بعد أن أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئا ، وآتاه رزقه فنماه ورباه وكان لا يملك شيئا ، أفمن يعترف بهذه النعم التى أفاضها الله عليه وهو لم يعمل لاستحقاقها شيئا ، يصح أن ينكر قدرة هذا الرب العظيم على الإعادة وهى أهون عليه ؟

أما إن الذين ينكرون البعث أو يرتابون فيه أو يتعجبون منه لهم هم الذين كفروا بربهم ، وأنكروا نعمه عليهم : من خلق وتربية ، ورزق وتنمية . فلو اعترفوا بالنعمة لما حام حول عقولهم هذه الشبهة . وأولئك الأغلال فى أعناقهم ، تغل أعناقهم عن الالتفات الى باهر الآيات ونير البينات ، فهم بإعراضهم عن النظر فى الآيات المحيطة بهم كمن أخذ عنقه فى غل ، فلا يستطيع الالتفات يمنة أو يسرة . والغل فى العنق كالقيد فى الرجل . وهذا كما قال تعالى فى سورة يس : « إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مُقمَحُون » . فهو من باب تمثيل المعرض عن النظر فى آيات الله بصورة من وضع الغل فى عنقه فنمعه عن تحريك رأسه . والمقمح هو المعرض . وأصله

البعير يرد الماء فيرفع رأسه ويشمخ بأنفه فلا يتناول الماء وهو محتاج اليه وميسور لديه . وعلى ذلك يكون قوله : « وأولئك الأغلال فى أعناقهم » وصفا لهم فى الدنيا ، وهو المناسب لقوله : « كفروا بربهم » . وقيل إنه وصف لحالهم فى الآخرة كقوله تعالى : « إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يُسحبون فى الحميم ثم فى النار يُسْجَرون » . وهو المناسب لقوله تعالى بعد : « وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

وأقول : إن المعنيين لا تعارض بينهما ، فلا مانع من إفادة الآية لكليهما ، فهم فى الدنيا محجوبون عن النظر والتفكر والاهتداء ، وفى الآخرة تكون الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون ، ففى أعناقهم أغلال [1] الدنيا وأغلال الآخرة .

وقوله : « وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » نتيجة لازمة للجملتين قبله ، فماذا يكون حق الذين كفروا بربهم وغلت أعناقهم عن التفكر فلم يهتدوا ، وسحبوا بالأغلال فى الحميم ، إلا أن يكونوا أصحاب النار هم فيها خالدون ؟

ومعنى أنهم أصحاب النار أنهم ملازموها لا ينفكون عنها ولا تنتهى صحبتهم لها ، كما يدل عليه التعبير بالجملة الاسمية « وأولئك أصحاب النار » دون مثل عبارة : وهم يصحبون النار ، مثلا . وقوله : « هم فيها خالدون » أعيد الضمير لتكرار الإسناد ، تثبيتا للخلود ، بتقريره مستقلا بنفسه لا تابعا للجملة قبله ، ولبيان انصباب الخلود فيها عليهم انصبابا مباشرا .

بقى الكلام فى اختيار اسم الإشارة فى التعبير عنهم دون الضمير ، وفى حكمة تكراره فى الجمل الثلاث :

---

(١) ولا يقال إن هذا من باب الجمع بين الحقيقة والمجاز وهو ممنوع ، لانا نقول : على تسليم منعه فلا خلاف فى جواز عموم المجاز ويكون الاغلال هنا مستعملا فى كل ما يحول بين المرء ومراده من غل حسى فى الآخرة ومعنوى فى الدنيا وهو صوارف الشهوات والاهواء .

أما الأول فقد قرر علماء البلاغة أنه إذا ذكر شيء بصفات يستحق بها حكما ، ثم أريد ترتيب الحكم على تلك الصفات ، فإنه يؤتى فى التعبير عنه باسم الاشارة ، كأن ذلك يحضره فى الذهن متصفا بالصفات التى سبقت له ، وكأنه ينصب أمام الذهن بحالته التى هو عليها ، فتشاهده النفس بصفاته ، فتوقع عليه الحكم من أجل تلك الصفات البادية عليه .

وأما التكرار فليتكرر حضوره فى الذهن بتلك الصورة ، فيوقع عليه الحكم باستحقاقٍ فى كل مرة .

ونظيره وإن بعدت المسافة بين الفريقين قوله تعالى : « أولئك على هُدًى من ربهم وأولئك هم المفلحون » فإنه عبر عنهم بأولئك فى الموضعين لبيان أن سبب استحقاقهم هذا الحكم هو تلك الصفات السابقة : من تقواهم ، وإيمانهم بالغيب ، وإقامتهم الصلاة ، وإنفاقهم مما رزقهم الله ، وإيمانهم بما أنزل الله على رسوله وعلى الذين من قبله ، وإيقانهم بالآخرة وما أعد فيها .

قال تعالى : « ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المَثُلَاتُ ، وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ، وإن ربك لشديد العقاب » :

كان شأنه صلى الله عليه وسلم مع قومه فى قيامه بتبليغ رسالة ربه أن يدعو الناس لتوحيد الله وتمجيده ، ويأمرهم بطاعته وإفراده بالعبادة وحده ، ويبين لهم واضح المحجة بقوىّ الحجة ، فمن اتبعه فقد اهتدى ، ومن أعرض عنه فإن له نكال الآخرة والأولى ، فكان حينما يعرضون عن النظر فى الآيات البينة التى يجلوها على أبصارهم وبصائرهم ، يخوفهم عذاب الله فى الآخرة وفى الدنيا ، فكانوا إذا خوّفهم عذاب الآخرة أنكروا البعث والمعاد ، حتى يبهرهم بالأدلة التى تقطع شقشقتهم ، كما تراه فى الآيات السابقة ، إذ تدرج من بيان دلائل القدرة والعلم والحكمة ، الى تقرير المعاد وتسفيه أراء من ارتاب فيه بعد ماوضح الصبح لذى عينين . وإذا خوفهم عذاب الدنيا استهزءوا به

وقالوا : ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ، بل تمنتوا وتمادوا فى طغيانهم وقالوا : « لن نؤمن لك حتى تَفْجُرَ لنا من الأرض ينبوعا » الى قوله : « أو تسقط السماء كما زعمت علينا كِسفًا » بل ازدادوا عتوا وقالوا : « اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » .

كل هذا كان يحصل منهم وترتاح اليه أفئدتهم ، بل كانت نزعتهم أقرب الى الشر واستعجال الضر . فكان من عادة الحكمة الإلهية ألا يستخفها سخفهم ، ولا يؤثر فيها نزقهم وطيشهم ، ولكن الله يفعل ما يشاء مما يحتوى على عظيم الحكمة ومتقن التدبير ، وأرقى أساليب التربية ، فهو يملى لهم ويمهلهم حتى تزول النعرة عن نفوس بعضهم ، فيلوى على الآيات التى أنكرها وإذا بها تتلألأ أمام عينيه نورا ، وتكون شرته قد هدأت ، ونفسه قد سكنت ، فيلهمه الله ما فيه سعادته بعد طول شماس ، فيؤمن ويحسن إيمانه ، ويتمادى آخر فى غيه وبهتانه ، فلعله إن لم يؤمن جاء من عقبه من يوحد الله ويعبده . وكم من مؤمن نبت من صلب كافر ، فإن مات على كفره فالله شديد العقاب ، كما قال تعالى : « وأملى لهم إن كيدى متين » .

ولقد أبرز المولى جل وعلا سخافتهم على وجه يجب أن يتوارى صاحبه من الخزى ، إذ حكى عنهم أنهم مولعون باستعجال السيئة ، وليس هذا من العقل فى قليل ولا كثير ، فالعاقل إنما ينتظر منه استعجال الخير لا استعجال الشر ، ثم قال : « قبل الحسنة » أى أنهم يطالبون إليك أن يسبق عذابهم رحمة الله التى هم مهيئون لنيلها لو كانوا يعقلون . ولو أن الأمر لم يسبق له سوابق لكان لهم بعض العذر ، أما وقد خلت المثلات من قبلهم ، وشاهدوا ديار وآثار من عتوا ممن قبلهم كعاد وثمود ، فما كان لهم من عذر فى تعريض أنفسهم للإصابة بما أصاب من قبلهم ، أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ كانوا أشد منهم بطشا وأكبر قوة ، فما نفعهم ما كانوا فيه ، ولا دفع

عنهم عـذاب الله . فأى سخافة تلك التى استحوذت على عقولهم فمنعتهم أن يبصروا مواقع الشر والخير ، فيتلمسوا لأنفسهم ما به يصلحون ؟

والمراد بالسيئة العذاب الدنيوى الذى كانوا يوعدون به ، والمراد بالحسنة ما كان الله يعدهم به على لسان رسوله من الثواب والـكرامة فى الآخرة ، والنصر والظفر والتمكين لهم فى الملك فى الدنيا .

وقوله : « وقد خلت من قبلهم المثلات » الجملة حالية . والمعنى : يستعجلونك بالضرر ينزل بهم فى حال أنه قد أصاب من قبلهم ، وقد وصلت اليهم أنباؤهم .

والمثلات : جمع مثلة ، وهى العقوبة التى تترك صاحبها مثلا فى التنكيل وعبرة لمن يعتبر . وكان من أراد أن يوقع بشخص قال له : لأجعلنك مثل فلان ، فـكأنه يضرب به المثل فى النكال . وهذا فى الغالب إنما يقال على العقوبة الفاضحة ، كسمل العين ، وخلع الأذن ، وتشويه الوجه ، وأمثالها مما يقال فيه : قتل فلان ومثل به . أو تسميتها مثلة لأنها على قدر الجريمة . ومثلها كما يقال : واحدة بواحدة . والمعنى الأول أقرب .

وأما قوله تعالى : « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب » : فهو رد عليهم ليلقمهم بذلك حجرا ، فهو يقول لهم : ما كان تصرف الله فى خلقه تابعا لأهوائكم ونازلا على حكمكم ، وإنما لله تعالى فى خلقه شئون هـو أعلم بحكمتها ، فهو يغفر لبعض الناس مع ظلمهم ، وهو أعلم بعاقبة أمرهم ، ويشدد العقوبة على آخرين ، وهو حـكيم عليم فيما أنزله بهم ، فـلا يغرنكم واسع إمهاله ، ولا تيأسوا من رحمته .

وهكذا يجب أن يكون المرء فى كل حياته بين رجاء الله والخوف من عقابه « إن ربك لشديد العقاب وإنه لغفور رحيم » . وهكذا يجمل بالمربى الحـكيم أن يراعى الحـكمة فى تربيته لا ما يملى عليه من غيره .

نسأله تعالى أن يشملنا بعفوه ومغفرته ، وأن يعمنا برحمته التى وسعت كل شىء ؛ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

ابراهيم الجبالى

أفعال العباد

والرد على الجبرية والمعتزلة وتحقيق الحق فى ذلك

ورد إدارة المجلة أسئلة كثيرة من صاحب الإمضاء ، نقتصر منها اليوم على هذا السؤال الذى يهم كثيرا من الناس ، وجوابه الذى أسهبنا فيه . قال السائل بعد الديباجة :

نريد من فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ يوسف الدجوى أن يبين لنا ما هو الحق من مذهب الجبرية والمعتزلة والأشاعرة فيما يقع منا من أفعالنا ، وأن يفيض القول فى ذلك إفاضة لا تدع فى قلوبنا شكا ، ولا فى نفوسنا حيرة . فإن هذه المسألة مشكلة غاية الإشكال . وكيف لا وقد ورد فى القرءان الكريم آيات تفيد أن الله سبحانه وتعالى خلقنا وما نعمل ، وأنه يضل من يشاء ويهدى من يشاء . ومن يضلل الله فما له من هاد .

وقد ورد به أيضا عدة آيات أخرى تفيد أن الانسان هو الذى يشقى نفسه ، وأن الخير منه تعالى ، والشر من العبد .

فكيف نوفق بين هذه الآيات ؟ وإذا كان المولى سبحانه وتعالى هو مدبر الأمور ومسير الخلائق حسب إرادته وأنى شاء ، فلم يعاقبهم على ما اقترفوا من السيئات التى قدرها عليهم ؟

عبد الرحمن عبد الفتاح
ناظر مدرسة نزلة احمد يونس

الجواب

الحمد لله . والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

جاءتنا أسئلة كثيرة حول هذا الموضوع ، ولهذا رأينا أن نطنب فى الجواب ولا نختصر فيه ، فنقول :

مذهب أهل السنة أن خالق أفعال العباد بعد اختيارهم وإرادتهم ، هو الله تعالى ،

ولا يصح أن يطلق اسم الخالق على غيره عز وجل ، ولكن للعبد تدخُّل فيه باختياره ، وهو أحد الأسباب التي يتوقف عليها وجوده ، بل هو أعظم حلقات سلسلة الوجود وأهمها ، على ما ستسمع بعد ، إن شاء الله .

وإنه ليكفي لنصرة مذهب أهل السنة وسقوط مذهب الجبرية ، أن الجبرية قد صادموا البديهة ، وخالفوا المحسوس . فإن كل إنسان يفرق تفرقة ضرورية بين حركاته الاختيارية والاضطرارية ، وكل ما صادم الضرورة وناقض البديهة فهو غير مسموع ولا مستحق للرد عليه .

وقد كان من حقهم ألا يشتموا من شتمهم ولا يضربوا من ضربهم ولا يعاقبوا من جنى عليهم . ولكن من عرف استعداد الانسان ، وأنه مظهر المتضادات والمتناقضات ، ومجمع العجائب والغرائب لم يستغرب ذلك .

ولقد رأينا من متناقضات النوع الانساني ما يضحك الثكلى ويبكي الحليم :

فنرى المعتزلة قد غالوا في التوحيد بزعمهم حتى وصلوا الى التعطيل بنفي الصفات ، وزلوا في هذه المسألة زلة لا تقال .

والمشبهة قصروا حتى وصفوا الخالق بصفات الأجسام . والروافض غالوا في النبوة والإمامة حتى وصلوا الى الحلول والقول بالعصمة في غير الأنبياء .

والخوارج أفرطوا حتى كفّروا بالذنب . والمرجئة فرطوا حتى أغروا الناس بالمعاصي ولم يقيموا لها وزنا ، الى غير ذلك من الحماقات والجهالات .

وإن شئت فانظر الى ما وقع فيه الخلاف حتى كان المختلفون فيه على طرفي نقيض ، كالعلم ، وهو من أظهر الأشياء لدى كل إنسان ، فقال بعضهم : إنه لا يحد لكونه ضروريا . وقال آخرون : لا يحد لكونه من النظريات التي يصعب تحديدها . وكذلك اختلافهم في الوجود وفي الضوء (الى آخر ما يلهيكم عن أعظم المصاب وأكبر الألعاب) .

ولا غرو فقد قال الله فى حق الانسان : « إنه كان ظلوما جهولا » . وقال فى بيان طيشه : «خلق الإنسان من عجل» . «وكان الإنسان عجولا» . وإن من ضعفه الذى خلق عليه جهله بضعفه (ولو عرف ضعفه لكانت تلك المعرفة دواء ضعفه) . وقد يفسد استعداد الانسان حتى يكون الدليل عنده مثيرا للشبهة والشك . والنور لا يزيد الخفاش إلا تخبطا وحيرة . وقد قال تعالى فى حق القرءان الذى هو هدى ونور : « يُضل به كثيرا ويهدى به كثيرا » .

الرد على المعتزلة وبيان فساد مذهبهم :

أما المعتزلة فهم أعظم الناس جهلا ، وأكثفهم حجابا ، وأكبرهم جراءة على الله ، وأبعدهم عن إدراك ما جاء فى كتاب الله وسنة رسول الله ، وأشدهم مصادمة لصرائح النصوص ، وأكثرهم تأويلا لها .

ولو تأملوا قليلا لعلموا أن الموجودات تنقسم الى ماله الوجود من ذاته ، والى ماله الوجود من غيره ، وكل ماله الوجود من غيره فلا قوام له بنفسه ، بل إذا اعتبرت ذاته من حيث هى ، كان عدما محضا . وقد عرف فى أحكام الممكن أنه ليس له شىء من ذاته ، وأن الوجود والعدم بالنسبة اليه سواء ، فلا بد أن يكون وجوده وجميع أحواله مفاضة عليه من غيره ، وهو الواجب عز وجل .

أليس من أوضح الأدلة على أن العبد فى قبضة الحق (وهكذا يجب أن يكون العبد مع الرب الذى شملت ربوبيته كل شىء ، ويجب له بمقتضى إلهيته أن يرجع اليه الأمر كله ، وألا يخرج عن حيطته وهيمنته شىء من الأشياء) أليس من أوضح الأدلة على ذلك أنه تعالى أظهر للناس كل شىء ، وبين لهم كل طريق ؟ ولكن لا يمكنهم أن يسلكوا من طرق السعادة الدنيوية أو الأخروية إلا ما أراده الله لهم ، فريقا هدى وفريقا حق عليه الضلالة .

فبينهم كتاب الله ينطق بالهدى ، وسنة رسوله تهدى الى صراط مستقيم . وكم سمعوا

من نصائح الناصحين وإرشاد المرشدين ، وكل ذلك واضح المعنى عالى المبنى سافر المحيا غير مبرقع ولا محجوب . فهو على طرف الثمام المتناول . ولكنهم يمرون به فلا يرون ضوءه المتلالى ، ولا يسمعون نداءه العالى ، وكأن فى آذانهم وقراً وعلى أبصارهم غشاوة .

وكذلك مسألة السعادة الدنيوية . وانظرها إن شئت فى الأغبياء الذين لا يعرفون كيف يسيرون ، والأذكياء الذين قتلوا كل شىء بحثا ، وتجلت لهم كل الطرق بأوضح معانيها وأدق خوافيها ، وجميع مباديها وغاية مراميها . فكأن لسان القدرة الإلهية يقول: أوجدت كل شىء من وسائل الخير والشر والضلال والهدى ، وجعلته واضحا بينا على جانبى الطريق الذى تمرون فيه كل يوم تشاهدونه بأبصاركم ، وترون من يقع ومن ينجو ، ومن يرتفع ومن ينخفض . ومع ذلك كله لا يمكنكم أن تقتطفوا ثمرة من تلك الثمار ، أو تتظللوا بشىء من ظلال تلك الأشجار ، أو تتوسلوا الى سعادتكم بشىء من تلك الوسائل التى جعلتها غير محظورة ولا محجورة ، وكأنكم لا تبصرون أو لا تعقلون . أفلا تعرفون بذلك أنكم تحت قدرتنا وإرادتنا ، ولن يمنعنا من ذلك جعل الأعلام واضحات ، والطرق بينات ، والدلائل ناطقات ، ووجوه الأمور سافرات ، ليكون ذلك أدل على قدرتنا ، وأظهر فى بيان تصرفنا واختيارنا ،فنجعل الأشياء سافرة تمام السفور ، ونعطيكم الأبصار التى تخرق الستور ، ومع ذلك نجعلكم لا ترون ذلك النور ،فلا تسلكون أولا تستطيعون ، لتعلموا أن الله بكل شىء محيط ، وأنه على كل شىء قدير ،فأين تذهبون أيها المحجوبون ، سنستدرجكم من حيث لا تعلمون ، وإنما أمرنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ، وبيدنا ملكوت كل شىء والينا ترجعون .

ومع ذلك كله يتجرأ المعتزلة على القول بأن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية وإن لم يردها الله عز وجل فتنفذ مشيئة دون مشيئة الله « كَبُرَت كَلِمَةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كَذِبا » .

على أننا نرى كل أحد يحس بالقضاء القاهر حتى الملحدين والماديين ، وإن كان لهم

عبارات أخرى تغاير عبارات الموحدين ، فيقولون : لم تمكنا الظروف ، أو الظروف قضت بكذا ، أولم يساعدنا الحظ . الى آخر عباراتهم الدالة على امتلاء نفوسهم بالقهر الإلهى والعجز البشرى .

وأما تشبث المعتزلة بالبحث عن أسرار الله فى خليقته ، وحكمته فيما قضى وقدر ، ورد كل شىء الى مقاييسهم الفاسدة وأفكارهم الضعيفة ، فناشىء من جهلهم بالله وجهلهم بأنفسهم . فإن حل مسألة القدر على وجهها التفصيلى يستدعى أن تدرك كنه علاقة الخالق بالمخلوق ، وأن يكون علمك بترتيب الأشياء وأسرارها وما يجب لها وما فيها من الحكم مساويا لعلم الله تعالى ، والفكر الانسانى له حد محدود يقف عنده ولا يتأتى أن يجاوزه .

وكأن من خواصه أنه لا يصل الى كنه الأشياء وحقائقها ، ومتى أراد ذلك اعترته الشكوك والأوهام ، فارتد طرفه خاسئا وهو حسير . فليس له من العلم بالأشياء إلا درجة مخصوصة يقف عندها ولا يتعداها . ولذلك كانت الفلسفة فى كل زمان مثار الأوهام ، ومعشش الخيالات ، ومنبع الشبهات :

قل لمن يفهم عنى ما أقول ... قصر القول فذا شرح يطول

ثمّ سر غامض من دونه ... قصرت والله أعناق الفحول

سبحانك ما عرفناك حق معرفتك ، لا فى ذاتك ولا فى صفاتك ولا فى أفعالك . وهكذا الألوهية يجب ألا يعرفها غيرها ، ولا يحيط بها سواها .

ولنتنزل قليلا فنقول : هل يمكن الطفل أن يعرف السر فى كل ما فعله أبوه ؟ وهل يتأتى تفهيمه ذلك ؟ ولو صح هذا للزم أن يكون استعداد الطفل كاستعداد أبيه ، وفهمه كفهمه أو قريبا منه .

ولديك الوجدانيات التى نحس بها ونحن من نوع واحد ، لا يمكن صاحبها أن يفهمها لغيره . بل المحسوسات التى لم نعرفها ولا ما يشابهها ، لا يمكننا أن نفهمك إياها ، كطعام

لم تذقه قط ولا ذقت ما يشبهه ، ولذلك لا يمكننا أن نفهم الصبي لذة الوقاع ، ولا من خلق أكمه تلك الألوان المختلفة ، وهكذا الأشياء كلها .

وأنت تعلم أن الحيوان البهيمي لا يبلغ بما له من الإلهام الى تعرف حكمة الحكماء ، وتصانيف الأذكياء ، ومعارف الفطناء ، ولا يتمكن من معرفة مقدار زيادتهم عليه . فكذلك الحكماء لا يعرفون جميع حكمة الله تعالى ، ولا يستطيعون أن يعرفوا مقدار زيادتها على ما يعرفون . وقد انكشف لموسى عليه السلام وهو هو صحة ما فعل الخضر بعد القطع ببطلانه .

ومما يجب الالتفات اليه أن الوهم فى هذه المسألة غالب بقوته على من لم يعارضه بتذكر كمال الربوبية ونقص العبودية ، ويتضرع الى الله فى إمداده بهدايته . وينبغى للانسان فى هذا المقام أن يتذكر ما يعلمه من نفسه ، من شدة الجهل ، وقلة العلم ، وتردده فى الأمور ، وحيرته فى أشياء كثيرة ، ورجوعه عما كان عليه مرارا ، وندمه البالغ على كثير مما فرط منه .

وقد قلنا : إن الله تعالى وصفه فى كتابه العزيز بأنه ظلوم جهول . وقد كان ينبغى أن تعلم من التجربة المتكررة ، ومن قصة الخضر عليه السلام ، التفاوت العظيم بين الخلق فى معرفة الدقائق ، وخفيات الحكم ، ومحكمات الآراء ، ومعرفة عواقب الأمور ، فكيف يكون التفاوت بين الخلق وخالقهم عز وجل ؟

ولنتنزل غاية التنزل فنقول :

لو وهب الله عز وجل لبعض خلقه نصف علمه سبحانه لجاز أن يكون ذلك التأويل فى النصف الآخر . فما أتى الانسان فى توهمه نفى الحكمة إلا من جهله بقدر علمه وعلم الله تعالى ، مع أن علمه الجملى بحكمة ربه كاف شاف . وإن علمه بكمال ربه فى جميع أسمائه الحسنى وصفاته العليا ، مع نقص العبد فى كل شىء وكثرة جهالاته وظلمه ، وخبث كثير من طباعه وغلبتها عليه ، يكفيه وازعا عن اتباع سنة إبليس حيث نازع ربه فى حسن سجوده

لآدم . وهذه هي سنة السفهاء من الناس الذين قالوا : «ما ولّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها».
وقد قال سبحانه وتعالى لملائكته : « إني أعلم ما لا تعلمون » . قال علي كرم الله وجهه
لمن سأله عن مثل هذا : اعلم أيها السائل أن الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام
السدد المضروبة دون الغيوب ، الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب .
فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علما ، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم
البحث عنه رسوخا .

وقد قال مالك لمن جادله : أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا لجداله ما أنزل
على محمد صلى الله عليه وسلم ؟ ولننشد هنا قول الزمخشري :

العلم للرحمن جل جلاله ... وسواه في جهلاته يتغمغم
ما للتراب وللعلوم وإنما ... يسعى ليعلم أنه لا يعلم

وإنك لتعلم الفرق بين قدرتك التي لا تستطيع أن تخلق ذبابا ، وبين قدرته التي خلقت
السموات والأرض وما لا يحصى من العوالم . فلتعلم أن الفرق بين علمك وعلمه كالفرق
بين قدرتك وقدرته . وقد جاءتني هذه الأبيات عفوا :

لما علمت بما للعلم من سعة ... وما لرب البرايا الحق من عظمه
عزلت عقلي فلم أقبل تخرصه ... فيما يظن لجهل أنه علمه
وعند ما قد بحثنا عن حقيقته ... قد استبان لنا ما فيه من تهمه

وأحسن طريق عندي أن تفكر في دقائق خلقتك العجيبة ، وما أودع في كل عضو
من أعضائك من الأسرار ، وما نيط به من الوظائف ، وما يكتشفه علماء الفزيولوجيا
من ذلك حتى الآن مما أدهشهم . وكذلك علماء الحيوان والنبات والفلك ، حتى قال
العلامة الشهير (هرشل) : كلما اتسع نطاق العلم ازدادت البراهين الدامغة القوية
على وجود خالق أزلي لا حد لقدرته ولا نهاية لحكمته . فالجيولوجيون (علماء طبقات
الأرض) والرياضيون والطبيعيون قد تعاونوا وتضافروا على تشييد صرح العلم
وهو صرح عظمة الله وحده .

وقد أتينا على كثير من ذلك فيما كتبناه فى هذه المجلة، خصوصا فى تفسير قوله تعالى: « إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين » فهل نشك فى حكمته بعد ما شاهدنا ذلك وأضعافه وأضعاف أضعافه؟ فعلى العاقل أن يملأ قلبه بالفكر فى المحكم لا فى المتشابه، « وأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ».

وبعد: فلنقل كما قال بعضهم:

إننا نعلم أن لنا إلها لاشريك له، فيجب بمقتضى ألوهيته ألا يخرج شىء عن حيطته كما قال تعالى: « وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس ». « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ». ونعلم أن لنا أفعالا اختيارية لا نشك فى أنها باختيارنا. فلنؤمن بأول السلسلة وآخرها، ولندع ما بينهما.

ومع كونى أطلت، أجد فى نفسى باعثا قويا أن أتكلم كلمة وجيزة فى فعل الانسان واختياره، غير معرج على ما يذكره الأشاعرة فى تفسير الكسب الذى أصبح مضرب الأمثال فى خفائه، فيقال فى كل شىء دقيق أو غير مفهوم: إنه أخفى من كسب الأشعرى. فلهذا لا أريد أن أخوض بك تلك الغمرات التى قلما تخرج منها مقتنع النفس مطمئن القلب، فأقول وبالله التوفيق:

تقريب لمذهب أهل السنة

الذى هو وسط بين مذهب المعتزلة ومذهب الجبرية بعبارة واضحة

من البدهى أننا نختار الفعل على الترك، والترك على الفعل، فنرجح ماشئنا متمتعين بالحرية. وقد كان يجب أن يكون هذا كافيا فى الجزم بحريتنا واختيارنا. وقد تعلم أن ما يعارض البدهى أو المحسوس يجب ألا يلتفت اليه، ويكفى فى سقوطه مصادمته للبديهة كما قلنا فى رد مذهب الجبرية.

ولسنا نشك فى أن لنا تدخلا فى الفعل. فإذًا لنا شىء فى العمل لا محالة، وإن كنا نعتقد أن ما يسّره الله كان وما لا فلا، لأننا لا نستطيع أن نوجد جميع الأسباب التى

يتوقف عليها وجود الفعل ، فإن ذلك بيد الله وحده ، فهو المهيمن عليه ، والقادر على إيجاده وترتيبه . وكيف لا يكون لنا تدخل والأسباب الجمادية لها تدخل فى الأشياء كما هو مذهب السلف المأخوذ من القرءان ؟ قال تعالى : « يُنبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات » . فجعل الإنبات به كما جعل الإحياء به فى الآية الأخرى « فأحيا به الأرض بعد موتها » فالباء للسببية الظاهرة ، وإن كانت الأسباب غير مستقلة ولا قائمة بنفسها . والممكنات كلها كذلك ، ولكن لها خصائص فى عالم الحكمة ، وإن كان المتأخرون لهم من العبارات ما يفيد سلب كل خاصة لها وفائدة ترجع اليها ، محافظة على توحيد الأفعال فيما ظنوا . ولكنهم وإن وفوا بحق القدرة قد أخلوا بحق الحكمة التى جعلت الأشياء مراتب وقضت بالتفاوت بينها ، فلم تجعل النار كالماء ، ولا السم كالترياق ، فسبحان من خلق فسوى ، وأعطى كل شىء خلقه ثم هدى ! فكيف لا يكون لنا تدخل فيما يكون منا ؟

هل السبب الآلى أقوى من السبب المفكر المختار ، الذى يستطيع أن يقلب الأسباب الآلية ويسيرها فى أى طريق شاء وهو أعظم منها ، فإنها مسخرة له وهو مليكها ، فكيف لا يعطى ما أعطيته من الأحكام وهو أقوى الأسباب وأعظمها ؟ ولماذا يجعلون من الأسباب التى يتوقف عليها الفعل نظر الانسان وإرادته واختياره وترجيحه ؟ هل يكون لغير العاقل المقهور من التدخل فى الفعل ما ليس للعاقل المختار ؟ اللهم إن ذلك غير معقول . فلم يبق إلا التحديد وبيان مقدار ما للعبد من ذلك ، وهو غير ضرورى للعلم الانسانى ، بل غير ممكن . فإن اكتناه الأشياء كما هى غير مستطاع للانسان ، ولا داخل فى متناول قدرته . فهذا الغذاء الذى هو من أظهر الأشياء فى أدواره وما يترتب عليه لا نعرف من أمره إلا الظواهر التى لا تسمن ولا تغنى .

أما كيفية انقلابه أعضاء مختلفة : فيصبح عينا باصرة ، وأذنا سامعة ، ومخا مدركا الخ فهذه أشياء لا نعرفها ولا نستطيع أن نعرفها . وكذلك ما تنبت الأرض من أوضح

الواضحات من حيث أطواره المعروفة ، ولكن كيف تكوّن هذا النبات من التراب ، وكيف استحال التراب أزهارا بهية وأثمارا شهية ، فذلك مما لا سبيل الى الوصول إليه . وهكذا الأشياء كلها .

ومما يجب أن يلتفت إليه أن كل شيء نستطيع البحث فيه الى حد محدود . فإذا تجاوزنا ذلك الحد استغلق علينا وانسدت أبواب الفهم فيه ، فأخذنا نضرب فى متاهات الخيال ، ونخبط فى مهامه من الظنون والأوهام ، فتضاربت الأقوال وتناقضت الآراء .

وسر ذلك أن الانسان لايكاد يعرف إلا ماوقع عليه الحس ، ثم ينتزع منه ما قدرله من المعلومات والمتخيلات على حسب استعداده . ثم هو بعد ذلك تارة يصيب فيما ينتزع ويستنبط ، وتارة يخطئ فيما يحدس ويتخيل . وقد قرروا أن الوهم كثيرا مايغلب العقل ، وأن القضايا الوهمية كثيرا ما تشتبه بالقضايا الضرورية . والحق الذى عرفناه بالعلم ثم بالتجربة ، أن السلطان الغالب على الناس فى هذا العالم إنما هو سلطان الوهم لا سلطان العقل ، ولا يكاد يخلص من سلطان الوهم إلا الفذ بعد الفذ .

هذا ولا نزال نقول : إن حقائق الأشياء المشاهدة التى يقع عليها الحس ويدركها اللمس لا يصل اليها الانسان تماما ، وإن كان يظن ذلك جهلا وتبجحا .

فالعلم بكنه الأشياء على ما هى عليه من كل وجه ، مختص بالله تعالى : « ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » . وقد خلقت على حد محدود فى عقلك ، كما خلقت على حد محدود فى سمعك وبصرك .

ولو عرفنا هذه الحقيقة فلم نجاوز قدرنا ولم نتعد طورنا ، لزال هذا العناء ، وذهب ذلك الشقاء . وهى حقيقة يجب أن تقرر وتكرر ، حتى تملأ الرءوس ، وتثبت فى النفوس .

ومن العجيب أنهم أطالوا القول فى هذه المسألة (مسألة أفعال العباد) منجدين ومتهمين ، مشرقين ومغربين ، فكانت من أعوص المسائل بين الفرق الاسلامية والمسيحية .

ولو تأملوا لعرفوا أنه لا فرق بينها وبين غيرها ، فكل شيء من الأشياء عويص إذا أردنا أن نقف على كنهه وحقيقته ، فما بالنا نتجاوز قدرنا ثم نكثر من الصراخ والضوضاء ؟

ولو تركنا كلام المتأخرين فى هذه المسألة ورجعنا الى سلفنا الصالح ، لوجدنا كلامهم أدخل فى باب الحقيقة ، وأقرب الى الذوق والاقتناع . فانظر الى قولهم : «أمر بين أمرين لا جبر ولا تفويض » يريدون أن العبد ليس بمستقل استقلالا تاما ، ولا هو مجبر على ما يأتى ويذر . وهذا شيء نحس به ولا ننكره ، وإن لم يمكننا تحديده كما قلنا .

وقد سأل الامامَ عليا كرم الله وجهه شيخ بعد انصرافه من صفين ، فقال : «أخبرنى عن مسيرنا الى الشام أكان بقضاء الله وقدره » ؟ فقال : « والذى خلق الحبة وبرأ النسمة ما وطئنا موطئا ولا هبطنا واديا ولا علونا تلعة إلا بقضاء الله وقدره » . فقال الشيخ : « عند الله أحتسب عنائى ما أرى لى من الأمر شيئا » فقال له : « مه أيها الشيخ : لقد عظم الله أجركم فى مسيركم وأنتم سائرون ، وفى منصرفكم وأنتم منصرفون ، ولم تكونوا فى شيء من حالاتكم مكرهين ولا اليها مضطرين » فقال الشيخ : « فكيف ساقنا القضاء والقدر » ؟ قال : «ويحك ! لعلك ظننت قضاء مجبرا وقدرا قاسرا . لو كان ذلك لبطل الثواب والعقاب ، والوعد والوعيد ، والأمر والنهى ، ولم تأت لائمة من الله لمذنب ، ولا محمدة لمحسن ، ولما كان المحسن أولى بالمدح من المسيء ، ولا المسيء أولى بالذم من المحسن . تلك مقالة جنود الشياطين وشهود الزور ، وأهل العمى عن الصواب ، إن الله أمر تخييرا ، ونهى تحذيرا ، وكلف يسرا ، لم يعص مغلوبا ، ولم يطع مستكرها ، ولم يرسل الرسل الى خلقه عبثا ، ولم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار » .

وقال الإمام الرضا : «إن الله هو المالك لما ملكهم ، والقادر على ما أقدرهم ، فإن ائتمر العباد بطاعته لم يكن الله عنها صادا ، وإن اختاروا معصيته فشاء أن يحول بينهم وبين ذلك فعل ، وإن لم يحل وفعلوا فليس هو الذى أدخلهم فيه » .

أقول : ولهذا كله ترى القرءان ينسب الأفعال الى العبد تارة والى الله تارة أخرى ، نظرا للأمرين ، وتوفية المقامين . وهكذا يجب فى الشريعة الحكيمة التى تعتبر الأسباب وتراعى المراتب ، ثم لا تلبس أن تلفتك الى الحقائق وما يجب اعتقاده فى حق الخالق ، الذى تستمد جميع المخلوقات منه ، ولا غنى للممكنات عنه ، بمقتضى إلهيته الشاملة ، وربوبيته التى تمد كل شىء وتحيط بكل شىء .

والخلاصة أن هنا غلطتين : (الأولى) ظنهم أن علم الله بالأشياء يوجبها بطريق الجبر لا بطريق الاختيار . ولا أدرى كيف يفهمون ذلك ، مع أن العلم لم يتعلق بفعلك إلا على وجه الاختيار منك ، فهو إذاً يؤكد الاختيار ولا يعارضه . و(الثانية) إخراج الإرادة الانسانية من سلسلة الأسباب وجعلها لغوا فى البين . وقد اختصرنا لك الطريق ، وأهدينا إليك لباب التحقيق .

وبعد : فمن عرف الألوهية وعظمتها ، لم يطمع فى معرفة أسرارها ولا اكتناه حكمتها فى مخلوقاتها ، فإنه تعالى دبر العالم على حسب علمه لا على حسب علمك . وكل من عرف عظمة الربوبية لم يوجه اليها سؤالا ، ولم يتبع فى شأنها خيالا . وما جاءت المصائب كلها إلا من تقديس الانسان عقله القاصر ونفسه الجاهلة ، وعدم معرفة ربه . ولكن اقتضى قصور عقله أنه لا يدرك قصور عقله ، وجهل نفسه أنه لا يدرك جهل نفسه .

كلمة ختامية :

رأينا أن نختم كلمتنا هذه بما رواه البيهقى فى كتابه الأسماء والصفات عن عمرو ابن ميمون عن ابن عباس رضى الله عنهما : أنه لما بعث الله موسى وكلمه قال : اللهم أنت رب عظيم ، ولوشئت أن تطاع لأُطعت ، ولوشئت ألا تعصى لما عُصيت . وأنت تحب أن تطاع وأنت فى ذلك تعصى ، فكيف هذا يارب ؟ فأوحى الله اليه : إنى لا أسأل عما أفعل وهم يسألون . فانتهى موسى . رواه البيهقى فى مجمع الزوائد وعزاه الى الطبرانى

وزاد فيه . فلما بعث الله عزيرا سأل الله مثل ما سأل موسى ثلاث مرات ، فقال الله تعالى له : أتستطيع أن تصرصرة من الشمس ؟ قال : لا ، قال : أتستطيع أن تجىء بمكيال من الريح ؟ قال : لا ، قال : أتستطيع أن تجىء بمثقال أو بقيراط من نور ؟ قال : لا ، قال : فهكذا لا تقدر على الذى سألت عنه . فقال عيسى عليه السلام : القدر سر الله تعالى فلا تتكلفوه .

وروى الطبرانى عن وهب عن ابن عباس أنه سئل عن القدر فقال : وجدت أطول الناس فيه حديثا أجهلهم به ، وأضعفهم فيه حديثا أعلمهم به ، ووجدت الناظر فيه كالناظر فى شعاع الشمس : كلما زاد فيه نظرا ازداد تحيرا . وقد قال تعالى : « إنى أعلم ما لا تعلمون » .

وسر ذلك أن الله قد خلق العوالم كلها كالشىء الواحد ، فلا يمكنك أن تحكم على شىء من الأشياء بالأحكام الصحيحة المحيطة إلا إذا أحطت خبرا بجميع العوالم وما بينها من العلاقات ، وما لها من المراتب ، وما فيها من الأسرار .

وقد تعرضنا لهذا الموضوع فى رسالتنا تفسير قوله تعالى : « لا يسأل عما يفعل » بغير ما قاله المفسرون . ولعلها خير ما كتب فى هذا الموضوع فيما نظن ، والفضل لله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ولنقهر القلم على ترك الجولان فى هذا الميدان ، والموفق يكفيه القليل ، والمخذول لا يقنعه الكثير .

أسأل الله أن يعرفنا قصور عقلنا ، وعظمة ربنا ، وأن يقينا شر الفتنة ، وألا يكلنا الى أنفسنا طرفة عين بمنه وكرمه ؟

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء

باب الأسئلة والفتاوى(١)

معاملة التجار وما فيها من الربا

استفتاء موجه الى فضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى

لا يخفى على فضيلتكم أن المعاملات قد تطورت حتى تركزت على حالة غير التى كانت عليها فى الأزمان السالفة ، فقد كان الرجل لا يقدم على شراء شىء إلا إذا حصل على ثمنه فى يديه فيشتريه ويبيت مطمئنا لا يطالبه أحد . أما الآن فقد استساغ الكل الأخذ بالآجال ، فلا زارع ولا تاجر ولا موظف ولا ذو مهنة ، إلا وقد أصبح مدينا . ومن تساهله فى الدين صار يتداين فيما لا ضرورة له ، حتى صار كل واحد يئن مما عليه . وهذه حال عمت القرى والأمصار ، فلا تجد بلدا إلا وهذا حاله .

وقد نشأت هذه الحالة من وجود البنوك فى جميع أنحاء العالم ، وهم يمدون المصانع بالأموال لكى تتوسع فى صناعتها ، ومتى توسعت اضطرت لتصريف مصنوعاتها . ومع كثرتها لا تجد مشترين يشترونها نقدا ، فتبيعها بالآجال . وهكذا تفعل مع الزراع والتجار، حتى توسعوا فى أعمالهم ، واضطروا هم أيضا لترغيب الناس فى شراء ما عندهم بالآجال ، فأصبح جميعهم مدينا ودائنا معا . ونشأت حالة لا مناص منها وهى التعامل على قاعدة الربا . وعليه صرنا فى حاجة الى فتواكم على السؤالين الآتيين :

١ — هل ما يدفعه التاجر من الفوائد عند تأجيل دفع المستحق عليه يعد معاملة بالربا ، ولو كان فى حالة اضطرارية مرغمة له ؟

٢ — وهل بيعه كمبيالات الدين الذى له على الناس يعد معاملة بالربا ، مع العلم بأنه

يبيعها بأقل من قيمتها، وهو إنما يضطر الى ذلك لأنه هو الطريق الوحيد الذى يصونه من السقوط والإفلاس والخراب المحقق؟

نرجوكم الجواب عن ذلك ولكم من الله الأجر والثواب. والسلام عليكم ورحمة الله؟

عباس عوف
احد التجار بالسكة الجديدة

الجواب

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وآله وأصحابه.

لا يجوز تأخير الدين مع الزيادة فيه لأجل التأخير. وهو ربا الجاهلية الذى عناه النبي صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع بقوله: «ألا وإن ربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضعه ربا العباس بن عبد المطلب».

وقد ذكروا فى قوله تعالى: «يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مُضاعَفَة واتقوا الله لعلكم تفلحون» فى سبب نزول الآية أن الرجل فى الجاهلية إذا كان له على إنسان دين، فإذا جاء الأجل ولم يكن للمدين ما يؤدى، قال له صاحب الدين: زدني فى المال حتى أزيدك فى الأجل، فربما فعلوا ذلك مرارا حتى يصير الدين أضعافا مضاعفة، فنهى الله عز وجل عن ذلك، ونزلت الآية.

وقد نص الفقهاء على أن هذه الزيادة ممتنعة، سواء كانت فى القدر أو فى الصفة. بل نص الفقهاء على أنهما إذا اتفقا قبل انقضاء الأجل على أن يؤخره أجلا ثانيا على أن يدفع له رهنا أو حميلا، كان ذلك فى معنى الزيادة، وكان ممنوعا، لئلا يلزم عليه سلف جر نفعا. بخلاف ما إذا اتفقا عند الأجل على أخذ الرهن أو الحميل على أن يؤخره بعد الأجل الأول، فذلك جائز، لأنه كابتداء سلف على رهن أو حميل.

وعلى الجملة فهى لا تجوز. وهى داخلة — كما نص الفقهاء — فى باب: أنظرني أزدك.

ومسألة بيع الكمبيالات المؤجلة بأقل مما فيها محرمة أيضا ، لأنها داخلة فى تلك القاعدة القائلة : كل سلف جر نفعا فهو حرام . وهذا قد أقرضه مائة مثلا ليأخذها بعد سنة مائة وسبعة أو مائة وعشرة على حسب الاتفاق الذى بينهما على ما بيّنه السائل .

وليس ما ذكره من الاضطرار والارغام بمبيح للربا . ولو أبحناه لأجل ذلك لكنا كمن يداوى الأمراض الحادة بالمخدرات التى تحدث تسكينا وقتيا ، ثم يعود الألم بعد ذلك بأشد مما كان ، مع ما يستتبع هذا العلاج من أمراض جديدة هى أخطر من المرض الأصلى .

فالدواء الحقيقى لهذه الكوارث التى شرحها السائل وذكرها على طولها ليكون فيها عظة وعبرة ، إنما هو التفكير فى استئصال هذه الأمراض من جذورها : بالرجوع الى العمل بالشريعة وتعاليمها الحكيمة ، التى تقى كل من اتبعها من التعاسة والشقاء فى الدنيا والآخرة .

فلندع ذلك البذخ الفارغ ، وذلك الظهور الكاذب ، ولنعلم أن الضرورى للانسان فى هذه الحياة قليل لا كثير . ولكن الناس يغلطون فى هذا غلطا فاحشا ، فتشتبه عليهم الحاجيات بل الكماليات بالضروريات . ومعلوم أن الكماليات لا حد لها ، بخلاف الضروريات ، فما أقلها وأهون أمرها :

نصف رغيف مشبع لمن أكل فالذل يا هذا لماذا يحتمل
هوّن على نفسك فالدهر دول غايته الموت وإن طال الأمل

وليت شعرى ماذا صنعوا بتلك الظواهر الخلابة مع تلك الأفكار المضنية ، والمؤلمات المبكية :

لا تغترر بنعيمهم فجسومهم فى جنة وقلوبهم فى نار

وعندى أنه لو كانوا ذوى حزم ورشد لتخلصوا من تلك الورطات بأية طريقة ،

وعملوا على تطهير أموالهم وإراحة أنفسهم من تلك الرزايا ولو بالتصفية المؤلمة (وليتولوها طوعا قبل أن يتولاها غيرهم قهرا).

ولا غرو فالمريض يرضى ببتر أحد أعضائه ليعيش مستريحا من ألم المرض وانتشاره فى جميع الأعضاء. ومدار الأمر فيما أراه على قوة العزيمة وتوطين النفس على الرضا بالقليل، وسلوك سبيل الاقتصاد فى كل ما يأتى ويذر. وإذا صدقت منه العزيمة فى الرجوع الى الله والتوبة مما هو فيه، فسيجعل الله له فرجا ومخرجا «ومن يتق الله يجعل له مَخْرَجًا ويرزقْه من حيث لا يَحتسِب». ولأن يؤسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان، خير من أن يؤسس بنيانه على شفا جرف هار ينهار به فى نار جهنم.

وكم شقاء يتصور للناس بصورة السعادة «أفمن زُين له سوء عمله فرآه حَسنًا». وكم أناس ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا. وما أحسن قول من قال:

إنى أرى الدنيا وليدة فتنة ... رعناء قد كبرت عن الترتيب
قد جاء منطقها ونص كتابها ... بالزور من خلق ومن تهذيب
ألف التناحر نازلوها وانتهت ... من غير تأليف ولا تبويب
يزداد فيها العقل عن مقدورها ... والعقل يدنيها من التخريب

وخلاصة القول أنه لادواء إلا ماجاء به الشرع الشريف، غير أن المضطر له حكم آخر فيما بينه وبين الله تعالى تقتضيه الرحمة الإلهية، ولكن ذلك خارج عن حد الفتوى فى تحديده وبيان مقداره. ولعل صاحبه أدرى به من كل أحد، ولكن عليه أن يقدر الضرورة بقدرها، وألا يغش نفسه، وأن يلتجئ الى الله تمام الالتجاء متضرعا باكيا حتى يرشده ويعينه، ثم ينجيه من دسائس نفسه الأمارة بالسوء، فإنها أخفى من دبيب النمل فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، فليكن منها على حذر، وليكن رجوعه دائما الى خالق القوى والقدر، فاليه يرجع الأمر كله «ما يفتح الله للناس من رحمة فلا مُمْسِكَ

لها ، وما يُمسكْ فلا مُرسِلَ له من بعده ، وهو العزيز الحكيم » . « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها » .

أسأل الله أن يصلح حال المسلمين فى دينهم ودنياهم ، وأن يلهمهم الرجوع الى العمل بشريعتهم حتى يسعدوا سعادة لا شقاء بعدها ، بمنه وكرمه ؟ **يوسف الدجوى**
من هيئة كبار العلماء

استيضاح لفتوى

وقفت على فتواكم فى مجلة نور الاسلام على سؤال الأستاذ أحمد محمد المدنى فى صفحة ٥٤ من المجلد السادس لسنة ١٣٥٤ وهى إجازتكم صرف أموال الزكاة المفروضة على الأغنياء الى مواساة فقراء المستشفى من المسلمين ، وجلب الأدوية لهم ، وعمارة أبنية بإزاء المستشفى المذكور للفقراء المذكورين ، وعمارة مدرسة إسلامية تُعدّ لتعليم البنات صونا لهن عن غشيان مدارس المبشرين مع جلب المعلمات المسلمات . فقد جاء جوابكم على طبق السؤال مشيرا الى مشاهدة الحال ، صريحا فى صرف الزكاة الى ما أفاده السائل وحكاه مع شرطه فى آخر تحرير الجواب ، كما لا يخفى على ذوى الألباب .

وبما أن لى بعض الإلمام بالعلوم الاسلامية ، فلى فى ذلك مقال ينبغى بيانه ، ولا يسعنى كتمانه ، فأقول وبالله التوفيق :

لا يخفى عليكم أنه سبحانه وتعالى قد حصر الصدقات فى ثمانية أصناف ، تضمنهم قوله تعالى: « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلّفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل » . وكذا قوله صلى الله عليه وسلم لسائله الزكاة : « إن الله لم يرض بحكم نبى ولا غيره فى الصدقات حتى حكم هو فيها فجزأها ثمانية أجزاء ، فإن كنت فى تلك الأصناف — أى الأجزاء — أعطيتك حقك » . رواه أبو داود .

لها ، وما يُمسكْ فلا مُرسِلَ له من بعده ، وهو العزيز الحكيم » . « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها » .

أسأل الله أن يصلح حال المسلمين فى دينهم ودنياهم ، وأن يلهمهم الرجوع الى العمل بشريعتهم حتى يسعدوا سعادة لا شقاء بعدها ، بمنه وكرمه ؟ **يوسف الدجوى**

من هيئة كبار العلماء

استيضاح لفتوى

وقفت على فتواكم فى مجلة نور الاسلام على سؤال الأستاذ أحمد محمد المدنى فى صفحة ٥٤ من المجلد السادس لسنة ١٣٥٤ وهى إجازتكم صرف أموال الزكاة المفروضة على الأغنياء الى مواساة فقراء المستشفى من المسلمين ، وجلب الأدوية لهم ، وعمارة أبنية بإزاء المستشفى المذكور للفقراء المذكورين ، وعمارة مدرسة إسلامية تُعَدّ لتعليم البنات صونا لهن عن غشيان مدارس المبشرين مع جلب المعلمات المسلمات . فقد جاء جوابكم على طبق السؤال مشيرا الى مشاهدة الحال ، صريحا فى صرف الزكاة الى ما أفاده السائل وحكاه مع شرطه فى آخر تحرير الجواب ، كما لا يخفى على ذوى الألباب .

وبما أن لى بعض الإلمام بالعلوم الاسلامية ، فلى فى ذلك مقال ينبغى بيانه ، ولا يسعنى كتمانه ، فأقول وبالله التوفيق :

لا يخفى عليكم أنه سبحانه وتعالى قد حصر الصدقات فى ثمانية أصناف ، تضمنهم قوله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل » . وكذا قوله صلى الله عليه وسلم لسائله الزكاة : « إن الله لم يرض بحكم نبى ولا غيره فى الصدقات حتى حكم هو فيها فجزأها ثمانية أجزاء ، فإن كنت فى تلك الأصناف — أى الأجزاء — أعطيتك حقك » . رواه أبو داود .

فعلم من الحصر بإنما فى الآية أنها لا تصرف لغيرهم ، وهو مجمع عليه ، وإنما وقع الخلاف فى استيفائهم : فمذهب الشافعى رضى الله عنه : يجب استيعاب الأصناف إن قسم الامام وهناك عامل ، وإلا فالقسمة على سبعة ، فإن فقد بعض الأصناف رد على الموجودين منهم . ومذهب الشافعى أيضا : فى سبيل الله : هم الغزاة الذكور الذين لا سهم لهم فى ديوان المرتزقة لاستعماله فى الجهاد أغلب عرفا وشرعا ، بدليل قوله تعالى فى غير موضع : « يقاتلون فى سبيل الله » فحمل الإطلاق عليه ، وإن كان سبيل الله بالوضع هو الطريق الموصلة اليه وهو أعم . قال العلماء : ولعل اختصاصه بالجهاد لأنه طريق الى الشهادة الموصلة الى الله تعالى ، فهو أحق بإطلاق سبيل الله عليه .

ولا يجوز أيضا فى مذهب الشافعى صرف الزكاة فى عمارة المساجد وتكفين الموتى وغير ذلك من المصالح العامة . وإذا كان لا يجوز صرفها الى ما ذكر فلا يجوز صرفها أيضا الى ما أفاده السائل ، فإنه من باب أولى ، لأن غايته أنه من المصالح العامة ، فلا يجوز صرف شىء من الفىء المتطوع ، بل لو عدم الفىء واضطررنا الى المرتزق ليكفينا شر الكفار ، أعانه الأغنياء من أموالهم . كما لا يصرف الفىء الى مصارف الزكاة .

وقول المجيب : « إن البنات والمرضى المذكورين من جملة الفقراء والمساكين ، وإن الجماعة التى تأخذ الزكاة كأنها وكيلة عن أولئك الفقراء والمساكين » لا بأس به ، ولكن هذا متعذر حصوله عرفا وشرعا ، وذلك أن الجماعة المذكورة لا يجوز لها قبض الزكاة من الأغنياء وصرفها فيما ذكر إلا بإذن من الفقراء والمساكين ، بل ومن جميع المستحقين . ولاشك أن هذا الإذن متعذر ، وصرف المتعذر متعذر ، لأن كل أحد من المستحقين متشوف لخروج الزكاة ومراقب لأخذها ، ولا تسمح نفسه بتركها الى ما ذكر . كيف وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لا يحل لامرئ من مال أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس » . رواه الحاكم بإسناد على شرط الشيخين . وحيث إن الأغنياء دفعوا زكاتهم على هذا الوجه المتعذر ، لم تبرأ ذممهم عن الزكاة ، بل يبقى حق المستحقين عندهم ، لأن عملهم

مردود، لقوله صلى الله عليه وسلم : «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد» متفق عليه. ولأحمد « من صنع أمرا على غير أمرنا فهومردود » . وقال فى الفتح : وهذا الحديث معدود فى أصول الاسلام وقاعدة من قواعده، فإن معناه « من اخترع فى الدين ما لا يشهد له أصل من أصوله فلا يلتفت اليه » اه .

وقول المجيب معللا : « لو فرضنا أن هناك فقيرا تعذر تسليمه الزكاة لجنونه مثلا أو لغير ذلك، لم نتوقف فى جواز إعطاء الزكاة لوليه والقائم على أمره، فهكذا هنا » . فنقول : إن هذا فى غاية البعد، لأنه ليس كل فقير مجنونا، وليس كل فقير مسلوب العبارة، وإنما جوز فى حق المجنون ونحوه لفقد عبارته، ولأنه حجر عليه الشارع، فلو لم يكن عليه الحجر المذكور لكان مثل غيره. فشتان بين المقيس والمقيس عليه. وحيث إنى رأيت الجواب فى غاية العموم بادرت ببيان هذا من باب التعاون على البر والتقوى، ونرجوكم البيان فى مجلة نور الاسلام.

الفقير خضر بن عبد الله عبد الرحيم الحسينى اليمنى اللحجى

حول حرمة اليانصيب

ورد على المجلة هذا السؤال من الطالب المفكر الشيخ محمد عبد المنعم خفاجى بالسنة الرابعة من القسم الثانوى بمعهد الزقازيق يقول ما ملخصه :

قرأت من مدة بمجلة نور الاسلام ما يفيد حرمة تداول أوراق اليانصيب، للربا إن ربحت أو للغرم إن خسرت . ولكن فى نفسى من ذلك شبهة أريد إزالتها، فإنها تثير فى نفسى حل تلك الأوراق وجواز بيعها وطيب كسبها . ذلك أن لتلك الأوراق فوائد عديدة، ومكانة فى الأعمال الخيرية، فهذه الجمعيات الاسلامية العديدة إن طالبت

ذوى اليسار بالتبرع لم تجد لهم أثرا ، وإن حثت الناس على الجود لم تلق منهم نصيرا . وأمام هذه الجمعيات أعمال كثيرة فى حاجة للمال وفقر للجهود الموحدة . فهذه جمعيات المواساة الاسلامية أرادت أن تنشئ مستشفياتها العظيمة ولو مكثت سنين طويلة ماجمعت مالاً يذكر . وهذه جمعيات الملاجئ والإسعاف وغيرها تشتكى من قلة المعين وندرة المحسنين . فالأمر أمران : إما أن تغلق هذه الجمعيات ، وإما أن تبحث عن مورد جديد تؤدى منه أعمالها ، فلو حرمنا اليانصيب لضاعت هذه الجمعيات وذهب أثرها .

بقى أن اليانصيب تعدّونه بيعا ، وهذا هو سر الإشكال . فلو نظرنا الى غرض تلك الجمعيات لرأيناه شريفا ، وهو حث الناس على التبرع للأعمال الخيرية بفرض مكافأة لبعضهم ليتسابقوا فى الاحسان . وإذا نظرنا الى مشترى اليانصيب وجدناهم لا يعْدون طائفتين : طائفة مثقفة تعلم غرض الجمعيات فتدفع القرش جودا وإحسانا من غير انتظار لجزاء ، وطائفة تدفع القرش وتنتظر حظها عسى أن تكون من المكافئين . فأى ضرر فى ذلك والأمر لا يعدو أن يكون مكافأة ؟

الجواب

قال الله تعالى : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » . وقد كان الميسر المعروف إذ ذاك عبارة عن اجتماع قوم من فتيان العرب ورجالاتهم ، يأتون بجزور ينحرونها ، ويأتون بقداح لهم كانت معروفة عندهم ، وهى الأزلام أو الأقلام ، وكانت عشرة ، لكل واحد منها اسم خاص : الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلى والمنيح والسفيح والوغد ، فيضعون هذه الأزلام فى الربابة ، وهى خريطة خاصة بوضع الأزلام فيها ، ويسلمونها لأمين يديرها حتى يختلط بعضها ببعض ، ثم يمد يده على غير هدى فيخرج قدحا منها باسم واحد ، ثم آخر باسم آخر ، حتى يخرج العشرة الأقداح . وكان لكل قدح من السبعة الأولى نصيب معلوم : فللفذ جزء ، وللتوأم جزءان ، وهكذا الى المعلى يكون له

سبعة أجزاء . أما المنيح والسفيح والوغد ، فلا شيء لها بل أصحابها يغرمون ثمن الناقة المنحورة. وكان من عادتهم أن يتعففوا عن أكل لحم تلك الجزور، بل يفرقونه على الفقراء إباء وشمما، فكان الكثير من الفقراء يلتف حولهم حينما يلعبون تلك اللعبة انتظارا لما يصيبهم منها .

فهذه هي المنافع التي ذكرها الله عز وجل بقوله : « ومنافع للناس » . فما كان يعود على اللاعبين من لحمها شيء، بل يكتفون بلذة الظفر والفوز ، ومع ذلك حرمها الله عز وجل بعد ما أنصفها ببيان ما فيها من منافع وما فيها من إثم. فإنها تجدد واضحا في الحفيظة والحقد يملأ نفس المغلوب فيضمر الشر لمنافسه، وقد يندفع الى السرقة منه أو البطش به، مع الحسرة على مادفع ، ومع اشتطاط الغالب في التيه والصلف والمباهاة .

وهذا أمر من شأنه أن يوقع العداوة والبغضاء بين نفوس المؤمنين، كما قال تعالى : « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدَّكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون »؟ ومظهر الإيمان هو ما ذكر في قوله صلى الله عليه وسلم: « لن يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه ». وقوله عليه السلام :« مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » فإذا نهوا عن ذلك الميسر وهو لا يعود عليهم منه شيء، بل جميعه كان يصرف للفقراء، فكيف تبيحه وهو يعود بحظ وافر بلا مقابل على واحد من الياسرين على حساب الباقين ؟

وقد قالوا في سبب تسميته بالميسر : إنه يجلب المال بيسرٍ وسهولة بدون أن يقدم المستفيد ما يناسب ما استفاده من المال ولو بعض المناسبة ، أو من اليسار أي الغنى فإنه جالب له بلاحق بالنظر لفريق ، سالب له كذلك عند الباقين .ولو رأيت بعض من أولعوا بالميسر من صغار النفوس من الموظفين مثلا ، وقد رصد لهم باعة تلك الأوراق ينتظرون خروجهم من الدواوين أول يوم في الشهر ليأخذوا منهم ثمن ما باعوه لهم أثناء الشهر من

تلك الأوراق ، لفاضت نفسك عليهم حسرات ، إذ يكون أول ما يصرفه من رزقه ورزق عياله هو هذه النقود الملقاة على الأرض ، بل المقذوف بها فى اليم ، وهى عرق جبينه ، ومحط آماله وآمال أسرته .

ولقد عرضنا فى العدد الثامن من المجلد الأول من مجلة نور الاسلام لهذا الموضوع بتفصيل واف يوضح رجوع هذه المعاملة الى الميسر ، فنحب أن يرجع اليه القارئ ليقتنع أكمل اقتناع . ومما قلناه هناك : «إذا كان اليانصيب ميسرا فكيف أباحته القوانين الوضعية مع حظرها لعب الميسر ؟ وأقول : إن القوانين الوضعية لم تبحه بإطلاق ، وإنما رخصت لبعض الجهات الخيرية القائمة بالمشروعات النافعة أن ترتكب هذا الأمر المحظور بأصله لتصل الى مساعدات من الجمهور الذى قصر عن إدراك قيم المصالح العامة ووجوب النهوض بها ومساعدتها . فهى تكاد تشبه الانتقام من تلك النفوس الجامدة على الأموال ، بابتزازها منها بتصوير أن فى ذلك إعطاء لها . وكل من عرف ما يدور بخلد المقبلين على مشترى تلك الأوراق لا يخالجه شك فى أنهم إنما يشترونها طمعا فى مصادفة السعادة من غير طريقها المأمون » .

ولقد بينا فى ذلك الموضع أن الشارع أبان من طرق الترغيب فى التبرع للخير والبر مالو اتبع تمام الاتباع لأغنانا عن مثل هذا الابتداع . وعلى الجملة فالحلال بين والحرام بين .

نسأل الله أن يهدينا سواء السبيل . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

ابراهيم الجبالى

وصاة ابن صرمة الانصارى

أوصيكم بالله أول وهلة ... وأحسابكم والبر بالله أول
وإن قومكم سادوا فلا تحسدوهم ... وإن كنتم أهل السيادة فاعدلوا
وإن أنتم أعوزتموا فتعففوا ... وإن كان فضل المال فيكم فافضلوا

مؤتمر تاريخ الاديان

بمناسبة قرب اجتماع مؤتمر تاريخ الأديان في بروكسل فى سبتمبر الآتى .

وبمناسبة تولية حضرة صاحب الجلالة ملك مصر المعظم حفظه الله فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخا للأزهر ، وهو العالم الإمام الكبير ، المعروف بسمو مداركه وفهمه للاسلام فهما عاليا صحيحا ناضجا ، وفهمه للحياة الاجتماعية الحاضرة فهماً لا يقل عن ذلك .

وبمناسبة الحاجة الملحّة الآن لتوجيه القوى والجهود الى توطيد أركان السلام العام ودرء خطر الحروب العامة المستقبلة بقدر الامكان . وبمناسبة ما هو منتشر الآن فى أوربا من الخيالات عن الاسلام ونبى الاسلام وكتاب الاسلام مما لا ينطبق على الحقيقة ، الأمر الذى لايتناسب وروح التعاون بإخلاص بين الشرق والغرب .

بمناسبة كل ذلك ، أهيب بمؤتمر تاريخ الأديان أن يتوسع فى مهمته نوعا لهذه الظروف المحيطة ، وأن يأخذ عن الاسلام وتاريخه فكرة جديدة من أعضائه المصريين الأزهريين ، وأن يجعل ذلك دستورا لفهم الحقيقة الاسلامية ينير به الرأى العام فى أوربا لينقذها من شرين محيقين :

الأول : شر الجهل بفهم حقيقة ديانة يعتنقها أربعمائة مليون من الجمعية الانسانية يحتكون بأوربا احتكاك الجوار والخلطة والامتزاج والوحدة السياسية والاقتصادية ، بينما هذا الدين صريح الحقيقة واضح المبادئ والتعاليم ، ليس فيه غموض ولا التواء ، يدرسه المسلمون فى معاهدهم دراسة علنية ، فى أيدى المستشرقين لو أرادوا الخدمة العلمية الحقة أن يقفوا عليه من معاهده الاخصائية وقوفا تاما ، ولا سيما من أكبر تلك المعاهد وأقدمها عهدا منذ ألف سنة ، وأكثرها تبحرا ودراسة لجميع مذاهب الفقه الاسلامى ،

وهو معهد الأزهر الشريف ، ولأنه يقع فضلا عن ذلك فى أقرب البلدان الشرقية حضارة لأوربا ، وفى أعرق البلدان العربية فقها باللسان العربى الذى جاء به الدين الاسلامى .

وقد ضم الأزهر الآن روحا جديدا من الثقافة العامة الى ثقافته الاسلامية ، مما يوجب على الجماعات الأوربية وأقسام اللاهوت فيها ومقارنة الأديان ، أن يتلقنوا معارفهم الاسلامية عنه ، فليست تلك المعارف بأقل شأنا من سائر البحوث العلمية التى تؤخذ عن الاخصائيين من أهلها .

الأمر الثانى الذى يجب أن تنقذ أوربا منه ، الناشئ من سوء فهمها للحقيقة الاسلامية ، هو ذلك الازدراء والطعن المنتشران فى بعض بيئات أوربا ضد الاسلام والمسلمين ، والمقابل بالمثل فى العالم الاسلامى . ولا شك فى سوء عاقبة هذه الروح العدائية بين أمم وشعوب متجاورة مشتبكة فى المصالح والاستعمار ، لا سيما والعالم الآن على شفا حرب مستعرة ، توقدها السياسة ، فتنفجر لها براكين العلم والكيمياء الجهنمية ، بما لم تره الكرة الأرضية فى تاريخها .

فيجب لذلك قبل حصول الخطر أن يصطلح الأخوان الغرب والشرق ، ويكف الغرب عن ازدراء الشرق والاسلام ، وتقف حركة التأليف المنتشرة فى أوربا بالطعن على الاسلام من المبشرين والمستعمرين والملحدين وجهلة المستشرقين ، وتنشأ حركة تأليف عكسية تقرب الهوة بين الشرق والغرب ، وترفع تلك البغضاء الشاحنة بين العالم الاسلامى والأوربى ، جذبا لأعنّة السلام العالمى بأسباب هى فى أيدينا الآن .

ولا شك أن مؤتمر تاريخ الأديان هو قوة من القوى ، وعند الخطر تتجه القوى كلها الى درئه ، والمؤتمر صوت مقبول محترم ينفع ويسمع إذا علا وارتفع ، ولا لوم عليه إذا خص الاسلام بهذه العناية فى دورته هذه لمزيد احتكاك الاسلام بأوربا فى الوقت الحاضر .

فعلى أوربا الآن بعد فشل تجاربها العديدة ومؤتمراتها المتنوعة لضمان السلام العالمى أن تخلع عنها الكبرياء والغطرسة ، اللذين كانت تنظر بهما للاسلام فتراه صورة وحشية ، وأن تسعى فى فهم حقيقته عن أهله ، وأن تكف سفهاءها عن الطعن فيه ، وأن تتخذ منه جارا ونصيرا لمفاجآت الدهر المقبلة . ولها فى الأزهر وشيخه الحالى أعظم فرصة سانحة لحسن التفاهم العلمى والسلام .

محمد عبد السلام القبانى
المدرس بالأزهر

ما قيل فى اصطناع المعروف

قال الأحنف بن قيس : « ما ادخرت الآباء للأبناء ، ولا أبقت الموتى للأحياء شيئا افضل من اصطناع المعروف عند ذوى الاحساب »

وقال حكيم : « أحى معروفك باماتة ذكره ، وعظمه بالتصغير له » .

وقال حكيم آخر : « من تمام كرم المنعم التغافل عن حجته ، والاقرار بالفضيلة لشاكر نعمته » .

وقال غيرهما : « للمعروف خصال ثلاث : تعجيله وتيسيره وتستيره ، فمن أخل بواحدة منها فقد بخس المعروف حقه ، وسقط عنه الشكر » .

وقيل لمعاوية بن أبى سفيان : « أى الناس أحب اليك ؟ قال : من كانت له عندى يد صالحة ، قيل : فان لم تكن له ؟ قال : فمن كانت لى عنده يد صالحة » .

وقال ابن المبارك : « عن حميد عن الحسن قال : لأن أقضى حاجة لأخ لى أحب الى من عبادة سنة » .

وقال اسماعيل بن مسرور عن جعفر بن محمد قال : « إن الله خلق خلقا من رحمته برحمته لرحمته ، وهم الذين يقضون الحوائج للناس ، فمن استطاع منكم أن يكون منهم فليكن » .

وقالوا : « جهد المقل أفضل من غنى المكثر » .

دحض شبهات عن الاسلام

للأستاذ (أسياه بومان) العالم الجغرافى الأمريكى مؤلف عنوانه (العالم الجديد) أعاد طبعه وزاد عليه فصلا جعله تحت عنوان (العالم الاسلامى) ، وقد أفاض فيه فى نواح سياسية واقتصادية واجتماعية لا نرى أن نساجله البحث فيها ، ولكنه تعرض لناحية دينية لا نجد بدا من تصحيح نظره فيها . وإنا لناشرون هنا ما قاله فى هذا الصدد ، فإليك :

« قد وحّد محمد القبائل العربية التى كانت فى حالة تنازع مستمر ، وأقنعها بأن تجتمع على غرض مشترك هو إعلان الحرب على العالم غير الاسلامى وتوسيع سلطان المسلمين . فمضى على الاسلام ثلاثة عشر قرنا سمحت له فيها فرص كثيرة أن يمد رواق سلطانه على مساحات واسعة من الأرض وبين أمم مختلفة ، تخضع لتعاليمه السمر والسود والصفر ، وانتشر انتشارا مخيفا ليس بين أهل الشرق المزدحمين فى بيئاتهم فحسب ، ولكن بين سود أواسط أفريقا أيضا . وسيطرة الاسلام بوجه عام على أتباعه خارقة للعادة الى حد أنه لا يوجد قط مسلمون تحولوا الى الديانة المسيحية . فمنذ نشوئه لم يتأثر أتباعه بما طرأ على الممالك المجاورة له من الحالات المتعاقبة كالتقدم فى الثقافة أو فى السياسة ، وكالتفكك والتضام ، وكالتوسع والتقلص ، ولم يتأثروا حتى من نتائج الحرب العالمية .

« لم تعوز الاسلام الفرصة ليكتشف ضعف أقوى أعدائه ثم يكر فيقضى عليهم . وعلينا أن نتساءل : هل فى تاريخ الاسلام أو فى الموقف الحالى للعالم الاسلامى ما يعزز الخوف من أنه فى مملكته الواسعة قد يعمل للقضاء على المدنية الغربية الراهنة » ؟

فأجاب الأستاذ أسياه على نفسه : « بأن ذلك يقع لو أمكن اتفاقهم وتوحدهم ، ولكن لقيام عقبات من ضروب شتى فى وجوههم تمنع هذا الاتفاق ، فإنه لا يخشى منهم عليها » .

هذا ما قاله الأستاذ أسياه ، وإن لنا فيه لكلاما ، فنقول :

يؤسفنا أن نرى عالما جغرافيا يعرض لدين عالمي يدين به نحو خمس سكان الأرض على هذا الوجه ، فيعطى للناس منه صورة لا تمت إليه بصلة من أية ناحية من النواحي .

إن الذي يتلو العبارة التي نقلناها هنا عن كتاب (العالم الجديد) يخيل إليه أن الدعوة المحمدية كان مرماها الوحيد تحقيق غاية حربية هي الإغارة على العالم غير الاسلامي ، وإخضاع أممه وشعوبه لحكم المسلمين . وهذه تهمة تنفّر من الاسلام كل من يطلع عليها ، ويعده خطرا على المدنية الانسانية ، وعلى النظم الاجتماعية ، فهل يستطيع الأستاذ (أسياه) أن يدلل عليها من نصوص كتاب الاسلام ، أو من تاريخ رسوله ، أو من سيرة أصحابه ؟

وهل يصح أن يكون للدين الذي يقول كتابه : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين » غرض مادى يسعى لتحقيقه من وراء إذلال الأمم وإخضاعها لسلطان أهله ؟

إنا لعارضون هنا حقيقة الاسلام وأغراضه الاجتماعية السامية ليرى القارىء أين منها الأستاذ (أسياه) وغيره من الذين يكتبون عن الاسلام بغير بحث ولا تحقيق :

الاسلام قبل كل شيء دين أنزل على فترة من الأديان ، وبآخرة من الزمان ، ليبلغ أهل الأرض آخر رسالة سماوية ، ويختتم دور الوحي بحقائق فيها سعادة الانسانية ، وشفاؤها من عللها الخلقية والاجتماعية . فجاءها بأصول هي على أعظم جانب من الخطورة ، فهمها السابقون الأولون وتخلقوا بها وقاموا بنشرها ، فدانت لهم الأرض . فإن كان يهول الأستاذ (أسياه) الدوى الكبير الذي أحدثه المسلمون في العالم ، فهو أثر هذه الأصول لا أثر تلك الفتوح ، وهذا سر بقاء جميع الشعوب الاسلامية على عقيدتها طوال هذه الأحقاب ، لا تنتقل عنها الى عقائد أخرى ، لأنها ترى أن ما هي عليه ليس مما يستبدل به شيء آخر من أعراض هذه الحياة .

وقد كان يجب على الأستاذ (أسياه) أن ينظر ما هى تلك الأصول وماسر تمسك أهلها بها الى هذا الحد، لا أن يتعجل فيصف الاسلام بأنه أشبه باتفاق جنائى على تدويخ العالم وإخضاعه لقوم مخصوصين.

أما ما يوصى به الاسلام كل آخذ به فهو:

١ — دعوة الناس كافة الى تعارف عام ما داموا إخوانا أبوهم آدم وأمهم حواء، والإهابة بهم الى التعفية على الحزازات النفسية التى أوجدتها الأوهام القومية، والفوارق الجنسية واللغوية، وحملتهم على التحاقد والتناحر. قال الله تعالى: «يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير» وقال النبى صلى الله عليه وسلم: «لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو بعمل صالح كلكم لآدم وآدم من تراب».

٢ — والدعوة الى وحدة الدين. فإن الاسلام يقرر أن الله أوحى الى أنبيائه جميعا دينا واحدا هو ما يتفق والفطرة التى فطر الناس عليها، ويتلاءم والعقل الذى غرس فى نفوسهم احترام أحكامه. ولكن قادة الأديان تناولوا هذا الدين بالشرح والتأويل متابعة لأهوائهم، وإخضاعا للناس الى سلطانهم، فاختلف عن أصله، وذهبت كل أمة فيه مذهبا يباين ما عليه غيرها، فبعدت بينهم شقة الخلاف، فصار الناس يتبعون أوهاما وضعية، لا حقائق إلهية. فكان الله يتدارك الانسانية بالرسل يبعثهم الى الأمم فى فترات من الزمان ليهدوها الى ما كانوا يختلفون فيه من الحق، وختمهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ليعلن للناس كافة حقائق أولية صرفهم عنها قادة الأديان استغلالا لجهالتهم، وهذه الحقائق هى أن دين الله واحد، وأن الأديان لم تتخالف إلا بسبب بغى قادتها، وأن الاسلام هو ذلك الدين الفطرى الأول فى نقائه، فهو ليس بشىء جديد يريد أن يكلف به الانسانية استغلالا للعاطفة الدينية. وأن الناس ما داموا قد خلقوا ليتعارفوا ويتعاونوا وجب عليهم أن يرجعوا الى هذا الدين الفطرى ويتخذوه إماما لهم،

ومؤداه لا يخرج عما يجدونه منقوشا فى صميم قلوبهم بالفطرة ، وما يدركونه ببداهة العقل ، وهو : أن يوحدوا خالق الكون ولا يتناولوا ذاته بأفكارهم ، فانه يتعالى عن متناول العقول كما تعالى عن متناول الأبصار ، وأن يعتقدوا بجميع من أرسلهم الى الناس من رسل ، وما أنزل اليهم من كتب ، فلا يؤمنوا ببعض ويكفروا ببعض ، وأن يقيموا سلطان العقل ،فلا يستسلموا للأوهام ،ولا يعتقدوا شيئا إلا بدليل ،وأن يطلبوا الحق حيث كان ، ويقيموا العدل ولو على أنفسهم ، وأن يتخلقوا بجميل الخلال كالاحسان والرفق ، والسخاء والحياء ، والشجاعة والحلم والأناة الخ ، وأن يطمحوا الى معالى الأمور ويتجنبوا سفاسفها ، وأن يطلبوا العلم والحكمة حيث وجدوها ويعلموها الناس، وأن يستعمروا الأرض ويحيوا مواتها ، وأن يتقنوا ما يصنعونه ويبلغوا به أقصى ما يمكن أن يبلغه من كمال ، وأن يرتقوا فى الأسباب ويأخذوا بالأصلح من كل شىء ، وأن يعملوا على نشر كلمة الله فى الأرض .

الاسلام يقول إن هذا كله مؤدى كل دين أنزله الله الى العالم ، فإن كان من الأمم من خلط فى عقائده ، وضل فى مذاهبه ، واستسلم لأوهامه وأوهام غيره ، فليس ذلك من دينه الفطرى الذى غرسه فى قلوب الناس كافة ، ولا من مولدات العقل فإنه مفطور على نفى الخزعبلات ، ولكنه من استسلامه لزعماء أمكنهم من ناصيته فطوحوا به الى حيث شاءوا من مهامه الأضاليل ، ومتاته الخرافات .

أما وقد دار الزمان ، وبلغ العقل رشده ، فان الله أرسل رسوله محمدا بالدين الأقدم وهو دين الفطرة البشرية ، ليهيب بالناس اليه تحت ضوء العقل ، وعلى هداية من العلم .

هذه مرامى الاسلام ، وهى عينها مرامى كل فلسفة وعلم فى الأرض ، فمن أية النواحى يعاب أهل دين على تمسكهم بهذه الأصول التى تعتبر عالمية عامة لا قومية خاصة ؟ وأى اتفاق جنائى يمكن أن يلحظ فيها حتى يقوم مثل الأستاذ (أسياه) فى القرن العشرين فيعلن أن المسلمين يتربصون السوء بالانسانية ؟

ينزعج الأستاذ (أسياه) من أن المسلمين لم يتأثروا بما طرأ على الأمم المجاورة من الحالات المتعاقبة ، ولم يتأثروا حتى من نتائج الحرب العامة . وإنى أسائله : إن قوما على مثل ما ذكرته هنا من الأصول القويمة ، والمبادئ العالية ، وعدم التناقض بين العلم والعقيدة ، كيف يعقل أن يتأثروا من أحوال متعاقبة طرأت على الممالك المجاورة من شكوك فى الدين تحت تأثير العلم ، ومن إلحاد فيه تحت مسولات الفلسفة المادية ، ومن تولد المذاهب المتطرفة فيهم كالاشتراكية والشيوعية من سوء توزع الثروة بينهم ، مما مزق أحشاء الممالك وجعل أهلها شيعا ، ومما يهدد المدنية العالمية بالخطوب الجسام ؟

يعجب الأستاذ أسياه من ثبات حال المسلمين بإزاء جميع هذه التقلبات ، ولكنى أسائله : إذا كان قوم على مثل هذه المبادئ التى ذكرتها ، لايجدون مطعنا فيما هم يدينون به من الدين ، ولا مغمزا فى الأصول الاجتماعية والأدبية التى يوصى أهله بها ، بل يجدون أن كل ما أصابهم من محن ، وما أصاب العالم من ثورات وانقلابات ، أدلة محسوسة على صدق ما لديهم من تلك الأصول ، أفيكون تأثير هذه الانقلابات العالمية حولهم تثبيتا لهم فى عقيدتهم أم تشكيكا لهم فيها ؟

أما كان الأولى بالأستاذ (أسياه) أن يدرس علل هذا الثبات من المسلمين أمام التقلبات الخاصة والعامة ليرى السر فيه كما فعل قبله مواطنه الأستاذ الكبير (دريبر) فأودع كتابه (التنازع بين العلم والدين) ما أودع من ثمرات الدرس المستقل والفكر الحر والنظر الصحيح ؟

على أن دريبر ليس الوحيد فى دراسة الاسلام ، فقد تقدمه (جوت) أكبر عباقرة الألمان فقال : « إذا كان الاسلام هو هذا فنحن إذن فيه » . وتقدمه أيضا الفيلسوف الانجليزى الكبير (كارلايل) ومؤرخون وفلاسفة كثيرون وأقربهم منا (برناردشو) وقد بزهم جميعا بقوله : « إنه لو تولى العالم الأوروبى رجل كمحمد لشفاه من علله كافة ، وإن العالم بدأ يفهم ما هو الاسلام ، وإنه سيتم إسلام أوروبا عامة فى قرنين من الزمان » .

أجل : ومن كان عنده دواء لنفسه وللعالم أجمع فإنه يفكر فى اتخاذ الوسائل التى

توصله الى استعمال هـذا الدواء والانتفاع به ، وهـو ما نراه باديا اليـوم فى كل شعب من شعوب المسلمين .

يخشى الأستاذ (أسياه) من اتفاق المسلمين على مصير المدنية ، وفى هـذه الخشية دلالة كبيرة على تجاهله تاريخ المسلمين . فليس مثله من يستطيع أن ينكر أن المسلمين فى أول عهدهم أنقذوا المدنية العالمية من التلاشى ، وحفظوا العلم من الزوال . ألم يعلم أن العالم الانسانى كله كان فى إبان البعثة المحمدية فى ظلام حالك من الجهل تحت حكم الطوائف الدينيـة ، وكان يجازَى بالحرق كل من يجرأ على أى بحث حـر أو إبداء أية نظرية ، أو القيـام بترويج أى مذهب لم يكن مقررا من قبـل ، وأن الكتب العلمية كانت قد كدست فى خزائن مؤصـدة ترتع فيها الحشرات ، وتؤخذ من عيون كتبها الصحف لاستعمالها فى الحاجات العادية . فلما بعث الله المسلمين أخذوا يجمعون هـذه الكتب ويترجمونها الى لغتهم ، ويزيدون عليها من مباحثهم ، وينشرونها فى جميع أرجاء العالم ، وأنهم قد ألفوا بين مدنية اليونان والفرس والهند والرومان، فأخذوا من كل منها أحسنه ، وأسسوا مدنية جديدة بزت جميع المدنيات التى سبقتها فى الأرض رواء وروعة ؟

ويرى الأستاذ (أسياد) بعينى رأسه نابتة المسلمين تدرس فى جامعات الغرب مع أبنائه جنبا الى جنب ، ويرى شعوب الاسلام تقتبس المدنية الحديثة ولا ترى حرجا إلا مما يرى أهل الغرب أنفسهم أنه خروج عليها يجب التصون منه .

فلا يخافن الأستاذ (أسياه) من المسلمين على هذه المدنية ، فإنهم كانوا السبب الأول فى ازدهارها بعد ذبول طال عليها الأمد فيـه ، بما أمدوها به من معارفهم ، وما زودوها به من صنائعهم . فلئن كان يخشى منهم على شىء منها ، فعلى العـوج الذى بها ، وعلى العلل التى أزمنت فى أحشائها ، وهذا يعتبر إصلاحا فيها لا إفسادا لها .

يروّع الأستاذ (أسياه) أن المسلمين قد توصلوا الى بسط رواق سلطانهم على مساحة عظيمة من الأرض .

نعم إن قوما يقومون على مثل ما قام عليه المسلمون من الأصول العالية والمبادئ القيمة لا يكونون جديرين لأن يبسطوا رواق سلطانهم على جزء عظيم من سطح الأرض فحسب ، ولكن يحق لهم أن يؤملوا أن يثوب الناس الى أصولهم ومبادئهم مسوقين بعوامل الترقى ، وهم لا يركنون الى هذه الآمال كما يركن أهل البطالة الى الأحلام المستحيلة ، ولكنهم يقررونها علميا ويشاركهم فى هذا الرأى رجال من أهل العلم الغربيين ممن لا يتهمون بمحاباة المسلمين وتملقهم .

فليهدأ بال الأستاذ (أسياه) وبال الذين يرون رأيه ، فإن المسلمين حموا العلم والمدنية أيام لا حامى لهما ، وجروا بهما شوطا بعيدا فى طريق الترقى والتكمل . وإذا عادت زعامة العالم اليهم كما كانت فسيكونون أبر الناس بهما وأكثرهم رعاية لهما .

هذا ما رأينا أن نعقب به على كلمة الأستاذ (أسياه) وإن لنا لكرات أخرى على أمثال هذه التهم التى لا يفتأ يرمى المسلمين بها بعض المتكلمين عنهم وعن دينهم حتى يحق الله الحق بكلماته ، وهو خير الناصرين .

محمد فريد وجدى

الارض الخصبة أفضل المال

قال معاوية بن أبى سفيان لصعصعة بن صوحان : إنما أنت هاتف بلسانك لا تنظر فى أود الكلام ولا فى استقامته ، فان كنت تنظر فى ذلك فأخبرنى عن أفضل المال .

فقال : والله يا أمير المؤمنين إنى لأدع الكلام حتى يختمر فى صدرى ثم أذهب به ، ولا ألهف فيه حتى أقيم أوده ، وأخبر متنه ، وإن أفضل المال لبرة سمراء فى تربة غبراء ، أو نعجة صفراء فى نبعة خضراء ، أوعين ثرارة فى أرض خوارة .

قال معاوية : لله أنت فأين الذهب والفضة ؟

قال صعصعة : حجران يصطكان ، إن أقبلت عليهما نفدا ، وإن تركتهما لم يزيدا .

ونظر عبد الله بن عباس الى درهم بيد رجل فقال له : إنه ليس لك حتى يخرج من يدك . يريد أنه لا ينتفع به حتى ينفقه ، ويستفيد غيره مكانه .

أسرار التشريع الاسلامى وفلسفته

وقفنا بحضرات القراء عند حدود متنوعة من البحث الفقهى، الذى يتلاقى مع ماسن فى البلاد من قوانين لها أوثق اتصال بالأحوال الشخصية ويجرى تطبيقها فى المحاكم الشرعية ،إرادة أن نكشف لهم عن جانب من جنبات الفقه الاسلامى فى نوع من معاملات العباد بعضهم لبعض ، يتصل به علم القضاء فى محاكم الأحوال الشخصية ، ويفصل فيه على هدى مذاهب الأئمة المجتهدين ، وآراء الفقهاء المشترعين .

والآن نريد أن نعرض ولو بإلمام يسير فى هذا الجعفر عن حكمة إرسال الرسل ، تمهيدا للكلام فى الجعفر الثالث عن حكمة تشريع النكاح ، ثم فى الرابع عن محرماته ، وفى المبحث الخامس عن مباحاته ، وفى الجعفر السادس عن اضطراب وقع فى آراء المشترعين فى الفقه الاسلامى بين جمهرة من علماء بعض العصور المستحدثة ، وفى المبحث السابع عما أطبق عليه المشترعون فى أحكام النكاح بكافة فروعه ، والثامن عن الأسرار فى مشروعية الطلاق بكافة مدلولاته بما وقع فيه من اصطلاحات متباينة فى حدودها وتفاصيلها لدى الطوائف الاسلامية والفرق المسيحية ، وأقوال أئمة علماء الفروع وما يفتقر اليه المبحث من مدد فى الأصول الأربعة ، وعن المبحث التاسع فى أنواع الطلاق وجملة من البحوث لأصحاب الآراء الحديثة العصرية ، وبعض فقهاء القانون المصرى وشطر غير قليل من مبادئ لأحكام صدرت فى بعض المحاكم الأوربية لها أوثق اتصال بموضوع الطلاق . فلنؤت القارئ بما وعدناه به فى مبحثنا الراهن من حكمة إرسال الرسل .

فالحكمة فى إرسال الرسل جميعهم إسعاد الناس ، وإصلاح شئونهم الدنيوية والأخروية ، وإيصالهم الى ما أراده لهم العليم الحكيم من الكمال ، وذلك لا يكون بدون

الرسالة التى تتلقاها الرسل عن بارئ النسمات ومدبر الكائنات ليبلغوها الى الأمم ، أداء للأمانة فى أكمل حدودها وأبلغ مداها ، وانتصافا لداعية الهداية فى الخلق أن تتغلب بقهرها وسلطانها على داعية الشر المنبعث فى ظلمة الشهوة الموزعة على أعضاء الجسم والحواس ، ولكن لا تدرك حكمة إرسال الرسل إلا بفهم أمور أربعة :

الأول — أن الله جلت قدرته خلق الناس وركب فيهم شهوة باعثة على فعل ماينبغى تركه ، ونفرة حاملة على ترك ماينبغى فعله ، ومنحهم عقلا مضادا لهم ، ووضع زمام الاختيار فى أيديهم ، وأمكنهم من فعل الطاعة والمعصية ، فأدركهم التكليف الذى سره بعد ذلك أمران جليلان : أحدهما حظر المنكرات والقبائح ، كنعت الله بما لا يليق بجلاله وعظمته ، وإعراض المنعَم عليه عن شكر المنعم ، ومقابلة إنعامه بالإساءة ، فإن ذلك يكون مباحا بغير التكليف ، وإباحته باطلة قطعا . وثانيهما سعادة المكلفين ، لأنهم بفعلهم الخير وتركهم الشر امتثالا لأمر الله تعالى ونهيه مع وجود الدواعى لأضدادها ، يتمتعون بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

ولكن تنازعت الدواعى هؤلاء المكلفين ، وتدافعتهم الصوارف ، ونالهم من النفس الأمارة بالسوء عناء عند إرادتهم اتباع العقل ، ومن العقل الآمر الناهى تأنيب عندهم بمطاوعة النفس ، فأوقفهم التردد وأقعدتهم الحيرة ، فكان من رحمة الله وقدرته أن يقوى التعريف العقلى بالتعريف الشرعى على ألسنة الرسل الكرام ، لتقوى دواعى الخير فيميل اليه ، وتضعف دواعى الشر فينأى عنه . ولولا ذلك لما سهل على أحد عصيان نفسه والعمل لسعادته ، ولما عرف ما أريد له معرفته من شئون الله تعالى وصفاته ، ولما كان لله على الناس حجة .

الثانى — أن النوع الإنسانى بما فطره الله تعالى عليه مجبول على الاجتماع ، فإن حاجاته الضرورية والكمالية تستدعى تساعُد الأيدى العاملة ، وتحمل على الصلة بين الأسرة والعشيرة ، بل بين الأمة جميعها ، بل بين العالم كله . بيد أنه قد تمكنت منه لذة الاستئثار

بالنافع ، فهو لا يكاد يفتر عن السعى له بكل قوة وحيلة ، وتسلط عليه حب الرفعة التى لو رامها من وجوه الخير لكان ذلك مانعا لبعض الشر ، ولكنه سالك لها كل سبيل ، وطلبها بإلباس الأفئدة لباس الرهبة لا الحرمة ، وهذان كافيان لهدم بناء الاجتماع الذى قام على أس الضرورة ، ولهذا أراد كثير من عقلاء الأمم حفظ المجتمع الانسانى من خطرها المحدق به ، فوضعوا أصولا للفضيلة وبيانا للرذيلة ، وأيدوا ما وضعوه بالبراهين العقلية ، ونادوا فى الناس للأخذ به ، إلا أنهم لم يصلوا بذلك الى ما أملوا ، لأن تفاوت الناس فى الإدراك ونفرتهم من الانقياد لغيرهم ، حملاهم على عدم احترام تلك الموضوعات والأخذ بها . ويعلم الله أن الناس بما يشاهدونه فى أنفسهم من العجز والتسيير آونة الى غير مقصدهم ، يرون أنهم مقهورون بقوة فوق قوتهم وقوة ما يحيط بهم من المشاهدات ، ومسيرون بإرادة تصرفهم تصريفا لا يفقهون كنهه ، وأنهم مذعنون لهذا الذى فاق قوتهم وغلب إرادتهم وإن اختلفوا فى فهم ما اتفقوا على الخنوع له . أتاهم الله تفضلا منه وإحسانا من هذه الجهة ، جهة الخضوع والاستكانة ، وأرسل إليهم هادين مميزين بخصائص فى أنفسهم ، ومؤيدين بآيات باهرات ، ومعجزات قاهرات ، يثوب بها عقل العاقل الى رشده ، ويرعوى بها الجاهل عن غيه ، ويفىء كل منهم الى قبول ما أتى به هؤلاء الرسل من الأنوار الغالبة للعقول ، الموضحة تينك القوة والإرادة ، الموقفة كلا عند حده ، الحافظة للمجتمع الإنسانى من التفرق والاضمحلال ، المرشدة لخيرى الدنيا والآخرة .

الثالث — أن الناس وإن كانوا يؤمنون بالحياة الآخرة إلا أنهم يجهلون حدود ما يستوجب السعادة فيها ، وشروط قبول الأعمال وحبوطها ، فإن لأعمال النفس تأثيرا فى الأعمال الظاهرة . وعلل النفس كثيرة وخفية . فلا بد هنا من المرشد الروحانى الخبير بشئون الملأ الأعلى وشروط العروج إليه . والعقل وحده لا يستطيع أن يهتدى الى كل ذلك ، وحاجة البشر الى الأنبياء كحاجتهم الى الأطباء . ولذا لو لم يمن الله جل وعلا

على جميع عباده عامهم وخاصهم بإرسال رسله بالبينات والهدى ليزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، لما سهل على أحد منهم معرفة حقيقة ما يحصل به صلاح معاده . ولذا قال الرءوف الرحيم : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » .

الرابع — أن هـذا العالم الحادث التام الصنع والترتيب فى دقيقه وجليله لا بد له من محدث عالم حكيم، وأن هذا المحدث هو إله الخلق أجمعين ، والملك المطاع على الإطلاق الذى يجب أن يكون له تكليف على عباده ، وأمر بالخير ونهى عن الشر، ووعد على الطاعة ووعيد على المعصية ، وذلك لا يكون إلا بإرسال الرسل وإنزال الكتب . فمن أنكر الرسالة فقد أنكر أن الله ملك مطاع ، وطعن فى ذلك . ولهذا قال تعالى فى منكريها : « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء » .

ولما كان إرسال الرسل فى حاجة الى تبيان ما أرسلوا من أجله وما بلغوا له الرسالة عن ربهم ،كان يسيرا علينا أن نعرض لكثير مما جرى به التعامل فى باب المعاملات الواقعة بين العباد ، وكيف أنهم يكونون أطرافا متبادلة فى العقود التى تقع فى باب التصرفات الحاصلة شرعا بين ذوى الأهلية . ولا مرية فى أن القضاء فى حدود الأحوال الشخصية من شتى التصرفات فى باب المعاملات ، وأن نعرض لأشدها اتصالا بها أولاً فأولا .

من أجل ذلك يجب أن نعرض لجعفر النكاح وهو الجعفر الذى يمت الى القضاء الشرعى ، الغالبية ما يقع من حادثات وخصومات فى ساحة التقاضى ، وما يغمر عقول العامة من شهوات الانتقام فيذهبون لفورهم الى القضاء اختصارا للطريق ، وهـذا ما يشبع نهمة العامة .

أما النكاح فى مباحثه وتعاريفه إجمالا وتفصيلا فهو يتنوع الى خمسة أنواع (١) النكاح وأسراره (٢) من حرم نكاحهن وأسرار هـذا التحريم (٣) تعدد الزوجات والسريات وأسرار ذلك (٤) حقوق المرأة فى الاسلام (٥) العلم بحال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النكاح وأسرارها .

فمن الأول : النكاح فى الاصطلاح الذى تواضع عليه الفقهاء : عقد يستلزم حل الاستمتاع (ويستتبع تعاونا على الحياة) وقد ورد فيه قوله تعالى : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء » وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تناكحوا تكثروا » وهو سنة من سنن سيد المرسلين ، قال الصادق الأمين : « النكاح سنتى فمن رغب عن سنتى فليس منى » بل هو من سنن الأنبياء السابقين ، قال تعالى وهو أصدق القائلين : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية » . وقال فى الرهبانية : « ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوْها حق رعايتها » . أما ترك سيدنا عيسى عليه السلام له فلعل السر فيه أن حاله كان يؤثر فيها الاشتغال بالأهل ، أو يتعذر معها طلب الحلال ، أو لا يتيسر فيها الجمع بين النكاح والتخلى للعبادة ، فأخذ بالحزم واحتاط لنفسه . وأما غيره من باقى الأنبياء فقد أخذوا بالعزم وجمعوا بين فضلى العبادة والنكاح .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوة عزمه لا تمنعه كثرة نسائه عن التخلى للعبادة ، ولا يذوده أمر هذا العالم عن حضور قلبه مع إلهه ، فقد كان ينزل عليه الوحى وهو فى فراش زوجه ، ولهذا لا يجوز لنا أن نقيس أنفسنا عليه فى الإكثار من النساء .

وأما أسرار مشروعية النكاح وجعله من السنن التى ندب الله ورسوله إليها فهى :

أولاً — إيجاد الولد الذى هو الأصل فيه ، والسر فى خلق الشهوة فى الذكر والأنثى ، لأنها تعين الذكر على إبراز البذر والأنثى على التمكين من الحرث ، فيكون بهذين اقتناص الولد ، كما يكون بالحب الذى يلقى بالشبكة اقتناص الطير . ولهذا ينبغى أن نطلب الولود من النساء ، ويعرف كون البكر ولودا بأقاربها .

واعلم أن فى الولد فضائل تستدعى تطلبه وتحمل على الرغبة فيه :

(أولاها) وجود خلف ينتفع به وترجى الرحمة بدعائه ، قال ، عليه الصلاة والسلام : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » .

(ثانيتها) تقديم فرط للآخرة ينتظر نفعه وتؤمل المغفرة به .

(ثالثتها) السعى فى رضاء نبينا الرحيم بنا بتكثير ما به زيادة قدره ونماء شرفه ، للحديث السابق ، ولقوله عليه السلام : « تناكحوا تكثروا فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة حتى بالسقط » .

(رابعتها) موافقة ذلك لإرادة الله من حصول النسل وعدم خلو هذا العالم من الإنس ، فإن العبد القادر على العمل إذا أعطاه سيده بذرا وآلة حرث وهيأ له أرضا للزرع ووكل به من يتقاضاه عليها فأدى ما أريد منه ، كان موافقا لإرادة مولاه ومستجلبا بذلك رضاه ؛ وإن قعد به كسله عن العمل بأن هجر تلك الأرض وعطل آلة الحرث وترك البذر حتى فسد ودفع الموكل ببعض الجمل ، فقد خالف إرادة سيده واستدعى غضبه . والله جل وعلا خالق النطفة فى الفقار ، وهيأ لها مجارى فى الأنثيين ، وأوجد لها مستودعا فى الرحم ، ثم قدر لها البروز الى عالم الشهادة ومكابدة شئون الحياة فيه .

على أن الله جل وعلا صرح بمراده من خلق هذه الأشياء على لسان أكرم الأنبياء ، فقد قال كما سبق : « تناكحوا تناسلوا » فمن تزوج كان ساعيا فى إتمام ما أحب الله ، ومن أعرض عن الزواج كان مضيعا ما كره الله ضياعه ، وجانيا على مفطور الفطرة ومفهوم الحكمة من خلق هذه الأعضاء ، ولهذا نهى عن التبتل عند عدم العذر الداعى إليه ، وعن عضل الولى موليته عن النكاح .

ولما كان السر الأكبر فى النكاح الولد ، طلب الشارع أن تكون الزوج غير ذات قرابة قريبة وهى التى تكون فى أول درجات الخؤولة والعمومة ، كبنت الخال والخالة ، وبنت العم والعمة ، لئلا يجىء الولد ضاويا (لضعف الشهوة) وأحمق لغلبة الحمق على أمثاله .

وما كان تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيدة زينب بنت جحش ابنة عمه رضى الله تعالى عنها إلا لمصلحة تشريعية هى حل نكاح زوج المتبنى كما سيجىء إن شاء الله تعالى بأوضح بيان .

وثانيا — غض البصر ومراعاة العفة وكسر التوقان والتحرز من الشيطان ، قال عليه الصلاة والسلام : « من تزوج فقد أحرز شطر دينه فليتق الله فى الشطر الثانى » . وقال زاده الله صلاة وسلاما : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج » ووجه ذلك أن الشهوة التى هى أقوى أسباب المعصية إذا هاجت ولم تجد من التقوى صادا قويا وضابطا شديدا ، حملت على ارتكاب المحظورات ، والسقوط فى الموبقات ، كما يقع كل حين من المتبتلين الطالبين رضوان الله . وإن عارضها صاد التقوى وحاجز الخوف من الله ، غض البصر وحفظ الفرج وبقى الفكر مسلطا على القلب ، لأن المرء لا قدرة له على وقايته منه ، وحينئذ يتردد بالخاطر المطلع عليه من يعلم السر وأخفى من أمور الوقاع ما يستحى المرء من ذكره لدى أحسن الخلق ، وذلك بالمؤمنين منبج لا سيما فى الصلاة التى يجب أن يكون القلب فيها خالصا لله تعالى ، ولذا قال ابن عباس رضى عنهما : « لا يتم نسك الناسك إلا بالنكاح » .

وثالثا — إيناس النفس بالمجالسة والمحادثة ونحوهما ، إراحة للقلب وتقوية له على العبادة ، فإن النفس ملول ، ومن الحق الذى يخالف طبعها نفور ، فإذا سئمت المداومة على ما لا يوافقها من الطاعات استعصت ، وإذا روحت باللذات انقادت ، ولهذا ينبغى أن تكون الزوجة ذات جمال بروق ، وحديث يسر ، ومجالسة تحجب الهموم وتؤذن للمسرات . وقد أجيز للرجل كما أجيز المرأة أن ينظر منها وجهها وكفيها بعد قصد النكاح وقبل الخطبة ، ليحصل الميل ويتم الائتناس ، قال عليه السلام المغيرة وقد خطب امرأة : « انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » أى أن تدوم بينكما المودة والألفة . على أن الائتناس بالزوجة استراحة مشروعة . قال تعالى : « وخلق منها زوجها ليسكن إليها »

رابعا — تفريغ قلب الرجل عن تدبير المنزل لما جرت به العادة من تبرع المرأة بذلك ، فيتدارك الرجل العلم والعمل ، فهى تقويه على طلب الآخرة والعمل لها ،

بتفريغ قلبه من تدبير المنزل وقضاء الحاجة بنفسها ، ومن دفع الشرور وطلب السلامة بعشرتها ، ولهذا يطلب أن تكون الزوجة ذات دين وحسب وعلم وأدب .

ولأجل فراغ القلب والتحصين أباح الشارع نكاح الأمة عند خوف العنت وعدم القدرة على نكاح الحرة مع ما فى إرقاق الولد من نقص فى الحياة القصيرة الفانية ، واقتحام الفاحشة من نقص فى الحياة الطويلة الباقية التى تقصر الأعمال الطويلة إذا نسبت الى يوم من أيامها .

خامسا — رياضة النفس بالولاية على الأهل والولد، والسعى فى كسب الحلال للجميع، وهدايتهم الى خيرى الدنيا والآخرة ، قال عليه السلام : «يوم من وال عادل خير من عبادة سبعين سنة» وقال : «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» وقال عليه السلام : «ما أنفق الرجل على أهله فهو صدقة » .

والى هنا نجتزئ للقارئ بما أسلفنا فى هذا الموضوع ، لأن الاسترسال فيه والتوافر عليه يتطلب من الوقت والبحوث المتنوعة ما لا يقدر بالشىء القليل، إذا أضيف الى ذلك أننا سنتحرى فى المستقبل البحوث القيمة فى جميع أبواب المعاملات ، خصوصا ما كان منها متصلا أوثق اتصال بالأحوال الشخصية لدى الطوائف التى تخضع لجميع الشرائع المعمول بها لدى المحاكم ذوات الاختصاص ، وموعدنا بذلك كله المباحث التالية ، إن شاء الله ؟

عباس طه
المحامى

فضل القلم

قال أبو الفتح البستى :

إذا أقسم الأبطال يوما بسيفهم ... وعدوه مما يكسب المجد والكرم
كفى قلم الكتاب مجدا ورفعة ... مدى الدهر أن الله أقسم بالقلم

استدراك على ما كتب فى العدد الثالث

جاءنا من حضرات طلبة الأزهر ما يأتى :

خطب حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر فى أول عهد توليه المشيخة الجليلة ، وقد سمعنا تلك الخطبة ووعيناها فلم نسمع أنه نسب قوله : « من أراد الدنيا فعليه بالعلم الخ » الى النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكنه عزاه الى مأثور الحكم الاسلامية .

فلما رجعنا الى المجلة علمنا أنها نقلت هذه الخطبة من أصل مطبوع اقتطع من جريدة يومية ، فأدركنا من أين تسرب التحريف فى رواية هذا الحديث الموضوع .

استدراك آخر

جاء فى بعض الفتاوى المنشورة فى ذلك العدد قول شريك : « من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار » منسوبا الى النبي صلى الله عليه وسلم . والحقيقة أنه من قول شريك القاضى لا من قول النبي صلى الله عليه وسلم كما نص على ذلك الشيخ عبد الرحمن الشيبانى فى كتابه (تمييز الطيب من الخبيث) . ومن أراد التوسع فى هذا الموضوع فليرجع الى كتاب الشيخ مرتضى الزبيدى شارح إحياء علوم الدين لحجة الاسلام الغزالى عند كلامه على الأحاديث الموضوعة .

تصحيح خطأ

جاء بالسطر السابع من الصفحة ٣٠٢ من هذا العدد : « قل سيروا فى الأرض ثم نظروا » والصواب : « ثم انظروا » .

تعليم اللغات فى الازهر

لما فكر مولاى فضيلة الأستاذ الأكبر فى أن يتعلم الطلاب اللغات ، أردت أن أعرض عليه ما يعنّ لى فى هذا الموضوع ، فأقول :

أول ما يتعلم الانسان ، لغته القومية ، ويجب عليه أن يحافظ عليها حتى لا يبتعد عن دينه وقوميته ويندرج فى أخرى ، وقد تضطره البيئة والظروف التى تحيط به ، ويحفزه عامل الرقى وحب الاطلاع والتكمل ، أن يتعلم لغة أو عدة لغات .

حقا إن من يجدّ فى تعلم لغة أجنبية ، يريد أن يخلق من نفسه إنسانا آخر يتصل بأهل تلك اللغة ، فيتعرف ما عندهم من آداب ، وعادات ، وعلوم ، وفنون . ومن يحرص على رقى أمته ينقل إليها النافع ويترك الضار .

وكأنما اللغات كائنات حية تتقارض وتبادل بعضها بعضا ، والاختلاط أكبر عامل فى ذلك . والآن وقد اتصل العالم بعضه ببعض ، وتطلع الدين الاسلامى أن يريهم آياته فى الآفاق ، ويدلهم على مكانته ، وأن ليس العيب فيه وإنما العيب فى أهله ، وجب على الأزهريين أن يتعلموا لغة غيرهم لينشروا الدين ، فيكونوا بذلك قد فتحوا فتحا مبينا ، وأعادوا لنا عصر المأمون .

وما لنا نذهب بعيدا وعصرنا هذا هو عصر التبادل الفكرى ، لا تجد فيه مؤرخا ، أو كاتبا ، أو شاعرا ، أو فيلسوفا أو عالما ، إلا وهو يستعين بلغة أجنبية وبما يترجم اليها من سائر اللغات ، فيتجلى فى نفسه معنى الجمال والشوق الى الكمال ، فيكتب وينظم ويعلم أمته الجمال ، ويهديها طريق الكمال .

ونحن إذا تعلمنا لغة حية ، اتسعت أمامنا آفاق الكون والتفكير ، وعرفنا أن الجمال مبثوث فى الكون ، لم يقتصر على أمة أو لغة دون أخرى .

فى تعلم أى لغة حية نجد ألوانا من التفكير لم يكن لنا بها سابق عهد : نجد فلسفة

وآدابا وعلوما وفنونا ، تجد كنوزا جمة ، وافرة الثراء ، بديعة الرواء ، تهبك قوة على قوة ، وجمالا وكمالا . وإن شئت فقل حياة أخرى تنعم بها ، وتطير فى جوائها الفسيحة الزاهية الجميلة .

والناس إنما يتعلمون اللغات لمآرب شتى ، فقد يتعلم الفرد منهم ليكون ترجمانا ، أو ليظهر بمظهر الراقى ، أو ليضم أدبا الى أدبه ، أو علما الى علمه .

والأزهر اليوم يريد أن ينشر رسالته كاملة عامة ، ولا يتسنى له أن يؤديها على وجهها إلا إذا تغذى بتلك اللغات وقبلها ، وحافظ على لغته غير مفرط فيها .

يحتاج الأمر فى الواقع الى الإخلاص ، وحكمة الحكيم ، والرسل المتوالية التى تخدمه وتركز حياتها له ، حتى يأتى بالثمرة المرجوة منه .

ولكى نرسم خطة مجدية يصح أن نتبعها ، نقسم الأزهر تقسيمه الحالى ، أعنى الى ابتدائى ، وثانوى ، وعال . ونتصور أن مشيرا يشير علينا بأن نعمم تعليم أى لغة فى الأقسام جميعها ؛ فهل نقبل مايشير به بادئ الرأى ، أو نتريث قليلا ؟

الواجب علينا أن نتريث قليلا ، لنرى الصواب فى أى جانب ، فليس كل رأى صحيحا .

وحقا إننا لو وافقنا هذا المشير على تعليم أى لغة من اللغات فى السنة الأولى من القسم العالى ابتداء من السنة التالية ، لانتهى الطالب منه وهو لايعرف إلا شيئا وجيزا .

وأما لو وافقناه على تعليم السنة الأولى من القسم الثانوى الى نهاية القسم العالى ، فإننا نكون قد أصبنا فى هذه الموافقة ، وتخرج الطالب وقد تمكن بعض التمكن من اللغة المراد تعليمها ، إذ هو بذلك يكون قد أمضى سبع سنين على الأقل ، وساوى تلميذ الكفاءة ، ولكنه ينقصه أنه لم يصطحب معه لغة أخرى .

إذاً من الحزم والاقتصاد أن نتبع من يشير بتعليم السنة الأولى الابتدائية ، حتى إذا انتقل الطالب الى السنة الأولى الثانوية اصطحب معه لغة أخرى . وهذا ما عنّ لى ، عرضته على مولاى . وأرجو أن أكون قد قاربت . والله هو الموفق .

رمضان محمد غنيم
من العلماء

نهضة الادب العربى

بين القديم والحديث

يتجه البحث الحديث فى الأدب الى الجدّة فى مناحيه ، والى الثورة فى مناهجه ، والى القوة فى عناصره ، فأصاب من الجدّة حظا وفيرا ، ودفعت به الثورة الى الهدم والبناء دفعا عنيفا ، ومكّنت له قوة عناصره من الاستقامة أمام مايعتوره من مد وجزر ، وتجاذب عاصف بين أولياء القديم الواقفين مع الماضى ، وأنصار الجديد (الثائرين) على ذلك الماضى ، استقامة إلا تكن أدنى الى الكمال المرجوّ فهى منه بسبب متين ، استقامة طبعته بطابع وسط بين الجمود والثورة الجامحة ، وإن شئت قلت طبعته بطابع ينهض به أن يكون على هذا السنن المستقيم .

والجدة والثورة والقوة ، ليست أشياء منفصلة عن طبيعة الحياة ، وإنما هى كامنة فيها كمون النار فى الخشب ، يوريها الاحتكاك ، وتذكيها الأحداث ، وهى من عناصر الأدب الحى فى كل أمة ، وكل لغة ، وكل جيل . وهى كانت من أظهر ميزات الأدب العربى ، لاتصاله بالحياة اتصالا وثيقا دل عليه أخذه من أطوار الحياة بقدر ما أخذت منها الحياة . فهو أدب كان ضيقا فى موضوعاته ، محصورا فى حدوده ، حيث كانت الحياة التى نشأ فيها ضيقة محصورة ، وهو مع ذلك قوى رصين ، لأن تلك الحياة كانت قوية رصينة ، ولكنه بطبيعته كان مجددا ثائرا ، حيث تجددت الحياة وثارت فى ظلال ألوية الثورة الاسلامية ، واتسع أفقه ، وترامت مطارحه ، لأن أفق الحياة العربية اتسع ، وميادينها استعظمت . كان فى أول نشوئه أدبا خاصا بالعرب ، يصور حياتهم فى بواديهم ، وممالكهم فى جزيرتهم ، فأصبح أدبا عالميا يصور أفكار الأمم التى انضوت تحت راية الاسلام مدفوعا بقوة العرب الفتية ، ومصوّرا بأسلوب العرب الجزل الرصين . فلما استضعف العرب وذهبت ريحهم ، ضعف الأدب ولان ، بل حقر واستخذى ، وعاد ضيقا أضيق مما كان ، فى ثوب مهلهل ، وأسلوب مترهل كسيح ، لا ينهض بشىء ،

ولا ينهض به شيء، وزاحمته الآداب المغلوبة فسبقته، ووقف هو فى ظل القرآن الكريم محتميا، ونفض عن كاهله العصبية القومية مستيئسا من نفعها، ولجأ الى كنف الدين فى صورة المُثـل اللغوية وشيء قليل من النثر والشعر، يقتضيه الحياة والعافية. والدين إلهى المصدر، عالمى المشرع، وإن كان عربى المظهر، فأخذ الدين بيد الأدب الى مظهره ونقاه من غلس الاستعجام، وعربه تعريبا خالصا صافيا، ووجهه الى تفكيره ومورده حيث تتلاقى الآداب كلها فى باحة الانسانية الطليقة من أغلال العنصرية.

تجدد الأدب، وثار، وقوى، ومشى مع النهضة، وإن شئت قلت سبق النهضة، وإن تشأ قلت كان من أقوى بواعث النهضة، وأخذ من البحث سمتا إذا كان القدماء قد عرفوه أو عرفوا شيئا منه، فقد ساعدتهم على تلك المعرفة طبيعة الحياة فى عصرهم، وبيئات الأدب عندهم، وقوة الدولة العربية فيهم، فكان لا بد أن يعرفوا ما عرفوا، وكان حتما أن يعرفوا أكثر مما عرفوا.

أما نحن فكل أحوالنا وما أحاط ويحيط بنا من بعد البيئات العربية، وتجاف عن الطبع العربى، وجمود فى التفكير يسود جماعاتنا، وفقر فى المعارف العامة والخاصة ينتشر بيننا. كل ذلك يقعد بنا عن أن نعرف شيئا من هذا الذى عرفناه.

فكيف إذاً تجدد الأدب؟ وكيف ثار؟ وكيف قوى؟

حديث هذا التجدد والثورة والقـوة عجيب، ولـكنه سهل يسـير لا عسر فيه، فصلة الأدب بالحياة وثيقة، والحياة تجـددت فى جميع أنحاء العالم، وثارت ثورة جامحة جامعة، وقويت واشتدت قناتها، فلم يكن فى طوق الأدب العـربى أن يتخلف عنها فى جدته وثورته وقوته.

كان الأدب العربى فى عهد ضعفه لا يخـرج عن تحبير رسالة فى تهنئة، أو تعزية أو مدح أو هجاء، أو استعطاف وما يدور حول هذا المحور، أو نظم قصيدة فى حدود من المعانى لا تعدو معانى النثر فى الرسائل، على نمط من التسجيع، وتحرى فنون البديع تحريا يدخل بها الى الإلغاز والتعمية والتعقيد.

ولكن الأدب الآن فى مذهب أهل العصر بحث وتحرير ، ففى البحث أسلوب علمى يستند الى صلة الحقائق بالحياة ، وفى التحرير أسلوب مهذب طليق من قيود الافتتان بالإغراب ، يجمع الى العناية بالقالب العناية بسمو المعنى ، بل العناية بالمعانى فيه أغلب وأظهر ، تأثرا بروح العصر .

وليس هذا الطرز من البحث جديدا كله على الأدب العربى ، فقد عرف الكثير منه فى صور أبرع وأدق من الصور التى يعرفها الأدب الآن ، وجديدنا يستند فى مهيعه الى ذلك القديم القوى قبل الركود والجمود ، ولكنه ليس محض التقليد أو هو تقليد الحر المفكر ، فهو صفوة الاجتهاد والابتكار .

هذه مؤلفات نهضتنا وبحوثها بين يديك ، فأنعم النظر فى قراءتها ثم حدثنى هل رأيت فى تنسيقها وتناولها للمعلومات نهجا قديما ؟ أليست هذه المؤلفات الجديدة فى أسلوبها هى التى حببت إلينا القراءة والدرس ، والبحث والإنتاج ؟ وهل ينقص من تجديدنا فى بحوثنا وجود المادة (الخام) فى كتب الأقدمين ؟ وهل فى وجود المعدن فى باطن الأرض ما يسلب فضيلة الصائغ الماهر ؟ وهل للمعدن قيمة من دون الصياغة ؟ على أن البحث الحديث لم يقف دون الخلق والابتكار ، فقد خلق فكرا ، وابتكر موضوعات لها طابعها الخاص ، وجرى على قول بعض حذاق الأقدمين : « إذا رأيت الرجل يقول : ما ترك الأول للآخر شيئا ، فاعلم أنه لن يفلح » .

يقوم فى نهضتنا الأدبية اتجاهان : اتجاه يؤمن بالقديم وجلاله ، فهو مستمسك به أشد الاستمساك ، ومع ذلك فهو مجدد ، مجدد فى طرائق الأداء ، وتنظيم موضوعات الأدب وتقريبها ، واتجاه جديد ، أو هو يحاول أن يكون جديدا ، جديدا كله ، فهو ثائر على القديم ، شاك فيه ، بل جاحد له . وأصحاب هذا الاتجاه يأبون الاستسلام ، ويرفضون رفضا شديدا قفل باب الاجتهاد ومناقشة القدامى رأيهم فيما ارتأوه ، يضعون الأدب جملة وتفصيلا تحت مجس البحث والنقد ، ويدأبون على فتنة قضاياها أشد الفتنة ، ويمتحنون نصوصه أعنف الامتحان ، وينقدون تاريخه أمر النقد .

يعرضون للأدب الجاهلى بالإنكار، وهم متفاوتون فيه، فمنهم من ينكر إنكارا عريضا لا يقف عند رسالة أو قصيدة، أو رجل، أو قبيلة. ومنهم من يتحرى البحث فينكر شيئا قد يصح إنكاره معتمدا على شىء من الأدلة التاريخية أو البيئية أو الطبيعية. وهؤلاء يصيبون فى كثير، ويستفيد منهم الأدب كثيرا. فمن الحق ألا نزرى بأبحاثهم، وأن ننتفع بها فى دراسة الأدب على نهجهم، لأن هذا النهج هو الذى حدد لنا الأدب تحديدا خاصا، فأصبحنا نفهم من كلمة (الأدب) فى هذا المقام الصور الراقية التى يحتفل بها ويدخل لون الخيال فى تصويرها، ونعنى بالخيال الاتساع فى التصوير على النحو الذى يتراءى فى الاستعارات والمجازات والتشبيهات والكنايات من ألوان البلاغة.

فشعر الجاهليين أدب خاص، وكثير من حديث النبى صلى الله عليه وسلم أدب خاص، وشعر الاسلاميين القدماء والمحدثين وخطب الخلفاء، وزياد والحجاج، ونثر عبد الحميد، وابن المقفع، وقدامة بن جعفر، وكتابات الجاحظ، وابن سلام فى النقد الأدبى، أدب خاص، وليس النحو والصرف والعروض وفقه اللغة أدبا خاصا، وكان الأقدمون يعتبرونها مع غيرها من الفنون داخلة فى مفهوم الأدب، قال العلامة ابن خلدون: «الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارهم والأخذ من كل علم بطرف .. من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها».

وهذا كما ترى تحديد واسع كان يفهمه الأقدمون من كلمة (الأدب). ولكن البحث الحديث جرى على التخصيص، فلا يدخل فى الأدب ماليس منه، وإن اعترف أن الأديب فى حاجة الى أن يعرف شيئا كثيرا من معارف الحياة الجديدة والقديمة.

وبعد ففى كلا الاتجاهين تجديد وتقليد: أولئك قلدوا فى النظام وطرائق الأداء، وهؤلاء قلدوا مناحى المستشرقين فى البحث والتسرع الى الإنكار، وأولئك جددوا ديباجة الأدب وألوانه، وهؤلاء جددوا فى موضوعاته وبحوثه. وسنبحث فى المقالات الآتية فيما يمس الاتجاهين، والتوفيق بيد الله؟

صادق ابراهيم عرجون

آثار المدينة المنورة

هذا اسم كتاب نفيس وضعه حضرة الأستاذ السيد عبد القـدوس الأنصارى الموظف بديوان إمارة المدينة وأستاذ الأدب بمدرسة العلوم الشرعية .

ألم المؤلف الفاضل فى كتابه هذا بكل ما تقع عليه العين من آثار مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدور والقصور والحصون والمساجد والبلاطات (يريد الطرق المرصوفة بالأحجار) والأمكنة المشهورة والجبال والحرار (جمع حرة بفتح الحاء هى أرض ذات حجارة نخرة سوداء كأنها أحرقت بالنار) والأودية والآبار والعيون .

فكل هذه الأشياء يهم زائر المدينة أن يعرفها ويعرف تواريخها ، فهذا الكتاب بمثابة دليل مفصل لها . وقد وضع بعناية وتدقيق عظيمين ، وقد حلى بالصور الفوتوغرافية مما زاد فى قيمته العلمية .

ونحن نقتطف بعض ما كتبه عن مسجد قباء الذى يسمع عنه كثير من الناس ولا يعرفون له تاريخا مع أنه أول مسجد بنى فى الاسلام :

أسس هذا المسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مهاجر الى المدينة ، بدأ فيه حين وصل قباء ، وهو مكان يبعد عن المدينة بحو أربعين دقيقة للماشى على قدميه ، وقد عاون النبى على بناء هذا المسجد بنفسه .

فلما رث بناؤه وأوشك يتهدم جدده عثمان بن عفان وزاد فيه . ولما ولى عمر بن عبد العزيز الاموى على المدينة من سنة ٨٧ الى ٩٣ هـ بالغ فى تجميله وتوسيعه وأقام له مئذنة وجعل له رحبة وأروقة .

وفى سنة (٥٥٥) جدده رجل يقال له جمال الدين الأصفهانى . ثم جـدده رجال آخرون فى سنة ٦٧١ و ٧٣٣ و ٨٤٠ و ٨٨١ هـ . وفى عهد الدولة العثمانية عمر عدة مرات كان آخرها على عهد السلطان محمود سنة ١٢٤٥ وعهد ابنه عبد المجيد .

شكل مسجد قباء مربع طول كل ضلع فيه أربعون مترا ، وعدد أساطينه تسع وعشرون ، وفيه محراب ومنبر من الرخام كان ملك مصر قايتباى أهداه للمسجد النبوى ليوضع مكان المنبر المحترق وذلك سنة (٨٨٨) . فلما أرسل السلطان مراد العثمانى المنبر الحالى الى المسجد النبوى رفع منبر قايتباى ووضع بمسجد قباء .

لمسجد قباء رحبة محصبة فيها قبة وبئر . ويقال إن هذه القبة رفعت فى المكان الذى بركت فيه ناقة النبى صلى الله عليه وسلم .

والقسم المسقف منه قباب وستة أروقة .

كان لمسجد قباء طريق معوج الى المدينة تكثر فيه الحفر والشقوق ، فشق أحد الولاة سنة ١٣٣٦ طريقا مستقيما واسعا وغرس على جانبيه نخلا وأثلا ، أخذ أرضه من أصحاب البساتين ، فلما ردت الحكومة اليهم أراضيهم الداخلة فيـ لاشى ذلك الطريق فاضطر زائروه للسير فى الطريق القديم ، ولكن فى سنة ١٣٥١ أعاد فتح ذلك لريق الواسع عبد العزيز بن ابراهيم وكيل أمير المدينة بأن اشترى ما يدخل فيه من الأراض من ماله الخاص ووقفه لله تعالى .

مسجد الجمعة

وجاء فى الكتاب المذكور تحت عنوان مسجد الجمعة كلام نلخصه فيما يأتى :

هذا أول مسجد صلى فيه النبى صلى الله عليه وسلم الجمعة بالمدينة ، وهو لهذه الخصوصية يعتبر أثرا إسلاميا كبير القيمة .

يقع هذا المسجد فى بطن وادى رانوناء شرق الطريق الممهد الى مسجد قباء ، يراه سالك هذا الطريق عن يساره فى وهدة من الارض .

طول هـذا المسجد ثمانية أمتار وعرضه أربعة أمتار ونصف متر وارتفاعه خمسة امتار ونصف متر . وهو مبنى بالحجارة بناء جيدا ، وله قبة مبنية بالآجر الاحمر ، فى داخلها أربع فتحات ، تمده بالنور والهواء . وله حظيرة فى شماله طولها ثمانية أمتار وعرضها ستة أمتار ، وارتفاعها متران .

وعلى جانبى باب المسجد حجران من الرخام الأبيض مستطيلان مثبتان فى الجدار . وهما منقوشان بخط متداخل جدا قرأت منـه : « أمر ببناء هـذا المسجد أمير المؤمنين السلطان الملك المظفر السلطان بايزيد بتاريخ شوال سنة ... »

والسلطان بايزيد هذا من سلاطين آل عثمان تولى السلطنة مابين عامى ٨٨٦ و ٩١٨ هجرية . وعليه فان بناء هذا المسجد قد مضى عليه أربعة قرون ونصف .

كان هذا المسـجد فى أول أمره واقعا فى منازل بنى سالم من الأنصار ، أما اليوم فهو فى وسط صفصف خال ، تقوم فى شرقه أشـجار من الطرفاء ، وغربه قطعـة أرض جرداء ، وجنوبه بستان وشماله بستان آخر . وكان يعرف بثلاثة أسماء : مسجد الجمعة ، ومسجد الوادى ، ومسجد عاتكة ، ولمـا فى الاسم الاول من قوة ودلالة على المسمى غلب إطلاقه على المسجد المذكور ، وبه يعرف الى اليوم .

مسجد المصلى أو مسجد الغمامة

وجاء فى الكتاب المذكور أن هذا المسجد كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى فيه العيدين وهو قائم فى فضاء المناخة فى المكان الذى صلى النبى صلى الله عليه وسلم العيدين ، وداوم على صلاة العيدين فيها لتسع الناس جميعا ، وما زال على ذلك حتى لقى ربه .

لا يعلم متى بنى هذا المسجد ومن بناه . وكل ما علم عنه ما رواه السمهودى عن ابن شبه عن أبى غسان الكنانى أحد أصحاب مالك بن أنس أن المصلى كان مبنيا بصفة مسجد فى القرن الثاني الهجرى .

طوله ٢٦ مترا وعرضه ١٣ مترا وارتفاعه ١٢ مترا وسمك جدرانه متر ونصف متر .

اعتذار

نعتذر لحضرات القراء عن عدم إمكاننا نشر المقالة الثانية لحضرة الدكتور النطاسى عبد العزيز اسماعيل فى هذا العدد بسبب تزاحم المقالات ، وسنعود الى نشرها من العدد القادم وهو قريب الظهور ، ثم نوالى القراء بما يليها ، إن شاء الله .

فى الملازم الانكليزية

من العدد الرابع

قد أعدنا فى الصفحة ٨٤ نشر ما سبق نشره فى الصفحة ٥٢ وفيها تعليق من المترجم واستدراك فى الترجمة .

وسقطت كلمة «فى» من قوله صلى الله عليه وسلم : «حتى ما تجعل فى فى امرأتك» من السطر ١٤ من صفحة ٧١

وأغفل حضرة المترجم سهوا ترجمة « كتاب العلم بسم الله الرحمن الرحيم » من صفحة ٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مهمة الدين الاسلامى فى العالم

٢٢

دعوته الى وجوب محافظة المجتمع على السمو الروحاني فى جميع محاولاته الدنيوية

شرع الله الاسـلام للناس ليكون دستورا لهم يقومون عليه فى أمورهم الدينية ، وشئونهم الدنيوية ، فإنه كما قرر فى الناحية الأولى العقائد الواجب الأخذ بها ، والعبادات المترتبة عليها ، والأخلاق التى يجب التخلق بها ، والأسلوب الذى ينبغى اتباعه فى النظر والبحث والاستدلال بالاعتماد على العقل والعلم ، والبعد عن الظنون والأهواء والأوهام ، وعن التقليد الأعمى ، كذلك قرر فى الناحية الثانية الأصول التى يقوم عليها الاجتماع والواجبات المترتبة عليها ، والحوافظ الضرورية لها ، والأسلوب الذى يجب اتباعه فى حفظ المجتمع سليما من العلل ، بريئا من الخلل ، قابلا للدخول فى كل الأطوار التى تدخل فيها الجماعات ، والخروج منها حاصلا على جميع ما تستتبعه من ترق صورى ومعنوى ، ومن تكمل دينى ومدنى . هذا ما فهمه المسلمون الأولون من هذا الدين ، وقد دل عليه قوله تعالى : « وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم ، قالوا خيرا للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنةٌ ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين » . وقد وعدهم الله بسعادتى الحياتين وعدا صريحا فى قوله تعالى : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

فالاسلام تصدى من هـذه الناحية لأمر جلل وهو التوفيق بين المصالح الدينية للمجتمع وبين مصالحه الدنيوية ، بحيث تتكافل فى إيصاله الى كماله المادى والأدبى ، ولا تتناقض فى دور من أدوار تطوره الفكرى ، فيصبح العلم عدوا للعقائد ، ويصير

العقل منابذا للتقاليد الدينية ، كما حدث فى كل أمة تقدمت الأمة الاسلامية ، وكما هو حادث اليوم أمام أعيننا فى أمم كثيرة .

إن قيادة سفينة الحياة الاجتماعية فى أمة فى وسط هذه الشعاب القائمة من الحالات الانسانية المتعارضة ، ودفعها فى مضطرب تياراتها الثائرة ، والتمكن من حفظ توازنها ، وتأديتها سليمة الى شاطئ النجاة ، يعتبر فوق قدرة البشر ، لا لأن الأمر جد خطير فى ذاته فحسب ، ولكن لأنها سابقة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ البشر . فهل سبق فى تاريخه أن أمة من الأمم تألفت تألفا عالميا حول أصول عامة من الأخلاق والمبادئ ، مهدرة فى سبيلها الفوارق القومية والجنسية واللغوية ، فقامت على صراط الحق المستقيم ، متحرية محاب الله فى جميع ماتعمل ، ومحاسبة نفسها على كل صغيرة وكبيرة من الانحراف عن هذه الجادة المثلى ، فبسطت سلطانها على نحو نصف المعمورة مما لم يتسن لأمة قبلها ولا بعدها ، وأسست مدنية فاضلة قامت على تلك الأصول الإلهية نفسها ، مما أصبح أمره معترفا به من جميع مؤرخى العالم الانسانى اليوم ؟

هذا أمر لم يسبق له مثيل ، فإن مبدأ القومية والجنسية كان طاغيا على جميع الاعتبارات العامة فى كل دولة تأسست قبل الدولة الاسلامية . وما جاء ذا صبغة عالمية من الدعوات الدينية قبل الاسلام طغت فيه النزعة الروحية على الحاجة المادية ، وساقت الأمم الى زهادة مطلقة ، ومجافاة تامة للعلوم والفلسفة ، وشدت العقل الى سلاسل من حديد ابتنى عليه جهل مطبق لازم أوروبا أكثر من ألف سنة (راجع كتاب المنازعة بين العلم والدين للأستاذ دريبر) .

إذا تقرر هذا فإن فى توفيق الاسلام بين روح السمو الدينى وروح العمل الدنيوى والكدح المادى ، يعتبر آية من آيات الوضع الإلهى .

هنا يمكن أن يعترض علينا معترض فيقول : إن ما تسمونه سموا دينيا كان فى حقيقته عملا ماديا ، فدينكم كان دينا ماديا محضا لا أثر للروح فيه إلا من الناحية العبادية المحضة ، ولذلك تأدى بأهله الى ما تتأدى اليه كل التعاليم المادية من الرقى والمدنية .

ونحن نرد على هذا المعترض بأن اعتراضه يقوى مانستنزل عجب القارئ لأجله ، وهو أن أمر التوفيق بين الأعمال الروحية والمادية متعذر الى حد بعيد حتى إنها لتظن مستحيلة كما يراها المعترض ، ولكننا فى سبيل إثبات أن المسلمين فى عملهم الدنيوى المحض كانوا يحافظون على السمو الدينى الذى ليس وراءه مذهب ، نسأله هذه المسائل وهى :

١ — ألم يثبت أن المسلمين كانوا فى معاملتهم لأصحاب الأجناس المختلفة ، حتى الذين خضعوا لسلطانهم والأرقاء ، يحافظون على مبدأ المساواة فى الحقوق ، والعدل المطلق فى الأحكام ؟

٢ — أولم يعلنوا مقهوريهم بأن لهم ما لهم وعليهم ما عليهم ، وأنه لا فضل لأحد على غيره إلا بالتقوى ، أو بعمل صالح ؟ حتى قال العلامة جوستاف لوبون الفرنسى فى كتابه خلاصة تاريخ العرب : إن الانسانية لم تر متغلبين أبر بها وأرحم من المسلمين ؟

٣ — أولم يراعوا شروط العدل وعدم العدوان حتى فى ميادين القتال ومناجزة الأقران ، كما قال تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » . وقال تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » . وقد حرم عليهم قتل الأطفال والشيوخ والنساء ورجال الدين حتى خدمة أعدائهم المحاربين ؟

٤ — أولم يدع الاسلام ذويه الى القيام بالقسط ولو على أنفسهم أو عشيرتهم أو آبائهم فقال تعالى : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداءَ لله ولو على أنفسكم أو الوالدَين والأقربين » .

٥ — أولم يعلن الاسلام على رءوس الأشهاد أن الحرب التى تقتضيها حماية الدعوة ونشرها لا يعتبر الموت فيها شهادة إلا إذا كانت نية المقاتل منصرفة الى إعلاء كلمة الله ، لا الى غرض دنيوى ، ولا غرض مادى ، ولا المباهاة بالشجاعة والنجدة ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم : فلان يقاتل

للدنيا ، فلان يقاتل حمية ، فلان يقاتل عصبية ، ألا فلا تقولوا فلان قتل فى سبيل الله ، فمن قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » .

ومما هو جدير بالذكر فى هذا الموطن كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الى قائد جنوده ضد الفرس سعد بن أبي وقاص ، وهو : «أما بعد فإنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة فى الحرب . وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصى منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة ، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا . فاعلموا أن عليكم فى سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله ، ولا تقولوا عدونا شر منا فلن يسلط علينا ، فرب قوم سلط عليهم من هم شر منهم ، كما سلط على بنى إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفار المجوس ، فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا ، واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم ، أسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم » .

ألا يرى القارئ فى كل ما قدمناه أن الاسلام يحرص على أن يحافظ أهله على السمو الروحانى حتى فى المواطن التى يتعمد فيها قادة الأمم أن يتناسوا هذا السمو ليثيروا فى جنودهم أقصى ما يستطيعون إثارته من القوى الوحشية الثاوية فى نفوسهم ؟ تصفح تواريخ الفاتحين الأولين والمحدثين فهل ترى فيهم من يقول لعسكره إنكم إن قاتلتم عدوكم طلبا للمصالح الدنيوية ، أو مباهاة بالحمية ، أو دفاعا عن العصبية ، فقتلتم ، لا تنالون درجة الشهادة التى يحرص عليها المؤمنون ، فإنما كتبت هذه المكانة السامية للذين لا يقاتلون إلا لتكون كلمة الله هى العليا ؟

إن المأثور فى هذه المواطن أن يقول القواد لجنودهم : هلموا الى أعدائكم فمن قومهم كل

ممزق ، وبالغوا فى النكاية بهم ، واجعلوهم عبرة لمن تحدثه نفسه أن يقف فى طريقكم ، الخ الخ . أما ذكر تقوى الله ، والتنبيه بمراعاة العدل ، وعدم العدوان ، وتجريد النفس من جميع الأغراض الدنيوية ، والأهواء الذاتية ، وتمحيض القصد لإعلاء كلمة الحق ، فهذا كله لم يرد على لسان قائد فى الأرض حتى الذين كانوا يحاربون لأغراض دينية ، بل إن المعارك الدينية قد امتازت بضروب من الوحشية يعجز عنها الوصف حتى ضربت بفظاعتها الأمثال (راجع تاريخ الحروب الدينية) .

يرى القارئ بعد هذا البيان أن شبهة خصوم الاسلام قد دَحضت دحوضا لاقيام لها بعده ، وثبت أن هذا الدين يتشدد فى وجوب ملاحظة السمو الروحانى فى كل موطن حتى المواطن التى يسمح فيها القادة لجنودهم بارتكاب الأعمال الوحشية زيادة فى النكاية بالعدو والإثخان فيه ، وبثبوت هذه الحقيقة يثبت أن الاسلام انفرد من بين جميع النظم الاجتماعية بهذا الأدب العالى الذى لا عهد للبشرية به الى اليوم .

إننا ببياننا هذه الناحية من الاسلام قد كشفنا للقارئ عن معجزة علمية له لا نقول عجز عن مثلها المصلحون ، ولكنا نقول لم تدر فى خلدهم الى هذا العصر ، فإن ما هو ظاهر أمام الناس ظهور الشمس من نفسيات الجماعات أنها قائمة على مبدأ الأثرة القومية المحض ، وإنها لا تعتمد فى تحقيق أحلامها من الفتح والتوسع بشبه أصل من أصول الرحمة أو العدل ، فقيام أمة قبل نحو أربعة عشر قرنا بتعاليم ديانة عامة على نظام يوفق بين مقتضيات الروح العلوى ومقتضيات المادة على النحو الذى رأيته هنا ، يعتبر أمرا خارقا للعادة لا يكاد يتصوره العقل لولا نتائجه الملموسة باليد .

إن جماعة المسلمين قد برهنوا فى أدوارهم كلها على أنهم رسل السلام والأمان ، وطلائع العلم والحكمة ، ومقدمة المدنية الحقة فى الأرض .

يقول المؤرخ سديو الفرنسى فى كتابه تاريخ العرب : إن المسلمين نشروا العلم والحكمة والمدنية حيث وطئت أقدامهم . ويؤمّن على كلامه جميع الذين كتبوا عن المسلمين قديما

وحديثا ، فقرروا أنه لولاهم لقضى على التراث العلمى للأمم ، ولأفنى بعض الأمم بعضا من مواصلة الحرب . أفليس هذا من أدل الأدلة على أن المسلمين لم يكونوا يتحرون حياتهم وحدها ، ولكن حياة الخلق كافة ، على نظام من التكافل والتعاون فتن مقهوريهم فأصبحوا بدون دعاية ، من إخوانهم فى الدين ، وانقلبوا من محاربين لهم الى منافحين عنهم ، ومن أعداء لملتهم ، الى أولياء لها ، بل أئمة يهدون الناس اليها ويعملون على إعلاء كلمتها ، لا بالعمل لذلك وهم قعود فى أكسار دورهم ، ولكن بالرحلات البعيدة ، والتضحيات التى لا تدخل ضروبها تحت حصر .

فإذا كان من أجلّ مايدوّنه العلم فى تاريخ أمة أن ينقلب أعداؤها الى أولياء يبادلونها الحب والمودة ، فإن من أكبر ما يسجله من الآيات فى تاريخ الانسانية أن ينقلب أعداء أمة الى أئمة يبذلون أنفسهم لإعلاء شأن دينها بين الخلق . **محمد فريد وجدى**

أقوال البلغاء فى أطيب الكلام

قال أحد البلغاء : أبلغ الكلام ما حسن إيجازه ، وقل مجازه ، وكثر إعجازه ، وتناسبت صدوره وأعجازه .

وقال غيره : أبلغ الكلام ما يؤنس مسمعه ، ويؤيس مضيعه .

وقال سواهما : ليست البلاغة أن يطال عنان القلم أو سنانه ، أو يبسط رهان القول وميدانه ، بل هى أن يبلغ أمد المراد ، بالفاظ اعيان ، ومعان أفراد ، من حيث لا تزيد على الحاجة ، ولا فى إخلال يفضى الى الفاقة .

ووصف أهل البيان البليغ فقالوا : فلان يعبث بالكلام ، ويقوده بآلين زمام ، حتى كأن الألفاظ تتحاسد فى التسابق الى خواطره ، والمعانى تتغاير فى الانثيال على أنامله .

الى هذا يشير أبو تمام الطائى بقوله :

تغاير الشعر فيه إذ سهرت له ... حتى ظننت قوافيه ستقتتل



سورة الرعد

— ٥ —

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ . اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ . عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ . سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ . لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ) .

لقد كثر ما تعنّت المشركون وعاندوا ، وتجلّت لهم الآيات والعبر فعمُوا عنها وصمُّوا ، فأنكروا قدرة الله على البعث والحشر حتى أُلقموا حجرا بما اعترفوا به : من أنه خالق السموات والأرض ، ومنبت الكلأ والزرع ، ومنوع الثمار فى أكلها ولونها وهى تسقى بماء واحد ونبتت فى قطع متجاورات ، فماذا يعجزه بعد ذلك أن يعيد ما بدأ وهو أهون عليه ؟

ثم استشكلوا بأن تلك الأجزاء قد اختلط بعضها ببعض فكيف تكون القدرة

على تمييزها ورد كل جزء منها الى ما كان مركبا معه حتى تلتئم أجزاء الجسم الأصلية كما كانت ، وأنى يكون ذلك ؟ فلم يكن يليق بهم إلا التعجيب من سخافتهم وغباوتهم ، والنعى عليهم بأنهم هم الذين كفروا بربهم الذى خلقهم ، ووهبهم من النعم الواضحة ماوهبهم فعموا عنها ولم ينظروا اليها ، فكأن الأغلال فى أعناقهم فهم مقمحون ، لا ينظرون ما هو تحت أبصارهم ، ولا يستطيعون أن يلتفتوا يمنة ولا يسرة ، وذلك ما ذكره الله عز وجل فى قوله : « وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد . أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

ثم بعد أن حكى الله عنهم مماحكاتهم وتلكؤهم بغباوتهم ، إذ يستعجلون لأنفسهم العذاب والسيئة قبل الحسنة ، ولم ينفعهم النظر فيما أصاب مَن قبلهم من المَثُلات التى حلت بأمم كانوا أشد منهم بطشا وأكبر قوة ، وأن هذا لا يصدر إلا عن سفيه جاهل بمقدار نفسه وبمقدار اليد التى تملك ناصيته وتهيمن عليه ، عاد الى ذكر طرف مما فتنوا به وعلقوا عليه إيمانهم ، كأنما هم الغالبون يملون شروطهم على المغلوب ، أوكأنما يطالب إليهم أمر ينتفع به الطالب ، فهم يشتطون فيما يشترطون فيقولون : « لولا أنزل عليه آية من ربه » أو يقوله الذين كفروا منهم وتمكن الكفر من قلوبهم حتى عقدها عن أن تنظر فيما فيه صلاحها ، وغامت الغشاوة على بصائرهم فلم يبصروا ما تجلى من الآيات التى يهتدى بها من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، فجحدوا تلك الآيات وأبوا إلا آيات يقترحونها ويعيّنونها ، ويعرضون عما تجلى لهم مما هو أقوى منها ، ولو أجيبوا الى ما طلبوا لجاء كل واحد يقول : هذا مقترح فلان ولا يقنعنى إلا أن تجيبنى لمقترحى ، ولكانت الآيات لعبة تابعة لأهوائهم ، ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض .

وها نحن أولاء نورد عليك طرفا من تعنتهم الذى حكاه الله عنهم فى اقتراحاتهم وتلاعبهم :

فى سورة الفرقان : « وقالوا مالهـذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكونَ معه نذيراً ، أو يلقى إليه كنز أوتكونُ له جنة يأكل منها وقال الظالمون إنْ تتبعون إلا رجلا مسحورا » فقد أبوا الاعتراف بنبوة من يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، ثم طلبوا أن ينزل معه ملك فيكون معه نذيرا ، ثم اقترح منهم مقترح أن يلقى اليه كنز من مال ؛ وقال آخر : تكون له جنة يأكل منها . وبقى بعد ذلك الباب الذى لا يمكن سده وهو تعللهم بقولهم إن تتبعون إلا رجلا مسحورا . فلو جىء لهم بكل ما طلبوا لبقى تعللهم بأنه سحرهم ، كما تعللوا فى قصة انشقاق القمر حتى سألوا القادمين من الآفاق فأخبروهم أنهم رأوه منشقا على ما روى . ولقد كانوا يقولون قبل ذلك إن محمدا إن كان قد سحر أبصارنا فلم يقدر على أن يسحر جميع من فى الأرض ، فلما أخبروهم بأنهم رأوا القمر منشقا لوّوا رءوسهم وأعرضوا مستكبرين .

وفى سورة الفرقان أيضا : « وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ، لقد استكبروا فى أنفسهم وعَتَوْا عُتوا كبيرا » . ولقد رد عز وجل عليهم بقوله جل من قائل : « يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حِجْرا محجورا » فبين أنهم لو أنزلت عليهم الملائكة على صورتهم لهلكوا عن آخرهم ، فكان طلبهم هذا وبالاً عليهم ، فما أشبهه بما جاء فى الآية التى نحن بصدد تفسيرها فيما مر فى قوله تعالى : « ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات » !

وقال تعالى فى سورة الأنعام : «وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون » فهذا نظير قوله فى الآية المذكورة آنفا : « يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين » إذ يهلكون على كفرهم ولا ينفعهم يومئذ إيمانهم ، فقد صار الايمان عن عيان وإلجاء ، فلم يجىء عن ابتلاء العقول التى هى أعظم ما وهبه الله لبنى الانسان . ولو جاء الملك على صورة يمكن رؤيتها لكان على صورة رجل ، كما قال تعالى فى سورة الأنعام : « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبَسنا عليهم ما يلبِسون »

أى لجاء قولهم : يأ كل الطعام ويمشى فى الأسواق ، أو قولهم : إن تتبعون إلا رجلا مسحورا .

وكذلك اقترحوا أن ينزل كتاب من السماء معه ملائكة يشهدون بأنه من عند الله ، فجاء قوله تعالى : « ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين » فكيف الوصول إلى إقناع هؤلاء وكلما جاءتهم آية تعللوا بأوهى المعاذير ؟

ولنجل لك ما حكاه الله عنهم فى سورة الإسراء ، إذ يقول عز وجل : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تَفْجُرَ لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكونَ لك جنة من نخيل وعنب فتُفجِّرَ الأنهار خلالها تفجيرا ، أو تُسقطَ السماء كما زعمت علينا كِسفًا أو تأتىَ بالله والملائكة قَبيلا ، أو يكونَ لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزِّلَ علينا كتابا نقرؤه » . هكذا كانت ألاعيبهم ، وهكذا كان تعنتهم ، وهكذا كان عنادهم وإباؤهم ، فكأنهم يأبون أن يؤمنوا بربهم حتى يتجلى لهم ، ويتنزل للعمل بأهوائهم . فلماذا كل هذا وقد وضح الصبح لذى عينين ؟ وماذا يمنعهم من أن يؤمنوا لبشر اصطفاه الله واختاره لوحيه ، وأيده بآياته الباهرة ومعجزاته القاهرة ؟ فقد أبوا أن يعترفوا لله بهذا الحق : حق اختيار بشر للرسالة ، كما قال تعالى : «وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا» . وما دروا أن الرسول لا يمكن انتفاع المرسل اليهم به إلا إن ناسبهم وأمكنهم أن يفهموا منه ، وهم بشر لا ملائكة ، ولو كانوا ملائكة لأرسل اليهم ملكا مثلهم : « قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » .

هذا هو تصوير حال المشركين وإبائهم وعنادهم مع الأنبياء والمرسلين . وهذا هو جلاء الآيات لهم ، ورد حججهم عليهم ، حتى لم يبق لهم متمسك يسوغ الاعتماد عليه فى نظر عاقل ، أفمن حكمة القادر القاهر أن يجعل آياته تحت تصرفهم وألعوبة لأهوائهم ، أم أن

العزة الإلهية تقتضى أن يعرض عن هذيانهم ويمضى الرسول فى طريقه معرضا عنهم غير آبه بهم ، وأن يشد المولى عز وجل أزر نبيه ويأمره بالإعراض عن قوم عموا وصموا ، فيقول عند ما يشرعون فى مماحكاتهم : « إنما أنت منذر ولكل قوم هاد » ؟

لقد بسطنا القول طويلا فى هذا الموضع ، وأطنبنا فيه أكثر مما تعودنا ، وما حملنا على هذا الإسهاب والتوسع فى الاستشهاد بآيات متماثلة من محكم آيات الكتاب إلا إبطال ما يتعلل به بعض الكتاب ، إذ يزعمون أن المصطفى صلى الله عليه وسلم لم يؤيد من قبل المولى عز وجل بمعجزة سوى القرآن ، وكل آياته هى الكتاب العزيز ، فلم يظهر على يده صلى الله عليه وسلم معجزة ما غير القرآن الكريم . ونحن نقول : كفى بالقرآن آية بل آيات كبرى ، ومن ذا الذى ينكر أو يستهين بما احتوى عليه القرآن العزيز من باهر الآيات ؟ إلا أنا نقول : إنه مع هذا قد ظهر على يده صلى الله عليه وسلم من الآيات الكونية والمعجزات الخارقة للعادة ما تواتر فى جملته ، وإن كانت آحاده آحادا ، وقد صحت الأسانيد بالكثير منها ، وبلغت جملتها حد التواتر ، كما مثلوه بجود حاتم وشجاعة على وأمثالها مما صار مجموعه غير قابل للشك وإن كانت آحاد الحوادث لم يبلغ واحد منها حد التواتر . وأمارة التواتر أن يصل الأمر عند النفس الى حد لا تقبل الشك أو التشكيك فيه ، فلو أنه قيل لك : إن حاتما كان بخيلا أو إن عليا كان جبانا ، لم تجد ما يدعوك الى التفكر فيه ، وإن كانت آحاد حوادثه لم تبلغ عندك مبلغ التواتر .

وإذا أردت مثالا مما يقع فى عهدنا فهاك : لقد تواتر عند الحاضرين أن بعض الساسة كان من الدهاء بحيث لا يشق له غبار حتى أصبح لا يقبل تغيير العقيدة فيه ، فلو قيل لك مثلا : إن بسمارك السياسى كان رجلا غبيا قصير النظر ، لأبت نفسك الاستماع له أو كلفت نفسك مؤنة الرد عليه ، مع أن أشخاص حوادثه لم يثبت لديك منها شىء بعينه . ويسمى متواتر المعنى .

ولقد تواترت المعجزات فى جملتها وإن كان بعضها آحادا صحيح الإسناد .

فنبع الماء من بين أصابعه، واختفاؤه عن أعين الباحثين عنه وهو أقرب الى مواقع أبصارهم، وأمثالها، من الآيات الكونية. بل من بعض وجوه الإعجاز فى القرآن ماهو من الآيات الكونية، كعلم أخبار الأمم الماضية، وكالإخبار بالمستقبل فيقع كما هو، كما فى قوله تعالى: «الم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين» مما جرت بشأنه المراهنة المشهورة بين أبى بكر وبعض الكفار. والأخذ على قلوب اليهود الذين نطقت الآية الكريمة بأنهم لن يتمنوا الموت أبدا آية كونية، فلقد كانوا أحرص الناس على تلمس ما ينهض حجة لهم على محمد، وما كان أهون عليهم من أن يقول قائل منهم: ليتنى أموت، فلا يقدر أحد على ادعاء أن هذا قول لسانى. كان هذا يهمهم ويعنيهم جد الغاية، ولا سيما فى الوقائع التى كانوا ينزلون فيها من معاقلهم على حكم السيف، إذ غدروا بالمصطفى صلى الله عليه وسلم، كما جرى لبنى قريظة وبنى النضير من اليهود.

والخلاصة أن أكبر معجزاته صلى الله عليه وسلم وأعظمها والدائم بذاته منها، هو القرآن الكريم. ولكن هذا لا يمنع أن له معجزات كثيرة وردت بها الأخبار الصحيحة. أما ما فى الآية التى معنا وأمثالها فقد تجلى لك بما سبق موقعه وأنه قطع لتعللاتهم وتصويرهم بأنهم لا يؤبه لطلباتهم، ولا يعتنى بهذياناتهم، فليمض المصلح فى إصلاحه، وليدعهم لربهم، فهو القادر على أن يذيقهم وبال أمرهم «إنما أنت منذر ولكل قوم هاد».

هذا وحين تتأمل فى قوله تعالى: «ويقول» تجد أن هذا كان يتكرر منهم، وكان عادة لهم وديدنا. والتعبير عنهم بالذين كفروا تصويرلهم بصورة من لا يرجى منه صلاح حال أو اعتراف بحق، فقد سدت قلوبهم عن إدراك الهدى بما عقد عليها من الكفر.

وكلمة (لولا) للطلب الشديد المصحوب بحث، كأنهم جد حريصين على حصول تلك الآية، ولم يكفهم ما بهرهم من جليل الآيات.

وكلمة (من ربه) لا يريدون بها إلا الهزؤ بدعواه أنه مرسل من ربه، كأنهم يقولون:

إذا كان مرسلا من ربه فلم لم يؤيده بإجابة ما نطلب ؟ لذلك كان الأمر يشتد عليه صلى الله عليه وسلم لمزيد حرصه على أن يؤمنوا أو يهتدوا ، وأن ينجح فى مهمته وأداء رسالته ، فكان المقام مقام أن يهوّن عليه ربه أمرهم ، ويرشده الى ألّا يكبر الأمر على نفسه ، فقال أولا : إنما أنت منذر ، أى ما كانت مهمتك أن تهديهم وتوصلهم بالفعل ، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ، وقد بلّغت على الوجه المطلوب منك ، فلا عليك أن يؤمنوا أو يكفروا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ، ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة وقال له ثانيا : «ولكل قوم هاد » أى ما كان بدعا فى الكون أن يجىء الرسول الى قومه فيهديهم فيكون منهم المؤمن ومنهم المكذب ، بل هذه عادة الله فى خلقه : يرسل الرسل مبشرين ومنذرين ، فيكون من قومهم المكذبون والمصدقون ، فلك أسوة بإخوانك الرسل من قبلك . وعلى ذلك يكون معنى « هاد » أى رسول يرشدهم كمعنى منذر . ومن المفسرين من يرى فى معنى الهادى الموصل بالفعل ، ويقول : الهادى هو الله ، أى أن الله هو الذى يهدى ويوصل الى الخير . ولكن الوجه الأول أوجه ، فإن المولى جل وعلا لم يوصل بالفعل كل قوم ، فما زال من القدم من الناس مؤمن وكافر . إلا أن يراد أن الله هاد لكل قوم اهتدوا ، أى كل من حصلت له الهداية الإلهية فهدايته من الله والله هوهاديه . وأصحاب هذا القول يرون أن لفظ الجلالة بعد هاد خبر مبتدأ محذوف ، أى هو الله . ثم فى الوجه الأول فوق التأسى الذى شرحناه معنى أن لكل قوم هاديا يليق بقومه بحسب حالهم ، وأنت جئت لقومك على أتم الحالات التى تنتظر لهم وتناسبهم ، وجئت بالآيات اللائقة بقومك وبالناس أجمعين .

قال تعالى : « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شىء عنده بمقدار » :

هذا من تمام تسليته صلى الله عليه وسلم وتهوين أمرهم عليه ، وذلك ببيان أن الله عليم بخفى حالهم ، فلو علم فيهم خيرا لأجابهم الى ما يطلبون ، ولكنه أحاط بكل شىء

علما ، وعلم ما خفى وما ظهر ، وعلم نياتهم وما انطوت عليه قلوبهم . أليس يعلم الحمل قبل أن يتكون ، بل هو الذى يكونه حسبما أراد ، وعلم ويعلم من دقائق تكوينه وما يحيط به ما لا يعلم هو من نفسه ولا يعلمه أحد غيره جل شأنه ؟ فهو يعلم ما تحمل كل أنثى : أذكر هو أم أنثى ، أشقى هو أم سعيد ، أمكابر هو أم مسترشد ، فيعطى كل ذلك ما يليق به ويوافق الحكمة ومحكم التدبير ، فلا يسير وراء أوهام من أوهموا أو توهموا ، كيف وهو أعلم بهم من أنفسهم ، فلا غرو كان أليق شىء الاعراض عن مقترحهم ، فأعرض عنهم ، فنحن أعلم بهم من قبل ومن بعد .

وأردف ذلك بقوله : « وما تغيض الأرحام وما تزداد » لبيان أن سعة علمه جل شأنه لا تقتصر على ما حمل به أذكر أم أنثى الخ بل يعلم فوق ذلك ما غاضته الأرحام أرحام النساء ، أى نقصته من مادة كانت صالحة للتخليق فنقصتها الأرحام وغاضتها ، وما زادته الأرحام من مواد أضيفت الى ما قذف فيها من نطف فتكونت منها النطفة بشرا سويا .

وإن من رجع الى كلام أهل الذكر فى هذا الباب رأى فيه أن النطفة تقذف فى الرحم محتوية على عدة بويضات صالحة للتخليق فتدور حول بويضات من المرأة حتى يخترق بعض بويضات الرجل بعض بويضات نطفة المرأة فيذوب فيه ، وباقيها مما لم يرد الله تخليقه يكون بمعزل فيفسد ، فكأن الأرحام غاضته أى انتقصته . ثم يكون من الأرحام إمداد لما صلح للتخليق منه فيزداد وينمو بأمر الله حتى يكتمل خلقا سويا ، ففى كل نطفة تخلق منها جنين غيض وازدياد . ويصح أن يكون معنى تغيض الأرحام أى ما يتلاشى فيها من النطف ، وما تزداد أى ما يتعدد فيها من الأجنة .

وعلى الجملة فالآية قد نبهت على أدق شىء فى تكوينهم ، فكيف يعزب عن علمه حالهم وهو الذى كونهم : ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ فلو علم فيهم خيرا منتظرا لأجابهم الى مطلبهم ، كما قال تعالى : « ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم » ولكنهم لا خير يرجى منهم كما قال عقبها : « ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون » .

وكلمة (ما) فى قوله : « ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد » يصح أن تكون مصدرية أى حمل وغيض وازدياد ، أو موصولة أى ما تحمله وما تغيضه وما تزيده ، أو استفهامية أى ماذا تحمل وماذا تغيض وماذا تزداد ؟ وتكون معلقة لفظ (يعلم) عن العمل كما يقوله علماء النحو .

ولفظ تغيض يستعمل لازما ومتعديا ، تقول : غاض الماء وغضته أى نقص أو نقصته كما قال تعالى : « وغيض الماء » أى نقص وغيب فى الأرض . ويصح أن يكون تغيض الأرحام وتزداد ، أى فى الجثة كالمولود ناقصا والمولود كاملا ، أو فى المدة كالمولود لسبعة أشهر والمولود لتسعة والمولود لسنة أو أكثر ، أو فى العدد كالمولود منفردا أو متعددا اثنين أو ثلاثة أو أكثر . كل هذا يدل عليه تغيض وتزداد ، فوق ما سبق لك من انتقاص بعض ما يصلح للتخليق أو كله ، ومن ازدياد المادة المخلقة بما يمدها من دم الأرحام . وغير خاف أن إسناد تغيض وتزداد الى الأرحام مجاز عقلى ، وإلا فالله هو الفاعل لكل شىء فى الحقيقة .

وقوله تعالى : « وكل شىء عنده بمقدار » تقرير لمضمون الجملة قبله ، وكأنه يقول : إنه مع إحاطة علمه بكل شىء جل أو قل ، فإنه بتقديره وحكمته قد رتب كل شىء حسبما يليق ، فما كان الأمر فرطا ولا ابن المصادفة ، ولكن كل شىء خاضع لتدبير الحكيم العليم . فهذا كقوله تعالى : « إنا كلّ شىء خلقناه بقدر » فكل عرض وكل جوهر قد وضع حيث أراد الله ودبر بمقتضى الحكمة من الأزل ، فما كان لمخلوق أن يطمع فى تغيير أمر عما أراد الله العليم الحكيم ، فكل شىء له مرتبته الخاصة به ووقته المعين له ، وحاله اللائقة به لا يكاد يجاوزه . ومعنى « عنده » أى فى علمه وحكمه .

قال تعالى : « عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » :

تقرير بعد تقرير ، وتثبيت إثر تثبيت ، حتى يطمئن قلبه عليه السلام الى ما أراده الله عز وجل بهم ، ويهون عليه أمرهم ، وهو الذى كان أشد ما يكون حرصا على إيمانهم

وهدايتهم، حتى إنه قدخاطبه عزوجل بقوله : «فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً» يدفعه الى ذلك ما فطر عليه من رأفة ورحمة، وشغف بأن لا يفوت الإيمان بالواحد القهار أحدا من خلق الله العقلاء . كيف وهم قومه وعشيرته ، والأمر أوضح من أن يخفى ؛ وهم ذوو عقول وفطن ، لا يعذرون فى تضييع ذلك الخير الجليل على أنفسهم . فالحق أن وقوفهم موقف العداء لأنفسهم أمر يضيق له صدر الحليم ، ولا سيما وهم عشيرته الأقربون . فلا بدع أن يتلو الكلام بعضه بعضا فى تهوين أمرهم عليه صلى الله عليه وسلم ، وتكرير القول فى أن ذلك يجب رده الى علم الله وحكمته ، فهو بهم أعلم ، وهو عالم الغيب والشهادة ، وهو الكبير المتعال ، فلا هيمنة على الخلق ولا تصرف فى شئونهم إلا للعالم بحالهم ، وهو المنزه عما يتوهمونه من أن دعوتهم سيعود نفع منها على أحد غيرهم . ثم مهما زعموا لأنفسهم من عزة وعظمة فهم أهون عند الله من أن يلتفت الى شيء مما يدعونه لأنفسهم ، فهو الكبير الذى تخضع أمام عظمته كل رأس ، وهو المتعال عما يصفونه به مما تفوه به ألسنتهم ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون !

وبعد أن وصف عز وجل نفسه بأنه الكبير المتعال ، المنزه عما يجول بخواطرهم أو تتفوه به ألسنتهم ، عاد الى تعريفهم قدر أنفسهم ، وأنهم أمام قدرة القادر وعلم العليم لا شيء ، فلا يفلت منهم أحد عن سلطانه وإحاطة علمه بكل شأنه ، فقال تعالى : « سواء منكم من أسَرّ القول ومن جهر به ومن هو مستخْفٍ بالليل وساربٌ بالنهار » أى لقد خدعتم عن أنفسكم ، وتوهمتم أنكم إذ تسرون القول بينكم وتستخفون عن الخلائق أمثالكم قد تخفى على الله خافية منكم ، كلا ! لقد طاش سهمكم ، وخاب ظنكم الذى ظننتم بربكم ، فسواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، فالله عالم بكل أمر منكم ، بل يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، بل يعلم ما تهجس به نفسكم من قبل أن يخطر ببالكم ، بل قد علم كل ذلك من الأزل قبل أن تخلقوا . وكما يعلم السر والجهر من أقوالكم

كذلك يعلم ما ظهر وما استتر من أعمالكم ، فيعلم من هو مستخف بالليل يظن أنه قد خفى عن ربه كما خفى عن الخلائق مثله ، لا بل الاستتار بالليل والظهور بالنهار بالنسبة اليه على حد سواء ، فإذا سمى شىء غيبا أو استتارا أو إسرارا فهو بالنسبة اليكم أنتم ، وأما بالنسبة اليه جل شأنه فكل ذلك سواء . ومعنى مستخف أى مبالغ فى الاختفاء كأنه فوق اختفائه طالب للمزيد من الخفية ، كما يفهم من السين والتاء . ومعنى سارب أى ظاهر ، من قولهم : سرب أى ذهب فى سربه أى طريقه لا يبالى بشىء ، قال الشاعر يصف قومه بالعزة :

وكل أناس قاربوا قيد فحلهم ونحن خلعنا قيده فهو سارب

أى تركناه بلا قيد فهو يسير فى طريقه حيث أراد . ونكتة تقديم من أسر القول على من جهر به ، وتقديم من هو مستخف بالليل على سارب بالنهار ، أن المقصود تقرير شمول العلم ، ولا شك أن تعلقه بالمسر والمستخفى أمكن فى هذا التقرير . ثم إن لفظ سارب عطف على من هو مستخف ، والمعنى : سواء من هو مستخف ومن هو سارب ، أو عطف على لفظ مستخف ويكون من عبارة عن شخصين ، أى سواء شخصان مستخف وسارب . وقد ورد له نظير فى اللغة ، ولكن الأول أقعد ، فإن الثانى يوهم أن شخصا واحدا هو مستخف وسارب . ثم إرداف المستخفى بالليل وإرداف السارب بالنهار ، لتأكيد الاستخفاء والسروب ، فالليل أعون على الاستخفاء ، والنهار أجلى للسروب .

قال تعالى : « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » :

الضمير فى له وفى يديه وخلفه وفى يحفظونه راجع الى ما ذكر قبله فى قوله : « من أسر القول ومن جهر به ومن هو » الخ ، والمعنى : لذلك المذكور من المسر والجاهر والمستخفى والسارب معقبات الخ ، أى كيف يظن أحد من أولئك أنه قد خفى أمره على الله وهو قد أحيط بملائكة يتعاقبون عليه ليلا ونهارا ، يحيطون به من بين يديه ومن خلفه ، يحصون عليه ما يعمل ، ويكتبون كل ما صدر منه ، ويحفظونه مما يحيط به وهو لا يدرى من

أمرهم شيئا، وهم من أمر الله أى من عالم الأمر، وهو عالم خفى مغيب عنا أعلمنا الله به بواسطة الوحى الإلهى يلقى على أنبيائه فيخبروننا به . أى إذا كان قد أحيط بمجموعة من الملائكة تتعقبه وتتتبع أعماله فتحصيها وتكتبها أولا فأولا وهو لا يدرى من أمرهم شيئا، فكيف يتوهم أنه سيخفى علينا منه خافية ؟ فتكون المعقبات بمعنى أنها تتعقبه وتتتبعه أينما كان وحيثما وجد وعلى أى حال حصل، من عقبه بالتشديد أى جاء على عقبه، والمعنى تبعه، وقد يقال عقبه بالتخفيف أيضا بهذا المعنى، فالتشديد للتكثير لا للتعدية . أو المعنى أنها طوائف تتعاقب ويجىء بعضها بعقب بعض كما ورد « إن لله ملائكة يتعاقبون فيكم : ملائكة بالليل وملائكة بالنهار» . وعلى كل حال فهو جمع معقبة بمعنى فئة معقبة، أو جمع معقبة على أن التاء للمبالغة كراوية، فلا يقال كيف جاء جمعه جمع تأنيث وليست الملائكة بمؤنثة .

ولا يقال : ما فائدة هؤلاء الملائكة المعقبين، وما فائدة كتابتهم مع أنه تعالى محيط بكل شىء علما، ومحص ما يعمله العبد بلا حاجة الى الملائكة ولا الى كتاباتهم ؟ لأنا نقول : إنه تعالى قد أحكم نظام ملكه، وربط كل شىء بسببه استكمالا للنظام، وهو غير محتاج فى إيجاد شىء الى سبب ما، ولكنه الكمال فى النظام . ولو شاء لأضاء الكون بلا شمس ولا قمر، وأوجد الزرع والضرع بلا حرث ولا استيلاد . ولو شاء لأغنانا فى حياتنا عن الغذاء وعن الماء، ولو شاء لأوجد كل شىء قائما بنفسه غير مرتبط بغيره، ولكنه أوجد الأشياء وباعد بينها فى ذواتها، وقارب بينها فى ربطها بعضها ببعض، وهو الحكيم العليم، فهو قد ناط حفظ أعمال العباد وأقوالهم بملائكة معقبات مع استغنائه عن الاستعانة بهم لحكمة يعلمها . ويكفينا أن نؤمن بأنه الحكيم العليم، سواء أتجلت لنا الحكمة بعينها أم خفيت عن أفهامنا . ومع ذلك ففى تدوين الأعمال والأقوال بأيدى حفظة كرام بررة كاتبين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، قطع للتمحل فى الإنكار أو محاولة الاعتذار، لئلا يكون لأحد

من الناس على الله حجة . وفى علم المكلف عن طريق الوحى الصادق بأن عليه حفظة يحصون عليه ما عمل عون له على مراقبة نفسه فيما يصدر عنه ، وتربية لملكة الحياء فى نفسه ، ليتغلب على داعى شهوته وغضبه ، ويتلو ذلك الخوف من ربه .

وليس فى هذا مايتعاصى على العقل فهمه والإذعان له متى ورد عن الصادق الإخبار به ، فقدرة الله صالحة ، وما يعلم جنود ربك إلا هو .

وقد وصف المعقبات بثلاث صفات : (الأولى) أنها محيطة به من بين يديه ومن خلفه ، أى فلا يغيب عنها منه شىء ، ولا يخفى عليها منه شاردة ولا واردة . و (الثانية) أنهم يحفظونه أى فيحصون عليه ما عمل ، ويحوطونه من كل ما قد يمسه مما لا يدرى به ، فحقه أن يحمد الله ويشكره على أن حفه بلطفه ، ومن شكر الله مراقبته فيما يهم به من شر فيبتعد عنه ، أو ماينويه من خير فيتممه ، فيكون يحفظونه أى يصونونه ، أو يحفظونه أى يحصون عليه ما عمل ، ويحفظون عنه كل ما صدر منه . و (الثالثة) أنهم من أمر الله أى أنهم من عالم الأمر الذى هو الخفى المغيب ، أو أنهم ما نصبوا أنفسهم بأنفسهم بل إنهم أقيموا فيما أقيموا فيه بأمر الله وإرادته . وعلى ذلك يكون قوله : « من أمر الله » ليس متعلقا بيحفظونه على معنى أنهم يحولون بينه وبين أمر الله ، وإلا فأمر الله لا يقى منه شىء ، بل المعنى أن ذلك الحفظ من أمر الله أى بسبب أمر الله ، أو أنهم هم من أمر الله أى من عالم الأمر وعالم الغيب .

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لشكر نعمائه ، وأن يحفظنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

ابراهيم الجبالى

الشرك وعقوبته الاخروية

ورد الى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر كتاب من حضرة محمد افندى زكى عبد الوهاب العفيفى بشبرا مصر يرجو فيه أن يجاب على سؤال له فى الشرك ، فاهتم فضيلته بالأمر وكلف فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ يوسف الدجوى ، ومدير هذه المجلة ، أن يضع كل منهما جوابا عليه ، كل على حسب وجهة نظره ، فصدع كل منهما بهذه الاشارة كما يراه القراء فى هذا العدد .

أما نص السؤال بعد الديباجة فهو :

« قبح الله الشرك وأوعد المشرك بعدم المغفرة والخلود فى النار ، فلماذا ، وما حكمة هذا العقاب الشديد ، وما حكمة كونه لا يغفر ، وكيف التصق بالخالق ، وما الذى يترتب عليه فى الدنيا حتى كرر الله ذكره ومقته مقتا عظيما فى آيات كثيرة فى القرآن ؟ ولماذا كان يغيظ الشرك محمدا وغيره لحملهم ذلك على أن يحاربوهم حروبا شعواء ؟

« وإذا كان المشرك لا ينفك عن إشراكه فما فائدة النصح له ؟

« وما الفرق بين المشرك والمنافق ؟

« وكيف نوفق بين قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » وبين قوله : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » فكيف يكون من هو رحمة للعالمين سببا فى عذابهم ؟

« ولو فرضنا أن محمدا لم يبعث فى جزيرة العرب فماذا كان يضر ؟ وقد بعث وليس بها نهر ومات ولم يحفر بها نهرا ، فما حكمة ذلك ؟ »

هذا هو الكتاب مجردا من حواشيه . فكان جواب فضيلة الأستاذ الشيخ الدجوى عليه ما يلى :

الجواب

إنا نعجب كل العجب من أعماق قلوبنا لمثل هذه الأسئلة ، ولكن لا مندوحة لنا عن جوابها . وعلى الطبيب أن يداوى كل مريض يأتيه ، فنقول وبالله التوفيق :

لا يعرف قبح الشرك بالله وإجرام المشرك إلا كل من يعرف عظمة الله التى أدهشت العلماء ، حتى قال بعض الفلاسفة من فرط دهشته بعظمة الله الذى أبدع تلك العوالم ، التى لا يأتى عليها العد ولا يحيط بها الحد ، ولا يدرك كنه ما فيها من الأسرار

والعجائب إلا مبدعها العليم الحكيم ، قال ذلك الفيلسوف : « ليت شعرى مَن ذلك الذى اجترأ عليك فسماك الله لأول مرة ؟ ! »

وقال سبنسر الانجليزى ما ترجمته : « ليس الغرض من علم الطبيعة معرفة تلك الظواهر الطبيعية ، وإنما الغرض الأسمى أن يشرف الإنسان على ذلك السر الباهر ، ويستطلع تلك العظمة الإلهية من وراء تلك الحدود التى ينتهى إليها علم الطبيعة » .

ولاشك أن جرم من يتجرأ على العظيم أعظم من جرم من يتجرأ على غير العظيم ، وهكذا تتفاوت عظمة الجرم على حسب درجات تلك العظمة . فاذاً المتجرئ على أعظم العظماء هو أعظم المجرمين .

وأما قول السائل : « وما الذى يترتب عليه فى الدنيا حتى كرهه الله ومقته مقتا شنيعا فى آيات كثيرة من القرآن » فجوابه أنه يترتب عليه كل مفسدة يمجها السمع وينفر منها الطبع ، وتقوض أركان العمران وتذل نوع الانسان ، وتذهب بالفضائل وتأتى بجميع الرذائل . أما من عرف الإله الحق العادل الحكيم الذى يجازى المسىء بإساءته والمحسن بإحسانه ، وهو الذى يقول : «وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين » ويقول : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ويقول : « وما يعزُب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغرَ من ذلك ولا أكبرَ إلا فى كتاب مبين » . نقول : كل من يؤمن بهذا الإله الذى ذلك بعض صفاته وقليل من كمالاته ، لا يمكنه أن يظلم أحدا أو يتعدى على أحد الخ . وكل ما تراه اليوم مما تضج منه الانسانية وتصرخ منه الأخلاق وتئن له الفلاسفة والمصلحون ، فليس إلا نتيجة الشرك بالله والجهل بعدله وعلمه وقدرته .

فمازور المزورون ولا كذب الكاذبون ، ولا تلوّن السياسيون الخداعون ، ولا قتل القاتلون ولا سرق السارقون ، ولاجار القضاة الظالمون ، ولا خان الخائنون ولا غصب الغاصبون ، ولا التهمت الأمم القوية الأمم الضعيفة . ولا استعبدتهم وتفننت

فى ضروب الاستعباد لهم، ولا ضحك الأذكياء على الأغبياء ولا المتنورون على الجهلاء، ولا الأكابر على الأصاغر، ولا الأقوياء على الضعفاء: فلم يريدوا منهم إلا ما يريده رب الماشية من الماشية ورب الضيعة من الضيعة الخ، لم يقع ذلك كله وأضعافه وأضعاف أضعافه مما لا يخفى عليك، ولا حاجة بنا أن نسوقه إليك، إلا من عدم معرفة الله والإيمان بعدل الله، وهو نتيجة من نتائج الشرك الجلى أو الخفى، والعدول عن سنن الدين وأهل الدين «وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون».

ولو رسخ الايمان فى القلوب كما يريد الأنبياء، لتراحم الناس فيما بينهم، ولكانوا إخوة متحابين متضامنين، عملا بقوله صلى الله عليه وسلم: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا». بل قد يصل المؤمن من لباب ذلك الى حد أنه يؤثر على نفسه ولوكان به خصاصة، ويخاف من أن يؤذى هرة فضلا عن إنسان، لأنه يعرف ما قال صلى الله عليه وسلم: «دخلت امرأة النار فى هرة». ثم يقول فى حديث آخر: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء». ولو عمل الناس بتعاليم الأنبياء لكانوا على غاية الصفاء والهناء، ولعاشوا عيشة أهل الجنة فى الجنة.

فهذه هى الغاية التى يريدها صلى الله عليه وسلم من الناس حتى جعلها شرطا فى الايمان الكامل فقال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه». وقال: «والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن: قيل: من يا رسول الله؟ قال: الذى لا يأمن جاره بوائقه» الى غير ذلك وهو كثير.

فسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو الذى جاء لإنقاذ الإنسانية المعذبة ورفعها من حضيض الشقاء الى أوج السعادة، ولكن كل إنسان يأخذ من هذا المعين الصافى وذلك البلسم الشافى حسب ما قدر له وسمح به استعداده.

أما دعوى الأوربيين إنقاذ الانسانية من شقائها، فهى دعوى كاذبة قصد بها التغرير وتوسيع الاستعمار، فكانت من وسائل تعذيب الانسانية لا إنقاذها. ولعل السياسيين

هم أعرف الناس بذلك . وسر هـذا كله أن الانسان لا يحب أولاً وبالذات إلا نفسه ، ولا يحب الأشياء إلا من أجلها ، فليس له هم بمقتضى طبعه إلا ما يعود عليها بالمنفعة من قرب أو بعد ، ولا يـكاد يفكر فى غير هـذا أو يريد شيئا سواه ، وكل ما يوصله الى ذلك فهو من بغيته وطلبته وإن خربت البلاد وهلـكت العباد ، فهو وحش ضار يفترس أقرانه ويبيد بنى نوعه بلا شفقة ولا رحمة ، وليس لديه قانون إلا قانون المنفعة الذاتية ولا دستور إلا دستور المصلحـة الشخصية ، فهـو فى نظر الفلسفة الصحيحة أحط من الحيوان وأضر من الثعبان . ولذلك أباح الدين دم الحربى لأنه سقط عن رتبة الانسانية والتحق بالحيوانات المؤذية ، فـكان الواجب للانسانية تطهير الأرض منه رحمة بها وشفقة عليها ، فلا غرو أن يهدر دمه ولا تراعى كرامته ، وهو الذى أضاعها بسوء سلوكه وفساد إنسانيته « وما ظلمناهم ولـكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

أما خلوده فى النـار فلعظم الجـريمة كما قلنا . أو نقول ما قال كثير من العلمـاء : إنه كان ينوى الـكفر بالله على التأبيد . والعبرة عند الله ليس إلا بمـا تـكنه النفوس وتنطوى عليه القـلوب « إن الله لا ينظر الى صوركم ولـكن ينظر الى قـلوبكم » . أو نقول : إن هذا الرجل دأب على مساخط الله والعمل على فنون الرذائل حتى صارت ملـكة راسخة فيه ، فالتحقت بالغـرائز ، وصارت بكثرة التمرن واستحـكام العادة كأنها جزء من تـكوينه الخلقى واستعداده الطبعى ، فلا سبيل لانتزاعها منه إلا بفساد تـكوينه واقتلاع غرائزه وانخرام طبيعته ، ولذلك يقول الله تعالى : « ولو رُدُّوا لعادوا لمـا نُهوا عنه » . ومن عـرف تأثير العادات وتـكوينها الملـكات الخبيثة أو الصالحة فى النفوس ، لم يستغرب ذلك . وإذاً نقول : إن هذا الرجل كله خبث وقذارة روحانية هى أشد من قـذارة الحسيات لدى من يدرك للروحانيات معنى أو يشم لها رائحـة «إنمـا المشركون نجس» . فـكيف يدخل حضرة الله المقدسة التى لا يدخلها إلا المقدسون أو يفـوز بجنته المطهـرة التى لا يفوز بهـا إلا الروحانيون ، أو يسمع لذيذ المناجاة

التى لا يظفر بشرفها إلا المقربون ؟ لعمرى إن الحكمة تأبى دخوله الجنة التى أعدت للمتقين وحرمت على الكافرين ، لأنهم ليسوا لها بأهل؛ ولعمر الحكمة المقدسة التى تأبى أن تضع الأشياء إلا فى مواضعها لو دخلوا الجنة لكان هـذا فى نظر الحقائق بمنزلة من يأتى بشر الدواب فيدخلها حظيرة الملِك ومحـل خواصه ومجلس ندمائه (وأى عقل يسمح بوجود الحمير بحضرة الملك الكبير مع الوزير والأمير) ؟

ولا تعجب من هذا فإن الانسان قد ينحط الى أسفل دركات الحيوان فلا يكون إنسانا إلا بصـورته وتخطيطه لا غير . وقد قال بعض الفلاسـفة : « إن من الناس من تفسد إنسانيته فيصبح غير إنسان » . وليس هناك تفاوت بين أفراد نوع من الأنواع مثل التفاوت الذى بين أفـراد نوع الانسان ، الذى هو مجمع العجائب والغرائب ، ومظهر المتضادات والمتناقضات . وقد قال تعالى فى حق أولئـك المشركين الجاهلين الذين عموا عن الآيات وكفروا برب الأرض والسموات : « إن هم إلا كالأنعام بل هم أضـل سبيـلا » وقال : « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوًى لهم » .

فهـذا قول خالقهم العالم بما خلقوا عليه وانجـذبوا اليه « ألا يعـلم من خلق وهو اللطيف الخبير » . وسيقولون فى الآخـرة : « لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ».

هذا وللشيخ محيى الدين بن العربى وابن تيمية وابن القيم كلام فى الخـلود فى النار شذوا فيه عن الجمهور ، فلا حاجة لسوقه هنا أو التعريج عليه .

وأما قول السائل : « ما الفرق بين المشرك والمنافق ؟ » فلا أدرى ماذا يريد به ، فإن الفرق بينهما واضح من حيث التحديد والتعريف ، وكيف يشتبه من يظهر الكفر بمن يظهر الايمـان ؟ وإن أراد الفرق بينهما فى الدار الآخرة فـلا فرق فى استحقاق كل منهما العذاب الأليم . وقد قال الله : « إن المنافقين فى الدَّرْك الأسفل من النار » . فلندعه وما أراد .

وأما قوله : « وإذا كان المشرك لا ينفك عن إشراكه فما فائدة النصح له ؟ » فهو عجيب ، فإننا نريد أولًا إقامة الحجة عليه « لئلا يكونَ للناس على الله حجة بعد الرسل » . وثانيا علينا أن ندعو الناس جميعا الى الخير والهدى « ليهلِكَ من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة » وما أودع فى استعداد الانسان من الأسرار لا يعلمه إلا الله تعالى . فالواجب علينا أن ننصح كل من نقدر على نصيحته بالوسائل المختلفة ، عسى أن يكون فيه قابلية للخير « ولو فى طبقة من طبقات أرضه السابعة » . فإذا لم ينتصح كنا معذورين ، وقامت عليه الحجة .

وأما قوله : « وكيف نوفق بين قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » وبين : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » وكيف من يكون رحمة للعالمين يكون سببا فى عذابهم ؟ » فجوابه أن الطبيب رحمة وإن أعرض عنه المغفلون ، وأن النيل رحمة وإن لم ينتفع به الجاهلون أو غرق فيه المجازفون . بل نقول : إن النار رحمة كبرى ، وقد امتن الله علينا بها فى قوله : « أفرأيتم النار التى تُورُون » الى أن قال : « نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمُقْوِين » . ولا ينافى ذلك أنها قد تكون نقمة على بعض الناس . وهذا فى غاية الوضوح .

وكيف لا يكون رحمة للعالمين وقد جاء بسعادة الدنيا والآخرة : فأعطى الروح حظها من معرفة الله وما خلقت لأجله ، وأرشدها الى ما تكون به فى أعلى عليين وتصبح مع الملائكة المقربين ، وأعطى الجسم حظه من مشتهياته التى رسم لها طريقا يؤمن شره ويرجى خيره « كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . قل من حرَّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » .

وأما قوله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » فهو جار على مقتضى العدل والحكمة ، فإن عدل الله يأبى أن يعذب الخلق من غير إنذار ولا دعوة للاستبصار .

وإنك لتعرف ذلك فى القوانين الوضعية ، فلاعقوبة إلا بعد سن القوانين وظهور التشريع ، ولـكن من عارض القوانين بعد ظهورها ووقف فى وجه المصلحين وعرقل تشريع المشرعين ، كان مستحقا للعقوبة لا محالة .

وليت شعرى ماذا يرى السائل فيمن يخرج على الأطباء فيما يفرضونه من الحجر الصحي ، وبث التعاليم التى تنفع المرضى وتحمى الأصحاء ، وتعاقب كل من يقف فى سبيل الصحة العامة ، ونشر أعلامها بين ربوع الأمة ، حتى لا تنتشر الأوبئة الفتاكة والأمراض المهلكة ؟ وهل ترى أن من أعرض عن أسباب السعادة بعد الدعوة اليها وانغمس فى حمأة الشقاء بعد التحذير منها ، وأخذ يقاوم دعاة الإصلاح ويقف فى طريقهم ، هل تراه كمن لم تقم عليه الحجة ولم يعارض دعوة المصلحين ولا أعرض عن الحق بعد ما تبين ؟

وأما قول السائل : « لماذا كان يغيظ الشرك محمدا فكان يحاربه محاربة شعواء » فلا أرى له معنى بعد ماتقدم . وليعلم حضرة السائل أن للفضائل أقواما يغارون عليها ويبذلون فى سبيلها كل مرتخص وغال أكثر مما يحرص أهل المادة على المادة ، حتى إنهم ليهون عليهم بذل الأموال والأنفس فى هذا السبيل : سبيل الله الذى من مات فيه كان مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . ولـكن أهل الدنيا لا يحسون بذلك ولا يذوقونه ، ولذلك لا يعترفون به « بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمّا يأتهم تأويله » . وما هذا والله شأن المؤمن ، فإذا لم تكن عالما فكن مقلدا .

هذا وإنى استنكر منه ذكر النبي صلى الله عليه وسلم باسمه المجرد مع كونه فى عصر تفنن أهله فى تعظيم الكبراء والعظماء ، فلا يستطيعون أن يذكروا أسماء الأمراء إلا بلقب الإمارة ، ولا أسماء الملوك إلا بوصف الجلالة ، وإذا صدحت الموسيقى بالسلام الملكى فى الحفلات الرسمية قام الناس وقوفا إجلالا وتعظيما ، الى آخر ما تعرف ولا تنكر . فاذا كان هذا شعار العصر وشعوره فكيف نذكره صلى الله عليه وسلم بدون أدنى تعظيم

ولا توقير ، وقد قال الله تعالى : «لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا» ؟ !

ولكنها الأيام قد صرن كلها عجائب حتى ليس فيها عجائب

وأما قوله : « ولو فرضنا أن محمدا لم يبعث فى جزيرة العرب فماذا كان يضر » فهو على ركاكته لا معنى له ، لأن الله يفعل ما يشاء ويختار من يشاء . ولو بعث من أمة أخرى لجاء هذا السؤال أيضا . فهو سؤال دورى لا قيمة له . على أن الناس معادن كمعادن الذهب والفضة كما فى الحديث الصحيح ، وقد ورد أحاديث كثيرة فى فضل العرب ، وللعرب فضائل يعرفها من درس طباع الأمم وعاداتها . ومما لا شك فيه أن الناس متفاوتون فى الاستعداد تفاوتا لا يعلمه إلا الله تعالى . فما اختار لرسالته سبحانه وتعالى إلا أشرفهم نفسا وأعظمهم استعدادا كما قال : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

ولديك آثار المصلحين والعظماء والملوك والفلاسفة ، فهل يستطيع أحد أن يأتى لنا بمثل تلك الآثار أو بتعاليم فيها تلك الأسرار ، التى رفعت الأمة العربية من حضيض الجهل الى أوج العلم ، وخرقت القوانين الطبيعية ؟ كما قال جوستاف لوبون الفرنسى فى حقهم ، وهو من أكبر فلاسفة أوربا : « إن ملكة الفنون لا تستحكم فى أمة من الأمم إلا فى ثلاثة أجيال : جيل التقليد ، وجيل الخضرمة ، وجيل الاستقلال . وقد شذ العرب فوصلوا الى الاستقلال فى جيل واحد » . وقال أيضا : « ما عرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب » . وكل هذا بفضل التربية النبوية والتعاليم المحمدية . وقد أذكرنى ذلك قول صاحب الهمزية فى أصحابه صلى الله عليه وسلم :

أغنياء نزاهة فقراء علماء أئمة أمراء

وأما قوله : « إنه بعث بأرض الجزيرة ومات ولم يحفر بها نهرا » فناشىء من تغلغل حب الماديات فى نفس السائل ، فهى محور كل فضل عنده ، وهى المبدأ والمنتهى . ولو أنصف لعرف أنه صلى الله عليه وسلم أجرى بها أنهر العلم الصحيح ، والعمل النافع والأدب الجم ، والدين القويم ، والتربية التى أدهشت فلاسفة أوربا . ولو قرأ السائل

(حضارة العرب) لجوستاف لوبون الفرنسى، أو كتاب (درابر) الأمريكى، أو أقوال غيرهما ممن لا يحصى عددا، لم يقل ما قال، بل لخجل مما قال. وقد قلنا ولا نزال نقول: ماذا تريد منه صلى الله عليه وسلم بعد رفع الأمة العربية من حضيض الجهل الى أوج العلم، ومن دركات الذل الذى كانت فيه العرب الى أعلى درجات العز، وتربيتهم بأحسن التعاليم، وأخذهم الى مكارم الأخلاق من كل باب، حتى صار الواحد منهم أمة وحده بعد أن كانوا أشبه شيء بالوحوش الضارية يأكل قويهم ضعيفهم، ويئدون بناتهم، الى غير ذلك من الفظائع التى لا تفعلها الحيوانات، ثم يصيرون بعد ذلك علماء حكماء من أكبر الساسة وأعظم القادة فى أقل قليل من الزمن، ثم ينشر ذلك النور فى كل أنحاء الأرض؟ ذلك كله لدى الوجدان الصحيح والفطر الطاهرة أكبر دليل على أن مصدر ذلك كله هو مثال الخير وشخص الكمال. والفضائل لا تفيض من الانسان على غيره إلا على قدر رسوخه فيها.

إن مناط السعادة الحقة إنما هو تخليص أفراد النوع الانسانى من مخالب الشرور التى أحاطت بهم، وغرس مكارم الأخلاق فى أعماق نفوسهم، ومراقبة الله تعالى فى سرهم وعلانيتهم، فإن ذلك جماع الخير وأساس السعادة.

ونبينا صلى الله عليه وسلم أعظم الخلق فى ذلك كله، وهو برهان ساطع على نبوته، وأنه أكبر المصلحين لدى من يطلب البراهين الوجدانية من ذوى الفطر السليمة. وأما غيرهم فنحيلهم على ما كان منه من البراهين الحسية والخوارق الكونية، إذ لا يعرفون مقدار الحقائق التى يدور عليها فلك السعادة من ارتفاع الإنسان الى الأفق الملكى، وترقية مقام البشر الى أعلى عليين، ومعرفة الله تعالى، والكشف عن حقائق الأشياء، ورقة الإحساسات، وتنعيم الأرواح، بما تشرئب اليه من العالم الأعلى حتى تتم للإنسان المدنية الأرضية والمدنية السماوية. فلا برهان عند ذوى البصائر أكبر من أعمال مدعى النبوة، وصفاته النفسانية، وكمالاته الخلقية، وآثاره الخارجية،

التي ترقى الأمم وتسعد الشعوب ، وتجعلهم ملوكا فى الأرض ملوكا فى السماء ، كما كان ذلك للأمة الاسلامية حين تمسكها بدينها وشريعتها .

ولا غرو « فقد جاء ، كما قال بعض الفضلاء ، فى باب التشريع الصالح لكل زمان ومكان ، الكافل للعدالة بأوسع معانيها بما لا يعرف مقداره إلا العظماء والحكماء .

ولعمرى إن فلاسفة الأخلاق وعلماء النفس على شدة تبجحهم وكثرة ما قالوا ودونوا ، لم يأتوا بعشر معشار ما جاء به صلى الله عليه وسلم صافيا من الأدناس ، خالصا من شوائب الأوهام ، ممتلئا رحمة وحنانا بأبناء هذا النوع الضعيف . وهل وصلت أمة من الأمم الراقية كما يقولون الى الديموقراطية الحقة فسوّت بين الشرقى والغربى ، وقالت : لا فضل لأبيض على أسود إلا بالتقوى كما قال الاسلام ؟

ولعمر الله لو درسْت ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم وما يؤثر عن الفلاسفة والمصلحين لوجدت الفرق شاسعا والبون بعيدا ، فكل فيلسوف أو مصلح تحفظ عليه سقطات قضت بها عليه الأحوال المحيطة به ودرجة علمه فى العهد الذى كان عائشا فيه ، مما يجعل تعاليمه تستدعى الإصلاح والتهذيب الى حدود بعيدة . ولهذا السبب سقطت جميع الفلسفات القديمة والتعاليم الإصلاحية ، واستبدل الناس بها فلسفات جديدة وتعاليم من طراز حديث يلائم ما وصل اليه الناس من الثقافة العلمية ، ولكن التعاليم المحمدية لا تزال جديدة ملائمة لكل عصر بما فيها من المرونة ، وما تضمنته من الأسرار البديعة والإشارات الخفية ، والكليات التى يفنى الزمان ولا تفنى عجائبها ، بل يرى فيها مالم تنضج العقول للعمل به وا كتناه جميع أسراره ومزاياه .

ولهذا اعتقد عقلاء النوع الانسانى وعلماؤهم أن الخير كل الخير فى أن تؤخذ تعاليمه صلى الله عليه وسلم بغير تعديل ولا تنقيح ، ويرون أنها بالغة أقصى درجات الكمال الى حد أن كل إصلاح فيها يحط من قدرها ويطمس من لألائها . وها أنت ذا ترى الفرق شاسعا بين الأمم الاسلامية عند ما كانت عاملة بشريعتها وما كانت عليه

من التعاطف والتراحم والعزة والرفعة والوئام والاتحاد ، وبين ما نحن عليه اليوم من التفرق والانقسام والضعة والذلة والاكتفاء بالمظاهر الخلابة والظواهر الكاذبة والأقوال الفارغة دون الأعمال النافعة ، عند ما تركنا العمل بالشريعة واتبعنا القوانين الوضعية التي لا تعنى إلا بإصلاح الظواهر دون البواطن ، وبالأشكال دون الحقائق ، ولا يعنيها إلا حفظ أبهة الدولة وسيطرة الحكومة دون تربية الأفراد وإصلاح النفوس . وكم عيب على الفلاسفة فيما قرروا من علم ودونوا من إصلاح » .

وسنكتب مقالا خاصا فى الفرق بين النبي والفيلسوف ، إن شاء الله تعالى .

ومن عجيب أمره صلى الله عليه وسلم تلك الحكمة البالغة ، والعلم الواسع ، والنظر البعيد الذى أحاط بمصالح الدنيا والآخرة . وما عهدنا عظيما من العظماء إلا وقد نبغ فى ناحية من النواحى فشغلته عما عداها ، بخلافه صلى الله عليه وسلم مما دل على أنه خارق للمادة مؤيد من عند الله .

وقد قال المسيو (بلانشيه) العالم الفرنسى المشهور : « إن النبي محمدا يعد من أبرز وأشهر رجال التاريخ ، فقد قام بثلاثة أعمال عظيمة دفعة واحدة ، وهى أنه أحيا شعبا ، وأنشأ أمبراطورية ، وأسس دينا » .

هذا وقد أصبحنا فى دور الانحطاط الذى يقضى فيه على الأمة شر القضاء ، فيُحتقَر أبناؤها وأئمتها وعاداتها وآدابها ، ويحتقر بعضهم بعضا ، ولا تقدس إلا كلام الأجانب الذين فنيت فيهم فعلا ، واقتدت بهم عملا ، وإن تبرأت منهم قولا .

فلننقل عليك زيادة على ما تقدم كلام بعض العظماء من أساطين العلم والفلسفة بأوربا فى شأن نبيك الذى عرفوا عظمته وجهلتها أنت ، أيها الشرقى المسلم الذى لم يعرف تاريخ آبائه وأسلافه الذين كانوا أرفع الأمم على الإطلاق وأعزها على الإطلاق .

ولو شئنا لذكرنا لك شهادة كثير من أولئك العلماء مثل (الكونت هنرى دیكسترى) و (كاين تيلر) و (جوزف تومبسون) و (لوازون) و (مارقس دودس)

و (مودسلى) والفيلسوف (تولستوى) وغيرهم . ولكن نقتصر لك فى هذه العجالة على شهادة من سمح المقام بذكرهم . وإنى أرى من الدواء اللازم لهذا الجيل الحاضر والنشء الجديد أن هذه الشهادات يجب أن تقرر وتكرر حتى تملأ الرءوس وتستقر فى النفوس ، فإنه جيل مفتون بكل ما جاء عن الأوربيين ، فلا يعرف غيرهم ولا يقدس سواهم ، فنقول :

شهادة برنارد شو الانكليزى وهو من عظماء الانكليز :

« إننى أعتقد أن رجلا كمحمد لو تسلم زمام الحكم المطلق فى العالم بأجمعه اليوم لتم النجاح فى حكمه ، ولقاده الى الخير وحل مشاكله على وجه يحقق للعالم السلام والسعادة المنشودة » .

وقال مؤلف كتاب (دراسات فى تاريخ الدين) : « ينبغى أى نذكر أن الدين الاسلامى مخالف كل المخالفة لهذه الأبراج المتشامخة التى تسقط من ضربة واحدة لأن فيه قوة كامنة وصلابة ومتانة تجعله قادرا على المقاومة مقدرة تامة » .

وقال المسيو (لبون) فى شأن القرآن الكريم :

« حسب هذا الكتاب جلالة ومجدا أن الأربعة عشر قرنا التى مرت عليه لم تستطع أن تجفف — ولو بعض الشىء — من أسلوبه الذى لا يزال غضا كأن عهده بالوجود أمس » .

شهادة لامرتين الفرنسى الطائر الصيت الغنى عن التعريف :

قال : « أترون محمدا كان أخا خداع وتدليس وصاحب باطل ومين ؟ كلا ، بعد ماوعينا تاريخه ودرسنا حياته ، فإن الخداع والتدليس والباطل والمين كل أولئك من نفاق العقيدة ، وليس للنفاق قوة العقيدة ، وليس للكذب قوة الصدق . وإذا كان قوة الصعود والمرمى فى علم الطبيعة والحركات الآلية هى المقياس الصحيح لقوة المصدر الذى تنفذ منه الرمية وتظهر فى الأفق من القذيفة ، فإن العمل والفعل الذى يحدثه المحدث فى علم التاريخ

وسجل الخلود وكتاب الانسانية هو المقياس الصحيح لمقدار الوحي وقوة القلب والوجدان والفكرة السامية العالية التي تنفذ الى مكان بعيد وتبقى زمنا طويلا وتمشى فى الحياة أبدا رخية . وهى لاريب فكرة قوية صدرت عن وجدان قوى . ولكى تكون تلك الفكرة قوية ينبغى أن يكون ظاهرها وباطنها الإخلاص ، وعلمها الأكبر الحق والصدق ، وتروح معقولة يقبلها اللب ويعتمدها الذهن . ولاريب أن ذلك ينطبق على محمد ورسالته والوحى الذى تنزل عليه ، فإن حياته وقوة تأمله وتفكيره وجهاده ووثبته على خرافات أمته وجاهلية شعبه وخزعبلات قبيلته وشهامته وجرأته وبأسه فى لقاء مالقيه من عبدة الأوثان وثباته وبقاءه ثلاثة عشر عاما يدعو دعونه فى وسط أعدائه ، وبهرة خصومه فى قلب مكة ونواديها ومجامع أهلها ، وتقبله سخرية الساخرين وهزؤه بهزء الهازئين ، وحميته فى نشر رسالته ، وثباته وتوافره عليها ، وحروبه التى كان جيشه فيها أقل من عدوه ووثوقه بالنجاح وإيمانه بالظفر وإعلاء كلمته ، واطمئنانه ورباطة جأشه فى الهزائم ، وأناته وصبره حتى يحرز النصر ، وطاعيته وتطلعه الى إعلاء الكلمة ، وتأسيس العقيدة ، لا فتح الدول وإنشاء الأمبراطورية ، وإقامة القيصرية ، ونجواه التى لا تنقطع مع الله ، وقبض الله إياه الى جواره مع نجاح دينه بعد موته . كل ذلك أدلة على أنه لم يكن يضمر خداعا أو يعيش على باطل ومين ، بل كان وراءها عقيدة صادقة ويقين مضىء فى قلبه ، وهذا اليقين الذى ملأ روحه هو الذى وهبه القوة على أن يرد الى الحياة فكرة عظيمة ، وحجة قائمة ، ومبدأ مزدوجا ، وهو وحدانية الله وتجرد ذاته عن المادة :

(الأولى) تدل على من هو الله . (الثانية) تنفى ما ألصق الوثنيون به .

الأولى حطمت آلهة كاذبة ونكست معبودات باطلة ، والأخرى فتحت طريقا جديدا الى الفكر ، ومهدت سبيلا للنظر . فالفيلسوف والخطيب والرسول والمشرع والقائد ومسعر الحرب وفاتح أقطار الفكر ورواد الانسان الى العقل ، وناشر العقائد

المعقولة الموافقة للذهن واللب ، ومؤسس دين لا وثنية فيه ولا صور ولا رقيات ، ومنشئ عشرين دولة فى الأرض ، وفاتح دولة واحدة فى السماء من ناحية الروح والفؤاد . فذلكم هو محمد . فأى رجل لعمركم قيس بجميع هذه المقاييس التى وضعت لوزن العظمة الانسانية كان أعظم منه ؟ وأى إنسان صعد هذه المراقى كلها فكان عظيما فى جميعها غير هذا الرجل ؟ » انتهى كلام ذلك الرجل العظيم الذى لم يأكل الحقد قلبه ولا الجهل عقله . وحقا ليس يدرى العظيم غير العظيم .

فهكذا تكون معرفة العظمة الانسانية ، وهكذا يكون تحليل النفوس الكبيرة ، وهكذا تكون الموازين الصحيحة لوزن الرجال وعظائم الأعمال ، لا حفر الترع وردم الجسور وأمثالها من أعمال الهمم الأرضية ، التى لا تعرف إلا الماديات ، ولا تعيش إلا فى الظلمات .

وقد جاءتنى هذه الأبيات عفوا وما أنا بالشاعر ، فقلت أخاطب النبى صلى الله عليه وسلم :

إنى أجل مزايا ... بهن قد صرت فردا
وسيرة تتلالا ... تفوق مسكا وندا
إن سار غيرك هزلا ... نراك قد صرت جدا
فى حكمة واعتدال ... فما تجاوزت حدا
لكن سواك وإن كا ... ن أعظم الناس مجدا
فى جل ما يرتئيه ... لا بد أن يتعدى
من يدعى غير هذا ... فإننى أتحدى

هذا ولا يفوتنى أن أقول لحضرة السائل : إنك جاهل بجزيرة العرب وما هى عليه ، ولا سيما فى ذلك التاريخ ، فإن طبيعتها خصوصا قبل الاتصال بالممالك الأخرى كانت تأبى كل الاباء أن تحفر فيها الأنهار . فكان من العبث أن يحاول ذلك فيها وهى فى ذلك

العهد على ما علم المؤرخون والجغرافيون . ولذلك بقيت حتى الآن وقد مضى أربعة عشر قرنا وهى متأخرة فى المشروعات الأرضية التي يريدها السائل غاية التأخر . ولو شئنا لأطلنا .

وبعد : فقد أرسل صلى الله عليه وسلم بما هو سبب لسعادة الدارين ومصلحة النشأتين ، إلا أن الكافر فوت على نفسه الانتفاع بذلك ، وأعرض بفساد استعداده عن هذه السعادات الى تلك المهالك . ويكفى أن الناس قد وقفوا بسبب إرساله صلى الله عليه وسلم على علوم جمة وأسرار عالية وفضائل سامية ، مما أودع فى كتابه الذى فيه بيان ما كان وما يكون عبارة وإشارة ، ثم ما جاء فى سنته صلى الله عليه وسلم مما عجز عنه علماء النفس وأساتذة الاجتماع . وأى سعادة أعظم من التحلى بزينة العلم ؟

وعلى الجملة لولا النبوات لم يكن فى العالم علم نافع البتة ، ولا عمل صالح ولا صلاح فى معيشة ، ولا قوام لمملكة ، ولكان الناس بمنزلة البهائم والسباع العادية والكلاب الضارية التي يعدو بعضها على بعض . وكل خير فى العالم فمن آثار النبوة ، وكل شر وقع فى العالم أو سيقع فبسبب خفاء آثار النبوة ودروسها فيما بين الناس . والعالم جسد روحه النبوة ولا قيام للجسد بدون روحه . ولهذا إذا انكسفت شمس النبوة من العالم ولم يبق فى الأرض شيء من آثارها البتة ، انشقت سماؤه ، وانتثرت كواكبه ، وكورت شمسه وخسف قمره ، ونسفت جباله ، وزلزلت أرضه ، وأهلك من عليها . فلا قيام للعالم إلا بآثار النبوة .

ولو نظرت الى ما دوّنه علماء شريعته من العلوم التي تنوء بها السفن فضلا عن الإبل ، وما أنجبته تعاليمه من الفلاسفة التي يقدسها الأوربيون (وإنهم لأعرف هناك بعلمائنا منا هنا) لو عرفت ذلك لم تقل ما قلت ، ولم تكتب ما كتبت . ولنتل هنا قوله تعالى « فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله » .

هذا ولنا مقال يتصل ببعض هـذا الموضوع فى بيان مذهب المعتزلة والأشاعرة والجبرية، فراجعه .

أسأل الله أن يلهمنا الرشد ، ويقينا شر الفتنة ، ويرزقنا العلم الصحيح ، والنظر الواسع ، بمنه وكرمه ؟

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء

* * *

وهذا ما كتبه مدير هذه المجلة :

تسألون عن حكمة إيعاد الله المشرك بعدم المغفرة ، وبالخلود فى النار الخ ، فيلوح لنا أنكم تستعظمون أن تستوعب مكافحة الشرك الجزء الأكبر من جهود المرسلين ، ويخيل الينا أنكم ترون أن الشرك وإن كان فى ذاته ضلالا إلا أنه لا يعدو كونه خطأ عقليا بسيطا لا يستدعى أن يخلد صاحبه فى النار ، وأن يطرد أبديا من رحمة الله . بل ربما تسرب اليكم قول خصوم الأديان : بأن الأمم وهى فى دور طفولتها لا تستطيع أن تدرك الوحدة الإلهية ، وأن لا بد لها من دور طويل الأمد تمضيه فى الوثنية ، فكيف تعاقب بالخلود فى النار أمم لا تحصى لخضوعها لحالة لا تستطيع الافتكاك منها ؟

ويتبادر الى ذهننا أيضا أنكم تستكبرون كذلك أن تحارَب أمة لا لشىء غير أنها مشركة ، أفلم يكن أجدى عليها من ذلك أن تصرف هـذه الجهود الجبارة والأموال التى تنفق فى جهادها ، فى سبيل تعمير بلادها ، وإحياء مواتها ، ودفعها فى طريق الحياة دفعا رحيا . أما الشرك السائد فيها فيترك حتى يستنفد دوره تحت تأثير ثقافة نيرة وتربية حكيمة ؟

يلوح لنا أن هـذا روح سؤالكم ، وهو عينه قول خصوم الأديان المعاصرين ، وهو بهذا الاعتبار يكون جديرا بالعناية ، ولا مناص من دحضه بأسلحة العلوم الحديثة التى يخضع لها هؤلاء الخصوم، فنقول :

أما أن الأمم فى دور طفولتها لا تستطيع بحكم قصورها العقلى أن تدرك وحدة الذات الإلهيـة ، وأنه لا محيص من أن تمضى أول أدوارها فى الوثنيـة ، فهذا القول سقط عن المرتبة العلمية ، بعد أن أثبت الأستاذ الألمانى الكبير (ماكس مولل) عمدة الباحثين فى الأديان البشرية القديمة ومناشئها وتطوراتها ، أن الناس كانوا فى أول عهودهم موحدين للذات الإلهية لا معددين للآلهة ، عاشوا على ذلك التوحيد دهرا طويلا ، ثم طرأت عليهم الوثنية بفعل زعمائهم الدينيين ، فقد سولوا لهم تعديد الآلهة للتأثير فى عقولهم ليسهل قيادهم فى أيديهم ، وليصرفوهم فيما يشتهون ، ويرتفعوا فى نظرهم الى مرتبة خزنة الأسرار الإلهية ، ومهبط العلوم العلوية . (ارجع الى كتاب الدين وترقيه للأستاذ ماكس مولر ، وكتاب اللادينية المستقبلة للفيلسوف الفرنسى جيو) .

هذا رأى العلم اليوم ، والأستاذ ماكس مولر لا هو من رجال الدين ، ولا من العلماء الاعتقاديين ، وإنما هـو بحاثة فى تاريخ الأديان القديمة ومناشئها ، وقد وقف على هذا الاكتشاف الأثرى الخطير من طريق تتبع سلسلة الأديان بالاعتماد على الآثار والنقوش والكتابات ، لا من طريق التوهم والظن . فيكون من أروع المعجزات العلمية للقرآن أن يوافق هـذا الاكتشاف العلمى الخطير ما جاء فيه عن أصل الدين ، قال تعالى : « وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا » وقال تعالى : « كان الناس أمة واحدة (أى متفقين على الفطـرة ثم اختلفوا) ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعـد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم ، فهـدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .

فإذا تركنا هـذا التحقيق العلمى جانبا ورجعنا الى معالجة هـذه المسألة من ناحية أخرى ، رأينا أن مجرد النظر للانسان فى سذاجته الأولى يشعر بأنه كان لا يعتد بالسلطان (أى السلطة) إلا فى فرد لا فى جماعة ، فكان لا يقبل الشركاء فى سلطانه على أسرته ،

ولا الشركاء فى سلطان رئيس قبيلته ، فمبدأ الفردية كان متغلبا على جميع مشاعره ، فهل يعقل أن يعصى هذا الميل الطبيعى فيه بالنسبة لخالق الكون فيرضى له ما لا يرضاه لنفسه ولا لرئيسه ؟ هذا ولو عنى الباحث بدراسة علم الأساطير الدينية (الميتولوجيا) فإنه يرى فى وثنية الشعوب من آثار الصنعة ، وخوادع الخيال ، ما يقصر عنه الانسان فى أول عهده ، ويدل على أن كل ذلك حدث بعد عصور كثيرة من وجود الخليقة .

إذا تقرر هذا ثبت لدينا أن الشرك عصيان متعمَّد للفطرة التى فطر الله الناس عليها ، واستسلام معيب من الجماعات لأفراد اغتصبوا حق القوامة الدينية عليها ، فأخذوا يعلون عليها من التقاليد والعقائد ما يزيدها إيغالا فى الوحشية ، ومضيا فى ارتباك العقلية ، ليلهوها بالخيالات والأباطيل ، وينفردوا هم بالسيطرة على نفوسها وعواطفها ، فيسوقوها للحصول على مجد حربى ، أو مغنم مادى ، حرصا على تحقيق مطامعهم ، وتوفيةً لحاجات شهواتهم .

فأصبح الشرك على هذا النحو (أداة) فى أيدى المتلاعبين بالأمم يأتونها باسمه بكل ما يناقض بداهة العقل ، وكل ما يخالف حقائق الأشياء ، ويشذ عن الموازين المنطقية .

وقد عاش الانسان من حياته الأرضية دهورا دهارير منقادا للقُوَّام على عقائده انقيادا أعمى على هذا النحو . ولما كانت رحمة الخالق تأبى أن تبقيه فى هذه الحمأة كان يوالى رسله اليه تترى ، محاولين زحزحته عن موقفه ، ولا سبيل لهم الى الوصول الى غايتهم إلا بمكافحة عقيدته الرئيسية وهى الشرك ، وهو كما قلنا كان الأداة الشيطانية فى أيدى مغتصبي السلطان على عقله يصدونه به عن كل إصلاح اجتماعى وترق أدبى . ومن أراد دليلا محسوسا على خطر هذه الأداة ، وعلى أن المرسلين وهم أرشد مصلحى الأمم ، كانت دعوتهم تصطدم بهذه الأداة ولا تجد لها مساغا الى الأذهان مع وجودها ، وأن أول ما كان يجب عليهم حيالها أن يبذلوا أبلغ جهودهم فى تحطيمها ، قلنا من أراد دليلا محسوسا على ذلك كله فليتأمل فى العقبات التى قامت

فى وجه الدعوة المحمدية وهى آخر الدعوات الإلهية ، ليرى أن الشرك كان هو وحده الحائل المنيع الذى قام فى وجهها ، ولولا أن الله أراد إنفاذ إرادته فهدى لدينه قوما آخرين ، لصد الشرك العرب أجمعين عن هداية الاسلام ، ولبقوا الى اليوم فيما كانوا فيه . ولأجل أن يتحقق الباحث من مبلغ تأثير الشرك فى صد أهله عن الأخذ بالتعاليم الحقة ، والأصول الصحيحة نتلو عليه قوله تعالى : «وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلها واحدا ، إن هذا لشىء عجاب . وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إنّ هذا لشىء يراد . ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إنْ هذا إلا اختلاق » . وقوله تعالى : « ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ؟ » .

إذا تأمل الباحث فى هذا رأى أن أهل الجاهلية لم يصدهم عن الأخذ بالمبادىء المحيية التى أتى بها النبى صلى الله عليه وسلم غير هذا الشرك . أفلا يكون من الحكمة أن يبدأ بمكافحة هذا الحائل القوى حتى يزول من طريق الدعوة ، لينفتح المجال للخير العام الذى ابتنت عليه هذه الدعوة ، لاسيما والتوحيد هو الفطرة التى فطرت العقلية الانسانية عليها كما ثبت ذلك علميا بفضل البحوث القيمة التى قام بها الأستاذ ماكس موللر ومن سار على طريقته من المنقبين فى تاريخ الغريزة الدينية عند الجماعات الأولى للنوع الانسانى ؟ وإذا صح هذا وثبت أن الشرك مثار لجميع الانحرافات الخلقية ، ومصدر لكل العادات الوحشية ، فكيف لا يكرر الله ذكره فى كتابه ويمقته أشد المقت ، ويوعد عليه الآخذين به بأشد العذاب وأدومه ؟

كان الناظرون فى تطور المعتقدات البشرية يظنون قبل هذا العهد كما قدمنا ذلك أن الانسان بدأ معددا للآلهة بحجة أنه لم يكن يدرك التوحيد ولا يتذوقه ، فكان الناس يتخيلون له عذرا فى وثنيته ، ولكن ماذا يقولون وقد ثبت بالأدلة المحسوسة أنه بدأ حياته الدينية موحدا ، ثم استسلم لزعمائه فزينوا له التعديد فانقاد لهم . والذى يؤيد هذا

التقرير العلمى سرعة سريان الاسلام فى الأمم فى أول ظهوره، حتى دخلت فيه أمم برمتها طواعية بدون دعوة، وحتى بلغ أتباعه فى مدى قرن واحد نحو مائة مليون نسمة .
ومما يؤيد ذلك أيضا سرعة انتشاره فى القبائل المجردة من أية ثقافة علمية، فتراها تترك دعاة الملل الأخرى وتستغنى عن المغريات الكثيرة التى يبذلونها لها، وتُقبل على دعاة الاسلام على فقرهم وتَقبل الاسلام دينا لها . حتى أن الكاردينال (لافيجرى) الفرنسى ذكر ذلك فى تقريره الذى قدمه للبابا، وقال إن ستين مليونا من الزنوج دخلوا فى الاسلام فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر بدعوة بعض الشيوخ الفقراء والتجار .
أليست هذه السهولة فى التفلت من الشرك والإقبال على التوحيد تدل على أن التوحيد هو الفطرة الأصلية، فتقبله النفوس حتى الساذجة منها إذا قدم إليها ولم تكن ذات مصلحة ذاتية فى تأييده كما كانت عليه الحال عند أهل مكة .

إذا علمت كل هذا أفلا تقضى الحكمة أن يبدأ بالشرك وهو الداء الرئيسى فيجتث من النفوس لتخلو لما يبث فيها من التعاليم الالهية الرشيدة : من إقامة معالم العدل، وتأسيس دولة الحق، وإسقاط أولئك المتحكمين فى نفسيات الخلق ؟

رأيتكم تقولون : إذا كان المشرك لا ينفك عن إشراكه فما فائدة النصح له ؟
كيف تقولون ذلك وقد رأيتم نجاح الدعوة المحمدية فى أمم برمتها، ورأيتم نجاحها فى هذا العصر أيضا فى الأمم المشركة التى لا تمت الى المسلمين بصلة ؟

وإذا كان هذا الشرك مخالفا للفطرة التى فطر الله الناس عليها، وهو فى الوقت نفسه علة رئيسية لجميع ضروب الرذائل، والآفة الحائلة دون جميع الفضائل، أفلا يكون من الحكمة أن يشدد فى العقوبة المترتبة عليه، لتفطن النفوس الى خطورته، وتتنبه العقول الى شناعته ؟

ولست أستطيع أن أدل على أن الشرك مصدر لجميع الوحشيات التى يرتكبها

الانسان أبلغ من لفت النظر الى ما يحفظه التاريخ القريب عنها ، وما لا يزال ماثلا أمام الأعين منها .

فما حفظه التاريخ القريب من ذلك أن استكشاف مكسيكا بأمريكا صادف مهرجانا كان يقيمه أهلها للاحتفال بافتتاح معبد لهم . فما كان أشد دهش الرواد عند ما رأوا أن أولئك المحتفلين قد أعدوا من أسرى أعدائهم سبعين ألف نسمة ليريقوا دماءهم على مذبح ذلك المعبد . وقد أمضوا ما اعتزموه فسالت دماؤهم أنهارا بين هتاف الشعب وتصفيقه ، وزمزمة رجال الدين وصلواتهم ؛ كل هذا كان تزلفا للآلهة وتلمسا لبركاتها :

ومن عادة كثير من المشركين الى هذا اليوم ذبح زوجات من يتوفى منهم وبعض خدمه ، وقد عد الأستاذ (هربرت سبنسر) فى كتابه أصول الاجتماع عددا من القبائل لا تزال تجرى على هذه العادة .

وأشنع من هذه عادة إحراق الزوجة التى يموت عنها زوجها ، وكانت هذه العادة شائعة فى الهند أيضا ، وما توصل الانجليز الى إبطالها إلا بعد بذل جهود كثيرة .

ومن ضلالات المشركين اعتبارهم طائفة منهم أنجاسا منبوذين لا يمسونهم ولا يعاملونهم ، ومن يفعل شيئا من ذلك يعد آثما ويجب عليه أن يحرق ثيابه وأن يغتسل . وبذلك تجد عشرات الملايين من البشر فى حالة يرثى لها يفترشون الأرض ، ويتغذون من القمامات ، وهم أبغض الى إخوانهم فى الدين والجنس من الكلاب الكلبة ، وأذل عندهم من فقع ببلقع .

وقد رأى الناس كيف خاب المصلحون الكبار فى مساواة المنبوذين بإخوانهم فى الدين لدى بعض الأمم ، ولم يكن الحائل دون هذا الإصلاح الواجب سوى ما عليه تلك الأمة من الشرك . وقد خاب مصلحوهم الى حد أن رماهم الغلاة بالأحجار وتقصدوهم بالقتل . فاضطر هؤلاء المصلحون الى لزوم الصمت ، وبقيت الحال على ما كانت عليه .

هذه العادات الوحشية لم توجدها قلة الثقافة العقلية ، ولكن أوجدها الشرك ، بدليل وجودها عند المثقفين من هذه الأمم ، وبدليل عدم وجودها لدى الجماعات الاسلامية التى تقيم فى بلاد هؤلاء المشركين وهى منهم جنسا ولغة وليست أرفع من عامتهم علما ولا فهما .

تسائلنا قائلا : ما الفرق بين المشرك والمنافق ؟ وهذا سؤال لا يمت الى موضوعك بسبب . فأما الشرك بالله فقد عرفته ، وأما النفاق فهو أن يبطن الانسان عقيدة أو رأيا ويتظاهر بخلافهما مجاراة لغيره ، أو مداراة له مداراة مشوبة بسوء النية .

أما التوفيق بين قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » وقوله « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ، فليس فيه كبير كلفة . فإن الله يقول إنه أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين ، أى بأن يحط عنهم الآصار التى حمّلوها أنفسهم ، وبأن يهديهم الى منجاتهم بأحسن الأساليب وأكملها ، وبأن ييسر لهم الوصول الى الكمالات العليا من أقرب الطرق وأقومها ، وبأخف التكاليف وأنفعها . وهذا لا يتنافى وقوله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ، فإنها تذكر عدل الله فى أنه لا يعذب أمة على ما اقترفت حتى يبعث اليها رسولا ينبهها الى الطريق السوى ، والخلق الأمثل .

ولعلكم أردتم بقولكم إن محمدا صلى الله عليه وسلم بعث وليس بأرض الجزيرة نهر وانتقل الى عالم الآخرة ولم يحفر نهرا ، لعلكم أردتم بقولكم هذا أن عنايته بمكافحة الشرك استوعبت جهوده كلها فلم يجد وقتا لعمل ينفع الناس فى حالتهم المعيشية .

فنرد على هذا بقولنا إن النبى صلى الله عليه وسلم أنفق السنين القليلة التى لبثها بين ظهرانى قومه فى إحياء قلوبهم ، وبعث هممهم ، واستنهاض عزائمهم ، ليعملوا لأرواحهم وأجسادهم ، وقد بلغ الغاية القصوى من مراده ، فهب أصحابه من بعده فملأوا الأرض فضلا وعدلا ، وعلما وعمرانا ، ومدنية .

أما النهر الذى تذكرونه فمن المحال إحداثه فى البقعة التى بعث فيها النبى صلى الله عليه وسلم . فالأنهار لا يتحصل عليها بالحفر ، ولو كان الحفر هو الوسيلة لإيجادها لما وجدت شبرا مواتا فى الأرض .

فالأنهار إنما تفيض فيضانا من البحيرات ، والبحيرات تستمد مياهها من سيول زاعبة تنزل اليها من قنن جبال شامخة قائمة بجوارها . وهذه السيول تحدث من ذوبان الثلوج التى تتكون فوقها من الأمطار الغزيرة التى تسقط عليها . فإذا حميت عليها الشمس ذابت ونزلت على حالة سيول فتفيض الأنهار المشتقة من تلك البحيرات وتجرى لتغذية الأراضى التى تمر بها . وليس ببلاد العرب الشمالية جبال تصلح لتكوين البحيرات ، ولا فى قدرة أحد إيجادها بالصناعة .

هذا جواب ما سألتنا عنه ، والله يهدينا الى سواء الصراط ؟

محمد فريد وجدى

من وصايا عبد الله بن الحسن لابنه

أوصى عبد الله بن الحسن ولده فقال :

أى بنى : إنى مؤد حق الله فى تاديبك ، فاد الى حق الله فى الاستماع منى ، أى بنى : كف عن الأذى ، وارفض البذا ، واستعن على الكلام بطول الفكر فى المواطن التى تدعوك فيها نفسك الى الكلام ، فان للقول ساعات يضر فيها الخطأ ، ولا ينفع فيها الصواب . واحذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحا ، كما تحذر مشورة العاقل إذا كان غاشا ، لأنه يرديك بمشورته . واعلم يا بنى أن رأيك إذا احتجت اليه وجدته نائما ووجدت هواك يقظان ، فاياك أن تستبد برأيك فانه حينئذ هواك . ولا تفعل فعلا إلا وأنت على يقين أن عاقبته لا ترديك ، وأن نتيجته لا تجنى عليك . وإياك ومعاداة الرجال ، فانك لن تعدم مكر حليم ، أو معاداة لئيم .

حرية الرأى فى الاسلام

شرع الله تعالى الاسلام دينا للانسانية عاما خالدا ، وجعله خاتم حلقات سلسلة الوحى المتلاحقة فى سجل التاريخ الانسانى من لدن آدم الى محمد صلوات الله عليه ، فكان هو الحلقة المكملة لتنزيل الرحمة التشريعية الى الانسان فى هذه الأرض .

وقد شاءت حكمة الله أن تكون كل حلقة من حلقات التشريع الإلهى على قدر استعداد الجماعة التى تأتى لها فى تكوينها الطبعى والخلقى والاجتماعى ، وكأنما نظم الله الانسانية بالوحى عقدا اجتماعيا متماثل الحلقات فى كل جيل وقبيل ، وإن اختلفت فى الوضع والتصوير ، لتتفق مع وضع الأمة فى مكانها من الحياة « شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصّينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » حتى إذا اكتملت الانسانية فى حقيقتها المطلقة وتهيأت للوحدة الفكرية والاتجاه العقلى ، جاءها الاسلام مهيمنا على زمامها ، ليرشدها الى ما أعدت له من الكمال الذى يسمو بها عن حضيض الأرض الى ملكوت السماء .

ومن ثم كانت الشرائع السابقة إنما تخاطب عقلا خاصا محدودا خطابا خاصا محدودا ، لا يتعدى هذا الجيل من الناس الى غيره من الأجيال ، ولا هذا القبيل الى سواه من المجتمع ، ولا ذلك التشريع الى تشريع أوسع وأعمق ، لأن العقل الانسانى العام لم يكن صالحا حينئذ لهذا الخطاب العام . لكن الاسلام عمد الى هذا العقل الانسانى العام بعد أن تهيأ فى تكوينه الى الاضطلاع بعبء الحياة ، وخاطبه خطاب المرشد الى الطريق الأقوم ، وجعله قيّما على شئون الحياة كلها ، وأبى الاسلام أن يقبل سلطانا غير سلطان العقل ، وشدد النكير على الذين استسلموا لبلادة الحسّ ، وأناموا عقولهم عن النظر والتفكير ، فقال فى دستوره ناعيا عليهم ازدراء عقولهم وتشبثهم بالغباء فى اتباع آبائهم

على ضلالاتهم « وإذا قيل لهم اتّبِعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » . وقال فى هذا الباب أيضا على مهيع آخر : « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين . ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيد يبطشون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها ؟ قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظِرون » فهذا التسفيه البالغ حد التحقير للمخاطبين أشد إيلاما لنفوسهم ، وألذع فى أفئدتهم ، وقد مهد له القرآن بقضية من بَدائه الفِطَر لا تختلف فيها العقول سيقت للتنبيه على موطن الخطأ العقلى فى مسلكهم ، حيث تعبدوا أنفسهم لما لا يستحق الحياة ، بله العبادة والتقديس . هم يعلمون أن الأصنام ليست لها أرجل تمشى بها ، ولا أيد تبطش بها ، ولا أعين تبصر بها ، ولا آذان تسمع بها ، ولكن فى نفى هذا المعلوم بداهة على طريق الاستفهام إزراء على عقولهم بأبدع أسلوب « أفمن يمشى مُكِباً على وجهه أهْدى أم من يمشى سويا على صراط مستقيم » ؟ :

وقد أراد القرآن الكريم بهذا المبدأ السامى إيقاظ العقل وتنبيهه الى أداء مهمته وإبراء النفس الانسانية من مرض التقليد الأصم ، وتربية القوى الفكرية على الاعتداد بالنفس واستقلال الرأى وحرية التفكير ، ولذلك أثنى على الذين أيقظوا عقولهم وتفلتوا من قيود التقليد الى ساحات النظر فى آيات الله فى الأنفس والآفاق ، وساروا بسير العلم غير ملتفتين إلا الى الحق فلم يقولوا : « إنا وجدنا آباءنا على أمّة وإنا على آثارهم مقتدون » ولا اعتذروا اعتذار العاجز الذليل « ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل » فقال تعالى : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » .

هذا النوع من التشريع الفكرى من أهم ما عنى به القرآن الحكيم ، فردده كثيرا فى آيات بينات على أنحاء شتى ، تعظيما لقدر الانسانية ، وإجلالا لمقام العقل العام ، فى حدود

تكبح من جماحه إذا تطلع الى تعدى طوره ، ومجاوزة حده . وهو يطلعنا على أخص خصائص الاسلام وأعظم مميزاته على الشرائع الأخرى إطلاقا ، تلك الخصيصة هى أن الاسلام أقام من العقل الانسانى حارسا على الانسانية ، وملّك الانسانية الحياة لتكون حية نامية ، والنمو رقى فى مدارج الكمال . وهو بهذه الروح الهادئة القوية ضمن لنفسه البقاء والهيمنة على ما سواه « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، ولن يشاد الدينَ أحد إلا غلبه » .

فهم المسلمون الأولون الاسلام على هذا الأساس ، فعظموا حرية الرأى تعظيما جعل منهم أمة ناهضة مدت سلطانها على أقطار الأرض فى زمن لا يمكن أن ينهض بهذا السلطان القاهر لو كانت الأمة القائمة على أمره حبيسة العقل مقيدة التفكير . وليس مبدأ الشورى الذى جاء به الاسلام وجعله مناط الثناء على المؤمنين فقال : « وأمْرُهم شُورى بينهم » وأمر الله به نبيه صلى الله عليه وسلم ليجعله دستورا بينه وبين أمته فقال : « وشاورهم فى الأمر » إلا قاعدة من قواعد حرية الرأى وتقديسها ، فاستمع الرسول أمر ربه ، وجرى على هذا السنن فيما لم ينزل عليه وحى فيه . روى البخارى فى صحيحه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام حين جاء وفد هوازن مسلمين فسألوه أن يرد اليهم أموالهم وسبيهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : معى من ترون ، وأحب الحديث الىّ أصدقه ، فاختاروا إحدى الطائفتين . إما السبى ، وإما المال ، وقد كنت استأنيت بكم — وكان أنظرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف — فلما تبين لهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير راد اليهم إلا إحدى الطائفتين ، قالوا : فإنا نختار سبينا ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسلمين فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد ، فان إخوانكم قد جاءونا تائبين وإنى قد رأيت أن أرد اليهم سبيهم ، فمن أحب منكم أن يُطيّب ذلك فليفعل ، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفىء الله علينا فليفعل ، فقال الناس :

قد طيّبنا ذلك يارسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا لا ندرى من أذن منكم ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع الينا عرفاؤكم أمركم، فرجع الناس ، فكلمهم عرفاؤهم ، ثم رجعوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه أنهم قد طيّبوا وأذنوا » .

هـذا الحديث الشريف يصور أقصى ماتبلغ اليه الأمم الناهضة من حرية الرأى ونظام النيابة الفاضلة ومحو الاستبداد . وفيه من الفوائد العظيمة التى تدنو منا فى عصرنا هذا ، عصر الحرية الفكرية واستقلال الرأى ، ما يجل عن الوصف . ولنتحدث منه فيما يمس موضوع (حرية الرأى) الذى عقدنا هذا المقال لأجله :

أول ما يبْده القارئ من هـذا الحديث قول النبى صلوات الله عليه لهؤلاء الذين دخلوا فى الاسلام جددا : « معى من ترون ، وأحب الحديث الىّ أصدقه » ليشعرهم بقانون الاسلام العام ، وهو احترام الحقوق وتقديس حرية الرأى ، والتجافى عن روح الاستبداد ، والحكم الفردى ، فكأنه يقول : إن الأمر صار الى الأمة ، ولا بد من أخذ رأيها ، مع أنه لو فعل شيئا ما طرفت عين بمخالفته « فلاَ وربِّك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شَجَر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حَرَجاً مما قضيت ويسلِّموا تسليما » ، ولـكنه مشرع لدين عام خالد ، وهـؤلاء تلاميذ مدرسته العظمى ، مدرسة الحياة ، والقائمون بأمر هذا الدين من بعده ، فهم فى حاجة الى دروس فى التربية الاستقلالية ، والاعتداد بالنفس ، وحرية الرأى ، فردّ اليهم الأمر ليعلم وافدو الاسلام روح التشريع فى الاسلام ، وليعلم حماة الاسلام مكانهم من الدين ، ومكان الدين منهم .

ثانيا — لم يشأ صلوات الله عليه أن يجبر هوازن بعد أن استأنى بها وقطع عذرها على قبـول طائفة بعينها ، بل خـيّرهم بين إحدى الطائفتين : إما المال ، وإما السبى ، وفى ذلك من احترام الرأى مالا يحتاج الى بيان .

ثالثا — عَرَض الأمر على أصحابه ، وذكر لهم توبة إخوانهم ، وقال لهم : إنى قد رأيت أن أرد عليهم سبيهم ، ثم أطلق لهم حرية الرأى ، وأبان أنه لا يحكم إلا بما تطيب به

نفوسهم ، فقالوا قد طيبنا ذلك ، أفتراه — وهو الرسول الأمين — قام الى سبي هوازن فرده اليهم اتكالا على إجابة عامة من حشد المسلمين ، كيف ؟ ولعل فى غمار المسلمين من لم يؤبه له ، ولا يعرف رأيه فى هـذا الجمع العظيم ، والمسلمون سواء أمام التشريع العام ، لكل مسلم رأيه ، ولكل رأى اعتباره ، لا ، لم يتفرد النبي برأيه ، ولكنه عمد الى أدق نظم حرية الرأى ، وأحراها بالعدالة تجرى عليها : أمرهم أن يرجعوا الى أنفسهم ، ويتعرفوا منها الرضا ، أو الإباء ، وينضجوا رأيهم ، ويتفاوضوا مع نوابهم ، ثم يرفعوا اليه ما استقر عليه رأيهم .

نظام بلغ أسمى آيات (الديمقراطية) كما يقولون فى أمة حديثة ناشئة ، أليس هو أحدث ما تطمح اليه الأمم الناهضة لتعيش فى ظله ؟ فليتبصر الذين لا يعرفون من الاسلام إلا قشورا منثورة هنا وهناك ليست من الاسلام فى الصميم .

اشترع النبي صلى الله عليه وسلم هذه الشرعة النقية الطاهرة فى حرية الرأى ، فاستن بسنته خلفاؤه الراشدون من بعده ، فهذا هو الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضى الله عنه قد ملّكه المسلمون رقابهم وأموالهم ، وبايعوه بالخلافة بيعة رضا واطمئنان : خطب الناس أول ماخطبهم بعد مقام الخلافة فقال : « أيها الناس إنى وُليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقوّمونى » . فكيف تكون إذن حرية الرأى ؟!! خليفة يملك من أمر الناس مالا يملكونه فى بيوتهم ، ثم يرد اليهم أمر نفسه ويجعلهم ميزانا لأعماله ، ويطلب منهم العون إن أحسن ، والتقويم إن أساء . بهذا الروح ظفر أبو بكر رضى الله عنه بالعرب بعد أن ارتدت أقاصيها .

ولقد سَرت هذه التعاليم فى المسلمين ، فكان من أثرها أن يقوم رجل من عرض المسلمين يقول لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعد قوله : من رأى منكم فىّ اعوجاجا فليقوّمه : « والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقوّمناه بسيوفنا » فيقول عمر : الحمد لله الذى

جعل فى أمة محمد من يقوم عوج عمر : إنما حمد الله عمر لأنه رأى فى الأمة روح الاعتداد بالنفس ساريا فاطمأن على أنه يتأمّر أمة لا تلين لها فى الحق قناة .

بل إن عمر رضى الله عنه بث فى الأمة حرية الرأى بين كبيرها وصغيرها . روى ابن الجوزى أن عمر بن الخطاب قال : « لا تزيدوا فى مهور النساء على أربعين أوقية ولو كانت بنت ذى القَصّة ، فمن زاد ألقيت الزيادة فى بيت المال » فقالت امرأة من صف النساء طويلة فى أنفها فطس : ما ذاك لك ، قال : ولم ؟ قالت : لأن الله يقول : « وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا » فقال عمر : « امرأة أصابت ، ورجل أخطأ » .

وإذا تأملنا فى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صعد الى الرفيق الأعلى ولم يخلّف على المسلمين رجلا بعينه ، وهذا كان ميسورا وحاسما ، علمنا أن ذلك أثر من آثار حرية الرأى فى الاسلام . وأبو بكر رضى الله عنه لم يخلف عمر بن الخطاب إلا بعد أن فوض اليه المسلمون ذلك . روى ابن الجوزى «أنه لما ثقل أبو بكر واستبان له من نفسه جمع الناس اليه فقال : إنه قد نزل بى ما ترون ، ولا أظننى إلا ميتا لما بى ، وقد أطلق الله إيمانكم من بيعتى ، وحل عنكم عقدتى ، ورد عليكم أمركم ، فأمّروا عليكم من أحببتم ، فإنكم إن أمرتم فى حياةٍ منى كان أجدر أن لا تختلفوا بعدى » فقاموا فى ذلك وخلوا عليه ، فلم تستقم لهم ، فرجعوا اليه ، فقالوا : رأينا يا خليفة رسول الله رأيك ، قال : فلعلكم تختلفون ، قالوا : لا ، قال : فعليكم عهد الله على الرضا ، قالوا : نعم ، قال : فأمهلونى حتى أنظر لله ولدينه ولعباده .

فإذا كانت حرية الرأى فى الاسلام تتجلى فى أخطر مسألة يدور عليها كيان الأمة ، ويترك لكل مسلم أن يقول فيها رأيه فى أحرج المواقف ، كانت أحرى أن تتمشى مع الأمة فى مراحلها التشريعية والاجتماعية . فأما التشريع فحسب القارىء الاطلاع على تاريخ فجر النهضة الاسلامية ليعلم كم كان من المجتهدين الذين لا يصدرون فى رأى إلا عن

كتاب الله أو سنة الرسول الصحيحة ، وحتى أن الأصوليين يختلفون فى أصحاب رسول الله : هل جميعهم مجتهدون ؟ وكتب الفقه والأصول مليئة بالفروع التى وقع فيها الخلاف بين الأئمة ، وما عاب أحد منهم على أحد اجتهاده ، ولا حجر عليه رأيه . فهذا مالك بن أنس إمام المدينة : قال له أبو جعفر المنصور : اجعل هذا العلم علما واحدا . فقال له مالك : « إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرقوا فى البلاد فأفتى كل فى مصره بما رأى ، فلأهل المدينة قول ، ولأهل العراق قول » . وفى رواية أنه قال له : « إن أهل العراق لا يرضون علمنا » . فقال أبو جعفر : يضرب عليه عامتهم بالسيف ، ونقطع عليه ظهورهم بالسياط ، فأبى مالك . فانظر الى إجلال مالك بن أنس — وهو من أجل أئمة المسلمين المقتدى بهم فى مشارق الأرض ومغاربها — لحرية الرأى وتجافيه عن خذلانها . خليفة مسلط يعرض عليه نشر علمه فى الأرض ولا يكون بين الناس غير رأيه فيأبى ، لأن لكل مجتهدى مصر من أمصار المسلمين رأيا أخذوه عن منبع الشريعة .

حرية الرأى أساس فهم عمومية الدين ، وهيمنته على سائر الأديان ، وصلاحية الشريعة لكل زمان ومكان ، وأنه لا حاجة معها الى قانون آخر . قال العلامة ابن القيم : « ومن له ذوق فى الشريعة واطلاع على كمالاتها ، وأنها لغاية مصالح العباد فى المعاش والمعاد ، ومجيئها بغاية العدل الذى يفصل بين الخلائق ، وأنه لا عدل فوق عدلها ، ولا مصلحة فوق ما تضمنته من المصالح ، وعرف أن السياسة العادلة جزء من أجزائها وفرع من فروعها ، وأن من له معرفة بمقاصدها ووضعها مواضعها ، وحسن فهمه فيها ، لم يحتج معها الى سياسة غيرها البتة » .

ومن البداهة بالمكان الأول أننا لا نعنى بحرية الرأى ما يفهم من كلمة (الفوضى) حتى يباح لكل متعلم فضلا عن شبه المتعلم أن يقول فى الشريعة برأيه ، وإنما نعنى أن العالم الثقة إذا فهم فى الشريعة فهما وساق بين يديه دليله ، فلا سبيل عليه ، ولا تحجير على فضل الله ؟

صادق ابراهيم عرجون

الاسلام والطب الحديث

٢

تفسير بعض الآيات وكلام عن الحياة

سورة البقرة : الآية ٢١ « وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » :

الماء ضرورى لاستمرار الحياة وللنمو ، فالانسان لا يمكنه أن يعيش بدون شرب الماء بضعة أيام مع أنه يعيش على الماء فقط مدة شهر أو أكثر . والنباتات والجراثيم وكل شيء حى يهلك من الجفاف ويحيا بالماء .

الآية ٦٠ « وإذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرجْ لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثّائها وفُومها وعَدسها وبصلها ، قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير . . . الآية » .

هذه الآية الكريمة معناها ـ والله أعلم ـ أن اللحوم والأسماك والألبان الخ أفضل فى التغذية من البقول والقمح والذرة . ومعنى الأفضلية ليس مقدار المواد الزلالية الضرورية للجسم فى كل نوع ، لأن هذا يجب ألا يكون سببا مهما للأفضلية . فمثلا المواد الزلالية فى اللحوم من ١٥ الى ٢٠ فى المائة ، وفى اللبن ٤ فى المائة ، وليس هذا معنى الأفضلية ، لأن معناها أن اللبن غذاء مخفف وبتركيزه يصير مثل اللحوم ، وكذلك اللحوم بإضافة ماء عليها تصير مخففة مثل اللبن ، ولكن معنى الأفضلية هى فى نوع المواد الزلالية لا فى كميتها ، وأن كل جرام من المواد الزلالية فى اللحوم أفضل من جرام من المواد الزلالية «Protiens» فى القمح والذرة الخ .

وقد اهتدت أخيرا لجنة الأبحاث بإنجلترا (Medical Research Committee) الى أن قيمة المواد الزلالية تختلف فى نوعها وفى المقدار منها الذى يمنع المواد الزلالية المكونة للأنسجة من أن تحترق . وبعد أبحاث كثيرة ظهرت لها فوائد عملية فى بعض

أمراض مثل البلاجرا ، ورأوا أن اللحوم بالنسبة للمواد الزلالية ونوعها لها قيمة أكثر من اللبن والذرة مثل البيان الآتى :

لحوم	لبن البقر	أرز	بطاطس	فول	دقيق	ذرة
١٠٤	١٠٠	٨٨	٧٩	٧٠	٤٠	٣٠

إن هذه النتيجة التى لخصها القرآن الشريف لم تظهر حقيقة ثابتة طبيا إلا منذ سنوات قليلة . وكانت النظرية السائدة قبل ذلك أن الأطعمة وقيمتها بالنسبة للمواد الزلالية هى مسألة كمية لا مسألة نوع .

وقد ظهر من أبحاث لجنة الأبحاث الملكية بانجلترا فى التقرير الثالث سنة ١٩٣٣ والأخير أن البقول (Cereals) يضر الإكثار منها بالأسنان ونموها ، حتى إن التقرير ينصح بعدم إعطائها مطلقا للأطفال ، وبالقلة منها للكبار ، ويقول إن الإكثار من البقول من أهم العوامل فى تسويس الأسنان .

الآية ١٦٣ « وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة » :

الروح مهما كانت حقيقتها هى هبة من عند الله ، ولكنها لا يظهر تأثيرها إلا فى نوع مخصوص من المادة ، وهذا النوع من المادة يختص بأن يكون فى حركة دائمة من التحويل Metabolism وهذا التغيير الكيمائى الدائم فى كل خلايا الانسان وكل دابة لا يمكن عمليا إلا إذا كان فيه ماء بمقدار يختلف حسب نوع الخلايا . وهناك بعض أجزاء من الجسم الحى يقل فيه الماء جدا ، وهذه أغلبها إفرازات متجمدة ليس فيها حياة مثل الأظافر ، وأعنى أنها ميتة ، وهذا أيضا معنى الآية الكريمة « وجعلنا من الماء كل شىء حى » . فليس المراد أن الماء سبب الحياة مطلقا ، ولكنه شرط أساسى فى المادة التى تظهر فيها الحياة ، وهناك فرق بين الاثنين . ومثل ذلك مثل المسرة (التلفون) . فإذا كان اثنان يتكلمان على مسافة طويلة فالسبب فى الصوت الذى يسمع

هو المتكلم من الناحية الأخرى ، ولكن عدة المسرة شرط أساسى لسماع الكلام ، حتى إذا طرأ عليها طارئ لا يمكن سماع أى شئ . كذلك الماء شرط أساسى لاستمرار الحياة فى الجسم ، ولكن الحياة والروح هما مثل المتكلم شىء آخر مطلقا لا تعرف حقيقته ، ولكن تغيير المادة بفقد عنصر أساسى مثل الماء ، الذى يؤدى الى الموت بالنسبة الى الجسم المادى، يمنع وجود الروح والحياة ، وقلة الماء فيه تؤدى الى عدم وجود الروح والحياة ، أى الموت بالنسبة الى الجسم المادى .

الآية ١٧١ : « يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون . إنما حرَّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله » :

هذه الآية الكريمة تنص على ألا تؤكل الميتة ولا الدم ، فالحيوان الميت لا يموت إلا لسبب مثل المرض أو الشيخوخة ، فإن كان لمرض فما لا شك فيه أنه لا يزال فى الجسم نتيجة التسمم من مواد غير طبيعية وضارة للانسان حتى بعد أن يعقم من الجراثيم بطريق النار ، فالجسم الميت فى هذه الحالة يشبه الغذاء المتخمر الذى مهما طهر من الجراثيم بالحرارة لا يزال مضرا بالانسان ، وربما أدى الأكل منه الى الوفاة .

وكذلك الدم ، فإنه نسيج أغلبه وأهم عنصر فيه وهو الكرات الحمر خلايا حية ، وفيه من إفرازات الجسم ما هو معد للإفراز بواسطة البول والعرق الخ . فالدم فى الحقيقة مزيج من مواد قليلة مفيدة للجسم ، ولكن أغلبه مواد مضرة ويجب أن تفرز ، وإذا كان الحيوان المأخوذ منه الدم مريضا كان أكل الدم أشد ضررا ، وكان بقاؤه فى أنسجة الحيوان قبل أكله مضرا جدا لما فيه من مواد مضرة تحدث تخمرا بسرعة فى أنسجة الحيوان مثل العضلات ، فيكون لحمه غير صالح للأكل .

وأما إذا كانت الميتة بالشيخوخة فضررها كضرر الميتة بالمرض ، لأن الشيخوخة معناها انحلال أحد الأنسجة قبل الأنسجة الأخرى ، فتؤدى الى انحلال الكل . وانحلال أحد الأنسجة لا يأتى إلا لضعف طبيعى فيها ، أو بمرض تدريجى غير منظور يحدث تغييرات فى لحوم الحيوان تقلل من قيمتها الغذائية وقابليتها للهضم .

ورب قائل يقول : إن الميتة تؤكل يوميا فى البلاد الباردة مثلا ، وكذلك الدم ولحوم الحيوانات تؤكل بدون ذبحها وتصفية دمها بدون ضرر ظاهر . والجواب على ذلك أن ضرر التخمر يقل كثيرا فى الأقاليم الباردة ويزيد فى الأقاليم الحارة، والدين الاسلامى أنزل للعالم كله بما فيه الأقاليم الحارة التى يحدث التخمر فيها بسرعة مدهشة . إذاً فما لا شك فيه طبيا أن لحم الحيوان السليم الذى يذبح ويصفى دمه أحسن غذاء وليس فيه أقل ضرر ، بخلاف الحيوان المريض الميت المتخللة لحومه بالدم .

لحم الخنزير — إذا كان سليما من الأمراض لا ضرر منه على ما نعلم للآن ، ولكن كثيرا ما يصاب بأمراض تضر الانسان إذا أكله ، فضرره أكثر من نفعه .

فمثلا نحو خمسة فى المائة من الخنازير فى بعض جهات أمريكا مصاب بمرض (تركيتا) وهو نوع من الديدان خطر، لأنه إذا أصيب به الانسان يحدث به تسمما عموميا وإسهالا مثل (الكولرا) وقد يؤدى الى الوفاة . وأهم من ذلك أن لحم الخنزير المصاب لا يمكن تطهيره من هذا المرض بسهولة ، فعملية السلق البسيطة أو الشى لا تكفى ، ويجب غلى اللحوم مدة لا تقل عن نصف ساعة على الأقل لتطهيرها . وإذا كانت الإصابة شديدة كانت اللحوم غير صالحة للتغذية حتى بعد تطهيرها ، لأن الحيوان يكون فى حالة تسمم عمومى قبل الوفاة .

وهنا كانت حكمة الدين الاسلامى فى اجتناب الضرر الذى لا يمكن الوقاية منه إلا بطرق ليست سهلة التناول ، وأحسن الوقاية العملية هى الامتناع عن أكله .

ولهذا لم نشاهد من هذا المرض حالة بين المسلمين ، مع أنه ليس نادراً فى أوربا وأمريكا .

ثم إن الخنزير سبب عدوى ديدان أخرى أقل ضررا مثل (الأسكاريس) وأنواع من (التينيا) .

الآية ٢١٨ : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » :

الخمر أساسها مادة الكحول (الكئول) بكميات مختلفة . وهذه المادة توجد

بنسبة خفيفة فى جسم الانسان فى عملية هضم المواد السكرية (الجلوكوز) مثل الموجود فى العسل . ولها فوائدها طبيا ، ولكن يظهر أن هذه الفوائد قاصرة على هذا القدر البسيط جدا ، فإن زاد عن ذلك أحدث ضررا ، خصوصا إذا كان التعاطى لمدة طويلة فانه يحدث التهابا مزمنا فى الأعصاب وفى الكلى ، وتصلبا فى الشرايين ، وتحجرا فى الكبد ، وضعفا فى القلب .

ورب سائل يقول : لم لا يؤخذ منه مقدار بسيط ؟ والجواب أن الكحول (الكئول) يختلف عن أغلب المواد فى أنه حتى بالمقادير البسيطة يحدث ضعفا فى قوة الارادة والحكم ، وتزداد به الانفعالات النفسانية ، وهذا هو الخطر ، لأن الشخص يصبح شخصا آخر وإرادته تصبح غير إرادته الطبيعية . ومع علمه بضرر الزيادة فى حالته الاعتيادية لا يقوى على منع نفسه وهو تحت تأثير البسيط منه ، وقد يحدث الشىء البسيط منه حركة انتعاش ، ولكن ضعف الإرادة يجعل الشخص عبدا لعادة شرب الخمر . وقد وصفها كاتب من أكبر الكتاب الانجليز فى كتابه ، وكان يتعاطى الخمر ، فقال : « إنى لا أحس أنى فى شعورى وإدراكى إلا إذا كنت متأثرا بالخمر ، ولكنى فى هذا الوقت وأنا سكران لا أعرف نفسى الأولى » فكأنه فى الحقيقة أضاع نفسه ، لأن عادة الخمر كانت شديدة ، حتى إنه فى الأوقات التى لا يشرب فيها يشعر بكآبة وبؤس ولا يحس نفسه سعيدا ، وكأن شيئا مهماً ينقصه حتى إذا شرب شعر بالسعادة . ولكنه فى هذه الحالة ليس طبيعيا بل هو سكران . وقد مات فى شبابه بالسل ، مع أنه لو عاش لم يبعد أن يكون أكبر شاعر .

وهنا يلاحظ أن الخمر ، حتى قليلها ، لا يزيد قوة التفكير العميق بل يضعفها .
وأما الملكات الأخرى مثل الموسيقا والشعر فربما ظهرت بوضوح من قليل من الخمر .
وهذا معنى قوله تعالى : « وإثمهما أكبر من نفعهما » .

أما تأثير الخمر من الوجهة الأخلاقية والاقتصادية فليس محل بحثنا .

دكتور عبد العزيز اسماعيل

أسرار التشريع الاسلامي وفلسفته

خلق الله الانسان مؤلفا من طبيعتين متباينتين : إحداهما ملكية علوية ، والأخرى جثمانية شهوانية ، فمن غلبت شهوته عقله التحق بصنف البهائم ، ومن غلب عقله شهوته التحق بالملائكة . وقد شرع الله التكاليف امتحانا لخلقه ، ثم قرنها بالزواجر والعظات لتكون عونا لعقله على التغلب على دواعي الشهوات فيه .

فالتكاليف الشرعية قاصرة على نوع الانسان كما قال تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا » وقد فسر أكثر العلماء الأمانة بالتكاليف الشرعية . على أنه لم يقصد من هذه التكاليف تسخير الانسان أو تحميله مالا قبل له به ، ولكن أريد بها تطهيره وتخليص جوهره من الكدور التي علقت به ، كما قال تعالى : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » .

وقد عمل المسلمون الأولون بهذه التكاليف فصحت عقولهم وأجسامهم ، وقويت نفوسهم وإراداتهم ، وتقمصتهم روح علوية سموا بها على جميع الأمم المعاصرة لهم حتى سادوا عليها وأصبحت لهم خلافة الله فى الأرض .

فإذا كانت هذه الكمالات ثمرة التكاليف الاسلامية ، فكيف لا يحرص عليها المسلمون ويعملون بها ويتدارسونها ويجعلون التواصي بها أمرا محتما على كل منهم فردا فردا ؟

هذا وقد تفضل الله على الانسان بهبات عظيمة جثمانية وروحانية ، ومتعه بخصائص عالية صورية ومعنوية ، أفلم يكن من حقه عليه أن يشكره على هذه النعم الجليلة ، والعطايا الجزيلة ، بالإقرار بفضله ، والإخبات لعزته ، والخشية من جبروته ؟ لذلك وجب علينا أن

نقابل هذه الآلاء الإلهية بالشكر الجميل ، وأن نفهم أن الأرواح قبل أن تدنس بالعالم الجسمانى قد خضعت لربها فانطبع فيها الإقرار بالوحدانية ، فالواجب عليها أن تقرّ بها ، وأن تعترف بالعبودية لبارئها ، وأن تبقى حافظة لعهدها القديم بعد أن لابستها تلك الأجسام البشرية وأحاطت بها إحاطة السوار بالمعصم .

إذاً فالعبادة لله أقدس غاية من غايات الأرواح ، وأسمى مقصد من مقاصدها ، وثمرة العبادة خلاص الانسان من أسر جثمانه ، وعروجه بروحه الى أرقى درجات الكمال من وجوده الصورى والروحانى . وهذه غاية يجب أن يعنى بها ، وتراض النفوس لبلوغها ، فإنها أسمى الغايات على وجه الإطلاق .

وقد فرق النبى صلى الله عليه وسلم بين الاسلام والايمان فقال : « الاسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت اليه سبيلا » قال : « والإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره » .

والأحاديث صريحة فى أن الأعمال الظاهرة للانسان من الإيمان ، كقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق » . وقوله لوفد عبد القيس : « آمركم بالإيمان بالله وحده . أتدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وأن تؤدوا خمس ماغنمتم » ومعلوم أنه لم يرد أن هذه الأعمال تكون إيمانا بالله بدون إيمان القلب ، لما قد أخبر فى غير موضع أنه لابد من إيمان القلب ، فعلم أن هذه مع إيمان القلب هو الايمان . وفى المسند عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الاسلام علانية والايمان فى القلب » . وقال سفيان بن عيينة : كان العلماء فيما مضى يكتب بعضهم الى بعض بهذه الكلمات « من أصلح سريرته أصلح الله علانيته ، ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس ، ومن عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه » . رواه ابن أبى الدنيا فى الاخلاص .

وثبت عنه عليه السلام من وجوه متعددة أنه قال: « الحياء شعبة من الإيمان ». وهذا من حديث ابن عمر وابن مسعود وعمران بن الحصين. وقال أيضا: « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من ولده ووالده والناس أجمعين » وقال: « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه » وقال: « والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن! » قيل من يا رسول الله؟ قال: « الذى لا يأمن جاره بوائقه ». وقال: « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » وقال: « ما بعث الله من نبي إلا كان فى أمته قوم يهتدون بهديه ويستنون بسنته. ثم إنه يخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل ». وفى الحديث المتفق عليه من رواية أبى هريرة رضى الله عنه ورواه البخارى من حديث ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم: « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب النهبة يرفع الناس اليه فيها أبصارهم وهو مؤمن ».

ثم إن علماء السنة قد اختلفوا فيما بينهم فى: هل الايمان يزيد وينقص، أو أنه لا يزيد ولا ينقص؟ وتشعب البحث تشعبا أفضى الى كثرة من القول مستفيضة. ثم إننا كنا قطعنا مع القراء شوطا بعيدا فى مشروعية النكاح وأسبابه ومن يجوز نكاحه ومن لا يجوز، وقد بقى أن نتكلم عمن حرم نكاحهن المحصورات فى عشرين محرمة. كذلك كنا قد وعدنا حضرات القراء باستتمام البحث فى حكمة إرسال الرسل. غير أن بحثنا الراهن لا يتسع لكل هذه التفاصيل. لذلك نستميحهم عذرا فى الوقوف بهم عند هذا الحد اليوم من البحوث المتشعبة. وموعدنا بإتمام هذه البحوث فى الأعداد المقبلة إن شاء الله؟

عباس طه

تاريخ الالفاظ فى اللغة العربية

كلمة (الادب) وأطوارها

هذا فن من العلم قد يكون جديداً على اللغة العربية ، أو على الأقل غير معروف فى مباحثها ، وهى فى أشد الحاجة اليه ، فيجب أن يوجد ، وأن يعرف ، لما له من عظيم النفع وجليل الفائدة فى تحديد معانى الكلمات بأوقاتها التى استعملت فيها ، وتمييز أصل الوضع من طارئه ، ومولّده ودخيله من عربيه ، وحقيقته من مجازه . وفى ذلك إرشاد الى أطوار الحياة فى الأمة ، وانتقالها من درجة فى المعارف الى درجة أخرى ، وليس فى معاجم لغتنا ما يقوم هذا المقام .

فلو أن إنسانا عمد الى واحد منها كالقاموس ، أو لسان العرب ، أو صحاح الجوهرى ، وما اليها ليعرف منه معنى كلمة من الكلمات ، لوجدها تتردد بين كثرة من المعانى إذا صح أن العرب عرفوها كلها كان ذلك دليلا على ما لهذه اللغة الشريفة من الخصوبة فى الأوضاع ، والثروة فى المدلولات التى تداولها العرب فى مختلف قبائلهم قبل اختلاطهم بغيرهم من الأمم .

ومن ثَمّ يعرف المطلع عليها مقدار اتساع مناحى الحياة عند العرب ، لأن التعبير عن الشىء فرع معرفته ، فهم إذاً قد عرفوا كل ما عبّروا عنه فى لغتهم ، وهم قد عبروا عن كثير من المعانى الفكرية والاجتماعية فى صور مختلفة تبين مقدار تفننهم فيها . واللغة الصحيحة من أصدق المقاييس على حياة الأمة .

ولكن هذه المعانى التى تذكرها تلك المعاجم اللغوية اختلط بعض المولّد والدخيل فيها بالعربى الصحيح اختلاطا يصعب معه على المنتهى فى عصرنا — بله المبتدى — أن يطمئن الى أن هذا المعنى عربى خالص ، لأنه لا يثق بأن العرب الخلّص نطقوا بهذا اللفظ مستعملا فى ذلك المعنى قبل أن يغمرهم الدخلاء .

أخذت بيدى كتاب القاموس، وهو من أهم كتب اللغة عندنا، لأكشف فيه عن معنى كلمة (الدين) فوجدته يقول : الدين : «الجزاء» و «الاسلام» و «العادة» و «العبادة» و «المواظب من الأمطار» أو «اللين منها» و «الطاعة» و «الذل» و «الداء» و «الحساب» و «القهر» و «الغلبة» و «الاستعلاء» و «السلطان» و «الملك» و «الحكم» و «السيرة» و «التدبير» و «التوحيد» و «اسم لجميع ما يتعبد الله عز وجل به» و «الملة» و «الورع» و «المعصية» و «الإكراه» و «من الأمطار ما يعاهد موضعا فصار ذلك له عادة» و «الحال» و «القضاء». سبعة وعشرون معنى تردد بينها كلمة (الدين) وهى من الكلمات التى تكشف معانيها عن تاريخ الأمة من ناحية التفكير والاجتماع والأدب. وأنت ترى أن الفيروزبادى ذكر هذه المعانى دون تمييز بين ما حدث بعد الاسلام، وما وضع قبله، وإن كان بعض المعانى ينم عن تاريخه الإجمالى بنفسه، وأغلب تلك المعانى (دينى) شرعى، وبعضها يمكن القطع بأنه عربى جاهلى، وبعضها متردد بين العصور العربية، وهو أشقها وأحوجها الى التأريخ.

وهذه أيضا ألفاظ (المائدة والطعام) لو قرأها إنسان فى تلك المعاجم لخرج منها بما يقلب تاريخ العرب من جهة الحضارة والبداوة، لأنها تبين عن أصناف وأذواق لا تعرفها البداوة، وهى من الحضارة فى صميمها. بيد أن التاريخ القديم يأبى إلا أن يصور العرب أمة بدوية جاهلة لا تعرف إلا الناقة والجمل، والصحراء والجبل، ووأد البنات، وشن الغارات، والظعن والارتحال.

نعم لا ننكر أن بعض المعاجم اللغوية نبه على أن بعض الكلمات معربة، أو دخيلة على العربية من الرومية أو الحبشية أو غيرهما، وأن بعض العلماء ألفوا كتبا فى بيان الدخيل من الكلمات على اللغة، ولكن هذا شىء قليل بجانب ما فى هذه اللغة من ثروة لوخلصت لأبانت عن تاريخ العرب أحسن إبانة، وهو مع قلته لا يغنى شيئا

عن تأريخ الألفاظ ، لأن تلك الكتب لم تبين متى جاء ذلك اللفظ الدخيل ؟ وهل كان فى اللغة مايغنى عنه ؟ فحاجة اللغة العربية الى (فن تأريخ الألفاظ) وتتبع أطوارها، واستعمالاتها كبيرة جدا ، فهو واجب عينى على المجمع اللغوى ، وفرض كفائى على الجماعات الأدبية المشتغلة ببحوث اللغة .

وإذا كان القدامى من أئمة اللغة لم يعنوا بهذا الطرز من البحث لأن الحاجة لم تكن عندهم ماسة اليه ، أو لأنهم كانوا على علم بتمييز الدخيل من العربى لقرب عهدهم باللغة فى معاهد الجزيرة ، أو لأى سبب آخر ، فحاجتنا نحن اليه شديدة ، لأن الآداب الأجنبية التى تزاحم الأدب العربى عنيت به عناية شديدة ، ولأن هذا الفن يساعدنا مساعدة فعالة على الكشف عن تاريخ العرب الأدبى والاجتماعى والدينى قبل الاسلام ، إذ الاعتماد على روايات التاريخ القصصية أصبح شيئا لا يمكن التعويل عليه فى معرفة الحقائق ، ولأننا هوجمنا من طريقه فأنكر بعض الباحثين أن يكون للعرب حياة أدبية قبل الاسلام ، لأن لغتهم لم تعرف كلمة (الأدب) إلا بعد مجىء الاسلام ، فلو كان لدينا هذا الفن قائم القواعد لتفادينا هذا الجدل العقيم ، ولخطينا بالأدب العربى خطوة أوسع تبوئه مكانا عليا بين الآداب الناهضة الحية .

اتصلت نهضتنا بنهضة الغرب ، فأخذنا عن المستشرقين كثيرا من مناهجهم فى البحث ، وكان فيما أخذنا منهم تاريخ أدب اللغة طريقة ، لا مادة ، وهم قد بحثوا عن تاريخ الألفاظ ، فألممنا بشىء ضئيل منه دعت اليه ضرورة التقليد ، حصره الباحثون فى كلمة (الأدب) ، ولكن فى اتجاهين : اتجاه يحتمى بالقديم ويستعين به ، واتجاه يتأثر مناهج البحث الحديث طليقا من كل قيد . وسنجمل خلاصة المذهبين ، ثم نقفى بما بدا لنا من رأى ينتهى بهذه الكلمة الى وضعها التاريخى الصحيح .

يقول أنصار القديم : إن أول ما عرفت كلمة (الأدب) عند العرب فى العصر الجاهلى جاءت مصدرا لأَدَب يأدِب اللازم ، وهو من باب ضرب ، بمعنى صنع طعاما

يحتفل به ، ويدعو اليه ، والاسم من ذلك (المأدُبة) ولكنهم لا يذكرون شاهدا واحدا من كلام العرب الأقحاح فى العصر الأول ذكرت فيه كلمة (الأَدَب) بهـذا المعنى ، ويكادون يجمعون على التشبث بقول طرفة بن العبد :

نحن فى المشتاة ندعو الجفلى لا ترى (الآدب) فينا ينتقر

وهو مروى فى ديوانه من قصيدته الرائية التى مطلعها :

أصحوت اليوم أم شاقتك هر ومن الحب جنـون مستعر

وواضح أن بيت طرفة لا يثبت الدعوى بنصها — كما يقول الجدليون — وأقصى ما يفيده أن (الآدب) اسم فاعـل بمعنى الداعى الى الطعام هـو الذى عرف من مادة (أدب) ويبقى البحث على حاله متشوفا الى معرفة : هل نطق عربى فى العصر الجاهلى بلفظ (الأَدَب) على أى معنى من المعانى التى عرفت لهذه الـكلمة بعد ؟ .

يتخطى أولياء القديم من أساتيذ النهضة الحديثـة العصر الجاهلى عند هـذا الحد مسرعين الى عصر صدر الاسلام وبنى أمية ، فتسعفهم النصوص ، ويجدون كلمة (الأدب) لبست ثوبا جديدا ، وأخـذت معنى التهذيب والتعليم فى صيغ متعددة ، ويستشهدون على هـذا المعنى الجديد لـكلمة الأدب بحديث يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » وبقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه لبعض بنيه : « يابنى انسب نفسك تصل رحمك ، واحفظ محاسن الشعر يحسن (أدبك) . وبقوله : « من لم يؤدبه الشرع لا أدبه الله » . وبكلمة معاوية بن أبى سفيان لابنـه يزيد فى وصيته حين حضره الموت : « ثم انظر الى أهل الشام فاجعلهم الشعار دون الدثار ، فإن رابك من عدوك ريب فارمهم بهم ، فإن أظفرك الله بهم فاردد أهل الشام الى بلادهم ، ولا يقيموا فى غير بلادهم فيتأدبوا بغير أدبهم » .

ويروون عن عتبة بن ربيعة قوله لابنته هند أم معاوية ، وهو ينعت لها أبا سفيان بن

حرب ليكون زوجا لها : « يؤدب أهله ولا يؤدبونه » وقول هند لأبيها : « إنى لأخلاق هذا لوامقة ، وإنى له لموافقة ، وإنى لآخذته بأدب البعل مع لزوم قبتى ، وقلة تلفتى » .

ثم يتوسعون فى هذا المعنى نفسه الى أن يولّدوا منه معنى آخر إن لم يكن هو فليس منه ببعيد . وعُرْف الناس يجرى على هذا المعنى المولد ، فيقولون : فلان (مؤدب) و (أديب) إذا كان ظريفا فى خُلقه ، لطيفا فى عشرته ، وينشدون شاهدا له قول سالم ابن وابصة ، وهو شاعر أموى :

إذا شئت أن تدعى كريما مكرما   أديبا ظريفا ماجـــدا حرا
إذا ما أتت من صاحب لك زلة   فكن أنت محتالا لزلته عذرا

ويستظهرون أن الكلمة نقلت من هذا المعنى الى معناها (الفنى) أى المعنى الاصطلاحى الذى تعارفه الناس حين صار الأدب فنا مستقلا ؟

صادق ابراهيم عرجون

بعض ما قيل فى الحسد

قال على أمير المؤمنين كرم الله وجهه : لا راحة لحسود ، ولا إخاء لملول ، ولا محب لسيء الخلق .

وقال الحسن البصرى : ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من حاسد ، نفس دائم ، وحزن لازم ، وغم لا ينفد .

وقال معاوية : كل الناس أقدر أرضيهم إلا حاسد نعمة ، فانه لا يرضيه إلا زوالها .

وقال الشاعر :

كل العداوات قد ترضى إماتتها   إلا عداوة من عاداك من حسد

وقال عبد الله بن مسعود : لا تعادوا نعم الله . فقيل له : ومن يعادى نعم الله ؟ قال : الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله . يقول الله فى بعض كتبه : الحسود عدو نعمتى ، متسخط لقضائى ، غير راض بقسمتى .

مآثر العرب فى علم التاريخ [1]

انتهى العصر الأول من تاريخ الأدب العربى بانتهاء القرن الرابع من الهجرة ، ثم تلاه عهد امتاز بوفرة التآليف فى التاريخ وبتنوعها . ولعل السبب فى ذلك يرجع الى اهتمام الأمراء بهذا الفرع من فنون الأدب ، و بتعضيدهم للقائمين بأمره تعضيدا كاد يسوّى بين منزلتهم ومنزلة الشعراء ، فزاد بذلك عدد المؤرخين . على أن ذلك لم يمنع ظهور مؤرخين لم يكن تعضيد الأمراء هو الدافع لهم على مزاولة أعمالهم ، بل كانوا يجدّون فى ذلك لأغراض علمية بحتة . ولم يكن إنتاج هؤلاء من حيث الوفرة أو القيمة أقل من أولئك . والى الأخيرين يرجع الفضل غالبا فى جمع المصادر التاريخية الأولى ونشرها .

ولعل أهم ما امتاز به هذا العصر الجديد ظهور نوع جديد للتاريخ وهو وضع التراجم ، ولو أن هـذا النوع كانت توجد بذوره فى مؤلفات الأولين أمثال على المدائنى . هذا إذا استثنينا ماجاء فى تاريخ حياة النبى (صلى الله عليه وسلم) فإنه لم يخل منه عصر من العصور منذ بداية الأدب النثرى ، وإن كان ذلك أقرب الى علم الحديث لصبغته الدينية .

تطور فن وضع التراجم فى هذا العصر تطورا سريعا ، وأصبح من مميزاته الواضحة وخصوصا فى شرق البلاد الاسلامية ، حيث اقتفى المؤرخون أثر كتب الملوك الفارسيين . وكانت هذه التراجم توضع إبان حياة أبطالها ، فكانت تكيل لهم أنواع المديح ، وتفيض فى تعديد مناقبهم ، هـذا الى إسراف واضعيها فى استخدام المحسنات اللفظية لإظهارها فى ثوب جميل مونق مما قلل من قيمتها التاريخية ، إلا أننا ندين لها بكثير من معلوماتنا عن الأحوال الداخلية فى الدول المتتابعة وبلاط الملوك المختلفة ، مما بخلت علينا به المؤلفات التاريخية .

---

(١) بقية ما نشر فى الجزء السادس من المجلد الخامس من هذه المجلة مترجما عن الالمانية نقلا عن كتاب « تاريخ الادب العربى » للمستشرق الالمانى الكبير الاستاذ الدكتور « بروكلمان » .

وأول التراجم المعروفة من هذا النوع هى الترجمة التى وضعها محمد العتبى (أبو النصر) المتوفى سنة ٤٢٧ هـ فى تاريخ السلطان يمين الدولة محمود الغزنوى المتوفى سنة ٤٢١ هـ وهو الأمير الذى فى عهده نظم الفردوسى الشاهنامة المشهورة .

وأما فى الشرق فقد بدأ وضع التراجم محمد النسوى الفارسى الذى كتب تاريخ السلطان جلال الدين ما نكوبرتى (خوارزم شاه) وكان قد التحق بخدمته بعد أن غلبه المغول على أمره على ضفاف نهر السند عام ٦١٨ هـ وبقى فى بطانته حتى وفاته عام ٦٢٨ هـ ووضع بعد ذلك بعشر سنين ترجمته . وامتازت هذه الترجمة بدقتها التاريخية .

وأما فى آسيا الصغرى فكانت شخصية صلاح الدين بارزة الى درجة أنها طبعت تاريخ تلك الناحية بطابعها الخاص ، فتوفر ثلاثة من كبار المؤرخين على وضع تاريخ ذلك المجاهد الكبير ، أولهم معاصره عماد الدين الكاتب الأصفهانى ، وكان فى أول أمره فى خدمة السلجوقيين فى العراق ، ولما ساءت حاله بعد وفاة ولى نعمته الوزير ابن هبيرة اتصل بالأيوبيين فى دمشق ، واكتسب صداقة صلاح الدين ، وارتقى بسرعة الى أن صار رئيسا لمجلس الدولة فى عهد السلطان نور الدين . ولما ولّى ابن نور الدين من بعده عزله من منصبه فى عام ٥٦٩ هـ وأبعده عن البلاط ، فالتجأ الى صلاح الدين وكان قد أسس له ملكا فى مصر ، وأخذ فى الزحف على سورية ، ورافقه فى كل غزواته حتى وفاته فى عام ٥٨٩ هـ ومن ثم اعتزل الحياة العامة واشتغل بالأدب الى أن وافته المنية سنة ٥٩٧ هـ . ومن أهم مؤلفاته تاريخ أولياء نعمته الأولين أمراء السلجوقيين ووزرائهم حيث نقل فيه الى العربية كتاب أنوشروان (شرف الدين) بعد اختصاره ، ثم وضع سفرا مكونا من سبعة أجزاء فى تاريخ عصره لم يبق منه للآن سوى جزء واحد .

أما غزوات صلاح الدين فى فلسطين وسورية فقد أفرد لها سفرا خاصا . وأخيرا وضع كتابا فى شعراء القرن السادس للهجرة إلحاقا لما كتبه الثعالبى ، ولكن مما يؤسف له أن كل مؤلفاته ملأى بعبارات كثيرة من التورية ومصوغة بأسلوب الدواوين السقيم .

وثانى مؤرخى صلاح الدين هو يوسف بن شداد بهاء الدين (الحلبى) وقد وضع مؤلفه بناء على مشاهداته الخاصة أيضا .

وبعد وفاة صلاح الدين احتفظ به ابنه الملك الظاهر فى حلب فى مثل منصبه الأول ، وبقى فيه فى عهد الملك الظاهر الى أن ترك هذا الحكم فى عام ٦٢٩ هـ واعتكف فى داره .

وأما ثالث مؤرخى صلاح الدين فهو الأستاذ الدمشقى أبو شامة المتوفى سنة ٦٦٥ هـ فقد وضع كتابه (الروضتين فى أخبار الدولتين) فى تاريخ صلاح الدين ونور الدين .

وفى عهد حكم صلاح الدين وضع أحد رجاله وكان وزيرا للحربية تاريخا نحا به منحى الهجو لوزير اسمه قراقوش منتقدا أوامره الإدارية وتصرفاته المستهجنة . وقد لقى هذا الكتاب ذيوعا واسعا وانتشارا عظيما ، وكان له من الأثر البعيد ما جعل لاسم هذا الوزير صدى بعيد المدى ، فبقى ماثلا حتى اليوم فى كثير من القصص والحكايات التركية والمصرية ، وتناوله التحريف فصار يعرف باسم قره قوز .

وكذلك وضع أسامة بن منقذ (أبو المظفر) فى زمن صلاح الدين تاريخا مسهبا لحياته جاءت فيه موضوعات شتى قيمة فى تاريخ هذا العصر ، ولد أسامة فى سنة ٤٨٨ هـ بمدينة شيزار فى شمال سوريا فلما شبّ وكبر اضطهده أمير تلك الولاية وكان من أقاربه ، فاضطر للرحيل الى دمشق حيث أقام بها ست سنوات فى خدمة الحكومة ، ثم اضطر لترك عمله ومغادرة البلاد الى مصر لعدم مما لأته للبلاط ، وعاش فى مصر بضع سنين بعيدا عن الأعمال العامة الى أن اشترك فى الحروب الصليبية فى سنتى ٥٤٥ و٥٤٨ هـ بمدينة عسقلان ، ومن ثم تابع سفره الى دمشق ، وأقام بها الى أن اشترك مع السلطان نور الدين فى غزواته من سنة ٥٥٧ الى سنة ٥٦٠ هـ وأخيرا اعتكف فى حصن حيفا فى شمال سوريا حيث اهتم بالاشتغال بالأدبيات وعلى الأخص بتدوين تاريخ حياته الخاصة .

وفى سنة ٥٧٠ هـ استدعاه صلاح الدين الى دمشق ولكنه لم يحظ بعطفه طويلا وتركه فى دمشق عند ما نقل حاضرة ملكه الى القاهرة الى أن توفى هناك سنة ٥٨٤ هـ .

ظهر من بعد هؤلاء المؤرخين أبو الفتح البندارى الذى جعل كل همه إخراج صورة جـديدة لتاريخ السلجوقيين الذى وضعه عمـاد الدين أول مؤرخى صلاح الدين مجتهدا فى إصلاح أسلوبه السقيم . ثم جاء من بعده على الحسينى فاقتبس منه ملخصا وأضاف اليه تاريخ الأتابيك (الصدور العظام) حتى عام ٦٢٠ هـ . وحذا عدد كبير من المؤرخين حذو مؤرخى هذه الأسرة الذين تقدم ذكرهم . وأهم الـكتب التى ظهرت فى الغرب على هذا المثال ماوضعه عبد الواحد المراكشى المتوفى سنة ٦٢٠ هـ فى تاريخ الموحدين .

أول من كتب فى تاريخ بغداد من مؤرخى هذا العصر هو العالم المحدث الـكبير أحمد الخطيب البغدادى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ وقد اعتنى فى كتابه فى تاريخ بغداد بالتقسيم الطبوغرافى مع مراعاة علم الحديث الذى كان يعتبر فيه حجة قوية .

واقتفى أثره فى تدوين تاريخ المدن على بن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ هـ فوضع سفرا عظيم الشأن فى تاريخ دمشق يقع فى مقدمة و٨٠ جزءا لم يبق الدهر منه إلا مقطوعات متناثرة ، وقد عنى فيه بتراجم العلماء عناية فائقة ، ولم يقتصر على ذكر علماء دمشق فحسب بل إنه لم يغفل ذكر العلماء الذين نزلوا ضيوفا على المدينـة فى أى وقت من الأوقات . ووضع ابنه القاسم المتوفى سنة ٦٠٠ هـ تاريخا لفلسطين جعل جل عنايته فيه الأماكن المقدسة بها وأهميتها الدينية .

ووضع أحمد بن العديم (العقيلى الحلبى) تاريخا مسهبا لمدينة حلب فى عشرة أجزاء ، وكان أهم ما عنى به تاريخ العلماء أيضا بعد ترتيبهم حسب الحروف الهجائية . وكان احمد ابن العديم قاضيا بمدينة حلب ، وعاش بها الى أن سقطت فى يد التتر فى ٩ صفر سنة ٦٥٨ ففر هاربا الى مصر الى أن استدعاه « هولاكو » التترى وأسند اليه منصب كبير قضاة سوريا . واشتغل فى سنيه الأخيرة بوضع كتابه فى الصورة التى نعرفها الآن . وقد أتى فى كتابه هـذا على تاريخ مدينة حلب بترتيب زمنى حتى عام ٦٤١ هـ إلا أنه لم يكد يتم تنسيقه حتى وافته المنية بمدينة القاهرة .

ووضع الشاعر عمارة الحكمى (اليمنى) كتابا فى تاريخ بلاد العرب الجنوبية . ولد عمارة فى عام ٥١٥ هـ وتقابل وهو يؤدى فريضة الحج مع أمير مكة المكرمة فأعجب به كثيرا وأرسله سفيرا له فى بلاط الفاطميين بالقاهرة ، وبقى بها الى أن دخلها صلاح الدين فانضوى تحت لوائه ، إلا أنه اشترك أخيرا فى مؤامرة دبرت لإعادة آخر سلالة الفاطميين الى عرش أجداده بمساعدة الصليبيين ، فانكشف أمرهم وأعدم مع جميع المتآمرين فى ٢ رمضان سنة ٥٦٩ وكان قد وضع قبيل وفاته كتابا آخر فى تاريخ الوزراء المصريين .

وأما تاريخ مصر فقد وضعه فى أول هذا العصر محمد المسبحى المتوفى سنة ٤٢٠ هـ فى سفر عظيم لم يصلنا منه سوى جزء من أجزائه الأخيرة

واهتم كذلك ابراهيم بن واصف شاه (المصرى) فى أواخر القرن السابع من الهجرة بوضع تاريخ مختصر لمصر مهد له بمقدمة استعارها من الخيال عن حالة مصر قبل الاسلام .

ووضع على بن سعيد (المغربى) كتابا فى تاريخ مصر لم يصلنا منه إلا شذرات متفرقة . ولد على بن سعيد فى غرناطة وطلب العلم فى أشبيلية ، ثم جاب بلاد الشرق بضع سنين دخل بعدها فى خدمة سلطان تونس عام ٦٥٢ هـ ثم عاود سياحته الى الشرق ، ولما كان فى مدينة الاسكندرية بلغته أعمال « هولاكو » التترى فزاره فى أرمينيا . ويقول بعض المؤرخين إنه توفى فى دمشق سنة ٦٧٣ هـ ويذهب بعض آخر الى أنه توفى فى تونس سنة ٦٨٥ هـ . ويشمل كتابه تاريخ جميع البلاد الاسلامية الغربية .

وأما فى الأندلس فازدهرت العلوم التاريخية الى أقصى حد وتعددت مؤلفات المؤرخين حتى كفلت لنا الى يومنا هذا معلومات وافية عن تاريخ ذلك العصر الذهبى . ولحسن الحظ بقيت أغلب هذه المؤلفات حتى الوقت الحاضر على صورتها الأصلية .

وفى مقدمة مؤرخى هذا العصر ابن الفرضى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ فى قرطبة وابن بشكوال المتوفى بقرطبة عام ٥٧٨ هـ وابن الأبار وهو من أهل أشبيلية وتوفى سنة ٦٥٨ هـ وظهرت كذلك مؤلفات عديدة فى شعراء الأندلس من وضع ابن خاقان

المتوفى سنة ٥٣٥ هـ وابن بسام المتوفى سنة ٥٤٢ هـ وقد اهتم كل من ابن حيان المتوفى سنة ٤٦٩ هـ والبديع المتوفى سنة ٥٧٠ هـ بتدوين التاريخ السياسى لتلك البلاد ، ولكن مما يدعو للأسف الشديد لم يبق الدهر من مؤلفاتهما إلا النزر اليسير . ووضع المدعو ابن الأذارى فى أواخر القرن السادس من الهجرة تاريخا للأندلس جعل أهم موضوعاته ما جاء فى تاريخ شمال أفريقية . ومن الوثائق التاريخية الهامة التى يرجع عهدها الى هذا التاريخ أيضا قصيدة ابن عبدون الشهيرة التى وضع لها ابن بدرون تفسيرا تاريخيا قيما . الى أن جاء عماد الدين بن الأثير المصرى ونقل هذا التفسير التاريخى بحذافيره ، وأضاف اليه بعض الحوادث التاريخية الهامة حتى عام ٦٩٧ هـ .

وأما فى التاريخ العام فإن كتاب الطبرى ، وسبق لنا ذكره ، بقى فى هذا العصر أيضا من أقوى المصادر وأهم المراجع ، ولو أنه ظهر فى هذا العصر أيضا عدة مؤلفات أخرى قيمة فى التاريخ العام ، نخص بالذكر منها السفر الجليل الذى وضعه الكاتب اللبق الثعالبى ، ولم يصلنا منه سوى الجزء الخاص فى تاريخ الفرس .

ووضع مؤرخ آخر — غير معروف اسمه — وهو من أنصار الفاطميين فى القيروان فى القرن السادس كتابا أسماه (كتاب العيون) امتاز بإعلاء شأن الأمويين وتمجيدهم . ووضع حكيم بغداد وفيلسوفها الكبير ابن مسكويه المتوفى سنة ٤٢١ هـ كتابا فى تاريخ العباسيين المتأخرين وأمراء الولايات المختلفة .

بقيت هذه الكتب أهم ما ظهر فى هذا العصر فى التاريخ العام الى أن جاء عز الدين ابن الأثير وهو عالم كبير ينتمى الى أسرة كريمة بالموصل ، وتوفى بها سنة ٦٣٠ هـ وكان كتاب الطبرى وقتئذ لا يتفق مع روح العصر العلمية لتفككه وسرده الوقائع التاريخية بدون ارتباط أو تعليق ، فتناوله عز الدين بن الأثير بالتهذيب حتى جعله وصفا شيقا متتابع الحوادث ملتئم البنيان ، وكان يستعين بمراجعة المصادر الأصلية ، فيدرسها ويمحصها ثم يلخصها ويدمجها بعضها ببعض فى أسلوب لغوى منسجم متمشيا مع نهضة الأدب

الجديدة . هذا الى أنه أضاف اليه مكملات عديدة مستعينا بمراجع أخرى مثل ما أورده فى تاريخ ما قبل الاسلام من تقارير عن وقائع العرب القدماء وحروبهم ، وأخيرا استأنف إتمام هذا السفر الجليل حتى أتى على تدوين الحوادث التاريخية الى عام ٦٢٨ هـ . ومن أهم مؤلفات عز الدين بن الأثير كتابه (أسد الغابة فى معرفة الصحابة) ترجم فيه لما يقرب من ٧٥٠٠ من صحابة (رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

واشترك فى وضع التاريخ العام فى هذا العصر نفر قليل من العلماء المسيحيين أيضا مثل المكين بن العميد المصرى ، وكان يتقلد منصبا كبيرا فى الدولة الأيوبية ، وتوفى بدمشق عام ٦٧٢ هـ وكتابه فى التاريخ يشمل تاريخ العالم منذ بدء الخليقة الى ما قبيل وفاته . كما وضع بطرس بن الرحيب (أبو شكر) كتابا مماثلا له فى التاريخ العام أيضا .

وفى سوريا وضع رئيس أساقفة اليعقوبيين المتوفى سنة ٦٨٨ هـ كتابا قيما فى التاريخ العام . ولم يقل اهتمام مؤرخى هذا العصر بتاريخ الأدب والعلوم عن اهتمامهم بالتاريخ السياسى أو التراجم المتنوعة ، فظهرت مؤلفات عديدة نخص منها بالذكر تاريخ العلماء الذى وضعه على القفطى الذى شمل جميع كتاب العلوم الطبيعية والفلسفية قبل وبعد الاسلام . ولد على القفطى بمدينة قفط بصعيد مصر عام ٥٦٨ هـ وأقام بمدينة حلب حتى سنة ٥٩٨ هـ وتولى هناك بعض الأعمال الادارية حتى وافته المنية سنة ٦٤٦ هـ ولم يمنعه اشتغاله بالأعمال العامة عن الدرس والتحصيل فى شتى العلوم والآداب ، ويعتبر كتابه هذا من أهم المراجع التى لدينا لمعرفة مقدار ما نقله العرب عن اللغات الأجنبية

وجمع ابن خلكان فى موسوعته تراجم جميع مشاهير الاسلام فى الأدب والسياسة . ولد ابن خلكان فى أربلا سنة ٦٠٨ هـ وطلب العلم فى حلب ودمشق ، وأسند اليه بعد ذلك منصب القضاء فى مدينة القاهرة حيث بدأ بوضع كتابه المشهور ، إلا أنه اضطر الى ترك هذا العمل حين استدعى الى دمشق ليتقلد منصب كبير قضاة سوريا سنة ٦٥٩ هـ . انتهى

فى فلسفة الاخلاق

صلتها بالنفس الناطقة — أثر ذلك فى المجتمع الانسانى العام

تواضع علماء الأخلاق الأقدمون على أن أصول الأخلاق كلها أربعة ، وهى : الحكمة ، والعفة ، والشجاعة ، والعدالة إذا أحكم تدبيرها وروعيت شروطها ظفر الانسان فى أدوار وجوده من الحياتين بالفوز الأكبر . وقد أطبق علماء الأخلاق وعلماء النفس على أن كل أصل من تلك الأصول الأربعة تنضوى تحته جزئيات متولدة عنه هى فى واقع أمرها ملاك المجتمع وعماده ، وهى أسه وعتاده . فالحكمة مثلا ينضوى تحتها الذكاء والتعقل ، وصفاء الذهن وسرعة الفهم وقوته ، والذكر وسهولة التعليم . والحكمة هى العلم بالموجودات من حيث هى موجودة . وبالتالى العلم بالأمور اللاهوتية ليكمل العلم بالحياتين : المعاش والمعاد . ومتى كان العلم برهانيا فلا سبيل الى الشك فى أن ما يصدر عنه برهانى كذلك . فالذكاء وهو إحدى المنضويات تحت ما صدق الحكمة هو سرعة انقداح النتائج وسهولتها على النفس ، بحيث تكون مقدمات تلك النتائج متصلة بالقضايا الصحيحة حملية كانت أو شرطية . والتعقل هو موافقة بحث النفس عن الأشياء الموضوعة بقدرما هى عليه . وصفاء الذهن هو استعداد النفس لاستخراج المطلوب ليكون سبيل الاستنتاج مستبينا . وجودة الذهن أو قوته وحدته هى تأمل النفس لما قد لزم عن المقدم بحيث إن وظيفة النفس تكون قائمة على تعرف قوة ما بين التالى والمقدم من اللزوم . وسهولة التعلم هى حدة فى الفهم وصفاء فى النفس بها تدرك الأمور النظرية . ثم يأتى دور الكلام عن المنضويات من الفضائل تحت فضيلة العفة التى هى أصلها ومصدر وجودها : فهى الحياء والدعة والصبر والسخاء والحرية والقناعة والدمائة والانتظام وحسن الهدى والمسالمة والوقار والورع . فالحياء هو انحصار النفس أ... ق. فها عند حد معين مخافة إتيان القبائح حذار الذم والوقوع فى الناس على وجه

يطابق الواقع. والدعة هي سكون النفس عند حركة الشهوة المذلة ،فإذا ما ثارت فى النفس شهوة الانتقام أو التسلط أو الغلبة والظفر للجاه أو للمال أو للنفس ثورة تجاوز بصاحبها نقطة الهدف وحد الاعتدال ، كان من الدعة الفل من غرب تلك النفوس الجامحة ، وأن نقتل تلك الشهوة الثائرة فى أنواعها المترامية فى أطرافها . فالدعة أخص من العدالة ، وهي نوع من الورع الذى يحبوبه الله كثيرا من خاصة خلقه ، فهي لا تنفك عن الصبر على المكرائه والمفزعات ،وهى نوع من أنواع الرضا بالقضاء والقدر .والسخاء هو التوسط فى الإعطاء ، وهو أن ينفق المال فيما ينبغى على مقدار ما ينبغى وعلى ما ينبغى . والحرية هى فضيلة للنفس بها يكتسب المال من وجهه ويعطى فى وجهه ، وتمنع من اكتسابه من غير وجهه . والقناعة هى التساهل فى المآكل والمشارب والزينة . وسنأتى على باقى المنضويات فى فرصة أخرى .

وليست الأخلاق فى حقيقة صورها المختلفة شيئا آخر غير جماع الخير وينبوع السعادات كلها . على أن كثيرا من علماء الأخلاق اختلفوا فى تركز الخلق أو تحوله اختلافا عظيما ، فقال بعض الأقدمين منهم : إن الخلق خاص بالنفس غير الناطقة على معنى أنه غير قابل للتحول والانتقال ،والنفوس الناطقة من طبائعها أن تتحول وتنتقل بالقياس الى ما يعرض لها من تفاعل بما يقع تحت الحس والمشاهدات والعادات . ويذهب فريق منهم الى أن شيئا من الأخلاق ليس طبيعيا للانسان ولا هو غير طبيعى له ، ذلك أنا مطبوعون على قبول الخلق ، فننتقل بالتأديب والمواعظ البالغة إما سريعا أو بطيئا تبعا لقوة تفاعل النفوس أو ضعفها . وإن كان هذا الرأى الأخير هو المرتضى لجمهرة من الأخلاقيين ، وجرى عليه ابن حزم فى ملله ونحله ، ونحا نحوه الامام الغزالى ، وتابعه كثير من السلف ، واختاره (جالينوس) وحكاه ابن مسكويه عن إرسطاطاليس . وحجة أصحاب هذا الرأى ما يقع لهم من مشاهدات مختلفة ، وما يتفاعل به المجتمع من المشاهدات ، وما يحيط بها من تطورات مختلفة وشتى الملابسات . ولأن الرأى

الأول من جهة أخرى يؤدى الى إبطال وظيفة التمييز فى العقل ، ثم الى رفض السياسات كلها وترك الناس همجا مهملين ، ثم بالتالى ترك الأحداث والصبية والى ما يتفق أن يكونوا عليه دون سياسة ولا تعليم ، وهذا فضلا عن أنه ظاهر الشناعة والسخف جد الظهور ، فهو من جهة أخرى يلقى بهذا الوجود وما فيه من مظاهر وما يحيط به من بواعث الى قذفات الصدف وفروض الاتفاق ، ويحيل هذا المجتمع سوقا وضيعة من السلع تكون فيه الغلبة للقوى ، وتتحكم فيه أنواع من السلطان الظالمة مأخوذة بدواع من الشهوات فى سائر مناحى الانسان ، وهذا هو المعول الهادم لبناء هذا المجتمع . أما الرواقيون فيما ذهبوا اليه من شذوذ منقطع النظير ، وأما جماعة من المشائيين وبعض آراء منسوبة إن صوابا وإن خطأ الى (جالينوس) وأما ما ذهب اليه فريق من الهندية وبعض فلاسفة الهند مما يتنافر مع النظريات السليمة التى تقوم عليها عمارة هذا الكون ، فموعدنا بتبيان ذلك كله والكشف عنه الأعداد التالية إن شاء الله ؟

عباس طه

مجلة الازهر

رأى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر أن يغير اسم هذه المجلة ، فجعله (مجلة الأزهر) بدل (نور الاسلام) ، وهو عمل حكيم ، فان فى هذه التسمية الجديدة دلالة ذاتية على مصدر المجلة ، وبيانا لوجهتها وغايتها ، خلافا للاسم القديم فانه لا يفرق بينها وبين ما يصدره الأفراد من المجلات ، فتحتاج معها الى التعريف والتمييز .

وقد ظهرت هذه المجلة من أول هذا العدد بهذا الاسم الجامع ، فنرجو الله أن يجعله فاتحة عهد جديد لها تنال فيه غاية ما قدر لها من ذيوع وانتشار ، وتؤدى للعالم الاسلامى كله ما يتطلع اليه من غذاء عقلى وروحى ، وما يرمى اليه من ثقافة عامة وارتقاء فكرى .

محمد فريد وجدى

بسم الله الرحمن الرحيم

مهمة الدين الاسلامى فى العالم

٢٣

دعوته الى العمل على إقامة العمران فى الا رض

يسوغ للباحث فى الاسلام أن يلقبه بدين العمران ، فانه ما حل بأمة إلا دفعها الى إقامة صرح العمران دفعا ، بتهيئة أسبابه لها من العلم والعمل والتفكير ، وتمهيد سبيلها اليه من الحث على إحياء الموات ، وإقامة المنقض ، والإشادة بذكر الحياة الطيبة ، والجنات المعجبة ، والمياه الجارية ، والبركات المتواترة ، جزاء للقائمين على سنته فى الحياة الدنيا ، يعجله لهم فيها ، ويعدهم إذا انقلبوا الى ربهم بحياة أرفع منها ، فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . كل هذا وهو جار على طريقته من الجمع بين البسطتين : بسطة الروح وبسطة الجسم ، والتوفيق بين السعادتين : سعادة الدنيا وسعادة الآخرة .

ما كاد النبى صلى الله عليه وسلم ينتقل الى الرفيق الأعلى حتى انتدب المسلمون لتحقيق موعود الله من إعلاء كلمة الله فى الأرض ، فانساحوا فيها لا عادين على أهلها ولكن داعين لهم الى الحق ، ولا هادمين لما شيدوه ولكن مكمليه وموجهيه الى وجهة الخير المحض ، تالين على العالم قوله تعالى : « يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا ، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما » « من عمل صالحا من ذكر وأنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » ، « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين » .

فما كانت إلا كومضة برق ، كما قال مؤرخو الغرب أنفسهم ، حتى انتهى المسلمون الى الصين ، وما لبثوا بعدها غير قليل حتى عمت دعوتهم القارات الخمس ، وانفتحت أمامها أبواب العالم التى كانت مؤصدة ، فسرت فى أممه كافة روح لم تكن فيهم من قبل ، وكأنها كانت مندفعة فى تيهور فوقفت حيث تتسمع لتلك الصيحة التى رددت أصداءها بقاع الأرض .

وما هى إلا سنون معدودة حتى نبض عرق الحياة فى الشآم ومصر وكانتا جثتين هامدتين تحت براثن الرومان ، ثم تلتهما العراق وفارس وكانتا تحت سلطان أهلها هيكلين عظميين لم يبق فيهما غير ذماء يوشك أن ينضب فتصبحا هشيما تذروه الرياح ، ثم ما لبثت الممالك القائمة بين فارس والصين والهند وسيبيريا أن أفاقت من غيبوبتها الطويلة ، وأدركت أن لها وجودا وأنها يجب أن تحيا حياة جديدة .

ثم ما كاد يفتتح طارق بن زياد الأندلس وينشر فيها روح الحياة حتى تنبهت الممالك الأوربية لما هى فيه من الخلافات المذهبية ، والحروب الجاهلية ، والجهالة المستحكمة ، فأخذت تتنسم نسمات ذلك العالم الجديد ، وتعشو الى ضوئه وتستفيد من جواره .

كل هذه الأمم التى كانت كالجثث المصبرة ، أو الأجساد المسخرة ، هبت تتلمس الحياة والعمران ، متأسية بما كانت تراه وتسمع به من أثر الاسلام فى أهله ، من تمصير الأمصار ، وإشادة البلدان ، وتعبيد الطرق ، وإحياء الموات ، وتسهيل الاتصالات ، وإقامة المبانى ، وتنشيط التجارات ، وبعث الصناعات ، واستخراج المعادن ، وبناء المستشفيات ودور العلم وبيوت الحكمة ، وتأسيس المكتبات وترجمة المؤلفات .

هذه الحركة المحيية التى كان مثارها بلاد المسلمين وصلت الى ما يجاورها من البلدان ومنهم الى من يليهم ، حتى عمت المعمور ، وتولد منها ما فيه العالم اليوم من علم ومدنية .

ولولا أنه قد سبق لنا الاستشهاد بأقوال المؤرخين فى هذه المواطن لأتينا على الشىء

الكثير منها ، فلندعها طلبا للإيجاز راجين القراء أن يراجعوا ما كتبناه هنا تحت هذا العنوان .

فهل كانت هذه الحركة من النهوض العالمى العام بباعث من الاسلام ؟ إذا كان الأمر كذلك فما هى الآيات الدالة عليها من الكتاب ، والدلالات القاطعة عليها من الآثار ؟

قال الله تعالى : « وإلى ثمود أخاهم صالحا (أى وأرسلنا الى ثمود أخاهم صالحا) قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب ». فى هذه الآية الكريمة حث على العمران وامتنان من الله على عباده بإيتائهم القدرة عليه . قال العلامة البيضاوى فى تفسيره عند قوله تعالى : « واستعمركم فيها » : أى أقدركم على عمارتها وأمركم بها .

وقد أكبر الله تعالى فى آيات كثيرة من الكتاب شأن العمران ووصى المسلمين بأن يحافظوا عليه ، ويُعنَوا به فقال جل وعز : « ادعوا ربكم تضرعا وخُفية إنه لا يحب المعتدين . ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعا إن رحمة الله قريب من المحسنين » ووصف الله الفاسقين فقال : « الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون فى الأرض ، أولئك هم الخاسرون » . وعرّف ألد خصوم الحق فى آية كريمة ، فذكر أن من أخلاقه : « وإذا تولّى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويُهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد » . ولو أردنا أن نستقصى ما ورد فى الكتاب الكريم من الآيات الناهية عن الفساد فى الأرض لاستوعبت صحفا كثيرة ، فلنكتف بما ذكرنا فان فيه لبلاغا للمتوسمين .

نعم إن الفساد ليس خاصا بالعمران ، فانه يشمل كل ضروب الأعمال التى توجب التصدع فى بناء الاجتماع ، والاضطراب فى نظام المعاملات ، والإخلال بالأمن ، والعدوان

على الضعفاء الخ، ولكن مما يندرج فى معناه هدم المبانى وتحطيم المعالم، وتخريب المدائن، وإهلاك الحرث والنسل .

ومما يدل على أن الله تعالى يعتد بكل ذلك، امتنانه على بنى سبأ من اليمن بما وفقهم اليه من تشييد القرى والإكثار منها، والإشارة الى ما أسدى بعض القرى من بركاته فقال تعالى : « وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها (قرى الشام) قرى ظاهرة، وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياما آمنين » فهذا نص صريح فى الإشادة بذكر العمران والتنبيه على أنه من فضل الله على عباده الصالحين . ومما يناسب هذا المقام قوله تعالى : « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية، جنتان عن يمين وشمال، كلوا من رزق ربكم واشكروا له، بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العَرِم، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أُكُل خَمْطٍ وأَثْل وشىء من سِدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور » وفى هذه الآية إشارة من الحق سبحانه بأن الخصب والبركة وخفض العيش آية من آياته تستدعى الشكر لواهبها . وفيها تنويه بالبلدة الطيبة إيذانا بأنها من النعم التى تجب المحافظة عليها والاعتداد بها . ثم انظر كيف أن الله جعل جزاء أهلها حين أعرضوا عن محابّه وأقبلوا على مكارهه أن أبدلهم بالخصب والنماء وبالبلدة الطيبة الحافلة بوسائل العمران، أطلالا دارسة، وبيئة لا تثمر لهم غير النباتات الجشبة . فكما جعل الخصب والعمران من النعم التى يجب استدامتها، جعل القحولة والخراب من النقم التى يجب تجنبها .

ولفت الحق سبحانه وتعالى الناس الى أنه لا يهلك القرى لأنه يكره لشيعته التوسع فى العمران، ولكنه يهلكها لحيد أهلها عن الصراط السوى وإسرافهم على أنفسهم، واستخدام وسائل المتع المشروعة التى فتحها عليهم فى الاستهتار فى الشهوات، فقال تعالى : « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .

وقد بين الله تعالى فى موطن آخر أن العلة الحقيقية فى إهلاك القرى وإزالة

عمرانها ما جناه أهلها على أنفسهم من ناحية آدابهم وأخلاقهم ، وأنه جل وعز أعذر اليهم بالنصح وإرسال النذر لعلهم يثوبون الى رشدهم ، فقال سبحانه : « وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتَها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين . وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون » .

فانظر كيف يشير الله تعالى الى أن أهْوَل المساكن بسكانها ، وحفولها بأهلها ، من النعم التى يجب أن تستبقى بالقيام بحقها ، وأن ما يناقض هذه الحالة من إقواء الدور من قطانها ، وإقفارها من أصحابها ، سببه البطر ، والبطر فى هذا الموطن الاستخفاف بالنعمة وعدم الاعتداد بها .

ومن أقطع الدلائل على اعتداد الاسلام بالعمران وإكباره لشأنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان ينهى أصحابه حين يبعثهم للغزو عن هدم الدور وإحراق الزروع ، إلا ما تقضى به حاجة حربية ماحة . وليس بعد هذا فيما نظن مرمى فى الاعتداد بالعمران ، وفى الاحتفال بأمره .

بهذه الروح الكريمة انساح المسلمون فى الأرض فمروا على مدن وأمصار وقرى لا تدخل تحت حصر فلم يمسوها بسوء ، بل زادوا فى عمرانها ، وأمروا بإشادة أمثالها ، وعرفوا أن العمران لا يقوم إلا بحافز من الخصب ، فعملوا على إحياء موات الأرض . ولما استتب لهم الأمر أمروا بترجمة الكتب اليونانية والسريانية والهندية فى الزراعة والعمارة وطبقوها على العمل . ولما كان لا يقوم العمران بلا صناعة تؤاتيه بالحاجات الضرورية له ، لم يدعوا صناعة من الصناعات التى صادفوها فى البلاد المختلفة إلا تعلموها وحذقوها ، وزادوها تحسينا وارتقاء .

وبما أن الصناعة فى حاجة مستمرة الى المواد الأولية فلم يقصروا فى هذه السبيل ، فاحتفروا الأرض واستخرجوا كنوزها المعدنية ، وأسسوا المصانع لسبكها وصنعها ،

وكل هذا يحتاج الى إلمام شامل بالعلم الطبيعى ، فلم يَنُوا فى تدارسه وتفهمه ونقل كتبه القديمة الى العربية ، وبالغوا فى دراسة الجواهر وصفاتها ومميزاتها وكيفية تحليلها وتركيبها ، ووضعوا لذلك علما سموه بالكيمياء ، وعنهم أخذه المعاصرون باسمه العربى . ولما كان هذا لا يغنى إلا بالتوسع فى العلوم الرياضية فقد تبسطوا فيها الى أبعد مما وصل اليه الكلدانيون واليونانيون القدماء والفرس ، حتى أداهم التبحر فيها الى ابتكار علم جديد فيها سموه علم الجبر . وقد أخذه الأوربيون عنهم بهذا الاسم العربى .

لم يدع المسلمون علما ولا فنا ولا صناعة ولا ذريعة لتكميل صرح العمران إلا أخذوا بها وزادوها بجهودهم رقيا ، ولم تمض عليهم مئتا سنة حتى كانوا فى كل ناحية من نواحى النشاط العقلى والعملى أئمة يرجع الناس اليهم فيها . فلم يكونوا مجرد فاتحين ولكنهم كانوا معلمين ومصلحين أيضا . نزلوا الشام فعمروا مدنها ، وأحيوا مواتها ، وجعلوا عواصمها عواصم العلم والحكمة . وامتلكوا مصر فنشروا فيها العدل والإنصاف ، ورقوا صنائعها وجعلوها تنافس أرقى الممالك الأرضية . وتولوا العراق وكان قبلهم تابعا للفرس ، فنقلوا إليه عاصمة الدولة ، فأبلغوه الى مكانة من السؤدد لم يكن له حتى فى زمن الآشوريين والبابليين ، فكانت عاصمته بغداد سيدة العواصم كلها علما وصناعة ومدنية ، فاكتظت بالسكان حتى بلغوا فيها الى مليونى نسمة ، وهو عدد لم يسمع به فى بلد سواها حتى ولا أثينية ورومية فى إبان عزهما وحضارتهما التاريخية .

واجتازوا الأندلس فأسسوا فيها دولة كان لها الأثر البعيد فى نشر الثقافة العلمية حتى أصبحت جامعاتها تهب النور لمن يطلبه منها ولو كان أجنبيا عن الاسلام لا يمت الى دولته بأقل صلة . فكثر فيها الطلاب الأوربيون يعبون من معينها الصافى ، ويعودون الى بلادهم ينشرون العلم والمدنية . وكان ممن تعلم فيها سلفستر الذى تولى البابوية الرومانية .

وقد بلغ من علو كعب الأندلس فى العمران والمدنية أن ملوك أوربا كانوا يقصدونها

للاستشفاء على أيدى أطبائها ، فيقابلون بإكرام ، ثم يعودون الى بلادهم مشيدين بذكر الحضارة الاسلامية .

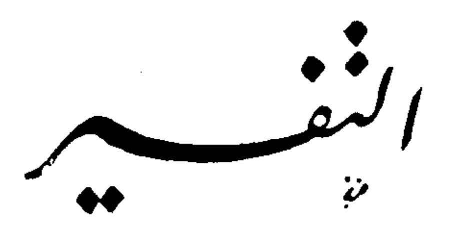
وقد أثرت مدنية المسلمين فى الأوربيين تأثيرا عميقا ، حتى إنهم نقلوا كتب ابن رشد وابن زهر وابن سينا وغيرها الى لغاتهم وأخذوا يتدارسونها ، فكانت سببا فى إنهاض هممهم وهم فى ليل دامس من الحكم المطلق ، فهبوا يتطلبون الحياة ثائرين على نظمهم الجائرة ، مجازفين بحياتهم فى سبيل الحياة والحرية . فدام التنازع بينهم وبين الآخذين بخنقهم قرونا حتى تم لهم النصر عليهم فى القرن السادس عشر ، فكان العهد الذى يسمونه عهد البعث الذى سبق عهد المدنية الأوربية الحاضرة . فهذه المدنية التى فتنت العالم اليوم بعلومها وفنونها وصنائعها مدينة للمسلمين بوجودها كما رأيت ، وكما يعترف به مؤرخوها فى مؤلفاتهم المتداولة . وقد نقلنا الشىء الكثير من ذلك فى مقالاتنا الماضية .

فالفتوح الاسلامية لم تكن فى حقيقتها إلا صوت الحق ينبه الغافلين ، ويوقظ النائمين ، ويستحث هممهم الحاكمين والمحكومين ، الى تلمس الحياة الصحيحة ، والخروج مما هم فيه من التقاليد الموبقة ، والرسوم المردية .

وقد أنجح الاسلام فى تحمل هذه التبعة الى حد بعيد ، فأحدث فى العالم دويا امتاز به دون سائر الفتوح العالمية . فكان من أثره الخير العمم ، بخلاف تلك الفتوح ، فقد خلفت وراءها الخراب والدمار ، حتى إنها أفنت أمما برمتها تحت كلاكل اضطهادات يقشعر لقراءتها جلد الانسان .

أفلا يستحق بعد هذا البيان أن يلقب الاسلام بدين العمران ، العمران العالمى العام ؟

محمد فريد وجدى



سورة الرعد

— ٦ —

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ، وَإِذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ . هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ، وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ، وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَٱلْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ، وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ ، وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ »

قد بينت الآيات السابقة أن الانسان فى هذه الحياة محاط بعلمه تعالى ونفوذ قدرته ، فلا يخفى عليه تعالى من أمره شىء : « سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار » ، ولا يفلت منه شىء ، بل « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » . وقد سبق فى العدد الماضى تفسير ذلك وما قاله فيه أئمة التفسير . وترى فى هـذه الآية الشريفة التى نحن بصددها تقريرَ القاعدة الاجتماعية ، وشرحَ القانون الإلهى الذى ارتضاه جـل وعلا لسير هذا العالم الانسانى فى حياته التى اختارها له عز وجـل . فالانسان مع إحاطة عـلم الله بكل ما ظهر وخفى من شئونه ، ومع خضوعه لأحكام القضاء والقدر المتسلطين عليه تسلطهما على كل عالم

من العوالم ، قد منحه عز وجل نوعا من الاختيار فى أعماله ، وإطلاق التصرف ، يصنع ما يريد ويفعل ما يختار ، ولكن فى دائرة لا تتجاوز علم الله وإرادته ، فهو يعمد الى اختيار ما يحلو له ويطيب فى نفسه ويغلب عليه الميل اليه من خير أو شر حسبما وهبه الله من قوة الارادة والاختيار ، ولكن ما يختاره فى مستقبله ويميل اليه بإرادته ومشيئته قد علمه عز وجل منه وأراده فى الأزل ، وأراد أن يفعله باختياره ومحض إرادته ، لا أن يفعله مرغما مكرها مقهورا مجبرا : «وما تشاءون إلا أن يشاء الله» . فإرادة الله الأزلية وعلمه الأزلى لم يخلّ باختياره ولم يسلب عنه مشيئته ، بل قد حققها . فالله قد أراد منه أن يفعل باختياره ، فمحال أن يفعل مكرها ، وإلا لم يتحقق ما أراده الله من أن العبد يفعل بإرادته واختياره ، ولم يتحقق معنى (تشاءون) فى قوله : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله» فإرادة الله وعلمه الأزليان لا إخلال فيهما بإرادة العبد ومشيئته ، بل هما محققان لهما .

ولقد أبدع جل وعلا فيما سنه للانسان من نظامه الاجتماعى ، فربط المسببات بأسبابها ، وهداه النجدين طريق الخير والشر ، ونصب لكل منهما مغريات وبواعث تدعو اليه ، فأودع فيه الميل للشهوات ، واختلاس الفرص وحب الذات ، وأشرب نفسه الميل للعلو على الغير وحب الانفراد بالطيبات ، مما يكون مدعاة للأنانية والاستئثار ، وأعطاه من سلاح القوة ما يستطيع به التغلب على مزاحمه ومنافسه ، فتطغى بذلك فيه قوة الشهوة والغضب والأنانية والأثرة ، ويميل الى الظلم والاستهتار والخلاعة والمجون . ولكنه لم يدعه لهذه المهلكات تفتك به وتشقيه ، وتجعل حياته تعسة بما يتفشى فيه من تناحر وتطاحن ، وبما يوهن من عزيمته من خلود الى الدعة والراحة واستغراق فى الشهوات واللذائذ ، بل عصمه أولا بنعمة العقل والتمييز والإدراك ، حتى يبصر عاقبة كل فعل حلا مبدؤه وخبثت عاقبته ، فيعتبر ويزدجر بما مر عليه من تجارب ؛ وأمده ثانيا بنعمة الشرائع تتنزل من لدنه جل وعلا رحمة بالناس ، فتعين العقل على مغالبة العواطف التى تنتابه فتطمسه .

وقد جاءت الشرائع لسعادة الناس مناسبة لحالهم فى كل عصر وأوان ، حتى كمل الانسان واستعد لتلق أعظم وأدوم شريعة جامعة لمصلحته فى كل طور وكل عصر ، وكفيلة بسعادته فى الدنيا والآخرة ، ومنظمة لعلاقته بربه على أكمل الوجوه وأتمها ، ومنظمة لعلاقة أفراده بعضها ببعض ، سواء فى الاجتماع الملاصق القريب وهو باب الأحوال الشخصية ، أو فى المجتمع البعيد على اختلاف مراتب البعد من السياسة المدنية كالمعاملات والحدود ، والسياسات الدولية كالمحالفات والعهود ، وصون كل أمة حياتها وحمايتها مصالحها .

جاءت الشريعة موقظة للعقل ، هادية له الى سبيل الخير ، مرشدة الى ما ينبغى عمله وما ينبغى تركه ، ببيان عاقبة كل فعل من خير أو شر ، حتى يتقوى سلطان العقل على سلطان الهوى ، لكى لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

فجاء فى الشريعة الغراء قصص الأمم الماضية وما انتابها وحاق بها من سوء أعمالها ، وعدد بالتفصيل ما أنعم الله به عليها وما مكن لها فى ملكه ، وشرح ما أصابها حين استغرقت فى لذائذها وشهواتها ، أو غلب عليها الغرور وانغمست فى الشرور بطغيانها . كل ذلك جاء تفصيلا فى غير ما آية من الكتاب العزيز ، ليكسر من حدة اعتداد الانسان بنفسه ، وتماديه فى غروره ، ونسيانه أن الاعتدال فى كل شىء هو مصدر بقاء بنيان الكون ، وأن الميل هو سبب التهدم والانهيار .

وجاءت هذه الآية الكريمة جامعة لما تفرق فى كثير غيرها من الآيات والعظات ، فهى من أجمع جوامع الكلم ، فقال تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » أجل حقا وصدقا : لقد جرت عادة الله فى الأقوام والأمم أن من سلك للحياة سبلها القويمة ، ودأب على مراعاة قوانينها المنظمة ، فإنه إن كان فى أول أمره فى فقر وعدم فإن دأبه فى عمله الصالح وجدّه فى تحصيل خيرات الله التى وعدها لمن أحسن عملا ، سيغيره به الله من فقر وعدم ومن وحدة ووحشة ، الى يسار وغنى ، والى عمران وكثرة ، والى راحة وهناءة .

انظر الى الأمم تبدأ بالبداوة والوحشية فتستمرئ طعم العمل والجد، فلا تلبث أن تغدق عليها الخيرات والنعم. فإذا ما استمرت فى سلوك هذا السبيل كانت كل يوم تزداد نعما ورغدا، وهكذا حتى يدال لها على غيرها وتصبح فى عز ومنعة، فتصلح لأن تسود غيرها، ويمكن الله لها فى ملكه حتى تصبح مهيمنة على كل أمة تتصل بها ممن لم يجدّ جدها ولم يكدّ كدها، ولم يرع قانون الاعتدال فى أحواله مثلها. فإذا ما طغت تلك الأمة وحادت عن الجادة، واستمرأت مرعى الشهوات الوخيم، واستنامت للراحة والكسل، وانغمست فى اللذائذ التى تأكل الهمم وتبرد العزائم، وتميت الرجولة وتذيب النفوس، ضاعت منعتها، واضمحلت حياتها، وذهب ريحها، وأبدل بها الله من هو خير منها فى استعمار الأرض والسيطرة على الحياة. وذلك ما ذكره الكثير فى تفسير قوله تعالى: «ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادىَ الصالحون».

ومثل الاسترسال فى الشهوات، الاندفاع فى الطغيان، والتمرد على بنى الانسان، والمجافاة لقانون العدل والإنصاف، والتمادى فى اغتيال الحقوق، والاستئثار بالثمرات والخيرات اعتمادا على القدرة وقوة البطش. فهذا أيضا باب من أبواب الهلاك والدمار، فإن أقرب نتائجه انصراف همم العاملين المغلوبين عن استعمار الأرض واستثمارها، فيعم الخراب القوىّ والضعيف، وينزل مقت الله على الجميع.

وهكذا تجد الآية الكريمة مقررة هذه القاعدة الاجتماعية الصادقة، وهى أن تغيير الله لحال الأمم تابع لتغييرهم ما بأنفسهم من خير الى شر أو من شر الى خير، وما كان الذى ذكرناه إلا مُثلا جزئية لما ينطوى تحت هذه القاعدة الشاملة الكلية.

تنقل بنظرك حيث شئت فى أمم حاضرة تشاهدها، أو ماضية تقرأ أخبارها، تجد القاعدة مطردة، وتجد نظام الكون دائم السير على نظام واحد، لايفرق بين قوم وقوم، ولا بين أمة وأمة، وأن كل شىء قد ارتبط بسببه ارتباطا محكما لايؤثر فيه غيره،

وليس بلازم إذا رقت أمة فى شىء أن ترقى فى كل شىء ، ولا إذا انحطت فى شىء أن تنحط فى كل شىء ، وإنما اللازم أن ما وضعه الله عز وجل من ارتباط شأن من شئون الحياة بشأن آخر منها ، قد أحكم نظامه ، وأوثق رباطه فلا يُخلَف من اتبعه ، سواء أكان من أبواب الخير أم من أبواب الشر .

لا تجد أمة جدّت فى إتقان صناعتها وضاعت عليها ثمرة إتقانها ، ولا أمة اجتهدت فى ترقية زراعتها وخيب الله سعيها أو أخلفها خيره وميره ، ولا أمة هذبت أخلاقها وقوّت خلق الصدق والأمانة بين أفرادها ، وكافأها الله على ذلك بضياع الثقة والطمأنينة بين أفرادها بعضهم مع بعض ، أو ضاعت الثقة بها عند الأمم الأخرى المجاورة لها العارفة بأحوالها ، سواء أكانت فيما بينها وبين ربها قائمة بحقوق العبادة أم أخلت بشىء منها . ومن ذا الذى يقول إن أمة غلبت عليها شقوتها واستحوذت على عقولها شهوتها وأخلدت الى السكينة والراحة واستعذبت الكسل واستمرأته ثم اكتفت بأن قامت بمراسم العبادة قياما صوريا لم يتغلغل الى قلوبها ، ولم يملك عليها وجدانها ملكا يضبط جوارحها ويهذب من أخلاقها ويبعدها عن مغاضب الله فى الصدق والأمانة ، تكون هى الحائزة للسيطرة على هذه الحياة ، وتمتلك التصرف فى رقاب العباد ؟ لا ، لا :

فلا تطل ذكر المنى فالمنى رءوس أموال المفاليس

إن لكل طريق غاية يوصل إليها ، ولكل عمل ثمرة منتظرة منه ، ولكل خلق فائدة تترتب عليه ، ولكل سبب مسبب منوط به « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » لا فرق فى ذلك بين خيرات الدنيا والآخرة وشرور الدنيا والآخرة ، فمن قام بعبادة ربه وأدى طاعته فقد سلم مما أعده الله للعصاة فى الدار الآخرة . ولكن هل إذا أضاف الى ذلك التوانى والكسل وإهمال العمل ، تنهال عليه أمطار الرزق وينهمر عليه غيث الخير ؟ لا لا ، كلا وألف كلا : فكل مسبب مرتبط بسببه . بل إذا قال قائل إن ثمرة الإيمان الصحيح هو أن يتّبع المؤمن ماسنه الله لخالقه

من مراعاة حكمته فى استخلافه لبنى الانسان فى أرضه ، يستعمرونها ويستثمرونها ، بما وهبهم من قوة ، وبما مكن لهم فى الأرض ، وبما قال لهم فى كتابه العزيز : « خلق لكم ما فى الأرض جميعا » أقول : إذا قال قائل إن هذا من ثمرات الإيمان الصحيح ، لم يكن فى قوله بعيدا عن الصواب . فكما أنك تقول : إن من قام بإتقان عمله التجارى ربح ولا يلزم أن تصح زراعته ؛ ومن قام باصلاح زراعته جنى ثماره ، وليس بلازم أن يحسن إدارة التجارة ؛ ومن حذق أساليب الصناعة ارتقت أعماله الصناعية وإن كان أجهل الناس بالزراعة والتجارة ، وهلم جرا ، فقل كذلك إن من حذق أسباب العمران ارتقى العمران على يديه ، ومن قام بواجب الدين أثابه الله فى آخرته ، ومن أتقن الأمرين معا أحرز السعادتين ، ومن أهملهما معا خسر الصفقتين ، ومن كان فى حال ثم تبدل بها غيرها فقد أحرز نتيجتها شرها أو خيرها « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » لا فرق فى الشر بين ما فى الدنيا وما فى الآخرة .

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها   إن السفينة لا تجرى على اليبس

وإن العدل الإلهى لعدل مطلق لا ينبغى أن ينتظر فيه أن يتعب امرؤ أو أمة ويجد ويكد ثم هو مع ذلك يحرم من الثمرات ، بينما آخر قد استنام وأخلد الى الدعة والكسل ثم هو مع ذلك يفوز . كلا كلا : إنما ذلك يجرى فيما بين العباد عن ظلم واعتساف ، فاذا ما استمر ذلك فى قوم وساد بينهم الظلم ولم يجدوا من يضع لهم حدا ينقذ الأمة من وخيم عواقبه ، فقد غيروا ما بأنفسهم ، فلا يلبثون أن يحل بهم من الخراب ما يحقق قوله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

ولا تنس أن الآية تقرر قاعدة اجتماعية أى حكما يتعلق بالانسان من حيث يجتمع هو وغيره فى شئون الحياة ، يرشدك الى ذلك التعبير بلفظ قوم دون أحد أو إنسان أو امرئ أو نحو ذلك ، فلا يقال : قد نرى رجلا صالحا قام بعمل واجتاحته جائحة أو ما يشبه ذلك ، لأن هذه الأحوال على ندرتها ليست من أحكام الاجتماع العامة ، وإنما هى من الحوادث التى يريدها الله لحكم قد نعلمها وقد لا نعلمها ، والله عليم حكيم .

وبعد : فإن مضمون هذه الآية الكريمة لو فرض أنها لم ترد فى كتاب الله الذى لم يفرط فيه من شىء ، لحق على الناس أن يفهموه من مشاهداتهم للأمم المحيطة بهم ، بل من النظر فى أحوالهم أنفسهم من ماض وحاضر ، فلا تكاد تجد أمة إلا وقد مرت بها أدوار انحطاط وارتفاع ، وانحلال وتماسك ، وكل ذلك تابع لما أصيبوا به أو دفعوا له من عوامل بقاء أو فناء ، وسعادة أو شقاء .

ومن ذا الذى يخفى عليه أدوار مصر فى ارتفاعها وانخفاضها ، والعوامل التى أوجبت ذلك بحسب ما تعاقب عليها من أنواع الحكم الذى هو أكبر عامل فى تكييف الأمم ؟ بل نرى بأعيننا بعض قرى تعاقبت عليها أحوال متناقضة حسبما وقع فيه أهلها من عوامل الفناء أو البقاء .

لا أنسى بلدة رأيتها قد امتازت فى تنويع مزروعاتها واختيار أرقى أصناف الزراعة التى تحتاج الى دقة وتنتج خيرا وفيرا ، فسألت عن سبب امتيازها بين جاراتها بهذه الأنواع ، فقيل لى إن هذه البلدة قريبة من المدينة عاصمة المديرية كما ترى ، فكان ذلك مدعاة لإغواء أبنائها وتلهيهم بملاهيها ، وإسرافهم على أنفسهم فى شهواتهم ، فلم يلبثوا أن ركبتهم الديون حتى اكتسحتهم من أملاكهم وأصبحوا فيها غرباء ، فأشرفوا على الفاقة المهلكة وانتزعت منهم أملاكهم للدائنين ، فرأوا أن الزراعة المعتادة لا تنقذهم من وهدتهم بعد ما ضاقت بهم أملاكهم التى كانت واسعة ، ففتقت لهم الحاجة أبواب الحيلة ، فتفننوا فى زراعات جديدة من البذور الغالية ، وعكفوا على تنميتها وترقية أصنافها ، فسدت عوزهم فذاقوا لذة الغنى ، فأكبوا على الأخذ بأسبابه ، فتراجعت حالهم . فقد كانوا أغنياء كلهم فافتقروا كلهم ، ثم أغناهم الله جميعا ، وكل ذلك بعوامله وأسبابه ، فقلت : صدق الله العظيم « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وإن تعجب بعد ذلك فعجب أن تتضافر المشاهدات المتكررة والوحى الصادق على إثبات قاعدة لا تزيدها التجارب إلا رسوخا ، ثم تدعو إليها مصلحة الأمم ، وتجدهم

مع ذلك ينصرفون عنها ولا يعملون بمقتضاها . فهل هذا إلا من عمى القلوب ؟ سبحانك اللهم أنت تهدى من تشاء وتضل من تشاء ، ومن يضلل الله فماله من هاد « وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال » .

أجل : لو لم يكن الأمر كذلك ، وأنه إذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ، فبما ذا نعلل خروج الأمم العاقلة المبصرة على ما علمته علم اليقين ، وزادت به استبصارا بالتجارب والمشاهدات فى نفسها وفى غيرها ، ثم تمعين فيه مصلحتها ؟

رب إن الهدى هداك وآيا تك نور تهدى بها من تشاء

فى مثل هذه الأمم تجد الأفراد يتقاذفون الملامات ، وكل يتنصل مما أصابها ويرمى غيره بأنه سبب بلائها . ولو أنصف كل امرئ من نفسه لعلم أنه بإصلاح حاله وقيامه بواجبه حق قيامه يكون قد أكسب أمته خيرين : خيرا بزيادة عدد الصالحين النافعين واحدا ، وخيرا بنقص عدد الفاسدين الشريرين واحدا ، وفى كل من زيادة المصلحين ونقص المفسدين فائدة ومنفعة . فاللهم اهدنا صراطك المستقيم !

ترى من هذا أن الآية الكريمة محتملة لإفادة العموم فى كل شئون الانسان ، والحمل على العموم أغزر للفائدة . ويكون التناسب بينها وبين الآى السابقة أن الكلام مبناه من أول السورة على بيان آيات الله الكونية الدالة على عظيم قدرته ، وبديع حكمته ، وواسع علمه ، وباهر نظام تكوينه ، فسيقت آيات الشمس والقمر والزرع والنبات وأمثالها ، وفصلت تلك الآيات بالتعجيب من حال المنكرين للبعث الآمنين مكر الله ، والنعى عليهم ، وتسفيه أحلامهم فى استعجالهم بالسيئة قبل الحسنة ، وفى طلب إنزال آية ، كأن لم يكفهم ما رأوا ، ثم العود الى تقرير الأدلة الناصعة على إحاطة علمه جل شأنه بكل ما خفى وما ظهر ، وأن جنده محيطون بالعباد ، ولا يفلت من أمرهم شىء ، ولا يصيبهم مما يحيطهم شىء إلا ما قضى وقدر ، وأن أمره نافذ فى جميع ملكه بلا معارض ولا ممانع . ثم أردف ذلك ببيان أن نظام العالم فى ارتباط أسبابه بمسبباته نظام

مطرد ، لا يختل عما رسم ، ولا يغاير ما حكم ، إلا أن تكون حكمة تقتضى أمرا معينا هو أعلم به وأمره موكول اليه ، وإلا فما عدا ذلك من إنتاج كل عمل ما رتب عليه من خير أو شر أمر مطرد ، فاحذروا أن يصيبكم ما أصاب المعوجّين من خراب وهلاك ، وارجوا من فضله ورحمته ماغنمه مَن قبلكم ممن أحسنوا السير ، فلا السعادة ولا الشقاوة منثورتين فُرُطا ، ولا الأمور تجرى على غير هدى ، بل هو حكم بالغ ونظام كامل ، فمن اتبع سبيل الهدى والاستقامة أدرك السعادة ، ومن اعوج وضل ندم حيث لا ينفعه الندم « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وجمهور المفسرين على أن المعنى : إن الله لا يغير ما بقوم من النعم حتى يغيروا ما بأنفسهم من الطاعات ، وأنه لا ينزل عذاب الاستئصال والمقت إلا على العصاة . وهذا — على ما نرى — بعض ما تشمله الآية . وفى نظرنا دلالتها أوسع مما ذكروه . والقاعدة على ما قررنا أبلغ ، والله المستعان .

وأما قوله تعالى : « وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال » فموقعها مما قبلها يشبه ما يسميه علماء البديع (الاحتراس) فإنها تدفع ما قد يتوهمه متوهم من أن العالم حينئذ خاضع لما يجرى من العباد ويأتونه من خير أو شر ، فأين قدرة الله وإطلاق مشيئته وإرادته ؟ فجاءت هذه الآية لدفع هذا الوهم ورد الأمر الى نصابه الحقيقى ، ببيان أن من يهدى الله فلا مضل له ، ومن يضلل الله فما له من هاد ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله . وكون مشيئة الله أصلا لمشيئة العبد لا يقتلع ما للعبد من مشيئة ، فله مشيئة واختيار يبتنى عليهما تكليفه ، فيستحق الثواب والعقاب على ما أتى ، وتربى فيه الهداية التشريعية إرادة الخير لما فيه من النفع الدائم الخالد ، وتنتزع منه حب العاجلة حبا يضيع عليه الآخرة الآجلة . فهو مختار بلا شك ، ومكلف أن يتخير ما فيه الخير الحقيقى لنفسه . وقد بين له الطريقين « وهديناه النجدين » « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا » .

ومعنى الآية الكريمة أنه تعالى مع كونه قد ربط ما يصيب العباد من سعادة وشقاوة بما يصدر منهم من خير أو شر ، وأنه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فيستحقوا ما ينزله بهم من شقاء أو نعيم ، فإنه مع ذلك نافذ الإرادة فى ملكه وفى خلقه ، فإذا أراد بقوم سوءا أوقعه بهم لا يدفعه عنهم دافع ، فهو القاهر فوق عباده ، فاتقوا سطوته وخافوا غضبه ، فإنكم إذا تعرضتم لغضبه أنزل بكم ما تستحقون ، ولا يكون لكم من يلى من أمركم شيئا ، ولا يرد عنكم سوءا . فقوله : « وما لهم من دونه من وال » أى لا يكون لهم حينئذ من يعصمهم من عذاب الله أو ينصرهم إن أراد بهم العذاب . نسأله تعالى النجاة من غضبه ، وأن يصيبنا برحمته :

قال تعالى : « هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال » :

ما أحسن ما فى الآية الدالة على عظيم قدرته وأنه لا راد لقضائه بهذه الآية الكريمة التى تريهم مظهرا من مظاهر القدرة لا قبل لهم باتقائه ولا الفرار منه ، ولا يعصمهم منه من دون الله من عاصم : ذلك هو ما يرونه من الآيات السماوية تنقض على الناس من فوق رءوسهم من غير سابقة إنذار ، فإذا بها قد أصابتهم من حيث لا يشعرون ، فأين يفرون وبأى ملجأ يعتصمون ؟ أفلم يروا الى البرق يفاجئهم فتختلف بهم النزعات ما بين خوف من رهبته وقوته ، وطمع فيما يبشر به أن يتلوه من غيث ومطر ، فتلعب بقلوبهم العوامل المختلفة ، وتهتز جوانحهم رغبا ورهبا ، لا يملكون أن يدفعوا عن قلوبهم تلك الهزات فضلا عن أن يدفعوا مصدرها أن يصيبهم بالهلاك . فهل يبقى بعد هذا قلب لا يخضع لعظمة الله ويخشى سطوته ويرجو رحمته ؟ أفما آن لكم أن تعترفوا بعجزكم ، وترجعوا الى الهدى الذى يجيئكم من ربكم ، وهو الذى ينشئ السحاب الثقال ؟ وقد علمتم أن ذلك مياه متجمعة فى الجو ، فلو كان الأمر قاصرا فى التصريف على ما عهدتم لكانت تلك المياه

بحاجة الى إناء سميك يحفظها ، ومكان ثابت ترتكز عليه لثقلها ، ولكن قدرته والنواميس التى بثها فى ملكه دلائل على قدرته ، أوسع من أن تقف عند ما تعهدون ، وأن تقتصر على ما تعتقدون ، فإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ، فأين أنتم وماذا تظنون ؟ .

وهو الذى يسبح الرعد بحمده بما يدل على عظمة مبدعه وواسع قدرة منشئه ، فينطق كل قلب وكل لسان بتحميد منشئه وتمجيده ، ذاك أن المرء متى رأى الأمر العظيم الذى يهوله ، انطلق لسانه بتحميد مبدعه ، بل قال إن هذا آية ناطقة بتمجيد فاعله : « وإن من شىء إلا يسبح بحمده » فليس بلازم أن يكون التسبيح بالنطق اللسانى ، بل أين نطق لسان المقال من صدق لسان الحال ؟ على أن التسبيح اللسانى لا استحالة فيه ، فلا نرى ما يمنع من الحمل عليه اذا صحت الرواية المعصومة بتفسيره به . وأنت ترى فى هذا الذى قلنا ما يبين معنى التسبيح من الرعد ، فهو إما بمعنى حمل العباد الشاهدين له السامعين لصوته على تسبيحه تعالى وتنزيهه ، وإما بمعنى دلالته على أنه جل شأنه منزه عن كل عجز أو نقص ، مستحق لكل ثناء وحمد ، فيكون على الأول من باب المجاز العقلى ، أى يسبح سامعوه ، وعلى الثانى من باب المجاز اللغوى ، أى يدل على تنزيهه عز وجل . والباء فى يسبح بحمده للمصاحبة ، أى ينطق بتنزيهه تعالى عن كل مالا يليق ، تنزيها مصحوبا بالثناء عليه بصفات العظمة .

وقوله : « والملائكة من خيفته » أى وتسبح الملائكة خوفا منه تعالى ، فانه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون . ومن ذا الذى يعلم من عظمة البارى ما تعلمه الملائكة المقربون ولا يمتلئ هيبة وخشية ؟ وهل لا يكون الخوف إلا من وقوع العذاب ؟ ألا فليعلم أن خوف الرهبة ربما قتل وأهلك بمجرده . والملائكة هم عباد الله المكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وهم بتصريف الكائنات العالمية موكلون ، فما من عالم من بحار ورياح ، وسحاب ورعد وبرق وزرع وحيوان ، إلا وعليه ملائكة

مصرّفون بأمر ربهم ، حافظون عليه كيانه وآثاره ، يحفظونه مما هو عرضة له بأمر ربهم ، كما سبق فى تفسير « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » « وما يعلم جنود ربك إلا هو » وليس هذا عن حاجة المولى عز وجل اليهم ، حاش لله ! ولكنه نظام الملك كاملا ، وآثار العظمة باهرة .

قال تعالى : « ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء » :

هذا من تتمة الدلائل السابقة التى تملأ النفوس رهبة وخشية ، ولعلها أشدها فى إيجاب الحذر والخوف ، فالصواعق تنقضّ على حين غفلة ، وتنزل على ما تصيبه بغتة فأين منها المفر وهى يصيب بها من يشاء ؟ ودع ما يتعلل به المتعللون من نصب جاذبات الصواعق على ظهور البيوت ، يزعمون أن معدنا خاصا يجذب الصاعقة النازلة اليه فينجو باقى البيت ، فهب هذا فما الذى يعصم صاحب البيت فى غدواته وروحاته ، بل ما الذى يعصم البيت من أن تكون الصاعقة قوية تستأصل الجاذب وما يحيط به ؟

يا للعجب ! كل هذه الدلائل الباهرة تتراءى لهم وتتكرر أمامهم وهم يجادلون فى الله جدال من يشك فى قدرته وواسع علمه ، فهل بعد هذا من غفلة ؟ وهل غير هؤلاء القوم يرثى لهم ولما أصيبوا به فى عقولهم ؟ أفما كفاهم كل هذا حتى لا يزالون يجادلون فى الله وفى قدرته وهو شديد المحال ؟ أى شديد الحول عظيم القوة ، على أن الميم زائدة ، أو هو شديد الكيد عظيم التدبير ، من قولهم : تمحل لكذا ، أى تكلف استعمال الكيد واجتهد فى الحيلة . والمراد بمثل هذا أثر ذلك لا حقيقته ، فهو كقوله تعالى : « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » فإن حقيقة المكر مستحيلة عليه تعالى ، والمراد لازمه وهو أخذهم على غرة من حيث لا يحتسبون ، فكذلك هنا : المراد وهو شديد الكيد بالإيقاع بهم وإحباط مساعيهم والتغلب عليهم بحالة خفية كما يفعل المتمحل المكايد ، والمعنى فيهما متقارب .

هذا والبرق والرعد والصواعق ظواهر جوية معروفة لكل الناس ، ومعرفتها على

هذا الوجه كاف فى الاعتبار والازدجار، وفهم كلام العزيز الجبار. أما حقائقها وأسباب تكوينها فلها علوم أخر تكفلت بشرح ذلك شرحا وافيا، فليرجع اليها من أراد استقصاءها. ولعل ما ورد فى بعض الروايات من تفسير الرعد بملك يسوق السحاب وأمثاله، يقصد منه الشارع — إن صحت روايته — توجيه نظر السائل الى ما ينبغى أن يتجه اليه فى الملاحظة عند رؤية البرق وسماع الرعد، من أن يلتفت الى عظمة ملك الله وقوة سلطانه وبديع نظامه، ليملك عليه قلبه، فينتقل من رؤية الآثار الى تسبيح مؤثرها العزيز القهار، فهو من باب ما يسمونه فى علم البديع (أسلوب الحكيم) وهو تلقى السائل بغير ما يترقب تنبيها على أنه الأولى بحاله والمهم له، بل هو الذى ينبغى أن يرجع فيه الى تعليم النبوة. ونظير هذا قوله تعالى: «يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج». سألوا عن السبب فى أن الهلال يبدو صغيرا ثم يكبر، فأجيبوا بالحكمة المترتبة على ذلك، وهى أن يرتب الناس مواقيتهم ومصالحهم الدينية والدنيوية، أما دقائق العلوم والصناعات فليست من مقاصد نظر النبوات، وإنما يتوصل اليها الانسان بواسع تفكيره وثاقب نظره، فيهتدى الى ما تحتاج اليه مصالحه فى معيشته. وقد قدمنا لك أن لكل عالم من العوالم ملائكة موكلين بتصريفه وتدبيره وهم من أمر الله، وليس ذلك لعجز عن أن يستقل بالأمر، أو لاحتياج اليها فى تدبير الملك، بل لاستكمال النظام. كيف وهو رب كل شىء، وخالق كل شىء، والعالم بكل شىء، وهو على كل شىء قدير؟

نسأله تعالى أن يمن علينا بالهدى، وأن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، والله المستعان، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ابراهيم الجبالى

الاسلام والفلسفة

نظرة تاريخية :

كان العرب فى جاهليتهم أمة بدوية رحالة تنتجع مساكب الغيث وتستوطن منابت الكلأ ، فشغلتها هذه المشقة العنيفة فى سبيل تحصيل المعاش وجلب القوت عن التأمل فى أسرار الكون والطموح الى معرفة نشأته ومصيره ، ولم يحل بينهم وبين الانتاج الفلسفى ضيق طبيعى فى عقولهم ، وقصر فطرى فى أذهانهم كما يزعم « أرنست رينان » فى كتابه « خطب ومحاضرات » الذى رمى فيه العقلية العربية بأقبح الصفات ، ووصمها بأشنع العيوب . وأسطع برهان على بطلان رأى « رينان » هو أن العقلية العربية استطاعت فيما بعد ، أى حين هيأ لها الاسلام الفرص الملائمة ، أن تبرّز فى الفلسفة ، وأن تأتى فى كل النواحى العقلية بالعجب العاجب كما يظهر ذلك من دراسة فلاسفة الاسلام .

أما أخلاقهم وطباعهم فى ذلك العصر الجاهلى ، فقد كان كثير منها غاية فى الغلظة والقسوة والبربرية . وأما تشريعاتهم فكان يكتنفها نوع من الهمجية لا يعرف له نظير إلا لدى الأمم المتوحشة . وأما دياناتهم فكانت وثنية ساذجة جافة لا روح فيها ولا حياة ، تسير فيها العبادة على نسق لا يسيغه العقل ولا يؤيده المنطق أو الذوق السليم . وعلى الجملة ، فقد كانت كل حياتهم الاجتماعية والأخلاقية والدينية والسياسية مضطربة اضطرابا يؤذن بالخراب والدمار : يشتعل أوار الحرب بين القبيلتين ويستمر أعواما طوالا تزهق أثناءها مئات الأرواح وتيتم مئات الأطفال ، وتئيم مئات النساء ، كل ذلك من أجل سباق حصانين ، أو من جراء كلمة تافهة تخرج من فم شاب متسرع أو ما شاكل ذلك .

فلما أراد الله جل شأنه أن ينقذ هذا الشعب من تلك الوهدة السحيقة التى هوى فيها ، بعث اليه سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم مؤيدا بذلك الكتاب الفخم الذى يقول فى وصفه العالم الفرنسى مؤلف كتاب « فى الدراسات الدينية » ما يلى : « كفى هذا الكتاب مجدا وجلالا أن الأربعة عشر قرنا التى مرت عليه لم تستطع أن تجفف أسلوبه الذى لا يزال غضا كأن عهده بالحياة أمس » .

بل هو الذى تحدى أعداءه على طول الخط أن يجاروا أقصر سورة منه فى ميدان الفصاحة والبلاغة اللتين كانتا كل ماامتاز به العرب من موهبة ، فأعلنوا عجزهم ، وسلموا الراية لصاحب هذا الدين الجديد ، وأخذوا يأتمرون بأمره ، وينتهون بنهيه ، وهو فى كلتا الحالتين لا ينطق عن الهوى ، ولا يصدر إلا عن وحى أو إلهام من أحكم الحاكمين وأعلم العالمين بالخير والمصلحة . فكان من الطبيعى أن تقودهم هذه الأوامر الإلهية الى النظام العمرانى ، والرفعة الاجتماعية ، والكمال الأخلاقى ، وهذا هو الذى كان بالفعل ، فلم يكد الاسلام يبسط جناحيه على جزيرة العرب حتى رأب صدوعها ، ولم شعثها ، وجمع متفرقها ، وأخذ يضرب بيد من حديد على كل أسباب الفشل والشقاق من عادات العرب وتقاليدهم الهمجية الأولى ، ونشر فيهم روح الديموقراطية والسلام ، وأعلن فيهم أن الاسلام قد سوى بين رفيعهم ووضيعهم ، وحرم عليهم التمسك بتلك العصبية البربرية . فلما تغلغلت فى نفوسهم هذه التعاليم ، خلقتهم خلقا جديدا ، وكونت منهم خير أمة صالحة لا للحياة فحسب ، بل لبسط سلطانها ونشر دينها على قارتى « آسيا وأفريقيا » وجزء عظيم من قارة « أوربا » ؛ ولولا ظروف خاصة ذكرها التاريخ السياسى لاكتسح الاسلام أمامه الديانات الأخرى ، ولأظل المعمورة بظلاله الوارفة .

ولما ازدهر الاسلام واستقر سلطان العرب وسرت فيهم روح المدنية ، وأخذوا يدوّنون حوادثهم ويقيدون معارفهم ، شأن الأمم الآخذة فى الرقى ، كان بدهيا أن يحدث

بين هذه المعارف المدونة شيء من الخلاف فى الرأى والتفكير ، لا سيما وأن القرءان قد أباح لهم التأمل والتفكر فى أسرار الكون ، بل طالبهم بهما ، وأوجبهما عليهم كما سنشير الى ذلك عند ذكر أسباب تفلسف العرب .

اختلفت آراء المسلمين حول العرضيات والثانويات الاسلامية منذ ذلك الحين ، ولكنها كانت كلها اختلافات محصورة فى دائرة لا تتعداها ولا تخرج عليها ، وهى دائرة الخضوع للكتاب والسنة . غاية ما فى الأمر أن بعضهم يأخذ بظاهر الكتاب ، والبعض الآخر يبيح التأويل ، وهذا طبيعى ما دام أن فى القرءان آيات محكمات ، وأخر متشابهات لا يعلم تأويلها إلا الله . فدعت هذه الحالة الجديدة الى الحاجة الماسة الى التأليف وتدوين تفسير القرءان ، والخوض فى أدلة وجود الله ووحدانيته وقدرته ، الى غير ذلك مما كوّن علم الكلام الذى كان له فيما بعد شأن عظيم فى تاريخ الحركة العقلية الانسانية .

ولما اتسعت فتوحات الاسلام واحتك العرب بالأجانب من الفرس والروم والهنود والمصريين ، واطلعوا على ما فى هذه الأمم من معارف وثقافات ، زادت معلوماتهم ، وشحذت أذهانهم التى فطرت على الحدة والتوقد ، ومنحت جانبا عظيما من الذكاء والعبقرية ، فاجتمعت لديهم ثروة علمية ضخمة هيأت لهم فرصة البحث والتفكير والاستنتاج ، فبحثوا واستنتجوا ، ووازنوا بين ما ترجموه من فلسفة اليونان والهند والفرس ، وانتقوا منه أصلحه وأقربه الى العقل المستقيم ، ثم مزجوه بتعاليم دينهم ، فكوّنوا من هذا المزج فلسفة مستقلة خاصة بهم ، للاسلام فيها جزء ، وللفلاسفة المنقولين من الأجانب جزء ، ولعقولهم الناضجة المستقيمة الباقى . وإذاً فلم يكن فلاسفة العرب نقلة أو تراجمة كما يقول المتعنتون ، وإنما كانوا ذوى آراء مستقلة ، وأصحاب فكر مبتدعة .

« أسباب تفلسف العرب »

السبب الاول — القرآن:

لاريب أن كل من يلقى نظرة فاحصة على القرآن ، ويتأمل فى آياته الدافعة الى التدبر والتفكير فى شىء عظيم من الجد ، يتضح له أن هذا الكتاب الكريم هو أول أسباب تغلغل الفلسفة فى البيئات العربية ، بل هو أول كتاب سماوى فرض تعلم الفلسفة على أتباعه فرضا ، وأوجب عليهم التفكر فى أسرار الكون وخفايا الوجود ، ليصلوا من هذا التفكير الى معرفة المبدع الأول والايمان به ، والتيقن بخلود الروح وبالعودة الى حياة أخرى تتحقق فيها عدالة الخالق بمجازاة الخيّر والشرير بما يستحقانه على عمليهما . وهل الفلسفة الحقة شىء غير هذا ؟ وهل هناك فرق بين دعوة الفلسفة معتنقيها الى التأمل فى نشأة العالم ومصيره ، وفى عظمة الكون ونظام تسييره ، وبين هذه الآيات القرآنية التى تقول : « أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء » ؟ « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » « هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجومُ مسخرات بأمره ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وماذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه ، إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون » .

تأمل كيف يدعو القرآن الناس الى التفكر فى سير الكواكب مذعنة لنظام رسمته لها قدرة الله العالية ، ولو تعدته لاصطدم بعضها ببعض ، ولهوت كلها فى لحظة واحدة الى مكان سحيق . ثم تأمل كيف يلفت أذهانهم الى أن النبات لا ينبت

إلا بوساطة الماء ، ليفهمهم أن المسببات أسبابا ، والمعلولات عللا ناشئة عنها ومترتبة عليها ، وتلك هي جزئيات الفلسفة . بل انظر الى قول القرآن حين ينتقل بالناس من الأمر بالتفكر فى الكون العام الى التأمل فى النفس وما اشتملت عليه من خفايا وأسرار فيقول : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ؟ .

السبب الثانى لتفلسف العرب — الترجمة :

أسلفنا أن القرآن هو العامل الأول الذى فتح للعرب باب البحوث الفلسفية المؤسسة على المنطق والتأمل ، فظهر لهم شىء من هذه البحوث يدور حول علوم الدين من توحيد وتفسير وفقه ، وخصوصا استنباط الأحكام الشرعية من القرآن والحديث ، ولم يحاولوا فى أول أمرهم أن يتغلغلوا فى غير ذلك من البحوث الفلسفية التى دفعت غيرهم اليها الحاجة الى اكتشاف الحقيقة المطلقة ، لأنهم كانوا فى غنى عن اكتشاف تلك الحقيقة بوساطة المجهود الانسانى ما داموا قد حصلوا على غايتهم منه بوساطة الوحى الصادق الأمين الذى كان ممثله ، وهو النبى صلى الله عليه وسلم ، لا يزال قائما بينهم أو قريب عهد بهم ، فاكتفوا بالبحث فيما قدمناه من علوم عما لا تدعوهم اليه الضرورة فى ذلك الحين .

ولا شك أن هذا طليعة ساخرة من طلائع الفلسفة ظهرت فى صور الاسلام وأخذت تنمو وتتزايد الى أن بدئ فى الترجمة عن الأجانب من يونان وفرس ، بوساطة السريانيين فى أواخر الدولة الأموية ، وهذه الترجمة وإن كانت قليلة وضعيفة إلا أنها أوجدت فى النفوس شيئا من الشغف بالفلسفة والمعارف الأجنبية .

ولما استولى بنو العباس على زمام الملك واستقر لهم الأمر ، شرع أبو جعفر المنصور بمشورة وزرائه من الفرس فى الترجمة عن الهندية والفارسية واليونانية . وإذ كان هذا الخليفة عالما مفطورا على الميل الى الفلسفة من ناحية ، ورأى من ناحية أخرى أن أعظم الممالك وأجلها وأخلدها ما قام على أسس العلم ودعائم المعرفة ، فقد أجزل العطاء للعلماء

والمترجين، وقربهم من مجلسه، وشجعهم بالاحترام والاجلال على السير فى خططهم، وكانت هذه سنة حسنة سرت فيمن أتى بعده من الخلفاء، فنجم عنها تضاعف حركة النقل وزيادة الانتاج فى الترجمة والشرح والتعليق الى أن بلغت هـذه الحركة أوجها فى عهد الخليفة المأمون الذى أنشأ مكتبته الفخمة المعروفة فى التاريخ بـ (دار الحكمة) ورأس عليها (حنين بن اسحاق) وكان من أكابر العلماء الذين تثقفوا بالمعارف الأجنبية ومن أكثرهم إنتاجا فى الترجمة والشرح وكتابة التعليقات. ولا شك أن هـذه الميزة العلمية العظمى هى التى حدت المأمون الى ترئيسه مكتبته مع مسيحيته.

فلسفة المترجمين ومن أخذ عنهم:

كثر المترجمون فى العصر العباسى كثرة تجعل إحصاء أسمائهم من الأمور المتعذرة، ولم يكونوا هم ومن أخذ عنهم مجرد نقلة وحملة لتراث الأمم القديمة كما يزعم المتحاملون، وإنما كانوا كما أسلفنا أصحاب آراء خاصة وأفكار مستقلة، واستنباطات حرة، وترجيحات مستقيمة من شأنها أن تدرجهم فى عداد الفلاسفة.

أما ما يأخذه عليهم خصوم العربية من أنهم لم يبتدعوا مذاهب فلسفية جديدة، فإنه حق بالنسبة الى المترجين، ولكن له أسبابا ذكرها مؤرخو الفلسفة نوجزها فيما يلى:

١ — أن الكثرة الساحقة من هؤلاء التراجمة كانت مسيحية خاضعة لتعاليم الإنجيل والكنيسة التي كانت قد وصلت الى حـد بعيد فى اضطهاد الفكر الانسانى وحصره فى دائرة ضيقة لا يتعداها، فتأثر المترجمون المسيحيون بهـذا الضغط ولم يستطيعوا أن يطلقوا لأذهانهم أعنة التفكير الحر فى ميادين الفلسفة الابتداعية.

٢ — ومن الأسباب المانعة لظهور مذاهب مستقلة لتراجمة العرب، هو أن أكثرهم كان يشتغل بالطب كمهنة أساسية، وأما الفلسفة فلم تكن إلا ثانوية، فعاقهم هذا الاعتبار عن الإبداع فيها.

٣ — يروى بعض مؤرخى الفلسفة أن من هذه الأسباب التى حالت بين المترجمين

وبين الابتداع ، هو أنهم كانوا جميعا فى خدمة الخلفاء والأمراء ، وأن هؤلاء كانوا يتملقون الجامدين من الفقهاء والعامة ، فلم يكن يرضيهم أن يطلق المترجمون الأعنة لأفكارهم فتسير بحرية قد تشوك الجامدين والمتعصبين . ونحن لا نستطيع أن نوافق على هذا السبب الأخير ، لأن العقيدة الاسلامية الخالصة من الخرافات لا تجزع من الفلسفة ولا تضطرب من صولتها ، بل لا تصطدم معها البتة ، وإذاً فلم يكن الفقهاء فى حاجة الى التملق أو الى الاسترضاء . وفوق ذلك ، فإن أجلاء الخلفاء كالمنصور والمهدى والرشيد والمأمون كانوا أكبر من أن يتملقوا العامة بتأييد ما يعتقدون أنه باطل ، وهدم ما يؤمنون بأنه حق ونور .

ومهما يكن من الأمر ، فإن تراجمة العرب لم يبدعوا المذاهب مستقلة ، وإن كانوا قد برزوا فيما عدا ذلك تبريزا يستوجب الاحترام والاجلال .

الكتب المترجمة :

يلاحظ المطلع على أسماء الكتب التى ترجمت الى العربية عند إلقاء النظرة الأولى أن مؤلفات (أرسطو) لها المرتبة العليا بين المنقولات اليونانية . وقد علل بعض المؤرخين هذه الظاهرة بأن ابن المقفع قد نقل منطق (أرسطو) الى اللغة العربية فى بادئ الأمر ، فلفت أنظار الناس الى منتجات هذا الفيلسوف ، فمالوا اليها ، وطلبوا ترجمتها ، ولكن يظهر أن السبب فى هذا هو أن هذه المنتجات (الأرسطوطاليسية) تتفق فى كثير من الأحيان مع ميول العرب ومع بعض تعاليم الاسلام ، ولا سيما ما فيها من منطق واقعى ، وأخلاق عملية ، وسياسة اجتماعية ، ونظر صائب الى الحياة ، واعتبار الجسم الانسانى كأحد عنصرى الوجود لا يصح إهماله ولا الاستهانة به . وهذه الأسباب هى التى وضعت كتب (أرسطو) فى الدرجة الأولى من درجات الترجمة . واليك بعض هذه الكتب التى ترجمت فى العصر العباسى من مؤلفات (أرسطو) خاصة :

ترجم حنين بن إسحاق شرح (تيمستيوس) على الكتاب الحادى عشر من (ما وراء الطبيعة) وكذا كتاب (المقولات) وكتاب (الطبيعة) وكتاب (الأخلاق) .
ونقل ابنه وتلميذه اسحاق بن حنين الى العربية من مؤلفات (أرسطو) : (ما بعد الطبيعة) وكتاب (النفس) وكتاب (العبارة) وكتاب (الكون والفساد) مع تفاسير مختلفة (للاسكندر الأفروديسى) و (فرفريوس) و (تيمستيوس) و (أمينيوس)
ونقل ابن ناعمة الى العربية شرح يحيي النحوى على كتب : (الطبيعة) الأربعة لأرسطو .
ونقل أبو بشر متى بن يونس من السريانية الى العربية كتابى : (البرهان) و (الشعر) .
ونقل فيلسوف العرب يعقوب بن إسحاق الكندى الى العربية الكتاب الثالث عشر من (ما وراء الطبيعة) وكتاب : (تحليل القياس) و (البرهان) و (شرح المقولات) ووضع كتابا فى ترتيب كتب (أرسطو) .

وقد أشرف المعلم الثانى (أبو نصر الفارابى) على ترجمة بعض الكتب التى سلف ذكرها . واختصر المنطق على نهج المتكلمين ، ووضع له مدخلا ، وشرح (المقولات) و (العبارة) و (تحليل القياس) و (البرهان) و (الجدل) و (الخطابة) وكتاب (الطبيعة) وكتاب (السماء والعالم) وغير ذلك مما يطول الكلام عليه .

سنقف بك اليوم عندما قدمناه إليك من نشوء الفلسفة ودروجها بين أعطاف الاسلام، ومن أمره العالى بالعطف عليها والعناية بها ، وسنحدثك فى الفصل المقبل عما أحدثته الترجمة الأجنبية فى العقلية العربية والمنتجات العربية من آثار بارزة النتائج لا فى الفلاسفة المسلمين وحدهم ، بل فى المتصوفين والمتكلمين والفقهاء ، كما سنحدثك عن مصير الفلسفة فى الغرب الاسلامى ، وعن محاولة الفلاسفة التقريب بين الفلسفة والدين ومجهوداتهم فى ذلك ، إن شاء الله؟

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

محاريب المساجد

هل هي مذابح أهل الكتاب ؟

رأيت طائفتين من المسلمين مختلفتين : هل محاريب مساجد المسلمين هي مذابح أهل الكتاب المنهي عنها أم لا ؟ وسئلت عن ذلك فرأيت أن أكتب كلمة فى هذا الموضوع بعد البحث والتحرى ، فقلت :

قال ابن الأثير فى النهاية : « المذبح واحد المذابح ، وهى المقاصير ، وقيل المحاريب » . وفى القاموس : « والمحراب : الغرفة ، وصدر البيت ، وأكرم مواضعه ، ومقام الامام من المسجد ، والموضع ينفرد به الملك فيتباعد عن الناس ، والأجمة ، وعنق الدابة » .

والمذبح عند أهل الكتاب مقصورة يبلغ ارتفاعها مترا ونصف متر ذات أعمدة أربعة ليس بينها حواجز، وفوقها سقف تحته خلاء يوضع فيه القرابين وبعض دم المسيح فى اعتقادهم وبعض ماء المعمودية فى الأعياد ، وبعد الصلاة يخرجها الكاهن ويوزعها على من فى المعبد تبركا . وهذه المقصورة داخل حجرة فسيحة أمام المعبد يصعد اليها بسلم ذى درجات قليلة تسمى الهيكل لا يدخله إلا الكهنة وأرباب الخطايا الذين يريدون الاعتراف بذنوبهم للكاهن كى يطلب لهم المغفرة . فالمذابح المنهى عنها بما رواه البيهقى فى السنن الكبرى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : « اتقوا هذه المذابح » وما رواه ابن أبى شيبة عن موسى الجهنى رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « لا تزال هذه الأمة — أو قال أمتى — بخير ما لم يتخذوا فى مساجدهم مذابح كمذابح النصارى » هى المحاريب بالمعنى الخاص ، وهى الغرف التى تكون على شكل المقاصير فى حجر الهياكل، لأنها من شعائر دينهم وخاصة بكنائسهم كما قال ابن مسعود رضى الله عنه : « إنما هى للكنائس فلا تشبهوا بها » لا المحاريب بالمعنى العام لأنه لا يقول بذلك أحد . ولذا أتى النبى عليه الصلاة والسلام فى حديث

عبد الله بن عمر باسم إشارة المحسوس وأل العهدية ، وفى حديث موسى الجهنى بأداة التشبيه . وعبر فيهما بالمذابح التى هى محاريب بالمعنى الخاص ، ولم يعبر بالمحاريب التى هى أعم .

ويماثل هذه المذابح تمام المماثلة المقاصير التى تتخذ فى المساجد وغيرها على قبور بعض أموات المسلمين داخل حجر القباب التى تشبه الهياكل ، فإنها مثل المذابح شكلا ووضعا . وكثيرا ما رأيت الجاهلات من المسلمات ينظفن هذه المقاصير بقلانس أولادهن وثيابهم ، ويضعن فى تلك المقاصير ماء فى إناء ويتركنه ليلة ثم يسقينه للمريض ويغسلنه به للاستشفاء والتبرك ، فهذه المقاصير هى المذابح المنهى عنها بالأحاديث المتقدمة .

وأما محاريب مساجد المسلمين المعروفة الآن ، فهى علامات غير مجوفة اتخذت فى وسط حوائط المساجد القبلية بنحو جص ، أو تجاويف فيها منعطفة وهى الطاقات لتكون دليلا على جهة القبلة لمن لم يعرفها ، وتكون مبينة لمقام الإمام من المأمومين ، لأن السنة أن يقف الامام إزاء وسط الصف . فهى مخالفة لمذابح أهل الكتاب شكلا ووضعا وغرضا ، كما يعلم ذلك من رؤية المحاريب فى المساجد ، والمذابح فى الكنائس ، فإنى رأيت ثلاثة مذابح فى الكنيسة المرقسية بالاسكندرية على الشكل والوضع الذى بينته ، وعرفت الغرض منها من أحد الكهنة ، وعرفت منه ومن بعض كبار المسيحيين أنها فى جميع الكنائس على هذا الوضع والشكل والقصد . فليست محاريب المساجد هى المذابح المنهى عنها ، لأنه ليس كل محراب مذبحا . والحكم عند الفقهاء بكراهة الصلاة داخلها لا لأنها مذابح كمذابح النصارى ، بل لما يترتب على ذلك من اختفاء الامام عن المأمومين ، فتشتبه عليهم حركاته وسكناته ، ولئلا يكون هناك صورة فرقة فى أكبر عبادة تقتضى الوحدة .

لا يقال إن النبى عليه الصلاة والسلام ترك وضع هذه العلامات فى المسجد مع وجود المقتضى فتركها سنة وفعلها بدعة ، لأن النبى عليه الصلاة والسلام غرز خشبة فى مسجد

قوم أسامة الجهنى بعد أن خطه لهم لتكون دليلا على جهة القبلة ، فدل هذا على مشروعية وضع علامة عليها لإرشاد الضال ، فهى من قبيل التعاون على البر ولا خصوصية للخشبة إلا بدليل

هـذا على أنه لم يكن لمسجد النبي صلى الله عليه وسلم محراب فى زمنه ، وأحدثه عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه . وقد روى البيهقى فى السنن الكبرى عن وائل بن حجر قال : « حضرت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ — أو : حين — نهض الى المسجد فدخل المحراب ثم رفع يديه الى التكبير ثم وضع يمينه على يسراه على صدره » فدل ذلك على أنه كان لمسجد النبي صلى الله عليه وسلم محراب فى زمنه

وتأويل المحراب فى الحديث بصدر المسجد وأشرف مكان فيه ، غير ظاهر اللفظ ، لأنه لا يقال فى اللغة دخل الشيء إلا إذا كان الشيء بحيث يمكن الدخول فيه والخروج منه ، وصدر المسجد وأشرف مكان فيه ليس كذلك ، وكان المناسب « نهض الى المسجد ووقف فى المحراب » .

فالمحراب الذى اتخذه عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فى حائط مسجد النبي صلى الله عليه وسلم وجعله علامة ثابتة على جهة القبلة على الوصف الذى يراه المسلمون الآن مخالف لمذابح أهل الكتاب من كل وجه كما يعلم بالمشاهدة ، وليس بدعة ، وكذلك محاريب مساجد المسلمين ، فلا تدخل تحت النهى. أسأل الله التوفيق الى الصواب ؟

عمر الجندى
مراقب معهد الاسكندرية

القبيح لا يدفع الاحسان

كان الحسن البصرى إمام المحدثين مع سعيد بن جبير وهو من أجلاء علماء التابعين يشيعان جنازة ، فسمع سعيد أصوات النوائح ، فهم بالانصراف إنكارا لهذه المنكرات ، فقال له الحسن : إن كنت كلما رأيت قبيحا تركت له حسنا ، أسرع ذلك فى دينك .

باب الأسئلة والفتاوى

حكم تشريح الميت فى الشريعة الاسلامية

ورد إدارة المجلة سؤال من سعادة رءوف باشا سكرتير الجمعية الاسلامية الهندية بسيلان ملخصه استفتاء العلماء عن تشريح الميت . وقد قال فيه :

هل يسمح قانون شريعتنا الاسلامية بتشريح جثماننا أم لا ؟ ثم رجا إدارة المجلة أن تجيبه على عجل . وقد أجاب فضيلة الأستاذ الشيخ الدجوى بما يأتى :

الجواب

ليس عندنا فى كتب الفقه نصوص شافية فى هذا الموضوع . وقد يظن ظان أن ذلك محرم لا تجيزه الشريعة التى كرمت الآدمى وحثت على إكرامه وأمرت بعدم إيذائه . ولكن العارف بروح الشريعة وما تتوخاه من المصالح وترمى اليه من الغايات يعلم أنها توازن دائما بين المصلحة والمفسدة ، فتجعل الحكم لأرجحهما على ما تقتضيه الحكمة ويوجبه النظر الصحيح . فيجب إذاً أن يكون نظرنا بعيداً متمشيا مع المصلحة الراجحة التى تتفق وروح الشريعة الصالحة لكل زمان ومكان ، الكفيلة بسعادة الدنيا والآخرة . وإذا نقول :

من نظر الى أن التشريح قد يكون ضروريا فى بعض الظروف كما إذا اتهم شخص بالجناية على آخر وقد يبرأ من التهمة عند ما يُظهر التشريح أن ذلك الآخر غير مجنى عليه . وقد يجنى على رجل ثم يلقى بعد الجناية عليه فى بئر بقصد إخفاء الجريمة وضياع الجناية ، الى غير ذلك مما هو معروف ، فضلا عما فى التشريح من تقدم العلم الذى تنتفع به الانسانية كلها ، وينقذ كثيرا ممن أشفى على الهلكة أو أحاطت به الآلام من كل نواحيه ، فهو يأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ، الى غير ذلك مما لا داعى

للإطالة فيه . نقول : من نظر الى ذلك الإجمال وما يتبعه من التفصيل لم يسعه إلا أن يفتى بالجواز تقديما للمصلحة الراجحة على المفسدة المرجوحة . ومتى كان تشريح الميت بهذا القصد لم يكن إهانة له ولا منافيا لإكرامه . على أن هذا أولى بكثير فيما نراه مما قرره الفقهاء ونصوا عليه فى كتبهم من أن الميت إذا ابتلع مالاً شق بطنه لإخراجه منه ولو كان مالا قليلا ، ويقدره بعض المالكية بنصاب السرقة أى ربع دينار أو ثلاثة دراهم . وكلام الشافعية قريب من هذا . وربما كان الأمر عندهم أهون وأوسع فى تقدير المال الذى يبتلعه . فإذا قسنا ذلك المال الضئيل على ما ذكرنا من الفوائد والمصالح ، وجدنا الجواز لدرء تلك المفاسد وتحصيل تلك المصالح أولى من الجواز لإخراج ذلك المال القليل . فهو قياس أولوى فيما نراه .

استدراك لابد منه :

غير أنا نرى أنه لا بد من الاحتياط فى ذلك حتى لا يتوسع فيه الناس بلا مبالاة . فليقتصر فيه على قدر الضرورة ، وليتق الله الأطباء وأولو الأمر الذين يتولون ذلك ، وليعلموا أن الناقد بصير والمهيمن قدير ، والله يتولى هدى الجميع .

ماذا يراد بولد الصلب

فى عبارة الواقفين ؟

وورد إدارة المجلة ما نصه :

ما قول العلماء الأخيار المالكية فى وقف أهلى محكوم بصحته ولزومه من حاكم شرعى حنفى من قضاة المسلمين ، وقفه واقف مالكى المذهب ، وشرط أن يكون النظر أولا لنفسه مدة حياته ، ثم للأرشد فالأرشد من أولاده لصلبه ، ثم الأرشد فالأرشد من المستحقين بالفعل الخ فمات الواقف المذكور وخلف ولدين ذكرين وتعينا ناظرين على الوقف المذكور ، ثم مات أحدهما وخلف أولادا ذكورا وإناثا . فهل يقوم أولاد

الولد مقام أبيهم فى نظارة الوقف المذكور مع ولد الواقف المذكور ؟ وهل يتقدم ولد الولد على ولد الصلب إذا كان أرشد منه ، ولا يمنعه قول الواقف : من أولاده لصلبه ؟ وهل قول الواقف : من أولاده لصلبه ، يشمل ولد الصلب وولد الولد معا ، أم لا يكون ولد الولد ولدا صلبيا مع كونه من أولاد الظهور ؟

أفتونا بنص صريح من معتمد مذهب الإمام مالك رحمه الله وآجركم الله آمين ؟

حسين ابراهيم فرج الحباب

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

قد صرح الواقف بأن نظارة الوقف تكون للأرشد فالأرشد ، ورتب فى الطبقات بثم ، فجعل النظارة بعده لأولاد الصلب أولا ثم المستحقين من بعدهم ثانيا .

وحينئذ يجب أن يكون مراده أنه إذا وجد أولاد الصلب وتساووا فى الأرشدية كانت النظارة بينهم . فإذا زاد أحدهم فى الأرشدية اختص بالنظارة . فإذا مات أحدهم وترك أولادا كانت النظارة لأخوته من ولد الصلب ، ولا تنتقل لأولاده لمجرد الزيادة فى الرشد . ومن هذا يتضح أن ولد الصلب فى السؤال يختص بالنظارة دون أولاد أخيه ، وأن قول الواقف : من أولاده لصلبه ، يمنعهم حيث لم يكونوا من أولاد الصلب ، فإن أولاد الصلب هم من للواقف عليهم ولادة مباشرة ، وهو معنى كونهم لصلبه ، وأن مجرد زيادتهم فى الرشد على ولد الصلب لا تقدمهم عليه ، لأنها إنما تعتبر بين أفراد الطبقة الواحدة كما قلنا .

بيان ذلك من كتب الفقه لما أراد السائل :

قال الخرشى فى شرح قول خليل «أو على بنيه دون بناته» : « وكذلك يبطل الوقف إذا وقفه على بنيه الذكور دون بناته الإناث » الى أن قال : « وكلام المؤلف فى بنيه وبناته

لصلبه ، فيصح وقفه على بنى بنيه دون بنات بنيه ، فهو لا يريد ببنيه لصلبه إلا الطبقة الأولى من ذرية الواقف » . وقال الصاوى فى الحاشية على أقرب المسالك للدردير عند قوله « وكره على بنيه دون بناته على الأصح » بعد نقل الخلاف فى المسألة ، قال : « وكلام المؤلف فى بنيه وبناته لصلبه ، وأما بنو بنيه دون بنات بنيه فيصح وقفه اتفاقا » فقابل أولاد الصلب بأولاد الأولاد . وهذا واضح جلى .

هـذا وليلاحظ أن هذا الوقف على هذه الصورة التى ذكرها السائل لا يعتبر صحيحا على مذهب مالك إلا إذا حكم الحاكم بصحته كما فى السؤال . ولولا ذلك لكان باطلا على مذهب مالك لشرط الواقف النظر لنفسه .

فقد نص فى المـذهب على أن الوقف يبطل بشرط النظر للواقف . ووجهه على ما ذكروا أن فى ذلك جولان يده فيه وعدم حوز الموقوف عليه أو من يقوم مقامه ، ذلك الحوز الذى هو شرط فى تمام الوقف . وقد استثنوا من ذلك صورا منها أن يحكم حاكم بصحته ، لأن حكم الحاكم يرفع الخلاف كما هو معروف .

والخـلاصة أن أولاد الصلب هم أولاد الواقف مباشرة ولا يدخل فيهم أولاد أولاده . وألفاظ الواقف تحمـل على العرف إلا أن يصرح الواقف بما يخالفه كما نص عليه الأمير فى حاشيته على المجموع ، والشيخ حجازى عليه أيضا . وحينئذ فأولاد الأولاد لا يزاحمون أولاد الواقف مباشرة فى النظر ما دام واحد منهم موجودا . ولا ينظر لتفوقهم فى الرشد على أولاد الصلب ، إذ لا حق لهم فيه مع وجود واحد منهم كما تفيده عبارة الواقف . وبهذا تبين جليا أن أولاد الأولاد لا يقومون مقام أبيهم فى النظر على الوقف . وأنه لا يتقدم ولد الولد على ولد الصلب إذا كان أرشد منه ، وأنه لا يشمل ولدُ الصلب ولدَ الولد .

ولعل فى هذا مقنعا وكفاية ؟

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء

الاسلام والطب الحديث

— ٣ —

قال تعالى : « ويسألونك عن المحيض قل هـو أذًى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن » البقرة — الآية ٢٢٢ :

إفرازات الجسم على نوعين : نوع له فائدة فى الجسم مثـل الهضم أو التناسل ، أو إفرازات داخلية تنظم أجهزة الجسم وأنسجته الخ . وهذا النوع يسمى (Secretion) وهو ضرورى للحياة وليس فيه ضرر .

ونوع ليس له فائدة ، بل هو بالعكس يجب إفرازه من الجسم الى الخارج ، وهو مكون من مواد سامة إذا بقيت فى الجسم أضرت به ، وذلك مثـل البول والبراز والعرق والحيض . . . الخ . وهذا النوع يسمى (excretion) .

فهذه الآية الكريمة علّمت الانسان قبـل أن يعرف شيئا عن أنواع الإفرازات أن المحيض أذى وأنه لا يفيد الجسم . وأما الجزء الثانى من الآية الكريمة « فاعتزلوا النساء فى المحيض » فسببه أن الأعضاء التناسلية تكون فى حالة احتقان ، والأعصاب تكون فى حالة اضطراب بسبب إفرازات الغدد الداخلية ، فالاختلاط الجنسى يضرها ، وربما منع نزول الحيض كما يحصـل كثيرا من الاضطراب العصبى ، وقد يكون سببا فى التهاب الأعضاء التناسلية .

وهـذا هو السبب فى أن الطبيب الإخصائى لا يكشف على مرضاه من النساء وقت المحيض .

*
* *

« والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » البقرة — الآية ٢٢٨ :

معنى الآية صريح ، وهو أنه فى مدة ثلاثة أشهر تكون علامات الحمل قد ظهرت : من عدم وجود الطمث ، ومن الاضطرابات المعدية ، ومن كبر فى الجزء الأسفل من البطن . وميعاد ثلاثة أشهر هو ميعاد موضوع بحكمة فائقة ، لأنه قبل ذلك بشهر يصعب جدا التثبت من الحمل حتى بواسطة الأطباء الاخصائيين بل الكيميائيين ، وبعد هذا التاريخ تكون أعراض الحمل ظاهرة للشخص العادى . نعم قد توجد حالات يصعب الجزم فيها بالحمل أو عدمه حتى بعد مضى أربعة أشهر أو خمسة أو أكثر من ذلك خصوصا عند العوام ، ولكن هذه الأحوال نادرة ، حتى إنها لا يجوز أن تكون محل تشريع خاص . وقد رأيت حالات فى الشهر التاسع اشتبه فيها الاخصائيون ولم تتبين بسهولة بالأشعة ، فهذه النوادر لا تدخل تحت الأحكام العامة .

***

« والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة » .
البقرة — الآية ٢٣٣ :

مما لا شك فيه طبيا أن لبن الأم أصح غذاء من كل أنواع اللبن الصناعى ومن اللبن العادى مهما عدل حتى يقرب من لبن الأم . وفائدة الرضاعة للأم مهمة ، لأن اللبن بالنسبة للأم إفراز لمواد بعضها يتزايد مدة الحمل لهذا الغرض . والرضاعة نفسها مفيدة للأعضاء التناسلية ، وتقلل من الاستعداد للحمل مدة الرضاعة عند البعض ، وهذا يمنع الحمل المبادر الذى ينهك القوى .

وأما مدة الرضاعة فهى موضوع فيه آراء كثيرة . ويجب أن نلاحظ صحة المولود وصحة الوالدة والظروف المحيطة بهما . ومما لا شك فيه أن مدة سنتين هى أقصى مدة للرضاعة ، أى بعد ذلك يجب أن يغذى الطفل بغذاء آخر زيادة عن اللبن .

وقد تغيرت النظريات الطبية فى هذه المدة ، فقد كان الأطباء ينصحون بالرضاعة مدة تسعة أشهر فقط ، وأحيانا سنتين ، ولكن آخر تقرير فى سنة ١٩٣٣ عن فائدة

الرضاعة الطبيعية للجسم والأسنان يقول : إن المدة يجب أن تكون فوق السنة ويستحسن أن تكون سنتين كاملتين .

***

« الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ... » الخ الآية ٢٥٥ :

هذا أبلغ وصف فى الاختلاف بين الذات الالهية و بين الانسان ، فبعد أن وصف الإله بأنه حى ، وصفه بأن صفة الحياة فيه تختلف اختلافا كليا عن حياة الحيوانات ، لأن كل شىء يحتاج الى النوم والإله لا ينام أبدا . ولم يتقدم الطب فى معرفة كنه النوم وأسبابه كلها ، ولكن آخر الأبحاث يضع النوم صفة أساسية للأنسجة التى فيها الحياة ، فالتغييرات التى تحدث فى الأنسجة وقت الحركة هى سبب الاستراحة والنوم . وبالنوم تستعيد الأنسجة سيرتها الأولى كما كانت ، وهكذا . فالنوم ضرورى للحياة ، كما أن الحياة والحركة ضروريتان للنوم . وبالاختصار إن النوم أشبه شىء بالموت ، إلا أنه موت وقتى ، فكأن الله تعالى يقول : إنه حى باق لا يموت . وإلا فلو جاز عليه النوم لجاز عليه الموت لأنه لا حياة بدون نوم .

وإذا علمنا أن ما كتب عن النوم وعن أسبابه فى الألفين من السنين الأخيرة يملأ مجلدات كثيرة حتى إن بعض الفلاسفة والأطباء فى أوقات مختلفة كتبوا عن إرشادات لمنع النوم لأنه مضيعة للوقت ولا فائدة منه ، ظهرت لنا حكمة الله ، وظهر لنا أن القرآن لا يأتيه الباطل أبدا ، لأنه وضع النوم شرطا أساسيا لكل حى . وقد اتجهت الأفكار أخيرا — وجميع المشاهدات العلمية تؤكدها — الى أن النوم ناشىء من تغييرات كيميائية تحدث من الحركة فى الأنسجة ، فاذا استمرت هذه التغييرات ومنع النوم بالقوة ، أدّت الى الموت .

أما إذا تركت وشأنها فانها تؤدى الى النوم الذى يعيد التغييرات الكيميائية الى ما كانت عليه قبل الحركة . وهكذا تستمر الحالة بين الحياة نهارا والموت الوقتى ليلا .

***

« أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها

فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنّه وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير . وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصُرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم » الآية ٢٥٩ :

من غرائب النوم أن الانسان إذا نام وصحا من نومه لا يمكنه أن يعرف مقدار النوم أكان مدة قصيرة أم آجالا طويلة ، وعليه أن يعتمد على ما يقوله الناس له . وهذا معنى قوله تعالى : « فلما تبين له » لأنه بعد أن نام مائة عام لم يعرف الزمن الذى مر عليه إلا بالفحص وبسؤال الناس الذين حوله . ونوم الانسان مائة عام معجزة ككل المعجزات التى من صنع الله وهى كخلق كل المخلوقات . وسأشرح ذلك فى تفسير آيات أخرى . والله لطيف بعباده يختار من طرق الشرح لعبيده ما يتناسب مع عقولهم . وهذا هو أيضا معنى قسمة الطير التى أمر بها ابراهيم عليه السلام ، لأن إحياء الطير بعد موته لا يقل فى الاعجاز عن خلق آدم أو عن إحياء جميع الموتى . ولكن مخ الانسان لا يستطيع صدمات قوية ، إذ عند وقوعها إما أن ينتحر أو يذهب لبه . ولهذا كانت المعجزات فى شكل سهل التناول ، مع أن أبسطها هو من مميزات القدرة الالهية ولا يتسنى العالم كله أن يأتى به .

* * *

« يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » البقرة — الآية ٢٧٨ :

هذه الآية التى تحرم الربا يترك تفسيرها لعلماء التشريع والاقتصاد ، ولكنى سأتكلم عن نقطة طبية واحدة ، وهى تأثير الانفعالات العصبية التى تحدث عند عدم تمكن المدين من الدفع . وكم شاهدنا حالات أدت الى ظهور البول السكرى ، وزيادة ضغط الدم

والشلل ، وأرق قديؤدى الى الجنون ، لأن الاضطراب العصبي في هذه الظروف يزيد مادة الأدرنالين في الجسم ، وهذه تؤثر في الضغط الدموى وإفرازات البانكرياس . هذا الى أن هذه الانفعالات لا تتفق مع النفس المطمئنة التى يخاطبها الله بقوله : « يأيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية » والتى لا تكون إلا حيث يكون الإيمان الثابت .

وقد دلتنا الأزمة الأخيرة على أن الدائن لا يقل ضررا عن المدين ، فقد أفلس أناس كثيرون لأن مدينيهم لم يؤدوا ديونهم ، وأكبر المصارف العقارية فى العالم كانت فى خطر الإفلاس وما زالت ، لأن الزارعين لم يؤدوا ما عليهم ، فاضطر مساهمو هذه المصارف الى أن يشاطروا المدينين فى الحالة التى تدهوروا اليها .

وهكذا علمتنا الأزمة أن الدائن والمدين اذا استعملا الربا حق عليهما قوله تعالى : « فأذنوا بحرب من الله ورسوله » .

وأما الدائنون من الأفراد الذين يتعاملون بالربا أضعافا مضاعفة ، ويرتهنون أشياء ثابتة لا تنزل قيمتها مثل الذهب ، فضررهم من الوجهة الصحية شديد ، لأن الإثراء السريع يؤثر فى الأعصاب أكثر من المصائب ، وذلك لأن الانسان عند حدوث المصيبة يعالج صدمتها بالأمل فى زوالها أو التعويض عنها ، وهذه حكمة إلهية لاتقاء الصدمات . وأما الانفعالات الناشئة من العلو دفعة واحدة فالانسان غير قادر عادة على اتقائها ، لأنه لا يتصور زوالها ، إذ لو تصور ذلك لذهبت سعادته وذهب سروره بها . وكثير من الأمراض العصبية غير العضوية ينشأ من مثل هذه الحالات .

أما الكسب الحلال مثل التجارة والزراعة ، فانه يأتى تدريجا . ومهما كان كثيرا فى النهاية فان صاحبه يرقبه من يوم الى يوم ويتوقع الكسب يوما والخسارة يوما آخر . وبهذه الانفعالات الوقتية المتكررة يقوى على احتمال الصدمات النهائية من الكسب والخسارة ؟

دكتور عبد العزيز اسماعيل

آيات الله فى الكون

إن تعرُّف آيات الله فى الكون من أهم أغراض الاسلام ، فانها تهدى العقل الى وجوه الاستفادة منها ، والى العقائد الحقة ، بطريق البرهان الواضح . لذلك نرى أن لا نخلى مجلة نور الاسلام من هذه المعارف الكونية ، على قدر ما تتطلبه الحاجة الروحية والعقلية ، فنقول :

لا نريد أن نبرح عالم الحشرات حتى نستفيد بما أودع فيه من بدائع الصنع التى تشحذ النظر والاعتبار ، فان الخالق جل وعز قد أمد هذه الكائنات الضعيفة من وسائل الحياة بما يخفى على من ينظر إليها نظرا سطحيا ، وهو فى الحقيقة من أفعل المعارف فى تقويم النفسية الانسانية .

فمن أعجب أحوالها ، وأكثرها خفاء على جمهور الناس ، تتابع استحالاتها الحيوية من بويضة الى دويدة الى شرنقة الى فراشة ، وأن بين كل استحالة من هذه الاستحالات بونا بعيداً ، حتى ليظن بعضها مقطوع الصلة ببعض ، لشدة ما بينها من التباين فى التركيب والمظهر والغاية .

ففى أول هذه الحالات وهى البويضة لا يكاد الباحث يجد فيها مظهرا من مظاهر الحياة ، فهى لا تفترق عن حبة من الرمل . ولما تنفرج هذه البويضة بعد أيام عن دويدة ، تجد أمامك كائنا رخوا حقيرا شديد النهم يغوص فى الوحل ، أو يندسّ فى الحشائش الرطبة .

فاذا جاء دور التشرنق وجدت أن هذه الدويدة قد أحاطت نفسها بخيوط تخرجها من فيها تلف فيها نفسها لفا محكما من جميع جهاتها ، بحيث لا تدع مقدار ثقب إبرة من جسمها دون أن تغطيه تغطية محكمة ، حتى تصبح كأنها مومياء مصبرة لا حس بها ولا

حراك ، فتبقى على هذه الحالة أياما تستحيل فى أثنائها الى سائل لا شكل له ، ثم تعود فتتشكل فى صورة فراش لا نسبة بينه وبين صورة الدويدة فى شيء ، تطير فى الجو ممتلئة حياة ونشاطا . فهل تستطيع أن تقدر بعقلك كنه ما أودعها المبدع الحكيم من القوى الحيوية التى عملت على إحالة جثمان الدويدة الى سائل ، ثم على إعادة تكوينها فى صورة جديدة ؟

حقا إن هذه الاستحالات من أغرب ما هدى اليه البشر من آيات الله جل وعز .

قال العلامة الطبيعى ريومور Reaumur فى هذا الصدد :

« كنا نعتبر ما يقال لنا آية لو أخبرنا مخبر بأن حيوانا من ذوات الأربع فى حجم الدب أو الثور ينسلخ من جلده عند اقتراب الشتاء ويتخذ منه تابوتا لجثمانه يسده من كل ناحية ويجعله من الصلابة بحيث لا تعدو عليه العوادى الطبيعية أو الحيوانية . فإذا كانت هذه الاستحالة لو حصلت تعتبر آية فإنها تحصل مصغرة فى عالم الديدان ، فهى تنسلخ من جلدها لتتخذ منه تابوتا متينا ومقفلا من كل نواحيه »

لندع هذا الآن ولنذكر صفة أخرى عامة فى الحشرات وهى سمو قواها العضلية عن قوانا بالنسبة لحجومها . فإذا أعطى الانسان من القوة العضلية بالنسبة لحجمه مثل ما للدودة منها استطاع أن يجر ٨٥٠ كيلو غراما ، على حين أنه لا يستطيع بالقوة الممنوحة له غير ٥٥ كيلو غراما .

ولو أعطى الانسان من قوة القفز مثل ما للبرغوث لاستطاع أن يقفز بالنسبة لحجمه الى ارتفاع ٧٥٠ قدما .

وقد حسبوا أنه لو كان الانسان قد منح صوتا يناسب حجمه قياسا على صوت الصرصر لوصل صوته الى بعد ٢٤٠٠ كيلو متر ، وهى المسافة التى تفصل باريز عن آسيا الصغرى . وإذا كان الانسان قد أوتى فى صوته هذه القوة وعداه التحوط فعطس داخل بيته لسقط البيت عليه ودفنه فى أنقاضه .

إننا معشر المصريين لنفخر بأن آباءنا أقاموا أهراماً شامخة ، على أن أعلاها لا يجاوز تسعين قامة محسوبة بقامة الرجل ، على حين أن النمل الأبيض يبنى مسا كنه على ارتفاع ألف قامة بقامته ، فهى تبزنا فى تعلية مبانيها اثنتى عشرة مرة . أما عن متانة مبانيها فحدث ولا حرج ، فلو صعد على سقفها عدة رجال لاحتملتهم ، بل إن الثيران الوحشية قد تعلوها أحيانا وتربض عليها .

أما قوة الهدم فى هـذه الحيوانات فتفوق كل تقدير ، فإن النمل الأبيض قد أبان فى هذا المجال عن قوة وسرعة تعتبر مدهشة للغاية ، فقد شوهد أنه استطاع أن يثقب فى ليلة واحدة قطعة من الخشب تبلغ طولها أكثر من خمسين سنتيمترا .

وللحيوان المسمى سيركس قدرة على الثقب كبيرة حتى إنه ليثقب الرصاص كما شوهد ذلك فى حرب القرم الروسية ، فقد ثقب رصاص البنادق ومقذوفات المدافع .

وقد شوهد أن أصغر الحشرات أجسادا هى دائما أشدها قوة .

ومما يمتاز به الحشرات أن إناثها أقل جمالا من ذكورها وأشدها كلبا على القتال والفتك بالأعداء . فبينما ترى ذكورها يسرحن ويمرحن تجد الإناث يغرن ويقاتلن بصبر وجلد لا حد لهما ، وهذا على خلاف إناث البشر ، فإنهن خلقن على وضع طبيعى لا يجعلهن يحتملن كثيرا من المشاق التى يحتملها الرجال .

ومن الطباع المشتركة بين كثير من أجناسها الغناء لاستجلاب هوى الإناث ، فإنها لا تفتأ تشدو وتترنم ، بينما تكون الإناث دائبة على العمل فى صمت .

وهناك نوع من الضفادع تنق تحت الماء فيخيل للقريب منها أنه يسمع أصوات نواقيس ترن عن بعد . وقد حدث ذلك مرات للعالم (لينيه) Linné فإنه قد اتفق له أن شهد هـذه الظاهرة العجيبة مرارا . فقـد روى أنه كان يسمع أصواتا تشبه قرع النواقيس الضخمة تصل اليه من بعـد يقدر بنصف ميل ، على حين كان بجوار تلك الضفادع .

ومن أعجب الحشرات ما يسمى منها بالكوشنيل ، فإنها قبل أن تولد تموت أمهاتها وتستحيل الى قشرة جافة فتكون هذه القشرة مهدا اصغارها .

وقد امتاز كثير من الحشرات وبعض الحيوانات الأخرى بسرعة التناسل وكثرة النسل ، فإن دودة الحرير تضع ٧٠٠ بيضة فى كل مرة .

وقد عد ما فى بطروخ السمك المسمى (مورو) وهو الذى يؤخذ من كبده الزيت الطبي المعروف فوجد أنها ...٦٨٧٨ بويضة تخرج من كل منها سمكة مشابهة لآحاد جنسها .

وقد عد ما فى بطروخ السمك المسمى (هرنج) وهى ما يسمى عندنا بالرنجة فوجد أنه يشتمل على ١١٧٠٠٠ بويضة ، وما فى بطروخ الجنس المسمى (بِرْش) فوجد أن عدد بويضاته تبلغ ١٥٥٠٠٠ بويضة . ولم يعْد عدد بويضات بطروخ الجنس المسمى (سومون) ١٩٠٠٠ بويضة .

ومما تتميز الحشرات به عنا أن بعضها يغتذى بما لو تعاطينا شيئا منه لمتنا تسمما ، وتعيش فى جو خانق لا نستطيع العيش فيه دقيقة واحدة . فمن الديدان ما تعيش فوق النبات المسمى بالشَبْرم وتغتذى به مع أن النقطة من عصارته تلهب فمنا وتحرقه . وبعضها يغتذى بأهداب النبات المسمى بالأنجرة وهذا النبات لو وضع على بشرتنا لأحدث بها التهابات واحتقانات مؤلمة .

وقد بلغ بعض الحشرات من النهم الى حد لا يتصوره العقل ، فإن الدودة تأكل فى كل أربع وعشرين ساعة ما يبلغ ضعف حجمها من الأغذية ولا يزيد جرمها إلا عشر وزنها . ولو سار الانسان سيرتها لوجب أن يأكل ٢٤٠ رطلا من الأغذية فى كل أربع وعشرين ساعة ، وهذا ما لا يمكن تصوره .

والحشرة المسماة (أوستر) تعيش فى معدات الخيول وتتسرب اليها من لحسها أجسادها . أما غذاؤها فى تلك السجون المظلمة فالعصارة المعدية لتلك الخيول ، فتعيش فى بحبوحة من الخفض والدعة فى تلك الغياهب الدامسة فى جو غازى غير صالح للتنفس

مؤلف من غازات تتكون أثناء هضم الأغذية ، وهى مؤلفة من الأزوت وحمض الكربون والأيدرون الكبريتى وكلها غازات مميتة للإنسان ولسائر الأسرة الحيوانية ما عدا هذه الحشرة .

وتوجد حشرات لا تتم استحالاتها إلا إذا غيرت الأمكنة التى تعيش فيها ، فالحشرة المسماة (تينيا) لا تبلغ أشدها إلا فى معدة الإنسان . والترخينا لا تصل الى غاية ارتقائها إلا إذا انتقلت من مأواها الأول وهو لحم الخنزير الى مكانها الثانى الذى هو معدة الانسان .

ومن الحشرات ديدان لا تغتذى إلا بالتراب ، وقد خلق الله معداتها بحيث تستطيع أن تستخلص منه كل ما يقوم أجسادها كأنه من نوع النبات . أما فضلاتها فهى أتربة جافة مجردة من بعض عناصرها الأولية .

إن هذه الكائنات فى ضعف أجسادها ، وقصر حياتها ، مجال بعيد الأرجاء للنظر والتفكير فى قدرة الخالق الحكيم ، وسعة سلطانه ، وعظمة إبداعه ، فقد جهد العلم قرونا طويلة فى تعرف تركيبها ، ودرس طبائعها ، والتأمل فى أطوارها ، ولم يفرغ بعد من حصر بدائعها ، بل كلما تعمق فى بحثها ظهرت له آيات جديدة فى أحوالها وشئونها ، وهى مع هذا أظهر مستجلى للإلهامات الالهية ، التى كان يشكك الملاحدة الناس فيها منذ عهد بعيد . فقد ثبت علميا من تتبع الصناعات الدقيقة التى تقوم بها هذه الكائنات الضعيفة أنها لو تركت وشأنها لما تُصُور أن تصدر منها هذه الصناعات الدقيقة التى يعجز عنها الانسان العاقل ، لأنها تستدعى معارف واسعة بطبائع الأشياء ليست للانسان نفسه ، وهذا مما لا سبيل اليه لدى كائنات ليس لكثير من أجناسها مخ ولا أعصاب ، ولا آلات تقوم مقامها للتفكير والتدبير ، فلو لم يتولها الخالق جل شأنه بالإلهام والهداية لما بقيت طرفة عين .

إذ لو لم يكن الإلهام الالهى يتولى هذه الكائنات فما الذى كان ينبىء الطير بأنه

على وشك البيض وأن هذا البيض يحتاج للاحتضان أياما معدودة ، وأن صغارها متى خرجت تحتاج لأغذية خفيفة مهضومة ، وأنها فى حاجة مستمرة للتدفئة ، وأنها متى ترعرعت احتاجت للتدريب على الطيران . فترى الوالدين دائبين على جمع الأعواد الخفيفة ومواصلة الجهد لبناء عش على بعض الأفنان منها ، فإذا تم نثرا عليه من ريشهما ليكون البيض فى مكان وثير منها ، فإذا حان وقت البيض وضعت الأنثى فى ذلك العش واحتضنتها ، فإذا بدت لها حاجة تولى الذكر احتضانها ، وهكذا دواليك حتى يتم تكون أجنتها وإذ ذاك تكسر الأنثى البيض بمنقارها وتعمل على رفع القشور عنها ، وتدأب هى والذكر على احتضانها ، ويتوليان تغذيتها بمواد خفيفة زقا فى منقاريهما ، ثم تسقيانها على هذه الصفة . ومن الذى ألهم هذه الفراخ قبول الغذاء من منقارى أبويها وازدراءه ، ومتى اشتدت سواعدها وارتاشت أجنحتها أخذ أبويها فى تدريبها على الطيران فى دفعات متكررة حتى تتقنه فتستقل بأنفسها .

وليس هذا الذى رأيناه بأعيننا ونراه كل يوم ، بأعجب من الإلهامات التى تتلقاها الحشرات الدنيا فى بناء مساكنها ، وحفر مساربها ، والاحتيال لحاجاتها ، والاحتياط لصغارها ، فكل هذا يؤلف مجموعة من العلم لا تدع خيالا من شك لأعمى الناس قيادا فى أن هذه الكائنات الضعيفة ما كانت لتوجد ولا لتعيش لولا أن الخالق جل شأنه يتولاها بالعناية والالهام ، شأنه فى جميع العوالم المرئية وغير المرئية .

محمد فريد وجدى

قرى الضيف

قال الأصمعى :

سئل أقرى أهل اليمامة للضيف : كيف ضبطتم القرى ؟ قال : بانا لا نتكلف ما ليس عندنا .

وقال الشاعر :

أضاحك ضيفى قبل إنزال رحله ويخصب عندى والمحل جديب

وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى ولكنما وجه الكريم خصيب

روح الاسلام والمذاهب الفلسفية

« وإذا كانت هذه الشرائع حقا وداعية الى النظر المؤدى الى معرفة الحق ، فانا معشر المسلمين نعلم على القطع أنه لا يؤدى النظر البرهانى الى مخالفة ما ورد به الشرع ، فان الحق لا يضاد الحق ، بل يوافقه ويشهد له »
(الفيلسوف ابن رشد)

« وليس فى المعارف الحقة الصحيحة المستقرة شىء يمكن أن يناقض أصول الدين ويهدمها »
(الأستاذ المراغى)

بلغ الفكر الانسانى طورا ساميا من أطواره فى الكشف عن حقائق الوجود ، ولا ندعى أنه منتهى شوطه ، بل لا يمكن لانسان أن يزعم أن للنشاط الفكرى نهاية لأن النهاية إنما تكون المحدود ، ومجال الفكر لا يعرف التحديد . وقد كانت هذه الحقيقة قبل الاسلام سببا فى النفرة بين الدين والفكر ، وأحرى أن يقال بين المتدينين والمفكرين ، لأن الدين نبه على حقائق ، وندب القلوب الى اعتقادها ، فاستعصى سبر غورها على العقول ، وأبى الفكر الحر أن يقف أمامها ساهما واجما ، فمشى اليها فى ثقة قوية ليكشف عنها ، فانتهض المتدينون لذوده عن مقامه بحجة أن الدين من وحى الله ، فهو سر من أسرار الله ليس للفكر فيه مجال ، فنجم حينئذ ذلك التدافع الدامى فى تاريخ الانسانية .

فلما جاء الاسلام قرر فى أولى حقائقه أنه إذا كان الدين من وحى الله فالفكر من فيض الله ، وبهذا وضع الاسلام قاعدة التآخى بين الفكر والدين ، فتصافحا فى ظله ، وأخذا فى سبيل هداية الانسانية متعاونين على قيادة الوجود الى سعادة الخلود .

ومن ثم كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذون الدين بفطرة نقية وفكر مهذب ، فلم تعوقهم عقبات الجدل الأجوف عن العمل الصادق فى نشر الدين فى أقطار

الأرض ، ففتحوا الأقطار ، ومصروا الأمصار ، ولكن هذه الفطرة أصابتها الحياة بالصدأ بعد إذ بعُد العهد بنور الوحى ، فاحتاجت فى أخذها الدين وفهم حقائقه الى أداة من البحث ، وكانت علوم الأوائل قد وصلت الى أيدى المسلمين ؛ فلم يحجموا عن النظر فيها والاستعانة بها ، لأنهم وجدوا من الاسلام دينا آخى بين الفكر والدين ، وهذه المؤاخاة هى روح الاسلام الخالدة .

وإذا كانت الفلسفة آية من آيات الفكر الانسانى ، فهى من صميم الاسلام ، لأن الفلسفة ليست شيئا أكثر من النظر فى الموجودات ، وتعرف صلتها بالخالق ، وإبراز خصائصها . وهذا المعنى هو الحكمة فى لسان العرب ، والحكمة جعلها الله من أعظم مننه على أخصاء عباده ، فقال تعالى : « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » .

تناول مفكرو المسلمين علوم الغابرين ومذاهبهم الفلسفية بالنظر ، وخاضوا خضمها ، ودرسوا مذاهبها فى الإلهيات والطبيعيات ، والفلكيات ، وعلوم النبات والحيوان بعقول راجحة ، لا ترد الحق ، ولا تقبل الباطل ، قال الفيلسوف ابن رشد : « ينبغى لنا أن نضرب بأيدينا الى كتبهم (الأوائل) فننظر فيما قالوه من ذلك ، فإن كان صوابا قبلناه منهم ، وإن كان فيه ما ليس بصواب نبهنا عليه » .

نعم لم يسلم فلاسفة الاسلام من النقد والتحامل فى فترة قصيرة من الزمن ، فشن بعضهم الغارة على أمراء الفكر ، وقادة الرأى ، ورموهم بالزندقة ، ولكن مالبثت هذه السحب أن تقشعت ، تخلف المفكرون لنا ثروة علمية وذخيرة أدبية يدوم لنا فخرها ما دام أمر الفكر الانسانى نافذا فى الوجود .

عرضوا لأدق النظريات الفلسفية فبحثوها ، وأثبتوا لهم فيها رأيا قويا تكتنفه الحجة الصادقة ، ويحوطه البرهان المبين . فابن سينا لم يترك نظرية إلا درسها وكتب

فيها محققا ناقدا ، والفارابى لقب لعظمته فى البحث بالمعلم الثانى ، وابن رشـد قالوا عنه إن كتب أرسطو ما كانت لتصل الى أيدى الناس لولاه ، وأبو حامد الغزالى الملقب بحجة الاسـلام سبق (ديكارت) بتقرير نظرية الشك عنـد البحث حتى لا يسيطر التقليد على الذهن ، فقال فى كتاب (ميزان العمل) : « ولو لم يكن فى هذه الألفاظ إلا ما يشككك فى اعتقادك الموروث لكفى بذلك نفعا ، فإن من لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى فى العمى والحيرة » .

هـذا حال علماء الاسلام الأقدمين فى فهم روح الاسلام ، وإقبالهم على دراسة المذاهب الفلسفية على اختلاف اتجاهاتها ، وبلوغهم فيها درجة جعلتهم أعـلام الدنيا ، فما شأننا نحن ؟ وكيف فهمنا روح الاسلام ؟ وما موقفنا من دراسة ما جدّ فى الحياة من مذاهب فلسفية قامت عليها حضارة العالم ؟ وكم فى عداد المسلمين الآن من فيلسوف ؟ بل كم فيهم من مطلع على الفلسفة اطلاع المفكر الحر ؟ إن الجواب على ذلك مؤلم مؤسف ، ولـكن علينا أن نجابه الحقيقة العريانة لنفهم أنفسنا ، ونفهم مكاننا الصحيح من ديننا وتاريخنا ، فذلك أجدى علينا من المراوغة والمداورة .

منذ خمدت الحركة الفلسفية الاسلامية فى الأندلس ، وانتقلت الى أوربا ، سارت مترسمة خطواتنا حينا من الدهر ، ثم ارتقت فابتكرت مذاهب جـديدة صعدت بها الى ذروة المجد ، وبقينا نحن متخلفين ، بل بقينا منكرين ساخطين ، فتأخر تفكيرنا وجمدت قرائحنا وأصابنا العقم ، فما نتتج شيئا فيه ريحنا وعليه طابع ديننا .

جدّت مذاهب فى بعضها هداية نحن أحق بالسبق اليها ، وفى بعضها إلحاد وزيغ نحن أحق بفهمها لننقدها ونزيف باطلها ، وجـدّت مذاهب فى الطبيعة استخدمت بها أوربا مرافق الوجود فى السماء والأرض .

من الذى درس من المسلمين مذهب (دارون) فى النشوء والارتقاء وطابق بينه وبين ما يقوله القرآن الـكريم فى أصـل الانسان ؟ ومن الذى بحث نظـرية الجاذبية

التى كشفها (نيوتن) وعرف صلتها بقول الله تعالى: « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا » والله جل شأنه لا يمسك السماء والأرض كما يتصور الجاهلون، وإنما يمسكهما بناموس الارتباط العام بين ذرات العالم أجمع؟ ومن الذى درس من علماء الاسلام مذهب استحضار الأرواح وعرف صدقه من كذبه، وقد ملأ دويه الدنيا، وقلب كثيرا من الحقائق كان يدين بها الماديون؟ ومن الذى درس مذهب (ديكارت) وعرف فرق ما بينه وبين مذهب الغزالى؟ ومن الذى درس نظرية النسبية التى وضعها (انشتين) وعرف قيمتها؟...

أنا لا أنكر أن أفرادا من أذكياء المسلمين منتثرين هنا وهناك وجهوا أفكارهم هذا الاتجاه الصالح، فدرسوا واطلعوا، ولكنهم قليلون، وهم مع قلتهم لم يبلغوا أن تكون لهم آراء تقوم الى جانب آراء فلاسفة الغرب كما كان لأسلافنا من الاستقلال الفكرى، ونحن لا نريد أن نقف من الحياة موقف المتفرج، ولا موقف المقلد، لأن ديننا وتاريخنا يأبيان علينا ذلك الجمود، ويحثاننا على النظر والدرس: « أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء »؟

إن الأزهر، وهو أعظم معاهد الاسلام، يجب عليه أن يمد يده الى هذه المذاهب الحديثة ويدرسها ليخرج فيها فلاسفة يقودون الأمة الى مراقى الفلاح، وإنه لا فلاح لأمة جامدة التفكير. يقول الفيلسوف ابن رشد: « يجب علينا إن لقينا لمن تقدمنا من الأمم السالفة نظرا فى الموجودات واعتبارا لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان أن ننظر فى الذى قالوه من ذلك، وما أثبتوه فى كتبهم، فما كان منها موافقا للحق قبلناه منهم وسررنا به، وشكرناهم عليه، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم ». بهذا النحو من التفكير تقدم ابن رشد على الناس: « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ».

صادق ابراهيم عرجون

هل للمرأة أن تتعلم العلوم العالية

وأن تخالط الرجال وتشاركهم فى الأعمال ؟

كتب الينا كاتب فاضل يقول : يرغب بعض الشبان اليوم أن تتعلم المرأة المصرية العلوم العالية ، وأن تخالط الرجل وتشاركه فى الحياة العملية ، زعما منهم أن فى هذه المخالطة والمشاركة فائدة لها والمجتمع ، ويرى غيرهم أن ليس لها ذلك ، فهل لكم أن تبينوا الحق فى هذه القضية من النواحى الاجتماعية والأدبية والدينية ؟

ونحن نجيب حضرته بأن الاسلام لم يضع للنشاط العقلى للمرأة حدا ، فأباح لها أن تتوسع فى العلوم ما أمكنتها الفرص من ذلك ، وما ساعدها عليه استعدادها ، ولم يمنعها أن تبث علمها فى الناس ، ولم يحظر على الرجال الأخذ عنها ، بل روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » يريد عائشة أم المؤمنين . وقد روت ما رأته من سنته ، وما وعته ذاكرتها من كلماته ، وأخذه عنها الرجال ، وكانوا يقصدونها ليستزيدوها علما . وما كانت هى تضن عليهم بذلك .

ورويت لغيرها من نسائه صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة أخذها عنهن المسلمون وعملوا بها .

واشتهر فى التابعين نساء أخذن العلم وبرعن فيه ، منهن ابنة سعيد بن المسيب ، ومما روى عنها أنها لما تزوجت وبكّر زوجها خارجا ، سألته أين يذهب ؟ فقال لها الى حلقة أبيك سعيد . قالت له : اجلس أعلمك علم سعيد .

فالمسلمون فى الصدر الأول لم يروا بأسا من أن تتلقى المرأة العلوم العالية . فلما استبحر العلم فيهم ونبغ فيهم الأئمة أصحاب المذاهب ، لم ير واحد منهم بأسا فى تلقى المرأة العلوم العالية ، بل سمحوا لها أن تجتهد إن بلغت درجة الاجتهاد ، وجوز بعضهم أن تلى القضاء ، وأن تفتى المسلمين .

وقد دل تاريخ المسلمين فى جميع أدوارهم أن نساء بلغن درجات عالية فى الأدب وسائر العلوم ، ولم يوجد من أنكر ذلك عليهن على أى وجه من الوجوه .

أما مشاركتها للرجل فى أعماله الخارجية ، فإن الفطرة المجردة والعلوم العصرية نفسها تنافيها ، وترى فيها خطرا عظيما على المجتمع .

فأما الفطرة فإنها تأبى أن ترى المرأة ، التى اختصها الخالق بمهمة تكثير النوع الانسانى وتربيته ، تتكلف ، فوق ما تعانيه من المشاق ، مشاطرة الرجال أعمالهم المرهقة ، وأن تهجر دارها ساعات طويلة ، وأن تترك أولادها يهيمون على وجوههم فى الشوارع والأزقة وهم فى أشد الحاجة الى حمايتها ورعايتها .

هذا أمر يأباه مجرد الفطرة ، لذلك ألهم الناس من أقدم عهودهم أن يضنوا بنسائهم عن الأعمال الخارجية ، وأن يقصروهن على الحياة الداخلية ، اللهم إلا همجا متوحشين يعيشون بجوار الغابات الأفريقية والاسترالية ، فيجلس رجالهم لا يعملون شيئا ويسرحون نساءهم ليجلبن لهم ما يتسنى لهن جلبه من جذور الأشجار وأوراقها ، وما يصطدنه من بعض الحيوانات الصغيرة ليقتاتوا بها ، كما تفعل الوحوش الضارية ، فهؤلاء لا يقام لهم وزن ، ولا يعبأ بهم فى استدلال .

وأما العلم فقد قال كلمته الأخيرة فى هذا الموضوع ، ولا يزال أقطابه يرددونها فى كل مناسبة . وإنا نؤتى القارئ خلاصة من ذلك مستخرجة من كتاب النظام السياسى على مقتضى الفلسفة الوضعية للفيلسوف الكبير أجوست كومت الفرنسى ، واضع تلك الفلسفة ومؤسس علم العمران ، قال : «ينبغى أن تكون حياة المرأة بيتية ، وأن لا تكلف بأعمال الرجال ، لأن ذلك يقطعها عن وظيفتها الطبيعية ، ويفسد مواهبها الفطرية . وعليه فيجب على الرجال أن ينفقوا على النساء دون أن ينتظروا منهن عملا ماديا ، كما ينفقون على الكتاب والشعراء والفلاسفة ، فإذا كان هؤلاء يحتاجون لساعات كثيرة من الفراغ لإنتاج ثمرات قرائحهم ، كذلك يحتاج النساء لمثل تلك الأوقات ليتفرغن

فيها لأداء وظيفتهن الاجتماعية : من حمل ووضع وتربية . ومن جهة أخرى فانه لوسمح للنساء ، على ضعفهن ، أن يشتغلن خارج بيوتهن ، تعرضن لمنافسة قوية من جانب الرجال ، فلا ينلن بجانبهم إلا الحثالة التى يعفون عنها ، فيقعن فى الفاقة ولا يجدن القوت إلا تبلغا . بله الضرر الفادح الذى يحيق بمجتمعاتهن من جراء خروجهن على نظام الطبيعة ، وعصيانهن لنواميس الحياة الصحيحة » .

هذا رأى العلم الحق ، أما ما يكتب ضده وينقله عنهم المفتونون بالمظاهر منا ، فهو رأى جمهرة من قصصيين وكتاب إباحيين يسوغون للمرأة أن تخرج على مقتضى الفطرة ، ويخدعون السطحيين من القراء عن الحقائق العلمية ، وغرضهم من ذلك ترويج كتاباتهم بدعوى تجديد الحياة الاجتماعية ، والخروج مما رث وبلى من التقاليد الوراثية .

وقد أثرت هذه الكتابات فى أوربا والشرق بسبب أن الناس ميالون الى قراءة الأقاصيص ، والكتابات السطحية التى توافق غرائزهم الشهوانية ، فتكوّن رأى عام على أصالة هذه النظرية ، فاندفع الناس فى تحقيقها اندفاعا جنونيا ، فهجر النساء الدور وأقبلوا على الأعمال الخارجية ، وكان من أثر هذا الاختلاط ذيوع عادات لا تتفق والحياة الصالحة ، كانت شرا مستطيرا على الزواج المشروع ، فكثر الأخدان والخدينات ، وطمت العلاقات الخائنة بين الجنسين ، وشاعت العزوبة بين الشبان ، وأصبح التبرج المخالف للذوق السليم عادة مألوفة ، واستهتر الناس فى ذلك حتى أصبحوا يرون أن بروز النساء نصف عاريات ضرب من ضروب الأناقة ، ووجه من وجوه الظرف ، وحتى صار مما يروقهم أن تصور لهم الجرائد اليومية التى يقرءونها صور الخليعات المتهتكات ، فيصرفوا فى التأمل فيها وقتا ثمينا ، ويدعوها لأبنائهم وبناتهم غير خاشين أن ذلك يؤثر فى آدابهم تأثيرا شنيعا .

ولكن الانسان متى اعتاد شيئا وألفه ترقى فيه وأبلغه الى أقصى أطواره ، فانتهى

أمره بأن لا يقنع بالعرى النصفى ، فأوجد العرى الكامل فى بعض المسارح التى يتردد عليها . فهل وقف به التطور فى الخنا الى هذا الحد ؟ لا ، ولكنه أبى إلا أن يبلغ به الى ما بعده ، فابتكر مبدأ العرى فى الأحوال العادية لا على المسرح فحسب ، وأسس أندية له فى أكبر عواصم بلاد المدنية يجتمع فيها رجال ونساء ، فيتجردون من ثيابهم ويمضون ساعات طويلة على تلك الحالة فى محاضرات وألعاب رياضية ، وما تجر اليه من ضروب المنكرات ، ثم يلبس كل منهم ثيابه ويعود الى بيته .

نعم إن الحكومات تضيق الخناق على هذه الأندية ، وتطارد أصحابها ، ولكنها عاجزة عن ملاشاتها ، وهى تزيد انتشارا يوما فيوما .

أفتظن أن تطورات الانسان فى هذا الباب تقف عند هذا الحد ؟ اللهم لا ، إلا إذا حدث ما ليس فى الحسبان من حدوث قوارع جائحة ، ومثلات ماحقة ، يقتضيها هذا العمل الحيوانى البحت ، فيرد أصحابه عنه صاغرين : « ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون » .

هذا ولو دقق الباحث فى شئون العالم ، وشخص علل المجتمعات العصرية تشخيصا علميا دقيقا ، لرأى أن أكثر ما تشكو منه هذه المجتمعات من تدهور أدبى ، وتعقد اجتماعى ، واضطراب مالى ، منشؤه تسامحها فى تهتك النسوة ، وتركها حبالهن على غواربهن .

نعم إن من غرائز المرأة التصون ، ولكن الرجل لا يفتأ يخدعها بالمسوّلات والمغريات ، ليميت هذه الغريزة فيها ، ويطوّح بها الى ميدان الإباحة ، وقد أنجح فى إغوائها الى حد بعيد ، فهى اليوم تتبع خطواته ، ولكنه قد بدأ يتبرم بها ، حتى إن أشد المولعين بفتنتها أخذ يشهّر بتهتكها ، ويبنى أقاصيصه على إغراقها فى تبذلها .

وقد خسرت المرأة من استسلامها لهذه الآراء الضالة كل مميزاتها ، ولم تستعض عنها شيئا مما وعدها به مضللوها .

كانت المرأة ممنعة فى سُتر من العزة ، فأصبحت بهـذا التهتك مبتذلة . والتهتك فى حقيقته مبالغة فى عَرض النفس ، وكل معروض مهان كما لا يخفى . والإضراب عن الزواج مظهر من مظاهر هذا الهوان . فكأن المرأة بكثرة عرضها نفسها على الرجال قد فقدت أعز شيء عليها وهو عرشها !

وكانت المرأة فى الدار حاجة من حاجات النفس ، يسكن اليها الرجل ليروِّح عن نفسه ، فأصبح الرجال لكثرة اختلاطهم فى الحياة العملية بالنساء يتطلبون وقتا يخلون فيه لأنفسهم بعيدين عنهن ، فكرهوا الزواج ، وأرادوا أن تكون بيوتهم خلوا منهن ، لأنه لم يبق معنى لاستمرار العيش معهن خارجا وداخلا !

وكانت المرأة تُدخر لأداء أسمى مهمة فى العالم وهى تربية الصغار ، وتلقينهم مبادئ الآداب ، وأصول الأخلاق . وقد أطنب الفلاسفة والمربون فى خطورة المدرسة البيتية ، فجُردت المرأة بتأثير هذه التعاليم الفاسدة من وظيفتها الشريفة ، وأسندت اليها وظائف مبيدة لكرامتها النسوية فى المراقص والمقاهى ودور التمثيل والسينما . وتَستَّر الإباحيون وراء كلمة الفنون الجميلة ، فأحدثوا انقلابا خطيرا فى حياة المرأة ستجنى الانسانية شروره أجيالا طويلة .

هنا يثور علينا ثائر فيرفع عقيرته قائلا : أنتم تريدون أن تسجنوا المرأة ، وأن تذلوها ، وأن تستغلوا مواهبها ، وأن تسلبوها استقلالها ، وأن تجردوها من كل عمل تكسب به قوتها ، وتحتل به مكانها تحت الشمس .

كلمات جوفاء : استخدمها هؤلاء الثائرون على نظام الطبيعة فى استدراج النساء الى الحياة الإباحية ، ولا يزالون يستعملونها لستر خطيئتهم الفادحة . ولكن على مَن كل هذه الثرثرة ؟ أعلى أرفع الناس عقولا من الفلاسفة والاجتماعيين ، أم على الذين يرون بأعينهم المخازى التى جنوها على مجتمعاتهم وضاعت فيها حيل المصلحين ؟!

إن الناس يشهدون اليوم تدهورا خلقيا ، وانحطاطا أدبيا ، لم يرو تاريخ البشر له

مثيلا ، فإذا كانت حياة النوع البشرى لا تقوم إلا بانغماسه فى هذه المقاذر ، فأهوِنْ بها من حياة تموت معها جميع الغرائز الانسانية الكريمة : من الغيرة على العرض ، والحرص على الكرامة ، والترفع عن الفحشاء ، والتنزه عن النقيصة !

لو كان الانسان خلق بهيما لعاش عيشة البهائم ، ولما ثار على هذه المقاذر ، ولكنه خلق إنسانا ، فهو كما يشعر بشهوات جثمانية ، وأهواء نفسية ، كذلك يشعر بمميزات معنوية لم يمنحها الحيوان ومنحها الانسان ، لتصده عن النزوات البهيمية . فالانسان قد ينحط ، وينحط ، ويتغلغل فى الانحطاط الى أبعد حد ، ولكنه لا يفقد مميزاته المعنوية مهما أراد أن يفقدها ، فلا تزال به حتى تريه تلك المقاذر على حقيقتها ، فيثور عليها ، ويدفعها عن نفسه فى شىء كثير من العنف والجبرية .

ودليلنا على هذا أن الانسان كثيرا ما سقط فى مهاوى الرذيلة حتى ظُن أنه لن يخرج منها ، وأنها قتلت كل ما فيه من غرائز شريفة ، ولكنه لم يلبث أن نفضها عن عاتقه ، وخرج منها يتطلب الحياة الصحيحة . لو كان الأمر جاريا على غير هذه السنة لما رأيت للفضائل دولة فى الأرض بعد أن بلغت الرذيلة أقصى مداها فى أدوار كثيرة من حياة البشرية .

فأما ما يشنعون عليه من سجن المرأة وإذلالها ، وسلبها استقلالها ، فتلك صيحات يقصد بها التهويل ، وطمس معالم الحقائق ، وإلا فكيف يتخيل الناس أن قصر المرأة على مملكتها البيتية سجن وإذلال لها ؟ وهل يطالبها المصاحون المعاصرون بغير ذلك ؟ وإذا كان يفهم أن اشتغال الانسان بما خلق له سجن له ، فكلنا إذاً مسجونون ، من أول المؤلف فى مكتبه الى المُعَدِّن فى منجمه . وإذا كان هذا يستقيم فى الفهم فلتُعتبر المرأة مسجونة كجميع أبناء نوعها ، إذ لا وجه لاستثنائها منهم .

أما استقلال المرأة فلا يعنى فى علم الاجتماع شيئا غير الشذوذ عن الربط الاجتماعية ، فإن المرأة خلقت لتكون زوجة ، والزوجية تفرض على كلا الزوجين التزامات متبادلة ،

فلا معنى للاستقلال هنا مع وجود هذا الترابط الوثيق بين الاثنين . ولكن لما كان القصصيون الذين لا شغل لهم إلا فى الكلام عن الحب والمحاولات الغرامية والخيانات الزوجية ، فهم يلوّحون بهذا الاستقلال المرأة ليسوّغوا لها الخروج على الالتزامات الزوجية ، بل وعلى نظم الطبيعة نفسها . وإذا كان مملى النظم الاجتماعية هم الأدباء والقصصيون ، فعلى الاجتماع البشرى العفاء وسوء المنقلب .

ويقولون : أتريدون أن تجردوا المرأة من كل عمل تكسب به قوتها ؟ ونقول نحن : لا ، فإننا نريد أن تكسب المرأة قوتها من طريق الزوجية ، لأن الله خلق النساء على عدد الرجال مع تفاوت لا يعتد به هنا تارة وهناك تارة أخرى . ولكنكم أنتم بتسويلاتكم لها الخروج والتبرج والاختلاط بالرجال ، قد عملتم من طريق غير مباشر على إشاعة العزوبة كما قدمنا . وشيوع العزوبة يفضى الى وجود جيوش من النسوة لايجدن القوت ، فيضطررن للعمل مع الرجال . والعمل مع الرجال يزيدهم إغراقا فى العزوبة للأسباب التى لا تخفى على أحد . فأنتم الذين قضيتم على المرأة بأن تذل فى العمل الخارجى . نعم : هو إذلال لها أى إذلال ، فإنها لم تخلق لتمتهن كبائعة أو كاتبة أو سائقة أوتوموبيل أو سمسارة أو حوذية الخ الخ ، لكنها خلقت لتكون ربة بيت ، وأن هذا البيت لو كان كوخا حقيرا فهو أكرم لها ، وأحفظ لميزاتها من أن تكون بائعة أو كاتبة أو سكرتيرة .

ولسنا ننكر أن المجتمع مهما بالغ فى المحافظة على النظام الطبيعى حيال النساء فسيوجد منهن من يعوزها القوت ، ولكن عدد المعوزات يكون قليلا يمكن الحكومة الرشيدة من تدبير أعمال لهن تليق بكرامتهن .

ولكنكم أيها الثائرون لا يعنيكم قوت المرأة ، وإنما يعنيكم أن تجدوا بطلات لأقاصيصكم من المائلات المميلات ، وما لكم والنساء العاملات التى تلفح وجوههن النار ؟ فليس مقصدكم المدافعة عن النساء ولكن إخراجهن من خدورهن ، وما إكثاركم من ذكر استقلالهن وحقوقهن إلا ستر لمبادئكم الإباحية .

وقد فطنت أوربا وأمريكا لما يبتنى على عمل المرأة وحريتها المفرطة واستقلالها من المضار على الشئون الاقتصادية ، فأخذ مصلحوها يضعون حدا لعملها الخارجى ، ويدعونها للدخول فى خدرها ، وقد أخذت هذه التحوطات شكلا عمليا فى كثير من الأمم الصناعية كالولايات المتحدة والمانيا وايطاليا ، ولا بد من أن تبلغ أقصى غاياتها فى مستقبل ليس بالبعيد .

هنا يسوغ لى أن أرفع صوتى عاليا ، مؤكدا أن الفطرة الانسانية الكريمة أحكم من أن تقع فى هذه الفخاخ الشيطانية ، فتدع هذه المدنية التى حصلتها ببذل جهود جبارة وفى قرون عديدة ، تنحل وتتلاشى تحت تأثير السبب نفسه الذى حل ولاشى المدنية الرومانية من قبل ، وهو تبرج النساء وطغيان الميول الإباحية . فإن عجز المصلحون عن قمع هذه الميول فليست هذه المدنية بأكرم على الله من المدنيات التى سبقتها ، فإنها تنوء تحت عللها القاتلة ، وتصبح كأن لم تكن شيئا مذكورا ، وتحل محلها مدنية يعرف أهلها كيف يحافظون على الحدود التى حدها المبدع الحكيم للخلق : « ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه »

محمد فريد وجدى

الوصية بالمروءة

كان عبد الملك بن مروان يقول : يابنى أمية أحسابكم أعراضكم ، لا تعرضوها على الجهال ، فان الذم باق ما بقى الدهر . والله ما سرنى أنى هجيت ببيت الأعشى ولى طلاع الأرض ذهبا ! وهو قوله فى علقمة بن علاثة :

يبيتون فى المشتى ملاء بطونهم　　وجاراتهم غرثى يبتن خمائصا

والله ما يبالى من مدح بهذين البيتين ألا يمدح بغيرهما ، وهما قول زهير :

هنالك إن يستخبلوا المال يخبلوا　　وإن يسألوا يعطوا وإن ييسروا يغلوا

على مكثريهم حق من يعتريهم　　وعند المقلين السماحة والبذل

الاخلاص فى القول والعمل

داعية السداد

لم تقم عمارة هذه الدنيا منذ عهد الخليقة بالوجود ، ومنذ تضافرت القوى على بناء الاجتماع وإنشاء مؤسسات الخير كأفضل ما يدل على عظم هذا الوجود من أثر ، إلا على إخلاص المخلصين . فبالإخلاص الجماعة ، وهو أول دور من أدوار الاجتماع ، يسعد المجتمع فى آجله وعاجله . وبقدر ما يشيع الإخلاص فى عمل العاملين له يكون النجاح والفلج .

أسس الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم مجموعة صالحة كانت هدى ورحمة ، وبشيرا بإسعاد الخلق ، فقامت من بعدهم خلوف على أقدامهم وصلوا سلسلة الاجتماع ، ثم تابعوا السير فأنشأوا بقوة ما حملوه من رسالات ، وأدوه من أمانات ، تراثا الى الأمم مجيدا يتوارثه الأخلاف عن الأسلاف ، ويستضىء به الأعقاب ويتخذونه لهم شرعة ومنهاجا . أرأيت شيئا فى هذه الدنيا قام على غير الإخلاص ؟

لقد كان الإخلاص ولا يزال نورا يهتدى به الأئمة والرؤساء ، والزعماء وأولو الرأى من العلماء . والله سبحانه أبى إلا أن يفتح للمخلصين الى الخير طريقا ، لأن الإخلاص معناه تمحيض القلب لله وتجريده عما عداه . من أجل ذلك لم يأخذ الله الناس بأعمالهم فحسب ، بل أخذهم أيضا بنوايا قلوبهم ، فإن كانت النية معقودة على الخير ثم اقترنت بعمله فعلا كان الأجر عليه مضاعفا . وهذا يفسر حديث ابن عباس عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن الله عز وجل قال : « إن الله كتب الحسنات والسيئات ، ثم بيّن ذلك : فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها

الله عنده عشر حسنات الى سبعمائة ضعف الى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة » . (١)

. ومما هو جدير بالتنويه أن الإخلاص فوق ما أعد الله له من مثوبة ومضاعفة إحسان ، يتعجل المثوبة فى الدنيا ، كما يتعجل عكسه العقاب . فالمخلصون يجرون بأعمالهم خيرا فى الحياتين العاجلة والآخرة ، وهذا من الله سبحانه تمكين لقلوب المخلصين فى الاطمئنان الى الجزاء الأوفى ، وترغيب الى من ينهج نهجهم فى تلك المثوبة حتى تعم مجموعة من الخير أنواعا من العباد ، فيتضاءل الشر فى القلوب والجوارح ، ويشيع الخير فيها فينموالعمل الصالح ، فتتوثق روابط الاجتماع ، وتتعاضد الجوارح ، وتتآخى القلوب .

فما هلكت الأمم السابقة إلا لأنهم فقدوا نعمة الإخلاص ، وأعوزهم الصبر على المكاره والويلات ، وأدركهم العجزعن الإخلاص والوفاء لله ، فنشروا فى آفاقهم الختل والخديعة ، والملق والرياء والمداورة ، فانهار بناء قوميتهم ، وتحللت منهم العزائم ، وضعفت فى نفوسهم الآمال . وما حيت الأمم وكتب لها الوجود فى صحيفة الخلود بآثارها ومناعة أخلاقها وقوة عقائدها وصحة ذوقها وسلامة منطقها ونضوج عقليتها إلا بالإخلاص . فالإخلاص وحده ملاك الخير وعتاده ، وقوته وسناده .

فإذا ترامت إليك الأنباء بإخفاق الزعماء وذل العلماء ومهانة الرؤساء وفناء الكبراء فى أمة من الأمم ، فلك أن تستخلص من آيات فنائهم وعنوان ضعفهم أنهم فقدوا الإخلاص فى جميع مناحيه ، واتخذوا إلههم هواهم .

فالاخلاص حين يقترن بالأعمال وتتفاعل به النفوس المطمئنة ، ينشأ عنه تفاعل مطرد البقاء بين أجزاء المجتمع ، قال الله عز من قائل : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » .

---

(١) رواه الخمسة إلا أبا داود .

عباس طه

تأريخ الالفاظ فى اللغة العربية

كلمة (الأدب) وأطوارها

— ٢ —

عرضنا فى المقال السابق الى رأى الباحثين العصريين من أنصار الماضى الذين جددوا فى طرائق الأداء، وقلدوا فى الاتجاه والموضوعات. والتقليد فى الاتجاه تجديد فى الأدب العربى لأنه تقليد لباحثين جُدد ليسوا من عصارة الفكر العربى، ففهموا الأدب العربى طبقا لبيئتهم وطبيعة تفكيرهم، فأحسنوا كثيرا فيما يتصل بالطبيعة العامة للتفكير الإنسانى، ولكنهم أساءوا فيما يتصل بالطبيعة الخاصة بالعرب والاسلام بل بالشرق عامة .

وأما التقليد فى الموضوعات ففيه خير كثير، وليس هو محض الخير . هو خير لأنه قائم على أساس من الحياة، لأن قديمنا حىّ بلغته وأساليبه، وحىّ بما أكسبه الاسلام من أفكار خالدة . وهو شر لأنه يقف بالعقول عند أدنى مراحل الحياة، وهذا حكم بالعقم على الفكر الانسانى يحجزه عن الخلق والابتكار، وليس فى طبيعة الفكر الخضوع لهذه القيود التى ترفضها الحياة، ويأباها تطور الزمن .

وسنعرض فى هذا المقال الى رأى الباحثين العصريين الذين أغرموا بالثورة على الماضى، ثورة جامحة فى كثير من الأحايين، وثورة فيها شىء من الاعتدال فى بعض الأحيان . وهؤلاء مقلدون فى طرائقهم وموضوعاتهم لباحثى الغرب من المستشرقين، وهم مجددون فى التطبيق لنظريات أولئك الباحثين، أى فى إخضاع لغتنا وأساليبنا وتفكيرنا وطبيعتنا لتلك القوانين التى وضعها المستشرقون للأدب العربى .

أنصار هذا الاتجاه (الثائر) يأبون التسليم لتلك الشواهد القليلة التى ساقها الأولون فى بيان أطوار كلمة (الأدب) ويحاولون تتبع تاريخ الكلمة مستندين لأطوار الحياة

العربية وأوضاعها أكثر مما يستندون الى تلك النصوص التى يشكون فيها شكا عريضا ، وينكرونها إنكارا جامحا يقتلعها مع أشخاصها وقبائلها من وجه الأرض .

هذا الاتجاه على ما فيه من غلو وإفراط يسبح به فى عالم الخيال ، قد يكون مفيدا للأدب العربى فى توجيهه وجهة من الحياة يتطلبها الفكر العصرى ، ومفيدا أكثر فى تنبيه الأذهان الى إعداد العدة لدفع الهجوم ، ويفرط فى التشاؤم من يخشى على الأدب العربى من هذه الثورة فى البحث لأنها فى مقدمتها إنما تعتمد على الفرض والتخمين .

وقد اخترت بعد إنعام نظر وطول تفكير أن أمثّل هذا الرأى فى باحثين قد لايخرج كلام غيرهما من أنصار هذا الرأى عن كلامهما .

يقول الأستاذ المستشرق (نلّينو) : إن كلمة «أدب» مشتقة من الدأب بمعنى العادة ، ويرى أنها لم تشتق من المفرد وإنما اشتقت من الجمع ، فقال لقد جمعت « دأب » على « أدآب » ثم قلبت فقيل « آداب » كما جمعت بئر ، ورئم ، على آبار ، وآرام ، وكثر استعمال (الآداب) جميعا للدأب حتى نسى العرب أصل هذا الجمع وما كان فيه من قلب ، وخيل إليهم أنه جمع لا قلب فيه ، فأخذوا منه مفرده (أدبا) لا (دأبا) وجرى استعمال هذه الكلمة بمعنى العادة ، ثم انتقل من هذا المعنى الطبيعى القديم الى معانيه الأخرى المختلفة .

قال الدكتور طه حسين ناقدا لهذا الرأى بعد سوقه فى كتابه (فى الأدب الجاهلى) وظاهر أن رأى الأستاذ نالينو كرأى غيره من أصحاب اللغة يعتمد فى أصله على الفرض ، فليس لدينا من النصوص أو القرائن العلمية الواضحة ما يبين لنا أن لفظ (الأدب) قد اشتق من (الأدب) بمعنى الدعوة الى الولائم ، أو قد اشتق من الآداب جمع دأب .

نأخذ هذا النقد فى جانب البحث ، ونضيف اليه أسئلة لا يمكن أن يسلم هذا الرأى ولو خلص من نقد الدكتور طه إلا إذا أجيب عنها ، فالأستاذ نالينو لم يقل متى كان هذا الاشتقاق حتى يعتمد عليه تأريخ الكلمة ؟ وكيف كان الاشتقاق من الجمع ؟

وما نظيره فى لغة العرب ؟ وفى أى مذهب من مذاهب علماء اللغة كان الجمع أصلا من أصول الاشتقاق ؟ وفى أى عصر استعمل العرب هذه الكلمة بمعنى العادة ؟ وأى معنى من المعانى الأخرى كان أسبق فى الانتقال اليه من هذا المعنى الطبيعى ؟ وما معنى كون هذا المعنى طبيعيا ؟ والى أى عصر يمتد قدم هذا المعنى الطبيعى ؟ وكيف خيل الى العرب أنه جمع لا قلب فيه ؟ وكيف أخذوا مفرده أدبا ، لا دأبا ؟ هل كان ذلك بطريق تعليمى ، أو هى السليقة تخيلت وأخذت ؟ !

على أن التنظير بلفظ بئر ورئم الذى سند به الأستاذ نلّينو رأيه ليس تاما من كل وجه ، لأن « بئر ورئم » وإن أقاما الشبهة فى جانب القلب يبقى جانب الاشتقاق معها لا يسنده شىء ، وهو الأصل فى البحث .

ويقول الدكتور طه حسين : إنه ليس لدينا نص صحيح قاطع يثبت أن لفظ الأدب وما يتصرف منه من الأفعال والأسماء قد كان معروفا أو مستعملا قبل الاسلام ... ويعدى الدكتور طه هذا الحكم الى زمن صدر الاسلام ، ويرى أن حديث « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » لا يثبت حكما لغويا إلا إذا ثبت ثبوتا لا يقبل الشك أو كان من الراجح على أقل تقدير أنه صح بلفظه عن النبى صلى الله عليه وسلم . وهو لا يحفل بالكلام المحمول على الخلفاء الأربعة مما يستشهد به مؤرخو الأدب ، بيد أنه يسلم أن هذه الكلمة (الأدب) كانت شائعة مستفيضة أيام بنى أمية ، وأن أول معنى استعملت فيه إنما هو التعليم ، ثم خلص الى فرض افترضه كما افترض من قبله الأستاذ نلّينو فقال بعد تمهيد فى تأثير لغة قريش فى لغات العرب وتأثرها بها : فإذا لم نجد مادة الأدب فى لغة قريش ، ولا فى العبرانية ، ولا فى السريانية ، فليس ما يمنع أن تكون هذه الكلمة قد دخلت فى لغة قريش إبان العصر الأموى ، انتقلت اليها من إحدى اللغات التى ضاعت .

من هذا الفرض الطريف الذى فرضه الدكتور نفهم أنه يؤمن بأن العرب عرفوا

مادة (الأدب) فى عصرهم الجاهلى القديم ، وإن كان هـو لم يفصح عن المعنى الذى استعملت فيه المادة ، ولم يبن عن الصيغ التى تداولها أولئك العرب الأقدمون فى إحدى اللغات العربية التى ضاعت ، ومنها انتقلت الى لغة قريش . وكذلك لم يصرح بالسبب فى عدم معرفة لغة قريش لهذه المادة معرفة (ذاتية) تقتضيها دواعى التعبير ، أو معرفة مستعارة من إحدى أخواتها فى العصر الجاهلى .

ونحن نؤمن هذا الإيمان بأن العرب عرفوا مادة (الأدب) فى العصر الجاهلى ، ونؤمن إيمانا زائدا بأن لغة قريش لم تتخلف عن صواحباتها فى هذه المعرفة .

وسنتحدث فى مقال مستقل عن قيمة النصوص الأدبية المعزوة الى العصر الجاهلى واختلاف اللغات ، والحياة الأدبية لدى العرب ، وتوحد لغة الأدب فى ظل لغة قريش قبل مجىء الاسلام ، ومناقشة دواعى الشك فى تلك النصوص . وستعلم أن هذه الحياة الأدبية كانت إذ ذاك خصبة ممتعة قوية ، فيها من المعانى والمعارف ما يجعل وجود مادة الأدب فى لغتهم يسيرا معقولا ، لأن اللغة فى حقيقتها ووجودها تعبير عن مظاهر الحياة ودواعيها . ولسنا نفهم أى مانع يحول دون صحة هذا البيت :

نحن فى المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآداب فينا ينتقر

إذا جاءنا عن طريق الرواية الراجحة أن عربيا جاهليا يقول الرواة إن اسمه طرفة ابن العبد قاله متمدحا به ذاكرا مجد قومه بأخص صفات العرب وهى الكرم والجود ؟ وهو يهدينا الى أن العـرب فى عصرهم الأول عرفوا مادة الأدب بصيغة اسم الفاعل وبمعنى الدعوة الى الولائم .

وإذا قرأنا فى بعض كتب الأدب المعتبرة عند أئمة الأدب أن امرأة عوف بن محلم الشيبانى أحد سادات العرب فى الجاهلية تقدمت الى ابنتها حين أريد حملها الى زوجها الحارث بن عمرو ملك كندة بنصيحة الأم المجربة الى الفتاة الغريرة الحديثة العهد بحياة الزوجية وإدارة البيت فتقول فيها : أى بنية : إن الوصية لو تركت لفضل (أدب)

تركت لذلك منك . فليس من حرج يقف دون أن نفهم أن مادة الأدب جاءت مجيئا آخر فى صيغتها ومعناها ، فمن جهة الصيغة استوت نصا فى الموضوع — كما يقول الأصوليون — ومن ناحية المعنى فقد نحت نحوا جديدا غير الدعوة الى الولائم ، وأصبحت تؤدى معنى التهذيب والتعليم وحسن الخلق .

وإذا حدثنا أبو الفرج فى الأغانى أن المنذر الأكبر أهدى الى أنوشروان جارية كان أصابها إذ أغار على الحارث الأكبر ابن أبى شمر الغسانى ، فكتب اليه بصفتها ، وقال فى ثنايا كتابه : « قد أحكمتها الأمور فى الأدب » فلا عاينا أن نجرى هذا النص مجرى الشاهد المؤيد لحجة عرفان العرب الجاهليين هذه المادة وذهابهم بها مذاهب منوعة .

قد يكون بعض هذه القصص مصنوعا موضوعا ، ولكن تعددها يحميها من البطلان مرة واحدة ، وهى على الأقل تفيدنا أن العلماء والرواة كانوا مطمئنين الى أن هذه المادة مما كانت تعرفه لغة العرب الأقدمين ، وهذا الاطمئنان لا نتمسك به كدليل على إثبات حكم لغوى ، وإنما هو سبيل الى الحجة العامة ، وإن لم تعتمد على شاهد جزئى ، لأن ذيوع المادة اللغوية بصيغ كثيرة وتداولها على الألسنة يحتاج الى زمن طويل يصقلها ويذيعها ويشهرها بعد ولادتها ، وأيا قدرنا زمن واضع إحدى هذه الروايات الأدبية فلا بد من امتداده الى الماضى بالنسبة للمفردات زمنا كافيا لجعلها مألوفة الاستعمال ، وهو لا يقصر بها عن الامتداد الى العصر الجاهلى ؟

صادق ابراهيم عرجون

فضل الرجال بالاعمال

قال عبد الله بن المبارك : كل من ذكر لى عنه شىء وجدته دون ما ذكر عنه ، إلا حيوة ابن شريح وأبا عون .

ومما أثر عن حيوة هذا وخلد فى سجل مناقبه أنه قد يكون فى الدرس فتأتى أمه فتقول له : قم ياحيوة ألق الشعير للدجاج فيقوم . وهذا أبلغ ما عرف من طاعة الأمهات .

كلمات حكيمة
لفضيلة الاستاذ الاكبر

خليق بهذه المجلة أن تتصيد كل كلمة تصدر من حضرة صاحب الفضيلة الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى فتدونها وتطرف بها قراءها، لأنها كلها، وإن تعددت مواضيعها، ترمى لغرض واحد وهو الاصلاح الذى ينشده المسلمون فى بقاع الأرض كافة، ويرجون أن يبلغ كماله على عهده .

وإن فى الكلمة الموجزة التى ألقاها فضيلته فى الاحتفال بافتتاح المعهد الدينى الذى أنشأته جمعية المحافظة على القرآن الكريم بمدينة دمنهور لأصولا من الاصلاح الاجتماعى والأدبى يتعين على كل مسلم أن يقرأها ويتفهمها ويعمل على تحقيق أغراضها . قال حفظه الله :

صدق الله العظيم . « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »

إن الأمة الاسلامية قد عنيت بحفظ القرآن أدق عناية، وجاهدت فى هذا السبيل أقوم جهاد، حتى إنها حفظت روايته وعدد آياته وعدد كلماته وعدد حروفه، وحفظت ما نزل منه ليلا وما نزل منه نهارا، وما نزل فى السفر، وما نزل فى الإقامة، كما حفظت لهجاته ، فأصبح القارئ يقرأ القرآن وليس يعتريه أدنى شك ولا يداخله أقل ريبة فى أن الذى يتلوه ويقرؤه هو الذى أنزله الله ، وهو الذى قرأه الرسول على صحبه ، وهو الذى وصل الينا لم يزد عليه شىء ، ولم ينقص منه حرف ، فحفظ من التحريف والتغيير ، وكانت تلك العناية به مصداق قوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

ولحفظ القرآن ثلاث درجات، كل درجة توصل الى ما بعدها . فالدرجة الأولى لحفظ

القرآن، حفظه فى الصدور، وتجويد حروفه، وهى التى لأجلها فتح معهدكم. والدرجة الثانية فهم معانى القرآن وأسراره وحكمه ومراميه، وهذه التى تقوم على العناية بها المعاهد الدينية، وحضرات أئمة المساجد، والوعاظ والمرشدين. والدرجة الثالثة هى العمل بما فى القرآن من أحكام، والتخلق بأخلاقه، وهذه هى الغاية القصوى، والدرجة العليا التى لأجلها بعث الله الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن أجلها أعد الثواب والعقاب وخلق الجنة والنار.

وهذه الدرجة هى التى تنتظم بها شئون المجتمع، وترقى الى أوج السعادة فى الدنيا والآخرة. وقد رأينا المسلمين فى الصدر الأول، أيام أن كانوا من هذه الدرجة فى الغاية القصوى، كيف استقام لهم أمرهم، وقويت كلمتهم، وملكوا البلاد والعباد. كل ذلك لتمسكهم بالدين، والعمل بالكتاب الكريم. فلما انحرف عنه أخلافهم وصلوا الى ما ترون من الذلة والمسكنة والضياع، حتى أصبحنا يُدبَّر لنا أمرنا ونحن لاهون، ويُقضى فى شئوننا ونحن غافلون:

ولم تكن تلك الذلة لهم فإن الله قد كتب العزة للمؤمنين، حيث يقول: «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» ويقول: «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات لَيستخلفنّهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون».

والعمل بالقرآن يقضى بالتخلق بأخلاقه، ومن أخلاقه الصدق، والصبر، والوفاء والزهد فى الترف، وإيثار التقشف على التوسع فى النعيم. وتلك الأخلاق اليوم مفقودة من بيننا، فمن ذا الذى يصبر على المكاره، ويحمل نفسه على مشاق الطاعات؟ فنحن إذا أردنا أن نأخذ الناس الآن على التخلق بأخلاق القرآن لا بد لنا من جهاد وصبر طويل، وقد تمر أجيال قبل تنشئة نشء مستكمل للتخلق بهذه الأخلاق، ولكننا إذا شئنا

تقويم الأخلاق من الآن فلا بد لنا من أن نطالب الحكومة، ونطالبها بقوة أن تضع تشريعا حاسماً لردع المفسدين، وزجر النفوس الجامحة عن الدين، وتستعمل السوط والدرة، إذا دعت اليهما الحال.

كان لدينا وظيفة الحسبة، وهي وظيفة نافعة للأمة الاسلامية. كانت تؤدى لنا فائدة كبرى ونفعاً عظيما. فيجب أن تعود، ويجب أن يعود السوط والدرة.

قد يقول فريق من الناس إنا متعصبون. فنحن نقول لهم: نعم نحن متعصبون. وليس يخجلنا أن نكون متعصبين، متعصبين للحق ضد الباطل، فالتعصب للدين تعصب للحق، تعصب للفضيلة ضد الرذيلة، وما يضيرنا أن نتعصب للحق وقد تعصب غيرنا للباطل: لقد مضى زمن كان يستحي فيه المسلم من أن يرمى بالتعصب، وما زال ينكمش كلما سمع هذه الكلمة شيئا فشيئا، ويتراجع شبراً فشبراً فشبراً، حتى أخذ الغير مكانه واحتل موضعه. كل ذلك فراراً من التعصب.

وقد يقول فريق آخر إن هذا تأباه الحرية، ولكنا نقول لهم: لا خير فى حرية تجعل من الشاب مخنثا، ومن الفتاة شابا، إنما نريد الرجل رجلا كاملا مستكمل الرجولة فى استقامة ونزاهة، ونريد الفتاة أنثى مستكملة الأنوثة، فى عفة وطهارة.

يأمر القرآن بالنصيحة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقد أصبحنا فى حالة يرتكب فيها المنكر سرا وجهارا، وليلا ونهارا، والله تعالى يقول: « لُعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون ».

فكل أمة يفشو فيها المنكر ولا تتناهى عنه، تستحق اللعنة كما لعنت الأمم السابقة. وكل أمة تفسق عن أمر ربها تستحق الدمار. قال الله تعالى: « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » وإن الأمة الاسلامية قد راج فيها الفسق والضلال، فاستحقت هذا الوعيد وقد حاق بها أو كاد.

والأمراض التى انتابت الأمم الاسلامية، كلها من ضعف الإيمان أو من عدمه. إذ الايمان، ولا أريد أن أدخل بكم فى المسائل العلمية فأعرفكم ما هو الايمان، ولكن يكفى أن نستعرض مظاهره:

فالايمان يقضى أن يقوم الانسان بما يطالبه منه، ويدفعه الى ما يوجبه عليه، ويكرهه على أداء فرائضه. فتلك هى لوازم الايمان، وهى أداء الواجب تلبية للواجب، فإذا انعدمت هذه اللوازم انعدم الايمان، على ما يقوله العلماء من أن انتفاء اللازم يقضى بانتفاء الملزوم. فإذا قلنا إنا مؤمنون فعلى ضرب من التجوز، وإذا قلنا مسلمون فعلى نوع من التساهل؛ فالايمان داع الى بذل النفس والمال، وإيثار مرضاة الله على كل شىء من متاع هذه الحياة الدنيا وزينتها. فكل من يكون الله أهون عليه من نفسه فليس بمؤمن. وكل من يكون الله أهون عليه من ماله فليس بمؤمن. وكل من يكون الله أهون عليه من ولده وزوجه وعشيرته فليس بمؤمن، ولينتظر ما ينزله الله به من العقاب والنكال:

«قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره، والله لا يهدى القوم الفاسقين».

ثم قال فضيلته بعد إفاضة فى هذا الموضوع وحث على الأخذ بمكارم الأخلاق والتمسك بتعاليم الدين وآدابه:

أرانى أطلت عليكم فى هذا الموقف. (فارتفع الضجيج: زدنا زادك الله).

ولكن قبل أن أختم كلمتى أحب أن أجيب عن مطلبين طلبهما منى حضرات خطباء الجمعية:

أولهما أن تكون هذه الجمعية محل عطفى وموضع رعايتى. وإنى أتشرف بأن أكون

من خدم المحافظة على القرآن . ثم قال : وأصرح لكم بأنى أعد نفسى سعيدا بأن أكون من هذا اليوم عضوا فى جمعية المحافظة على القرآن الكريم بدمنهور . (فارتفعت الأصوات بالدعاء لفضيلته) .

وأما عن المطلب الثانى وهو إنشاء معهد دينى بدمنهور ، أو قسم عام لتعليم الدين فيه ، فإنى أتمنى من صميم فؤادى نشر المعاهد الدينية فى جميع البلاد ، ولكنكم تعلمون أن هذا المطلب مرتبط بأرقام الميزانية ، والوعد مع التقيد بتلك الأرقام مجازفة ، ولكنى أعدكم أن أنشىء لكم — إذا استطعت — معهدا دينيا ، أو قسما عاما للمستمعين .

والسلام عليكم ورحمة الله .



تدبير المال

قال الماوردى رحمه الله :

« إن يسير المال مع حسن التقدير ، وإصابة التدبير ، أجدى نفعا وأحسن موقعا من كثيره مع سوء التدبير ، وفساد التقدير ، كالبذر فى الأرض إذا روعى يسيره زكا ، وإن أهمل كثيره اضمحل . وقال محمد بن على رضى الله عنه : الكمال فى ثلاثة : العفة فى الدين ، والصبر على النوائب ، وحسن التدبير فى المعيشة . وقيل لبعض الحكماء : فلان غنى . فقال لا أعرف ذلك مالم أعرف تدبيره فى ماله ، فاذا استكمل هذه الشروط فيما يستمده من قدر الكفاية ، فقد أدى حق المروءة فى نفسه . وسئل الأحنف بن قيس عن المروءة ، فقال : العفة والحرفة . وقال بعض الحكماء لابنه : يابنى لا تكن على أحد كلا ، فانك تزداد ذلا ، واضرب فى الأرض عودا وبدءا ، ولا تاسف لمال كان فذهب ، ولا تعجز عن الطلب لوصب ولا نصب ، فهذا حال لازم . وقد كان ذوو الهمم العلية والنفوس الأبية يرون ما وصل الى الانسان كسبا ، أفضل مما وصل اليه إرثا ، لأنه فى الارث فى جدوى غيره وبالكسب مجد الى غيره ، وفرق بينهما فى الفضل ظاهر .

فلسفة الاخلاق

وصلتها بالنفس الناطقة — أثر ذلك فى المجتمع الانسانى العام

ألممنا فى البحث السابق بشىء غير قليل مما يتصل بالأخلاق التى يجب أن تكون فى الانسان كأفضل مميزاته بل مقوماته، وأبنّا ما يتألف منه قوام الأخلاق من أنواع وأقسام، وبخاصة ذلك الطابع الذى يطبع النفس بطابعها الخاص، ويروضها على أفضل المثل العليا وأعمقها أثرا فى صميم هذا المجتمع .

وليس من شك فى أن كل جسم من الأجسام له صورة تشخصه وتحدده ، فلا يقبل صورة أخرى من نوع ما تعين عليه من الصورة الأولى إلا بعد مفارقته لها .

فمن المسلم به أن الجسم إذا قبل صورة من الصور كالتربيع أو التثليث مثلا ، فلا يقبل شكلا آخر كالتدوير إلا بعد أن يفارقه الشكل الأول ، كما أنه إذا قبل صورة من النقوش أو الكتابة أو ما اليها ، فلا يتأتى أن يقبل صورة أخرى كذلك . ولكن النفوس لا تجرى على هذه السنة ، فإنها تقبل جميع الصور حتى المتناقضة منها ، ولا تمحو صورة أثر صورة أخرى . وهذا دليل على أنها من جوهر لطيف مباين لجوهر المادة . وأن طباع النفس وخلقها تباين طباع الجسم وخواصه ، وأنها أكرم جوهرا وأفضل طباعا من كل ما فى هذا العالم من الأمور الجسمانية .

والنفس وإن كانت تتلقى كثيرا من مبادئ العلوم عن الجسم ، لها من طبيعتها مبادئ أخرى ، تلك هى المبادئ الشريفة ، والمطالب العالية التى لا تمت الى عالم الأجسام بأوهى سبب ، وهى المبادئ التى تستنبط منها الأقيسة الصحيحة .

فمثلا إذا حكمت النفس بأن ليس بين النقيضين واسطة فليس ذلك مأخوذا عن الحس . وكذلك إذا حكمت على الشىء بأنه صادق أو كاذب فلا يمكن أن يكون ذلك وحده مستفادا من الحس ، ولكنه مستفاد مما تجده النفس بالقياس الى المقدمات

والنتائج . ونحن نجد النفس العاقلة فينا تستدرك شيئا غير قليل من خطأ الحواس ، لأنه لا يضاد نفسه فيما يحكم فيه فى مبادئ أفعالها وفيما ترد عليها أحكامها . فالبصر مثلا يجوز عليه أن يخطىء فيما يراه من قرب أو من بعد ، فأما خطؤه البعيد فقد يدرك الشمس مثلا صغيرة مقدارها عرض قدم وهى فى واقع أمرها تماثل الأرض مليونا وثلاثمائة مرة عند علماء الفلك بشهادة البرهان الرياضى .

وأما خطؤه فى القريب فمثاله ضوء الشمس إذا وقع علينا من كوة صغيرة أو من مربعات صغار ، فإنه يدرك بها الضوء الواصل الينا منها مستديرا ، فترد النفس العاقلة عليه ذلك الحكم وتغلطه فى إدراكه ، وتعلم أنه ليس كما يراه .

ويخطئ البصر أيضا فى حركة السفينة والشاطئ والنجوم والكواكب . ويخطئ فى الأشجار المتراصة وفى النخيل ، وفيما هو متجانس الأبعاض حين يراها مختلفة فى أوضاعها . ويخطئ أيضا فى الأشياء التى تتحرك على الاستدارة حتى يراها كالحلقة والطوق . ويخطئ أيضا فى الأشياء الغائصة فى الماء حتى يرى أن بعضها أكبر من مقداره ، ويرى بعضها معوجا وهو مستقيم ، فيستخرج العقل أسباب هذه كلها من مبادئ علمية ، ويحكم عليها أحكاما صحيحة .

وكذلك الحال فى حاسة السمع وحاسة الذوق وحاسة الشم وحاسة اللمس ، فالعقل هنا يرد هذه القضايا ويقف منها موقف المدافع الذائد عن بيضته ، ثم هو يستخرج أسبابها ويحكم فيها أحكاما ظاهرة الصحة . والحاكم فى الشىء ، المزيف له أو المصحح ، أفضل بكثير وأعلى رتبة من المحكوم عليه .

وعلى الإطلاق فإن النفس إذا علمت أن الحس صدق فى تقديره أو كذب ، فليست تأخذ هذا العلم من الحس قطعا ، ثم إذا علمت أنها قد أدركت معقولاتها فليست تعلم هذا العلم من علم آخر ، ولكن من ذاتها ، لأنها لو علمت هذا العلم من علم آخر لاحتاجت فى ذلك العلم أيضا الى علم آخر ، وهذا يمر بلا نهاية ، وليست تحتاج فى إدراكها ذاتها

الى شىء آخر غير ذاتها . ولهذا قيل فى أواخر هذا العلم : إن العقل والعاقل والمعقول شىء واحد .

وإذ قد تبين من هذه الأشياء بيانا واضحا أن النفس ليست بجسم ولا بجزء من جسم ولا حال من أحوال الجسم ، وأنها شىء آخر مفارق للجسم بجوهره وأحكامه وخواصه وأفعاله ، فلا بد من أن نعرض لشىء غير قليل مما تصبو اليه النفوس ويدخل فى متناول عقليتها ، فنقول :

من المسلم به أن النفس شيقة الى معالجة الفضائل مع نبوها عن الأفعال الجسمانية العالقة بعالم الأجسام . والفضائل لا يستطاع تحصيلها إلا بعد أن تطهر نفوسنا من الرذائل التى هى أضدادها ، وهى شهواتها الرديئة الجسمانية ، ونزواتها الفاحشة البهيمية . فإن الانسان الخيّر إذا علم أن هذه الأشياء ليست فضائل بل هى رذائل ، تجنبها وكره أن يوصف بها ، وإذا ظن أنها فضائل لزمها وصارت له عادة . وهكذا تصبو النفوس الخيّرة الى كل معانى الخير ، وتنبو عن كل معانى الشر ، مما سنحاول تبيانه وعلله وبسط آراء الأخلاقيين فى تكوين صورة عليا من صوره فى العدد التالى ، إن شاء الله ؟

عباس طه

من حكم خالد بن يزيد

كان خالد بن يزيد بن معاوية ، وقد تولى الخلافة ثم استقال منها تورعا ، عالما كثير الدراسة للكتب ، وربما قال الشعر . فمن شعره قوله :

هل أنت منتفع بعلـ ـمك مرة والعلم نافع
ومن المشير عليك بالر أى المسدد أنت سامع
الموت حوض لا محا لة فيه كل الخلق شارع
ومن التقى فازرع فاذ لك حاصد ما أنت زارع

الله جل جلاله

تعاليت يا رب ما أجلك : خلقت الخلق ، وأجريت الرزق . بك ينمو الزرع ويدر الضرع .

* * *

سبحانك اللهم ما أوسع ملكك ، وما أعظم سلطانك : السماء والأرض لك ، والملائكة الأطهار جندك ، والملوك المتوجون عبيدك .

* * *

تباركت وتعاليت ، صنعت فأعجزت ، وصورت فأحسنت ، الجن والإنس خلقك ، والجسم والروح عملك .

* * *

لا إله إلا أنت ، منحتنا بصائر لا تنكرك ، وأبصارا لا تدركك . يسبح الرعد بحمدك ، ويترنم الطائر بمجدك . البحار لا تقر من خشيتك ، والجبال جامدة من هيبتك . ولقد جرى النسيم بلطفك ، وتقلب كل مخلوق فى رحمتك .

* * *

تباركت تباركت : لا أول قبلك ، ولا آخر بعدك ، كيف تخفى والشمس بعض بيناتك ؟ : وكيف تدرك والروح بعض أسرارك ؟ : فأنت الأول والآخر ، والظاهر والباطن .

* * *

تعاليت تعاليت : آمن بك المؤمن ولم يرك ، وجحدك الجاحد ووجوده شاهد بوجودك ! !

سبحانك سبحانك ! بهرتنا آلاؤك ، وغاب عنا لألاؤك . ماء وحجر ، وأرض وقمر ، وزاحف وطائر ، وصادح وباغم ، أنبتّ لنا من الأرض عجبا : نخيلا وأشجارا ، وأزاهير وثمارا .

* * *

رب : من أين للورد شذاه ؟! ومن أين للغصن عوده ولحاه ؟! ومن أين للثمار طعومها المختلفة وأشكالها المتباينة ؟! من أين كل هذا يارب ؟! سائغ وغير سائغ ، وناصع وفاقع ، تباركت مخرج الخضراء من الغبراء ، وخالق العجب من طين وماء !

* * *

سبحانك سبحانك ! جلت عظمتك ، أعجزت الانسان بالجبال والنمال ، بل أعجزت الانسان بذات الانسان ، عظم ولحم ، وعروق ودم ، وظفر وشعر ، وسمع وبصر ، قلت للسان ذق ، وهو فلذة لحم ، فذاق ، وقلت للعين أبصرى فأبصرت وهى ماء .

* * *

سبحانك اللهم وهذا القلب الخافق بم يخفق ؟! أشهد أن لا إله إلا أنت ، عجزت عقولنا عن الإحاطة ببعض ما خلقت ، فكيف تحيط بك ؟! سبحانك اللهم سبحانك ! هذه دنياك فكيف آخرتك ؟! وهذا شأن آثارك فكيف شأنك ؟! تقدست من إله صدق ، وتعاليت من رب حق !

محمد الاسمر

موعظة جليلة

كتب رجل الى أبى العتاهية :

يا أبا اسحق إنى واثق منك بودك

فأعنى بابى أذ مت على عيبى برشدك

فاجابه بقوله :

أطع الله بجهدك راغبا أو دون جهدك

أعط مولاك الذى تطلب من طاعة عبدك

فقيد العلم والدين

فاتنا أن ننعى لحضرات القراء المرحوم السيد محمد رشيد رضا فى العدد الماضى ، وعذرنا أنه كان قد تم طبعه ولم يتأخر إلا انتظارا لطبع الملزمتين الانجليزيتين ، فنستدرك ذلك اليوم ، وإن كان قد وصل نعيه الى المسلمين كافة فى جميع بقاع المعمورة ، وقوبل بأسف شديد وأسى عظيم . ولا عجب فقد تجرد السيد رحمه الله لخدمة الاسلام ، ووقف له كل ما وهبه الله من علم وقوة وصبر ومثابرة ، وليس يؤسف الناس من وفاته خفوت صوت من أرفع الأصوات فى الدفاع عن الاسلام فحسب ، ولـكن من خلو مكان رفيع كان يشغله أيضا بين العاملين على تطهير عقول المسلمين من البدع التى اعتبرها عامتهم من الدين وليست منه فى شىء .

نعم إن ثورة المرحوم السيد رشيد على البدع لا يوجد لها نظير إلا فى أفراد من السلف الصالح ، فقد صمد لها صمودا أشفق عليه منه حتى الذين كانوا يشاطرونه رأيه من العارفين ، ولـكنهم لم يؤتوا الشجاعة التى أوتيها فباتوا يتوقعون له الشر المستطير . وقد لقى منه مالو لقيه سواه لصده عن السبيل ، ولـكنه ثبت للمعارضين ، واستبسل فى الـكفاح أيما استبسال ، حتى استطاع بفضل إخلاصه وصبره أن يحدث فى الصفوف المتراصة حياله ثغرة اقتحمها على مناوئيه وفى أثره جمهور غفير ممن كانوا لا يجرءون على مواجهتها مجتمعين ، فاصبحنا وللسنة الصحيحة أنصار مجاهرون ، وحيال البدع خصوم مجاهدون .

فلو لم يكن لفقيد العلم والدين السيد رشيد غير هذا الموقف لخلد ذكره فى تاريخ المسلمين . فما ظنك به وقد أسقط دولة التقليد ، تلك الدولة التى قضت على المسلمين بأن ينقسموا شطرين شطرا جمدوا على ما هم عليه من التقاليد المنافية لروح الدين ، وقوما مرقوا من الاسلام واتخذوا لهم طريقا غير طريق المؤمنين ، فلو كان دام سلطان التقليد لقضى على حزب التقليد أن يفنى فى حزب الخارجين ، وهى كارثة جدير بكل من يعرف حقيقة الاسلام أن يذوب قلبه أسفا منها .

فـكان السيد رشيد البطل المعلم فى هذا الموطن الشريف ، تلقى فيه بصدره كل ما يتلقاه المصلحون من الجامدين ، وكان لجهاده أثر بعيد فى تبصير المسلمين بسماحة دينهم وببقاء باب الاجتهاد فيه مفتوحا الى يوم يبعثون .

فرحم الله هذا المجاهد الـكبير رحمة واسعة ، وأجزل له من عطائه وأحسن قراه ، ورفع منزلته بين عباده المقربين .

تصحيح اخطاء

ورد فى مقالة بالعدد الممتاز لفضيلة الشيخ عبد الفتاح بدوى صفحة ٤٦ حديث منسوب الى النبي صلى الله عليه وسلم وهو : « من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم الخ » وقد نبهنا فى الصفحة ٣٥٢ من الجزء الخامس بأنه من مأثور الحكم الاسلامية وليس بحديث .

وجاءنا استدراك على مقالة فضيلة الأستاذ ابراهيم عمار المنشورة فى صفحة ١٠١ من العدد الممتاز ، بأنه اعتبر عبادة بن الصامت من الأرقاء ولم يكن رقيقا . واعتذر الأستاذ عن ذلك بأنه لم يعتبره رقيقا إذ قال : « وعبادة بن الصامت الذى كان أسود فاحما يرسل على رأس وفد ليضع مع المقوقس عظيم القبط فى مصر شروط الصلح مع العرب » . وإنما خصه بالذكر لأن المقوقس أنف أولا أن يفاوضه لسواد جلده ثم اضطر لمفاوضته .

وأبلغنا فضيلة الشيخ عباس طه أنه سقط من مقالته المنشورة فى الجزء الخامس تعليق ذكر فيه أنه استأنس فيما كتبه برأى المرحوم ابراهيم افندى على أخذا من كتابه أسرار الشريعة الاسلامية .

وجاء فى العدد السادس أيضا هذه الأخطاء :

صفحة	س	خطأ	صواب
٤٢٣	١٠	التى علقت	الذى علق
٤٢٨	١٣	لخطينا	لخطونا
٤٣٣	١٤	شيزار	شيزر
٤٣٣	١٩	حصن حيفا	حصن كيفا
٤٣٥	٩	واصف شاه	وصيف شاه
٤٣٧	٩	ابن الرحيب	ابن الراهب
٤٣٧	١٩	أربلا	إربل

الاسلام الصحيح

هذا اسم كتاب ألفه حضرة الأستاذ اللوذعي محمد إسعاف النشاشيبي من أعضاء المجمع العلمي العربي جاء في ختام مقدمته : « وبعد فهذا كتاب يثبت للمسلم دينه ، ويقوى إيمانه ويقينه ، ويحامي عن كتاب الله ، ويذود عن رسول الله ، ويدعو الناس كافة الى هدى الله ، وقد استعان صاحبه بالله ، وهدى بالقرآن : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » ، واستظهر بالعربية : « وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا » ، فالعربية ترجمانه ، وبها تبيانه ، والعربية لسان هذا الدين »

أما أهم المباحث التى أفاض فيها فهى : الوهابية . الزيدية . الشيعة . الامامية . آل البيت . التفسير والعقل . الصلاة على النبى . هل فى الاسلام طبقات . الاحاديث والمحدثون . وقد أجاد فيها كل الاجادة ، ووفى بما يطلب من عالم بصير فى هذه المواطن . ويمتاز هذا الكتاب بكثرة تعليقاته ، ولكنها مفيدة للغاية ، وتقف التالى للكتاب على ما لايتسنى الوقوف عليه إلا بعد إنفاق أوقات طويلة . فنشكر لحضرة المؤلف عمله الجليل ، ونرجو له التوفيق .

رسالة الحج — فلسفته وأسراره

هذه الرسالة كتبها أحد رجال السلك السياسى المصريين تحت اسم « دبلوماسى » وهى فى نظرنا من أحسن وأبلغ ما يمكن أن يكتبه كاتب عصرى مثقف العقل تثقيفا علميا ، وواقف على أسرار الاجتماع وعلوم النفس . وقد كتبها بلغة عربية فصيحة جمعت الى جزالة العروبة ، جمال الديباجة وسمو الأسلوب . فهى من الرسائل التى يحرص مقتنيها على قراءتها فى مجلس واحد ، وتطالبه نفسه أن يقرأها على غيره ، وإن فى ظهور مثل هذه الرسالة القيمة دافعا قويا لأهل الثقافة العصرية لأداء فريضة الحج . فنشكر دبلوماسينا الكريم راجين الله أن يكثر من أمثاله .

سوانح التجاريب

هذه حلقة جديدة من سلسلة دواوين عديدة أصدرها حضرة الشاعر النابه محمد افندى توفيق خالى بوزارة المعارف . وقد تصفحنا هذا الجزء فوجدناه كالأجزاء التى سبقته : سداه ولحمته الموضوعات الاجتماعية ، والشئون الوطنية ، حتى ليكاد يكون حضرة الشاعر المفضال متفرغا لها دون سواها ، ونعم ما اختار لنفسه . فنرجو الله أن يزيده توفيقا وتسديدا ، وأن ينفع المجتمع بما ينشئه من القصائد فى هذه الموضوعات المختارة .

بسم الله الرحمن الرحيم

مهمة الدين الاسلامى فى العالم

٢٤

دعوته الى تاسيس مدنية عالمية فاضلة

إن كلمتى مدنية ودين تعتبران فى عرف أهل العصر الحاضر متناقضتين، فإن ذكرتَ الكلمة الأولى أيقظتَ فى ذهن سامعك الزخارف الفنية، والمبدعات الصناعية، والمتع المادية بما تنطوى عليه من المراقص والمسارح والملاعب. متع مطلقة من القيود إلا ما تحده العادات، مفتكة من الربط إلا ما توجبه الآداب المتفق عليها، والتقاليد المعمول بها، لا الآداب ولا التقاليد التى يقررها العلم، وتحررها الفلسفة. وربما أيقظتَ فى ذهن سامعك مبدأ الإباحة أيضا، ولكن فى حدود تلك الآداب المتفق عليها.

وإن ذكرتَ كلمة دين نبهتَ فى نفس سامعك الزهد عن متع الحياة، والتملص من علائق الدنيا، ومكافحة الميول البدنية مكافحة لا هوادة فيها، والنظر الى الزخارف والمبدعات الكمالية نظر استخفاف وزراية، وتطهير النفس من كل رغيبة مادية، وإنكار حقوق الجسد لمصلحة الروح التى يجب أن تستوعب جميع القوى المعنوية.

هذان الاعتباران المتناقضان قد تغلبا على العقلية الانسانية فى أكثر الأمم، وبُعد العهد عليهما حتى لا يكاد الباحث يعثر على مبدأ نشوئهما، وقد تقررا فى الأذهان الى حد أن أصبحا فى عداد البداهات العلمية، وجاءت أقوال وأعمال حفظة الأديان مؤيدة لهما بحيث صار من المتعذر إعادة النظر فيهما.

ولكن القرن العشرين قد وضع كل المدركات البشرية فى الميزان، حتى ما كان يعتبر منها من المقررات العلمية التى لا تقبل الشك، وهل بعد الأصول الميكانيكية

والرياضية شيء فى الرسوخ والاستقرار ؟ فقد جعلها العلم هى أيضا تحت التمحيص ، فلم يبق بعد هذا شيء يتعالى على إعادة النظر فيه .

ونحن نستفيد من هـذه النزعة التجديدية فنعالج مسألة المدنية والدين تحت هـذا الضوء الساطع ، فنقول : هل يمكن أن تتفق المدنية والدين ؟ وهل المدنية بطبيعتها تنافى الدين ؟

وقبل أن نخوض فى هذا البحث ننظر فى ماهية المدنية وماهية الدين، حتى يكون حكمنا بإمكان اتفاقهما أو تنافيهما مؤسسا على أصول صحيحة ، ومقررات قويمة . فما هى المدنية وما هو الدين ؟

إذا اعتبرت كلمة المدنية فى أوسع معانيها دلت على مجموعة من الشئون تشمل المبادىء المقررة ، والعادات الشائعة بين الآحاد المؤلفين لمجتمع مستقل . وعليه فتوجد مدنيات بقدر ما وجد ويوجد من جماعات . ولكن ليست كل المدنيات تستحق هذا الاسم على إطلاقه . فكل منها يقرب أو يبتعد عن المثل الأعلى للمدنية على نسب مختلفة . وهـذا المثل الأعلى يتألف من اجتماع أصـول بالغة أقصى درجات السمو ، مستمدة وجودها من صميم الروح الانسانى فى أصفى وأنزه ما تكون عليه ، ومنطبقة على العلم والفلسفة فى أقصى ما تؤدى اليه .

فمن يوم أن وُجد الناس على الأرض وألَّفوا الجماعات ، وُجدت لديهم مدنيات تناسب أحوالهم ، ثم أخذت هذه المدنيات ترقى يسيرا يسيرا حتى وصلت الى ما نحن عليه اليوم ، فهل ما نحن عليه هو المثل الأعلى الذى ليس بعده مذهب ؟ هل الأصول التى تقوم عليها مدنيتنا بالغة أقصى درجات السمو ، ومستمدة وجودها من صميم الروح فى أصفى وأنزه ما تكون عليه ؟ وهل هى منطبقة على العلم والفلسفة فى أقصى ما تؤدى اليه ؟

إن أهل هذه المدنية أنفسهم لايدّعون ذلك ، ويرجون أن يهذبوا من أحوالهم لتصل الى المثل الأعلى .

بقى الدين ، فهل هو شىء غير المثل الأعلى الذى يتخيله الانسان المدنية ؟

نعم: إن المتمدنين قد ساءت ظنونهم فى الأديان ، لما رأوه من سيرة زعمائها فى الأمم التى خضعت لزعاماتهم ، ولما أدخل عليها من الآراء والتأويلات ، حتى يئسوا أن يوجد واحد منها ينطبق عليه مميزات المثل الأعلى للمدنية .

إنهم لا ينكرون أن الأديان تعلم الرحمة والإيثار والبذل ، ولكنهم يقولون إنها فى مقابل ذلك تبث عقائد تنافى أوليات العقل ، وبداهات النظر ، وتحرم على ذويها إجالة الفكر فيها ، وتمادى العلم وتقف له كل مرصد ، علما منها أنه ينير البصائر وينفر الناس من العقائد التى نَصبوا أنفسهم قُوّاما عليها ، وتقييد الحريات الطبيعية ، وتضييق الخناق على المذاهب الفلسفية والآراء المستقلة ، وقد فتك قادتها بألوف مؤلفة من خيرة العلماء وجلة الفلاسفة ممن تجاسروا على بث تعاليمهم فى القرون الماضية .

وقد تأثروا من هذه المشاهد التاريخية الى درجة أنهم أصبحوا لا يعتقدون أن دينا فى الأرض يخلو من هذه العقبات الكأداء فى سبيل تقدم البشرية . ولذلك فهم يبغضون الأديان جملة وإن كان عامتهم لا تزال تتمسك بخيالات منها لا سلطان لها على أعمالهم اليومية ، والسواد الأعظم منهم يعدون أنفسهم منها بالاسم دون الواقع .

فاذا أمكن إقامة الدليل على أن واحدا من الأديان تنطبق أصوله على مميزات المثل الأعلى للمدنية ، فلا يوجد مايمنع من إعلان اتفاق الدين الحق والمدنية .

ونحن معشر المسلمين نعلم أن الاسلام ينطبق على المثل الأعلى للمدنية ، ويزيد عليه سموّا ، فعلينا وحدنا التدليل على ذلك ، والقيام بنشره فى الآفاق فى أسلوب من العلم يرضاه المتمدنون ، ويلتئم ومقرراتهم الفلسفية .

فالاسلام بمعناه اللغوى والاصطلاحى يدفع الانسان للتجرد من الأحوال البهيمية ، والتخلق بالأخلاق الإلهية ، فى أسمى مايتخيله العقل من نزاهة ورفعة روحية . وقد قُدِّرت أصوله ومبادئه على هذا المعنى ، ليصل الانسان بالقيام عليها الى تحقيقه

فى عالم الانسانية . فليس هو بعدوّ للعقل ولا للعلم ، بل هو يعتمد عليهما فى التدليل على سموه ، وعلى أنه عام وخالد خلود الأصول الأولية ، والحقائق العلوية .

وقد أطلق كل المواهب الكريمة للنفس البشرية ، بعد أن قرر أن النفس نفحة إلهية ، إطلاقا لا يقف بها عند حد من توثباتها التكميلية ، فلم يضع للخير حدا ، ولا للعقل والعلم تخما ، ولم يعين للإحسان دائرة ، ولم يحصر العدل والرحمة فى قبيل دون قبيل ، ولم يجعل للارتقاء الصورى والمعنوى مدى لا يتجاوزه ، ولم يعين للفضيلة أحوالا لا تتعداها . وشرطه فى كل هـذه الإطلاقات أن تكون غايتها الحق والخير ، والارتقاء الشخصى والاجتماعى .

وكما فتح الإسلام للنفس باب الارتقاء الروحانى على مصراعيه ، ووسع من مداه الى ما لا يصل اليه خيال المتخيل ، فتح كذلك لها باب الارتقاء المادى ، فلم يحرم عليها علما نافعا ، ولم يضع للعلوم حدودا ، واستنهض الهمم للشئون الصناعية ، والإبداعات الفنية ، إلا ما كان منها عاديا على الفضائل النفسية ، أو مثيرا للقوى الشهوانية . وعد الارتقاء فى هـذه المجالات العلمية والعمليـة فتوحا إلهية يثاب عليها الموفق لها ثواب العاملين على ترقية الانسانية .

هنا يسوغ لى ، وقد انتهيت الى هـذا الحد ، أن لا أكتفى بالقول بأن المدنيـة والدين يجب أن يتفقا ، بل أعلن على رءوس الأشهاد أن الدين هو ذروة المدنية ، وليس معنى هذا أن كل مدنية قائمة دين ، وأن كل دين قائم مدنية ، ولـكن معناه أن المدنية التى تستحق هذا الاسم بنزاهة أصولها ، وطهارة مبادئها ، وحكمة حرياتها ، وسمو أغراض عواملها الخ ، هى غرض دين الحق الخالص من كل شائبة بشرية ، المؤدى الى أرفع الـكمالات الصورية والمعنوية .

أشعر وأنا أفضى بهـذا التقرير أن معترضا يقاطعنى قائلا : إن كان ما تقولونه يسوغ فى عالم الخيال ، فـلا يسوغ فى عالم الحقيقة ، وليس له صـورة فى الواقع ، فإن

الإنسان فى تسياره نحو التكمل وهو على فطرته من تسلط العوامل الشهوانية عليه، لايستطيع أن يعيش على حالة من النزاهة والسمو لا يكون عليها إلا الأفذاذ المفطورون على الفضائل . فالمدنيـة لا يمكن أن توجد إلا ملتاثة بالرذائل ، بل ولا تزداد ارتقاء وازدهارا إلا بحوافز قوية من الشهوات البهيمية . فاذا صح هذا ، وهو ما لاسبيل الى إنكاره ، وجب القطع بأن المدنية تنافى الدين منافاة لا وفاق معها .

نقول: إن هذا الاعتراض لا يضيرنا فى شيء ، فإننا أقمنا الدليل على أن المدنية الفاضلة المنزهة عن الرذائل ، تتفق والدين الحق ، بل هي غايته المرجوة . وهذا القول لا يعنى أن المدنيات التي ظهرت فى العالم الانسانى لم تك ملتاثة بأقذار الشهوات البهيمية ، والانحرافات العقلية ، ولا يعنى كذلك أن المدنيات المستقبلة تبلغ قبل تمام نضجها مبلغ الدين من النزاهة الروحية ، والطهارة القلبية .

ولـكن هل يرى المعترض أن ليس للمدنيـة مثل أعلى تحاول الاقتراب منه على قدر الإمكان ؟

إن قال نعم ، قلنا وهذا المثل الأعلى هو الدين الحق كما قررنا .

وإن قال لا ، قلنا هذا محال ، لأن لجميع المحاولات البشرية مُثُلا عُليا تحاول القرب منها ، والوصول اليها ، وإلا استحال عليها الترقى عما هى عليه ، بل إن هذه المثل العليا تتألف لهذه المحاولات بنفسها باعتبار أنها الغايات النهائية لهـا ، فإن منعت موانع من الوصول اليها بقيت هى ماثلة نصب أعين العاملين ، تحفزهم لتحسين وسائلهم لبلوغها .

والمدنية لا تشذ فى هـذا عن سائر المحاولات البشرية ، بل هى أدعاها للمثل العليا فى كل عنصر من عناصرها العلمية والعملية . لذلك تجد جماهير من أعلم علمائها انقطعوا لدراسات مختلفة تتعلق بها ، منها ما يتصل بأخلاق الأفراد وآدابهم ، ومنها ما يختص بأصنافهم وطبقاتهم ، ومنها ما يبحث فى مقومات الاجتماع وما ينتابهـا من عوامل مضعفة وعوامل مقوية ، ومنها ما ينظر فى البيئة وفواعلها ، وما يجب إصلاحه منها الخ .

وكل هذا يشعر بأن المدنية فى حاجة ماسة الى التقويم والتعديل فى كل شىء من أشيائها .
وكل هـؤلاء العلماء لا يفترضون فى أعمالهم أن المدنية لا تقـوم إلا ملتاثة بالشهوات والموبقات ، كما لا يفترض علماء الصحة أن الناس لا يستطيعون أن يعيشوا إلا مرضى على نسب مختلفة ، ولـكنهم يبحثون فى موضوعاتهم على أكمل ما تكون الصحة عليه .
فالذين يبحثون فى الأخلاق والآداب يأتون بالمُثل العُليا لها غير مبالين بإقبال الناس عليها أو إدبارهم عنها ، منبهين الى خطر الاستعصاء عليها ، ويجرى مجراهم سواهم ممن ينظرون فى شئون أخرى .

كذلك لا نستطيع ، ونحن نبحث فى هل يمكن اتفاق الدين والمدنية ، أن نفترض الحالات المرضية للمجتمعات فنبنى على ذلك رأيا علميا لا يلبث أن يُظهر فسادَه تطور جـديد للجماعات ، أو انقلاب فـكرى لا يجول فى خيال أحـد ، والمفاجآت فى العالم الانسانى لا تقف عند حد .

ظهر لنا مما مر كله أن المدنية الفاضلة لا تنافى الدين ، بل الدين هـو المثل الأعلى لأرقى مدنية ، ونعنى بالدين الدين الإلهى الخالص من كل شائبة بشرية ، لا الدين الذى تداولته الجماعات بالتحريف والتصحيف ، والشرح والتأويل ، حتى خرج عن حقيقته وأصبح هيكلا حجريا غير قابل لمماشاة التطورات التى تدخل فيها الانسانية فى كل مرحلة من مراحل حياتها العقلية والمادية .

وليس بين أيدى البشر من الأديان ما حفظه الله على نقائه الأول غـير الدين الاسلامى . وقـد رأيت مما ذكرناه عنه إجمالا فى هذه المقالة ، وما أفضنا فيه تفصيلا فى مقالاتنا السابقة ، ما يكفى لإثبات أنه المثـل الأعلى لمدنية فاضلة إن لم تصل اليها الانسانية الى اليوم فستصل اليها لا محالة تحت تأثير التطورات الأدبية التى لا تفتأ تطرأ عليها .

ولا يقولن قائل : أَنَّى هذا ، والعالم يزداد كل يوم إيغالا فى حمأة القاذر ، وإسفافا الى حضيض المناكر ؟

لأنا نقول :هذا صحيح ، ولكن تدهوره هذا يصحبه شعور قوى بالتقزز مما هو فيه ، يدل عليه القلق الذى يساوره فى كل حركة من حركاته ، وروح السخط المستولية عليه حتى وهو فى معممان لذاته ، وهذا أمر طبيعى من كائن كل ما فيه يدعوه للتكمل ، ويهيئه لخلافة الله فى أرضه .

فكل ما يمكننا أن نقوله فى أمر هـذا التناقص أنه دور من أدوار الحياة ينتهى أمده ، ثم يحل محله دور جديد فيلبث حتى ينقضى عهده ، ثم يخلفه غيره ، وهلم جرا حتى تَطْهر الفطرة البشرية من أقذائها ، وإذ ذاك تسير الى الكمال قُدُما لا يلويها عنه شىء حتى تصل اليه .

وفى أثناء هذه الانقلابات لا يفتأ الاسلام مثلا أعلى للمدنية تتقرب الانسانية منه يسيرا يسيرا حتى تبلغه ، وإذ ذاك تشعر النفوس بسعادتها الحقة ، فتعيش فى أمان وسلام ، فاذا انقضت آجالها تابعت ترقياتها فى عالم الروح المحض ، حيث تجد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ؟

محمد فريد وجدى

فضل الادب

قال شبيب بن شبة : اطلبوا الأدب فانه مادة للعقل ، ودليل على المروءة ، وصاحب فى الغربة ، ومؤنس فى الوحشة ، وصلة فى المجالس .

وقال عبد الملك بن مروان لبنيه : عليكم بطلب الأدب فانكم إن احتجتم اليه كان لكم مالا ، وإن استغنيتم عنه كان لكم جمالا .

وقال بعض الحكماء : اعلم أن جاها بالمال إنما يصحبك ما صحبك المال ، وجاها بالأدب غير زائل عنك .



سورة الرعد

— ٧ —

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : « لَهُ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ، وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ، وَمَا دُعَاءُ ٱلْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ . وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلَالُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ . قُلْ مَنْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ، قُلِ ٱللَّهُ ، قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ، أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَاتُ وَٱلنُّورُ ، أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ، قُلِ ٱللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ » .

قد رأينا فى الآيات السابقة كيف تجلّت آيات الله الكونية على وجه لا يدع للريب مسلكا الى النفوس التى تبتغى الهدى وتنشد الحق وتريد الابتعاد عن مزّلات الضلال ، فمن رفع السموات بغير عمد ، الى تسخير الشمس والقمر ، الى مد الأرض وبث الجبال والأنهار ، من الآيات الثابتة المستقرة ؛ ثم تجديد الزروع والثمار وتنويعها أنواعا مختلفة فى الأُكل والفوائد والآثار ، مع تجاور بقاعها واتحاد سقيها ، من الآيات المتجددة التى تحرك النفوس الجامدة .

ورأينا كيف كان أولئك العتاة الطغاة من الكافرين المكابرين لا يزالون فى غباوتهم وبلادة أذهانهم يتعجبون كيف يقدر المنشئ على أن يعيد ما أنشأه ، وهو عجب يحق منه كل العجب ، فمن أراد أن يعجب فمنهم يعجب .

ثم رأينا كيف كان حمقهم يدفعهم الى استعجال السيئة تصيبهم ممن شاهدوا إيقاعه العذاب بمن هو أشد منهم بطشا وأكبر قوة ، ذلك العذاب الذى هو المثل الأقصى والجدير بأن يتمثل به من يستعرض أنواع العذاب وأشدها .

ورأينا كذلك كيف عميت بصائر أولئك القوم فلم ينتفعوا بالآيات تترى على مرأى منهم ، بل أنكروا وجودها وطلبوا أن ينزل عليه آية من ربه ، مما جعل الحق فى جوابهم أن يعرض عنهم وعن طلبهم وعن تعنتهم ، ويبين لهم قيمتهم وأنهم أحط قدرا من أن يكون الحق مسخرا لأهوائهم وأسير رغباتهم ، أو أن يكون اهتداؤهم أمرا خطيرا لدى من يدعوهم حتى يقض مضجعه ويقلق راحته أن يفوته اقتناعهم ، فأمر الداعى عليه السلام أن يمضى فى طريقه ولا يأبه بهم ولا يعتد بطلباتهم ، فقيل له : « إنما أنت منذر » فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، وقد خلت البينات والنذر ، ولكل قوم هاد .

وقص عليه صلى الله عليه وسلم ما يُطَمْئِن فؤاده ، ويهون أمرهم عليه ، ويملأ قلبهم روعة ، ويعرفهم مقدار أنفسهم فى نظر الحق ، فذكر علمه تعالى بما دق وما جل ، وما خفى وما ظهر ، وإحاطته بخاجات الأعين وخطرات النفوس ، وإحاطته كل موجود بمظاهر القدرة وملائكة التصريف يحيطون به ، ويحصون عليه كل ما صدر منه ، وهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، كل هذا تطييب لنفس الداعى صلى الله عليه وسلم وتهوين لأمرهم ، وإنذار لهم بأنهم لا يفلتون من قبضة الحق جل جلاله .

وقد أردف ذلك كله بتقرير القاعدة المروعة الآخذة بالقلوب ، وهى المذكورة

فى قوله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مردّ له » فما أجدرهم حينئذ أن تهتز أعصابهم وتلين قلوبهم ، ويثوب اليهم رشدهم ؛ ولكن أنَّى هذا وقد أغفلوا عقولهم ، وكرهوا الرشاد يأتيهم على يد رجل منهم ، ووصل عنادهم بل كراهيتهم لمصلحتهم أن يقول قائلهم : « اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » : فهل مثل هؤلاء ينفعهم إلا آيات التخويف والترهيب يصحبه شيء من التشويق والترغيب ؟ هذا هو ما ذكر فى الآية التالية وهى قوله : « هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء » . وبهذا يكون قد جمع لهم الآيات المتنوعة التى تكفى كل آية منها لهداية أصلب الناس عودا وأشدهم عنادا ، فكيف وقد اجتمعت على ما رأيت من تنوعها ؟ إنهم بعد ذلك يجادلون فى الله ، ويتمحلون ويكيدون ، فليكيدوا ما شاءوا فهو شديد المحال والقوة والكيد .

بعد أن تتقرر الآيات والأدلة على هذا الوجه البرهانى ، وتكمل ناصعة لا يشوبها شائبة ولا يقاربها ريبة ، يجيء دور تقرير النتيجة اللازمة قارة مستقرة لا زلزلة فيها ولا تردد . هذا هو قوله جل من قائل : « له دعوة الحق » . والضمير فى (له) لله سبحانه وتعالى ، ودعوة الحق من إضافة الموصوف للصفة مثل كلمة الحق . والدعوة بمعنى الدعاء أى الطلب ، أو بمعنى العبادة ، فانها إنما تكون لمن يرجى منه النفع ودفع الضر فيطلب منه ذلك .

فالمعنى على الأول أن من يريد أن يطلب الخير لنفسه أو دفع الضر عنها فحقه ألاّ يطلب ذلك إلا من الله ، فهو الكفيل بإجابة من دعاه ، والدعاء الحق لا ينبغى أن يوجه إلا اليه ، فكيف ينصرفون عنه ويدعون من لا يستجيب لهم بشيء من تلك الاصنام التى لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا فضلا عن أن تملكه لغيرها ؟

والمعنى على الثانى : بعد أن رأيت من آيات ربوبيته ودلائل عزته وقدرته ما رأيت فلا ينبغى أن تكون العبادة إلا له ، فله وحده العبادة الحقة .

وعرفت أن تسمية العبادة دعوة ، لأن من يَعبد إنما يعبد من يغيثه إذا استغاث ويجيبه إذا دعا ، فالعبادة الحقة لا تكون إلا لله ، والدعوة الحقة لا ينبغى أن توجه إلا لله . وهذا الحصر مأخوذ من تقديم الخبر وهو « له » على المبتدأ وهو « دعوة الحق » .

ويصح أن تكون إضافة دعوة للحق لأنها ملابسة للحق يصحبها ، ولا يشوبها بطلان ، فيكون المعنى أن الدعوة التى تصحب الحق والصحة وهى جديرة بالإجابة ، هى ما وجهت اليه جل شأنه ، أو الدعوة التى تصدر عن القلب صدورا حقيقيا وتهرع لها النفس منبعثة من أعماقها كدعوة الخوف الشديد ، لا تكاد تنبعث إلا موجهة اليه عز وجل ، كما قال تعالى : « وإذا مسّ الإنسان الضرُّ دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مرّ كأن لم يدعنا إلى ضر مسّه » .

وهذه المعانى على تقاربها تجد فيها تفسير الدعوة بالطلب أشد مناسبة لما يأتى فى قوله : « والذين يَدْعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء » وتفسيرها بالعبادة أشد مناسبة لما سبق من الآيات الدالة على تفرده تعالى بالربوبية وتصريف الكائنات ، فهو الأحق بأن يعبد .

وقولنا أشد تناسبا ، لأن فى كل من المعنيين مناسبة لكل من السابق واللاحق ، فالمعبود الحق هو من يجيب المضطر إذا دعاه ، وليس هو من لا يستجيب لداعيه بشىء ؛ والطلب الحق هو ما يوجه الى القادر القاهر ، الذى ظهرت آيات ربوبيته ، وبهرت دلائل قدرته . وأيضا الدعوة الحقة والعبادة الحقة هى ما لابست الحق والثبات ، وبعدت عن مصاحبة البطلان بوجه من الوجوه .

قال تعالى : « والذين يَدْعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » :

الذين يدعون من دونه هم المعبودات التى كانوا يعبدونها : من أصنام ، وأوثان ، وكواكب ، وملائكة . والتعبير عنهم بلفظ الذين مع أنه للعقلاء وأكثر معبوداتهم أصنام لا تعقل ولا تعى ، من باب مجاراتهم فى مزاعمهم ، فإنهم لما وجهوا اليهم العبادة وطلبوا منهم ما لا يطلب إلا ممن يعى ، كانوا فى نظرهم من العقلاء الذين يعبر عنهم باسم الموصول الذى هو للعقلاء ، ليلتقى التعبير الصورة التى فى أذهانهم لتلك الأصنام . أو لأن هذه الأصنام جعلت تماثيل لأفراد من الصالحين ابتدأت بإحياء ذكرهم ، ثم انقلب الأمر عليهم فعبدوهم . أو لأن من المعبودات الملائكة وبعض الأنبياء ، فغلبوا على بقية الأصنام .

وضمير يدعون للمشركين والعائد على الموصول محذوف ، أى والأصنام الذين يدعوهم المشركون ويطلبون منهم، أو يعبدونهم ويتقربون اليهم، لا ينتظر لهم منهم فائدة ، ولا تعود عليهم بهم عائدة ، فانهم لا يسمعون دعاءهم ، ولو سمعوا ما قدروا على شىء ، فهم لا يجيبون لهم طلبا إلا كما يجيب الماء من بسط يديه اليه متضرعا ويقول له : يا ماء ! الىّ الىّ ، أغثنى وأرونى : فاذا كان الماء فى البئر أو فى النهر يسمع تضرع من يتضرع اليه فيرتفع اليه من بئره إجابة لدعائه ، أو ينتقل الى الطالب من نهره سماعا واستجابة ، فلينتظروا من معبوداتهم أنهم يستجيبون لهم . فيكون معنى باسط كفيه الى الماء ، أى بسط تضرع ودعاء . ويجوز أن يكون معنى بسط الكفين الى الماء أى أخذه بكف مبسوطة ممدودة منشورة الأصابع ، فكيف تنقل هذه الكف الماء ليبلغ فاه والماء لا بد له من ممسك ضابط يحفظه أن يسيل ؟ ولعل الأول أبلغ فى تصوير حالهم ، وأنسب بما هم فيه من دعاء من لا يستجيب .

وكلمة ليبلغ فاه لتصوير اضطرارهم وهلعهم ، فإن كلمة ليبلغ فاه تعطى أنه على أشد ما يكون حرارة من الظمأ ، فهو يعالج ليبلغ الماء الى فيه حتى يطفى لهيبه ويروى ظمأه . وهذا أشد فى التصوير من قولك : ليصل اليه الماء ، أو ليحرزه ، أو لينااله ، أو نحو ذلك ،

فربما كان طلب الماء لبعض الشئون الكمالية ، أو من باب الاستعداد للطوارئ مثلا ، بخلاف كلمة ليبلغ فاه ، فانها تصوير لحالة الظمأ على أشدها ، وأنه يجدّ لبلوغ غاية يسعى للوصول اليها . وقوله : « وما هو ببالغه » تصوير لليأس والحرمان المحيط به ، الموقع له فى الحزن والكمد ، المقطّع للأوصال والمحرق للكبد ، وذلك هو المقصود من سياق ذلك التمثيل ، فهو أحق بأن ينص عليه صراحة وإن كان لوسكت عنه لفهم من حال من يتضرع الى الماء أنه لا يجيبه ، ومن مد كفيه ونشر أصابعه ، أنه لا يصيبه ، فيكون من التصريح بالمقصود ، لأنه أبلغ فى النكاية والتنكيل بهم .

وحاصل المعنى تصوير حالهم وقت اضطرارهم المعونة والمساعدة — وما أكثر ذلك الوقت فى الحياة — ودعائهم تلك الأصنام التى لا تغيث ملهوفا ولا تجيب مضطرا ، بل لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ، بل لا تسمع ولا تعقل ولا تغنى عنهم شيئا ، بصورة من قتله العطش وأهلكه الظمأ ، ورأى الماء أمامه يجرى فى نهره أو يستقر فى بئره ، فوقف أمامه يتضرع اليه ويبسط اليه كفيه : أغثنى أيها الماء الجارى ، اعلُ الىّ أيها الماء القار ، لقد هلكت شوقا اليك . وقد شغر فاه ليصل اليه الماء ، فلم يسمع الماء دعاءه ، ولم يعل الى فيه ولم يستجب نداءه : فكم تكون حسرته والماء أمامه وما هو ببالغ فيه .

ورؤية الماء تذكى غلة الصادى

أو بصورة من يحاول عبثا أن يتعلق الماء بأصابع منشورة ، ويلتف عليها حتى يبلغ فاه . وكلا الأمرين محاولة محال ، وضرب من ضروب الضلال . فلا غرو أن جاء بعده قوله جل شأنه : « وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » .

بقى أن نلفتك الى سر قوله تعالى : « بشىء » فإنها أدخل فى المقصود من أن يقال : لا يجيبونهم الى طلبهم مثلا . ذلك أنه ربما يقال إنهم لم يجيبوا طلبهم ولكنهم عوضوهم عن ذلك ما هو خير منه ، أو أفادوهم إفادة أخرى تخفف عنهم ، أو نحو ذلك . فأما وقد قال : « لا يستجيبون لهم بشىء » فهو سد للباب فى وجوههم ، وتقرير أنهم خسروا كل شىء فلم يُستَجب لهم بشىء .

وقوله بعد ذلك : « إلا كباسط كفيه الى الماء » الخ . تجد فيه من حسن الأسلوب ما يأخذ بالعقول ، فكلمة إلا كأنها تفتح ذهن السامع الى أنهم قد حصل لهم استجابة ما ، فيتلهف لتعرفها ، ويريد أن يتلقفها ، وإذا بها الاستجابة المؤيسة تمام اليأس ، هى استجابة من لا يسمع ولا يعقل ولا يغنى عنك شيئا ، فهى أشبه شىء بما يسميه علماء البلاغة تأكيد المدح بما يشبه الذم ، أى إن كان من الماء لمن يدعوه استجابة فيكون من تلك الأصنام لهم استجابة . وقوله : «وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » من باب تتميم المعنى بذكر النتيجة اللازمة تجرى مجرى الأمثال العامة ، فهى من الكلم المحكمة .

هذا وقوله تعالى : « وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » إن أريد بالدعاء العبادة فظاهر ، فإن عبادة الكافرين لاغية ما داموا على كفرهم ، سواء أوجهوها الى الله تعالى مصحوبة بإشراكهم شركاءهم ، أم وجهوها الى آلهتهم . وإن كان المراد بالدعاء الطلب فكذلك إذا وجهوا الطلب الى آلهتهم فقد دعوا من لا يستجيب لهم ، أما إذا كان دعاؤهم موجها الى الله سبحانه وتعالى كدعائهم حين يمسهم الضر ، أو كدعاء المظلوم منهم ، فقد يستجيب الله تعالى لهم بعض الدعاء وإن كانوا كافرين ، فقد جاء قوله تعالى : « أمن يجيب المضطر إذا دعاه » وورد ما يفيد أن دعوة المظلوم مستجابة وإن كان كافرا .

وناهيك باستجابة الله دعوة إبليس إذ قال : « رب أنظرنى الى يوم يبعثون . قال إنك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم » . ولا يدفع هذا بأن الله قد علم أنه من المنظرين سواء أدعا أم لم يدع ، لأن كل دعاء مستجاب هو من هذا القبيل : علم الله أن الداعى يدعو وأنه يستجيب له ، وما كان الدعاء بمغير شيئا مما علمه الله فى الأزل . فالدعاء كسائر الأسباب التى ناط الله بها مسبباتها ، فمن قطع رقبة شخص مثلا فزهقت روحه ، قد علم الله من الأزل أنه سيقطع عنقه فى هذه اللحظة فيموت . وهذا لا ينفى أن إزهاق الروح مترتب على الموت . فارتباط المسببات بأسبابها شىء ، وعلم الله تعالى من الأزل

بما سيقع فى الكون شىء آخر . وإنما المخلص أن المراد أن دعاء الكافرين فى ضلال بالنسبة لما يتعلق بالآخرة ، مما يرتبط بالعبادة التى هى المقصود من سياق الآيات من أول السورة الى الآن .

قال تعالى : « ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال » :

أى ولله وحده لا لغيره معه ، ولا لغيره دونه ، فتقديم الخبر لإفادة الحصر ، أى قصر الإفراد وهو قطع شركة الغير ، أو قصر القلب وهو قطع الحكم عن غيره تعالى أن يستقل به . « يسجد » أى يخضع وينقاد ويتطامن أمام عظمته ، ولا يكاد يرفع رأسه أمام عزته وكبريائه . فالمراد بالسجود الخضوع والانقياد والاستسلام والعجز عن المكابرة والمعاندة . « من فى السموات والأرض » من الملائكة والثقلين الإنس والجن . وبدأ بمن فى السموات لما وقر فى النفوس من أنهم أعظم قوة وأشرف عقولا وأكمل هداية ، فهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ولأن الواسطة فى تبليغ الشرائع من لدنه جل جلاله الى الثقلين إنما تكون منهم . « وطوعا وكرها » أى طائعين وكارهين ، أى مختارين ومقهورين . فالسجود طوعا معروف وهو خضوع النفوس المختارة وتطامنها باختيار منها وعلم بما تفعل أمام العزة الإلهية . والسجود كرها هو انقيادها وقبولها لآثار التكوين الإلهية ، من وجود وعدم ، من صحة ومرض ، من نمو وذبول ، من زمان ومكان وأحوال ، فلا تتوجه القدرة بأمر من التكوينات الى شىء من الكائنات إلا خضع لقبوله لا يملك أن يأبى ولا أن يتأخر : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » .

ويصح أن يراد بالطوع ما يأتى من أفعال العبادة عن انشراح صدر وقبول نفس ، وبالكره ما يبدو على المرء حين يمسه الضر من الالتجاء الى عظمة الله تعالى . والشعور بذلك كامن فى نفسه خبأته الأهواء والضلالات ، فلا ينكشف لصاحبه إلا عند مس

الحاجات وحلول الضرورات ، وإحاطة الأهوال وتقلب الأحوال ، فحينئذ ينبعث الشعور الفطرى الكامن بين جنبيه ، فتدفعه الضرورة الى تلمس المساعدة والإنقاذ ، فلا يجد ملجأ حقا إلا لجوءه الى ذى الملك والملكوت والعزة والجبروت . فمن لم تعطفه النعمة ، دفعته النقمة ، ولكل نفس علاجها . وجوز بعضهم أن يراد بالكره حال بعض من أسلم ولم يدخل الإيمان فى قلوبهم ، أو حال بعض المنافقين .

ولعل الوجهين الأولين فى تفسير الكره أقرب وأقمد ، بل الوجه الأول وهو تفسيره بالانقياد والخضوع أمام القدرة الإلهية وقبول الآثار التكوينية ، أنسب بقوله جل شأنه : « وظلالهم بالغدو والآصال » فإن سجود الظلال عبارة عن قبولها ما سلط عليها من آثار التكوين ، فهى تنقبض وتنبسط تبعا للناموس التكوينى الذى ربطت به ، من مواجهة الجسم لمنير قريب أو بعيد ، مرتفع أو منخفض ، متحرك أو ساكن ، فان سجود الظلال لا يظهر معناه إلا على هذا الوجه كما لا يخفى .

هذا ومن البيّن الواضح أن عطف «ظلالهم» على «من فى السموات والأرض» لبيان أن هذا الخضوع والانقياد قد شملهم وشمل كل ما يتصل بهم ، لا يفلت منه شىء ولا يشذ عنه شأن ، حتى إن ظلالهم وهى أظهر شئونهم انفصالا عنهم تشاركهم فى السجود والخضوع والانقياد لقدرته تعالى ، فأى شىء منهم يتعاصى على سلطانه ؟

وكلمة «بالغدو والآصال» لتقرير سجود تلك الظلال ، أى أفما ترون كيف أن الغدو وبكرة النهار يجليها لكم متقلصة شيئا فشيئا ، ووقت الأصيل يظهرها نامية شيئا فشيئا ؟ أفليس هذا كله من خضوع الكائنات بأسرها لنواميس تكوينه وآثار قدرته ؟ أفلا توجهون أبصاركم الى ما يقع كل ساعة أمامكم ، وتتأملوا فيه وفى أسبابه وفى مكون تلك الأسباب ، لتروا آيات ربكم متجلية فى كل مايقع عليه نظركم ؟

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

وبعد : فما أظنك بحاجة الى أن نبين لك اتصال هذه الآية بما قبلها ، كيف وقد

اتضح لك أن قوله تعالى : « له دعوة الحق » توجيه للسامعين الى عبادة ربهم الذى تجلت لهم آيته فيما سبق من الآيات ، وأنهم يجب ألا يلتمسوا الخير إلا منه ، ولا يستدفعوا الشر إلا بعزته ، فهو وحده القادر القاهر ، وهو الذى تعنو له الجباه وتخضع أمام عظمته كل الرءوس طوعا وكرها ، بل يخضع له كل مايتصل بتلك الرءوس حتى الظلال ، فهو وحده الجدير بالعبادة ، وهو وحده الحقيق أن توجه اليه المطالب ، وأن تنزل أمام ساحة سلطانه الرغائب ، فهذه تكاد تكون من تمام الآية قبلها .

وقوله : « بالغدوّ والآصال » إما حال من الظلال ويكون تخصيصهما بالذكر لأن آثار التقلص والفىء تظهر فى هذين الوقتين ، أومتعلق بيسجد ويكون المقصود الدوام ، كما يقال : بكرة وعشيا ويراد دائما ، فلا نحتاج لتوجيه تخصيص هذين الوقتين بالذكر لأنهما كناية عن الدوام .

والغدو جمع غداة وهى أول النهار . والآصال جمع أصيل ، وهو وقت ما بين العصر والمغرب ، أو هو جمع أُصُل جمع أصيل فيكون الآصال جمع جمع .

وهذه الآية من آيات السجدات ، فإن من تلاها وتدبر معناها ، وفهم أن كل ما فى الكون من شىء قد خضع وانقاد للقدرة الباهرة والعظمة القاهرة ، حتى معبوداتهم التى كانوا يعظمونها لا تخرج عن قهره وسلطانه ، بل حتى كل ما يتصل بها أو يتبعها فى الوجود ولو كان ظلالها . نقول من تدبر الآية وفهم هذا فقد امتلأ قلبه باستحضار العظمة الإلهية ، فيطلب منه ، بل لا يسعه إلا أن يخرّ ساجدا لله تعالى طوعا كما سجد كل شىء فى الوجود طوعا وكرها . ومن قبيل هذه الآية قوله عز من قائل : «أو لم يروا إلى ما خلق الله من شىء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سُجّدًا لله وهم داخِرون » .

قال تعالى : « قل من رب السموات والأرض قل الله ، قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، قل هل يستوى الأعمى والبصير ، أم هل تستوى

الظلمات والنور ، أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ، قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار » :

أما وقد بلغت الحجة مبلغها ، وأتمت إفادة المقصود منها ، ووضح الصبح لذى عينين ، ولم يبق لأحد عذر فى ريب أومين ، فقد وجب الرجوع بهم الى مراجعة ما فى نفوسهم ، واستخلاص العقيدة من مكنونات ضمائرهم ، وحملهم على الاعتراف بما يراد منهم ، اعترافا ناشئا من قرارة أنفسهم وأعماق قلوبهم ، فلوّن الخطاب بسؤالهم عما لا يسعهم إنكاره ، ولا التلكؤ فى الجواب عنه .

فأُمر صلى الله عليه وسلم أن يسألهم : من رب السموات والأرض . وهذا أمر لا يستطيعون المكابرة فيه ، ولا محاولة نسبة خلقه لآلهتهم « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولُنّ الله » .

ثم أُمر صلى الله عليه وسلم أن يذكر الجواب الذى لا مفر لهم من أن يجيبوا به ولا ينتظِر منهم النطق به أو السكوت محاولة ابتغاء المخلص من الحجة التى ملكت عليهم مسالكهم ، ومتى أجابهم به وهم معترفون ، أقروا لا محالة ، فقال : « قل الله » فإنهم سوف لا ينبس أحد منهم بكلمة معارضة .

ثم أُمر أن ينتقل بهم الى ما يلزم هذا الاعتراف وما يترتب عليه الترتب الجلى ، وذلك قوله تعالى : « قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا » فستراهم حينئذ وقد دهشوا وحاروا ، من أخذ المسالك عليهم ، وسد طرق المراوغة فى وجوههم ، وسيكون لسلطان حجتك ما يحيرهم ويبهتهم ، أى إذا كان رب السموات والأرض هو الله وأنتم تعلمون وتعترفون ، أفيترتب على علمكم واعترافكم هذا أن تعدلوا عن عبادته وتتخذوا من دونه أى متجاوزين عنه ، أولياء تريدون منهم أن يلوا أمركم فيمنحوكم النفع ويدفعوا عنكم الضر ، وهم على ما ترون لا يملكون لأنفسهم نفعا ما ولا ضرا ما ، فكيف بلغ بكم الغباء أن تجعلوهم لكم أولياء ؟ !

وهل من عجز أن ينفع نفسه أو يدفع عنها الضر يستعين به غيره ، فيطلب منه جلب النفع اليه أو دفع الضرعنه ؟ فيكون الإنكار المستفاد من همزة الاستفهام فى قوله : « أفاتخذتم » موجها الى ترتب هذا الاتخاذ على الاعتراف بأن رب السموات والأرض هو الله ، أى فهل يترتب على اعترافكم بربوبيته للسموات والأرض ، وهو بالضرورة رب مافيهما ، أن تعدلوا عن الخضوع له وإخلاص العبادة والايمان له ، الى اتخاذ عاجز عن نفع نفسه ؟ وهل هذا يقع من عاقل بصير ؟ وهل هذا شأن مميز واع ؟ وهل يكون هذا إلا عمى وحماقة وسفها وغباوة ؟ فهل ترضون لأنفسكم أن تكونوا من الحماقة والعماية بهذه المثابة ؟ وهل ترضون لأنفسكم العمى والبله «قل هل يستوى الأعمى والبصير» ؟

فالمراد بالأعمى من عمى عن الحجة النافعة وقد تجلت له حتى لم يبق إلا أن ينظر فيرى ماينفعه وما يضره . فلما أغمضوا أبصارهم وأهملوا عقولهم ولم ينتفعوا ببصائرهم ، كانوا كالعمى بل شرا منهم ، فللأعمى عذره لعدم قدرته ، وأما هؤلاء فقد أهملوا نعمة الله والعقل الذى وهبهم إياه ، فكان عليهم عمى ، ومع ذلك فقد اكتفى بسؤالهم عمالا يخفى جوابه على أحد ، وهو استواء الأعمى والبصير ، وفيه من التبكيت لهم والنعى عليهم مالا يقدرقدره ، لاسيما وهى حجة مستخلصة مما تكنه أنفسهم ، وتنطوى عليه قلوبهم ، وتعترف به ألسنتهم ، وهو أنه تعالى رب السموات والأرض ، فهو بالضرورة رب جميع ما فيهن ، والمهيمن على كل شىء ، وهو على كل شىء قدير .

والبصير طبعا المراد به من آمن بالله وانتفع بهدايته وأخلص له فى عبادته . ورأى بعضهم أن المراد بالأعمى معبوداتهم التى لا تسمع ولا تعقل ولا تغنى عنهم شيئا ، ويكون المراد بالبصير الإله الحق الذى وسع علمه كل شىء فى السموات والأرض . ونرى الأول أظهر .

وقوله : « أم هل تستوى الظلمات والنور » ترق فى التقريع بتصوير حالهم وقد أعرضوا عن الحجج الظاهرة بحال من يتخبط فى الظلمات لا يدرى أين يتجه ، فقد

يجدّ السير وهو فى الحقيقة إنما يسعى فى طريق هلاكه ، وقد يعود القهقرى فيضيع تعبه سدى . وإنما كان هذا ترقيا فى تصوير شناعتهم لأن الأعمى إذا كان فى نور ربما وجد من يهديه الى الصراط السوى ، كما يحكى أن رجلا رأى أعمى يسير ليلا ومعه مصباح ، فقال : أنت أعمى فما انتفاعك بهذا المصباح تحمله ؟ فقال : أحمله لكى لا أصطدم بأعمى قلب مثل . . . ؛ وأما إذا عمّت الظلمات فقد أصبح الجميع حيارى يتخبطون ، فهم فى بيداء يعمهون ، وفى طريقهم يعتسفون . فيكون إصرارهم على المكابرة وإجماعهم على رفض الهداية ، يجعلهم كلهم فى الظلمات المتعددة : ظلمة الجهل ، وظلمة العناد ، وظلمة الكبرياء ، فى ظلمة العقيدة الفاسدة ، وظلمة الأعمال الباطلة ، وظلمة الأخلاق السافلة ، وظلمة المعاملة الغاشمة . كل هذه وغيرها ظلمات بعضها فوق بعض ، بخلاف النور فهو طريق واحد سديد ، وصراط مستقيم ، لا تشعب فيه ولا عوج ، ولله در القائل :

العقل فن واحد وطريقه أدرى فأرصدُ والجنون فنون

فالمراد بالظلمات والنور : الكفر الذى انغمسوا فيه ، والإيمان الذى يدعوهم اليه . ويكون التناسب بين هذا السؤال وما قبله ظاهرا ، فإذا أريد بالأعمى والبصير المعنى الثانى أى المعبودات الباطلة والمعبود الحق ، يكون التناسب من جهة أنه كما لم تستو آلهتكم الضعيفة العاجزة بالإله القادر ، كذلك لا تستوى طريقتكم المظلمة بطريقة الإيمان المنير للقلوب .

وأم هنا بمعنى بل التى للانتقال من سؤال الى سؤال آخر ، وليست هى التى للتعيين ، فتلك خاصة بوقوعها مع همزة الاستفهام ، ولا تجىء معاقبة لهل كما قرر فى علم العربية .

وقوله : « أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم » من باب تتميم الحجة بالبحث عما عساه أن يكون قد اعترض سبيلهم حتى اشتبه الأمر فيه عليهم ، فهو يقول : إذا كان الأمر على ما ترى ، فماذا أوقعهم فى هذا الضلال يا ترى ؟ هل عثروا بشريك له فى الخلق رأوا منه خلقا كخلق الله ، فلما شارك الله فى الخلق جعلوه شريكا له

فى العبادة ؟ كلا ، لا شريك له فى الخلق ، فلم يخلق أحد شيئا ما ، لا تخلقه تعالى المنظم الكامل ولا خلقا ناقصا ، بل الله خالق كل شىء جل أو قل ، فماذا عساهم يعتذرون به ؟ إنك إذا سألتهم من خالق ؟ قالوا : الله ، وإذا سألتهم هل خالق غيره شيئا ؟ قالوا كلا ، فقل الله خالق كل شىء ، فستعبر بذلك عما يعتقدون ، كما عبرت فيما سبق إذ قلت لهم : من رب السموات والأرض ، وقلت لهم : « الله » فماذا يدعوهم الى هذا التلكؤ ويوقعهم فى هذه الحيرة والضلالة ، فالله خالق كل شىء وهم معترفون ، وهو الواحد فى الخالقية ، وهو الواحد فى الربوبية ، وهو الواحد فى المعبودية الحقة ، وهو الواحد فى كل شىء ، فأين تلك الآلهة والأرباب التى يزعمون ؟ أما إنه مع كونه هو الواحد ، فهو القهار ، تنفذ قدرته فى كل شىء ، ولا يتعاصى على قدرته شىء ، فهم وما يعبدون مقهورون لعظمته خاضعون لسلطانه ، أذلاء أمام عزته وكبريائه ، فإن استمعوا وآمنوا فقد أحرزوا ما به يسعدون ، وفازوا بما يبتغون ، وإن أعرضوا فما على الرسول إلا البلاغ المبين ، وقد بلّغت فأبلغت ، وهديت فأبنت ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل .

اللهم اهدنا صراطك المستقيم ، واجعلنا من الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين : وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ؟

ابراهيم الجبالى

الادب

قال ابن المقفع : إذا أكرمك الناس لمال أو لسلطان فلا يعجبك ذلك ، فان الكرامة تزول بزوالها ، ليعجبك إذا أكرموك لدين أو أدب .

وقال الأحنف بن قيس : رأس الادب المنطق ، ولا خير فى قول إلا بفعل ، ولا فى مال إلا بجود ، ولا فى صديق إلا بوفاء ، ولا فى فقه إلا بورع ، ولا فى صدق إلا بنية .

الفيلسوف والنبي

جاءنا هـذا السؤال من صاحب الإمضاء ، قال بعد الديباجة : إننا نرى حكما عالية وقوانين صالحة للاجتماع والعمران لفـلاسفة اليونان وغيرهم ، ونرى لهم بجانب ذلك معرفة بالله وثناء على الله . وقد جاء عن سقراط وأفلاطون وغيرهما شيء كثير من ذلك ، وقد كانوا قبل المسيح ، فلماذا لا نعتبرهم أنبيـاء ، وقـد أسسوا مدنية فاضلة وتلاميذ صالحـين ؟

نرجو من فضيلتكم بيان ذلك والإسهاب فيه كما هى عادتكم ، أبقاكم الله للعلم والدين، وحفظكم للاسلام والمسلمين بمنه وكرمه ؟

عبـد الرحمن محمـد
أستاذ بالمدارس

الجواب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسـلام على سيدنا محمد معدن الأسرار ومنبع الأنوار ، أعرف خلق الله بالله ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فقد سئلت مثل هـذا السؤال منذ زمان بعيد من عظيم من عظماء المصريين ، فأجبته بما اقتنع به إذ ذاك . واليـوم نذكر لك خلاصة ذلك الجـواب ، ثم نفيض فى الموضوع إفاضة لا تدع فى النفس شكا ، ولا فى الأمر ريبة ، فنقول وبالله التوفيق :

قلنا لذلك الباشا عند ماسألنا عن ذلك : إن هنالك فروقا كثيرة بين النبي والفيلسوف ، منها أن الفيلسوف إذا نزلت به نازلة أو سـئل عن معضلة ، فزع الى فكره فشحذه والى نفسه فأيقظها ، والى معلوماته فاستعرضها ، عسى أن يعـثر فيها على حل أو يظفر منها بجواب .

أما النبي فإنه على العكس من ذلك : يعمد الى نفسه فيسكن من حركتها ، والى أفكاره فيهدئ من ثورانها ، والى حواسه فيقلل من تعلقاتها ويبعدها عن محسوساتها [١] ، ثم ينتظر الوحي من الله والتلقي عن الملأ الأعلى ، فإذا نزل عليه الوحي من عند الله صدع بذلك في وضوح لا يمازجه تعقيد ، ولا يشوبه التواء عن القصد ، ولا تحير في الغاية ، ولا تحيّل على إصابة الصواب ، ولا استعانة بتجربة أو التجاء الى مقدمات طويلة كثيرا ما تنحرف بالناس أو ينحرف فيها صاحبها عن النهج القويم والصراط المستقيم ، فيعدل به نظره القاصر وضعفه البشرى عن الحق ، وقد يوقعه فى شقاء بالغ من حيث لا يشعر ، فالنبي يروى عن رب المخلوقات المحيط بها ، العالم بأسرارها : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير »

فلو زار أفلاطون أعتاب قدسه ... ولم يُعشِه عنها سواطع أنوار
رأى حكمة قدسية لا يشوبها ... شوائب أنظار وأدناس أفكار

فالسبيل المأمونة والجادة الواضحة ، إنما هى سبيل الأنبياء والمرسلين ، لا سبيل الفلاسفة التى ترمى بك فى ظلمات الأوهام البشرية ، وشبهات التخيلات النفسية ، على ما ستسمع اليوم ، إن شاء الله .

ثم قلت لذلك العظيم : إن الفلاسفة أنفسهم لم يدّعوا النبوة ، وربما كانوا غير قائلين بها ، فكيف ندعيها لهم وهم لم يدعوها لأنفسهم ؟ ثم إن للنبوة آيات لا بد منها : من صفات ذاتية ، ومعجزات حسية ومعنوية ، ونفوس جاوزت أطوار البشرية ، واستقرت فى تلك العوالم القدسية ، فهى لا تعرف غير الله ، ولا تحدث عما سوى الله إلا بما جاءها عن الله ، قد اتسع نظرها ، وتم نورها ، فعلمت من حقائق الأشياء ما لا يعلمه غيرها ، وعرفت من جلال الله ما لا يعرفها سواها . الى آخر ما قلت لذلك الباشا فى ذلك العهد .

---

(١) اشتهر الآن استعمال المحسات وتخطئة من يعبر بالمحسوسات وهو خطأ بين كما أوضح ذلك كل الايضاح صاحب الجاسوس . ولصاحب المخصص ما يفيد ذلك ايضا (راجع الجاسوس على القاموس) .

ولنبيّن ذلك الإجمال، ونذكر لك شيئا من صفات النبوة وخصائصها التى جبل عليها الأنبياء، فنقول :

إن فى ذات النبي نورا خِلقيا فى أصل تكوينه اقتضته درجة روحه الشريفة (وبين الأرواح من التفاوت فى الدرجات واختلاف الاستعدادات مالا يعلمه إلا الله تعالى). وبذلك النور لا يمكن تلك الذات التى خلقت على هذا الوجه إلا أن تكون على أكمل الفضائل. فهى مثلا تقول الحق وتقدسه ولو كان فيه حتفها وهلاكها، فإن ذلك من سجيتها وطبيعتها. وقد طلب المشركون منه صلى الله عليه وسلم أن يرجع عن قوله وراودوه على ذلك بكل حيلة، فأبى وامتنع، ثم نصبوا له العداوة ورموه عن قوس واحدة، فما زاده ذلك إلا تثبتا ورسوخا، لأن الذات الشريفة مطبوعة على قول الحق لايتصور منها غيره.

ومن تلك الصفات التى جبل عليها النبي، الرحمة بجميع المخلوقات حتى الحيوان الأعجم، ولذلك جاء صلى الله عليه وسلم فى باب التحذير من القسوة بما تعجب له، وأبان من جزاء الشفقة على خلق الله ما لا غاية وراءه، فذكر فى الحديث الصحيح أن امرأة دخلت النار فى هرة عذّبتها. وجاء فى الصحاح أيضا أن رجلا مسرفا على نفسه وجد كلبا يلهث من العطش فسقاه حتى أرواه فشكر الله له ذلك فغفر له. الى غير ذلك مما ينبئك عما كانت تمتلئ به نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرأفة والرحمة بجميع المخلوقات.

وهكذا الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، فهم أبر الناس بالناس، وأنفع الناس للناس. وأعظمهم فى ذلك نبينا صلى الله عليه وسلم، حتى إن ما تراه من شدته صلى الله عليه وسلم على الكفار والمشركين، فمنشؤه إنما هو رحمته بهم وشفقته عليهم أن تجتالهم الشياطين فتأخذهم عن السعادة الأبدية الى الشقاء الأبدى، فيشقون وتشقى بهم الانسانية، فكان حربه صلى الله عليه وسلم فى الحقيقة حربا لجند الشيطان الذى يريد أن يسلب الانسان سعادته. الى آخر مالا يسع المقام تفصيله وبيان أسراره.

ومما يجب أن نبينه هنا أن للأنبياء أذواقا فى الأشياء لا يعرفها إلا الخواص من عباد الله ، فإن أكثر من فى الأرض لا يذوقون إلا الحسيات ، ولا ذوق لهم فى المعنويات وما أودع فى الأشياء من لطائف وأسرار . وقد يقرّب اليك ذلك بعض التقريب ما ترى أو تسمع به من عشق أرباب النفوس الطاهرة لمعالى الأشياء ، وإيثارهم العلم والمعرفة على كل شىء ، لأنهم يذوقون من ذلك لذة تفوق كل لذة مادية ، وقد قال قائلهم :

سهرى لتنقيح العلوم ألذّ لى من وصل غانية وطيب عناق

وتمايلى طربا لحل عويصة أشهى من النغمات للعشاق

وألذ من نقر الفتاة لدفها نقرى لألقى الرمل عن أوراقى

ولعلك ذقت من هذا شيئا ، فلا نطيل فيه .

ولا بد لنا فى هذا المقام من أن نشير الى أن أرواح الأنبياء من طراز آخر فى علمها وقوتها وكل صفاتها ، ولذلك تظهر عليها خوارق العادات ، من كشف المغيبات وظهور الآيات ، مثل ما حصل له صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج . ومن ذلك ما يقال إن عيسى عليه السلام كان يمكث أربعين يوما لا يأكل ولا يشرب . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى » فهو لا يحس بتلك المؤلمات إلا إذا رجع لهذا العالم وسادت عليه أحكامه وقوانينه ، أما ما دام عند ربه فهو أرفع من أن تؤثر فيه تلك النواميس المعروفة ، أو تسيطر عليه هاتيك القوانين المشاهدة . الى غير ذلك من المعجزات المأثورة ، والخوارق المشهورة .

أما علمهم بحقائق الأشياء وما غيب عنا من أمور الآخرة وما يكون فيها ، فهو علم يشبه علمنا بالمبصرات بالبصر والمسموعات بالسمع ، بل حواسنا قد تخطىء ويقع الغلط والاشتباه فى مدركاتها ، بخلاف علمهم وما ينكشف لبصائرهم من الحقائق والمغيبات .

ثم نلفتك بعد ذلك الى ما تعرفه من تفاوت الناس فى العلم ، وأن ما يكون قطعيا لبعض

الناس يكون ظنا لبعض آخر ، بل قد ينكره كل الإنكار لبعد ما بينه وبينه حتى لا يتأتى له أن يفهمه أو يسلّمه .

وبالجملة فاستعداد الرسول أشرف استعداد ، وتكوينه أجل تكوين ، وبهذا كان مهيئا للرسالة والتلقى عن الملأ الأعلى ، كما يشير الى ذلك قوله تعالى : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » . فليس قلبه كبقية القلوب ، وإنما هو قلب امتلأ بنور الله ، لكونه غارقا فى عظمة الله ، مفعما بجلاله ، معرضا عما سواه .

وأين للفلاسفة ذلك النور الذى كان يرى به صلى الله عليه وسلم — كما فى الحديث الصحيح — أصحابه ، فى الصلاة وهم خلفه كما يراهم أمامه ، وفيه أنه رأى بيت المقدس عيانا وهو بمكة ، ورأى قصور الشام وأبواب صنعاء ومدائن كسرى وهو يحفر خندق المدينة ، ورأى النجاشى بالحبشة حين مات وهو صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، فخرج الى المصلى فصلى عليه ، الى غير ذلك .

ذلك كله من أجل ما أودع فيه من النور الساطع والاستعداد الرفيع الذى أهّله لخرق العادات بطريقة لا يكاد يعرفها الماديون ولا يعقلها غير الروحانيين . وكيف يدركون ببشريتهم الظلمانية أسرار ملكاته النورانية ؟

ولنقرب لك الأمر بعض التقريب فنقول :

إن الروح من عالم آخر له نواميس أخرى يستوى فيها القريب والبعيد والظاهر والخفى . على أننا رأينا فى عالم الماديات من العجائب ما يسهل عليك التصديق بذلك عن بصيرة واقتناع بعد ما ورد فى دينك وشريعتك ، فإن أشعة « رونتجن » تحوّل الأجسام الكثيفة المعتمة الى أجسام لطيفة شفافة ، وتظهر ما يتخللها من العظام وغيرها ، وأشعة « أف » التى بواسطتها يمكن كشف المعادن فى باطن الأرض وإحراق البارود فى باطن البواخر ومكامن الحصون ، فما بالك بأشعة الله الذى خلق أشعة رونتجن وأف وعلّم الانسان ما لم يعلم ؟ فلا بد أن تعرف أن للأنبياء قوى روحانية اختصوا بها

فلا توجد فى غيرهم . ولذلك سمع سليمان عليه السلام كلام النملة ، فما سمعه إلا بسمع الروح لا بسمع الجسم الطبيعى . (وكيف نستغرب ذلك وعلماء الحيوان الآن يثبتون للنحل وغيره حاسة لا توجد فينا ، ويذكرون من أفاعيل النمل ما يعجب له الانسان العاقل ؟) وقد قال يعقوب عليه السلام : إنى لأجد ريح يوسف ، فأحس بها وشمها من مسيرة أيام . فكيف يقاسون على غيرهم فى شىء من الإحساس والعلم والإدراك ؟ ولا غرو فقد قال الله تعالى فى الحديث القدسى فى حق عبده الذى تقرب اليه : « فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به » الخ .

وإجمال القول أن نفوس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام صنف مخالف لسائر النفوس فى قواها الظاهرة والباطنة ، فنعوتهم وصفاتهم التابعة لها يجب أن تكون مخالفة لسائر النعوت والصفات التى فى غيرهم ، ومتى كان الروح الفاعل والجسم القابل فى غاية الكمال كانت الآثار فى غاية القوة والشرف والصفاء . ولذا قيل إن صفات الأنبياء وقواهم الذاتية من خوارق العادات ، وإنه لو أمكن الناس أن يقفوا على كمال تلك النفوس لما احتاجوا فى التصديق برسالتهم الى معجزة ، فان فضيلة الصدق والأمانة مثلا إذا بلغت حد الكمال والإعجاز لا يقع معها كذب أو خيانة . وقد آمن كثير من الصحابة وغيرهم (حتى من الأوربيين) بمعجزة النعوت غير ملتفتين لتلك الخوارق والمعجزات الظاهرة التى لا يعول عليها فى إيمانه إلا العامة . وقد قال قائلهم فى حقه صلى الله عليه وسلم :

لو لم تكن فيه آيات مبينة   كانت خلائقه تنبيك بالخبر

وقد ذكر فيلسوف الاسلام العلامة ابن خلدون فى مقدمته أن النفوس البشرية على ثلاثة أصناف : صنف عاجز بالطبع عن الوصول الى الإدراك الروحانى ، فينقطع منحطا الى الجهة السفلى نحو المدارك الحسية والخيالية ، وتركيب المعانى من الحافظة والواهمة على قوانين محصورة وترتيب خاص يستفيدون به العلوم التصورية والتصديقية الفكرية ، وهذا فى الأغلب هو من أن الإدراك البشرى الجسمانى اليه تنتهى مدارك العلماء ،

وفيه ترسخ أقدامهم . وصنف متوجه بتلك الحركة الفكرية نحو العقل الروحاني، والإدراك الذي لا يفتقر الى الآلات البدنية بما خلق فيه من الاستعداد ، فيتسع نطاق إدراكه عن الأوليات ، ويسرح في قضايا المشاهدات الباطنة ، وكلها وجدانات لا حدود لها . وهذه مدارك العلماء الأولياء أهل العلوم اللدنية والمعارف الربانية ، وهى الحاصلة بعد الموت لأهل السعادة فى البرزخ . وصنف مفطور على الانسلاخ من البشرية جملة الى الملكية من الأفق الأعلى ، ليصير فى لمحة من اللمحات ملكا بالفعل ، ويحصل له شهود الملأ الأعلى فى أفقه ، وسماع الكلام النفساني والخطاب الإلهى فى تلك اللمحة ، وهؤلاء هم الأنبياء صلوات الله عليهم، فهم يتوجهون الى ذلك الأفق بذلك النوع من الانسلاخ متى شاءوا ، بتلك الفطرة التى فطروا عليها ، لا باكتساب ولا صناعة ، فاذا انسلخوا عن بشريتهم وتلقوا من الملأ الأعلى ما يتلقونه ، عاجوا به على المدارك البشرية ، فتنزلوا به الى قواها لحكمة التبليغ اه وبهذا كله نعرف سر ما نوجبه لهم فى علم التوحيد من أمهات الفضائل : كالأمانة ، والصدق ، والتبليغ ، والفطانة ، وما نحيله عليهم من السفاسف والدنايا التى تجوز على غيرهم .

وبعد : فهنا طريق قريب يعرفك ما بين الأنبياء والفلاسفة من الفرق الشاسع والبون البعيد ، وهو أن تقارن بين ما سمعته عنهم وما سمعته عن الفلاسفة ، ثم تحكم بعد ذلك ، فانظر مثلا الى مثل ما جاء فى القرآن فى تقرير علمه تعالى بكل شيء ، مثل قوله : « وعنده مفاتح الغيب » الخ . « وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن » الخ . « ما يكون من نجوى ثلاثة » الخ . ثم لقول الفلاسفة إنه لا يعلم الجزئيات ، الى غير ذلك مما يحتاج الى كتاب كبير .

الفلاسفة :

أما الفلاسفة فليست لهم هذه المراتب العالية ، ولا ذلك الاستعداد الرفيع الذى يؤهلهم للأخذ من الملأ الأعلى ، فهم يقولون بأفكارهم وعقولهم ، ولهذا قد نجد [illegible] الشائن والهفوات المزرية ما يسقط الإنسان العادى [illegible]

ولسنا ننكر أن لهم حكما بليغة ، إلا أن ذلك غير مقصور على من اشتهروا بالفلسفة ، فكثيرا ما نجد للمجربين وذوى النفوس الكبيرة فى كل عصر ما يوازى حكمة أرسطو وأفلاطون . ولعلماء الأمة المحمدية وصلحائها من ذلك ما لا تسمه الدفاتر . ولعلنا نورد شيئا منه ومن كلام الفلاسفة ، ونقارن بينهما فى عدد آخر . وفلسفة هذا شأنها غير مأمونة ولا معصومة ، فانها تعتمد اللباقة فى التعبير ، والإغراب فى التفكير ، وبهذا تعد فلسفة ، ولو كانت مستمدة من منبع الشهوات والأهواء كفلسفة أبيقور وأتباعه . ولعلنا نذكر شيئا منها بعد .

ولنفكهك الآن بشىء من فكاهاتهم أو ترهاتهم ، فنقول :

شىء من ترهات الفلاسفة وفكاهاتهم :

إن (فيثاغورس) من أكبر فلاسفة اليونان ، وله أشياء نفيسة ، ومع هذا فقد كان يقول : « إن ذنب من يقتل الذبابة أو الزنبور أو غيرهما من الهوام مثل ذنب من يقتل إنسانا » . ويزعم (انكسفوراس) أن السماء صنعت من حجارة كهذه الحجارة . وسبب ظنه ذلك أنه قد اتفق ذات يوم أن حجرا سقط من جهة السماء ، فظن انكسفوراس أن السماء مصنوعة من حجارة ، ثم أخذ يفكر فى علة لبقائها أبد الآباد فقال : « إن دوران الفلك أوجب بقاء تلك الصنعة بلا خلل بحيث لو اختل الدوران لحظة لفسد نظام السموات والأرض » فانظر الى ذلك الخيال الواسع ومجاراته الى حيث يريد !

ويذكر عن أرستيب الفيلسوف أن الملك بصق فى وجهه يوما من الأيام ، فعيب عليه فى ذلك ، فقال بفلسفته الحمقاء : « إن الصياد يتحمل مشقة الصيد حتى يبتل بالبحر لصيد سمكة صغيرة ، فكيف لا أتحمل ريق الملك لصيد الحوت الكبير ! » واتفق أيضا أنه ترجى الملك ديلنسى لبعض أصدقائه فرده الملك ولم يقبل رجاءه ، فخر أرستيب على قدمى الملك وقبّلهما ، فاستقبح ذلك بعض من كان فى المجلس ، فقال أرستيب : « لا لوم فى ذلك علىّ إنما اللوم على الملك حيث وضع أذنيه فى قدميه » .

ومن كلامه الذى لا أدرى أنستحسنه أم نستقبحه قوله : « إن الحكيم لا ينبغى له أن يلقى بيديه الى التهلكة لأجل حفظ وطنه فإن الدنيا كلها وطنه ، فليس من الإنصاف أن يخاطر بنفسه لأجل حماية المجانين » . وأكسينوقراط كان من عادته التى اقتضتها فلسفته تعطير أقدامه ، فسئل عن ذلك فقال : إن رائحة العطر الذى يوضع فى الرأس تطير فى الهواء ، بخلاف ما إذا عطرت الأقدام فإن الروائح تصعد الى الأفق . وذكروا فى تاريخ الفلاسفة أن أرستيب سافر الى مدينة فورنته وركب البحر فصادفته ريح عاصفة أحدثت الرعب فيه الى حد ممقوت إشفاقا من الهلاك ، فسخر منه إخوانه فى السفينة ولاموه وقالوا له : كيف نحن مع جهلنا لم يصادف قلوبنا ماصادف قلبك من الفزع والخوف وأنت من عظماء الفلاسفة ؟ فما هذا الوجل وما هذا الاضطراب ؟ فأجابهم بقوله : إن أنفسكم ونفسى ليسوا فى درجة واحدة بل شتان مابين الذى أخسره وبين ماتخسرون . فانظر الى تلك الفلسفة المعكوسة التى تشقى صاحبها بلا شفقة ولا رحمة . لاجرم أن الجهل خير من تلك الفلسفة .

ثم انظر بعد ذلك الى ماجاء به الأنبياء من تعظيم الحياة الأخرى وما فيها من السعادة الأبدية ، وتحقير هذه الحياة الدنيا حتى جعلها القرآن متاعا وقتيا ، وجعل الآخرة هى دار القرار . حقرها صلى الله عليه وسلم حتى جعلها لا تساوى جناح بعوضة ، الى آخر ماجاء فى الكتاب والسنة ، وهو كثير .

ومما يجدر التنبيه عليه أن الأنبياء يصدّق بعضهم بعضا فيما جاءوا به من العلم فى غير الأحكام الجزئية التى يقتضيها اختلاف العصور وتباين الاستعداد . أما الفلاسفة فلا يكادون يثبتون على رأى واحد ، بل يتخالفون ويتناقضون .

وقد كانت فلسفة أرسطو مقدسة عند الأوربيين ، حتى جاء الفيلسوف (راموس) فنقضها ، فقتلوه فى وقعة (سان برسلمى سنة ١٥٧٢ م) وهى الواقعة التى قتل فيها كاثوليك فرنسا البروتستانت .

كلمة أفلاطون فى أصناف الناس :

ولنختم موضوعنا هـذا بما روى عن أفلاطون كبير فلاسفة اليونان ورئيس الحكماء الاشراقيين فنقول :

قسم أفلاطون الناس الى ثلاثة أقسام : (١) المشرعون أى الفلاسفة (٢) الجنود (٣) الصناع وأهل المهن . قال :

أما الأولون فهم المخلوقون للسيادة دون غيرهم ، وسماهم الصنف الذهبي . أما الجنود فهم حراس المملكة ، وأطلق عليهم الصنف الفضى . وأما الصناع فهم المخلوقون للصناعة العمياء ، ودعاهم الصنف الحديدى . أما العبيد فقال عنهم إنهم ماشية الأمة ، مثلهم كمثل البهائم السائمة . فانظر الى هذا وقارن بينه وبين من أوجب قتل الانسان إذا قتل الذبابة ، وما بينهما من التناقض ، فان أحدهما يحترم كل ذى روح ولو كان من أحقر الأشياء ، والآخر على العكس من ذلك فى أشرف نوع وأعلاه وهو نوع الانسان ، ولهـذا كانت الفلسفة فى كل عصر مثار الشكوك والأوهام ، ومبعث الاختلاف والتنازع ، حتى قيل :

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعى العالمين ضلال[1]

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيلَ وقالوا

حتى حرم بعضهم النظر فى كتب الفلسفة ، لأن ضررها أقرب من نفعها ، وشكها أكثر من يقينها . ثم قارن بعد ذلك كله بين كلام أفلاطون الذى يدعى بأفلاطون الإلهى « والذى أحترمه وأجله » وبين ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم من احترام أفراد النوع الانسانى ، وعقد المساواة بينهم ، وبث الديمقراطية الحقة فى الناس جميعا ، فلم يجعل لأحد فضلا على أحد إلا بالتقوى .

وقد جاء فى القرآن الكريم : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم »

---

(١) كان بعض اشياخنا يقرأ العالمين فى البيت بكسر اللام لا بفتحها .

وقد سمع صلى الله عليه وسلم أبا ذر يقول لعبده : « يا ابن السوداء » فنقم عليه ذلك وقال له : « إنك امرؤ فيك جاهلية » فأعتقه أبو ذر وصار من ذلك اليوم يسوى خادمه بنفسه ، حتى إنه إذا لبس حلة ألبسه مثلها . وقد جاء فى تعظيم سلمان الفارسى وبلال وغيرهما شىء كثير . ومن ينظر فى التاريخ يجد الموالى فى الاسلام قد اعتلوا من المناصب السامية والمنازل العالية مالا يسامى .

ولعلنا نعود لمعالجة هذا الموضوع مرة أخرى ، إن شاء الله تعالى .

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء

شهادة الرجال للرجال

روى أن عبد الله بن عباس سئل عن أبى بكر رضى الله عنه فقال : كان والله خيرا كله مع الحدة التى كانت فيه . قالوا فأخبرنا عن عمر رضوان الله عليه ، فقال : كان والله كالطير الحذر الذى نصب فخ له فهو يخاف أن يقع فيه . قالوا فأخبرنا عن عثمان رضوان الله عليه ، فقال : كان والله صواما قواما . قالوا فأخبرنا عن على بن أبى طالب رضوان الله عليه ، فقال : كان والله ممن حوى علما وحلما ، حسبك من رجل أعزته سابقته ، وقدمته قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلما أشرف على شىء إلا ناله . قالوا : يقال إنه كان مجدودا . قال : أنتم تقولونه . (أى ليس الأمر كذلك) .

وروى أن رجلا أتى الحسن فقال يا أبا سعيد: إنهم يزعمون أنك تبغض عليا . فبكى حتى اخضلت لحيته ، ثم قال : كان على بن أبى طالب سهما صائبا من مرامى الله على عدوه ، وربانى هذه الأمة ، وذا سابقتها ، وذا فضلها ، وذا قرابة قريبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يكن بالنومة عن أمر الله ، ولا بالملولة فى حق الله ، ولا بالسروقة لمال الله ، اعطى القرآن عزائمه ففاز منه برياض مونقة ، وأعلام بينة ، ذاك على بن أبى طالب !

ودخل عروة بن الزبير بستانا لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين ، فقال عروة : ما أحسن هذا البستان ! فقال له عبد الملك : أنت والله أحسن منه ، إن هذا يؤتى أكله كل عام ، وأنت تؤتى أكلك كل يوم !

دحض شبهات عن الاسلام

من العجب العاجب أنه لا يزال فى العالم الغربى علماء يخبطون فى فهم الاسلام ، ويتهمونه بما ليس فيه ، ويجهلون نفسية الشعوب الآخذة به ، بعد ما كتب فيه فلاسفتهم وعلماؤهم ومؤرخوهم ما كتبوا من جليل البحوث ، ودقيق الدراسات .

من ذلك ما نشرته جريدة كوكب الشرق المصرية لكاتب اسمه (أندريه هرفيه) ونحن نلخص آراءه هنا ونتبعها بملاحظاتنا عليها قال :

« لقد أثرت الديانة الاسلامية فى ذويها تأثيرا عظيما بحيث جعلتهم على اختلاف أجناسهم وبيئاتهم كأنهم أمة واحدة لهم مُثُل عليا ، وتصورات واحدة ، وهم شديدو الاعتقاد فى سمو عقائدهم ، ومتعصبون لها أكبر تعصب . فإن كان هذا التعصب لا ينذر اليوم بخطر جلل فذلك لأن الشعوب الاسلامية قد أدركها الضعف والهرم .

« وليس هذا الضعف الذى يشكو منه المسلمون إلا نتيجة جمود العقائد الاسلامية وتضييقها على عقولهم الى حد أن أصيبت بالشلل .

« ومع هذا فالاسلام لا يزال يلعب دورا فى تكييف الانسانية لا يصح إغفاله . فالثلاثمائة مليون من المسلمين فى ازدياد مطرد ، بسبب التكاثر الطبيعى أولاً ، وبسبب دخول ألوف مؤلفة من أهل القبائل بفعل المبشرين بالاسلام .

وقد دخل أخيرا فى الاسلام فى الهند وحدها اثنا عشر مليونا وأسلم أضعافهم فى الصين وتركستان وسيبيريا والملايو .

« وفى الإمكان فهم عقلية المسلم وعدم التحامل عليه ، ونبذ الروايات الكاذبة التى تشيع عنه ، والقيام بخدمات مفيدة له . ولكن من السخف أن نتوهم أننا بذلك نستطيع أن نحكمه ، فإن بين المسلمين تضامنا عاما وإن تفرقت بيئاتهم ، فكل واحد منهم تهمه مصالح إخوانه المسلمين وإن بعدوا عنه مهما كانت أجناسهم ، فجميعهم يجمعهم

وطن أعظم من أوطانهم هو الاسلام ، وعاصمته مكة ، والحاكم فيه دون منازع نبي الاسلام وحده .

« إن تتابع القرون قد كيفت عقلية المسلمين وطبعتها بعقائد الاسلام . ولما كانت هذه التعاليم هي عصارة العقل العربي ، وجب أن ندرس تاريخ العرب إن كنا نريد أن نفهم نفسية أي أمة من أمم العالم الاسلامي . ودراسة كهذه شاقة لوفرة موادها ، والديانة الاسلامية محتجبة عنا بسبب تعدد المعتقدات المسلّم بها ، وكثرة الروايات وأخطاء الشراح فيها ، وتحامل أعداء الاسلام عليه . ومع هذا فإن دراسة كهذه ضرورية لفهم نفسية المسلمين .

« إننا لا ندري كيف فقد السوريون والمصريون والمراكشيون نشاطهم وقوة إدراكهم وروح الابتكار الذي كانوا عليه أيام سيادة اليونان والرومان بمجرد إسلامهم.

« وكيف نسي العرب تاريخهم الباهر واستسلموا للجهل والتفرق بعد أن كانوا وصلوا الى مدنية راقية ؟

« وإننا لم نفهم الى اليوم أسباب التوسع السريع في فتوحات العرب ، ولم نفهم كذلك علل تدهور أمبراطورية الخلفاء ، وإصابتها بالشلل بسبب العقائد الدينية الجامدة التي تتحكم في كل ناحية من نواحي حياة المسلم اليومية ، وكل مظهر من مظاهر نشاطه ، وعوامل الأثر السيء الذي أبقى المسلمين بمعزل عن المدنية .

« وصلت بعض المؤلفات العلمية والفلسفية الموضوعة في اللغة العربية أو المترجمة منها الى اللاتينية الى أوربا ، فأعجب بها علماء القرون الوسطى على قلة بضاعتهم العلمية ، أعجبوا بتلك المؤلفات وتخيلوا أن العرب وصلوا الى درجة عالية من الثقافة العلمية . ولكننا عرفنا اليوم أن تلك المؤلفات لم تكن نتاج العقول العربية ، ولكنها ترجمات لمؤلفات يونانية قديمة ترجمها السوريون للعرب ترجمة لم يراعوا فيها الأمانة والدقة ، وما زال معظم المؤرخين ينخدعون بها ويدعون أنه كانت توجد حضارة عربية عالية

لا يمكن النزاع فيها والواقع أنه لا توجد مدنية عربية كما كانت توجد مدنية يونانية ولاتينية ، إذا كانت الحضارة هى بذل الجهود الشخصية المبتكرة فى سبيل التقدم العمرانى .

« على أنه يمكن أن يقال إن هناك حضارة إسلامية ، ولكنها حضارة ليس للعرب ولا للاسلام فيها شىء ، هى حضارة الأمم التى دخلت فى الاسلام ، فتابعت هذه الأمم تقدمها على الرغم من العرب ومن العقائد الاسلامية .

« والنجاح العظيم للفتوحات العربية لا يثبت لنا شيئا ، فأمثال أتيلا وجانكيزخان قد أخضعوا الشعوب ، ولكن المدنية ليست مدينة لهم ، فالشعب الظافر لا يمكن أن يترك أثره العمرانى إلا إذا كان أكثر تمدنا من المقهورين .

« وقد هضم الاسبانيون وبربر أفريقا الشمالية الحضارة اللاتينية ، ولكن العربى الفاتح بقى بربريا ، وزاد فأخمد المدنية فى الممالك التى قهرها وخنقها . والذى دفع بعض المؤرخين أن يعزوا للعرب مدنية هو أن المدنية اليونانية لم تمت فورا فى الممالك المقهورة ، إذ كانت حافلة بالحياة ، فبقيت ثلاثة أجيال تطلق قذائفها القوية من وراء الجبهة المحمدية .

« لقد كان على الأمم المقهورة أن تختار الاسلام أو المصير التعس ، أى أن تهلك ويصبح آحادها عبيدا . ولما كانت الأديان التى اصطدم بها الاسلام إما وثنية فى حالة النزع ، أو مسيحية لم ترسخ عقائدها بعد ، فضلت الشعوب المقهورة قبول الاسلام دينا .

« لم ينقض جيل واحد على سيادة العرب حتى استؤصلت الثقافة العقلية استئصالا تاما . والشعوب التى بقيت تحت تأثير الحضارة اليونانية أو اللاتينية قد أصيبت تحت النير الاسلامى بالشلل ، ولم تستطع الأمم الغربية إنهاضها مع مابذلته من الجهود ، وذلك لأن عقلية هذه الشعوب قد شوهها الاسلام ، الاسلام الذى هو نتاج العقل العربى وعصارته .

« وقد كان العربي واقعيا لا يتصور شيئا أبعد مما تقع عليه حواسه . لذلك كان فى الآداب كما كان فى العلوم والفلسفة مجرد جامع لا مؤلف .

« يتولى الاسلام من يأخذ به من المهد الى اللحد ، فلا يدع له أى مجال للتفكير أو النشاط ، ولا يدع له فرصة للحرية والإبداع . فهو أشبه بأداة تقبض على العنق ، ولا تتيح لصاحبها إلا قدرا محدودا من الحركة .

« بمجمل القول أن العربى استعار كل شىء من الأمم الأخرى حتى أفكاره الدينية وسلط عليها عقله الضيق . ولما كان يعجز عن السمو الى تصور الفلسفة العليا عمد الى تشويه كل شىء وجده فى طريقه ، وإلى تحريفه وتيبيسه ، وهذا هو سر تأخر الأمم الاسلامية وعجزها عن التخلص من الحالة البربرية التى تعيش فيها » .

هذا ما نشره المسيو (أندريه هرفيه) وهو أشبه بأقصوصة منه بدراسة علمية ، ولكنها أقصوصة من نوع مبتكر مبنى على إنكار الواقع ، وهو لذلك يتهم الذين شهدوا للاسلام من بناة العقل العصرى بأنهم انخدعوا فعزوا للعرب ما هو لغيرهم من المقهورين ، ووصم الاسلام بنقائص ينطق كل نص من نصوصها ليس بأنه منها براء فحسب ، ولكن بأنه متحل بنقائضها من الأصول العليا .

ونحن نحصر آراءه فى دائرة محدودة ، ثم نكر عليها بالرد خدمة للحق وللتاريخ معا ، فإليك :

(١) إن التعاليم الاسلامية ليست بشىء غير عصارة العقل العربى .

(٢) كان للشعوب التى سادها اليونانيون والرومانيون نشاط وقوة إدراك وروح ابتكار جردتها منها السيادة الاسلامية .

(٣) عقائد الاسلام جامدة تتحكم فى كل ناحية من نواحى حياة المسلم اليومية .

(٤) العلم العربى لا يعدو ما ترجمه السوريون العرب ترجمة مشوهة انخدع بها المؤرخون ونسبوها للعرب زورا .

(٥) الحضارة التى يزعم أنها عربية هى فى الواقع حضارة الشعوب التى وقعت تحت نيرهم ، فتابعت سيرها على الرغم من العقائد الاسلامية الجامدة .

(٦) نجاح العرب فى فتوحاتهم العظيمة لايعلى من قيمتهم ، فإن الفاتحين من أمثال أتيلا وجانكيزخان قدأخضعوا شعوبا كثيرة ولكنها ليست مدينة لهم بمدنية .

(٧) لقد هضم الاسبانيون وبربر أفريقا الشمالية الحضارة اللاتينية ، ولكن العربى مع احتكاكه بتلك الحضارة بقى بربريا ، وأخمد مدنية الشعوب التى ساد عليها .

(٨) لقد كان على الأمم أن تُسلم أو تبيد . وكانت إما على وثنية فى حالة النزع أو على مسيحية غير أصيلة ، ففضلت هذه الأمم أن تسلم لتنجو من الهلاك .

(٩) لم ينقض جيل واحد على سيادة العرب حتى استؤصلت الثقافة العقلية استئصالا تاما ، ولم تستطع الأمم الغربية فيما بعد إعادة الحياة اليها لأن الاسلام قد قضى عليها .

(١٠) العربى لا يجيد التصور فلا يدرك فوق ماتدركه حواسه ، لذلك كان فى الآداب كما كان فى العلوم مجرد جامع لا مؤلف .

(١١) الاسلام لايدع للآخذ به أى مجال للحرية والإبداع ، فهو أشبه بأداة تقبض على العنق ولا تتيح لصاحبها إلا قدراً محدودا من الحركة .

(١٢) العربى استعار كل شىء من الأمم الأخرى حتى أفكاره الدينية ، وسلط عليها عقله الضيق . ولما كان يعجز عن تصور الفلسفة العليا عمد الى تشويه وتيبيس كل ما صادفه فى طريقه ، وهذا سر تأخر الأمم الاسلامية .

هذه آراء المسيو أندريه هرفيه ، فلو كان مما يفيد أن نقابلها بأبلغ عبارات الأسف مما نشهده فيها من قصر النظر ، ونكران الواقع ، ومحاولة طمس الحقائق ، وجهل تواريخ الأمم ، لملأنا منها صحفا ، ولكننا نعلم أن الحكم للدليل القاطع ، فلنعتمد عليه فى تفنيد هذه المفتريات ، ثم نكل أمرها للحق يدمغها ويذريها فى الهواء ، شأنه مع كل

باطل: « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه، فاذا هو زاهق، ولكم الويل مما تصفون »

الشبهة الأولى — يقول المسيو أندريه هرفيه: إن التعاليم الاسلامية ليست بشيء سوى عصارة الفكر العربي .

هذه دعوى لا تستحق النظر ، وعذر المسيو أندريه فيها أنه لا يعرف أصول الاسلام ، ولا عقلية العرب على عهد جاهليتهم ، فنرى أن نبينهما له بإيجاز ، فنقول :

(ا) كان العرب وثنيين يعبدون آلهة كثيرة ، زاعمين أنها تقربهم من الله زلفى ، وكانوا جامدين على وثنيتهم لا يبغون عنها حولا .

(ب) وكانوا حريصين على تقليد آبائهم تقليدا أعمى ، لا يرون أن يجيلوا فيما هم عليه نظرا ، ولا أن يسمعوا فيه نقدا .

(ج) وكان لا يعنيهم أن يفرقوا بين ما هو حق وما هو باطل من الأمور ، لأنهم كانوا لا يتوهمون للكون نظاما ، ولا يتخيلون لحوادثه ناموسا .

(د) وكانوا يعتبرون الحق للقوة لا لصاحبه إن كان ضعيفا .

(هـ) وكانوا إباحيين لا يرون للشهوات حدودا ، إلا ما يفرضه عليهم العجز الطبيعي ، وما يحتمه الضعف الجثماني .

(و) وكانوا فوضى من الناحية الأدبية ، ليس لديهم أصول يردون أعمالهم اليها ، إلا ما أملته عليهم الحالة الجاهلية ، والسذاجة البدوية .

(ز) وكانوا مستريحين الى الجهل والأمية ، ومستنيمين الى ما كانوا عليه من الحالة البدوية ونصف البدوية ، حتى اعتبروها المثل الأعلى .

(ح) وكانوا لا يعرفون للعدل حدودا إلا ما تقرره التقاليد المبنية على أصول مناسبة للحالة القبيلية التي كانوا عليها .

(ط) وكانوا لا يقيمون للمساواة وزنا لا بين الأقوياء والضعفاء ، والأثرياء والفقراء فحسب ، ولكن بين البيوتات والجماعات أيضا لاعتبارات تواضعوا عليها ليست من الحق في شيء .

هـذه هى الأصول التى تنزلت منها عصارة الفكر العربى قبل البعثة المحمدية ، وقد جاء الاسلام بنقائضها :

فأمر بتوحيد الله وتنزيهه ، وأسقط الوسطاء والشفعاء ، وأخلى مابينه وبين خلقه ، ونهى عن التقليد بدون نظر ولا دليل ، ودعا الى التفرقة بين الحق والباطل ، والى العلم والفكر ، والى التقيد بنواميس الأخلاق ، والى تجريد العمل لله وحده فى جميع المقاصد ، وحرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وأهاب بالناس الى لزوم النظام فى كل شىء ، مقررا أنه خلق كل كائن بقدر ، والى الاجتماع والألفة تحقيقا للوحدة الانسانية والعمل على تعميمها بين الناس حتى تصبح عالمية ، والى الحياة الحضرية الفاضلة وما تقتضيه من تعاطف وترادف وإحسان ، والى محق الفوارق الجنسية واللونية واللغوية ، مقررا أن الكل أبوهم آدم وأمهم حواء ، وأن لا فضل لأبيض على أسود ولا لعربى على أعجمى إلا بالتقوى أو بعمل صالح ، والى العلم والحكمة بأقصى ما تستطيعه القدرة البشرية معلقا عليهما سعادة الحياتين ، والى العدل المطلق بين الناس كافة مؤمنهم وكافرهم عربيهم وأعجميهم ، والى القيام بالقسط والشهادة لله ولو على النفس والأقرباء والوالدين ، والى المساواة بين الخلق مهما كانت نحلهم وبيئاتهم ، والى تطلب الرق الصورى والمعنوى من جميع مظانهما ، وعدم الجمود على حال واحدة .

ثم هو مع هـذا كله قد دعا الناس الى وحدة عالميـة ، والى ديانة فطرية عامة تسع الناس كافة فى كل زمان ومكان . (راجع القرآن الكريم)

لا مشاحة فى أن هذا كله ليس بعصارة الفكر العربي ، ولا يمت اليه بأدنى صلة ، ولا هو بعصارة أرقى أمة كانت قائمة على عهد البعثة المحمدية أو قبل عهدها ، بل ولا عصارة أرقى أمة من الأمم العصرية كما يرى القارئ بأقل تأمل ، فاذا تقرر هذا فقد سقطت أولى شبهات المسيو أندريه هرفيه ، وأصبح بينها وبين الواقع المحسوس بعد المشرقين ، بل أبعد منه بما لا يستطاع تقديره .

الشبهة الثانية — يقول المسيو أندريه : كان للشعوب التى سادها اليونانيون والرومانيون نشاط ، وقوة إدراك ، وروح ابتكار ، جردتها منها السيادة الاسلامية .

اللهم إن هذا مناقض لبداهات التاريخ مناقضة صارخة .

وذلك أن البلاد التى فتحها المسلمون وكان يسود فيها آثار من المدنية اليونانية والرومانية هى سورية ومصر وشمال أفريقا كله والأندلس . فأما سورية فكانت تعانى من عنت الرومانيين فى الحكم ، ومن اضطهادهم لها فى الدين ، ما أفردت له صحف سوداء فى التاريخ ، حتى حمل ذلك مئات الألوف من اليهود واليعاقبة والنساطرة أن يلجأوا الى بلاد العرب هربا من الجور الذى كان حائقا بهم ، وفى هؤلاء علماء أعلام استخدمهم العرب فيما بعد فى ترجمة العلوم ، وأحسنوا مكافأتهم ، وحموهم شرور الاضطهاد ، وقربهم الخلفاء منهم حتى كانوا من أخص بطاناتهم ، وعولوا عليهم فى الطب والعلوم الطبيعية والرياضية ، وخلدوا ذكرهم فى مؤلفاتهم التاريخية .

وأما مصر فقد كانت كما يقول المسيو جول لابوم على عهد الرومانيين ، كالجثة المصبرة ، فبعد أن قتلوا من أهلها نحو ثمانمائة ألف نسمة لاعتناقهم المسيحية بقصد إبادتهم ، عادوا بعد أن تنصروا هم فاضطهدوهم لمخالفتهم لهم فى المذاهب ، وأرهقوهم بالضرائب والأتاوات ، حتى نضبت خيراتهم ، وجمد نشاطهم ، وتحجرت عقولهم . فلما انتدب العرب لفتحها رمى المصريون بأنفسهم بين أيديهم ، وعاونوهم على التخلص من نير مستعبديهم . أليس هذا التواطؤ وحده أدل دليل على ما كان يعانيه المصريون من عسف الرومانيين وظلمهم وهم أبناء دين واحد ؟ فلو كان للمصريين نشاط وقوة إدراك وروح ابتكار أفاضتها عليهم المدنية الرومانية لما سمحت نفوسهم أن يجازوا أصحابها بممالأة أعدائهم عليهم .

أما شمال أفريقا الذى استولى عليه المسلمون بحركة حربية تشبه رياضة عسكرية ، فقد كان أهله من البربر رازحين كالمصريين تحت نير الاستعمار الرومانى ، بل كانوا أتعس

منهم حالا ، فإنه كان للمصريين ذَماء من مدنيتهم القديمة ، وأما أولئك فكانوا مجردين من مثل هذا الذماء أيضا ، لأنهم لم تكن قُدْمة مدنية ولا وراثة أدبية ، فكانوا على ما هم عليه اليوم من البداوة المتأصلة فى نفوسهم ، اللهم إلا جماعات عايشت الرومانيين واليونانيين فى المدن التى أسسوها فى بلادهم وكان حظهم معهم حظ العبيد من سادتهم . فإذا كان المصريون قد برموا بسادتهم الرومانيين الى حد أنهم مالأوا العرب على تسليمهم بلادهم ، فهل يعقل أن يكون بربر شمال أفريقا أحسن حالا منهم ؟

وهذه الأصقاع من أفريقا ظلت خاملة الذكر لا يسمع عنها شىء يعتد به التاريخ حتى ملكها المسلمون ، فدخلت تحت ظل الاسلام فى دورجديد ، فتألفت فيها خلافة مدت سلطانها على مصر نفسها ، وكانت لها وللجزائر وتونس أساطيل تهيبتها أساطيل أوربا قرونا طويلة .

وأما الأندلس فقد كانت فى عهدها الأخير تسودها قبيلة الوزيغو ، وكانت عدوة للمدنية الرومانية لم تدع معلما من معالمها إلا هدمته ، وجرت فى حكم البلاد على طريقة الجور والاستبداد المفرطين . وقد دخلها المسلمون بتواطئ بينهم وبين الناقين على حكومة المغتصبين . وما كادت تطؤها أقدامهم حتى أصلحوا إدارتها ، وأحسنوا سياستها ، وأسسوا فيها المدارس والجامعات ، وأقاموا المبانى والعمارات ، ونشطوا الزراعات والتجارات ، وأحيوا الفنون والصناعات ، حتى أصبحت مضرب المثل فى العمران والمدنية الى اليوم .

أليس من غرائب التعصب أن ينكر المسيو أندريه كل هذه الآثار الناطقة ويدعى أن سيادة المسلمين أخمدت نشاط الشعوب فى البلاد التى احتلتها ؟ ! ألم ير أن الشرق الاسلامى لبث متفوقا على الغرب فى كل مجال الى نحو ثلاثمائة سنة ؟ فاذا كانت اسبانيا قد نجحت فى التخلص من حكم المسلمين بسبب انقسامهم على أنفسهم فقد استعاض المسلمون من ذلك بفتح شرق أوربا ، وما زالوا ظاهرين حتى وصلوا الى وسط تلك القارة

وهـددوا رومية نفسها ، وحافظوا على فتوحاتهم فيهـا قرونا . وما ضرهم إلا فترة من السكون اعترتهم بعد عراك طويل للحوادث دام ألف سنة ، بلغوا فى خلالها قمة المجد ، وآلت اليهم فيها زعامة الأرض فى السياسة والعلم والفنون والأدب . فهل يسمح المسيو اندريه لنفسـه أن يعتقد أن عصارة الفكر العربى الجاهلى تُمَكن الآخذين بها من الاستيلاء على الزعامة العالميـة طوال تلك المـدة الطويلة من الزمن ؟ فأين كانت عصارة الفكر اليونانى الرومانى لتقاوم هذه الحركة الجاهلية فى الأرض؟ ألم يعلم أنها كانت قد جفت وتطايرت ذراتها فى الهواء حتى جاء المسلمون فأعادوا تقطيرها ثانية ، وزادوا عليها من فيض جهودهم ما ضمن لها البقاء والنماء ما شاء الله لها أن تبقى وتنمو وتؤتى ثمراتها للخلق ؟

من العبث أن أستشهد هنا بأقوال المؤرخين من أبناء الفرنجة ، فهم فى نظر المسيو أندريه هرفيه قد خُدعوا فظنوا المدنية التى كانت عليها الأمم التى سادها المسلمون مدنية عربية ، والحقيقة أنها كانت يونانية أو رومانية . إذا صح هذا كان المسيو أندريه هرفيه الذى ليس بمؤرخ قد أتى المكابرين فى التاريخ بوسيلة فـذة لا تكلفهم أقل عناء ، وهى خرق إجماع المؤرخين !

بخ بخ ! لوكانت هذه وسيلة من وسائل التمحيص لسهل على كل مكابر أن يثبت مدعاه برأيه الخاص ، فلا تصبح للحوادث التاريخية قيمة ، ولا يكون الإجماع أصلا من أصول التحقيق ، ويمتنع الاستشهاد بالتاريخ .

يقول المسيو أندريه هرفيه : إنه كان للشعوب التى أخضعها اليونانيون والرومانيون نشاط وقوة إدراك وروح ابتكار جـردتها منها السيادة الاسلامية . فـكيف يعقـل هذا الـكلام والصفات التى يذكرها لم تـكن لليونانيين والرومانيين أنفسهم فى العهد الذى ظهر فيه الاسلام ؟

فهل يعقل أن يكون شىء منها لمستعمراتهم التى امتصوا دمها وتركوها جثة هامدة ؟

ألم يجمع المؤرخون على أن أوربا كلها كانت فى ظلام حالك من القرن الرابع الى القرن الخامس عشر ، حتى لم ينبغ فيها فى مدى هذه العشرة القرون عالم واحد ، وهو العهد الذى يعرف عندهم بالقرون الوسطى ؟ فليدلنا المسيو أندريه هرفيه عن النشاط وقوة الإدراك وروح الابتكار التى يذكرها لنرى أين كانت ثاوية من ثنايا هذه الغياهب المتلبدة .

لا مشاحة فى أن هذا خرق ثان لإجماع المؤرخين يتحمل منه المسيو أندريه هرفيه تبعة فادحة ، أقل ما فيها أن لا يكون لأقواله أية صبغة جدية ، ولا أقول علمية .

***

بقيت عشر شبهات نتولى دحضها فى المقالة التالية ، إن شاء الله .

محمد فريد وجدى

وجوه البلاغة

قالوا إن البلاغة تكون على أربعة أوجه : تكون باللفظ والخط والاشارة والدلالة ، وكل منها له حظ من البلاغة والبيان ، وموضع لا يجوز فيه غيره .

فأما الخط والاشارة فمفهومان عند الخاصة وأكثر العامة ، وأما الدلالة فكل شيء دلك على شيء فقد أخبرك به ، كما قال الحكيم : أشهد أن السموات والأرض آيات دالات ، وشواهد قائمات ، كل يؤدى عنك الحجة ، ويشهد لك بالربوبية .

وقال آخر : سل الأرض من غرس أشجارك ، وشق أنهارك ، وجنى ثمارك ، فان لم تجبك إخبارا ، أجابتك اعتبارا .

ومن الثناء بالدلالة لا باللفظ من الشعر قول الشاعر :

لقد جئت أبغى لنفسى مجيرا ... فجئت الجبال وجئت البحورا

فقال لى البحر إذ جئته ... فكيف يجير ضرير ضريرا

ومثله قول نصيب بن رباح :

فعاجوا فاثنوا بالذى أنت أهله ... ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

الثناء هنا كله بالدلالة لا باللفظ .

تأريخ الالفاظ فى اللغة العربية

كلمة (الأدب) واطوارها

فرغنا فى المقالين السابقين من عرض آراء الباحثين فى تأريخ كلمة « الأدب »، ولفتنا نظر القارئ الكريم الى ما فى مذهب أنصار القديم من قصور فى البحث والاستدلال ، والى ما فى مذهب أولياء الجديد من تطرف يتسع أحيانا حتى ليوشك أن يكون تهورا ، ولم نكتم فضلا لأحد المذهبين .

وفى هذا المقال الذى سننهى به الموضوع نحاول أن نوجه البحث الى شىء من الأدلة على أن مادة « الأدب » كانت معروفة عند العرب بصيغ مختلفة فى العصر الجاهلى ، وفى عصر صدر الاسلام ، ومعروفة بهذا المعنى (الفنى) الاصطلاحى الذى عرف لها فى أواخر العصر الأموى وأوائل العصر العباسى .

والواقع أن الاعتماد على النصوص الأدبية من الخطب والأشعار فى العصر الجاهلى لا يفيدنا كثيرا فى إثبات استعمال كلمة الأدب فى معناها الاصطلاحى (الفنى) لأنه ليس لدينا نص صريح يثبت لنا ذلك . ونبادر الى القول بأننا نقصد بالمعنى (الفنى) ما كان يقصده شيوخ المؤدبين فى العصر العباسى كالمفضل الضبى ، والمبرد ، وثعلب ، والكسائى ، وأبى عبيدة ، والأصمعى ، وخلف الأحمر وأضرابهم ، من حفظ الغريب والنحو والصرف وأيام العرب وما قيل من شعر ونثر ... الخ ، ولا يمكن أن نقصد الى هذا المعنى المتعارف بيننا الآن ، وهو الذى سميناه أدبا خاصا فى المقال السابق ، لأن هذا معنى مستحدث ، أو هو تخصيص للعام ، كما يقول العلماء .

هدانا البحث الى عبارة فى « أساس البلاغة » للزمخشرى ، ولم أر أحدا من الباحثين تعرض لها ، لأنها لم تذكر فى مادتها ، بل ذكرت عرضا فى مادة أخرى ، هذه العبارة قد تقلب نظرية بعض المستشرقين وأشياعهم من الباحثين فى الأدب العربى ، الشاكين

فى معارف العرب الأدبية ، إذا عنى بها المنصفون عناية جدّية ، وتتبعوا مصادرها وتاريخها .

قال صاحب (الأساس) : « وتكلم فأغرب إذا جاء بغرائب الكلام ونوادره ، وتقول : فلان يغرب كلامه ، ويغرب فيه ، وفى كلامه غرابة ، وغرب كلامه ، وقد غربت هذه الكلمة : أى غمضت فهى غريبة ، ومنه مصنف الغريب ، وقول الأعرابى : « ليس هذا بغريب ، ولكنكم فى الأدب غرباء » .

ونحن وإن كنا بعيدين عن معرفة من يكون ذلك الأعرابى ، وهل هو جاهلى أو إسلامى ؟ لكن سياق عبارة الأساس يفيد أن الكلمة عنى بها « الأدب » بمعنى معرفة الكلام الغامض ، وهو كما قلنا معنى اصطلاحى عرف فى أواخر الدولة الأموية وصدر العباسية .

ولا سبيل الى القول بأن الكلمة مولدة لا تثبت حكما لغويا ، لأن المعاجم اللغوية يفرض فيها غالبا عدم التعرض للمولد من الألفاظ دون إشارة أو فهم من السياق . والزمخشرى بخصوصه لم يعهد منه ذكر المولد دون تنبيه عليه ، وفى أساسه مزية يفوق بها المعاجم اللغوية ، وتجعله نواة صالحة لفن تأريخ الألفاظ ، ذلك أنه يتتبع أطوار استعمالات الكلمة فى حقيقتها ومجازها ، وقد يغلو فى التوسع بالمجاز فيعتبر كل استعمال جاء بعد الاستعمال الأول مجازا . ولعل هذا يرجح حصره الحقيقة فى الاستعمال الجاهلى غالبا ، كما يتبين للمتتبع له .

يخف بعض الشىء هذا العسر الذى يجده الباحث حين يعرض الى بحث أدبى أولغوى فى العصر الجاهلى ، إذا جزنا ذلك العصر الى ما بعده من عصر صدر الاسلام ، حيث تبدأ الحياة العربية فى الجدة والاتساع ، وحيث تأخذ اتجاها منظما . فالنصوص الأدبية ، تحفظ لأن الناس حينئذ حِراص على الحفظ لداعى الدين واللغة والعصبية ، وتذاع وتقيد لأن الحياة الجديدة تتطلب تلك الإذاعة ، وذلك التقييد ، وحيث

أصبحت الرواية فنا مستقلا له أصـوله وقواعده يستبق الرواة فى ميدانه الى النقد والتمحيص .

يحدثنا أبو الفرج فى الأغانى أن عمر بن الخطاب رد ابن الزبعرى وصاحبه على حسان ابن ثابت فأسمعهما من شعره كما أسمعاه حتى اشتفى منهما فى ملأ من الناس ، ثم قال عمر ابن الخطاب على مشهد ممن حضره : « إنى كنت نهيتكم أن تذكروا مما كان بين المسلمين والمشركين شيئا دفعا للتضاغن عنكم ، وبث القبيح فيما بينكم ، فأما إذ أبوا فاكتبوه ، واحتفظوا به » فدونوا ذلك عندهم . قال أبو الفرج : « قال خلاد بن محمد : فأدركته والله وإن الأنصار لتجدده عندها إذا خافت بلاه »

نزل القرآن الكريم على النبى صلى الله عليه وسلم وتدارسه مع أصحابه ، وتحدث اليهم فى شرح ما غمض من أحكامه ، وتبيين ما أجمل فى آيه ، والنبى صلوات الله عليه شرّع فيما لم ينزل به عليه قرآن مما أذن الله له أن يحدث به عنه ، ويشرعه لأمته وحيا غير وحى التلاوة والقرآن ، والصحابة وهم فى كثرة الألوف انتشروا فى أرجاء الأرض يعلمون الناس آداب هذا الدين الكريم وشرائعه ، وهم ما فتئوا يسألون ، ويسألون ويتحاورون ويبحثون . وجماعات من العرب بقيت مع الماضى ما برحت تذكره وتتغنى به ، وتكثر من الحديث عن أيام جاهليتها ، وما قيل فيها من منظوم ومنثور ، فكان القرآن الحكيم وأحاديث النبى صلى الله عليه وسلم ومأثور أصحابه وخلفائه وما تخلف من أدب العرب فى جاهليتهم وتحدث به من أدركوا الاسلام منهم ، هى مادة البرنامج الحديث لتلك المدرسة الأدبية العربية الاسلامية الجديدة التى أسسها الاسلام .

ففى أيها وجد الأدب حجته تلقاها واثقا بها مطمئنا إليها ، فإذا لم يجد البحث فى القرآن الكريم نصا يثبت مادة « الأدب » فليس ذلك سببا ينهض للدلالة على عدم عرفان لغة العرب لهذه المادة قبل الاسلام ، لأن القرآن لم يجمع ألفاظ اللغة كلها ، ولیس هو معجما للغة حتى يفرض فيه النص على كل مادة لغوية .

وإذا وطىء لأنصار البحث (الثائر) أن يجدوا منفذا الى التشكيك فى صحة بعض النصوص الأدبية فى العصر الجاهلى ، فليس من السهل التسليم لهذا التشكيك فى عصر صدر الاسلام .

وحديث « أدّبنى ربى فأحسن تأديبى » وإن لم يرتفع فى متنه الى الصحة القاطعة لكنه لم ينزل عند ثقات المحدثين الى الوضاعة الكاذبة ، وعدم ثبوته بلفظه عن النبي صلى الله عليه وسلم لا يمنع الاحتجاج به فى إثبات وجود مادة « الأدب » فى صدر الاسلام ، لأنه على فرض أن الراوى رواه بالمعنى وعبر عنه بعبارة من عنده ، فهو لم يفتجر ألفاظه افتجارا ، وإنما المعقول أن يكون التعبير عنه بألفاظ معروفة متداولة فيما بينهم ، وذلك يكفى لإثبات وجود مادة « الأدب » فى صدر الاسلام ، وهذا النص لانتشبث به تشبث الغريق بعود الحلفاء ، وإنما نستأنس به استئناس الغريب ببلد سمع لحن قومه وبلده .

والحديث مروى فى مقدمة « النهاية » لابن الأثير فى سياق يختلف به معناه عما يفهمه كثير من الباحثين ، فإنهم يفهمون منه : التعليم والتخلق والتهذيب ، وسياق ابن الأثير يفيد أنه يراد منه بعض المعنى الاصطلاحى (الفنى) للكلمة . وعبارته : « وقد عرفت أيدك الله وإيانا بلطفه وتوفيقه — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أفصح العرب لسانا وأوضحهم بيانا ، وأعذبهم نطقا ، وأسدهم لفظا ، وأبينهم لهجة ، وأقومهم حجة ، وأعرفهم بمواقع الخطاب ، وأهداهم الى طرق الصواب ، تأييدا إلهيا ولطفا سماويا ، وعناية ربانية ورعاية روحانية ، حتى لقد قال له على بن أبى طالب كرم الله وجهه وسمعه يخاطب وفد بنى نهد : يارسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره . فقال : أدبنى ربى فأحسن تأديبى ، وربيت فى بنى سعد » .

ولو قدرنا عدم صحة هذا الحديث بلفظه فليس ذلك بمضير للبحث ، لأننا عثرنا على حديث يرتفع بنصه الى مقام الصحة عند الثقات رواه الترمذى فى سننه وهو قول النبي

صلى الله عليه وسلم : « ما نحل والد ولده من نحل أفضل من أدب حسن » وهو يذهب بالمادة مذهبا آخر فى صيغتها ومعناها، لأنه يذكر كلمة « أدب » وهى نص فى موضع النزاع — كما يقولون — ويستعملها بمعنى التهذيب والتربية الخلقية ، وهذا أقرب المعانى الى المعنى (الفنى) الاصطلاحى .

وهذا حديث ثان لا ينزل عن مرتبة الصحة الراجحة ، يرويه أصحاب الصحيح عن عبد الله بن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « إن هذا القرآن مأدبة لله تعالى ، فتعمدوا مأدبته ما استطعتم وإن أصفر البيوت لبيت أصفر من كتاب الله » .

قال السيد المرتضى فى أماليه شارحا لهـذا الحديث : « المأدبة فى كلام العرب هى الطعام يصنعه الرجل ، ويدعو اليه الناس ، فشبه النبى صلى الله عليه وسلم ما يكتسبه الانسان من خير القرآن ونفعه وعائدته إذا قرأه وحفظه بما يناله المدعو من طعام الداعى وانتفاعه به ، يقال قد أَدَب الرجل يأدِب فهو آدب إذا دعا الناس الى طعامه وشرابه ، ويقال للمأدُبة المدعاة ، وذكر خلف الأحمر : أنه يقال فيه أيضا مأدبة بفتح الدال : قال طرفة العبدى :

نحن فى المشتاة ندعو الجفلى لاترى الآدب فينا ينتقر

وقال الهذلى يصف عقابا :

كأن قلوب الطير فى جوف وكرها نوى القسب ملقى عند بعض المآدب

أراد جمع مأدبة . وقد روى هذا الحديث بفتح المأدبة ، وقال الأحمر : المراد بهذه اللفظة مع الفتح هو المراد بها مع الضم ، وقال غيره: المأدبة بفتح الدال مفعلة من الأدب معناه أن الله تعالى أنزل القرآن أدبا للخلق وتقويما لهم .

فأنت تراه قد صرف الكلام وأداره كله على لفظة « المأدبة » من الحديث ، وهذا يدلنا على عراقة هذه المادة فى لغة العرب ، وأنها صحيحة الورود عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ولو أن شيئا من الشك أو الضعف لابس هذا الحديث بنصه لنبه عليه

الثقات ، ولكان السيد المرتضى يشير اليه على الأقل فى صدد نقل أقوال العلماء فى معنى المأدبة وتفسيرها .

وهذا حديث ثالث يرويه صاحب الأغانى وكتب السير فى قصة مقتل أبى جهل يوم بدر : أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يصف لأصحابه أبا جهل بصفة تميزه من بين قتلى المشركين فقال : « انظروا إن خفى عليكم فى القتلى الى أثر جرح بركبته فإنى ازدحمت أنا وهو يوما على مأدبة لعبد الله ابن جدعان ، ونحن غلامان ، وكنت أشب — أو أشف — منه بيسير ، فدفعته على ركبتيه فخدش فى إحداهما خدشا لم يزل أثره فيها بعد » . وهذا الحديث يجرى ذكره فى هذا البحث مجرى الشاهد الأدبى الذى يعتضد بغيره .

وأما الكلام المأثور عن الخلفاء وعلماء الصحابة وأدبائهم فلا يكفى لرفضه أو الشك فيه هذا الكلام المجمل الذى لا يستند الى حجة . ونحن إذا قرأنا كثرة النصوص التى استعملت فيها هذه المادة أيام الخلفاء وعصر الصحابة ، أحسسنا إحساسا لا يخلو من قوة بأن مادة الأدب كانت معروفة لهذا العهد متداولة فى معانيها المختلفة . ومن ثم نرجع من طريق الصقل الزمنى الى العصر الجاهلى دون أن يستطيع البحث تحديد الوقت الذى ظهرت فيه من ذلك العصر ، لأن النصوص القاطعة تعوزنا لإثبات أولية هذه المادة ، غير أنى أؤمن إيمانا قويا أنها تتصل اتصالا وثيقا بحضارات العرب فى اليمن والعراق والشام ، ومكة ويثرب ، وقد يصح أن يكون عرب البوادى ظلوا بعيدين عن تداولها ما داموا فى عزلتهم ، أما بعد نشأة تلك المجتمعات الأدبية فى أسواق العرب وأنديتهم وحول البيت الحرام ، فبعيد ألا يكونوا قد عرفوها وتداولوها فيما بينهم ؟

صادق ابراهيم عرجون

الاسلام والطب الحديث

بحوث دينية علمية

— ٤ —

قال تعالى : « تولج الليـل فى النهار وتولج النهار فى الليـل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب » آل عمران الآية ٢٧

قيل فى تفسير ذلك : إنشاء الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان ، ولـكن النطفة هى حيوانات حية ، وكذلك خلق الحيوان من النطفة ، فهو خلق حى من حى ، فلا تنطبق عليه الآية الـكريمة على هذا التفسير ، والله أعلم .

فإذا قيل إن معنى الآية خلق آدم من طين أى خلق حى من ميت فهذا صحيح ، ولـكنه ليس المقصود من الآية ، والله أعـلم ، لأنها تشير الى أن الخلق شىء عادى يحصل يوميا بدليل ورودها بعد « تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل » بالتعاقب ، وهذا شىء اعتيادى . فالله يضرب لنا مثلا نشاهده يوميا ودائما .

والتفسير الحقيقى هو «إخراج الحى من الميت» كما يحصل يوميا من أن الحى ينمو بأكل أشياء ميتة ، فالصغير مثلا يكبر جسمه بتغـذية اللبن أو غيره والغـذاء شىء ميت ، ولاشك فى أن القدرة على تحويل الشىء الميت الذى يأكله الى عناصر ومواد من نوع جسمه بحيث ينمو جسمه هو أهم علامة تفصل الجسم الحى من الجسم الميت . وقد كتب علماء الحيوان فقالوا : إن « النعجة » مثلا تتغذى بالنبات ، وتحوله الى لحمها ، وهذه أهم علامة على أنها حية ، وكذا الطفل يتغذى باللبن الميت ويحوله الى جسمه الحى .

وأما إخراج الميت من الحى فهو الإفرازات مثـل اللبن (وإن شئت فلحوم الحيوانات أيضا والنباتات) فإن اللبن سائل ليس فيه شىء حى (بخلاف النطفة فإن

فيها حيوانات حية)، وهذه تخرج من الحيوان الحى، وهكذا ينمو الحى من الميت، ويخرج الميت من الحى، والله أعلم بمراده [١].

***

قال تعالى: « ورسولاً الى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله » الآية ٤٩

« إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » الآية ٥٩

« بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين » الآية ١٢٥

لقد وضعتُ هذه الآيات بعضها مع بعض لأنها من نوع واحد فى إظهار قدرة الله بالنسبة للانسان، وقد اعترض على عمل الطين بشكل الطير، لأنه لا لزوم لذلك ما دام الله قادراً على إحيائه الخ. والحقيقة أن فى ذلك حكمة عالية، لأن الانسان خلق محدود الإدراك والحواس، ولا يفهم ولا يرى ولا يسمع إلا ما كان فى متناول إدراكه، فإن رأى شيئا فوق طاقته اجتهد فى أن يرده الى شيء يعرفه، فإن لم يمكن بقى متحيراً، وإن تكرر ذلك أدى الى اضطراب فى الأعصاب قد يكون خطرا. وهنا يُلحَظ لطف الله فى أنه لا يظهر قدرته للانسان إلا بطريق التدرج، وهذا يلاحظ فى كل المعجزات على الإطلاق، لأن الله تعالى يخلق الطير من الطين ومن غير الطين، سواء أكان فى شكل الطير أم لم يكن. وكذلك لا داعى للنفخ لأن طريقة الإرادة الإلهية هى « كن فيكون » ولكن الله يقرب فهم الإرادة بهذه الطريقة، لأن الطين إذا كان

(١) ننشر ما ذكره الدكتور على أنه رأى له. وقد قيل إن معناه يخرج الانسان الحى حياة علمية وقلبية من رجل يعتبر ميتا لتجرده من هذه المواهب، ويخرج المجرد من هذه الحياة الروحية من رجل حاصل عليها على أكمل حال.

بشكل الطير يشتبه فيه الانسان بالطير الحقيقى ولا يكون هناك فرق بينهما إلا الحياة مع أن ذلك كل الفرق ، وبعدها ينفخ فيه .

وعملية النفخ تجعله ينتظر تغييرا كما يحدث فى أشياء كثيرة مثل الكرة إذا نفخ فيها وغير ذلك ، فعند وجود الروح فى هذا الهيكل الطينى تكون الصدمة قد انكسرت حدتها بانتظار حدوث شىء مهم ، مع أن كل هذه المقدمات لا دخل لها مطلقا فى وجود الحياة والروح .

وهذا هو بنفسه ما يحدث عند إبراء الأكمه الخ ، لأن ذلك قد يحدث من نفسه أو بواسطة طبيب فى حالات عصبية مخصوصة (غير عضوية) ، ولهذا يشتبه فيها الناظر .

وللمعارضين أن يقولوا إنها ليست معجزة لأننا نراها على أيدى أشخاص كثيرين ، مع أن الفرق بين إبراء الأعمى الذى فقد بصره بفقد العين نهائيا ، وبين إبراء الأعمى المصاب بالهستيريا الخ مثلا ، يشبه الفرق بين الطين الذى فى شكل الطير والطير الحقيقى ، ولكن الله تعالى أراد أن يفهم الانسان بذلك قدرته تدريجيا ، فالانسان أولا يشك ويقول ربما كان كل هذا من الأشياء العادية التى ليست فوق قدرة الانسان ، وربما كانت شيئا غير عادى ، ولكن الله يقول بعد ذلك : وأحيي الموتى ، لكى لايدع مجالا للشك مطلقا .

إننا نجد هذه الطريقة نفسها فى تاريخ سيدنا عيسى عليه السلام ، لأنه خلق من نطفة الأم فقط ، وفى العالم المادى لا يمكن أن يخلق الحيوان إلا من نطفتى الأب والأم .

ولكن الطريقة التى ولد بها سيدنا عيسى كانت بحيث لا تكون صدمة لعقول المعاصرين ، ففقد اتهم هؤلاء السيدة مريم مدة من الزمن ، لأنهم بطبيعتهم فسروا ولادته أو اعتبروها كولادة الناس عامة ، ولكنهم أخذوا يفهمون الحقيقة تدريجيا عند ما اقتنعوا بصحة المعجزات الأخرى التى أتى بها المسيح . وقد وصلوا الى هذا الفهم على الرغم من أن عيسى خلق من أم فقط ، ولكن خلقه على هذه الصورة لا يقل

عن خلق آدم من طين ، لأن نظام الكائنات يجرى على سنة واحدة لا تتخلف أبدا إلا حيث يريد الله ، ومتى أراد الله ، فلا معنى لطريقة خاصة ، ولا حاجة الى واسطة إلا بقدر الإقلال من تأثير الصدمة على الانسان كما بيّنّا .

وهنا يظهر جليا معنى قوله تعالى : « بخمسة آلاف من الملائكة » الآية ، وهى التى طعن فيها أيضا بدعوى أنه ما دام الله تعالى يريد نصرتهم فذلك لا بد أن يحدث بدون حاجة الى إرسال ملائكة ، ولكن إرسال هذه المساعدة وتعيين عددها الخ هو لتقريب طريقة النصر لفهم الانسان ، فلا يقع فى الحيرة ، وأما عمل الله فهو فوق إدراكنا ، ولا يمكننا أن نفهم منه إلا « كن فيكون » .

وكذلك الحال فى عصا موسى التى استعملها مع الساحرين وشق بها البحر لتخفيف وقع الصدمة على الحاضرين ، فهذه الحال لا تختلف ، فى رأى العين ، عن عصا الساحر ، ولكن أثرها يختلف اختلافا كلياً .

وكذا حمل امرأة سيدنا زكريا ، التى ذكرها القرآن فى سورة مريم ليمهد بها لقصة سيدنا عيسى : لا تقل فى الإعجاز عن كل المعجزات ، ولكنها ملطفة لأن الناس كثيرا ما يشاهدون العاقر تعالج وتلد وكذلك الشيخ الكبير ، ولكن عقمها كان لسبب حقيقى كالذى فقد رجليه ، ولكن الله جلت قدرته أراد اللطف بعباده .

ولمنع التكرار سأورد هنا آيات من مريم لعلاقتها بسيدنا عيسى : قال الله تعالى : « فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا . قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا . قال إنما أنا رسول ربكِ لأَهب لك غلام زكيا . قالت أنّى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا . قال كذلكِ قال ربكِ هو علىّ هيّن » .

وهذه المعجزة كما قلنا لطف الله فيها بمريم فأراها ملكا فى شكل بشر ، وقال لها سأهب لك غلاما ، فأجابت بأن هذا غير ممكن لأنه لم يمسسها بشر ، ولكن رؤية الملك والظروف المحيطة برؤيته أوجدت عندها بعض الشك فى أنها ربما حملت ولكن بطريقة غير عادية ، وهذا ليهيىء عقلها لاحتمال صدمة الحمل عند ما يحصل .

« والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا » : هذا ليهيء أفكار الناس ويقلل من صدمة المعجزة ، وكأن الله تعالى يقول لنا إن النفخ أخذ مكان نطفة الرجل مع أن تمثل الملك بالبشر ليس إلا مثل تشكيل الطين بالطير ، و « النفخ » فى حكاية سيدنا عيسى ليس إلا كالنفخ فى الطين ، وكل ذلك لتقريب فهم المعجزة .

والحقيقة أن سيدنا عيسى خلق من نطفة السيدة مريم ، والجزء الآخر الذى يمثل الرجل خلق بإذن الله وقدرته ، ولا يمكننا أن نعرف أكثر من ذلك « كن فيكون »

وأهمية الحادث هى ليست فى خلق إنسان لأن الآلاف تولد يوميا ، ولكن الأهمية هى فى أن السنن التى خلقها الله وكفل لها الاستمرار وعدم التبديل ، والتى وجدبها العالم كله ويسميها الطبيعيون الطبيعة « وان تجد لسنة الله تبديلا » قد بدلت ، وهذا لا يكون ولا يمكن أن يكون ، إلا بالقدرة الإلهية التى تضع جميع السنن ، أى أن سيدنا عيسى خلق بسنة جديدة ، فخلقه بمثابة « بدء الخلق » تماما ، وهذا هو السبب فى أن ولادته وحياته كانت صدمة شديدة للذين كانوا فى عصر ولادته من الناس ، وللذين جاءوا من بعدهم ، حتى إن أمما فتنت وقالت إنه ليس بشرا مثل آدم بل هو ابن الله ، وأن ولادته مع ما صحبها من الملطفات قسمت الأمم شيعا ، ولكن هذه إرادة المولى « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة » . دكتور عبد العزيز اسماعيل

الرضاء بالظاهر من المودة

ارض من المرء فى مودته	بما يؤدى اليك ظاهره
من يكشف الناس لم يجد أحدا	يصح منه غدا سرائره
يوشك أن لا يتم وصل أخ	فى كل زلاته تنافره
إن ساءنى صاحبى احتملت وإن	سر فانى أخوه شاكره
أصفح عن ذنبه وإن طلب العذ	ر فانى عليه عاذره

فلسفة الاخلاق

وصلتها بالنفس الناطقة — أثر ذلك فى المجتمع الانسانى

نريد فى هذا البحث أن نعرض ولو لماما الى شوق النفس وما يصدر عنها من الأفعال المميزة لها عن النفوس غير الناطقة ، فشوق النفس الى العلوم والمعارف فضيلة من فضائلها ، بل هى الفضيلة العظمى التى أربت على كل فضيلة ، منذ قيام البشرية فى الأرض بعبء التكاليف .

وعلى مقدار طلب الانسان لهذه الفضيلة واستلهام الأصلح منها فى شتى مناحيها والتغلب على العوائق التى تقطعه عنها ، يكون نجاحه فيها . وقد أبنا فى البحث السابق ما هى تلك العوائق التى تقف عقبة فى سبيل النهوض بهذه الفضيلة .

وبدهى أن الفضائل من حيث هى كذلك لا يستطاع تحصيلها إلا بعد أن تخلص النفوس من الرذائل التى هى أضداد تلك الفضائل ونقائضها ، وهى شهواتها الثائرة الجسمانية ، ونزواتها الفاحشة البهيمية . ذلك لأن الغرض المقصود من وجود الانسان حين يتوجه اليه هو ما يجب أن يسمى الشخص به خيِّرا أو سعيدا . أما من عاقته العوائق وصرفته الصوارف عن بلوغ ما يحصله من مميزات الانسان الذى يحمل النفس الناطقة ، فهو الشرير أو الشقى .

فالمميزات إذاً هى التى تحصل للانسان بإرادته وفعله واختياره وسعيه فى الأمور التى من أجلها وجد الانسان وقام بمهمة عمارة الكون وتحرى أفضل برامج الحياة .

وقد قسم الفلاسفة الأولون الأخلاق الى أقسام شتى ، فمنها ما هى شريفة ، وسيأتى طرف ، ومنها ما هى ممدوحة ، ومنها ما هى بالقوة كذلك .

ولقد سبق لنا أن أبنا لحضرات القراء أن كل موجود من الموجودات له كمال خاص وفعل لا يشاركه فيه غيره من الموجودات . وهذا الحكم مستمر فى الأمور العلوية

والسفلية كالشمس وسائر الكواكب ، وكأنواع الحيوانات والنبات والمعادن . ولكن الانسان من بين سائر الموجودات له فعل خاص لا يشاركه فيه غيره وهو ما صدر عن قوته المميزة العاقلة ، فكل من كان تمييزه أصح ورويته أصدق واختياره أفضل ، كان أكمل فى إنسانيته وأبلغ فى معقوليته وأفعل فيما يترتب عليها من الآثار .

وكما أن السيف والمنشار مثلا ، وإن صدر عن كل واحد منهما فعله الخاص وهو القطع بالقياس الى كل واحد منهما منفردا عن صاحبه ، يختلفان فى كيفية القطع وسرعته وبلوغ الغاية منه على أكمل وجوهها ، فكذلك الانسان بالقياس الى ما دونه من بنى جنسه ، وكذلك الشأن فى الفرس والبازى وسائر الحيوانات ، فان أفضل الأفراس ما كان أسرع حركة وعدوا وأشد نشاطا وتيقظا لما يريده الفارس منه من طاعة اللجام وحسن القبول فى الحركات وخفة العدو والنشاط ، فكذلك الناس أفضلهم من كان حريصا على أفعاله الخاصة به وأشد تمسكا بشرائط جوهره الذى تميز به عن الموجودات . وإذاً يكون من الأحرى بكل ذى مسكة من العقل أن يحرص الحرص كله على الاستمساك بأسباب الخير ومصادره ، وأن يفر بدينه وعرضه وخلقه من أسباب الشر وبواعثه ليستكمل من الحيانين أوفر حظ وأوفى نصيب ، فان الحيوان كالفرس مثلا إذا بدا منه تقصير عن الحد الذى يحفظ له نعت الفرسية وانحط عن الفضل المتمم لماهيته بحيث لم تظهر مميزاته اللاصقة به على أكملها وأتم وجوهها ، انحدر الى مرتبة الحمر وكان خليقا أن يؤخذ بالأكاف ، وأن يساق بالعصا كما تساق الحمر .

وكذلك حال السيف وسائر الآلات متى قصرت عن أداء ما يحفظ لها نعوتها انحطت عن مراتبها الى ما دونها واستعملت استعمالا يتفق وما هبطت اليه من غير مستواها الموجهة اليه . فالانسان إذا نقصت أفعاله وقصر فيما خلق له وقامت فى وجهه الصوارف لفعله الصادر عنه باختياره بحيث تكون أفعاله الصادرة عن رويته غير بالغة حد الانسانية المهذبة العاقلة ، انحط الى مرتبة البهائم والتحق بأصناف ليست من صنفه .

أما إذا صدرت عنه تلك الأفعال مضادة لأنواع الخير بحيث تكون مظاهر

من الشر ومجموعة غير صالحة من الرذائل التى من شأنها أن تصرفه عما عرض له من تزكية نفسه وصقلها فى قالب من الخير ينتهى به الى الملك الرفيع والجاه المنيع والسرور السرمدى والعيش الرضى ، وانخدع عن هذه الموهبة السرمدية الشريفة بتلك الحساسات الوقتية التى لا ثبات لها ، كان خليقا بالمقت من خالقه ، حقيقا بالرثاء له .

وإذا تجلى للناظر أن سعادة كل إنسان تكون بالقياس الى ما يصدر عنه من الأفعال المميزة للانسان والتى هى جزء من مقوماته ، وأن لهذه السعادة المترتبة عما يصدر عنه من الأفعال مراتب كثيرة بحسب الروية والمروّى فيه ، ولذلك قيل : أفضل الروية ما كان فى أفضل مروّى ، ثم ينزل رتبة فرتبة الى أن ينتهى الى النظر فى الأمور الممكنة من العالم الحسى ، فيكون الناظر فى هذه الأشياء قد استخدم رويته والصورة المميزة له التى بها صار سعيدا مستأهلا للملك الأبدى والنعيم السرمدى بالقياس الى أشياء دنيئة وأمور تافهة لاثبات لها ولا ظل لها من الحقيقة ، فقد تبين أن هنالك أجناسا من السعادات على الجملة ، وأن أجناسا من الشقاوات على الجملة ، تنحل هذه وتلك الى جزئيات بحسب ما يصدر عن الانسان من العوامل الموجبة أو السالبة ، وبحسب ما تتفاعل به نفسه منساقة بعوامل الخير أو بدوافع الشر ، وكل ميسر لما خلق له ، وأن الخيرات والشرور فى الأفعال الارادية هى إما باختيار الأفضل والعمل به ، وإما باختيار الأدون والميل اليه .

ولما كانت هذه الخيرات الانسانية وملكاتها التى فى النفس كثيرة ولم يكن فى طاقة الانسان الواحد القيام بجميعها ، وجب أن يقوم بجميعها جماعة كثيرة منهم ، ولذلك وجب أن تكون أشخاص كثيرة وأن يجتمعوا فى زمان واحد على تحصيل هذه السعادات المشتركة لتكميل كل واحد منهم بمعاونة الباقين له ، فتكون الخيرات مشتركة والسعادة معروضة بينهم فيتوزعونها . ولأجل ذلك وجب على الناس أن يحب بعضهم بعضا ، لأن كل واحد يرى كماله عند الآخر ، ولولا ذلك لما تمت للفرد سعادته ، فيكون إذاً كل واحد بمنزلة عضو من أعضاء البدن ، وقوام الانسان بتمام أعضاء بدنه .. عباس طه

الاسلام والمسيحية

اطلعنا فى المجلة الاسلامية التى تصدر بلندن باللغة الانجليزية على محاضرة تحت هذا العنوان، فرأينا نقلها الى العربية لما حوته من المعلومات القيمة عن المدنية الفاضلة التى أوجدها الاسلام، فاليك :

يتناول الموضوع الذى سأتكلم فيه الليلة، المقارنة بين دينين، والمقارنات، كما تعلمون، من الأشياء غير المرغوب فيها والتى تكتنفها المصاعب. ولكن كثيرين من المسيحيين قد قاموا فعلا بالمقارنة بين الدين الاسلامى والدين المسيحى، فكانت الصورة التى صوروها عن الاسلام ناقصة، وكان من الإنصاف أن أسهب ولو قليلا فى جلاء الحقيقة فى هذه المحاضرة.

جاء الدين الاسلامى فى القرن السابع بعد الميلاد وكانت المسيحية إذ ذاك، على حد قول سير وليم موير، واهنة فاسدة عاجزة من جراء الشقاق والانشقاق بين معتنقيها، وكانت قد استعاضت عن التعاليم القديمة الصحيحة بالخرافات والخزعبلات الصبيانية، وكان العالم المتمدن فى ذلك الوقت على حافة الدمار، وكانت المدنية كشجرة ضخمة متعفنة لا تقوى على الوقوف، وكانت بلاد العرب أقتم بقعة فى عالم مظلم، كان يسكنها شعب لا يعرف قانونا سماويا ولا دنيويا، ولا يفتأ يلجأ فى كل حين الى ضروب من الفتك وسفك الدماء.

وولد محمد، رسول الدين الاسلامى فى هذا الشعب، وعرف فضله فى داخل بلاده وفى خارجها على السواء، فقد أصبح لبلاد العرب تحت زعامته دين واحد وقانون واحد، ثم انتشر هذا الدين وهذا القانون من بلاد العرب الى العالم شرقا وجنوبا. قال كارليل :

« إنه لم يمض قرن على ظهور الاسلام حتى أخذ يتألق نجم بلاد العرب ويضيء شطرا كبيرا من العالم ثم ظل كذلك عصورا طويلة ».

إنكم تعرفون أنه لما جاء الاسلام كانت المسيحية مستندة الى سلطان الأمبراطورية الرومانية ، كما كانت قائمة على التقاليد المجيدة لليهودية واليونانية والرومانية . ولكن الاسلام على الرغم من ذلك ، كان يتقدم فى كل ناحية وصوب ، فنقص نفوذ المسيحية وأصبح للمسلمين فى جميع أنحاء العالم مقام خطير ، ولم تستطع المسيحية منافسة الاسلام لا فى السياسة ولا فى الإدارة ولا فى الثقافة العلمية ، على الرغم من أن المسيحية كانت الوارثة الوحيدة لثلاث مدنيات عظيمة. ومن سوء الحظ أننا نجد هذا الماضى المجيد مدفونا فى بطون التاريخ لا يلم به كثير من المسلمين ولا غير المسلمين ، حتى ليحسب الانسان العادى أنه يستحيل على الاسلام أن ينافس المسيحية فى معترك الحياة فى أى وقت من الأوقات .

إن آلافا من وعاظ المسيحية الغيورين الذين يقررون بأن الحياة الدنيا حياة غواية وغرور ، يحاولون فى هذه الأيام إقناع الناس بتفوق المسيحية على الاسلام ، مستندين فى ذلك الى المدنية الراهنة المتصلة ، صح ذلك أو لم يصح ، بالديانة المسيحية ، كأن الاسلام لم يكن له من التاريخ المجيد ما يفاخر به سواه . ولقد وضعت مئات من الكتب فى أن الاسلام لا يصلح دينا لمجتمع متمدين ، كأن الاسلام لم تكن له مدنية ، وكأن المسيحيين كانوا دائما ، كما هم اليوم ، متمدنين ، وكأن الحضارة الحالية لم تك إلا ثمرة التعاليم المسيحية .

لذلك أرى أن أطلعكم على شيء من ماضى الاسلام ، وأن أذكركم ببعض الظواهر الواضحة للصلات التى تربط المسيحية بالمدنية الحاضرة . إذن فلنحلق معا فوق التاريخ القديم لنشهد شيئا من مجد الحضارة الاسلامية . ولنهبط ، كما هبط السندباد البحرى ، على شاطئ دجلة ببغداد المعروفة فى كتاب ألف ليلة : كانت بغداد فى العصر العباسى

عاصمة الاسلام ، وعين العراق ، ومقر الأمبراطورية ، وموطن الجمال والفن والثقافة .
وكان المنصور فسيح التصور ، سليم التصرف فى حكومته ، كما كان كذلك أيضا فى عضده ورعايته للفنون . ومما يحكى عنه أنه دعى مرة أمام قاضى المدينة بناء على طلب أصحاب الجمال ، فحضر بنفسه اعترافا بمساواة الناس جميعا أمام القانون ، ولم يكن فى صحبته غير أمينه ، ثم وقف أمام القاضى كأحد المتقاضين العاديين فلم ينهض القاضى للقائه .
وجاء الحكم فى صالح المدعين ، فكافأ المنصور القاضى اعترافا بنزاهته ، وإكباراً لحرية القضاء . هذا الملك هو الذى عمل على جعل بغداد مركز العلم والثقافة ، وأسس بها قسما لترجمة المؤلفات العلمية الى اللغة العربية .

ونسج هارون الرشيد على منوال جده بقدرة وكفاية ، فاعترف له المؤرخون بأنه من أعظم الحكام فى جميع العصور . وكان الموسيقى ابراهيم الموصلى وجبرائيل الطبيب من بين الرجال البارزين الذين ازدهر بهم عصره ، وكان الرشيد نفسه شاعرا ، فكان يميل بطبعه الى الشعراء ويكافئهم . ولقد أنشأ المواصلات بين بلاده والبلاد الغربية ، وبين بلاده وبلاد الشرق الأقصى . وكان أول من قبل فى بلاطه السفراء من أمبراطور الصين ومن شارلمان ، وتعد الساعة العجيبة التى أهداها الى شارلمان عملا عجيبا من أعمال الميكانيكا حتى فى وقتنا هذا .

أما خلافة المأمون فقد كانت عصرا من أبهى عصور التاريخ العربى ، إذ قد خلفت سنو حكمه العشرون آثارا باقية من التقدم الفكرى للمسلمين فى جميع نواحى التفكير ، فلم يقتصر تقدم العرب على فرع من فروع العلم أو الآداب ، بل كان شاملا الفلسفة النظرية والأدب والعلوم والرياضة والفلك والطب وغير ذلك . وقد أخذت أسبانيا العربية والقسطنطينية المسيحية عن العرب هذا الميراث المجيد ، ثم أخذته عن هؤلاء أوربا الحديثة .

ويجب أن لا ننسى للمأمون حسنة من حسنات شهرته الخالدة ، ألا وهى تسامحه

وحكمته السياسية . فقد أقام مجلسا للحكومة أو برلمانا مكونا من ممثلين يمثلون جميع الطوائف من مسلمين ومسيحيين وصابئين وشيعة زرواستر وهندوس ، وكانت فى أيامه تراعى الحرية الدينية والفكرية مراعاة تامة ، فكانت توجد نحو أحد عشر ألف كنيسة مسيحية ومئات من المعابد اليهودية ، فلم يحاول قط مصادرة مواردها أو تجريد قسيسها من حقوقهم وامتيازاتهم .

وكان يشرف على الترجمة من الاغريقية والسريانية والكلدانية كوستا بن لوقا ، وكان يشرف على الترجمة من الفارسية القديمة يحي بن هارون ، ومن السنسكريتية دوبان البرهمى . ولقد قاس العرب حجم الأرض لما كانت أوربا المسيحية تؤكد أنها منبسطة . واخترع أبو الحسن المنظار المقرب (التاسكوب) وأقام المأمون أول مرصد بالشماسية بسهول تدمر .

والعرب هم مخترعو الابرة المغناطيسية (البوصلة) التى أمكنتهم من السفر الى كانى وجزر الملايا لا سيما جاوه وباتافيا حيث نجد الآن ذرية العرب . ووصلوا جنوبا الى مدغشقر واستعمروا أفريقية الشرقية حيث نجد بقايا أمبراطوريتهم القوية فى سلطنة دار السلام . ووصلوا شرقا الى مولتان فى الهند وغربا الى اسبانيا وجنوب فرنسا واستولوا على صقلية ومالطة ، ولا تزال آثارهم بها الى الآن .

وفى عصر الخلفاء العباسيين تفوق العرب فى جميع الصناعات وشجعها خلفاؤهم ، فكانت بالبصرة مصانع للزجاج والصابون ذات شهرة عالمية بزت مصانع البندقية المنافسة لها فى ذلك الزمن . وقد أنشأ المعتصم مصانع جديدة فى بغداد وسامرا وغيرهما من المدن الهامة . وكان العرب يستقدمون العمال المصريين لصنع الورق فى بغداد فى الحين الذى كانت فيه المصانع الملكية لصناعة التطريز والزركشة بخيوط الذهب والفضة تزدهر فى أصفهان وتبريز . أما سمرقند وبخارى ودمشق وخراسان وشيراز ، فقد كانت معروفة بأنوالها لنسج الحرير والساتان والسجاجيد .

وكانت الأمبراطورية العربية غنية أيضا بما تنتجه من المواد الأولية ؛ كالقمح والشعير والأرز والبلح والفاكهة بمختلف أنواعها . أما القطن فكان يزرع فى حلب وبيروت وكيلات وصور ، كما كان يزرع قصب السكر ويكرر فى الأهواز وفارس .

وأنشئت الجامعات والمستشفيات فى جميع البلدان الكبيرة حيث كان التعليم والعلاج مجانا للفقراء . فبنى نظام الملك الجامعة النظامية ، وبنى المستنصر بالله الجامعة المستنصرية كما يعرف ذلك طلبة التاريخ .

ولقد ازدهرت أسبانيا تحت حكم الأمويين ، وليس فى الامكان سرد أعمالهم التى كانت جرثومة الثقافة العالمية سردا وافيا ، ولكنى سأكتفى بسرد قليل من الحقائق لتعلموا الى أى مدى نحن مدينون لهم اليوم :

لقد وضع الرازى كتابا شاملا عن الجدرى ، وكان الجزء التاسع من هذا الكتاب العظيم المرجع الذى يرجع اليه الأساتذة فى إلقاء محاضراتهم بالجامعات الأوربية . وتعلمون طبعا أن أعظم اسم فى الطب العربى هو اسم ابن سينا المعدود أحد أعاظم الأطباء والفلاسفة فى كل العصور ، إذ كان كاتبا مكثرا ، وكان فى الوقت نفسه عميقا فيما يكتب . ومن بين كتبه نشير الى :

(ا) نفع وفوائد العلوم
(ب) الصحة والأدوية
(ج) مشاهدات فلكية
(د) النظرية الرياضية
(ه) ملخص أقليدس
(و) الطبيعة وماوراء الطبيعة
(ز) دائرة معارف فى عشرين مجلدا .

ووضع أبو القاسم الزهراوى فصلا عن الجراحة ضمنه من التفاصيل مايجعله فى مقدمة السابقين فى هذا العلم .

وفى الحين الذى كانت المسيحية تضطهد علماء الكيمياء وترميهم بالسحر والشعوذة ، كان العرب يتقدمون فى هذا العلم ، فظهر أبو موسى جابر بن حيان أبو الكيمياء

العربية ، فاكتشف حمض الأزوتيك والماء الملكى [1] كما زاد أيضا باكتشافاته ما كان معلوما من طبيعة المعادن عند علماء الإغريق . واكتشف أبو بكر الرازى حمض الكبريتيك . ووضع العرب أساس الكيمياء والصيدلة . قال الأستاذ هلميارد عن هذه البحوث :

« استنبط العرب من المعلومات الأولية التى كان يطلق عليها اسم الكيمياء فى مدرسة الاسكندرية ، علما بأصول أبانوا فيه المرة الأولى العلاقة الصحيحة بين الحقائق التجريبية والنظرية ، فاعترف الناس بفائدة التطبيق العملى لعلم الكيمياء ، وابتدأت أوربا أبحاثها الكيميائية على أساس سليم من الحقائق والنظريات . وكان أتباع النبي هم أصحاب الفضل على أجدادنا ، فلنبادر بالاعتراف لهم بالجميل » .

وتوصل العرب الى صناعة الثلج التى لم تكن معروفة فى أوربا حتى النصف الأخير من القرن السادس عشر .

وكانت تتقدم الرياضة بفضل أبحاث واكتشافات العرب الذين أخذوا الطريقة العشرية عن الهند ، فزادوا عليها ونقحوها . فالجبر مدين بتقدمه الى العرب ، حتى إن ابن موسى فى القرن التاسع تمكن من استبدال الأوتار بالمستقيمات فى علم حساب المثلثات ، واكتشف المعادلات ذات الدرجة الثانية . وكتب الكندى مائتى مؤلف فى موضوعات مختلفة مثل الحساب والهندسة والفلسفة وعلم الظواهر الجوية وعلم الأبصار والطب . ولقد ظلت جداول أبى معشر وأبى وفا المرجع الأساسى فى علم الفلك . كما أن أول مرصد أنشىء فى أوربا كان مرصد إشبيلية تحت إشراف جابر ابن حيان سنة ١١٩٦ . وفى القرن العاشر أنجبت مدرسة القاهرة ابن يونس الفلكى العظيم الذى أتم عمله ابن النبطى ، وكان من مشاهير علم الفلك أيضا .

وذهب الرحالة البيرونى الى بلاد الهند وعاش بين أهلها وتعلم لغتهم وعلومهم وآدابهم

(١) مزيج مكون من حمض الازوتيك والكلورايدريك يذيب الذهب .

وفلسفتهم وعاداتهم وأخلاقهم وقوانينهم ودياناتهم وأساطيرهم ، كما درس أحوال البلاد الجغرافية والطبيعية ، وضمن تلك المعلومات كتابا اقتبس فيه نبذا من شعر هوميروس وفلسفة أفلاطون وغيرهما من رجال الأدب والفلسفة الإغريقية . ثم إنه الى ذلك كان يكتب ويحاضر فى الفلك والرياضة والتقاويم والطبيعة . وجاء بعده عالم قد لا يقل عنه فى المكانة يدعى ناصر خسرو الذى يعد كتابه المسمى « السفرنامه » أمتع كتاب من نوعه ، فقد زار صاحبه أغلب جهات العالم التى كانت معروفة فى أيامه .

أما فى التاريخ فإن أسماء المسعودى والطبرى وابن الأثير دائمة التألق . ولم يكن أبو بكر محمد بن يحيي مؤرخا شهيرا فحسب ، بل كان فيلسوفا ومن رجال العلم أيضا ، فضلا عما أحرزه من التفوق فى الموسيقى ، وقد استطاع إدخال سلم موسيقى يمكن أن يستفيد منه كل شعب . ويمكننا اعتباره الأساس الذى تنبنى عليه الموسيقى فى العصر الحالى .

ويجىء اسم ابن رشد العظيم فى مقدمة علماء الفقه . وابن رشد هذا سليل أسرة من مشاهير القضاة . وكان رئيس القضاة فى كل من إشبيلية وقرطبة على الترتيب . وكان صديقا لابن الطفيل المعروف بعلمه الواسع .

هذا قليل من دلائل المدنية الاسلامية الأولى ، أسرده على سبيل المثال ، ولكننى أرانى مقصرا إذا أنا أهملت الإشارة الى ما قام به النساء المسلمات .

« البقية فى العدد التالى »

الكرم واللؤم

قالت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها : « كل كرم دونه لؤم فاللؤم أولى به ، وكل لؤم دونه كرم فالكرم أولى به » .

معنى هذا الكلام الثمين أن أولى الأمور بالانسان خصال نفسه ، فان كان هو كريما وآباؤه لئام ، لم يضره ذلك ويوصف بالكرم . وإن كان لئيما وآباؤه كرام ، لم ينفعه ذلك ويوصم باللؤم . وهذا حق ويطابق قوله تعالى : « وأن ليس للانسان إلا ما سعى » .

تشريح الاموات

كتبنا فى العدد السابع من هذه المجلة رأينا فى حكم تشريح الميت ، ووازنا بين ما يترتب عليه من المصالح والمفاسد ، ثم رأينا أن المصلحة أرجح من المفسدة ، وكثيرا ما يكون فى التشريح درء مفسدة كبرى مثل دفع تهمة اتهم بها رجل من المسلمين ظلما ، فأبان التشريح أن الميت غير مجنى عليه مثلا ، الى غير ذلك مما هو معروف . وقلنا إن الجواز هنا أولى مما ذكروه فيما إذا ابتلع الميت مالا ، حيث أجازوا شق بطنه وإخراج المال منه إذا بلغ نصاب السرقة أو نصاب الزكاة . فجاءنا من بعض الأفاضل انتقاد على ذلك ، وأنه يجر الى توسعهم فى أذية الميت وإهانته .

ونقول لحضرته ولكل من يدور هذا الخيال بخاطره : إننا حذرنا من ذلك التوسع فى آخر ما كتبناه ، فقلنا مستدركين على ما قررناه ووجهناه ما نصه : « غير أنا نرى أنه لا بد من الاحتياط فى ذلك حتى لا يتوسع فيه الناس بلا مبالاة ، فليقتصر فيه على قدر الضرورة ، وليتق الله الأطباء وأولو الأمر الذين يتولون ذلك ، وليعلموا أن الناقد بصير والمهيمن قدير » .

على أننا صرحنا بأن ذلك مبنى على قياسنا مسألة التشريح على مسألة المال الذى ابتلعه الميت . فإن كان ذلك القياس صحيحا فلله الحمد على توفيقه ، وإن كان غير صحيح فى نظر الفضلاء فهو مردود على مرتئيه . ولا شىء علينا بعد أن نبين أن هذا هو رأينا الخاص . وقد احتطنا فى المسألة فحذرنا من التوسع فى ذلك . فإن كان هناك من لا يصغى الى التحذير أو يخطئ فى التطبيق ، فلا ذنب علينا . وكثيراً ما أخطأ المخطئون فى آيات الله وسنة رسول الله .

أما من لم يبال بما يكتبه العلماء ، فهو سادر فى غلوائه ، غير ملتفت إلا الى آرائه وأهوائه ، سواء أمنعنا أم أبحنا ، كتبنا أم سكتنا ، ضيقنا أم وسعنا ، فإنه بمعزل عن ذلك كله .

وإنا لنكتب مانكتب ونحن عالمون أنه لا ينتفع به إلا من وفقه الله تعالى . وقد قلنا فى بعض ما كتبناه بهذه المجلة مانصه :

« إنا نرى من الاخلاص للدين والعلم أن نقول : إن مثل هذه المسألة محل اجتهاد يصح أن تختلف فيه الأنظار . وإذا رجحنا شيئا فإننا نكتب عن رأينا أو رأى فريق من علمائنا ، والخير كله فى التوسط والاعتدال ، والشر كله فى الإفراط والتفريط ».

وبعد : فنشكر لحضرة الفاضل غيرته وإخلاصه ، ونوافقه على أن الأطباء الآن توسعوا غاية التوسع بلا مبالاة بكرامة الميت ولا مراقبة لله تعالى .

مع أنه قد ورد عن عائشة رضى الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أن كسر عظم الميت ككسره حيا » رواه مالك وأبو داود وابن ماجة .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص الى جلده ، خير له من أن يجلس على قبر » رواه مسلم وأبو داود والنسائى . وعن عمرو بن حزم قال : رآنى النبى صلى الله عليه وسلم متكئا على قبر فقال : « لا تؤذ صاحب هذا القبر » رواه الإمام أحمد .

وسر ذلك أن الروح تدرك ما يفعل بجسدها وتتألم له ، ولكن الشريعة بعد ذلك توازن دائما بين المصلحة والمفسدة فتجعل الحكم لأرجحهما على ما تقتضيه الحكمة ويوجبه النظر الصحيح . فيجب ألا نكون جامدين ، كما يجب أن نكون محتاطين . والله يتولى هدى الجميع ؟

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء

(مجلة الأزهر) تقول فى هذه المناسبة إنه قد وردت الينا مقالة من حضرة الأستاذ الشيخ محمد عبد الوهاب بحيرى من كلية الشريعة يستدرك على مقالة فضيلة الأستاذ الشيخ الدجوى سننشرها فى العدد القادم ، إن شاء الله .

أسرار التشريع الاسلامي وفلسفته

البيـــع

أطبق جمهور الفقهاء على أن البيع يتألف من أركان ثلاثة : صيغة تصور العقد ويتأدى بها ، والعاقد ، والمعقود عليه .

فالصيغة هي إيجاب من أحد المتبايعين وقبول من الآخر ، وقد يكون ذلك بلفظ صريح ، وقد يكون بلفظ كنائى ، وأغراض ذلك كثيرة: منها أن الصيغة فى حقيقتها تدل على الرضا المعنوى المعتبر شرطا فى صحة البيع، لكن لما كان اللفظ الصريح أقطع لشوائب الخصومات ، كان أجدر بالنظر من الكنائى . ومنها أن الله سبحانه أحل البيع والشراء لأنه كما أسلفنا أول عناصر التعامل لمساس حاجة البشر اليه فى مبادلاتهم

أما العاقد وهو كلا المتبايعين والشرط الثانى من شروط صحة العقد ، فقد اشترط فيه التكليف ، إذ لا يمكن للصبى أن يباشر العقد مباشرة تجعله بمنجاة من تطرق الفساد الى ما تم التعاقد عليه ، ويجرى هذا المجرى المحجور عليه .

وأما المتعاقد عليه وهو الركن الثالث والأخير من أركان البيع ، فقد اشترط فى صحته الفقهاء شروطا كثيرة : منها أن يكون ظاهرا للعين من شأنه الانتفاع به لمن ملكه ، وأن يكون مملوكا للعاقد أو مأذونا له فيه ، وأن يكون مقدورا على تسليمه شرعا ، وأن يكون معلوم القدر والوصف والعين ، وأن يكون مقبوضا إن ملك بمعاوضة ، فإن الخمر أو الجيفة مثلا لا يمكن اعتبارهما داخلين فى مسمى البيع ومدلوله ، لأن فى الاتجار بهما شناعة وجناية على الأخلاق . من أجل ذلك اقتضت حكمة البديع الأعلى النهى عن التكسب بالأنجاس وإن كان بعض الفقهاء أباح بيع الكلب والسرجين إذا مست الحاجة الى ثمنهما ، وما لا منفعة منه مظنونة أو متيقنة كالحشرات والهوام والوحوش التى لا تقع

فى الشباك ، فلا يطلبه — كما قال بعض الأثبات من علماء الفروع — إلا أحد رجلين : رجل لايعرف فى تصرفاته الصادرة عنه نفعا ولاضرا ، بل يتخذ جشمه الأشعبى مقياسا لربحه فى كل ما يصدر عنه من تصرفات ؛ ورجل نظر فى نفسه الى فائدة ضمنية لم يفصح عنها فى مجلس العقد ، فالأول لم يكن على بينة من تصرفه ، والثانى مشرف لامحالة على الخيبة والندامة . وإن أمكن الانتفاع به على وجه صحيح كالطيور الحسنة الصورة أو الطيور ذوات الأصوات الشجية ، جاز بيعها ، لأن التفرج من بلابل الصدور من الأغراض المقصودة المباحة . كما يحرم لو كان من آلات العزف واللهو لأنها مظنة الانصراف عن الاشتغال بالشئون الرئيسية فى الحياة ، لأن جريان العقد ببيعه وحل اقتنائه يحمل الناس على المعاصى ويدنيهم من خطائرها ، فما لم يكن مملوكا للعاقد ولا مأذونا له فيه لا يصح تملكه شرعا لفقدان رضا المالك بذلك حين البيع . وغير المقدور على تسليمه شرعا كالمرهون وكالصغير من غير أمه ، أو حسا كالآبق والسمك فى الماء ، لا يمكن تحقيق عقد البيع فيه . وما لم يكن معلوم العين لا يمكن أن يدخل فيما صدق البيع شرعا كبيع شاة غير معينة فى قطيع أو غيرها ، وكذلك ما كان مجهول القدر كبيع زنة هذه الحقيبة ذهبا وهى مجهولة الوزن أو الوصف ، فان فى ذلك كله إبهاما يفضى فى نتائجه الى سلسلة من الخصومات .

وقصارى القول فى ذلك أن ما كان قاطعا للنزاع المترتب على التعاقد يجب أن يكون ظاهرا للعيان مقطوعا بوضوحه ، وقد ضرب الشارع له حدا وهو التفرق من مجلس العقد .

والسر فى وجوبه أنه جعل لتمييز حق كل من المتبادلين ورفع خيارهما فى رد أحد العوضين . فلولا ذلك لأضر أحدهما بالآخر ، ولوقف كل عن التصرف فيما بيده خشية أن يرجع الآخر عليه ، فإن الشارع اعتبره فعلا وهو (التفرق) لا قولا ولا معاطاة ، فإن القول لا يصلح فى ذاته أن يكون دلالة قوية قاطعة فى المراد بالنسبة لهذا العقد ، إذ المساومة لا يمكن خلوها منه إظهارا للرغبة القوية فى المساومة ، وما يدل على إيجاب العقد غير ميسور ، ولا يمكن التعاطى فى العقد لعدم صلاحيته أيضا ، فإن المشترى لامحالة

آخذ ما يطلبه ليحاول التصرف فيه على وجه من أوجه التصرف ، والتمييز بين الآخذين عسير كما لا يخفى ، وظاهر مما تقدم أن إطالته أكثر من مجلس العقد غير ملائم لمصلحة المتبايعين ، فإن كثيرا من السلع يراد الانتفاع به حين البيع بأن تكون فائدته معجلة أو يكون الإبطاء فى استعماله فيه مظنة التلف والهلاك على من بيده . على أن العادة قضت فيما قضت باجتماع العاقدين للعقد فى مجلسه ثم تفرقهما بعده . والناس يرون فى الأعم الأغلب رد المبيع بعد التفرق من مجلس العقد لكثرة ما يداخل النفوس من حب الظلم .

ومن أجل أن التفرق من مجلس العقد كان حدا فاصلا بين الاستمرار فى تنفيذ البيع وبين الرجوع عنه ، وأن مجلس العقد هو محل الخيار كما بينا ، نهى الشارع عن التسلل هربا من الإقالة وفرارا من الاستعفاء ، فإن فى ذلك قلبا للأوضاع المتفق عليها .

عباس طه المحامى

علامات العقل فى الانسان

نظم أحد الشعراء العلامات التى يوزن بها عقل الانسان لدى مخاطبيه فيحكمون له أو عليه وهى :

يعرف عقل المرء فى أربع	مشيته أولها والحرك
ودور عينيه وألفاظه	يعد عليهن يدور الفلك
وربما أخلفن إلا التى	آخرها منهن سميت لك
هذى دليلات على عقله	والعقل فى أركانه كالملك
إن صح صح المرء من بعده	ويهلك المرء إذا ما هلك
فانظر الى مخرج تدبيره	وعقله ليس الى ما انتهك
فربما خلط أهل الحجا	وقد يكون النوك فى ذى النسك
فان إمام سال عن فاضل	فادلل على العاقل لا أم لك

هندى يدعى المعجزات

كتب الينا قارئ فاضل بان إحدى الجرائد ذكرت أن فى جبال ساتبورا بالهند رجلا هندوسيا يدعى النبوة ويحدث المعجزات . من ذلك أن قرية سادهو كانت فى خطر من الجفاف فاهرع أهلها يستنجدون به ، فقام معهم ووضع قدميه فى قاع النهر ففاض الماء من تحتهما وزال خطر القحط بل خطر الموت ظمأ .

نقل الينا ذلك الفاضل هذا الخبر، ورجانا أن نبدى رأينا فيه . ورأينا هو أن هذا الخبر مختلق روجه أتباع ذلك المتنبئ كما يروج أتباع كل نحلة المعجزات عن صاحبها ، وزاده رواة الأخبار مبالغة لالهاء قرائهم بطرائف الأخبار كما هى عادتهم غير متحرجين من نشر الخزعبلات بين الناس .

لانه لو صح أن رجلا يأتى المعجزات فى هذا العصر لحملت أخباره التلغرافات ، ولأمه الباحثون من كل حدب ، ولكتبوا عنه الكتابات الضافية فى الصحف ، شانهم فى كل أمر يهم العلم الوقوف عليه .

إن مكاتبى الصحف الانجليزية فى الهند ينقلون الى جرائدهم كل شىء حتى التافه من أخبار الألعاب الرياضية ، أفيهملون أخبار مواطنيهم بظهور نبى جديد قد تكون له تعاليم ضارة بالحالة الراهنة فى الهند ؟

ونحن نطلع باستمرار على ما يجد من الحوادث العالمية فى الشئون النفسية وترد إلينا مجلات خاصة باستيعاب هذه الحوادث فى كل مظان حدوثها ، فلم نصادف ورود أى نبا فيها عن صانع المعجزات فى قرية سادهو الهندية . وبيننا وبين مسلمى العالم اتصال فيما يتعلق بالأمور الاعتقادية ، فلم يرد إلينا من بلاد الهند ما يشعرنا بوجود داعية من ذلك الطراز .

فاذا أردتم زيادة التحرى عن هذا الأمر فوجهوا رجاء الى كاتب ذلك الفصل فى الجريدة التى ذكرتموها ليخبركم عن اسم الجريدة الأوربية أو الهندية التى اطلع فيها على ذلك الخبر ، ليمكنكم أو يمكننا الاطلاع عليه والوقوف على قيمته الحقيقية .

أما تعليقنا على خبر مقطوع السند وارد فى فصل يكتب عادة لترويح نفوس القراء قبل التثبت من صحته ، فليس من الحكمة فى شىء . وفى هذه المناسبة نرجو كاتبى أمثال هذه الحوادث فى الجرائد أن يذكروا مصادرها ، وأن ينقلوها على علاتها مجردة من المبالغات .

الى رحمة الله

فى الحادى والعشرين من شهر رجب الماضى ، استأثرت رحمة الله بالأستاذ العلامة الجليل الشيخ محمد بخيت المطيعى ، فقضى مبكيا من مئات الألوف من العلماء والطلاب فى جميع بلاد المسلمين كانوا يرون فيه المثل الأعلى للاطلاع الواسع والافادة والفتيا .

حصل رحمه الله العلم بالأزهر فتخرج فى علوم الشريعة والعربية ، ونال فيها شهادة من الدرجة الأولى سنة ١٢٩٣ للهجرة أى منذ نحو اثنتين وستين سنة ، وأكب من ذلك العهد على التدريس والافادة بهمة يندر أن يصادف لها مثيل فى حياة العلماء العاملين . ثم ندب للاشتغال فى القضاء فتنقل فى وظائفه حتى بلغ أعلى درجاته ، مظهرا فى كل منها من الكفاية ما لا يكون إلا للعلماء الراسخين .

فلما بلغ السن القانونية لوظائف الحكومة ، ترك الاشتغال بالقضاء ، وعكف على الدرس والتدريس والافتاء . فكانت داره مثابة للمستفتين والمستفيدين ، وكان لا يبخل على أحد بالفتيا ، حتى إذا كان بعيدا عنه تكلف له كتابة الفتوى وأرسلها اليه بالبريد .

وكانت شهرته قد تجاوزت مصر الى العالم الاسلامى كله ، فكانت ترد اليه الاستفتاءات تترى فى مختلف المسائل ، ومنها مشاكل تحتاج الى مراجعات كثيرة مضنية ، فكان لا يضن بنفسه عن القيام بها فيحررها ويرسل بها للمستفتين .

ومما انفرد به أنه كان قد استخدم كتابا لنقل فتاواه وتولى إرسالها الى طلابها فى مختلف الأقطار ، متحملا مكافآتهم شهريا وأجر ما يرسله بالبريد من الكتب والرسائل .

وقد عرف رحمه الله بالزعامة فى علم الأصول ، فكان يرجع اليه جلة العلماء فيما يشكل من مسائله ، ويصادفون لديه لكل مشكلة حلا كأنها مرت به من قبل فعالجها وانتهى الى ما يحسن السكوت عليه من أمرها .

فاذا كان العالم الاسلامى بأسره يبكيه اليوم ، فانما يبكى علما من أعلام العلوم الاسلامية قل من يسد الفراغ الذى تركه فى صفوف أقطابها العاملين .

فرحمه الله رحمة ترفعه الى مقاوم الكرامة عنده ، وأفرغ على مريديه وتلاميذه صبرا ، وعوضهم عنه خيرا إنه ولى المؤمنين !

مطبوعات جديدة

تفصيل آيات القرآن الكريم

للاوربيين وبخاصة البحاثين منهم عناية عظيمة بالاقتصاد فى الوقت ، فلذلك تراهم يعمدون الى تذييل كتبهم بالفهرستات والمعاجم لسهولة الرجوع الى ما يريدون منها مما يختص بالموضوعات والأماكن والأعلام وغيرها . وقد قرظنا هنا قبل عدة شهور ما وضعه المستشرق فنسنك من الفهرست العام لأربعة عشر مرجعا من مراجع السنة ، وقد نقله الى العربية حضرة الأستاذ الغيور محمد افندى فؤاد عبد الباقى ، فاوجد به المشتغلين بالأحاديث وسيلة يستخرجون بها أى حديث يطلبونه لمعرفة تخريجه فى دقائق معدودة .

وقد أتحفنا اليوم الأستاذ المذكور آنفا بترجمة عامة للآيات القرآنية الكريمة وضعه المسيو (جول لابوم) الفرنسى ، يجد فيه الانسان الآيات الواردة فى المواضيع المنوعة مجموعة فى حيز واحد ، فاذا أراد مستطلع أن يعرف ما ورد من الآيات فى الأخلاق أو فى البيع والشراء أو فى الروح أو فى غيرها ، يجد كل ما ورد فى هذه الموضوعات مجموعا على حدته .

إن هذا الكتاب كان حاجة للمؤلفين والباحثين والكاتبين منذ زمان طويل ، وقد وضعه الأوربيون منذ عشرات من السنين ، وأعوزنا مثله حتى انتدب الأستاذ محمد افندى فؤاد عبد الباقى على نقله الى العربية ، فأضاف الى خدمته للحديث خدمة للكتاب الكريم أجل من الأولى ، فاستحق الشكر العظيم .

وقد التزمت طبعه مكتبة عيسى البابى الحلبى فشاطرت المترجم فى هذه الخدمة الجليلة .

الفتح الربانى

هو علم على كتاب جمع فيه حضرة الأستاذ الشيخ احمد الساعاتى مسند الامام احمد بن حنبل ورتبه على أبواب بحيث يسهل البحث فيها ، وهو يصدره كراسات كل شهر . وقد صدر منه القسم الأول من الجزء الثالث . فنشكر له هذا العمل القيم ، ونرجو له الانتشار .

عنوان الاستاذ بحارة الروم بالغورية بالقاهرة .

بسم الله الرحمن الرحيم

مهمة الدين الاسلامى فى العالم

٢٥

زيادة بيان فى مبحث المدنية الفاضلة والاسلام

بيّنا فيما كتبناه فى العدد السابق تحت عنوان الاسلام يدعو لتأسيس مدنية فاضلة ، أن الدين الحق والمدنية الفاضلة يتفقان فى المبدأ والغاية ، وضاق المقام عن استيعاب كل ما يمكن أن يقال فى هذا الموضوع . ولما كان أمر المدنية من الشئون التى تعتبر فى الدرجة العليا من الخطورة لافتتان الناس بها افتتانا سحريا يسلبهم إرادتهم ويدفعهم فى سبل محفوفة بالأخطار دفعا آليا ، ونظرا لأن العقبة الكأداء أمام الدين هو ما يفهمه الناس من معنى المدنية ، وجب علينا أن نوفى هذه الناحية من البحث حقها من التحقيق .

واليوم نعرض لهذا الموضوع من جديد متوخين تحليل شبهاته الرئيسية تحليلا دقيقا ، وحلها حلا علميا ، لأن بقاءها ماثلة فى بعض الأذهان على حالة شبهات لا تقبل الدحض ، وكامنة فى نفسية الدهماء وإن لم يستطيعوا التعبير عنها بألسنتهم ، يجعل كل محاولة لإخراجهم من سلطانها عبثا محضا . وما أتهم المدافعون عن الأديان بأشد من كراهتهم مواجهة الاعتراضات ، واتقائها بالحيد عن طريقها ، وتركها تفتك بالنفوس والقلوب فتكا ذريعا كما هو مشاهد محسوس .

رأى القارىء مما كتبناه فى الفصل السابق أننا دللنا على أن الدين الحق هو المثل الأعلى لمدنية فاضلة جديرة بالنوع الانسانى الكريم ، وسلكنا للوصول الى هذه النتيجة

طريقا واضح المعالم لا ينكره متأمل . ولكننا فى هذه التتمة نريد أن نبلغ هذه الغاية عينها باقتحام معاقل الآراء المخالفة ، وشق طريق لهذه الحقيقة الكبرى من خلال خطوطها الدفاعية ،مثيرين بذلك كل ما عندها من قوى وأسلحة ،ليكون نجاحنا فى تطويقها بمعونة الله دليلا عمليا على أن تلك القوى المعارضة لا تقوى على حماية مواقعها ، فاذا لم نفعل ذلك خشينا أن يبقى فى بعض النفوس بقية من المزاعم السابقة .

الآن نبدأ بإيراد ما تصدينا له من هذه المحاولة العلمية فنقول :

إذا كانت المدنية ثمرة الجهود التى يبذلها الانسان لتحسين حياته المادية ، وتسهيل محاولاته المعاشية ، والذهاب فى ترقية وسائله الحيوية ، وحاجاته الأدبية والفنية ، الى أبعد ما يمكن أن تصل اليه تحت ضوء العلوم والصناعات المختلفة ، فما الذى أوجد ما يتخيله بعضهم من التنافى بين الدين والمدنية ؟

ليس فى المدنية الصحيحة كما رأيت من مقالنا السابق ما ينافى الدين الحق أو يقف فى سبيله ، اللهم إلا فيما تثمره من مذهب فلسفى يرى غير ما يقرره الدين فى مسائل الاعتقادات ، وهذا الخلاف مرده العلم ، والعلم الصحيح لا يخالف الدين الحق فى شىء ، فلا يلبث هذا الخلاف العارض أن ينحسم ، أو يبقى مقصورا على طائفة ، لا يؤثر شذوذها على السواد الأعظم من الناس .

وإذا كان الأمر على ما ترى ، فما الذى أوجد هذه الهوة السحيقة بين الدين والمدنية فى نظر بعض الآخذين بمبادئ الحياة العصرية اليوم ؟

أوجدها خطأ جلل تسرب الى عقولهم ولم يفطنوا اليه ، وهو أنهم خلطوا بين المدنية بمعناها الصحيح ، وبين ما أوجده أهل الإباحة من التعديات المنوعة على العلم والفلسفة والأخلاق الفاضلة ، تحت ظل الحرية الشخصية وألصقوه بالمدنية . ومصدر هذا الخطأ الفاحش هو ما يراه الناس بأعينهم اليوم فى جرى الأمم المتمدنة قاطبة وراء المتع النفسية من مأكل ومشرب وملبس ومنظر غير متقيدين فيها بغير ما توجبه عليهم

تقاليد من العرف تواضعوا على مراعاتها فى المشية والقعدة والسلام والكلام وتناول الشراب والطعام، أما ما وراء ذلك من مخالفة ما يأتونه لأصول العلم والآداب الصحيحة فلا يكترث له أحد، ولا يعتبرونه أمرا ينبغى أن يؤبه له. فالعلم يحرم كل مايحرمه الدين على مقتضى وجهة نظره الخاصة، فيحرم الخمر والميسر والتبرج والتهتك والزنى والمناظر المثيرة للشهوات، والسماع المميت للقلوب، والتواضع على تقاليد تعتبر أدبية وليست من الآداب الصحيحة فى شىء الخ. ولكن الذين يعتبرون أنفسهم متمدنين لا يقيمون للعلم وزنا، ولا يعتمدون على مقرراته فيما هم مدفوعون اليه من إشباع أهوائهم النفسية، وملاذهم الجسدانية. فهذه المدنية على هذا النحو ليست علمية، ولا هى ثمرة أى مذهب فلسفى حتى ولا المذهب المادى نفسه، فإن الملاحدة وإن كانوا يكفرون بالأمور الاعتقادية إلا أنهم لا يبيحون لأحد أن يخرج على مقررات العلم فى شىء مما يختص بسيرته فى نفسه أو حيال غيره.

فهذه الانحرافات الخلقية التى يسميها السطحيون مدنية، محكوم عليها بالتلاشى أو على القليل ببقائها موصومة بأنها خروج على العلم وعدوان على الحكمة.

وإذ ثبت هذا فإن هناك مدنية تتفق والعلم، ومتى اتفقت والعلم فقد اتفقت والدين لأن العلم الصحيح لا يعقل أن يخالف الدين الحق على أى وجه من الوجوه.

فالنزاع القائم الآن هو بين المدنية والعلم أكثر مما هو بين المدنية والدين، وموضوعه: هل لو قام الناس على ما يوصى به العلم من كبح جماح الأهواء النفسية، والإباحيات البهيمية، والاعتدال فى توفية المطالب الجسدية، لا يؤثر ذلك فى إضعاف العوامل المنشطة للمدنية؟ ووجه الشبهة أن الناس متى لزموا حدود الحكمة فى مطعمهم ومشربهم، وامتنعوا عن كل ما يقرر العلم ضرره بصحتهم وعقولهم، ولم يخرجوا فى ملاهيهم وملاعبهم واجتماعاتهم عما رسمه لهم من آداب وتقاليد، صيانة لأموالهم وأخلاقهم وأعراضهم، بطلت المعاقرة والمقامرة، والمخاصرة والمكاثرة، وهذه الأمور كلها وإن

كانت تستنزف الأموال ، وتبيد الآداب والأخلاق ، وتفسد القلوب ، وتهتك الأعراض ، إلا أنها تدفع الصناع للإتقان ، والفنانين للإبداع ، والكتاب والشعراء للإنتاج ، وتلهب النفوس كافة الى التبارى لنيل المال الذى يوصلهم الى استيفاء جميع ضروب المشتهيات ، والمال لا يوصل اليه إلا بالعمل والدأب والإتقان والابتكار ، فيكون من وراء هذا النهم الثائر لتحصيل المآرب المنوعة ، دوافع حافزة للتقدم فى جميع نواحى النشاط العقلى والعملى .

ولكن لو اكتفى الناس بتحصيل العيش فى حدود الاعتدال ، ووقفوا من المشتهيات عند ما هو مقرر منها فى العلم ، خمدت فى نفوسهم هذه النار المتأججة وراء المآرب الإفراطية ،وتبع خمودهاتصوح زهرة المدنية ، وبطلان سحرهاالفاتن الخلاب ، وربما أدى ذلك كله الى ارتكاس النوع البشرى الى عهد الفتور والظلام .

ويزيدون على هذا قولهم إنه مما يقوى حجتهم أن العلماء والفلاسفة أنفسهم لايعملون بماينصحون به الناس ،فهم يشربون الخمر ويقامرون ويفسقون ، ويرتكبون كل مايرتكبه الجاهلون من العدوان على الآداب العلمية الصحيحة ، والأخلاق الفلسفية السليمة .
يقول المعارضون: أتريد دليلا بعد هذا على أن العالم لا يرتقى إلا مدفوعا بحوافز من الشهوات مطلقة العنان ، راكبة رأسها لا تبالى فى غلوائها بقانون أدبى ، ولا ترتبط بعهد علمى على النحو الذى هى عليه الآن ؟

هذه شبهة يثيرها الإباحيون على كل من يتصدى للاصلاح الأدبى العام باسم العلم والفلسفة والدين ، وهى شبهة مبنية على قصر نظر يؤسف له أشد الأسف ، وإنا نبين ذلك فى كلمتين فنقول :

إن الذين يرفعون صرح المدنية ويشيدونه ليسوا هم من تقع عليهم عينك من المترفين الإباحيين ، الذين يأكلون ويشربون ويمرحون ، ولكنهم طبقة من الناس شغلهم ما هم فيه من العمل المتواصل ، لا أقول عن اللهو والقصف ، ولكن عن حاجاتهم الضرورية ،

فهم يصلون الليــل بالنهار دأبا على ما هم فيه ، كأن قيم الوجود سخرهم له ، فهم فانون فيه لا يستطيعون عنه تحولا . فجمهور الذين يضعون العلوم ، ويرتأون النظريات ، ويقررون المبادئ الأولية ، من العلماء والفلاسفة لا يكادون يجدون فى عمرهم وقتا للاشتغال بغير ما هم فيه ، وأكثرهم عاشوا فى فاقة لاذعة ، أغنياء بما اختارهم الله له من الأعمال الخالدة . وجميع العباقرة الفنانين الذين وضعوا المثل العليا للفنون الجميلة والآداب العالية مرضى لايكادون يسيغون طعاما ولاشرابا ، ولايستبيحون لأنفسهم لهوا من هول ما هم فيه . وهؤلاء جميعا مدفوعون بقوة قاهرة لعمل ما يعملون غير ناظرين لما يجره عليهم من الربح الوفير ، وكثير منهم بذل فى عمله ماله كله وبات محتاجا لشروى نقير .

فالمدنية ليست مدينــة للذين يتمتعون بطيباتها ويسرفون ، ولكنها مدينة لتلك الطبقة من الأفذاذ المنعزلين الذين يبدعون فيما يعملون ، ولا يعبأون بالمعجبين واللاحين ، بل إنهم يدأبون على ما هم فيه ولو لحقهم بسببه أذى من الجامدين والمتعصبين .

والمدنية لا تتصوح زهرتها إن راعى أهلها الآداب العلمية ، ولكنها تزداد بهجة وتأرجا ، وتكتسب سطوعا وتألقا ، فيتوحــد فيها الحق والجمال ، ويتآخى الإبداع والجلال ، وتصبح الحياة جنة وارفة الظلال ، يجد فيها الخائف أمنا ، والمحتاج عونا ، والضعيف ركنا ، لا كما هى عليه الآن نارموقدة تلفح وجوه المستمتعين بها والمحرومين منها على حد سُوى .

فأما الأولون فلأنهم لا يضعون لمطامعهم حــدا ، فهم مندفعون فى تيارها اندفاعا جنونيا ، لا يبالون بما يصيب المجموع من جراء إفراطهم ، ولا بما يثيره إغراقهم من مقتضياته حولهم ، من الطبيعة تارة ومن المعايشين لهم تارة أخرى . فأما الطبيعة فقد قامت على العدل المطلق ، فهى تحاسب المعتدين فيها على الذرة ، فيجدون آثار عدلها فى صحتهم وأموالهم وأولادهم ، وأما المعايشون لهم فيضطرون لمقابلة هذا الاندفاع منهم ، بالائتمار بهم ليقفوهم عند حدهم . وما ثمرة هذا الائتمار إلا مبادئ متطرفة يدينون لها

وعدوانات موبقة ينتوون القيام بها ، ليس ضد مناظريهم وحدهم ، ولكن ضد النظم القائمة ، والمذاهب السائدة أيضا ، مما جعل المجتمعات المتمدنة أشبه بمراجل مؤصدة ، تغلى على تنانير موقدة ، تهدد بالانفجار فى كل آونة .

فهل هذا كله إلا ثمرة انحلال خلق ليس له ما يحفظه فى حدوده الطبيعية من عقيدة راسخة ، أو مثل أعلى ، أو وازع من أى ضرب كان؟

فالذين يزعمون أن المدنية لا تزدهر إلا بحوافز من الميول الإباحية التى عليها الناس اليوم يخطئون خطأ جما ، ويرتكبون شططا فاحشا . فإذا كان يغرهم أن فى المدنية من المناعة ما يحفظها من توالى أمثال هذه الكوارث عليها ، فإنهم يتغافلون عن تاريخ المدنيات البائدة .

وإذا سلمنا لهم بقدرة هذه المناعة ، فأى مصلحة للنوع البشرى فى أن يبقى على هذا النحو من الحياة المضطربة ، والميول المضطرمة ، والسأم الذى أصبح يغرى بعض النفوس المريضة بنسف الكرة الأرضية لو استطاعت الى ذلك سبيلا . ألم يقل الفيلسوف الكبير روبرت دوهارتمن[1] خليفة شوبنهور زعيم المذهب التشاؤمى إن الحياة الأرضية مادامت لا تعدو لفساد تركيبها هذه الحالة الشنيعة فليس لها إلا حل واحد ، وهو أنه متى وصل الانسان فى مستقبل الأيام الى ابتكار مادة مدمرة قوية تصلح لنسف الكرة الأرضية ، فإنه ناسفها بها لا محالة ليرتاح العالم من حياة كلها شرور وآثام ، ومصائب وأهوال .

بخ بخ ! إن مدنية تولد مثل هذا القول على لسان قطب من أقطاب الفلسفة لهى مدنية فى حاجة الى مثل أعلى ينظم حركتها ويرأب صدوعها ، وإلا لحقها ما لحق سواها وأصبحت أحاديث .

محمد فريد وجدى

(١) روبرت دوهارتمن فيلسوف وعالم ألمانى ولد سنة ١٨٤٢ فى برلين وتوفى بها سنة ١٩٠٦



سورة الرعد

— ٨ —

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : « أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَاطِلَ ، فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ . لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ، وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ ٱلْحِسَابِ ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ . أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو ٱلْأَلْبَابِ » .

قد سبق فى الآيات المتقدمة تقرير الحجة البالغة بما لا يدع للشك مجالا ولا للمكابر مقالا ، ولم يبق إلا أن يكون من عرضت عليه تلك الأدلة الناصعة والشموس الساطعة أعمى لا يبصر وغبياً لا يهتدى ، فمثله لا ينفعه النور مهما تجلى ، ولا تفيده الشمس مهما سطعت . ولكن من ذا الذى يأبه له أو يعتدّ بحاله وما هو إلا عدو لنفسه ، عرضت عليه المنافع الكاملة ودعى لاغتنامها فأبى عليه غباؤه إلا أن يعرض عنها ، ويستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟

فبعد أن قرر جل شأنه الأدلة ناصعة على قدرته تعالى وتبين الحق لذى عينين ، ولم يبق إلا إعراض المحروم واكتفاؤه بالدون ، ضرب جل وعلا مثلا للحق المدعو اليه والباطل المنفر عنه ، ليتجلى حال حسن الاختيار وسوئه ، وما يصيب من أبصر واهتدى ومن عمى فضل ، وذلك ما سيذكر فى الآية التالية : « للذين استجابوا لربهم الحسنى » .

فالآية التى معنا وهى قوله تعالى : « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدَرها » الى قوله : « كذلك يضرب الله الأمثال » بيان لحال الحق والباطل اللذين انكشف أمرهما وتبين حالهما بما قام عليهما من الأدلة الساطعة والبراهين القاطعة ، يعطينا ذلك البيان حالهما فى ذاتهما من البقاء والفناء ، ومن الغناء وعدم الغناء .

ولقد جاء تمثيلهما على هذا الوجه من أروع أنواع التمثيل وأبدعه ، فلقد أبرزهما فى صورتين يراهما الناس رؤية متكررة ، وقد اقترن فى كل منهما أنفع شىء بأتفهه ، وأغلى شىء بأخسه ، فمن ذا الذى يخفى عليه ما فى الماء من المنافع الجلّى ، وهو قد احتاج اليه كل شىء ، واستندت اليه حياة كل حى ، وأن الزبد المقترن به يحسَب شيئا وما هو بشىء ؟ ومن ذا الذى يخفى عليه أن الماء باق يحتفظ به ، إما فى أوديته وأنهاره ، وإما فى مسالكه فى ينابيع الأرض تتفجر به العيون فى مواضع الحاجة حيث تستفاد منه الفوائد ؟ ومن ذا الذى يخفى عليه أن الزبد الذى يعلوه ويحاول منظره أن يجتذب العيون لا تكاد تتنبه اليه النفوس أو تتجه اليه الأفكار ، فهو والعدم أمام النفوس سواء ؟ فهل رأيت من تشبيه الحق والباطل ، وهل رأيت أن شأن الباطل كشأن الزبد فى محاولة أن يطفو على وجه الماء وهو لا يستحق أن يكون له موطنا ، وأنه يحاول مجاراة الماء حيث جرى وهو أحقر من أن يكون له قرينا ؟ فالحق مع الباطل كالماء مع الزبد : فى النفع وعدمه ، فى المسايرة بدون استحقاق ، فى محاولة الاستعلاء وليس

له بأهل ، فى الثبات والزوال ، فى تعرضه للأنظار يسترعيها وإعراضها عنه احتقارا وعدم اهتمام .

ومن دقائق هذا التمثيل البديع أن كلا من الحق المضروب له المثل والماء الممثل به يتنزل من السماء ، فالحق أمره ظاهر ، وتنزل الماء من السماء إما على معنى تنزله من جهة العلو ، أو على أن المراد بالسماء السحاب ، أو لأن المطر الذى تسيل به الأودية والأنهار يتصعد فى الأصل بخارا من البحار بواسطة أشعة الشمس وحرارتها ، فهو مستند الى آثار الأفلاك العلوية . وكذلك يشتركان فى أن كلا منهما يأخذ منه ماصادفه وتلقاه بقدر احتماله ، فالأودية تأخذ من الماء بحسب سعتها ، والقلوب تأخذ من الحق بحسب استعدادها وقوة احتمالها . وأيضا يشتركان فى أن الماء منه ما يظهر أثره ومنفعته فيما أصابه حالا ، كالأرض المستعدة للإنبات ينزل عليها الماء فتنبت الكلأ والعشب الكثير ، ومنه ما يختزن فى الأرض فتمسكه للناس ينتفعون به «فشربوا وسقوا وزرعوا» ، والحق منه ماينتفع به صاحبه حالا فيعمل بمقتضاه فى تحقيق عقيدته وتصحيح أعماله وتحسين أخلاقه ، ومنه ما يختزنه ليعلمه الناس فينتفعون كما انتفع ، وربما عملوا به أكثر مما عمل . روى البخارى فى صحيحه قوله صلى الله عليه وسلم : «مثل ما بعثنى به الله من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا ، فكان منه نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصاب منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به» .

ولقد ترى هذه المعانى مستفادة من قوله تعالى : « فسالت أودية بقدرها » فإن من الأودية ما يسيل بمقدار ما تروى أرضه فينبت به الكلأ والعشب ، ومنها ما يمسك الماء الذى سال فيه لينتفع به الناس شربا وسقى دواب وزرع ، ومنها ما يتسرب منه الينابيع فتنتقل الى بقاع أخرى تنتفع بذلك الماء ، وشأن الحق كذلك منه ما ينتفع به

صاحبه ويقتصر نفعه عليه ، ومنه ما يمسك العلم ليحفظه للمتعلمين ينتفعون ، ومنه ما ينتقل منه العلم الى العلماء فينقلونه الى المتعلمين والمنتفعين كالينابيع الناقلة للماء ، وهكذا يكمل وجه الشبه بين الحق والماء بقوله : « فسالت أودية بقدرها » .

واحتمال السيل للزبد الذى يطفو ويربو على غير طائل مثل احتمال الهدى للشبهات يتعلق بها المحرومون من المنفعة تاركين ماهو أولى بالاستمساك الى مالا طائل تحته ولا انتفاع به ، فما أشبههم بالأطفال الذين يروقهم حباب الماء قد اجتمع حتى أراهم لونا أبيض يأخذ بأبصارهم فاشتغلوا به فلم يحصلوا منه على ماينقع غلة أو يروى من ظمأ وقد قتلهم العطش حتى أهلكهم ، ولكنه استعدادهم وغفلة نفوسهم عما ينفعهم .

والزبد إما أن يكون هو تلك الفقاقيع المنتفخة بلا جدوى ، أوهو الغثاء والوضر الذى يحتمله الماء معه فينتفخ به ويربو عن مقداره ، وفى هذا الانتفاخ ذهاب منافعه .

ثم هل تنبهت الى ما افتتح به ضرب هذا المثل مما يعقد أتمّ اتصال بينه وبين الآيات السابقة المشتملة على أدلة قدرته وبراهين سلطانه ؟ فقد ذكر فى أوله قوله جل من قائل : « أنزل من السماء ماء » فكأنه بهذا الافتتاح جعله بسبب قوى من سابقه وكأنه من تتمته ، مع أنه قد سيق لبيان حال الحق والباطل فى ذاتهما ، وفى أوصافهما من دوام وذهاب ، ومن انتفاع وبوار ، ومن أن هذا حقه الاستمساك به وذاك لايلتفت اليه إلا الأغبياء البلداء .

فانظر الى هذا التجلى البليغ فى الأسلوب البديع ، ينتقل بك الى نتيجة مترتبة على ماسبق بعبارة كأنها من ضمن ما كان الكلام فيه ، من سوق الدلائل والبراهين على القدرة والسلطان ، فيالله ما أعجب وما أبدع ، تبارك الله رب العالمين !

وقد أردف هذا المثل بمثل ثان لا يقل عنه فى تقرير الغرض المسوق له من بيان حال الحق والباطل ، وذلك ما تشهده فى قوله تعالى : « ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أومتاع زبد مثله » أى وإن مثل ذلك الزبد الذى ترونه على سطح الماء الذى تسيل به

الأودية زبد مما تعمله أيديكم وينا له صنعكم ، أرأيتكم تلكم المعادن التى تستخرجونها من الأرض تبتغون بها إحراز حلاكم كالذهب والفضة ، أو تحصيل منافعكم كالحديد والنحاس والرصاص : ألستم تعمدون الى تنقيتها من أوضارها ، وتطهيرها من الدنس الذى يعلق بها ، فتوقدون عليها وهي فى النار حتى تذيبها لتبعدوا تلك الأوضار عنها وتطهروها منها ، فتصفولكم ويكمل بها انتفاعكم ؟ ألا فاعلموا أن الحق الخالص الصافى فى نقائه هو كتلك المعادن بعد تصفيتها ، فمن تحلى منكم بشيء منه فهو كمن تحلى بتلك الجواهر بعد تصفيتها ، ومن انتفع به فى تهذيب نفسه وتصحيح عمله وإقامة العدل بينه وبين قومه وتكميل أسباب السعادة فى دنياه وآخرته ، فمثله كمثل من انتفع بتلك المعادن المصفاة المستخلصة من بين تلك الأوضار، ومن تعلق بتلك الأباطيل واستمسك بشبه لا طائل تحتها وأخلاق لذّ له الوقوف عندها، وبادرة من الرأى والهوى عنّت له بلا تمحيص ولا تصفية ، فهو أشبه شيء بمن تعلق بتلك النفايات ، ووقفت به همته عند تلك الأوضار ، فلم يستصف لنفسه جوهرا نقيا ، ولم يستخلص تلك المعادن الجميلة والنافعة مما يذهب بهاءها أو يضعف النفع بها . وكم تتفاوت المعادن بالتصفية تفاوتا يجعل زنة الدرهم من أحدها بعد تصفيته أغلى من القناطير المقنطرة من ذلك الجنس عينه بدون تصفية . ألا ترى الحديد مثلا وهو لا تزال تدخل عليه النار فيصفى وينقى حتى تخرج منه أدق آلات الجراحة فيساوى ثمن القطعة الدقيقة أمثال زنتها من الذهب أو قناطير مقنطرة من نفس الحديد المستخدم فى الحراثة أو قضبان البنايات ونحوها ؟ فما فائدة ذلك الغثاء إلا نقصان قيمة ما اتصل به من نفيس الجوهر ، فهل من يتعلق بتلك النفايات يكون شأنه وشأن من صفى جواهره سواء ؟

ولقد نوع فيما يوقد عليه فى النار بإبراز نوعين أساسيين من مقاصده : أحدهما ما يتخذ للحلى والزينة ، والثانى ما يتخذ للمنفعة والفائدة ، وكلاهما لا يصل المرء الى مبتغاه منه إلا بعد أن ينقيه من زبده وأوضاره وخبثه . فهذا مثال الحق الذى لا يصل اليه صاحبه

إلا بعد أن يخلصه من آفات الهوى ونزعات الضلال ونزغات الشياطين ، تلابسه فتعكر جوهره ، وتضيع نفاسته ، وتذهب بمنفعته ، فإذا ما صفى من ذلك فهو النفيس الجميل وهو النافع المفيد ، وإذا ما بقى فيه فقد أذهب رونقه وأضاع فائدته . فهذا شأن الزبد إذا اختلط بالمعدن ، فكيف بالزبد وحده ؟ وما حال من تمسك به نابذا المعدن وراء ظهره ؟ أفلا يكون مثلا للغباوة والبلاهة ؟ أليس يصدق عليه أنه استبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟ وهل يرضى بذلك إلا مأفون قد حيل بينه وبين عقله ، وختم الله على قلبه وعلى سمعه ، وجعل على بصره غشاوة ؟

أما وقد تبين لك أمر الزبد مع الماء فى البقاء والفناء ، والمنفعة وعدم الغناء ، وحال الزبد مع المعادن فى ذهابه برونقها ، وإضاعته لمنفعتها لمجرد اختلاطه بها ، فضلا عن أن يكون له منفعة فى ذاته ، فلا جرم كان هذا أوضح مثل يبين قيمة كل منهما فى نظر العقل بإبرازهما فى صورة ما تبينه الحس . فجاءت جملة « كذلك يضرب الله الحق والباطل » بعد أن مهد لها الكلام السابق ، واستشرفتها النفوس حتى كادت تنطق بها ، وظهرت بعد أن تهيأت العقول لقبولها ، فكانت مما يلاحق معناه لفظه ، وعادت على المثل المضروب بزيادة الانتباه وإتقان التأمل فيه ، وكلما كررت فيه النظر ، جلا لك العبر .

ثم قال تعالى : « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » فتستخرج منه الحكم المقصود فى كل منها ليظهر لك حال الاختيار الموجه الى كل منهما حسنا وقبحا ، ورشدا وغيا .

ولقد جرت هذه الجملة الشريفة مجرى الأمثال ، فكثيرا ما يستعين بها المتكلم فى شتى الأغراض فيجد فيها نعم العون على إيضاح مقصده ونصرة حجته . وأصل الجُفاء المرمى المطروح ، يقال : جفا الوادى غثاءه إذا نبذه وطرحه . والجفاء بالفتح مصدر منه ، فإذا انضم المطروح بعضه الى بعض سمى ذلك المنضم جفاء بالضم . ومعنى المكث فى الأرض البقاء فيها معدا للانتفاع به . وإنما يمكث فى الأرض الشىء المحتفظ به المصون لفائدته .

قال تعالى : « كذلك يضرب الله الأمثال » :

أجل : إن هذا لهو البيان حقا ، فقد جلا لنا حال الحق والباطل بصورة مايشبههما تمام الشبه فى القيمة والفائدة مما عرفته النفوس وأصبح حكمه لديها ضروريا ، فلم يبق إلا أن يضحك المرء من نفسه كيف بلغ به حمقه وضلاله حتى ألحقه بالأطفال الذين لا يفرقون بين التمرة والجمرة . وكان ذلك بعد أن أقام البرهان تلو البرهان ، والدليل يدعمه الدليل من أول السورة الى هنا ، حتى ارتفع الشك باليقين ، ووضح الصبح لذى عينين ، ولم يبق سوى « أن يرى مبصر ويسمع واعى » .

وهذه الآية مدعاة لتكرار التأمل فى المثل ورجع البصر اليه ، فإنه :

يزيدك وجهه حسنا إذا مازدته نظرا

واسم الإشارة فى قوله تعالى : « كذلك » راجع الى المثل المذكور ، أى على هذا النمط البديع الذى تجلى لك فجلّى من المعانى الغزيرة ما ملأ قلبك اقتناعا تكون الأمثال التى يضربها الله للناس ، فما كانت للتسلية والتفكهة ، وما كانت مقصرة عن أداء ما سيقت لأدائه ، وما كان بينها وبين المعنى المراد جفوة أو نبوة . وثمرة مثل هذه الكلمة حث المخاطبين على الإصغاء ومزيد التأمل لتكمل منفعتهم منها .

قال تعالى : « للذين استجابوا لربهم الحسنى ، والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به ، أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد » :

اعلم أن ما تقدم فى الآيات السابقة من تقرير الحجج وإقامة الأدلة وضرب الأمثال ، لم يكن المقصود منه تقرير نظريات فلسفية ، ومجرد تحقيق لمسائل علمية نظرية ، وإنما هو الوصول لتربية النفوس والأخذ بها فى طريق العمل الى ما فيه سعادتها ونجاتها من شقوتها ، فبعد أن تجلى الحق وظهر الصدق واتضح الأمر بضرب المثل ، وصل الى المقصود من ذلك كله وهو بيان حال المدعوين : مَن أقبل منهم واستجاب لربه ،

ومن أعرض عنه ولم يستجب لدعوته . فكأنه يقال لهم: حذار من أن تظنوا أن الأمر مقصور على مجرد تقرير النظريات فتحدثكم أنفسكم بالمراوغة قائلين فليكن ما يكون فما لنا ولهذا كله ، سواء أكان الحق فى هذا الجانب أوفى ذاك ، فإنما يعنينا صالحنا وما يخصنا ، وتلك المعركة الجدلية لا نريد أن نزج بنفوسنا فى ميدانها . فسد فى وجوههم طريق هذه التعللات ، وقيل لهم لا بل الأمر إنما يعنيكم أنتم ، وإليكم يساق الحديث ، ومن أجلكم وحدكم كانت هذه المعمعة ، فهى إما لكم وإما عليكم ولا مفر ، وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا . فيكون قوله تعالى : « للذين استجابوا لربهم الحسنى » من باب جنى الثمرة بعد كبير الاعمال فى إنشاء المزرعة .

والحسنى تأنيث الأحسن ، أى أحسن المثوبات وأفضلها ، وأخلصها من شوائب النقص والتنغيص ، يشهد بذلك اختيار لفظ « الحسنى » الذى هو مؤنث أفعل التفضيل مع إطلاقه عن بيان جهة الحسن فيه ، فينصرف الى الأكمل .

وقوله : « والذين لم يستجيبوا له » حين يسمعها السامع يكاد ينطق بقوله لهم السوأى ، فترك للسامع ما يكاد ينطق به بنفسه ، وأخذ فى أسلوب آخر يقرر له ما خطر بباله ويبين مقدار سوئه ، وهو أنه سوء يرجح بما فى الدنيا كلها من متع ولذائذ ، وفوائد ومنافع ، فلو اجتمع لأحدهم كل ما فى الدنيا دفعة واحدة ومثله معه يتقلب فى اللذائذ والمنافع ، ويجنى الثمار والفوائد ، وتكون كلها (جميعا) أى مجتمعة ، ما أغناه ذلك عما يلاقى شيئا ، ولبذله كله يبغى النجاة مما هو فيه . فهذا التصوير من أروع أنواع التصوير فى تقدير تلك السوأى التى فهمها المخاطب ، وفيها أحسن مقابلة وأتمها ، فقد ترك للسامع ما التقطه بفهمه ، وأتى له بما يقرره ويبين مقداره . وإنه لحق وصدق ، فإن تلك الأمور التى يحبها المرء فى الحياة إنما أحبها من أجل ما يصل اليه من متعها ، فإذا كان قد استولى عليه البلاء حتى أذهله عن أن ينظر اليها أو يستمتع بها ، فما الذى أفاده من اجتماعها فى حوزته ، وهل يكسب من ورائها إلا زيادة حسرته ؟ وعلى ذلك يكون فى قوله « لو أن

لهم » الخ ، مقابلة للحسنى بما قررته فى نفس السامع ، كقولهم : من باب إثبات الشىء ببينة . والافتداء بذل عزيز من مال وغيره لتخليص ما هو أعز منه .

وقوله تعالى : « أولئك لهم سوء الحساب » تصريح بالمعنى المستفاد ، فيزيده تمكينا فى النفس . والتعبير بأولئك للإشارة الى أنهم كأنما أعرض عنهم ثم عاد يلفت النظر اليهم ويحقر منزلتهم بإبعادهم عن حظيرة الخطاب ، وذلك باسم إشارة البعيد .

وقوله : «وبئس المهاد » — أى مهادهم — تطبيق للعذاب والسوء عليهم من جميع النواحى ، فكأنه أصابهم من أعلاهم ومن أسفلهم ، وأى صعوبة تلك الصعوبة التى ارتكزوا عليها ، فحيثما تقلبوا فهى متمكنة منهم وهم متمكنون منها ، مع أن أصل المهاد ما مهد للمرء ليستريح فيه ، ومنه مهد الصبى ، وقولهم: مهّد الطريق أى ألانها . فإذا كان هذا شأن مهادهم ، فما شأن ما يحيط بهم ؟ وتلمح تلك الإحاطة من قوله :« مأواهم جهنم » فإنها قد أحاطت بهم إذ أووا اليها ، بل تزداد الإحاطة حين تنظر الى قوله :« أولئك لهم سوء الحساب» فإن للحساب العسير حزا فى النفوس وتقطيعا للأحشاء من الداخل ، فكأن إحاطة السوأى بهم لم تقتصر على أن شملتهم من ظاهرهم ، لا بل تخللتهم فى قلوبهم وضمائرهم وقرارة نفوسهم . ومن ذا الذى ينكر ما للحساب العسير من الوخز فى الضمير ؟ قال المفسرون : وسوء الحساب أن يحاسبوا على جميع ذنوبهم لا يغفر لهم منها شىء ، وأنهم لا تقبل حسناتهم ، فانهم ما فعلوها ابتغاء مرضاة الله ، وكيف يبتغون رضاه وهم ما استجابوا له ولا آمنوا به ولا برسله ؟

هذا وإذا تأملت تلك الجزاءات وجدتها جزاء وفاقا لما اجترحوا من السيئات ، فقد أعرضوا عن السعادة الحقيقية اكتفاء بتلك اللذائذ التى استولت عليهم ، فكان من حق جزائهم أن يبتلوا بما تتلاشى أمامه لذائذ الدنيا كلها مجتمعة ومثلها معها ، وأعرضوا بأفكارهم واستناموا هادئين وادعين لم تشغل الآيات والنذر من قلبهم محلا ، فكان من جزائهم أن يبتلوا بسوء الحساب يقاق بالهم ويشغل عقولهم ، فلا يجدون

لأنفسهم هدوءا ، ولا لأفكارهم راحة ، وكيف يستريح من نوقش الحساب عسيرا ؟ ثم أووا الى فرشهم واستكنوا فى حصونهم تمنعهم من العوادى ويترفهون فيها ، فعوقبوا على ذلك بإيوائهم الى جهنم ، وإلجائهم الى مهاد يقض مضجعهم ، ويحول بينهم وبين كل راحة ، وذلك جزاء من استراح الى الدعة ، وفوت على نفسه عيشة ذات سعة .

كيف يكون لهؤلاء عقول يفقهون بها ، أوآذان يسمعون بها ، أو عيون يبصرون بها ؟ وكيف يستوى هؤلاء ومن رأى الحق فعرفه ، واستمع الى القول فاتبع أحسنه « أفمن يعلم أن ما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟ إنما يتذكر أولو الألباب » .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يمنحنا حسن الذكرى ، وأن يبصر قلوبنا بالحق ، ويجنبنا متابعة الهوى ، وأن يجعل رائدنا الرشد والهدى ، إنه ولى التوفيق ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ؛ وصلى الله على سيدنا محمد الهادى البشير النذير ، وعلى آله وصحبه أجمعين ؟

ابراهيم الجبالى

التثبت فى العلم

قيل لمصقلة : ما أكثر شكك ! قال : محاماة عن اليقين .

وسأل شعبة أيوب السختيانى عن حديث فقال : أشك فيه . فقال شعبة : شكك أحب الى من يقينى .

وقال أيوب : إن من أصحابى من أرتجى بركة دعائه ولا أقبل حديثه .

وسأل ابراهيم النخعى عامرا الشعبى عن مسألة فقال : لا أدرى.. فقال ابراهيم : هذا والله العلم ، سئل عما لا يدرى فقال لا أدرى .

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : من سئل عما لا يدرى فقال لا أدرى فقد أحرز نصف العلم .

وقال مالك بن أنس : إذا ترك العالم لا أدرى أصيبت مقاتله .

حكمة الصيام

اقترحت جريدة الأهرام على نخبة من رجال الدين أن يوافيها كل منهم برأيه فى حكمة الصيام ، فلبوا كلهم دعوتها وكان فى طليعتهم حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر ، فرأينا أن نثبت مقالته فى مجلة الأزهر، ضنا بها على الضياع ، واحتفاظا بما احتوته من كلام طريف فى فوائد الصيام ، وقد أتى فيها على إيجازها بأبلغ مايمكن أن يقال فى هذا الباب . قال حفظه الله :

يستقبل المسلمون فى هذا اليوم شهر رمضان وقد كتب الله فيه الصيام كما كتبه على الأمم السابقة « يأيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ، أياما معدودات » وفيه ابتدأ الله إنزال القرآن على النبي الأمين محمد بن عبد الله ، صلوات الله متتابعة عليه ، وعلى آله وصحبه وسلامه .

فرمضان يجىء كل عام حاملا معه أطيب الذكريات وأحسنها ، ذكريات أوائل الدين الذى أكمله الله وأتم به النعمة ، وارتضاه للعالم دينا ، وسماه هدى وفرقانا ، وجعله آيات بينات ، ووضع فيه أسس نظام دائم للبشر لا يتغير ولا يتبدل ، وجعله ميزان الأعمال ، ودعامة الحق وقانون الأسر ، وغذاء الروح ولذة العقل ، ومتعة النفس وشفاء الصدور . وذكريات فريضة الصوم أحد الأركان الخمسة للاسلام ، وعلاج النفوس الجامحة ، وعماد الخلق الانسانى ، والقوام على كبح الشهوات وطغيان الصفات الحيوانية البهيمية على النفس الانسانية .

فى هذا الشهر نعمتان : نعمة القرآن الكريم ، ونعمة الصوم . نعمة العلم والنور والهداية ، ونعمة الوسيلة لتقبل هذا الفيض . فبالصوم ترتاض النفس وتسكن الى الحق وتهش لقبوله ، وتبعد عن رذائل الجسم وتيارات الشهوات المختلفة ، من بغض وحقد

وحب الانتقام وميل الى إرضاء غريزة الشهوة للطعام والشراب، وما الى ذلك؛ وترقى الى أفقها السماوى الروحانى مستعدة لتلقى الفيض الإلهى وتفهم معانى الآيات وما فيها من عبر وعظات.

والصوم، كما هو معروف، كفٌّ عن شهوات البدن، وصبر على مضض ترك هذه الشهوات. فهو معين على تقوية الإرادة، وفيه تعويد على احتمال المشاق والأذى، وتعويد على عدم انزعاج النفس بترك ما ألفته ومخالفة ما اعتادته، فهى تقبل طعام الصباح فى المساء، وطعام المساء فى الصباح، وتصبر على الظمأ فى الهاجرة وعلى الجوع فى القر، لتألف الصدمات إذا ما انتابتها، والحوادث تقع مفاجئة وعلى غير توقع.

فالصوم أكبر وسائل تربية ملكة الصبر، وملكة الصبر أم الملكات الأخلاقية، فلا يقوى على التنقل والكفاح فى الحياة إلا صابر، ولا يغالب الأيام إلا صابر، ولا يصل الى الحقائق العلمية إلا صابر، ولا يستطيع كشف أسرار الوجود بالبحث والتفكير إلا صابر، ولا يجود بماله ونفسه إلا صابر، ولا يعبد الله حق عبادته إلا صابر. ولذلك قيل: الصبر نصف الإيمان. وذكر الصبر فى القرآن ووصى به أكثر من سبعين مرة.

وهذه بعض آيات القرآن الكريم فى الصبر:

«إنما يُوَفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب» «وجعلنا منهم أئمة يَهدُون بأمرنا لما صبروا» «وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا» «وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور» «يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين» «يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون».

فى الصوم هذه الفائدة الجليلة، وفيه تذكير بحالة الفقراء والمعوزين، وشعور بمثل مايلقاه الجائع المعدم من الألم عند المسغبة، ومايجده الظمآن من لهيب المعاش عند فقد

الماء، فيدفعه هذا الشعور الى البر والعطف، الى الرحمة ومواساة الفقراء والمساكين.

وقد كان صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير، وكان أجود مايكون فى رمضان حين يلقاه جبريل عليه السلام كل ليلة فى رمضان، فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة.

فى الصوم هذا، وفيه تذكير بالنعمة، فإن الاستمرار على الشيء قد ينسى مصدره وينسى مقدار ما فيه من النعمة، فاذا انقطع الاستمرار عاد الانسان الى التذكر. فالجوع يذكر النعمة بالغذاء، والعطش يذكر النعمة بالماء. وذكر هذه النعمة لا ينفك عن شكرها، فيقبل العبد على الطاعات، ويجافى ما نهى الله عنه من المحرمات، والى هذا الاشارة بقوله جل شأنه: « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ».

هذا الذى ذكرناه جعل الصوم ركنا من أركان الاسلام الخمسة، وجعل الله سبحانه يشرفه بالاضافة اليه، فقد ورد فى الحديث الشريف « كل عمل ابن آدم يضاعف: الحسنة عشرة أمثالها الى سبعمائة ضعف، قال الله تعالى: إلا الصوم فانه لى وأنا أجزى به، يدع شهوته وطعامه من أجلى ».

والصوم كما لا يخفى عبادة سرية لا يطلع عليها أحد إلا علام الغيوب، فاذا وجدت حقيقةً فقد وجدت خالية من الرياء لا يشوبها ما يشوب غيرها من العبادات البدنية والمالية، فهى خالصة لله لا تجرى بمرأى من الخلق، فهو لله وحده، وهو الذى يجزى به ويعلم مقدار ثوابه وتضاعيف حسناته، وإذ كان نوعا من الصبر فليس هناك عدّ ولا حساب فى ثوابه « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » وقد ينال العابد بغير الصوم جزاء من الخلق، ولكن العابد بالصوم الذى هو سر من الأسرار كما قلنا ليس له جزاء إلا من الله.

ومن حق هذه العبادة — لتكون كاملة مقبولة عند الله — كف الجوارح عن الآثام: بغض البصر، وحفظ اللسان عن اللغو والكذب والغيبة والنميمة والفحشاء والجفاء

والخصومة والمراء، وكف السمع عن الإصغاء الى ما هو مكروه، والاقتصاد فيما هو مباح من طعام وشراب . وقد جاء فى الحديث الشريف « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » ومعنى ذلك أن الله لا يقبل صومه لأنه قد أصبح جسما بلا روح حيث لم تترتب عليه آثاره الصالحة، فلم يبق منه إلا ترك الطعام والشراب، والله فى غنى عن ترك الطعام والشراب، لأنه إنما يريد من العبد التقوى والآثار الصالحة المترتبة على العبادات . ونظير ذلك قول الله تبارك وتعالى : «لن ينال اللهَ لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » والتقوى هى الغاية من الصوم كما قال : « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » .

وتهنئتى بشهر الصوم أبعث بها الى كل مسلم، ضارعا الى الله جلت قدرته أن يشمل المسلمين بعونه وتوفيقه، وأن يؤيدهم بروح منه، ويوفقهم الى العمل بشريعته وإحياء دينه، وأن يخلق منهم تلك الأمة التى وصفها بقوله : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » وقوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا »

محمد مصطفى المراغى

تعظيم شأن العلم

قال الأحنف بن قيس : كاد العلماء أن يكونوا أربابا، وكل عز لم يكسب بعلم فالى ذل يصير .

وقال أبو قلابة : مثل العلماء فى الأرض مثل النجوم فى السماء، من تركها ضل، ومن غابت عنه تحير .

وقال سفيان بن عيينة : إنما العالم مثل السراج من جاءه اقتبس من علمه ولا ينقصه شيئا، كما لا ينقص القابس من نور السراج شيئا .

وقال رجل لأبى هريرة : أريد أن أطلب العلم وأخاف أن أضيعه . قال : كفى بترك طلب العلم إضاعة له .

دحض شبهات عن الاسلام

نشرنا فى العدد الماضى خلاصة مقالة للكاتب الفرنسى أندريه هرفيه، ثم أوجزناها فى اثنتى عشرة شبهة رددنا منها على شبهتين ونرد اليوم على عدد آخر منها.

الشبهة الثالثة: يقول المسيو أندريه هرفيه: إن عقائد الاسلام جامدة تتحكم فى كل ناحية من نواحى حياة المسلم اليومية.

نقول: أتى الكاتب بهذه الوصمة مضمنة فى عبارة ينقض بعضها بعضا، وهى: «إننا فى الواقع لا نعرف حتى اليوم أسباب التوسع السريع فى فتوحات العرب، ولم نفهم كيف تدهورت أمبراطورية الخلفاء وتمزقت أوصالها، والأسباب التى أدت الى هذا التدهور. نعم لا نعرف كيف أصابها الشلل والموت بسبب العقائد الدينية الصلبة التى تتحكم فى كل ناحية من نواحى حياة المسلم اليومية، وكل مظهر من مظاهر نشاطه».

فهو يعترف بأنه لم يعرف أسباب التوسع السريع فى فتوحات العرب، ولم يعرف أسباب تدهور أمبراطورية الخلفاء، ونحن الى هنا لا نجد وجها لمؤاخذته، وكيف نؤاخذ من يعترف بجهله أمورا معينة؟ ولكنه عاد فقال: «نعم لا نعرف كيف أصابها الشلل والموت بسبب العقائد الدينية الصلبة التى تتحكم فى كل ناحية من نواحى حياة المسلم اليومية، وكل مظهر من مظاهر نشاطه». فكيف نوفق بين اعترافه بجهله أسباب النهوض والتدهور للأمبراطورية الاسلامية فى أول عبارته، وبين تأكيده بأن تلك الأسباب أوجدتها العقائد الاسلامية الجامدة؟

وإنا لسائلو المسيو أندريه هرفيه قائلين: إنه يعترف هنا بأن العرب كانت لهم فتوحات واسعة سريعة، فكيف تسنت لهم وتمت على أيديهم، وهم تحت سلطان عقائد جامدة تصيب أصحابها بالموت والشلل؟

ويعترف أيضا بأن العرب أسسوا أمبراطورية عظيمة ، فكيف أمكنهم تأسيسها وحفظها قرونا عديدة وهم يدينون لعقائد جامدة توجب على الآخذين بها الموت والشلل ؟ ولا يخفاه أن القيام ببناء أمبراطورية يقتضى أصولا وقواعد تقام عليها ، وحوافظ تحفظ بها ، فكيف ساغ للعرب ذلك وهم مصابون بالموت والشلل بسبب عقائدهم الجامدة العقيمة ؟

ويقول المسيو أندريه : إن العقائد الاسلامية تتحكم فى كل ناحية من نواحى حياة المسلم اليومية ، وكل مظهر من مظاهر نشاطه .

ولكن هذا التحكم على إطلاقه لا يعتبر عيبا فى ذاته ، لأن هذا الوصف نفسه ينطبق على علم الأخلاق وعلى دستور الآداب ، فتمييزه للاسلام بهذا الوصف وحده لا يغنى شيئا فى القدح فيه . والحقيقة أنه يريد أن يقول إن الاسلام على ما هو عليه من العقائد الجامدة الموجبة للشلل والموت يتحكم فى كل نواحى الحياة اليومية لمتبعيه .

ولكنه لم يبين لنا ما هى تلك العقائد الجامدة فيه . لعله اكتفى بقوله إن التعاليم الاسلامية لم تكن شيئا غير مصاصة العقل العربى ، وهو ما رددنا عليه فى العدد السابق . إن كان الأمر كما يقول فلم لم يوصل العقل العربى أهله على عهد جاهليتهم الى الاجتماع على حالة أمة ، ولم لم يدفعهم الى الفتوحات الواسعة السريعة ، والى تأسيس أمبراطورية عظيمة كالتى كانت للخلفاء وبقيت عهدا طويلا ؟

مهّد المسيو أندريه لشبهته هذه بأنه يجهل الأسباب التى دعت العرب للتوسع السريع ، والأسباب التى قضت على أمبراطوريتهم بالتدهور ، فكان يجب عليه أن يعرف هذه الأسباب قبل أن يتصدى للتشهير بتعاليم يدين بها نحو ربع سكان الكرة الأرضية ، ولا تزال تُدخل ، كما يقول هو نفسه ، الملايين الكثيرة الى حظيرتها فى كل عام .

لا جرم أن هذا الموضوع جدير بالبحث ، فإن أمة كالأمة العربية عاشت آلافا من السنين على الحالة القبيلية ، تنقلب فى سنين معدودة الى أمة شديدة التماسك ،

قوية الترابط ، فتنهض نهضة قوية تبنى لنفسها بها أمبراطورية لا تشبهها فى السعة وترامى الأطراف أمبراطورية فى العالم حتى ولا فى هذا العهد ، وتستطيع أن تحتفظ بها قرونا طويلة ، قلنا إن أمة كانت على تلك الحال من التفكك ، ثم آلت الى ما آلت اليه فى سنين معدودة ، وتغلبت على أمم كانت على جانب عظيم من النظام الاجتماعى والمدنية ، لا يعقل أن تكون قد وصلت الى هذا المستوى الرفيع وهى مجردة من أصول قوية ، ومبادئ قويمة .

كان يجب على المسيو أندريه هرفيه وهو يعالج مسألة خطيرة كالتى هو بصددها أن يعرف أن اجتماع القبائل المتعادية وقيامها على حالة أمة شديدة التماسك ، متناسية ما كان بينها من الثارات والإحن ، لا يمكن أن يكون ثمرة دعوة ساذجة ، أو بدافع أهواء طائشة ، بدليل أن أمثال هذه الانقلابات فى تاريخ المجتمعات لم تتم إلا بعد حدوث تطور عظيم فى نفسيات الآحاد اقتضته أمور جسام ، وقوارع عظام ، وتولت بناء الوحدات الاجتماعية الجديدة أصول ومبادئ كان مثلها بين الأفراد والجماعات مثل الملاط بين الأحجار إذا أريد تحويلها الى قصور مشيدة . وفوق هذا فإن هذا التحويل يحتاج لمدبر خبير بأصول البناء ، وأسرار تماسكه ، حتى لا ينهار على نفسه من أى ارتجاج يصيبه .

فهل يكفى فى تعليل قيام الوحدة العربية أن يقال إنها ثمرة تعاليم هى مصاصة العقل العربى الجاهلى ، وأن هذه المصاصة كما وحدت الأمة العربية دفعتها لتكوين أمبراطورية عظيمة يحار المسيو أندريه هرفيه فى وجودها وأسباب فهم انحلالها ؟

أم هل يكفى فى تعليل قيامها أن يقال إن هذه التعاليم عقائد جامدة تتحكم فى كل ناحية من نواحى حياة المسلم اليومية ، ولا تزال به حتى تصيبه بالشلل والموت ؟

فهل حدوث هذه الآية الكبرى وهى الوحدة العربية مع ما تقتضيه من تطور يبعث عليها ، وأصول ومبادئ تقيم صرحها ، هو ثمرة تعاليم جامدة تصيب الآخذين بها بالشلل والموت ؟

وهل الانسياح فى الأرض ، والقيام بفتوحات لا عهد للعالم بمثلها ، وتأليف أمبراطورية لم يعهد النوع الانسانى أوسع منها ، هو ثمرة تعاليم جامدة تستولى على عقلية أهلها فتصيبهم بالشلل والموت ؟

وهل دخول مئات الملايين فى هذا الدين ، وتوالى انتشاره فى جميع قارات الأرض متغلبا بدون دعوة على جميع الملل المنافسة له ذات الدعاة الذين ينفقون عشرات الملايين من الجنيهات كل سنة ، هل كل هذا نتيجة تعاليم جامدة لا تدع لأصحابها متنفسا فى الحياة وتصيبهم بالشلل والموت ؟

إنى أكاد أظن أن المسيو أندريه هرفيه يمزح فيما يقول ، أو هو غريب عن البحوث الاجتماعية لا يدرى عن أصول الاجتماع شيئا ، وهذا هو الأرجح .

وكما أنه غريب عن البحوث الاجتماعية كذلك هو غريب عن المسائل النفسية لا يضرب بأقل سهم فيها . فقد عرف الاسلام بأنه مصاصة العقل العربى الجاهلى ووصف تعاليمه بالجمود وبأنها توجب على الآخذ بها الشلل والموت . وسبق له فى أول مقالته أن قال : « أثرت الديانة الاسلامية على المسلمين تأثيرا بدرجة جعلت الأمم الاسلامية أشبه بأمة واحدة مؤلفة من أقطار متنوعة صهرت فى بوتقة واحدة . فالمثل العليا الاسلامية واحدة عند المسلمين ، وتصوراتهم الفلسفية كذلك واحدة . وهم متمسكون تمسكا شديدا باعتقادهم القوى فى سمو عقائدهم الاسلامية المقدسة الخ » .

نقول : يمكننا أن نعقل وجود ديانة ذات تعاليم جامدة موجبة للشلل والموت ، وأن نفهم أن الآخذين بها يتخيلون فى عقائدها السمو ، ويتمسكون بها كل التمسك بحكم وراثتهم لها عن آبائهم ، ووقوعهم تحت سلطان التقليد الأعمى لأوائلهم . ولكن هل نعقل أن يكون لمثل هذه الديانة قوة انتشار ذاتية بحيث تتغلب بدون دعاة على ديانات يعتقد المسيو أندريه هرفيه أنها فى أعلى درجات السمو ، ولها دعاة يستندون الى أقوى دول الأرض ، ويغرون الناس على الدخول فيها بالهيل والهيلمان ؟

اللهم إن هذا غير معقول .

فإن قال المسيو أندريه إن الذين يدخلون فى ديانتكم هـذه طوائف من أمم ليست على درجة من الثقافة العقلية تجعلها تميز بين الغث والثمين ، قلنا : فما ظنك بالأوربيين وقد دخل منهم فيها ألوف ، وقد بدأ غيرهم يعرفون فضلها ويقدرونها قدرها ، بل ما ظنك بكبار الفلاسفة والمفكرين أمثال كارلايل وجوت ولا مرتين وبرنارد شو وسديو وعدد لا يحصى من كبار العقول وقد شهدوا للاسلام بسمو العقائد ، وأصالة الأصول ، وشرف المقاصد ، وبعد الغايات ،والكفاية التامة لحاجات العالم الانسانى الروحية والمادية فى كل زمان ومكان !

إن ساغ للمسيو أندريه أن يقول جزافا إن هؤلاء العلماء قد وهموا فنسبوا مدنية المقهورين للعرب القاهرين ، كما ادعى ذلك ،وسنثبته ونرد عليه ، فهل وهموا أيضا فى نسبة السمو لهذا الدين وكتابه بين أيديهم يتلونه ويتدبرون آياته ، ويتأملون فى بيناته ؟

أما كان يجب على المسيو أندريه هرفيه قبل أن يكتب ما كتب عن دين هو آية الله الكبرى فى الأرض ، أن يقرأ ما كتبه أعلام العلم والفلسفة فيه ليعدل ولو بعض العدل فى الحكم عليه ، بدل أن يصفه بما وصف فجنى على نفسه شر ما يجنيه كاتب عليها ، لأن شيوع البحوث الاسلامية واستفاضة الأقوال عنها جعل أكثر الناس يرون فى أمثال كتابات المسيو أندريه هرفيـه رجوعا الى تضليلات القرون الوسطى حيث كان يأتى كاتب بالساقط من القول طعنا فى دين فيصدقه جميع القارئين ، ويزيدون عليه ، وينقلونه مثقلا بالمضاعفات من كل ضرب !

لقد انقضى ذلك العهد ، ونحن اليوم فى عهد آخر يسوغ فيه لمثل الفيلسوف الكبير (برناردشو) أن يقول: إنه لا يمضى على أوربا قرنان حتى تدخل جميع شعوبها فى الاسلام .

نكتفى بدحض هذه الشبهة اليوم تاركين ما بقى منها للشهور المقبلة إن شاء الله ؟

محمد فريد وجدى

رؤية الهلال

عند الغروب وبعد الفجر

رفع اليّ بعض التونسيين الأزهريين سؤالا يقول فيه :

ما حكم الله إذا شهد شاهدان عند القاضى بأنهما رأيا هلال شوال عند غروب التاسع والعشرين من شهر رمضان ، فحكم القاضى بانتهاء شهر الصوم ، ولكن رآه آخرون بعد الفجر من تلك الليلة فصاموا ولم يفطروا معتقدين أن الشهر ثلاثون لا تسعة وعشرون ؟

أبو القاسم التونسى الأزهرى

الجواب

جاءنا هذا السؤال منذ زمان . وجاءنا اليوم سؤال بمعناه من بعض أساتذة المدارس ؛ وقد طلب منا التوسع فى الجواب ونشره بمجلة الأزهر ، فنقول وبالله التوفيق غير معولين على ظواهر المنقولات ، ولا مايفيده كثير من العبارات ، وإنما نكتب ما يمليه علينا روح الشريعة السامى ، ونظرها البعيد :

من المعلوم أن الاسلام يشرع سمح يأخذ بالظواهر ولا يكلف الناس شططا . فهو يسع الناس جميعا على اختلاف أنظارهم وتباين آرائهم وتنوع اجتهادهم ، علما منه بأن الله لم يخلق الناس على استعداد واحد . بل بينهم من التفاوت فى الاستعداد والتخالف فى التكوين والتباين فى الدرجات والاختلاف فى الآراء والأنظار ما لا يعلمه إلا الله تعالى . ولم يتفق فى أفراد نوع من الأنواع من التفاوت مثل ما اتفق بين أفراد نوع الانسان . والشارع الحكيم عز وجل يعلم ذلك كله من خلقه « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » .

والله يريد أن تكون هداية الاسلام عامة، ورايته شاملة لكل من فيه مثقال ذرة من خير. وقد عرفنا أنه لا ينظر الى الصور ولكن ينظر الى القلوب. وقد جعل للمجتهد أجرا إذا أخطأ وأجرين إذا أصاب، فلم يكتف برفع الإثم عن المخطئ بل جعل له أجرا. ولهذا لم يقل صلى الله عليه وسلم شيئا لمن صلى العصر فى الطريق، ولا لمن أخر الصلاة الى بنى قريظة. ولم يلم على إمام السرية الذى كان يقرأ لهم سورة الإخلاص دائما، ولا قال له إن الصبح يطلب فيها التطويل وإن الظهر تليها. الى آخر ما قرره الفقهاء، بل قال أخبروه أن الله يحبه كما فى الحديث الصحيح، الى آخر ما هو كثير ومعروف من السنة النبوية، والملة المحمدية.

وكأنه صلى الله عليه وسلم لا يريد منا إلا عدم الخروج على الله ورسوله، ولا يكلفنا إلا أن نخلص النيات لله تعالى ونأتى الله بقلب سليم. فالدين الاسلامى لا يتعمق تعمق الجاهلين، ولا يتصلب تصلب الجامدين، ولا يحب نضال المتعصبين، ولا تشدق المتفيهقين ولا تنازع الثرثارين. وما كان شيء أبغض الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفرقة والانقسام.

وكأن المقصود الأسمى من بعثته صلى الله عليه وسلم إنما هو الوئام وإيجاد الألفة والمحبة بين المؤمنين وعدم التفرق فيما بينهم « لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ».

وقد شرع لذلك وسائل كثيرة، حتى جعل المصافحة مكفرة للذنوب، وأمر بإفشاء السلام، وندب الى التهادى. ولم يبالغ فى شيء ما بالغ فى حرمة المسلم كما هو معروف حتى جعله أعظم حرمة من الكعبة، كما فى حديث ابن مالك وغيره. ولولا تلك الأنظار السامية، وذلك التسامح البالغ والرفق المتناهى، لم يكن الاسلام دين الأمم كلها، ولم يصلح إلا لقوم جامدين وطائفة مخصوصين.

اعتبار الاسلام للحقائق :

ولكنه مع هذا كله لا يعتبر إلا الحقائق متى ظهرت ، ولا يعدل عن الواقع متى تبين . فهو دين الحق والعلم ، كما أنه دين الرحمة والحكمة . فمتى عرفنا الحقيقة بأى وسيلة من الوسائل لم نعدل عنها . ومتى قام البرهان على شىء من الأشياء وجب المصير اليه والتعويل عليه . فهو أكبر أنصار العلم ، وأعظم دعاة الحقيقة ، ولكنه لا يحب التنطع الممقوت ولا الفلسفة الحمقاء .

والخلاصة أن الدين الاسلامى لايعدل عما يوجبه الدليل وتقوم عليه الحجة . فهو دين البرهان ودين البيان ، ودين الحقائق والدقائق ، ودين العامة والخاصة ، بأساليب وأسرار تبهر العقلاء وتدهش العلماء . فإذا تبين هذا علمنا أن القاضى الذى حكم على مقتضى بينة المساء لا شىء عليه بعد أن يعتقد أنهم صادقون فيما شهدوا به ، فان كانوا كاذبين فى الواقع متعمدين لذلك فعليهم ما يستحقون من جزاء الكاذبين المضلين . وليس على من اتبع حكم القاضى فى ذلك شىء متى انقدح فى ذهنه صدق الشهود ولم يقم عنده برهان على كذبهم . وكذلك نقول : من رأى القمر بعد الفجر لا شىء عليه ما دام يعتقد أن الشهر باق وأن اليوم من رمضان . وكذلك يجب الصوم على من صدقه واعتقد أن البينة الأخرى كاذبة عمدا أو خطأ . ولا يمكننا أن نفتى بأن أحدا يخالف اعتقاده فى هذا ، وإن كان عليه أن يبحث عما هو الواقع فى نفس الأمر بقدر ما يستطيع . وكيف نلزمه بالفطر وهو يعتقد أن اليوم من رمضان ، أو نوجب عليه الصوم وهو يعتقد أنه يوم عيد ؟ ولا يسعنا أن نقرر إلا أن كلا يتبع ما يعتقد ولا يعدل عنه وأنه إذا خالفه كان منتهكا لحرمة الدين فيما يعتقده . ولم يكلفنا الله بإصابة الواقع ، وإنما كلفنا بالعمل باعتقادنا ، وقد اعتبرنا ما يقرره الفلكيون فى حساب الأوقات وأمر القبلة وغير ذلك ، وقلنا فى كتبنا الفقهية :

قطب السما اجعل حذو أذن يسرى بمصر والعراق حذو الأخرى

الى غير ذلك . وقد أكثر الله من ذكر الشمس والقمر وسيرهما المنتظم فقال : « الشمس والقمر بحسبان » ، « والقمر قدرناه منازل » ، « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » .

ومعرفة علم الفلك من فروض الكفاية على حد محدود ، فلم تهمل الشريعة ذلك بالكلية . وسر ذلك أن عندنا أشياء يمكننا الوصول إليها وأشياء ليست كذلك ، فما كان من قبيل المغيبات والحوادث المستقبلات ، فلا نخوض فيه لئلا نقع فى الغلط والجهل ، وننقاد بغريزة الوهم والخيال الى مهامه لا نحسن السير فيها ، ولا الوقوف على خوافيها . وإن صح أن نقول إن ذلك كله من قبيل الأسباب والمسببات . ولكن لما أله بعض الناس الكواكب نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخوض فى النجوم خوفا من الوقوف معها والانقطاع إليها .

فهذا ما نهينا عنه حرصا على أوقاتنا ، وضنا بعقولنا عن المزالق التى لا علم فيها ولا ضرورة إليها . أما ما يكون من قبيل الحسيات التى عرفنا من مشاهدتها المتكررة أنها من سنن الله التى لا تتبدل ولا تتغير ، فهذه لابد منها ، ولا يمكننا العدول عنها . فإن الحقيقة لا يصح فى نظر الدين الصحيح إغفالها ، ولا القول بما ينافيها ، وإلا كنا قائلين بأن الدين يعادى العلم ، وهو ما نتحاشى عنه ونبرئ الدين منه . فإن كان هناك دين يعادى العلم فليس هو الاسلام الذى حث على الفكر ، ودعا الى النظر فى ملكوت السموات والأرض .

وبعد : فيجوز غلط الشهود فى الرؤية ، ويجوز تعمدهم للكذب ، وكثير من الناس يتخيل ثم يخال . فعلى القاضى أن يتحرى غاية التحرى ، ويتيقظ لأمثال هذه الدقائق حتى يؤدى ما يجب لنفسه وللمسلمين .

غير أن لنا كلمة مع شهود الفجر ، وقد قال المدافعون عنهم إنه لا تمكن رؤية القمر بعد الغروب وبعد الفجر من تلك الليلة وهو ما نخاله صحيحا . ولكن نقول : كيف رأوه

بعد الفجر ليلة ثلاثين والمحاق لا بد منه باعترافهم ؟ وإذا كان هذا الفريق يرى أنه لا بد من المحاق فكيف يسلم رؤية القمر بعد الفجر يوم الثلاثين ؟ وهل لا يجد فى ذلك تنافيا بينه وبين المحاق الذى أوجبه ؟ يجب أن يحرر هذا المقام تحريرا يثلج له الصدر وتطمئن اليه النفس . وقد تكلمت مع بعض الفلكيين عندنا بمصر فقال : إنه لا يمكن أحداً أن يرى الهلال بعد الفجر بالعين المجردة فى ليلة ثلاثين ، فليحرر ذلك من هو أقدر منى على تحريره والدين النصيحة . وليس قصدى أن أحقق المسألة الفلكية عند أربابها ، ولكن الذى أريد أن أقوله هو أن الحقيقة متى تبينت ولو على يد كافر ، وجب اتباعها فى الدين الاسلامى ، ولا يصح غير هذا . ومن المحتمل أن يكون المرئى نجما من النجوم ظنوه قمرا ، أو عرض لهم الخطأ فى ذلك بأى سبب من الأسباب الكثيرة .

وبعد ذلك فلست أدرى بماذا ترجح إحدى الشهادتين على الأخرى واحتمال الصدق والكذب قائم فى كل منهما ، فعلام هذا التنازع وهذه الضوضاء ؟ فأرجو أن يتحرى الفريقان الإنصاف ويدعوا التعسف فيما بينهم ، ولا يتنازعوا فيفشلوا وتذهب ريحهم . وهى كلمة ساقنى اليها حب الوئام وبغض الانقسام . وكل ما أخشاه هو أن يقول المتحذلقون أو الملحدون : إن الدين يعادى العلم ، وهى التهمة التى تلقفها بعض الشبان الأغرار من المسلمين عن ملحدى الأوربيين . وذلك إن صح فهو فى دين غير دين الاسلام كما قلنا . ولا يبعد أن يقوم بعض الناس فيمارضنا ببعض الظواهر من كلام الفقهاء غير راجع الى ذوق الشريعة وما ترمى اليه من أسرار سامية وأنظار بعيدة ، وما يجب لها من الصون عن تعريضها لمقالة الجامدين أو طعن الملحدين . (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم) .

ولسنا نتكلم إلا بما نعرفه من روح الشريعة الحكيمة المطهرة ، ولعل الله يهدى به كثيرا من عباده المنصفين المخلصين .

وللموضوع بقية ، وسنعود اليه فى العدد التالى إن شاء الله ؟

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء

الاسلام والفلسفة

- ٢ -

أثر الترجمة الى العربية :

يعرف التاريخ أن الأمة العربية وثبتْ الى الأمام بعد الاسلام وثبتين هائلتين : إحداهما على أثر إشعاع القرآن فى جنباتها، فأنارها بعد ظلمة ،وهداها بعد حيرة ، ونظمها بعد اضطراب ، لأنه أضاف الى لغتها ألفاظا جديدة وتعبيرات فنية وعلمية لم يكن للعرب عهد بها من قبل ، ففتح بذلك بابا عظيما للثراء اللغوى . وقبل كل هذا نبّه القرآن على وجوب النظر فى الكون العام ، وفى النفس الانسانية ، وفى الأسباب والمسببات كما أسلفنا ، فكان مصباحا أنار لمتتبعيه سبيل الحكمة والفلسفة ، فأخذوا ينتجعونهما ويتطلعون اليهما فى شوق وشغف ، حتى فازوا منهما بحظ وافر .

هذه هى الوثبة الأولى ، أما الثانية فقد كانت بعد نقل الحكمة الهندية والمعارف اليونانية والثقافة الفارسية .

بهذا كله استنار المسلمون ، وعلى أسراره وقفوا ، وبما فيه من خير تهذبوا وتأدبوا ، ولكن بعد أن مزجوه بتعاليم دينهم مزجا جعله صالحا للحياة والخلود .

ولم يختص هذا الأثر الفلسفى طائفة من العرب دون طائفة ، بل شمل جميع الطوائف على اختلاف مناحيها وتباين نزعاتها .

ونحن إذا غادرنا الفلاسفة الى الشعراء والكتاب ، وجدنا قصائدهم وأسفارهم قد امتلأت بأنواع المعارف ، وفاضت على جوانبها ألوان الثقافة من كل مكان .

وإذا تركنا الكتاب والشعراء جانبا ثم عرجنا على الفقهاء والمفسرين وشراح الحديث النبوى ، وجدناهم يستخدمون المنطق فى تأويلهم للقرآن وشرحهم للحديث

واستنباطهم للأحكام الفقهية، مما جعل تلك الأحكام تفوز بأكبر قسط من الاحترام والإجلال فى نظر علماء الغرب المحدثين .

عرف العرب بفضل هذه الترجمة مبدأ الحياة الفلسفية عند هذه الأمم، وتتبعوا أطوار تفكيراتهم ومذاهبهم، فكان لهذا التاريخ المرتب بعضه على بعض أثر بعيد الغور فى العقلية العربية، وإن كانت قد صحبت هذه الحقائق النافعة كمية من الخرافات والأوهام الباطلة، كاعتقادهم مثلا أن « أمبيدوكليس » كان تلميذا لداود أو لسليمان، وأن « فيثاغورس » تخرج فى مدرسة « سليمان بن داود » ولكن ثمين هذه المعارف كان أكثر من مئات أضعاف غثها، وما فيها من أساطير كان ذرة الى جانب أطواد ما فيها من حقائق .

ولولا نكبة الأمم العربية على أيدى « التتار » لشاهد العالم الحديث الآن فى بغداد مكتبة حافلة بأهم ما أنتجته العقلية البشرية فى جميع أنحاء المعمورة الى عصرهم .

هيأت هذه الترجمة تلك المواهب الكامنة فى رءوس المسلمين الى البروز فى عالم الواقعيات، فبرزت بهيئة أدهشت المؤرخين والباحثين، كما سنشير الى ذلك عند الكلام على فلاسفة الاسلام . غير أن هذه الترجمة — فيما روى التاريخ — كانت قاصرة على الحكمة والفلسفة والطب والفلك والرياضة والموسيقى، فلم تتناول الأدب اليونانى، ويعزو المؤرخون نفور المسلمين من أدب اليونان الى ما اشتمل عليه من أساطير وثنية.

هذا هو حال الفلسفة فى الشرق، أما فى الغرب، فقد كان لها شأن آخر يغاير هذا الشأن تمام المغايرة، فى نشأتها وفى كيفية نضوجها، ثم فى نظرة الناس اليها وفى حظها. واليك البيان :

كانت قرطبة تتخذ بغداد مثلا أعلى تسير على نموذجه وتنسج على منواله فى كل شىء، وكانت تغالى مغالاة شديدة فى احتذاء خطواتها، فلما ترامت الأخبار من الشرق الى خلفاء الأندلس بأن بغداد قد أضحت كعبة العلم وعاصمة الثقافة الانسانية،

عز على أولئك الخلفاء أن يقفوا جامدين ، وأندادهم يسيرون ، فبعثوا رسلا أذكياء أكفاء مزودين بمبالغ ضخمة من المال ، وأوصوهم أن يسلكوا الممكن وغير الممكن من الطرق للحصول على أهم ما تتباهى به بغداد من درر العلم وجواهر المعرفة الفلسفية ، فذهب أولئك الرسل ، وبذلوا المال بسخاء ، فعادوا من « دار الحكمة » وقد نقلوا أكثر ما قدمناه اليك من كتب « أرسطو » المترجمة فى بغداد ، وسلموها الى الخلفاء الذين حفظوها بين سحورهم ونحورهم ، ضنابها وحرصا عليها ، وأمروا بنسخ صور كثيرة منها ، فذاعت فى ربوع الأندلس ، ثم تخطت البحر الأبيض الى شمال أفريقيا ، وكان من نتائج ذلك أن تكون فى ظلالها الوارفة أمثال ابن باجة وابن طفيل وابن رشد وابن ميمون وغيرهم من العباقرة والموهوبين . وكانت أنباء أولئك الفلاسفة تتصل بالخلفاء فلا يلاقون منهم إلا كل إعزاز وإجلال ، فزاد هذا فى تشجيعهم ، وضاعف من نشاطهم واجتهادهم ، فسطعت أضواء مواهبهم وكثرت منتجاتهم ، وبرزت مبتكراتهم ، كما سنبين ذلك فى حديثنا عن أشهرهم ، وهو ابن رشد .

يرى بعض الفرنجة أن الفلسفة الاسلامية الغربية كانت أخصب من أختها الشرقية ، ويرجعون هذا الفرق الى علة البيئة الطبيعية التى هى فى الأندلس أخصب منها فى بغداد . ونحن أولا ، لا نسلم بأن الفارابى — وله ما ستراه من إبداع فى العقول العشرة وفى غيرها من المناحى الفلسفية ، ولا بأن ابن سينا ، وله تلك المبتكرات فى النفوس الفلكية وفى النفس الانسانية وفى مصادر المعرفة البشرية وفى غير ذلك — لا نسلم بأن هذين الفيلسوفين أقل قيمة من ابن رشد . على أننا لو سلمنا بهذا لم نعزه الى ذلك السبب الذى عزاه اليه الغربيون ، وإنما نعزوه الى التقدم الزمنى ، والى نضوج الفلسفة الاسلامية ، والى اطلاع ابن رشد على ما كتبه الكندى والفارابى وابن سينا وعلى ردود أمثال الامام الغزالى عليهم ، وما نجم عن ذلك من توضيح المشاكل وتصفية المجادلات .

ومهما يكن من الأمر ، فقد ظلت الفلسفة فى الغرب مستمتعة بعطف الملوك وتشجيعهم ، حتى خلف من بعدهم خلف ضيق العقل ، محصور الذهن يمكن أن يقع فى قبضة خداع ذوى الأغراض السيئة كالخليفة المنصور الأندلسى الذى دس عنده جماعة من الخبثاء لابن رشد ، فأوقع به شر إيقاع ، وأمر بإحراق كتبه ، بل بإحراق كل كتب الفلسفة من غير استثناء . ولولا أن قيض الله لحفظ هذه الكتب القيمة تلاميذ ابن رشد من اليهود ، لأصبحت الآن فى خبر كان ، كما سنفصل ذلك فيما بعد .

لما نفى ابن رشد فر تلاميذه من اليهود بكتبه ونقلوها الى العبرية ثم نشروها بين الأوربيين ، فنقلها هؤلاء الى لغاتهم المختلفة ، فكانت مبعث حياتهم العلمية ، ومصدر معرفتهم الفلسفية ، ومطلع شمس نهضتهم العقلية ، كما صرح بذلك علماؤهم وفلاسفتهم . أما الظاهرة العامة لجميع فلاسفة الاسلام من شرقيين وغربيين ، فهى محاولة تضييق هوة الخلاف بقدر الإمكان بين الدين والفلسفة ، فما مجهود الفارابى فى العقول العشرة إلا ليوفق بين عقيدة خلق الله للكون وبين القواعد اليونانية الثلاث :

(١) « الكامل من كل وجه لا يصدر عنه إلا كامل » . (٢) « الواحد من كل وجه لا يصدر عنه إلا واحد » . (٣) « العدم لا ينتج وجودا » .

قرر القرآن فى مواضع كثيرة أن الله هو خالق كل شىء ، وأعلنت القاعدة اليونانية القديمة أن صدور الكثرة عن الواحد محال ، لأن هذا الصدور يقتضى إما تكثر الواحد أو توحيد الكثرة ، وكلاهما محال . وإذاً فصدور العالم المتكثر عن الإله الواحد غير ممكن . وقررت القاعدة الثانية أن الإله كامل والعالم ناقص ، ولا يمكن أن يصدر الثانى عن الأول إلا إذا نقص الأول أو كمل الثانى ، وكلاهما محال ، لأن نقص الإله ينافى ألوهيته ، وكمال العالم يناقض الواقع المشاهد . وإذاً فلا يمكن أن يكون الاله هو مبدع العالم . وصرحت القاعدة الثالثة بأن إنشاء الله العالم غير ممكن ، لأن الانشاء هو خلق من عدم ، ومن المستحيل أن ينشأ الوجود من عدم .

فلما رأى الفارابى هذه القواعد ووجد أرسطو – وهو فى نظره المثل الأعلى – يؤمن ، لم يسعه إلا أن يسلك الممكن وغير الممكن من الوسائل ، ليوفق بين القرآن وبين تلك القواعد ، فأجهد عقله حتى نظم مسألة العقول العشرة التى قرر فيها أن العقل الأول صدر عن الله صدور المعلول عن علته ، وهو واحد ، فلا مانع من صدوره عن الواحد ، وهو كامل ، فلا بأس بصدوره عن الكامل ، وهو معلول للقديم فلم ينشأ عن عدم . ثم تدرج الى تأثير العقل الأول فيما بعده من عقول حتى وصل الى العقل العاشر المؤثر فى فلك القمر . وهذا الأخير هو منشئ العوالم الدنيا ، ولا ضير فى ذلك ، لأن فلك القمر ليس واحدا من كل وجه . فلا مانع من أن تصدر عنه الكثرة ، وليس كاملا من كل وجه ، فلا مانع من أن يصدر عنه العالم الناقص ، وبهذا التكلف حسب الفارابى أنه نجح فى التوفيق بين الاسلام والفلسفة اليونانية ، مع أنى أنا أعتقد أن « أمينيوس ساكاس » و «أفلوطين» قد وفقا فى هذا الشأن وهما ليسا مسلمين – الى ما لم يوفق اليه الفارابى ، حيث قررا أن لا مانع من صدور الكثرة عن الواحد مع احتفاظه بوحدانيته ، كما يوقد من المصباح الواحد مائة مصباح ، وكما يكوّن الأستاذ مائة تلميذ بعلمه ، وكذلك لا مانع من صدور الناقص عن الكامل ، لأن الكمال الأعلى لا يقوى شىء مما هو دونه على نقصه ، وإلا لقويت القاذورات الملقاة على الأرض على إنقاص أو تدنيس أشعة الشمس المنسكبة عليها . أما كون العدم لا ينتج وجودا فانهما قررا فيه أن نورا صدر عن الله وأخذ يبتعد عن مصدره قليلا قليلا ، وبقدر هذا البعد تلحقه الظلمة حتى إذا تناهى فى هذا البعد صار مادة مظلمة ، منها تكوّن العالم الناقص ، وإذاً فالمادة حادثة صادرة عن الله صدور المخلوق عن الخالق .

فلو أن الفارابى وفق الى مثل هذه الردود ، لكان أكثر قربا الى الاسلام ، ولكن الذى هوى به فى هذا هو أنه قدس تلك القواعد اليونانية ، ورفعها عن مواطن النقد

والتجريح ، وجعلها هى المركز الثابت الذى يجب سحب الاسلام اليه . ولو كان عكس لنجح فى الملاءمة بين الدين وتلك القواعد .

أما «ساكاس» و« أفلوطين» فقد اعتبراها نظريات قابلة للنقد والنقض والهدم ، وجعلا المركز الثابت هو المنطق المستقيم ، وأخذا يجذبان اليه كل تلك النظريات القديمة ، فما اتفق منها مع المنطق احترماه وأجلاه ، وما نبا عنه ألقيا به فى مكان سحيق من الإهمال والإغضاء .

وكذلك لم يكن عناء ابن سينا وتمحله مسألة علم الله للجزئيات عن طريق النفوس الفلكية إلا ليوفق بين الاسلام الذى يجزم بأن الله « يعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » وبين قول « أرسطو » : إن الله ترفع عن العلم بالعالم ، لأن علم الكامل بالناقص ينقصه . فأراد ابن سينا أن يتمحل وساطة النفوس الفلكية بين الله الكامل و بين العالم الناقص ، لكى ينتفى العلم المباشر الذى هو منشأ النقص عند « أرسطو » ، وحسب أن هذا التكلف يحقق غايته من التوفيق بين الاسلام و « أرسطو » فأخفق .

أما ابن رشد فأمامنا كتابه الشهير المسمى : «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » وهو أكبر برهان على ما نقول من محاولة جميع هؤلاء الفلاسفة التقريب بين الفلسفة والدين ، ولكنه تقريب خاضع دائما لقاعدتهم المعكوسة التى قدمناها اليك .

على أن هذا لا يمنع من أن لهم جهودا محترمة وفلسفات قيمة سنحدثك عنها فى فصول آتية ، إن شاء الله ؟

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

أسلوب القرآن الحكيم

وأثره فى الادب

نزل القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم معجزة للدلالة على صدق رسالته ، ودستورا أبديا جامعا لطرائق السعادة التشريعية للأمة الاسلامية ، وقد لقى من عناد العرب — وهم يومئذ غطارفة البلاغة — ما لم يلقه كتاب قبله ، فتحداهم أن يأتوا بمثله إن كانوا صادقين ، وسخر منهم ، وأنبأهم بعجزهم وعجز الحياة كلها لو تظاهرت على مباراته أن تأتى بكتاب مثله ، فى حكمه وأحكامه ، وأسلوبه وبراعته : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

أما الإعجاز التشريعى والاجتماعى فقد تكفلت ببيانه الحياة ، وقام بشرحه العلم ، وتولى الفكر الانسانى تبليغه الى الناس أجمعين .

وأما الإعجاز البلاغى فهو الذى يعنى الأديب العربى ، ليعرف به مدى تأثير أسلوب القرآن فى الأساليب الأدبية وفوقه عليها ، ولهذا الغرض قامت علوم البلاغة العربية لتقرب الى الأذهان فهم الجمال الفنى فى القرآن الحكيم .

كان القرآن ولا يزال صورة جديدة من الأدب الحى الرائع فى نظر الفحول من مصاقع العرب وفصحائهم ، بعد أن جالوا فى مسارحه ، وتفيّئوا ظلاله ، وأشربوا حبه ، وتفهموا أسلوبه ، واهتدوا بهديه ، وآمنوا بتعاليمه وأحكامه ، فاتخذوه مثلهم الأعلى فى السمو الأدبى ، يتأثرون أثره ، ويستنون سنته ، فاتجهوا بالأدب اتجاها جديدا فى عباراته وأسلوبه ومعانيه وروحه ، وكان من أثر ذلك أن استحدثت ألفاظ جديدة لمعان مستحدثة ، وأميتت ألفاظ لم تكن متناسبة مع الحياة الجديدة ، واستبدلت

بالكلمات الكزة الجافية التى كانت تلائم الحياة الجاهلية، كلمات رقيقة عذبة، لها حلاوة فى الأسماع وأنس فى القلوب، وانتهجت مناهج فى الدين والعلم والسياسة والاجتماع والأخلاق طلبت العبارة عنها، وأداءها أداء يتفق وطبيعتها الناشئة، كل ذلك وجوده فى القرآن يصفه ويتحدث عنه أحسن الحديث، فما كان عليهم إلا أن يحتذوا حذوه ويأخذوا إخذه.

كان العرب يحفلون بالشعر ويعتزون به، فبلغ عندهم من ناحية الأسلوب ومتانة العبارة غاية لن يستطيع أحد بعدهم أن يدنو منها. أما النثر فكان حظهم أو حظ ما وصلنا منه ضئيلا بالنسبة للشعر، فمجموعة الخطب والوصايا والمحاورات التى بين أيدينا من نثر العرب قبل الاسلام تشبه أن تكون صورة واحدة قليلة التنوع خالية من المعانى الإصلاحية التى تحتاج إليها الأمم فى تكوينها الاجتماعى، وهى على ما فيها من هذا النقص تشتمل على كثير من وحشى الألفاظ وغريبها، فلما حل القرآن من نفوسهم محل الجلال والعظمة، طرحوا من أيديهم زمام ذلك النثر، وتركوه حيث ولد فى البوادى، فلم يبق منه إلا الشىء القليل، وعكفوا على القرآن يقتبسون من أسلوبه، ويوشحون خطبهم ورسائلهم بآياته، ويتكلمون فى موضوعات لم يكن لهم فيها من قبل مجال، وظهر أثر أسلوب القرآن فى النثر ظهورا بينا، تقرؤه فى خطب الخلفاء الراشدين وخطباء الاسلام.

أما الشعر فكان نقد القرآن بالنسبة اليه موجها الى الشعراء أنفسهم الذين اتخذوا هذا الفن الجميل مطية الى الإقذاع فى الهجاء، والكذب فى المدح والرثاء، والفحش فى مغازلة النساء، وتأريث العداوة والبغضاء، فقال تعالى: « والشعراء يتّبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون، وأنهم يقولون مالا يفعلون » ولم يمسّ نقدُ القرآن الشعرَ باعتباره فنا من فنون التعبير عن الحياة، ولكنه كان استصلاحا له مما ورطه فيه الشعراء. ولذلك استثنى نوعا منهم يستطيعون بشاعريتهم الطاهرة النقية أن يسموا

بالفن عن سفساف الأمور ودنيئاتها ، فقال : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظُلِموا » .

وقد أفاد الشعر من هذا النقد المباشر فائدة لم تكن كفائدة النثر ، ولعل ذلك راجع الى نفوس الشعراء وما طبعوا عليه فى تلك البيئات التى كانت تسودها العصبية وما يصاحبها من الشرور الخلقية ، ولما يمض زمن يسير حتى عادت جذعة فى عصر الأمويين ، فعادوا لما كانوا عليه ، وعاد الشعر الى حالته الأولى ، ولكنه تأثر كثيرا بأسلوب القرآن فى لين عبارته وحلاوة كلماته وسلاسة أسلوبه ولطف استعاراته .

ومهما يكن فان النثر كان أشد نوعى الأدب تأثرا بالقرآن ، لأن الحقائق العملية والعلمية التى يقوم عليها إصلاح الأمم ، والتى جاء بها القرآن لا يستطيع الشعر أن يصورها تصويرا كاملا ، وهو حافظ لجلاله وروعته وموسيقية وزنه ، فتطامن أمام النثر الأدبى فى صدر الاسلام ، وخفَت صوته قليلا ، وعلا صوت النثر جهيرا .

فارق القرآن الحكيم الشعر الموزون المقفى بأسلوبه ، وأبى الله تعالى أن يعلّم خاتم رسله الى الانسانية الشعر ، فقال تعالى : « وما علّمناه الشعر وما ينبغى له » . والذى يظهر لنا فى تعليل ذلك أن قيود القافية والوزن فى الشعر تحول بينه وبين أن يكون أداة لتبليغ رسالة سماوية عامة الى كافة الخلق فى أقطار الأرض على اختلاف ألسنتهم وأفكارهم وطبائعهم وبيئاتهم وأحوالهم فى المعاش والمعاد .

فالقرآن حاور وجادل ، وهدم وبنى ، ووعظ وزجر ، ووعد وأوعد ، وهدد ورغب ، ووصف وصور وقص ، وأمر ونهى ، بأسلوب مختلف باختلاف مقام الكلام والمخاطبين ، وإن اتحد فى تساميه عن طوق البشر ، وهو يردد المعنى الواحد بطرق كثيرة ، ليبلغ به الى منافذ القلوب .

فانظر الى تمثيله حال الكافرين الذين يعملون فى هذه الدنيا من الخير والبر ما يحجب الكفرُ نفعه وفائدته عنهم ، لأنهم أبوا الانقياد لله تعالى وهو مصدر كل خير وبر وإنعام ،

قال عزوجل: « مثل الذين كفروا بربهم أعمالُهم كرَماد اشتدّت به الريح فى يوم عاصف لا يقدِرون مما كسبوا على شيء، ذلك هو الضلال البعيد» .

فتأمل المشبه به وما أجرى عليه من الوصف المقيد، ثم التعقيب بعجزهم عما كسبوه لأنفسهم، تدرك بداهة أن حالهم هذا هو الضلال البعيد .

وقال فى آية أخرى: « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب، أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها، ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور» .

هـذا التنويع فى التمثيل من أسرار الإعجاز فى القرآن، فهناك مثّل أعمالهم برماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف، وهنا مثلها بسراب يظنه الظمآن ماء حتى إذا جاءه ليروى منه ظمأه لم يجده شيئا، وهو أصدق تمثيل لحال الكافر مع أعماله التى يرجو منها النفع فلا يجده عند الحاجة اليه. أما التمثيل الثانى فهو أعجب وأبدع وأبلغ، وهو تصوير امتاز به القرآن، واستحدثه، لأنه طرز غير معهود فى أساليب العرب وتشبيهاتهم، على خلاف الضربين الأولين فإنهما معهودان، وجرى بهما العرف الكلامى فى لغة العرب. لكن التمثيل بالظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، لم يألفه العرب، ولا هو مما تساعد عليه بيئتهم، وفى قوله جل شأنه « ظلمات بعضها فوق بعض » بيان للمقصود من التمثيل، مع أن التمثيل أفاده للدلالة على أن حالة الكافر مهما عمل من البر والخير مغلقة الأبواب على نور الرحمة الإلهية تغليقا لا يجعل له طريقا الى خيط من الكرامة التى أعدها الله لعباده المؤمنين. وقد أكد هذا أبلغ تأكيد بقوله: « إذا أخرج يده لم يكد يراها » . ثم ختم الآية بما يلائم التشبيهين ويرد الأمر الى جلال الله وهدايته، طمأنة للمؤمنين وتبكيتا للكافرين.

أما مقام القرآن من منثور الكلام فهو فى الذروة لا يطاوله كلام، ولا يجاريه

أسلوب ، بلاغة باهرة ، وفصاحة بارعة ، وقول فصل ، وآيات إعجاز ، فى حلاوة وطلاوة وجزالة ونصاعة ، وبيان فائق ، وتعبير رائق . بيد أن العلماء اختلفوا فى وصف أسلوب القرآن : هـل يصفونه بأوصاف كلام البشر ويبين عنه بالإعجاز مع الاتفاق فى أصـل النوعية ، أو يخرجونه عن نوع كلام الناس بتة ، فيكون نوعا من الـكلام مستقلا ؟

ذهب المتـكلمون الى أنه خارج عن أسلوب كلام العـرب ، فلا يقال له مرسل ، ولا مسجوع ، وشددوا فى نفى السجع ، وأقاموا على هذا النفى أدلة على نهجهم وطريقتهم ، فقال القاضى أبو بكر الباقلانى : « لو كان القرآن سجعا لـكان غير خارج عن أساليب كلامهم ، ولو كان داخلا فيها لم يقـع بذلك إعجاز .... ولأن السجع من الـكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى السجع »

وذهب الى هذا المذهب العلامة ابن خلدون فقال فى المقدمة : « وأما القرآن وإن كان من المنثور إلا أنه خارج عن الوصفين ، وليس يسمى مرسلا مطلقا ، ولا مسجعا ، بل تفصيل آيات ينتهى الى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الـكلام عندها ، ثم يعاد الـكلام فى الآية الأخرى بعدها ويثنى من غير التزام حرف يـكون سجعا ولا قافية ، وهو معنى قوله تعالى : « الله نزّل أحسن الحـديث كتابا متشابها مَثانىَ تقشعر منه جـلود الذين يخشون ربهم » وقال : « قد فصّلنا الآيات » ويسمى آخر الآيات منها فواصل إذ ليست أسجاعا ، ولا التزم فيها ما يلتزمه السجع .

وذهب جماعة من علماء البلاغة والأدب الى أن أسلوب القرآن وإن سما الى ذروة الإعجاز لـكنه لا يخرج عن جنس منثور الـكلام ، قال ابن الأثير فى « المثل السائر » : لو كان السجع مذموما لما ورد فى القرآن الـكريم ، فإنه قد أتى منه بالـكثير حتى إنه ليؤتى بالسورة جميعا مسجوعة ، كسورة الرحمن ، وسورة القمر . وقال أبو هـلال العسكرى فى « الصناعتين » : ولا تـكاد تجد لبليغ كلاما يخلو من الازدواج ،

ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن لأنه فى نظمه خارج من كلام الخلق ، وقد كثر الازدواج فيه حتى حصل فى أوساط الآيات ، فضلا عما تزاوج فى الفواصل منه .

والذى يترجح عند البحث من هذين المذهبين إنما هو مذهب الأدباء . والبيان بالإيجاز كما تسمع :

لم يقل أحد إن القرآن كله سجع ، ووجود السجع فى بعض سوره لا يجعله داخلا فى أساليب كلام البشر دخولا يستوى به معها ، ومن الذى يستطيع أن يزعم أن أسارب السجع كله واحد فى بلاغته ؟ أفلا يجوز أن يوجد من كلام الناس كلام مسجوع يتفاوت فيما بينه فى البلاغة تفاوتا عظيما ؟ ولم لا يكون فى أسلوب القرآن سجع يسمو على طوق البشر مع كونه أشبه فى ظاهر نسجه بكلامهم ، ويكون ذلك أبلغ فى الإعجاز ؟

أما أن السجع من الكلام يتبع فيه المعنى اللفظ ، فليس هذا الإلزام لازما ، لأنه قد يصح فى أسجاع الصنعة والتكلف ولا ينطبق على السجع المطبوع ، لأنه يجرى على سنن الكلام المطلق ، فيقع فيه اللفظ تابعا للمعنى . قال ابن الأثير «فى المثل السائر» : فإذا صفى الكلام المسجوع من الغثاثة والبرد فإن وراء ذلك مطلوبا آخر ، وهو أن يكون اللفظ فيه تابعا للمعنى ، لا أن يكون المعنى فيه تابعا للفظ . ولست أدرى كيف ساغ هذا الإلزام فى كلام القادر الحكيم ؟

وخلاصة الرأى أن القرآن الحكيم من جنس منثور الكلام فى لفظه وعباراته ، ولكنه مباين لكلام الخلق فى نظمه وأسلوبه ، فهو من المنثور الجامع لأرقى فنونه ، وأبلغ أنواعه ، ففيه سجع يقتضيه المقام وترسّل يبلغ غاية المرام ، وهو فى كليهما معجز خارج عن طوق البشر ؟

صادق ابراهيم عرجون

فتوى المرحوم
الشيخ بخيت فى تشريح الميت

اطلعت على فتوى الأستاذ الجليل الشيخ يوسف الدجوى ، فى تشريح الميت فى العدد السابع من مجلة الأزهر الغراء . ولما كان التشريح قد توسع فيه الأطباء المصريون توسعا غير معقول ، ولم يراعوا أن حرمة المؤمن ميتا كحرمته حيا ، فنطلب من الأستاذ الجليل الشيخ الدجوى أن يتكرم علينا بالإفاضة فى الموضوع ثانيا حتى تطمئن القلوب ، ويعلم الأطباء جميعا أن التشريح أمر خطير لا يجوز الإقدام عليه إلا عند الضرورة القصوى ، والحاجة الملحة . وحبذا لو سأل الأطباء الذين يخافون الله عن تحديد مواضع الضرورة التى يتوقف عليها تقدم الطب ، وعما إذا كان يمكن الاستغناء بتشريح بعض الحيوانات المقاربة للانسان فى الخلقة عن تشريح الانسان نفسه . وإننا لا ندرى ما يفعله الأوربيون فى بلادهم : هل يكثر التشريح عندهم كثرته عندنا ، مع ملاحظة أنهم أبرع من المصريين فى فن الطب ؟ وهل يستهينون بحرمة الميت استهانتنا بحرمة أمواتنا ؟ وهل الضرورات التى تلجئهم الى تشريح الميت مثل الضرورات التى يتعلل بها أطباؤنا ؟

فنرجو من مولانا الجليل الشيخ الدجوى أن يبين لنا هذا الموضوع بيانا شافيا ، وأن يفيض فيه بما يشرح الصدور ، ويطمئن القلوب كعادته فى جميع فتاواه ، كما نرجو من الأطباء الذين يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ، أن يبينوا لنا الى أى حد يتوقف تقدم الطب على التشريح .

وإننى أرى من الواجب علىّ شرعا أن أسطر للقراء فتوى الأستاذ الكبير الشيخ محمد بخيت رحمه الله فى شأن تشريح الميت حينما سألته عن حكمه فى دين الاسلام . ونسأل الله أن يوفقنا للعمل الصالح ، والقول السديد .

محمد عبد الوهاب بحيرى
بكلية الشريعة

نص الفتوى :

وأما حكم التشريح فى الاسلام ، فنقول :

إن من ضروريات التشريح فتح بطن الميت ، وقال ابن قدامة فى المغنى فى حكم فتح بطن الميت فى الجزء الثانى صفحة ٤١٣ ما نصه :

« والمرأة إذا ماتت وفى بطنها ولد لا يتحرك فلا يشق بطنها ، ويسطو عليه القوابل فيخرجنه » — قال الشارح :

« معنى يسطو القوابل أن يدخلن أيديهن فى فرجها ، فيخرجن الولد من مخرجه ، والمذهب أنه لا يشق بطن الميتة لإخراج ولدها ، مسلمة كانت أو ذمية ، وتخرجه القوابل إن علمت حياته بحركة ، وإن لم يوجد نساء لم يسط الرجال عليه ، وتترك أمه حتى يتيقن موته ، ثم تدفن . ومذهب مالك وإسحاق قريب من هذا .

ويحتمل أن يشق بطن الأم إن غلب على الظن أن الجنين يحيا ، وهو مذهب الشافعى لأنه إتلاف جزء من الميت لإبقاء حى ، فجاز كما لو خرج بعضه حيا ، ولم يمكن خروج بقيته إلا بشق ، ولأنه يشق لإخراج المال منه فلإبقاء الحى أولى .

ولنا أن هذا الولد لا يعيش عادة ولا يتحقق أنه يحيا ، فلا يجوز هتك حرمة متيقنة لأمر موهوم ، وقد قال عليه السلام : « كسر عظم الميت ككسر عظم الحى » رواه أبو داود ، وفيه مثلة وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن المثلة »

ثم قال :

« وإن بلع الميت مالا لم يخل من أن يكون له أو لغيره ، فإن كان له لم يشق بطنه لأنه استهلكه فى حياته . ويحتمل أنه إن كان يسيرا ترك ، وإن كثرت قيمته شق بطنه وأخرج ، لأن فيه حفظ المال عن الضياع ، ونفع الورثة الذين تعلق حقهم بماله بمرضه . وإن كان المال لغيره وابتلعه بإذنه فهو كما له لأن صاحبه أذن فى إتلافه .
وإن بلعه غصبا ففيه وجهان : أحدهما : لايشق بطنه ، ويغرم من تركته ، لأنه إذا لم يشق

من أجل الولد المرجو حياته فمن أجل المال أولى . والثانى : يشق إن كان كثيرا لأن فيه دفع الضرر عن المالك برد ماله اليه ، وعن الميت بإبراء ذمته ، وعن الورثة بحفظ التركة لهم . ويفارق الجنين من وجهين : أحدهما أنه لا يتحقق حياته ، والثانى أنه ما حصل بجنايته . فعلى هذا الوجه إذا بلى جسده وغلب على الظن ظهور المال وتخلصه من أعضاء الميت ، جاز نبشه وإخراجه .

وقد روى أبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « هذا قبر أبى رغال وآية ذلك أن معه غصنا من ذهب ، إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه معه » فابتدرة الناس فاستخرجوا الغصن .

ولو كان فى أذن الميت حلق أو فى إصبعه خاتم أخذ ، فإن صعب أخذه بُرِد وأخذ لأن تركه تضييع للمال ، وإن وقع فى القبر ماله قيمة نبش وأخرج .

وقال أحمد : إذا نسى الفحار مسحاته فى القبر جاز أن ينبش عليها . وقال فى الشىء يسقط فى القبر مثل الفأس والدراهم : ينبش ، قال : إذا كان له قيمة ، يعنى ينبش ، قيل فإن أعطاه أولياء الميت ؟ قال : إن أعطوه حقه أى شىء يريد ؟

وقد روى أن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه طُرح خاتمه فى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : خاتمى ، ففتح موضع فيه فأخذه ، وكان يقول : أنا أقربكم عهدا برسول الله صلى الله عليه وسلم »

ولأنه قال فى المهذب لأبى إسحاق الشيرازى فى صفحة ٣٠٠ من الجزء الخامس : « وإن وقع فى القبر مال لآدمى فطالب به صاحبه ، نبش القبر ، لما روى أن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه طرح خاتمه فى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : خاتمى ، ففتح موضع فيه فأخذه ، وكان يقول : أنا أقربكم عهدا برسول الله صلى الله عليه وسلم . ولأنه يمكن رد المال الى صاحبه من غير ضرر ، فوجب رده عليه . وإن بلع الميت جوهرة لغيره وطالب بها صاحبها ، شق جوفه وردت الجوهرة . وإن كانت الجوهرة له ففيه وجهان :

أحدهما : يشق لأنها صارت للورثة فهى كجوهرة الأجنبي . الثانى : لا يجب لأنه استهلكها فى حياته فلم يتعلق بها حق الورثة »

قال شارحه النووى فى المجموع :

« أما إذا بلع جوهرة لغيره أو غيرها فطريقان : الصحيح منهما وبه قطع المصنف والأصحاب فى معظم الطرق أنه إذا كان طلبها صاحبها شق جوفه وردت الى صاحبها . والطريق الثانى : فيه وجهان ممن حكاه المتولى والبغوى والشاشى أصحهما هذا . والثانى : لا يشق بل يجب قيمتها فى تركته لحديث عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كسر عظم الميت ككسره حيا » رواه أبو داود بإسناد صحيح إلا رجلا واحدا وهو سعد بن سعيد الأنصارى أخو يحيى بن سعيد الأنصارى ، فضعفه أحمد ابن حنبل ، ووثقه الأكثرون وروى له مسلم فى صحيحه ، وهو كاف فى الاحتجاج به ولم يضعفه أبو داود مع قاعدته التى قدمنا بيانها . قالوا ووجه الدلالة من هذا الحديث أن كسر العظم وشق الجوف فى الحياة لا يجوز لاستخراج جوهرة وغيرها ، فكذا بعد الموت .

وحكى الرافعى عن أبى المكارم صاحب العدة « وهو غير صاحب العدة أبى عبد الله الحسين بن على الطبرى الإمام المشهور الذى ينقل عنه صاحب البيان وأطلقه أنا فى هذا الشرح » أنه قال يشق جوفه إلا أن يضمن الورثة قيمته أو مثله فلا يشق فى أصح الوجهين ، وهذا النقل غريب . والمشهور للأصحاب إطلاق الشق من غير تفصيل . أما إذا بلع جوهرة لنفسه فوجهان مشهوران ذكر المصنف دليلهما قل من بين الأصح منهما مع شهرتهما ، فصحح الجرجانى فى الشافى والعبدرى فى الكفاية الشق ، وقطع المحاملى فى المقنع بأنه لا يشق ، وصححه القاضى أبو الطيب فى كتابة المجرد . قال الشيخ أبو حامد فى التعليق : وقول الأول إنها صارت للوارث غلط ، لأنها إنما تصير للوارث إذا كانت موجودة ، فأما المستهلكة فلا ، وهذه مستهلكة . وأجاب الأول عن هذا بأنها كانت مستهلكة لما شق جوفه بجوهرة الأجنبي . وحيث قلنا يشق جوفه وتخرج ،

فلو دفن قبل الشق نبش لذلك . هذا تفصيل مذهبنا . وقال أبو حنيفة وسحنون المالكى : يشق مطلقا . وقال أحمد وابن حبيب المالكى : لا يشق » .

من هذا يعلم أن الميت فى احترامه ووجوب عدم إهانته كالحى سواء بسواء ، فإذا مات لا تجوز إهانته بعد موته كما لا تجوز إهانته فى حياته وإن اختلف العلماء فى الشق وعدمه فى مواضع ، لكن الذى يؤخذ من كلامهم جميعا وجوب احترام الإنسان ميتاً كوجوب احترامه حياً . وبناء على ذلك فلا يجوز شق بطن أى ميت كان إلا فى المواد المتقدمة . وأن التشريح الذى من لوازمه شق البطن بلا سبب سوى بحث الأعضاء ومعرفة وظائفها وما بها من الأمراض فهذا لا يسوغ ولا يجيز فتح بطن الإنسان بعد موته . ويمكن الوقوف على وظائف الأعضاء بواسطة فتح بطن حيوان آخر غير الانسان ، لأن كل الحيوانات متساوية فى وظائف الأعضاء الحيوانية .

والأصل فى ذلك كله ما جاء فى الحديث الصحيح ، قال فى سنن أبى داود قال حدثنا القعنبى حدثنا عبد العزيز بن محمد عن سعد يعنى ابن سعيد عن عمرة بن عبد الرحمن عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كسر عظم الميت ككسره حيا » قال فى عون المعبود فى ص ٣٠٤ من الجزء الثالث : « قال السيوطى فى بيان سبب الحديث : عن جابر خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة فجلس النبى صلى الله عليه وسلم على شفير القبر وجلسنا معه فأخرج الحفار عظما ـ ساق أو عضد ـ فذهب ليكسره فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا تكسرها فإن كسرك إياه ميتا ككسرك إياه حيا ولكن دسه فى جانب القبر » قال فى فتح الودود ككسره حيا يعنى فى الإثم كما فى رواية . قال : الطيبى : إشارة الى أنه لا يهان ميتا كما لا يهان حيا . قال ابن الملك : والى أن الميت يتألم . قال ابن حجر : ومن لوازمه أن يستلذ بما يستلذ به الحى اه وقد أخرج بن أبى شيبة عن ابن مسعود قال : « أذى المؤمن فى موته كأذاه فى حياته . قال فى المرقاة وقال المنذرى والحديث أخرجه ابن ماجه » .

وقال فى التعليق المحمود شرحا على هذا الحديث فى صفحة ٣٥٨ من الجزء الثانى

مثـل ما ذكره بعون المعبود . وفيما قاله ابن الملك وابن حجر نظر ، لأن الميت بالموت يفقد الإحساس بالمـرة فلا يمكن أن يتألم بحـال أو يلتذ بحـال بالألم واللذة المعروفين فى الحياة الدنيا ، ولذلك اقتصر صاحب فتح الودود على قوله « فى الاثم » واقتصر الطيبى على التسوية فى عدم الإهانة .

وقال فى الهـداية فى صفحة ٩٩ من الجزء الرابع : « ومن قال لآخر إن ضربتك فعبدى حر فمات فضربه فهو على الحياة ، لأن الضرب اسم لفعـل مؤلم يتصل بالبدن والإيلام لا يتحقق فى الميت ، ومن يعذب فى القبر توضع فيه الحياة فى قول العامة »

قال ابن الهمام عليـه : « ومن قال إن ضربتك فعبدى حر فهو على الحياة حتى إذا مات فضربه لا يحنث ، لأن الضرب اسم لفعل مؤلم يتصل بالبـدن . أو استعمال آلة التأديب فى محل قابل للتأديب والإيلام والأدب لا يتحقق فى الميت لأنه لا يحس » وقال فى موضع آخر بعد ذلك : « وإلا فلا يتصور من عاقل القول بالعذاب مع عـدم الاحساس » وقال مثله فى المغنى فى الـكنز وفى الدر أيضا .

ومن ذلك يعلم أن قول ابن الملك إنه يتألم ، يجب تأويله بأنه يتألم لوكان حيا ويـكون إشارة الى أن إهانة الميت إنمـا تـكون بمـا يهان به حيا ، فمـا يؤلمه حيا يمنع فعله به ميتا . ومن هذا يعلم أن التشريح الذى من لوازمه فتح البطن كما قلنا لا يجوز . نعم فتح البطن لأجل العلاج الطبى يجوز لأنه للمحافظة على الحياة فلا إهانة فيه . والله الموفق ؟

مفتى الديار المصرية سابقا
إمضـاء : محمد بخيت المطيعى الحنفى
غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين آمين

أقول : هذا هو نص الفتوى التى جاءتنى منه رحمه الله ، وهى موجودة عندى لمن أراد الاطلاع عليها ، ومضمونها أن التشريح لا يجوز ، فـماذا يقول أسـتاذنا الجليل الشيخ يوسف الدجوى فى هذه الفتوى مع بيان وجهة نظره ؟

وقد رأيت من النصيحة أن أبين لإخوانى القراء بعض اصطلاحاتٌ فقهاء الشافعية

حتى يفهموا المراد من عبارة الإمام النووى التى نقلها عنه مفتينا رحمه الله وبيان درجة حديث المغيرة :

قال الامام النووى فى المجموع ص ٣٠٠ من الجزء الخامس : « حديث المغيرة ضعيف غريب . قال الحاكم أبو أحمد ، وهو شيخ الحاكم أبى عبد الله : لا يصح هذا الحديث » اهـ

وقال فى مقدمة المجموع ص ٦٥، ٦٦ ماملخصه «فصل فى بيان القولين والوجهين والطريقين « فالأقوال » للشافعى ، و « الأوجه » لأصحابه المنتسبين الى مذهبه يخرجونها على أصوله ويستنبطونها من قواعده . و « الطرق » اختلاف الأصحاب فى حكاية المذهب . وبهذا يتبين معنى قول الشافعية : فى المسألة قولان أو وجهان ، أو جزم به الأصحاب فى كل طرقهم ، أولا يجوز قولا واحدا أو وجها واحدا ، أو فى المسألة طريقان الخ » .

أسأل الله أن يهبنا من خشيته ما به نعرف حرمة المسلمين أمواتا وأحياء . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . محمد عبد الوهاب بحيرى

السؤدد

قيل لقيس بن عاصم : بم سودك قومك ؟ قال : بكف الأذى ، وبذل الندى ، ونصر المولى .

وقال رجل للأحنف بن قيس : بم سودك قومك وما أنت باشرفهم بيتا ، ولا أصبحهم وجها ، ولا أحسنهم خلقا ؟

قال له الأحنف : بخلاف ما فيك يا ابن أخى .

قال الرجل : وما ذاك ؟

قال الأحنف : بتركى من أمرك ما لا يعنينى ، كما عناك من أمرى مالا يعنيك .

وقال عمر بن الخطاب أمير المؤمنين لرجل : من سيد قومك ؟ قال أنا . قال الفاروق :كذبت لو كنت كذلك لم تقله .

وسال عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين روح بن زنباغ عن مالك بن مسمع . فقال : لو غضب مالك ، لغضب معه مائة ألف سيف لا يسأله واحد منهم لم غضبت .

فقال عبد الملك : هذا والله هو السؤدد .

الاسلام و الطب

إننا منذ عدة أشهر نوالى نشر مقالات إسلامية طبية وعلمية لحضرة الطبيب النطاسى الكبير الدكتور عبد العزيز بك اسماعيل ، وقد أرسل لنا مقدمة لها بعد نشر ما سبق نشره منها ، فرأينا أن نثبتها فى المجلة لبيان مراميه من هذه المقالات القيمة ، ثم نعود الى نشر ما بقى منها .

مقدمة :

أنزل الله القرآن الكريم هدى للناس فى أمور دنياهم وأخراهم ، وقد جعل معجزة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم . ومن إعجازه فصاحته التى اعترف بها العرب وهم أعلى الأمم كعبا فى البيان . أما المتأخرون أمثالنا فأكثرهم لا يقدّر الفصاحة حق تقديرها لعدم تبحرهم فيها ، ولذا كان من الضرورى إظهار إعجاز القرآن من نواح أخرى . فالقرآن ليس بكتاب طب أو هندسة أو فلك ، ولكنه يشير أحيانا الى سنن طبيعية ترجع الى هذه العلوم . وبما أنه صادر من واضع السنن كلها ، كان جميع ما جاء فيه حقا لا شبهة فيه ، وإن لم يكن ذلك مدرَكا وقت نزوله إلا على طريق الإجمال أو التأويل ، لعدم استبحار العلوم إذ ذاك . ولكن مع الترقى فى العلوم قل ما كان يُعمد الى تأويله ، وكثر ما وجب أخذه على ظاهره فى ذلك العهد .

فقوله تعالى : « وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » : هذه الآية لا يمكن أن يكون العرب الأولون قد فهموها إلا من طريق التأويل المؤدى الى معنى خضوع كل شىء لعظمة الله حتى الجماد ، مع أن علماء الطبيعة يثبتون الآن حركة دائمة لا تنقطع فى ذرات كل شىء لا تراها العين ولا تحس بها سائر المشاعر .

وقوله تعالى : « خَلَقَ الإنسانَ من علق » : شبه الحيوان المنوى بالعلق مع أنه لا يرى

إلا بالميكروسكوب، والعبرة من هـذه الآية لم تظهر وقت نزولها ولا بعدها بمئات السنين حتى اكتشف الميكروسكوب .

كل هذه الآيات الكريمة وكثير مثلها لا يفهم شيء من معناها الحقيقي إلا من درس العلوم الحديثة . ومن يفعل ذلك يظهر له إعجاز القرآن بطريقة أقرب الى إقناعه من فصاحته، لأنه عالم ببعض العلوم وجاهل بالفصاحة .

وهكذا يؤمن بالقرآن من لم يؤمن به، ويزداد إيمان المؤمنين .

ويجب أن أنبه الى نقطة هامة، وهي أن العلوم مهما تقدمت فهي عرضة للزلل، فينبغي أن لا يطبق على الآيات الكريمة إلا ما يكون قد ثبت ثبوتا قطعيا ولم يقبل الشك . فكثير من النظريات العلمية عرضة للتغيير والتبديل، وهذه لا يجوز تطبيقها على الآيات حتى ولو اتفقت مع ظاهرها، إنما يطبق منها ما يكون قد اجتاز دور النظريات وصار حقيقة ثابتة لا شك فيها . فرقم ٥×٥ = ٢٥ لا يمكن أن يكون غير ذلك مهما تقدمت العلوم، وكذلك كثير من نظريات الطبيعة والهندسة، وقليل من الطب . أما النظريات الكثيرة مثل نظرية الذرات والجاذبية والنسبية ومذهب دارون وأغلب نظريات الفلك، فلم تتعد طور النظريات، وقد تتغير وتتبدل .

وكما يقول فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي « يجب أن لا نجر الآية الى العلوم كي تفسرها ولا العلوم الى الآية، ولكن إن اتفق ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة فسرناها بها » .

إن العالم كثير الاغترار بعلمه، فإذا لم يتفق ظاهر الآية وما يعرفه من النظريات ركن الى علمه وشك في الآية أو أوّلها، مع أن كل علوم العصر الحاضر لا تعد شيئا مذكورا بالنسبة لحقائق الأشياء . فقد انتفع الانسان بالكهرباء والحرارة والضوء، ولكنه لا يعرف شيئا عن حقائقها، فهو يعرف كثيرا عن سننها، وسيزداد معرفة بها بتقدم العلوم، ولكنه لا يعرف عن كنهها أكثر مما يعرف عن الروح والحياة ونظام الكون .

فكل آية كريمة لا تتفق ونظريات العلوم يجب أن تترك حتى تتقدم هذه العلوم. فخلق آدم من طين مثلا لا يتفق ومذاهب داروين وغيره ، ولكن الأخيرة قائمة على نظريات ، وهى كما قدمنا عرضة للتغيير ، ولم أعثر للآن على آية واحدة لا تتفق وأية حقيقة علمية .

ولمعرفة مقدار الخطأ والبعد عن الحقيقة الذى تتعرض له النظريات ، أضرب مثلا بسيطا لذلك :

إذا جلس شخص عاش منذ مائة سنة لا يعرف شيئا عن الراديو أو التليفون فى غرفة فيها آلة تليفون متصلة بمحطة إذاعة للراديو ، وبالغرفة المجاورة آلة راديو ، حتى إذا تكلم الشخص سمع صوتا يجيبه فى الغرفة المجاورة ، فلاشك أنه يجزم بأن هناك إنسانا عاقلا يتكلم ، وقد يجهد عقله ويعمل فى ذلك تجارب كثيرة . وبما أن ذلك المتكلم يجيبه على كل سؤال يوجهه اليه فلا يبقى فى ذهنه أى شك فى أن الغرفة المجاورة فيها إنسان . ومصدر الخطأ أن الوسيلة للتأكد من وجود إنسان فى الغرفة المجاورة ليس فقط حاسة السمع ، ولكن النظر واللمس أيضا . وبما أن كل التجارب التى قام بها الشخص توجب عليه اعتقاد وجود شخص بالغرفة على حسب معلوماته القاصرة ، فالنظرية التى بنى عليها ذلك الحكم بعيدة عن الحقيقة إلا اتصال الغرفة بإنسان ، مع أن الفرق بين وجود إنسان بالغرفة المجاورة وبين شىء متصل بانسان ربما كان فى لندن ، فرق كبير جدا .

ولا يمكن اتقاء مثل هذا الخطأ ، لأن الشخص لا يعرف واسطة اتصال مثل التليفون والراديو قبل وجودها . كذلك أغلب نظريات علم الفلك وغيره ، فقد تقدم علم الفلك حتى صدقت تنبؤات العلماء بعد مئات السنين وبدقة مدهشة ، وقد أقاموا على تجاربهم نظريات ، وكلما اجتهدوا فى التجارب جاءت النتيجة محققة لما كانوا يتوقعونه فى أكثر الحالات . ولكن كما أن الشخص الذى كان يحاول معرفة مصدر الصوت كانت تجاربه تأتى صادقة كما لو كان هناك إنسان فى الغرفة المجاورة ، كذلك كانت

تجارب العلماء فى كثير من النظريات تأتى مصدقة لما كانوا يتصورون . وقد تكون خطأ فى أساسها ، ولكن فيها اتصال بعيد بالحقيقة بعد الشخص الموجود فى لندن عن الغرفة المجاورة .

وبالاختصار فالطريقة الوحيدة للتثبت من وجود شىء ، ليست هى الاستنتاج العقلى ، ولكن استعمال كل الحواس المجردة وغير المجردة . ومع ذلك فلا تكون النظريات عرضة للزلل ، لأن مدارك الإنسان محدودة ، وهو لا يتصور ما غاب عنه .

يتضح مما سبق أن هناك آيات كثيرة لم تتقدم العلوم لتفسيرها للآن ، ولم أحاول أنا ذلك ، فقوله تعالى : « فانظروا كيف بدأ الخلق » لم تتقدم العلوم لمعرفة تفصيلات معانيها . وقد حاولت أن أفسر بعض الآيات المتعلقة بعلوم النفس أيضا ، لأن ذلك من اختصاص الطبيب ، وكل ما أرجوه أن يقتدى بى إخوانى الإخصائيون فى العلوم الأخرى ، على شرط أن يلاحظوا القواعد التى أسلفتها ، وأن لا يفسروا من الآيات إلا ما يتفق والحقائق الثابتة .

بالمناقشة مع إخوانى وجدت أن هناك سؤالين يجب الإجابة عليهما قبل البدء بالتفسير لعلاقتهما المباشرة به :

(أولهما) ما الغرض من خلق هذا الكون ، وما حكمة وجودنا ؟ إن طبيعة عقل الانسان أن يسأل عن حكمة وجود كل شىء ولا يستثنى من ذلك الكون كله ، مع أن مادة العقل التى يريد بها أن يكشف الكون هى جزء من هذا الكون نفسه وتلعب دورا فيه ، واللاعب لا يمكنه أن يمثل دور المتفرج .

ولنضرب مثلا : شخص من أواسط أفريقيا حضر ليمثل دورا بسيطا جدا فى رواية ذات فصول عديدة فى لندره ، وهو لا يعرف شيئا عن اللغة ولا عن الرواية ، ولكنه يمثل دوره المطلوب منه ، فإن كان ذكيا فقد يفهم معنى الأشياء المادية التى تشترك معه فى دوره ، فيعلم معنى صور الجبال والأودية والحيوانات الخ ، ولكنه من المستحيل

أن يفهم معنى الرواية ، لأنه يمثل دورا لا يعد شيئا مذكورا فيها ، وهو جاهل باللغة التى كتبت بها ، وغائب عن المسرح أغلب الوقت . كذلك الانسان مهما ارتقى عقله فقد يعرف كثيرا من السنن الطبيعية المتعلقة بالمادة ، ويعرف أشياء عن الكواكب الخ ، ولكنه لا يعرف لغة هذا الكون وسننه غير المادية ؛ ولذا لا يمكنه أن يفهم شيئا عن الوجود الذى هو جزء صغير منه ، ومدة حياته لا تبلغ جزءا من مئات الملايين من عمر الكون . وكل ما يمكن الانسان أن يظفر به هو أن يعرف المهمة التى يقوم بها فيه ، وأن يتقنها . وهذه المهمة قد علمها الله لنا بقوله : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون »

وأما حكمة وجود الكون وعظمته فلم نُعَط الحواس اللازمة لمعرفتها . وما أسعد الشخص الذى يؤدى ما ندب اليه ! ولعمرى إن ذلك يستغرق كل قواه العقلية والمادية ، ولا يترك له أى بقية يشتغل بها فى أشياء أخرى « كلٌ ميسر لما خلق له » « وخلق كل شىء فقدره تقديرا » ويقول الطبيعيون : « الطبيعة لا تسرف » .

(ثانيهما) ما معنى القضاء والقدر مع أن اختيارنا ظاهر ، وما معنى مجازاتنا على ما نفعله إذا كان هناك قضاء وقدر ؟

إن علماء الطب يمكنهم أن يعرفوا سير الأمراض ومدتها الخ بمعرفتهم بعض السنن الطبيعية ، فإن أخطأوا فلنقص فى علمهم . كذلك المهندس عندما يشيد جسرا يعرف مقدار السنين التى يمكثها إذا عرف مقدار الضغط عليه يوميا والعوامل الطبيعية الأخرى .

فالمبدع الأول خلق الانسان من طين ، وعلم ما يدخل فى تركيبه ، وسن له سنة التناسل ، وخلق له الأحوال المحيطة به ، ووضع لها سننا ، وقدر تأثيرها عليه ، وهل أفعال الانسان فى الحقيقة إلا خضوع منه لهذه الأحوال والسنن وإن توهم أن له اختيارا فيها ؟ فإذا أتى البرد وكان عنده ملابس ثقيلة فإنه يلبسها ، هذا العمل ظاهره الاختيار ، ولكنه

عمل مضطر عليه عند ذى العقل السليم أوجبه البرد . ولنضرب مثلا آخر : تاجر مضطر لبيع بضاعته وتعرض عليه قيمتان لها ١٠٠ قرش و ١٥٠ قرشا ، فلاشك أنه يبيع بأكثر القيمتين ويعد عمله اختياريا . ولكنه فى الحقيقة اضطرارى ومطابق لسنن لا تتبدل ، وإن لم يفعل ذلك عد مجنونا . وقد تتعقد أفعال الانسان ويضطر أن يفكر كثيرا قبل الإقدام عليها ويعد عمله هذا اختياريا ، ولكنه مبنى على سنن مقررة ، ونتيجة لكل اختباراته الماضية ، وتركيب مخه والأحوال المحيطة به ، ولو علم شخص تفاصيل الأمور لأخبر بما سيستقر عليه الرأى فى كل منها ، كما يعلم الكيماوى نتيجة التفاعل بين مادتين إذا علم تركيبهما .

هذا ما أجمع عليه علماء النفس . وخالق الوجود والسنن كلها عالم بكل ما سيحصل للكائنات فى مستقبل حياتها .

فالعلقة الصغيرة (النطفة) التى يقل قطرها عن عُشر المليمتر الواحد ، تمثل ملايين الصفات . وعلقة القرد مثلا والانسان لا يختلفان ظاهرا فى الشكل مع أن كلا منهما تمثل كل الصفات التى تميز الواحد عن الآخر ، وهذه لا حد لها . كذلك لا تختلف علقة شخص عن شخص آخر ، مع أن الزمن والتغذية كفيلان إذا ما أثرا عليهما أن يصيرا شخصين مختلفين تماما ، وذلك طبقا لسنن ثابتة لا حصر لها . فالفروق المتنوعة التى تملأ مجلدات قد اختزلت فى حجم النطفة .

فالله جلت قدرته وقت بدء الخلق علم كل ما سيحدث للانسان وغيره من الكائنات . ومستقبل الكون مقدّر منذ بدء الخلق ، ولكننا على مقتضى عقولنا نفرق بين الحاضر والمستقبل . ولكن الله وقت خلق النطفة خلق الانسان الكامل ، ولكننا لضعف إدراكنا لا نعرف ذلك ، فنقف عند الحاضر ، ولكن المبدع الحكيم يعرف مستقبله كله جملة وتفصيلا . والانسان فى ضعفه وقصر نظره كالمتفرج على (السينما) يرى المنظر الحاضر ويعده حاضرا ، مع أن المناظر المستقبلة موجودة ومعلومة لصاحب السينما ،

ولكنها غيب بالنسبة المتفرجين. فالخالق ، وله المثل الأعلى ، عند ما بدأ الخلق قدّر كل ما سيحدث فيه ، وهذه التقادير تتولى إبرازها السنن التى سلطها الله عليه منذ وجوده. وهذا معنى قوله تعالى : « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير » هذا هو معنى القضاء والقدر ، ولا معنى له غير ذلك.

قد يقال : وما الفائدة من عقولنا وتفكيرنا أمام هذا القضاء والقدر ؟

الجواب : أن تفكيرنا هو هذا الجزء الاختيارى الذى ميز الله الانسان به عن سائر المخلوقات وجعله أساسا للجزاء ، وقد يكون هو المقصود من الآية الكريمة «إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا » والله أعلم. ولكن هذا التفكير لا تأثير له فى سير القضاء والقدر. فالانسان حر فى أن يفكر كما يشاء ، ولكن لا يمكنه أن يأتى أفعالا لم تقدّر عليه « وما تشاءون إلا أن يشاء الله ».

والسؤال الثانى وهو « لم نجازى على ما قدر لنا » ؟

الجواب أننا نجازى على ما يقع عليه اختيارنا ، سواء أتم أم لم يتم. وسأضرب لذلك ثلاثة أمثلة :

(أولها) شخص يريد القتل ويفكر فيه ويترقب الفرص لتنفيذه ، حتى إذا سنحت له ارتكب الجريمة. فهذا لاشك مجرم بتفكيره أى بجزئه الاختيارى ، وقد أنفذ جريمته لأن القدر وافق ماعزم عليه.

و(ثانيها) شخص يخاف ربه ويطيع أوامره ، ولكن حدث له أن وقع مرة تحت تأثير انفعالات نفسانية شديدة أضاع معها رشده فارتكب جريمة القتل ، فلما ثاب اليه رشده ندم على فعلته ، فهذا الرجل ارتكب الجريمة بجوارحه فقط ، ولكنه لم يقتل بضميره ، فقد ثبت طبيا الآن أن الانفعالات الشديدة تحدث زيادة إفرازات فى بعض

الغـدد الصماء تؤثر على الضغط الدموى وعلى المخ ، وقد تحدث تشنجا عصبيا أو شللا وقتيا فى قوة الإدراك (غيبوبة) ، يأتى الشخص فى أثنائها من الأفعال ما يستنكره فى حالته العادية . والخالق يعـلم حالته ، ويعلم أنه قتل لأن القتل كتب عليه ولا مفر له من ذلك ، ولـكنه لم يقتل بضميره .

و (ثالثها) شخص عاص لربه ينتهز الفرصة للقتل ، ولـكن الفرصة لا تسنح له ، فهو مجرم بضميره ولو أنه لم يقتل ظاهرا . والحقيقة أنه لم يقتل لأن القتل لم يقـدر عليه . ومن لم يقدر عليه القتل فلا يمـكن أن يقتل مهما حاول ذلك . والله يعاقبه بما يشاء على نيته « وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبْكم به الله فيغفرُ لمن يشاء ويعذب من يشاء » . فقد يغفر لصاحب الذنب الواقع ويعذب من لا ذنب له فى الظاهر ، والله يعلم ما يحول بين المرء وقلبه « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » . وإذا أيقنا أن عجلة القضاء تسير سيرها رغم إرادتنا ، اطمأنت قلوبنا وعلمنا السر فى أن المتقين قد يصابون كما يصاب غير المتقين . ولـكن الفرق أن تفكيرهم وصبرهم يحول مصائبهم الى نعم فى نظرهم « ونبلوكم بالشر والخير فتنةً (أى امتحانا) » « ولنبلونـكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين » .

الخلاصة : أن الخالق الذى يقول : « وما رمَيتَ إذ رميتَ ولـكن الله رمى » والذى يعلم السر فى السموات والأرض ، لا يظلم أحدا . فلتطمئن قلوبنا ، ولنثق بعدله ، ولنـكتف بأن نستعين بإحدى السنن غير المادية وهى الدعاء ، تالين قوله تعالى : « اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين »

وبعد : فإنى فى هذا المقام أعترف بفضل حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى ، لأنه أول من شجعنى على نشر هذه المقالات ، وكان يستمر فى التشجيع كلما ظهر شىء منها ، ويمدنى بأفكاره القيمة التى كنت أقدرها كما يقدرها الناس كافة كل التقدير ، وكذلك أشكر صاحب العزة الأستاذ فريد بك وجدى لتشجيعه وتصحيحه الـكتابات والآيات ، ولو أنه معروف للـكل أنه خلق للعلم وجده ، ونعم عمل العاملين .

باب الأسئلة والفتاوى

الرضاع

ورد الى إدارة المجلة من لجنة الفتوى بالجامع الأزهر هذه الفتاوى :

ما قولكم فى بنت رضعت مع ولد صغير من أم الولد مرة أو اثنتين أو ثلاثا على الأكثر . فهل يجوز لأخيه الأكبر أن يتزوجها ؟ أرجو إفادتى بالجواز على أى مذهب مع تبيين وجه كل مذهب من المذاهب الأربعة . حسن سليمان حسن

الجواب

إذا كان الرضاع فى مدته الشرعية فمذهب الحنفية والمالكية أنه لا يجوز لهذا الأخ الأكبر أن يتزوج تلك البنت إذا كانت أم الولد الصغير أماً له ، أو كانت امرأة أبيه صاحب اللبن ، لأنها أخته من الرضاع قلّ الرضاع أو كثر ، أخذا بالاطلاق فى قوله تعالى : « وأخواتكم من الرضاعة »

ومذهب الشافعية والحنابلة أنه يجوز لهذا الأخ الأكبر أن يتزوج تلك البنت لأنها ليست أختا له من الرضاع ، فان التحريم بالرضاع لا يكون إلا بخمس رضعات متفرقات أخذا بالأحاديث التى قيدوا بها الاطلاق فى قوله تعالى : « وأخواتكم من الرضاعة » والله أعلم ؟

* * *

صبى غابت عنه أمه ليلا ، فأعطته امرأة أخرى ثديها ، فرضع ونام ، وفى الصباح أعطته ثديها مرة أخرى فأبى الرضاع ، فهل تعد هذه المرأة أمه من الرضاع ، وتحرم عليه ابنتها التى رضعت قبله بثلاث سنوات ؟ محمد عبد الحميد السلامى

الجواب

الرضعة الواحدة فى مدة الرضاع الشرعية تحرم عند الحنفية والمالكية ، لإطلاق قوله تعالى : « وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم ، وأخواتكم من الرضاعة » .

ولا يحرّم عند الشافعية والحنابلة إلا خمس رضعات متفرقات ، وذلك للأحاديث التى قيدوا بها الإطلاق المذكور .

فعند الحنفية والمالكية تكون هذه المرأة المرضع أماً لهذا الصبى من الرضاع ، وتكون ابنتها أختا له من الرضاع ، وعند الشافعية والحنابلة لا تكون هذه المرأة المرضع أما له من الرضاع ، ولا تكون ابنتها أختا له من الرضاع . والله أعلم ؟

***

شاب يريد الزواج بشابة ، وكلاهما من أب وأم شرعيين ، ولم يسبق لأم من الأمين أن أرضعتهما ، وليست هناك موانع شرعية من عقد زواجهما ، غير أن للشاب أخا أصغر منه قد رضع من ثدى أم خطيبة الشاب حينما كانت ترضع ابنة أخرى غير المخطوبة ، فهل رضاعة ذلك الأخ تحرم زواج الشاب الأول بالشابة الأولى مع أنهما لم يرضعا من مرضع واحدة ؟ محمود شاروده

الجواب

إن تلك الشابة تحل شرعا لمريد زواجها ، ولا يؤثر فى ذلك أن أخاه الأصغر قد رضع من أمها سواء أكان رضاعه منها حينما كانت ترضع ابنة أخرى غير هذه الشابة كما ورد فى السؤال أم لم يكن ، لأنها ليست أخت مريد الزواج من الرضاعة ، بل هى أخت أخيه من الرضاعة ، فلم تشملها أدلة التحريم بالرضاع . والله أعلم ؟

***

رجل يريد التزوج بامرأة رضع أخوها الأكبر معه من امرأة ليست أمها ولا هي أمه ، ثم رضع أخوها الثاني من أم من يريد الزواج بها ، ولم يحصل بينهما من الرضاع خلاف ذلك ، مع العلم بأنها أصغر إخوتها ، وبينها وبين أخويها الأولين المذكورين خمسة إخوة ، فهل هناك مانع شرعي من تزوجه بها ؟ عواد ابراهيم رزق

الجواب

يحل لهذا الرجل أن يتزوج تلك المرأة ، إذ لم يكن قد رضع من ثدى أمها ولم تكن قد رضعت من ثدى أمه ، ولم يسبق لهما رضاع من ثدى امرأة واحدة .

ولا يؤثر في حلها له أن يكون أخوها الأكبر أو غير الأكبر قد رضع مع مريد الزواج من ثدى أمه أو من ثدى امرأة أخرى ، فإنها في هذه الحال ليست أختا لمريد الزواج من الرضاعة ، فلم تشملها أدلة التحريم بالرضاع ، ولا فرق بين أن تكون تلك المرأة أصغر إخوتها — كما جاء في السؤال — وألا تكون . والله أعلم ؟

شخص رضع من امرأة عمه مع ابن عمه من ثدى واحد رضعة واحدة ، ويرغب في الزواج بشقيقته التي هي أصغر منه ، ولم يرضع معها ، فهل يجوز زواجه بها على مذهب من مذاهب الاسلام ؟ سليم عبد الوهاب زيتون

الجواب

يجوز للرجل الذى رضع من امرأة عمه رضعة واحدة أن يتزوج بنت عمه المذكورة في السؤال على مذهب الإمام الشافعي رضى الله عنه ، لأن التحريم عنده لا يثبت بالرضعة الواحدة ، وإنما يثبت بخمس رضعات متفرقات في الحولين ، قال رضى الله عنه : « ولا يحرّم من الرضاع إلا خمس رضعات متفرقات كلهن في الحولين » وذلك للأحاديث التى أخذ بها . والله أعلم ؟

***

رجل يريد الزواج ببنت، مع أن هذا الرجل رضع رضعة واحدة من امرأة متزوجة بوالد البنت، والمرأة التي أرضعته أرضعت أختا لهذه البنت من قبل، فهل يحل له الزواج بهذه البنت أو تحرم عليه؟ والإفتاء يكون على مذهب الإمام الشافعي.

حامد ابراهيم السنكرى

الجواب

لا يثبت التحريم بالرضاع فى مذهب الشافعى رضى الله عنه بأقل من خمس رضعات. قال الشافعى: «ولا يحرم من الرضاع إلا خمس رضعات متفرقات كلهن فى الحولين». وله على ذلك أدلة من الحديث، فلا يحرم على الرجل الذى رضع رضعة واحدة فى الحولين من امرأة أبى البنت أن يتزوج تلك البنت، ولا فرق فى ذلك بين أن يكون والد البنت هو صاحب اللبن الذى رضع منه مريد الزواج وألا يكون هو صاحب اللبن، لأنه إن كان هو صاحب اللبن لم يكمل عدد الرضعات المحرّم، وإن لم يكن هو صاحب اللبن فالبنت أجنبية، أما أن المرأة أرضعت أخت البنت فلا تأثير لذلك فى حل تلك البنت، لأن نصوص التحريم بالرضاع لا تشملها. والله أعلم؟

* * *

تزوجت ابنة خالتى، ورزقت منها ولدا، مع العلم أنها رضعت من والدتى مع أخى الأصغر منى سنا، وبينى وبينه أخ آخر أكبر منه سنا وأصغر منى، كما رضعتُ أنا مع أختها الكبرى من والدتى، وكنت أعتقد قبل الزواج أنها تجوز لى، وتحرم على أخى الذى رضعت معه فقط، كما تحرم علىّ أختها الكبرى، فهل هذا الزواج جائز؟

حسين جاسر المهندس

الجواب

يحرم عليك الزواج بابنة خالتك هذه عند الحنفية والمالكية ـ قل الرضاع أو كثر لأنها أخت لك من الرضاع ، قال الله تعالى : «وأخواتكم من الرضاعة »

ويوافقهم فى ذلك الشافعية والحنابلة إذا كانت ابنة خالتك قد رضعت من أمك خمس رضعات متفرقات فأكثر ، أما إذا كانت الرضعات أقل من خمس ، فإنها تحل لأنها ليست أختا لك من الرضاع ، والله أعلم ؟

* * *

ابنة خالتى وراضعة على أخى الذى هو أصغر منى وأريد الزواج بها ، فهل تجوز لى حسب الشرع ؟

أحمد بدوى طنطاوى

الجواب

إن كانت ابنة خالتك قد رضعت من أمك ، كما هو ظاهر السؤال ، فمذهب الحنفية أنها لا تحل لك قل الرضاع أو كثر ، ويوافقهم فى ذلك المالكية وأحمد فى رواية ، عملا بإطلاق قوله تعالى : « وأخواتكم من الرضاعة »

أما الشافعية فلا يرون حرمتها عليك إلا إذا رضعت من أمك خمس رضعات متفرقات ، ويوافقهم فى ذلك الامام أحمد فى ظاهر المذهب ، عملا بأحاديث يرون أنها تقيد الإطلاق المذكور .

وإن كانت ابنة خالتك قد رضعت مع أخيك من الخالة ، فإن زواجها لا يحرم عليك لأنها ليست أختا لك من الرضاع . والله أعلم ؟

الصلاة على الميت

توفيت إحدى بناتى ، ومن شدة تأثير وقع المصيبة ، ورغبتى فى مواراة الجثة التراب ، حيث نقلت من بلد الى بلد بعيد ، دفنت ولم تؤد صلاة الجنازة عليها سهوا .

فما قول الشرع فى ذلك ؟

عبد المحسن سليمان
يوزباشى بالجيش بالاورطة الثانية

الجواب

الصلاة على الميت المسلم فرض كفاية ، لقوله صلى الله عليه وسلم : «صلوا على صاحبكم» فإنه أمر ، والأمر للوجوب ، وترك النبى صلى الله عليه وسلم الصلاة على «صاحبهم» يدل على أنها فرض كفائى . وقد انعقد الاجماع على ذلك . وذكر النووى أن ما حكى عن بعض المالكية من أنها سنة متروك عليه ، لا يلتفت اليه .

فإذا دفن الميت بلا صلاة عليه ، كما جاء فى السؤال ، لزمت الصلاة عليه كما يأتى بيانه :

فالصحيح عند الحنفية أنه يصلى عليه وهو فى قبره مالم يغلب على الظن تفسخه .

ومذهب المالكية أنه يخرج من قبره ويصلى عليه ما لم يظن تغيره ، فان ظن تغيره صلى عليه وهو فى قبره ما لم يغلب على الظن فناؤه .

والراجح فى مذهب الحنابلة أنه يخرج ويصلى عليه ما لم يخش تفسخه أو تغيره ، فإن تفسخ أو تغير صلى على القبر ، وفى رأى للحنابلة أنه يصلى على قبره مطلقا ، ويحرم إخراجه .

والأصح عند الشافعية أنه يصلى عليه وهو فى قبره ، ولو بلى ، بشرط أن يكون المصلى من أهل فرض الصلاة وقت الدفن .

ومما سبق يعلم أن ترك الصلاة على الميت عمدا بغير عذر حرام ، أما تركها سهوا كما جا فى السؤال فلا إثم فيه ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان ، وما استكرهوا عليه » ولكن عند التذكر تجب الصلاة كما بينا .

والصلاة على الميت وهو فى قبره ، تتأدى عند القبر ، والقبر أمام المصلى الى القبلة . والله أعلم ؟

نصاب الجمعة

ما قولكم فى بلد يريد أهله إقامة صلاة الجمعة ، ولكن فريقا من الأهالى يتكاسلون عن أداء صلاة الجمعة لشغل أو لغيره ، وجميع أهل البلد على مذهب الامام مالك رضى الله عنه ، فإذا اجتمع لصلاة الجمعة أقل من العدد المشروع فى مذهب الإمام مالك ، وهو اثنا عشر شخصا ، بأن كانوا عشرة أو أقل من ذلك ، والامام الذى سيخطب الناس حاضر ليؤم الناس ويخطبهم ، فهل ننتظر الى صلاة العصر ، ونصلى الجمعة رجاء أن يحضر العدد المفروض ، أو نصلى الجمعة بأى عدد ممكن ، أو نترك الجمعة ونصليها ظهرا ، وماذا يكون العمل ؟ عمر محمد صالح خطاب

الجواب

مذهب المالكية أن الجمعة لا تصح بأقل من اثنى عشر رجلا غير الامام ، فليس لأهل هذا البلد أن يصلوا بأقل من هذا العدد ، وليس لهم أن يصلوا ظهرا ماداموا راجين تمام العدد ، وإنما ينتظرون ، إلا أن يخافوا دخول وقت العصر ، فإن خافوا دخول وقت العصر ، صلوا ظهرا أربعا .

ولكن مثل هذا التكاسل قد يؤدى الى ترك الجمعة مع أنها تصح بأربعة أحدهم الامام عند أبى حنيفة ، وعند أحمد بن حنبل فى رواية ، وعند الثورى والليث والأوزاعى وأبى ثور ، وهو قول للشافعى فى القديم ، ورجحه المزنى من أصحاب الشافعى ، كما حكاه

عنه الأذرعى فى القوت ، ورجحه أيضا ابن المنذر من أئمـة الشافعية ، وهذه المسألة ألحقها بعض علماء الشافية بالمسائل التى صحح فيها النووى القول القديم للشافعى .

فلأهل هذا البلد أن يعملوا بهذا ، ولا يتركوا إقامة الجمعة . والله أعلم ؟

فى الميراث

بنت توفيت عن أم وجدة لأب ، وأخوين شقيقين ، فما نصيب كل منهم ؟

محمد محمد بهنسى

الجواب

لا شىء للجدة المـذكورة ، لأنها محجوبة بالأم ، وللأم السدس ، وللأخوين الشقيقين باقى التركة : لـكل منهما الصنف ، والله أعلم ؟

فى البيع

اشتريتُ جلد أحذية بالقدم ، وبعته لصانع الأحذية برغبته ، وعن كل قدم خمسة مليمات مكسبه ، فهل تعد هذه الخمسة المليمات حلالا أو تعد حراما ؟ فإن بعض الناس أخبرنى أن ذلك ربا .

حافظ اسماعيل

الجواب

إن مثل هـذا البيع جائز إذا كان المبيع والثمن معلومين . ويدل لجوازه عموم قوله تعالى : « وأحل الله البيع » فالربح فيه قليلا كان أو كثيرا حلال لا شىء فيه من الربا . والله أعلم ؟

حسين والى
رئيس لجنة الفتوى

أسرار التشريع الاسلامى وفلسفته

الوقف والهبـة

اختلف الفقهاء القائلون بالوقف وصحته على رأيين ، فذهب الإمام أبو حنيفة رضى الله عنه الى أن الوقف هو حبس العين على ملك الواقف والتصدق بمنفعتها ، أو صرف منفعتها الى من يحب أن تصرف تلك المنفعة اليه . فالتصدق بالمنفعة يظهر أثره فى حالة ما إذا وقف الواقف العين مثلا من أول الأمر على جهة من جهات البر التى لا تنقطع كالفقراء والمساجد والملاجىء والمدارس والمستشفيات وما الى ذلك مما تتوزع فيه المنفعة حصصا . وصرف المنفعة يظهر فى حالة ما إذا وقف الواقف حصته على غنى أو أغنياء حتى إذا انقرضوا انتهت تلك المنفعة الى جهة بر لا تنقطع ، فإنه يكون والحالة هذه وقفا قبل انقراض الأغنياء الموقوف عليهم ، ولا يمكن أن يعتبر صدقة كما هو ظاهر.

وذهب الصاحبان أبو يوسف ومحمد الى أن الوقف معناه : حبس العين عن أن تملك لأحد من العباد ، والتصدق بمنفعتها ابتداء وانتهاء أو انتهاء فقط . وتظهر الحالة الأولى جلية واضحة فيما إذا وقف الواقف من أول الأمر على جهة بر لا تنقطع . والتصدق انتهاء فقط يظهر فيما إذا وقف الواقف على من يحتمل الانقطاع والفناء واحدا كان أو أكثر مما لا يعتبر الصرف اليه صدقه ، ثم جعلها من بعدهم لجهة بر لا تنقطع كما لو وقف على نفسه وذريته ومن بعدهم للفقراء والمساكين ، فاذا آل الى جهة البر الدائمة صار وقفا خيريا . والقسم الأول يسمى وقفا أهليا ، والثانى يسمى وقفا خيريا . وتلك التسمية الاصطلاحية تسمية حديثة .

ثم إن حكم الوقف عند أبى حنيفة أنه جائز غير لازم ، وهو بمنزلة العارية ، فيجوز للواقف أن يرجع عنه ويتصرف فى الموقوف بالبيع والهبة والرهن وسائر أنواع التصرفات ، فإذا مات يورث عنه ، كما للمعير أن يرجع فى عاريته ويتصرف فيها تصرف

المالك فيما يملك ، فإذا مات المعير قبل استرداد عاريته قسمت بين ورثته . فاذا كانت العين الموقوفة باقية على ملك الواقف ولم تخرج عن ملكه بالوقف ، كان للواقف حق التصرف فيها بالبيع وسائر أنواع التصرفات ، فاذا لم يتصرف فيها حال حياته ثم مات كان لورثته قسمتها بينهم بالميراث الشرعى كسائر أملاك المورث . وهذا معنى عدم لزوم الوقف عنده .

أما حكم الوقف عند الصاحبين فمعناه أنه لازم بمجرد تمام أركانه وتحقق شروطه ، فلا يجوز للواقف أن يرجع عنه ، وإذا مات فلا يورث عنه ولا يعتبر من تركته ، لأنه بالوقف الذى أتمه صحيحا حال حياته قد أخرج الموقوف عن ملكه ، فتوزع أنصبته على الجهات التى عينها الواقف . ثم إن للوقف شروطا أربعة .

(أولها) أن يكون الموقوف مملوكا للواقف متعينا غير مجهول مقطوعا بحصول فائدة لا تفوت العين عند استيفائها ولا تضيع تلك الفائدة حال استغلالها .

(الثانى) أن يكون الموقوف عليه أهلا للهبة والوصية إن كان شخصا معينا ، وقربة من القرب إن كان جهة عامة كالفقراء والمساكين ، فمن لا تصح الهبة منه والوصية له كالجنين مثلا فلا يملك عينا ولا منفعة ، ولأن مالم يكن قربة كإحدى الجهات العامة التى يتحقق فيها الغرض من الوقف كقطاع الطريق لا يمكن أن تتحقق فيهم مصلحة فى الانتفاع بحبس العين عليهم .

(الثالث) أن تكون صيغته بلفظ صريح ، كوقفت هذه العين ، وشرطت هذه الشروط وحبست تلك الغلة على فلان أو فلانة ، فإن لم يكن صريحا وجب أن يكون مقترنا بالنية الدالة على صراحته ، ومحاطا بقرائن تدل على تعين ما وقف دون لبس وإبهام .

(الرابع) أن يكون الوقف مؤبدا منجزا ملتزما . فلو كان غير مؤبد كوقفته عاما أو كان غير منجز بأن يقول الواقف إن جاء شهر رمضان مثلا وقفت على فقراء كذا ضيعة كذا من ضياعى . أو كان غير ملتزم بأن قال الواقف وقفت كذا من العقار الذى

أملكه محددا بحدوده على أنى بالخيار فى الرجوع عنه ، كان ذلك كله بمنأى عن الغرض المقصود من الوقف ، لأن الغرض المقصود من الوقف إنشاء حالة تستتبع عينا ذات غلة ينتفع بها الفقراء ومن فى حكمهم ، وتكون تلك المنفعة مستمرة البقاء .

أما الهبة فأركانها ثلاثة :

(الأول) الصيغة فيما يصح أن تجرى فيه .

(الثانى) صحة بيع الموهوب والتصرف فيه .

(الثالث) قبض الموهوب وإيصاله الى يد الموهوب له تفاديا من شقاق يفضى الى خصومة . فإن مات الواهب قبل إقباض الموهوب له كان لورثته حق الخيار فى الإقباض ، لأن الهبة لم تثبت بفقدان شرط من شرائطها ، ولأن الموهوب لم يصل الى يد الموهوب له .

(رابعها) ألا يسترد الواهب ما وهب ، لأن استرداده ينبئ بشح بعد جود أو أسف على ما كان من خير ، أو إرادة إضرار بمن وهب له ، وكل أولئك من الأخلاق الذميمة والدنايا الممقوتة التى ينبغى المؤمن أن ينزه عنها ويصون كرامته من قذرها ، ذلك فضلا عما يغرسه الاسترداد من الضغينة والحقد ، ويشيده من القطيعة والتباغض . فيكون المسترد مضيعا للحكمة التى شرعت لها الهبة عاملا لضدها ، ولهذا أبان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبح هذه الحالة إبانة لاخفاء معها إذ قال : « العائد فى هبته كالكلب يعود فى قيئه ليس لنا مثل السوء » أى لا يليق بالمسلمين ارتكاب هذه الرذيلة .

(خامسها) ألا يخص والد بعض أولاده بمنفعة ، لأن ذلك يوقع الحقد بينهم .

أما العارية وصورها والفرق بينها وبين الهبة الشرعية وما يتصل بهما من أحكام القانون المدنى ، وأقوال الشراح فيهما ، فوعدنا بالكلام عن ذلك كله فى الأعداد التالية ، إن شاء الله .

عباس طه المحامى

فى فلسفة الاخلاق

وصلتها بالنفس الناطقة — أثر ذلك فى المجتمع الانسانى العام

نتحدث الى القارئ اليوم عن شوق النفس الى فضائلها الصادرة عنها، و كيف أن النفوس تجنح الى فضائلها وتحدب عليها حدب الأم الرءوم على واحدها .

والفضيلة التى تكوّن سائر الفضائل لا بد أن تكون مستندة الى عناية الانسان بتحصيل العلوم ثم تحصين النفس من الطغيان الشهوانى الذى إذا أصاب النفس فى صميمها قتل فيها روح الاستعداد للخير ومحضها للشر . فهذه الفضيلة تقوى وتتزايد بمحض عمل الانسان ذاته وتوافره على أفضل المثل العليا يتخذها عنوانا على كل ما يصدر عنه من الأفعال . فقد يبدو للانسان لأول وهلة أن ما يقع تحت سلطان المشاعر كالمآكل والمشارب وما اليها من صنوف المتع داخل فى عداد الفضائل ، ولكنه إذا راجع نفسه يتبين أن تلك اللذائذ لا يصح أن تعتبر فضائل ولا تسوغ أن تكون شعارا للانسان الناطق .

فكل موجود من حيوان أو جماد أو نبات، وكذا بسائطها والأجرام العلوية، كل أولئك له قوى وملكات وأفعال بها يصير ذلك الموجود الكائن (هو ما هو) و (أى شىء هو) وبها يتميز ذلك الموجود عن كل ما عداه . كما أن له قوى وملكات وأفعالا بها يشارك ما عداه . والانسان بطبيعة تكوينه هو الذى يلتمس له الخلق المحمود بوصف كونه نفسا مفكرة ناطقة ذات سلطان على الموجودات . وهذا مصداق قوله جل من قائل : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا » . من أجل ذلك ليس لنا أن ننظر نظرا تحليليا مصحوبا بالتمحيص والتدليل الى تلك القوى وتلك الملكات التى يشارك الانسان فيها سائر الموجودات ما دمنا بصدد الكشف عن الفضائل والخيرات التى يجب أن تكون مميزات للنفس الناطقة ومقومات لها . ولسنا الآن

بصدد بيان شيء منها لأن بحث الأخلاقيين مقصور على بيان القوى والملكات والأفعال للانسان ، فتتناول بحوثهم قوى الانسان وملكاته وأفعاله من حيث صدورها عنه واتصالها به ، ويسمونها العلوم الإرادية باعتبارها حاصلة بمحض اختيار الانسان وإرادته ، وهي التي بها تتعلق قوة الفكر والتمييز . والنظر فيها وفي مقدماتها ونتائجها وآثارها المترتبة عليها يسمى الفلسفة العلمية ، ويرتبون على تلك النظرية ضرورة انقسام الأفعال الصادرة عنه الى الخيرات والشرور ، وبالتالي الى الفضائل والرذائل . ذلك لأن الغرض المبين من وجود الانسان إذا اتجهت النفوس اليه لحصلته ، هو تركيز الفضائل في تلك النفوس ، والعمل لإنمائها وإذكاء أسبابها وبواعثها ، وهو الذي يسمى الانسان به وعند تحصيله إياه خيّرا ، فإذا عاقته عن تحصيل تلك الفضائل العوائق وصرفته عنها الصوارف كان هو الشرير لا محالة ، لاستحالة خلو نفس الانسان من كلا المتقابلين في آن واحد .

وبدهي أن كل موجود من الموجودات له كمال خاص وفعل خاص لا يشاركه فيه غيره من حيث هو ذلك الشيء في مشخصاته ومميزاته ، فلا يجوز أن يكون موجود آخر سواه يصلح لذلك الفعل صلاحية الانسان الذي اجتمعت له تلك المشخصات وتلك المميزات . وهذا حكم مطرد البقاء في العوالم السفلية والعلوية .

فإذاً الانسان من بين سائر الموجودات له فعل خاص صادر عنه لا يشاركه فيه غيره ، وهو ماصدر عن قوته المميزة المقرونة بالروية .

وإذاً يكون كل من كان تمييزه أصح ورويته أصدق واختياره أمثل كان أوعى لأسباب إنسانيته وأجمع لمقوماتها . وقد يتدلى الانسان بالقياس الى مايصدر عنه من الأفعال حتى ينحط الى مرتبة ليس دونها مرتبة . وأفضل الناس من كان أقدر على تصريف أفعاله الخاصة به ، وأشد تمسكا بشرائط الفضائل وحدودها ، وأكبح لجماح نفسه عن الاسترسال في غوايتها والركون الى شهواتها .

ومما لا مرية فيه أن الانسان كلما رقي بجوهر نفسه الى الكمالات ، كان أعم إنسانية

وأعود فائدة على هذا المجتمع . والأنبياء والرسل صلوات الله عليهم بينوا السنن والطرائق لكل ما يصدر عن الانسان من خير أوشر ، فقالوا هذا حلال وهذا حرام وبينهما أمور مشتبهة . وجاء العلماء على أقدامهم فأوضحوا السبيل وأقامو بين الناس حدودا فاصلة حاسمة . فالانسان بقدر ما يقترف من تلك الفيوضات الالهية يكون مبلغ استحقاقه للاتصاف بوصف الانسانية ، فإذا انحط عن تلك المراتب المرسومة الحدود كان خليقا أن لا يكون إنسانا .

وإذ تبين أن سعادة كل موجود إنما هى بالقياس الى ما يصدر عنه من العلوم الارادية والأفعال الاختيارية التى تميزه عما عداه وترسم حده التام بين ثنايا الخلود التى لا يتناكر فيها الأشخاص ولا يطغى فيها بعض الأناسى على البعض الآخر ، لا مناص من اعتبار الروية أعلى سببا من الأسباب المكونة لمراتب السعادات كلها . فان لهذه السعادة مراتب كثيرة متفاوتة بحسب الروية والمروى فيه وهو الانسان . من أجل ذلك قالوا أفضل الروية ما كان فى أفضل مروى ، ثم ينزل رتبة فرتبة الى أن ينتهى الى النظر فى الأمور الممكنة التى تقع تحت سلطان العالم الحسى ، فيكون الناظر فى تلك الأشياء قد مارس رويته وأعمل قريحته ، فحصل على الصورة الخاصة التى بها أمسى سعيدا مستأهلا للملك الأبدى والنعيم السرمدى . وقد تواضع علماء الأخلاق على أن هناك أجناسا من السعادات والشقاوات . وأن الخيرات والشرور فى الأفعال الارادية هى إما باختيار الأفضل والعمل به ، وإما باختيار الأدون والميل اليه .

على أن هذا المجتمع لا يثمر ثمرته المرجوة له إلا بتضافر الأيدى العاملة فى بنائه . فما من لبنة فى أساسه إلا وهى محتاجة الى يد تحكمها بتدبير وتحيطها بحزم وتنميها بروية ، فلا يتم بناؤه إلا باجتماع الأيدى وتضافر القوى . من أجل ذلك أوصت الشرائع الناس بالتحاب والتراحم والتواصل لتبقى له حياته وتدوم عليه نعمة الوجود الذى يجنى الناس من ورائه أطيب الثمرات وأبرك الفوائد ؟

عباس طه

الفتح الربانى لترتيب مسند الامام احمد

ظهر الجزء الثالث من هـذا الكتاب ومعه كتاب بلوغ الامانى من أسرار الفتح الربانى لحضرة الأستاذ الشيخ احمد عبد الرحمن البنا . وهو يظهر على شكل كراسات شهرية . وقد تم طبع ثلاثة أجزاء منـه يقع الجزء فى نحو ٣٢٠ صفحة فى القطع الكبير . وقد نقل الأستاذ مكتبه الى عطفة الرسام رقم ٧ بالقاهرة .

الاسلام فى الحبشة

كتاب جليل القيمة فى تاريخ الاسلام فى الحبشة الفه حضرة الاخصائى الجليل فى الآثار العربية الاستاذ يوسف افندى احمد مفتش تلك الآثار سابقا ومدرس الخط الكوفى الآن فى مدرسة تحسين الخطوط الملكية بالقاهرة .

هذا الكتاب يعتبر أطروفة فى التاريخ الاسلامى لم يفرد موضوعه بالتأليف الى اليوم . فنشكر لحضرة مؤلفه هذه الخدمة العلمية ، تولى الله مكافأته عليها .

تيسير المنفعة

بكتابى : مفتاح كنوز السنة ، والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى

لا يزال حضرة الألمعى الفاضل الأستاذ محمد افندى فؤاد عبد الباقى دائبا على تكميل عمله الجليل فى ترجمة فهرستات المستشرق فنسنك التى وضعها لأربعة عشر كتابا من كتب الحديث . فبعد أن ترجم تلك الفهرستات تحت اسم مفتاح كنوز السنة رأى أن يتبعها بفهرستات خاصة بكل كتاب من كتب الحديث . والذى دعاه الى ذلك أن هذه الكتب غير معدودة الكتب والأبواب (ماعدا صحيح البخارى) فاضطر الى تقسيم كل أصل الى كتب ثم تقسيم كل كتاب الى أبواب ، ووضع أرقاما لكل كتاب وباب اللهم إلا فى كتاب مسلم وموطا مالك فقد قسم كل كتاب منهما الى أحاديث ووضع لكل حديث رقما مسلسلا .

ولما كانت طبعات كل أصل من هذه الأصول تختلف فى عدد الكتب والأبواب صار هذا الأمر لا يمكن تداركه إلا بنشر فهارس لكل أصل تكون أرقام كتبها وأبوابها وأحاديثها مطابقة لأرقام كتب وأبواب وأحاديث النسخ الأصلية التى قسمها وعدها واضعو المعجمين المذكورين .

فنشكر لحضرته هذه الخدمة القيمة ، ونرجو الله أن يوفقه لأمثالها .

بسم الله الرحمن الرحيم

مهمة الدين الاسلامى فى العالم

٢٦

دعوته الى القيام بخلافة الله فى الأرض

لا يوجد تعليم من التعاليم الإصلاحية، ولا مذهب من المذاهب الفلسفية، ولا نظام من النظم الاجتماعية، رفع من شأن المجتمع الانسانى وناط به أعظم المهام العالمية، الى المستوى الذى رفع اليه الاسلام المجتمع الاسلامى. فالاسلام بعد أن أقام مجتمعه على الأصول الأدبية الخالدة، والمبادئ الخلقية العامة، أصبح من المعقول أن يكل اليه ما يتناسب وهذه الأصول والمبادئ من المهام الكريمة، والخطط الشريفة.

ولتفصيل هذا الإجمال نقول: إن المجتمعات الانسانية كلها قامت على الحاجات المادية، والمصالح القومية، مجردة عن كل اعتبار أدبى، أو أصل روحانى. ولما استطاعت تلك الجماعات بفضل تكافل أفرادها أن تأمن شر الغوائل، من عدو مغير أو مجاعة مهلكة، نشأت فيها بحكم الفطرة الانسانية نزعة الى ترقية آدابها، وتهذيب أخلاقها، ولكنها اعتبرت ذلك خاصا بآحادها. فحرمت عليهم العدوان على الأموال والأعراض والأنفس، وحضتهم على خصال من الرفق والعطف والمعدلة، ولكن كل جماعة قصرت كل ذلك على نفسها ولم تسره على غيرها، فكانت تعاقب من يقتل واحدا من مواطنيه بالقتل، ولكنها كانت تجازى من يقتل أجنبيا بالإعجاب والمدح. فالأخلاق التى كانت لدى الأمم فى أرقى عهودها كانت لا تعدو أخلاق المناسر من قطاع الطرق. وكانت الأخلاق الصحيحة التى يحملها اليها الأنبياء والمرسلون تشوه وتحرف، أو ترفض رفضا باتا.

وعلى هذه الحال نفسها كانت أرقى الأمم التى انتزعت منها الأمة الاسلامية خلافة الأرض ، قالت دائرة معارف لاروس جوابا على ما تساءلت عنه من حقيقة نظم تلك الأمم على وجه الإجمال : «كانت نظاماتها الوحشية والقسوة موضوعة فى قوالب قانونية . أما من جهة فضائلها كالشجاعة والمكر والتبصر والنظام والإخلاص المطلق للجماعة ، فهى بعينها فضائل قطاع الطرق واللصوص . أما وطنيتها فكانت مكتسبة لباس الوحشية . فكان لا يرى فيها إلا شره مفرط للمال ، وحقد على الأجنبى ، وضياع للإحساس بالشفقة الانسانية . أما العظمة والفضيلة فيها فكانت إعمال السوط والسيف فى العالم ، والحكم على أسرى الحروب بالتعذيب أو بالرق ، وعلى الأطفال والشيوخ بجر عربات النصر » انتهى .

على هذه الحال كانت الأمم المشهود لها بالرسوخ فى المدنية حتى الى العهد الذى ظهر فيه الاسلام ، أفلا يكون من مصلحة الانسانية ، وهى على وشك تطور جديد يلائم مواهبها العلوية ، أن يحيى الله أمة من وسط هذه الرمم ، ويجعل ترابط آحادها قائما على أرقى الأصول الأدبية ، لتكون مثلا تحتذيه الجماعات فى تكوين بنيتها الاجتماعية ، وأن يجملها من القوة الحيوية ، والسطوة المادية ، بحيث تظهر على الأمم كافة ، وتدفعها لإعادة النظر فى روابطها القومية ، وسيرتها الدولية ؟

نعم : لقد كان ذلك ، وظهرت من بقعة هى أبعد البقاع الأرضية عن الألفة والاجتماع أمة رابطتها الفضيلة الخالصة من الشوائب ، المطلقة من القيود ، لا تشوبها روح القوميات ، ولا فروق اللغات والجنسيات ، فهى عالمية حسا ومعنى ، لم تقم على مثل الأصول التى قامت عليها أمة من قبل ، ولا ينتظر أن تفوقها فى هذه المزايا أمة من بعد .

هذا حادث تاريخى جلل يجب أن ينوّه به المسلمون فى كل ناحية يحلونها من نواحى الأرض ، فهو فضلا عن أنه يعلى من قدر الاسلام الى أرفع محل ، يضيف الى العالم

الاجتماع صفحة مجيدة فى تاريخ الروابط الانسانية ، وحالة فذة من حالات قيام الجماعات ، وهى قيام أمة عالمية غير ملحوظ فى تكوينها ما كان يعتبر أسسا للاجتماع من وحدة الجنس واللغة والبيئة . فهى أمة مبادئ وأصول ومقاصد عامة ، لا أمة جنس ولا لسان ولا وطن .

هذه الأمة العالمية هى المثل الأعلى لما سيكون عليه سكان الكرة الأرضية قاطبة ، حين تسمو عقلياتهم ، ويدركون أن الأرض لله ، وأن هذه الفروق بين أهلها فى اللون واللغة والبيئة ليست فروقا طبيعية توجب بينها الخلاف والتناحر ، ولكنها فروق سطحية أوجبتها سعة الأرض ، وبعد الاتصالات ، وتباين اللهجات . فإذا بلغت الجماعات البشرية هذه الدرجة من الفهم ، حدث تعارف عام بين البشر ، وتلاه سلام لا يعكر صفوه معكر من أى نوع كان . فإن لم يصل العالم كله الى هذه الدرجة من السمو ، وصلت اليه على القليل جماعات راقية يمكنها أن تبلِّغ المدنية الى أرفع مكاناتها ، وتحميها شر عدوان المنابذين لها .

فهذا المثل الحى الذى ضربه الاسلام للناس ومضى فى تحقيقه الى أبعد حد ، يجب أن يدونه علم الاجتماع فى أوجه صفحاته ، ولا يكون ذلك إلا إذا أدركه المسلمون ونوهوا به ، وبينوا صحته بالأدلة القاطعة . وأى مسلم تعوزه الأدلة على هذا الأمر المقرر فى النصوص الكتابية ، والمعزز بالحوادث التاريخية ؟

ومما هو أبعد من كل ما مر أثرا فى تنزيه المجتمع الاسلامى من شوائب الرعونات البشرية ، أن الله طبعه بطابع إلهى ، فجعل مهمته القيام على خلافته فى الأرض . وهذه تقتضى التخلق بأخلاق الله فى معاملة عباده ، والسير على سنته فى العناية بمخلوقاته . وهى مهمة خطيرة ذات تبعات كبيرة ، فيقول تعالى : « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم (أى ليختبركم به) إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم » .

ومما يدل دلالة قاطعة على أن الله تعالى ندب هذه الأمة لخلافة إلهية عالمية ، أنه ناط بها مهمة الهيمنة على الناس كافة ، فقال تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكونَ الرسول عليكم شهيدا » .

فالأمة الاسلامية أمة منتدَبة من الحق لخلافة الله فى الأرض ، وليس فى هذا الأمر مايجرح كبرياء أمة من الامم ، ولا مايحط من عزتها وكرامتها ، لأن واضع هذا الانتداب سبحانه ، لم يجعله ميزة لشعب من الشعوب ، ولا وقفا على جنس من الأجناس ، ولم يشترط له بيئة من البيئات ، ولكنه جعله للجماعة التى تدين بشرائطه المقررة ، وأصوله المبينة من أى جنس كان آحادها ، وفى أى بقعة من الأرض تأسست دولتها : « وإن تتولَّوْا يستبدلْ قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » .

ولم يجعل الله تلك الأصول والمبادئ مناسبة لأمة دون أمة ، أومسايرة لعادات قوم دون آخرين ، ولكنه فرضها أصولا أولية خالدة ، ومبادئ أساسية عامة ، مما تعترف كل أمة بأنها أرقى الأصول وأقوم المبادئ ، لا تصلح لزمان دون زمان ، ولا تلائم حالا دون حال . وقد درسنا كل ذلك فى مقالاتنا تحت هذا العنوان بتوسع لا مزيد عليه ، فليرجع من شاء اليه .

إن ندب مثل هذه الأمة لتمثيل الحق الخالص والقيام به ، لونظر اليه نظرا فلسفيا لوجد طبيعيا من كل وجه ، فإن الحقائق العلمية ، والفتوح العقلية ، لا تفتأ تجمع قلوب الأيقاظ من الناس حولها فى كل بيئة من بيئات الأرض ، وتؤلف منهم أمة شائعة فى جميع الأمم ، بحيث لواجتمعوا فى صعيد واحد لكوّنوا أمة مختارة تدين للحق وتعبده ، وتتعطش الى المزيد من نوره ، وتعمل على إقامة دولته فى الأرض .

والاسلام فى حقيقته ، كما قررناه مرارا ، خروج من جميع التقاليد ، وتجرد من كل النسب والملابسات ، ومواجهة للحق بالقلب خالصا من جميع الصور الذهنية ، لتنطبع فيه الحقائق الإلهية فى إطلاقاتها الذاتية ، وليصبح مستعدا لسواها مما يفتح به عليه

فى أدوار جهاده فى سبيلها ، فهو والعلم يستهدفان غرضا واحدا هو النور الذى يعشو اليه كبار النفوس من كل أمة فى كل زمان وفى كل بيئة .

وعليه فجميع هؤلاء الرجال الشائعين فى جميع الأمم يدينون بالاسلام بغير علم منهم ، فهم على حد قول الفيلسوف الألمانى العبقرى الكبير جوت (Goethe) وقد اطلع على أصول الاسلام : « لو كان الاسلام هو هذا فنحن إذاً فيه » .

فإذا قام المسلمون بدعوة الى دينهم مؤسسة على التنويه بهذه الأصول الأولية فى الاسلام فانها تؤثر فى العقول والقلوب بوصفين: أولهما بوصف أنه دين ،وثانيهمابوصف أنه إصلاح عالمىعام . فالاسلامكدين لايحتاج الى أكثر من أن يعرّف التعريف الجدير به ، وهو لقيامه على الفطرة الانسانية واستناده الى العقل والعلم ، يحل من الأفئدة محل الحقائق الأولية ، فلايكاد يجد مقاومة إلا من أسرى الأوهام الذين لا يبالون بأحكام العقل ومقررات العلم . والاسلام كإصلاح اجتماعى، نظام بلغ أقصى درجات السمو ، بل هو أرفع مثل أعلى يتط به نظام الاجتماع ، وتتعطش اليه كل نفس نقية من شوائب الحيوانية . فمَن من الناس من لا يحب أن تعلو كلمة الله فى الأرض ، وأن يسود الحق فيه سيادة يسقط معها كل باطل ، ويضمحل كل زور ، وتزول جميع الفروق بين الناس ؟

فلنعمل مجتمعين على بيان هذه الحقائق بكل وسيلة يصل اليها إمكاننا ، وقد وعد الله تعالى ببيانها فقال : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد ؟ » .

***

هذه خاتمة المقالات التى نشرناها تحت عنوان (مهمة الدين الاسلامى فى العالم) . فنرجو الله أن يوفقنا لبحث إسلامى جديد فى ناحية من نواحى هذا الدين القويم ، والله يهدينا الى سواء الصراط م؟

محمد فريد وجدى

التفسير

سورة الرعد

— ٩ —

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : (أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ . الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ، وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ، وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ، أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ، جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) .

لقد طالعت من أول السورة هذه الآيات البينة ، بل الكواكب الساطعة والأنوار اللامعة ، وتجلت لك الحجج البالغة والبراهين الدامغة ، فلم يبق إلا أن تكون هناك عيون تبصر وقلوب تعقل ، فهل يستوى من أبصر الهدى والرشاد ، ومن عميت بصيرته فلم ير ما أمامه وسار يتخبط فى ظلمات الجهالة ؟ هل يستوى من اهتدى فغنم وسلم ، ومن ضل فضاعت عليه الفوائد التى عرضت عليه ، وكان جناها دانى القطوف بين يديه ؟ هل يستوى من سار السير السوى وسلك الطريق الرضى فوصل الى السعادة

ورزق الحسنى وزيادة ، ومن تنكب الصراط المستقيم وسار يجدّ وهو كلما جدّ فى سيره ابتعد عن قصده ، وربما خبط فى سيره فأتلف على نفسه ما قد كان سليما له ؟ حقا إنه لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون . وليس الذى يعلم أن ما أنزله الرب الكريم الرحمن الرحيم هو الهدى والرحمة المهداة فأخذه شاكرا ، كذلك الأعمى الذى يضع يده على ما يظنه مطلبه وإذا هو يقبض على آفة مهلكة ، ويشتط فى السير وإذا هو يتردى فى بئر . ولا يتذكر وينتفع بالذكرى إلا أولو الألباب والعقول الصافية الخالصة ، كما قال تعالى : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » . وعسى أن لا تغفل عن حسن موقع الفاء فى قوله « أفمن يعلم » فإن معناها أبعد ما سمعت من تلك الآيات البينة والأمثال الحكيمة ، وبعد أن تجلى الأمر ووضح الصبح لذى عينين يتوهم استواء الأعمى والبصير ؟

قال تعالى : « الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق » الآيات :

هذه الآيات والتى بعدها فى قوله تعالى : « والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه » تفصيل وتصريح بما تضمنه هذا المثل الجليل المذكور فى قوله عز من قائل : « أفمن يعلم أن ما أنزل اليك من ربك الحق » الخ ، فالجملتان مستقلتان بالفائدة كل فى بابها ، ولكنهما بسبب متين من ذلك المثل السابق ، حتى ظن بعض المفسرين أن قوله : « الذين يوفون » الخ بدل من قوله « أولو الألباب » أو من قوله « أفمن يعلم أن ما أنزل » الخ . وهذا من شدة الارتباط بين المثل على إجماله ، وبين ما سيق لشرحه وتفصيله ، وإنما هما جملتان كما سمعت ، أولاهما فيها مبتدأ موصوف بتسع صفات بينة ، وخبره هو قوله : « أولئك لهم عقبى الدار » ، وثانيتهما مبتدؤها قوله : « والذين ينقضون عهد الله » الخ ، وخبره قوله : « أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار » . ولكن الآية الشريفة فى القرآن الكريم تراها من قوة الارتباط كأنها كلام واحد وجملة واحدة ، فتتنقل فى فوائدها المتنوعة المتكررة ، وكأنك لا تزال فى الكلام الأول . وهذا من أقوى الميزات التى امتاز بها القرآن الكريم .

قلنا إن النوع الأول قد جاء موصوفا بتسع صفات جليلة ، ونحن نجلوها لك مفصلة :

الأولى قوله تعالى : «يوفون بعهد الله» وقد نقل فى تفسيرها قولان : (الأول) عن ابن عباس أن المراد بعهد الله ما عقدوه على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته ، وهو ما أشير اليه فى قوله تعالى : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتَهم وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربكم قالوا بلى » . و (الثانى) أن المراد بالعهد ما أقام الله الحجة العقلية أو السمعية على صحته فى المعتقدات ، وعلى طلبه فى الأعمال حتى صار كأنه عهد بين الله وبين عباده . ويقرب من هذا أن المراد بالعهد الشرائع التى أمر الله بها عباده ، فقد أقام عليها حجته ، وقررها بآياته على ألسنة رسله عليهم السلام . ولقد يلوح لى أن القولين مرجعهما واحد ولا خلاف بينهما ، فلقد سبق فى هذه المجلة أن بينّا أن ما أشهد الله بنى آدم عليه واعترفوا به فى قوله : « وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى » هو ما ركبه فى فطرهم من إدراك ما هم عليه من حاجة الى تعهد القدرة الإلهية لهم بالإيجاد والتربية والتكميل ، وما أودعه فيهم من الشعور بأنهم لا قيام لهم إلا بإرادة الحى القيوم ، ولا كمال لهم إلا أن يؤتيهم الله الكمال من واسع رحمته ، وأن كل شىء فيهم شاهد بأن ربهم الله ، ولا متصرف فيهم وفى هذا العالم أجمع إلا هو وحده لا شريك له ، فتكون شهادة حال على ما بينّا ذلك مفصلا فى موضعه ، فليطلبه من أراد الاستيفاء والاستقصاء فى هذه النقطة الدقيقة من موضعه فى الجزء الأول من هذه السنة .

والقول الثانى ، وهو كما قلنا راجع الى هذا القول ، أن المراد بعهد الله ما أقام الله تعالى الحجة القاطعة على صحته أو على لزومه ووجوبه ، وذلك يشمل جميع التكاليف . وكأن التعبير عنها بأنها عهد الله إشارة الى أنه لما كان من شأن العبد الخاضع لربه أن يعترف بما قرر حقيته ، ويمتثل ما أوجبه وفرضه ، وأنه لا مندوحة له أن يكون مطيعا لخالقه ، ومن رحمة الله بعبيده أن يتعهده بالهداية والإرشاد ، كان ما يقوم عليه البرهان

القاطع والحجة البينة بمثابة عهد ارتضاه الطرفان وأقراه بينهما ، ويكون القيام به امتثالا وانتهاء واعترافا ، وفاء بذلك العهد الذى ينبغى أن يكون مستقرا لا محالة بين العبد وربه .

هذا ولا شك معنى عام شامل لكل فروع الشريعة وأصولها ، فما من باب من أبواب الشرع ولا فضيلة فى الخلق ولا عدالة فى المعاملة ولا مجاملة فى المعاشرة إلا وهو داخل فى عهد الله ، والقيام به من باب الوفاء بعهد الله . وإنك لتجد فى إضافة العهد الى الله من تربية الداعية للامتثال والحفز على الوفاء ما هو غنى عن البيان ، فهو عهد إن لم يكف فيه أنه عهد فيكفيه أنه عهد الله . ولفظ الجلالة متضمن لكل صفات العظمة والجلال ، فهو يجمع الصفات المتجلية فى أسمائه الحسنى عز وجل ، وأيضا فإنه لا يسمى الشخص موفيا بعهد الله إلا إذا قام بكل ما كلفه به الله ، فإن من حلف على أشياء لا يخرج عن الحنث ولا يسمى بارا فى يمينه إلا إذا أتى بها جميعها ، فالإخلال بشىء واحد منها يسمى نكثا لليمين وحنثا فيه ونقضا للعهد .

الثانية من الصفات التسع ما ذكر فى قوله تعالى : « ولا ينقضون الميثاق » وهو وإن كان قريبا من الوصف الأول وهو الوفاء بعهد الله إلا أن بينهما شيئا من الفرق ، فالأول ظاهر فيما أمر الله به ابتداء ، والثانى يتبادر منه ما أكده المرء بميثاق أعطاه على نفسه ، سواء أكان فيما بينه وبين ربه كالأيمان والنذور ، أو بينه وبين الخلائق كأنواع العقود والمعاهدات . وأيضا فإن قوله : « ولا ينقضون الميثاق » فيه تأكيد لاستمرار وفاء العهد المستفاد من صيغة الجملة الفعلية التى للاستقبال ، فقد قرر علماء البلاغة أنها تشعر بالاستمرار ، ولكن التصريح بأنهم لا ينقضون الميثاق أوفى بالدلالة على ذلك .

ولقد جاء الحث على وفاء العهد والتنفير من نقض المواثيق فى غير ما آية وحديث ، قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » وقال تعالى : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها » وقال تعالى : « وإما تخافن من قوم خيانة

فانبذ إليهم على سواء » أى فآذنهم بأن ما بينك وبينهم من عهد قد نبذ بسبب ما بدر منهم ، ولا تأخذهم غيلة وعلى غرة . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له » وروى عنه صلى الله عليه وسلم قوله : « ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ، ومن كنت خصمه خصمته : رجل أعطى عهدا ثم غدر ، ورجل استأجر أجيرا استوفى عمله وظلمه أجره ، ورجل باع حرا فاسترق الحر وأكل ثمنه » .

وتكاد تجمع العقول والشرائع على استنكار الغدر مهما كانت دواعيه وفوائده ، روى أن ملكا أعياه خارج عليه فلم ير بدًّا من أن يؤمنه ليأمن شره ، فوثق به الخارج وأسلم قياده ، فغدر به ، فلما اشتفى منه وأمن على مملكته خاطب بعض خواصه مبتهجا فقال : كيف رأيت ، لقد استرحنا من هذا الخارج ! فأجابه بأن ما خسره الملك أضعاف ما ربحه بالراحة منه ، فقد أضعت الثقة بعهدك فلا يطمئن إليك بعدها أحد ، فكان سببا عظيما لأسفه وندامته .

الصفة الثالثة ما ذكر فى قوله تعالى : « والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل » . وهذا وصف عام يتناول أحوالا عديدة قد أمر الله بصلتها ، ففيه صلة الرحم ، وصلة القرابة ، وحسن الجوار ، وإكرام الجار ، ومراعاة حقوق أخوّة الإيمان المذكورة فى قوله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » وفيه صلة الأغنياء للفقراء بالإحسان اليهم ، والعطف على الأيتام والحنو عليهم ، وفيه التواد بين الناس ، وفيه وهو من أعظمها صلة الرسول صلى الله عليه وسلم بالمناصرة والمؤازرة ونصرة دينه ، ومحبته حتى يكون أحب اليه من أهله وولده والناس أجمعين ، بل أحب اليه من نفسه ، وفيه وهو أعمها صلة الإيمان بالعمل والإحسان . فإذا قيل فى تفسير الآية بواحد من هذه المذكورات فالآية متسعة لجميعها ، ولا وجه لتضييق الفائدة مع اتساع الآية للجميع ، فيدخل فيه الحقوق الواجبة الرعاية بين العباد ، بل حتى الرفق بالحيوان وما ماثل ذلك .

ولقد يقال : أليس هذا داخلا فى الوفاء بعهد الله وعدم نقض الميثاق ، لا سيما إذا فسر العهد بالشرائع التى أمر الله بها ؟ أليس هـذا وما بعده داخلا فيما أمر الله به فى شرائعه ؟ وجوابه أن هذا تقرير وتنصيص على أهم الأمور التى قد يغفل عنها بعض المكلفين مع أهمية شأنها ، ومقام الإرشاد وتربية النفوس لا يكفى فيه عام عن خاص ولا مجمل عن مفصل ، فذكر هـذه الصفة وما بعـدها للإشادة بها ، وتربية النفوس على الأخذ بها والتزامها .

الرابعة والخامسة مافى قوله تعالى : « ويخشون ربهم، ويخافون سوء الحساب » . والمعنى فيهما أن هـذه الصفات السابقة على جلالتها إنما تكون موجبة لرضاء الحق واستحقاق المثوبة ودخول صاحبها فى أولى الألباب المتذكرين الذين علموا أن ما أنزل اليك من ربك الحق ، إذا كان الباعث لهم على الإتيان بها خشية ربهم وخوفهم من حسابه يوم يقوم الناس لرب العالمين . والخشية والخوف متقاربان فى المعنى وإن فرق بعضهم بينهما ببعض الفروق ، مثل أن الخشية خوف يصحبه تعظيم وإجلال للمخشى وإن كان الخاشى أيضا عظيما ، والخوف يرجع الى ضعف الخائف وإن كان المخوف منه أمرا يسيرا ، ومثل أن الخشية ترجع الى من يصدر عنه الأمر الضار المؤلم ، والخوف يتعلق بنفس ذلك الأمر المؤلم أو بمصدره ، تقول : خفت الأسد وخفت اغتياله ، وتقول: خشيت الأسد ، ولا يقال خشيت اغتياله إلا على وجه التوسع ، غير أن الاستعمال الفصيح قد جاء فيه الوجهان ، فقد قال تعالى : «ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق» إلا أن إشعار الخشية باستعظام المخشى منه ، والخوف باستصغار الخائف أمر نفسه ، يكاد يكون واضحا فى أغلب الاستعمالات . وقد عرفت أن المراد بهذين الوصفين لفت النظر الى أن محل الاعتداد شرعا بما ذكر من الصفات إنما هو حينما يكون الباعث عليها امتثال أمر الله .

الصفة السادسة ما فى قوله تعالى : « والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم » . والصبر

ملاك العبادات ، بل مجمع الفضائل كلها . وقد ورد فيه « الصبر نصف الإيمان » .
وقد ذكر فى القرآن الكريم نيفا وسبعين مرة . ولقد قيد بقوله « ابتغاء وجه ربهم »
لأن الصبر كثيرا ما يدعو اليه دواع هى من حظوظ النفس ، كالصبر تجلدا ، والصبر
حبا للمحمدة ، والصبر اتقاء شماتة الأعداء ، والصبر لعلمه أن الجزع لا يعيد عليه
فائتا ، وليس شىء من هذا بالصبر المحمود فى نظر الشرع ، وإنما الصبر الذى أثنى الله
عليه وحث عليه ودعا اليه هو الصبر ابتغاء وجه الله أى طلبا لمرضاته ، ويقع هذا على
وجوه : أحدها أن يصبر على البلاء لأنه قسمة من الحكيم العلام يجب الخضوع لها
والإذعان رضا بحكم قاسمها . وثانيها أن يصبر على ما يكرهه لعلمه أنه من تصرفات
الحكيم العليم الذى لا يفعل إلا عن حكمة ، وكل ما صدر منه فهو خير وجميل فى ذاته
وموافق للمصلحة العامة والنظام العالمى ، فيكون جمالا مرضيا محبوبا . وثالثها أن يصبر
لأن الله أمره بالصبر ، فهو يرجو ثواب الله بامتثال أمره . ورابعها ، ولعله أعلاها ،
أن يصبر عن رضا بل عن حب لمن اختصه بهذه التصرفات ، فهو يرى فيها تذكيرا
بالعظمة الإلهية ، فينتقل نظره من البلية الى المبتلى بها فيستغرق فى شهوده ويتلذذ
بتذكره ، على نسق ما يقول المحب لحبيبه : هذه هى الكلمة التى يلذ لها سمعى وإن ضُمِّنت
شتمى . ولعل هذا المقام الأخير يستشعر به من قوله تعالى : « ابتغاء وجه ربهم »
فكأنهم رأوا فيما أصابهم ما يجعلهم يحصرون كل تفكيرهم فى تذكر جلال ربهم حتى
كأنهم يشاهدونه ، فهم يبتغون بالصبر شهود وجه ربهم ، وهذا مقام ذوقى من ذاقه
عرفه . نسأله تعالى أن يجعلنا من أهل معرفته .

ويحسن أن ننبهك لما فى اختيار صيغة الماضى فى قوله « صبروا » من الإشارة الى
أن فضيلة الصبر ينبغى أن تكون حاصلة مستقرة ثابتة لا تزول ولا تتزلزل ، وأما الأعمال
التى سبقت فعبر عنها بصيغة المضارع لأنها تتجدد حينا بعد حين لكل مناسبة
كالوفاء بالعهد ، ووصل ما أمر الله به أن يوصل .

الصفة السابعة والثامنة ما فى قوله تعالى : « وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية » وإن أكثر ما تذكر الصلاة بلفظ إقام ، للإشارة الى أن المطلوب فى الصلاة استيفاء أركانها وإقامة أعمالها حتى تكون كالبناء المتماسك القائم على أحسن حال وأجمل هيئة . وحسبك فى هذا ما روى من قوله صلى الله عليه وسلم للرجل الذى أساء صلاته : « صلّ فإنك لم تصل » فقد جعل العمل الذى لم يستوف ما طلب منه هدرا ملغيا كأنه لم يكن . وكذلك أكثر ما تذكر الصلاة مقترنة بالزكاة . وهذا ما جاء هنا فى قوله : « وأنفقوا مما رزقناهم » وفى التعبير بقوله : « مما رزقناهم » تربية لداعية الإنفاق ، فكأنه يقول لهم : إن ما دعوناكم للإنفاق منه هو رزق أغدقناه عليكم فلا عذر لكم فى مخالفة أمرنا والشح به على عبادنا .

وقوله : « سرا وعلانية » لبيان أن الإنفاق على كل حال حسن جميل ، وقد يطلب كل منهما فى مقامه اللائق به ، فربما كان الإنفاق فى السر أفضل حينما يخشى الرياء أو يكون المنفق عليه يستحيي ويتأذى من إعلان إعطائه ، وقد يكون الإنفاق علنا أفضل كما إذا ظن أن عمله سيكون قدوة حسنة لغيره . ومنهم من حمل الإنفاق سرا على الصدقة النافلة ، والإنفاق علنا على الزكاة المفروضة ، وهو وجيه أيضا . وقد جاء فى حديث « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله » : « ورجل أنفق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » .

الصفة التاسعة فى قوله تعالى : « ويدرءون بالحسنة السيئة » . ومعنى يدرءون يدفعون ، وذلك أيضا يجيء على وجوه ، فمنها أن يقابل الشر بالخير كما جاء فى قوله صلى الله عليه وسلم : « ليس الإحسان أن تحسن لمن أحسن اليك وإنما الإحسان أن تحسن الى من أساء اليك » . ومنها أن ينهى عن المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة . ومنها أن يستل بغض المبغض بالمعروف حتى يصيّره خيّرا بعد أن كان شريرا . ومنها أنه إذا بدرت منه سيئة أتبعها بالحسنة حتى يغفرها الله له « إن الحسنات يذهبن السيئات » .

هذه هى الصفات التى وصف الله بها عباده المتقين بعد أن وصفهم بأنهم أولو الألباب الحقيقون بأن يتذكروا وتنفعهم الذكرى، والجديرون بأنهم علموا أن ما أنزل الى النبى صلى الله عليه وسلم من ربه هو الحق. وقد أخبر عنهم بعد ما ساق صفاتهم الجليلة ونعوتهم الجميلة بأن لهم عقبى الدار. وإعادة ذكرهم بقوله «أولئك» كأنه ليشير اليهم حتى يراهم العقل شاخصين بصفاتهم السابقة، فيفيض عليهم هذا الجزاء الأوفى من أجل تلك الصفات التى جلاهم بها.

ومعنى عقبى الدار: العاقبة الجميلة لهذه الدار التى لا تخلو من الأكدار، فهى عاقبة خالية من أكدار هذه الحياة، وهى عاقبة خالدة مستقرة، فهى الحياة الحقيقية، وأما هذه الحياة فهى متاع زائل، وإن الدار الآخرة لهى الحيوان. فهذه الكلمة على حد قول الناس فى مخاطباتهم: فلان هو الفائز فى النهاية، هو الذى كسب آخرا، وأمثال ذلك، ولله المثل الأعلى.

وأردفها بقوله تعالى: جنات عدن، وهى منزلة وسط الجنة، أو جنات عدن بمعنى الإقامة والاستقرار، من عدن بالمكان أقام به واستقر فيه، ومنه المعدن لمستقر الجواهر والنفائس.

قال تعالى: «يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم» وهاهنا يتبادر أن تقوى الآباء تفيد أبناءهم وأزواجهم وذراريهم إذا كانوا صالحين أى مؤمنين وإن قصروا عن أعمال آبائهم بعض التقصير، فيصح أن يكرم الله عباده الأتقياء الصالحين برفع درجات ذريتهم وأزواجهم الى منازلهم وإن قصروا عنهم، حتى يكون للتكريم وجه، فإنه إذا كان الذرارى لاينالون تلك المنزلة وهى جنات عدن إلا إذا عملوا لها العمل الكامل، فمن أين يكون تكريم آبائهم بتكريمهم؟ فهم حينئذ يكونون قد أكرموا لأنهم استحقوا ذلك بأنفسهم. نعم قيد الصلاح أى الإيمان لا بد منه، لقوله تعالى:

... صلح» ولا يمنع هذا قوله تعالى: «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ...

المنزلة التى نالها أولئك المؤمنون المقصرون ، نالوها بفضل من الله لا باستحقاق ، وفضل الكريم واسع ، وإن كان لا ينبغى الاعتماد على هـذا والاستخفاف بالتكاليف ، فانه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون .

وقوله تعالى : « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب » إشارة الى التكريم والتحية التى يمنحهم الله إياها ، حتى يفوزوا بالنعيم والتكريم . وقوله : « من كل باب » يحتمل أن يكون إشارة الى سعة ما أعـدّ لهم حتى صار له أبواب عدة يتوافد عليهم منها الملائكة للتحية . ويحتمل أن تكون الأبواب إشارة الى تعدد أبواب البر والخير والتقوى التى قاموا بها فى دنياهم فاستحقوا بسببها تحية الملائكة وتوافدهم عليهم .

وقوله : « سلام عليكم بما صبرتم » أى يحيونهم بهذه المقالة ، وكان اختيار السلام لأنه بمعنى الأمان من كل ما يخاف . فـكأنه يقال لهم : قد أصبحتم بمأمن من كل المخاوف ، فلا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون .

وقوله : « بما صبرتم » إنما خص الصبر بالذكر لما قدمنا لك من أن الصبر عماد التكاليف كلها وقطب دائرتها ، فما من تكليف إلا ومرجعه الى الصبر على عمل شاق ، أو الصبر عن مشتهى تميل اليه النفس . « فنعم عقبى الدار » ثناء أجل ثناء على ما فازوا به بما صبروا .

نسأل الله تعالى أن يحشرنا فى زمرتهم ، وأن يحققنا بصفاتهم ، إنه سميع الدعاء مجيب النداء محقق الرجاء . وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمى ، وعلى آله وصحبه وسلم ؟

ابراهيم الجبالى

رؤية الهلال

عند الغروب وبعد الفجر

— ٢ —

ذكرنا فى مقالنا السابق أن الاسلام يشرسمح يأخذ بالظواهر ولا يكلف الناس شططا، وغايته التى يرمى اليها من قرب أو بعد هى إصلاح القلوب وغرس مراقبة الله فيها، وأبغض الأشياء اليه هو الفرقة والانقسام، ولذلك وسع الناس جميعا على اختلاف أنظارهم وتباين آرائهم وتنوع اجتهادهم، علما منه بأن الله لم يخلق الناس على استعداد واحد. بل بينهم من التفاوت فى الاستعداد والتخالف فى التكوين والتباين فى الدرجات والاختلاف فى الآراء والأنظار ما لا يعلمه إلا الله تعالى. ونصحنا فيها المفطرين الذين عملوا بحكم القاضى الذى شهد أمامه شهود المساء برؤية هلال شوال، وللصائمين الذين يقولون إنهم رأوا الهلال صباحا واعتقدوا أن اليوم من رمضان.

نصحنا لهم جميعا ألا يتنازعوا فيفشلوا وتذهب ريحهم، وقلنا إن كلا يعمل على اعتقاده وما أداه اليه اجتهاده. ونصحنا للقاضى أن يتحرى ويحتاط، فإن عليه تبعة كبرى إذا تهاون فى ذلك، وعلى القضاة أن يعرفوا أحوال الناس، وأن يكون لهم فراسة صادقة، وبصيرة نافذة، بحيث لا يخفى عليهم أحوال المجتمع الذى هم فيه. فليدققوا فى أمر الشهود، وليعلموا أن الأمر جلل والخطب كبير والناقد بصير.

وقد أذكرنى ذلك قول بعض المفسرين فى قوله تعالى: «ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى»: إنما نهاه الله عن اتباع الهوى بعد أن أمره أن يحكم بالحق لأن الحكم بالحق لا يخرجه عن المسئولية إلا إذا حكم بالحق لأجل كونه حقا، فإذا حكم به لأجل كونه موافقا لهواه لا لكونه حقا، لم يكن من قضاة الحق بل من قضاة الهوى.

ولنذكر لك بعد ذلك الخلاصة التى يجب التعويل عليها فى رأينا ثم نعقبها بكلام بعض العلماء، فنقول :

خلاصة الرأى الذى نرتئيه أنه لا يمكننى بحال من الأحوال أن أقول إنه يصح للانسان أن يقدم على أمر وهو يعتقد حرمته، أو أن يخالفه وهو يعتقد وجوبه ؛ ولا أن أقول إن الدين يخالف حقيقة علمية قررها العلم وقام عليها البرهان ؛ ولا يصح أن نعرض الدين لهزء الهازئين وسخرية الساخرين فى عصر لا داعى للإطناب فى شرحه وبيان ما فيه .

ولا نزال نكرر أن الله لم يكلفنا بالواقع « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » .
وقد قرروا أن المجتهد يجب اتباع ظنه، ولا تجوز مخالفته . وذكر الفقهاء أن من رأى طيرا فحلف بالطلاق أنه غراب مثلا، فنظر اليه آخر فحلف بالطلاق أنه حدأة، ثم لم يتبين أمر ذلك الطائر، لم يحكم بوقوع الطلاق على واحد منهما، حيث لم يحلف إلا عن اعتقاد لم يتبين خلافه .

ولو سافر اثنان واشتبهت عليهما جهة القبلة وتخالفا فى أمرها لوجب على كل الأخذ بما أدى اليه اجتهاده ورأيه وتحريه، ولا يجوز لأحدهما أن ينكر على صاحبه . فإن هذا هو الواجب فى حق كل منهما، ولا لوم على من فعل ما وجب عليه . فإن مبنى الدين على إظهار العبودية والامتثال لأوامر الربوبية . وماذا نريد من التسامح بعد ما قال كثير من العلماء : إن الحق يتعدد ؟ فإن الواجب فى حق كل مجتهد ما أداه اليه اجتهاده .

وسره ما بيناه فى التمهيد من أن الله يعلم ضعف البشر، فلم يكلفهم إصابة الواقع، وإنما كلفهم أن يحترموا أوامره ويجتنبوا نواهيه، ولا يخرجوا عليه ولا على رسوله فيما يعتقدون .

أما من كان بعيدا عن تلك المباحث، ولم يقع فى نفسه صدق إحدى الفرقتين وكذب الأخرى من أولئك الرائين، فعليه أن يتبع حكم الحاكم، ويكون مع السواد الأعظم .

ولا يفوتنا أن نقول :

إن الشافعية يرون أن الحاسب يعمل بمقتضى حسابه فى حق نفسه . وكذلك من قلده مصدقا له فى حسابه معتقدا أنه الواقع . ولقد أرى أن التقليد فى مثل هذا إذا أمكن أن يرفع به الخلاف ويحصل به الوفاق أولى من الفرقة والانقسام والتنابز بالألقاب.

ولا أزال أكرر أن الله لا يبغض شيئا مثل الشقاق والانقسام ، ولا يحب شيئا مثل الألفة والوئام ، وقد كانت وجوه الخلاف على عهد السلف الصالح لا تكاد تحصر ، ولم يكن بينهم تباغض ولا تشاتم ، فكانوا ورثة الأنبياء حقا يحب بعضهم بعضا ويثنى بعضهم على بعض .

وقد طلب المنصور من الامام مالك أن يحمل الناس على الموطأ فأبى ، علما منه رضى الله عنه أن الأمر فى الفروع هين ، وأن الظن فيه كاف ، وأن المخطىء فيه مأجور ، وأنه يجوز أن يكون الصواب مع غيره لا معه . وهذا هو شأن أئمة الهدى ، العارفين بأنفسهم وضعفها ، العالمين بسماحة الشريعة وسعتها .

هذا ما أملاه علىّ وارد الوقت بدون مراجعة ولا تعمق . ولا أزال أكرر أنى أحب من القضاة أن يتحروا غاية التحرى ، فإننا فى زمان كثر فيه الزور وطم فيه الفجور .

وبعد كتابة ما تقدم رأيت فى المسألة نصا صريحا لابن عابدين الحنفى فى حاشيته على الدر المختار ، وكذلك لمولانا الشيخ محمد عليش فى فتاويه ، فرأيت من النصيحة للدين أن أنقل ذلك للقراء وإن خالف ما تقدم لنا . واليك ما قال ابن عابدين :

« أما إذا رئى يوم التاسع والعشرين قبل الشمس ثم رئى ليلة الثلاثين بعد الغروب وشهدت بينة شرعية بذلك ، فإن الحاكم يحكم برؤيته ليلا كما هو نص الحديث ، ولا يلتفت الى قول المنجمين إنه لا تمكن رؤيته صباحا ثم مساء فى يوم واحد . وكذا لو ثبتت رؤيته ليلا ثم زعم زاعم أنه رآه صبيحتها فإن القاضى لا يلتفت الى كلامه » .

وفى فتاوى مولانا الشيخ محمد عليش ما يتفق هو وما ذكره العلامة ابن عابدين

فى النتيجة وطرح كلام المنجمين . (وبعض العلماء يحتج بقوله عليه السلام : « نحن أمة أمية » الخ . ويمكننا أن نجعل الحديث حجة لنا ، فإنه يشير الى أننا إذا أصبحنا غير أميين تغير الحكم ووجب أن نعمل بما يقتضيه العلم) .

ولكنى بعد هذا كله مصمم على ما قلته أولاً من أن الدين الاسلامى لا يخالف حقيقة علمية متفقا عليها متى تبينت ، فليكن البحث والتحرى عن تلك المقررات التى أجمعوا عليها مدى العصور والدهور .

ومسألتنا مسألة محسوسات ومشاهدات لا مسألة تنجيم وتخمين . فإن ادعى مدع أن المشاهدات على غير هذا فعليه البيان . والدين الاسلامى لا يناقض الحقائق على كل حال متى تبينت . وهؤلاء العلماء مع إجلالى البالغ لهم ، أقول إنهم ليسو إخصائيين فى علم النجوم . وقد قال تعالى : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » . مع ملاحظة ما تقدم لنا من أن هناك أمورا ظنية أو تخمينية لا يجوز الأخذ بها ولا التعويل عليها ، وأمورا قطعية لا شك فيها لا يجوز إهمالها ولا العدول عنها . (وعدم رؤية الهلال فى الصباح والمساء آخر الشهر مما أجمعوا عليه) . ولا تنس ما قدمنا لك من أن كل إنسان فى الفروع يعمل بما وصل اليه بحثه وانطوى عليه اعتقاده ، فلا يصح له مثلا أن يفطر وهو يعتقد وجوب الصوم ، ولا أن يصوم وهو يعتقد وجوب الفطر . ومن لم يتكوّن له اعتقاد فعليه باتباع السواد الأعظم وما قضى به القاضى ، الى آخر ما أسلفناه .

فالدين الاسلامى يسع ذلك كله ، وليس يريد من الناس إلا أن يحترموا أوامر الله فيما يعتقدون ولا يخرجوا عليها . ولا يمكننى أن أحيد عن ذلك . وليختر كلٌّ ما شاء .

ولا أزال أكرر أنه لا بد أن نفرق بين ما هو قطعى عند علماء النجوم وما هو ظنى أو تخمينى . غير أنى أرجوهم ألا يتنازعوا ذلك التنازع الذى يكرهه الله ورسوله .

والله يتولى هدانا جميعا بمنه وكرمه ؟

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء

الاسلام والطب الحديث

كلام فى المعجزات وخوارق العادات

لما كانت المعجزات بما فيها من خرق للنواميس الطبيعية والانفعالات النفسانية تدخل فى اختصاص الطبيب أكثر من غيره ، جئت ألخص هنا ما وصلتُ اليه من قواعد أساسية فى كل ما ورد فى القرآن منها :

١ — المعجزات كلها من صنع الله مباشرة ، ومعناها سنّة جديدة ، بخلاف كل ما تراه يوميا من عظة وعظمة : كالولادة ونمو الحيوان والنبات ، فانه مع إعجازه يأتى مطابقا لقواعد ونظم وضعها الله لا تتغير .

وأظهر مثل للنواميس الطبيعية حركة الشمس ، فإن ذلك مع عظمته لا يحدث صدمة لتعودنا إياه ، ولكن إن أتى الله بالشمس من المغرب بدل المشرق كان هذا معجزة بالنسبة للانسان مع أن الحركتين من صنع الله ولا فرق بينهما .

٢ — لا تحصل المعجزات إلا على أيدى الأنبياء ، وذلك لأن صدمتها إن كانت شديدة على الحاضرين فهى أشد على من يكون واسطة فيها ، ولذلك اختار الله الأنبياء واصطفاهم .

٣ — لمنع الصدمة الشديدة وقت حدوثها يهيء الله الظروف لتحملها ، ويهيء النبى نفسه لقبولها ، ويهيء الحاضرين لمشاهدتها ، فأمْر الله لسيدنا موسى بإدخال يده فى جيبه وإخراجها فتكون بيضاء ليس إلا لتهيئته للمعجزات الأخرى . وكذلك عدم استطاعة سيدنا زكريا الكلام ثلاثة أيام قبل حدوث الحمل عند امرأته .

وقد سبق الكلام على تهيئة الحاضرين والمستمعين ، وهذا هو السبب فى أن المعجزات تظهر دائما ملطفة بمقادير مختلفة ، وهذا سر ذكر قصة سيدنا زكريا قبل قصة سيدنا عيسى فى سورة مريم .

٤ — ليس للعقل البشرى أن يحكم على أى المعجزات أعظم من الأخرى، ولا أن يتكلم عن الطريقة التى تحصل بها المعجزات، لأنه يتكلم عن شىء كله مجهول له ما دامت المعجزة من صنع الله، وما دام الانسان وعقله من صنع الله كذلك على مقتضى سننه، ولا يستطيع المخلوق أن يفهم السنة التى خلق عليها، وإلا لا ستطاع الانسان أن يخلق نفسه بنفسه، وأن يتحكم فى خلق غيره.

وهنا يلاحظ أن كل المعجزات لا يمكن أن يصل الى صنعها الانسان مهما ارتقى، وأغلبها ينتهى الى شىء واحد وهو خلق الحياة والروح مهما ظهرت صغيرة لأول نظرة، فمثلا إبراء عيسى للأعمى يظهر لأول وهلة أنه أقل من إحياء الموتى. والحقيقة أن المقصود بالأعمى هنا هو الأعمى الذى فقد شيئا عضويا حيا لا يمكن استعاضته، ومن أمكنه استعاضة شىء مهما صغر حجمه أمكنه أن يستعيض الكل. وأما إبراء الأعمى الذى يشاهد يوميا فهذا يحدث فى الأحوال العصبية غير العضوية، وبواسطة أطباء العيون، وهو يحدث بإزالة أشياء تكون سبب العمى، ولكن لا يمكن الأطباء أن يحدثوا مثلا إبراء الأعمى بإعادة عصب للعين من جديد الخ. وكذلك صنع أرجل جديدة، فالجراح يصنع رجلا صناعية، وبواسطة العضلات الباقية يستطيع الانسان أن يمشى عليها، ولكن هذا الجراح لا يمكنه أن يصنع رجلا من لحم ودم.

وصفوة القول أنه لا يمكنه أن يصنع جزءا حيا مهما صغر حجمه، لأن الجسم مجموع ملايين من الخلايا، وصنع واحدة كصنع الكل، وهذا معنى قوله تعالى: «لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له» ولذلك ستبقى المعجزات دائما فوق قدرة الانسان. ويظهر لنا عظمها أو عدم عظمها بالنسبة لعقولنا فقط، ولكنها كلها من نوع واحد. وما كان صنعه فوق إدراكنا لا يمكننا الحكم عليه.

وقد يقول البعض إن العلوم تتقدم، وإنه لو كان بعض الاختراعات الموجودة الآن موجودا فى مدة الأنبياء لعدت معجزات. وهذا القول دليل على أن الروح الحقيقى للمعجزات لم يفهم، لأن كل الاختراعات العلمية تبنى على السنن الطبيعية، وكلها مبنية

على قواعد علمية لا تتغير ، فاذا ظهر لها استثناء فإن سببه هو قاعدة علمية أخرى يبحث العالم عنها حتى يجدها ، فإن وجدها لا تنطبق على كل الاستثناءات وجد الخوارج عن هذه الاستثناءات محكومة بسنة أخرى ، وهكذا الى ما لا نهاية . فالسنن الإلهية أو القواعد العلمية (أو قواعد الطبيعة) كما يسميها الطبيعيون ، لاحد لها ، ولا تتغير أبدا . وما لا ينطبق على القاعدة الأصلية ينطبق حتما على قاعدة أخرى وعلى قواعد لا تتغير أيضا . وكل ما يظهر مدهشا فى نتيجته من المخترعات مثل الكهرباء والتليفون والراديو وما سيظهر ، هو من الاستعانة بهذه القواعد . فالذى يتكلم فى أوربا ويسمعه آخر فى مصر بواسطة الراديو ، استطاع ذلك لأن الهواء بطبيعته يحمل الصوت بصفة أمواج الى العالم كله ، فاستعان العلماء بهذه السنة الطبيعية وسخروها لأغراضهم . ولذلك مهما عظمت النتائج فى المخترعات فإن طريق الوصول اليها سنة ثابتة ، ومثلها مثل من يحفر الأرض ويستعين بماء المطر ويحوله نهرا يجرى ، فانه لم يخلق نهرا ولكنه استعان بالقوى الطبيعية ، بعكس المعجزات فانها من طراز آخر ، وهى مهما صغرت نتائجها خلق سنة جديدة .

وقد أوضحنا ذلك فيما تقدم. ولزيادة الإيضاح أضرب مثلا قصة سيدنا ابراهيم وعدم احتراقه بالنار ، فإن العلم بتقدمه يستطيع أن يغطى الانسان بشىء غير قابل للاحتراق ويضعه فى النار فلا يحترق ، وهذا يشبه المعجزة ، ولكنه اختراع استعان صاحبه فيه بالنواميس الطبيعية . أما المعجزة فهى أن تضع الانسان كما هو جسما ولحما فى النار ، فيكون عدم احتراقه هنا ، أى المعجزة ، خرقا للسنة الطبيعية التى تقضى باحتراق الجسم إذا وضع فى النار ، وأما تغطية الجسم لمنع اتصال النار به فإنه يظهر أن المخترع أمكنه منع النار من إحراقه ، ولكنه فى الحقيقة منع النار من إحراق الجسم الخارجى الذى لا يقبل الاحتراق بطبيعته ، لأن جسم الانسان المغطى بمادة لا تحترق لم يتعرض للنار ، والفرق بين الاثنين ظاهر ، والفرق بين المخترع وصانع المعجزة مثل الفرق بين الحاوى والمخترع .

ويمكن تطبيق هذه النظرية فى معجزة «ذى النون» لأن الانسان يمكنه أن يعيش أياما فى الغواصات تحت البحر ، ولكنه يفعل ذلك بالاستعانة بالنواميس الطبيعية ،

وأما المعجزة فتكون بخرق القوانين . وهكذا مكث ذو النون فى بطن الحوت بدون هواء صناعى ، معرضا لأن يهضم ويتحول جسمه مثل باقى المواد .

والطبيب الذى يعيد للقلب ضرباته ليس كمن يحيي الموتى ، لأنه استعان بالسنن الطبيعية. وأما إحياء الموتى فهو خرق لهذه السنن . ويتساءل كثيرون : هل المعجزات ضرورية ؟ والجواب أنها ضرورية لإيمان الانسان بقدرة الله ، ولولاها لساد مذهب الطبيعيين ، لأن سنن الله لا تتغير أبداً ، وهذا ما يسمى «بالطبيعة» ولافرق بين الاثنين . وثبات هذه القوانين ما ظهر منها وماخفى للآن شىء مدهش ، حتى إن الانسان قد ينسى واضع هذه القوانين ويقول : ما الحاجة بى لأن أقول إن هناك صانعا أزليا مادامت هذه القواعد ثابتة على وتيرة واحدة ملايين السنين ؟ وهنا كانت حكمة الله فى أن يخرق هذه السنن ليظهر للناس أن الصانع الأول موجود . ومثل ذلك مثل آلة الميزان تزن الانسان إذا وقف عليها ووضع قطعة معدنية فى ثقب فيها فتخرج ورقة عليها رقم وزنه ، فإذا فرضنا أنها محكمة الصنع لا تتغير أبدا آلاف السنين ، فإن الانسان يشك فى صانعها الأول ، ولكنه إن رأى أنها قد تخرج ورقة الوزن بدون أن يقف عليها أحد ، وبدون وضع القطعة المعدنية فيها ، يقول : من يفعل ذلك ربما أمكنه صنعها ، وإذا رأى يوما ما أن قطعة معدن صغيرة أصبحت أمام عينيه آلة صغيرة تزن الأشخاص ، أيقن أن للأولى صانعاً ، وهذا هو معنى صنع الطير من الطين ، لأن هذا تمثيل لخلق سيدنا آدم الذى منه خلق العالم الانسانى كله بالسنن (الطبيعية) الإلهية التى لا تبديل فيها .

وصفوة القول أن أساس المعجزة وعظمتها ليس فى نتائجها وغرابتها . فالدهشة من سماع الأبكم يتكلم ربما كانت أقل من سماع الراديو لأول وهلة ، ولكن أهمية المعجزة فى طريقة صنعها بدون السنن الاعتيادية ، وهى لذلك لا تتكرر أبداً إلا بإذن الله ، لأن الانسان لا يعرف قاعدتها ولا يدرك طريقة صنعها . أما الاختراع فانه اكتشاف لناموس إلهى (طبيعى) ولذلك هو يتكرر دائما فى الظروف نفسها على يد كل إنسان .

دكتور عبد العزيز اسماعيل

نظرة

فى تفسير قوله تعالى: « يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى »

الدكتور عبد العزيز اسماعيل ممن أنجبتهم مصر فكان لها فخرا، وكان لأبنائها نافعا بما وهبه الله من نعمة التبريز فى الطب والتوفيق فى العلاج. ونرجو أن ينفعه الله أضعاف ما ينفع به.

لم يشأ أن يقف عند حد علاج الأجسام من أمراضها، بل أضاف الى ذلك مبرة جديدة يضاعف الله مثوبته عليها، وهى علاج النفوس من أمراض الجهالة، فاستعان بما تبحر فيه من علوم الطب وما يتصل بها على مباحث يجلوها للقراء فى تفسير القرآن الكريم على حسب ما يرشد اليه العلم الحديث والاستكشافات الجديدة. والقرآن لا تنقضى عجائبه، وكلما ازداد الناس علما ازدادوا فيه استبصارا، وانجلى لهم من أسراره مالم يكونوا يعلمون. فنسأل الله أن يجزى حضرة الدكتور على ذلك خير الجزاء.

ولقد قرأت له فيما قرأت كلمة فى مجلة الأزهر ساقها فى تفسير قوله تعالى: « يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى » قال فيها « قيل فى التفسير: إنشاء الحى من النطفة والنطفة من الحيوان، ولكن النطفة هى حيوانات حية وكذلك خلق الحيوان من النطفة فهو خلق حى من حى فلا تنطبق عليه الآية الكريمة على هذا التفسير »

ثم قال حضرته: « والتفسير الحقيقى هو « إخراج الحى من الميت » كما يحصل من أن الحى ينمو بأكل أشياء ميتة، فالصغير مثلا يكبر جسمه بتغذية اللبن أوغيره والغذاء شىء ميت، ولاشك فى أن القدرة على تحويل الشىء الميت الذى يأكله الى عناصر ومواد من نوع جسمه بحيث ينمو جسمه هو أهم علامة تفصل الجسم الحى من الجسم الميت الخ ».

ونحن مع شكرنا لحضرة الدكتور هذه العناية التى لا يريد منها إلا خدمة العلم والدين، نلاحظ أن ما فسر به الآية الكريمة يبتعد عما يتبادر الى الذهن من لفظ (يخرج)،

فإن الظاهر أن هذا الذى أخرج شىء جديد مستقل الوجود . لا أنه نمو وكبر لشىء موجود فى الأصل ، وأن المشار اليه فى الآية الكريمة هو قانون التوالد السارى فى الحيوان . وإن شئت فقل : قانون التوالد فى الحيوان والنبات . ذلك أن الحيوان المتولد قد تولد من شىء لا بد أن تنتهى سلسلة التوالد فيه الى حلقة ميتة ، فان لم يصح أنها النطفة لأن النطفة حيوانات حية أو فيها حيوانات حية ، فليكن هو الغذاء الذى نشأت عنه النطفة ، ولاشك أنه شىء ميت كما قرر حضرة الدكتور. فاذا قيل إن الغذاء حيوان أو نبات وكل منهما فيه معنى الحياة فى الجملة ، قلنا فلنرجع الى ما امتصه النبات حتى نما ، فلا بد من الوصول البتة الى شىء ميت خرج منه هذا الحى ، ويشاهد ذلك كل يوم . فالحياة تتجدد فى الأحياء وتستمد مادتها فى ماضى سلسلتها حتى تصل الى شىء ميت ، ولو كان هو التراب الذى يمد النبات .

وأما ما ذكره حضرته عن بعض المفسرين فلعل وجهه أن هذا هو ما كان معروفا للمخاطبين قبل اتساع المعلومات الدقيقة الفنية . والآية تحمل على ما يفهمه جمهور المخاطبين بها . ومزية القرآن الكريم أنه صالح فى الفهم والفائدة لكل الطبقات ، لا يتوقف فهمه على متعمق فى العلم . فاذا ما كشف العلم حقيقة كانت غائبة تجلى فهم القرآن العظيم بمظهر أرقى ، وهكذا لا تنقضى عجائبه . وما يدريك فلعل قائلا يقول إن التراب الذى يغذى النبات يحتوى على جراثيم فيها نوع حياة تهتز وتربو حين ينزل عليها الماء فتغذى النبات فيخرج منها خروج حى من حى ، فنقول له حينئذ : وهذه الجراثيم خارجة من تراب ميت ، فلا بد أن تصل الى إخراج الحى من الميت . فالحياة البتة طارئة بعد موت . وكما تطرأ الحياة بعد الموت يطرأ الموت بعد الحياة ، فتتعاقب الأطوار على المادة الواحدة بقدرة القادر المختار . وأطوارها متلاحقة ، ودرجات التفصيل بينها خفية ، فتفهم منها كل طبقة بحسب مقدارها كما بيناه فى تفسير قوله تعالى : « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها » . والله أعلم .

ابراهيم الجبالى

الحياة الادبية عند العرب

وعدنا فى المقال الثانى من مقالات « تأريخ الألفاظ » بالتحدث عن الحياة الأدبية عند العرب ، واختلاف لغاتهم ، وقيمة النصوص الأدبية المعزوّة الى العصر الجاهلى ، ووفاء بذلك الوعد نبدأ هذا المبحث بهذا المقال :

القرآن الكريم أصدق المصادر فى الإنباء عن حياة العرب باتفاق الموافقين والمخالفين ، فاذا حدثنا القرءان بشىء عن العرب أخذناه أخذ الواثق بصحته ، المطمئن الى صدقه ، ثم نتتبع مقالات التاريخ والأدب ونمحص منها ما يغلب على الظن صدقه حتى نصل الى نتيجة علمية واضحة .

وصف القرآن الحكيم العرب بالفصاحة ، وذرابة اللسان ، فقال فى قوم أظهروا الإيمان والودادة ، وأضمروا الكفر والعداوة : «أشِحّةً عليكم فاذا جاء الخوف سَلَقُوكم بألسنةٍ حِداد». ونعتهم بالطول فى البلاغة فقال : «ومِنَ الناس مَن يعجبك قولُه فى الحياة الدنيا ويُشهد اللهَ على ما فى قلبه وهو ألَدُّ الخِصام » . وخصهم بالفوق فى البيان فقال : «وإذا رأيتَهم تعجبُك أجسامُهم وإنْ يقولوا تَسمع لقولهم» . قال الزمخشرى : «وكانوا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيستندون فيه ، ولهم جهارة المناظرة ، وفصاحة الألسن» . ووسمهم بقوة العارضة والدهاء إذ قال: «وقد مكروا مكرَهم وعند الله مكرُهم وإنْ كان مكرُهم لِتزولَ منه الجبالُ» وسجل عليهم اللدد فى الخصومة ، والجدل فى المحاورة بقوله : « وقالوا أآلهتنا خير أم هو ، ما ضربوه لك إلا جدَلاً بل هم قوم خَصِمون » وبقوله : «فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لداً» وذكر عنهم أنهم أولو أحلام ونُهى فقال : « أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون » قال فى الكشاف : وكانت قريش يدعون أهل الأحلام والنهى .

والقرآن أيضا تحدى العرب أن يأتوا بحديث مثله لما بهتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتقوّل القرآن من عند نفسه ، فهل كانت تلك الأوصاف كلها ، وهذا التحدى للعرب وهم فارغون من أدب حى يغذى عقولهم ، ويربى نفوسهم تربية أدبية تقوم على التفاصح بما يخلب الألباب ، ويستميل الأسماع ، من منطق حسن ، وكلام بليغ ، وبيان بديع فى فنون من المعارف الانسانية الأدبية ، يستحقون بها تلك الأوصاف ، ويصح أن يتوجه اليهم هذا التحدى ، وكيف يقع التحدى الصارم لقوم ذوى عىّ وحصر ، وضعف فى المُنّة العقلية يعيشون عيشة أولية فى حياة جاهلة بليدة ؟

ليس القرآن الحكيم كتاب خطابة يلقى بالقول على عواهنه ، وإنما هو كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . ولكن بعض الباحثين يحلو لهم أن يعبثوا حول أدب العرب ، وتاريخ العرب ، وأن يصوروهم أمة لا تشعر بالحياة إطلاقا ، بله حياة الأدب التى تليق بهم كأمة لها تاريخ مجيد ، وحضارة زاهية يقول عنها ابن خلدون : « وما كان لأحد من الأمم فى الخليقة ما كان لأجيالهم من الملك ، ودول عاد وثمود والعمالقة وحمير والتبابعة شاهدة بذلك » . وقال فى موضع آخر : « وأما اليمن والبحرين وعمان والجزيرة وإن ملكه العرب إلا أنهم تداولوا ملكه آلافا من السنين فى أمم كثيرين منهم ، واختطوا أمصاره ومدنه ، وبلغوا الغاية من الحضارة والترف ، مثل عاد وثمود والعمالقة وحمير من بعدهم ، والتبابعة والأذواء ، فطال أمد الملك والحضارة واستحكمت صبغتها ، وتوفرت الصنائع فلم تبل ببلاء الدولة » .

فإذا قال العرب : تلك آثارنا تدل علينا ، وهذا أدبنا بين أيديكم فاقرءوه ثم احكموا ، ازورّ هؤلاء الباحثون ، وأنغضوا رءوسهم قائلين : هذا شعر مصنوع منحول ، وذلك النثر باطل الأباطيل ، وتلك الشخصيات أبطال روائية انتزعها الخيال انتزاعا

ولا وجود لها فى التاريخ ، وهـذه مغامرة فى البحث لا يسوغها النقد الدقيق للتاريخ إلا لمن يأخذون تاريخ العرب بعيدا عن منابعه ، ويتلقفونه من غير مصادره .

فالعرب قبل الاسـلام لم يكونوا فى حياة أولية ساذجة لا أثر للتفكير فيها ، نعم وإنما كان فريق منهم فى طور بداوة طارئ عليهم ، غير متأصل فيهم . ولو تتبع الباحث أطوار الحياة الاجتماعية عند العرب لوجدها حلقات متسلسلة آخذا بعضها بأطراف بعض ، ولوجد فيها ملكا وحضارة ظلت آثارها قوية قائمة فى اليمن والشام والعراق حتى جاء الاسلام ، وأولئك الذين لحقهم الاسلام فى طور البداوة لم يكونوا إلا سلالة هؤلاء الصيد الأماجد ، فهم إما عدنانيون انشقت عنهم نبعة جرهم اليمنية بتلقيح أزكى دم من أشرف بيت وأكرم أرومة فى الأرض ، أرومة اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام ، وإما قحطانيون جاءوا الى الحجاز إثر حادث سد مأرب بعد أن رتعوا فى بحبوحة الحضارة أزمانا طويلة هذبت عقولهم ، وصفت نفوسهم ، وصقلت ألسنتهم ، فكانت لهم معارف تليق بملكهم ، وكان لهم أدب يناسب حضارتهم ورثوه أبناءهم من بعدهم .

وهل من المعقول أن تبلغ أمة من الأمم ما بلغه العرب من عظمة الملك فى قديمهم كما قال ابن خلدون — ولا يكون لها من الثقافة الفكرية والمعارف الأدبية شيء ، وتبقى حيث وصفها بعض الباحثين أمية جاهلة ؟ هذا بعيد ، لا يقره التاريخ ، ولا ترضى به أصول علم الاجتماع .

قال أحمد بن فارس فى كتابه الموسوم (بالصاحبي) : « وزعم قوم أن العرب العاربة لم تعرف هذه الحروف بأسمائها ، وأنهم لم يعرفوا نحوا ولا إعرابا ، ولا رفعا ولا نصبا ولا همزا . قالوا : والدليل على ذلك ما حكاه بعضهم عن بعض الأعراب أنه قيل له : أتهمز إسرائيل ؟ فقال : إنى إذاً لرجل سوء . قالوا وإنما قال ذلك لأنه لم يعرف من الهمز إلا الضغط والعصر . وقيل لآخر : أتجر فلسطين ؟ فقال : إنى إذاً لقوى . قالوا وسمع بعض فصحاء العرب ينشد :

نحن بنى علقمة الأخيارا

فقيل له : لِمَ نصبت « بنى » ؟ فقال : ما نصبته ، وذلك أنه لم يعرف من النصب إلا إسناد الشيء ، قالوا وحكى الأخفش عن أعرابى فصيح أنه سئل أن ينشد قصيدة على الدال ، فقال : وما الدال ؟ وحكى أن أباحية النميرى سئل أن ينشد قصيدة على الكاف فقال :

كفى بالنأى من أسماء كاف   وليس لسقمها إذ طال شاف

قلنا والأمر فى هذا بخلاف ما ذهب اليه هؤلاء . فأما من حكى عنه من الأعراب الذين لم يعرفوا الهمز والجر والكاف والدال ، فإنا لم نزعم أن العرب كلها مدرا ووبرا قد عرفوا الكتابة كلها ، والحروف بأجمعها . وما العرب فى قديم الأزمان إلا كنحن اليوم ، فما كل يعرف الكتابة والخط ويقرأ . والذى نقوله فى الحروف هو قولنا فى الإعراب والعروض . والدليل على صحة هذا ، وأن القوم تداولوا الإعراب ، أنا نستقرئ قصيدة الحطيئة التى أولها :

شاقتك أظعان لليـ   لى دون ناظرة بواكر

فنجد قوافيها كلها عند الترنم والإعراب تجىء مرفوعة . ولولا علم الحطيئة بذلك لأشبه أن يختلف إعرابها ، لأن تساويها فى حركة واحدة اتفاقا من غير قصد ، لا يكاد يكون . فإن قال قائل : فقد تواترت الروايات أن أبا الأسود أول من وضع العربية ، وأن الخليل أول من تكلم فى العروض ، قيل له : نحن لا ننكر ذلك بل نقول إن هذين العلمين قد كانا قديما وأتت عليهما الأيام ، وقلا فى أيدى الناس ، ثم جددهما هذان الإمامان ، وقد تقدم دليلنا فى معنى الإعراب .

وأما العروض فمن الدليل على أنه كان متعارفا معلوما اتفاق أهل العلم على أن المشركين لما سمعوا القرآن قالوا أو من قال منهم : إنه شعر ، فقال الوليد بن المغيرة منكرا عليهم : لقد عرضت ما يقرؤه محمد على أقراء الشعر : هزجه ورجزه ، وكذا

وكذا ، فلم أره يشبه شيئا من ذلك ، أفيقول الوليد هذا وهو لايعرف بحور الشعر» ؟
انتهى كلام ابن فارس ،وإنما سقناه على طوله ليعرف الباحثون المعاصرون أن العلماء الأقدمين عنوا بالبحث فى حياة العرب العلمية ، ووصلوا حديثهم بقديمهم ، وكان حذاقهم مؤمنين بأن العرب كانوا على جانب من المعارف الفكرية والعلوم الأدبية ، وإذا كان هذا الذى قاله ابن فارس صحيحا فى حق العرب الأقدمين على ما هو فرض كلامه ، فهل يصح فى الأذهان النيرة أن يكون للأولين من العرب تلك الحياة العلمية ثم لا يكون لأبنائهم وأحفادهم ووارثى مجدهم حياة أدبية ؟

وإذا كان قد باد من العرب أجيال فقد عاصرتهم أجيال لم يأت عليها الفناء جملة أخذت عنهم معارفهم ونقلتها الى من بعدهم ، على ما هو الشأن فى كل أمة تتفرع من دوحة واحدة ، وتعيش فى وطن واحد ، ظل بهم ذلك الوطن عامرا طوال أحقاب التاريخ ، ولم يزعم أحد من المؤرخين أن جزيرة العرب أتى عليها حين من الدهر خلت فيه من ساكنيها ، ولا أن العرب انقرضوا قضهم بقضيضهم .

غير أن الحجازيين من العرب سكان الشمال بالجزيرة كان لهم من طبيعة وطنهم ما صبغ حياتهم الاجتماعية بصبغة تخالف صبغة إخوانهم فى اليمن والحيرة والشام ، لأن الحجاز إقليم تخالف طبيعته طبيعة تلك البلاد ، فلم تقم فيه حياة اجتماعية متحضرة كالتى قامت فى اليمن والعراق ، بل غلبت على أهله البداوة وما يتصل بها من أخلاق وعادات .

« للبحث بقية » صادق ابراهيم عرجون

فى وجوب التحفظ

قال بعض الحكماء : من عرض نفسه للتهم فلا يامن من أساء الظن .

وقال الشاعر :

ومن دعا الناس الى ذمه ذموه بالحق وبالباطل
مقالة السوء الى أهلها أسرع من منحدر سائل

تعليق من مدير المجلة

على المقالة السابقة

ظهرت فى أفق الدراسات الأدبية فى هذا العهد الأخير كتابات ترفع من شأن العرب على عهد الجاهلية ، وتصورهم فى مستوى لا يتفق والحقائق التاريخية .

لقد كنا نقرأ ما كتبه بعض مؤرخى العرب من المبالغات عن الدول العربية القديمة ، فنعزوه لنقص فى أسلوبهم التمحيصى ، فأصبحنا اليوم أمام مبالغات من طراز جديد يرتكبها بعض الذين يكتبون فى الأدب ، عليها مظهر الدراسات التحليلية وليست منها فى شىء .

فنحن حيال ما كتبه أولئك المؤرخون عن قبيلة عاد من أن طول الرجل منها كان سبعين ذراعا الى مائة ذراع ، وأن رأس أحدهم كان كالقبة العظيمة ، وعينه تفرخ فيها السباع ، وأن أول ملوكها وهو عاد قد ملك ألفا ومائتى سنة ، وأنه تزوج بألف امرأة ، وولد له أربعة آلاف ولد ذكر ، الخ ، نحن حيال هذه المبالغات لا نشعر بأقل حرج ، فإن علاجها فيها كـكل شىء يصوّر خارجا عن حدوده الطبيعية ، ولكننا حيال الكتابات التى عليها مظهر الأسلوب العلمى نشعر بكثير من الضيق ، لأنه مظهر خلاب يسلك الى الأذهان الخالية من ملكة النقد ، فيرسخ فيها وينتج نتائج خطيرة على الدين والعلم معاً .

فأما نتائجها على الدين ، فالغض من قيمة الرسالة المحمدية ، فإذا كان صحيحا ما يقوله ابن خلدون عن العرب القدماء ، وهو : « ما كان لأحد من الأمم فى الخليقة ما كان لأجيالهم من الملك » ، وقوله فى موطن آخر عن العرب الأولين فى اليمن والبحرين وعمان والجزيرة : إنهم « بلغوا الغاية من الحضارة والترف مثل عاد وثمود والعمالقة ، وحمير من بعدهم والتبابعة والأذواء ، فطال أمد الملك والحضارة واستحكمت صبغتها

وتوفرت الصنائع فلم تبل ببلاء الدولة » . وإذا كان صحيحا أيضا ما عقب به الأستاذ الشيخ صادق عرجون على هذا وهو قوله : « فالعرب قبل الاسلام لم يكونوا فى حياة أولية ساذجة لا أثر للتفكير فيها . نعم ، وإنما كان (فريق منهم) فى دور بداوة (طارئ عليهم) غير متأصل فيهم . ولو تتبع الباحث أطوار الحياة الاجتماعية عند العرب لوجدها حلقات متسلسلة آخذا بعضها بأطراف بعض ، ولوجد فيها ملكا وحضارة ظلت آثارهما قوية قائمة فى اليمن والشام والعراق (حتى جاء الاسلام) . وأولئك الذين لحقهم الاسلام فى طور البداوة لم يكونوا إلا سلالة هؤلاء الصيد الأماجد » .

قلنا إذا كان هذا كله صحيحا فلا تكون الرسالة المحمدية قد أخرجت العرب من الظلمات الى النور ، ولا أوجدت فيهم وحدة اجتماعية ما كانوا يعرفونها ، ولا بثت فيهم من الأخلاق والآداب ما كانوا فى أشد الحاجة اليه ، ولا آتتهم دستورا أفضى بهم السيرُ عليه الى تبوؤ خلافة الله فى العالم قرونا كثيرة ، غيروا فيها وجه الأرض ، ونشروا علما وحرية ومدنية قضت على كل ما كان متحجرا غير صالح للحياة فى العالم كله .

ولكن ما ذكره ابن خلدون وغيره وتابعهم فيه الأستاذ الشيخ عرجون ومن تقدمه من الكاتبين المعاصرين كله غير صحيح ، والصحيح منه مبالغ فيه مبالغة لا تحتمل النقد والتمحيص .

نحن لا ننكر أنه قامت لبعض قبائل العرب البائدة (دول قبيلية) ، فاشتهر بنو عاد وثمود والعمالقة وطسم وجديس وأميم وجرهم وحضرموت بتأسيس دول ، لها ملوك يتوارثون العروش ، ومدنية مناسبة للزمان الذى وجدوا فيه .

وقد سميت هذه الطبقة الأولى من العرب بالبائدة ، لأنها انقرضت منذ زمان بعيد ، وغمض تاريخها الى حد أن العرب أنفسهم لم يعرفوا منه شيئا يذكر غير مبالغات وخزعبلات تخيلها الخراصون تخيلا على النحو الذى نقلته عنهم فى صدر هذه المقالة . وقد ... يجهلون أنه قامت فى اليمن فى بعض عصورها دولة يقال لها المعينية ...

المستمرب هاليفى مستهديا بما ورد عنها فى كتاب المؤرخ اليونانى القديم استرابون، فارتاد بلاد الحوف شرق صنعاء، واكتشف أنقاض معين، ووجد بها كتابات بالقلم المسند دلته على أسماء ستة وعشرين من ملوكها .

فتاريخ هذه الطبقة البائدة من العرب يجب أن يغفل فى بحث حالة العرب قبل الاسلام لغموضه وتغلغله فى القدم ، ولما حدث من الانقلاب الذريع فى كيان الأمة العربية بعده ،حتى سميت تلك الطبقة بالبائدة ، ومن بقى بعد تلك الانقلابات سموا بالعرب المستعربة .

والذى نحب أن يلاحظه القراء أن الحالة القبيلية فى الأمة العربية لازمتها فى كل عهودها ، حتى جاء الاسلام فوحد بينها وجعل منها أمة : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » .

فالذين يذكرون الدول العربية مضطرون أن يسردوا أسماء قبائل، فيقولون : عاد وثمود وجديس وطسم وأميم وحضرموت الخ . حتى إن اليمن ، وهى البلاد التى كان يصح أن تقوم فيها أمة موحدة ، لم تبلغ الى هذه الدرجة . فقد كانت منذ أقدم أزمانها تقسم الى محافد، وكل محفد الى قصور ، والقصر حصن يحيط به سور يقيم فيه أمير مستقل يوضع أمام اسمه لفظ (ذو) . وهؤلاء الأمراء يعرفون بالأذواء . وربما اجتمعت عدة محافد تحت أمير واحد متغلب فيسمى (قَيْل) . وكان الأقيال كثيرا ما يتقاتلون . وكان يتفق أن يكبر شأن قيل فيدخل جميع الأقيال تحت دولته ، ويورث الملك أعقابه ، ولكنها تجىء دولة يغلب على مزاجها البدوية والأمية . فقد دلنا التاريخ على قيام أربع دول فى اليمن وهى : المعينية ، والسبأية ، والحميرية ، والتبابعة . ولم تنقرض الأخيرة إلا فى القرن السادس أى قبيل ظهور الاسلام بمدة قليلة ، فلم يصلنا من واحدة منها كتاب مخطوط ، ولا أتانا خبر عن وجود أثارة من علم فيها ، وقد وصلنا عن أمم كثيرة غيرها مؤلفات وضعت قبل ستة آلاف سنة ، وأسماء علماء وفلاسفة وفنانين كانوا عائشين فى تلك العصور البعيدة .

والآن ننظر الى الحالة التى كانت عليها الأمة العربية على عهد البعثة المحمدية :

كان ببلاد العرب فى ذلك العهد ثلاث ممالك : أولاها اليمن ، وثانيتها دولة اللخميين بالعراق ، وثالثتها الغساسنة بمشارف الشام ، ومن بقى فكانوا كلهم على الحالة البدوية .

فأما اليمن فكانت مستعمرة فارسية وعليها وال اسمه الهرمزان ، وكانت قبل أن يستولى عليها الفرس مملوكة للأحباش .

وأما دولة اللخميين فكانت تابعة للفرس أيضا ، تغلبوا عليها واستمروا متسلطين فيها أجيالا حتى ظهر الاسلام .

وأما الغساسنة فكانوا يحملون نير الرومانيين ليس لهم من أمر أنفسهم شيء .

ولا بد لنا هنا أيضا أن نذكر أن هذه الدول كانت محتفظة بوصفىْ عهد الجاهلية العربية ، وهما : البداوة والأمية . نعم إنه كانت لممالكهم مدن ولملوكهم قصور ، ولكن الرعية كان أكثرها على الحالة البدوية . وكان عدد المدن لا يتناسب وسعة الأراضى التى تقوم عليها تلك الممالك . وجزيرة العرب التى تساوى مساحتها ستة أضعاف مساحة فرنسا ليس فيها غير عدد من المدن يعد على الأصابع (راجع الخريطة) .

ومما تجب ملاحظته أن الأمية كانت أثيرة عندهم الى حد أن هذه الدول على مجاورتها للفرس والرومان ، ووقوعها تحت نيرهم أجيالا ، لم تأخذ أخذهم فى العلوم والفنون ، فلم يشتهر فيها فلكى أو طبيب أوفنان ، ولم يصلنا منها صفحة واحدة باللغة العربية حتى ولا ما يتعلق بالشئون الدينية . قال الله تعالى : « وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير » : « أم لكم كتاب فيه تدرسون ؟ » .

أما بقية العرب وهم السواد الأعظم فى سائر جزيرة العرب ، فكانوا يعيشون على حالة بداوة وأمية ، بأوسع ما تحتمله هاتان الكلمتان ، من يوم أن خلقهم الله الى عهد البعثة المحمدية ، ولم يكن من الممكن أن يكونوا على غير هذه الحالة ، لأن قوام المدنية الزراعة والصناعة والتجارة والعلم ، وأين هذه من أكثر العرب فى عهد جاهليتهم ؟

يريد الأستاذ صادق عرجون وهو يعالج الكتابة فى الأدب أن يجعل له قُدْمة عند الأمة العربية فى عهد الجاهلية، فهو يقول :

« هل من المعقول أن تبلغ أمة من الأمم ما بلغه العرب من عظمة الملك فى قديمهم — كما قال ابن خلدون — ولا يكون لها من الثقافة الفكرية والمعارف الأدبية شىء، وتبقى حيث وصفها بعض الباحثين أمية جاهلة ؟ »

ونحن نقول : إن الذى وصفها بالأمية والجهل هو القرآن نفسه، الذى يسلم الأستاذ صادق عرجون بأنه أصدق المصادر فى الإنباء عن حياة العرب قبل البعثة المحمدية : قال الله تعالى : « هو الذى بعث فى (الأميين) رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبلُ لفى ضلال مبين » .

وقال تعالى : « فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن، وقل للذين أوتوا الكتاب (والأميين) أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » .

فالأمية كانت الوصفَ المميز للأمة العربية من أقدم أيامها الى أن أُرسل اليها والى العالم كافة محمد صلى الله عليه وسلم، حتى إن الجاليات الأجنبية التى كانت معاشرة لهم كانوا يطلقون عليهم هذا اللقب. قال الله تعالى : « قالوا (يريد اليهود) ليس علينا فى الأميين سبيل » أى ليس علينا ذم إن ظلمناهم لأنهم ليسوا من ديننا . فأطلقوا عليهم وصف الأميين وقد كان كافيا فى الدلالة عليهم .

فاذا كان العرب أمة أمية، وهو ما لا سبيل الى إنكاره، فكيف يعقل أن يكون لديهم أدب بمعناه الفنى ؟ أين عُهِد مثل هذا الأمر، وفى أى جيل، حتى يعهد عند الأمة العربية ؟

المعهود حسيا أن الأمة إذا كانت أمية كانت فى أحط درجات الجهل، فاذا تحركت لأن ترتفع عما هى عليه درجة واحدة فأول وسيلة تتخذها هى أن تتعلم أن تكتب

ما تلفظه وأن تقرأه . وليس فى الأرض أمة من أول وجودها الى اليوم إلا كانت فاتحة نهوضها رفع الأمية عنها أو عن عدد كبير من آحادها . فاذا ارتفعت الأمية عن قسم منها تدرج هذا القسم فى الارتقاء ، فنشأ فيها أدب ساذج وعلم فى درجته . ثم لا تلبث أن تتقدم الى الأمام خطوة أخرى حتى ينضج أدبها وعلمها بعد حين .

هذه سنة الله فى الخلق ، ولا يعقل أن تتخلف على الإطلاق . وقد اعتبر الله تخلفها خرقا للعادة ، وجعلها معجزة لخاتم رسله ، فقال تعالى : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، إذاً لارتاب المبطلون » أى لو كنت يا محمد غير أمى لارتاب المبطلون فى إتيانك بالقرآن ، أما وأنت أمى لا تقرأ ولا تكتب فكيف يعقل أن تأتى بكتاب تمليه على غيرك ؟

ربما اعترض علينا معترض فقال : ألم يصلنا عن الجاهلية شعر ، أليس الشعر فنا من فنون الأدب ؟ .

نقول : نعم ، ولعامتنا شعر ، ولعوام كل أمة أشعار بلغاتها المختلفة ، ولكن هل مجرد قرض الشعر يدل على عدم الأمية وعلى وجود الأدب بمعناه الفنى ؟ .

اللهم لا ، فالشعر الجاهلى ، وهو كل ما يستطاع الاحتجاج به ، لا يدل على وجود الفن الأدبى فى الجاهلية ، كما لا يدل كل شعر لأمة أمية على وجود هذا الفن لديها .

فعرب الجاهلية لم يكن لديهم أثارة من علم ، كما يقول الكتاب عنهم ، يمكن أن يُدْلوا بها الى غيرهم ، كما لم يكن ولا يكون عند أية أمة أمية أثارة من علم تدلى به الى غيرها . قال تعالى : « ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » . وقال سبحانه : « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون »

وقد عاش اليمنيون فى اليمن واللخميون فى العراق والغساسنة فى جنوب سورية تحت سلطان الفرس أو مجاورين لهم وللرومان ، ولم يأخذوا إخذهم فى رفع الأمية عنهم ،

لذلك لم تصلنا منهم ورقة واحدة مكتوبة ، فلو كان عندهم أى فن أدبى أو غيره لنقله عنهم رواة اللغة الذين اختلطوا بهم وبغيرهم من القبائل ولبثوا بين ظهرانيهم سنين . فهل كان هؤلاء الرواة يحرصون على الألفاظ والأساطير هذا الحرص كله ولا ينوهون بكلمة عن أدب العرب وعلومهم ، وهم رواد الأدب العربى ، وقد جشموا أنفسهم الحياة وسط القبائل سنين لدراسة أسبابه ، فلم يجدوا غير ألفاظ اللغة لحفظوها عنهم ونقلوها الينا ؟

ألم يكن جميع العرب الذين أسلموا جاهليين فى أمسهم ، فلو كان لديهم أثارة من علم فى أى موضع من المواضيع مما كانوا يمارسونه على عهد الجاهلية ، أما كانوا يحملونها معهم فى الاسلام فتعرف عنهم وتنسب اليهم ، لاسيما والاسلام يحض على طلب العلم ويَعِد أهله بالدرجات العلى فى الدنيا والآخرة ؟

ولو كان فى اليمن أو العراق أومملكة غسان أو فى قبائل نجد أو تهامة أو غيرها ، من التى قصدها رواة اللغة ، مسكة من علم ، لنقلها أولئك الرواة الينا وقد بالغوا فى نقل كل شىء وجدوه لدى العرب حتى أخبار خيولهم وكلابهم .

ونحن فى القرن العشرين الميلادى اليوم ولدينا كتب وألوف من صحف لأمم كانت موجودة منذ ستة آلاف سنة ، وليس لدينا ولا صحيفة واحدة باللغة العربية عن أقرب عهد لجاهليتها . ذلك لأن الأمة العربية كانت أمية ، وكانت الأمية من صفاتها المميزة ، ناهيك بأمة ليس لديها أثر مكتوب فى شئونها الدينية ، على حين أن لجميع الأمم التى لعبت دورا فى التاريخ كتبا مدونة فيها ولو كانت وثنية .

لا نقول هذا غمطا لحق الأمة العربية ، ولكننا نقرر حقيقة تاريخية ، وهى أن الأمة العربية طبعتها طبيعة بلادها والأحوال التى أحاطت بها بطابعين : الحالة القبيلية ، والأمية . لذلك لم تستطع جهة من جهاتها أن تحفظ استقلالها أمام الأمم المعاصرة لها ، فاستولى الفرس والرومانيون على الأقطار المجاورة لهم منها ، حتى حدثت الحبشة نفسها بفتح

اليمن ، و نفذت ما صممت عليه ، وعجز أهل اليمن عن إجلائهم عنها ، فاستغاثوا بالفرس فأرسلوا جيشا وطرد الأحباش وحلوا محلهم فيها ، وما زالوا حاكمين فيها حتى أنقذها الاسلام منهم ، كما أنقذ العراق ودولة غسان أيضا .

فالاسلام وحده هو الذى وحّد قبائل العرب وأسقط ما بينهم من فروق قبيلية ، ومن إحن وضغائن جعلت جماعاتهم أشبه بالأمم المتعادية ، لا تفتر عن التناحر والتناهب طرفة عين . والاسلام هو الذى رفع عنهم طابع الأمية ودفعهم لطلب العلم دفعا لا هوادة فيه . وقد بدأ النبي صلى الله عليه وسلم برفع هذا الطابع بعمل لم يسجل مثله لمصلح فى الأرض . وذلك أنه جعل فداء الأسير الذى كان يعرف القراءة والكتابة فى وقعة بدر ، وهى أول الوقائع الاسلامية ، أن يعلمهما نفرا من المسلمين ، ففعل . فبفضل الاسلام استقامت الأمة العربية على نهج الأمم التى كتب لها بلوغ أقصى الغايات من النظام والتوسع واحتمال التبعات العالمية ، مما لا يوجد له نظير فى الأرض . وبفضل الاسلام يسجل التاريخ للأمة العربية أنها كانت محيية العلوم الدارسة ، والفنون الطامسة ، وأنها كانت سببا لإيقاظ البشرية من سباتها العميق ، ودفعها فى سبيل الحياة والمدنية . وفوق هذا كله فنحن أبناء الاسلام لا أبناء العرب ولا الفرس ولا غيرهم ، قد وحد بيننا الاسلام وأهدر فى سبيل هذا التوحيد قومياتنا وجنسياتنا ، تذرعا لتكوين أمة عالمية كانت وستكون مثالا أعلى للاجتماع الانسانى الصحيح . وقد بارك النبي صلى الله عليه وسلم هذا العهد بقوله : « لقد أذهب الله عنكم رجس الجاهلية وتفاخرها بآبائها » . فلا نقبل أن نعيدها جذَعة ، فنرغم التاريخ على أن يقول فى جاهلياتنا ماليس بحق . وقد مضت تلك الجاهليات مرذولة مذمومة الى حيث لا تعود : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات لَيستخلفنّهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدّلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » . وقد أنجز الله وعده ، فكانت هذه آية الاسلام الكبرى الى يوم الدين .

محمد فريد وجدى

واجب الشباب نحو ربهم

إن قلنا واجب الشباب نحو ربهم ، كان معنى ذلك واجبهم نحو الكمال المطلق والخير المحض والمُثل العليا فى كل أمر ، فإن الله جل وعز لم يكلفنا إلا بما فيه صلاحنا وفلاحنا ، وتكاليفه أيا كانت عبادات أو آدابا ، المقصود بها تربيتنا تربية عالية ، وإعدادنا لرجولة صحيحة ، وإيصالنا الى الحقائق التى ترتبط بها سعادتنا المرجوة من طريق العلم والعمل والفضيلة .

مضى الزمان الذى كان يعتبر الدين فيه سخرة ، أو تقييدا للحرية الصحيحة ، أوحرمانا للنفس من مشتهياتها فى الحدود العلمية ، وهذا زمان تجلى فيه بالدليل القاطع أن الدين حاجة أولية للروح لا مَعْدى لها عنه . وإذا قلنا الدليل القاطع قصدنا به الدليل العلمى المؤسس على علم النفس . ولايتسع لى المجال الآن لبيان ذلك على وجه يوفى بالحاجة العقلية من كل نواحى هذا الأمر الجلل ، ولكنى أستطيع أن أقول على عجل إن الفلسفة المادية التى حاولت فى خلال قرون ثلاثة أن تقطع كل صلة بين الانسان وما فوق المادة ، قد منيت بفشل حاسم لا قيام لها بعده من طريق العلم الطبيعى نفسه لامن طريق العلوم الدينية ، فقد توصل العلم الى إحالة المادة الى قوة أى الى إثبات أن لا وجود لها ، وأنها عرض من أعراض القوة . وبزوال هذه العقبة الكأداء من طريق العقل الانسانى انفتحت أمامه باحة لا حد لها الى عالم القوى التى هى مصدر كل موجود فى عالم الشهادة .

نعم إن زوال هذه العقبة لم يخرج العلوم من مجالها الطبيعى ، ولكن كان من آثار زوالها اتساع هذا المجال الطبيعى بحيث لا يتصور العقل له نهاية ، وهذا وحده كان ذا أثر بعيد فى تأديب الانسان وردعه عن البت فيما ليس من شأنه أن يبت فيه ، وفى تشكيكه فى كل ما أسسه من الأصول العلمية ، وإعادة وضعها فى الميزان تحت ضوء النقد الصارم

والتمحيص الدقيق . فسقط بذلك العجب الذى كان يخيل للعلماء أنهم أدركوا حدود كل شيء ، وأصبح لهم الحق فى الحكم بالوجود أو بالعدم على كل ما يعرض لهم البحث فيه ، حكما لا يقبل المراجعة ، ولا يحتمل التشكيك .

يقول قائل : وما تأثير كل هذا فى تقوية عاطفة الدين ؟

نقول له : فى ذلك أبلغ تأثير ، فإنه بعد أن كانت تعتبر المادة مبدأ ومرجعا لكل مخلوق ، انتقل هذا السلطان للقوة ، وعالم القوى أرفع من عالم المادة بما لا يقدر ، ونواميسه أعلى وأعم بقدر هذا التفاوت بينهما ، والمحتملات التى تنشأ من هذا الانتقال لا تقف عند حد . وإذا أردت أن تقف على مبلغ التحول الذى طرأ على مذاهب العلماء من حدوث هذا الاكتشاف ، فإليك على عجل :

قال الدكتور (فيلبون) فى مجلة (العلم والحياة) صفحة ٤٥١ من مجلة سنة ١٩١٧ :

« لقد حلت كلمة (القوة) محل كلمة (المادة) فما يدرينا هل تحل كلمة (روح) محل كلمة (قوة) ؟ هذه المسألة المحيرة لا تزال سرا من أسرار المستقبل »

وقال العلامة (جوستاف لوبون) فى كتابه تحول المادة :

« دامت العقيدة فى صحة المقررات الكبرى للعلم العصرى حافظة لقوتها الى أن حدثت فى الأيام الأخيرة مكتشفات غير منتظرة قضت على العلم العصرى أن يكابد من الشكوك ما كان يعتقد أنه قد تخلص منه نهائيا ، فإن الصرح العلمى الذى كان لا يرى صدوعه إلا عدد قليل من العقول العالية قد تزعزع فجأة بشدة عظيمة ، وصارت المتناقضات والمحاولات التى فيه ظاهرة للعيان بعد أن كانت من الخفاء بحيث لا تبلغها الظنون ، فأدرك الناس على عجل أنهم كانوا مخدوعين ، وأسرعوا يتساءلون : هل الأصول المكونة للمقررات اليقينية لمعارفنا الطبيعية لم تكن إلا فروضا واهية تحجب تحت غشائها جهلا لا يسبر له غور ؟ »

ثم نقل الأستاذ (جوستاف لوبون) قول العلامة الرياضى (لوسيان بوانكاريه)

وهو : « لا توجد لدينا نظريات كبرى الآن يمكن قبولها قبولا تاما ، ويجمع عليها المجربون إجماعا عاما ، بل يسود اليوم عالم العلوم الطبيعية نوع من الفوضى »

وعقب عليه الأستاذ (جوستاف لوبون) بقوله : «من حسن الحظ لا شيء أكثر ملاءمة للترقى العلمى من هذه الفوضى ، فالوجود مفعم بمجهولات لا نراها ، والحجاب الذى يحجبها عنا منسوج غالبا من الآراء الضالة أو الناقصة التى توجبها علينا تقاليد العلم الرسمى (تأمل) ، فلا يمكن عمل خطوة للامام إلا بعد أن تتفكك عرى الآراء السابقة »

نقول : يظهر مما قدمناه أن تأثير سقوط صرح المادة كان بليغا الى أقصى ما يمكن تخيله ، فهل تتأدى العقيدة فى القوة التى تنحل اليها المادة الى العقيدة فى روحانيتها ، فيكون ثمرة هذا الهدم والبناء فى مصلحة الروح من كل وجه ؟

هذا ما يبدو صريحا من أقوال أقطاب العلم ، فقد جاء فى دائرة معارف القرن العشرين الفرنسية تحت كلمة (مادة) بعد أن عرضت جميع المذاهب عليها ما يأتى :

« على هذا فجميع الفروض التى فرضت للآن تعجز عن حل تناقضاتها الذاتية ولا تنطبق على الحوادث . فماذا نستنتج من هذه الحال غير أن مدركاتنا العلمية عن المادة ، وهى تتفاوت فى صلاحيتها كوسائل للترتيب والتحليل ، لا تستطيع أن تزعم أنها الحقيقة المطلقة . وهذه الفروض باعتبار أنها لا وظيفة لها إلا تسهيل وتعميم صفات وعلاقات الظواهر المحسوسة ، لا يمكن أن تكون حتما إلا رمزية وخداعة كهذه الظواهر نفسها »

ثم ختمت الدائرة الفرنسية هذا الفصل بقولها :

« وعلى هذا فلو صرفنا النظر عن المذهب اللاأدرى الذى هو عبارة عن رفض أى محاولة لتفسير الحوادث ، فإن المذهب الذى يرمى اليه علماء العلل الأولية هو : أن المادة باعتبار أصلها تنحل ، كما فكر فى ذلك (لبنتز) ، الى وجود روحانى (تأمل)

طبيعته كطبيعة الوجود الذى يتجلى لوجد اننا . والمسألة التى تبقى بعد ذلك غير محققة هى أن نعرف : هل الوجود مؤلف من ذرات روحية متميز بعضها عن بعض ، أو أنه كائن واحد عام لا يقبل الانقسام ومستمر على الدوام ، وأنه العلة والمعلول العام » ؟

نقول : إن أثر تدهور الصرح المادى كان بعيدا الى حد أن حلت الروح محلها فى التعليلات العلمية الطبيعية كما ترى ، فهل بعد هذا إهابة بالعاطفة الدينية الى اليقظة والعمل فيما خلقت له ؟

الانسان يتألف من جسد وروح ، ولكل منهما مطالب ، فكما يألم الجسد إن قطع عنه المدد المادى ، كذلك تألم الروح إن قطع عنها المدد الروحانى . وحرمان الجسد من مقوماته يفضى الى تعطل وظائفه والى تحلله ، وحرمان الروح من مقوماتها يؤدى الى الحيلولة بين إشراقاتها و بين صاحبها ، وفى تلك الحيلولة كل ما يتخيل من اضطراب النفس ، وفساد القلب ، وغلظ الشعور ، والسقوط الى الحيوانية الباحتة ، بل الى ما هو أسفل منها . فتجد المبتلى بهذا الحرمان من المدد الروحانى يستسيغ ارتكاب القبائح ، ومقارفة الدنايا ، والانغماس فى الخسائس ، والخوض فى المقاذر ، ظنا منه أن فى هذه الإباحة الجنونية سكنا لنفسه الجامحة ، ومتنسما لقلبه المحترق ، ولكنه لايزداد إلاهلعا على هلع ، ولا يزال يعالج هذه النيران المتسعرة فى باطنه حتى ينتهى أجله ، ويذهب الى حيث يذهب التائهون .

ماذا تتطلب أعصى العقول على الدين بعد أن ألقى الإلحاد سلاحه كابرى على رءوس الأشهاد ؟ وماذا تنتظر أن ترى من أعلام الحق بعد أن صرح العلم بأن المادة تنتهى الى روح ، وأن الروح هى أصل الخلق ومنتهاه ؟

فهلم ننقذ أنفسنا من سيادة المادة علينا ، لا باحتقارها ولا بالهرب منها ، ولكن بإخضاعها لسلطان الروح ، حتى لا تطغى علينا فتقودنا من شهواتنا الى حيث تفقدنا كرامة الانسانية ، وشرف العمل على إقامة دولة المدنية الفاضلة فى الأرض .

عمل الانسان لإقامة دولة الروح هو فى الحقيقة خدمة لنفسه وللانسانية وللعلم وللمدنية « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها » فإن الله غنى عن العالمين . فإن كلفنا الله بطاعته فإنما يكلفنا بما يحيينا ويرقينا ويشرفنا ، ويتناسب وغرائزنا الفطرية « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » .

محمد فريد وجدى

ما قيل فى تأديب الصغار

قال بعض حكماء المسلمين : من أدب ولده صغيرا سر به كبيرا .

وقالوا : اطبع الطين ما كان رطبا ، وقوم العود ما كان لدنا .

وقالوا : من أدب ولده ، أرغم حسده .

وقال ابن عباس رضى الله عنه : من لم يجلس فى الصغر حيث يكره ، لم يجلس فى الكبر حيث يحب .

وقال حكيم : ما أشد فطام الكبير ، وأعسر رياضة الهرم .

وقال صالح بن عبد القدوس شعرا :

وإن من أدبته فى الصبا ... كالعود يسقى الماء فى غرسه
حتى تراه مورقا ناضرا ... بعد الذى أبصرت من يبسه
والشيخ لا يترك أخلاقه ... حتى يوارى فى ثرى رمسه
إذا ارعوى عاد له جهله ... كذى الصبا عاد الى بلسه
ما تبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه

وقال شاعر غيره :

إذا المرء أعيته المروءة ناشئا ... فمطلبها كهلا عليه شديد

وقال عمرو بن عتبة لمعلم ولده : ليكن أول إصلاحك ولدى إصلاحك لنفسك ، فان عيونهم معقودة بعينك ، فالحسن عندهم ما صنعت ، والقبيح عندهم ما تركت .

أسرار التشريع الاسلامى وفلسفته

الوقف : صفته ، مشروعيته ، شروطه المصححة له

أسلفنا فى البحث السابق لمعة وجيزة عن الوقف بنوعيه الأهلى والخيرى ، وعن حكمه المنظم له ، وعن مختلف الآراء الفقهية فى وقوعه وانعقاده . والآن نعرض للكشف عن مشروعيته وصفته وشروطه المصححة له وآراء الفقهاء التفصيلية فيها :

ليس خلاف بين الفقهاء رضوان الله عليهم فى أن الوقف بنوعيه جائز مشروع بوصف كونه عملا من أعمال البر ، وقربة من القربات الى الله تعالى .

ويؤكد مشروعيته من ناحية العقل أنه نظام من الأنظمة الصالحة للمجتمع ، يبعث عليه البر بالانسانية المعذبة ، حتى مع غض النظر عن وروده بلسان الشريعة ، فقد نقل صاحب كتاب « أنفع الوسائل » أن زيد بن ثابت رضى الله عنه يقول : « لم أر خيرا فى هذه الدنيا من الحبوس يحبسها الأغنياء على الفقراء ، سواء فى ذلك الأموات والأحياء » . فأما الميت فيجرى أجرها عليه ، وأما الحى فتحبس عليه ينتفع بغلتها ، وتعف يده بها عن السؤال ، ويتقى بها كرائه الدهر وعاديات الليالى .

فنظام الوقف فى الشريعة الاسلامية من أو فى الأنظمة الاجتماعية بحاجة الناس ، وأحفلها بالمنفعة الدائمة المستمرة ، وأعودها بالخير الثابت على طائفة من البشر .

نعم إن بعض نظار الأوقاف قد يبالغون فى أكل أموال المستحقين بشتى الوسائل ، وضجت بتصرفاتهم المحاكم الشرعية ، حتى قام بعض ذوى الآراء الرشيدة فى مصر يطالب بإلغاء الوقف ، ولكن ذلك على كل حال لا يقدح فيما لمشروعية الوقف من الفوائد الجلى . وكل ما هنالك أن تشريعا تسنه وزارة الحقانية يكفى للقضاء على تصرفات بعض نظار الأوقاف والأخذ على أيديهم .

وإذا كان الوقف تصرفا من التصرفات الجائزة شرعا الصادرة من الانسان ، كان لابد

أن يكون متصفا بحكم من الأحكام الشرعية ، بمعنى أن حكما من هذه الأحكام الخمسة يعرض له ويكون صفة من صفاته ، فتارة يكون مباحا لا ثواب فى فعله ولا عقاب فى تركه ، وذلك فى حالة ما إذا لم تصحبه نية التقرب الى الله تعالى ، كما لو وقف الواقف على قوم أغنياء أو على ذريتهم ثم من بعدهم للفقراء ، رغبة فى المحافظة على العين الموقوفة من الضياع من جهة ، وقصدا الى عدم تمكينهم من التصرف فيه بعد موته من جهة أخرى .

وقد يكون مندوبا فيثاب على فعله دون أن يعاقب على تركه ، كما لو نوى به الواقف التقرب الى الله سبحانه وتعالى ، فتصح ولو كان الوقف على ذريته وذوى قرابتهم امتثالا لبعض الأحاديث الصحيحة ، من أن الوقف على بعض أهل الواقف صدقة ، لأن الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى .

وقد يكون واجبا فيثاب على فعله ويعاقب على تركه ، وذلك فيما إذا كان التصرف فى الوقف منذورا ، كأن يقول أحد الناس : إن برئت من مرضى هذا فلله علىّ أن أقف ضيعة كذا على طلبة العلم . فإن الوقف فى هذه الحالة يكون واجبا عند تحقق الشرط لوجوب الوفاء بزوال العلة . تطبيقا لقوله تعالى : « وليوفوا نذورهم » وأخذا من آراء فقهاء أبى حنيفة .

والعلة فى صحة نذر الوقف على ما ذهب اليه الامام الكمال بن الهمام فى الفتح القدير أن من جنسه واجبا من الواجبات ، فيجب على إمام المسلمين أن يتخذ لهم مسجدا من بيت مال المسلمين ، فإن لم يكن ذلك ميسورا اتخذ لهم مسجدا من أموالهم .

وقد يكون الوقف حراما فيعاقب على فعله ، كما لو قصد الواقف إيذاء دائنيه أو بعض ورثته .

وأنا أعرف قاضيا شرعيا كبيرا رفض أن يسمع إشهادا بوقف لمين علم أنها مدينة وأن الغرض من وقفها إيذاء الدائنين وتفويت المنفعة عليهم وتبديد ديونهم بطريقة قانونية . فإن الإضرار بالغير حرام لقوله صلى الله عليه وسلم : « لا ضرر ولا ضرار

فى الاسلام». ومع أن هذا الوقف حرام على هذه الصورة فهو لازم وصحيح تترتب عليه آثاره ،لأن الحرمة طرأت لوصف عارض منفك لا تنافى صحة التصرف ولا تناقض مشروعيته عند فقهاء الحنفية كما هو الثابت فى أصولهم ، وذلك كالبيع وقت صلاة الجمعة وكالصلاة فى الأرض المغصوبة ، وكالصيام مع ملابسة أنواع الهُجر وأساليب المنكرات التى تجرى بها الألسنة . فإن هذه الأنواع لازمة ومتحققة الأثر مع اقترانها بالحرمة .

وذهب مالك رضى الله عنه الى عدم صحة الوقف إذا لابسته معصية ، كما إذا وقف الواقف على بنيه دون بناته ، لأنه تصرف يشبه فعل الجاهلية الذى جاء الاسلام بالقضاء عليه ، وكما لو وقف على بناته وشرط أن من تزوجت منهن خرجت من الوقف دون رجعة اليه ، حتى ولو تأيمت ، فتظل محرومة من الوقف والانتفاع بغلته متى تزوجت ، سواء دامت الزوجية أو انقطعت . وهذا القول عن مالك رضى الله عنه رواه ابن القاسم فى حاشية الدسوقى على الشرح الكبير فى فقه المالكية .

ثم إن الفقهاء قد اشترطوا لصحة الوقف شروطا ألمعنا إليها فى البحث السابق بما فيه الغناء ، وهى تعتمد فى مجموعها شروطا أربعة : واقف ، وموقوف عليه ، وموقوف وصيغة يتأدى بها المعنى المراد . ولكل من هذه الشروط الأربعة شروط لتحقيقها لأنها إذا تحققت تتحقق حقية الوقف ، فتتأكد المنفعة المقصودة منه ، ويتأكد الثواب للواقف الذى قصد اليه بهذا التصرف المشروع .

فيشترط فى الواقف شروط ، وفى الموقوف عليه شروط ، وفى الموقوف شروط وفى الصيغة شروط . فأما الشروط التى اشترطها الفقهاء فى الواقف فأهمها أن يكون الواقف أهلا للتبرع، بأن يكون حرا عاقلا بالغا غير محجور عليه لسفه أو غفلة أو دَين .

والكلام عن محترزات هذه الشروط ومقابلاتها طويل الذيل كثير التفاريع لا يتسع له هذا البحث . لذلك آثرنا أن نرجئ الكلام عن تلك الشروط ومحترزاتها وعن آراء الأئمة وتعليقات كبار المؤلفين الى العدد القادم ، إن شاء الله تعالى ؟

عباس طه المحامى

الاسلام و الفلسفة

— ٣ —

أشرنا فى الفصلين السابقين الى ما استقبل به الاسلام الفلسفة من رحوبة الصدر وطلاقة الوجه اللتين لا طمع بعدها لمستزيد، وذكرنا كذلك شيئا من الآيات الكريمة التى لخص التنزيل فيها عناصر الفلسفة الثلاثة، وهى: (١) عظمة المظاهر الكونية. (٢) الأسباب والعلل وارتباطها بمسبباتها ومعلولاتها. (٣) النفس البشرية وما انطوت عليه من خفايا وأسرار.

ذكرنا هذه الآيات الجوامع، وأبنّا أن أهم موضوعات المعرفة الفلسفية هو النظر فى المظاهر الكونية والعلل الفعالة والنفس البشرية، وأن الغاية المثلى من هذا النظر هى الاهتداء الى حقيقة الحقائق ومنشئها ومنتهاها، وألف الأكوان ويائها، وهو المبدع الأول جل جلاله، فاذا وصل الفيلسوف بوساطة النظر الى هذه الغاية العالية، فقد عرف الله حق معرفته، أو أصبح جديرا باسم الحكيم، وهو فى نظرهم من توفرت لديه الفضائل الأربع: (الحكمة والعدالة والعفة والشجاعة). فبالحكمة يعرف الانسان خالقه ونفسه، ويكتنه الشىء الكثير من أسرار الوجود وخفاياه، ويرى ببصيرته أنه صاعد على درجات السلم الأشرف الذى سيلحق عن طريقه بأصله وأصل الموجودات جميعا، وأن هذا هو الفوز الأكبر الذى لا يعدله كل ما فى الحياة من لذائذ ومسرات فتصغر الدنيا فى عينه ولا يعيرها نظرة ولا لفتة. وبالعدالة يتشبه بالمنشىء الأول الذى لا يظلم ولا يجور. فيحدث له من هذا الشبه قرب من خالقه تنتج عنه لذة لا تدرك العقول مداها، لعظمها واختلافها عن اللذات المادية. وبالعفة يرتفع عما يكتظ به هذا الوجود من دنايا الشهوات التى هى أس كل ما فيه من رذائل وسقطات. وبالشجاعة يحتمل أرزاء الحياة ونكباتها هادئا مغتبطا، لأنه يكون على يقين من أن تصرفات

الأقدار لا تسير إلا بحكمة سامية لايتضجر منها إلا كل جاهل أو جحود ، كما يكون واثقا من أن الأقدار قد سلكت معه هذا المسلك الشائك لتبتليه ، فإن صبر وشمر بالسعادة الروحية أنالته درجة أعلى من التى هو عليها ، وإن ضجر ونقم أنزلته الى مصاف العامة الذين ليس لهم عند الله خاصية ولا امتياز .

هذه هى الموضوعات الجوهرية للفلسفة وما أحقها وأجلها من موضوعات ، وتلك هى الغاية المثلى لها ، وما أشرفها وأسماها من غاية : وهل فى القرآن موضوع أكثر جوهرية من النظر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ، ومن النظر فى حكمة الأسباب وارتباطها بمسبباتها ، أو فى النفس البشرية وما اشتملت عليه من أسرار ومخبآت ؟ وهل للقرآن غاية أسمى من الاهتداء الى وجود الله ووحدانيته وكماله ؟

الفلسفة الحقة إذاً ، هى ما كانت موضوعاتها وغايتها على النحو الذى ذكرناه ووفقت الى إدراك هذه الغاية ، وهى لا تصطدم مع الاسلام فى شىء ، لأن الحق لايصطدم مع الحق فى أية خطوة من خطواتهما ، بل هما دائما متحابان متصافيان متكاتفان على قمع الباطل واستئصال شأفته .

أما أولئك الذين يزعمون أن الفلسفة من حيث هى متعادية مع الدين فهم واهمون ، بل سطحيون مقلدون ، لأن العقل ـ وهو الموئل الأعلى للفلسفة ـ لم يخرج عن كونه هبة من صاحب الدين ، فإذا أحسن المرء استخدامه فى البحث والاستنتاج كان أجل نعم البارى عليه ، وإذا أساء التصرف فى استعماله بأن عطل ملكته الناطقة أو أخضعه للهوى والأغراض ومال مع كل ريح ذات اليمين وذات الشمال ، كان شر النقم التى تهوى بصاحبها الى الحضيض ، ولكن الذى خدع أولئك المقلدين المعاصرين عندنا وجعلهم يدينون بفكرة عداء الدين والفلسفة ، هو أنهم قرءوا هذا الرأى للعلماء الأوربيين فقلدوهم فى ذلك محاكاة الببغاء . ولو أنهم دققوا النظر لوجدوا أن كلمة الدين فى

الأوربيين معناها (المسيحية) لا الدين فى ذاته ، وإذاً ، فهى لا تنطبق على الاسلام فى أى شىء ، لأن البواعث التى حدت الغربيين الى هذا الرأى عن المسيحية لا توجد فى الاسلام .

أما عذر القدماء الذين كانوا يدينون بهذا الرأى من المسلمين ، فهو — كما أسلفنا فى المقال الأول — أن قوماً ممن لا دين ولا خلاق لهم اندسوا بين المشتغلين بالفلسفة وأخذوا يروجون للزندقة والإلحاد ، فأساءوا الى أنفسهم والى أمتهم والى الفلسفة نفسها . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن مشاهير فلاسفة الاسلام كالفارابى وابن سينا وابن رشد قد قدّسوا بعض النظريات اليونانية الخاطئة ، فهووا فى نظر المؤمنين هويا أفعم قلوب الأمة الاسلامية بالريب والشكوك فى الفلسفة كلها ، كما يتضح ذلك من كتابات الامام الغزالى وأمثاله من الأتقياء .

وهانحن أولاء سنذكر فى هذه الفصول فلسفة كل فيلسوف من فلاسفة الاسلام بعد الالمام بحياته الشخصية ، ثم نبين ما اهتدى اليه كل واحد منهم من آراء صائبة ونظرات قيمة ، ثم نعقب على ما نظن أنه خاطئ من تلك الآراء بما يوضح تلك الأخطاء ويرد عليها . وسنبدأ بأول مشاهير أولئك الفلاسفة وأسبقهم الى خوض معمعان النظريات العقلية وإن كان أقل خطرا ممن أتوا بعده ، وهو يعقوب الكندى الفيلسوف العربى الخالص :

يعقوب الكندى ـ نسبه وحياته :

هو يعقوب بن اسحاق بن الصباح الكندى ، ينتهى نسبه الى يعرب بن قحطان ، ولد فى واسط ، ولا يعرف أحد من المؤرخين تاريخ ميلاده ولا تاريخ وفاته بالضبط ، وكل ما يعرفونه عنه هو أنه عاش فى القرن التاسع الميلادى .

درج الكندى بين أحضان أسرة ماجدة كان لها السيادة والإمارة منذ زمن بعيد ، فأبوه اسحاق بن الصباح كان أميرا على الكوفة فى عهدى المهدى والرشيد ، وجده أشعث بن قيس كان من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بعد الاسلام ، وكان فى الجاهلية ملكا على كندة كلها ، وورث المملكة عن آبائه وأجداده .

دراسته :

بدأ الكندى حياته العلمية فى البصرة ، ثم ارتحل الى بغداد عاصمة العلم والثقافة العالمية إذ ذاك ، ففيها تهذب وتأدب ، ومن معارفها انتهل حتى أصبح رأسه دائرة معارف كبرى حوت من الفلسفة والأدب والطب والفلك والموسيقى وفن الألحان والرياضة والطبيعيات والكيميائيات ، ما تعجز عن احتوائه عشرات الرءوس .

افتتن الكندى بالفلسفة اليونانية افتتانا جعله لا يتورع عن أن يعلن فى بعض كتبه أن جده الأعلى : قحطان ، كان شقيق يونان أصل اليونانيين . ويقول بعض مؤرخى الفلسفة العربية : إن هذه الدعوى قد وجدت رواجا وتصديقا فى بيئة العباسيين ، لأنهم مع تبحرهم فى فلسفة اليونان كانوا يجهلون تاريخهم . وقد أسلفنا مناقشة هذه النقطة فى المقال الأول .

كان الكندى أيضا معجبا بالحكمة الهندية والمعارف الفارسية إعجابا شديدا ، حتى أنه عكف على كل هذه المنتجات القيمة يلتهمها فى نهم لم يعرف العرب له نظيرا من قبل ، ولهذا كان هو أول من دُعى بالفيلسوف العربى .

مؤلفاته :

أوصل بعض المؤرخين مؤلفات الكندى الى ثلثمائة وخمسة عشر كتابا ، والبعض الى مائتين وواحد وثلاثين . وقد سرد الكثير منها ابن أبى أصيبعة فى كتابه « عيون الأنباء » سرداً بلا ترتيب ولا نظام . وقد قسمت فى كتاب « تاريخ الحكماء » تقسيما أفرد كل فصيلة منها على حدة . وقد وضع بعض المؤلفين لهذه الفصائل الأرقام الآتيـــة :

٣٢ — فلسفة	٧ — موسيقى	١٢ — سياسة
١٩ — نجوم	٥ — نفس	٣٣ — طبيعيات

١٦ — فلك	٥ — تقدمة المعرفة	٩ — منطق
١٧ — جدل	١١ — حساب	١٠ — أحكام
١٤ — أحداث	٢٣ — هندسة	٨ — أبعاد
٨ — كريات	٢٢ — طب	

ولكن مع الأسف الشديد أن هذه الكتب لم يبق منها إلا النزر اليسير الذى لا يستطيع أن يعطينا صورة واضحة عن فلسفة الكندى ، وإن كان من المعروف أنها مزيج من فلسفات « أفلاطون » و « أرسطو » و « أفلوطين » منسوبة كلها الى « أرسطو » كما يقول الثقات من المؤرخين .

أعداؤه :

كان للكندى أعداء كثيرون ، شأن كل العباقرة المبرزين فى العلوم والفنون . وقد استطاعوا أن يضروه فى سمعته العلمية والدينية وفى حياته الخاصة . فمن هؤلاء الأعداء : محمد وأحمد ابنا موسى بن شاكر اللذان دسا للكندى عند المتوكل ، وساعدهما على بغيتهما أولاً ما عرف عن الكندى من الآراء الاعتزالية ، وثانيا حماقة المتوكل وتسرعه ، فضربه وأرسل الى منزله من استولوا على كل كتبه ، ثم ردت اليه كل هذه الكتب بعد زمن ، كما ذكر ذلك ابن أبى أصيبعة فى قصة طويلة .

ومن الذين تأثروا بكتابة أعدائه المعاصرين له القاضى أبو القاسم صاعد بن أحمد الذى حمل على الكندى فيما بعد فى كتاب « طبقات الأمم » ووصف كتبه بأنها لا تفيد المطلعين عليها ، لكونها تشتمل على كليات غامضة ليس فيها تحليل للجزئيات ، ولكون تراكيبها غامضة معماة لا يستفيد منها إلا من مرن على دراسة المنطق حتى أصبح عنده مقدمات عتيدة تمكنه من فهمها . ويضيف الى هذه المعانى قوله : «ولا أدرى ما حمل يعقوب على الإضراب عن هذه الصناعة الجليلة : هل جهل مقدارها أو ضن على الناس بكشفه ؟ وأى هذين كان ، فهو نقص فيه ، وله بعد هذا رسائل كثيرة فى علوم جمة ظهرت له فيها آراء فاسدة ومذاهب بعيدة عن الحقيقة » .

ويعلق ابن أبي أصيبعة على رأى هـذا القاضى المغرض أو المقلد بقوله : « أقول : هذا الذى قاله القاضى صاعد عن الـكـندى فيه تحامل كثير عليه ، وليس ذلك مما يحط من علم الـكـندى ولا مما يصد الناس عن النظر فى كتبه والانتفاع بها » (١) .

ومن هـؤلاء الأعداء أيضا : أبو معشر الذى كان من كبار المشنعين عليـه والمشهرين به ثم أصبح أحد تلاميذه المختارين .

وعلى الرغم من كل هذه الدسائس التى حاكها أعداء الـكـندى حول شهرته العلمية ، فإن اسمه ظل نجما ساطعا فى تاريخ الفلسفة العربية ، وبقى إمام الفلاسفة وأول المتبحرين فى الحـكمة .

أخلاقه الشخصية :

يروى ابن أبى أصيبعة للـكـندى وصية أوصى بها ابنه تدل على أنه كان شديد البخل الى حد الشح المغالى الذى لا يمنع صاحبه من الإحسان فحسب ، بل يحول بينه وبين الإنفاق على نفسه . ومن هـذه الوصية قوله : « قول لا ، يصرف البلا ، وقول نعم ، يزيل النعم ، وسماع الغناء برسام حاد ، لأن الانسان يسمع فيطرب ، وينفق فيسرف فيفتقر فيغتم فيعتل فيموت . والدينار محموم ، فإن صرفته مات ، والدرهم محبوس ، فإن أخرجته فر ، والناس سخرة ، فخذ شيئهم واحفظ شيئك (٢) .

وأنا أميل الى القول بأن هذه الجمل قد تكون مدسوسة على الـكـندى من أعدائه للتشهير بأخلاقه العملية ، كما شهروا بقيمته العلمية ، لأن من يتبحر فى الفلسفة اليونانية ويدرس الحـكمة الهندية المغالية فى الزهد والاستخفاف بالحياة المادية دراسة ذات أثر فعال كدراسة الـكـندى إياها ، يبعد أن يكون فى أخلاقه العملية شحوحا الى هذا الحد الذى رموه به ، وإن كان ذلك ليس مستحيلا ، لأن الذين يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم كثيرون .

---

(١) صفحة ٢٠٨ من الجزء الاول من كتاب «عيون الانباء» (٢) صفحة ٢٠٩ من الـكتاب المذكور.

فلسفة — الرباة :

يرى الكندى أن العالم مخلوق لله ، متأثر به تأثر المسبب بسببه السابق عليه ، وقد حدث هذا التأثير من الله فى العالم مرتبا على النحو الآتى :

خلق الله العقل الأول وأسكنه عالم الحقيقة ، مزودا بالقدرة على التأثير فيما يليه وعلى تصوير المادة كما يريد ، وعن هذا العقل الأول فاضت النفس الكلية التى نشأت عنها النفس الانسانية ، كما نشأ عنها عالم الأفلاك المادى .

ومما لا ريب فيه أن الكندى تأثر بفلسفة أرسطو الإلهية فى نفيه عن البارى التأثير المباشر فى المادة ، وفى إسناده هذا التأثير الى النفس الكلية التى هى أحد آثار العقل الأول . وأرسطو بدوره متأثر فى هذه النظرية بتلك القاعدة القديمة التى أشرنا إليها فى المقال السالف ، وهى « أن الكامل من كل وجه لا يصدر عنه إلا كامل » ، ولما كان العقل الأول كاملا ، ولكن لا من كل وجه لسابقية البارى عليه وافتقاره الى هذا البارى ، فقد ساغ أن تنشأ عنه النفس الكلية التى ثبت كمالها من بعض الوجوه ، لتجردها كالعقل الأول من المادة ، وانتفت عنها الكمالية من كل وجه ، لتأثرها بالعقل الأول المتأثر بالبارى ، فقد صح أن تباشر هذه النفس الكلية التأثير فى عالم الأفلاك المادى الناقص ، وبهذا التمحل المتكلف الذى بدأ الكندى استئنانه فى الفلسفة العربية قد حسب أنه وفق بين الاسلام وتلك القاعدة القديمة الخاطئة التى أبنّا أن « أفلوطين » الاسكندرى قد وجه إليها من سهام النقد ما أصابها فى الصميم ، والتى سنعرض لها مع بقية القواعد القديمة فى شىء من التفصيل عند الكلام على فلسفات الفارابى وابن سينا وابن رشد ، إن شاء الله .

ولما كان أسلوب الكندى غامضا من جهة وكتبه قد فقدت إلا أقلها من جهة أخرى ، فلم نجد فى فلسفته تصريحا واضحا بأزلية المادة كما وجدنا ذلك عند غيره من فلاسفة المسلمين ، بل لعله كان يؤمن بحدوثها متأثرا فى ذلك بتلك الرسالة المكذوبة

التى عزاها الاسكندريون قصدا الى أرسطو وهى فى الحقيقة مزيج من آراء «أفلاطون» و « أفلوطين » .

وكان الكندى يقول بوحدة واجب الوجود وبساطة وجوده ، ومعنى هذا إنكار الصفات بتاتا ، لأنها تجر الى تعدد القدماء كما يقول المعتزلة الذين كان الكثيرون منهم معاصرين للكندى . وصرح بأن الله قادر بذاته وهلم جرا . ولا شك أن « أرسطو » قد سبق المعتزلة الى نفى جميع الصفات عن البارى .

النفس الانسانية عنده :

يرى الكندى أن النفس الانسانية جوهر بسيط خالد هبط من عالم العقل الى عالم الحس فاستوطنه مرغما ، ثم هو لايزال يشعر بغربته ويحن الى العودة الى أصله ، ليستريح من هـذا العذاب الذى يعانيه بسبب الحرمان من تحقق الميول العالية التى فطر عليها عالم الأرواح ، والتى ليس فى مكنته الوصول إليها ، وهو فى داخل أغلفة الأجسام الكثيفة ، فإذا أراد الانسان أن يقل من تلك الكثافة ، ليتيح للروح فرصة فوزها ببعض ماتشتهى وقربها ممن تحب ، فما عليه إلا أن يسلك سبيل اتباع الفضائل واجتناب الرذائل ، وهى تتحقق فيما أمر الله به ونهى عنه ، وعند ذلك يصل الى نيل بغيته من السعادة الروحية والكمال النفسى ، وهذا هو الذى صدر عنه الكندى فى آرائه الأخلاقية ، وهو متأثر فيه أيضا بمذهبى : « أفلاطون » و « أفلوطين » المعزوين زورا الى « أرسطو » فى هذه النظرية . وقد انخدع فى هذا الرأى كل فلاسفة الاسلام وحسبوه لأرسطو حقا ، فأشادوا به وذكروه فى معرض التباهى بعلمهم الأول ، وسجله ابن سينا فى قصيدته الشهيرة التى يقول فى مطلعها :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تدلل وتمنع

طريق المعرفة عنده :

يذهب الكندى الى أن طريق المعارف كلها هى الحواس والعقل ، فأما الحواس

فهى خاصة بالمحسّات والجزئيات الموجودة فى العالم المادى . أما العقل فانه يدرك مع كل ذلك ما يوجد فى العالم المعقول من الكليات بأجناسها وأنواعها . والكندى يقسم العقل الى أربعة أقسام : العقل الحقيقى ، والعقل الكامن ، والعقل المستفاد ، والعقل الفعال أو المبرز . فأما العقل الحقيقى أو جوهر الموجودات فى الكون ، فهو الموجود الأول أو النفس الإلهية . وأما الثانى ، فهو العقل الكامن فى النفس البشرية أو استعدادها العقلى . وأما الثالث وهو العقل المستفاد فهو ملكة النفس المكتسبة من خبرتها والمرشدة لها . وأما الرابع وهو الفعال فهو مبرز الأعمال الى حيز الوجود . والعقلان : الثانى والثالث أى الكامن والمستفاد هما من فعل الله . وأما الرابع أى المبرز ، فهو من عمل الانسان البحت . ونستطيع أن نوضح رأى الكندى فى هذه النقطة بصرف النظر عن الموجود الأول الذى تكلمنا عنه فى قسم الإلهيات ، فنقول : إن هذا الفيلسوف يقسم النفس البشرية الى ثلاث قوى : الأولى العقل الكامن أو ملكة الاستعداد للتعقل أو العقل بالقوة . والثانية العقل المكتسب الذى يبرز من الكمون الى تكييف النفس بالفعل وليس مستفادا من الحياة إلا بروزه كعادة مكتسبة ، أما عنصره فهو موجود دائما فى النفس البشرية . والثالثة هى القوة الفعالة التى نستطيع أن نسميها الآن بالإرادة الفاعلة أو المنفذة . والقسمان الأول والثانى آتيان الى النفس من البارى ، والثالث من خلق الانسان نفسه . وهذا هو عين ما كان المعتزلة يقولون به من أن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية .

هذا ، ويعتبر الكندى أولى طلائع الفلسفة العربية التى لم تلبث أن ازدهرت على أيدى الفارابى وابن سينا وابن رشد الذين سنحدثك عنهم على التتالى فى فصول مقبلة .

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

فلسفة الاخلاق

صلتها بالنفس الناطقة — أثر ذلك فى المجتمع الانسانى العام

مضينا بالقارئ فى العدد السابق فى شطر غير قليل من الفروق المتفاوتة فى بنى الانسان وأن النفوس تتفاضل بتفاضل البدائه واختلاف الثقافات ، والآن نريد أن نعرض للانسان من حيث كونه مصدر الخير أو الشر ، وكيف تلقى هذا الخير أو الشر ، وكيف يكون إقلاعه عنهما بطيئا أو سريعا .

فالانسان بما أسبغ الله عليه من نعمة التفرد بجوهره عما يشاركه فيها من العوالم الأخرى حتى صار — كما نعته الرئيس — ملكا قائما على عالم الأجرام ، وخليفة لله فى أرضه ، يستجمع بين حواسه الظاهرة والباطنة ويدخر فى قواه المفكرة وحركاته الإرادية ، ما يدبر به تلك المملكة ، ويتصرف بمقتضاها تصرفا هو أجدى أنواع التصرفات وأروح لسائر الكائنات ، وأبرز وجودا وأطول خلودا .

من أجل ذلك يذهب الأخلاقيون الى أن كل ما يصدر عن الانسان من حيث كونه كذلك يجب أن يكون تاما فى فعله ووصفه ، وهذا ضرورى ، لأن صناعة الأخلاق قائمة على تركيز الخلق فى الانسان ، وإحاطته بسياج صفيق ، واتخاذ الفضائل الأربعة التى أسلفنا للقارئ كثيرا من فيوضاتها حتى يقاوم الخيرُ فى النفوس بما ركز فيها من خلقٍ عاديات الشر وغوائل الطبيعة ، ومتى أحكم ذلك السياج المنيع بتدبير من الروية وإلهام من الخير ، وجب أن يكون الانسان فى مملكته أعلى المثل الطيبة فى جميع مايصدر عنه .

فاذا كانت جواهر الموجودات متفاوتة فى الشرف ، نظرا لما يصدرعنها من آثار ضارة أو نافعة ، كانت بالقياس الى ما تنزع اليه شريفة أو وضيعة .

أما الانسان من بين هذه الموجودات فهو متحل بضروب من الاستعدادات لضروب من المقامات ، وليس ينبغى أن يكون الطمع فى استصلاحه على مرتبة واحدة ،

وهذا شىء يتبين فيما بعد بمشيئة الله وعونه عند الكلام بإسهاب عن تلك الفروق ، غير أن ما يجب أن يعلم الآن وقبل كل شىء هو أن وجود الجوهر الانسانى متعلق بقدرة خالقه ومنشئه سبحانه وتعالى عن الشبيه والنظير . غير أن تجويد ذلك الجوهر بوسائل قمع الشهوات وإحلال أضدادها مكانها ، وتمحيض ذلك الجوهر للخير قدر الجهد حتى يصهر النفوس الشريرة من علائقها ، ويكبح فيها ملكة الجموح ، ويحيلها الى نوع من السعادات ، إنما هو من عمل الانسان ، ومتعلقات قدرته ، وأثر من آثار إرادته .

ومما لا مرية فيه أن الأخلاقيين معنيون أبدا بتعرف أن نفوسنا ما هى ولأى شىء هى ، وأن لكل جوهر موجود كمالا خاصا به وفعلا لا يشاركه فيه غيره من حيث هو ذلك الشىء .

لذلك كنا نحن أيضا معنيين بمعرفة الكمال الخاص بالانسان ، والفعل الذى لا يشاركه فيه غيره من حيث هو إنسان ، لنحرص على طلبه وتحصيله ، فنسعى فى البلوغ الى قمته .

ولما كان الانسان فى حقيقة أمره مركبا لا يتجزأ إلا من حيث ما يصدر عنه ، كان واجبا أن يكون مفهوما صدور تلك البسائط فى أفعاله الصادرة عنه .

فأفضل الناس هو أقدرهم على إظهار فعله الخاص وألزمهم له وأدومهم عليه ، من غير تلون فيه ، ولا إخلال به فى وقت دون وقت .

وبذلك إذا عرف الأفضل يعرف الأنقص ، على اعتبار ملاحظة الضد ، فالكمال الخاص بالانسان ينحلّ فى الحقيقة الى كمالين ، ذلك أن للانسان قوتين : إحداهما العالمة والأخرى العاملة . فبإحدى القوتين يشتاق الى المعارف والعلوم ، وبالأخرى الى نظم الأمور وتنسيقها ، وبهاتين القوتين سما الانسان الى معارج الكمال ، وتحلل من أسر المادة وعلائقها ، فقبض بكلتا يديه على مؤسسة هذا الوجود ، وأخضعها لتصرفاته التى تعتبر أثرا من آثاره ، ونموذجا صالحا من نماذج الانسانية الفاضلة والخلق الكريم .

فان للانسان فى ترتيب هذه الآداب وتلك الفضائل وسياقها أولاً فأولاً الى الكمال الأعلى طريقا طبيعيا يشتبه فيها بفعل الطبيعة ، بأن ينظر الى القوة التى تحدث فينا

أيها أسبق الينا وجودا ، وأمضى بين أظهرنا قدما ، فيبدأ بتقويمها ثم بما يليها على النظام الطبيعى ، وهو بين جلى . ذلك أن أول ما يحدث فينا هو الشىء العام الذى يحدث للحيوان والنبات بنوع عام ، ثم هو لا يزال يختص بشىء بعد شىء يتميز به عن نوع بعد نوع حتى يستحيل الى الانسانية .

من أجل ذلك يذهب الأخلاقيون الى ضرورة أن نبدأ أولاً بالشوق الذى يحصل فينا بواسطة الغذاء فنقومه ، ثم بالشوق الذى يحدث فينا الى الغضب ومحبة الأثرة والتسلط فنقومه ، ثم بآخر مراتبه وهو الشوق الذى يحصل فينا الى المعارف والعلوم فنقومه ، وتلك المرتبة الأخيرة هى المستخلصة للانسان ، فهى مرمى طرفه ، وراحة كفه ، وهى التى يسعد بها فى السعداء ، ويشقى بها فى الأشقياء ، فإذا قومها فإنما يقوم أسبابها وينسق عللها . وليس معنى ذلك أن يقومها كما قومها فى المرتبتين الأوليين ، فإن الانسان إذا اشتاقت نفسه الى العلوم والمعارف قبل أن يقطع شوط الطفولة وما يقرب من حد المراهقة واليفوعة ، كان ذلك على غير قانون الأخلاقيين ، فكان ضروريا أن يلقن فى تلك المرحلة من مراحله مبادىء ذلك القانون رويدا رويدا حتى تستحكم عراه وتتآخذ علله وأسبابه ، وهذا الترتيب طبيعى لما يبدو فى الانسان من أول نشوئه من الشعور بأنه يكون جنينا ثم يكون طفلا ثم يكون رجلا كاملا ، فكان بدهيا أن تحصل فينا تلك القوى مرتبة على منازل ثلاثة . ومن أجل ذلك كان الانسان فى آخر دور من أدوار وجوده حامل الرسالة ، ومؤدى الأمانة ، وخليفة الله فى أرضه .

ومما هو غنى عن البيان أن الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم كانوا أشرف الناس بالقياس الى شرف ما يصدر عنهم من كرائم الخصال وبيض الفعال ، لأنهم أحاطوا عقولهم ونفوسهم بتلك المثل العليا للفضائل ، فورثهم ذلك النبوغ الأخلاقى استحقاقهم لأن يقبضوا على ناصية هذا الوجود ، وأن يشعوا فيه أضواء رسالاتهم وتعاليم وحيهم بين الناس جميعا ، فكانوا المثل الكامل فى الانسان الكامل ؟

عباس طه

وأذن فى الناس بالحج

إنه نظرا لاقتراب موسم الحج ، نهيب بكل مسلم الى انتهاز الفرصة إذا سنحت لهم لأداء هذه الفريضة ، لاسيما وقد تيسرت سبل الوصول الى البلاد المقدسة الآن ، وأصبح الحاج يستطيع أن يجد حتى فى البلاد العربية من وسائل الراحة مالا كان يحلم به آباؤنا من قبل .

وقد فرض الله الحج على المستطيعين له ، الذين تتوافر لهم الصحة والمقدرة المالية ، فمن آنس فى نفسه الاستطاعة المشروعة وخف اليه ، فقد وقع أجره على الله ، وأصبح فى كلاءته وحمايته بفضله وكرمه .

ونحن نريد فى هذه المناسبة أن نذكر كلمة فى الحج نضمنها ضروبا من الفوائد العلمية والحكم الاسلامية ، فنقول :

تاريخ الحج :

الحج من الشئون الدينية التى كانت تعرف من لدن أقدم العصور عند جميع الأمم ، فما من أمة إلا ولها مكان معين أو أمكنة تحج اليها ، وحادا أو جماعات ، فى وقت واحد أو أوقات متعددة .

فكان لقدماء المصريين وللسريان هيا كل مقدسة يحجون اليها .

وكان الصينيون ولا يزالون يحجون الى هيا كل معينة فى بلاد التبت وبلاد التتار وغيرها .

أما الهنود فحجهم الى هيكل تحت الأرض فى جزيرة اليفانتا على سواحل مالابار ، أو الى هيكل جاجرنات أوغيرهما .

أما اليونانيون القدماء فكان لهم فى بلادهم وفى مستعمراتهم بآسيا هيا كل

يقصدونها ليمضوا فيها وقتا فى العبادة والنسك ، أشهرها هيا كل جوبتير وديانا ومنيرفا الخ .

وقد أمر الإسرائيليون أن يؤموا أورشليم ليمضوا فيه عيد الفصح متعبدين مخبتين .

ولما جاءت المسيحية جعلت أمكنة الحج فى أول عهدها قبور الأولياء والشهداء . ثم حولته الى أورشليم ، فكانوا طوال عهد القرون الوسطى يقصدونها لأداء هذا الواجب .

الحجاج من أهل الملل السابقة على الاسلام كانوا يرون أن من وجوه الزلفى من الله أن يتكبدوا فى حجهم حرجا شديدا ، فكانوا يتعمدون إرهاق أبدانهم ، كأن يقصدوا مواطن الحج مشيا على الأقدام ، أو حفاة تُدمى أرجلَهم الرمضاء . ومنهم من كانوا يتوجهون الى الحج موقرين بسلاسل حديدية تهد القوى ، أو يقطعون اليه المساوف الشاسعة وهم داخل أكياس ليتعثروا فى كل خطوة من خطواتهم .

أما الأتقياء من الصينيين فينذرون أن يطوفوا بتلك الهيا كل زحفا على بطونهم ، معتمدين على مرافقهم ، أو حاملين أثقالا باهظة على ظهورهم . وكان على الكهان أن يعينوا لهم أى أنواع الإرهاق الجثمانى أحب الى الله من غيره .

الحج فى الاسلام :

كان العرب قبل الاسلام كسائر الأمم يحجون فى عهد جاهليتهم الى البيت الذى بناه ابراهيم وابنه اسماعيل عليهما السلام فى مكة ، حتى أن أبرهة عامل أصحمة ملك الحبشة باليمن ابتنى قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم بنحو أربعين سنة كنيسة فى صنعاء ، وحاول أن يحمل العرب على الحج اليها . فلما لم ينجح فى محاولته اعتزم أن يهدم الكعبة ، فقصدها على رأس جيش ممتطيا صهوة فيل له ، فرده الله عنها ، ولم يبلغ مراده منها .

ولما جاء الاسلام جعل الحج ركنا من أركانه الخمسة ، وهو أشد أركانه كلفة ، [illegible] بكثير من وجوه الإعفاء جريا على أسلوبه الحكيم فى دفع الحرج عن [illegible]

مصداقا لقوله تعالى : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » وقوله : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم » . فاشترط له الاستطاعة من صحة ومال ، وكره أن يرهق فيه أحد نفسه ولو تطوعا وتطلبا لزيادة الأجر . فقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلا ماشيا يتهادى بين ولدين له يريد الحج ، فسأل عن شأنه ، فقيل : يا رسول الله إنه نذر أن يزور البيت ماشيا . فقال : « كلا ! إن الله غنى عن تعذيب هذا نفسه ، احملوه » أى على بعير .

قلنا : أقر الاسلام الحج ، ولكنه لم يدعه على ما كان عليه فى عهد الجاهلية ، فإن العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة الأجساد رجالا ونساء مشبكين بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون . وقد سجل الله عليهم ذلك ، فقال تعالى : « وما كان صلاتهم عند البيت إلا مُكَاءً وتَصْدِيَة » . المكاء : الصفير ، والتصدية : التصفيق . وأمر النبي صلى الله عليه وسلم لما قوى سلطان الاسلام أن لا يدخل البيت عريان .

ونظّم ـ سلام الله عليه ـ الحج فجعل له أميرا يتقدم الناس ويتفقدهم ، ويدفع بوائق الطريق عنهم ، حتى إذا انتهوا الى البيت تولاهم هو وخطباؤه بالارشاد لخيرى الدنيا والدين .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد تعميم العلم بأمر من الأمور خطب به الناس فى الموسم ، أو أوعز الى أميره أن يخطب الناس به هنالك .

فحوّل الاسلام الحج على هذا الوجه من عبادة جسدية لا روح فيها ، الى عبادة اجتماعية روحية ذات أثر بليغ فى ترقية شئون المسلمين . وقد أشار الله تعالى الى هذه المزايا العظيمة بقوله تعالى : « وأذّن فى الناس بالحج يأتوك رِجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات » الآية . وقد فسر العلماء المنافع بأنها دينية ودنيوية معاً . وهذا شأن الاسلام فى كل ما فرضه على الناس : يراعى فيه مصلحة الحياتين جميعا .

فلو أردنا أن نستقصى ما يمكن أن يثمره الحج للمسلمين كافة من وجوه المنافع

الأدبية والمادية لضاق علينا المجال ، فإن لم يكن فيها إلا تعارف الشعوب الاسلامية ، وإلمام بعضها بحاجات بعض ، لكفاها ذلك عاملا قويا فى دفعها الى تبادل الوسائل والتعاون على سد المفاقر ، ولوصلت جميعا على هذا النحو من التكافل الى مستوى رفيع بين شعوب العالم .

ولكن هذه الثمرات الاجتماعية الجليلة لا يمكن أن تكون إلا إذا تطورت فكرة الحج لدى المسلمين حتى تبلغ المفهوم من مراد الله من الحج . فإن المشاهَد لدى أكثر المسلمين الآن أنهم لا يلحظون فيه إلا الناحية الروحية وحدها ، وكان لتجريده لهذه الناحية أثر ظاهر فى حصره فى طبقة من المسلمين لا تتعداها إلا نادرا .

إذا تقرر هذا كان من أوجب واجباتنا أن ننوه بمنافع الحج للدين والدنيا معا ، وأن نكثر من ترويج هذه الحقيقة فى الأذهان ، وأن ننبه خطباء المساجد الى ملاحظة هذا الأمر الجلل فى شهور الموسم من كل عام .

ولكنا نعلم من ناحية أخرى أن هذه الدعوة لا تنتج كل مايرجى منها إلا بارتقاء العمران فى البلاد المقدسة ، وتيسير سبل الوصول اليها . أما الشطر الثانى من هذا الشرط فقد تم بما خصص للحج من بواخر إسلامية تعنى جد العناية براحة الحجاج فى ذهابهم وإيابهم ، مما أصبح مفخرة لمصر ، ونرجو أن يحذو حذوها جميع الأقطار الإسلامية . وأما الشطر الأول منه وهو انتشار العمران فى البلاد المقدسة فأدعى للعناية . فقد مر على الناس زمان كانت الشقة بين مكة والمدينة مخوفة الى حد أنه كان من المخاطرة بالنفس اجتيازها . هذا فضلا عن أنها كانت تقطع على الأبل فتظل هذه الحيوانات تسير سيرها الوئيد اثنى عشر يوما ، ويضطر من عليها من الشيوخ والنساء أن يمضوا لياليها فى وسط فيافٍ جرداء ، أو وديان موحشة ، محرومين من جميع وسائل الإسعاف . وقد تغير ذلك اليوم ، فتعلم أذكياء العرب تسيير الأوتوموبيلات ، فصارت تقطع تلك الشقة فى ثلاث . ولكن الثلاث كثيرة على الناس أيضا فى مثل

هذا العصر ، فلابد من اختصارها الى يوم واحد بواسطة خط حديدى يمد بين مدينتى الحرمين ، يكون فيه كل وسائل الراحة لقاصدى أداء هذه الفريضة .

ويجب أن تنشأ فى مكة والمدينـة فنادق على الطراز الحديث ، وأن يستكثر فيهما من عدد الأطباء والصيدلات ، وأن يدخل اليهما جميع المستحدثات النافعة من الأنوار الكهربائية والخطوط التلغرافية والتليفونية ، السلكية واللاسلكية ، والبُرُد الجوية ، حتى لا يشعر الحجاج بانقطاعهم عن العالم .

نعم : إن هذه التجديدات سائرة هنالك بحيث يرجى لها أن تنتهى الى هذه النهاية ، ولكن يجب العمل على تنشيطها بكل ما يستطيعه المسلمون من وسيلة ، سواء أكان ذلك بتأليف الشركات ، أو بالتبرع بالمال لجماعة تنتدب لإحداث هـذه الأعمال . بهذه الوسيلة يتضاعف عدد الحجاج ، فبعد أن يكون أكبر عدد للحجاج مائتى ألف من سائر الأقطار قد يبلغ المليونين بل أكثر من ذلك ، وفى هذا رواج عظيم للشركات التى تقوم بهذه المنشآت ، وباب رزق واسع للعرب الذين يعتبرون موسم الحج حيلتهم الوحيدة فى الحياة .

ربما يرى بعضهم أنه كلما كثرت المشاق من أداء فريضة الحج ازداد ثواب الحاج . هذا لا مشاحة فيه ، ولكن لا يجوز الإبقاء على هذه المشاق لمصلحة بعض المتطوعين فى سبيل حرمان أكثر المسلمين من أداء هـذه الفريضة ، إذ ليسوا كلهم من قبيل هؤلاء المتطوعين ، والاسلام جاء باليسر فى كل شىء ، ورفع الحرج عن كل ما يتعلق بالدين ، فهو دين الكافة لا دين طائفة من الناس ، وقد بنى على التيسير لحكمة عالية وغرض عظيم .

فهل خير للمسلمين أن يحج عـدد قليل يجازفون بحياتهم لينالوا أكبر حظ من الثواب بسبب المشاق والأخطار التى يتعرضون لها ، أم أن يحج منهم عدد كبير

لا يتكبدون مثل هذه المشاق ، ولا يتعرضون لمثل تلك الأخطار ، مكتفين بثواب القائمين بما فرضه الدين ؟

لا أظن أن يحدث خلاف فى أى هذين الأمرين خير للمسلمين ، لا لأن المصلحة تقضى به ، ولكن لأنه يوافق روح الاسلام من الرفق والتيسير ودفع الحرج والعنت فى كل شىء ، عملا بقوله تعالى : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم ويتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » . **محمد فريد وجدى**

مما قيل فى الرأى والهوى

قال بعض الحكماء : فضل ما بين الرأى والهوى ، أن الهوى يخص والرأى يعم ، وأن الهوى فى خير العاجل ، والرأى فى خير الآجل ، والرأى يبقى على طول الزمان ، والهوى سريع الدثور والاضمحلال ، والهوى فى حيز الحس ، والرأى فى حيز العقل .

وأوصى بعض الحكماء رجلا فقال : آمرك بمعاهدة هواك ، فانه يقال : إن الهوى مفتاح السيئات ، وخصيم الحسنات ، وكل أهوائك لك عدو ، وأهواها هوى يكتمك فى نفسه ، وأعداها هوى يمثل لك الاثم فى صورة التقوى ، ولن تفصل بين هذه الخصوم إذا تناظرت لديك إلا بحزم لا يشوبه وهن ، وصدق لا يطمع فيه تكذيب ، ومضاء لا يقاربه التثبيط ، وصبر لا يغتاله جزع ، ونية لا يتقسمها التضييع .

وقد قيل : ما أبين الخير والشر فى مرآة العقل ما لم يصدئها الهوى ! وقيل أيضا : من جرى مع هواه طلقا ، جعل عليه للذل طرقا .

الاسلام والمسيحية (١)

كانت الملكة زبيدة امرأة ذات مواهب، وشاعرة مطبوعة. وإن مكة لتدين لها بالقناة المسماة باسمها. وكانت الأوانس فى العصر العباسى يشتركن فى الحروب ويقدن الجيوش. وقد ترأست والدة المقتدر محكمة الاستئناف العليا، وكانت تقابل السفراء والمبعوثين. وكانت الشيخة شهده تحاضر فى بغداد فى القرن السادس الهجرى فى التاريخ والأدب. ومن بين مشاهير المتفقهات زينب بنت المؤيد التى تتلمذت على أشهر فقهاء عصرها وأُعطيت إجازة بتدريس القانون. ولم تقلّ منزلة النساء الثقافية والتهذيبية تحت حكم الأمويين عن منزلتهن تحت حكم العباسيين، فقد أخرجت غرناطة وقرطبة من مجليات النساء من اشتهرن فى الفنون وفى العلوم، مثل نزون وزينب وحمرة وحفصة وصفية ومارية.

ويحسن بى فى هذا المقام أن أقول: إن الاسلام قد اعتبر المرأة مستقلة فى نظر القانون، وأعطاها حق حيازة الملك وجعلها مسئولة عما تدخل فيه من الالتزامات. وتعلمون أن الحال ليست كذلك فى نظر أوربا المسيحية، ففى أغلب الممالك الأوربية تنتقل ملكية أملاك المرأة الى زوجها عند الزواج، وفى انجلترا تصبح المرأة فى نظر القانون العام، هى وزوجها شخصا واحدا، ليس لها الحق وحدها فى التملك أو الدخول فى الالتزامات. ثم جاء قانون سنة ١٨٨٢ لملكية النساء المتزوجات، فأعطاهن الحق الذى لم يتمتعن به من قبل، فأصبحت المرأة مسئولة عما تدخله من الالتزامات والتعهدات بقدر أملاكها الخاصة، إلا أن هذا القانون لم يجعل الزوج خاليا من تبعة تصرفات زوجته، فإن للمدعى حق الاختيار بين مقاضاة الزوجة بمفردها أو إشراك زوجها معها.

---

(١) بقية ما نشر بهذا العنوان فى العدد الثامن من هذه السنة.

وإذا لم يكن للزوجة مال خاص أمكن المدعى مقاضاة الزوج بصفته مسئولا عن تصرفات زوجته .

نستنتج من ذلك أن فكرة الاسلام فى اعتبار المرأة مستقلة أمام القانون سبقت كل ما أحدثه فقهاء الغرب . ثم إننا نجد غير ذلك أن كل شخص ، ذكرا كان أو أنثى ، له الحق فى الميراث ولا يمكن سلبه هذا الحق . فإذا قارنا ذلك بالحرية المطلقة فى الوصية فى القانون الانجليزى ، نحمد الله على ما هدانا اليه من ضرورة الاعتراف بحقوق الأسرة .

لقد اضطررت فى هذا العرض الموجز أن أغفل ذكر الحضارة العالية التى بلغها مسلمو إيران والهند ، ولكن يحسن بى أن أشير الى أنه لولا دخول العرب فى الهند لكان للتاريخ شأن آخر غير شأنه الحالى ، فقد دخل العرب بلاد السند بقيادة محمد بن قاسم واستولوا على مولتان واحتلوا البنجاب حتى بيز ، ثم استقر مقامهم هناك تحت إمرة محمد الغزنى . ولسنا نبالغ إذا قلنا إنه لولا العرب لما أنجبت إيران رجالا كعمر الخيام والنظامى والرومى والسعدى وحافظ والفردوسى ، ولما أنجبت الهند من الحكام أمثال بابار وأكبر وشاه جاهان وأورانجزب ونورجاهان والفيضى . ولولا الاسلام لما بُنى (تاج محل) لؤلؤة المجهودات الآدمية فى بحر الوجود ، والدليل الساطع على ما لا يمكن وصفه من الآلام ، والبرهان الخالد على حب أمبراطور لشريكته فى الحياة والملك . ولولا الاسلام لما وجدت مبانى فيتبور سكرى الدالة على عظمة فن البناء واستطاعته التعبير عن حالة طارئة من طبيعة الملك أكبر العجيبة . ولولا الاسلام لظلت ملايين العمال من الهنود تعبد الملايين من الأصنام دون الله ، ولظلت اللعنة النازلة بالمنبوذين عامة فى جميع البلاد ، ولما قامت الديمقراطية بالهند ، كما كانت وكما هى الآن ، تناوئ لنظام الطبقات وليد البرهمية غير الشرعى .

ولننتقل الآن الى القارة المظلمة حيث نجد فى بعض جهاتها أثرا من آثار الاسلام

ذى التاريخ العظيم ، فنجد فى نيجيريا وأ كانتى وكينيا وتنجانيقا ونحوم السودان والصحراء ، إمارات من البربر والزنوج المسلمين يسبقون جيرانهم المتوحشين فى أسباب المدنية ، بإطاعتهم للقوانين واتخاذهم سنناخلقيا ، وغير ذلك مما يميزهم على القبائل الهمجية ، حتى أن المستعمر الأوربى لهذه الجهات لم يجد صعوبة فى تنظيمها وإدارتها ، لوجود نوع من نظام الحكم بها قبل الاستعمار ، فكان المستعمر يترك لهم قوانينهم المدنية كما هى فى أغلب الأحيان ، ويستبدل قوانينهم الجنائية والحربية بغيرها . واسأل المبشرين فى تلك الأصقاع يخبروك أنهم لا يلاقون نجاحا بها ، لأن القبائل هناك قد عرفت التهذيب قبل معرفة الرجال البيض بقرون ، فإن تجار العرب ، لا سيما فى عصر الاسلام الذهبى ، كانوا قد حملوا الى كثير من تلك القبائل رسالة السلام والمدنية لا كرسل للاستغلال الاقتصادى والسياسى كما يحدث اليوم ، ولكنهم جاءوهم مخلصين يبلغونهم الرسالة التى أمرهم رسول الله بإبلاغها الى الناس .

وقد يسأل سائل فيقول : وما علاقة ما وصل اليه المسلمون فى العصور الأولى للاسلام بالاسلام نفسه ؟ والجواب على ذلك أن العلاقة كائنة فى كل شىء ، فلقد كانت بلاد العرب قبل الاسلام غارقة فى بحور من الجهل والرذائل ، فلما جاء الاسلام تبوأت بجدارة ذرا التقدم والثقافة . وكانت تعاليم الاسلام هى الداعية الى هذا التغيير وسبب هذا الانقلاب العظيم ، قال رسول هذه التعاليم : « مداد العلماء أفضل عند الله من دم الشهداء » . وقال أحد الكتاب المحدثين : « حفظ العرب التراث الذى خلّفه المتقدمون من العلم والمعرفة ، ولولا عملهم هذا لضلت سفينة العلم فى بحر الظلمات . فعلينا أن نشكر للعرب إنقاذهم تلك البضاعة النفيسة من الآداب والفلسفة اليونانية وحفظهم إياها خمسمائة سنة . كانت الأمبراطورية الاسلامية ، ولم يمض على وفاة النبي غير تسعين سنة ، تمتد من جبال الهملايا الى جبال البرنات ، ولقد صحت عزيمتهم

لما كانوا عليه من الكبرياء العقلى والطموح وسعة التصور ، على أن يدركوا سر الروح أيضا فى فتوحاتهم »

من ذلك نعلم أنه لولا الاسلام لظل الناس يتخبطون فى ظلمات الجهل والهمجية ، فقد كان مصباح المعرفة ذبالة لا تكاد تضىء ، وكانت تلك الذبالة تنذر بالأفول . ولولا الاسلام لما حدثت النهضة بأوربا ، ولما بدد النور ظلام العصور المظلمة . إذن فالفضل يرجع للعرب فى بقاء شعلة الثقافة والمدنية مشتعلة ، وفى مساهمتهم بما أضافوه من المعلومات التى زادت من سعادة الناس ورخائهم ، ولم يكن عملهم موقوتا بل كان باقيا .

والآن أتناول مسألة أخرى ، وهى : هل المدنية الحديثة من ناحيتها الصالحة تدين بوجودها الى المسيحية ؟ ولكنى قبل الخوض فى هذا الموضوع أود أن أنبه حضراتكم الى حقيقة تاريخية هامة ، وهى أن المسيحية بدأت حياتها وسط مدنية عظيمة ، مهما قيل إنها كانت مدنية متداعية ، فبدل أن تحييها عجلت سقوطها ثم بقيت ، على حد تعبير جونسون ، ملكة الليل عدة قرون . ولم تظهر البلاد المسيحية علائم الحياة الممدنة إلا بعد أن انتشرت المدنية الاسلامية من أقصى الشرق الى أقصى الغرب . وليس هذا مجال بيان كيفية مساعدة المدنية الاسلامية على نشوء الحضارة الأوربية الحديثة . فإذا كان من حضراتكم من يريد الاطلاع على تلك الناحية فعليه الالتجاء الى كتاب « تطور أوربا العقلى » تأليف دريبر ، فهو يساعد على فهم هذا الموضوع . وإذا حدثتكم عن منهج المسيحية نحو تقدم الحضارة الحديثة فلن أحدثكم عن تلك القصة المروعة بالتفصيل ، لأن كل مطلع على تاريخ العصور الوسطى يعرف عنها ما فيه الكفاية ولكنى سأقفكم على النتائج التى وصل اليها ليكى (Lechey) بعد بحوثه المستفيضة فى هذا الموضوع ، قال :

« كان كل اتجاه فكرى تعده الفلسفة جوهريا فى تقدم الأبحاث ، مو[illegible]

معصية ، كما أن كثيرا من الرذائل الفكرية الفظيعة كان معتبرا من الفضائل ، وظل الحال كذلك حتى القرن السابع عشر . كان الشك فى الآراء التى يلقنها الطفل قبل سن التمييز معصية . وكانت الفضيلة أن يعتقد فيها الانسان اعتقادا راسخا دون سؤال أو تمحيص . كان الاعتراض على تلك الآراء أو ملاحظة العيوب المشتملة عليها معصية . وكانت الفضيلة إخماد أى اعتراض عليها بتهمة صدوره من الشيطان . كان من الإجرام البحث فى أى شىء بحثا حرا بريئا من الأغراض ، ومن الإجرام اتباع ما ترشد اليه العقول المستنيرة ، ومن الإجرام أن يدلى الانسان برأيه أو أن يعترف بكفاية خصوم الآراء السائدة حينذاك . وبكلمة واحدة كان رجال الدين يعتبرون كل ميل الى التخلص من قيود العقائد السائدة وحب التفكير إهانة موجهة الى الله جل وعلا . ولقد نجحوا مدى زمن طويل فى شل حركة العقل الأوربى تقريبا ، وفى إقناع الناس أن البحث الحر الخالى من الأغراض من أحط الرذائل ؛ نجحوا فى ذلك بإبادة كل كتاب يمكن أن يشير مناقشة موضوعه ، وببث روح التصديق الأعمى فى كل فرع من فروع المعرفة ، وباضطهاد المختلفين معهم فى الرأى اضطهادا مروعا .

وأخيرا أنقذت أوربا المؤثرات الفكرية التى أوجدت (النهضة) بفضل أولئك الفلاسفة الذين وضعوا شروطا للبحث ، وأولئك المجددين الذين جرءوا على مناهضة الأفكار العتيقة ، ولم يخفهم استشهاد برونو وفانينى أمام عيونهم . فانتشرت روح الفلسفة ، وإن شئت فسمها روح الحقيقة . وضعفت روح التعصب الفكرى .

وطالما كانت روح التعصب الفكرى سائدة كان الاضطهاد عاما نازلا بالناس بلا رحمة ، مسلما بضرورته . ولما قويت روح الفلسفة اضمحلت عادة الحرمان من رحمة الله ، وضعف الاضطهاد ، وغير طريقه ، فبعد أن كان عملا يجرى فى العلانية أضحى ميلا عاما فقط . ففى عصر من عصور الاضطهاد كانت الخوارج تحرق ، وكانوا يرهقون بالقوانين

الجنائية فى عصر آخر من عصوره . وفى عصر ثالث كانوا يحرمون من المراتب والمكاسب . وفى عصر رابع كانوا ينبذون من المجتمع . وكان كل عصر من تلك العصور مصحوبا بما يناسبه من اضمحلال روح التعصب الفكرى ، وبما يناسبه من ازدياد قوة الحقيقة .

من الواضح أن أحكام ليكى السابقة لا تحاول بأى حال من الأحوال نسبة المدنية الحديثة الى المسيحية بأعلى معانيها . ويمكننا أن نقول إن المدنية الحالية جاءت على الرغم من المسيحية ولم توجد بفضلها . ولكن الحال غير ذلك فيما يتعلق بالحضارة الاسلامية ، فقد انتشرت وانتعشت فى الوقت الذى انتشر فيه الدين الذى أوجدها ، واضمحلت حينما وقف تقدم الدين وسكن .

وهنا نسأل لماذا فقد الاسلام حيويته ونشاطه ؟ والجواب على ذلك قريب : إن الدين يبقى من عصر الى عصر ، ولكن الأمة لا تستطيع أن تظل كذلك . فالأمة كأى كائن من الكائنات الحية ، لها ميلاد ولها شباب ، ثم تموت . أما الدين ، إذا كتب له البقاء ، فينتقل من بلاد الى بلاد لإظهار نفسه . وطالما كان الاسلام ينتقل من مكان الى مكان ظل حيا وظل نشطا : وفى اللحظة التى وقف فيها انتشاره بدأ ضعفه .

وتذكرون حضراتكم أن اعتناق الشعوب الجرمانية الباسلة الدين المسيحى جعل للمسيحية ما لها الآن من مجد وحضارة . فهم الذين احتجوا على المسيحية الأصلية ، وهم الذين أحدثوا الإصلاح فى اتجاه تفكير الناس ، وأوجدوا عناصر التفكير الفلسفى الجرىء والبحث الحر ، وكل الدوافع التى كوّن مجموعها الحضارة الحالية . ألم يكن الآباء الحجاج هم الذين أوجدوا أمريكا الحديثة ؟ على ذلك كان دخول الدين بلادا جديدة من أهم العوامل فى حياة هذا الدين . وقد تنبهت الى هذه الحقيقة المنسية البلاد الاسلامية الغافية ، وعولت على اليقظة والتوسع مرة أخرى . والدليل على ذلك أن المسلمين من الهنود ، على الرغم من كونهم رزحوا تحت نير مزدوج ، ينشئون

الارساليات التبشيرية ويرسلونها الى بلاد الغـرب . فإن فى ذلك ما فيه من قوة العزم والرغبة فى التضحية من أجل هـذا الغرض النبيل . ويسأل المسيحيون أنفسهم : هل فى وسعهم أن يدلوا على مثل هـذه العزيمة بين صفوفهم فيما يتعلق بدينهم ؟ وهـل هم متفائلون فى مستقبل دينهم كتفاؤلنا فى مستقبل ديننا ؟

إن أول ما يبدو للانسان هو قوة العقيدة الاسلامية وتأصلها فى النفوس . وهذه بلا شك ظاهرة جديرة بالنظر . ولقد أصاب كارليل حينما قال فى هذا الموضوع : « إن الدين الاسلامى يجد مكانه فى صميم الأفئدة . وإن العرب يؤمنون بدينهم ، ويعيشون به على عكس المسيحيين الذين لم يتمسكوا بدينهم تمسك المسلمين بدينهم ، منذ أيام المسيحية الأولى . والمسلمون يرددون عبارة (الله أكبر) فيتجدد إيمانهم بالاسلام يوما بعد يوم » . ومهما قيل فى عدالة كارليل ككاتب أو ناقد فإنه لم يعارض رأيه هذا كاتب من الكتاب حتى الذين عرفوا بهاجمتهم للاسلام . ولـكننى لا أقصـد من قولى هـذا أن عيسى كان كاذبا أو أن الدين الذى جاء به ليس دينا حقيقيا . فما أبعد هذا عما أعتقد ؛ فإنى أعتقد مع جميع المسلمين أن عيسى رسول الله ، وأنه لم يأت بما لم يوح به الله . إلا أننى أقول مع ذلك إن الديانة المسيحية وتعاليم الكنيسة المسيحية ، فى نظر المسلمين ، شيئان مختلفان . فليس للمسيحيين من عقيدة إلا فى عيسى الذى خلقته مخيلاتهم . وفى هذا رد المسلمين على السؤال الآتى : « لماذا لا يكون للمسيحية من السلطان على أتباعها مثل ما للاسلام من السلطان على معتنقيه ؟ » . وقد يسأل سائل فيقول : وما هى مساوئ المسيحية على ما هى عليه الآن ، وما هى مزايا الاسلام ؟ والجواب على ذلك أن المسيحية كما هى الآن لا تسد مطالب الدين الصحيح . فالدين الصحيح يجب أن يقدم للناس حلولا معقولة للمشاكل والمعضلات التى تعترض حياتهم . والاسلام وحده يقدم هذه الحلول الى الفرد والى الجماعة على السواء . أما المسيحية فانها فى محاولتها تعريف الشىء تقسمه أقساما ، ولا أكثر من ذلك . وسأسرد على حضراتكم بعض الأمثلة توضيحا لما أقول :

فلنبدأ بموضوع الله :

إذا أردنا تفسير الفوضى فى الخليقة لا بد من إثبات وحدتها، وقد جاء الاسلام بهذا ، قال الله تعالى : «قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد » . ولكن المسيحية بتقسيمها الخالق الى ثلاثة أقسام جعلت من مسألة عويصة مسألة أعوص منها ، فلن يستطيع إنسان أن يقول ، ويداه على صدره : إن نظرية الثالوث معقولة أو مصدقة .

وخذوا مثلا آخر: مسألة المادة والروح اللتين تعدهما المسيحية قوتين متعارضتين ، ولا بد من قتل الأولى لحياة الثانية . إن هذا ، بلا شك ، لا تقبله العقول المنطقية المتفائلة . على أن الأمر على غير ذلك فى الإسلام ، فلا تعارض هناك بين المثل الأعلى وبين الواقع . ولأجل أن يحيا الانسان حياة مثالية ، ليس عليه تطليق الواقع بتاتا ، ولكن عليه مداومة السعى وراء المثل الأعلى حتى يرتفع الواقع الى مستوى المثل الأعلى . وفى عبارة أخرى يعتبر الاسلام المادة روحا، ولكنها روح تعبر عن نفسها فى مجالى الزمان والمكان . قال تعالى :

« ولله ملك السموات والأرض والله على كل شىء قدير » . وقال : « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض » .

لقد قدر نيتشه الفيلسوف الألمانى تلك الحقيقة فى الاسلام فقال : « إذا كان الاسلام يحتقر المسيحية فهو محق ألف مرة ، لأنه اعترف بوجود الانسان » .

لها بقية

أدب العيادة

دخل كثير عزة على عبد العزيز بن مروان وهو مريض فقال له :

لوأن سرورك لايتم إلابأن تسلم وأسقم لدعوت ربى أن يصرف ما بك الى ، ولكن أسأل الله لك أيها الامير العافية ، ولى فى كنفك النعمة .

فضحك عبد العزيز وأمر له بجائزة

الفهرس العام

للسنة السادسة (١٣٥٤ هـ) من مجلة الأزهر

المقالات

الفتـــاوى


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الخطأ والصواب

ص	س	خطأ	صواب
١١	٢٢	واذكروا إذكنتم أعداء	واذكروا نعمة الله عليكم إذكنتم أعداء
٤٧	٢٢	فتمن	فثمن
٥٣	٩	وازدراءه	وازدراده
٥٣	١٠	أبويها	أبواها
١١٩	٢٠	إن اصطناع	أن اصطناع
١٦٤	١٠	فى كبد كل رطبة	فى كل كبد رطبة
١٨٥	٢٠	من النقود من مسارعته	من النقود ، مسارعته
٢٤٨	١٠	سيقت	سبقت
٣٠٢	٧	ثم نظروا	ثم انظروا
٣١٤	٢٠	فتنفذ مشيئة	فتنفذ مشيئته
٣١٨	٤	وأما الذين فى قلوبهم	فأما الذين فى قلوبهم
٣٣٠	٧	ظريفا ماجدا	ظريفا عاقلا ماجدا
٤٢٣	١٠	التى علقت	الذى علق
٤٢٨	١٣	لخطينا	لخطونا
٤٣٣	١٤	شيزار	شيزر
٤٣٣	١٩	حصن حيفا	حصن كيفا
٤٣٥	٩	واصف شاه	وصيف شاه
٤٣٧	٩	ابن الرحيب	ابن الراهب
٤٣٧	١٩	أربلا	إربل
٦٤٩	٩	الصنف	النصف
٧٢٠	٦	وتم نعمته	وليتم نعمته

(القسم الانكليزى)

ص	س	خطأ	صواب
٢٤	٢١	وصومَ رمضانٍ	وصومِ رمضانَ
٣٣	٨	أمرهم من الاعمال	أمرهم أمرهم من الاعمال
٣٥	١٠	تُثبتُ الحبة	تَنبُتُ الحبة
٧١	١٤	فى امرأتك	فى فى امرأتك

p. 150, l. 9 *for* have thrown *read* threw

p. 151, l. 9 *for* ruined *read* desolate

p. 151, ll. 14, 24, 25 *for* spirit *read* soul

p. 151, ll. 3, 2 from bottom *read* - they have been given but a little part of Knowledge

p. 152 *insert* (2) after last word of the hadîth and add footnote (2) :

The Prophet was afraid that recent converts would misunderstand the demolition of the Kaᶜbah, for which they had great veneration, and relapse into unbelief. For this reason he was obliged to give up the course which seemed to him the best, and to refrain from telling them. (See Al-Qastallâni and Ibn Hajar)

p. 153, l. 17 sqq. *read* :

Muᶜâdh was once riding pillion behind the Prophet, (Allâh bless him and give him peace), who said :

p. 154, ll. 12, 13 and also last line of hadîth *read* " They would take advantage of it "

p. 155, l. 5 *for* over - modest *read* falsely modest

p. 155, l. 9 *for* over - modesty *read* false modesty

p. 156, l. 20 *for* mentioned *read* conjectured

p. 156, l. 3 from bottom *for* would have given *read* would give

ERRATA

We much regret to state that the preceding section of the translation of the ḥadîth has appeared with a considerable number of printer's errors and other mistakes for which the translator is not responsible. We must therefore request anyone who wishes to criticise the text to refer to the author of the translation before expressing any criticism. For the future, arrangements have been made which, we trust, will make the recurrence of such errors impossible.

We accordingly content ourselves for the present with calling attention to some of the more important cases :—

P. 124, l. 2 *for* take off and throw *read* throw off

P. 128, l. 3 from bottom « reviewing « indictment

P. 136, note (4) « strewing in « packing

P. 138, note (3) *read* : Either figuratively in the sense of mercy, or literally in the sense of the treasures of Byzantium and Persia, which, as foreseen by the Prophet, would accrue through the victorious wars with those empires.

p. 140, l. 12 *for* prayed *read* performed

p. 141, l. 4 from bottom « transactions « striking bargains

p. 141, l. 2 from bottom « working their property « husbandry

p. 142, l. 3 *after* peace) *insert* -- *with whom I was content*

p. 147, ll. 5, 24 *for* boat *read* ship

p. 147, l. 5 « drew « passed

p. 147 *for* ll. 15-17 *read* : but as a drop in the ocean such as hath been taken up in the beak of this bird.

p. 148, l. 22 « a payment « a fee

p. 149, l. 1 *place* standing *after* questions

p. 149, l. 5 *after* Jarîr *insert* through Mansûr, through Abu Wâ-il

p. 150, l. 4, sqq. *read* :

I saw the Prophet when he was being asked questions

p. 150, ll. 8, 14, 15 *for* sacrificed *read* slaughtered the victim

I was once spending the night in the house of my maternal aunt Maimûnah, when the Prophet (Allâh bless him and give him peace) went to sleep[1] during the early part of the night; and then later in the night he rose and performed a light wudû‘ from an old water-skin that was hanging there (according to ‘Amr the wudû‘ was light and cut short). [2] After that he stood up to pray, so I performed the wudû‘ just as he had done, and then I went and stood at his left ; [3] he made me change sides, placing me on his right. He then prayed to his heart's content,[4] after which he lay down and slept until his breathing became stertorous. Later on, the muezzin came to him and called him to prayer, joining him in it, and the Prophet prayed without performing a fresh wudû‘.

Sufiân said to ‘Amr: " Certain people say that the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) sleepeth in his eyes but not in his heart." ‘Amr replied : " I have heard Ubaid b. ‘Umair say :'The dreams of Prophets are revelations.' " Then he recited: "Verily I have seen in my dream that I must slaughter thee".[5]

«بِتُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ لَيْلَةً فَقَامَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مِنَ اللَّيْلِ ، فَلَمَّا كَانَ فِي بَعْضِ اللَّيْلِ قَامَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَتَوَضَّأَ مِنْ شَنٍّ مُعَلَّقٍ وُضُوءًا خَفِيفًا — يُخَفِّفُهُ عَمْرٌو وَيُقَلِّلُهُ — وَقَامَ يُصَلِّي فَتَوَضَّأْتُ نَحْوًا مِمَّا تَوَضَّأَ ثُمَّ جِئْتُ فَقُمْتُ عَنْ يَسَارِهِ (وَرُبَّمَا قَالَ سُفْيَانُ عَنْ شِمَالِهِ) فَحَوَّلَنِي فَجَعَلَنِي عَنْ يَمِينِهِ ثُمَّ صَلَّى مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ اضْطَجَعَ فَنَامَ حَتَّى نَفَخَ ثُمَّ أَتَاهُ الْمُنَادِي فَآذَنَهُ بِالصَّلَاةِ فَقَامَ مَعَهُ إِلَى الصَّلَاةِ فَصَلَّى وَلَمْ يَتَوَضَّأْ ».

قُلْنَا لِعَمْرٍو إِنَّ نَاسًا يَقُولُونَ : « إِنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم تَنَامُ عَيْنُهُ وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ » قال عَمْرٌو سَمِعْتُ عُبَيْدَ بْنَ عُمَيْرٍ يَقُولُ : رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ » ثُمَّ قَرَأَ « إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ».

1. The variant (نام) for (قام) as suggested by Ibn As-Sakan and supported by Al-Qâdi ‘Iyâd and others is more suitable to the sense. Cf. another reading :
(فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتصف الليل)

2. i.e. performing the ablution only once for each part,—the minimum required for its validity.

3. " Sufiân states that perhaps the word شماله may have been used instead of يساره " This sentence was interpolated in the text by ‘Ali b. Al-Madini.

4. This is the meaning implied by the Arabic idiom ماشاءالله (Whatsoever Allâh willed).

5. Surah 37, v. 102.

had it from Sufiân, who was told it by Az-Zuhri, through Saʿid b. Al-Musayyab, through ʿAbbâd b. Tamîm, through his paternal uncle who complained to the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) of the case of a man who imagined that he had committed an irregularity during his prayer.

حدثنا الزهرى عن سعيد بن المسيب عن عباد بن تميم عن عمه أَنَّهُ شَكَا إلى رسول الله صلي الله عليه وسلم الرَّجلَ الَّذِى يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَجِدُ الشَّىءَ فِى الصَّلَاةِ ،فقال :

The Prophet replied : " Let him not interrupt it[1] so long as he hath not heard any sound or perceived any smell."

«لا يَنْفَتِلْ أَوْ لا يَنْصَرِفْ حَتىَّ يَسْمَعَ صَوْتًا أَوْ يَجِدَ رِيحًا »

CHAPTER 5.

باب التَّخْفِيفِ فِى الْوُضُوءِ:

On the admissibility of alleviating the wudûʿ.

We are informed by ʿAli b. ʿAbdullâh, who had it from Sufiân, through ʿAmr, who was told it by Kuraib, through Ibn ʿAbbâs that :

حدثنا على بن عبد الله قال حدثنا سفيان عن عمرو قال أخبرنى كُرَيبٌ عن ابن عباس :

The Prophet (Allâh bless him and give him peace) once slept (or perhaps Sufiân said : "he lay down") until his breathing became stertorous after which he rose and performed his prayer.

أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم نَامَ حَتىَّ نَفَخَ ثُمَّ صَلَّى - وَرُبَّمَا قال اضْطَجَعَ حَتىَّ نَفَخَ - ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى .

We[2] have been repeatedly informed by Sufiân, through ʿAmr, through Kuraib, through Ibn ʿAbbâs, who said:

ثُمَّ حَدَّثنا بِهِ سُفيانُ مَرَّةً بعدَ مَرَّةٍ عَنْ عَمْرٍو عن كريبٍ عن ابن عباسٍ قال :

---

1. Or- leave it off ; the narrator is uncertain as to which word was used.

2. The narrator here is ʿAli b. Al-Madini, Al-Bukhâri's informant. He means that Sufiân related the hadith more than once, sometimes in a shortened, and sometimes in an extended, form

حدثنا يحيى بن بكير قال حدثنا الليث عن خالد عن سعيد بن أبي هلال عن نعيم المجمر قال :

رَقِيتُ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ عَلَى ظَهْرِ الْمَسْجِدِ فَتَوَضَّأَ فَقَالَ : إِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يقول: « إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ »

the excellence of those from whose brow and limbs a glory shineth in consequence of the wudûۥ. [1]

We are informed by Yahyâ b. Bukair who had it from Al-Laith, through Khâlid, through Saۥîd b. Abu Hilâl, through Nuۥaim Al-Mujmir who said :

I once went up with Abu Hurairah on to the roof of the Mosque[2], and when he had performed his wudûۥ he said:"I have heard the Prophet (Allâh bless him and give him peace) say : 'My people shall be called to the Day of Resurrection[3] with glory shining from their brow and limbs in consequence of the wudûۥ. So let him of you that is able to extend the glory of his brow,[4] do so.' "

CHAPTER 4.

بَابٌ : لَا يَتَوَضَّأُ مِنَ الشَّكِّ حَتَّى يَسْتَيْقِنَ :

On him who need not perform the wudûۥ through doubt until he have made sure.

حدثنا علي قال حدثنا سفيان قال

We are informed by ۥAli who

---

1. The metaphor is of the white spots on a horse's forehead and legs, and refers to the spiritual reward of those who have performed conscientious wudûۥ.

2. At Al-Madinah.

3. Or — shall be named on the Day of Resurrection glorious-browed and shining-limbed.

4. i.e. to the rest of his face. The glory of the limbs is here inferred.

CHAPTER 2.

بابُ . لاَ تُقبَلُ صلاةٌ بغيرِ طُهُورٍ :

Prayer is not accepted *by Allâh* without ritual purification.

We are informed by Ishâq b. Ibrâhim Al-Hanzali, who had it from 'Abdu-r-Razzâq, who was told it by Ma'mar, through Hammâm b. Munabbih that he heard Abu Hurairah say that the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) said :

" Prayer is not accepted from one who hath suffered an accidental impurity, [1] until he have performed a fresh wudû'."

A man of Hadramaut asked Abu Hurairah what this accidental impurity was, and he replied : " Silent or audible breaking of wind. "[2]

حدثنا اسحق بن ابراهيم الحنظلي قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن همام بن منبه أنّهُ سَمِعَ أبا هريرة يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا تُقبلُ صلاةُ مَن أحدث حتى يتوضأ»

قالَ رَجُلٌ مِنْ حَضرَ مَوتَ : مَا الحَدَثُ يا أبا هُرَيرةَ ؟ قال : « فُساءٌ أوْ ضُرَاطٌ » .

CHAPTER 3.

بابُ فضلِ الوُضوءِ وفضلِ الغُرِّ المحجَّلينَ مِنْ آثارِ الوُضُوءِ :

On the merit of the wudû' and

(1) Scil.—during prayer.

(2) Pollution nullifying the validity of prayer is of two degrees—major and minor. The former includes all forms of seminal emission through sexual contact or otherwise, women's courses and child-birth, all of which call for ghusl and wudû'; the latter includes pollution through the excretory organs or bleeding, and(according to the Shâfi'i School) touching the opposite sex—all of which require wudû'.

IN THE NAME OF ALLAH THE ALL-LOVING, THE MOST MERCIFUL.

BOOK IV

OF RITUAL ABLUTION.

CHAPTER 1.

On what hath been expounded on ritual ablution[1] and the word of Allâh (be He exalted): " *O ye that believe*! When ye rise up unto prayer, wash your faces and your hands as far as[2] the elbows, and stroke your heads *with your wet hand* and *wash* your feet as far as the ankles. "[3]

Abu ‘Abdullâh (Al-Bukhâri) adds : " The Prophet (Allâh bless him and give him peace) hath shown that the prescribed duty of wudû‘ is to be performed once for each several part; but he also did it twice and thrice, never exceeding three times.

The doctors of Islâm have disapproved of exaggeration in it, that is,[4] they have been averse from exceeding the action of the Prophet (Allâh bless him and give him peace).

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب الرابع

كتاب الوضوء

باب ما جاء في الوُضُوءِ وقول الله تعالى : « إِذَا قُمْتُمْ إِلى الصلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلى المَرَافِقِ وامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلى الكَعْبَيْنِ »

قَالَ أبو عبد الله : « وَبَيَّنَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم أَنَّ فَرْضَ الوُضُوءِ مرَّةً مَرَّةً ، وتَوَضَّأَ أَيْضاً مَرَّتَيْنِ مرتين وَثَلاثاً ثلاثاً ، وَلَمْ يَزِدْ عَلَى ثَلاثٍ »

وَكَرِهَ أَهْلُ العِلْمِ الإِسْرَافَ فِيهِ وَأَنْ يُجَاوِزُوا فِعْلَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم .

---

1. There are two chief degrees of purification ; the first is called غسل (ghusl) i.e. the washing of the whole body with clean running water ; the second is termed (wudû‘) i.e. the washing of the hands, face, arms and feet in a specified manner as a pre-condition of prayer.

2. Scil.—and including.

3. Surah 5, v. 6.

4. The (و) here is meant to place the following sentence in apposition.

also said : ' The people of Yaman shall start from Yalamlam. ' For my part, (continued Ibn ‹Umar) I have not learned[1] this *last pronouncement* from the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace).

« ويهل أهل اليمن من يلملم »
وكان ابن عمر يقول : لم أفقه هذه من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

CHAPTER 95.

On one who answereth a questioner more fully than he requireth.

باب من أجاب السائل بأكثر مما سأله :

We are informed by Adam, who had it from Ibn Abu Dhi‹b, through Nâfi‹ through Ibn ‹Umar, from the Prophet (Allâh bless him and give him peace) and also through Az-Zuhri, through Sâlim, through Ibn ‹Umar, from the Prophet (Allâh bless him and give him peace) that :

A man once asked him saying : " What should a Muhrim[2] wear ? " He replied : " He shall not wear a shirt, nor a turban, nor drawers, nor a burnous, nor any garment touched by " wars " [3] or saffron. If he cannot find sandals, he may wear boots, but he must have them cut in such a way that they come below the ankle-bones."

حدثنا آدم قال حدثنا ابن أبي ذئب عن نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم ،وعن الزهري عن سالم عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم :

أن رجلا سأله : ما يلبس المحرم؟ فقال: « لا يلبس القميص ولا العمامة ولا السراويل ولا البرنس ولا ثوبا مسه الورس أو الزعفران ، فإن لم يجد النعلين فليلبس الخفين وليقطعهما حتى يكونا تحت الكعبين » .

The end of the Book of Knowledge

انتهى كتاب العلم

[1] Al-Bukhâri in another version of this hadith cited under "Pilgrimage" gives the variant (لم أسمع) for (لم أفقه)

(2) One in a state of ihrâm.

(3) An aromatic plant of Yaman used as a yellow dye and a lotion ; the idea being that the garment allowed to a Muhrim of either sex, must not be dyed or perfumed. The ihrâm garb is intended to symbolise humility, privation and the thought of death.

ance on the subject. He did so, and the Prophet replied: ' This requires ritual ablution.' "

صلى الله عليه وسلم فسأله، فقال: «فيه الوضوء»

CHAPTER 94

بابُ ذِكرِ العِلمِ والفُتيا في المسجد:

On discussing Knowledge and answering questions in the mosque.

We are informed by Qutaibah b. Sa'îd, who had it from Al-Laith b. Sa'îd, who received it from Nâfi' the freedman of 'Abdullâh b. 'Umar b. Al-Khattâb, through 'Abdullâh b. 'Umar that:

A man got up in the mosque and said:" O Apostle of Allâh, from what starting-point dost thou ordain that we should assume the state of the ihrâm?[1] "The Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) replied: " The people of Al-Madînah shall begin their ihrâm from Dhul-Hulaifah; the people of Syria from Al-Juhfah; the people of Najd from Qarn. "

'Abdullâh b. 'Umar adds: " It is asserted that the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace)

حدثنا قتيبة بن سعيد قال حدثنا الليث بن سعد قال حدثنا نافع مولى عبد الله بن عمر بن الخطاب عن عبد الله ابن عمر:

أنَّ رَجلاً قامَ في المَسجدِ فقالَ: يارسولَ اللهِ مِنْ أينَ تأمُرُنا أنْ نُهِلَّ؟ فقالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «يُهِلُّ أهلُ المَدينةِ مِنْ ذي الحُليفةِ وَيُهِلُّ أهلُ الشأمِ من الجُحفةِ وَيُهِلُّ أهلُ نَجدٍ مِنْ قَرْنٍ».

وقالَ ابنُ عُمرَ: وَيزعُمونَ أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال:

(1) اهلال = literally raising the voice in the recitation of the talbiyah (the labbaika formula) on starting on the pilgrimage, combined with which is the ihrâm —a ceremonial state during which the pilgrim is subject to certain prohibitions, and is attired in the appropriate garb.

AL-AZHAR REVIEW

PUBLISHED BY AL-AZHAR UNIVERSITY, Cairo.

ترجمة جامع صحيح البخاري

للأستاذ ابراهيم حسن المرجى

AL-BUKHARI

A COLLECTION OF MUHAMMAD'S AUTHENTIC TRADITIONS

Translated into English

BY

I. H. EL-MOUGY, M.A., M.R.A.S

CHAPTER 93.

بَابُ مَنِ اسْتَحيَا فَأَمَرَ غَيْرَهُ بِالسُّؤَال :

On one who, being overcome by shame, chargeth another to ask a question for him.

حدثنا مسدد قال حدثنا عبدالله ابن داود عن الأعمش عن منذر الثوري عن محمد بن الحنفية عن علي قال :

We are informed by Musaddad who had it from ʿAbdullâh b. Dâwûd, through Al-Aʿmash, through Mundhir Ath-Thawri, through Muhammad b. Al-Hanafiyyah, through ʿAli who said:

كُنْتُ رَجُلاً مَذَّاءً فَأَمَرْتُ الْمِقْدَادَ أَنْ يَسْأَلَ النبيَّ

" I was subject to prostatic secretions, (1) so I charged Al-Miqdâd to ask the Prophet (Allâh bless him and give him peace) *for his ordin-*

(1) المذى = a viscous fluid exuding from the sexual organs as excited by caresses, not amounting to a regular seminal discharge. Such exudation calls for ritual ablution(وضوء), whereas seminal discharge (المنى) requires total immersion (غسل). In the Prophet's words : من المذى الوضوء ومن المنى الغسل

woman perform the ghusl[1] if she hath an erotic dream ?" " Yes ", said the Prophet (Allâh bless him and give him peace) "if she observeth the substance ejaculated. " [2]

I then covered myself, that is to say my face, saying : " O Apostle of Allâh, doth a woman then have such emissions in her dream?" "Yes", replied he, "bless thee ![3] How else could her child resemble her ?"

2. We are informed by Ismâ'il, who had it from Mâlik, through 'Abdullâh b. Dinâr, through 'Abdullâh b. 'Umar that the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) said :

"There is an evergreen tree which is indeed the parable of a Muslim. Tell me which this tree is? " The Faithful mentioned various trees of the desert. It occurred to me (said 'Abdullâh) that it was the palm-tree, but I was prevented by shyness [4] *from saying so* At last they asked the Apostle of Allâh to tell them which it was, and he replied : " It is the palmtree ."

'Abdullâh added that when he told his father what had occurred to him, he replied: " It would have given me greater pleasure for thee to have said it than to possess untold wealth"

Translated by **I. H. El-MOUGY**

وَقَالَتْ « يَا رَسُولَ اللهِ : وَتَحْتَلِمُ الْمَرْأَةُ ؟ » قَالَ : نَعَمْ تَرِبَتْ يَمِينُكِ ، فَبِمَ يُشْبِهُهَا وَلَدُهَا ! »

حدثنا اسماعيل قال حدثني مالك عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر أَنَّ رسول الله صلي الله عليه وسلم قال :

« إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لا يَسْقُطُ وَرَقُهَا وَهِيَ مِثْلُ الْمُسْلِمِ ، حَدِّثُونِي مَا هِيَ » فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَادِيَةِ وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ ، قَالَ عَبْدُ اللهِ : فَاسْتَحْيَيْتُ ، فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ أَخْبِرْنَا بِهَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : « هِيَ النَّخْلَةُ »

قال عبد الله فَحَدَّثْتُ أَبِي بِمَا وَقَعَ فِي نَفْسِي ، فقال : « لأَنْ تَكُونَ قُلْتَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي كَذَا وَكَذَا » .

---

(1) غسل = purification by total immersion, as considered necessary before prayer.

(2) i.e. if she finds a trace of it on her garment upon waking.

(3) تربت يمينك = literally, may thy right hand be humbled in the dust—an idiom current among the Arabs, not intended as a curse, but said playfully.

(4) The reference in this case is nodoubt to a combinadim of shyners and *Modeshy*

قال «لا ، إني أخاف أن يتكلوا»

entire dependence on this alone."[1]

باب الحياء في العلم

CHAPTER 92.

وقال مجاهد «لا يتعلم العلم مستحي ولا مستكبر» وقالت عائشة : «نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين»

On false modesty in acquiring Knowledge; and on the words of Mujâhid: "He shall not acquire Knowledge who is over modest or too proud (to ask)."

And on the words of ʿAisihah: 'How excellent are the women of the Ansâr, for over- modesty hath not prevented them from perfecting themselves in religious knowledge!"

حدثنا محمد بن سلام قال أخبرنا أبو معاوية قال حدثنا هشام عن أبيه عن زينب ابنة أم سلمة عن أم سلمة قالت : جاءت أم سليم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت :

«يا رسول الله إن الله لا يستحيي من الحق ، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت ؟» قال النبي صلى الله عليه وسلم : «إذا رأت الماء» فغطت أم سلمة ، تعني وجهها ،

We are informed by Muhammad b. Salâm, who was told it by Abu Muʿâwiyah, who had it from Hishâm through his father, through Zainab bint Umm Salamah, through her mother, who stated that Umm Sulaim came up to the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) and said:

"O Apostle of Allâh, verily Allâh is not ashamed of the truth. Should a

---

(1) This hadith [illegible] is most important from a doctrinal standpoint. It might appear that Muʿâdh had disobeyed the Prophet in revealing the hadith on his death-bed; but no doubt he considered that it was intended for the elect and not for the multitude. Moreover, by the time of Muʿâdh's death Islâm had become established, and the danger of the misconstruction of the hadith had diminished. The inference of the sufficiency of the mere "Shahâdah" for salvation supports the Murjiʾite position, The key of Sunnite position, however, is in صدقا من قلبه (truly from his heart), since good works are implicit in sincere faith. According to some commentators "immunity from Hell" means "immunty from eternal damnation" in the case of sinful Muslims, who are certain to reach Paradise eventually, whatever their sins.

Prophet said :

" No one testifieth truly from his heart that there is no deity but, Allâh and that Muhammad is His Apostle, but Allâh shall make him immune from Hell-fire, "

" O Apostle of Allâh, " replied Muʿâdh. " Shall I not inform the Faithful of this, that they may rejoice at the glad tidings ? "

" Then, " replied the Prohet. " they would place entire deperdence on this alore. [1]

Muʿâdh transmitted this hadith on his death-bed, thus avoiding the sin of withholding Knowledge. [2]

2. We are informed by Musaddad, who had it from Muʿtamir, who heard it from his father, who heard it from Anas, who stated that it was related to him that the Prophet (Allâh bless him and give him peace) said to Muʿâdh :

"Whoever meeteth[3] Allâh without associating aught with him, shall enter Paradise."

" Shall I convey the glad tidings to the people ? " asked Muʿâdh.

" No, " replied the Prophet, " I fear they would place

قال : يا معاذ ، قال : لبيك
يا رسول الله وسعديك ثلاثا ، قال :
« ما من أحد يشهد أن لا إله
إلا الله وأن محمدا رسول الله صدقا
من قلبه إلا حرمه الله على النار »
قال : يا رسول الله أفلا أخبر
به الناس فيستبشروا ؟
قال : إذا يتكلوا .
وأخبر بها معاذ عند موته تأثما .
حدثنا مسدد قال حدثنا معتمر قال
سمعت أبي قال سمعت أنسا قال ذكر
لي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ :
« من لقي الله لا يشرك به شيئا
دخل الجنة »
قال : « ألا أبشر الناس ؟ »

(1)—and neglect their religious duties.
(2) Cf. Surah 2, VV. 154 & 155 & Surah 3, V. 187.
(3)—either in the hour of death or in the Resurrection.

CHAPTER 91.

بَابُ مَنْ خَصَّ بِالْعِلْمِ قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ كَرَاهِيَةَ أَنْ لاَ يَفْهَمُوا

On him who imparteth Knowledge to certain people to the exclusion of others whom he feareth may misapprehend it ;

وَقَالَ عَلِيٌّ « حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ؟

and on ʿAli's saying : "Speak to people in a way they can understand: do ye wish Allâh and his Apostle to be considered pervesters of the truth?"

(حدثنا عبيد الله بن موسى عن معروف بن خَرَّبوذ عن أبي الطفيل عن علي بذلك)

This Athar[1] was transmitted to us by ʿUbaidullâh b. Mûsa, through Maʿrûf b. Kharrabûdh through Abu-t-Tufail, from ʿAli .)

حدثنا اسحق بن ابراهيم قال حدثنا معاذ بن هشام قال حدثني أبي عن قتادة قال حدثنا أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم وَمُعَاذٌ رَدِيفُهُ عَلَى الرَّحْلِ قال :

1. We are informed by Ishâq b. Ibrâhim, who had it from Muʿâdh b. Hishâm, who received it from his father, through Qatâdah, who was told by Anas b. Mâlik that Muʿâdh was once mounted behind the Prophet (Allâh bless him and give him peace) as he rode. The Prophet (Allâh bless him and give him peace) said:

يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ !

" O Muʿâdh b, Jabal ! "

قال : لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ !

" I am at thy command, O Apostle of Allâh, and gladly obey thee," replied Muʿâdh.

This call and answer were repeated three times. Then the

[1] (ا) A tradition traced back—not to the Prophet—but to a Companion, or to a successor

the reading they followed. [1]

قَالَ الأَعْمَشُ هَكَذَا فِي قِرَاءَتِنَا .

CHAPTER 90.

بَابُ مَنْ تَرَكَ بَعْضَ الاخْتِيَارِ
مَخَافَةَ أَنْ يَقْصُرَ فَهْمُ بعض النَّاسِ عَنْهُ
فَيَقَعُوا فِي أَشَدَّ مِنْهُ :

On him who renounceth a better course for fear that certain people may be too unintelligent to understand it, and thus fall into a worse case.

حدثنا عبيد الله بن موسى عن اسرائيل عن أبي اسحق عن الأسود قال قال لي ابنُ الزبير :

We are informed by ‹Ubaidullâh b. Mûsa, through Isrâ‹îl, through Abu Ishâq, through Al-Aswad, who stated that Ibn Az-Zubair said to him :

كَانَتْ عَائِشَةُ تُسِرُّ إِلَيْكَ كَثِيراً، فَمَا حَدَّثَتْكَ فِي الْكَعْبَةِ ؟ قلت : قَالَتْ لِي : قَالَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « يَا عَائِشَةُ لَوْلاَ قَوْمُكِ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ . (قَالَ ابنُ الزُّبير : بِكُفْرٍ) لَنَقَضْتُ الْكَعْبَةَ فَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ، بَابٌ يَدْخُلُ النَّاسُ و بَابٌ يَخْرُجُونَ » فَفَعَلَهُ ابنُ الزُّبيرِ .

ᶜA‹ishah used to confide many secrets to thee. What did she tell thee about the Kaᶜbah? Al-Aswad replied : " She told me that the Prophet (Allâh bless him and give him peace) said :

" O ᶜA‹ishah, were it not that thy people were recently (in unbelief — adds Az-Zubair), I should have pulled down the Kaᶜbah, and rebuilt it with two doors, one for ingress and one for egress. "

This was subsequently carried out by Ibn Az-Zubair.

---

(1) The Qur'ân has اوتيتم instead of اوتوا here. For is reason the commentators commider these words, not as a quotation from the Qur‹ân, but as a Companion's traditionrl saying (خبر)

We are informed by Qais b. Hafs, who received it from ʿAbdul-Wâhid, who had it from Al-Aʿmash Sulaimân, through Ibrâhim, through ʿAlqamah, through ʿAbdullâh, who said :

عن ابراهيم عن علقمة عن عبدالله قال :

While I was walking with the Prophet (Allâh bless him and give him peace) in the ruined [1] quarter of Al-Madînah, as he was leaning on a stick [2] *which he carried* with him, he passed a group of Jews who said to one another : " Ask him about the spirit ". [3] " No ", said one of them, " do not ask him, lest he give an answer that ye resent." Another said : " We will certainly ask him". Then one of them arose and said : " O Abul-Qâsim, what is the soul ?" The Prophet was silent and I thought that a revelation was coming upon him. I stood still, [4] and when his agony had passed, he uttered these words"They ask thee about the spirit. Say: 'Thespirit pertaineth unto my Lord[5],and they are not given aught of Knowledge but a little."

بَيْنَا أَنَا أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فى خَرِبِ الْمَدِينَةِ وَهُوَ يَتَوَكَّأُ عَلَى عَسِيبٍ مَعَهُ فَمَرَّ بِنَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: « سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ » وَقَالَ بَعْضُهُمْ: « لاَ تَسْأَلُوهُ لاَ يَجِيءُ فِيهِ بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ » فَقَالَ بَعْضُهُمْ « لَنَسْأَلَنَّهُ » فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ فَقَالَ « يَاأَبَا الْقَاسِمِ مَا الرُّوحُ ؟ » فَسَكَتَ فَقُلْتُ إِنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ فَقُمْتُ فَلَمَّا انْجَلَى عَنْهُ قَالَ : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ، وَمَا أُوتُوا مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً »

Al-Aʿmash states that such was

---

(1) Elsewhere خرب is given by Al-Bukhari as حرث , apparently the difference being due to a confusion in the diacritical points.

(2) Made from a palm-branch.

(3) Some commentators suggest the Revelation, others the Angel Gabriel.

(4) Either in order not to disturb the Prophet, or to stand between him and the Jews.

(5) Or--is created at the command of Allâh.

Salamah, through Az-Zuhri, through ʿIsa b. Talhah, through ʿAbdullâh b. ʿAmr, who said :

I saw the Prophet (Allâh bless him and give him peace) being questioned on the occasion of the hurling of the stones [1]. One man said : " O Apostle of Allâh, I have sacripiced before I have thrown the stones. " The Prophet replied : " Throw them *nevertheless*, there is no sin. " Another said : " O Apostle of Allâh, I have had my head shaved before I have sacrificed . " The Prophet replied : " Sacrifice *nevertheless*, there is no sin."

So the Prophet was never questioned as to whether anything should be done sooner or later but he answered : " Do so, there is no sin."

ابن أبي سلمة عن الزهرى عن عيسى بن طلحة عن عبد الله بن عمرو قال :

رَأَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم عِنْدَ الْجَمْرَةِ وَهُوَ يُسْأَلُ فقال رَجُلٌ : يَارَسُولَ اللهِ نَحَرْتُ قَبْلَ أَنْ أَرْمِيَ ، قَالَ : « ارْمِ وَلاَ حَرَجَ » قالَ آخَرُ : يَارَسُولَ الله حَلَقْتُ قَبْلَ أَنْ أَنْحَرَ ، قالَ : « انْحَرْ وَلاَ حَرَجَ » فَمَا سُئِلَ عَنْ شَيْءٍ قُدِّمَ وَلاَ أُخِّرَ إلا قال : افْعَلْ وَلاَ حَرَجَ .

CHAPTER 89.

On *the revelation of* the word of Allâh (be He exalted) : " Ye have been given but a little part of knowledge." [2]

بابُ قَوْلِ اللهِ تَعالَى : « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً » :

حدثنا قيس بن حفص قال حدثنا عبد الواحد قال حدثنا الأعمش سليمان

(1) The definite article ال in الجمرة denotes the particular occasion of the stoning known as جمرة العقبة , Al-ʿAqabah being a height overlooking the valley of Minâ.

(2) Surah 17, V.85

CHAPTER 87.

باب مَنْ سَأَلَ وَهُوَ قَائِمٌ عَالِماً جَالِساً :

On one who, standing, asketh questions of a professor who is seated.

حدثنا عثمان قال أخبرنا جرير عن منصور عن أبي وائل عن أبي موسى قال :

We are informed by ‹Uthmân, who had it from Jarîr, through Abu Musa, who said :

جَاءَ رَجُلٌ إلى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ مَا الْقِتَالُ فِي سَبِيلِ اللهِ ؟ فَإِنَّ أَحَدَنَا يُقَاتِلُ غَضَباً وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً ، فَرَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ (قَالَ وَمَا رَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ إِلاَّ أَنَّهُ كَانَ قَائِماً) فَقَالَ : « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ » .

A man came to the Prophet Allâh bless him and give him peace) and said : " O Apostle of Allâh, what is fighting in the cause of Allâh - for each one of us fighteth either in anger or for honour's sake?." The Prophet then raised his head towards him, (the narrator states that he did so only because the man was standing) and said : " He who fighteth that the word of Allâh may prevail, his fight is in the cause of Allâh (be He magnified and glorified).

CHAPTER 88.

باب السُّؤَالِ وَالْفُتْيَا عِنْدَ رَمْيِ الْجِمَارِ :

On asking for a fatwâ and receiving the reply during the stoning of Satan *in the valley of Minâ.*

حدثنا أبو نعيم قال حدثنا عبد العزيز

We are informed by Abu Nu‹aim, who had it from 'Abdul-‹Aziz b. Abu

forgetfulness. However, they set out again, and beheld a lad who was playing with his mates. Al-Khadir seized him by the crown and tore off his head with his hands.

قال: لا تؤاخذني بما نسيت.
فكانت الأولى من موسى نسياناً، فانطلقا فإذا غلام يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر برأسه من أعلاه فاقتلع رأسه بيده.

"What"! said Moses. "Thou hast slain an innocent soul guiltless of another's blood,"

فقال موسى: أقتلت نفساً زكية بغير نفس!

"Did I not tell thee that thou wouldst not be able to bear with me?" replied Al-Khadir. (Ibn ‹Uyainah adds that this is more asserative)[1]

قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً؟ (قال ابن عيينة: وهذا أوكد)

However, they journeyed on until they came to a village and asked the inhabitants for food, but they refused them hospitality. In the village they found a wall tottering to its fall, so Al-Khadir put it upright (setting it straight by a wave of his hand).

فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما، فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه (قال الخضر بيده فأقامه)

Then Moses said to him: "Hadst thou willed, thou couldst have received a poyment for this."

فقال له موسى: لو شئت لاتخذت عليه أجراً.

"This meaneth a separation between me and thee,"replied Al-Khadir.

قال: هذا فراق بيني وبينك.

The Prophet (Allâh bless him and give him peace) added : "May Allâh have mercy on Moses ! How we should have liked him to have had enough patience so that we could have been told more of their adventures."[2]

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يرحم الله موسى، لوددنا لو صبر حتى يقص علينا من أمرهما!

---

(1) He means the use of لك -thee- which was not used in the first case.

(2) The explanation of Al-Khidr's surprising actions is given in the Qur‹ân, Surah 18, VV, 79 sqq. This hadith has given occasion for the inference that apparently unlawful actions may by justified by the conscience, a view which is generally regarded as heretical. It is claimed that Khadir's actions, however lawless in appearance, were nevertheless in conformity with the divine purpose.

man and I shall not gainsay thee in aught."

At this, having no ship the twain set out walking along the water's edge, when a boat drew near them. They negotiated with the sailors to take them on board. Recognising Al-Khadir, they took them on board without any fare. Suddenly a bird came and perched on the edge of the boat, dipping its beak once or twice into the water. Then Al-Khadir said: "O Moses, my knowledge and thine have diminished[1] from Allâh's Knowledge but as a drop such as hath been taken up in the beak of this bird diminishes the ocean.

It came to pass that Al-Khadir wilfully took hold of one of the ship's planks and tore it out.

"What!" said Moses. "Here are people who have taken us on board without payment, and now thou hast deliberately scuttled their boat to drown all on board!"

"Did I not say that thou wouldst not be able to bear with me?" replied Al-Khadir.

"Reprove me not for my forgetfulness," said Moses.

This was Moses' first act of

صَبْراً يَا مُوسَى ، إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ لا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ لا أَعْلَمُهُ .

قَالَ: سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِراً وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْراً .

فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ لَيْسَ لَهُمَا سَفِينَةٌ فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا ، فَعُرِفَ الْخَضِرُ فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ ؛ فَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ فَنَقَرَ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ فِي الْبَحْرِ ، فَقَالَ الْخَضِرُ: يَا مُوسَى مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلاَّ كَنَقْرَةِ هَذَا الْعُصْفُورِ فِي الْبَحْرِ .

فَعَمَدَ الْخَضِرُ إِلَى لَوْحٍ مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ فَنَزَعَهُ ، فَقَالَ مُوسَى : قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا .

قَالَ : أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ؟

(1) In another reading أخذ is given for نقص ; since Allâh's Knowledge cannot be diminished — نقص being taken approximatively.

fatigue until he went past the place which had been appointed unto him.

His attendant then said to him: "Behold ! When we took shelter by the rock, I forgot about the fish."

"That is what we were seeking," replied Moses.

Thereupon they went back, retracing their footsteps, and when they reached the rock, they beheld a man wrapped in a cloak. [1]

"Peace be upon thee," said Moses.

"Whence did peace come upon thy land ?" answered Al-Khadir.

"I am Moses," replied he.

"Moses, the Prophet of Israel?" asked Al-Khadir.

"Yea, verily!" said Moses. "May I follow thee on condition that thou instruct me out of the guided knowledge that thou hast received?"

"Truly thou wilt not be able to bear with me, O Moses ! I possess Knowledge from that of Allâh which He hath taught me, that thou knowest not ; likewise thou possessest Knowledge which He hath taught thee, that I know not."

Moses answered: "If it be the Will of Allâh thou shalt find in me a patient

وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى مَسًّا مِنَ النَّصَبِ
حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ
فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ: أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا
إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ،
قَالَ مُوسَى: ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي.
فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا، فَلَمَّا
انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ إِذَا رَجُلٌ مُسَجًّى
بِثَوْبٍ (أَوْ قَالَ: تَسَجَّى بِثَوْبِهِ).
فَسَلَّمَ مُوسَى.
فَقَالَ الْخَضِرُ: وَأَنَّى بِأَرْضِكَ
السَّلَامُ؟
فَقَالَ: أَنَا مُوسَى
فَقَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟
قَالَ. نَعَمْ؛ قَالَ: هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى
أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رَشَدًا؟
قَالَ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ

(1) The narrator is doubtful whether the words مسجى بثوب or تسجى بثوبه were used.

"One of My servants who is *now* at the confluence of the two rivers[1] is more learned than thou."

Moses replied : "O Lord, how shall I meet him ?"

Then it was said unto him: "Carry a fish in a basket, and where thou losest it, there shalt thou find him."

So he set out, taking with him his attendant Joshua the son of Nun. They carried a fish in a basket until, when they came to the rock,[2] they laid down their heads upon the rock and fell asleep. The fish slipped out of the basket and found its way to the water. This filled Moses and his attendant with wonder, but they continued their journey for the rest of the day and the *following* night.[3]

At daybreak Moses said to his attendant : "Fetch us our meal, for indeed we have suffered fatigue from this journey of ours."

Now Moses had suffered no

الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ.

قَالَ : يَارَبِّ وَكَيْفَ بِهِ ؟

فَقِيلَ لَهُ: احْمِلْ حُوتاً فِي مِكْتَلٍ فَإِذَا فَقَدْتَهُ فَهُوَ ثَمَّ.

فَانْطَلَقَ وَانْطَلَقَ بِفَتَاهُ يُوشَعَ ابْنِ نُونٍ، وَحَمَلَا حُوتاً فِي مِكْتَلٍ حَتَّى كَانَا عِنْدَ الصَّخْرَةِ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا وَنَامَا، فَانْسَلَّ الْحُوتُ مِنَ الْمِكْتَلِ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً، وَكَانَ لِمُوسَى وَفَتَاهُ عَجَباً، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ لَيْلَتِهِمَا وَيَوْمِهِمَا.

فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ: آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً،

---

(1) مجمع البحرين — This has been variously interpreted, opinion varying between "Seas" and "rivers". Among those who prefer "Seas" some have suggested the junction of the Red Sea and the Indian Ocean, the Mediterranean and the Atlantic, and other places less reasonable. Those who accept two rivers suggest the Blue and White Niles. The Jordan and the Dead Sea are also suggested, to say nothing of the rivers flowing into the Persian Gulf, etc. Of these the view of the two Niles is the most probable, owing to Moses well-known connection with Egypt and Ethiopia, to which country his wife belonged, and which he seems to have visited according to accounts in Rabbinical literature. Other views are that the union of the two Seas is to be taken as figurative, referring either to the Old and New Dispensations, or to the seas of human and divine Knowledge.

(2) i.e. the rock where the expected meeting was to take place.

(3) According to commentators. The day and night are reverses in the text; but as أصبح can only be used of dawn following a night, it has been necessary to make this change.

CHAPTER 86

On the most commendable answer a learned man should give on being asked who is the most learned among men, namely that he should attribute all Knowledge to Allâh.

We are informed by ‘Abdullâh b. Muhammad, who had it from Sufiân, who received it from ‘Amr, who was told it by Sa‘id b. Jubair, who stated

I once said to Ibn ‘Abbâs that Nawf Al-Bikâli alleged that Moses was not the Moses of the Israelites but another Moses. " He lied, the the enemy of Allâh, " [1] replied Ibn ‘Abbâs, " for I was informed by Ubayy b. Ka‘b from the Prophet (Allâh bless him and give him peace) who said :

' Moses the Prophet once rose to preach to the Israelites. He was asked who was the most learned among men, and replied that it was he himself; Allâh then reproved Moses for not ascribing *all* knowledge to Him, giving him this revelation :

بَابُ مَا يُسْتَحَبُّ لِلْعَالِمِ إِذَا سُئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ فَيَكِلُ الْعِلْمَ إِلَى اللهِ :

حدثنا عبد الله بن محمد قال حدثنا سفيان قال حدثنا عمرو قال أخبرني سعيد ابن جبير قال :

قلتُ لابنِ عبّاسٍ إِنَّ نَوْفًا الْبِكَالِيَّ يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَى لَيْسَ بِمُوسَى بَنِي اسرائيلَ إِنَّمَا هُوَ مُوسَى آخَرُ . فَقَالَ : « كَذَبَ عَدُوُّ اللهِ ! حَدَّثَنَا أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ عَنِ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال :

قَامَ مُوسَى النَّبِيُّ خَطِيبًا فِي بَنِي اسرائِيلَ فَسُئِلَ : أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ ؟ فَقَالَ : أَنَا أَعْلَمُ ، فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ

---

(1) This forcible language must not be taken as a personal attack; it is meant merely to stress the error and reprimand the utterer of it.

him peace) two bagfuls [1] *of Hadîth* one of them I have spread abroad ; as for the other, if I did so, I should have this throat of mine cut. "[2]

عليه وسلم وِعَاءَيْنِ ، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَثَثْتُهُ ، وَأَمَّا الآخَرُ فَلَوْ بَثَثْتُهُ قُطِعَ هَذَا الْبُلْعُومُ

CHAPTER 85.

On the attentive silence to be observed in the presence of traditionists .

بَابُ الأَنْصَاتِ لِلْعُلَمَاءِ :

We are informed by Hajjâj, who had it from Suqᶜbah, who received it from ᶜAli b. Mudrik, through Abu Zurᶜah, through Jarir that :

حدثنا حجاج قال حدثنا شعبة قال أخبرني علي بن مُدرِك عن أبي زُرعة عن جرير :

The Prophet (Allâh bless him and give him peace) said to him while on the farewell pilgrimage : " Call the people to silence." He then said :

" Beware of acting like infidels after my death, cutting each other's throats."

أَنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ لَهُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ : « اسْتَنْصِتِ النَّاسَ » فَقَالَ : « لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّاراً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ »

---

(1) The usual meaning of وعاء is a vessel or a container, but as kindred hadiths have the variant جرابين it may be presumed that the meaning here is " bags ". The metaphor is of two kinds of Knowledge, which, it written down, would fill two bags.

(2) The first Category contained hadiths relating to religious rites and morality in general ; the second, hadiths of a mystical nature, foretelling future tribulations, the signs of the Hour—including the trials of the Faithful under Quraishite tyrants, whom Abu Hurairah was able to name. but he feared for his life. Abu Hurairah—as is shown in the following prayer—insinuated personages without naming them :

(أعوذ بالله من رأس الستين وإمارة الصبيان)

" I take refuge in Allâh from the year 60 A.H and the rule of boys." As Abu Hurairah died in 59 A.H. a year before the accession of the boy Khalif, Yazid b. Muᶜâwiyah, it is clear that his prayer was granted.

attached myself to the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) for my daily bread ; and so I witnessed that which they never saw, and committed to memory that which they never heard."

كَانَ يَلْزَمُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم لِشِبَعِ بَطْنِهِ ، وَيَحْضُرُ مَا لَا يَحْضُرُونَ وَيَحْفَظُ مالا يَحْفَظُونَ »

2. We are informed by Ahmad b. Abu Bakr Abu Mus'ab, who had it from Muhammad b. Ibrahim b. Dinar, through Ibn Abu Dhi'b, through Sa'id Al-Maqburi, through Abu Hurairah, who stated that he said :

حدثنا احمد بن أبي بكر أبو مصعب قال حدثنا محمد بن ابراهيم بن دينار عن ابن أبي ذئب عن سعيد المقبرى عن أبي هريرة قال قلت :

" O Apostle of Allâh, I hear from thee many hadîths which I *afterwards* forget. " "Spread out thy gown, " said he. I did so, and then he made as if to scoop with his hands *out of the abundance of Allâh into my gown,* saying:Clasp it *to thy breast*, I did so, and I never forgot anything after that.

يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّى أَسْمَعُ مِنْكَ حَدِيثًا كَثِيرًا أَنْسَاهُ ، قال: « ابْسُطْ رِدَاءَكَ » فَبَسَطْتُهُ قَالَ فَغَرَفَ بِيَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ « ضُمَّهُ » فَضَمَمْتُهُ، فَمَا نَسِيتُ شَيْئًا بَعْدَهُ .

Al-Bukhâri adds that he also had this hadîth from Ibrahim b. Al-Mundhir, who received it from Ibn Abu Fudaik, who gave the variant : " scooped with his hands in it (the gown)"— adding the words "in it."

حدثنا ابراهيم بنُ المُنذِرِ قال حدثنا ابنُ أبي فُدَيْكٍ بهذا، أو قال « غَرَفَ بِيَدِهِ فِيه »

3. We are informed by Ismâ'îl, who had it from his brother, through Ibn Abu Dhi'b, through Sa'îd Al-Maqburi through Abu Hurairah, who said :

حدثنا اسماعيل قال حدثني أخي عن ابن أبي ذئب عن سعيد المقبرى عن أبي هريرة قال :

I have learnt from the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give

حَفِظْتُ مِنْ رسولِ الله صلي الله

CHAPTER 84.

باب حفظ العلم :

On the committal of Knowledge to memory.

حدثنا عبد العزيز بن عبد الله قال حدثني مالك عن ابن شهاب عن الأعرج عن أبي هريرة قال :

1. We are informed by ‹Abdul-‹Aziz b. ‹Abdullâh, who had it from Mâlik, through Ibn Shihâb, through Al-A‹raj, through Abu Hurairah, who stated :

إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ أَكْثَرَ أَبُو هُرَيْرَةَ ، وَلَوْلاَ آيَتَانِ فِي كِتَابِ اللهِ مَا حَدَّثْتُ حَدِيثاً، ثُمَّ يَتْلُو «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى » إِلَى قَوْلِهِ « الرَّحِيمُ »

" People say that Abu Hurairah relateth too many traditions. Nay, were it not for two verses which are in the Book of Allâh, I should not transmit a single hadith." Then Abu Hurairah recited *the verses*: "Verily they that conceal the evident proofs and the Guidance that We have sent down" ..as far as "The Most Merciful ".[1]

إِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمُ الصَّفْقُ بِالأَسْوَاقِ ، وَإِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ الأَنْصَارِ كَانَ يَشْغَلُهُمُ الْعَمَلُ فِي أَمْوَالِهِمْ ، وَإِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ

Abu Hurairah went on to say : "Our brethren of the Muhâjirin were engaged in transactions [2] in the markets, and our brethren of the Ansâr were engaged in working their property,[3] while I, Abu Hurairah

---

(1), Surah 2, Verses 154 & 155: "As to those that conceal the evident proofs and the Guidance that we have sent down, after what We have so clearly shown to men in the Book *of Moses*, these Allâh shall curse, and they that curse shall curse them; But as for those who repent *of concealment* and make amends and propagate *the truth*, unto these will I turn in forgiveness, for I am He that accepteth repentance, the Most Merciful. "

(2) الصفق — Bargains were clinched by clasping hands.

(3) .The Muhâjirin (the Meccan refugees) were engaged in Commerce, the Ansâr (the Medinite supporters) in Agriculture.

عن ابن عباس قال :

بِتُّ فِي بَيْتِ خَالَتِي مَيْمُونَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ زَوْجِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَكَانَ النبي صلى الله عليه وسلم عِنْدَهَا فِي لَيْلَتِهَا فَصَلَّى النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم الْعِشَاءَ ثُمَّ جَاءَ إِلَى مَنْزِلِهِ فَصَلَّى أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ ثُمَّ نَامَ ثُمَّ قَامَ ثُمَّ قَالَ : « نَامَ الْغُلَيِّمُ ؟ » - أَوْ كَلِمَةً تُشْبِهُهَا - ثُمَّ قَامَ فَقُمْتُ عَنْ يَسَارِهِ فَجَعَلَنِي عَنْ يَمِينِهِ ، فَصَلَّى خَمْسَ رَكَعَاتٍ ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ نَامَ حتى سَمِعْتُ غَطِيطَهُ أَوْ خَطِيطَهُ ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ .

received it from Al-Hakam, who heard it from Sa‘îd b. Jubair, through Ibn ‘Abbâs, who stated :

I was once spending the night in the house of my maternal aunt Maymûnah bint Al-Hârith, a wife of the Prophet (Allâh bless him and give him peace), when he was with her on the night set apart for her. Having performed the evening-prayer *in the mosque* he went to his quarters, where he prayed four rak‘as and then went to sleep, Later he rose and said: " Is the dear lad asleep ? " — or words to that effect.[1] Then he stood up to pray, and I stood on his left ; but he placed me on his right. He first prayed five rak‘as and after that two. He then fell into such a deep sleep that I heard him snoring. Last of all he went to the *morning*-prayer.

Translated by **I. H. El-MOUGY**

(1) The lad in question is Ibn Abbâs himself the narrator of the hadith; he is not certain as to the exact expression used. He is supposed to have been sent by his father to report on the way the Prophet spent his nights. This forms the connection between the hadith and its title. (Al-Aini, ibid. p. 180.)

apartments[1] *unto prayer*, for many a woman richly clad in this world shall be naked in the next[2]

CHAPTER 83.

باب السَّمَرِ فِي الْعِلْمِ :

On Knowledge as the subject of social conversation at night.

1. We are informed by Sa'id b. 'Ufair, who had it from Al-Laith, who received it from 'Abd-ur-Rahmân b. Khâlid, through Ibn Shihâb, through Sâlim and Abu Bakr b. Sulaimân b. Abu Hathmah that 'Abdullâh b. 'Umar said :

حدثنا سعيد بن عُفَير قال حدثني الليث قال حدثني عبد الرحمن بن خالد عن ابن شهاب عن سالم وأبي بكر بن سليمان ابن أبي حَثْمة أن عبد الله بن عُمر قال :

Once towards the end of his life the Prophet, (Allâh bless him and give him peace) after he had led the evening-prayer with us and given the final salutation, rose and said:"Know ye what night this is ? Verily a hundred years hence there shall no longer be on the surface of the earth any one of those living now."[3]

صَلَّى بِنَا النبيُّ صلى الله عليه وسلم العِشَاءَ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ ، فَلَمَّا سَلَّمَ قَامَ فقالَ : « أَرَأَيْتَكُمْ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ ؟ فَإِنَّ رَأْسَ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْهَا لَا يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ أَحَدٌ »

2. We are informed by Adam, who had it from Shu'bah, who

حدثنا آدم قال حدثنا شعبة قال حدثنا الحكم قال سمعت سعيد بن جبير

(1) i.e. The Prophet's wives. This hadith implies that prayer must be resorted to, whenever dreams of evil come upon the sleeper. The Prophet was sleeping that night in Umm-Salamah's apartment, and so it fell to her to waken the rest.

(2) i.e. only good works in this world can stand her in good stead in the next.

(3) Or—according to some Commentators " Any one of those present here." The Prophet himself died a month later. His object was to call attention to the shortness of life, and the need for good works.

writing "[1]

CHAPTER 82.

باب العلم والعظة بالليل :

On *the imparting of* Knowledge and preaching during the night.

حدثنا صدقة أخبرنا ابن عيينة عن معمر عن الزهري عن هند عن أم سلمة، وعمرو ويحيى بن سعيد عن الزهري عن هند عن أم سلمة قالت :

We are informed by Sadaqah, who had *it* from Ibn ‹Uyaynah, through Ma‹mar, throngh Az-Zuhri, through Hind, through Umm-Salamah, Amr and Yahyâ b. Sa‹id, through Az-Zuhri, through Hind, through Umm-Salamah, who said :

استيقظ النبيّ صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فقال : « سبحان الله ! ماذا أُنزل الليلة من الفتن وماذا فُتح من الخزائن ! أيقظوا صواحبات الحجر فرُبّ كاسية في الدنيا عارية في الآخرة »

The Prophet (Allâh bless him and give him peace) awoke one night and said : " Allâh be praised ! How many a tribulation hath been sent down[2] this night, but how many a treasure[3] hath been opened ! Awaken the ladies of these

---

(1). As regards writing, it is evident that the prophet was too ill to do more than give directions, as is testified by ‹Umar' s remark . It is thought that he may have intended to commit to writing the names of his successors, or to make some testamentary dispostion, but at the same time he is supposed to have believed that writing would have defeated the principle of اجتهاد (initiative in theological inquiry)or the شورى (democratic consultation); it is also alleged that he had Abu Bakr in mind as indicated by ‹Aa‹isha, s hadith which states that he preferred Abu Bakr . ‹Umar's point of view seems to have been that the words of a dying man might be equivocal and arouse controversy whereas the already extant word of God remained unchallengeable. It is clear that the Prophet did not repudiate this view, as he lived four days longer and raised no objection to it.

(2) i.e. revealed from the Tablet of Divine Decrees to the Prophet in his dream .

(3) Either figuratively in the sense of mercy, or literally in the sense of treasures or, historically of the treasures of Byzantium & Persia as foreseen by the Prophet would eventuate through the victorious wars with those empires.

b. Sulaimân, who had it from Ibn Wahb, who received from Yûnus, through Ibn Shihâb, through ‹Ubaidullâh b. ‹Abdullâh, through Ibn ‹Abbâs, who stated that :

When the agony of the Prophet (Allâh bless him and give him peace) became more intense, he said "Bring me writing-materials that I may have committed to writing for you what will preserve you from going astray hereafter." Then ‹Umar said : "Surely the Prophet (Allâh bless him and give him peace) is overcome by pain; we have the Book of Allâh--it sufficeth for us. " There arose a dissension among the Companions and there followed an uproar. " Rise and leave me ", said the Prophet, " It is not seemly that there should be a quarrel in my presence."

Ibn ‹Abbâs (on relating this to ‹Ubaidullâh) went out saying: "It was a great calamity indeed that any hinderance should have come between the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) and his

ابن وهب قال أخبرني يونس عن
ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله
عن ابن عباس قال :

لَمَّا اشتَدَّ بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم وَجَعُهُ قال: «ائتُونِي بِكِتَابٍ أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَاباً لَاتَضِلُّوا بَعْدَهُ» قال عُمَرُ: «إِنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم غَلَبَهُ الْوَجَعُ وَعِنْدَنَا كِتَابُ اللهِ حَسْبُنَا» فَاخْتَلَفُوا وَكَثُرَ اللَّغَطُ، قالَ: «قُومُوا عَنِّي وَلَا يَنْبَغِي عِنْدِي التَّنَازُعُ» .
فَخَرَجَ ابنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ: «إِنَّ الرَّزِيَّةَ كُلَّ الرَّزِيَّةِ مَا حَالَ بَيْنَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَبَيْنَ كِتَابِهِ»

O Apostle of Allâh' " Write it (1) down for Abu so and so, "(2) replied the Prophet. A Quraishite (3) interrupted : " Make an exception for the idhkhir,(4) O Apostle of Allâh, for our houses and our graves." "Except the idhkhir." said the Prophet (Allâh bless him and give him peace) twice.

3. We are informed by ‘Ali b. ‘Abdullâh, who had it from Sufiân, who received it from ‘Amr who was told it by Wahb b. Munabbih, through his brother (5), who stated that he heard Abu Hurairah say :

"There is none of the Companions of the Prophet (Allâh bless him and give hime peace) that hath retained more of this Hadith than I, unless it be ‘Abdullâh b. ‘Amr,—for he used to write it down, whilst I did not.

Ma‘mar, *as fellow-witness with Wahb b. Munabbih,* confirms this narration through Hammâm, Wahb's brother, through Abu Hurairah.

4. We are informed by Yahyâ

لأَبِي فُلَانٍ » فقال رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ: « إِلَّا الْإِذْخِرَ يَارَسُولَ اللهِ ، فَإِنَّا نَجْعَلُهُ فِي بُيُوتِنَا وَقُبُورِنَا» فقال النبي صلى الله عليه وسلم :« إِلَّا الْإِذْخِرَ ، إِلَّا الْإِذْخِرَ »

حدثنا علي بن عبد الله قال حدثنا سفيان قال حدثنا عمرو قال أخبرني وهب بن منبّه عن أخيه قال سمعت أبا هريرة يقول :

« مَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَحَدٌ أَكْثَرَ حَدِيثًا عَنْهُ مِنِّي إِلَّا مَا كَانَ مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ، فَإِنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ وَلَا أَكْتُبُ »

تَابَعَهُ مَعْمَرٌ عن هَمَّامٍ عن أبي هُرَيْرَةَ

حدثنا يحيى بن سليمان قال حدثني

---

(1) At the end of the hadith this sentence occurs in some of the copies :

(فقيل لأبي عبد الله : أي شيء كتب له ؟ قال كتب له هذه الخطبة)

= Al - Bukhari , on being asked what it was that was written down for him , replied that it was this speech of the prophet .

(2) . His name was Abu shah .

(3) Abbas b. Abdul - Muttalib by name .

(4). الإذخر-a kind of aromatic rush (schoenantum) used for roofing houses and strewing in graves

(5) . i . e . Hammam b . Munabbih .

informed of this, he mounted his camel and addressed them thus :

"Verily Allâh hath kept Makkah inviolate from bloodshed — or *the people of* the Elephant, [1](Al-Bukhâri is uncertain as to which of these two words) and He gave to the Apostle of Allâh and the Faithful power to invade this City. But I say unto you, fighting in Makkah was not made lawful for anyone before me, nor shall it be for anyone after me : nevertheless it was made lawful unto me only for a space in one day . Now, in this very hour it is again inviolate; its thorns shall not be uprooted, nor its trees cut down ; that which is lost in it shall not be picked up except by him that will make it known.[2] Whosoever hath a kinsman murdered shall choose the better of two considerations - either to receive blood-money, or retribution." [3]

A man from Al-Yaman then came up and said : "Write it down for me,

« إِنَّ اللهَ حَبَسَ عن مَكَّةَ القَتْلَ — أو الفيل — (شَكَّ أبو عبد الله) وَسَلَّطَ عليهم رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم وَالمُؤْمِنِينَ ؛ أَلَا وَإِنَّهَا لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ بَعْدِي ، أَلَا وَإِنَّهَا حَلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، أَلَا وَإِنَّهَا سَاعَتِي هَذِهِ حَرَامٌ لَا يُخْتَلَى شَوْكُهَا وَلَا يُعْضَدُ شَجَرُهَا وَلَا تُلْتَقَطُ سَاقِطَتُهَا إِلَّا لِمُنْشِدٍ ، فَمَنْ قُتِلَ فَهُوَ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ : إِمَّا أَنْ يُعْقَلَ وَإِمَّا أَنْ يُقَادَ أَهْلُ القَتِيلِ »

فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ اليَمَنِ فقال : « اكْتُبْ لِي يَا رَسُولَ اللهِ » فقال : « اكْتُبُوا

---

(1) The occasion when Abraha the Abyssinian Viceroy of Al-Yaman marched against Makkah with a large army including one or more elephants, and was miraculously routed by birds dropping stones.

(2) In other places than Makkah the finder may keep the property after advertising it for a year , while in Makkah the finder never has any claim to it , but must advertise it continually—owing to the fact that pilgrims who lose property in it may not return for an indefinite time. Everything within the City shares in its sanctity. (Al—'Aini idid. P. 166).

(3) (قال أبو عبد الله يقال يقاد بالقاف) Al-Bukhâri states in an addendum that the correct reading is يقاد and not يفادى, since the latter is synonymous with يعقل, and would not make sense.

asked ʿAli : " Have ye[1] a written record *of the Hadîth* ?" He answered: " No, none but the Book of Allâh, or the understanding which may be given to any Muslim, [2] or what is contained in this roll." "What is in it ? " asked Abu Juhaifah. " In this roll " replied ʿAli, " there are *the laws of* blood-money, of the liberation of captives, and of the fact that a Muslim shall not be put to death for *the life of* an infidel." [3]

لِعَلِيٍ « هَلْ عِنْدَكُمْ كِتَابٌ ؟» قال لا إِلَّا كِتَابُ اللهِ أَوْ فَهْمٌ أُعْطِيَهُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ أَوْ مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ ؟ » قال قُلْتُ «فَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ ؟» قال: العَقْلُ، وَفَكَاكُ الأَسِيرِ. وَلَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ »

2. We are informed by Abu Nuʿaim Al-Fadl b. Dukain, who had it from Shaibân, through Yahyâ, through Abu Salamah, through Abu Hurairah that the tribe of Khuzâʿah had killed a man of the Bani-Laith *in revenge* for the murder of one of them, in the year of the capture of Makkah. When the Prophet (Allâh bless him and give him peace) was

حدثنا أبو نُعَيم الفضل بن دُكَين قال حدثنا شيبان عن يحيى عن أبي سلمة عن أبي هريرة أَنَّ خُزَاعَةَ قَتَلُوا رَجُلًا مِنْ بَنِي لَيْثٍ عَامَ فَتْحِ مَكَّةَ بِقَتِيلٍ مِنْهُم قَتَلُوهُ ، فَأُخْبِرَ بِذَلِكَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فَرَكِبَ رَاحِلَتَهُ فَخَطَبَ فَقَالَ :

---

(1) Either the Prophet's household, or the second person plural addressed to ʿAli as a form of respect. If the latter, this hadith may be taken to contradict the Shiʿite contention that the Prophet had confided to ʿAli secrets which he withheld from the rest of the Faithful. (Ibn Hajar, Al-Khashab's ed. Vol.1., p. 146, Cairo, 1319 A.H.)

(2) i.e. to deduce inferences not explicit in the Qur'an.

(3) These words لايقتل مسلم بكافر were first said by the Prophet in his oration on the day of the Conquest of Makkah, and were intended to obliterate any blood-feuds that subsisted between his converts and their enemies of the Jâhiliyyah – that is, those who were still infidels at the time of the feud with the future converts. The Prophet's words were:

(الا إن كل دم كان فى الجاهلية فهو موضوع تحت قدمى هاتين ولا يقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد فى عهده)

The case also applies to unbelievers who had made a pact with the Muslims giving them this immunity for its duration, but excluding the hostile infidels who were in a state of war with the Prophet. The Hanafi doctors are agreed that since a Muslim who steals the property of an infidel is subject to the ordinary laws, so is a Muslim guilty of the murder of an infidel. (Al-ʿAini, Vol.11.page 162, Muniriyyah ed., Cairo.)

5. We are informed by Mûsa, who had it from Abu ʿAwânah, through Abu Hasin, through Abu Sâlih, through Abu Hurirah, from the Prophet (Allâh bless him and give him peace), who said :

" Give your children my name but not my surname. (1)

Whosoever hath seen me in a dream, hath seen me in reality, for Satan cannot assume my form. (2)

Whosoever falsely ascribeth sayings unto me intentionally , shall surely take his seat in hell-fire. "

حدثنا موسى قال حدثنا أبو عوانة عن أبي حصين عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« تَسَمَّوْا بِاسْمِي وَلاَ تَكْتَنُوا بِكُنْيَتِي . وَمَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لا يَتَمَثَّلُ فِي صُورَتِي . وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » .

CHAPTER 81

بَابُ كِتَابَةِ الْعِلْمِ :

On the writing down of the Hadith.

1. We are informed by Muhammad b. Salâm, who had it from Wakiʿ, through Sufiân, through Mutarrif, through Ash-Shaʿbi, through Abu Juhaifah, who stated that he

حدثنا محمد بن سلام قال أخبرنا وكيع عن سفيان عن مُطَرِّف عن الشعبي عن أبي جُحَيفة قال قلتُ

(1) The Prophet's name was Muhammad, his agnomen was Abul-Qâsim. The Jews used to mock the Prophet by calling their children " Abul-Qâsim ". Then when they called them, the Prophet might think his own name was being called, when they would reply that they did not mean him. Hence this prohibition in the hadith. (Al-ʿAini, ibid.p.156.)

(2) Muslim doctors of theology deduce from this hadith the doctrine of the validity of revelation in true vision. (Al-ʿAini, idid.)

hadith from the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) such as is narrated by so and so. Az-Zubair replied : " Indeed I have never left the Prophet, but [1] I have heard him say : ' Whoever falsely ascribeth sayings unto me, shall surely take his seat in hell-fire.' "

3. We are informed by Abu Mamar who had it from Abdul-Wârith, through Abdul-Aziz that Anas said :

" What indeed preventeth me from transmitting to you much Hadith is that the Prophet (Allâh bless him and give him peace) said : 'Whoever intentionally attributeth sayings unto me falsely, shall surely take his seat in hell-fire.' "

4. We are informed by Makki b. Ibrâhim, who had it from Yazid b. Abu Ubaid, through Salamah, who said that he heard the Prophet (Allâh bless him and give him peace) say :

"Whosoever ascribeth unto me what I have not said shall surely take his place in hell- fire."

Translated by **I. H. El-MOUGY**

إِنِّي لَا أَسْمَعُكَ تُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم كَمَا يُحَدِّثُ فُلَانٌ وَفُلَانٌ. قال: أَمَا إِنِّي لَمْ أُفَارِقْهُ وَلَكِنْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: « مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ ».

حدثنا أبو مَعْمر قال حدثنا عبد الوارث عن عبد العزيز قال أنس :

إِنَّهُ لَيَمْنَعُنِي أَنْ أُحَدِّثَكُمْ حَدِيثًا كَثِيرًا أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قال: « مَنْ تَعَمَّدَ عَلَيَّ كَذِبًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ ».

حدثنا مكي بن ابراهيم قال حدثنا يزيد بن أبي عبيد عن سلمة قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: « مَنْ يَقُلْ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ ».

---

(1) . i . e . Although he never left the prophet' s side, he is afraid of repeating any utterance inaccurately.

hold sacred in this month. Behold! Let him that is present transmit it to him that is absent. (Here Muhammad Ibn Sirin exclaimed: 'The words of the Apostle of Allâh — Allâh bless him and give him peace — have come true; this *transmission of the Hadîth* hath come to pass!') *O ye people*! Have I delivered my message? Have I delivered my message?"

عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا ، أَلاَ لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ مِنْكُمُ الْغَائِبَ (وكان محمد يقول : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم : كان ذلك) أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ ؟ مَرَّتَيْنِ » .

CHAPTER 80.

بابُ إِثْمِ مَنْ كَذَبَ عَلَى النبيِّ صلى الله عليه وسلم :

On the sin of him who falsely ascribeth sayings to the Prophet (Allâh bless him and give him peace)

We are informed by ʿAly b. Al-Jaʿd, who had it from Shuʿbah, who received it from Mansur, who heard it from Ribʿi b. Hirâsh, who heard ʿAli say that:

حدثنا علي بن الجعد قال أخبرنا شعبة قال أخبرني منصور قال سمعت رِبعيّ بن حِراشٍ يقول سمعت عليا يقول:

The Prophet (Allâh bless him and give him peace) said: "Ascribe not sayings unto me falsely, for verily he who doth so shall enter hell-fire."

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : «لاَ تَكْذِبُوا عَلَيَّ فَإِنَّهُ مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَلِجِ النَّارَ».

We are informed by Abu-l-Walid who had it from Shubah, through Jâmi b. Shaddâd, through Amir b. Abdullâh b. Az-Zubair, through his father, who stated that he *once* said to his father:

I never hear thee transmit any

حدثنا أبو الوليد قال حدثنا شعبة عن جامع بن شداد عن عامر بن عبد الله ابن الزبير عن أبيه قال قلت للزبير:

and hath not permitted it to you. Moreover He hath only permitted it to him[1] for a portion of time in a day, after which its inviolability hath been restored to it to day as it was yesterday. Let him that is present communicate *this* to him that is absent.

On Ibn Shuraih's being asked what ‹Amr's reply was, he said: "‹Amr replied: 'I understand the meaning *of this hadîth* better than thou, O Abu Shuraih; Makkah can never be the refuge of a rebel, nor the sanctuary of a murderer or a thief.' "[2]

2. We are informed by ‹Abdullâh b. ‹Abdul-Wahhâb, who received it from Hammâd, through Ayyûb, through Muhammad, through Ibn Bakrah, through Abu Bakrah, who, - *relating a hadîth in which* the Prophet (Allâh bless him and give him peace) was mentioned - quoted *from it*: " So your blood and your property (Muhammad *Ibn Sirîn* added that he thought Ibn Abu Bakrh said: ' And your honour') must be held as sacred amongst you as this day which ye

عليه وسلم فيها فقولوا إنّ الله قد أذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالأَمْسِ، وَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ »

فَقِيلَ لأَبِي شُرَيْحٍ : مَا قَالَ عَمْرٌو ؟ قال : أَنَا أَعْلَمُ مِنْكَ يَا أَبَا شُرَيْحٍ : لاَ تُعِيذُ عَاصِيًا وَلاَ فَارًّا بِدَمٍ وَلاَ فَارًّا بِخَرْبَةٍ .

حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب قال حدثنا حَمَّادٌ عَنْ أَيُّوبَ عَنْ مُحَمَّدٍ عن ابن أبي بكرة عن أبي بكرة : ذَكَرَ النبي صلى الله عليه وسلم قَالَ : « فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ (قال محمد وَأَحْسِبُهُ قال وَأَعْرَاضَكُمْ)

---

(1) لي is used here instead of له to stress the Prophet's specific privilege.

(2) Although ‹Amr apparently agreed with and extended the moral of the hadith, he in reality evaded the point which was concerned with his violation of the Sanctuary by war-like operations. He further showed temerity in elaborating a hadith transmitted by Abu Shuraih directly from the Praphet.

CHAPTER 79.

Let him that is present impart the Knowledge to him that is absent—transmitted by Ibn ʿAbbâs, from the Prophet (Allâh bless him and give him peace).

1. We are informed by ʿAbdullâh b. Yûsuf, who had it from Al-Laith, who received it from Saʿid, through Abu Shuraih, who said to ʿAmr b. Saʿid when he was sending troops to Makkah :

Allow me, O Amîr, to relate to thee an utterance made by the Prophet (Allâh bless him and give him peace) the day after the Conquest *of Makkah*, which my ears heard and my heart pondered upon while my eyes saw *the Prophet* as he was speaking it. He thanked Allâh and praised Him, and then said : " Verily Makkah hath been sanctified by Allâh and not by men ; so it is not lawful for any man who believeth in Allâh and the Last Day to shed blood in it, nor to fell a tree in it. If any one giveth himself permission to do this, owing to the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) having fought in it, then say: ʿSurely Allâh hath permitted it to His Apostle

بابٌ : لِيُبَلِّغِ الْعِلْمَ الشَّاهِدُ الغَائِبَ :

قَالَهُ ابنُ عبَّاسٍ عن النبي صلى الله عليه وسلم

حدثنا عبد الله بن يوسف قال حدثنى الليث قال حدثنى سعيد عن أبى شريح أنه قال لعمرو بن سعيد وَهُوَ يَبْعَثُ الْبُعُوثَ إِلَى مَكَّةَ :

ائذَنْ لِي أَيُّهَا الأميرُ أُحَدِّثْكَ قَوْلاً قَامَ بِهِ النبيُّ صلى الله عليه وسلم الْغَدَ مِنْ يَوْمِ الْفَتْحِ ، سَمِعَتْهُ أُذُنَايَ وَوَعَاهُ قَلْبِي وَأَبْصَرَتْهُ عَيْنَايَ حِينَ تَكَلَّمَ بِهِ : حَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : «إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللهُ وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ ، فَلَا يَحِلُّ لامْرِىءٍ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا وَلَا يَعْضِدَ بِهَا شَجَرَةً ، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ لِقِتَالِ رَسُولِ اللهِ صلى الله

CHAPTER 78.

On him who heareth a thing which he hath not understood and so discusseth it *with his teacher* until he hath understood it.

We are informed by Sa‘id b. Abu Mariam, who received it from Nâfi ‘ b. ‘Umar, who had it from Ibn Abu Mulaik'ah that :

‘A‘ishah, the wife of the Prophet (Allâh bless him and give him peace) never heard anything that she did not understand but she discussed it until she did ; and that the Prophet (Allâh bless him aud give him peace) said: "Whosoever is called to account, shall suffer torture. "[1] ‘A‘ishah said : " I then asked whether Allâh (be He exalted) had not said :'His reckoning shall be made light.' "[2] " This, " replied the Prophet,'is only referring to the reviewing *on the Day of Judgment*[3] but he whose reckoning is examined' closely shall perish."

باب مَنْ سَمِعَ شَيْئًا فَرَاجَعَهُ حَتَّى يَعْرِفَهُ :

حدثنا سعيد بن أبي مريم قال أخبرنا نافع بن عمر قال حدثني ابن أبي مُلَيكة أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم كَانَتْ لَا تَسْمَعُ شَيْئًا لَا تَعْرِفُهُ إِلَّا رَاجَعَتْ فِيهِ حَتَّى تَعْرِفَهُ، وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى الله عليه وسلم قال: «مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ» قَالَتْ عَائِشَةُ فَقُلْتُ: أَوَ لَيْسَ يَقُولُ اللهُ تعالى: «فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا»؟ قَالَتْ فَقَالَ: «إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرْضُ، وَلَكِنْ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَهْلِكْ».

---

(1) The mere fact of being called to account on the Day of Judgment and brought to shame is a torture in itself .

(2) Surah 84, Verse 8.

(3) العرض = (a) the placing on the Balance on Judgment Day (Ibn Hajar) or (b) the exposure of good and bad deeds or (c) as handed down by ‘A‘ishah—the indulgence after indictment (Al-‘Aini).

لنا يوماً من نفسك » فوعدهن يوماً لقيهن فيه. فوعظهن وأمرهن. فكان فيما قال لهن: « ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجاباً من النار » فقالت امرأة: « واثنين ؟ » فقال: « واثنين »

choose." He appointed a day for them, on which he went to meet them and gave them an exhortation, enjoining upon them certain commandments. Among the things he told them was: "No one among you shall be bereaved of three children but shall have a screen placed between her and Hell-fire." "And if there be only two?" asked a woman. "Even if they be only two", replied the Prophet.

حدثنا محمد بن بشار قال حدثنا غندر قال حدثنا شعبة عن عبد الرحمن بن الأصبهانى عن ذكوان عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم بهذا، وعن عبد الرحمن بن الأصبهانى قال سمعت أبا حازم عن أبى هريرة قال: « ثلاثة لم يبلغوا الحنث ».

Al-Bukhâri states that this Hadith was related to him by Muhammad b. Bashshâr, who had it from Ghundra, who received it from Shu'bah, through Abdur-Rahmân b. Al-Asbahâni, through Dhakwân, through Abu Sa'id Al-Khudri, from the Prophet (Allâh bless him and give him peace); [1] and also through Abdur-Rahmân b. Al-Asbahâni, who heard it from Abu Hâzim, through Abu Hurairah, who said: "*Bereaved of* three children who have not attained the age of discretion." [2]

---

(1) This was added (a) to clear up the obscurity on the identity of Al-Asbahâni and (b) to add the remark transmitted through Abu Hurairah on the presumptive age of the children,- the earlier years of childhood especially endearing the child to its mother. The purpose of the hadith would appear to be to fortify mothers against the calamity of bereavement, and so to discourage the pagan customs of the excessive expression of grief. (See Al-'Aini, Muniriah ed., Cairo, Vol. II, P 135).

(2) الحنث properly "sin"-i.e. children dying before the age of responsibility, when sin can be imputed to them, are sinless and have Paradise as their natural destiny, besides being a screen against hell-fire for their parents. 'idid'

b. Al As, who stated that he heard the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) say :

Allâh shall not do away with Knowledge by snatching it away from men ; but He will do away with it by taking unto Him the learned, until when He hath not left one, men shall take unto themselves ignorant leaders who, on being questioned, shall give opinions without Knowledge, going astray themselves and leading others astray.

Al-Firabri stated that he had it from Abbâs who received it from Qutaibah, who was told it by Jarir, through Hishâm to the same effect.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعاً يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِماً اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُسًا جُهَّالاً فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»

قال الفِرَبْرِى حدثنا عباس قال حدثنا قُتَيْبَةُ حدثنا جَرِيرٌ عن هِشامٍ نَحْوَهُ.

CHAPTER 77.

باب هَلْ يُجْعَلُ لِلنِّسَاءِ يَوْمٌ عَلَى حِدَةٍ فِي الْعِلْمِ؟

Should a special day be set apart for the instruction of woman?

We are informed by Adam, who had it from Shubah, who received it from Ibn Al-Asbahâni, who heard it from Abu Sâlih Dhakwân, through Abu Saîd Al-Khudri who said :

The women said to the Prophet (Allâh bless him and give him peace) " The men have had the advantage over us in regard to thee ; so set aside for us a day that thou wilt

حدثنا آدم قال حدثنا شعبة قال حدثني ابن الأصبهاني قال سمعت أبا صالح ذكوان يُحَدِّثُ عن أبي سعيد الخُدْرِي قال:

قَالَتِ النِّسَاءُ للنبيّ صلى الله عليه وسلم: «غَلَبَنَا عَلَيْكَ الرِّجَالُ فَاجْعَلْ

CHAPTER 76.

On how Knowledge shall pass away ;

And on ‹Umar b. ‹Abdul-‹Aziz having written to Abu Bakr b. Hazm: " See thou what sayings of the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) are extant, and write them down ; for I have been dreading the disappearance of Knowledge and the passing of the learned. Do not accept any but sayings of the Prophet (Allâh bless him and give him peace) . Let the Knowledge *of the Hadîth* be diffused , and let meetings be held so that he that is ignorant *of it* may be instructed ; for verily Knowledge shall not perish until it is kept secret. "

Al-Bukhâri states that this,— namely the utterance of ‹Umar b. ‹Abdul-‹Aziz as far as the words "the passing of the learned "—was related to him by Al-Alâ‹ b. Abdul-Jabbâr, who had it from ‹Abdul-Azîz b. Muslim, through Abdullâh b. Dinâr.

We are informed by Ismâ‹il b Abu Uwais, who had it from Mâlik through Hishâm b. ‹Urwah, through his father, through ‹Abdullâh b. Amr

باب كَيْفَ يُقْبَضُ الْعِلْمُ، وَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ عبد العزيز الى أبى بكر بن حزم :

«انظُرْ مَا كَانَ مِنْ حَدِيث رسول الله صلى الله عليه وسلم فَاكْتُبْهُ، فَإِنِّي خِفْتُ دُرُوسَ الْعِلْمِ وَذَهَابَ الْعُلَمَاءِ، وَلَا تَقْبَلْ إِلَّا حَدِيثَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، وَلْتُفْشُوا الْعِلْمَ وَلْتَجْلِسُوا حَتَّى يُعَلَّمَ مَنْ لَا يَعْلَمُ فَإِنَّ الْعِلْمَ لَا يَهْلِكُ حَتَّى يَكُونَ سِرًّا»

قال أبو عبد الله حدثنا العلاء بن عبد الجبار قال حدثنا عبد العزيز بن مسلم عن عبد الله بن دينار بذلك، يَعْنِي حديث عمر بن عبد العزيز الى قوله: ذهاب العُلَمَاءِ.

حدثنا إسماعيل بن أبى أويس قال حدثنى مالك عن هشام بن عروة عن أبيه

They accordingly proceeded one and all to take off and to throw their ear-rings and rings, which Bilâl collected in a fold of his garment .

Ismâ‹îl stated that he had it through Ayyûb, through ‹Atâ‹, and through Ibn ‹Abbâs that the latter said: "I testify of the Prophet (Allâh bless him and give him peace)[1]"

اقْرُطَ وَالْخَاتَمَ وَبِلَالٌ يَأْخُذُ فِي طَرَفِ ثَوْبِهِ .

وَقَالَ إِسْمَاعِيلُ عَنْ أَيُّوبَ عَنْ عَطَاءٍ وَقَالَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَشْهَدُ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم .

CHAPTER 75.

On the zeal shown in the acquisition of the Hadîth .

We are informed by ‹Abdul-Azîz b. ‹Abdullâh, who had it from Sulaimân, through ‹Amr b. Abu ‹Amr through Sa‹îd b. Abu Sa‹îd Al-Maqburi, through Abu Hurairah who stated that the question was once asked :[2]

" O Apostle of Allâh ! Who shall be the most blessed among men through thy intercession on the Day of Resurrection ? " " Indeed I have thought, O Abu Hurairah, " replied the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace), " that no one would question me on this hadith before thee , for I have observed thy zeal for the Hadith. The most blessed of men through my intercession on the Day of Resurrection shall be he who hath said truly from his heart (or his soul):'There is no deity but Allâh'."

Translated by I. H. El-MOUGY

بَابُ الْحِرْصِ عَلَى الْحَدِيثِ :

حدثنا عبد العزيز بن عبد الله قال حدثني سليمانُ عن عمرو بن أبي عمرو عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة أنه قال: قيل :

يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلُنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ (أَوْ نَفْسِهِ) » .

(1) This is a gloss indicating that the hadith is معلق (disconnected) at this point, since Ismâil died the year Al-Bukhâri was born, and so cannot have come into contact with him .

2. By Abu Hurairah himself.

ʿAmir adds: "We give thee this *saying* without desire for reward whereas for even less important matters journeys have been undertaken to Madinah."[1]

ثُمَّ قَالَ عَامِرٌ: «أَعْطَيْنَاكَهَا بِغَيْرِ شَيْءٍ، قَدْ كَانَ يُرْكَبُ فِيمَا دُونَهَا إِلَى الْمَدِينَةِ».

CHAPTER 74.

بَابُ عِظَةِ الإِمَامِ النِّسَاءَ وَتَعْلِيمِهِنَّ:

On the exhortation given by the imâm to woman and his instruction of them.

We are informed by Sulaimân b. Harb who had it from Shuʿbah, through Ayyub, who heard it from ʿAtâʾ, who heard it from Ibn ʿAbbâs, who said:

I testify of the Prophet (Allâh bless him and give him peace) — or, ʿAtâʾ stated that he testified according to Ibn ʿAbbâs — that the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) went out *from the men's ranks* accompanied by Bilâl; and as it occurred to him that he had not made his voice heard by the women, he gave them an exhortation and commanded them to give alms.[2]

حدثنا سليمان بن حرب قال حدثنا شعبة عن أيوب قال سمعت عطاء قال سمعت ابن عباس قال:

أَشْهَدُ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ـ أَوْ قَالَ عَطَاءٌ: أَشْهَدُ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ ـ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم خَرَجَ وَمَعَهُ بِلَالٌ، فَظَنَّ أَنَّهُ لَمْ يُسْمِعِ النِّسَاءَ فَوَعَظَهُنَّ وَأَمَرَهُنَّ بِالصَّدَقَةِ؛ فَجَعَلَتِ الْمَرْأَةُ تُلْقِي

---

(1) In the early days of Islâm journeys were made to Madinah to obtain exact information on points of ritual and practice ; in later times after the expansion of Islam, other Capitals gained equal rank with Madinah as sources of authority. Here Ash-Shaʿbi (ʿAmir) is answering an inquirer from Khurasân on the point of a man's relations with his female slave.

(2) الصدقة = both legal and voluntary alms.

CHAPTER 73

On instruction given by a man to his female slave and his household.

We are informed by Muhammad b. Sallâm, who had it from Al-Muhâribi, who was told it by Sâlih b. Hayyân, who stated that ‘Amir Ash-Sha‘bi received it from Abu Burdah, through his father who stated that the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) said:

Three sorts of men have double reward — a man from among the people of the Book who hath believed in his own Prophet and also in Muhammad (Allâh bless him and give him peace) ; the unemancipated slave who fulfilleth his duty to Allâh and to his masters; and *lastly* a man who, having a female slave in his house, educateth her with kindness in good morals, and likewise giveth her religious instruction, and then freeth her and marrieth her, — he also[1] shall have a double reward.

باب تَعْلِيمِ الرَّجُلِ أَمَتَهُ وَأَهْلَهُ:

حدثنا محمد ـ هو ابن سلام ـ حدثنا المحاربي قال حدثنا صالح بن حيان قال قال عامر الشعبي حدثني أبو بردة عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«ثَلَاثَةٌ لَهُمْ أَجْرَانِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وَالْعَبْدُ الْمَمْلُوكُ إِذَا أَدَّى حَقَّ اللهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ، وَرَجُلٌ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَةٌ فَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا وَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا فَتَزَوَّجَهَا، فَلَهُ أَجْرَانِ».

---

1. Or according to Al-Karmâni the three categories are probably meant, the words being repeated owing to the length of the sentence. This is also explained as emphasising the fact that, although the *third* fulfils a fourfold duty, he has no more than the twofold reward; for, if the female slave is a member of his household, her moral education and religious instruction are no more than an ordinary obligation. (See Al-‘Aini, Vol. II, P. 119).

Prophet (Allâh bless him and give him peace) that:

Each time the Prophet made a pronouncement he repeated it thrice so that it might be well understood, and whenever he went to anyone's house[1] and greeted him, he used to repeat the greeting thrice.

أَنَّهُ كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلَاثًا حَتَّى تُفْهَمَ عَنْهُ، وَإِذَا أَتَى عَلَى قَوْمٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ ثَلَاثًا.

3. We are informed by Musaddad, who had it from Abu ʿAwânah, through Abu Bishr, through Yûsuf b. Mâlik, through ʿAbdullah b. ʿAmr, who said :

حدثنا مسدَّد قال حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن يوسف بن ماهك عن عبد الله بن عمرو قال:

The Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) fell behind while we were on a journey together. He then caught us up when we were taken unawares by *the hour* of prayer – the afternoon prayer[2] – as we were performing our ritual ablution. We therefore had only begun to wipe our feet.[3] At this *the prophet* called out at the top of his voice: "Woe unto your heels, for they will bring you into danger of hell-fire" This he said two or three times.

تَخَلَّفَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في سفرٍ سافرْناهُ فأدْرَكَنَا وقدْ أرْهقَتْنَا الصَّلَاةُ صلاةُ العَصْرِ ونحنُ نتوضَّأ، فجعلْنَا نَمْسَحُ على أرْجُلِنَا، فنادَى بأعلى صَوْتِه «وَيْلٌ لِلأعْقَابِ مِنَ النَّارِ» مرَّتَيْنِ أوْ ثَلَاثًا.

---

(1) In the case of calling at a house (اتى على), the threefold greeting implies (a) asking permission to enter, (b) the salutation on entering and (c) the leave-taking. Another less acceptable interpretation is that if the three greetings made outside the house receive no response, the speaker departs. In the case of taking (اتى على) to mean passing anyone. the threefold greeting is made in case the first greetings are not heard. (See Al-ʿAini, Muniriah ed., Cairo, Vol. II, P.117).

2. The reference is, not to the time of the beginning of the afternoon prayer (about 3. p. m.), but to its conclusion (about 6 p. m.), when the period of the evening prayer begins.

3. According to Muslim rules of ritual ablution, the feet must be washed thoroughly with water three times before prayers, as well as the other members.

thrice in order to be *clearly* understood,

And on the Prophet's words : " And behold ! [1] false witness, " which he kept repeating ; [2]

And on the statement of Ibn ‹Umar that the Prophet (Allâh bless him and give him peace) said thrice: "Have I conveyed my message ?" [3]

1. We are informed by ‹Abdah, who had it from ‹Abdu-s-Samad, who received it from ‹Abdullâh b. Al-Muthannâ, who was told it by Thumâmah b. ‹Abdullâh, through Anas, from the Prophet (Allâh bless him and give him peace) that :

Each time *the prophet* gave a greeting, he used to repeat it thrice, and whenever he made a pronouncement, he repeated it thrice.

2. We are informed by ‹Abdah b. ‹Abdullâh who had it from ‹Abdu-s-Samad, who was told it by

‹Abdullâh b. Al-Muthannâ, who received it from Thumâmah b. Abdullâh, through Anas, from the

لِيُفْهَمَ عَنْهُ ، فَقَالَ : « أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ » فَما زال يُكَرِّرُها ،

وَقال ابنُ عُمَرَ : قال النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : « هَلْ بَلَّغْتُ » ثلاثاً :

حدثنا عبدةُ قال حدثنا عبد الصمد قال حدثنا عبد الله بن المُثَنّى قال حدثنا ثُمَامَةُ بن عبد الله عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم :

أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَلَّمَ سَلَّمَ ثلاثاً ، وَإِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلاثاً .

حدثنا عبدةُ بن عبد الله حدثنا عبد الصمد قال حدثنا عبد الله بن المثنى قال حدثنا ثمامةُ بن عبد الله عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم :

---

(1) ألا — Here the expression is asseverative as explained by Al-‹Aini, Muniriah ed.Cairo, Vol. II, P.115.

(2) The complete hadith runs :

ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ ثلاثا. قالوا بلى يارسول الله . قال الاشراك بالله وعقوق الوالدين ـ وجلس وكان متكئا ـ فقال ألا وقول الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت .

(3) These words are near the conclusion of the Prophet's sermon in his Farewell Pilgrimage .

CHAPTER 71.

On him who kneels (in respect) before the imâm or the traditionist.

We are informed by Abu-l-Yamân who had it from Shuʿaib, through Az-Zuhri, who received it from Anas b. Mâlik that :

As the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) was going out of his house, ʿAbdullâh b. Hudhâfah arose and said : " Who is my father ? " "Thy father" replied the Prophet, " is Hudhâfah ". Then when the Prophet was importuned, he said : "Ask on ! ". Thereupon ʿUmar fell on his knees saying : " We are well-satisfied that Allâh is our Lord, that Islâm is our faith, and that Muhammad (Allâh bless him and give him peace) is our Prophet. " After that the Prophet held his peace . [1]

بابُ مَنْ بَرَكَ عَلَى رُكْبَتَيْهِ عِنْدَ الإِمَامِ أَوِ الْمُحَدِّث :

حدثنا أبو اليمان قال أخبرنا شعيب عن الزهري قال أخبرني أنس بن مالك : أنَّ رَسول الله صلى الله عليه وسلم خَرَجَ فقَامَ عبدُ الله بنُ حذَافَةَ فقالَ : مَنْ أَبِي ؟ فقالَ : « أَبُوكَ حُذَافَةُ » ثُمَّ أَكْثَرَ أَنْ يَقُولَ : « سَلُونِي ! » فبَرَكَ عُمَرُ عَلَى رُكْبَتَيْهِ فقال: « رَضِينَا بِاللهِ رَبًّا وَبِالإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلم نَبِيًّا » فَسَكَتَ .

CHAPTER 72.

On him that repeateth a hadith[2]

بَابُ مَنْ أَعَادَ الْحَدِيثَ ثَلَاثًا

---

(1) or -- more appropriately the variant سكن - was appeased .
(2) i.e , a religious pronouncement

said the Prophet, " it is thine or thy brother's or the wolf's. "

لِأَخِيكَ أَوْ لِلذِّئْبِ » .

3. We are informed by Muhammad b. Al-ʿAlâʾ, who had it from Abu Usâmah, through Buraid, through Abu Burdah, through Abu Mûsa, who said that :

حدثنا محمد بن العلاء قال حدثنا أبو أسامة عن بُرَيْد عن أبي بُرْدَةَ عن أبي موسى قال :

The Prophet was being questioned on certain things *in a way* which offended him, and when they became persistent, he became angry and said to the people : " Question me on what ye will ! ". A certain man[1] said : " Who is my father ? " "Thy father " replied the Prophet , " is Hudhâfah ". Then another man [2] rose and said : " Who is my father, O Apostle of Allâh ? " "Thy father", he replied, " is Sâlim, the client of Shaibah ".

سُئِلَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم عَنْ أَشْيَاءَ كَرِهَهَا . فَلَمَّا أُكْثِرَ عَلَيْهِ غَضِبَ ثُمَّ قَالَ لِلنَّاسِ : « سَلُونِي عَمَّا شِئْتُمْ ! » قَالَ رَجُلٌ : مَنْ أَبِي ؟ قَالَ : « أَبُوكَ حُذَافَةُ » فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ : مَنْ أَبِي يارسول الله ؟ فقال: « أَبُوكَ سَالِمٌ مَوْلَى شَيْبَةَ »

Then when ʿUmar saw the expression on the Prophet's face, he said: "O Apostle of Allah, we turn in repentence unto Allâh (be He magnified and glorified)". [3]

فَلَمَّا رَأَى عُمَرُ مَا فِي وَجْهِهِ قَالَ : « يارَسُولَ اللهِ إِنَّا نَتُوبُ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ » .

---

(1) ʿAbdullâh b. Hudhâfah.

(2) Saʿd b. Sâlim the freedman of Shaibah b. Rabiʿah.

(3) The object of this hadith is to point the justification of a professor's anger at being asked inopportune questions by his students, a proceeding which is laid down as inadmissible.

2. We are informed by ʿAbdullâh b. Muhammad, who had it from Abu Amir, who was told it by Sulaimân b. Bilâl Al-Madîni, through Rabiʿah b. Abu Abdu-r-Rahmân, through YazidAl-Munbaʿith's freedman, through Zaid b. Khâlid Al-Juhani that :

The Prophet (Allâh bless him and give him peace) was questioned by a man on lost property, so he said : " Examine the string *it is tied with* (or perhaps he said " its con-container ") and its cover ; then advertise it for a year, and then make use of it; but if its owner comes *to claim it*, hand it over to him. " ' If it is a she-camel that hath strayed ? " asked the man.

At these words the Prophet became so indignant that his cheeks became red (or perhaps he said " he became red in the face ").[1] " What hast thou to do with her ? " replied the Prophet. "She hath her *store of* drink with her, and she hath her feet so that she can go to the water and browse on the bushes . So leave her alone until her master finds her." And what if the animal strayed is a sheep ? " asked the man. " Then ",

حدثنا عبد الله بن محمد قال حدثنا أبو عامر قال حدثنا سليمان بن بلال المدنيُّ عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن يَزيدَ مَوْلى المُنْبَعِث عن زيد بن خالد الجُهَنِيّ :

أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم سَأَلَهُ رَجُلٌ عَنِ اللُّقَطَة فقال :

« اعْرِفْ وِكَاءَها (أو قال وِعاءَها) وعِفَاصَهَا ثُمَّ عَرِّفْها سنَةً ثُمَّ استَمْتِعْ بِهَا فإنْ جاءَ رَبُّهَا فأَدِّهَا إِلَيْهِ » ، قال : « فضَالَّةُ الإِبِلِ ؟ » فغَضِبَ حتى احْمَرَّتْ وَجْنَتَاهُ (أوْ قال احْمَرَّ وجْهُهُ) فقال : « وَمَا لَكَ وَلَهَا ؟ مَعَهَا سِقَاؤُهَا وَحِذَاؤُهَا ، تَرِدُ الماءَ وتَرْعَى الشَّجَرَ فَذَرْهَا حَتَّى يَلْقَاهَا رَبُّهَا » ، قال « فَضَالَّةُ الغَنَم ؟ » قال : « لَكَ أَوْ

(1) The Prophet's anger is explaind by the fact that the first question applied only to portable property picked up — اللقطة while the second question was off the point, the man having misunderstood him.

day : " O ye people " said he, " ye will estrange *men from the congregational prayer;* let the leader in prayer lighten it, for among the congregation are some who are sick, or weak, or have other duties "

في موعظة أشد غضبا من يومئذ ، فقال : « أيها الناس إنكم منفرون فمن صلى بالناس فليخفف ، فإن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة »

Translated by I. H. El-MOUGY



divorced his wives. " " No," replied he. I then exclaimed : " Allâh is greatest ! " [1]

صلى الله عليه وسلم فقلت وأنا قائم: أطلقت نساءك؟ قال: لا، فقلت: الله أكبر!

[illegible]HAPTER 70

On the anger shown by one [illegible]ting or teaching, on perceiving something of which he disapproves.

[illegible]

A man [2] said : " O [illegible] Allâh ! I almost had to [illegible] the *congregational* prayer owing to the way in which a certain man [4] protracted it [3]. I never saw the Prophet ([illegible] bless him and give him peace) become more angry in an exhortation than he did on that

باب الغضب في الموعظة والتعليم إذا رأى ما يكره:

حدثنا محمد بن كثير قال أخبرنا سفيان عن ابن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن أبي مسعود الأنصاري قال:

قال رجل: «يا رسول الله لا أكاد أدرك الصلاة مما يطول بنا فلان، فما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم

---

(1) [illegible] surprise like " Good Gracious ! ". 'Umar [illegible] Al-Ansâri having spread such a false rumour.

(2) [illegible]

(3) [illegible] weakness). See Al-Aini 'Umdat-el-Qari, Muniriah Press, Cairo, vol. II, P. 106.

(4) i. e., Mu'âdh b. Jabal. The expression فلان is here used instead of the name in order that the complaint may be an impersonal one. ibid. P. 107

"I and a neighbour of mine who was one of the Ansār were at the *village of Banī-Umayyah b. Zaid* which is a part of the district of 'Awālī near Madīnah (1). We used to take turns in going down to the Apostle of Allāh (Allāh bless him and give him peace) he going down on one day and I on another. Whenever I went down I used to bring back to him the news of that day including Qur'anic revelations and other affairs. When he went down he did likewise. My friend the Ansārī went down one day when it was his turn, and *on returning* he knocked at my door violently and asked if I was there. I was terrified and came out to him. He said: " Something serious has happened (2)."

Umar (3) said: [illegible] to see Hafsah and found her weeping. I asked her if the Apostle of Allāh (Allāh bless him and give him peace) had divorced them. "Not that I know of," replied she. At this I went to see the Prophet (Allāh bless him and give him peace), and without sitting down I asked him if he had

---

(1) عوالى = Highlands i. e. the tableland overlooking Madīnah from the East, From 3 to 8 miles distant from it.

(2) A rumour had gone abroad that the Prophet had divorced his wives, although as a matter of fact he had only left them temporarily.

(3) Hafsah's father.

أَرْضَعَتْ عُقْبَةَ والَّتِي تَزَوَّجَ بِهَا، فقال لَهَا عُقْبَةُ: « مَا أَعْلَمُ أَنَّكِ أَرْضَعْتِنِي وَلاَ أَخْبَرْتِنِي » فَرَكِبَ الَى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم بِالْمَدِينَةِ فَسَأَلَهُ ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: « كَيْفَ وَقَدْ قِيلَ؟ » فَفَارَقَهَا عُقْبَةُ وَنَكَحَتْ زَوْجاً غَيْرَهُ .

‹Uqbah and the woman he had married also. ‹Uqbah said to her: " I am not aware that thou suckledst me, nor didst thou ever tell me ". He then rode to the Apostle of Allâh (Allah bless him and give him peace) at Madînah and put the question to him. The Apostle of Allâh (Allah bless him and give him peace) said: " How *couldst thou consummate thy marriage with her* after it had been said *that thou wert her foster-brother?*" Thereupon Uqbah put away his wife who married another husband. [1]

باب التَّنَاوُبِ فِي الْعِلْمِ :

CHAPTER 69.

حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهرى (ح) قال أبو عبد الله وقال ابن وهب أخبرنا يونس عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن أبى ثور عن عبد الله بن عباس عن عمر قال :

On taking turns in *the quest of* Knowledge.

we are informed by Abu-l-Yamân who had it from Shuaib, through Az-Zukri; also Abu-‹Abdullâh stated that he had it from Ibn wahb, who received it from Yûnus, through Ibn Shihâb, through Ubaidullâh b. ‹Abdullâh b. Abu Thawr, through ‹Abdullâh b. ‹Abbâs, through ‹Umar, who said:

---

(1) Two legal points arise from this hadith: first, that a woman may be admitted as single witness in cases where a man's evidence is not available or competent. Second, that association with the same foster-mother constitutes a prohibited degree of consanguinity in marriage.

prescribed alms, to keep the Ramadân fast, and to give the fifth part of the booty." He then forbade them *the use of* gourds, jars, and vessels smeared with pitch. [1]

Shu'bah adds: "Perhaps he mentioned vats made from palmtrunks, and may have said "tarred" (instead of "smeared with pitch").

Then the Prophet said: (Commit this to memory, and transmit it to those you have left behind you.")

اللهِ ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ ، وَتُعْطُوا الْخُمُسَ مِنَ الْمَغْنَمِ ، وَنَهَاهُمْ عَنِ الدُّبَّاءِ وَالْحَنْتَمِ وَالْمُزَفَّتِ ، قَالَ شُعْبَةُ : رُبَّمَا قَالَ النَّقِيرِ وَرُبَّمَا قَالَ الْمُقَيَّرِ . قَالَ : احْفَظُوهُ وَأَخْبِرُوهُ مَنْ وَرَاءَكُمْ .

CHAPTER 68

On a journey undertaken *to obtain a decision* on a special case and to instruct one's people.

بَابُ الرِّحْلَةِ فِي الْمَسْأَلَةِ النَّازِلَةِ وَتَعْلِيمِ أَهْلِهِ :

We are informed by Muhammad b. Muqâtil Abu-l-Hasan, who had it from Abdullâh, who was told it by 'Umar b. Sa'id b. Abu Husain, who received it from Abdullâh b. Abu Mulaikah, through 'Uqbah b. Al-Harith that:

He had married a daughter of Abu Ihâb b. 'Aziz. A woman came to him and said that she had suckled

حدثنا محمد بن مقاتل أبو الحسن قال أخبرنا عبد الله قال أخبرنا عمر ابن سعيد بن أبي حسين قال حدثني عبد الله بن أبي مليكة عن عقبة بن الحارث أنه تزوج ابنة لأبي إهاب بن عزيز فأتته امرأة فقالت : إني قد

---

(1) Owing to the danger of intoxication arising from the rapid fermentation of juices contained in these vessels.

الْقَيْسِ أَتَوُا النبى صلى الله عليه وسلم
فقال : مَنِ الْوَفْدُ ؟ (أَوْ منِ الْقَوْمُ ؟)
قالوا : « رَبِيعَةُ » فقال : مَرْحَباً
بِالْقَوْمِ (أَو بِالْوَفْدِ) غَيْرَ خَزَايَا وَلاَ
نَدَامى . قالوا : إِنَّا نَأْتِيكَ مِنْ شُقَّةٍ
بَعِيدَةٍ وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هٰذَا الحَىُّ
مِنْ كُفَّارِ مُضَرَ وَلاَ نَسْتَطِيعُ أَنْ
نَأْتِيكَ إِلاَّ فِى شَهْرٍ حَرَامٍ ، فَمُرْنَا
بِأَمْرٍ نُخْبِرْ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا نَدْخُلْ بِهِ
الْجَنَّةَ ، فَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ وَنَهَاهُمْ
عَنْ أَرْبَعٍ : أَمَرَهُمْ بِالإِيمَانِ بِاللهِ عَزَّ
وَجَلَّ وَحْدَهُ ـ قال : هَلْ تَدْرُونَ
مَا الإِيمَانُ بِاللهِ وَحْدَهُ ؟ قالوا : اللهُ
وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قال : شَهَادَةُ أَنْ
لاَ إِلَهَ إِلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ

the Abdu-l-Qais visited the Prophet (Allâh bless him and give him peace) who said: "What is this deputation? (*or* what is this tribe?" They replied; : "we are of the tribe of Rabî'ah. (1)" "Welcome to you, [illegible] without humiliation [illegible]. (2) [illegible] replied they [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] sacred month. Therefore give us a commandment which we may transmit to those we have left behind us, *and* through which we may enter Paradise" He then commanded them to do four things and forbade them four things. He commanded them to believe in Allâh as being one (be He magnified and glorified). adding: "Do ye know what belief in Allâh as being one is?" "Allâh and His Apostle know best," replied they. "It is," said he, "to testify that there is no deity but Allâh and that Muhammed is the Apostle of Allâh, to perform the *appointed* prayers, pay the

(1) [illegible] clan Rabî'ah.
(2) [illegible] by the humiliation of defeat or by regret for the [illegible]. The fact that they addressed the Prophet as رسول and referred to the Mudarites as كفار shows that they had already accepted Islâm.

it three times. Then it shall be said unto him: " Sleep in peace, for we now know that thou art indeed a true believer in him " As for the hypocrite - or the doubter (I do not know which of these words Asmâ used), he shall say : (I do not know *what to say*; " I have heard people say something and I have repeated it. "

بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى فَأَجَبْنَا وَاتَّبَعْنَا، هُوَ مُحَمَّدٌ ثَلَاثًا، فَيُقَالُ: نَمْ صَالِحًا قَدْ عَلِمْنَا إِنْ كُنْتَ لَمُوقِنًا بِهِ، وَأَمَّا الْمُنَافِقُ أَوِ الْمُرْتَابُ، لَا أَدْرِي أَيَّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ، فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ.

CHAPTER 67.

On how the Prophet (Allâh bless him and give him peace) urged the deputation of *the tribe* of ‹Abdul-Qais to preserve the Faith and the Knowledge, and to transmit them to those whom they had left behind;

And on Mâlik b. Al-Huwairith having stated that the Prophet (Allâh bless him and give him peace) said to them: " Go back to your people and instruct them. "

بابُ تحريضِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وفدَ عبدِ القيسِ على أنْ يحفظوا الإيمانَ والعلمَ ويُخبِروا مَنْ وراءهم، وقال مالكُ بنُ الحُوَيرثِ قال لنا النبيُّ صلى الله عليه وسلم ارجعوا إلى أهليكم فعلِّموهم

We are informed by Muhammad b. Bash-shâr, who had it from Ghundar, to whom it was narrated by Shu-bah, through Abu Jamrah, who said :

I was *once* acting as interpreter between Ibn ‹Abbas and the people, when he said that the deputation of

حدثنا محمدُ بنُ بشارٍ قال حدثنا غُندَرٌ قال حدثنا شعبةُ عن أبي جمرةَ قال

كُنْتُ أُتَرْجِمُ بَيْنَ ابْنِ عَبَّاسٍ وَبَيْنَ النَّاسِ فَقَالَ إِنَّ وَفْدَ عَبْدِ

it a sign *of Allah's wrath*? said I. She nodded her head as an answer in the affirmative I then stood up in prayer *behind the faithful* until I felt faint, so I began to pour water on my head.

After the prayer the Prophet (Allâh bless him and give him peace) praised,, and extolled Allâh (be He magnified & glorified) then said : ' There is nothing of what I have not been shown, but I have seen here and now, even Paradise and hell-fire it hath been revealed to me that ye shall be tried in your graves in the same way or nearly (I [1] do not know which expression Asmâ used) as ye shall be tried *in the days of* the Antichrist. It shall, be said [2] unto each one of you: ' What dost thou know of this man [3] ?' As for the true believer – or the faithful (I do not know which word Asmâ used), he shall say : ' It is Muhammad the Apostle of Allah, who came unto us with proofs *of his mission* and with the true Guidance. We accepted his message, and followed him. It is Muhammad *the true believer* shall say

السَّمَاءِ فَإِذَا النَّاسُ قِيَامٌ فَقَالَتْ: سُبْحَانَ اللهِ. قُلْتُ: آيَةٌ؟ فَأَشَارَتْ بِرَأْسِهَا أَيْ نَعَمْ. فَقُمْتُ حَتَّى تَجَلَّانِي الْغَشْيُ فَجَعَلْتُ أَصُبُّ عَلَى رَأْسِي الْمَاءَ، فَحَمِدَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «مَا مِنْ شَيْءٍ لَمْ أَكُنْ أُرِيتُهُ إِلَّا رَأَيْتُهُ فِي مَقَامِي حَتَّى الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، فَأُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ مِثْلَ أَوْ قَرِيبًا (لَا أَدْرِي أَيَّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ) مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، يُقَالُ: مَا عِلْمُكَ بِهَذَا الرَّجُلِ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ أَوِ الْمُوقِنُ (لَا أَدْرِي بِأَيِّهِمَا قَالَتْ أَسْمَاءُ) فَيَقُولُ: هُوَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ جَاءَنَا

---

(1) Fâtimah who had it from Asmâ
(2) By the Angels of death Munkar and Nakir.
(3) The Prophet ; the Angels do not refer to him as such because they do not wish to prompt the dead man.

shaved *my head* before I slaughtered the victim." The Prophet signed with his hand indicating that there was no sin .

قبلَ أنْ أذبحَ ، فأومأ بيدِهِ : ولاَ حرجَ .

2 We are informed by Al-Makki b. Ibrahîm, who received it from Hamzah b. Abu Sufian, through Salim who heard it from Abu Hurairah, who had it from the Prophet (Allah bless him and give him peace), who said:

" Knowledge shall pass away,[1] and ignorance and tumult shall prevail, and *hari* [2] shall increase ." The Apostle of Allah was asked what *hari* was, and replied by making a sign with his hand which he moved diagonally as if he meant killing.

حدثنا المكي بن ابراهيم قال أخبرنا حنظلة بن أبي سفيان عن سالم قال سمعت أبا هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

«يُقْبَضُ العِلْمُ ، ويَظْهرُ الجَهْلُ والفِتَنُ ، ويَكْثُرُ الهَرْجُ» قيل يا رسُولَ الله : وَمَا الهَرْجُ ؟ فقال هكذا بيدِهِ فحرَّفها كأنَّهُ يُرِيدُ القتلَ

3. We are informed by Mua b. Ismaʿîl, who had it from Wuhaib, who was told it by Hisham, through Fatimah, through Asma, who said:

" I *once* went to ʿA'ishah and found her praying. I said : What is the matter with the people ? "[3] She pointed to the sky and muttered : 'Glory be to Allah',[4] and the faithful were standing in prayer. " Is

حدثنا موسى بن اسماعيل قال حدثنا وهيب قال حدثنا هشام عن فاطمة عن أسماء قالت :

أتيتُ عائشةَ وهيَ تصلّي فقلتُ : ما شأنُ النّاسِ ؟ فأشارتْ إلى

(1) Owing to the death of the learned. (Ibn Hajar)

(2)Probably of Hebrew origin, through Ibn Hajar suggests Ethiopian,—meaning battle, tumult or slaughter.

(3) The people were in a state of panic owing to an eclipse of the sun, and were performing the prayers customary on such occasions.

(4) سبحان الله formula of apology used in an interrupted prayer, being " muttered " so as not to disturb it.

Prophet, " there is no sin ". Then there came up to him another who said : " I unwittingly slaughtered the victim before I threw the stones. " " Throw them " said the Prophet, " there is no sin ". So the Prophet (Allâh bless him and give him peace) was never questioned as to whether anything should be done sooner or later but he answered : " Do so, there is no sin."

« اذْبَحْ وَلاَ حَرَجَ » فَجَاءَ آخَرُ فَقَالَ: لَمْ أَشْعُرْ فَنَحَرْتُ قَبْلَ أَنْ أَرْمِيَ، قَالَ: « ارْمِ وَلاَ حَرَجَ » فَمَا سُئِلَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم عَنْ شَيْءٍ قُدِّمَ وَلاَ أُخِّرَ إِلاَّ قَالَ: « افْعَلْ وَلاَ حَرَجَ »

CHAPTER 66.

On one who giveth a fatwâ by a sign of the hand or the head.[1]

1. We are informed by Mûsâ b. Ismaâîl, who had it from Wuhaib, who was told it by Ayyûb, through Ikrimah, through Ibn Abbas that : the Prophet (Allah bless him and give him peace) was questioned on the occasion of his farewell pilgrimage by a man who said : " I slaughtered the victim before I threw the stones. " The Prophet gave a sign with his hand saying : " It is no sin . " Another man said : " I

بابُ مَنْ أَجَابَ الْفُتْيَا بِإِشَارَةِ الْيَدِ وَالرَّأْسِ :

حدثنا موسى بن اسماعيل قال حدثنا وُهيب قال حدثنا أيوب عن عِكْرمة عن ابن عباس أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم سُئِلَ فِي حَجَّتِهِ فَقَالَ: ذَبَحْتُ قَبْلَ أَنْ أَرْمِيَ، فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ قَالَ وَلاَ حَرَجَ، قَالَ: حَلَقْتُ

[1] Al- Bukhâri's practice is to proceed from the general to the particular; the title being a generalisation, of which the particular case given in the hadith is an illustration This explains why some heading are found without any following hadith.

" While I was sleeping, a bowl of milk was brought me *in my dream* I drank until I did see the liquid flow from my finger-nails,[1] and then I gave the residue to ʿUmar b. Al-Khattâb. When they asked the Apostle of Allâh what interpretation he gave to it, he said : ' It is Knowledge.' »

«بينَا أنَا نائمٌ أُتيتُ بِقَدَحِ لَبَن فشربتُ حتّى أنّي لأرى الرِّيَّ يَخرُج في أظفاري ، ثُمَّ أعطيتُ فضلي عُمَرَ بنَ الخطّاب ، قالوا : فما أوّلتَهُ يا رسُولَ الله ؟ قال: « العِلمَ »

CHAPTER 65.

On a fatwâ [2] given by one standing *on the back* of a mount or elsewhere.

بابُ الفُتيا وهُوَ واقفٌ عَلَى الدّابّةِ وغيرِهَا :

We are informed by Ismaʿîl, who had it from Malik, through Ibn Shihab, through ʿIsa b. Tolhah b. ʿUbaidullah, through ʿAbdullah b. ʿAmr b. Al-ʿAs that the Apostle of Allah (Allah bless him and give him peace) stood, on the occasion of the farewell pilgrimage at Mina, for the people to ask him questions. A man came up to him and said :

" Unwittingly I shaved my head before I slaughtered *the victim for sacrifice.* " Slaughter it " said the

حدثنا إسماعيل قال حدثني مالك عن ابن شهاب عن عيسى بن طلحة ابن عبيد الله عن عبد الله بن عمرو بن العاص : أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وَقَفَ في حَجّةِ الوَدَاعِ بِمِنًى للنّاس يسألُونَهُ ، فجاءهُ رَجلٌ فقال : لَمْ أشعُرْ فحلقتُ قبلَ أنْ أذبحَ ، فقال :

---

(2) Or preferably as a metaphor—I drank until I did feel satisfaction ooze from my finger-tips.

(2) A decision given on a matter of religious law or ritual.

«لأُحَدِّثَنَّكُمْ حَدِيثًا لاَ يُحَدِّثُكُمْ أَحَدٌ بَعْدِي: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يَقِلَّ الْعِلْمُ، وَيَظْهَرَ الْجَهْلُ، وَيَظْهَرَ الزِّنَا، وَتَكْثُرَ النِّسَاءُ، وَيَقِلَّ الرِّجَالُ حَتَّى يَكُونَ لِخَمْسِينَ امْرَأَةً الْقَيِّمُ الْوَاحِدُ»

Anas, who said: I will convey to you a hadîth which no one will convey to you after me. [1] I heard the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) say:

" Among the signs of the Hour is that Knowledge shall decrease and ignorance be diffused, that adultery shall be widespread, that women shall increase and men decrease until there shall be for fifty women one supporter. "

بَابُ فَضْلِ الْعِلْمِ :

CHAPTER 64.

حدثنا سعيد بن عفير قال حدثنا الليث قال حدثني عقيل عن ابن شهاب عن حمزة بن عبد الله بن عمر أن ابن عمر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

On the excellence [illegible] [2]

We are informed by [illegible] Allâh, who had it from Al-[illegible] was told it by ʿUqail, through Ibn Shihâb, through Ḥamzah b. ʿAbd Allâh b. ʿUmar that the last-named said that he heard the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) say :

---

(1) i.e. I am the last of the Companions to have heard this utterance directly from the Prophet.

(2) The rendering of " residue " or " excess " given by some commentators is suggested by the expression used in this hadith أعطيت فضلي عمر — I gave my residue to ʿUmar. They base their contention on the fact that the title of the first Chapter of this book is the same (فضل العلم), and that, therefore, there would be no point in repeating the idea in a subsequent hadith. Al-ʿAini, however, considers that in the first chapter reference is to the merit of " possession of Knowledge " but in this Chapter of " Knowledge " itself, especially as the Prophet himself interpreted فضل as "Knowledge", indicating the " excellence " of Knowledge.

up the water at midday—instead of قيلت الماء absorbs the water.

Al-Bukhâri defines قاع as land which water covers *without remaining on it* : and الصفصف as flat land. [1]

« منها طائفة قيلت الماء »

قاع يعلوه الماء ، والصفصف

المستوى من الأرض

CHAPTER 63.

باب رفع العلم وظهور الجهل ،

On the passing of Knowledge and the diffusion of ignorance ;

And the words of Rabî'ah : " It is not right for one who possesseth any Knowledge to waste his life ."[2]

وقال ربيعة : لا ينبغي لأحد عنده شيء من العلم أن يضيع نفسه :

1. We are informed by 'Imrân b. Maisarah, who had it from 'Abdul-Wârith, through Abu-t-Tayyâh, through Anas, who stated that the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) said :

حدثنا عمران بن ميسرة قال حدثنا عبد الوارث عن أبي التياح عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

"Among the signs of the Hour is that Knowledge shall pass away, and ignorance shall be established,[3] that wine shall be drunk *openly*, and adultery shall be widespread. "

« إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ، ويثبت الجهل ، ويشرب الخمر ، ويظهر الزنا » .

2. We are informed by Musaddad who had it from Yahyâ, through Shu'bah, through Qatâdah, through

حدثنا مسدد قال حدثنا يحيى عن شعبة عن قتادة عن أنس قال

(1) Al-Bukhâri is in the habit of explaining corresponding exprssions in the Qur-ân, namely قاعا صفصفا

(2) by failing to impart his knowledge.

(3) Or " diffused " according to Muslim

give him peace) who said :

" The parable of the Guidance and the Knowledge that Allâh hath sent me *to preach* is that of the abundant rain which falleth on the land. Some of this land is fertile, and absorbeth the water so that it bringeth forth grass and herbs abundantly. Some of it is hard [1] ground, and retaineth the water, so that Allâh turneth it to the use of men to drink, to water the cattle, and to grow crops. And some of it falleth on another kind which is only flat tableland that doth not catch the water nor bring forth plants.

That is the parable of him who is enlightened in the Faith of Allâh, and of him who profiteth by that which I have been sent by Allâh *to preach* so that he acquireth Knowledge and imparteth it; and of him who is too proud to raise his head [2] to receive it ; and of him who doth not accept the Guidance of Allâh which I was sent *to bring*. [3]

According to Abu ‹Abdullâh (Al-Bukhari), Is-haq gives the variant وكان منها طائفة قيلت الماء one kind of it sucks

بُردة عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الهُدَى والعِلْمِ كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ المَاءَ فَأَنْبَتَتِ الكَلَأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ المَاءَ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً،

فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ».

قال أبو عبد الله قال اسحق: « وكان

(1) i.e. non-porous

(2) Or—turned away from it. The reference here is to Muslims who do not trouble to receive the teachings of Islâm or to impart them.

(3) These are the people who are called to Islâm but reject it. [Al-Qastallâni].

No—replied Moses. But Allâh (be He magnified and glorified) revealed to Moses the word:— Yea, it is Our servant Khadir.—Then *Moses* asked the way to meet him, and Allâh set the fish as a sign unto *Moses*, and it was said to him:—When thou losest the fish, return, for then thou shalt meet him.

So Moses (Allâh bless him) followed the track of the fish in the sea, and then his attendant said to him:— Behold! when we took shelter by the rock, I forgot about the fish, and it was only Satan that made me forget to mention it *to thee*. — That is what we were looking for. — said Moses. '

Thereupon they went back retracing their footsteps ; they found Khadir. and there happened to them what Allâh hath related in his Book."

CHAPTER 62.

On the merit of him who hath acquired Knowledge and imparteth it.

We are informed by Muhammad b. Al-ʿAlâʾ who had it from Hammâd b. Usâmah, through Buraid b. ʿAbdullâh, through Abu Mûsa, from the Prophet (Allâh bless him and

إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: أَتَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْكَ ؟ قَالَ مُوسَى: لَا ، فَأَوْحَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى مُوسَى: بَلَى عَبْدُنَا خَضِرٌ ، فَسَأَلَ السَّبِيلَ إِلَى لُقِيِّهِ فَجَعَلَ اللهُ لَهُ الْحُوتَ آيَةً وَقِيلَ لَهُ إِذَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فَارْجِعْ فَإِنَّكَ سَتَلْقَاهُ ، فَكَانَ مُوسَى صلى الله عليه يَتَّبِعُ أَثَرَ الْحُوتِ فِي الْبَحْرِ ، فَقَالَ فَتَى مُوسَى لِمُوسَى: « أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ». قَالَ مُوسَى: « ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي » فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ، فَوَجَدَا خَضِرًا ، فَكَانَ مِنْ شَأْنِهِمَا مَا قَصَّ اللهُ فِي كِتَابِهِ ».

بابُ فَضْلِ مَنْ عَلِمَ وَعَلَّمَ :

حدثنا محمد بن العلاء قال حدثنا حماد ابن أسامة عن بُرَيد بن عبد الله عن أبي

CHAPTER 59.

On setting out in search of knowledge; and how Jâbir b. ‹Abdullâh made a month's journey to ‹Abdullâh b. Unais for the sake of a single hadith.

We are informed by Abu-l-Qâsim Khâlid b. Khaliyy, who had it from Muhammad b. Harb, who stated that Al-Awzâ‹i received it from Az-Zuhri, through ‹Ubaidullâh b. ‹Abdullâh b. ‹Utbah b. Mas‹ûd, through Ibn ‹Abbâs that:

he and Al-Hurr b. Qais b. Hisn Al-Fazâri were debating about the companion of Moses, when Ubayy b. Ka‹b passed by them, and Ibn ‹Abbâs called him and said:"I and my friend here have been arguing about the companion of Moses, regarding the way to meet whom the latter inquired. Hast thou heard the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) mention his story ? " Yes " replied Ubayy, I have heard the Prophet (Allâh bless him and give him peace) say: 'While Moses was in a company of Israelite notables, there came a man who said to him Dost thou know anyone more learned than thyself ? -

بابُ الخُرُوجِ فِي طَلَبِ العِلْمِ،

وَرَحَلَ جَابِرُ بنُ عَبْدِ اللهِ مَسِيرَةَ شهرٍ الى عَبْدِ اللهِ بْنِ أُنَيْسٍ فِي حَدِيثٍ وَاحِدٍ :

حدثنا أبو القاسم خالد بن خلي قال حدثنا محمد بن حرب قال قال الأوزاعي أخبرنا الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس أنه تمارى هُوَ وَالحُرُّ بْنُ قَيْسِ بْنِ حِصْنٍ الفَزَارِيُّ فِي صَاحِبِ مُوسَى فَمَرَّ بِهِمَا أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ فَدَعَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ فَقَالَ : إِنِّي تَمَارَيْتُ أَنَا وَصَاحِبِي هَذَا فِي صَاحِبِ مُوسَى الَّذِي سَأَلَ السَّبِيلَ إِلَى لُقِيِّهِ ، هَلْ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَذْكُرُ شَأْنَهُ ؟ فقال أُبَيٌّ : نَعَمْ سَمِعْتُ النبي صلى الله عليه وسلم يَذْكُرُ شَأْنَهُ يَقُولُ : « بَيْنَمَا مُوسَى فِي مَلأٍ مِنْ بَنِي

" I came riding on a she-ass at the time when I was approaching the age of puberty, - while the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) was performing his prayers at Minâ without a wall *to conceal him*. I passed in front of part of the line of worshippers, then I let the ass pasture freely, and entered the line without my action being disapproved."

« أَقْبَلْتُ رَاكِباً عَلَى حِمَارٍ أَتَانٍ وَأَنَا يَوْمَئِذٍ قَدْ نَاهَزْتُ الاِحْتِلاَمَ وَرَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يُصَلِّي بِمِنًى إِلَى غَيْرِ جِدَارٍ فَمَرَرْتُ [illegible]

2. I am informed by Muhammad b. Yûsuf who had it from Abû Mushir, who was told it by Muhammad b. Harb, who received it from Az-Zubaidi, through Az-Zuhri, through Mahmûd b. ar-Rabî', who said :

" I remember of the Prophet how he sprayed my face through his mouth with water taken from a bucket when I was five years old. [1]

[illegible] وَأَنَا ابْنُ خَمْسِ سِنِينَ مِنْ دَلْوٍ ».

---

(1) This hadîth is intended to show that the memory of a child of five is valid evidence. The Prophet's action may be attributed either to playfulness or to the wish to convey a blessing.

فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا فَوَجَدَا خَضِراً، فَكَانَ مِنْ شَأْنِهِمَا الَّذِى قَصَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِى كِتَابِهِ .

CHAPTER 5.

On the words of the Prophet (Allâh bless him and give him peace) "O Allâh, teach him the Book."[1]

We are informed by Abu Ma‹mar who had it from ‹Abdul-Wârith, who was told it by Khâlid, through ‹Ikrimah, through Ibn ‹Abbâs, who said :

" The Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) embraced me and said : ' O Allâh, teach him the Book. ' "

بابُ قَوْلِ النَّبِىِّ صلى الله عليه وسلم: «اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْكِتَابَ»:

حَدَّثَنَا أَبُو مَعْمَر قال حدثنا عبد الوارث قال حدثنا خالدٌ عن عكرمة عن ابن عباس قال:

ضَمَّنِى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وقال: «اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْكِتَابَ»

CHAPTER 58.

At what age is a child's hearing of the hadith valid ? [2]

1. We are informed by Ismâ‹il b. Abu ‹Uwais, who had it from Mâlik, through Ibn Shihâb, through ‹Ubaidullâh b. ‹Abdullâh b. ‹Utabah, through ‹Abdullâh b. ‹Abbâs, who Said :

بَابٌ: مَتَى يَصِحُّ سَمَاعُ الصَّغِيرِ؟

حدثنا اسماعيل بن أبى أويس قال حدثنى مالك عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عبد الله بن عباس قال:

---

(1) i . e . Give Ibn ‹Abbas understanding of the Qur›ân .

(2) According to Ibn Hajar " the validity of a child's hearing and understanding of the hadith with a view to transmitting it when he comes of age.

mention his story ? " " yes, I have heard the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) say : ' While Moses was in a company of Israelite notables, there came a man who said to him —' Dost thou know anyone more learned than thyself ? - No — replied Moses.

But Allâh revealed to Moses the words:— Yea, it is Our servant Khadir.— Then Moses asked the way to him, and Allâh set the fish as a sign unto Moses, and it was said to him :- When thou losest the fish return, for then thou shalt meet him . —

Moses followed the track of the fish in the sea,[1] and then his attendant said to him : — Behold ! when we took shelter by the rock, I forgot *about* the fish, and it was only Satan that made me forget to mention it *to thee*. That is what we were looking for [2]— said *Moses*.

Thereupon they went back retracing their footsteps ; they found Khadir and there happened to them[3] what Allâh (be He magnified and glorified) hath related in His Book.'

السَّبِيلَ إِلَى لُقِيِّهِ ، هَلْ سَمِعْتَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَذْكُرُ شَأْنَهُ ؟ قال : نعم سَمِعْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« بَيْنَمَا مُوسَى فِي مَلَأٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ : هَلْ تَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْكَ ؟ قَالَ مُوسَى : لَا ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسَى : بَلَى عَبْدُنَا خَضِرٌ ، فَسَأَلَ مُوسَى السَّبِيلَ إِلَيْهِ فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ الْحُوتَ آيَةً وَقِيلَ لَهُ : إِذَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فَارْجِعْ فَإِنَّكَ سَتَلْقَاهُ ، وَكَانَ يَتَّبِعُ أَثَرَ الْحُوتِ فِي الْبَحْرِ ، فَقَالَ لِمُوسَى فَتَاهُ : أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ، قَالَ : ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي

(1) Hadith commentators follow Al-Baidaâwi in suggesting that they carried the fish with them, hence the phrase means " watched for its disappearance into the sea ".

(2) i . e . the disappearance of the fish, which was the sign predicted for the meeting with Khadir .

(3) i . e . Moses and Khadir .

by sea [1] to Khadir ; [2]

And the word of Allâh (be He exalted) : " Shall I follow thee on condition that thou instruct me from what thou hast learnt for my guidance ? " [3]

I am informed by Muhammad b. Ghurair Az-Zuhri, who had it from Yaqûb b. Ibrâhim, who was told it by his father through Sâlih, through Ibn Shihâb who stated that he was informed by ‹Ubaidullâh b. ‹Abdullâh through Ibn. ‹Abbâs that :

he and Al-Hurr b. Qais b. Hisn Al-Fâzari were debating about the companion of Moses. Ibn ‹Abbâs said: " It is Khadir ". As Ubayy b. Ka‹b passed by them, Ibn ‹Abbâs called him and said : " I and my friend here have been arguing about the Companion of Moses, regarding the way to meet whom Moses enquired. Hast thou heard the Prophet (Allâh bless him and give him peace)

الَى الْخَضِرِ ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى : «هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا» :

حدثني محمد بن غُرَيْر الزهري قال حدثنا يعقوب بن ابراهيم قال حدثني أبي عن صالح عن ابن شهاب حدّث أن عبيد الله بن عبد الله أخبره عن ابن عباس أنه تَمَارَى هُوَ وَالْحُرُّ بْنُ قَيْسِ بْنِ حِصْنٍ الْفَزَارِيُّ فِي صَاحِبِ مُوسَى ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : «هو خَضِرٌ» فَمَرَّ بِهِمَا أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ فَدَعَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ فَقَالَ : إِنِّي تَمَارَيْتُ أَنَا وَصَاحِبِي هَذَا فِي صَاحِبِ مُوسَى الَّذِي سَأَلَ مُوسَى

---

(1) According to Ibn Hajar Moses started his journey by land, but concluded it by sea upon meeting Al-Khidr.

(2) Also " Al-Khidr ". Many suggestions have been made as to his identity, all of which seem to be pure speculations. Various attempts have been made to connect "Khidr' " with greenness " as the etymology of his name suggests, the most accepted being his having drunk of the fountain of immortality and obtained perpetual youth. In any case " Al-Khidr " is only an agnomen, the other suggested names being Phineas, Elisha Balia b. Malkân (who lived in the time of Afridun, (one of the ancient Kings of Persia). or he may have been the brother of Elias. There is no certainty as to whether he was a saint or a prophet, or an angel, but his actions seem to suggest that he was more likely to have been a prophet acting under divine revelation .

(3) or " instruct me in the well-guided Knowledge that thou hast received ". Surah 18, Verse 65.

" Steep yourselves in learning before becoming rulers. "[1]

أَنْ تُسَوَّدُوا .

Abu ʿAbdullah (Al-Bukhâri) adds : " and after becoming rulers ; for the companions of the Prophet (Allâh bless him and give him peace) studied in their old age. "

قال أبو عبد الله : وَبَعْدَ أَنْ تُسَوَّدُوا ، وَقَدْ تَعَلَّمَ أَصْحَابُ النبيّ صلى الله عليه وسلم في كِبَرِ سِنِّهِمْ :

We are informed by Al-Humaidi who had it from Sufiân, who was told it by Ismâʿil b. Abu Khâlid (differently from what we received from Az-Zuhri), [2] who heard it from Qais b. Abu Hazim, from ʿAbdullâh b. Masʿûd, who stated that the Prophet (Allâh bless him and give him peace) said :

حدثنا الحميدى قال حدثنا سفيان قال حدثنى اسماعيل بن أبى خالد (عَلَى غَيْرِ مَا حَدَّثنَاهُ الزُّهْرِيُّ) قال سمعت قيس بن أبى حازم قال سمعت عبد الله بن مسعود قال قال النبي صلى الله عليه وسلم :

There should be no envy but in two cases : that of a man to whom Allâh hath given wealth, and empowered him to consume it aright, and that of a man to whom Allâh hath given wisdom, and he judgeth by it and teacheth it.

« لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِى اثْنَتَيْنِ : رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِى الْحَقِّ ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِى بِهَا وَيُعَلِّمُهَا »

CHAPTER 59.

On what hath been said on the journey of Moses (Allâh bless him)

بَابُ مَا ذُكِرَ فِي ذَهَابِ مُوسَى صلى اللهُ عَلَيْهِ فِي الْبَحْرِ

(1) The word يسود implies any form of authority or responsibility. Its derivative سيد includes the meanings of lord, master, owner, husband, governor, chief or nobleman.
(2) Al-Bukhâri reports Sufiân's transmission through Az-Zuhri in the Book of Tawhid.

CHAPTER 57.

بَابُ الْفَهْمِ فِي الْعِلْمِ :

On the understanding in Knowledge.

We are informed by ʿAli, who had it from Sufiân, who was told by Ibn Abu Najih, through Mujâhid who said :

حدثنا علي حدثنا سفيان قال قال لي ابن أبي نَجيح عَن مجاهد قال :

I accompanied Ibn ʿUmar to Madînah and heard him narrate only one hadith from the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) namely: " We were with the Prophet (Allâh bless him and give him peace) when he was brought the pith of a palm-tree. ʿAmong trees, said the Prophet, ' is one which is the parable of a Muslim '.

« صَحِبْتُ ابْنَ عُمَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ فلم أَسمعْهُ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم إِلاَّ حَدِيثًا وَاحِدًا قال : كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَأُتِيَ بِجُمَّارٍ فَقَالَ : «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً مَثَلُهَا كَمَثَلِ الْمُسْلِمِ» فَأَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ: هِيَ النَّخْلَةُ، فَإِذَا أَنَا أَصْغَرُ الْقَوْمِ فَسَكَتُّ، قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: « هِيَ النَّخْلَةُ ».

I wished to say that it was the palm-tree ; but as I was the youngest present, I remained silent.

The Prophet (Allâh bless him and give him peace) then said : ' It is the palm-tree . '

CHAPTER 58.

بَابُ الاغْتِبَاطِ فِي الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ ، وقال عُمَرُ : تَفَقَّهُوا قَبْلَ

On emulation in Knowledge and widdom ; and the words of ʿUmar :

وَإِنِّى أَتَخَوَّلُكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ كَمَا كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَتَخَوَّلُنَا بِهَا مَخَافَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا.

adapt my exhortations to your case, just as the Prophet (Allâh bless him and give him peace) used to do with us, for fear of wearying us."

CHAPTER 56.

بَابٌ: مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِى الدِّينِ:

He to whom Allâh willeth good, to him shall He give understanding in the Faith .

حدثنا سعيد بن عُفَير قال حدثنا ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب قال قال حُمَيد بن عبد الرحمن: سمعت معاوية خطيبًا يقول سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول:

We are informed by Saʿîd b. ʿUfair, who had it from Ibn Wahb, through Yûnus, through Ibn Shihâb, who said that Humaid b. ʿAbdur-Rahmân stated that he heard Muʿâwiyah say in the course of a sermon that he heard the Prophet (Allâh bless him and give him peace) say :

«مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِى الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ واللهُ يُعْطِى، وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِىَ أَمْرُ اللهِ».

He to whom Allâh willeth good, to him shall He give understanding in the Faith. I do but distribute *Knowledge*,[1] while Allâh giveth *the understanding of it*. This people shall not cease to walk in the way of Allâh, unharmed by their adversaries until the Day of Doom.[2]

---

(1)by transmitting the Revelation equally amongst you. (Al-Qastallâni and Al-ʿAini)

(2)This hadîth is taken by the doctors of Islâm as evidence of the inception of اجماع (consensus of opinion) لا تجمع امتى على ضلالة (my people cannot be unanimous on an error

weary us.

2. We are informed by Muhammad b. Bashshâr, who had it from Yahyâ b. Saʿid, who was told it by Shuʿbah, who received it from Abut-Tayyâh, through Anas, from the Prophet ([illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] encouraged.(1)

حدثنا محمد بن بشار قال حدثنا يحيي بن سعيد قال حدثنا شعبة قال حدثني أبو التياح عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

«يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا وَبَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا».

CHAPTER 55.

بابُ مَنْ جَعَلَ لأَهْلِ العِلْمِ أَيَّاماً مَعْلُومَةً :

On him who appointeth fixed [illegible]

[illegible] [illegible]

[illegible] Masʿud used to instruct the people every Thursday. So when a certain man said to him: "O Abu ʿAbdur-Rahmân, I would that thou shouldest give us instruction every day," he said: "Indeed what prevents me from doing so is that I dislike to weary you, and therefore I

حدثنا عثمان بن أبي شيبة قال حدثنا جرير عن منصور عن أبي وائل قال :

كَانَ عَبْدُ اللهِ يُذَكِّرُ النَّاسَ فِي كُلِّ خَمِيسٍ ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : «يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمٰنِ لَوَدِدْتُ أَنَّكَ ذَكَّرْتَنَا كُلَّ يَوْمٍ» قَالَ : «أَمَا إِنَّهُ يَمْنَعُنِي مِنْ ذَلِكَ أَنِّي أَكْرَهُ أَنْ أُمِلَّكُمْ ،

(1) The connection of this hadith with the "Knowledge" set out in the heading is implied, i. e., make the way of Knowledge easy to learners, and do not estrange people by unpalatable truths.

وقال ابنُ عباسٍ : « كونوا ربّانيّين حُكماءَ فقهاءَ »

Ibn ʿAbbas said that " Be ye Rabbânis " [1] meaneth " Be ye wise and well-instructed in the Faith ;"

وَيُقالُ الرّبّانيّ الذى يُربّي النّاسَ بِصِغارِ العِلْمِ قبلَ كِبارِهِ .

and it is said (Says Al-Bukhâri) that the Rabbâni is one who instructs people in the rudiments of Knowledge before proceeding to the theoretical questions.

CHAPTER 11

[illegible]

[illegible] كي لا ينفروا .

On how the Prophet (Allâh bless him and give him peace) used to adapt his exhortation and *his imparting* of Knowledge [2] to his hearers so that they should not be estranged from him.

[illegible] قال

أخبرنا سفيان عن الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود قال :

1 . We are informed by Muhammad b. Yúsuf, who had it from Sufián, through Al-Aʿmash, through Abu Wâʾil, through Ibn Masʿud, who said that :

[illegible]

بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا .

The Prophet (Allâh bless him and give him peace) used to adapt his exhortations to us, by varying the days [3] through unwillingness to

(1) الربانى is a teacher who has acquired scholarship, practice and piety , in other words one who has perfect Knowledge of things pertaining to God. Probably the word is of Hebrew origin meaning *rabbin* .

(2) العلم (Knowledge) is here inserted by Al-Bukhâri in order to adapt the hadith to his title *Knowledge* ; and so doing he has placed the general in relation with the particular.

(3) According to Ibn Hajar and Al-Qastallâni.

servants as possess Knowledge fear Him; [1] and His word: None can comprehend these parables but they that possess Knowledge, [2]

and His word: " And they shall say, " Had we hearkened to the warning or had understanding of it we should not be among the children of the blazing Fire ; [3]

and His word: " Shall those who possess Knowledge and those who possess it not be held equel ? "; [4]

The Prophet (Allâh bless him and give him peace) said : " He to whom Allâh willeth good, to him shall He give understanding in the Faith; " and : " Knowledge is gained only by study ; " Abu Dharr said : " If you place a *Damascus* sword on this ", (pointing to the nape of his neck) " and then I thought that I could transmit a single word which I had heard from the Prophet (Allâh bless him and give him peace) before you passed it through my neck, I should do so : "

وَقَالَ: «وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ»

«وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ»

وَقَالَ: «هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ»

وَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» وَ «إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ»

وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ: «لَوْ وَضَعْتُمُ الصَّمْصَامَةَ عَلَى هَذِهِ ـ وَأَشَارَ إِلَى قَفَاهُ ـ ثُمَّ ظَنَنْتُ أَنِّي أُنْفِذُ كَلِمَةً سَمِعْتُهَا مِنَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَبْلَ أَنْ تُجِيزُوا عَلَيَّ لأَنْفَذْتُهَا»

---

(1) Surah [illegible], verse [illegible]. (2) Surah 29, verse 42

(3) Surah 67, verse 10, i. e. " had we possessed Knowledge we should not have been in Hell ".

(4) Surah [illegible], verse [illegible]

property, and your honour must be held to be as sacred amongst you as this day, this month and this town- which ye hold sacred. Let him who beareth witness to these words communicate them *to* him that is absent, for it may be that the witness transmitteth to one who is more mindful of them than he.

وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ».

CHAPTER 53

بَابٌ : الْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ

Knowledge cometh before the word and before the deed, as appeareth from the word of Allâh (be He exalted) : " Know thou that there is no deity but Allâh ".[1] Thus Allâh hath placed Knowledge first ;

The learned are the heirs of the Prophets, inheriting Knowledge. He who receiveth it, receiveth an abundant heritage ;

He who followeth a road in the quest of Knowledge, to him will Allâh make smooth a road to Paradise ;

The word of Allâh (glorified be His Name): " Only such of Allâh's

لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: «فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ،

وَأَنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَرِثُوا الْعِلْمَ، مَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ بِهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ،

وَقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ: «إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ»،

---

(1) Surah 47, verse 21. [illegible]

CHAPTER 52.

On the words of the Prophet : " He to whom *a hadith* is transmitted may be more mindful of it than he who first heareth it."

We are informed by Musaddad, who had it from Bishr, who was told it by Ibn ‘Awn, through Ibn Sirin, through ‘Abdur-Rahmân Ibn Abu Bakrah, through his father, who stated that :

The Prophet (Allâh bless him and give him peace) was seated on his camel-its halter or rein being held by a man-when he said : " What day is this ? " We were silent, as we thought that he was about to give it some other name . " Is not to-day " he continued, " the day of the Courban sacrifice ? " " Yes " we replied. " What month is this ? " asked he . We were again silent, as we thought he was about to give the month another name. "Is it not the month of Dhul-Hijjah ? " he continued. " Certainly " we replied. He then said . " So your blood, your

باب قَوْلِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم:

«رُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»:

حدثنا مُسَدَّدٌ قال حدثنا بِشْرٌ قال حدثنا ابن عون عن ابن سِيرِينَ عن عبد الرحمن بن أبي بَكْرَةَ عن أبيه: ذَكَرَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَعَدَ عَلَى بَعِيرِهِ وَأَمْسَكَ إِنْسَانٌ بِخِطَامِهِ أَوْ بِزِمَامِهِ، قال: «أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟» فَسَكَتْنَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ سِوَى اسْمِهِ، قال: «أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟» قلنا: «بَلَى» قال: «فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟» فَسَكَتْنَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، فقال: «أَلَيْسَ بِذِي الْحِجَّةِ؟» قُلْنَا: «بَلَى» قال: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ

While the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) was once sitting in the mospue in the company of the Faithful, three men came in. Two of them went up to the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace), while one withdrew. Then while the two stood listening to the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace), one of them, seeing a vacant place in the circle, sat down in it, and the other sat down behind the group. The third, however, departed on his way

When the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) had finished his discourse, he said : " Shall I speak to you about these three men ? One of them hath turned unto Allâh and Allâh hath turned unto him; the second hath shown modesty, so Allâh hath shown modesty unto him; [1] the third hath turned away, and Allâh hath turned away from him. "

أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَالنَّاسُ مَعَهُ إِذْ أَقْبَلَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ فَأَقْبَلَ اثْنَانِ إِلَى رسول الله صلي الله عليه وسلم وَذَهَبَ وَاحِدٌ ، قَالَ فَوَقَفَا على رسول الله صلي الله عليه وسلم. فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَرَأَى فُرْجَةً فِي الْحَلْقَةِ فَجَلَسَ فِيهَا ،وَأَمَّا الآخَرُ فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ ،وَأَمَّا الثَّالِثُ فَأَدْبَرَ ذَاهِبًا .

فَلَمَّا فَرَغَ رسول الله صلي الله عليه وسلم قال : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنْ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ ؟ أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَى إِلَى اللهِ فَآوَاهُ اللهُ ، وَأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللهُ مِنْهُ ، وَأَمَّا الآخَرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ » .

(1) i. e. will remit his punishment

The Prophet (Allah bless him and give him peace) once wrote a letter [1] (or wished to do so), when he was told that a letter wos not read *by those to whom it was addressed* unless it was sealed. He there - fore adopted a silver signet ring on which were engraved the words: " Muhammad the Apostle of Allâh. " I still seem to see the whiteness of the ring *gleaming* on his hand. When I (Shu‘ban) asked Qatâdah who had said that the words engraved were " Muhammed the Apostle of Allâh, " he replied : " It is Anas. "

فَقِيلَ لَهُ إِنَّهُمْ لاَ يَقْرَءُونَ كِتَابًا إِلاَّ مَخْتُومًا ، فَاتَّخَذَ خَاتَمًا مِنْ فِضَّةٍ نَقْشُهُ « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ » كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى بَيَاضِهِ فِي يَدِهِ ، فَقُلْتُ لِقَتَادَةَ : « مَنْ قَالَ نَقْشُهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ؟ » قَالَ : « أَنَسٌ » .

CHAPTER 51

On him who taketh his seat in the place where the study-group ends, and on him who perceiving a vacant place in the circle, sitteth in it.

بَابُ مَنْ قَعَدَ حَيْثُ يَنْتَهِي بِهِ الْمَجْلِسُ وَمَنْ رَأَى فُرْجَةً فِي الْحَلْقَةِ فَجَلَسَ فِيهَا :

We are informed by Ismâ‘il, who had it from mâlik, through ishaq b. ‘Abdullâh-Abu Talhah, who was told it by Abu Murrah, the bondman of ‘Aqil b. Abu Talib, through Abu Wâqid Al-Laithi that :

حدثنا اسماعيل قال حدثني مالك عن اسحق بن عبد الله بن أبي طلحة أَنَّ أَبَا مُرَّةَ مَوْلَى عَقِيلِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَخْبَرَهُ عَنْ أَبِي واقد اللَّيْثِيِّ

---

(1) Through an amanuensis.

the Prophet's command (Allah bless him and give him peace).

1. We are informed by Ismâ‘il b. ‘Abdullâh, who had it from Ibrâhim b. Sa‘d through Sâlih, through Ibn Shihâb, through ‘Ubaidullâh b. ‘Abdullâh b. ‘Utbah b. Mas‘ûd that he was told by ‘Abdullah b. Abbas that :

The Apostle of Allah (Allah bless him and give him peace) despatched a man with a letter of his, charging him to deliver it to the ruler of Bahrain. The latter (2) sent the letter on to Chosroes, who, after he had read it, tore it up.

I believe that Ibn Al-Musayyab said that the Apostle of Allah (Allah bless him and give him peace) called down upon the Persians the curse " May they be torn in pieces "

2. We are informed by Muhammad b. Maqutil Abul-Hasan, who had it from Abdullâh, who was told it by Shu‘bah, through Qatadah, through Anas b. Malik, who said that :

. حدثنا اسماعيل بن عبد الله قال : حدثني ابراهيم بن سعد عن صالح عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عُتبَة بن مسعود أن عبد الله بن عباس أخبره أَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم بَعَثَ بِكِتَابِهِ رَجُلاً وَأَمَرَهُ أن يَدْفَعَهُ إلى عظيم البَحْرَيْن فدفعه عظيم البحرين إلى كِسْرى ، فلمّا قرأه مَزَّقه ؛

فَحَسِبْتُ أَنَّ ابْنَ الْمُسَيَّبِ قال : فَدَعَا عَلَيْهِمْ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم أَنْ يُمَزَّقوا كُلَّ مُمَزَّقٍ .

حدثنا محمد بن مقاتل أبو الحسن أخبرنا عبد الله قال أخبرنا شعبةُ عن قَتَادَةَ عن أنسٍ بن مالكٍ قال :

كَتَبَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم كِتَابًا (أَوْ أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ)

(2) After reading the letter and accepting Islam.

CHAPTER 50.

On what is mentioned during the personal transmission of a hadith and in written communication of Knowledge by the doctors to the people of other lands ; [1]

On Anas' statement that 'Uthmân caused copies to be made of the Qurân and sent them to the four points of the compass .

'Abdullâh b. [illegible] Yahya b. Sa'îd, and Mâlik [illegible] of transmission to be valid ;

and on [illegible]

[illegible]

[illegible] and the place [illegible] the [illegible] people and informed [illegible]

بَابُ مَا يُذْكَرُ فِي الْمُنَاوَلَةِ وَكِتَابِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْعِلْمِ إِلَى الْبُلْدَانِ ،

وقال أنس : نَسَخَ عُثْمَانُ الْمَصَاحِفَ فَبَعَثَ بِهَا إِلَى الآفاق .

وَرَأَى عبدُ اللهِ بنُ عُمرَ وَيحيى ابنُ سَعِيدٍ وَمَالِكٌ ذَلِكَ جَائِزًا .

وَاحْتَجَّ بَعضُ أَهْلِ الْحِجَازِ فِي الْمُنَاوَلَةِ بِحديثِ النبي صلى الله عليه وسلم حيث كَتَبَ لأميرِ السَّرِيَّةِ كِتَابًا وقالَ : لا تَقْرَأْهُ حَتَّى تَبْلُغَ مَكانَ كَذَا وكَذَا . فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ الْمَكانَ قَرَأَهُ عَلَى النَّاسِ وأَخْبَرَهُمْ بِأَمْرِ النبي صلى الله عليه وسلم .

---

[1] [illegible] Madînah, the Prophet's city .

(2) [illegible] his written copy [illegible] or when the pupil submits [illegible] copy to him, the master may authorise him verbally or tacitly to transmit it . A written communication may be delegated in the same way .

(3) Al-Bukhari's Shaikh, Al-Humaidi .

Correction of page 20.

CHAPTER 30.

باب الدِّينُ يُسْرٌ وَقولِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم: « أحب الدين الى الله الحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ »:

On Islâm being a religion whose burden is light; and the words of the Prophet (Allah bless him and give him peace): (The religion most acceptable unto Allah is the Haniifite [1] Faith, whose burden is light.)

حدثنا عبد السلام بن مُطَهَّر قال حدثنا عمر بن علي عن معن بن محمد الغِفَاري عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « إنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إلاَّ غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا [illegible] »

We are informed by Abd-us-Salam b. Mutahhar, who had it from ‘Umar b. ‘Aly, through Ma‘n b. Muhammad Al Ghifari, through Sa‘id b. Abu Sa‘id Al-Maqburi, through Abu Hurairah, from the Prophet (Allah bless him and give him peace), who said:

Truly Islam is a religion whose burden is light, for no one can be too rigorous in the practice of it, without being overcome by it. [illegible] your [illegible] and the early morning, and the evening prayers, and a [illegible] in the night.

---

(1) The Arabic حنيفية implies the Islamic faith, as originally revealed to Abraham حنف is literally "to incline," and so refers to Abraham's inclination to the truth, and his avoidance of error. (Ibn Hajar)

of Bani Sa'd b. Bakr.

(Related also by Muhammad b. ʿAbdul-Hamid, through Sulaimân, through Thâbit, through Anas, from the Prophet (Allah bless him and give him peace) to this effect).

فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

اللهم نعم .

فقال الرجل : آمنت بما جئت به ، وأنا رسول من ورائي من قومي ، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر .

رواه موسى ، وعلي بن عبد الحميد عن سليمان عن ثابت عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم بهذا

" I am going to question thee, and I shall be searching in my questions, so do not take it ill of me. "

" Ask me whatsoever thou wilt.

" I ask thee by thy Lord and the Lord of those who lived before thee, hath Allâh sent thee to all men?

" Yea, I call Allâh to witness ."

" I adjure thee by Allâh, hath Allâh commanded thee to enjoin upon us the performance of the five *appointed* prayers in the day and night ? "

" Yea, I call Allâh to witness."

I adjure thee by Allâh , hath Allâh commanded thee to enjoin upon us to keep the fast during that month of the year ?

" Yea, I call Allâh to witness."

" I adjure thee by Allâh, hath Allâh commanded thee that those Alms be taken from our rich to be distributed among our poor ? "

" Yea, I call Allâh to witness."

" I have believed [1] in thy message ; I am the messenger of my fellow tribesmen whom I have left behind me, and my name is Dimâm b. Tha'labah, the brother of *the tribe*

« قَدْ أَجَبْتُكَ » فَقَالَ الرَّجُلُ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم : إِنِّي سَائِلُكَ فَمُشَدِّدٌ عَلَيْكَ فِي الْمَسْأَلَةِ فَلَا تَجِدْ عَلَيَّ فِي نَفْسِكَ

فَقَالَ : « سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ »

فَقَالَ : أَسْأَلُكَ بِرَبِّكَ وَرَبِّ مَنْ قَبْلَكَ : آللهُ أَرْسَلَكَ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ ؟

فَقَالَ : « اللَّهُمَّ نَعَمْ »

قَالَ : أَنْشُدُكَ بِاللهِ : آللهُ أَمَرَكَ أَنْ نُصَلِّيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ ؟

قَالَ : « اللَّهُمَّ نَعَمْ . »

قَالَ : أَنْشُدُكَ بِاللهِ : آللهُ أَمَرَكَ أَنْ نَصُومَ هَذَا الشَّهْرَ مِنَ السَّنَةِ ؟

قَالَ : « اللَّهُمَّ نَعَمْ »

قَالَ : أَنْشُدُكَ بِاللهِ : آللهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْخُذَ هَذِهِ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِنَا فَتَقْسِمَهَا عَلَى فُقَرَائِنَا ؟

(1) It must be remarke that the man had asked the Prophet no questions on the unity of God or other doctrines nor had he demanded a miracle ; and therefore it is to be assumed that he was already a believer . (Ibn Hajar.)

b. Yusuf Al-Firabri and also by Muhammad b. Isma'il Al-Bukhari, who had it from 'Ubaidullah b. Mûsa, through Sufiân, who said :

" If *a hadith* hath been recited before a narrator, there is no objection to the reciter saying : " He related to me . "

Al-Bukhâri adds : " I have heard Abu 'Asim state through Mâlik and Sufiân : " Reciting before a master is as valid as the master's own recitation .

We are informed by 'Abdullâh b. Yusuf who had it from Al-Laith, through Sa'id (Al-Maqburi) through Sharik b. 'Abdullâh b. Abu Namir that he heard Anas b. Mâlik say :

While we were sitting with the Prophet (Allâh bless him and give him peace) in the mosque, a man came in on a camel, which he made to kneel in the mosque and then knee-haltered. Thereupon he said to them : "Which of you is Muhammad?" The Prophet (Allah bless him and give him peace) was sitting in our midst in a recumbent posture . " He is, we replied, " this man with the white face, sitting recumbent." Then the man said to him : " O son of 'Abdu-l-Muttalib "

" Im a ready to answer thee, " replied the Prophet .

وحدثنا محمد بن اسماعيل البخاري قال :

حدثنا عبيد الله بن موسى عن سفيان قال:

إِذَا قُرِئَ عَلَى المُحَدِّثِ فَلَا بَأْسَ أَنْ يَقُولَ: « حَدَّثَنِي »

قَالَ: وَسَمِعْتُ أَبَا عَاصِم يَقُولُ عَنْ عَنْ مَالِكٍ وَسُفْيَانَ : « الْقِرَاءَةُ عَلَى الْعَالِمِ وَقِرَاءَتُهُ سَوَاءٌ » .

حدثنا عبد الله بن يوسف قال حدثنا الليث عن سعيد ـ هو المقبري ـ عن شريك ابن عبد الله بن أبي نمر أنه سمع أنس ابن مالك يقول :

بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ النَّبِي صلى الله عليه وسلم فِي الْمَسْجِدِ دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى جَمَلٍ فَأَنَاخَهُ فِي الْمَسْجِدِ ثُمَّ عَقَلَهُ ثُمَّ قَالَ لَهُمْ : « أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ ؟» وَالنَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مُتَّكِئٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ ، فَقُلْنَا: « هَذَا الرَّجُلُ الأبيضُ الْمُتَّكِئُ » فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: « ابْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ؟ »

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم:

Dimâm asked the Prophet (Allâh bless him and give him peace) whether Allâh had commanded him to enjoin upon them the performance of the *appointed* prayers. The Prophet answered in the affirmative. Dimâm âsserts that this is therefore equivalent to a recitation made to the Prophet (Allâh bless him and give him peace). Dimâm reported this to his fellow tribesmen, who approved it.

Mâlik took as evidence the legal deed which is read before people who then say : " So and so hath called us to witness, " while that hath only been recited to them. Likewise the Qur›ân is recited to a master, and the reciter saith : " So and so heard me my recitation. "[1]

We are informed by Muhammad b. Salâm who had it from Muhammad b. Al-Hasan Al-Wâsiti, through ‹Awf, through Al-Hasan, who said :

" It is not invalid to recite a *hadith* before a master. [2]

We are informed by Muhammad

أَنْ نُصَلِّيَ الصَّلَوَاتِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَهَذِهِ قِرَاءَةٌ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَخْبَرَ ضِمَامٌ قَوْمَهُ بِذَلِكَ فَأَجَازُوهُ . وَاحْتَجَّ مَالِكٌ بِالصَّكِّ يُقْرَأُ عَلَى الْقَوْمِ فَيَقُولُونَ : « أَشْهَدَنَا فُلَانٌ » وَيُقْرَأُ ذَلِكَ قِرَاءَةً عَلَيْهِمْ ، وَيُقْرَأُ عَلَى الْمُقْرِئِ فَيَقُولُ الْقَارِئُ : « أَقْرَأَنِي فُلَانٌ » .

حدثنا محمد بن سلام حدثنا محمد بن الحسن الواسطي عن عوف عن الحسن قال : « لا بَأْسَ بِالْقِرَاءَةِ عَلَى الْعَالِمِ » .

وَأَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ الْفَرَبْرِيُّ ،

(1) The point is that just as the document is attested by people who have not read it themselves but have only had it read out to them, so a hadith may be considered valid even when the transmitter has had it orally approved by a master.

(2) This type of tradition is termed أثر (Athar) as being معلق (Mu‹allaq) i. e. suspended, that is, [illegible] of the Prophet being given.

tree." [1]

يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ : هِيَ النَّخْلَةُ

CHAPTER 49.

بَابُ مَا جَاءَ فِي الْعِلْمِ وَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا»

On what hath been said on Knowledge and the word of Allâh (be He exalted) " Say, O my Lord, let me grow in Knowledge ." [2]

بَابُ الْقِرَاءَةِ وَالْعَرْضِ عَلَى الْمُحَدِّثِ . وَرَأَى الْحَسَنُ وَالثَّوْرِيُّ وَمَالِكٌ الْقِرَاءَةَ جَائِزَةً .

[3]CHAPTER 49a.

The reciting and submitting *of a hadith* to the instructing narrator ; [4]

Al Hasan, Ath-Thawri and Mâlik consider recitation valid *for the purpose of transmission* ;

وَاحْتَجَّ بَعْضُهُمْ فِي الْقِرَاءَةِ عَلَى الْعَالِمِ بِحَدِيثِ ضِمَامِ بْنِ ثَعْلَبَةَ ، قَالَ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم : آللهُ أَمَرَكَ

A certain doctor of Islam offered the hadith of Dimâm b Thaclabah as an argument for the validity of merely reciting a hadith to a professor

---

(1) Al-Bukhâri here repeats the hadith in order to stress the view-point shown in the new heading, and also the fact that he had the hadith from another source. (Al-Karmâni & Al-cAini) .

(2) Surah 20, verse 113.

(3) Al-Bukhâri here, in the accepted reading, omits the usual (باب) before this chapter, for which the commentators have offered no explanation. Al-Qastallâni and Al-cAini, however, mention it.

(4) The student of the hadith recites from memory or submits his written copy of it to his Shaikh, who passes it and authorises him to transmit it on his authority. Al-Bukhâri's object here is to refute those who maintained that a tradition was valid only if received directly from the mouth of a narrator, but not if it had been merely submitted to him for approval .

but I was prevented by modesty from saying so. (1) At last they asked the Apostle of Allâh to tell them which it was, and he replied : " It is the palm tree". (2)

النَّخْلَةَ فَاسْتَحْيَيْتُ ، ثُمَّ قَالُوا: «حَدِّثْنَا مَاهِيَ يا رسولَ اللهِ ، قالَ: «هِيَ النَّخْلَةُ»

CHAPTER 48.

On the Imâm's putting a question to his hearers in order to test the degree of their knowledge.

We are informed by Khâlid b. Makhlad, who had it from Sulaimân, who was told it by ʿAbdullâh b. Dînâr, through Ibn ʿUmar, from the Prophet (Allâh bless him and give him peace) who said :

" There is an evergreen tree which is indeed the parable of a Muslim. Tell me which this tree is." The Faithful conjectured various trees of the desert. It occurred to me (said Abdullâh) that it was the palm-tree. At last they asked the Apostle of Allâh to tell them which it was, and he replied : " It is the palm -

بابُ طَرْحِ الإِمَامِ الْمَسْأَلَةَ عَلَى أَصْحَابِهِ لِيَخْتَبِرَ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ :

حدثنا خالد بن مَخْلَدٍ حدثنا سليمان . حدثنا عبد الله بن دينار عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

«إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ ، حَدِّثُونِي مَا هِيَ» قال فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي ، قالَ عَبْدُ اللهِ فَوَقَعَ فِي نفسي أَنَّهَا النَّخْلَةُ ، ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ

---

(1) as being the youngest of those present .

(2) The connection between the exposition and the hadith consists in the fact that Al-Bukhâri had obtained this hadith from three sources in which occur respectively the three terms : حدثونى ، أخبرونى ، انبئونى (Al-ʿAini) .

[illegible]
[illegible]
[illegible] so ;" - on Hudhayfah's having said : " The Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) TOLD US two hadîths : "

On Abu-l-ʿAliyah's reporting [illegible] on the message he REPORTS from his Lord (be He magnified and glorified) ; "- on Anas stating from the Prophet (Allâh bless him and give him peace) : " He REPORTS a message from his Lord (be He magnified and glorified) ; "- and on Abu Hurairah's relating from the Prophet (Allah bless him and give him peace) : " He REPORTS a massage from your Lord (be He magnified and glorified) . "

We are informed by Qutaibah, who had it from Ismâil b. Jaʿfar through ʿAbdullâh b. Dinâr, through Ibn ʿUmar who stated that :

The Apostle of Allah (Allâh bless him and give him peace) said : " There is an evergreen tree which is indeed the parable of a Muslim . Tell me which this tree is ". The Faithful conjectured various trees of the desert. It occurred to me (said ʿAbdullâh) that it was the palm-tree,

سمعت النبيَّ صلى الله عليه وسلم كلمة وقال حُذَيْفَةُ : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حَدِيثَيْنِ .

وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ عن ابن عبّاس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عَنْ رَبِّهِ عزَّ وَجَلَّ . وقالَ أَنَسٌ عَن النبي صلى الله عليه وسلم يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ . وقال أبو هُرَيْرَةَ عَنِ النبي صلى الله عليه وسلم يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ .

حدثنا قتيبة حدثنا اسماعيل بن جعفر عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لا يَسقُطُ ورقها وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ،فَحَدِّثُونِي مَاهِيَ »فوَقَعَ النَّاسُ في شَجَرِ الْبَوَادِي، قَالَ عَبْدُ الله : وَوَقَعَ في نَفْسِي أَنها

and give hime peace) fell behind us *while we were* on a journey together[1] He then caught us up when we were surprised by the hour of prayer as we were performing our ritual ablution. We therefore proceeded to wipe our feet. [2] At this the Prophet called out at the top of his voice : " Woe unto your heels, for they shall bring you into danger of hell-fire. " This he said two or three times .

فى سفرة سافرناها فأدركنا وقد أرهقتنا الصلاة ونحن نتوضأ فجعلنا نمسح على أرجلنا، فنادى بأعلى صوته: «ويل للأعقاب من النار» مرتين أو ثلاثا.

CHAPTER 47.

On the term used by the narrator : " We are informed, or "we are told " , or "it is reported to us ; on Al-Humaidi's having told us that according to Ibn ʿUyaynah " we are informed " " we are told " " it is reported to us, " and "I have heard,' are all of the same value;—

On Ibn Masʿûd's words : " WE ARE INFORMED by the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) who is the Truthful and the Trustworthy, —

On Shaqîq's words through

باب قول المحدث «حدثنا» أو «أخبرنا» و«أنبأنا».

وقال لنا الحميدى: كان عند ابن عيينة «حدثنا» و«أخبرنا» و«أنبأنا» و«سمعت» واحدا.

وقال ابن مسعود: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق. وقال شقيق عن عبد الله:

(1) returning from Makkah to Madinah

(2) The Prophet perceived that in their [illegible] they had omitted to wash their heels properly.

present said : " He hath heard his question and was displeased at it. " Another said : " Nay, he hath not heard it, " At last when the Prophet had finished his discourse, he said : " Where is (I suppose he said) [1] the questioner about the coming of the Hour ? " " Here am I, O Apostle of Allâh , " replied the Bedouin. "When trust shall have disappeared," replied the Prophet, " then expect the Hour. " " In what way shall it disappear ? " asked the man. "When authority shall be in the hands of those who are unworthy of it , " replied the Prohet, " then expect the Hour. "

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : بَلْ لَمْ يَسْمَعْ ، حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ : «أَيْنَ أُرَاهُ السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ ؟» قَالَ : هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ! قَالَ : «فَإِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ» قَالَ : كَيْفَ إِضَاعَتُهَا ؟ قَالَ : «إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»

CHAPTER 46

On him who raiseth his voice in imparting Knowledge.

We are informed by Abu-n-Nu‹mân ‹Arim b. Al-Fadl, who had it from Abu ‹Awânah, through Abu Bishr through Yusuf b. Mâhak, through ‹Abudullâh b. ‹Amr, who related that :

The Prophet (Allâh bless him

باب مَنْ رَفَعَ صَوْتَهُ بِالْعِلْمِ :

حدثنا أبو النعمان عارم بن الفضل قال حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن يوسف بن ماهك عن عبد الله بن عمرو قال :

تَخَلَّفَ عَنَّا النبي صلى الله عليه وسلم

---

(1) أُرَاهُ Parenthesis by the narrator Muhammad b. Fulaih

Knowledge. (1)

CHAPTER 45.

باب من سئل علماً وهو مشتغل في حديثه فأتم الحديث ثم أجاب السائل :

On him who is questioned on Knowledge while he is engaged in his discourse, and concludeth his discourse before answering the question.

حدثنا محمد بن سنان قال : حدثنا فليح (ح) وحدثني ابراهيم بن المنذر قال: حدثنا محمد بن فليح قال : حدثني أبي قال: حدثني هلال بن علي عن عطاء ابن يسار عن أبي هريرة قال :

We are informed by Muhammad b. Sinan, who had it from Fulaih ; we are also informed by Ibrâhim b. Al-Mundhir, who received it from Muhammad b. Fulaih, to whom it was related by his father, who was told it by Hilâl b. ʿAli, through ʿAṭā b. Yasâr, through Abu Hurairah, who said :

بينما النبي صلى الله عليه وسلم في مجلس يحدث القوم جاءه أعرابي فقال: متى الساعة ؟ فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث ، فقال بعض القوم : سمع ما قال فكره ما قال .

While the Prophet (Allâh bless him and give him peace) was at a gathering, speaking to the people, a Bedouin came to him and said : "When shall be the Hour ? "

The Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) continuing his discourse, one of those

(1) Surah 20, verse 113. The omission of any Hadith here may be attributed to Al-Bukhâri's doubts as to its fulfilling the conditions of genuineness required by him ; or perhaps to his having left a blank with the object of filling it in later ; in fact Al-Bukhari used to write his headings first, and subsequently fill in the blanks with approqriate hadiths. (Ibn Hajar and Al-ʿAini)

pardon for your late governor, for he used to love to forgive. " He concluded by saying : ' I once went to the Prophet (Allâh bless him and give him peace) and said : ' I take the oath of allegiance to thee embrace Islam . He then imposed upon me the further condition of giving good counsel to every Mus'im. I took the oath on this *condition*. By the Lord of this mosque, I am now giving you good counsel. ' He then invoked Allâh's pardon and came down (from he pulpit).

العفو. ثمّ قال : أمّا بعدُ : فإنّي أتيتُ النبي صلى الله عليه وسلم قلتُ : أبايعُكَ على الإسلام، فشرطَ عليّ « والنُّصحِ لكلِّ مُسلمٍ » فبايعتُهُ على هذا ، وربِّ هذا المسجدِ إنّي لناصحٌ لكم ، ثمّ استغفرَ ونزلَ .

CHAPTER 44.

On the merit of Knowledge and on the word of Allâh (be He exalted): " Allâh shall raise those of you who have believed, and those to whom Knowledge hath been given to *different* degrees. [1] Allâh knoweth full well what ye do ; " and – His word (be He magnified and glorified): " O my Lord , let me grow in

بابُ فضلِ العلمِ وقولِ اللهِ تعالى: « يرفعِ اللهُ الذينَ آمنوا منكم والذينَ أوتوا العلمَ درجاتٍ واللهُ بما تعملونَ خبيرٌ » وقولِه عزَّ وجلَّ: « ربِّ زدني علماً ».

1. Surah 58, verse 12. Al-Baidâwi and Ibn Hajar state that a difference of degree is implied, religious knowledge being preferred over belief.

the leaders of the Faithful, and to the common People " In the words of Allâh (be He exalted) " provided they be loyal to Allâh and His Apostle ." [1]

1. We are informed by Musaddad, who had it from Yahyâ, through Ismâ'il, who was told it by Qais b. Abu Hâzim, through Jarîr b. Abdullâh, who said :

" I swore allegiance to the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) to perform the appointed prayers , to pay the prescribed alms, and to give good counsel to every Mnslim. „ [2]

2. We are informed by Abu-n-Nu'mân, who had it from Abu 'Awânah, through ziâd b. 'Ilâqah , who stated that he heard Jarir, b. Abdullâh say on the day of Al-Mughirah b. Shu'bah's death, when he had risen and and praised and glorified Allâh :

" It is your duty to fear Allâh as being alone and having no partner, to be dignified and calm until there come to you a new governor, who shall surely come to you immediately.'

He then added : " Ask Allâh's

نَصَحُوا لِلّٰهِ وَرَسُولِهِ »

حدثنا مسدّدٌ قال : حدثنا يحيى عن اسماعيلَ قال : حدثني قيسُ بنُ أبي حازمٍ عن جريرِ بنِ عبدِ اللهِ قال : بايعتُ رَسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم وسلم عَلَى إِقامِ الصَّلاةِ وإِيتاءِ الزَّكاةِ والنُّصحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ .

حدثنا أبو النعمان قال : حدثنا أبو عوانةَ عن زيادِ بنِ عِلاقةَ قال : سمعت جَرِيرَ بنَ عبدِ الله يقولُ يومَ ماتَ المغيرةُ بنُ شعبةَ ، قامَ فحمدَ الله وأثنى عليه وقال : عليكُم باتّقاءِ اللهِ وحدَهُ لا شريكَ لهُ والوقارِ والسكينةِ حتى يأتيكُمْ أميرٌ فإنما يأتيكُم الآنَ . ثم قال :

استعفوا لأميرِكُمْ فإنه كانَ يحبُّ

(1) Surah 9, v. 92.

2) Even if the advice is detrimental to the giver of it.

to its motive."

2. We are informed by Hajjâj b. Minhâl who had it from Shu'bah, who received it from 'Adiyy b. Thâbit, who heard it from 'Abdullâh b. Yazid, through Abu Mas'ûd, from the Prophet (Allâh bless him and give him peace) who said :

" If a man spend aught upon his family through devotion to Allâh, it shall be accounted unto him as alms-givings ."

3. We are informed by Al-Hakam b. Nâfi' who had it from Shu'aib , through Az-Zuhri, to whom it was related by 'Amir b. Sa'd, through Sa'd b. Abu Waqqâs, who informed him that the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) said :

"Verily nothing that thou spendest where by thou seekest the face of Allâh goeth unrewarded, even to the delicacies which thou placest in thy wife's mouth."

فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ ».

حدثنا حجاجُ بنُ منهالٍ قال حدثنا شُعبةُ قال : أخبرني عَدِيُّ بنُ ثابت قال سمعتُ عبدَ اللهِ بنَ يزيدَ عن أبي مسعودٍ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِذَا أَنفَقَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ يَحْتَسِبُهَا فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ » .

حدثنا الحكمُ بنُ نافع قال: أخبرنا شعيبٌ عن الزهريِّ قال: حدثني عامر ابنُ سعدٍ عن سعدِ بنِ أبي وقاص أنه أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلاَّ أُجِرْتَ عَلَيْهَا حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي امْرَأَتِكَ ».

CHAPTER 43.

In the words of the Prophet (Allâh bless him and give him peace) " The corner-stone of religion is loyalty to Allâh, to his Apostle , to

باب قولِ النبي صلى الله عليه وسلم: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ» وقولِهِ تعالى: «إذا

faith, the ritual ablution, the *appointed* prayers, the prescribed alms the pilgrimage to *Mokkah*, the Ramadân fast, and legal engagements, the word of Allâh (be He exalted) : " Say, ' O Muhammed, : ' Every man acteth after his own manner (that is to say, his intentions) ; whatsoever a man spendeth upon his kinsfolk out of devotion to Allâh shall be reckoned' as almsgiving ; the words of the Prophet (Allâh bless him and give him peace) : " But the way of righteousness requireth moreover the Jihâd and sincerity of motive. "

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ » عَلَى نِيَّتِهِ ، نَفَقَةُ الرَّجُلِ عَلَى أَهْلِهِ يَحْتَسِبُهَا صَدَقَةٌ ، وَقَالَ : وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ .

1. We are informed by ‹Abdullâh b. Maslamah, who had it from Mâlik, through Yahya b. Sa‹id, through Muhammad b. Ibrahim, through ‹Alqamah b Waqass , through ‹Umar that the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) said:

" Actions are judged by the intention and every man is requited according to what he intendeth ; and if any man flee [1] unto Allâh and his Apostle his flight is so accounted, and if his flight be to obtain a worldly goal or unto a woman to marry her, then it is accounted to him according

حدثنا عبدُ الله بنُ مَسْلَمَةَ قال : أخبرنا مالكٌ عن يحيى بنِ سعيدٍ عن محمَّد بنِ إبراهيمَ عن عَلْقَمَةَ بنِ وقّاصٍ عن عُمَرَ أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قال: «الأَعْمَالُ بالنِّيَّةِ ولِكلِّ امْرِىءٍ مَا نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا

(1) From Makkah to Madinah to join the Prophet in the cause of Islam . See Nûr-el-Islam Review Feb. 1935, p. 2

مُحَمَّداً رسُولُ اللهِ، وإِقامُ الصَّلاَةِ، وإيتاءُ الزَّكاةِ، وصِيامُ رَمَضانَ، وأن تُعطُوا مِنَ المَغنَمِ الخُمُسَ. ونَهاهُم عَن أربعٍ: عن الحَنْتَمِ والدُّبَّاءِ والنَّقِيرِ والمُزَفَّتِ (ورُبَّما قال المُقَيَّرِ) وقال: احفَظُوهُنَّ وأخبِرُوا بِهِنَّ مَن وَراءَكُم».

may enter Paradise. They then asked him about various kinds of drink [1], and he gave them four commandments, and prohibited them four things. He commanded them to believe in Allâh alone, adding: 'Do ye know what belief in Allâh alone is?' 'Allâh and His Apostle know best,' replied they. 'It is' said he, 'to testify that there is no deity but Allâh and that Muhammad is the Apostle of Allâh, to perform the *appointed* prayers, to pay the *prescribed* alms to keep the Ramadan fast, and to give the fifth part of the booty.' He then prohibited them four thingsjars gourds vats made from palmtrunks, and vessels smeared with pitch (or perhaps he said tar) [2] adding: 'Commit these commandments to memory, and communicate them to those you have left behind you."

بابُ مَا جاءَ أنَّ الأعمالَ بالنِّيَّةِ والحِسبَةِ، ولِكُلِّ امرِىءٍ مَا نَوَى، فَدَخَلَ فِيهِ الإيمانُ والوُضُوءُ والصَّلاةُ والزَّكاةُ والحَجُّ والصَّومُ والأحكامُ،

CHAPTER 42.

On the tradition that action that actions are judged only by intentions; actions inspired by devotion to Allâh; and, every one is requited according to what he intendeth.- This includes

(1) or, the drinks contained in various vessels.

(2) Vessels of this kind produced rapid fermentation of the fruits (especially dates and raisins) steeped in them, and so might lead to unintentional intoxication.

We are informed by ʿAli b. Al-Ja'd who had it from Shuʿbah, through Abu Jamrah, who stated he used to sit[1] with Ibn ʿAbbâs, who used to invite him up on to his divan. Once he said : " Sojourn with me until I make over to thee a share of my property. " So I sojourned with him two months, after which he said : " When the deputation from the family of ʿAbdul-Qais visited the the Prophet (Allâh bless him and give peace), he said : " Who are these people ? (or what is this deputation) [2]. We are from the tribe of Rabîʿah, replied they, "Welcome to you, people (or deputation) who come without humiliation [3] or regret. " " O Apostle of Allâh," replied they, we can come to thee only in the sacred month [4] so long as there is between us ond thee that miscreant tribe of Mudar. therefore prescribe unto us a decisive decree which we can communicate to those we have left behind us, by which we

إِنَّ وَفْدَ عَبْدِ القَيْسِ لَمَّا أَتَوا النبى
صلى الله عليه وسلم قال : مَنِ القَوْمُ
أَوْ مَنِ الوَفْدُ؟ قالُوا : « رَبِيعَةُ » قال :
« مَرْحَبًا بالقَوْمِ أَوْ بالوَفْدِ غَيْرَ خَزَايا
وَلا نَدامَى ، فَقَالُوا: يارَسُولَ الله إِنَّا
لاَ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيَكَ إِلاَّ فى شَهْرِ
الحَرامِ ، وبيننا وَبينك هذا الحَىُّ
مِنْ كُفَّارِ مُضَرَ ، فَمُرْنَا بأَمْرٍ فَصْلٍ
نُخْبِرْ بِهِ مَنْ وراءنا وَنَدْخُلْ بِهِ الجَنَّةَ ،
وسألوه عن الأَشْرِبَةِ . فأمرهم بأربع
ونهاهم عن أربع : أمرهم بالإيمان بالله
وَحْدَهُ ، قال : أتدرون ما الإيمان بالله
وَحْدَه ؟ قالوا اللهُ ورسوله أعلم ،
قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ

---

(1) as interpreter - according to another reading Abu Jamrah was versed in Persian and Arabic.

(2) The narrator here is in doubt as to which.

(3) i. e. without being forced by the humiliation of defeat.

(4) When fighting is forbidden — referring either to the month of Rajab, or to one of the four sacred months Dhul-Qiʿdah, Dhul-Hajjah, Al-Muharram, Rajab.

يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، ألا وإنّ لكل ملك حمى ، ألا إنّ حمى الله في أرضه محارمه ، ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » :

We are informed by Abu Nasim who had it from Zakariyyâ, through ‹Amir who heard An-Numân b. Bashir state that he heard the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) say :

" Clear is the lawful and clear is the forbidden; but between these two there are matters equivocal, not discerned by many ; so he that avoideth doubtful matters hath attained immunity from condemnation for his faith's and his honour's sake; but he who falleth into doubtful matters, is like a shepherd who grazes his sheep round a preserve which he almost entereth. Now, every King hath a preserve, and verily Allâh's preserve on earth is those things which he hath forbidden. Behold, in the body there is a certain piece of flesh - if it is sound the whole body is sound, and if it is corrupt the whole body is corrupt. Now this piece of flesh is the heart. (1)

باب : أداء الخمس من الإيمان :

CHAPTER 41.

The payment of the fifth part of the booty is a feature of the Faith.

حدثنا علي بن الجعد قال أخبرنا شعبة عن أبي جمرة قال : كنت أقعد مع ابن عباس يجلسني على سريره فقال : أقم عندي حتى أجعل لك سهماً من مالي فأقمت معه شهرين ثم قال :

(1) As being the seat of the intellect and the conscience.

Abu Abdullâh (Al-Bukhâri)adds that the Prophet placed all this among the articles of *perfect* faith.

فَقَالَ: « هٰذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ »

قَالَ أَبُو عبد الله: جَعَلَ ذٰلِكَ كُلَّهُ مِنَ الإِيمَانِ .

CHAPTER 39.

We are informed by Ibrahim b. Hamzah, who had it from Ibrahim b. Sa'd through S lih through Ibn Shihâb through ‹Ubaidullâh b. ‹Abdullâh that he was told by ‹Abdullâh b. ‹Abbas that Abu Sufian related to him that Heraclius said to him :

" I have asked thee whether they are increasing or decreasing, and thou hast asserted that they are increasing. Such is the course of faith until it reacheth its perfection.

I have asked thee whether any one hath renounced his faith out of aversion to it after having embraced it, and thou hast answered in the negative. So it is with faith; when its joy penetrateth the heart, no one renounceth it. "

بابٌ : حدثنا إبراهيمُ بنُ حمزةَ قال حدثنا ابراهيمُ بن سعد عن صالح عن ابن شهابٍ عن عُبيدالله بن عبد الله أن عبد الله بن عباس أخبرهُ قال أخبرني أبُو سفيان أنَّ هرقلَ قال لهُ: سألتُك هلْ يزيدونَ أم ينقصُونَ فزعمتَ أنهم يزيدُونَ ، وكذلك الإيمانُ حتى يتمَّ ، وسألتُك هل يرتدُّ أحدٌ سخطةً لدينه بعدَ أن يدخلَ فيه فزعمتَ أنْ لاَ . وكذلك الإيمانُ حينَ تُخالطُ بشاشتهُ القلوبَ لاَ يسخطهُ أحدٌ .

CHAPTER 40.

On the merit of him who seeketh immunity from condemnation for his religion's sake

بَابُ فَضْلِ مَنِ استبرأَ لدينه: حدثنا أبو نُعيم حدثنا زكرياء عن عامر قال سمعتُ النعمانَ بن بشير

Him; for if thou dost not see Him, He seeth thee," "When is the Hour ?" asked the Angel He who is questioned knoweth no more about it than the questioner, but I shall tell thee of the signs of its coming : when a bondwoman giveth birth to her master;[1] when drivers of black camels [2] glory in palaces [3] *The time of the Hour* [4] is one of the five things known only to Allâh. The Prophet (Allâh bless him and give him peace) then recited the verse [5] " Truly Allâh possesseth the knowledge of the Hour. "

The Angel then departed, and the Prophet ordered him [6] to be brought back; but nothing was to be seen of him.

So he said : " This is Gabriel, who hath come to teach the people their religion."

قال: ما الإحسانُ ؟ قال: أن تعبُدَ اللهَ كأنّكَ تراهُ فإن لم تكن تراهُ فإنّهُ يراكَ .

قال: متى الساعةُ ؟ قال: ما المسئولُ عنها بأعلمَ من السائلِ، وسأخبرُكَ عن أشراطِها : إذا ولدت الأمةُ ربَّها، وإذا تطاولَ رُعاةُ الإبلِ البُهْمُ في البُنْيانِ، في خمسٍ لا يعلمهنَّ إلا اللهُ، ثمّ تلا النبي صلى الله عليه وسلم « إنّ اللهَ عندَهُ علمُ الساعةِ » الآيةَ، ثمّ أدبرَ فقال: ردُّوهُ، فلم يروا شيئاً،

---

(1) On the extension of Islam, and the conquest of non-Muslim lands, when the Muslims will make numbers of female captives, and have children by them, who will rule; Or the passage refers to kings having slave-mothers; or else to the corruption of morals which will result in such traffic in slave-mothers that sons may unwittingly buy their own mothers. Another suggestion is that sons may so ill--treat their mothers, that they becom no better than slaves. (Al-ʿAini)

(2) Ibn Hajar suggests that black is considered by the Arabs as the worst colour for camels, the best being brown - hence " a low type of camel - driver," he also suggests " obscure " as the meaning of بهم (بهم) applied to the camel-drivers, in which case بهم will read بهم

(3) Again referring to the Arab conquests, when the humble should rule.

(4) These words are missing from the text

(5) Surah 31, v. 34.

(6) The man in whose form the angel had appeared.

him peace) to the deputation of Abdul-Qais concerning faith; and the word of Allâh (be He exalted) :" He who seeketh another religion than Islam shall not have it accepted by Him. " (1)

We are informed by Musadded who had it from Isma'il b. Ibrâhîm, who received it from Abu Hayyân Al-Taimi, through Abu Zur'ah, through Abu Huraizah, who said :

The Prophet (Allâh bless him and give him peace) was one day sitting conspicuously(2) before the people, when Gabriel(3) came to him and said : "what is Faith ?" "Faith" replied he " is to believe in Allâh, His angels, in seeing Him in the hereafter, His prophets, and in the Resurrection. " The Angel said : " What is Islam ?" "Islam" replied he " is that thou shouldest worship Allâh and not associate aught with Him, perform the appointed prayers, give the prescribed alms, and fast in Ramadân. " what is well-doing ?" asked the Angel. " That thou shouldest worship Allâh as if thou sawest

الْقَيْسِ مِنَ الإِيمَانِ ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى : «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ» :

حدثنا مُسَدَّدٌ قال حدثنا اسماعيل ابن ابراهيم أخبرنا أبو حيان التيمي عن أبي زرعة عن أبي هريرة قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم بارزاً يوماً لِلنَّاسِ فأتاه جبريل فقال :

ما الإيمَانُ ؟ قال : الإيمَانُ أن تؤمِنَ بِاللهِ ، وَمَلَائِكَتِهِ ، وَبِلِقَائِهِ ، وَرُسُلِهِ ؛ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ .

قال : ما الإِسْلَامُ ؟ قال : الإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ .

(1) Surah 3, v. 79

(2) Before then the Prophet's attitude did not distinguish him from those with him ; in this case he sat on an elevated seat constructed for him, so that a stranger could distinguish him.

(3) Or according to another reading — " a man ", Gabriel appearing in that form

يُخْبِرُ بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ فَتَلَاحَى رَجُلَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ: «إِنِّي خَرَجْتُ لِأُخْبِرَكُمْ بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ وَإِنَّهُ تَلَاحَى فُلَانٌ وَفُلَانٌ فَرُفِعَتْ وَعَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكُمْ، الْتَمِسُوهَا فِي السَّبْعِ وَالتِّسْعِ وَالْخَمْسِ»

came out *of his room* to announce which was the Night of Destiny, when two Muslims began an altercation, so he said : " I came out to announce to you the Night of Destiny, but such and such began an altercation, so that the exact night hath gone from me. Perchance this may be a blessing unto you. Seek it on the night before[1] the *twenty*-seventh, the *twenty*-ninth and the *twenty*-fifth of *Ramadân*."

CHAPTER 38.

بَابُ سُؤَالِ جِبْرِيلَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم عَنِ الإِيمَانِ وَالإِسْلَامِ وَالإِحْسَانِ وَعِلْمِ السَّاعَةِ، وَبَيَانِ النبي صلى الله عليه وسلم لَهُ ثُمَّ قَالَ: جَاءَ جِبْرِيلُ عليه السلام يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ فَجَعَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ دِينًا، وَمَا بَيَّنَ النبي صلى الله عليه وسلم لِوَفْدِ عَبْدِ

On the Angel Gabriel questioning the Prophet (Allâh bless him and give him peace) on faith, Islâm well-doing and the knowledge of when the Hour shall be; and the exposition of the Prophet (Allâh bless him and give him peace) in answer to him. How he then said to his followers that Gabrial (peace be upon him) had come to teach them their religion, making of all this one religion; with the exposition of the Prophet (Allâh bless him and give

---

(1) The Muslims reckon the day as beginning at sunset.

having said : "Only the true believer feareth *hypocrisy*, and no one feeleth himself secure from it but the hypocrite ;

And on the fact that we should beware of persisting in hypocrisy [1] and unrepentant rebelliousness, as is clear from the word of Allâh ; "And who have not persisted in what they have wittingly done amiss." [2]

(1) We are informed by Muhammad b. ʿArʿarah, who had it from Shuʿbah, through Zubaid, who said :

" I asked Abu Wâ'il about the Murjiites [3] and he replied that he had been informed by ʿAbdullâh that the Prophet (Allâh bless him and give him peace) said : 'To revile a Muslim is an act of impiety, and to fight him is an act of infidelity. [4]"

2. We are informed by Qutaibah b. Saʿîd, who had it from Ismâʿîl b. Jaʿfar, through Humaid, through Anas to whom it was related by ʿUbâdah b. As-Sâmit that :

The Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) once

الحَسَنِ : مَا خَافَهُ إِلا مُؤْمِنٌ وَلا أَمِنَهُ إِلاَّ مُنَافِقٌ - وَمَا يُحْذَرُ مِنَ الإِصْرَارِ عَلَى النِّفَاقِ وَالْعِصْيَانِ مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى : « وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ».

حدثنا محمد بنُ عَرْعَرَةَ ، قال حدثنا شُعبةُ عن زُبيدٍ قال : سألتُ أبا وائلٍ عن المرجئةِ فقال حدثني عبدُ الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ »

أَخْبَرَنَا قتيبةُ بنُ سعيدٍ حدثنا إسماعيلُ بن جعفرٍ عن حُميدٍ عن أنسٍ قال أخبرني عبادةُ بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج

---

(1) or "strife" (تقاتل) according to another reading

(2) Surah 3, v . 129

(3) The Murjiites believed that perfect faith could be held by sinners, their faith not being impaired by reprehensible actions, - and hence held that the end justifies the means. They accordingly neglected ontword religious, practices — monotheism and obedinece to onthority being considered sufficient.

(4) Al-ʿAini suggests that كفر literally meaus the denial of the duties of Muslims to one another.

carat equal to Uhud,[2] and he who attendeth the prayer over the body and then returneth before the burial, shall be rewarded with one carat."

The narrator (Rawh) is supported by ʿUthman Al-Muʾadhdhin, who had it from ʿAwf, through Muhammad through Abu Hurairah, from the Prophet (Allâh bless him and give him peace) to the same effect.

كلُّ قِيرَاطٍ مِثْلُ أُحدٍ ، وَمَنْ صَلَّى عَلَيْهَا ثُمَّ رَجَعَ قَبْلَ أَنْ تُدْفَنَ فَإِنَّهُ يَرْجِعُ بِقِيرَاطٍ » تَابَعَهُ عُثْمَانُ الْمُؤَذِّنُ قال حدثنا عوفٌ عن مُحَمَّدٍ عن أبي هريرةَ عن النبي صلى الله عليه وسلم نَحْوَهُ .

CHAPTER 37.

On the believer's fear of losing the fruit of his works unwittingly; on At-Taimi's words : " Never have I contrasted my words with my deeds, but I have feared to be taxed with falsehood ;

on the words of Ibn Abu Mulaikah : " I have known *during the latter part of their lives* thirty of the companions of the Prophet (Allâh bless him and give him peace) all of whom were afraid of being taxed with hypocrisy, and yet no one of them ever claimed to possess the faith of Gabriel or of Michael on the report of Al-Hasan

بَابُ خَوْفِ الْمُؤْمِنِ مِنْ أَنْ يَحْبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ : مَا عَرَضْتُ قَوْلِي عَلَى عَمَلِي إِلَّا خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ مُكَذَّبًا .

وَقَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ : أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النبي صلى الله عليه وسلم كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ إِنَّهُ عَلَى إِيمَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ . وَيُذْكَرُ عَنِ

---

(2) A mountain near Madinah, symbolical of the greatness of the reward.

mentioned the prescribed alms. "Is there any more enjoined upon me?" asked the man, "No, unless thou do so voluntarily —, repaated the Apostle The man then departed saying: "By Allâh, I shall neither add anything to this nor take anything away from it."

"Blessed is this man if he be true." said the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace)

وسلم الزكاة ، قال: هل عليّ غيرها؟ قال: لا إلا أن تطوّع ، قال فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أفلح إن صدق»

CHAPTER 36.

To follow funeral processions is a feature of the Faith.

We are informed by Ahmad b. ‹Abdullâh b. ‹Ali Al-Manjufi, who had it from Rawh, who received it from ‹Awf, through Al-Hasan and Muhammad, through Abu Hurairah that the Apastle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) said:

" He who followeth the funeral of a Muslim from faith and devotion, remaining by the body until the prayers are said over it and the burial is completed, shall return with a double reward of two carats [1] each

باب: اتباع الجنائز من الإيمان:

حدثنا أحمد بن عبد الله بن عليّ المنجوفي قال حدثنا روح قال حدثنا عوف عن الحسن ومحمد عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من اتبع جنازة مسلم إيمانا واحتسابا وكان معه حتى يصلى عليها ويفرغ من دفنها فإنه يرجع من الأجر بقيراطين

(1) An ancient unit of measurement used here symbolically for " share "

مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ » :

him sincere devotion as Hanifites,[1] to perform the appointed prayers, and give the prescribed alms; such is the right faith of Islam."

حدثنا اسماعيل قال حدثني مالك بن أنس عن عمه أبي سهيل بن مالك عن أبيه أنه سمع طلحة بن عبيد الله يقول:

We are informed by Isma'il, who had it from Malik b. Anas, through his paternal uncle Abu Suhail b. Malik through his father that he heard Talhah b. 'Ubaidullah say:

جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ ثَائِرُ الرَّأْسِ يُسْمَعُ دَوِيُّ صَوْتِهِ وَلَا يُفْقَهُ مَا يَقُولُ حَتَّى دَنَا فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الْإِسْلَامِ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ . فقال: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قال: لا، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وَصِيَامُ رَمَضَانَ . قال: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ؟ قال: لا، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ . قال وذكر له رسول الله صلى الله عليه

"A certain man from Najd once came to the Apostle of Allah (Allah bless him and give him peace) with his hair dishevelled, his voice reverberating without our understanding what he was saying until he drew near, when we understood that he was asking questions about Islam, to which the Apostle of Allah (Allah bless him and give him peace) was replying: "It is five prayers during the day and night." "Are there any more enjoined upon me?" asked the man. "No, unless thou do so voluntarily. There is also the Ramadan fast," continued the Apostle of Allah (Allah bless him and give him peace). "Is there any other fast enjoined upon me?" asked the man. "No, unless thou do so voluntarily," added the Apostle of Allah (Allah bless him and give him peace), who

[1] Followers of the true faith of Abraham

2. We are informed by al-Hasan b. as-Sabbâh who heard it from Ja‹far b. ‹Awn, who had it from Abul-‹Umais who was told it by Qais b. Muslim, through Târiq b. Shihâb, through ‹Umar b. al-Khattâb that :

A certain Jew said to him : "O, Commander of the Faithful, there is a verse in your Book which you recite, the day of whose revelation we should have adopted as a festival if it had been revealed to us Jewish people." "What verse is that ?" said ‹Umar. "It is this" replied the Jew : "This day have I perfected for you your religion, and have completed my blessing upon you, and have approved Islam as your religion."

"We know that day," replied ‹Umar, and the place in which it was revealed to the Prophet (Allâh bless him and give him peace) while he was standing on Mount ‹Arafât on a Friday."

حدثنا الحسنُ بن الصبَّاحِ سمعَ

جعفر بن عونٍ حدثنا أبو العُمَيْس

أخبرنا قيسُ بن مسلمٍ عن طارق بن

شهابٍ عن عُمر بن الخطاب أن رجلا

مِنَ اليَهُودِ قالَ له : يا أميرَ المُؤمنين

[illegible]

CHAPTER 35.

On the giving of the prescribed alms being a feature of Islam, and on the word of Allâh : "and yet naught else was enjoined upon them but that they should worship Allâh, offering to

بابٌ : الزَّكاةُ مِنَ الإسلامِ

وقوله : « وما أُمِرُوا إلاَّ لِيَعبُدُوا اللهَ

Therefore if a man neglect anything of this perfection, he hath his faith imperfect .	ترك شيئًا من الكمال فهو ناقص.
1. We are informed by Muslim b. Ibrahim, who had it from Hisham to whom it was related by Qatâdah through Anas, from the Prophet (Allah bless him and give him peace), who said :	حدثنا مسلم بن ابراهيم قال حدثنا هشام قال حدثنا قتادة عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:
" He shall come out of Hell who declareth that there is no deity but Allâh, and hath in his heart faith (1) as the weight of a grain of barley ; and he shall come out of Hell who declareth that there is no deity but Allah, and hath in his heart faith as the weight of a grain of wheat ; and he shall come out of Hell who declareth that there is no deity but Allâh and hath in his heart as the weight of a mote ."	«يخرج من النار من قال لا إله إلاّ الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلاّ الله وفي قلبه وزن برّة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلاّ الله وفي قلبه وزن ذرّة من خير»
Abu ʿAbdullâh (al-Bukhâri) states that Abân said that he was informed by Qatâdah, who had it from Anas from the Prophet (Allâh bless him and give him peace) that : من ايمان (of faith) is to be read for من خير (of good).	قال أبو عبد الله قال أبان حدثنا قتادة حدثنا أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم: «من إيمانٍ» مكان: من خير.

---

(1) The rendering of " faith " for خير is in agreement with the *Isnâd* given at the end of this hadîth.

We are told by Muhammad b. al Muthanna, who had it from Yahia Hisham who was told it by his father through A'ishah that : the Prophet (Allâh bless him and give him peace) once went into A'ishah 's appartment when a woman was with her, and he asked her who the woman was. A'ishah then said : " Such and such " praising the woman's assiduousness in prayer. " Stop " said the Prophet " Your duty is no more than that which ye can endure, for by Allâh, Allah will not weary until ye do.[1] The worship best pleasing to Him is that in which the worshipper is constant. "

حدثنا محمد بن المثنى حدثنا يحي عن هشام قال أخبرني أبي عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها وعندها امرأة قال من هذه؟ قالت فلانة تذكر من صلاتها ;قال: مه عليكم بما تطيقون فو الله لا يمل الله حتى تملوا، وكان أحب الدين إليه ما داوم عليه صاحبه »

CHAPTER 34.

On the increase and decrease of faith, and the word of Allah (be he exalted) : " We have incr ased guidance unto them " [2] and " *that* they who have beleived may increase in faith, [3] and the word of Allah (be He exalted) " this day have I perfected your faith unto you "[4]

باب زيادة الإيمان ونقصانه وقول الله تعالى: «وزدناهم هدى» «ويزداد الذين آمنوا إيمانا» وقال: «اليوم أكملت لكم دينكم» فإذا

(1) Commentators who have been puzzled by the attribution of weariness to God have explained this bv suggesting that He will not qrant anv prayer abondoned through weariness ; حتى تملوا can be rendered " *even if ye* weary " (See Al-'Aini and At-Taimi), or the passage can be rendered : " Allâh will not withold His reward until ye abandon your worship. " (supported by a reading attributed to 'A'ishah — (وأن الله لا يمل من الثواب حتى تملوا من العمل)

(2) Surah 18, v. 12,

(3) Surah 74, v. 3.

(4) Surah 5, verse 5

informed by Zaid b. Aslam that Atâ b. Yasâr had told him that Abu Sa'id Al-Khudri informed him that he heard the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) say :

If a man [1] embrace Islam, so his faith be sincere, Allâh shall absolve him from every sin he hath committed heretofore ; and thereafter there shall be requital - for a single good deed tenfold up to seven hundredfold, and for a single bad deed only its equivalent, except Allâh remit it.

أَسْلَمَ أَنَّ عَطَاءَ بنَ يَسَارٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يَقُولُ :

« إِذَا أَسْلَمَ الْعَبْدُ فَحَسُنَ إِسْلَامُهُ يُكَفِّرُ اللهُ عَنْهُ كُلَّ سَيِّئَةٍ كَانَ زَلَفَهَا وَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ الْقِصَاصُ: الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ وَالسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا إِلَّا أَنْ يَتَجَاوَزَ اللهُ عَنْهَا »

2. We are informed by Ishâq b. Mansur, who had it from Abdur-Razzâq, who received it from Ma'mar, through Hammâm, through Abû Hurairah who stated that the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) said : if any of you embrace Islam sincerely, every good deed he doeth shall be accounted unto him as tenfold to seven hundredfold, and every bad deed as its equivalent.

حدثنا إسحاق بنُ منصُورٍ قال حدثنا عبدُ الرَّزاق قالَ أخبرنا معمَرٌ عن همّام عن أبي هريرة قال قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم :« إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلَامَهُ فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِمِثْلِهَا »

CHAPTER 33.

The worship most pleasing to Allâh is that which is most constant.

باب : أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللهِ أَدْوَمُهُ :

---

(1) Another reading is الكافر for العبد

congregations[1] bending in prayer, he said: "I call Allâh to witness that I have been praying with the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) facing Makkah. On hearing this, they turned, keeping the posture in which they were, towards the Ka'bah.

The Jews had been pleased at the Prophet's performing the prayer facing Jerusalem, and so likewise the Christians; but when he turned his face towards the Ka'bah, they showed their displeasure.

Zuhair states that he had it from Abu Ishâq through Al-Barâ' in this Hadith of his that some of the Faithful had died following the practice of praying towards Jerusalem before the qiblah had been changed, having been killed in battle. We did not know what to say about them, and so Allâh (be He exalted) sent down the verse "Allâh is not one who would allow your devotion to be fruitless."

وَهُمْ رَاكِعُونَ فَقَالَ: أَشْهَدُ بِاللهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم قِبَلَ مَكَّةَ، فَدَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ الْبَيْتِ . وَكَانَتِ الْيَهُودُ قَدْ أَعْجَبَهُمْ إِذْ كَانَ يُصَلِّي قِبَلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَأَهْلُ الْكِتَابِ . فَلَمَّا وَلَّى وَجْهَهُ قِبَلَ الْبَيْتِ أَنْكَرُوا ذَلِكَ . قَالَ زُهَيْرٌ: حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ عَنِ الْبَرَاءِ فِي حَدِيثِهِ هَذَا أَنَّهُ مَاتَ عَلَى الْقِبْلَةِ قَبْلَ أَنْ تُحَوَّلَ رِجَالٌ وَقُتِلُوا فَلَمْ نَدْرِ مَا نَقُولُ فِيهِمْ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى «وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ»

CHAPTER 32

On the sincerity of a man's conversion to Islam.

1. Malik stated that he was

بَابُ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ :

قَالَ مَالِكٌ أَخْبَرَنِي زَيْدُ بْنُ

(1) The Banu Hârithah—the place now being known as "the Mosque of the two Qiblahs" (مسجد القبلتين)

CHAPTER 31.

On prayer being a feature of the Faith, and on the word of Allâh (be He exalted): " Allâh is not one who would allow your devotion to be fruitless" - meaning your prayer by the Ka‛bah *facing Jerusalem*.[1]

We are informed by ‛Amr b. Khalid, who had it from Zuhair, who eceived it from Abu Ishâq, through Al-Barâ. that :

The Prophet, (Allàh bless him and give him peace) soon after he had arrived at Madinah lodged with his grandparents or as it was said[2] - his maternal relatives among the Ansâr; and he used to pray for sixteen or seventeen months towards the Temple of Jerusalem, although he would have preferred that his qiblah[3] should be the Ka‛bah The first prayer he performed in this latter direction was the afternoon prayer in which he was joined by a group of the Faithful. One of them went out, and passing by a

بابٌ : الصَّلَاةُ مِنَ الإِيمَانِ وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: «وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ» يَعْنِي صَلَاتَكُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ .

حدثنا عمرو بن خالد قال حدثنا زهير قال حدثنا أبو اسحاق عن البراء أن النبي صلى الله عليه وسلم كَانَ أَوَّلَ مَا قَدِمَ الْمَدِينَةَ نَزَلَ عَلَى أَجْدَادِهِ ـ أوقالَ أَخْوَالِهِ ـ مِنَ الأَنْصَارِ وَأَنَّهُ صَلَّى قِبَلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا ، وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ الْبَيْتِ ، وَأَنَّهُ صَلَّى أَوَّلَ صَلَاةٍ صَلَّاهَا صَلَاةَ الْعَصْرِ وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ صَلَّى مَعَهُ فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ مَسْجِدٍ

---

(1) [Surah 2, v. 138)
According to Ibn Hajar. Commentators who have suggested غير البيت have given to عند the meaning of ' towards " for which there is no precedent, although their suggestion of غير البيت (i . e . Jerusalem) makes the meaning clearer .
(2) by Abu Ishâg.
(3) Point which a worshipper faces in qrayer.

CHAPTER 30.

بابٌ : الدِّينُ يُسْرٌ وَقَوْلُ النبي صلى الله عايه وسلم :«أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللهِ الحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ »

Islam is a faith that is easy to practise and the words of the Prophet (Allâh bless him and give him peace) : The religion most acceptable unto Allâh is the true Faith *of Islam* that is easy to practise

حدثنا عبدُ السلام بن مُطَهَّرٍ قال : حدثنا عمرُ بن عليّ عن مَعْنِ بن مُحَمَّد الغفاري عن سعيدِ بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:« إِنَّ الدِّينَ يسرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ ، فَسَدِّدوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالغُدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ » .

We are informed by ‹Abdus-Salâm b. muttahhar, who had it from ‹Umar b. ‹Ali through Ma‹n b. Muhammad Al-Ghifâri, through Sa‹id b. Abu Sa‹id Al-Maqburi through Abu Hurairah, from the Prophet (Allâh bless him and give him peace), who said :

Islâm is a religion easy to practise ; for no one can be too rigorous in the practice of it, without being overcome by it. Therefore be ye upright and moderate, and hope *for you rewerd.* Call to your aid the early morning and the evening prayers, and also some prayer in the night .

We are informed by Ismâ'il, who had it from Mâlik, through Ibn Shihâb, through Humaid b. Abdur-Rahmân, through Abu Hurairah that the Apostle of Allah (Allah bless him and give him peace) said :

He who keepeth vigil during *the nights of* Ramadân, *performing prayers of supererogation,* from faith and devotion, shall have his former sins forgiven him.

حدثني مالكٌ عن ابن شهاب عن حُمَيدِ ابن عبد الرَّحمن عن أبي هريرة أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قالَ : «مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا واحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»

CHAPTER 29.

To fast during *the month of* Ramadân out of devotion is a feature of the Faith.

بابٌ : صَوْمُ رَمَضَانَ احْتِسَابًا مِنَ الإِيمَانِ .

We are informed by Ibn salâm, who had it from Muhammad b. Fudail, who received it from Yahya b. Sa'id, through Abu Salamah, through Abu Hurairah, who stated that the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) said :

He who keepeth the Ramadân fast, out of faith and devotion, shall have his former sins forgiven him.

حدثنا ابْنُ سَلَامٍ قال : أخبرنا مُحَمَّدُ بنُ فُضَيْلٍ قال : حدثنا يحيَى بنُ سَعيد عن أبي سلمةَ عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مَنْ صَامَ رمضَانَ إِيمَانًا واحْتِسَابًا غُفِرَ لهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».

whom it was related by Abu Zur'ah b. 'Amr b. Jarir, who heard it from Abu Hurairah, from the Prophet (Allàh bless him and give him peace), who said :

Allâh hath vouchsafed to him, who shall go forth *to war* in His cause with no other motive but faith in Him and belief in His Prophets, that He will send him home with the reward or booty he hath won : or else He will let him enter Paradise .

But for the hardship I should cause my people,[1] I should not remain behind the ranks,[2] but should wish to be killed in the cause of Allâh and then be raised from the dead, and then to be killed and be raised up again, and be killed *at last* .

قال حدثنا أبو زُرعةَ بن عَمرو بن جَرير قال سمعتُ أبا هُريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « انْتَدَبَ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ فى سَبِيلِهِ لا يُخْرِجُهُ إلاَّ إيمانٌ بى وتَصْديقٌ بِرُسُلى أنْ أُرْجِعَهُ بما نالَ من أجرٍ أو غنيمةٍ أو أُدْخِلَهُ الجَنَّةَ ، ولَوْلا أنْ أَشُقَّ على أُمَّتى ما قعدتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ ولوددتُ أنّى أُقْتَلُ فى سبيلِ اللهِ ثمَّ أُحيا ثمَّ أُقتَلُ ثمَّ أُحيا ثمَّ أُقتَلُ ».

CHAPTER 28.

On the fact that to watch voluntarily in prayer during the nights of Ramadân is a feature of the Faith.

باب : تَطَوُّعُ قِيامِ رمضانَ مِنَ الإيمانِ . حدثنا إسماعيلُ قال :

---

(1) by involving them in the hardship of allowing him to bear the brunt while they remained behind ,

(2) سريه — properly a body of troops not exceeding 400 in number.

breaketh it; and when he disputeth, he dissembleth.

Sufyân's narration of this Hadith is confirmed by Shu'bah through Al-A'mash.

حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ » (تَابَعَهُ شُعْبَةُ عَنِ الأَعْمَشِ)

CHAPTER 26.

Watching in prayer through the Night of Destiny [1] is a feature of the Faith.

بَابٌ : قِيَامُ لَيْلَةِ القَدْرِ مِنَ الإِيمَانِ.

We are informed by Abul-Yamân who had it from Shu'aib, to whom it was related by Abuz-Zinâd, through Al-A'raj, through Abu Hurairah who stated that the Apostle of Allah (Allâh bless him and give him peace) said:

He who Keepeth vigil on the Night of Destiny out of faith and devotion, shall have his former sins forgiven him.

حدّثنا أبو اليمانِ قال أخبرنا شُعيبٌ قال حدثنا أبو الزّنادِ عن الأعرج عن أبي هريرة قال قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: « مَنْ يَقُمْ لَيْلَةَ القَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ »

CHAPTER 27.

The Jihâd [2] is a feature of the Faith.

بَابٌ : الجِهَادُ مِنَ الإِيمَانِ.

We are informed by Harami b. Hafs, who had it from 'Abd-ul-Wâhid who received it from 'Umârah, to

حدّثنا حَرَمِيُّ بن حفص قال: حدثنا عبدُ الواحد قال حدثنا عُمَارةُ

---

(1) ليلة القدر = one of the last ten nights of Ramadân, commonly reckoned as the seventh from the end.

(2) جهاد = War in defence of the Faith physical and moral.

CHAPTER 25.

باب علامات المنافق

On the signs of the hypocrite.

1. We are informed by Suleimân Abu-r-Rabi', who had it from Ismâ'il b. Ja'far, who received it from Nâfi' b. Mâlik b. Abu 'Amir Abu Suhail, through his father, through Abu Horairah from the Prophet (Allâh bless him and give him peace) who said:

The marks of the hypocrite are three: whenever he speaketh, he lieth; when he maketh a promise he breaketh it; and when trust is put in him, he betrayeth it.

2. We are informed by Qabisah b. 'Uqbah, who had it from Sufiân, through Al-A'mash, through 'Abdullah b. Murrah, through Masruq, through 'Abdullâh b. 'Amr that the Prophet (Allâh bless him and give him peace) said:

There are four qualities, which, if inherent in a man, make him a perfect hypocrite; and any man who hath in him one of these qualities, hath in him a quality of hypocrisy until he be rid of it. These are that: when trust is placed in him, he betrayeth it; when he speaketh, he lieth; when he maketh a pledge, he

حدثنا سليمانُ أبو الربيع قال: حدثنا اسماعيل بن جعفر قال: حدثنا نافعُ بنُ مالك بن أبي عامر أبو سهيل عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان».

حدثنا قبيصةَ بنُ عقبةَ قال حدثنا سفين عن الأعمش عن عبد الله ابن مرّةَ عن مسروق عن عبد الله بن عمْرو أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أربعٌ منْ كُنّ فيه كانَ منافقاً خالصاً، ومَنْ كانتْ فيه خصلةٌ منهنّ كانتْ فيه خصلةٌ من النّفاق حتّى يدعها: إذا اؤتمن خانَ، وإذا

of Allâh said I, 'so would it be with the slayer, but what of him that is slain?' 'He purposed to kill his fellow.' was the reply ".

الْقَاتِلُ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ ؟ قَالَ : إِنَّهُ كَانَ حَرِيصاً عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ

CHAPTER 24.

بَابٌ : ظُلْمٌ دُونَ ظُلْمٍ

Showing that some iniquities are worse than others.

We are informed by Abu-l-Walid, who had it from Shu'bah; we are also informed by Bishr, who had it from Muhammad, through Shu'bah, through Sulaimân, through Ibrâhim, through 'Alqamah, through 'Abdullâh, who said

حدثنا أبو الوليد قال : حدثنا شعبةُ قال وحدثني بشرٌ قال حدثنا محمد عن شعبةَ عن سليمانَ عن إبراهيمَ عن علقمةَ عن عبدِ الله قال: لما نزلت

When this verse [1] was revealed, "Those who truly believe and have not vitiated their faith with iniquity [2] they shall have security and shall be guided aright", the Companions of the Prophet (Allâh bless him and give him peace) said: " Which of us hath not committed iniquity?" then Allâh sent down the verse [3]: "Verily associating partners *with Allâh* is the great iniquity."

«الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ» قَالَ أَصحابُ رَسول الله صلى الله عليه وسلم: أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ ؟ فأَنْزَلَ اللهُ « إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » .

---

(1) Surah 6, verse 82

(2) ظلم here according to the commentators = infidelity or idolatry.

(3) Surah 31, verse 12

heavy for them; and if ye do, then help them '. "

كلفتموهم فأعينوهم ».

CHAPTER 23.

باب : وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما. فسماهم المؤمنين.

On the Qurânic verse : " And if two groups of true believers engage in strife, reconcile them"-Allâh calling them true believers. [1]

We are informed by ʿAbdur-Rahmân b. Al-Mubârak, who had it from Hammâd b. Zaid, who received it from Ayyûb and Yûnus through Al-Ahnaf b, Qais, who said :

I was going to the help of a certain man [2] when I was met by Abu Bakrah, who said : " Whither goest thou ?" " To the help of this man," said I. " Go back ", said he " for I heard the Prophet of Allâh (Allâh bless him and give him peace) say : ' If two believers fall upon each other with the sword, both the victor and the victim are in Hell.' 'O Apostle

حدثنا عبد الرحمن بن المبارك حدثنا حماد بن زيد حدثنا أيوب ويونس عن الحسن عن الأحنف ابن قيس قال : ذهبت لأنصر هذا الرجل فلقيني أبو بكرة فقال أين تريد؟ قلت : أنصر هذا الرجل. قال : ارجع فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار » فقلت : يا رسول الله هذا

(1) to show that even when they have committed the sin of fighting, they are still true believers.

(2) Ali b. Abu Tâlib, the Prophet's cousin, on the day of " the Camel ".

We are informed by Sulimân b. Harb, who had it from Shu‘bah, through Wâsil Al-Ahdab, through Al- Ma‘rur who said :

One day I met at Ar-Rabadhah[1] Abu Dharr wearing a suit of clothes[2] while his servant was wearing a similar one . When I questioned him about this he replied : " Once I and another man were reviling one another and I referred to his mother in a way that brought him to shame . The Prophet (Allâh bless him and give him peace) then said to me : ' Abu Dharr, thou hast brought this man to shame on account of his mother . Truly thou art a man imbued with the spirit of " the Ignorance ". Your servants are your brethren whom Allâh hath placed under your authority. So let him whose brother is under his authority feed him from what he eateth *himself* and clothe him with such clothes as he *himself* weareth . Place ye not upon them tasks too

حدثنا سليمان بن حرب قال حدثنا
شعبة عن واصل الأحدب عن المعرور
قال لقيت أبا ذر بالربذة وعليه
حلة وعلى غلامه حلة فسألته عن
ذلك فقال : إني ساببت رجلا
فعيرته بأمه فقال لي النبي صلى الله
عليه وسلم: « يا أبا ذر أعيرته بأمه
إنك امرؤ فيك جاهلية! إخوانكم
خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ،
فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه
مما يأكل وليلبسه مما يلبس ،
ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن

(1) A place 3 miles from Medina on the way to Mecca .

(2) حلة = a new suit of good material consisting of two pieces, tunic and cloak (رداء وإزار)

لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا قَالَتْ مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ .

ingratitude to their husbands whose kindness they have denied .[1]

If thou spend thy life doing good to any one of them, and then she find the least thing from thee to displease her, she will say : " I have never received any benefit from thee whatsoever."

بَابٌ : الْمَعَاصِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ

CHAPTER 22.

وَلَا يُكَفَّرُ صَاحِبُهَا بِارْتِكَابِهَا إِلَّا بِالشِّرْكِ لِقَوْلِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: « إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ »

On the fact of sins being a feature of the age of the Ignorance, and no sinner is considered to be an unbeliever through the commission of them, except in the case of the sin of infidelity, based on the words of the Prophet (Allâh bless him and give him peace) : " Thou art a man imbued with the spirit of the Ignorance : " and the word of Allâh (be He exalted) : " Allâh forgiveth not the association of aught with Him [2] but forgiveth all else to whom He pleaseth ". [3]

---

(1) See Al-ʿAini's *Commentary on Bukhari* page 202 Vol . I Cairo.

(2) Ibn Hajar and Al-ʿAini maintain that شرك here is synonymous with كفر and accordingly may be translated " disbelief in Him . "

(3) Surah 4, Verse 41.

knowest and those whom thou knowest not.

وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ »

CHAPTER 21.

On the ingratitude towards the husband, and on the fact that ingratitude is next worst after infidelity [1] Containing a tradition transmitted by Abu Said Al-Khudri, from the Prophet (Allâh bless him and give him peace).

بابُ كُفْرانِ العَشِيرِ وَكُفْرٍ دُونَ كُفْرٍ . فِيهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيّ عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْلَمَةَ عَنْ مَالِكٍ عَنْ زَيْدِ ابْنِ أَسْلَمَ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ :

We are informed by Abdullâh b. Maslamah, through Mâlik through Zaid b. Aslam, through Ata b. Yasar through Ibn Abbâs that the Prophet (Allâh bless him and give him peace) said :

قال النبي صلى الله عليه وسلم : أُرِيتُ النَّارَ فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ يَكْفُرْنَ ، قِيلَ أَيَكْفُرْنَ بِاللهِ ؟ قال : يَكْفُرْنَ العَشِيرَ وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ .

I was shown hell-fire and blold! most of the souls in it were women who were there because of their ingratitude. When the Prophet was asked whether this meant disbelief in Allâh, he replied : " No.

---

[1] Houdas & marçais' rendering of this heading as " L'ingratitude peut être plus ou moins grand ", does not convey the meaning.

This Hadith was also transmitted by Yûnus, Sâlih, Ma-mar, and Az-Zuhri's nephew, through Az-Zuhri.

وَرَوَاهُ يُونُسُ وَصَالِحٌ وَمَعْمَرٌ وَابْنُ أَخِي الزُّهْرِيِّ عَنِ الزُّهْرِيِّ .

CHAPTER 20.

To diffuse the greeting is a feature of Islam.

بَابٌ : إِفْشَاءُ السَّلَامِ مِنَ الإِسْلَامِ

'Ammar said : " there are three features — if a man hath combined them in himself, he hath possessed the Faith entire : to impose justice upon oneself, to lavish the greeting on all people, and to give out of one's poverty ."

وَقَالَ عَمَّارٌ : ثَلَاثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ فَقَدْ جَمَعَ الإِيمَانَ : الإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِكَ ، وَبَذْلُ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ ، وَالإِنْفَاقُ مِنَ الإِقْتَارِ .

We are informed by Qutaibah who had it from Al-Laith, through Yazid b. Abu Habib, through Abul-Khair, through 'Abudah b. 'Amr that :

حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ قال حدثنا الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عبد الله بن عمرو أن رجلا سأل

A man once asked the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) which feature of Islam was the best. He replied : " That thou give food and pronounce the greeting upon those whom thou

رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَيُّ الإِسْلَامِ خَيْرٌ ؟ قَالَ : « تُطْعِمُ الطَّعَامَ ،

the most worthy of them, so I said: " O Apostlle of Allâh, what it thy objection to such a one? for by Allâh I perceive in him a true believer!" " Nay, a *professing* Muslim!" replied the Prophet. I was silent for a while, and then I was dimelled by my certainty of his sincerity, and I repeated my words saying: " What is thy objection to such a one? for by Allâh I perceive in him a true believer!" " Nay, a professing Muslim!" repeated the Prophet. Again I was impelled by my certainty of his sincerity and my repeated my words. Then the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) again replied and said: " O Saad, indeed I give to the one man when another is dearer to me, for fear that Allâh may cast him headlong into hell fire " (1)

هُوَ أَعْجَبُهُمْ إِلَيَّ، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ
مَالَكَ عَنْ فُلَانٍ فَوَاللهِ إِنِّي لَأَرَاهُ
مُؤْمِناً. فَقَالَ: «أَوْ مُسْلِماً» فَسَكَتُّ
قَلِيلاً، ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ فَعُدْتُ
لِمَقَالَتِي فَقُلْتُ: مَالَكَ عَنْ فُلَانٍ فَوَاللهِ
إِنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِناً. فَقَالَ «أَوْ مُسْلِماً»
ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ فَعُدْتُ لِمَقَالَتِي
وَعَادَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم،
ثُمَّ قَالَ: «يَا سَعْدُ إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ
وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ خَشْيَةَ أَنْ
أَنْ يَكُبَّهُ اللهُ فِي النَّارِ»

---

(1) The purpose of this Hadith is to emphasise the difference between a professing Muslim and a true believer, and if Sa'd was categorical in his assertion of the man's sincerity, he was presuming to speak of matters of the heart known only to God. The Prophet's denial of a gift to Ju'ail the man referred to in the Hadith, was due to the Prophet's confidence in his faith, so that no gift from him was necessary to save him from relapsing and being cast into hell-fire, as might be the case with the other recipients of his gifts.

of Allâh (be He exalted) : " The Bedouins said : ' We have believed'. Say : ' Ye have not sincerely believed ' but say that ye have professed Islam ." [1]

When the profession of faith is sincere, it must be according to His word (glorified be His Name) " The true religion in the sight of Allâh is Islam. " [2] and again : " Whosoever seeketh another religion than Islâm shall not have it accepted from him ." [3]

We are informed by Abal-Yamân, who had it from Shuaib, through Az-Zuhri, who received it from 'Amir b. Sa'd Ibn Abu Waqqâs, through Sa'd (Allâh be pleased with him) that .

The Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) had just distributed gifts to a few people, while Sa'd was seated *with him*, and the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) had omitted a man who seemed to me

« قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا » . فإذا كان على الحقيقة فهو على قوله جلّ ذكره : « إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ » « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ » .

حدثنا أبو اليمان قال أخبرنا شعيب عن الزهري قال أخبرني عامر بن سعد ابن أبي وقاص عن سعد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى رهطاً وسعد جالس فترك رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً

---

(1) Surah 49, verse 14.
(2) Surah 3, verse 17.
(3) Surah 3, verse 79.

حدثنا احمد بن يونس وموسى بن اسماعيل قالا حدثنا ابراهيم بن سعد قال حدثنا ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئِلَ : أيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ ؟ فَقَالَ : إِيمَانٌ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، قِيلَ ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ : الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ ، قِيلَ ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ : حَجٌّ مَبْرُورٌ .

We are informed by Ahmed b. Yûnus and Mûsa b. Ismail, who both had it from Ibrahim b. Sa'd, who received it from Ibn Shihâb, through Sa'id b. Al-Musayyab, through Abu Hurairah that : The Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) was questioned as to which work was the most meritorious before Allâh, and he replied : " Faith in Allâh and His Apostle " He was then asked what came next and replied : " The Jihad [1] in the cause of Allâh ." He was again asked what came after that and replied : " A pilgrimage to Mecca sincerely performed ."

بَابٌ : إِذَا لَمْ يَكُنِ الإِسْلَامُ عَلَى الْحَقِيقَةِ وَكَانَ عَلَى الاسْتِسْلَامِ أَوِ الْخَوْفِ مِنَ الْقَتْلِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى :

CHAPTER 19.

On the case where the profession of faith is insincere, and is made for the sake of peace, or through fear of death, based on the word

---

(1) الجهاد Properly " endeavour " not to be confused with the idea of a " Holy War " in the sense of a crusade which has been wrongly associated with it.

CHAPTER 18

On those who maintain that faith is works, [1] as would appear from the word of Allâh (be He exalted) : " This is the Paradise which ye have been given in heritage *as a reward* for your works . " [2]

A certain number of doctors have considered the word of Allâh (be He exalted) : " By thy Lord, We shall call them all to account for their works " [3] as meaning the profession of faith " There is no deity but Allâh ".

Allâh hath also said : " To such a consummation let those who practise the Faith devote their efforts ". [4]

بابُ مَنْ قَالَ إِنَّ الإيمَانَ هُوَ الْعَمَلُ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: «وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» وَقَالَ عِدَّةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى «فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ» عَنْ قَوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. وَقَالَ «لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ»

---

(1) This chapter is intended to throw light on the controversy between the efficacy of faith and of works. The Murji-ites believed in justification by faith in the sense of " profession of faith " (الايمان قول بلا عمل), and Al-Bukhâri refutes them here by interpreting عمل as ايمان that is to say, " works " as " faith ", but not merely " profession of faith, " since conscientious and not formal faith is the real main-spring of action. In reply to the contention that عمل means " mere profession of faith, " Al-Aini and An-Nawawi hold that God will call both faith and works into judgment, and the case for mere profession cannot be supported.

(2) Surâh 43, verse 72 .

(3) Susrâh 15 . verse 92.

(4) Surâh 37, verse 59.

CHAPTER 17.

باب : فَإِنْ تَابُوا وأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ

On the Qur-ânic verse : " If *the Infidels* repent, perform *the appointed* prayers and give *the prescribed* Alms, then let them go their way "

We are informed by -Abdullâh b. Muhammad Al-Musnadi, who had it from Abu Rawh Al-Harami b. -Umârah, who received it from Shu-bah, through Wâqid b. Muhammad, who heard it related by his father, through Ibn -Umar, that the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) said :

I have been commanded to fight against idolotors until they testify that there is no deity but Allâh, and that Muhammad is the Apostle of Allâh, perform *the appointed* prayers and give *the prescribed* alms. When they do these, they shall have safeguarded their lives and property from me except for what is due to Islam . Their souls' reckoning lieth with Allâh

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بنُ مُحَمَّدٍ المُسْنَدِي قَالَ حَدَّثَنَا أَبُو رَوْحٍ الحَرَمِيُّ بنُ عُمَارَةَ قَالَ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ وَاقِدِ ابنِ مُحَمَّدٍ قَالَ سَمِعْتُ أَبِي يُحَدِّثُ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذٰلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّ الإِسْلاَمِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ » :

" While I was sleeping I saw the people parading before me wearing shirts, some of which reached as far as their breasts, and some less than that. Then ʿUmar b. Al-Khattab appeared before me wearing a shirt which trailed on the ground". When the Apostle of Allâh was asked what interpretation he gave to this, he replied : " It is Religion ".[1]

أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ النَّاسَ يُعْرَضُونَ عَلَيَّ وَعَلَيْهِمْ قُمُصٌ مِنْهَا مَا يَبْلُغُ الثُّدِيَّ وَمِنْهَا مَا دُونَ ذَلِكَ وَعُرِضَ عَلَيَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ يَجُرُّهُ. قَالُوا فَمَا أَوَّلْتَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: الدِّينَ

CHAPTER 16.

بَابٌ : الْحَيَاءُ مِنَ الإِيمَانِ

Modesty is a feature of the Faith. We are informed by ʿAbdullâh b. Yûsuf, who had it from Mâlik b. Anas through Ibn Shihâb, through Sâlim b. ʿAbdallâh, through his father : that the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) once passed one of the Companions, who was admonishing his brother against *undue* modesty,[2] and so the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) said: " Let him alone for modesty is a feature of the Faith. "

حدثنا عبد الله بن يوسف قال أخبرنا مالك بن أنس عن ابن شهاب عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مَرَّ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ وَهُوَ يَعِظُ أَخَاهُ فِي الْحَيَاءِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «دَعْهُ فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الإِيمَانِ»

---

(1) The shirt conceals the nakedness just as Religion shields a man from hell-fire ; and the traces of the trailing shirt are like the good example set by a religious life

(2) A reserve which prevents a man from obtaining his due is to be avoided ; but just as faith prevents him from sinning : so does modesty, and hence modesty and faith go hand in hand (Ibn Hajar & Al-ʿAini).

b. Yahya Al-Mâzini, through his father through Abu Saʿid Al-Khudri (Allâh be pleased with him), from the Prophet (Allâh bless him and give him peace), who said :

The people of Paradise shall enter into Paradise, and the people of Hell shall enter into Hell, then Allâh (be He exalted) will say : " Let out of Hell those who have in their hearts faith even as a grain of mustard-seed ". Then shall they be let out from it, blackened *by the flames*: afterwards tgey shall be cast into the river of rain-water or life (Mâlik) is doubtful as to which), and forthwith they shall grow up like the purslain beside the water-course. Hast thou not seen how it springeth up with its yellow flowers intertwined ?

According to Wuhaib, who had it from ʿAmr : instead of Mâlik's hesitation, the reading " the river of life ", is confirmed ; and instead of " a mustard-seed of faith", a mustard-seed of good ".

2. We are informed by Muhammad b. ʿUbaidullâh, who had it from Ibraahim b. Saʿd, through Sâlih, through Ibn Shihâb, through Abu Umâmah b. Sahl that he heard Abu Saʿid Al-Khudri say:

The Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) said :

ابن يحيَى المَازنيّ عنْ أبيهِ عنْ أبي سَعيدِ الخُدْريّ رَضى اللهُ عنْهُ عنِ النبي صلى اللهُ عليه وسلم قال : يَدْخلُ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ وأهلُ النَّارِ النَّارَ ثم يقولُ اللهَ تعَالَى :

أخرِجُوا منْ كانَ فى قلبِهِ مثقالُ حبَّةٍ منْ خرْدَلٍ مِنْ إيمَانٍ فيَخرُجُونَ منهَا قد اسوَدُّوا فيلْقَوْنَ فى نَهْرِ الحَيَا أوِ الحَيَاةِ - شكَّ مالكٌ - فيَنْبتُونَ كمَا تنْبتُ الحبَّةُ فى جَانبِ السَّيْلِ ألَمْ تَرَ أنَّهَا تخْرُجُ صفرَاءَ ملْتَوِيةً ؟ قال وهيبٌ حدَّثنَا عمْرٌو « الحيَاة » قال « خرْدَلٍ منْ خيْرٍ » .

٢ . حدثنا محمَّدُ بنُ عُبَيْدِ اللهِ قال : حدثنا ابراهيم بن سعد عن صالح عن أبي شهاب عن أبي أمامة بن سهل أنه سمع أبا سعيد الخُدْريَّ يقول قال رسول الله صلى الله عليـــه وســـلم . بيْنَا

myself [1].

CHAPTER 14

To dread relapsing into unbelief as much as being cast into hell-fire is a feature of the Faith.

We are informed by Solimân b. Harb, who had it from Shu'bah through Qatâdah, through Anas (Allâh be pleased with him), from the Prophet (Allah bless him and give him peace) who said:

There are three things, which, if inherent in a man, will enable him to taste the sweetness of the Faith: to love Allâh and His Apostle more than aught else; to love a man for naught but the sake of Allâh; and to dread to relapse into unbelief after being saved from it by Allâh, just as to dread being cast into hell-fire.

باب : مَنْ كَرِهَ أَنْ يَعُودَ فِى الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِى النَّارِ مِنَ الإِيمَانِ .

حدثنا سليمان بن حرب قال حدثنا شعبة عن قتادة عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ : مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَمَنْ أَحَبَّ عَبْدًا لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ، وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِى الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِى النَّارِ .

CHAPTER 15

Showing the Superiority [2] of the Faithful over each other through their works.

1. We are informed by Isma'il, who had it from Mâlik, through 'Amr

باب تَفَاضُلِ أَهْلِ الإِيمَانِ فِى الأَعْمَالِ

١ : حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ قَالَ حَدَّثَنِى مَالِكٌ عَنْ عَمْرٍو

---

(1) "And therefore I need good works the most."
(2) i.e. preference or priority.

CHAPTER 13.

On the Prophet's words (Allâh bless him and give him peace) : " I am he amongst you that best knoweth Allâh. " and that the hnowledge of Allâh is the work of the heart,[1] as appeareth from the word of Allâh (be He exalted) : " But He will call you to account for the work of your consciences".

We are informed by Muhammad b. Salâm who had it from ʿAbdah, through Hishâm, through his father, through ʿAʾishah, who said :

The Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace), when he gave commands to the Faithful, only commanded them works of which they were consistently capable, *Once* they said to him : " We are not on the same plane as thou, Apostle of Allâh since Allâh hath forgiven thee thy sins both past and to come "[2] then he waxed wroth until his wrath was seen on his countenance, and he said : " He amongst you that best feareth and benoweth Allâh is

بابٌ : قَولُ النبي صلى الله عليه وسلم: أَنَا أَعلَمُكم بِاللهِ. وأَنَّ المَعْرِفَةَ فِعلُ القَلْبِ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: وَلكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلوبُكمْ

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بنُ سَلَامٍ قَال أَخْبَرَنَا عَبْدَةُ عَنْ هِشَامٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : كن رسول الله صلى الله عليه وَسلم إِذَا أَمَرَهُمْ مِنَ الأَعْمَالِ بِمَا يُطِيقُونَ قالوا إِنَّا لَسْنَا كَهَيْئَتِكَ يا رسول الله إِنَّ اللهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ فَيَغْضَبُ حَتَّى يُعْرَفَ الغَضَبُ فِي وَجْهِهِ ثُمَّ يَقُولُ إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللهِ أَنَا .

---

(1) Al-Bukhari quotes this here in reply to the Karrâmiah (an offshoot of the Murjiʿites) who allege that verbal acceptance of the Faith is sufficient for this world, though it may be inacceptable in the next.

(2) " and therefore we must multiply our good works,".

It was on this that we swore allegiance to him.

وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ، فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ.

CHAPTER 12.

بَابٌ : مِنَ الدِّينِ الفِرَارُ مِنَ الفِتَنِ

It is a feature of the Faith to flee from iniquity. (1)

We are informed by ʿAbdullah b. ʿMaslamah, through Mâlik, through ʿAbdur-Rahmân b. ʿAbdullâh b, Abdur-Râhmân b. Abu Saʿsaʿah, through his father, through Abu Sâid Al-Khudri that the Prophet (Allâh bless him and give him peace) said :

The time is near when the best wealth of a Muslim shall be a flock of sheep, which he leadeth to the mountain-tops and rain-lands, to which he betaketh himself for his faith's sake, (2) to flee from iniquity.

حدثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة عن أبيه عن أبى سعيد الخُدْرِىّ أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ.

---

(1) Goldziher's rendering as " riots or disturbances" followed by Houdas and Marçais, is not supported by Al-Karmani or Al-ʿAini. Goldziher refers to the case of Salamah b. Al-Akwâ, who fled to Ar-Rabadha during the insurrection against ʿUthman in support of his view; but فتنة in the text need have no connection with فتنة عثمان, as the word has many meanings including : temptation, trial, sin, heresy, unbelief, error, intrigue, sedition, abomination, corruption and infatuation. Again the title of this book is " of the Faith ". and presumably deals with matters of faith rather than politics.

On the other hand, the same Hadith is quoted by Al-Bukhari under the heading of "Civil Discord " where Goldzeher's rendering will hold.

(2) Not " with his faith " as Houdas and Marçais translate.

عَائِذُ اللهِ بنُ عَبْدِ اللهِ أَنَّ عُبَادَةَ ابْنَ الصَّامِتِ رضى اللهُ عنه وكان شَهِدَ بَدْراً وَهُوَ أَحَدُ النُّقَبَاءِ لَيْلَةَ العَقَبَةِ أَنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ : بَايِعُونِى عَلَى أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئاً ، وَلاَ تَسْرِقُوا ، وَلاَ تَزْنُوا ، وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ ، وَلاَ تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ ، وَلاَ تَعْصُوا فِى مَعْرُوفٍ ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً فَعُوقِبَ فِى الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً ثُمَّ سَتَرَهُ اللهُ فَهُوَ إِلَى اللهِ إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ

ʿA'idhullah b. ʿAbdullâh that:

ʿUbâdah b. As-Sâmit (Allâh be pleased with him), who witnessed the battle of Badr, and was one of the delegates on the occasion of the night of ʿAqabah,(1) stated that the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) said, while a group of his Companions was round him: "Swear allegiance to me that ye will not associate aught else with Allâh, that ye will no steal, commit adultery, kill your children, utter slander which ye have wantonly fabricated in your hearts,(2) nor violate what is right. He of you who fulfilleth this oath shall have his reward from Allâh; and he who infringeth any part of it, and hath his punishment in this life, shall have made sufficient atonement thereby; whereas he who infringeth any part of it, and then Allâh covereth up his sin,(3) is in Allâh's hands to be pardoned if He willeth or punished if He willeth.(4)

---

(1) See footnote (1) page 20.

(2) بين أيديكم وأرجلكم "between your hands and feet" is figurative for "in your hearts" or "within yourselves" as the heart lies between the hands and the feet. (Al-ʿAini)

(3) i.e. his sin does not come to light, and so he escapes worldly punishment.

(4) Sprenger's version of this Hadith, namely: "If ye transgress it (the oath), ye shall suffer the established punishments, and through these shall ye find atonement; but if ye conceal the transgression until the Last Day, your fate shall be in the hand of God," is untenable, as not being in accordance with the doctrines implied by the Hadith. We are equally unable to follow Houdas and Marçais.

to taste the sweetness of the Faith: that Allah and His Apostle should be dearer to him than anything else; that his love for his fellow-beings should be solely for Allâh's sake;[1] that he should dread to relapse into infidelity as much as he dreadeth to be cast into hell-fire.

أَنْ يَكُونَ اللّٰهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلّٰهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ.

CHAPTER 10

On the love of the Ansâr[2] being a sign of the Faith.

We are informed by Abul-walid who had it from Shu'bah who was told it by 'Abdullah b. 'Abdullah b. Jabr, who heard it from Anas, who heard the Prophet (Allâh bless him and give peace) say: It is a sign of the faith to love the Ansâr, and it is a sign of hypocrisy to hate them.

بابٌ: عَلَامَةُ الإِيمَانِ حُبُّ الأَنْصَارِ

حدثنا أبو الوليد قال حدثنا شُعْبَةُ قالَ أخبرني عبد الله بن عبد الله بن جبر قالَ سمعت أنسا عن النبي صلى الله عليه وسلم قالَ: آيَةُ الإِيمَانِ حُبُّ الأَنْصَارِ وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الأَنْصَارِ

CHAPTER 11

We are informed by Abul-yamân, who had it from Shu'aib through Az-Zuhri, who receire it from Abu Idris

بابٌ: حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ قالَ أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ أَخْبَرَنِي أَبُو إِدْرِيسَ

---

(1) i. e. for no selfish or ulterior motive.

(2) the Ansar, or the first supporters of the Prophet, were so designated by him after the famous oath of allegiance of 'Aqabah; they were twelve in number—two from the tribe of Aws, and ten from that of Khazraj, 'Ubadah being of the latter. The term was also applied to their children, allies and dependents. Special love is commended for them in view of their great sacrifices in the Cause, as is seen in the Qurân, (Sûrah 7, verse 157) "Those who have believed in him, and supported him—these are they who shall attain the consummation."

(See also Surah 3 verse 29) : " If ye love Allah, then follow me and Allah will love you. "

(allah be pleased with him) that the Apostle of Allâh (Allah bless him and give him peace) said :

By him in whose hand is my soul, no one of you is a true believer unless I be dearer to him than his father and his children.

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قالَ: والَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حتى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ .

2. We are informed by Yaqûb b. Ibrahim, who had it from Ibn ʿUlayyah, through ʿAbdul-Aziz b. Suhaib, through Anas, from the Prophet (Allâh bless him and give him peace); we are also informed by Adam, who had it from Shuʿbah, through Qatâdah, through Anas, who said that :

The Prophet (Allâh bless him and give him peace) said : " No one of you is a true believer unless I be dearer to him than his father and his children, and all people. "

٢ : حدثنا يعقوب بن ابراهيم قال حدثنا ابن علية عن عبد العزيز بن صهيب عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم ح وحدثنا آدم قال حدثنا شُعبَةُ عن قتادة عن أنس قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ .

CHAPTER 9

On the Sweetness of the Faith

بابُ حَلاوَةِ الإِيمَانِ

We are informed by Muhammed b. Al-Muthannâ who was told it by ʿAbdul-wahhâb Ath-thaqafi, who had it from Ayyûb, through Abu Qilâbah through Anas, from the Prophet (Allâh bless him and give him peace) who Said:

There are three things, which, if inherent in a man, will enable him

حدثنا محمد بن المُثَنَّى : قال حدثنا عبدالوهاب الثقفي قال حدثنا أيوب عن أبي قلابة عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ :

صلى الله عليه وسلم: أيُّ الإسلامِ خيرٌ؟ قالَ: تُطعِمُ الطَّعامَ وتقرأُ السَّلامَ على مَنْ عرفتَ ومَنْ لم تعرفْ.

(Allâh bless him and give hime peace) " Which feature of Islam is the best? He replied : " that thou give food and pronounce the grreting upon those whom thou knowest and those whom thou knowest not. "

CHAPTER 7

بابٌ: منَ الإيمانِ أن يُحِبَّ لأخيهِ ما يُحِبُّ لنفسِهِ.

It is a feature of the Faith that a man desire for his neighbour what he desireth for himself.

حدَّثنا مُسدَّدٌ قال حدَّثنا يحيى عنْ شُعبةَ عنْ قتادةَ عنْ أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم وعنْ حُسينٍ المعلِّمِ قال حدَّثنا قتادةُ عنْ أنسٍ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا يؤمنُ أحدُكُمْ حتَّى يُحِبَّ لأخيهِ ما يُحِبُّ لنفسِهِ.

We are informed by musaddad who had it from Yahya, through Shu‘bah, through Qatâdah through Anas (Allâh be pleased with him) from the Prophet (Allâh bless him and give him peace): and also through Hussin Al-Mu‘allim who was informed by Qatâdah through Anas, from the Prophet (Allâh bless him and give him peace), who said :

No one of you hath true faith until he desireth for his neighbour what he desireth for himself.

CHAPTER 8

بابٌ: حُبُّ الرَّسولِ صلى الله عليه وسلم منَ الإيمانِ.

Love for the Apostle (Allâh bless him and give him peace) is a feature of the Faith.

١: حدَّثنا أبو اليمانِ قالَ أخبرنا شعيبٌ قالَ حدَّثنا أبو الزِّنادِ عنِ الأعرجِ عــنْ أبي هُريرةَ

1. We are informed by Abul-Yamân, who had it from Shu‘aib who received it from Abuz-Zinâd, through Al-A‘rag, through Abu Hurairah

CHAPTER 5

بابٌ . أيُّ الإسلامِ أفضلُ

Showing which Muslim [1] is the most worthy.

We are informed by Saᶜid b. Yahyà b. Saᶜid Al-Qurashi who had it from his father, who received it from Abu Burdah, b. ᶜAbdullàh b. Abu Burdah, through Abu Burdah, through Abu Mùsà (Allâh be pleased with him) who said :

When the Apostle of Allâh was asked which Muslim was the worthiest, he replied : "It is he from whose tongue and hand the Faithful are safe ".

حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ الْقُرَشِيُّ قَالَ حَدَّثَنَا أَبِي قَالَ حَدَّثَنَا أَبُو بُرْدَةَ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ الإِسْلاَمِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ

CHAPTER 6

بَابٌ : إطعَامُ الطَّعَامِ مِنَ الإسلامِ

Showing how the giving of food [2] is a feature of Islàm.

We are informed by ᶜAmr b. Khàlid. who had it from Al-Laith, through Yazid, through Abul-Khair, through ᶜAbdullah b. ᶜAmr (Allâh be pleased with them) that :

A man *once* asked the Prophet

حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ خَالِدٍ قَالَ حَدَّثَنَا اللَّيْثُ عَنْ يَزِيدَ عَنْ أَبِي الْخَيْرِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ

---

(1) Here الاسلام = أصحاب الاسلام hence Muslims. This is borne out by the reading in Muslim's Collection which runs « أي المسلمين أفضل » Al-Karmani's interpretation of خصال الاسلام " features of Islam " is not in conformity with the answer to the question, which assigns the highest virtue to the Faithful and not to the features of the Faith.

(2) The omission of the recipient of the food is intentional, as all forms of hospitality are included, and even the feeding of animals.

CHAPTER 4.

Showing how a true Muslim is one from whose tongue and hand the Faithful are safe.

We are informed by Adam b Abu Iyâs, who had it from Shu‘bah, through ‘Abdullah b. Abu-s-Safar and Ismâ‘il. through Ash-Sha‘bi through ‘Abdullah b. ‘Amr (Allah be pleased with them) from the Prophet (Allah bless him and give him peace), who said :

A *true* believer is one from whose tongue and hand the Faithful are safe; and a *true* Muhâjir [1] is one who fleeth from what Allâh hath forbidden.

Relating two more *Isnâds*, Abu ‘Abdullâh (Al-Bukhâri) states that he also received it from Abu Mu‘âwiyah, who had it from Dâwûd, through ‘Amir, who heard it from ‘Abdullâh, from the Prophet (Allah bless him and give him peace); and also that he had it from ‘bdul-A‘lâ, through Dâwûd, through ‘Amir, through ‘Abdullah, from the Prophet (Allah bless him and give him peace).

باب اَلْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمسلمون مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ .

حدثنا آدم بن أبي إياس قال حدثنا شعبة عن عبد الله بن أبي السفر واسماعيل عن الشعبي عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« الْمسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ ويدِه والْمُهَاجِرُ مَنْ هجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ »

قال أبو عبد الله وقال أبو معاوية :

حدثنا داود عن عامر قال سمعت عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال عبد الأعلى عن داود عن عامر عن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم

(1) Muhâjer — a title given to emigrants who joined the Prophet in his Flight.

البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون. قد أفلح المؤمنون - الآية.

but he is righteous who believeth in Allâh, the Last Day, the Angels, the Book and the Prophets : who for the love of Him distributeth his wealth among his kindred, the orphans and the needy, the wayfarer, those who ask; and who spendeth it on the ransom of captives or slaves ; who performeth the *appointed* prayers ; who payeth the *prescribed* alms ; who are faithful to their pledges when they have given them ; and those who are patient in distress and affliction and the time of battle. These are they who are true believers and these are they who fear the Lord. "[1]

And the verse : " The true believers have attained the consummation ". [2]

حدثنا عبد الله بن محمد قال حدثنا أبو عامر العقدى قال حدثنا سليمن بن بلال عن عبد الله بن دينار عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

We are informed by ʿAbdullâh b. Muhammad, who had it from Abu ʿAmir Al-ʿAqadi, who received it from Suliman b. Bilâl through ʿAbdullâh b. Dînâr, through Abu Sâlih, through Abu Hurairah (Allâh be pleased with him), from the Prophet (Allâh bless him and give him peace), who said :

الإيمان بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان .

The Faith comprehendeth sixty and a few features ; one of these features is modesty .

(1) Surah 2, verse 172.

(2) Surah 23, verse 1.

Mujâhid explained it as meaming : " O Muhammad, We have enjoined upon thee and upon Noah one selfsame Faith. "

Ibn ‹Abbâs explains شرعة ومنهاجا as meaning ' way ' and 'rule of conduct'

أَوصَيْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ وَإِيَّاهُ دِيناً وَاحِداً .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً : سَبِيلاً وَسُنَّةً .

CHAPTER 2.

بَابٌ دُعَاؤُكُمْ إِيمَانُكُمْ

Ibn ‹ ‹Abbâs explains دعاؤكم your supplication — as meaning " your faith "[1]

We are informed by ‹Ubaidullâh b. Mûsa, who had it from Hanzalah b. Abu Sufian, through ‹ krimah b. Khâlid, through Ibn ‹Umar (Allâh be pleased with them), who stated that the the Apostle of Allâh (Allâh bless him and give him peace) said :

Islâm is built on five pillars : the attestation that there is no deity but Allâh and that Muhammad is the Apostle of Allâh : the performance of the *appointed* prayers, the giving of the *prescribed* alms, the pilgrimage *to mecca*, and the the Ramadân fast .

حدثنا عبيد الله بن موسى قال أخبرنا حنظلة بن أبي سفيان عن عكرمة بن خالد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ .

CHAPTER 3.

An exposition of matters *concerning* the Faith, and the word of Allâh (be He exalted) : " It is not *the whole of* righteousness that ye turn your faces to the east and to the west,

بَابُ أُمُورِ الإِيمَانِ وَقَوْلِ اللهِ تعالى: «لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ

(1) Surah 25, verse 77. Ibn Battal points ont that supplication leads to more intense faith.

Love in the cause of Allâh and hate in His cause are features of the Faith. And ‹Umar b. ‹Adul-‹Aziz wrote to ‹Adiyy b. ‹Adiyy : " The Faith hath obligations, doctrines, restrictions, and commendable practices he who observeth them perfectly holdeth the Faith perfect, and he who doth not do so, hath not the Faith perfect. If I live, I shall expound them to you, so that ye may practise them ; and if I die, I shall not be anxion for your company".

And Abraham said : " But *I ask this* that my faith may be strengthened. "(1)

And Mu‹âdh said : " Let us sit together for a while that we may increase our faith *by meditation.* "

And Ibn Mas‹ûd said : "Certainty is the whole of the Faith .

And Ibn ‹umar said : " A man doth not attain unto the true essence of piety, (2) until he have cast away the doubt ingrained in his heart. "

Referring to the verse beginning: " He hath laid down for you the religion which He enjoined uponNoah'.

والحُبُّ فى اللهِ وَالبُغضُ فى الله مِنَ الإيمَان. وَكَتبَ عُمَرُ بنُ عَبدِ العَزيزِ إلَى عَدِىِّ بنِ عَدِىّ: إنَّ للإيمَانِ فَرائِضَ وَشرائِعَ وحُدُوداً وسُنَناً، فَمَن استكمَلَهَا استَكمَلَ الإيمَانَ وَمَنْ لَمْ يَستَكمِلهَا لَمْ يَستَكمِلِ الإيمَان، فإن أَعِشْ فَسأُبيِّنُها لَكُمْ حَتَّى تَعمَلُوا بِهَا، وإنْ أَمُتْ فَمَا أَنَا عَلى صُحبَتِكُمْ بِحَرِيص.

وقَالَ إبراهِيمُ: وَلَكِنْ لِيَطمَئِنَّ قَلْبِى.

وقَالَ مُعَاذٌ: اجلِسْ بِنَا نُؤمِنْ سَاعَةً.

وقَالَ ابنُ مَسعُود: اليَقِينُ الإيمَانُ كُلُّهُ.

وَقَالَ ابنُ عُمَرَ: لَا يَبلُغُ العَبدُ حَقِيقَةَ التَّقوَى حَتَّى يَدَعَ مَا حَاكَ فى الصَّدرِ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: شَرَعَ لَكُمْ:

(1) See Ibn Hajar.
(2) Or " faith ".

Faith comprises word and deed. It may increase or decrease. Allâh (be He exalted) hath said : "That they may increase in faith beyond the faith they hold, [1]

and : "We have increased guidance unto them,"[2]

and: "Allâh will grant to them that have walked in the right way increased guidance,"[3]

and :"To them that have walked in the right way Allah will grant increased guidance, and will reward them for their piety."[4]

and: "That they who have believed may increase in faith, " [5]

and His word : "*Whenever a surh is sent down, there are some of them who say :* 'Which of you hath had his faith increased by this *Surah* ? ' It is they that have believed whose faith hath been increased by it, " [6]

and His word (glorified be His Name) : "*When it was said to them* : Fear them , it *only* increased their faith",[7]

and His word (be He exalted) : " It only increased their faith and resignation. [8] "

وهو قولٌ وعملٌ ،

ويزيدُ وينقصُ ،

قال اللهُ تعالى: ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم

وزدناهم هدى ،

ويزيدُ اللهُ الذين اهتدوا هدى .

والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم .

ويزدادَ الذين آمنوا إيماناً .

وقولهُ: أيكم زادته هذه إيماناً . فأمّا الذين آمنوا فزادتهم إيماناً .

وقولهُ جلّ ذكرهُ : فاخشوهم فزادهم إيماناً .

وقولهُ تعالى: وما زادهم إلّا إيماناً وتسليماً .

---

(1) Surah 48, verse 4. (2) Surah 18, verse 12. (3) Surah 19, verse 78.
(4) Surah 47, verse 19. (5) Surah 74, verse 3. (6) Surah 9 , verse 125
(7) Surah 3 , verse 167 . The whole verse referred to in the Qur'an is : When certain men said unto them : " Now have the Meccans mustered against you, therefore fear them," it only increased their faith. (8) Surah 33, verse 22.

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

PUBLISHED BY AL-AZHAR UNIVERSITY, Cairo.

April, 1935.

جامع صحيح البخاري

ترجمه الى الانجليزية

الاستاذ ابراهيم حسن الموجى

الاستاذ فى الآداب وعضو الجمعية الاسيوية الملكية ببريطانيا العظمى

والمحاضر بمدرسة التجارة العليا بمانشستر

AL-BUKHARI

A COLLECTION OF MUHAMMAD'S AUTHENTIC TRADITIONS

Translated into English

BY

I. H. EL-MOUGY, M.A., M.R.A.S.

LECTURER, HIGH SCHOOL OF COMMERCE, MANCHESTER.

BOOK II

IN THE NAME OF ALLAH THE ALL-LOVING THE MOST MERCIFUL.

THE BOOK OF FAITH.

CHAPTER 1.

Of Faith, and the words of the Prophet (Allâh bless him and give him peace) : "Islam is built on five pillars ."

الكتاب الثانى

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب الايمان

باب الإيمانِ وقولُ النبي صلى الله عليه وسلم بُنِيَ الإسلامُ على خمسٍ

« وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ »

" And how many signs there be of Allah's being, unity and providence in the Heavens and the Earth which they will pass by and heed not "

(*Baidawy's Commentary.*)

He urged to the education of the heart by all possible means even by travelling :

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ، أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ »

" Have they not journeyed in the land ? And have they not hearts to understand with, or ears to hear with ? Nay, it is not their eyes that are blind but it is the hearts within the breasts that turn blind. "

(*Baidawy's Commentary.*)

The Prophet (on whom be Peace), called to meditation of The Lord's handiwork and creation in such terms that he gave it priority over worship:

" An hour's meditation is better than a year's devotion ", says the Prophet.

The call to perfection throws the door wide open for progress, and a nation who is enjoned by its religion to seek the best in word and deed, will have the instinct of perfection roused in it and will attain in time to the highest degree of development. This comes as a natural consequence to the psychological state of the nation inspired by the inherent factors of religion . In no other nation has this result been so clearly shown as in the Moslem nation since its adoption of Islam . The material and moral progress attained by that nation was due entirely to the strength of its faith and its determination to carry out the injunctions of religion.

Outsiders who have studied the general aspects of Islam, have been induced to accord it great honour on account of its high principles. But they did not go deep enough in their study of Islam to appreciate the latent factors which were infused through all its injunctions and which have given rise to those finer qualities that true believers are required to cultivate. These factors to which we have alluded, depend on natural tendencies which dwell in the instincts of man. If these tendencies were properly nurtured and cultivated, they will lead to the greatest of social and moral reforms. The critic who studies Islam in the light of these facts will readily recognise the inherent value of that Religion and the truly ingenious methods calculated to revive the souls and arouse the dormant instincts of men. The rapid development of Moslem people in the earlier stages of Islam, is chiefly due to the cultivation of those natural tendencies. It is therefore our advice to those who study Islam not to let the modern scientific terminology debar them from a true appreciation of its inner principles. Modern philosophy ascribes all moral and material progress of nations to their sense of appreciation of what is called ' Idealism '. It maintains that the progress of a nation is commensurate with its consciousness of that ' Idealism '. Islam has not been bound by this nomenclature, but it has urged its followers to imbibe deeply of the sources which will arouse in them that consciousness. They were required to consider the handiwork of God and to meditate on the wonders of creation. Their attainment of knowledge and favour of God was made dependent on such meditation.

The Lord saith of true believers :

« الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ »

" Those who, standing, and sitting and reclining remember Allah ; and meditate on the creation of the Heavens and the Earth, saying : O our Lord ! Not in vain hast thou created this; far be it from Thee ! So preserve us from the torment of hell fire . "

(*Baidawy's Commentary.*)

He reprimanded those who pass His signs by and pay no attention thereto :

and follow that which is best thereof. These are they whom Allah guideth unto His Religion, and these are men of understanding. "

(*Baidawy's Commentary.*)

A people who set themselves to acquire wisdom in that fashion, unmindful of taking it even from their antagonists in religion, are certainly worthy to claim as their own the highest virtues and to succeed in attaining perfection where other people had failed.

The Prophet (Peace be on him) says :

" Acquire wisdom no matter what source it issueth from. "

In another tradition he says :

" Acquire wisdom be it though from a polytheist. "

For indeed the seeker of the ' best ' does not disdain to hunt for it in all its possible sources just as the seeker of gold who does not refrain to look for it in earth mixed with dross and other inferior metals and exerts himself to extract it from them and produce it as pure unalloyed gold. He knows full well that gold is gold wherever it may be found, that its value is not depreciated by being mixed with other metals and that it should not be neglected on that account. And so it is with wisdom. It might get tainted in different nations with myths and superstitions but it should not be neglected on that account. It should be purified from such taints and be made use of in its pure and unadulterated form.

Nothing could be more forcible in urging to seek wisdom than the saying of the Prophet (Peace be on him):

" Wisdom is the lost treasure of the true believer, he taketh it wherever he findeth it. "

The Tradition shows how indispensable wisdom is to man, and if wisdom is the quest of every true believer, how could he neglect to look for it in all its possible sources such as books, traditions or even hearsay; and if he find it, he should grasp it without the least hesitation.

Yet wisdom in itself is worthy of being accorded every honour for it is a ray of the Divine Light shed on the souls of some favoured ones to impart it to mankind so as to guide them into the right path and throws open to them the door to salvation.

Islam, the Religion of perfection, has therefore insistently urged to the acquisition of wisdom which The Lord has extolled in the following terms :

« يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا »

" He giveth wisdom unto whom he pleaseth, and he who is given wisdom, hath much good given him. "

and crown their efforts with success, for thus saith The Lord :

« وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ »

" And those who strive in Our Cause, surely will We guide them unto Our Ways for verily Allah favoureth the well-doers and rendereth them support. "

(*Baidawy's Commentary.*)

The preceding verse implies that those who properly discharge the Divine injunctions by upholding the Word of God and following His Path, will be guided to the ways leading to Him or in other words to His favour in this world and the hereafter. There could be no higher purpose for the seeker of material and moral perfection, for this is indeed the true progress which man seeks and strives to achieve with all his power.

One may well imagine that a people who follow this Faith and seek perfection in word and deed are bound to realise the highest aims of material and spiritual life.

A people who are required to adopt the best of everything even in returning a greeting :

« وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا »

" If ye are greeted with a greeting, then answer ye with a better one or at least return it. "

(*Baidawy's Commentary.*)

A people who are required to do that will be satisfied with nothing short of perfection which becomes a nature to them.

Yet more treasures has The Lord opened to those who seek perfection. He required them to open their hearts to knowledge and wisdom and acquire the best thereof for thus saith The Lord :

« فَبَشِّرْ عِبَادِي الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ : أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ »

" Announce glad tidings unto My servants who hearken unto exhortation

The Lord, be He praised, has connected the Divine blessings with the doing of good. He decreed that such blessings should be made dependent on it, for thus saith He :

« وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ »

" And when he (Joseph) had attained full strength and maturity, We bestowed on him judgment and knowledge, for thus do We recompense the well-doers."

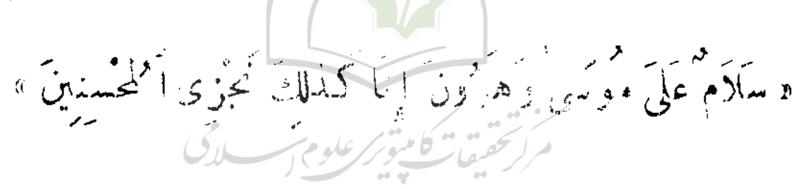
(*Baidawy's Commentary.*)

And :

« سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ »

"Peace be on Abraham ! Thus do We recompense the well-doers."

And :



« سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ »

" Peace be on Moses and Aaron ; Surely thus do We recompense the well-doers. "

And :

« سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْيَاسِينَ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ »

" Peace be on Eliasin (Elias) ; Surely, thus do We recompense the well-doers. "

It is established that all these Apostles of God had been accorded Divine support and given wisdom and knowledge which gave them superiority and leadership over all men.

Such is the reward of The Lord to well-doers, and indeed there could be no higher tribute than this paid to well-doing.

The Lord has promised to bring to fruition the works of well-doers

charity to the poor, but it also includs the proper discharge of all duties and pursuits of man. The Lord, be He exalted, has meant it in the preceding verse to cover all goodly actions and qualities. We therefore find it was repeated one hundred and eighty times throughout the Holy Koran.

Nor was that all; it was coupled with Religion itself to the exclusion of all other goodly qualities since it covers them all. The Lord saith :

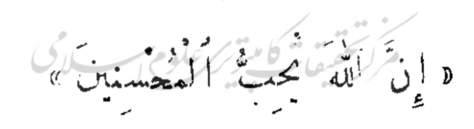
« وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ »

"And who hath a better religion than he who resigneth himself unto Allah and doth good. »

(*Baidawy's Commentary.*)

Resignation unto Allah means faithfulness and surrender unto Him, and the doing of good includes all that is good in word and deed. Once these two attributes are possessed by man, he would ensure perfect life in this world and eternal salvation in the next.

The Lord has repeatedly spoken in many verses of the Holy Koran of his love for those who do good and of the support extended to them for thus saith The Lord :



« Verily Allah loveth those who do good. "

And :

« إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ »

« Verily the mercy of Allah is nigh unto those who do good. "

And :

« وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ »

« And announce glad tidings unto those who do good. "

development, they will grow up to it and it will become a fixed characteristic of theirs which they cannot change. A direct effect of this instinct is that it engenders in the hearts an ambition to develop and perfect all that comes within the scope of their activities. The result of this in the community would be the maintenance of change from good to better until the nation attains to that high degree of civilisation to which humanity is destined by Providence.

Contrary to this would be the condition of communities in which this instinct has weakened under the influence of wrong teachings or false inherited traditions.The sense of moral perfection in such communities gradually diminishes until their very being is affected and they are rendered unfit to maintain their existence as a nation.

The most efficacious means to develop this instinct, is through religion, as religion intensifies its ardour in individuals and urges the community to its fuller realisation. And so it would lead to all classes of the community co-operating to attain the highest possible degree of progress, and a general tendency is thereby engendered to change from one condition to another and render the nation immune from the influence of inactivity which may assail it to its detriment. If it happens that this instinct should weaken or is overcome by factors of decadence and degeneration, the inculcation of this principle among the teachings of religion, would urge people to adopt what is best in everything, and to contend against those factors which have lead to their deterioration. Thus they would be urged by the drive of religion to rise from the lethargy into which they have fallen.

Islam has inculcated to follow all that is best in word and deed. The Lord has forcibly enjoined the proper discharge of duties and has assigned it the same place of honour as justice whose high function in the life of nations could not be denied.

The Lord saith :

« إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ »

« Verily Allah enjoineth justice, the proper discharge of duties and giving to the kindred what they stand in need of; and forbiddeth the following of lustful desires, wickedness and oppression of men ; He warneth you that haply ye may take heed."

(*Baidawy's Commentary*.)

We must here draw the reader's attention to the meaning of the word « Ihsan » in Arabic. The meaning of this word is not confined to